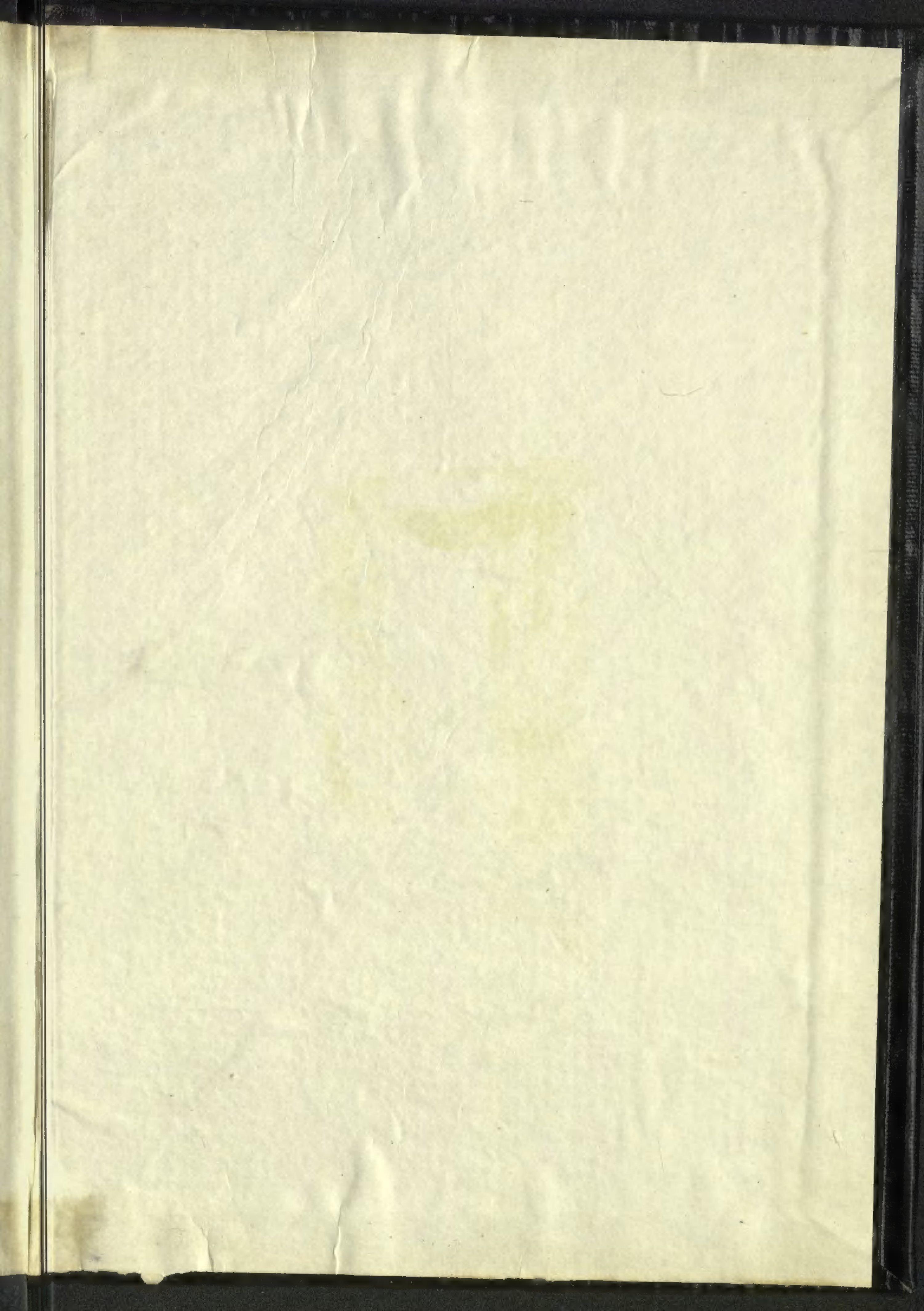
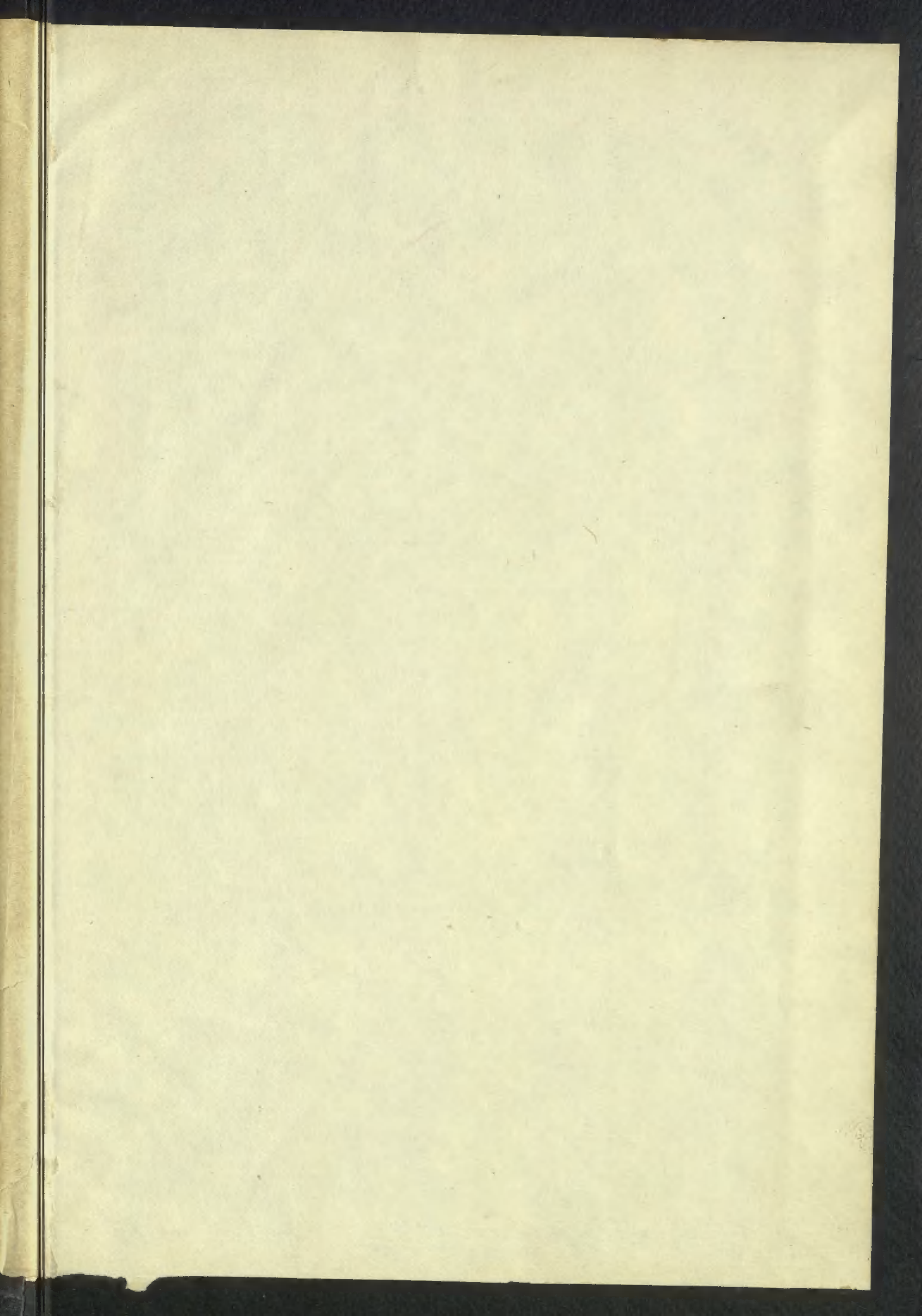
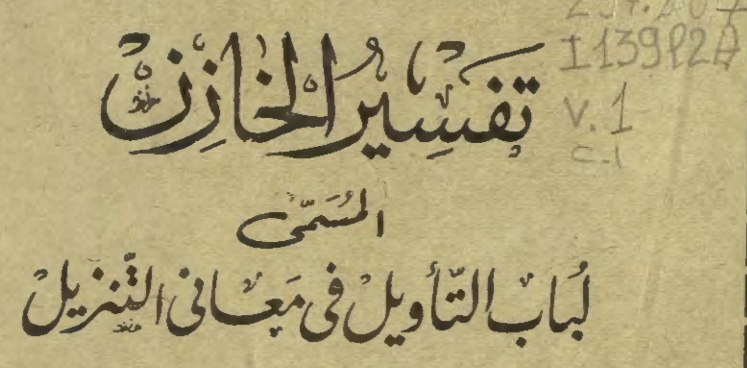








تفسير الخازن

المسمى

لباب التأويل في معاني التنزيل

لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن

المتوفى سنة ٧٢٥ ﻫ

وبهامشه

تفسير البغوى

المعروف بمعالم التنزيل

لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى

المتوفى سنة ٥١٦ ﻫ

الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٣٧٥ ﻫ - ١٩٥٥ م

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الأشياء فقدرها تقديرا، وصور شكل الإنسان فأحسنه تصويرا، ومنحه بالعقل وجعله سميعا بصيرا وشرفه بما عرفه به من العلم ونور قلبه تنويرا وهداه إلى معرفته فيالها نعمة وفضلا كبيرا وأطلق لسانه فأذعن بشكره تحميدا وتهليلا وتكبيرا وأرسل محمدا صلى الله عليه وسلم إلى كافة الخلق بشيرا ونذيرا وأنزل عليه كتابا منيرا وأودعه حكمة وحكما وترغيبا وتحذيرا وألهم حفاظه تلاوته وتحبيرا وعلم عباده علومه تفهيما وتبصيرا وضرب فيه الأمثال ليزيل جهالة وتحييرا وجعله برهانا واضحا وصوابا لائحا ووفر فضله توفيرا فى الصدور محفوظا وبالألسنة متلوا وفى الصحف مسطورا يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا وجعل كل بليغ عن الإتيان بسورة مثله حسيرا قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (أحمده) على تواتر إنعامه حمدا كثيرا وأتوكل عليه مفوضا أمرى إليه ومستجيرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يغدو قلب قائلها مطمئنا مستنيرا، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى كساه من فضله عزا ومهابة وتوقيرا صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه كما أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (وبعد) فان الله جل ذكره ونفذ أمره أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله رحمة للعالمين وبشيرا للمؤمنين ونذيرا للمخالفين أكمل به بنيان النبوة وختم به ديوان الرسالة وأتم به مكارم الأخلاق ونشر فضله فى الآفاق وأنزل عليه نورا هدى به من الضلالة وأنقذ به من الجهالة وحكم بالفوز والفلاح لمن اتبعه وبالخسران لمن أعرض عنه بعدما سمعه عجز الخلائق عن معارضته حين تحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله فى مقابلته ثم سهل على عباده المؤمنين مع إعجازه تلاوته ويسر على الألسن قراءته أمر فيه وزجر وبشر وأنذر وذكر المواعظ ليتذكر وضرب فيه الأمثال ليتدبر وقص فيه من أخبار الماضين ليعتبر ودل فيه على آيات التوحيد ليتفكر ثم لم يرض منا بسرد حروفه دون حفظ حدوده ولا بإقامة كلماته دون العمل بمحكماته

(بسم الله الرحمن الرحيم) قال الشيخ الامام الأجل السيد محيى السنة ناصر الحديث مفتى الشرق والغرب أبو محمد الحسين ابن مسعود الفراء البغوى رضى الله عنه وعن والديه: الحمد لله ذى العظمة والكبرياء والعزة والبقاء والرفعة والعلاء والمجد والثناء، تعالى عن الأنداد والشركاء، وتقدس عن الأمثال والنظراء. والصلاة والسلام على نبيه وحبيبه وصفيه محمد خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء عدد ذرات الثرى ونجوم السماء الحمد لله الملك السلام المؤمن المهيمن العلام شارع الأحكام ذى الجلال والإكرام الذى أكرمنا بدين الاسلام ومن علينا بنبينا محمد عليه التحية والسلام وأنعم علينا بكتابه المفرق بين الحلال والحرام والصلاة والسلام على حبيبه وخيرته من خلقه محمد سيد الأنام عدد ساعات الليالى والأيام وعلى آله وأصحابه عدد نجوم الظلام وعلى جميع الأنبياء والملائكة البررة الكرام (أما بعد) فان الله جل ذكره أرسل رسوله بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين وبشيرا للمؤمنين ونذيرا للمخالفين أكمل به بنيان النبوة وختم به ديوان الرسالة وأتم به مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال وأنزل عليه بفضله نورا هدى به من الضلالة وأنقذ به من الجهالة

حكم بالفلاح لمن تبعه وبالخسران لمن أعرض عنه بعد ما سمعه وأعجز الخليقة عن معارضته وعن الإتيان بسورة من مثله فى مقابلته ثم سهل على الخلق مع إعجازه تلاوته ويسر على الألسن قراءته أمر فيه وزجر وبشر وأنذر وذكر المواعظ ليتذكر وقص عن أحوال الماضين ليعتبر وضرب فيه الأمثال ليتدبر ودل على آيات التوحيد ليتفكر ولا حصول لهذه المقاصد منه إلا بدراية تفسيره وأعلامه ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه والوقوف على ناسخه ومنسوخه ومعرفة خاصه وعامه ثم هو كلام معجز وبحر عميق لا نهاية لأسرار علومه ولا إدراك لحقائق معانيه وقد ألف أئمة السلف فى أنواع علومه كتبا كل على قدر فهمه ومبلغ علمه نظراً للخلق فشكر الله تعالى سعيهم ورحم كافتهم فسألنى جماعة من أصحابى المخلصين وعلى اقتباس العلم مقبلين كتابا فى معالم التنزيل وتفسيره فأجبتهم إليه معتمدا على فضل الله تعالى وتيسيره ممتثلا وصية رسول الله ﷺ فيهم فيما يرويه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين فاذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا» واقتداء بالماضين من السلف فى تدوين العلم إبقاء على الخلق وليس على ما فعلوه مزيد ولكن لابد فى كل زمان من تجديد ما طال به العهد وقصر المطالبين فيه الجد والجهد تنبيها للمتوقفين وتحريضا للمتثبطين فجمعت بعون الله تعالى وحسن توفيقه فيما سألوا كتابا متوسطا بين الطويل الممل والقصير المخل أرجو أن يكون مفيدا لمن أقبل على تحصيله مزيدا وما نقلت فيه من التفسير عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما حبر هذه الأمة ومن بعده من التابعين وأئمة السلف مثل مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبى رباح والحسن البصرى رضى الله عنهما وقتادة وأبى العالية ومحمد بن كعب القرظى وزيد بن أسلم والكلبى والضحاك ومقاتل بن حبان ومقاتل بن سليمان والسدى وغيرهم فأكثرها مما أخبرنى الشيخ أبو سعيد أحمد بن محمد الشريحى الخوارزمى فيما قرأته عليه عن الأستاذ أبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى عن شيوخه.

أما تفسير عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ترجمان القرآن الذى قال فيه النبى ﷺ اللهم علمه الكتاب وقال اللهم فقهه فى الدين وقال

بمحكماته ولا بتلاوته دون تدبر آياته فى قراءته ولا بدراسته دون تعلم حقائقه وتفهم دقائقه ولا حصول لهذه المقاصد منه إلا بدراية تفسيره وأحكامه ومعرفة حلاله وحرامه وأسباب نزوله وأقسامه والوقوف على ناسخه ومنسوخه فى خاصه وعامه فانه أرسخ العلوم أصلا وأسبغها فرعا وفصلا وأكرمها نتاجا وأنورها سراجا فلا شرف إلا وهو السبيل إليه ولا خير إلا وهو الدال عليه وقد قيض الله تعالى له رجالا موفقين وبالحق ناطقين حتى صنفوا فى سائر علومه المصنفات وجمعوا سائر فنونه المتفرقات كل على قدر فهمه ومبلغ علمه نظرا للخلف واقتداء بالسلف فشكر الله سعيهم ورحم كافتهم ولما كان كتاب معالم التنزيل الذى صنفه الشيخ الجليل والحبر النبيل الإمام العالم الكامل محيي السنة قدوة الأمة وإمام الأئمة مفتى الفرق ناصر الحديث ظهير الدين أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى قدس الله روحه ونور ضريحه من أجل المصنفات فى علم التفسير وأعلاها وأنبلها وأسناها جامعا للصحيح من الأقاويل عاريا عن الشبه والتصحيف والتبديل محلى بالأحاديث النبوية مطرزا بالأحكام الشرعية موشى بالقصص الغريبة وأخبار الماضين العجيبة مرصعا بأحسن الإشارات مخرجا بأوضح العبارات مفرغا فى قالب الجمال بأفصح مقال فرحم الله تعالى مصنفه وأجزل ثوابه وجعل الجنة متقلبه ومآبه ولما كان هذا الكتاب كما وصفت أحببت أن أنتخب من غرر فوائده ودرر فرائده وزواهر نصوصه وجواهر فصوصه مختصراً جامعاً لمعانى التفسير ولباب التأويل والتعبير حاوياً لخلاصة منقوله متضمناً لنكته وأصوله مع فوائد نقلتها وفرائد لخصتها من كتب التفاسير المصنفة فى سائر علومه المؤلفة ولم أجعل لنفسى تصرفا سوى النقل والانتخاب مجتنبا حد التطويل والإسهاب وحذفت منه الإسناد لأنه أقرب إلى تحصيل المراد فما أوردت فيه من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية على تفسير آية أو بيان حكم فان الكتاب يطلب بيانه من السنة وعليهما مدار الشرع وأحكام الدين عزوته إلى مخرجه وبينت اسم ناقله وجعلت عوض كل اسم حرفا يعرف به ليهون على الطالب طلبه فما كان من صحيح أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فعلامته قبل ذكر اسم الصحابى الراوى للحديث (خ) وما كان من صحيح أبى الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى فعلامته (م) وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق) وما كان من كتب السنن أبى داود والترمذى والنسائى فانى أذكر اسمه بغير علامة وما لم أجده فى هذه الكتب ووجدت البغوى قد أخرجه بسنده له انفرد به قلت روى البغوى بسنده وما رواه البغوى باسناد الثعلبى قلت روى البغوى باسناد الثعلبى وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة فاعتمده فانى اجتهدت فى تصحيح ما أخرجته من الكتب المعتبرة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدى وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزرى ثم إنى عوضت عن حذف الإسناد شرح غريب الحديث وما يتعلق

أبو إسحاق أخبرنا أبو محمد بن عبدالله بن حامد أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدوس الطوائفى ثنا عثمان بن سعيد الدارمى ثنا عبدالله بن صالح
أن معاوية بن صالح حدثه عن على بن أبى طلحة الوالبى عن عبدالله بن عباس وقال أنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب ثنا عبدالله بن محمد
الثقفى أنا أبو جعفر محمد بن نصرويه المازنى أنا محمد بن سعيد بن محمد بن الحسن بن عطية سعد العوفى قال حدثنى عمى الحسين بن الحسن بن
عطية حدثنى أبى عن جدى عطية عن ابن عباس وقال الثعلبى ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن النيسابورى أنا أحمد بن محمد بن
إبراهيم الثعلبى الصريمى المروزى أنا أبو العباس أحمد بن الخضر الصيرفى أنا أبو داود سليمان بن معبد السنجى أنا على
ابن الحسين بن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس وأما تفسير مجاهد بن جبر المكى قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بطة ثنا عبدالله ابن محمد بن زكريا ثنا سعيد ابن يحيى بن سعيد الأموى ثنا مسلم بن خالد الزنجى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد وأما تفسير عطاء بن أبى رباح قال ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حسن النيسابورى ثنا أبو القاسم عبد الرحمن أحمد بن ياسين بن الجراح الطبرى أنا أبو محمد بن بكر بن مستهل الدمياطى ثنا عبد الغنى بن سعيد الثقفى عن أبى محمد موسى بن عبد الرحمن الصغانى عن أبى جريج عن عطاء بن أبى رباح وأما تفسير الحسن البصرى قال حدثنى أبو القاسم الحسن البصرى قال حدثنى أبو القاسم الحسين بن محمد بن عبدالله بن الملكيب حدثنى
أبى أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الصلة المعروف بابن شبوذ المقدئى ثنا سعيد بن محمد ثنا المنهل بن واصل
عن أبى صالح عن عمرو بن عبيد عن الحسن بن أبى الحسن البصرى . وأما تفسير قتادة قال أنا أبو محمد عبدالله بن حامد
محمد بن الأصبهانى أنا أبو على حامد بن محمد بن الهروى ثنا أبو يعقوب إسحاق بن الحسن بن ميمون الحربى ثنا أبو محمد
الحسين بن محمد المروزى ثنا شبان بن عبد الرحمن النحوى عن قتادة وقال ثنا أبو القاسم الحبيبى أنا أبو زكريا العنبرى
ثنا جعفر بن محمد بن سوار أنا محمد بن رافع عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة بن دعامة السدوسى . وأما تفسير أبى العالية واسمه رفيع

به ليكون أكمل فائدة فى هذا الكتاب وأسهل على الطلاب وسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز
وحسن الترتيب مع التسهيل والتقريب . وينبغى لكل مؤلف كتابا فى فن قد سبق إليه أن لا يخلو كتابه
من خمس فوائد استنباط شىء كان معضلا أو جمعه إن كان متفرقا أو شرحه إن كان غامضا أو حسن
نظم وتأليف أو إسقاط حشو وتطويل وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التى ذكرت
وسميته [لباب التأويل فى معانى التنزيل] والله تعالى أسأل التوفيق لإتمام ما قصدت وإليه أرغب فى
تيسير ما أردت وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يتقبله منى إنه هو السميع العليم وهو حسبى ونعم
الوكيل عليه توكلت وإليه أنيب وقبل أن أشرع فى الكلام على التفسير أقدم مقدمة تتضمن ثلاثة فصول
(الفصل الأول : فى فضل القرآن وتلاوته وتعليمه) (م) عن زيد بن أرقم قال قام رسول الله صلى الله عليه
وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال أما بعد ألا
أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب وإنى تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه
الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتى أذكركم
الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى زاد فى رواية كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به
كان على الهدى ومن أخطأه ضل وفى رواية كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه
كان على ضلالة وفى رواية الترمذى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم
به لن تضلوا بعدى أحدهما أعظم من الآخر وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتى
أهل بيتى لن يفترقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفونى فيهما (م) عن عمر بن الخطاب قال أما
إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قال إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين وعن الحارث
الأعور قال مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث فدخلت على على فقلت يا أمير المؤمنين
ألا ترى الناس قد خاضوا فى الأحاديث قال أو قد فعلوها قلت نعم قال أما إنى سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول ألا إنها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم
وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى
فى غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به
الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه هو الذى
لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به من قال به صدق ومن عمل به
أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور أخرجه الترمذى
وقال حديث غريب وإسناده مجهول وفى الحارث مقال (قوله هو الفصل) أى الفاصل بين الحق
والباطل

ابن مهران قال ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن المفسر أنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن منصور العمركى بن حسن ثنا أبو الحسن أحمد
ابن إسحاق بن إبراهيم بن مزيد السرخسى أنا أبو على الحسن محمد بن موسى الأزدى عن عمار بن الحسن بن بشير الهمدانى عن عبد الله
ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع بن أنس عن أبى عالية الرياحى . وأما تفسير القرظى قال ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب عن أبى
ثنا أبو العباس محمد بن الحسن الهروى ثنا رجاء بن عبدالله أنا مالك بن سليمان الهروى عن أبى معشر عن محمد بن كعب القرظى .
وأما تفسير زيد بن أسلم قال أنا الحسن بن محمد بن الحسن قال كتب إلى أحمد بن كامل بن خلف بن محمد

ابن جرير الطبرى حدثهم قال ثنا يونس بن عبدالأعلى الصبرفى أنا عبدالله بن وهب أخبرنى عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه وأما تفسير الكلبى فقد قرأت بمرو على الشيخ أبى عبد الله محمد بن الحسن المروزى فى شهر رمضان سنة أربع وستين وأربعمائة قال أنا أبو مسعود محمد ابن أحمد بن محمد بن يونس الخطيب الكشميهنى فى محرم سنة خمسين وأربعمائة قال أنا أبو إسحاق بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن معروف الهرمروزى ثنا محمد بن على الأنصارى المفسر ثنا على بن إسحاق وصالح بن محمد السمرقندى قالا ثنا محمد بن مروان عن محمد بن السائب الكلبى عن أبى نضر عن أبى صالح أنا ذاذان مولى أم هانئ بنت أبى طالب عن ابن عباس

وأما تفسير الضحاك بن مزاحم الهلالى قال أنا أستاذ إسحاق الثعلبى ثنا أبو القاسم الحسن بن محمد السدوسى ثنا أبو عمرو أحمد بن محمد
العمركى بن حسن ثنا جعفر بن محمد سوار ثنا أحمد بن محمد بن جميل المروزى ثنا أبو معاذ عن عبيد بن سليمان الباهلى عن الضحاك
وأما تفسير مقاتل بن حيان قال أنا عبدالله بن حامد الوزانى ثنا أحمد بن محمد بن عبدوس ثنا إسماعيل بن قتيبة ثنا أبو خالد يزيد
ابن صالح الفراء النيسابورى حدثنا بكير بن معروف البلخى الأزدى ثنا أبو معاذ عن مقاتل بن حيان . وأما تفسير مقاتل ابن سليمان قال
أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد المهرجانى أنا أبو محمد عبدالخالق بن الحسن بن محمد السقطى المعروف بابن أبى رؤية ثنا

والباطل ليس بالهزل أي هو جد كله ليس فيه شئ من الهزل والجبار فى صفة الآدمى هو المتسلط العاتى
المتكبر على الناس قصمه الله أى أهلكه (قوله وهو حبل الله المتين) الحبل يرد على وجوه منها العهد ومنها
الأمان فاذا اعتصم به الإنسان آواه الله تعالى إلى جواره والذكر الشرف والحكيم المحكم العارى
من الاختلاف والاضطراب والصراط المستقيم الطريق الواضح ؛ ومعنى لاتزيغ به الأهواء
أى لايميل عن الحق عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن
الرجل الذى ليس فى جوفه شئ من القرآن كالبيت الخرب أخرجه الترمذى وقال حديث حسن
صحيح (خ) عن عثمان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال خيركم من تعلم القرآن وعلمه (ق) عن
عائشة قالت قال رسول الله ﷺ الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويتتعتع
فيه وهو عليه شاق له أجران (قوله الماهر بالقرآن) يعنى الحاذق الكامل الحفظ الجيد التلاوة وقوله مع
السفرة جمع سافر وهو الرسول من الملائكة سمى بذلك لأنه يسفر برسالات الله إلى أنبيائه وقيل السفرة
الكتبة من الملائكة والبررة المطيعون لله تعالى فيما يأمر به ومعنى كونه من الملائكة أن له منازل فى الجنة
يكون فيها رفيقا لهم وقوله يتتعتع أى يتردد فى تلاوته لضعف حفظه له أجران يعنى يحصل له أجر بسبب
القراءة وأجر بسبب تعبه فيها والمشقة التى تحصل له فيها وليس معناه أن له أجرا أكثر من الماهر بل الماهر
أفضل منه وأكثر أجرا (ق) عن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل
الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها
ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها ومثل الفاجر الذى لايقرأ القرآن
كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها فيه دليل على فضيلة حفاظ القرآن واستحباب ضرب الأمثال لإيضاح
المقاصد عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها
لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف أخرجه الترمذى وقال حديث حسن
صحيح غريب وقد رفعه بعضهم عن ابن مسعود ووقفه بعضهم عليه عن ابن عباس قال قال رجل يارسول
الله أى الأعمال أحب إلى الله تعالى قال الحال المرتحل قال وما الحال المرتحل قال الذى يضرب من أول
القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل أخرجه الترمذى عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ
يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فان منزلك عند الله آخر آية تقرؤها
أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال يجئ القرآن يوم القيامة
فيقول يارب حله فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده فيلبس حلة الكرامة ثم يقول يارب ارض عنه
فيرضى عنه فيقال اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة أخرجه الترمذى وقال حديث حسن عن سهل بن

عبد الله بن ثابت، بن يعقوب المقرى هكذا المقرى أبو محمد قال ثنا أبو محمد حدثنى أبى الهذيل بن حبيب أبو صالح الزيدانى عن مقاتل بن سليمان . وأما تفسير السدى قال ثنا أبو القاسم حسن بن محمد بن الحسن أنا أبو الطيب محمد بن عبد الله ابن مبارك الشعيرى ثنا أحمد بن محمد بن نصر اللباد ثنا عمرو بن طلحة القناد عن أسباط عن السدى وأما مانقلته عن المبتدأ لوهب ابن منبه وعن المغازى لمحمد بن إسحاق فأخبرنيه أبو سعيد الشريحى قال أنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى قال أنبأنى أبونعيم عبد الملك بن الحسن بن محمد بن إسحاق الأزهرى أنا أبو محمد الحسن بن محمد بن إسحاق ابن راهويه بن أخت أبى عوانة أنا أبو الحسن محمد ابن أحمد بن البراء العبدى قال قرأت على أبى عبد الله عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه وأنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ أنا أبو العباس محمد ابن يعقوب بن يوسف المعقلى ثنا أحمد بن عبد الجبار العطاردى أنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق بن يسار المدنى وأنا أبو سعيد الشريحى قال أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو محمد عبد الله بن محمد ابن أحمد بن عقيل الأنصارى أنا أبو الحسن على بن الفضل الخزاعى أنا أبو شعيب بن عبد الله بن الحسن الحرانى أنا النفيلى أنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق فهذه أسانيد أكثر ما نقلته وهو عن هؤلاء الأئمة وهى مسموعة من طرق سواها تركت ذكرها حذراً من الإطالة وربما حكيت عنهم أو عن غيرهم من الصحابة أو التابعين قولا سمعته بغير هذه الأسانيد بعضها فى موضعه من الكتاب إن شاء الله تعالى عزوجل ثم إن الناس كما أنهم متعبدون باتباع أحكام القرآن وحفظ حدوده فهم متعبدون بتلاوته وحفظ حروفه على سنن خط المصحف أعنى الإمام الذى اتفقت عليه الصحابة وأن لايجاوزوا فيما يوافق الخط ماقرأ به القراء المعروفون الذين خلفوا الصحابة والتابعين

معاذ الجهنى عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه يوم القيامة تاجا ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنكم بالذى عمل بهذا أخرجه أبو داود عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وليس له إسناد صحيح (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ ما أذن الله لشىء كاذنه لنبى يتغنى بالقرآن يجهر به معنى أذن فى اللغة استمع ولا نحمله على الإصغاء فانه يستحيل على الله تعالى بل هو كناية عن تقريبه قارئ القرآن وإجزال ثوابه فى ذلك وذلك لأن سماع الله لايختلف فوجب تأويل الحديث وقوله يتغنى بالقرآن أي يحسن صوته به ويكون ذلك مع تحزين وترقيق فى القراءة، وقيل معناه يستغنى به عن الناس والقول الأول أولى ويدل عليه سياق الحديث وهو قوله يجهر به (خ) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ليس منا من لم يتغن بالقرآن (الفصل الثانى فى وعيد من قال فى القرآن برأيه من غير علم ووعيد من أوتى القرآن فنسيه ولم يتعهده) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار وفى رواية من قال فى القرآن برأيه أخرجه الترمذى وقال حديث حسن (قوله فليتبوأ) معناه فليتخذ له مباءة أى منزلا من النار . عن جندب بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ من قال فى كتاب الله عزوجل برأيه فأصاب فقد أخطأ أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث غريب وسئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه عن قوله تعالى وفاكهة وأبا فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله بغير علم قال العلماء النهى عن القول فى القرآن بالرأى إنما ورد فى حق من يتأول القرآن على مراد نفسه وما هو تابع لهواه وهذا لايخلو إما أن يكون عن علم أولا فان كان عن علم كمن يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن المراد من الآية غير ذلك لكن غرضه أن يلبس على خصمه بما يقوى حجته على بدعته كما يستعمله الباطنية والخوارج وغيرهم من أهل البدع فى المقاصد الفاسدة ليغروا بذلك الناس وإن كان القول فى القرآن بغير علم لكن عن جهل وذلك بأن تكون الآية محتملة لوجوه فيفسرها بغير ماتحتمله من المعانى والوجوه فهذان القسمان مذمومان وكلاهما داخل فى النهى والوعيد الوارد فى ذلك فأما التأويل وهو صرف الآية على طريق الاستنباط إلى معنى يليق بها محتمل لما قبلها ومابعدها وغير مخالف للكتاب والسنة فقد رخص فيه أهل العلم فان الصحابة رضى الله عنهم قد فسروا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه وليس كل ماقالوه سمعوه من النبى ﷺ ولكن على قدر مافهموا من القرآن تكلموا فى معانيه وقد دعا النبى ﷺ لابن عباس فقال اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل فكان أكثر مانقل عنه التفسير (ق) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ تعاهدوا هذا القرآن فو الذى نفس محمد بيده

واتفقت الأئمة على اختيارهم وقد ذكرت في الكتاب قراءة من اشتهر منهم بالقراآت واختياراتهم على ماقرأته على الإمام أبي نصر محمد بن أحمد بن علي المقرى المروزي رحمة الله عليه تلاوة ورواية قال قرأت على أبي القاسم طاهر بن علي الصرفي قال قرأت على أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران باسناده المذكور في كتابه المعروف بكتاب العناية وهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع وأبو عبد الرحمن نافع بن عبد الرحمن المدنيان وأبو معبد عبدالله بن كثير الداري المكي وأبو عمران عبدالله ابن عامر الشامي وأبو عمرو زبان بن العلاء المازني العطار وأبو محمد بن يعقوب بن إسحاق الحضرمي البصريان وأبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي وأبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي الكوفيون فأما أبو جعفر فانه أخذ القراءة عن عبد الله ابن عباس وأبي هريرة وغيرهما وهم قرءوا على أبي بن كعب، وأما نافع فانه قرأ على أبي جعفر القاري وعبدالرحمن بن هرمز الأعرج قرأ على أبي هريرة وقرأ أبو هريرة على أبي بن كعب وأما عبدالله بن كثير فانه قرأ على مجاهد بن جبير وقرأ مجاهد على ابن عباس وقرأ ابن عباس على أبي بن كعب وقرأ أبي بن كعب على رسول الله ﷺ، وأما عبد الله بن عامر فانه قرأ على المغيرة بن أبي شعاب المخزومي وقرأ المغيرة على عثمان بن عفان وأما عاصم فانه قرأ على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ أبو عبد الرحمن على علي بن أبي طالب قال عاصم فكنت أرجع من عند أبي عبد الرحمن فأقرأ على ذر بن حبيش وكان ذر قد قرأ على عبد الله بن مسعود، وأما حمزة فانه قرأ على عبدالرحمن بن أبي ليلى وسليمان ابن مهران الأعمش وعمدان بن الأعين وغيرهم وقرأ عبد الرحمن بن أبي ليلى على جماعة من أصحاب علي وقرأ سليمان ابن الأعمش على يحيى بن وثاب وقرأ يحيى على جماعة من أصحاب عبدالله وقرأ عمدان على أبي الأسود الدئلي وقرأ أبو الأسود الدئلي على عثمان وعلي وأما الكسائي فانه قرأ على حمزة وأما يعقوب فانه قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الخراساني وقرأ

لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها (ق) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن تعاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت الإبل المعقلة التي حبست بالعقال وهذا مثل ضربه لصاحب القرآن ففيه الحث على تعاهده بكثرة التلاوة والتكرار لئلا ينسى (ق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ بئسما لأحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت بل هو نسي استذكروا القرآن فانه أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم من عقلها وفي رواية لا يقل أحدكم نسيت آية كذا وكذا بل هو نسي (قوله بئسما لأحدكم) أي بئست الحالة حالة من حفظ القرآن ثم غفل عنه حتى نسيه (قوله لا يقل أحدكم نسيت آية كذا وكذا) معناه إنما كره نسبة النسيان إلى النفس لأجل أن الله تعالى هو المقدر للأشياء كلها وهو الذي أنساه إياه. وقيل أصل النسيان الترك فكره أن يقول تركت القرآن أو قصدت إلى نسيانه وقوله بل نسي هو بضم النون وتشديد السين وفتح الياء أي عوقب بالنسيان على ذنب صدر منه أو لسوء تعهده القرآن وقوله أشد تفصيا أي خروجا من صدور الرجال وفي معناه تفلتا من الإبل في عقلها أي تخلصا من العقال وهو الحبل الذي تربط به عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم أخرجه أبو داود الأجذم قيل هو مقطوع اليد، وقيل هو مقطوع الحجة وقيل هو الذي به جذام. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال عرضت على أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد وعرضت على ذنوب أمتي فلم أر فيها ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث غريب (ق) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله بسوء أراد بالقرآن المصحف فلا يجوز حمله إلى أرض العدو وهي بلاد الكفار للنهي الوارد فيه ولو كتب كتابا إليهم فيه آية من القرآن فلا بأس بذلك لأن النبي ﷺ كتب إلى هرقل ملك الروم قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم عن عمران بن حصين أنه مر على رجل يقرأ ثم سأل فاسترجع ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من قرأ القرآن فليسأل الله به فانه سيجيء أقوام يقرءون القرآن يسألون به الناس أخرجه الترمذي عن صهيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما آمن بالقرآن من استحل محارمه أخرجه الترمذي وقال ليس إسناده بالقوي. عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب (الفصل الثالث في جمع القرآن وترتيب نزوله وفي كونه نزل على سبعة أحرف) (خ) عن زيد بن ثابت قال بعث إلى أبو بكر لمقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر إن عمر جاءني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في كل المواطن فيذهب

سلام على عاصم فذكرت قراءة هؤلاء للاتفاق على جواز القراءة بها وما ذكرت من أحاديث رسول الله ﷺ فى أثنائه الكتاب على وفاق آية أو بيان حكم فان الكتاب يطلب بيانه من السنة وعليهما مدار الشرع وأمور الدين فهى من الكتب المسموعة للحفاظ وأئمة الحديث وأعرضت عن ذكر المناكير وما لايليق بحال التفسير فأرجو أن يكون مباركا على من أراده وبالله التوفيق (فصل) فى فضائل القرآن وتعليمه أنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبى شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى ثنا على بن الجعد أنا شعبة عن علقمة بن مرثد قال سمعت

سعد بن عبيدة يحدث عن أبى عبد الرحمن السلمى عن عثمان قال شعبة قلت عن النبى ﷺ قال نعم قال «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» صحيح أخرجه البخارى عن الحجاج ابن منهال عن شعبة أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابى أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد حموية السرخسى أنا أبو إسحاق إبراهيم بن خزيم الشاشى أنا أبو محمد عبد بن حميد الشاشى ثنا حسين بن على الجعفى قال سمعت حمزة الزيات عن أبى المختار الطائى عن ابن أخى الحارث الأعور عن الحارث الأعور قال مررت فى المسجد فاذا الناس يخوضون فى الأحاديث فدخلت على على رضى الله عنه فقلت يا أمير المؤمنين ألا ترى أن الناس قد خاضوا فى الأحاديث قال أو قد فعلوها؟ قلت نعم قال أما إنى قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ألا إنها ستكون فتنة فقلت فما المخرج منها يارسول الله قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذى لاتزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه هو الذى لم تنته الجن أى لم يتوقفوا

من القرآن كثير وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن قال قلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ فقال: عمر هو والله خير فلم يزل يراجعنى فى ذلك حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر عمر ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر قال زيد فقال لى أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك قد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه قال زيد فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن فقلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وفى رواية فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ورأيت فى ذلك الذى رأيا قال فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة أو مع أبى خزيمة الأنصارى فلم أجدها مع أحد غيره لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر براءة فألحقتها فى سورتها قال فكانت الصحف عند أبى بكر حياته حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر قال بعض الرواة اللخاف يعنى الخزف (خ) عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها إليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام رضى الله عنهم فنسخوها فى المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق قال ابن شهاب وأخبرنى خارجة بن زيد أنه سمع زيد بن ثابت يقول فقدت آية من سورة الأحزاب حين نسخت الصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فألحقناها في سورتها في المصحف قال في رواية ابن اليمان مع خزيمة بن ثابت الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته شهادة رجلين زاد فى رواية قال ابن شهاب اختلفوا يومئذ فى التابوت فقال زيد التابوه وقال عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص التابوت فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال اكتبوه التابوت فانه بلسان قريش. (شرح غريب ألفاظ الحديثين وما يتعلق بهما) (قوله بعث إلى أبو بكر لمقتل أهل اليمامة) أى لأوان قتلهم وأراد به الوقعة

التى

فى قبوله وأنه كلام الله تعالى إذ سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به من قال به صدق ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك ياأعور. قال أبو عيسى هذا الحديث لانعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول والحرث في مقال . أنا عبدالواحد بن أحمد المليحى أنا أبو منصور محمد بن محمد بن السمعانى أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزياتى ثنا حميد بن زنجويه ثنا إسحاق بن عيسى قال سمعت ابن لهيعة يقول ثنا مسرح بن هاعان قال سمعت عقبة بن عامر يقول : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « لو كان القرآن في إهاب مامسته النار » قيل معناه من حمل القرآن وقرأه لم تمسه النار يوم القيامة . أنا عبد الواحد المليحى أنا أبومنصور السمعانى أنا أبو جعفر الزياتى ثنا حميد بن زنجويه ثنا جعفر بن عوف أنا إبراهيم ابن مسلم عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع وعصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاتلوه فان الله عز وجل يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول الم ولكن الألف واللام والميم » رواه بعضهم عن ابن مسعود مرفوعا. أنا أبو جعفر أحمد بن أبى أحمد بن مقوية أنا الشريف أبو القاسم على بن محمد ابن علي الحسنى الحرانى فيما كتب إلى أنا أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجدى ثنا أبو الفضل جعفر بن محمد ابن الصندلى ثنا الحسن بن محمد الزعفرانى ثنا علي بن عاصم عن إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم بمعناه . أنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضى ثنا أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد بن باموبه الأصفهانى أنا أبو محمد عبد الرحمن بن يحيي القاضى الزهرى بمكة أنا محمد بن إسماعيل بن سالم الصائغ أنا سليمان بن

(٩)

التى كانت باليمامة فى زمن أبى بكر الصديق ، وهي وقعة الردة مع أصحاب الردة فقتل فيها خلق كثير من قراء القرآن . واليمامة مدينة باليمن على يومين من الطائف وعلى أربعة أيام من مكة، ولها عمائر وهي فى عداد أرض نجد (قوله استحر القتل) أى كثر وينسب المكروه إلى الحر والمحبوب إلى البرد . وشرح الصدر سعة، وقبوله الخير (قوله فتتبعت القرآن جمعه من الرقاع) جمع رقعة وهى مايكتب فيها والعسب بضم العين والسين المهملتين جمع عسيب وهو جريد النخل وسعفه، واللخاف حجارة بيض رقاق واحدته لخفة (قوله يغازى أهل الشام) أى مع أهل الشام في فتح إرمينية بكسر الهمزة وتخفيف الياء لاغير ، سميت بارمين بن لمطي بن لومن ابن يافث بن نوح وهو أول مانزل بها سميت باسمه وأذربيجان بفتح الهمزة وسكون الذال وغير ذلك في ضبطها. وقال ابن جنى فيها خمسة موانع من الصرف التعريف والتأنيث والعجمة والتركيب والألف والنون ، وهو موضع من بلاد العجم يشتمل على بلاد كثيرة (قوله حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة) أومع أبى خزيمة الأنصارى وفي الحديث الآخر فقدت آية من سورة الأحزاب إلى قوله، فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى « من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه » الآية فاعلم أن المذكور في الحديث الأول غير المذكور في الحديث الثانى وهما قضيتان فأما المذكور في الحديث الأول فهو أبو خزيمة بن أوس بن زيد بن أصرم ابن ثعلبة بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصارى شهد بدرا وما بعدها وتوفى فى خلافة عثمان وهو الذى وجدت عنده آخر سورة التوبة كذا ذكره ابن عبد البر وأما المذكور فى الحديث الثانى فهو أبو عمارة خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة الخطمى الأوسى الأنصارى يعرف بذى الشهادتين شهد بدرا، وما بعدها وقتل يوم صفين مع على بن أبى طالب (قوله فقدت آية من سورة الأحزاب إلى قوله فوجدناها مع خزيمة) معناه أنه كان يطلب نسخ القرآن من الأصل الذى كتب بأمر النبى ﷺ وبين يديه، فلم يجد تلك الآية إلا مع خزيمة وليس فيه إثبات القرآن بقول الواحد لأن زيدا كان قد سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلم موضعها من سورة الأحزاب بتعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صرح به الحديث قد كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها وتتبعه الرجال كان للاستظهار لا لاستحداث علم لأن القرآن العظيم كان محفوظا عند زيد وغيره من الصحابة فقد ثبت فى الصحيح عن أنس قال جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وأبو زيد وزيد يعنى ابن ثابت قلت لأنس من أبو زيد؟ قال أحد عمومتى » أخرجاه فى الصحيحين اسم أبى زيد سعد بن عبيد وأخرج الترمذى من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا القرآن من أربعة من ابن مسعود وأبى بن

داود الهاشمی ثنا إبراهیم بن سعد عن ابن شهاب الزهری عن عامر بن واثلة بن الطفیل أن نافع بن عبد الحارث لقی عمر ابن الخطاب رضی الله عنه بعسفان وكان عمر استعمله علی مكة فقال له عمر: من استخلفت علی أهل الوادی؟ قال استخلفت علیهم ابن أبزی. قال ومن ابن أبزی؟ قال مولی من موالینا قال عمر فاستخلفت علیهم مولی. فقال یا أمیر المؤمنین إنه رجل قارئ القرآن عالم بالفرائض قاض بالكتاب فقال عمر أما إن نبیكم صلی الله علیه وسلم قال «إن الله یرفع بالقرآن أقواما ویضع به آخرین» صحیح أخرجه مسلم عن زهیر بن حرب. أنا یعقوب

بن إبراهیم عن أبیه إبراهیم بن سعد الترابی أنا أبو بكر بن محمد بن عبد الصمد الترابی المعروف بابن أبی الهیثم، أنا الحاكم أبو الفضل محمد ابن الحسین الحدادی سنة أربع وثمانین وثلثمائة أنا أبو یزید محمد بن یحیی ابن خالد أنا اسحاق ابن إبراهیم الحنظلی أنا جریر یعنی: ابن عبد الحمید عن قابوس ابن أبی ظبیان عن أبیه عن ابن عباس رضی الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «إن الرجل الذی لیس فی جوفه شیء من القرآن كالبیت الخرب» قال أبو عیسی هذا حدیث صحیح حسن. أنا عبد الواحد الملیحی أنا أبو منصور السمعانی أنا أبو جعفر الزیانی ثنا حمید بن زنجویه أنا أبو أیوب الدمشقی ثنا سعدان بن یحیی ثنا عبد الله ابن أبی حمید عن أبی الحاكم الهذلی عن واثلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ قال «أعطیت مكان التوراة السبع الطوال وأعطیت مكان الإنجیل المائن وأعطیت مكان الزبور المثانی وأعطیت فاتحة الكتاب وخواتیم البقرة من تحت العرش لم یعطها نبی قبلی وأعطانی ربی المفصل» نافلة غریب (فصل فی فضائل تلاوة القرآن) أنا عبد الواحد بن أحمد بن الملیحی أنا أبو محمد أنا عبد الرحمن بن أبی شریح أنا أبو القاسم البغوی ثنا علی بن الجعد أنا شعبة عن قتادة عن زرارة بن أبی أوفی عن سعد بن هشام عن عائشة رضی الله عنها عن النبی ﷺ قال «مثل الماهر بالقرآن مثل السفرة الكرام البررة ومثل الذی یقرؤه وهو علیه شاق له أجران» صحیح وقال هشام الدستوائی عن قتادة بهذا الإسناد الذی یقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة

كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولی أبی حذیفة قال حدیث حسن صحیح وتقدم حدیث زید بن ثابت وفیه أنه استحر القتل بقراء القرآن فثبت بمجموع هذه الأحادیث أن القرآن كان علی هذا التألیف والجمع فی زمن رسول الله صلی الله علیه وسلم وإنما ترك جمعه فی مصحف واحد لأن النسخ كان یرد علی بعضه ویرفع الشیء بعد الشیء من التلاوة كما كان ینسخ بعض أحكامه فلم یجمع فی مصحف واحد ثم لو رفع بعض تلاوته أدی ذلك إلی الاختلاف واختلاط أمر الدین فحفظ الله كتابه فی القلوب إلی انقضاء زمن النسخ ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدین رضی الله تعالی عنهم وثبت بالدلیل الصحیح أن الصحابة إنما جمعوا القرآن بین الدفتین كما أنزله الله عز وجل علی رسوله ﷺ من غیر أن زادوا فیه أو نقصوا منه شیئا والذی حملهم علی جمعه ما جاء مبینا فی الحدیث وهو أنه كان مفرقا فی العسب واللخاف وصدور الرجال فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته ففزعوا إلی خلیفة رسول رب العالمین ﷺ أبی بكر فدعوا إلی جمعه فرأی فی ذلك رأیهم فأمر بجمعه فی موضع واحد باتفاق من جمیعهم فكتبوا كما سمعوه من رسول الله ﷺ من غیر أن قدموا أو أخروا شیئا ووضعوا له ترتیبا لم یأخذوه من رسول الله ﷺ وكان رسول الله صلی الله علیه وسلم یلقن أصحابه ویعلمهم ما ینزل علیه من القرآن علی الترتیب الذی هو الآن فی مصاحفنا بتوقیف جبریل علیه السلام إیاه علی ذلك وإعلامه عند نزول كل آیة أن هذه الآیة تكتب عقب آیة كذا فی سورة كذا فثبت أن سعی الصحابة كان فی جمعه فی موضع واحد لا فی ترتیبه فان القرآن مكتوب فی اللوح المحفوظ علی النحو الذی هو فی مصاحفنا الآن وقد صح فی حدیث ابن عباس أن النبی صلی الله علیه وسلم كان یعرض القرآن علی جبریل علیه السلام فی كل عام مرة فی رمضان وأنه عرضه فی العام الذی توفی فیه مرتین ویقال إن زید ابن ثابت شهد العرضة الأخیرة التی عرضها رسول الله ﷺ علی جبریل علیه السلام وهی العرضة التی نسخ فیها ما نسخ وبقی فیها ما بقی ولهذا أقام أبو بكر زید بن ثابت فی كتابة المصحف وألزمه بها لأنه قرأ علی النبی ﷺ فی العام الذی توفی فیه مرتین فكان جمع القرآن سببا لبقائه فی الأمة رحمة من الله تعالی لعباده وتحقیقا لوعده فی حفظه علی ما قال تعالی «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» واعلم أن الله تعالی أنزل القرآن المجید من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلی سماء الدنیا فی شهر رمضان فی لیلة القدر ثم كان ینزله مفرقا علی لسان جبریل علیه السلام إلی النبی ﷺ مدة رسالته نجوما عند الحاجة وحدوث ما یحدث علی ما شاء الله تعالی وترتیب نزول القرآن غیر ترتیبه فی التلاوة والمصحف فاما ترتیب نزوله علی رسول الله ﷺ فأول ما نزل من القرآن بمكة «اقرأ باسم ربك الذی خلق». ثم ن والقلم. ثم یا أیها المزمل. ثم المدثر. ثم تبت یدا أبی لهب. ثم إذا الشمس كورت. ثم سبح اسم ربك الأعلی. ثم واللیل إذا یغشی ثم والفجر. ثم والضحی. ثم ألم نشرح ثم والعصر ثم والعادیات ثم إنا أعطیناك الكوثر ثم

الكرام البررة» أنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو عمر بكر بن محمد بن عبد الله حنيد العباس بن حمزة، ثنا أبو على الحسين ابن الفضل البجلى ثنا عفان ثنا أبان بن يزيد ثنا قتادة عن أنس عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحان ريحها طيب ولا طعم لها ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها» صحيح أخرجه البخارى عن قتيبة (١١) عن أبي عوانة عن قتادة .

أنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور السمعانى ثنا أبو جعفر الزياتى ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو نعيم ثنا سفيان عن عاصم ، يعنى ابن بهدلة عن ذر عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «يقال يعنى لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فان منزلك عند آخر آية تقرؤها» قال أبو عيسى هذا حديث صحيح حسن . أنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور السمعانى أنا أبو جعفر الزياتى ثنا حميد بن زنجويه ثنا النضر بن شميل ثنا هشام الدستوائى عن يحيى ابن كثير عن أبي سلام عن أبي أمامة أنه حدثه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول «اقرأ القرآن فانه يأتى شافعا لأصحابه اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران فانهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما اقرءوا البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة» صحيح أنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور السمعانى أنا أبو جعفر الزياتى ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو نعيم ثنا بشير بن مهاجر الغنوى ثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فسمعته يقول «تعلموا سورة البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة ثم سكت ساعة ثم قال تعلموا سورة البقرة وآل عمران فانهما الزهراوين وإنهما تظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من

ثم ألهاكم التكاثر ثم أرأيت الذى ثم قل يا أيها الكافرون . ثم الفيل . ثم قل هو الله أحد . ثم والنجم. ثم عبس. ثم سورة القدر. ثم سورة البروج . ثم التين . ثم لإيلاف قريش . ثم القارعة . ثم القيامة . ثم الهمزة، ثم المرسلات. ثم ق. ثم سورة البلد. ثم الطارق. ثم اقتربت الساعة. ثم ص . ثم الأعراف. ثم الجن . ثم يس . ثم الفرقان . ثم فاطر . ثم مريم . ثم طه . الواقعة . ثم الشعراء ثم النمل ثم القصص. ثم سورة بنى إسرائيل. ثم يونس. ثم هود ثم يوسف. ثم الحجر . ثم الأنعام. ثم والصافات. ثم لقمان. ثم سبأ. ثم الزمر . ثم المؤمن. ثم السجدة. ثم حم عسق. ثم الزخرف. ثم الدخان . ثم الجاثية . ثم الأحقاف . ثم الذاريات. ثم الغاشية. ثم الكهف. ثم النحل. ثم نوح. ثم إبراهيم . ثم الأنبياء. ثم قد أفلح المؤمنون . ثم تنزيل السجدة . ثم الطور. ثم الملك . ثم الحاقة . ثم سأل سائل. ثم عم يتساءلون ثم النازعات . ثم إذا السماء انفطرت . ثم إذا السماء انشقت . ثم الروم . ثم العنكبوت واختلفوا فى آخر ما نزل بمكة فقال ابن عباس العنكبوت وقال الضحاك وعطاء المؤمنون وقال مجاهد ويل للمطففين فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة فذلك ثلاث وثمانون سورة على ما استقرت عليه روايات الثقات وأما ما نزل بالمدينة فاحدو ثلاثون سورة فأول ما نزل بها سورة البقرة. ثم الأنفال . ثم آل عمران . ثم الأحزاب . ثم الممتحنة . ثم النساء . ثم إذا زلزلت الأرض. ثم الحديد . ثم سورة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم الرعد . ثم سورة الرحمن . ثم هل أتى على الانسان. ثم الطلاق . ثم لم يكن. ثم الحشر. ثم الفلق. ثم الناس . ثم إذا جاء نصر الله والفتح ثم النور. ثم الحج. ثم إذا جاءك المنافقون. ثم المجادلة. ثم الحجرات. ثم التحريم. ثم الصف. ثم الجمعة . ثم التغابن. ثم الفتح. ثم التوبة. ثم المائدة. ومنهم من يقدم المائدة على التوبة فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بالمدينة. واختلفوا فى شورى فقيل نزلت بمكة وقيل نزلت بالمدينة وسنذكر ذلك فى مواضعه إن شاء الله تعالى (فصل فى كون القرآن نزل على سبعة أحرف وما قيل فى ذلك) (ق) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكدت أساوره فى الصلاة فتربصت حتى سلم فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرؤها قال أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت كذبت فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت فانطلقت به أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله ، اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرؤها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هكذا أنزلت» ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم «اقرأ يا عمر» فقرأت

طير صواف وإن القرآن يأتى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفنى ؟ فيقول ما أعرفك . فيقول له أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك بالهواجر وأسهرت ليلتك وإن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراءى كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتين لايقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بم كسينا هذا ؟ فيقول لهما بأخذولدكما القرآن . ثم يقال اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها فهو فى صعودها مادام يقرأ هذا كان (١٢) أو ترتيلا غريب . أناعبدالواحدالمليحى أناأبومنصورالسمعانى أناأبوجعفر الزيانى ثنا حميد بن زنجويه ثنا أيوب الدمشقى ثنا إسماعيل بن عباس ثنا ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل كتبت له حسنة مضاعفة ومن قرأ آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة » أخبرنا الإمام أبو علي حسين بن محمد القاضى أنا أبوطاهر محمد بن محمد ابن محمش الزيادى أنا أبوبكر محمدبن عمر بن حفص التاجر ثنا إبراهيم ابن عبد الله بن عمر ابن بكير الكوفى أنا وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان ؟ قلنا نعم يارسول الله صلى

قال فثلاث آيات يقرؤهن أحدكم فى صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان » صحيح . أنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور السمعانى أنا أبو جعفر الزيانى ثنا حميد بن زنجويه ثنا أبو الأسود ثنا ابن لهيعة عن زبان هو ابن فائد عن سهل هو ابن معاذ الجهنى عن أبيه رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قرأ القرآن فأحكمه وعمل بما فيه ألبس والداه يوم القيامة تاجا ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيت من بيوت الدنيا لو كانت فيه فما ظنكم بالذى

بقراءتى التى اقرأنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هكذا أنزلت» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه » (قوله فكدت أساوره فى الصلاة) أى أو أثبه وأقاتله وهو فى الصلاة والتربص التثبت (قوله فلببته بردائه) هو بتشديد الباء الأولى ومعناه أخذت بمجامع ردائه فى عنقه وجذبته به مأخوذ من اللبة وفيه بيان ما كانوا عليه من الاعتناء بالقرآن والذب عنه والمحافظة على لفظه كما سمعوه من غير عدول إلى ماتجوزه العربية وأما أمر النبى صلى الله عليه وسلم عمر بارساله فلانه لم يثبت عنده مايقتضى تعزيره ولأن عمر إنما نسبه إلى مخالفته فى القراءة والنبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم من جواز القراءة ووجوهها مالا يعلمه عمر ولأنه إذا قرأ وهو ملبب لايتمكن من حضور القلب وتحقيق القراءة تمكن المطلق (قوله إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه) قال العلماء سبب أنزاله على سبعة أحرف التخفيف والتسهيل واختلفوا فى المراد بسبعة أحرف فقيل هو توسعة وتسهيل ولم يقصد به الحصر وقال الأكثرون هو حصر العدد فى سبعة أحرف ثم قيل هى فى سبع من المعانى كالوعد والوعيد والمحكم والمتشابه والحلال والحرام والقصص والأمثال والأمر والنهى وقيل هى فى صورة التلاوة وكيفية النطق بكلمات القرآن من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق ومد وقصر وإمالة لأن العرب كانت مختلفة اللغات فى هذه الوجوه فيسر الله تعالى عليهم ليقرأ كل إنسان بما يوافق لغته ويسهل على لسانه . وقال أبو عبيدة هى سبع لغات من لغات العرب تميمها ومعدها وهى أفصح لغات العرب وأعلاها وقيل هى لغة قريش وهوازن وهذيل وأهل اليمن وقيل السبعة كلها لمضر وحدها وهى متفرقة فى القرآن العزيز غير مجتمعة فى كلمة واحدة وقيل بل هى مجتمعة فى بعض الكلمات كقوله تعالى وعبد الطاغوت ونرتع ونلعب وباعد بين أسفارنا وبعذاب بئيس وقيل هى سبع قراآت وهو الصحيح الموافق للحديث لأن هذه السبعة ظهرت واستفاضت عن النبى صلى الله عليه وسلم وضبطها عنه الصحابة وأثبتها عثمان والجماعة فى المصاحف وأخبروا بصحتها وحذفوا منها مالم يثبت متواترا وإن هذه الأحرف تختلف معانيها تارة وألفاظها أخرى وليست متضادة ولا متباينة فأما من قال إن المراد بالأحرف سبعة معان مختلفة كالأحكام والأمثال والقصص فخطأ محض لأن النبى صلى الله عليه وسلم أشار إلى جواز القراءة بكل واحد من الحروف وإبدال حرف بحرف وقد تقرر إجماع المسلمين على أنه يحرم إبدال آية أمثال بآية أحكام وقول من قال إن المراد خواتيم الآى فيجعل مكان غفور رحيم سميع عليم ففاسد أيضا وخطأ للاجماع على أنه لايجوز تغيير نظم القرآن والله أعلم (ق) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله

عمل به» . أنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا محمد بن عبدالله الصفار، ثنا أحمد بن محمد ابن عيسى البولى، ثنا أبو حذيفة ثنا سفيان الثوري عن الأعمش عن حثيمة عن رجل أن عمران بن حصين مر علي رجل يقرأ علي قوم فلما قرأ سأل فقال عمران إنا لله وإنا إليه راجعون سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول «من قرأ القرآن فليسأل الله به فانه سيجيء أقوام يقرءون القرآن يسألون الناس به» رواه أبو عيسى عن محمود بن غيلان عن أبي أحمد عن سفيان عن الأعمش عن حثيمة عن الحسن عن عمران بن حصين قال وقال محمد بن إسماعيل هو حثيمة البصرى الذى روى عنه جابر الجعفى وليس هو حثيمة بن عبدالرحمن

(فصل فى وعيد من قال فى القرآن برأيه من غير علم) . أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابى أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حموية السرخسى أنا أبو إسحاق إبراهيم بن حزيم الشاشى، ثنا أبو محمد عبيد بن حميد ثنا عبدالرزاق أنا الثورى عن عبد الأعلي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم «من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» أنا أبو منصور محمد ابن عبد الملك المظفرى أنا أبو سعيد أحمد ابن محمد بن الفضل الفقيه أنا أبو عبد الله الحسين بن الحسن البصرى ثنا أبو الفضل العباس بن محمد الدورى أخبرنا يحيي بن حماد ثنا أبو عوانة عن عبدالأعلي عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما عن النبي صلي الله عليه وسلم قال «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابى حدثنا عبد الله بن أحمد بن حموية أنا إبراهيم بن خزيم أنا عبد بن حميد، ثنا حبان بن هلال ثنا سهيل أخو حزم القطعى، ثنا أبو عمران الجوني عن جندب بن عبدالله البجلي رضى الله عنه قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» غريب. وسئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه

صلى الله عليه وسلم قال «أقرأني جبريل على حرف فراجعته فزادنى فلم أزل استزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف» معنى الحديث لم أزل أطلب من جبريل أن يطلب من الله عز وجل الزيادة في الأحرف للتوسعة والتخفيف ويسأل جبريل ربه عز وجل فيزيده حتى انتهى إلى السبعة (م) عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال كنت في المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه فدخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ فحسن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما فسقط في نفسى من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غشينى ضرب في صدرى ففضت عرقا وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقا فقال لى يا أبى أرسل إلى أن اقرأ على حرف واحد فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلى الثانية أن اقرأه على حرفين فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلى الثالثة أن أقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردة رددتها مسئلة تسألنيها فقلت : اللهم اغفر لأمتى اللهم اغفر لأمتى وأخرت الثالثة ليوم ترغب إلى الناس كلهم حتى إبراهيم (قوله فسقط في نفسى من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية) معناه وسوس لى الشيطان تكذيبا للنبوة أشد مما كنت عليه في الجاهلية لأنه كان في الجاهلية غافلا ومشككا فوسوس له الشيطان الجزم بالتكذيب. وقيل معناه أنه اعترته حيرة ودهشة ونزغ الشيطان في قلبه تكذيبا لم يعتقده وهذه الخواطر إذا لم يستمر عليها الإنسان لا يؤاخذ بها (قوله ضرب في صدرى ففضت عرقا) قال القاضى عياض ضربه صلى الله عليه وسلم في صدره تثبيتا له حين رآه قد غشيه ذلك الخاطر المذموم (قوله وكأنما أنظر إلى الله تعالى فرقا) الفرق بالتحريك الخوف والخشية والمعنى أنه غشيه من الهيبة والخوف والعظمة حين ضربه ما أزال عنه ذلك الخاطر (قوله ولك بكل ردة رددتها مسئلة تسألنيها) معناه مسئلة مجابة قطعا وأما باقي الدعوات فرجوة الإجابة وليست قطعية الإجابة والله أعلم . روى البغوى بسنده عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن القرآن نزل على سبعة أحرف لكل آية منه ويروى لكل حرف منه ظهر وبطن ولكل حد مطلع» قيل في معناه الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله . وقيل في معناه الظهر ما حدث عن أقوام أنهم عصوا فعوقبوا فهو في الظاهر خبر وفي الباطن عظة . وقيل الظهر التلاوة باللسان كما أنزل والبطن التدبر والتفهم والتفكر بالقلب فالتلاوة باللسان كما تكون بالتعلم والتلقين والتدبر والتفهم تكون بصدق النية وتعظيم الحرمة وإخلاص العمل وطيب المطعم من الحلال

عن قوله تعالى «وفاكهة وأبا» فقال وأي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لاتفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها كثيرة . قال حماد قلت لأبي أيوب مامعنى قول أبي الدرداء رضي الله عنه فجعل يتفكر فقلت هو أن ترى له وجوها فتهاب الإقدام عليه فقال هو ذاك . قال شيخنا الإمام رحمه الله قد جاء الوعيد في حق من قال في القرآن برأيه وذلك فيمن قال من قبل نفسه شيئا من غير علم فأما التأويل وهو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ماقبلها وما بعدها غير مخالف الكتاب والسنة من طريق الاستنباط فقد رخص فيه لأهل العلم.

أما التفسير وهو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها فلا يجوز إلا بالسماع بعد ثبوته من طريق النقل . وأصل التفسير من التفسرة وهي الدليل من الماء الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض كذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصتها واشتقاق التأويل من الأول وهو الرجوع ، يقال أولته فأول أي صرفته فانصرف أخبرنا أبو بكر بن أبي الهيثم الترابي أنا الحاكم أبو الفضل الحدادي أنا أبو يزيد محمد بن يحيى أنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ثنا جرير بن عبد الحميد عن المغيرة عن واصل بن حيان عن ابن هذيل عن أبي الأحوص عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع » وروى «لكل حرف حد ولكل حد مطلع» واختلفوا في تأويله قيل الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله ، وقيل الظهر ماحدث عن أقوام أنهم عصوا فعوقبوا فهو في الظاهر خبر وباطنه عظة وتحذير أن يفعل أحد مثل مافعلوا فيحل به ماحل بهم . وقيل معنى الظهر والبطن التلاوة والتفهم ، يقول لكل آية ظاهر وهو أن تقرأها كما أنزلت قال الله تعالى «ورتل القرآن ترتيلا» وباطن وهو التدبر والتفكر قال الله تعالى « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » ثم التلاوة تكون بالتعلم والحفظ بالدرس والتفهم يكون مثلها

المحض (قوله ولكل حد مطلع) معناه مصعد يصعد إليه من معرفة علمه . وقيل المطلع الفهم وقد يفتح الله تعالى على المتدبر والمتفكر في القرآن العزيز من التأويل والمعاني ما لا يفتحه على غيره «وفوق كل ذي علم عليم » والله أعلم (فصل في معنى التفسير والتأويل) فأما التفسير فأصله في اللغة من الفسر ، وهو كشف ماغطي ، وهو بيان المعاني المعقولة فكل مايعرف به الشيء ومعناه فهو تفسير . وقد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها تفسير . وقيل هو من التفسرة وهو الدليل الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض فكذلك المفسر يكشف عن معنى الآية وشأنها وقصتها . وأما التأويل فاشتقاقه من الأول وهو الرجوع إلى الأصل يقال أولته فأول أي صرفته فانصرف ، وهو رد الشيء إلى الغاية والمراد منه بيان غايته المقصودة منه فالتأويل بيان المعاني والوجوه المستنبطة الموافقة للفظ الآية . والفرق بين التفسير والتأويل أن التفسير يتوقف على النقل المسموع والتأويل يتوقف على الفهم الصحيح والله أعلم (القول في الاستعاذة) ولفظها المختار أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لموافقة قوله تعالى «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ومعنى أعوذ بالله ألتجئ إليه وامتنع به مما أخشاه من عاذ يعوذ ، والشيطان أصله من شطن أي تباعد من الرحمة وقيل من شاط يشيط إذا هلك واحترق غضبا والشيطان اسم لكل عارم عات من الجن والانس وشيطان الجن مخلوق من قوة النار فلذلك فيه القوة الغضبية الرجيم فعيل بمعنى فاعل أي يرجم بالوسوسة والشر وقيل بمعنى مفعول أي مرجوم بالشهب عند استراق السمع وقيل مرجوم بالعذاب وقيل مرجوم بمعنى مطرود عن الرحمة وعن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى . وأما حكم الاستعاذة ففيه مسائل (المسئلة الأولى) اتفق الجمهور على أن الاستعاذة سنة في الصلاة فلو تركها لم تبطل صلاته سواء تركها عمدا أو سهوا ويستحب لقارئ القرآن خارج الصلاة أن يتعوذ أيضا . وحكي عن عطاء وجوبها سواء كانت في الصلاة أو غيرها . وقال ابن سيرين إذا تعوذ الرجل في عمره مرة واحدة كفى في إسقاط الوجوب ، دليل الوجوب ظاهر قوله تعالى «فاستعذ» والأمر للوجوب ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم واظب على التعوذ فيكون واجبا ، ودليل الجمهور أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعلم الأعرابي الاستعاذة في جملة أعمال الصلاة وتأخير البيان عن وقته غير جائز . وأجيب عن قوله تعالى فاستعذ بأن معناه عند جماهير العلماء إذا أردت القراءة فاستعذ كقوله «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا »معناه إذا أردتم القيام إلى الصلاة . وأجيب عن مواظبة النبي صلى الله عليه وسلم بأنه صلى الله عليه وسلم واظب على أشياء كثيرة من أفعال الصلاة ليست بواجبة كتكبيرات الانتقالات والتسبيحات في الصلاة فكان التعوذ

مثلها (المسألة الثانية) وقت الاستعاذة قبل القراءة عند الجمهور سواء كان في الصلاة أو خارجها وحكى عن النخعي أنه بعد القراءة وهو قول داود وإحدى الروايتين عن ابن سيرين حجة الجمهور ماروى عن أبي سعيد الخدري قال «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة بالليل كبر ثم يقول سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك ثم يقول الله أكبر كبيرا، ثم يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» أخرجه الترمذي وقال هذا الحديث أشهر حديث في الباب وقد تكلم في بعض رجاله وقال أحمد لا يصح ولأبي داود والنسائي عن أبي سعيد نحوه . وعن جبير بن مطعم أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة قال عمر ولا أدري أي صلاة هي قال: الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه، قال نفخه الكبر ونفثه الشعر وهمزه الموتة» أخرجه أبو داود وقيل الموتة الجنون لأن من جن فقد مات عقله . وقيل همزه هو الذي يوسوسه في الصلاة ونفخه هو الذي يلقيه من الشبه في الصلاة ليقطع عليه صلاته . واحتج مخالف الجمهور بظاهر قوله تعالى «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله» وأجيب عنه بما تقدم . وقال مالك لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ في قيام رمضان بعد القراءة . لنا ماتقدم من الأدلة (المسئلة الثالثة) المختار من لفظ الاستعاذة عند الشافعي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وبه قال أبو حنيفة لموافقة قوله تعالى «فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم» ولحديث جبير بن مطعم . وقال أحمد الأولى أن يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم جمعا بين هذه الآية وبين قوله تعالى «فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم» ولحديث أبي سعيد . وقال الثوري والأوزاعي الأولى أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم، وبالجملة فالاستعاذة تطهر القلب عن كل شيء يشغله عن الله تعالى . ومن لطائف الاستعاذة أن قوله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إقرار من العبد بالعجز والضعف واعتراف من العبد بقدرة الباري عز وجل وأنه هو الغني القادر على دفع جميع المضرات والآفات واعتراف من العبد أيضا بأن الشيطان عدو مبين ففي الاستعاذة التجاء إلى الله تعالى القادر على دفع وسوسة الشيطان الغوي الفاجر ، وأنه لا يقدر على دفعه عن العبد إلا الله تعالى والله أعلم .

(تفسير سورة الفاتحة)

وهي سبع آيات بالاتفاق وسبع وعشرون كلمة ومائة وأربعون حرفا . واختلف العلماء في نزولها فقيل نزلت بمكة وهو قول أكثر العلماء . وقيل نزلت بالمدينة وهو قول مجاهد . وقيل نزلت مرتين بمكة ومرة بالمدينة وسبب ذلك التنبيه على شرفها وفضلها ولها عدة أسماء وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وفضله (فأول ذلك فاتحة الكتاب) سميت بذلك لأن بها افتتح القرآن وبها تفتتح كتابة المصاحف وبها تفتتح الصلاة (الثاني سورة الحمد) سميت بذلك لافتتاحها بالحمد لله (الثالث أم القرآن) وأم الكتاب ، سميت بذلك لأنها أصل القرآن وأم كل شيء أصله وقيل هي إمام لما يتلوها من السور (الرابع السبع المثاني) سميت بذلك لأنها تثنى في الصلاة ويقرأ بها في كل ركعة ، وقيل لأن الله تعالى استثناها لهذه الأمة وادخرها لهم لم ينزلها على غيرهم وقيل لأنها أنزلت مرتين (الخامس الوافية) سميت بذلك لأنها لا تقسم في القراءة في الصلاة كما يقسم غيرها من السور (السادس الكافية) سميت بذلك لأنها تكفي عن غيرها في الصلاة ولا يكفي عنها غيرها .

بصدق النية وتعظيم الحرمة وطيب الطعمة . وقوله لكل حرف حد أراد به من حد في التلاوة والتفسير لا يجاوز المصحف وفي التفسير لا يجاوز المسموع . وقوله لكل حد مطلع « أي مصعد يصعد إليه من معرفة علمه ويقال المطلع الفهم وقد يفتح الله على المتدبر والمتفكر في التأويل والمعاني مالا يفتح على غيره ، وفوق كل ذي علم عليم ، وما توفيقي إلا بالله العزيز الحكيم .

(سورة الفاتحة)

ولها ثلاثة أسماء معروفة فاتحة الكتاب وأم القرآن والسبع المثاني سميت فاتحة الكتاب لأنه تعالى بها افتتح القرآن « وأم الكتاب لأنها أصل القرآن منها بدئ القرآن وأم الشيء أصله ، ويقال لمكة أم القرى لأنها أصل البلاد دحيت الأرض

(فصل : فى ذكر فضلها) (خ) عن أبى سعيد بن المعلى قال كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه ثم أتيته، فقلت يارسول إلى إنى كنت أصلى فقال ألم يقل الله استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ثم قال لى لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ثم أخذ بيدى فلما أراد أن يخرج قلت له يارسول ألم تقل لأعلمنك سورة هى أعظم السور فى القرآن قال : الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته ورواه مالك فى الموطأ عنه وقال فيه إن النبى صلى الله عليه وسلم نادى أبى ابن كعب وهو يصلى وذكر نحوه وفيه حتى تعلم سورة ماأنزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى الزبور مثلها ورواه الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أبى وهو يصلى وذكر نحو رواية الموطأ وقال فيه حديث حسن صحيح عن أبى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأنزل الله فى التوراة ولا فى الانجيل مثل أم القرآن وهى السبع المثانى وهو مقسومة بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل أخرجه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح (م) عن ابن عباس قال بينا جبريل قاعد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلااليوم فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته (قوله سمع نقيضا) هو بالقاف والضاد المعجمة أى صوتا كصوت فتح الباب (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج هى خداج هى خداج غير تمام قال فقلت ياأبا هريرة إنا أحيانا نكون وراء الإمام فغمز ذراعى وقال اقرأ بها فى نفسك يافارسى فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدى ماسأل فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى وإذا قال الرحمن الرحيم قال أثنى على عبدى وإذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى وربما قال فوض إلى عبدى وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل وإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدى ولعبدى ماسأل» (قوله فهى خداج) أى ناقصة (قوله فغمز ذراعى) أى كبس ساعدى بيده (قوله قسمت الصلاة) أراد بالصلاة هنا القراءة لأنه فسرها بها ولأن القراءة ركن من أركانها وجزء من أجزائها (قوله نصفين) حقيقة هذه القسمة التى جعلها بينه وبين عبده راجعة إلى المعنى لا إلى اللفظ لأن هذه السورة من جهة المعنى نصفها ثناء ونصفها مسئلة ودعاء وقسم الثناء انتهى عند قوله تعالى إياك نعبد وإياك نستعين من قسم الدعاء ولهذا قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل (قوله حمدنى عبدى ومجدنى) أى أثنى على لأن الحمد هو الثناء بجميل الفعال والتمجيد الثناء بصفات الجلال وقيل التحميد والتمجيد التعظيم (قوله وربما قال فوض إلى عبدى) وجه مطابقة هذا لقوله مالك يوم الدين يقال فلان فوض أمره إلى فلان إذا رده إليه وعول فيه عليه وفى الحديث دليل على وجوب قراءة الفاتحة وأنها متعينة وهو مذهب الشافعى وجماعة وستأتى هذه المسئلة إن شاء الله تعالى بعد ذكر تفسير الفاتحة ، والله أعلم .

من تحتها وقيل لأنها مقدمة وإمام لما يتلوها من السور يبدأ بكتابتها فى المصحف وبقراءتها فى الصلاة والسبع المثانى لأنها سبع آيات باتفاق العلماء ، وسميت مثانى لأنها تثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة وقال مجاهد سميت مثانى لأن الله تعالى استثناها لهذه الأمة فدخرها لهم . وهى مكية على قول الأكثرين وقال مجاهد مدنية وقيل نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة ولذلك سميت مثانى ، والأول أصح أنها مكية لأن الله تعالى من على الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « ولقد آتيناك سبعا من المثانى» والمراد منها فاتحة الكتاب وسورة الحجر مكية فلم يكن يمن عليه بها قبل نزولها

(بسم الله الرحمن الرحيم) الباء في بسم الله حرف خافض يخفض مابعده مثل من وعن والمتعلق به مضمر محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره أبدأ بسم الله أو باسم الله أبدأ أو أقرأ وإنما طولت الباء في بسم الله وأسقطت الألف طلبا للخفة ، وقيل لما أسقطوا الألف ردوا طولها على الباء ليدل طولها على الألف المحذوفة وأثبتت الألف في قوله تعالى «فسبح باسم ربك العظيم» لقلة استعماله وقيل إنما طولوا الباء لأنهم أرادوا أن يستفتحوا كتاب الله بحرف معظم وقيل الباء حرف منخفض الصورة فلما اتصل باسم الله ارتفع واستعلى وقيل إن عمر بن عبد العزيز كان يقول لكتابه طولوا الباء من بسم الله وأظهروا السين ودوروا الميم تعظيما لكتاب الله عز وجل . والاسم هو المسمى عينه وذاته قال الله تعالى « إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى » ثم نادى الاسم فقال يا يحيى وقال «سبح اسم ربك ، وتبارك اسم ربك» وهذا القول ليس بقوي ، والصحيح المختار أن الاسم غير المسمى وغير التسمية ، فالاسم ماتعرف به ذات الشيء وذلك لأن الاسم هو الأصوات المقطعة والحروف المؤلفة الدالة على ذات ذلك الشيء المسمى به فثبت بهذا أن الاسم غير المسمى وأيضا قد تكون الأسماء كثيرة والمسمى واحد كقوله تعالى « ولله الأسماء الحسنى » وقد يكون الاسم واحدا والمسميات به كثيرة كالأسماء المشتركة وذلك يوجب المغايرة وأيضا فقوله «فادعوه بها» أمر أن يدعى الله تعالى بأسمائه فالاسم آلة الدعاء والمدعو هو الله تعالى فالمغايرة حاصلة بين ذات المدعو وبين اللفظ المدعو به . وأجيب عن قوله تعالى «إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى » بأن المراد ذات الشخص المعبر عنه بيحيى لا نفس الاسم . وأجيب عن قوله تعالى سبح اسم ربك وتبارك اسم ربك بأن معنى هذه الألفاظ يقتضي إضافة الاسم إلى الله تعالى وإضافة الشيء إلى نفسه محال وقيل كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى عن النقص فكذلك يجب تنزيه أسمائه وكون الاسم غير التسمية هو أن التسمية عبارة عن تعيين اللفظ المعين لتعريف ذات الشيء والاسم عبارة عن تلك اللفظة المعينة والفرق ظاهر . واختلفوا في اشتقاق الاسم فقال البصريون من السمو وهو العلو فاسم الشيء ماعلاه حتى ظهر به وعلا عليه فكأنه علا على معناه وصار علما له وقال الكوفيون من السمة وهي العلامة فكأنه علامة لمسماه وحجة البصريين لو كان الاسم اشتقاقه من السمة لكان تصغيره وسيم وجمعه أوسام وأجمعوا على أن تصغيره سمي وجمعه أسماء وأسام (الله) هو اسم علم خاص لله تعالى تفرد به الباري سبحانه وتعالى ليس بمشتق ولا يشركه فيه أحد وهو الصحيح المختار دليله قوله تعالى « هل تعلم له سميا » يعني لا يقال لغيره الله وقيل هو مشتق من أله يأله إلاهة مثل عبد الرجل يعبد عبادة دليله « ويذرك وآلهتك » أي وعبادتك ومعناه المستحق للعبادة دون غيره ؛ وقيل من الوله وهو الفزع لأن الخلق يولهون إليه أي يفزعون إليه في حوائجهم ، قال بعضهم :

ولهت إليكم في بلايا تنوبني ... فألفيتكم فيها كرائم محتد

وقيل أصله أله يقال ألهت إلى فلان أي سكنت إليه فكأن الخلق يسكنون إليه ويطمئنون بذكره ، وقيل

(بسم الله الرحمن الرحيم) قوله بسم الله الباء زائدة تخفض مابعدها مثل من وعن والمتعلق به محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره أبدأ بسم الله أو قل بسم الله وأسقطت الألف من الاسم طلبا للخفة لكثرة استعمالها وطولت الباء قال القتيبي ليكون افتتاح كلام كتاب الله بحرف معظم كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول لكتابه طولوا الباء ، وأظهروا السين وفرجوا بينهما ودوروا الميم تعظيما لكتاب الله عز وجل وقيل لما أسقطوا الألف ردوا طول الألف على الباء ليكون دالا على سقوط الألف ألا ترى أنه لما كتب الألف في اقرأ باسم ربك ردت الباء إلى صيغتها ولا تحذف الألف إذا أضيف الاسم إلى غير الله ولا مع غير الباء . والاسم هو المسمى وعينه وذاته قال الله تعالى « إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى» أخبر أن اسمه يحيى ثم نادى الاسم فقال «يا يحيى» وقال « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها » وأراد الأشخاص المعبودة لأنهم كانوا يعبدون المسميات وقال « سبح اسم ربك» و «تبارك اسم ربك » ثم يقال للتسمية أيضا اسم فاستعماله في التسمية أكثر من المسمى. فان قيل مامعنى التسمية من الله لنفسه ؟ قيل هو تعليم العباد كيف يستفتحون القراءة واختلفوا في اشتقاقه قال المبرد من البصريين هو مشتق من السمو وهو العلو فكأنه علا على معناه وظهر عليه وصار معناه لاتحته ؛ وقال ثعلب من الكوفيين هو من الوسم والسمة وهى العلامة وكأنه علامة لمعناه وعلامة للمسمى ، والأول أصح لأنه يصغر على سمي ولو كان من السمة لكان يصغر على الوسيم كما يقال في الوعد وعيد ويقال في تصريفه سميت ولو كان من الوسم لقيل وسمت ، قوله تعالى (الله) قال الخليل وجماعة هو اسم علم خاص لله عز وجل لا اشتقاق له كأسماء الأعلام للعباد مثل زيد وعمرو ، وقال جماعة

مشتق ثم اختلفوا في اشتقاقه فقيل من أله إلاهة أي عبد عبادة، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما «ويذرك وإلاهتك» أي عبادتك
معناه أنه المستحق للعبادة دون غيره وقيل أصله إله قال الله عز وجل «وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق»
قال المبرد هو قول العرب ألهت إلى فلان أي سكنت إليه قال الشاعر * ألهت إليها والحوادث جمة * فكان الخلق يسكنون
إليه ويطمئنون بذكره يقال ألهت إليه أي فزعت إليه، وقال الشاعر: * وألهت إليها والركائب وقف *

وقيل أصل الإله ولاه فأبدلت الواو بالهمزة مثل وشاح وإشاح اشتقاقه من الوله لأن العباد يولهون إليه أي يفزعون إليه في الشدائد ويلجئون إليه في الحوائج كما يوله كل طفل إلى أمه، وقيل هو من الوله وهو ذهاب العقل لفقد من يعز عليك. قوله (الرحمن الرحيم) قال ابن عباس رضي الله عنهما هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر واختلفوا فيهما، منهم من قال هما بمعنى واحد مثل ندمان ونديم ومعناهما ذو الرحمة وذكر أحدهما بعد الآخر تطميعا لقلوب الراغبين وقال المبرد هو إنعام بعد إنعام وتفضل بعد تفضل، ومنهم من فرق بينهما فقال للرحمن معنى العموم وللرحيم معنى الخصوص فالرحمن بمعنى الرزاق في الدنيا وهو علي العموم لكافة الخلق والرحيم بمعنى المعافي
في الآخرة والعفو في الآخرة للمؤمنين علي الخصوص ولذلك قيل في الدعاء يارحمن الدنيا ورحيم الآخرة فالرحمن
من يصل رحمته إلى الخلق علي العموم والرحيم من يصل رحمته إليهم علي الخصوص ولذلك يدعى غير الله رحيما ولا
يدعى رحمن؛ فالرحمن عام المعنى خاص اللفظ والرحيم عام اللفظ خاص المعنى. والرحمة إرادة الله الخير لأهله، وقيل هي

أصله ولاه فأبدلت الواو همزة سمي بذلك لأن كل مخلوق واله نحوه إما بالتسخير أو بالإرادة
ومن هذا قيل الله محبوب كل الأشياء يدل عليه «وإن من شيء إلا يسبح بحمده» ومن خصائص
هذا الاسم أنك إذا حذفت منه شيئا بقي الباقي يدل عليه فإن حذفت الألف بقي لله وإن حذفت
اللام وأثبت الألف بقي إله وإن حذفتهما بقي له وإن حذفت الألف واللامين معا بقي هو والواو
عوض عن الضمة. وذهب بعضهم إلى أن هذا الاسم هو الاسم الأعظم لأنه يدل على الذات
وباقي الأسماء تدل على الصفات (الرحمن الرحيم) قال ابن عباس هما اسمان رقيقان أحدهما
أرق من الآخر قيل هما بمعنى مثل ندمان ونديم ومعناهما ذو الرحمة وإنما جمع بينهما للتأكيد
وقيل ذكر أحدهما بعد الآخر تطميعا لقلوب الراغبين إليه، وقيل الرحمن فيه معنى العموم
والرحيم فيه معنى الخصوص فالرحمن بمعنى الرزاق في الدنيا وهو على العموم لكافة الخلق
المؤمن والكافر والرحيم بمعنى الغفور الكافي للمؤمنين في الآخرة فهو على الخصوص ولذلك
قيل رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ورحمة الله إرادة الخير والاحسان لأهله، وقيل هي ترك
عقوبة من يستحق العقاب وإسداء الخير والإحسان إلى من لا يستحق فهو على الأول صفة
ذات، وعلى الثاني صفة فعل، وقيل الرحمن بكشف الكروب والرحيم بغفر الذنوب، وقيل
الرحمن بتبيين الطريق والرحيم بالعصمة والتوفيق.

(فصل: في حكم البسملة) وفيه مسئلتان (الأولى) في كون البسملة الفاتحة وغيرها من السور
سوى سورة براءة. اختلف العلماء في ذلك، فذهب الشافعي وجماعة من العلماء إلى أنها آية
من الفاتحة ومن كل سورة ذكرت في أولها سوى سورة براءة وهو قول ابن عباس وابن عمر
وأبي هريرة وسعيد بن جبير وعطاء وابن المبارك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وإسحاق
ونقل البيهقي هذا القول عن علي بن أبي طالب والزهري والثوري ومحمد بن كعب. وذهب
الأوزاعي ومالك وأبو حنيفة إلى أن البسملة ليست بآية من الفاتحة زاد أبو داود ولا من غيرها
من السور وإنما هي بعض آية في سورة النمل وإنما كتبت للفصل والتبرك قال مالك ولا يستفتح
بها في الصلاة المفروضة، وللشافعي قول إنها ليست من أوائل السور مع القطع بأنها من الفاتحة.
فأما حجة من منع كون البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها فحديث أنس المشهور المخرج
في الصحيحين وحديث عائشة قالت «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير
والقراءة بالحمد لله رب العالمين» قالوا ولأن أول ما نزل به جبريل «اقرأ باسم ربك الذي خلق»
ولم يذكر البسملة في أولها فدل على أنها ليست منها قالوا ولأن محل القرآن لا يثبت إلا بالتواتر
والاستفاضة ولأن الصحابة أجمعوا على عدد كثير من السور منها سورة الملك ثلاثون آية
وسورة الكوثر ثلاث آيات وسورة الإخلاص أربع آيات فلو كانت البسملة منها لكانت
خمسا. وأما حجة من ذهب إلى إثباتها في أوائل السور من جهة النقل فقد صح عن أم سلمة
«أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدها آية منها» وعن ابن

عباس

رك عقوبة من يستحقها وإسداء الخير إلى من لا يستحق فهي علي الأول صفة ذات وعلي الثاني صفة فعل . واختلفوا في آية التسمية ؛ فذهب قراء المدينة والبصرة وفقهاء الكوفة إلى أنها ليست من فاتحة الكتاب ولا من غيرها من السور ، والافتتاح بها للتيمن والتبرك وذهب قراء مكة والكوفة وأكثر فقهاء الحجاز إلى أنها ليست من الفاتحة وليست من سائر السور فانما كتبت للفصل ، وذهب جماعة إلى أنها من الفاتحة ومن كل سورة إلا سورة التوبة وهو قول الثوري وابن المبارك والشافعي في قول لأنها كتبت في المصحف بخط سائر القرآن . واتفقوا علي أن الفاتحة سبع آيات والآية الأولى عند من يعدها من الفاتحة « بسم الله الرحمن الرحيم » وابتداء الآية الأخيرة « صراط الذين » ومن لم يعدها من الفاتحة قال ابتداؤها « الحمد لله رب العالمين » وابتداء الآية الأخيرة « غير المغضوب عليهم » واحتج من جعلها من الفاتحة ومن السور بأنها كتبت في المصحف بخط القرآن . وبما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي أنا أبو محمد عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم أنا الربيع بن سليمان أنا الشافعي أنا عبد المجيد عن ابن جريج أخبرني أبي عن سعيد بن جبير « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » هي أم القرآن قال أبي وقرأها علي سعيد بن جبير حتى ختمها ثم قال « بسم الله الرحمن الرحيم » الآية السابعة قال سعيد قرأها علي ابن عباس كما قرأتها عليك ثم قال « بسم الله الرحمن الرحيم » الآية السابعة قال ابن عباس فذخرها لكم فما أخرجها لأحد قبلكم ، ومن لم يجعلها من الفاتحة احتج بما ثنا أبو الحسن محمد بن محمد الشيرازي أنا زاهر بن أحمد ثنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أنه قال « قمت وراء أبي بكر الصديق

عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » قال هي فاتحة الكتاب قيل فأين السابعة قال بسم الله الرحمن الرحيم أخرجهما ابن خزيمة وغيره ، وروى عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يعلم فصل السورة وفي رواية انقضاء السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه أبو داود والحاكم أبو عبد الله في مستدركه وقال فيه إنه صحيح على شرط الشيخين وروى الدارقطني عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قرأتم الحمد لله فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها » قال الدارقطني في رجال إسناده كلهم ثقات وروى موقوفا ، وروى الدارقطني عن أم سلمة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين إلى آخرها قطعها آية آية وعدها عد الأعراب وعد بسم الله الرحمن الرحيم آية ولم يعد عليهم » وأخرج مسلم في أفراده عن أنس قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا إذ غفا غفوة ثم رفع رأسه متبسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال أنزلت على آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر » الحديث. قال البيهقي أحسن ما احتج به أصحابنا في أن بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن وأنها من فواتح السور سوى سورة براءة ما رويناه في جمع الصحابة كتاب الله عز وجل في المصاحف وأنهم كتبوا فيها بسم الله الرحمن الرحيم على رأس كل سورة سوى سورة براءة فكيف يتوهم متوهم أنهم كتبوا فيها مائة وثلاثة عشر آية ليست من القرآن ، قال وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس أنه كان يعد بسم الله الرحمن الرحيم آية من الفاتحة وروى الشافعي بسنده عن ابن عمر أنه كان لا يدع بسم الله الرحمن الرحيم لأم القرآن والسورة التي بعدها زاد غيره عنه إنه كان يقول لما كتبت في المصحف لم لم تقرأ وروى الشافعي عن ابن عباس أنه كان يفعله ويقول انتزع الشيطان منهم خير آية في القرآن . وفي أفراد البخاري من حديث أنس « أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كانت مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم » فقد ثبت بهذه الأدلة الصحيحة الواضحة أن البسملة من الفاتحة من كل موضع ذكرت فيه وأيضا فأجمع الصحابة على إثباتها في المصاحف وأنهم طلبوا بكتابة المصاحف تجريد كلام الله عز وجل المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم قرآنا وتدوينه مخافة أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه ولهذا لم يكتبوا فيه لفظة آمين وإن كان قد ورد أنه كان يقولها بعد الفاتحة فلو لم تكن البسملة من القرآن في أوائل السور لما كتبوها وكان حكمها حكم آمين .

(المسألة الثانية في حكم الجهر بالبسملة والإسرار)

إذا ثبت بما تقدم من الأدلة أن البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها من السور حيث كتبت كان حكمها في الجهر والإسرار حكم الفاتحة فيجهر بها مع الفاتحة في الصلاة الجهرية ويسر بها

وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كلهم كانوا لايقرءون بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح الصلاة» قال سعيد بن جبير
عن ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايعرف ختم السورة حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم

وعن أبي مسعود قال كنا لانعلم فصل مابين السورتين حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم وقال الشعبي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب في بدء الأمر على رسم قريش باسمك اللهم حتى نزل «وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها» فكتب باسم الله حتى نزلت «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» فكتب بسم الله الرحمن حتى نزلت إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» فكتب مثلها قوله (الحمد لله) لفظه خبر كأنه يخبر عن المستحق للحمد هو الله عز وجل وفيه تعليم الخلق تقديره قولوا الحمد لله. والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة ويكون بمعنى الثناء عليه بما فيه من الخصال الحميدة يقال حمدت فلانا على ماأسدى إلى من نعمة وحمدته على علمه وشجاعته والشكر لايكون إلا على النعمة، والحمد أعم من الشكر » إذ لا يقال شكرت فلانا على علمه فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامد. وقيل الحمد باللسان قولا والشكر بالأركان فعلا قال الله تعالى «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا» وقال «اعملوا آل داود شكرا» يعني اعملوا الأعمال لأجل الشكر فشكرا مفعولا له وانتصب

مع الفاتحة فى الصلاة السرية ؛ وممن قال بالجهر بالبسملة من الصحابة أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وابن الزبير . ومن التابعين فمن بعدهم سعيد بن جبير وأبو قلابة والزهرى وعكرمة وعطاء وطاوس ومجاهد وعلى بن الحسين وسالم بن عبدالله ومحمد بن كعب القرظى وابن سيرين وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر ويزيد بن أسلم وعمر ومكحول وعمر بن عبد العزيز وعمرو ابن دينار ومسلم بن خالد وإليه ذهب الشافعى وهو أحد قولى ابن وهب صاحب مالك ويحكى أيضا عن ابن المبارك وأبى ثور . وممن ذهب إلى الإسرار بها من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود وعمار بن ياسر وابن مغفل وغيرهم . ومن التابعين فمن بعدهم الحسن والشعبى وإبراهيم النخعى وقتادة والأعمش والثورى وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم . أما حجة من قال بالجهر فقد روى جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة وابن عباس وأنس وعلى بن أبى طالب وسمرة بن جندب وأم سلمة « أن النبى صلى الله عليه وسلم جهر بالبسملة فنهم من صرح بذلك ومنهم من فهم ذلك من عبارته ولم يرد فى صريح الإسرار بها عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا روايتان إحداهما ضعيفة وهى رواية عبد الله بن مغفل والأخرى عن أنس وهى فى الصحيح وهى معللة بما أوجب سقوط الاحتجاج بها ، وروى نعيم بن عبد الله المجمر قال « صليت وراء أبى هريرة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ثم قرأ بأم القرآن وذكر الحديث وفيه ثم يقول إذا سلم إنى لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم » أخرجه النسائى وابن خزيمة فى صحيحه وقال أما الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فقد ثبت وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم وروى الدارقطنى بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « كان إذا قرأ وهو يؤم الناس افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم » وذكر الحديث قال الدار قطنى إسناده كلهم ثقات وعن ابن عباس قال كان النبى صلى الله عليه وسلم « يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه الدارقطنى وقال ليس فى روايته مجروح وأخرجه الحاكم أبو عبد الله وقال إسناده صحيح وليس له علة وفى رواية عن ابن عباس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه الدارقطنى وقال صحيح ليس فى إسناده مجروح وأخرجه الترمذى وقال ليس إسناده بذلك قال الشيخ أبو شامة أى لايماثل إسناده مافى الصحيح ولكن إذا انضم إلى ماتقدم من الأدلة رجح على مافى الصحيح وعن أنس قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالقراءة ببسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه الدارقطنى وقال إسناده صحيح وفيه عن محمد بن أبى السرى العسقلانى قال صليت خلف المعتمر ابن سليمان مالا أحصى صلاة الصبح والمغرب فكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم قبل فاتحة الكتاب وبعدها وسمعت المعتمر يقول ماآلوى أن أقتدى بصلاة أنس بن مالك وقال أنس بن مالك ما آلوى أن أقتدى بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه الدارقطنى وقال كلهم ثقات وأخرجه الحاكم أبو عبد الله وقال رواة هذا الحديث عن آخرهم كلهم ثقات . قلت وفى الباب أحاديث وأدلة وإيرادات وأجوبة من الجانبين يطول ذكرها وفى هذا القدر كفاية وبالله التوفيق . قوله عز وجل (الحمد لله) لفظه خبر كأنه سبحانه وتعالى

يخبر

يخبر أن المستحق للحمد هو الله تعالى ومعناه الأمر أى قولوا الحمد لله وفيه تعليم الخلق كيف يحمدونه والحمد والمدح أخوان ، وقيل بينهما فرق وهو أن المدح قد يكون قبل الإحسان وبعده والحمد لا يكون إلا بعد الإحسان ، وقيل إن المدح قد يكون منهيا عنه وأما الحمد فمأمور به ، والحمد يكون بمعنى الشكر على النعمة ويكون بمعنى الثناء بجميل الأفعال تقول حمدت الرجل على علمه وكرمه والشكر لا يكون إلا على النعمة فالحمد أعم من الشكر ، إذ لا تقول شكرت فلانا على علمه فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامدا ، وقيل الحمد باللسان قولا والشكر بالأركان فعلا والحمد ضد الذم واللام فى لله لام الاستحقاق كقولك الدار لزيد يعنى أنه المستحق للحمد لأنه المحسن المتفضل على كافة الخلق على الاطلاق (رب العالمين) الرب بمعنى المالك كما يقال رب الدار ورب الشيء أى مالكه ويكون بمعنى التربية والإصلاح يقال رب فلان الضيعة يربها إذا أصلحها فالله تعالى مالك العالمين ومربيهم ومصلحهم ، ولا يقال الرب للمخلوق معرفا بل يقال رب الشيء مضافا. والعالمين جمع عالم لا واحد له من لفظه ، وهو اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه جميع الخلق . وقال ابن عباس هم الجن والإنس لأنهم المكلفون بالخطاب وقيل العالم اسم لذوى العلم من الملائكة والجن والإنس ولا يقال للبهائم عالم لأنها لا تعقل. واختلف فى مبلغ عددهم فقيل لله ألف عالم ستمائة عالم فى البحر وأربعمائة فى البر وقيل ثمانون ألف عالم أربعون ألفا فى البر ومثلهم فى البحر وقيل ثمانية عشر ألف عالم الدنيا منها عالم واحد وما العمران فى الخراب إلا كفسطاط فى صحراء. الفسطاط الخيمة واشتقاق العالم من العلم وقيل من العلامة وإنما سمى بذلك لأنه دال على الخالق سبحانه وتعالى (الرحمن الرحيم) فالرحمن هو المنعم بما لا يتصور صدور تلك النعمة من العباد والرحيم هو المنعم بما يتصور صدور تلك النعمة من العباد فلا يقال لغير الله رحمن ، ويقال لغيره من العباد رحيم . فان قلت قد سمى مسيلمة الكذاب رحمن اليمامة وهو قول شاعرهم فيه : وأنت غيث الورى لا زلت رحمانا . قلت هو من باب تعنتهم فى كفرهم ومبالغتهم فى مدح صاحبهم فلا يلتفت إلى قولهم هذا . فان قلت قد ذكر الرحمن الرحيم فى البسملة فما فائدة تكريره هنا مرة ثانية . قلت ليعلم أن العناية بالرحمة أكثر ها من غيرها من الأمور وأن الحاجة إليها أكثر فنبه سبحانه وتعالى بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وأنه هو المتفضل بها على خلقه . قوله تعالى (مالك يوم الدين) يعنى أنه تعالى صاحب ذلك اليوم الذى يكون فيه الجزاء . والمالك هو المتصرف بالأمر والنهى وقيل هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى . وقيل مالك أوسع من ملك لأنه يقال مالك العبد والدابة ولا يقال ملك هذه الأشياء ولأنه لا يكون ملكا لشيء إلا وهو يملكه ، وقد يكون مالكا لشيء ولا يملكه وقيل ملك أولى لأن كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا وقيل هما بمعنى واحد مثل فرهين وفارهين قال ابن عباس مالك يوم الدين قاضى يوم الحساب وقيل الدين الجزاء ويقع على الخير والشر يقال كما تدين تدان وقيل هو يوم لا ينفع فيه إلا الدين وقيل الدين القهر يقال دنته فدان أى قهرته فذل . فان قلت لم خص يوم الدين بالذكر مع كونه مالكا للأيام كلها . قلت لأن ملك الأملاك

باعملوا . قوله (لله) اللام فيه للإستحقاق كما يقال الدار لزيد. قوله (رب العالمين. الرحمن الرحيم) فالرب يكون بمعنى المالك كما يقال لمالك الدار رب الدار ويقال رب الشيء إذا ملكه ويكون بمعنى التربية والإصلاح يقال رب فلان الضيعة يربها إذا أتمها وأصلحها فهو رب ، مثل طب وبر فالله تعالى مالك العالمين ومربيهم ولا يقال للمخلوق وهو الرب معرفا إنما يقال رب كذا مضافا لأن الألف واللام للتعميم وهو لا يملك الكل والعالمين جمع عالم والعالم جمع لا واحد له من لفظه واختلفوا في العالمين قال ابن عباس هم الجن والإنس لأنهم مكلفون بالخطاب قال الله تعالى «ليكون للعالمين نذيرا» وقال قتادة ومجاهد والحسن جميع المخلوقين قال الله تعالى : « قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض وما بينهما » واشتقاقه من العلم والعلامة سموا به لظهور أثر الصنعة فيهم قال أبو عبيدة أربع أمم الملائكة والإنس والجن والشياطين مشتق من العلم ولا يقال للبهائم عالم لأنها لا تعقل واختلفوا في مبلغهم قال سعيد بن المسيب لله ألف عالم ستمائة في البحر وأربع مائة في البر ، وقال مقاتل بن حيان لله ثمانون ألف عالم أربعون ألفا فى البحر وأربعون ألفا فى البر ، وقال وهب لله ثمانية عشر ألف عالم الدنيا عالم منها وما العمران في الخراب إلا كفسطاط في صحراء ، وقال كعب الأحبار ولا يحصى عدد العالمين أحد إلا الله قال « وما يعلم جنود ربك إلا هو » قوله (مالك يوم الدين) قرأ عاصم والكسائى ويعقوب مالك ، وقرأ الآخرون ملك

قال قوم معناهما واحد مثل فرهين وفارهين وحذرين وحاذرين ومعناهما الرب يقال رب الدار ومالكها، وقيل المالك هو القادر على اختراع الأعيان من العدم إلى الوجود ولا يقدر عليه أحد غير الله . قال أبو عبيدة مالك أجمع وأوسع لأنه يقال مالك العبد والطير والدواب ولا يقال ملك هذه الأشياء ولأنه لا يكون مالك لشئ إلا وهو يملكه وقد يكون ملك الشئ ولا يملكه. وقال قوم ملك أولى لأن كل ملك مالك وليس كل مالك ملكا ولأنه أوفق لسائر القرآن مثل قوله تعالى «فتعالى الله الملك الحق — والملك القدوس — وملك الناس» قال ابن عباس ومقاتل والسدى «ملك يوم الدين» قاضى يوم الحساب وقال قتادة الدين الجزاء، ويقع على الجزاء في الخير والشر جميعا كما يقال : كما تدين تدان. قال محمد بن كعب القرظي ملك يوم لاينفع فيه إلا الدين. وقال يمان بن ريان الدين القهر يقال دنته فدان أى قهرته فذل، وقيل الدين الطاعة أى يوم الطاعة وإنما خص يوم الدين بالذكر مع كونه مالكا للأيام كلها لأن الأملاك يومئذ زائلة فلا ملك ولا أمر إلا له قال الله تعالى «الملك يومئذ الحق للرحمن» وقال «لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» وقال «والأمر يومئذ لله» وقرأ أبو عمرو الرحيم ملك بادغام الميم في الميم وكذلك يدغم كل حرفين من جنس واحد أو مخرج واحد أو قريبى المخرج سواء كان الحرف ساكنا أو متحركا إلا أن يكون الحرف الأول مشددا أو منونا أو منقوصا أو مفتوحا أو تاء الخطاب قبله ساكن من غير المثلين فانه لا يدغمها وإدغام المتحرك يكون فى الإدغام الكبير وافقه حمزة في إدغام المتحرك في قوله «بيت طائفة — والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا — والذاريات ذروا» وأدغم التاء فيما بعدها من الحروف وافقه حمزة برواية رجاء وخلف والكسائى إلا في الراء عند اللام والدال عند الجيم وكذلك لا يدغم حمزة الدال عند السين والصاد والزاى ولا إدغام لسائر القراء إلا في أحرف معدودة. قوله (إياك) إيا كلمة ضمير خصت بالإضافة إلى المضمر ويستعمل مقدما على الفعل فيقال إياك أعنى وإياك أسأل ولا يستعمل مؤخرا إلا منفصلا فيقال ماعنيت إلا إياك. قوله (نعبد) أى نوحدك ونطيعك خاضعين والعبادة الطاعة مع التذلل والخضوع ؛ وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده، يقال طريق معبد أى مذلل (وإياك نستعين) نطلب منك المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا . فان قيل لم قدم ذكر العبادة على الاستعانة والاستعانة تكون قبل العبادة فلهذا يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل ونحن نحمد الله ونجعل التوفيق والاستعانة مع الفعل فلا فرق بين التقديم والتأخير ويقال الاستعانة نوع تعبد فكأنه ذكر جملة العبادة أولا ثم ذكر ماهو من تفاصيلها قوله (اهدنا الصراط المستقيم) اهدنا أرشدنا . وقال على وأبى بن كعب ثبتنا كما يقال للقائم قم حتى أعود إليك أى دم على ما أنت عليه، وهذا الدعاء من المؤمنين

يومئذ زائل فلا ملك ولا أمر يومئذ إلا لله تعالي كما قال تعالى «الملك يومئذ الحق للرحمن» وقال «لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» وقد يسمى فى دار الدنيا آحاد الناس بالملك وذلك على المجاز لا على الحقيقة . قوله تعالى (إياك نعبد) رجع من الخبر إلى الخطاب وفائدة ذلك من أول السورة إلى هنا ثناء والثناء فى الغيبة أولى. ومن قوله إياك نعبد دعاء والخطاب فى الدعاء أولى وقيل فيه ضمير أى قولوا إياك نعبد والمعنى إياك نخص بالعبادة ونوحدك ونطيعك خاضعين لك . والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل وسمى العبد عبدا لذلته وانقياده وقيل العبادة عبارة عن الفعل الذى يؤدى به الفرض لتعظيم الله تعالى فقول العبد إياك نعبد معناه لا أعبد أحدا سواك والعبادة غاية التذلل من العبد ونهاية التعظيم للرب سبحانه وتعالى لأنه العظيم المستحق للعبادة ولا تستعمل العبادة إلا فى الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم وهى إيجاد العبد من العدم إلى الوجود ثم هداه إلى دينه فكان العبد حقيقا بالخضوع والتذلل له (وإياك نستعين) أى منك نطلب المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا . فان قلت الاستعانة على العمل إنما تكون قبل الشروع فيه فلم أخر الاستعانة على العبادة وما الحكمة فيه ؟ . قلت ذكروا فيه وجوها أحدها أن هذا يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل ونحن بحمد الله نجعل التوفيق والاستطاعة مع الفعل فلا فرق بين التقديم والتأخير . الثانى أن الاستعانة نوع تعبد فكأنه ذكر جملة العبادة أولا ثم ذكر ماهو من تفاصيلها ثانيا . الثالث كأن العبد يقول شرعت فى العبادة فاني أستعين بك على إتمامها فلا يمنعنى من إتمامها مانع . الرابع إن العبد إذا قال إياك نعبد حصل له الفخر وذلك منزلة عظيمة فيحصل بسبب ذلك العجب فاردف ذلك بقوله وإياك نستعين ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة (اهدنا الصراط المستقيم) أى أرشدنا وقيل

ثبتنا

مع كونهم على الهداية بمعنى التثبيت وبمعنى طلب مزيد الهداية لأن الألطاف والهدايات من الله تعالى لاتتناهى على مذهب أهل السنة. الصراط وصراط قرئ بالسين رواه رويس عن يعقوب وهو الأصل، سمي سراطا لأنه يسرط السابلة ويقرأ بالزاى، وقرأ حمزة باشمام الزاى وكلها لغات صحيحة والاختيار الصاد عند أكثر القراء لموافقة المصحف. والصراط المستقيم قال ابن عباس وجابر هو الإسلام وهو قول مقاتل، وقال ابن مسعود هو القرآن وروى عن على مرفوعا «السراط المستقيم» كتاب الله وقال سعيد بن جبير طريق الجنة، وقال سهل بن عبد الله طريق السنة والجماعة وقال بكر بن عبد الله المزنى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال أبو العالية والحسن رسول الله وآله وصاحباه، وأصله في اللغة الطريق الواضح (صراط الذين أنعمت عليهم) أى مننت عليهم بالهداية والتوفيق قال عكرمة مننت عليهم بالثبات على الإيمان والاستقامة وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقيل هم كل من ثبته الله على الإيمان من النبيين والمؤمنين الذين ذكر الله تعالى في قوله « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين » الآية وقال ابن عباس هم قوم موسى وعيسى عليهما السلام قبل أن غيروا دينهم، وقال عبد الرحمن هم النبي ومن معه، وقال أبو العالية هم الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما وقال عبد الرحمن ابن زيد إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته، وقال شهر بن حوشب هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته. قرأ حمزة عليهم ولديهم وإليهم بضم هاءاتها؛ ويضم يعقوب كل هاء قبلها ياء ساكنة تثنية وجمعا إلا قوله « بين أيديهن وأرجلهن » وقرأ الآخرون بكسرهما فمن ضم الهاء ردها إلى الأصل لأنها مضمومة عند الانفراد ومن كسرها فلأجل الياء الساكنة والياء أخت الكسرة، وضم ابن كثير وأبو جعفر كل ميم جمع مشبعا في الوصل إذا لم يلقها ساكن فان لقيها ساكن فلا تشبع ونافع يخير ويضم ورش عند ألف القطع وإذا تلقته ألف وصل وقبل الهاء كسر أو ياء ساكنة ضم الهاء والميم حمزة والكسائي وكسرهما أبو عمرو وكذلك يعقوب إذا انكسر ماقبله والآخرون يقرءون بضم الميم وكسر الهاء لأجل الياء أو لكسر ماقبلها وضم الميم على الأصل قوله (غير المغضوب عليهم) يعني غير صراط الذين غضبت عليهم. والغضب هو إرادة الإنتقام من العصاة وغضب الله تعالى لايلحق عصاة المؤمنين إنما يلحق الكافرين (ولا الضالين) أى وغير الضالين عن الهدى وأصل الضلال الهلاك والغيبوبة يقال ضل الماء في اللبن إذا هلك وغاب وغير ههنا بمعنى لا ولا بمعنى غير ولذلك جاز العطف عليها كما يقال فلان غير محسن ولا مجمل فاذا كان غير بمعنى سوى فلا يجوز العطف عليها بلا، لايجوز في الكلام عندي سوى عبد الله ولا زيد، وقرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه صراط من أنعمت عليهم لأن الله

ثبتنا وهو كما تقول للقائم قم حتى أعود إليك ومعناه دم على ماأنت عليه وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية بمعنى سؤال التثبيت وطلب مزيد الهداية لأن الالطاف والهدايات من الله لاتتناهى وهذا مذهب أهل السنة والصراط الطريق قال جرير.

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد مستقيم

أى على طريقة حسنة قال ابن عباس هو دين الإسلام وقيل هو القرآن وروى ذلك مرفوعا. وقيل السنة والجماعة وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين للجنة (صراط الذين أنعمت عليهم) هذا بدل من الأول، أى الذين مننت عليهم بالهداية والتوفيق، وهم الأنبياء والمؤمنين الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » وقال ابن عباس هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيروا ولم يبدلوا وقيل هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته (غير المغضوب عليهم) يعنى غير صراط الذين غضبت عليهم. والغضب فى الأصل هو ثوران دم القلب لإرادة الانتقام ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «اتقوا الغضب فانه جمرة تتوقد فى قلب ابن آدم ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه» وإذا وصف الله به فالمراد منه الانتقام فقط دون غيره وهو انتقامه من العصاة وغضب الله لايلحق عصاة المؤمنين إنما يلحق الكافرين (ولا الضالين) أى وغير الضالين عن الهدى وأصل الضلال الغيبوبة والهلاك يقال ضل الماء فى اللبن إذا غاب فيه وهلك وقيل غير المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى. عن عدى بن حاتم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال» أخرجه الترمذى وذلك لأن الله تعالى حكم على

تعالى حكم علي اليهود بالغضب فقال «من لعنه الله وغضب عليه» وحكم على النصارى بالضلال «غير المغضوب عليهم» وغير الضالين وقيل المغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى فقال «ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل» وقال سهل ابن عبد الله غير المغضوب عليهم بالبدعة ولا الضالين عن السنة . والسنة للقارئ أن يقول بعد فراغه من قراءة الفاتحة (آمين) مفصولا عن الفاتحة بسكتة وهو مخفف ويجوز ممدودا ومقصورا ومعناه اللهم اسمع واستجب . وقال ابن عباس وقتادة معناه كذلك يكون ، وقال مجاهد هو اسم من أسماء الله تعالى ، وقيل هو طابع الدعاء ، وقيل هو خاتم الله على عباده يدفع به الآفات عنهم الخاتم الكتاب يمنعه من الفساد وظهور مافيه . أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد بن القاضي وأبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي قالا أنا أبو بكر أحمد بن حسن الحيرى أنا أبو علي محمد بن أحمد بن محمد بن معقل الميدانى ثنا محمد بن يحيى ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين فان الملائكة تقول آمين وإن الإمام يقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه » صحيح. (فصل في فضل فاتحة الكتاب) (٢٤) أنا أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمن ابن محمد الكتانى أنا أبو نصر محمد بن علي الفضل الخزاعي أنا أبو عثمان عمر بن عبد الله البصرى ثنا محمد بن عبد الله الوهاب ثنا خالد بن مخلد القطرانى حدثنى محمد بن جعفر ابن أبى كثير هو أخو إسماعيل بن جعفر عن ابن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة قال «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم علي أبيّ بن كعب وهو قائم يصلي فصاح به فقال تعال ياأبيّ فعجل أبي فى صلاته ثم جاء إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال مامنعك ياأبى أن تجيبنى إذ دعوتك أليس الله يقول ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم قال أبي لاجرم يارسول الله صلي الله عليه وسلم لاتدعونى إلا أجبتك وإن كنت مصليا قال أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها فقال أبيّ نعم يارسول الله فقال لاتخرج من باب المسجد حتى تعلمها والنبى صلى الله عليه وسلم يمشى يريد أن يخرج من المسجد فلما بلغ الباب ليخرج قال له أبي السورة يارسول الله فوقف ﷺ فقال نعم كيف تقرأ فى صلاتك فقرأ أبي أم القرآن فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده ما أنزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها وإنما هي السبع من المثانى التى أتانى الله عز وجل » هذا حديث حسن صحيح . أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابى أنا الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادى أنا أبو يزيد محمد بن يحيي بن خالد أنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ثنا يحيي بن آدم ثنا أبو الأحوص عن عمار بن ذريق عن عبد الله بن عيسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده جبريل إذ سمع نقضا

اليهود بالغضب فقال «من لعنه الله وغضب عليه» وحكم على النصارى بالضلال فقال «ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل» وقيل غير المغضوب عليهم بالبدعة ولا الضالين عن السنة والله أعلم .

(فصل : فى آمين وحكم الفاتحة وفيه مسئلتان : الأولى) السنة للقارئ بعد فراغه من الفاتحة أن يقول آمين مفصولا عنها بسكتة وهو مخفف وفيه لغتان المد والقصر قال فى المد : ويرحم الله عبدا قال آمينا . وقال فى القصر : آمين فزاد الله مابيننا بعدا . ومعنى آمين اللهم اسمع واستجب وقال ابن عباس معناه كذلك يكون وقيل هو اسم من أسماء الله تعالى وقيل هو خاتم الله تعالى على عباده به يدفع عنهم الآثام (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا أمن الإمام فأمنوا فان من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه » قال ابن شهاب وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول آمين وفى رواية للبخارى « أن الإمام إذا قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين فان الملائكة تقول آمين فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ماتقدم من ذنبه» (قوله فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة) معناه وافقهم فى وقت التأمين فأمن مع تأمينهم وقيل وافقهم فى الصفة والخشوع والإخلاص والقول الأول هو الصحيح . واختلفوا فى هؤلاء الملائكة فقيل هم الحفظة وقيل غيرهم من الملائكة (قوله غفر له ماتقدم من ذنبه) يعنى تغفر له الذنوب الصغائر دون الكبائر وقول ابن شهاب كان رسول

من فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال هذا باب فتح من السماء مافتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما إلا أعطيته » صحيح . أخبرنا أبوالحسن محمد بن محمد الشيرازي ثنا زاهر بن أحمد السرخسي أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أنا أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري عن مالك عن العلاء ابن عبد الرحمن أنه سمع أبا السائب مولى هشام بن زهرة يقول سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج غير تمام » قال فقلت يا أبا هريرة إني أحيانا أكون وراء الإمام فغمز ذراعي وقال اقرأ بها ياقارئ في نفسك فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «قال الله عز وجل قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرءوا يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله حمدني عبدي يقول العبد الرحمن الرحيم يقول الله أثنى على عبدي يقول العبد مالك يوم الدين يقول الله مجدني عبدي يقول العبد إياك نعبد وإياك نستعين يقول الله عز وجل هذه الآية بيني وبين عبدي فلعبدي ماسأل يقول العبد اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين يقول الله فهؤلاء لعبدي ولعبدي ماسأل» صحيح. [سورة البقرة مدنية وهي مائتان وثمانون وسبع آيات]

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول آمين معناه أن هذه صيغة تأمينه صلى الله عليه وسلم (المسئلة الثانية في حكم الفاتحة) اختلف العلماء في وجوب قراءة الفاتحة فذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء إلى وجوب الفاتحة وأنها متعينة في الصلاة ولا تجزئ إلا بها واحتجوا بما روى عبادة ابن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لاصلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب » أخرجاه في الصحيحين وبحديث أبي هريرة « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج ثلاثا غير تمام» الحديث وقد تقدم في فضل سورة الفاتحة. وذهب أبوحنيفة إلى أن الفاتحة لاتتعين على المصلي بل الواجب عليه قراءة آية من القرآن طويلة أو ثلاث آيات قصار واحتج بقوله تعالى« فاقرءوا ماتيسر منه» وبقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الأعرابي المسيء صلاته «ثم اقرأ بما تيسر معك من القرآن» أخرجاه في الصحيحين دليل الجمهور ماتقدم من الأحاديث. فان قيل المراد من الحديث لاصلاة كاملة قلنا هذا خلاف ظاهر لفظ الحديث ومما يدل عليه حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتجزئ صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب» أخرجه الدارقطني وقال إسناده صحيح وعنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يخرج فينادي لاصلاة إلا بفاتحة الكتاب فما زاد» أخرجه أبوداود. وأجيب عن حديث الأعرابي بأنه محمول على الفاتحة فانها متيسرة أو على مازاد على الفاتحة أو على العاجز عن قراءة الفاتحة ، والله أعلم .

[تفسير سورة البقرة]

قال ابن عباس هي أول مانزل بالمدينة قيل سوى آية وهي قوله تعالى «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» فانها نزلت يوم النحر بمكة في حجة الوداع وهي مائتان وست وقيل سبع وثمانون آية وستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة وخمسة وعشرون ألف حرف وخمسمائة حرف .

(فصل : في فضلها) (م) عن أبي أمامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اقرءوا القرآن فانه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فانهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما اقرءوا البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة » قال معاوية بن سلام بلغني أن البطلة السحرة (قوله اقرءوا الزهراوين) سميتا بذلك لنورهما يقال لكل مستنير زاهر (قوله كأنهما غمامتان أوغيابتان) قال أهل اللغة الغمامة والغيابة كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغيرها والمعنى أن ثوابهما يأتي كغمامتين (قوله فرقان من طير صواف) الفرقان الجماعة من الطير والصواف جمع صافة وهي التي تصف أجنحتها عند الطيران يحاجان . المحاجة المجادلة والمخاصمة وإظهار الحجة والبطلة السحرة كما جاء في الحديث مبينا يقال أبطل إذا جاء بالباطل . وفي الحديث دليل على جواز قول سورة البقرة وسورة آل عمران وكذا باقي السور وأنه لا كراهة في ذلك وكرهه بعض المتقدمين وقال إنما يقال السورة التي يذكر فيها البقرة وكذا باقي السور والصواب هو الأول وبه قال الجمهور لورود النص به (م)

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي » أخرجه الترمذي وقال حديث غريب (بسم الله الرحمن الرحيم) قوله عز وجل (الم) قيل إن حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وهي سر الله في القرآن فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كل كتاب سر وسر الله في القرآن أوائل السور وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي. وأورد على هذا القول بأنه لا يجوز أن يخاطب الله عباده بما لا يعلمون. وأجيب عنه بأنه يجوز أن يكلف الله عباده بما لا يعقل معناه كرمي الجمار فانه مما لا يعقل معناه، والحكمة فيه هو كمال الانقياد والطاعة فكذلك هذه الحروف يجب الإيمان بها ولا يلزم البحث عنها. وقال آخرون من أهل العلم هي معروفة المعاني. ثم اختلفوا فيها فقيل كل حرف منها مفتاح اسم من أسماء الله تعالى فالألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد وقيل الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه ويؤيد هذا أن العرب تذكر حرفا من كلمة تريد كلها قال الراجز :

قلت لها قفي فقالت قاف — لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف

قولها قاف أي وقفت فاكتفت بجزء الكلمة عن كلها ، والإيجاف الإسراع في السير قال ابن عباس الم أنا الله أعلم وقيل هي أسماء الله مقطعة لو علم الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم ألا ترى أنك تقول الر وحم ون فيكون مجموعها الرحمن وكذلك سائرها ولكن لم يتهيأ تأليفها جميعا وقيل أسماء السور وبه قال جماعة من المحققين وقال ابن عباس هي أقسام فقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها لأنها مباني كتبه المنزلة وأسمائه الحسنى وصفاته العليا وإنما اقتصر على بعضها وإن كان المراد كلها فهو كما تقول قرأت الحمد لله وتريد أنك قرأت السورة بكمالها فكأنه تعالى أقسم بهذه الحروف أو هذا الكتاب هو الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ وقيل إن الله تعالى لما تحداهم بقوله «فأتوا بسورة من مثله وفي آية بعشر سور مثله» فعجزوا عنه أنزل هذه الأحرف ومعناه أن القرآن ليس هو إلا من هذه الأحرف وأنتم قادرون عليها فكان يجب أن تأتوا بمثله فلما عجزتم عنه دل ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشر وقيل إنهم لما أعرضوا عن سماع القرآن وأراد الله صلاح بعضهم أنزل هذه الأحرف فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين اسمعوا إلى ما يجيء به محمد فاذا أصغوا إليه وسمعوه رسخ في قلوبهم فكان ذلك سببا لإيمانهم وقيل إن الله تعالى حير عقول الخلق في ابتداء خطابه ليعلموا أن لا سبيل لأحد إلى معرفة خطابه إلا باعترافهم بالعجز عن معرفة كنه حقيقة خطابه. واعلم أن مجموع الأحرف

المنزلة

(بسم الله الرحمن الرحيم الم) قال الشعبي وجماعة الم وسائر حروف الهجاء في أوائل السور من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه وهي سر القرآن فنحن نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى ، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها قال أبو بكر الصديق : في كل كتاب سر وسر الله في القرآن أوائل السور . وقال علي أن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي قال داود بن أبي هند كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور فقال ياداود إن لكل كتاب سرا وإن سر القرآن فواتح السور فدعها وسل عما سوى ذلك وقال جماعة معلومة المعاني فقيل كل حرف منها مفتاح اسم من أسمائه كما قال ابن عباس في كهيعص الكاف من كاف والهاء من هاد والياء من حكيم والعين من عليم والصاد من صادق وقيل في المص أنا الله الملك الصادق . وقال الربيع بن أنس في الم الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه اللطيف والميم مفتاح اسمه المجيد . وقال محمد بن كعب الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال معنى الم أنا الله أعلم ومعنى المص أنا الله أعلم وأفصل ومعنى الر أنا الله أرى ومعنى المر أنا الله أعلم وأرى قال الزجاج وهذا حسن فان العرب تذكر حرفا من كلمة تريدها كقولهم ● قلت لها قفي فقالت لي قاف ● أي وقفت . وعن سعيد بن جبير قال هي أسماء الله تعالى مقطعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم ألا ترى أنك تقول الر وحم و ن فيكون الرحمن

وكذلك سائرها إلا أنا لانقدر على وصلها وقال قتادة هذه الحروف أسماء القرآن. وقال مجاهد وابن زيد هي أسماء السور وبيانه أن القائل إذا قال قرأت المص عرف السامع أنه قرأ السورة التي افتتحت بالمص وروى عن ابن عباس أنها أقسام وقال الأخفش إنما أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها لأنها مبانى كتبه المنزلة ومبادى أسمائه الحسنى. قوله (فى ذلك الكتاب) أى هذا الكتاب وهو القرآن وقيل هذا فيه مضمر أى هذا ذلك الكتاب قال الفراء

كان الله قد وعد نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليه كتابا لايمحوه الماء ولا يخلق على كثرة الرد فلما أنزل الله القرآن قال هذا ذلك الكتاب الذى وعدتك أن أنزله عليك فى التوراة والإنجيل وعلى لسان النبيين من قبلك ، وهذا للتقريب وذلك للتبعيد . وقال ابن كيسان إن الله تعالى أنزل قبل سورة البقرة سورا كذب بها المشركون ثم أنزل سورة البقرة فقال ذلك الكتاب يعنى ماتقدم البقرة من السور لاشك فيه والكتاب مصدر وهو بمعنى المكتوب كما يقال للمخلوق خلق وهذا الدرهم ضرب فلان أى مضروبه وأصل الكتاب الضم والجمع ويقال للجند كتيبة لاجتماعها وسمي الكتاب كتابا لأنه جمع حرف إلى أحرف. قوله تعالى (لاريب فيه) أى لاشك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق وقيل هو خبر بمعنى النهي أى لاترتابوا فيه لقوله تعالى «فلا رفث ولافسوق» أى لاترفثوا ولا تفسقوا، قرأ ابن كثير فيه بالإشباع فى الوصل وكذلك كل هاء كناية قبلها ساكن يشبعها وصلا مالم يلها ساكن ثم إن كان الساكن قبل الهاء ياء يشبعها بالكسر ياء وإن كان غيرها يشبعها بالضم واوا ووافقه حفص فى قوله فيه مهانا فأشبعه. قوله تعالى (هدى للمتقين) يدغم الغنة عند اللام والراء أبو جعفر وابن كثير وحمزة والكسائى زاد حمزة

المنزلة فى أوائل السور أربعة عشر حرفا فى تسع وعشرين سورة وهى الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون وهى نصف حروف المعجم وسيأتى الكلام على باقيها فى مواضعها إن شاء الله تعالى . وقوله تعالى (ذلك الكتاب) أى هذا الكتاب هو القرآن وقيل فيه إضمار والمعنى هذا الكتاب الذى وعدتك به وكان الله قد وعد نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليه كتابا لايمحوه الماء ولا يخلق على كثرة الرد فلما أنزل القرآن قال هذا ذلك الكتاب الذى وعدتك به وقيل إن الله وعد بنى إسرائيل أن ينزل كتابا ويرسل رسولا من ولد إسماعيل فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبها من اليهود خلق كثير أنزل الله تعالى هذه الآية الم ذلك الكتاب أى هذا الكتاب الذى وعدت به على لسان موسى أن أنزله على النبى الذى هو من ولد إسماعيل والكتاب مصدر بمعنى المكتوب وأصله الضم والجمع ومنه يقال للجند كتيبة لاجتماعها فسمى الكتاب كتابا لأنه يجمع الحروف بعضها إلى بعض والكتاب اسم من أسماء القرآن (لاريب فيه) أى لاشك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق ، وقيل هو خبر بمعنى النهى أى لاترتابوا فيه. فان قلت قد ارتاب به قوم فما معنى لاريب فيه . قلت معناه أنه فى نفسه حق وصدق فمن حقق النظر عرف حقيقة ذلك (هدى للمتقين) الهدى عبارة عن الدلالة وقيل دلالة بلطف وقيل الهداية الإرشاد والمعنى هو هدى للمتقين وقيل هو هاد لاريب فى هدايته والمتقى اسم فاعل من وقاه فاتقى والتقوى جعل النفس فى وقاية مما يخاف وقيل التقوى فى عرف الشرع حفظ النفس مما يؤثم وذلك بترك المحظور وبعض المباحات قال ابن عباس المتقى من يتقى الشرك والكبائر والفواحش وهو مأخوذ من الاتقاء وأصله الحجز بين الشيئين يقال اتقى بترسه إذا جعله حاجزا بينه وبين مايقصده وفى الحديث «كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم» معناه أنا كنا إذا اشتد الحرب جعلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجزا بيننا وبين العدو فكأن المتقى يجعل امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه حاجزا بينه وبين النار وقيل المتقى هو من لايرى نفسه خيرا من أحد وقيل التقوى ترك ماحرم الله وأداء ماافترض وقيل التقوى ترك الإصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة وقيل التقوى أن لايراك مولاك حيث نهاك وقيل التقوى الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وفى الحديث «جماع التقوى فى قوله تعالى إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية» وقيل المتقى هو الذى يترك مالا بأس به حذرا مما به بأس وخص المتقين بالذكر تشريفا لهم لأن مقام التقوى مقام شريف عزيز لأنهم هم المنتفعون بالهداية ولو لم يكن للمتقين فضل إلا قوله تعالى هدى للمتقين لكفاهم . فان قلت كيف قال هدى للمتقين والمتقون هم المهتدون . قلت هو

والكسائي عند الياء وزاد حمزة عند الواو والآخرون لايدغمونها ويخفى أبو جعفر النون والتنوين عند الخاء والغين هدى
للمتقين أى هو هدى أى رشد وبيان لأهل التقوى وقيل هو نصب على الحال أى هاديا تقديره لاريب فيه فى هدايته للمتقين
والهدى ما يهتدى به الإنسان للمتقين أى للمؤمنين. قال ابن عباس المتقى من يتقى الشرك والكبائر والفواحش وهو مأخوذ
من الاتقاء وأصله الحجز بين شيئين ومنه يقال اتقى بترسه أى جعله حاجزا بين نفسه وبين مايقصده وفى الحديث كنا «إذا
اشتد البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم» أى إذا اشتد الحرب جعلناه حاجزا بيننا وبين العدو فكأن المتقى يجعل
امتثال أمر الله والاجتناب عما نهاه حاجزا بينه وبين العذاب. قال عمر بن الخطاب لكعب الأحبار حدثنى عن التقوى. فقال
هل أخذت طريقا ذا شوك قال نعم قال فما عملت فيه قال حذرت وتشمرت قال كعب وذلك التقوى. وقال شهر بن
حوشب المتقى الذى يترك مالا بأس به حذرا لما به بأس. وقال عمر بن عبد العزيز التقوى ترك ماحرم الله وأداء ماافترض
الله فما رزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير وقيل هو اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم. وفى الحديث «جماع التقوى فى قوله
تعالى إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية» وقال ابن عمر التقوى أن لاترى نفسك خيرا من أحد وتخصيص المتقين بالذكر
تشريف لهم أو لأنهم هم المنتفعون بالهدى. قوله تعالى (الذين يؤمنون) موضع الذين خفض نعتا للمتقين يؤمنون يصدقون
ويترك همزه أبو عمرو وورش والآخرون يهمزونه وكذلك يتركان كل همزة ساكنة هي فاء الفعل نحو يؤمن ومؤمن إلا
أحرفا معدودة وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب قال الله تعالى «وما أنت بمؤمن لنا» أى بمصدق لنا وهو فى الشريعة الاعتقاد
بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان فسمي الإقرار والعمل إيمانا لوجه من المناسبة لأنه من شرائعه. والإسلام هو
الخضوع والانقياد فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانا إذا لم يكن معه تصديق قال الله تعالى «قالت الأعراب آمنا قل
لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا» وذلك لأن الرجل قد يكون مستسلما فى الظاهر غير مصدق فى الباطن ويكون مصدقا
فى الباطن غير منقاد فى الظاهر. (٢٨) وقد اختلف جواب النبى صلى الله عليه وسلم عنهما حين سأله جبريل عليه
السلام وهو ما أخبرنا أبو طاهر محمد بن على ابن محمد التوبة الزراد

كقولك للعزيز الكريم أعزك الله وأكرمك تريد طلب الزيادة له إلى ماهو ثابت فيه كقوله
تعالى «اهدنا الصراط المستقيم» (الذين يؤمنون بالغيب)

البخارى أنا أبوالقاسم على بن أحمد الخزاعي ثنا أبو سعيد الهيثم بن كليب
الشاشى ثنا أبو أحمد عيسى بن أحمد العسقلانى أنا يزيد بن هارون أنا كهمس بن الحسن عن عبد الله بن بريدة عن يحيى
ابن يعمر قال كان أول من تكلم فى القدر يعنى بالبصرة معبد الجهنى فخرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن نريد مكة فقلنا
لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه ما يقول هؤلاء فلقينا عبد الله بن عمر فاكتنفته(١)
أنا وصاحبى أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فعلمت أنه سيكل الكلام إلى فقلت أبا عبد الرحمن إنه قد
ظهر قبلنا أناس يتفقرون هذا العلم ويطلبونه يزعمون أن لاقدر إنما الأمر أنف قال فاذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى منهم
برىء وأنهم منى براء والذى نفسى بيده لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه فى سبيل الله ماقبل الله منه شيئا حتى يؤمن بالقدر
خيره وشره ثم قال حدثنا عمر بن الخطاب قال «بينا نحن عند رسول الله صلي الله عليه وسلم إذ أقبل رجل شديد بياض
الثياب شديد سواد الشعر مايرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد فأقبل حتى جلس بين يدى رسول الله صلي الله عليه
وسلم وركبته تمس ركبته فقال يامحمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم الإسلام أن تشهد أن لاإله إلا
الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا فقال صدقت
فتعجبنا من سؤاله وتصديقه ثم قال فما الإيمان قال أن تؤمن بالله وحده وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت والجنة
والنار وبالقدر خيره وشره فقال صدقت ثم قال فما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فانك إن لم تكن تراه فانه يراك
قال صدقت ثم قال فأخبرنى عن الساعة فقال ماالمسئول عنها بأعلم من السائل قال صدقت قال فأخبرنى عن أماراتها قال
أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون فى بنيان المدر قال صدقت ثم انطلق فلما كان بعد ثالثة قال
لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعمر هل تدرى من الرجل قال قلت الله ورسوله أعلم قال ذلك جبرائيل أتاكم يعلمكم
أمر دينكم وما أتانى فى صورة إلا عرفته فيها إلا فى صورته هذه» قال الفراء فالنبى صلى الله عليه وسلم جعل الإسلام فى هذا

(١) اكتنفوا أى أحاطوا.

الحديث اسما لما ظهر من الأعمال والإيمان اسما لما بطن من الاعتقاد وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان وتصديق بالقلب ليس من الإسلام بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين ولذلك قال ذلك جبرائيل أتاكم يعلمكم أمر دينكم؛ والدليل على أن الأعمال من الإيمان ما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن علي ابن الشاة ثنا أبو أحمد بن محمد بن قريش بن سليمان ثنا بشر بن (٣٩) موسى ثنا خلف بن الوليد عن جرير الرازى عن سهل ابن أبى صالح عن عبدالله ابن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان قيل الإيمان مأخوذ من الأمان فسمي المؤمن مؤمنا لأنه يؤمن نفسه من عذاب الله والله تعالى مؤمن لأنه يؤمن العباد من عذابه (بالغيب) والغيب مصدر وضع موضع الاسم فقيل للغائب غيب كما قيل للعادل عدل وللزائر زور والغيب ما كان مغيبا من العيون قال ابن عباس الغيب هاهنا كل ما أمرت بالإيمان به فيما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان وقيل الغيب هاهنا هو الله تعالى وقيل القرآن وقال الحسن الآخرة وقال زر بن حبيش وابن جريج الوحي نظيره أعنده علم الغيب وقال ابن كيسان بالقدر وقال عبد الرحمن بن يزيد كنا عند عبد الله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما سبقوا به فقال عبد الله إن أمر محمد كان بينا لمن رآه والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانا أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ الم ذلك الكتاب إلى قوله المفلحون. قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وورش يؤمنون بترك الهمزة وكذلك يترك أبو جعفر كل همزة ساكنة إلا فى أنبئهم وينبئهم ونبئنا ويترك أبو عمرو كلها إلا أن يكون علامة للجزم نحو نبئهم وأنبئهم وتسؤهم

بالغيب) أي يصدقون بالغيب ؛ وأصل الإيمان فى اللغة التصديق قال الله تعالى « وما أنت بمؤمن لنا » أي بمصدق فاذا فسر الإيمان بهذا فانه لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق لا يتجزأ حتى يتصور كماله مرة ونقصانه أخرى . والإيمان فى لسان الشرع عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان وإذا فسر بهذا فانه يزيد وينقص وهو مذهب أهل السنة من أهل الحديث وغيرهم ، وفائدة هذا الخلاف تظهر فى مسئلة وهى أن المصدق بقلبه إذا لم يجمع إلى تصديقه العمل بموجب الإيمان من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك من أركان الدين هل يسمى مؤمنا أم لا؟ فيه خلاف ، والمختار عند أهل السنة أنه لا يسمى مؤمنا لقوله صلى الله عليه وسلم «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» فنفى عنه اسم الإيمان أو كمال الإيمان وأنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه وقالوا متى قبل الزيادة والنقص كان ذلك شكا وكفرا . وقال المحققون من متكلمى أهل السنة إن نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والإيمان الشرعى يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصانها وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر نصوص الكتاب والسنة التى جاءت بزيادة الإيمان ونقصانه وبين أصله من اللغة . وقال بعض المحققين إن نفس التصديق قد يزيد وينقص بكثرة النظر فى الأدلة والبراهين وقلة إمعان النظر فى ذلك ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى وأثبت من إيمان غيرهم لأنهم لا تعتريهم شبهة فى إيمانهم ولا تزلزل ، وأما غيرهم من آحاد الناس فليس كذلك ، إذ لا يشك عاقل أن نفس تصديق أبى بكر رضى الله عنه لا يساويه تصديق غيره من آحاد الأمة وقيل إنما سمى الإقرار والعمل إيمانا لوجه المناسبة لأنه من شرائعه ، والدليل على أن الأعمال من الإيمان ما روى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان » أخرجاه فى الصحيحين. البضع بكسر الباء ما بين الثلاثة إلى العشرة. والشعبة القطعة من الشيء. وإماطة الأذى عن الطريق وهو عزل الحجر والشوك ونحو ذلك عنه . والحياء بالمد وهو انقباض النفس عن فعل القبيح وإنما جعل من الإيمان وهو اكتساب لأن المستحيي ينزجر باستحيائه عن المعاصى فصار من الإيمان ، وقيل الإيمان مأخوذ من الأمن فسمى المؤمن مؤمنا لأنه يؤمن نفسه من عذاب الله . والإسلام هو الانقياد والخضوع فكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانا إن لم يكن معه تصديق وذلك أن الرجل قد يكون مسلما فى الظاهر غير مصدق فى الباطن (ق) عن أبى هريرة قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بارزا للناس فأتاه رجل فقال يارسول الله ما الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر قال يارسول الله ما الإسلام قال أن تعبد

وتسؤكم وإن نشأ وننسأها ونحوها أو يكون خروجا من لغة إلى أخرى نحو مؤصدة ورئيا ويترك ورش كل همزة ساكنة كانت فاء الفعل إلا تؤوى وتؤويه ولا يترك من عين الفعل إلا الرؤيا وبابه إلا ماكان على وزن فعل قوله (ويقيمون الصلوة) أى يديمونها ويحافظون عليها فى مواقيتها بحدودها وأركانها وهيئاتها يقال قام بالأمر وأقام الأمر إذا أتى به معطيا حقوقه، أو المراد بها الصلوات الخمس ذكر بلفظ الواحد كقوله تعالى فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق يعنى الكتب. والصلاة فى اللغة الدعاء قال الله تعالى «فصل عليهم» أى ادع لهم. وفى الشريعة اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء، وثناء وقيل فى قوله تعالى «إن الله وملائكته يصلون على النبى» الآية إن الصلاة من الله فى هذه الآية الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن المؤمنين الدعاء. قوله (ومما رزقناهم) أى أعطيناهم والرزق اسم لكل ماينتفع به حتى الولد والعبد وأصله فى اللغة الحظ والنصيب (ينفقون) يتصدقون قال قتادة ينفقون فى سبيل الله وطاعته ويتصدقون وأصل الإنفاق الإخراج عن اليد والملك ومنه نفاق السوق لأنه يخرج فيه السلعة عن اليد ومنه نفقت الدابة إذا خرجت

الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال يارسول الله ماالإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال يارسول الله متى الساعة قال ماالمسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها فذاك من أشراطها وإذا كانت الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها وإذا تطاول رعاء البهم فى البنيان فذاك من أشراطها وخمس لايعلمهن إلا الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام إلى قوله عليم خبير قال ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ردوا على هذا الرجل فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» وفى أفراد مسلم من حديث عمر بن الخطاب نحو هذا الحديث وبمعناه وقد تقدم الكلام على معنى الإيمان والإسلام. وبقى أشياء تتعلق بمعنى الحديث؛ فقوله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بارزا أى ظاهرا، وقوله أن تؤمن بالله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر هو بكسر الخاء وقيل فى الجمع بين قوله وتؤمن بلقاء الله وبالبعث فان اللقاء يحصل بمجرد الانتقال إلى الدار الآخرة وهو الموت والبعث هو بعده عند قيام الساعة وفى تقييده بالآخر وجه آخر وهو أن خروجه إلى الدنيا بعث من الأرحام وخروجه من القبر إلى الآخرة بعث آخر. قوله ماالإحسان هو هنا الإخلاص فى العمل وهو شرط فى صحة الإيمان والإسلام لأن من أتى بلفظ الشهادة وأتى بالعمل من غير إخلاص لم يكن محسنا، وقيل أراد بالإحسان المراقبة وحسن الطاعة فان من راقب الله حسن عمله وهو المراد بقوله فان لم تكن تراه فانه يراك. وأشراط الساعة علاماتها التى تظهر قبلها. قوله إذا ولدت الأمة ربها يعنى سيدها والمعنى أن الرجل تكون له الأمة فتلد له ولدا فيكون ذلك الولد ابنها وسيدها ورعاء البهم بكسر الراء وفتح الباء وإسكان الهاء من البهم وهى الصغار من أولاد الضأن، والمعنى أنه يبسط المال على أهل البادية وأشباههم حتى يتباهون فى البناء ويسودون الناس فذلك من أشراط الساعة والله أعلم. قوله تعالى بالغيب، الغيب هنا مصدر وضع موضع الاسم فقيل الغائب غيب وهو ماكان مغيبا عن العيون قال ابن عباس الغيب هنا كل ماأمرت بالإيمان به مما غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنة والنار والصراط والميزان. وقيل الغيب هنا هو الله تعالى وقيل القرآن وقيل بالآخرة وقيل بالوحى وقيل بالقدر وقال عبدالرحمن بن يزيد كنا عند عبد الله بن مسعود فذكرنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وماسبقونا به فقال عبدالله بن مسعود إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بينا لمن رآه والذى لاإله غيره ما آمن أحد قط أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ الم ذلك الكتاب لاريب فيه إلى قوله وأولئك هم المفلحون (ويقيمون الصلوة) أى يداومون عليها فى مواقيتها بحدودها وإتمام أركانها وحفظها من أن يقع فيها خلل فى فرائضها وسننها وآدابها يقال قام بالأمر وأقام الأمر إذا أتى به معطى حقوقه، والمراد به الصلوات الخمس. والصلاة فى اللغة الدعاء والرحمة ومنه وصل عليهم أى ادع لهم وأصله من صليت العود إذا لينته فكأن المصلى يلين ويخشع. وفى الشرع اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء مع النية (ومما رزقناهم) أى أعطيناهم من الرزق وهو اسم لما ينتفع به من مال وولد وأصله الحظ والنصيب (ينفقون) أى يخرجون

روجها فهذه الآية فى المؤمنين من مشركى العرب. قوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) يعنى القرآن (وما أنزل من قبلك) من التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة علي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويترك أبو جعفر وابن كثير وقالون وأهل البصرة ويعقوب كل مد يقع بين كل كلمتين والآخرون يمدونها وهذه الآية فى المؤمنين من أهل الكتب. قوله (وبالآخرة) أى بالدار الآخرة سميت الدنيا دنيا لدنوها من الآخرة وسميت الآخرة آخرة لتأخرها وكونها بعد الدنيا (هم يوقنون) أى يستيقنون أنها كائنة من الايقان وهو العلم . وقيل الايقان واليقين علم عن استدلال ولذلك لايسمي الله موقنا ولا علمه يقينا ، إذ ليس علمه عن استدلال. قوله (أولئك) أى أهل هذه الصفة وأولاء كلمة معناها الكناية عن جماعة نحوهم والكاف للخطاب كما فى حرف ذلك (على هدى) أى رشد وبيان وبصيرة (من ربهم وأولئك هم المفلحون) الناجون والفائزون فازوا بالجنة ونجوا من النار ويكون الفلاح بمعنى البقاء أى باقون فى النعيم المقيم، وأصل الفلاح القطع والشق ومنه سمي الزراع فلاحا لأنه يشق الأرض وفى مثل: الحديد بالحديد يفلح أى يشق ، فهم المقطوع لهم بالخير فى الدنيا والآخرة. قوله (إن الذين كفروا) يعنى مشركى العرب قال الكلبي يعنى اليهود ، والكفر هو الجحود وأصله من الستر ومنه سمي الليل كافرا لأنه يستر الأشياء بظلمته وسمي الزراع كافرا لأنه يستر الحب بالتراب فالكافر يستر الحق بجحوده. والكفر علي أربعة أنحاء: كفر إنكار وكفر جحود وكفر عناد وكفر نفاق فكفر الإنكار هو أن لايعرف الله أصلا ولا يعترف به وكفر به ، وكفر الجحود هو أن يعرف الله بقلبه ولا يعترف بلسانه ككفر إبليس وكفر اليهود قال الله تعالى « فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به » وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبى طالب حيث يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

ويتصدقون فى طاعة الله تعالى وسبيله ويدخل فيه إنفاق الواجب كالزكاة والنذر والإنفاق على النفس وعلى من تجب نفقته عليه والإنفاق فى الجهاد إذا وجب عليه والإنفاق فى المندوب وهو صدقة التطوع ومواساة الإخوان وهذه كلها مما يمدح بها وأدخل من التى هى للتبعيض صيانة لهم وكفا عن السرف والتبذير المنهى عنهما فى الإنفاق (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) أى يصدقون بالقرآن المنزل عليك وبالكتب المنزلة على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء كلها فيجب الإيمان بذلك كله (وبالآخرة) يعنى بالدار الآخرة سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا وكونها بعدها (هم يوقنون) من الإيقان وهو العلم والمعنى يستيقنون ويعلمون أنها كائنة (أولئك) أى الذين هذه صفتهم (على هدى من ربهم) أى على رشاد ونور من ربهم وقيل على استقامة (وأولئك هم المفلحون) أى الناجون الفائزون نجوا من النار وفازوا بالجنة والمفلح الظافر بالمطلوب أى الذى انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه ويكون الفلاح بمعنى البقاء قال الشاعر :

لو كان حى مدرك الفلاح ... أدركه ملاعب الرماح

يريد البقاء فيكون المعنى أولئك هم الباقون فى النعيم المقيم والفلاح والظفر وإدراك البغية من السعادة والعز والبقاء والغنى وأصل الفلاح الشق كما قيل « إن الحديد بالحديد يفلح » أى يقطع فعلى هذا يكون المعنى أولئك هم المقطوع لهم بالخير فى الدنيا والآخرة . واعلم أن الله عز وجل صدر هذه السورة بأربع آيات أنزلها فى المؤمنين وبآيتين أنزلهما فى الكافرين وبثلاث عشرة آية أنزلها فى المنافقين فأما التى فى الكفار فقوله تعالى (إن الذين كفروا) أى جحدوا وأنكروا وأصل الكفر فى اللغة الستر والتغطية ومنه سمى الليل كافرا لأنه يستر الأشياء بظلمته قال الشاعر « فى ليلة كفر النجوم غمامها » أى سترها والكفر على أربعة أضرب : كفر إنكار وهو أن لايعرف الله أصلا ككفر فرعون وهو قوله ماعلمت لكم من إله غيرى وكفر جحود وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر إبليس وكفر عناد وهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين به ككفر أمية بن أبى الصلت وأبى طالب حيث يقول فى شعر له :

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولايعتقد بالقلب وجميع هذه الأنواع سواء فى أن من أتى الله تعالى بواحد منها لايغفر له . قوله (سواءعليهم) متساولديهم (أأنذرتهم) خوفتهم وحذرتهم، والإنذار إعلام مع تخويف وتحذير فكل منذر معلم وليس كل معلم منذرا، وحقق ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى الهمزتين فى أأنذرتهم وكذلك كل همزتين تقعان فى أول الكلمة والآخرون يلينون الثانية (أم) حرف عطف على الاستفهام (لم) حرف جزم لايلي إلا الفعل لأن الجزم يختص بالأفعال (تنذرهم لايؤمنون) وهذه الآية

فى أقوام حقت عليهم كلمة الشقاوة فى سابق علم الله ثم ذكر سبب تركهم الإيمان فقال (ختم الله) أى طبع الله (علي قلوبهم) فلا تعى خيرا ولا تفهمه وحقيقة الختم الاستيثاق من الشىء كيلا يدخله ماخرج منه ولا يخرج عنه ما فيه ومنه الختم علي الباب قال أهل السنة أى حكم على قلوبهم بالكفر لما سبق من علمه الأولى فيهم وقال المعتزلة جعل على قلوبهم علامة تعرفهم الملائكة بها (وعلي سمعهم) أى علي موضع سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به وأراد علي أسماعهم كما قال علي قلوبهم وإنما وحده لأنه مصدر والمصدر لايثنى ولايجمع (وعلي أبصارهم غشاوة) هذا ابتداء كلام غشاوة أى غطاء فلا يرون الحق وقرأ أبو عمر والكسائى أبصارهم بالإمالة وكذلك كل ألف بعدها راء مجرورة فى الأسماء كانت لام الفعل يميلانها ويميل حمزة منها مايكرر الراء كالقرار ونحوه زاد الكسائى قال إمالة جبارين والجوار والجار ومأواكم ومن أنصارى ونسارع وبابه وكذلك يميل هؤلاء كل ألف بمنزلة لام الفعل أو كانت علمة للتأنيث إذا كان قبلها راء فعلم التأنيث مثل الكبرى والأخرى ولام الفعل مثل ترى وفترى يكسرون الراء منها (ولهم عذاب عظيم) أى فى الآخرة وقيل القتل والأسر فى الدنيا والعذاب الدائم فى العقبى والعذاب كل مايعنى الإنسان ويشق عليه قال الخليل العذاب مايمنع الإنسان عن مراده ومنه الماء العذب لأنه يمنع العطش. قوله (ومن الناس من يقول آمنا بالله) نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى ابن سلول ومعتب بن قشير وجد بن قيس وأصحابهم حيث أظهروا كلمة الإسلام ليسلموا من النبى صلى الله عليه وسلم

وكفر نفاق وهو أن يقر بلسانه ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه ، فجميع هذه الأنواع كفر. وحاصله أن من جحد الله أو أنكر وحدانيته أو أنكر شيئا مما أنزله على رسوله أو أنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو أحدا من الرسل فهو كافر فان مات على ذلك فهو فى النار خالدا فيها ولا يغفر الله له. نزلت فى مشركى العرب وقيل فى اليهود (سواء عليهم) أى متساو لديهم (أأنذرتهم) أى خوفتهم وحذرتهم والإنذار أعلام مع تخويف فكل منذر معلم وليس كل معلم منذرا (أم لم تنذرهم لايؤمنون) أى لايصدقون وهذه الآية فى أقوام حقت عليهم كلمة العذاب فى سابق علم الله الأزلى أنهم لايؤمنون. ثم ذكر سبب تركهم الإيمان فقال تعالى (ختم الله على قلوبهم) أى طبع الله عليها فلا تعى خيرا ولا تفهمه وأصل الختم التغطية وحقيقة الاستيثاق من الشئ لكى لايخرج منه ماحصل فيه ولا يدخله ماخرج منه ومنه ختم الكتاب. قال أهل السنة ختم الله على قلوبهم بالكفر لما سبق فى علمه الأزلى فيهم وإنما خص القلب بالختم لأنه محل الفهم والعلم (وعلى سمعهم) أي وختم على موضوع سمعهم فلا يسمعون الحق ولا ينتفعون به لأنها تمجه وتنبو عن الاصغاء إليه كأنها مستوثق منها بالختم أيضا، وذكر السمع بلفظ التوحيد ومعناه الجمع قيل إنما وحده لأنه مصدر والمصدر لايثنى ولا يجمع (وعلى أبصارهم غشاوة) هذا ابتداء كلام والغشاوة الغطاء ومنه غاشية السرج أى وجعل على أبصارهم غشاوة فلا يرون الحق وهى غطاء التعامى عن آيات الله ودلائل توحيده (ولهم عذاب عظيم) يعنى فى الآخرة وقيل الأسر والقتل فى الدنيا والعذاب الدائم فى العقبى وحقيقة العذاب هو كل مايؤلم الإنسان ويعيبه ويشق عليه وقيل هو الايجاع الشديد وقيل هو مايمنع الإنسان من مراده ومنه الماء العذب لأنه يمنع العطش والعظيم ضد الحقير . قوله عز وجل (ومن الناس من يقول آمنا بالله) نزلت فى المنافقين عبدالله بن أبى ابن سلول ومعتب بن قشير وجد بن قيس وأصحابهم وذلك أنهم أظهروا كلمة الإسلام ليسلموا بها من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأسروا الكفر واعتقدوه وأكثرهم من اليهود. وصفة المنافق أن يعترف بلسانه بالإيمان ويقربه وينكره بقلبه ويصبح على حال ويمسى على غيرها، والناس جمع إنسان سمى به لأنه عهد إليه فنسى

وأصحابه واعتقدوا خلافها وأكثرهم من اليهود، والناس جمع إنسان سمي به لأنه عهد إليه فنسى كما قال الله تعالى «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى» وقيل لظهوره من قولهم: آنست أي أبصرت وقيل لأنه يستأنس به (وباليوم الآخر) أي بيوم القيامة قال الله تعالى (وما هم بمؤمنين يخادعون الله) أي يخالفون الله وأصل الخداع في اللغة الإخفاء ومنه المخدع للبيت الذي يخفى فيه المتاع فالمخادع يظهر خلاف ما يضمر والخداع من الله في قوله «وهو خادعهم» أي يظهر لهم ويعجل لهم من النعيم في الدنيا خلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة. وقيل أصل الخداع الفساد معناه يفسدون ما أظهروا من الإيمان بما أضمروا من الكفر وقوله «وهو خادعهم» أي يفسد عليهم نعيمهم في الدنيا بما يصيرهم إليه من عذاب الآخرة. فان قيل ما معنى قوله يخادعون الله والمفاعلة للمشاركة وقد جل الله تعالى عن المشاركة في المخادعة؟ قيل قد ترد المفاعلة لا على معنى المشاركة كقولك عافاك الله وعافيت فلانا وطارقت النعل. وقال الحسن معناه يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى «إن الذين يؤذون الله» أي أولياء الله. وقيل ذكر الله هاهنا تحسين والقصد بالمخادعة الذين آمنوا كقوله تعالى «فأن لله خمسه وللرسول» وقيل معناه يفعلون في دين الله ما هو خداع في دينهم (والذين آمنوا) أي ويخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم: آمنا وهم غير مؤمنين (وما يخدعون) قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمر: وما يخادعون كالحرف الأول وجعلوه من المفاعلة التي تختص بالواحد، وقرأ الباقون وما يخدعون على الأصل (إلا أنفسهم) لأن وبال خداعهم راجع إليهم لأن الله يطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على نفاقهم فيفتضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العقبى (وما يشعرون) أي لا يعلمون أنهم يخدعون أنفسهم وأن وبال خداعهم يعود عليهم (في قلوبهم مرض) شك ونفاق، وأصل المرض الضعف سمي الشك في الدنيا مرضا لأنه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن (فزادهم الله مرضا) لأن الآيات كانت تنزل تترى آية بعد آية كلما كفروا بآية ازدادوا كفرا ونفاقا وذلك معنى قوله تعالى «وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم» قرأ ابن عامر وحمزة فزادهم بالإمالة وزاد حمزة إمالة زاد حيث وقع وزاغ وخاب وطاب وحاق وضاق، والآخرون لا يميلونها

قال الشاعر ▪ سميت إنسانا لأنك ناسي ▪ وقيل سمي إنسانا لأنه يستأنس بمثله (وباليوم الآخر) أي وآمنا باليوم الآخر وهو يوم القيامة سمي بذلك لأنه يأتي بعد الدنيا وهو آخر الأيام المحدودة المعدودة وما بعده فلا حد له ولا آخر قال الله تعالى ردا على المنافقين (وما هم بمؤمنين) نفى عنهم الإيمان بالكلية (يخادعون الله والذين آمنوا) أي يخالفون الله والخديعة الحيلة والمكر وأصله في اللغة الإخفاء والمخادع يظهر ضد ما يضمر ليتخلص فهو بمنزلة النفاق، وهو خادعهم أي يظهر لهم نعيم الدنيا ويعجله لهم بخلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة. فان قلت المخادعة مفاعلة وإنما تجيء في الفعل المشترك، والله تعالى منزه عن المشاركة. قلت المفاعلة قد ترد لا على وجه المشاركة تقول عافاك الله وطارقت النعل وعاقبت اللص فالمخادعة هنا عبارة عن فعل الواحد والله تعالى منزه عن أن يكون منه خداع. فان قلت كيف يخادع الله وهو يعلم الضمائر والأسرار فمخادعة الله ممتنعة فكيف يقال يخادعون الله؟. قلت إن الله تعالى ذكر نفسه وأراد به رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك تفخيم لأمره وتعظيم لشأنه، وقيل أراد به المؤمنين وإذا خادعوا المؤمنين فكأنهم خادعوا الله تعالي وذلك أنهم ظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لم يعلموا حالهم ولتجرى عليهم أحكام الإسلام في الظاهر وهم على خلافه في الباطن (وما يخدعون إلا أنفسهم) أي إن الله تعالى يجازيهم على ذلك ويعاقبهم عليه فلا يكونون في الحقيقة إلا خادعين أنفسهم؛ وقيل إن وبال ذلك الخداع راجع إليهم لأن الله تعالى يطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على نفاقهم فيفتضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العقبى. والنفس ذات الشيء وحقيقته. وقيل للدم نفس لأن به قوة البدن (وما يشعرون) أي لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم (في قلوبهم مرض) أي شك ونفاق وأصل المرض الضعف والخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان وسمى الشك في الدين والنفاق مرضا لأنه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن (فزادهم الله مرضا) يعني أن الآيات كانت تنزل تترى، أي آية بعد آية فلما كفروا بآية ازدادوا بعد ذلك كفرا ونفاقاً

(ولهم عذاب اليم) مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم (بما كانوا يكذبون) ما للمصدر أى بتكذيبهم الله ورسوله فى السر وقرأ الكوفيون يكذبون بالتخفيف أى بكذبهم إذا قالوا آمنا وهم غير مؤمنين ، وإذا قيل قرأ الكسائى قيل وغيض وجيء وحيل وسيق وسيئت بروم أوائلهن الضم ووافق أهل المدينة فى سيء وسيئت ووافق ابن عامر فى سيق وحيل وسيء وسيئت لأن أصلها قول بضم القاف وكسر الواو مثل قتل وكذلك فى إخواته فأشير إلى الضمة لتكون دالة على الواو المنقلبة والباقون يكسر أوائلهن استثقلوا الحركة علي الواو فنقلوا كسرتها إلى فاء الفعل وانقلبت الواو ياء لكسرة ماقبلها (وإذا قيل لهم) يعنى للمنافقين ، وقيل لليهود أى قال لهم المؤمنون (لاتفسدوا فى الأرض) بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وقيل معناه لاتكفروا والكفر أشد فسادا فى الدين (قالوا إنما نحن مصلحون) يقولون هذا القول كذبا كقولهم آمنا وهم كاذبون (ألا) كلمة تنبيه ينبه بها المخاطب (إنهم هم المفسدون) أنفسهم بالكفر والناس بالتعويق عن الايمان (ولكن لايشعرون)

أى لايعلمون أنهم مفسدون لأنهم يظنون أن الذى هم عليه من إبطان الكفر صلاح وقيل لايعلمون ما أعد الله لهم من العذاب (وإذا قيل لهم) أى للمنافقين وقيل لليهود (آمنوا كما آمن الناس) عبد الله بن سلام وغيره من مؤمنى أهل الكتاب وقيل كما آمن المهاجرون والأنصار (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) أى الجهال . فان قيل كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم : أنؤمن كما آمن السفهاء . قيل إنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لاعند المؤمنين فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلك فرد الله عليهم فقال (ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون) أنهم كذلك . والسفيه خفيف العقل رقيق الحلم من قولهم ثوب سفيه أى رقيق . وقيل السفيه الكذاب الذى يتعمد بخلاف مايعلم. قرأ أهل الكوفة والشام السفهاء ألا بتحقيق الهمزتين وكذلك كل همزتين وقعتا فى كلمتين اتفقتا أو اختلفتا ، والآخرون يحققون الأولى ويلينون الثانية فى المختلفتين طلبا للخفة فان كانتا متفقتين مثل هؤلاء إن وأولياء أولئك وجاء أمر ربك قرأ أبو عمرو البزى عن ابن كثير بهمزة واحدة وقرأ أبو جعفر وورش والقواش ويعقوب بتحقيق الأولى وتليين الثانية وقرأ قالون بتليين الأولى وتحقيق الثانية لأن مايستأنف أولى بالهمزة مما يسكت عليه (وإذا لقوا الذين آمنوا) يعنى هؤلاء المنافقين إذا لقوا المهاجرين والأنصار (قالوا آمنا) كايمانكم (وإذا خلوا) رجعوا ويجوز أن يكون من الخلوة و (إلى) بمعنى الباء أى بشياطينهم وقيل إلى بمعنى مع كما قال الله تعالى «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم» أى مع أموالكم (شياطينهم) أى رؤسائهم وكهنتهم قال ابن عباس وهم خمسة نفر من اليهود :

(ولهم عذاب أليم) أى مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم (بما كانوا يكذبون) أى بتكذيبهم الله ورسوله فى السر ، وقرىء بالتخفيف أى بكذبهم إذ قالوا آمنا وهم غير مؤمنين (وإذا قيل لهم) يعنى المنافقين وقيل اليهود والمعنى إذا قال لهم المؤمنون (لاتفسدوا فى الأرض) أى بالكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن (قالوا إنما نحن مصلحون) يعنى يقولونه كذبا (ألا) كلمة تنبيه ينبه بها المخاطب (إنهم هم المفسدون) يعنى فى الأرض بالكفر وهو أشد الفساد (ولكن لايشعرون) وذلك لأنهم يظنون أن ماهم عليه من النفاق وإبطان الكفر صلاح وهو عين الفساد. وقيل لايشعرون ماأعد الله لهم من العذاب (وإذا قيل لهم) يعنى المنافقين وقيل اليهود (آمنوا كما آمن الناس) يعنى المهاجرين والأنصار. وقيل عبدالله ابن سلام وأصحابه من مؤمنى أهل الكتاب ، والمعنى أخلصوا فى إيمانكم كما أخلص هؤلاء فى إيمانهم لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) أى الجهال . فان قلت كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم : أنؤمن كما آمن السفهاء . قلت كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لاعند المؤمنين فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلك فرد الله ذلك عليهم بقوله (ألا إنهم هم السفهاء) يعنى الجهال . وأصل السفه خفة العقل ورقة العلم وإنما سمي الله المنافقين سفهاء لأنهم كانوا عند أنفسهم عقلاء رؤساء فقلب ذلك عليهم وسماهم سفهاء (ولكن لايعلمون) يعنى أنهم كذلك . قوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا) يعنى هؤلاء المنافقين إذا لقوا المهاجرين والأنصار (قالوا آمنا) كايمانكم (وإذا خلوا) أى رجعوا . وقيل هو من الخلوة (إلى) قيل بمعنى الباء أى بـ(شياطينهم) وقيل بمعنى مع أى مع شياطينهم والمراد بشياطينهم رؤساؤهم وكهنتهم . قال ابن عباس وهم خمسة نفر : كعب بن الأشرف من اليهود بالمدينة وأبو بردة من بنى أسلم ، وعبد الدار فى جهينة وعوف بن عامر فى بنى أسد وعبدالله بن السوداء بالشام

كعب بن الأشرف بالمدينة وأبو بردة في بني أسلم وعبد الدار في جهينة وعوف بن عامر في بني أسد وعبد الله بن السوداء بالشام ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان تابع له والشيطان المتمرد العاتي من الجن والإنس ومن كل شيء وأصله البعد يقال بئر شطون أي بعيدة العمق سمي الشيطان شيطانا لامتداده في الشر وبعده من الخير وقال مجاهد إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين (قالوا إنا معكم) أي على دينكم (إنما نحن مستهزئون) بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه بما نظهر من الإسلام قرأ أبو جعفر «مستهزئون ويستهزئون وقل استهزئوا وليطفئوا وليواطئوا ويستنبئونك وخاطئين وخاطئون ومتكئين ومتكئون فمالئون والمنشئون» بترك الهمزة فيهن (الله يستهزئ بهم) أي يجازيهم (٣٥) جزاء استهزائهم سمى الجزاء باسمه لأنه بمقابلته كما قال الله تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» قال ابن عباس هو أن يفتح لهم باب من الجنة فاذا انتهوا إليه سد عنهم وردوا إلى النار. وقيل هو أن يضرب للمؤمنين نور يمشون على الصراط فاذا وصل المنافقون إليه حيل بينهم وبين المؤمنين كما قال الله تعالى «وحيل بينهم وبين ما يشتهون» وقال الله تعالى «فضرب بينهم بسور له باب» الآية وقال الحسن معناه: الله يظهر المؤمنين على نفاقهم (ويمدهم) يتركهم ويمهلهم. والمد والإمداد واحد وأصله الزيادة إلا أن المد كثيرا ما يأتي في الشر والإمداد في الخير قال الله تعالى في المد «ونمد له من العذاب مدا» وقال في الإمداد «وأمددناكم بأموال وبنين، وأمددناهم بفاكهة» (في طغيانهم) أي في ضلالتهم وأصل الطغيان مجاوزة الحد ومنه «طغى الماء» (يعمهون) أي يترددون في الضلالة متحيرين (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) بالإيمان (فما ربحت تجارتهم) أي استبدلوا الكفر أي ما ربحوا في تجارتهم أضاف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها كما تقول العرب ربح بيعك وخسرت صفقتك (وما كانوا مهتدين) من الضلالة وقيل مصيبين في تجارتهم (مثلهم) شبههم وقيل صفتهم. والمثل قول سائر في عرف الناس يعرف به معنى الشيء وهو أحد أقسام القرآن السبعة (كمثل الذي) يعني الذين بدليل سياق الآية ونظيره «والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون» (استوقد نارا) أوقد نارا

بالشام ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان تابع لهم، وقيل هم رؤساؤهم الذين شابهوا الشياطين في تمردهم (قالوا إنا معكم) أي على دينكم (إنما نحن مستهزئون) أي بمحمد وأصحابه بما نظهر لهم من الإسلام لنأمن شرهم ونقف على سرهم ونأخذ من غنائمهم وصدقاتهم. قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله بن أبي لأصحابه انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم؟ فذهب فأخذ بيد أبي بكر الصديق فقال: مرحبا بالصديق سيد بني تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحبا بسيد بني عدي بن كعب الفاروق القوي في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أخذ بيد علي فقال: مرحبا يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له علي: اتق الله يا عبد الله ولا تنافق فان المنافقين شر خليقة الله. فقال مهلا يا أبا الحسن إني لا أقول هذا نفاقا والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم ثم تفرقوا فقال عبد الله لأصحابه كيف رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيرا (الله يستهزئ بهم) أي يجازيهم جزاء استهزائهم بالمؤمنين فسمى الجزاء باسمه لأنه في مقابلته. قال ابن عباس يفتح لهم باب الجنة فاذا انتهوا إليه سد عنهم وردوا إلى النار (ويمدهم) أي يتركهم ويمهلهم. والمد والإمداد واحد وأصله الزيادة وأكثر ما يأتي المد في الشر والإمداد في الخير (في طغيانهم) أي في ضلالهم وأصل الطغيان مجاوزة الحد (يعمهون) أي يترددون في الضلالة متحيرين (أولئك) يعني المنافقين (الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أي استبدلوا الكفر بالإيمان وإنما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعا على سبيل الاستعارة لأن الشراء فيه إعطاء بدل وأخذ آخر. فان قلت كيف قال اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا على هدى. قلت جعلوا لتمكنهم منه كأنه في أيديهم فاذا تركوه إلي الضلالة فقد عطلوه واستبدلوه بها. والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء (فما ربحت تجارتهم) أي ما ربحوا في تجارتهم والربح الفضل عن رأس المال وأضاف الربح إلى التجارة لأن الربح يكون فيها (وما كانوا مهتدين) أي مصيبين في تجارتهم لأن رأس المال هو الإيمان فلما أضاعوه واعتقدوا الضلالة فقد ضلوا عن الهدى. وقيل وما كانوا مهتدين في ضلالتهم. قوله عز وجل (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) المثل عبارة عن قول يشبه ذلك القول قولا آخر بينهما مشابهة ليبين

(فلما اضاءت) النار (ماحوله) أى حول المستوقد وأضاء لازم ومتعد يقال أضاء الشئ بنفسه وأضاء غيره وهو ههنا متعد (ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون) قال ابن عباس وقتادة ومقاتل والضحاك والسدى نزلت فى المنافقين يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل (٣٦) أوقد نارا في ليلة مظلمة فى مفازة فاستدفأ ورأى ماحوله فاتقى مما يخاف فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره فبقى في ظلمة خائفا متحيرا فكذلك المنافقون باظهار كلمة الإيمان أمنوا على أموالهم وأولادهم وناكحوا المؤمنين ووارثوهم وقاسموهم الغنائم فذلك نورهم فاذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف. وقيل ذهاب نورهم في القبر . وقيل فى القيامة حيث يقولون «للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم» وقيل ذهاب نورهم باظهار عقيدتهم على لسان النبى صلى الله عليه وسلم فضرب النار مثلا ثم لم يقل : أطفأ الله نارهم لكن عبر بذهاب النور عنه لأن النار نور وحرارة فيذهب نورهم وتبقى الحرارة عليهم وقال مجاهد إضاءة النار إقبالهم إلى المسلمين والهدى وذهاب نورهم إقبالهم إلى المشركين والضلالة وقال عطاء ومحمد بن كعب : نزلت في اليهود وانتظارهم خروج النبى صلى الله عليه وسلم واستفتاحهم به على مشركى العرب صيب
فلما خرج كفروا به ثم وصفهم الله فقال (صم) أى هم صم عن الحق لايقبلونه وإذا لم يقبلوا فكأنهم لم يسمعوا (بكم) خرس عن الحق لايقولونه أو أنهم لما أبطنوا خلاف ماأظهروا فكأنهم لم ينطقوا بالحق (عمى) أى لابصائر لهم ومن لابصيرة له كمن لابصر له (فهم لايرجعون) عن الضلالة إلى الحق (أو كصيب) أى كأصحاب صيب وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى

أحدهما الآخر ويصوره ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال فى كتابه وهو أحد أقسام القرآن السبعة ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة فى الكشف والبيان لأنه يؤثر فى القلوب مالا يؤثره وصف الشيء فى نفسه، ولأن المثل تشبيه الشيء الخفى بالجلى فيتأكد الوقوف على ماهيته وذلك هو النهاية فى الإيضاح، وشرطه أن يكون قولا فيه غرابة من بعض الوجوه كمثل الذى استوقد نارا لينتفع بها (فلما أضاءت) يعنى النار (ماحوله) يعنى حول المستوقد (ذهب الله بنورهم) فان قلت كيف وحد أولا ثم جمع ثانيا . قلت يجوز وضع الذى موضع الذين كقوله «وخضتم كالذى خاضوا» وقيل إنما شبه قصتهم بقصة المستوقد، وقيل معناه مثل الواحد منهم كمثل الذى استوقد نارا (وتركهم فى ظلمات لايبصرون) قال ابن عباس نزلت فى المنافقين يقول مثلهم فى نفاقهم كمثل رجل أوقد نارا فى ليلة مظلمة فى مفازة فاستدفأ ورأى ماحوله فاتقى مما يخاف فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره فبقى فى ظلمة حائرا متخوفا ، فكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الإيمان فأمنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وناكحوا المسلمين وقاسموهم فى الغنائم فذلك نورهم، فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف. وقيل ذهاب نورهم عقيدتهم للمؤمنين على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل ذهاب نورهم فى القبر أو على الصراط . فان قلت ماوجه تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة. قلت؟ وجه تشبيه الإيمان بالنور أن النور أبلغ الأشياء فى الهداية إلى المحجة القصوى وإلى الطريق المستقيم وإزالة الحيرة وكذلك الإيمان هو الطريق الواضح إلى الله تعالى وإلى جنانه ، وشبه الكفر بالظلمة لأن الضال عن الطريق المسلوكة فى الظلمة لايزداد إلا حيرة وكذلك الكفر لايزداد صاحبه فى الآخرة إلا حيرة. وفى ضرب المثل للمنافقين بالنار ثلاث حكم: إحداها أن المستضىء بالنار مستضىء بنور غيره فاذا ذهب ذلك بقى هو فى ظلمته فكأنهم لما أقروا بالإيمان من غير اعتقاد قلوبهم كان إيمانهم كالمستعار. الثانية أن النار تحتاج فى دوامها إلى مادة الحطب لتدوم فكذلك الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم. الثالثة أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد قبلها ضياء فشبه حالهم بذلك . ثم وصفهم الله تعالى فقال (صم) أى عن سماع الحق لأنهم لايقبلونه وإذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه (بكم) أى خرس عن النطق بالحق فهم لايقولونه (عمى) أى لابصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ومن لابصيرة له كمن لابصر له فهو أعمى ، كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا أن تنطق به ألسنتهم وأن ينظروا إليه بعيونهم جعلوا كمن تعطلت حواسه وذهب إدراكه
قال الشاعر : صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء كلهم أذن
(فهم لايرجعون) أى عن ضلالتهم ونفاقهم . قوله تعالى (أو كصيب) أى كأصحاب

للمنافقين بمعنى إن شئت مثلهم بالمستوقد وإن شئت بأهل الصيب وقيل أو بمعنى الواو يريد وكصيب كقوله تعالى «أو يزيدون» بمعنى ويزيدون. والصيب المطر وكل مانزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيب فعيل من صاب يصوب أى نزل (من السماء) أى من السحاب. وقيل هى السماء بعينها، والسماء كل ماعلاك فأظلك وهى من أسماء الأجناس يكون واحدا وجمعا (فيه) أى فى الصيب، وقيل فى السماء أى في السحاب ولذلك ذكره. وقيل السماء يذكر ويؤنث قال الله تعالى «السماء منفطر به» وقال «إذا السماء انفطرت» (ظلمات) جمع ظلمة (ورعد) وهو الصوت الذى يسمع من السحاب (وبرق) وهو النار التى تخرج منه. قال على وابن عباس وأكثر المفسرين الرعد اسم ملك يسوق السحاب، والبرق

لمعان صوت من نور يزجر به الملك السحاب. وقيل الصوت زجر السحاب. وقيل تسبيح الملك. وقيل الرعد نطق الملك والبرق ضحكه، وقال مجاهد الرعد اسم الملك ويقال لصوته أيضا رعد والبرق اسم ملك يسوق السحاب. وقال شهر بن حوشب: الرعد ملك يزجر السحاب فاذا تبددت ضمها فاذا اشتد غضبه طارت من فيه النار فهى الصواعق. وقيل الرعد صوت انخراق الريح بين السحاب والأول أصح (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق) جمع صاعقة وهى الصيحة التى يموت من يسمعها أو يغشى عليه. ويقال لكل عذاب مهلك صاعقة، وقيل الصاعقة قطعة عذاب ينزلها الله على من يشاء

روى عن سالم بن عبدالله بن عمر عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: اللهم لاتقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك. قوله (حذر الموت) أى مخافة الهلاك (والله محيط بالكافرين) أى عالم بهم وقيل جامعهم. قال مجاهد يجمعهم فيعذبهم. وقيل مهلكهم دليله قوله تعالى «إلا أن يحاط بكم» أى تهلكوا جميعا. ويميل أبو عمرو والكسائى الكافرين فى محل النصب أو الخفض ولا يميلان أول كافر به (يكاد البرق) أى يقرب يقال كاد يفعل إذا قرب ولم يفعل (يخطف أبصارهم) يختلسها والخطف استلاب بسرعة (كلما) كل حرف جملة ضم إلى ما الجزاء فصار أداة للتكرار ومعناهما متى ما (أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا) أى وقفوا متحيرين فالله تعالى شبههم فى كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا فى مفازة وسواد فى ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات من صفتها أن السارى لايمكنه المشى فيها ورعد من صفته

صيب وهو المطر، وكل ماأنزل من الأعلى إلي الأسفل فهو صيب (من السماء) أى من السحاب لأن كل ماعلاك فأظلك فهو سماء ومنه قيل لسقف البيت سماء وقيل من السماء بعينها، وإنما ذكر الله تعالى السماء وإن كان المطر لاينزل إلا منها ليرد على من زعم أن المطر ينعقد من أبخرة الأرض فأبطل مذهب الحكماء بقوله من السماء ليعلم أن المطر ليس من أبخرة الأرض كما زعم الحكماء (فيه) أى الصيب (ظلمات) جمع ظلمة (ورعد) هو الصوت الذى يسمع من السحاب (وبرق) يعنى النار التى تخرج منه. قال ابن عباس: الرعد اسم ملك يسوق السحاب والبرق لمعان سوط من نور يزجر به السحاب. وقيل الرعد اسم ملك يزجر السحاب إذا تبددت جمعها وضمها فاذا اشتد غضبه يخرج من فيه النار فهي البرق والصواعق، وقيل الرعد تسبيح الملك. وقيل اسمه (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق) جمع صاعقة وهى الصيحة التى يموت كل من يسمعها أو يغشى عليه؛ وقيل الصاعقة قطعة من العذاب ينزلها الله على من يشاء. عن ابن عمر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: اللهم لاتقتلنا بغضبك ولاتهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب (حذر الموت) أى مخافة الهلاك (والله محيط بالكافرين) أى عالم بحالهم وقيل يجمعهم ويعذبهم (يكاد البرق) أى يقرب، يقال كاد يفعل ولم يفعل (يخطف أبصارهم) أى يختلسها. والخطف استلاب الشىء بسرعة (كلما) أى متى ماجاء (أضاء لهم) يعنى البرق (مشوا فيه) أى فى إضاءته ونوره (وإذا أظلم عليهم قاموا) أى وقفوا متحيرين، وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين، ووجه التمثيل أن الله عز وجل شبههم فى كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا فى مفازة فى ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات وهى ظلمة الليل وظلمة المطر وظلمة السحاب من صفة تلك الظلمات أن السارى لايمكنه المشى فيها، ورعد من صفته أن يضم سامعوه أصابعهم إلي آذانهم من هوله، وبرق من صفته أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدته فهذا مثل ضربه الله تعالي للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر هو القرآن لأنه حياة القلوب كما أن المطر حياة الأرض، والظلمات مافى القرآن من ذكر الكفر والشرك والنفاق. والرعد ماخوفوا به من الوعيد وذكر النار والبرق مافيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة فالكافرون والمنافقون يسدون

آن يضم السامعون أصابعهم إلى آذانهم من هوله وبرق من صفته أن يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدة توقده
فهذا مثل ضربه الله للقرآن وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر القرآن لأنه حياة الجنان كما أن المطر حياة الأبدان
والظلمات ما فى القرآن من ذكر الكفر والشرك والرعد ماخوفوا به من الوعيد وذكر النار والبرق ما فيه من الهدى والبيان
والوعد وذكر الجنة فالكافرون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب إليه لأن الإيمان عندهم كفر والكفر موت
يكاد البرق يخطف أبصارهم أى القرآن يبهر قلوبهم . وقيل هذا مثل ضربه الله للإسلام فالمطر الإسلام والظلمات ما فيه من البلاء
والمحن والرعد ما فيه من الوعيد والمخاوف فى الآخرة والبرق ما فيه من الوعد، يجعلون أصابعهم فى آذانهم يعنى أن المنافقين إذا
رأوا فى الإسلام بلاء وشدة هربوا حذرا من الهلاك ، والله محيط بالكافرين جامعهم ، يعنى لاينفعهم هربهم لأن الله تعالى
من ورائهم يجمعهم فيعذبهم ، يكاد البرق (٣٨) يعنى دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ماسبق لهم من الشقاوة ،
كلما أضاء لهم مشوا فيه يعنى أن المنافقين إذا أظهروا كلمة الإيمان آمنوا فاذا ماتوا عادوا إلى الظلمة ، وقيل معناه كلما نالوا غنيمة وراحة فى الإسلام ثبتوا وقالوا إنا معكم ، وإذا أظلم عليهم يعنى رأوا شدة وبلاء تأخروا وقاموا أى وقفوا كما قال الله تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف » (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) أى بأسماعهم (وأبصارهم) الظاهرة كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة . وقيل لذهب بما استفادوا من العز والأمان الذى لهم بمنزلة السمع
والبصر (إن الله على كل شئ قدير) قادر ؛ قرأ ابن عامر وحمزة ولم
شاء وجاء حيث كان بالإمالة. قوله تعالى (ياأيها الناس) قال ابن عباس ياأيها الناس خطاب أهل مكة ، وياأيها الذى آمنوا
خطاب أهل المدينة وهو ههنا عام إلا من حيث إنه لايدخله الصغار والمجانين (اعبدوا) وحدوا. قال ابن عباس كل ماورد
فى القرآن من العبادة فمعناها التوحيد (ربكم الذى خلقكم) والخلق اختراع الشئ على غير مثال سبق (والذين من قبلكم) أى
وخلق الذين من قبلكم (لعلكم تتقون) لكى تنجوا من العذاب، وقيل معناه كونوا على رجاء التقوى بأن تصيروا فى ستر ووقاية
من عذاب الله، وحكم الله من ورائكم يفعل مايشاء كما قال « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » أى ادعوه إلى الحق وكونا
على رجاء التذكر وحكم الله من ورائه يفعل مايشاء . قال سيبويه لعل وعسى حرفا ترج وهما من الله واجب (الذى جعل لكم
الأرض فراشا) أى بساطا، وقيل مناما وقيل وطاء، أى ذللها ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها ، والجعل هاهنا بمعنى الخلق

آذانهم عند قراءة القرآن وسماعه مخافة أن تميل قلوبهم إليه لأن الإيمان به عندهم كفر والكفر
موت ، وقيل هذا مثل ضربه الله تعالى للاسلام ، فالمطر هو الإسلام والظلمات مافيه من البلاء
والمحن والرعد مافيه من ذكر الوعيد والمخاوف فى الآخرة والبرق مافيه من الوعد يجعلون أصابعهم
فى آذانهم يعنى المنافقين إذا رأوا فى الإسلام بلاء وشدة هربوا حذرا من الهلاك « والله محيط
بالكافرين» يعنى لاينفعهم الهرب لأن الله من ورائهم يجمعهم ويعذبهم ، يكاد البرق يعنى دلائل
الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ماسبق لهم من الشقاوة كلما أضاء لهم يعنى المنافقين وإضاءته
لهم هو تركهم بلا ابتلاء ولا امتحان «مشوا فيه» يعنى على المسالمة باظهار كلمة الإيمان وقيل
كلما نالوا غنيمة وراحة فى الاسلام ثبتوا وقالوا إنا معكم وإذا أظلم عليهم قاموا يعنى إذا رأوا
شدة وبلاء تأخروا (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) أى بصوت الرعد (وأبصارهم) بوميض
البرق. وقيل أى لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما أذهب أسماعهم وأبصارهم الباطنة
(إن الله على كل شىء قدير) أى هو الفاعل لما يشاء لامنازع له فيه . قوله عز وجل (ياأيها
الناس) قال ابن عباس : ياأيها الناس خطاب لأهل مكة. ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة
وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين (اعبدوا ربكم) قال ابن عباس : وحدوا ربكم وكل ماورد
فى القرآن من العبادة فمعناه التوحيد . وأصل العبودية التذلل والعبادة غاية التذلل ولا يستحقها
إلا من له غاية الإفضال والإنعام وهو الله تعالى (الذى خلقكم) أى ابتدع خلقكم على غير
مثال سبق (والذين من قبلكم) أى وخلق الذين من قبلكم (لعلكم) لعل وعسى حرفا ترج
وهما أى كل منهما من الله واجب (تتقون) أى لكى تنجوا من العذاب ، وقيل معناه تكونوا
على رجاء التقوى بأن تصيروا فى ستر ووقاية من عذاب الله وحكم الله من ورائكم يفعل مايشاء
ويحكم مايريد (الذى جعل لكم الأرض فراشا) أى خلق لكم الأرض بساطا ووطاء مذللة

(والسماء بناء) سقفا مرفوعا (وأنزل من السماء) أى من السحاب (ماء) وهو المطر (فأخرج به من الثمرات) من ألوان الثمرات وأنواع النبات (رزقا لكم) طعاما لكم وعلفا لدوابكم (فلا تجعلوا لله أندادا) أى أمثالا تعبدونهم كعبادة الله وقال أبو عبيدة: الند الضد وهو من الأضداد والله تعالى برىء من المثل والضد (وأنتم تعلمون) أنه واحد خالق هذه الأشياء (وإن كنتم فى ريب) أى وإن كنتم فى شك لأن الله تعالى علم أنهم شاكون (مما نزّلنا) يعنى القرآن (على عبدنا) محمد (فأتوا) أمر تعجيز (بسورة) والسورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر، من أسأرت أى أفضلت حذفت الهمزة، وقيل السورة اسم للمنزلة الرفيعة، ومنه سور البلد لارتفاعه سميت سورة لأن القارئ ينال بقراءتها منزلة رفيعة حتى يستكمل المنازل باستكماله سور القرآن (من مثله) أى مثل القرآن ومن « صلة كقوله تعالى «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم» وقيل الهاء فى مثله راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، يعنى من مثل محمد صلى الله عليه وسلم أمى لا يحسن الخط والكتابة (وادعوا شهداءكم) أى واستعينوا بآلهتكم التى تعبدونها (من دون الله) وقال مجاهد ناسا يشهدون لكم (إن كنتم صادقين) أن محمدا صلى الله عليه وسلم تقوّله من تلقاء نفسه فلما تحداهم عجزوا فقال (فان لم تفعلوا) فيما مضى (ولن تفعلوا) أبدا فيما بقى، وإنما قال ذلك لبيان الإعجاز وأن القرآن كان معجز النبى صلى الله عليه وسلم حيث عجزوا عن الإتيان بمثله. قوله

ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها، والحزن ما غلظ من الأرض (والسماء بناء) أى سقفا مرفوعا قيل إذا تأمل الإنسان المتفكر فى العالم وجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض مفروشة كالبساط والنجوم كالمصابيح والإنسان كمالك البيت وفيه ضروب النبات المهيأة لمنافعه وأصناف الحيوان مصروفة فى مصالحه، فيجب على الإنسان المسخر له هذه الأشياء شكر الله تعالى عليها (وأنزل من السماء) يعنى السحاب (ماء) يعنى المطر (فأخرج به) أى بذلك الماء (من الثمرات) يعنى من ألوان الثمرات وأصناف النبات (رزقا لكم) أى وعلفا لدوابكم (فلا تجعلوا لله أندادا) يعنى أمثالا تعبدونهم كعبادته، والندّ المثل (وأنتم تعلمون) يعنى أنكم بعقولكم تعلمون أن هذه الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أندادا لله « وأنه واحد خالق لجميع الأشياء وأنه لا مثل له ولا ضد له. قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب) أى إن كنتم فى شك لأن الله تعالى علم أنهم شاكون (مما نزلنا على عبدنا) أى محمد ﷺ لما تقرر إثبات الربوبية لله سبحانه وتعالى وأنه الواحد الخالق وأنه لا ضد له ولا ندّ أتبعه باقامة الحجة على إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما يدحض الشبهة فى كون القرآن معجزة وأنه من عند الله تعالى لا من عند نفسه كما تدّعون فيه، وقوله على عبدنا إضافة تشريف لمحمد ﷺ وأن القرآن منزل عليه من عند الله سبحانه وتعالى (فأتوا) أمر تعجيز (بسورة) والسورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر. وقيل السورة اسم للمنزلة الرفيعة، ومنه سور البلد لارتفاعه، سميت سورة لأن القارئ ينال بها منزلة رفيعة حتى يستكمل المنازل باستكمال سور القرآن (من مثله) أى مثل القرآن، وقيل الضمير فى مثله راجع إلى عبدنا، يعنى من مثل محمد ﷺ أمىّ لم يحسن الكتابة ولم يجالس العلماء ولم يأخذ العلم عن أحد، ورد الضمير إلى القرآن أوجه وأولى ويدل عليه أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة فى التحدى وإنما وقع الكلام فى المنزل ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فأتوا أنتم بسورة مما يماثله ويجانسه، ولو كان الضمير مردودا إلى محمد ﷺ لقال وإن ارتبتم فى أن محمدا منزل عليه فهاتوا قرآنا مثل محمد صلى الله عليه وسلم، ويدل على كون القرآن معجزا ما اشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة فى طرفى الإيجاز والإطالة فتارة يأتى بالقصة باللفظ الطويل ثم يعيدها باللفظ الوجيز ولا يخل بالمقصود الأول، وأنه فارقت أساليبه أساليب الكلام وأوزانه أوزان الأشعار والخطب والرسائل ولهذا تحديت العرب به فعجزوا عنه وتحيروا فيه واعترفوا بفضله وهم معدن البلاغة وفرسان الفصاحة ولهم النظم والنثر من الأشعار والخطب والرسائل، حتى قال الوليد بن المغيرة فى وصف القرآن: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أصله لمغدق وإن أعلاه لمثمر (وادعوا شهداءكم من دون الله) أى استعينوا بآلهتكم التى تعبدونها من دون الله والمعنى إن كان الأمر كما تقولون أنها تستحق العبادة فاجعلوا الاستعانة بها فى دفع ما نزل بكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وإلا فاعلموا أنكم مبطلون فى دعواكم أنها إلهة. وقيل معناه وادعوا أناسا يشهدون لكم (إن كنتم صادقين) أن محمدا ﷺ تقوّله من تلقاء نفسه (فان لم تفعلوا) أى فيما مضى (ولن تفعلوا) فيما بقى وهذه الآية

(فاتقوا النار) أى فآمنوا واتقوا بالإيمان النار (التى وقودها الناس والحجارة) قال ابن عباس وأكثر المفسرين يعنى حجارة الكبريت لأنها أكثر التهابا وقيل جميع الحجارة، وهو دليل على عظم تلك النار، وقيل أراد بها الأصنام لأن أكثر أصنامهم كانت منحوتة من الحجارة كما قال «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» (أعدت) هيئت (للكافرين) قوله تعالى (وبشر الذين آمنوا) أى أخبر والبشارة كل خبر صدق تتغير به بشرة الوجه، ويستعمل فى الخير والشر وفى الخير أغلب (وعملوا الصالحات) أى الفعلات الصالحات يعنى المؤمنين الذين هم من أهل الطاعات قال عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه: وعملوا الصالحات أى أخلصوا الأعمال كما قال «فليعمل عملا صالحا» أى خاليا عن الرياء. قال معاذ العمل الصالح الذى فيه أربعة أشياء: العلم والنية والصبر والإخلاص (أن لهم جنات) جمع الجنة، والجنة البستان الذى فيه أشجار مثمرة سميت بها لاجتنانها وتسترها بالأشجار. وقال الفراء: الجنة ما فيه النخيل والفردوس ما فيه الكرم (تجرى من تحتها) أى من تحت أشجارها ومساكنها (الأنهار) أى المياه فى الأنهار لأن النهر لا يجرى وقيل مع تحتها أى بأمرهم لقوله تعالى حكاية عن فرعون «وهذه الأنهار تجرى من تحتى» بأمرى والأنهار جمع نهر سمى به لسعته وضيائه ومنه النهار وفى الحديث «أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود» (كلما) متى ما (رزقوا) أطعموا (منها) أى من الجنة (من ثمرة) أى ثمرة ومن صلة (رزقا) طعاما (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) وقيل رفع على الغاية قال الله تعالى «لله الأمر من قبل ومن بعد» قيل من قبل فى الدنيا وقيل الثمار فى الجنة متشابهة فى اللون مختلفة فى الطعم فاذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى (وأتوا به) رزقا (متشابها) قال ابن عباس

دالة على عجزهم وأنهم لم يأتوا بمثله ولا بمثل شىء منه، وذلك أن النفوس الأبية إذا قرعت بمثل هذا التقريع استفرغت الوسع فى الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه ولو قدروا على ذلك لأتوا به فحيث لم يأتوا بشىء ظهرت المعجزة للنبى صلى الله عليه وسلم وبان عجزهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة، والقرآن من جنس كلامهم، وكانوا حراصا على إطفاء نوره وإبطال أمره ثم مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة من أحدهم ورضوا بسبى الذرارى وأخذ الأموال والقتل وإذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا كان الأمر كذلك وجب ترك العناد وهو قوله تعالى (فاتقوا النار) أى فآمنوا واتقوا بالإيمان النار (التى وقودها) أى حطبها (الناس والحجارة) قال ابن عباس يعنى حجارة الكبريت لأنها أكثر التهابا. وقيل جميع الحجارة وفيه دليل على عظم تلك النار وقوتها. وقيل أراد بها الأصنام لأن أكثر أصنامهم كانت من الحجارة وإنما قرن الناس مع الحجارة لأنهم كانوا يعبدونها معتقدين فيها أنها تنفعهم وتشفع لهم فجعلها الله عذابهم فى نار جهنم (أعدت) أى هيئت (للكافرين) قوله عز وجل (وبشر الذين آمنوا) أى أخبر المؤمنين، وهذا أمر للنبى صلى الله عليه وسلم. والبشارة إيراد الخبر السار على سامع يستبشر به ويظهر السرور فى بشرة وجهه لأن الإنسان إذا فرح بشىء وسر به ظهر ذلك على بشرة وجهه ثم كثر حتى وضع موضع الخير والشر ومنه قوله «وبشرهم بعذاب أليم» ولكن هو فى السرور والخير أغلب (وعملوا الصالحات) أى الفعلات الصالحات وهى الطاعات. قيل العمل الصالح ما كان فيه أربعة أشياء: العلم والنية والصبر والإخلاص. وقال عثمان بن عفان: وعملوا الصالحات أى أخلصوا الأعمال يعنى عن الرياء (أن لهم جنات) جمع جنة وهى البستان الذى فيه أشجار مثمرة سميت جنة لاجتنانها وتسترها بالأشجار والأوراق. وقيل الجنة ما فيه نخيل والفردوس ما فيه كرم (تجرى من تحتها) أى من تحت أشجارها ومساكنها (الأنهار) أى تجرى المياه فى الأنهار لأن الأنهار لا تجرى وقيل معناه تجرى بأمرهم وفى الحديث «إن أنهار الجنة تجرى فى غير أخدود» أى فى غير شق والخد الشق (كلما رزقوا) أى أطعموا (منها) أى من الجنة (من ثمرة رزقا) أى طعاما (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) أى فى الدنيا وقيل إن ثمار الجنة متشابهة فى اللون مختلفة فى الطعم فاذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى (وأتوا به) أى بالرزق (متشابها) قال ابن عباس مختلفاً فى الطعوم وقيل يشبه بعضه بعضاً فى الجودة لارداءة فيها وقيل يشبه ثمار الدنيا فى الاسم لا فى الطعم (م) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبزقون يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس طعامهم جشاء ورشح كرشح المسك وفى رواية ورشحهم المسك» قوله يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس أى يجرى على ألسنتهم كما يجرى النفس فلا يشغلهم عن شىء كما أن النفس لا يشغل عن شىء قوله طعامهم جشاء يعنى أن فضول طعامهم يخرج فى الجشاء وهو تنفس المعدة. والرشح العرق

ومجاهد والربيع متشابها في الألوان مختلفا في الطعوم . وقال الحسن وقتادة متشابها أي يشبه بعضها بعضا في الجودة أي كلها خيار لارذالة فيها. وقال محمد بن كعب يشبه ثمر الدنيا غير أنها أطيب. وقيل متشابها في الاسم مختلفا في الطعم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامي . أنا أبو حامد بن عبد الله الصالحي أنا أبوسعيد محمد بن موسى الصيرفي أنا أبو عبد الله محمد بن الصفار أنا أحمد بن محمد بن عيسى البزي أنا محمد بن كثير أنا سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبزقون يلهمون الحمد والتسبيح كما تلهمون النفس طعامهم الجشاء ورشحهم المسك» قوله تعالى (ولهم فيها) في الجنان (أزواج) نساء وجوار يعني من الحور العين (مطهرة) من الغائط والبول

والحيض والنفاس والبصاق والمخاط والمني والولد وكل قذر . قال إبراهيم النخعي في الجنة جماع ماشئت ولا ولد . وقال الحسن هن عجائزكم الغمص العمش طهرن من قذرات الدنيا . وقيل مطهرة عن مساوي الأخلاق (وهم فيها خالدون) دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها . أنا أبو عمرو عبد الواحد ابن أحمد المليحي أنا أبو حامد أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف العزيزي أنا محمد ابن إسماعيل البخاري أنا قتيبة بن سعيد أنا جرير عن عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء أضاءة لايبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء» أنا عبد الواحد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا فضيل هو ابن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أول زمرة من يدخل الجنة يوم القيامة صورة وجوههم مثل صورة القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على لون أحسن الكواكب في السماء لكل رجل منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ سوقهن دون لحومها ودمائها وحللها» أنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي المروزي أنا أبو الحسن

العرق . وقوله تعالى (ولهم فيها) أي في الجنات (أزواج) أي من الحور العين (مطهرة) يعني من البول والغائط والحيض والولد وسائر الأقذار وقيل هن عجائزكم الغمص العمش طهرن من قذرات الدنيا وقيل طهرن من مساوي الأخلاق قيل في الجنة جماع ماشئت ولا ولد (وهم فيها خالدون) أي لايخرجون منها ولا يموتون . والخلد البقاء الدائم الذي لاانقطاع له (ق) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لايبصقون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد وعلى صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء» وفي رواية «ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لااختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشيا» (ق) عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا» عن أبي هريرة قال «قلت يارسول الله مم خلق الله الخلق؟ قال من الماء، قلت الجنة مابناؤها ؟ قال لبنة من فضة ولبنة من ذهب وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران من يدخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم» أخرجه الترمذي بزيادة وقال ليس إسناده بذلك القوي * عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن في الجنة مائة درجة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس» أخرجه الترمذي (م) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقول لهم أهلوهم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا» عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن في الجنة لمجتمعا للحور العين يرفعن بأصوات لم

علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا عبد الله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الهمذاني عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» صحيح أخرجه محمد بن عبد الله بن محمد عن معاوية بن عمرو عن أبي إسحاق عن حميد. أنا أبو الحسن علي بن يوسف الجويني أنا أبو محمد محمد بن علي بن محمد بن شريك الشافعي أنا عبد الله بن محمد بن مسلم أنا أبو بكر الجوريدي أنا أحمد بن الفرج الحمصي أنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار أنا محمد بن المهاجر عن الضحاك المغافري عن سليمان بن موسى حدثني كريب أنه سمع أسامة ابن زيد يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا هل من مشمر للجنة وإن الجنة لا خطر لها وهي ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وثمرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ومقام أبد في دار سليمة وفاكهة خضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها قال قولوا إن شاء الله قال القوم إن شاء الله» وروى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أهل الجنة جرد مرد كحل لا يفنى شبابهم ولا يبلى ثيابهم» أنا أبو بكر محمد ابن عبد الصمد الترابي أنا الحاكم أبو الفضل الحدادي أنا أبو زيد محمد بن يحيى أنا إسحاق الحنظلي أنا أبو معاوية أنا عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعيد عن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة لسوقا ليس فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها وإن فيها لمجتمع الحور العين ينادين بصوت لم يسمع الخلائق مثله: نحن الخالدات فلا نبيد أبدا ونحن الناعمات فلا نبأس أبدا ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له أو نحن له» ورواه أبو عيسى عن هناد وأحمد بن منيع عن أبي معاوية مرفوعا وقال هذا حديث غريب أنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو عثمان سعيد بن عبد الجبار البصري أنا حماد بن مسلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثوا في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا فيقول لهم أهلهم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا» قوله تعالى (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فقال «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له»، وقال: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا» قالت اليهود ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة. وقيل قال المشركون إنا لا نعبد إلها

تسمع الخلائق مثلها يقلن: نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط طوبى لمن كان لنا وكنا له» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب * قوله تعالى (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) سبب نزول هذه الآية أن الله تعالى لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت وذكر النحل والنمل قالت اليهود. ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة. وقيل قال المشركون إنا لا نعبد إلها يذكر هذه الأشياء وذلك لأن الكفار واليهود كانوا متفقين على إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ذلك فأنزل الله تعالى إن الله لا يستحيي. الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم عليه. وقيل هو انقباض النفس عن القبائح هذا أصله في وصف الإنسان، والله تعالى منزه عن ذلك كله فإذا وصف الله تعالى به يكون معناه الترك وذلك لأن لكل فعل بداية ونهاية فبداية الحياء هو التغير الذي يلحق الإنسان من خوف أن ينسب إليه ذلك الفعل القبيح ونهايته ترك ذلك الفعل القبيح فإذا ورد وصف الحياء في حق الله تعالى فليس المراد منه بدايته وهو التغير والخوف بل المراد منه ترك الفعل الذي هو نهاية الحياء وغايته فيكون معنى إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا أي لا يترك المثل لقول الكفار واليهود «ما» قيل ما صلة فيكون المعنى أن يضرب مثلا بعوضة وقيل ليس هي بصلة بل هي للابهام والنكرة والبعوض صغار البق وهو من عجيب خلق الله تعالى فإنه في غاية الصغر وله خرطوم مجوف وهو مع صغره يغوص خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل فيبلغ منه الغاية حتى إن الجمل يموت من قرصه

فما

يذكر مثل هذه الأشياء فأنزل الله تعالى «إن الله لايستحيي» أي لايترك ولا يمنعه الحياء أن يضرب مثلا يذكر شبها مابعوضة، ماصلة أي مثلا بالبعوضة وبعوضة نصب بدل عن المثل. والبعوض صغار البق سميت بعوضة لأنها كانت بعض البق، فما فوقها يعني الذباب والعنكبوت وقال أبو عبيدة أي فما دونها كما يقال فلان جاهل فيقال وفوق ذلك أي وأجهل (فأما الذين آمنوا) بمحمد والقرآن (فيعلمون أنه) يعني المثل هو (الحق) الصدق (من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أي بهذا المثل فلما حذف الألف واللام نصب على الحال والقطع. ثم أجابهم فقال (يضل به كثيرا) من الكفار وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون ضلالا (ويهدي به) أي بهذا المثل (كثيرا) من المؤمنين فيصدقونه. والإضلال

هو الصرف عن الحق إلى الباطل. وقيل هو الهلاك يقال ضل الماء في اللبن إذا هلك (وما يضل به إلا الفاسقين) الكافرين وأصل الفسق الخروج يقال فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها، قال الله تعالى «ففسق عن أمر ربه» أي خرج ثم وصفهم فقال (الذين ينقضون) ويتركون. وأصل النقض الكسر (عهد الله) أمر الله الذي عهد إليهم يوم الميثاق بقوله «ألست بربكم قالوا بلى» وقيل أراد به العهد الذي أخذه على النبيين وسائر الأمم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم في قوله «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين» الآية. وقيل أراد به العهد الذي عهد إليهم في التوراة أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويبينوا نعته (من بعد ميثاقه) توكيده. والميثاق العهد المؤكد (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) يعني الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبجميع الرسل عليهم السلام، لأنهم قالوا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وقال المؤمنون لانفرق بين أحد من رسله. وقيل أراد به الأرحام (ويفسدون في الأرض) بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن (أولئك هم الخاسرون) المغبونون ثم قال لمشركي العرب على وجه التعجب (كيف تكفرون بالله) بعد نصب الدلائل ووضوح البرهان ثم ذكر الدلائل فقال: (وكنتم أمواتا) نطفا في أصلاب آبائكم (فأحياكم) في الأرحام والدنيا (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) للبعث (ثم إليه ترجعون) أي تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم. قرأ يعقوب

فما فوقها يعني الذباب والعنكبوت وما هو أعظم منهما في الجثة. وقيل معناه فما دونها وأصغر منها وهذا القول أشبه بالآية لأن الغرض بيان أن الله تعالى لايمتنع من التمثيل بالشيء الصغير الحقير وقد ضرب النبي ﷺ مثلا للدنيا بجناح البعوضة وهو أصغر منها وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات فقيل هو أحقر من ذرة وأجمع من نملة وأطيش من ذبابة وألح من ذبابة (فأما الذين آمنوا) يعني بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (فيعلمون أنه) يعني ضرب المثل (الحق) يعني الصدق (من ربهم) الثابت الذي لايجوز إنكاره لأن ضرب المثل من الأمور المستحسنة في العقل وعند العرب (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أي بهذا المثل (يضل به كثيرا) أي من الكفار وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون به ضلالا (ويهدي به كثيرا) يعني المؤمنين يصدقونه ويعلمون أنه حق (وما يضل به إلا الفاسقين) يعني الكافرين وقيل المنافقين. وقيل اليهود والفسق الخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله ثم وصفهم فقال تعالى (الذين ينقضون) أي يخالفون ويتركون وأصل النقض الفسخ وفك المركب (عهد الله) أي أمر الله وأصل العهد حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال (من بعد ميثاقه) أي من بعد عقده وتوكيده وفي معنى هذا العهد أقوال أحدها أنه الذي أخذه عليهم يوم الميثاق وهو قوله تعالى «ألست بربكم قالوا بلى» الثاني المراد به الذي أخذه على أحبار اليهود في التوراة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويبينوا نعته وصفته. الثالث المراد به الكفار والمنافقون الذين نقضوا عهدا أبرمه الله تعالى وأحكمه بما أنزل في كتابه من الآيات الدالة على توحيده (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) يعني الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وجميع الرسل فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وهم اليهود. وقيل أراد به قطع الأرحام التي أمر الله بوصلها (ويفسدون في الأرض) يعني بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن (أولئك هم الخاسرون) أي المغبونون. وأصل الخسار النقص ثم قال تعالى لمشركي العرب على وجه التعجب لكن فيه تبكيت وتعنيف لهم (كيف تكفرون بالله) يعني بعد نصب الدلائل ووضع البراهين الدالة على وحدانيته ثم ذكر الدلائل فقال تعالى (وكنتم أمواتا) يعني نطفا في أصلاب آبائكم (فأحياكم) يعني في الأرحام والدنيا (ثم يميتكم) أي عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) يعني بعد الموت للبعث (ثم إليه ترجعون) أي تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم * قوله عز وجل

ترجعون كل القرآن بفتح الياء والتاء على تسمية الفاعل. قوله تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا) للحى لكى تعتبروا وتستدلوا. وقيل لكى تنتفعوا (ثم استوى إلى السماء) قال ابن عباس وأكثر مفسرى السلف أى ارتفع إلى السماء وقال ابن كيسان والفراء وجماعة من النحويين. أى أقبل على خلق السماء: وقيل قصد لأنه خلق الأرض أولا ثم عمد إلى خلق السماء (فسواهن سبع سموات) خلقهن مستويات لافطور فيها ولا صدوع (وهو بكل شئ عليم) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو والكسائى وقالون وهو وهى بسكون الهاء إذا كان قبل الهاء واو أو فاء أو لام زاد الكسائى وقالون ثم هو وقالون أن يمل هو. قوله تعالى (وإذ قال ربك) أى وقال ربك ، وإذ زائدة وقيل معناه واذكر إذ قال ربك وكذلك كل ماورد فى القرآن من هذا النحو فهذا سبيله. وإذ وإذا حرفا توقيت إلا أن إذ للماضى وإذا للمستقبل وقد يوضع أحدهما موضع الآخر قال المبرد إذا جاء إذ مع المستقبل كان معناه ماضيا كقوله تعالى «وإذ يمكر» يريد وإذ مكر ، وإذا جاء إذا مع الماضى كانت معناه مستقبلا كقوله «فاذا جاءت الطامة ، وإذا جاء نصر الله» أى يجىء (للملائكة) جمع ملك وأصله مألك من المألكة والألوكة والألوك ، وهى الرسالة فقلب فقيل ملأك ثم حذفت الهمزة طلبا للخفة لكثرة استعماله ونقلت حركتها إلى اللام فقيل ملك وأراد بهم الملائكة الذين كانوا فى الأرض وذلك أن الله تعالى خلق السماء والأرض وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن الأرض فعبدوا دهرا طويلا إلى فى الأرض ثم ظهر فيهم الحسد والبغى فأفسدوا وقتلوا فبعث الله إليهم جندا من الملائكة يقال لهم الجن وهم خزان الجنان اشتق لهم من الجنة ، رأسهم إبليس وكان رئيسهم ومرشدهم وأكثرهم علما فهبطوا إلى الأرض فطردوا الجن إلى شعوب الجبال وجزائر البحور وسكنوا الأرض وخفف الله عنهم العبادة فأعطى الله إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة وكان يعبد الله تارة فى الأرض وتارة فى السماء وتارة فى الجنة فدخله العجب وقال فى نفسه ماأعطانى الله هذا الملك إلا لأنى أكرم الملائكة عليه فقال الله له ولجنده (إنى جاعل فى الأرض خليفة) أى بدلا منكم ورافعكم أى فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة

(هو الذي خلق لكم مافى الأرض جميعا) يعنى من المعادن والنبات والحيوان والجبال والبحار والمعنى كيف تكفرون بالله وقد خلق لكم مافى الأرض جميعا لتنتفعوا به فى مصالح الدين والدنيا أما مصالح الدين فهو الاعتبار والتفكر فى عجائب مخلوقات الله تعالى الدالة على وحدانيته ، وأما مصالح الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها (ثم استوى إلى السماء) أي قصد وأقبل على خلقها وقيل عمد وقال ابن عباس ارتفع وفى رواية عنه صعد قال الأزهري معناه صعد أمره وكذا ذكره صاحب المحكم وذلك أن الله تعالى خلق الأرض أولا ثم عمد إلى خلق السماء . فان قلت كيف الجمع بين هذا وقوله تعالى «والأرض بعد ذلك دحاها» قلت الدحو البسط فيحتمل أن الله تعالى خلق جرم الأرض ولم يبسطها ثم خلق السماء وبسط جرم الأرض بعد ذلك فان قلت هذا مشكل أيضا لأن قوله تعالى خلق لكم مافى الأرض جميعا يقتضى أن ذلك لايكون إلا بعد الدحو * قلت يحتمل أنه ليس هنا ترتيب وإنما هو على سبيل تعداد النعم كقوله الرجل لمن يذكره ماأنعم به عليه : ألم أعطك ألم أرفع قدرك ألم أدفع عناك ولعل بعض هذه النعم متقدمة على بعض والله أعلم (فسواهن سبع سموات) خلقهن سبع سموات مستويات لاصدع فيها ولا فطور وسيأتى ذكر خلق الأرض عند قوله تعالى «قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين» فى سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى (وهو بكل شىء عليم) يعنى يعلم الجزئيات كما يعلم الكليات قوله تعالى (وإذ قال ربك) أى واذكر يامحمد إذ قال ربك وكل ماورد فى القرآن من هذا النحو فهذا سبيله وقيل إذ زائدة والأول أوجه (للملائكة) جمع ملك وأصله مألك من المألكة والألوكة وهى لفظ البغوى ▪ هى الرسالة وأراد بالملائكة الذين كانوا فى الأرض وذلك أن الله تعالى خلق الأرض والسماء وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة السماء وأسكن الجن الأرض فعبدوا دهرا طويلا ثم ظهر فيهم الحسد والبغى فأفسدوا واقتتلوا فبعث الله إليهم جندا من الملائكة يقال لهم الجان ورأسهم إبليس وهم خزان الجنان فهبطوا إلى الأرض وطردوا الجن إلى جزائر البحور وشعوب الجبال وسكنوا هم الأرض وخفف الله عنهم العبادة وأعطى الله إبليس ملك الأرض وملك السماء الدنيا وخزانة الجنة وكان رئيسهم ومرشدهم وأكثرهم علما فكان يعبد الله تارة فى الأرض وتارة فى السماء وتارة فى الجنة فدخله العجب وقال فى نفسه ماأعطانى الله هذا الملك إلا لأنى أكرم الملائكة عليه فقال له ولجنده (إنى جاعل فى الأرض خليفة) أى إنى خالق خليفة يعنى بدلا منكم ورافعكم

والمراد بالخليفة ههنا آدم سماه خليفة لأنه خلف الجن أى جاء بعدهم. وقيل لأنه يخلفه غيره، والصحيح أنه خليفة الله فى أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) بالمعاصى (ويسفك الدماء) بغير حق، أى كما فعل بنو الجان فقاسوا الشاهد على الغائب وإلا فهم ما كانوا يعلمون الغيب (ونحن نسبح بحمدك) قال الحسن نقول: سبحان الله وبحمده وهو صلاة الخلق وصلاة البهائم وغيرهما سوى الآدميين وعليها يرزقون. أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر ابن محمد أنا محمد بن عيسى أنا إبراهيم بن محمد ابن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا زهير بن حرب أنا حبان بن هلال أنا وهيب أنا سعيد الجريرى عن أبى عبد الله الجسرى عن ابن الصامت عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أىّ الكلام أفضل؟ قال «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده» وقيل ونحن نصلى بأمرك قال ابن عباس كل ما فى القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة (ونقدس لك) أى نثنى عليك بالقدس والطهارة عما لا يليق بعظمتك وجلالك. وقيل ونطهر أنفسنا لطاعتك وقيل ونتزهك. واللام صلة وقيل لم يكن هذا من الملائكة على طريق الاعتراض والعجب بالعمل، بل على سبيل التعجب وطلب وجه الحكمة فيه (قال) الله (إنى أعلم ما لا تعلمون) من المصلحة فيه. وقيل إنى أعلم أن فى ذريته من يطيعنى ويعبدنى من

إلىّ فكرهوا ذلك لأنهم كانوا أهون الملائكة عبادة والمراد بالخليفة هنا آدم عليه الصلاة والسلام لأنه خلف الجن وجاء بعدهم. وقيل لأنه يخلفه غيره والصحيح إنه إنما سمى خليفة لأنه خليفة الله فى أرضه لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياه (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها) أى بالمعاصى (ويسفك الدماء) أى بغير حق كما فعل الجن. فان قلت من أين عرفوا ذلك حتى قالوا هذا القول؟ قلت يحتمل أن يكونوا عرفوا ذلك بأخبار الله إياهم أو قاسوا الشاهد على الغائب؛ وقيل إنهم لما رأوا أن آدم خلق من أخلاط مركبة علموا أنه يكون فيه الحقد والغضب ومنهما يتولد الفساد وسفك الدماء فلهذا قالوا ذلك. وقيل لما خلق الله تعالى النار خافت الملائكة وقالوا لمن خلقت هذه النار قال لمن عصانى فلما قال إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا هو ذلك. فان قلت الملائكة معصومون فكيف وقع منهم هذا الاعتراض. قلت ذهب بعضهم إلى أنهم غير معصومين واستدل على ذلك بوجوه منها قوله «أتجعل فيها من يفسد فيها» ومن ذهب إلى عصمتهم أجاب عنه بأن هذا السؤال إنما وقع على سبيل التعجب لا على سبيل الانكار والاعتراض فانهم تعجبوا من كمال حكم الله تعالى وإحاطة علمه بما خفى عليهم ولهذا إجابهم بقوله «إنى أعلم ما لا تعلمون» وقيل إن العبد المخلص فى حب سيده يكره أن يكون له عبد آخر يعصيه فكان سؤالهم على وجه المبالغة فى إعظام الله عز وجل (ونحن نسبح بحمدك) أى نقول: سبحان الله وبحمده وهى صلاة الخلق وعليها يرزقون (م) عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى الكلام أفضل قال «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده» قال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما جاء فى القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة فيكون المعنى ونحن نصلى لك. وقيل أصل التسبيح تنزيه الله عما لا يليق بجلاله فيكون المعنى ونحن ننزهك عن كل سوء ونقيصة ومعنى بحمدك حامدين لك أو متلبسين بحمدك فانه لولا إنعامك علينا بالتوفيق لم نتمكن من ذلك (ونقدس لك) أصل التقديس التطهير أى نطهرك عن النقائص وكل سوء ونصفك بما يليق بعزك وجلالك من العلو والعظمة واللام صلة وقيل معناه نطهر أنفسنا لطاعتك وعبادتك (قال إنى أعلم ما لا تعلمون) قيل إنه جواب لقول الملائكة أتجعل فيها» فقال تعالى: أعلم من وجوه المصلحة والحكمة ما لا تعلمون. وقيل أعلم أن فيهم من يعبدنى ويطيعنى وهم الأنبياء والأولياء والصالحون، ومن يعصينى منكم وهو إبليس وقيل أعلم أنهم يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم.

(فصل: فى ماهية الملائكة وقصة خلق آدم عليه السلام) قيل إن الملائكة أجسام لطيفة هوائية خلقت من النور تقدر أن تتشكل باشكال مختلفة مسكنهم السموات، عن أبى ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجدا» أخرجه الترمذى بزيادة وقال حديث حسن غريب، وأما صفة خلق آدم عليه السلام فقال وهب بن منبه لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم أوحى إلى الأرض أنى خالق منك خليفة منهم من يطيعنى ومنهم من يعصينى فمن أطاعنى أدخلته الجنة ومن عصانى أدخلته النار قالت الأرض أتخلق منى خلقا يكون للنار قال نعم فبكت الأرض فانفجرت منها العيون إلى يوم القيامة فبعث الله إليها جبريل ليأتيه بقبضة منها من أحمرها

وأسودها وطيبها وخبيثها فلما أتاها ليقبض منها قالت أعوذ بعزة الله الذى أرسلك إلىّ أن لاتأخذ منى شيئا فرجع جبريل إلى مكانه وقال يارب استعاذت بك منى فكرهت أن أقدم عليها فقال الله تعالى لميكائيل انطلق فأتنى بقبضة منها فلما أتاها ليقبض منها قالت له مثل ماقالت لجبريل فرجع إلى ربه فقال ماقالت له فقال لعزرائيل انطلق فأتنى بقبضة من الأرض فلما أتاها قالت له الأرض أعوذ بعزة الله الذى أرسلك أن لاتأخذ منى شيئا فقال وأنا أعوذ بعزته أن أعصى له أمرا وقبض منها قبضة من جميع بقاعها من عذبها وملحها وحلوها ومرها وطيبها وخبيثها وصعد بها إلى السماء فسأله ربه عز وجل وهو أعلم بما صنع فأخبره بما قالت له الأرض وبما رد عليها فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لأخلقن مما جئت به خلقا ولأسلطنك على قبض أرواحهم لقلة رحمتك ثم جعل الله تلك القبضة نصفها فى الجنة ونصفها فى النار ثم تركها ماشاء الله ثم أخرجها فعجنها طينا لازبا مدة ثم حمأ مسنونا مدة ثم صلصالا ثم جعلها جسدا وألقاه على باب الجنة فكانت الملائكة يعجبون من صفة صورته لأنهم لم يكونوا رأوا مثله؛ وكان إبليس يمر عليه ويقول لأمرما خلق هذا ونظر إليه فاذا هو أجوف فقال هذا خلق لايتمالك ، وقال يوما للملائكة إن فضل هذا عليكم ماتصنعون ؟ فقالوا نطيع ربنا ولا نعصيه فقال إبليس فى نفسه لئن فضل على لاعصينه ولئن فضلت عليه لأهلكنه فلما أراد الله تعالى أن ينفخ فيه الروح أمرها أن تدخل فى جسد آدم فنظرت فرأت مدخلا ضيقا فقالت يارب كيف أدخل هذا الجسد ؟ قال الله عز وجل لها أدخليه كرها وستخرجين منه كرها فدخلت فى يافوخه فوصلت إلى عينيه فجعل ينظر إلى سائر جسده طينا فصارت إلى أن وصلت منخريه فعطس فلما بلغت لسانه قال الحمد لله رب العالمين وهى أول كلمة قالها فناداه الله تعالى رحمك ربك ياأبا محمد ولهذا خلقتك ولما بلغت الروح إلى الركبتين همّ ليقوم فلم يقدر قال الله تعالى «خلق الإنسان من عجل» فلما بلغت إلى الساقين والقدمين استوى قائما بشرا سويا لحما ودما وعظاما وعروقا وعصبا وأحشاء وكسى لباسا من ظفر يزداد جسده جمالا وحسنا كل يوم ، وجعل فى جسده تسعة أبواب سبعة فى رأسه وهى الأذنان يسمع بهما والعينان يبصر بهما والمنخران يشم بهما والفم فيه اللسان يتكلم به والأسنان يطحن بها مايأكله ويجد لذة المطعومات بها وبابين فى أسفل جسده وهما القبل والدبر يخرج منهما ثفل طعامه وشرابه وجعل عقله فى دماغه وفكره وصرامته فى قلبه وشرهه فى كليته وغضبه فى كبده ورغبته فى رئته وضحكه فى طحاله وفرحه وحزنه فى وجهه فسبحان من جعله يسمع بعظم ويبصر بشحم وينطق بلحم ويعرف بدم وركب فيه الشهوة وحجزه بالحياء (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال خلق الله تعالى آدم عليه السلام وطوله ستون ذراعا ثم قال إذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة فاستمع مايحيونك به فانها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزاده ورحمة فكل من يدخل الجنة على صورة آدم قال فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن (م) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صور الله آدم تركه ماشاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطوف به ينظر ماهو فلما رآه أجوف عرف أنه لايتمالك عن أبى موسى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله تبارك تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب

الأنبياء والأولياء والصلحاء. وقيل إنى أعلم أن فيكم من يعصينى وهو إبليس. وقيل إنى أعلم أنهم يذنبون وأنا أغفر لهم. قرأ أهل الحجاز والبصرة إنى أعلم بفتح الياء وكذلك كل ياء إضافة استقبلها ألف مفتوحة إلا فى مواضع معدودة ويفتحون فى بعض مواضع عند الألف المضمومة والمكسورة وعند غير الألف. وبين القراء فى تفصيله اختلاف .

أخرجه

قوله (وعلم آدم الأسماء كلها) سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض وقيل لأنه كان آدم اللون وكنيته أبو محمد وأبو البشر فلما خلقه الله عز وجل علمه أسماء الأشياء، وذلك أن الملائكة قالوا لما قال الله تعالى «إني جاعل في الأرض خليفة» ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقا أكرم عليه منا وإن كان غيرنا أكرم عليه فنحن أعلم منه لأنا خلقنا قبله، ورأينا ما لم يره فأظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم وفيه دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلا كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة قال ابن عباس ومجاهد وقتادة علمه اسم كل شئ حتى القصعة والقصيعة. وقيل اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وقال الربيع بن أنس أسماء الملائكة وقيل أسماء ذريته. وقيل صنعة كل شئ قال أهل التأويل إن الله عز وجل علم آدم جميع اللغات ثم تكلم كل واحد من أولاده بلغة فتفرقوا في البلاد واختص كل فرقة منهم بلغة (ثم عرضهم على الملائكة) (٤٧) إنما قال عرضهم ولم يقل: عرضها لأن المسميات إذا جمعت من يعقل ومن لا يعقل يكنى عنها بلفظ من يعقل كما يكنى عن الذكور والإناث بلفظ الذكور وقال مقاتل: خلق الله كل شئ الحيوان والجماد ثم عرض تلك الشخوص على الملائكة فالكناية راجعة إلى الشخوص فلذلك قال عرضهم (فقال أنبئوني) أخبروني (بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) أني لا أخلق خلقا إلا وكنتم أفضل وأعلم منه فقالت الملائكة إقرارا بالعجز (قالوا سبحانك) تنزيها لك (لا علم لنا إلا ما علمتنا) معناه أنك أجل من أن نحيط بشئ من علمك إلا ما علمتنا (إنك أنت العليم) بخلقك (الحكيم) في أمرك. والحكيم له معنيان: أحدهما الحاكم وهو القاضي العدل. والثاني المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد. وأصل الحكمة في اللغة المنع فهي تمنع صاحبها من الباطل ومنه حكمة الدابة لأنها تمنعها من الاعوجاج، فلما ظهر عجزهم (قال) الله تعالى (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) أخبرهم بأسمائهم فسمى آدم كل شئ وذكر الحكمة التي لأجلها خلق (فلما أنبأهم بأسمائهم قال) الله تعالى (ألم أقل لكم) يا ملائكتي (إني أعلم غيب السموات والأرض) ما كان منهما وما يكون لأنه قد قال لهم: إني أعلم ما لا تعلمون. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وإني بفتح الياء وكذلك يفتحون كل ياء إضافة استقبلها ألف قطع مفتوحة إلا أحرفا معدودة، ويفتح نافع وعمرو عند الألف المكسورة أيضا إلا أحرفا معدودة، ويفتح نافع عند المضمومة إلا أحرفا معدودة والآخرون لا يفتحون إلا في أحرف معدودة (وأعلم ما تبدون) قال الحسن وقتادة يعني قولهم «أتجعل فيها من يفسد فيها» (وما كنتم تكتمون) قولكم: لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا.

أخرجه الترمذي وأبو داود. قوله عز وجل (وعلم آدم الأسماء كلها) سمى آدم لأنه خلق من أديم الأرض. وقيل لأنه كان آدم اللون وكنيته أبو محمد وقيل أبو البشر ولما خلق الله آدم وتم خلقه علمه أسماء الأشياء كلها وذلك أن الملائكة قالوا ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق خلقا أكرم علم منا وإن كان فنحن أعلم منه لأنا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره * فأظهر الله فضل آدم عليهم بالعلم. وفيه دليل لمذهب أهل السنة أن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلا قال ابن عباس علمه اسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة وقيل خلق الله كل شيء من الحيوان والجماد وغير ذلك وعلم آدم أسماءها كلها فقال يا آدم هذا بعير وهذا فرس وهذه شاة حتى أتى على آخرها. وقيل علم آدم أسماء الملائكة وقيل أسماء ذريته وقيل علمه اللغات كلها (ثم عرضهم) يعني تلك الأشخاص، وإنما قال عرضهم ولم يقل عرضها لأن المسميات إذا جمعت من يعقل ومن لا يعقل عبر عنه بلفظ من يعقل لتغليب العقلاء عليهم كما يعبر عن الذكور والإناث بلفظ الذكور (على الملائكة فقال) يعني تعجيزا لهم (أنبئوني) أي أخبروني (بأسماء هؤلاء) يعني تلك الأشخاص (إن كنتم صادقين) أي إني لم أخلق خلقا إلا كنتم أفضل منه وأعلم (قالوا) يعني الملائكة (سبحانك) تنزيها لك وذلك لما ظهر عجزهم (لا علم لنا إلا ما علمتنا) أي إنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا (إنك أنت العليم) أي بخلقك وهو من أسماء الصفات التامة وهو المحيط بكل المعلومات (الحكيم) أي في أمرك، وله معنيان أحدهما أنه القاضي العدل والثاني المحكم للأمر كيلا يتطرق إليه الفساد (قال) يعني الله تعالى (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) وذلك لما ظهر عجز الملائكة فسمى كل شيء باسمه وذكر وجه الحكمة التي خلق لها (فلما أنبأهم بأسمائهم قال) يعني الله تعالى (ألم أقل لكم) يعني يا ملائكتي (إني أعلم غيب السموات والأرض) يعني ما كان وما سيكون وذلك أنه سبحانه وتعالى علم أحوال آدم قبل أن يخلقه فلهذا قال لهم: إني أعلم ما لا تعلمون (وأعلم ما تبدون) يعني قول الملائكة: أتجعل فيها (وما كنتم تكتمون) يعني قولكم لن يخلق الله تعالى خلقا أكرم عليه منا وقال ابن عباس أعلم ما تبدون من الطاعة وما كنتم تكتمون، يعني إبليس من المعصية * قوله عز وجل

قال ابن عباس هو أن إبليس مر على جسد آدم وهو ملقى بين مكة والطائف لا روح فيه فقال لأمر ما خلق هذا ثم دخل فى فيه وخرج من دبره وقال إنه خلق لايتماسك لأنه أجوف ثم قال للملائكة الذين معه أرأيتم إن فضل هذا عليكم وأمرتم بطاعته ماذا تصنعون ؟ قالوا نطيع أمر ربنا فقال إبليس فى نفسه والله لئن سلطت عليه لأهلكنه ولئن سلط على لأعصينه فقال الله تعالى «وأعلم ماتبدون» يعنى مايبديه الملائكة من الطاعة «وما كنتم تكتمون» يعنى إبليس من المعصية. وقوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) قرأ أبو جعفر للملائكة اسجدوا بضم التاء على جوار ألف اسجدوا وكذلك قرأ « قل رب احكم بالحق » بضم الباء ؛ وضعفه النحاة جدا ونسبوه إلى الغلط فيه واختلفوا فى أن هذا الخطاب مع أى الملائكة فقال بعضهم مع الذين كانوا سكان الأرض ، والأصح أنه مع جميع الملائكة لقوله تعالى «فسجد الملائكة كلهم أجمعون» وقوله اسجدوا فيه قولان الأصح أن السجود كان لآدم على الحقيقة وتضمن معنى الطاعة لله عزوجل امتثال أمره ، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية ، لاسجود عبادة كسجود إخوة يوسف له فى قوله عز وجل « وخروا له سجدا » ولم يكن فيه وضع الوجه على الأرض إنما كان انحناء فلما جاء الإسلام أبطل ذلك

بالسلام. وقيل معنى قوله اسجدوا لآدم أى إلى آدم فكان آدم قبلة والسجود لله تعالى كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله عز وجل (فسجدوا) يعنى الملائكة (إلا إبليس) وكان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحرث فلما عصى غير اسمه وصورته فقيل إبليس ، لأنه أبلس من رحمة الله تعالى أى يئس واختلفوا فيه فقال ابن عباس وأكثر المفسرين كان إبليس من الملائكة وقال الحسن كان من الجن ولم يكن من الملائكة لقوله تعالى « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه» فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس ولأنه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة والأول أصح لأن خطاب السجود كان مع الملائكة وقوله «كان من الجن» أى من الملائكة الذين هم خزنة الجنة . وقال سعيد بن جبير من الذين يعملون فى الجنة . وقال قوم من الملائكة الذين كانوا يصوغون حلى أهل الجنة وقيل إن فرقة من الملائكة خلقوا من النار سموا جنا لاستتارهم عن الأعين ، وإبليس كان منهم والدليل عليه قوله تعالى « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا» وهو قولهم الملائكة بنات الله. ولما أخرجه الله من الملائكة جعل له ذرية. قوله (أبى) أى امتنع فلم يسجد (واستكبر) أى تكبر عن السجود لآدم (وكان) أى وصار (من الكافرين) وقال أكثر المفسرين وكان فى سابق علم الله من الكافرين الذين وجبت لهم الشقاوة . أنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابى أنا ابن الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادى، أنا أبو يزيد محمد بن يحيى بن خالد أنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلى أنا جرير ووكيع وأبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول ياويله أمر ابن آدم بالسجود فأطاع فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار. قوله تعالى (وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة) وذلك

أسكنتاك

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) قيل هذا الخطاب كان مع الملائكة الذين كانوا سكان الأرض والأصح أنه خطاب مع جميع الملائكة بدليل قوله « فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس» (فسجدوا) يعنى الملائكة وفى هذا السجود قولان أصحهما أنه كان لآدم على الحقيقة ولم يكن فيه وضع الجبهة على الأرض وإنما هو الانحناء وكان سجود تحية وتعظيم لاسجود عبادة كسجود إخوة يوسف له فى قوله «وخروا له سجدا» فلما جاء الإسلام أبطل ذلك بالسلام . وفى سجود الملائكة لآدم معنى الطاعة لله تعالى والامتثال لأمره والقول الثانى أن آدم كان كالقبلة وكان السجود لله تعالى كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله تعالى وفى هذه الآية دليل لمذهب أهل السنه فى تفضيل الأنبياء على الملائكة (إلا إبليس) سمى به لأنه أبلس من رحمة الله أى يئس ، وكان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحرث فلما عصى غير اسمه فسمى إبليس وغيرت صورته قال ابن عباس كان إبليس من الملائكة بدليل أنه استثناه منهم وقيل إنه من الجن لأنه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور ولأنه أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس والأول أصح لأن الخطاب كان مع الملائكة فهو داخل فيهم ثم استثناه منهم (أبى) أى امتنع من السجود فلم يسجد (واستكبر) أى تكبر وتعظم عن السجود لآدم (وكان من الكافرين) أى فى علم الله تعالى فانه وجبت له النار لسابق علم الله تعالى بشقاوته (م) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول ياويله وفى رواية ياويلتاه أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار ▪ قوله عز وجل (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) أى اتخذها مأوى ومنزلا وليس معناه الاستقرار لأنه لم يقل

أن آدم لم يكن له فى الجنة من يجانسه فنام نومة فخلق الله زوجته حواء من قصيراء شقه الأيسر وسميت حواء لأنها خلقت من حى خلقها الله عز وجل من غير أن أحس به آدم ولا وجد له ألما ولو وجد ألما لما عطف رجل على امرأة قط فلما هب من نومه رآها جالسة عند رأسه كأحسن ما خلق الله فقال لها من أنت قالت زوجتك خلقنى الله لك تسكن إلى وأسكن إليك (وكلا منها رغدا) واسعا كثيرا (حيث شئتما) كيف شئتما ومتى شئتما وأين شئتما (ولا تقربا هذه الشجرة) (٤٩) يعنى بالأكل قال بعض العلماء وقع النهى على جنس من الشجرة ، وقال آخرون على شجرة مخصوصة واختلفوا فى تلك الشجرة قال ابن عباس ومحمد ابن كعب ومقاتل هى السنبلة. وقال ابن مسعود هى شجرة العنب وقال ابن جريج شجرة التين وقال قتادة شجرة العلم وفيها من كل شئ. وقال على شجرة الكافور (فتكونا) فتصيرا (من الظالمين) أى الضارين بأنفسكما بالمعصية وأصل الظلم وضع الشئ فى غير موضعه (فأزلهما) استزل (الشيطان) آدم وحواء أى دعاهما إلى الزلة وقرأ حمزة فأزالهما أى نحاهما الشيطان ، فيعال من شطن أى بعد سمى به لبعده عن الخير وعن الرحمة (عنها) عن الجنة (فأخرجهما مما كانا فيه) من النعيم وذلك أن إبليس أراد أن يدخل ليوسوس إلى آدم وحواء فمنعه الخزنة فأتى الحية وكانت صديقة لإبليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من خزان الجنة فسألها إبليس أن تدخله فى فمها فأدخلته ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون فأدخلته الجنة. وقال الحسن إنما رآهما على باب الجنة لأنهما كانا يخرجان منها وقد كان آدم حين دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم قال : لو أن خلدا فاغتنم ذلك منه الشيطان فأتاه الشيطان من قبل الخلد فلما دخل الجنة وقف بين يدى آدم وحواء وهما لا يعلمان أنه إبليس فبكى وناح نياحة أحزنتهما

أسكنتك الجنة لأنه خلق لعمارة الأرض ولما أسكن الله آدم فى الجنة بقى وحده ليس معه من يستأنس به ويجالسه فألقى الله عليه النوم ثم أخذ ضلعا من أضلاع جنبه الأيسر ، وهو الأقصر فخلق منه زوجته حواء ووضع مكان الضلع لحما من غير أن يحس بذلك آدم ولم يجد ألما ولو وجد ألما لما عطف رجل على امرأة قط وسميت حواء لأنها خلقت من حى فلما استيقظ آدم من نومه ورآها جالسة كأحسن ما خلق الله تعالى فقال لها من أنت؟ قالت أنا زوجتك حواء قال ولماذا خلقت؟ قالت لتسكن إلى وأسكن إليك . واختلفوا فى الجنة التى أمر آدم بسكناها فقيل إنها جنة كانت فى الأرض بدليل أنه لو كانت الجنة التى هى دار الجزاء والثواب لما أخرج منها. وأجاب صاحب هذا القول عن قوله تعالى : اهبطا بأن المراد من الهبوط التحول والانتقال فهو كقوله تعالى «اهبطوا مصر» والقول الصحيح أنها الجنة التى هى دار الجزاء والثواب لأن الألف واللام للعهد والجنة بين المسلمين وفى عرفهم هى التى هى دار الجزاء والثواب . وقيل كلا القولين ممكن فلا وجه للقطع (وكلا منهما رغدا) أى واسعا كثيرا (حيث شئتما) أى كيف شئتما ومتى شئتما وأين شئتما والمقصود منه الإطلاق فى الأكل من الجنة بلا منع إلا ما نهى عنه ، وهو قوله تعالى (ولا تقربا هذه الشجرة) يعنى للأكل قيل إنما وقع هذه النهى عن جنس الشجرة . وقيل عن شجرة مخصوصة. قال ابن عباس هى السنبلة وقيل الكرمة. وقيل هى شجرة التين. وقيل هى شجرة العلم. وقيل الكافور. وقيل ليس فى ظاهر الكلام ما يدل على التبيين إذ لا حاجة إليه لأنه ليس المقصود تعرّف عين تلك الشجرة وما لا يكون مقصودا لا يجب بيانه (فتكونا من الظالمين) يعنى إن أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما فمن جوّز ارتكاب الذنوب على الأنبياء قال ظلم نفسه بالمعصية. وأصل الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ومن لم يجوّز ذلك على الأنبياء حمل الظلم على أنه فعل ما كان الأولى أن لا يفعله . وقيل يحمل على أنه فعل هذا قبل النبوة . فإن قلت هل يجوز وصف الأنبياء بالظلم أو بظلم أنفسهم ؟. قلت لا يجوز أن يطلق عليهم ذلك لما فيه من الذم . قوله عز وجل (فأزلهما الشيطان) أى استزل آدم وحواء ودعاهما إلى الزلة وهى الخطيئة ، وسيأتى الكلام إن شاء الله تعالى على عصمة الأنبياء والجواب عما صدر منهم عند قوله عز وجل «وعصى آدم ربه فغوى» فى سورة طه (عنها) أى الجنة (فأخرجهما مما كانا فيه) يعنى من النعيم وذلك أن إبليس أراد أن يدخل الجنة ليوسوس لآدم وحواء فمنعه الخزنة فأتى الحية وكانت صديقة لإبليس وكانت من أحسن الدواب لها أربع قوائم كقوائم البعير وكانت من خزان الجنة فسألها أن تدخله الجنة فى فمها فأدخلته ومرت به على الخزنة وهم لا يعلمون . وقيل إنما رآهما على باب الجنة لأنهما كانا يخرجان منها، وكان إبليس بقرب الباب فوسوس لهما وذلك أن

آدم لما دخل الجنة ورأى ما فيها من النعيم قال لو أن خلدا فاغتنم ذلك الشيطان منه وأتاه من قبل الخلد. وقيل لما دخل الجنة وقف على آدم وحواء وهما لا يعلمان أنه إبليس فبكى وناح نياحة أحزنتهما وهو أول من ناح فقالا ما يبكيك قال أبكى عليكما لأنكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة فوقع ذلك فى أنفسهما واغتما ومضى إبليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد فأبى أن يقبل منه فقاسمهما بالله إنى لكما لمن الناصحين فاغترا وما ظنا أن أحدا يحلف بالله كاذبا فبادرت حواء إلى أكل الشجرة ثم ناولت آدم فأكل منها . قال إبراهيم بن أدهم أورثتنا تلك الأكلة حزنا طويلا. قال ابن عباس قال الله تعالى «يا آدم ألم يكن فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة قال بلى يارب وعزتك ولكن ماظننت أن أحدا يحلف بك كاذبا قال فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ثم لاتنال العيش فيها إلا نكدا فاهبط من الجنة وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع وسقى حتى إذا بلغ واشتد حصده ثم درسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه وخبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه الجهد . وفى رواية أخرى عن ابن عباس إن آدم لما أكل من الشجرة التى نهى عنها قال الله تعالى «يا آدم ما حملك على ما صنعت ؟ قال يارب زينته لى حواء قال فانى أعقبتها أن لاتحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها ودميتها فى الشهر مرتين فرنت حواء عند ذلك فقيل عليك الرنة وعلى بناتك. والرنة الصوت فلما أكلا من الشجرة تهافتت عنهما ثيابهما وأخرجا من الجنة فذلك قوله عز وجل (وقلنا اهبطوا) أى انزلوا إلى الأرض يعنى آدم وحواء وإبليس والحية فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود وأهبطت حواء بجدة وإبليس بالابلة من أعمال البصرة والحية بأصبهان (بعضكم لبعض عدو) يعنى العداوة التى بين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس وإليه الاشارة بقوله عز وجل «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا» والعداوة التى بين ذرية آدم والحية. عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا ما سالمناهن منذ حاربناهن» أخرجه أبو داود. وله عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف من ثارهن فليس منى» وفى رواية «اقتلوا الكبار كلها إلا الجان الأبيض الذى كأنه قضيب فضة» (م) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن بالمدينة جنا قد أسلموا فاذا رأيتم منهم شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان» وفى رواية «إن بهذه البيوت عوامر فاذا رأيتم منها

شيئا

وهو أول من ناح فقالا له مايبكيك قال أبكى عليكما تموتان فتفارقان ماأنتما فيه من النعمة فوقع ذلك فى أنفسهما فاغتما ومضى إبليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد فأبى أن يقبل منه وقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين فاغترا وما ظنا أن أحدا يحلف بالله كاذبا فبادرت حواء إلى أكل الشجرة ثم ناولت آدم حتى أكلها . وكان سعيد بن المسيب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن حواء سقته الخمر حتى سكر قادته إليها فأكل قال إبراهيم بن أدهم أورثتنا تلك الأكلة حزنا طويلا . قال ابن عباس وقتادة قال الله عز وجل لآدم : ألم يكن فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة قال بلى يارب وعزتك ولكن ماظننت أن أحدا يحلف بك كاذبا قال : فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا نكدا فأهبط من الجنة ، وكانا يأكلان فيها رغدا فعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد ثم درس ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبز ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ ماشاء الله . قال سعيد بن جبير عن ابن عباس إن آدم لما أكل من الشجرة التى نهى عنها قال الله عز وجل يا آدم ما حملك على ماصنعت ؟ قال يا رب زينته لى حواء قال فانى أعقبتها أن لاتحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها ودميتها فى الشهر مرتين فرنت حواء عند ذلك فقيل عليك الرنة وعلى بناتك فلما أكلا منها فتنت عنهما ثيابهما وبدت سوآتهما وأخرجا من الجنة فذلك قوله تعالى (وقلنا اهبطوا) انزلوا إلى الأرض يعنى آدم وحواء وإبليس والحية فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود وحواء بجدة وإبليس بالإبلة والحية بأصفهان (بعضكم لبعض عدو) أراد العداوة التى بين ذرية آدم والحية وبين المؤمنين من ذرية آدم وبين إبليس ، قال الله تعالى «إن الشيطان لكما عدو مبين» . أنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو الحسن بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن محمد بن الصفار حدثنا منصور الرمادى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال لاأعلمه إلا رفع الحديث أنه كان يأمر بقتل الحيات وقال من

تركهن خشية أو مخافة ثأر فليس منا وزاد موسى بن مسلم عن عكرمة فى الحديث ماسالمناهن منذ حاربناهن وروى أنه نهى عن ذوات البيوت ، وروى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ « أن بالمدينة جنا قد أسلموا فان رأيتم منهم شيئا فاذنوه ثلاثة أيام فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان » قوله تعالى (ولكم فى الأرض مستقر) موضع قرار (ومتاع) بلغة ومستمتع (إلى حين) إلى انقضاء آجالكم (فتلقى) والتلقى هو قبول عن فطنة وفهم . وقيل هو التعلم (آدم من ربه كلمات) قراءة العامة آدم برفع الميم وكلمات بخفض التاء ، وقرأ ابن كثير آدم بالنصب كلمات برفع التاء

يعنى جاءت الكلمات آدم من ربه وكانت سبب توبته واختلفوا فى تلك الكلمات قال سعيد بن جبير ومجاهد والحسن هى قوله « ربنا ظلمنا أنفسنا » الآية وقال مجاهد ومحمد بن كعب القرظى هى قوله : لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت أرحم الراحمين . وقال عبيد بن عمير هى أن آدم قال يارب أرأيت ما أتيت أشئ ابتدعته من تلقاء نفسى أم شئ قدرته علىّ قبل أن تخلقنى قال الله تعالى : لا بل شئ قدرته عليك قبل أن أخلقك قال يارب فكما قدرته قبل أن تخلقنى فاغفر لى . وقيل : هى ثلاثة أشياء الحياء والدعاء والبكاء قال ابن عباس بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوما ولم يقرب آدم حواء مائة سنة ، وروى المسعودي عن يونس بن خباب وعلقمة بن مرثد قالا لو أن دموع جميع أهل الأرض جمعت لكانت دموع داود أكثر حيث أصاب الخطيئة ولو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من الجنة قال شهر بن حوشب : بلغنى أن آدم لما أهبط إلى الأرض مكث ثلثمائة سنة لا يرفع رأسه حياء من الله تعالى . قوله (فتاب عليه) فتجاوز عنه (أنه هو التواب) يقبل توبة عباده (الرحيم) بخلقه . قوله تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعا) يعنى هؤلاء الأربعة . وقيل الهبوط

شيئا فحرجوا عليه ثلاثا فان ذهب وإلا فاقتلوه فانه كافر » (ولكم فى الأرض مستقر) أى موضع قرار (ومتاع) أى بلغة ومستمتع (إلى حين) أى إلى وقت انقضاء آجالكم . قوله عز وجل (فتلقى آدم) أى فتلقن ، والتلقى هو قبول عن فطنة وفهم . وقيل هو التعلم (من ربه كلمات) أى كانت سبب توبته . وقيل إن تلك الكلمات هى قوله ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقيل هى لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسى فاغفر لى إنك أنت الغفور الرحيم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب عملت سوءا وظلمت نفسى فارحمنى إنك أنت أرحم الراحمين . وقيل قال آدم يارب أرأيت ما أتيت أشىء ابتدعته من تلقاء نفسى أم شىء قدرته علىّ قبل أن تخلقنى قال بل شىء قدرته عليك قبل أن أخلقك قال يارب فكما قدرته على فاغفر لى . وقيل أن الله تعالى أمر آدم بالحج وعلمه أركانه فطاف بالبيت سبعا وهو يومئذ ربوة حمراء ثم صلى ركعتين ثم استقبل البيت وقال اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى وتعلم ما فى نفسى فاغفر لى ذنوبى فأوحى الله تعالى إليه يا آدم قد غفرت لك ذنوبك وقيل إن آدم لما أهبط إلى الأرض مكث ثلثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله تعالى . وقيل هى ثلاثة أشياء : الحياء والدعاء والبكاء قال ابن عباس بكى آدم وحواء على مافاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوما . وقيل لو أن دموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع داود أكثر منها حيث أصاب الخطيئة ولو أن دموع داود ودموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع آدم أكثر حيث أخرجه الله من الجنة (فتاب عليه) أى فتجاوز عنه وغفر له . وأصل التوبة من تاب يتوب إذا رجع فكأن التائب رجع عن ذلك الذنب الذى كان عليه ، ولا تتحقق التوبة منه إلا بثلاثة أمور : علم وحال وعمل أما العلم فهو أن يعلم العبد ضرر الذنب وأنه حجاب عن الله تعالى فاذا حصل هذا العلم تألم القلب فعند ذلك يحصل الندم وهو الحال فيترك العبد الذنب ، ويعزم فى المستقبل أن لا يعود إليه وهو العمل فاذا تحققت هذه الثلاثة الأمور حصلت التوبة وسيأتى بسط هذا عند قوله تعالى « توبوا إلى الله توبة نصوحا » فى سورة التحريم إن شاء الله تعالى (إنه هو التواب) أى الرجاع على عباده بقبول التوبة . والتواب فى وصف الله سبحانه وتعالى : المبالغ فى قبول توبة عباده (الرحيم) أى بخلقه وصف سبحانه وتعالى نفسه مع كونه توابا بأنه رحيم (قلنا اهبطوا منها جميعاً) يعنى هؤلاء الأربعة . وقيل إن الهبوط الأول من الجنة إلى سماء الدنيا والهبوط الثانى من السماء الدنيا إلى الأرض ، وفيه ضعف لأنه قال فى الهبوط الأول « ولكم فى الأرض مستقر » فدل على أنه كان من الجنة إلى الأرض ، والأصح أنه

الأول من الجنة إلى السماء الدنيا والهبوط الثاني من السماء الدنيا إلى الأرض (فاما يأتينكم) أي فان يأتكم ياذرية آدم (مني هدي) أي رشد وبيان شريعة وقيل كتاب ورسول (فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قرأ يعقوب فلا خوف بالفتح في كل القرآن، والآخرون بالضم والتنوين فلا خوف عليهم فيما يستقبلهم ولا هم يحزنون على ماخلفوا. وقيل لاخوف عليهم في الدنيا ولا هم يحزنون في الآخرة (والذين كفروا) جحدوا (وكذبوا بآياتنا) بالقرآن (أولئك أصحاب النار) يوم القيامة (هم فيها خالدون) لايخرجون منها ولا يموتون فيها (٥٢) قوله تعالى (يابني إسرائيل) ياأولاد يعقوب ومعنى إسرائيل عبد الله وإيل هو الله تعالى. وقيل صفوة الله وقرأ أبو جعفر إسراييل بغير همزة (اذكروا) احفظوا والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان. وقيل أراد به الشكر وذكر بلفظ الذكر لأن في الشكر ذكرا وفي الكفران نسيانا قال الحسن ذكر النعمة شكرها (نعمتي) أي نعمي لفظها واحد ومعناها جمع كقوله تعالى «وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها» (التي أنعمت عليكم) أي على أجدادكم وأسلافكم قال قتادة: هي النعم التي خصت بها بنوا إسرائيل فلق البحر وإنجاؤهم من فرعون باغراقه وتظليل الغمام عليهم في التيه وإنزال المن والسلوي وإنزال التوراة في نعم كثيرة لاتحصى. وقال غيره هي جميع النعم التي لله عز وجل على عباده (وأوفوا بعهدي) بامتثال أمري (أوف بعهدكم) بالقبول والثواب. قال قتادة ومجاهد أراد بهذا العهد ماذكر في سورة المائدة «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل إلا وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا» إلى أن قال «لأكفرن عنكم سيئاتكم» فهذا قوله أوف بعهدكم. وقال الحسن هو قوله «وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة» فهو شريعة التوراة وقال مقاتل هو قوله «وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لاتعبدون إلا الله» وقال الكلبي عهد الله إلى بني إسرائيل على لسان موسى إني باعث من بني إسماعيل نبيا أميا فمن اتبعه وصدق بالنور الذي يأتي به غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة وجعلت له أجرين اثنين، وهو قوله «وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس» يعني أمر

للتأكيد (فاما يأتينكم مني هدى) فيه تنبيه على عظم نعم الله على آدم وحواء كأنه قال وإن أهبطتكم من الجنة إلى الأرض فقد أنعمت عليكم بهدايتي التي تؤديكم إلى الجنة مرة أخرى على الدوام الذي لاينقطع وقيل المخاطب هم ذرية آدم يعني ياذرية آدم إما يأتينكم مني رشد وبيان وشريعة وقيل كتاب ورسول (فمن تبع هداى فلا خوف عليهم) يعني فيما يستقبلهم (ولاهم يحزنون) أي على ماخلفوا وقيل لاخوف عليهم ولاهم يحزنون في الآخرة (والذين كفروا) أي جحدوا (وكذبوا بآياتنا) أي بالقرآن (أولئك أصحاب النار) أي يوم القيامة (هم فيها خالدون) أي لايخرجون منها ولا يموتون فيها قوله عز وجل (يابني إسرائيل) اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم صلى الله عليهم وسلم أجمعين ومعنى إسرائيل عبد الله وقيل صفوة الله والمعنى ياأولاد يعقوب (اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) أي اشكروا نعمتي وإنما عبر عنه بالذكر لأن من ذكر النعمة فقد شكرها ومن جحدها فقد كفرها وقيل الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان ووجد النعمة لأنها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير ومعناه أن المضرة المحضة لاتكون نعمة ولو فعل الإنسان منفعة وقصد نفسه بها لاتسمى نعمة إذا لم يقصد بها الغير ثم إن النعم ثلاثة: نعمة تفرد بها الله تعالى وهي إيجاد الإنسان ورزقه ونعمة وصلت إلى الإنسان بواسطة الغير لكن الله مكنه من ذلك فالمنعم بها في الحقيقة هو الله تعالى ونعمة حصلت للانسان بسبب الطاعة وهي أيضا من الله تعالى فالله هو المنعم المطلق في الحقيقة لأن أصول النعم كلها منه. وأما النعم المختصة ببني إسرائيل فكثيرة لأن قوله اذكروا نعمتي لفظها واحد ومعناها الجمع فمن النعم أن الله تعالى أنجاهم من فرعون وفلق البحر لهم وأغرق فرعون وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى في التيه عليهم وإنزال التوراة ونعم غير هذه كثيرة. فان قلت إذا فسر النعمة بهذا فما كانت على المخاطبين بها بل كانت على آبائهم فكيف تكون نعمة عليهم حتى يذكروها. قلت إنما ذكر المخاطبين بها لأن فخر الآباء فخر الأبناء ولأن الأبناء إذا تيقنوا أن الله قد أنعم على آبائهم بهذه النعم فقد وجب عليهم ذكرها وشكرها. وقيل إن هذه النعم هي إدراك المخاطبين بها زمن محمد صلى الله عليه وسلم وذكرها الإيمان به (وأوفوا بعهدى) أي امتثلوا أمرى (أوف بعهدكم) أي بالقبول والثواب وأصل العهد حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال ومنه سمي الموثق الذي تلزم مراعاته عهدا. وقيل أراد بالعهد جميع ماأمر الله به من غير تخصيص ببعض التكليف دون بعض وقيل أراد به ما ذكر في سورة المائدة وهو قوله «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا إلى قوله لأكفرن عنكم سيئاتكم» فهذا قوله أوف بعهدكم، وقيل هو قوله «وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة يعني شريعة التوراة. وقيل هو قوله «وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لاتعبدون

محمد صلى الله عليه وسلم (وإياي فارهبون) فخافوني في نقض العهد . وأثبت يعقوب الياءات المحذوفة في الخط مثل فارهبون
فاتقون واخشون ، والآخرون يحذفونها على الخط (وآمنوا بما أنزلت) يعني القرآن (مصدقا لما معكم) أي موافقا لما معكم من التوراة
في التوحيد والنبوة والأخبار ونعت النبي ﷺ نزلت في كعب بن الأشرف

وأصحابه من علماء اليهود ورؤسائهم
(ولا تكونوا أول كافر به) اي بالقرآن يريد من أهل الكتاب لأن قريشا كفرت قبل اليهود بمكة ، معناه ولا تكونوا أول من كفر بالقرآن فتتابعكم اليهود على ذلك فتبوءوا بآثامكم وآثامهم (ولا تشتروا) أي ولا تستبدلوا (بآياتي) ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) أي عوضا يسيرا من الدنيا وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم مأكلة يصيبونها من سفلتهم وجهالهم يأخذون كل عام منهم شيئا معلوما من زروعهم وضروعهم ونقودهم فخافوا أنهم إن بينوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وتابعوه أن تفوتهم تلك المأكلة فغيروا نعته وكتموا اسمه فاختاروا الدنيا على الآخرة (وإياي فاتقون) فاخشوني (ولا تلبسوا الحق بالباطل) أي لا تخلطوا يقال لبس الثوب يلبس
لبسا ولبس عليه الأمر يلبس لبسا أي خلط ، يقال لا تخلطوا الحق الذي أنزلت عليكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم بالباطل
الذي تكتبونه بأيديكم من تغيير صفة محمد ﷺ والأكثرون على أنه أراد لا تلبسوا الإسلام باليهودية والنصرانية وقال مقاتل
إن اليهود أقروا ببعض صفة محمد صلى الله عليه وسلم وكتموا بعضا ليصدقوا في ذلك فقال ولا تلبسوا الحق الذي تغيرون بالباطل
يعني بما تكتمونه فالحق بيانهم والباطل كتمانهم (وتكتموا الحق) أي لا تكتموه يعني نعت محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون)

إلا الله . وقيل أراد بهذا العهد ما أثبته في كتب الأنبياء المتقدمة من وصف محمد صلى الله عليه وسلم وأنه مبعوث في آخر الزمان ، وذلك أن الله عهد إلى بني إسرائيل على لسان موسى عليه الصلاة والسلام أني باعث من بني إسماعيل نبيا أميا فمن تبعه وصدق النور الذي يأتي به غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة وجعلت له أجرين اثنين ، وهو قوله «وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس» يعني أمر محمد ﷺ وصفته (وإياي فارهبون) أي فخافون في نقضكم العهد (وآمنوا بما أنزلت) يعني بالقرآن (مصدقا لما معكم) يعني أن القرآن موافق لما في التوراة من التوحيد والنبوة والأخبار ونعت النبي صلى الله عليه وسلم فالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن تصديق للتوراة لأن التوراة فيها الإشارة إلى نعت النبي صلى الله عليه وسلم وأنه نبي مبعوث فمن آمن به فقد آمن بما في التوراة ومن كذبه وكفر به فقد كذب التوراة وكفر بها (ولا تكونوا أول كافر به) الخطاب لليهود ، نزلت في كعب بن الأشرف ورءوساء اليهود ، والمعنى ولا تكونوا يامعشر اليهود أول من كفر به . فان قلت كيف جعلوا أول من كفر به وقد سبقهم إلى الكفر به مشركو العرب من أهل مكة وغيرهم . قلت هذا تعريض لهم والمعنى كان يجب أن تكونوا أول من آمن به لأنكم تعرفون صفته ونعته بخلاف غيركم وكنتم تستفتحون به على الكفار فلما بعث كان أمر اليهود بالعكس . وقيل معناه ولا تكونوا أول كافر به من اليهود فيتبعكم غيركم على ذلك فتبوءوا بإثمكم وإثم غيركم ممن تبعكم على ذلك (ولا تشتروا) أي ولا تستبدلوا (بآياتي) أي ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم التي في التوراة (ثمنا قليلا) أي عوضا يسيرا من الدنيا لأن الدنيا بالنسبة إلى الآخرة كالشيء اليسير الحقير الذي لا قيمة له والذي كانوا يأخذونه من الدنيا كالشيء اليسير بالنسبة إلى جميعها فهو قليل القليل فلهذا قال الله تعالى «ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا» وذلك أن كعب بن الأشرف ورءوساء اليهود وعلماءهم كانوا يصيبون المآكل من سفلتهم وجهالهم وكانوا يأخذون منهم في كل سنة شيئا معلوما من زرعهم وثمارهم ونقودهم وضروعهم فخافوا أن بينوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وتابعوه أن تفوتهم تلك المآكل فغيروا نعته وكتموا اسمه واختاروا الدنيا على الآخرة وأصروا على الكفر (وإياي فاتقون) أي فخافون في أمر محمد صلى الله عليه وسلم . والتقوى قريب من معنى الرهبة والفرق بينهما أن الرهبة خوف مع حزن واضطراب والتقوى جعل النفس في وقاية مما تخاف . قوله عز وجل (ولا تلبسوا الحق بالباطل) أي ولا تكتبوا في التوراة ما ليس فيها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم . وقيل معناه ولا تخلطوا الحق الذي أنزل عليكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة الباطل الذي تكتبونه بأيديكم من تغيير صفته وقيل لا تخلطوا صفة محمد صلى الله عليه وسلم التي هي الحق بالباطل أي بصفة الدجال وذلك أنه لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده اليهود وقالوا ليس هو الذي ننتظره وإنما هو المسيح ابن داود يعني الدجال وكذبوا فيما قالوا (وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) يعني أن محمدا صلى الله

أنه نبي مرسل (وأقيموا الصلوة) يعني الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها (وآتوا الزكاة) أدوا زكاة أموالكم المفروضة فهي مأخوذة من زكا الزرع إذا نما وكثر . وقيل من تزكى أي تطهر وكلا المعنيين موجودان في الزكاة لأن فيها تطهيرا وتنمية للمال (واركعوا مع الراكعين) أي صلوا (٥٤) مع المصلين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وذكر بلفظ الركوع لأن الركوع ركن من أركان الصلاة ولأن صلاة اليهود لم يكن فيها ركوع وكأنه قال : صلوا صلاة ذات ركوع . قيل وإعادته بعد قوله : وأقيموا الصلاة لهذا أى صلوا مع الذين في صلواتهم ركوع فالأول مطلق في حق الكل وهذا في حق أقوام مخصوصين وقيل هذا حث على إقام الصلاة جماعة كأنه قال لهم : صلوا مع المصلين الذين سبقوكم بالإيمان (أتأمرون الناس بالبر) أي بالطاعة نزلت في علماء اليهود وذلك أن الرجل منهم كان يقول لقريبه وحليفه من المؤمنين إذا سأله عن أمر محمد ﷺ اثبت على دينه فان أمره حق وقوله صدق . وقيل هو خطاب لأحبارهم حيث أمروا أتباعهم بالتمسك بالتوراة ثم خالفوا وغيروا نعت محمد ﷺ (وتنسون أنفسكم) أى تتركون أنفسكم فلا تتبعونه (وتم تتلون الكتاب) أتقرءون التوراة فيها نعته وصفته (أفلا تعقلون) أنه حق فتتبعونه والعقل مأخوذ من عقال الدابة وهو مايشد به ركبة البعير فيمنعه عن الشرود فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود. أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي. أنا أبوعمرو بكر بن محمد المزني أنا أبو بكر محمد بن عبد الله جفيد العباس بن حمزة أنا الحسين بن الفضل البجلي أنا عفان أنا حماد بن سلمة أنا علي بن زيد عن أنس بن مالك : أن

عليه وسلم نبي مرسل . وفيه تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله فصار هذا الخطاب وإن كان خاصا في الصورة لكنه عام في المعنى فعلى كل أحد أن لا يلبس الحق بالباطل ولا يكتم الحق لما فيه من الضرر والفساد وفيه دلالة أيضا على أن العالم بالحق يجب عليه إظهاره ويحرم عليه كتمانه (وأقيموا الصلواة) يعني الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وجميع أركانها (وآتوا الزكاة) أى أدوا الزكاة المفروضة عليكم في أموالكم (واركعوا مع الراكعين) أى صلوا مع المصلين، يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعبر عن الصلاة بالركوع لأنه ركن من أركانها وهذا خطاب لليهود لأن صلاتهم ليس فيها ركوع فكأنه قال لهم صلوا صلاة ذات ركوع فلهذا المعنى أعاده بعد قوله وأقيموا الصلاة لأن الأول خطاب الكافة والثاني خطاب قوم مخصوصين وهم اليهود. وفيه حث على إقامة الصلاة في الجماعة فكأنه قال صلوا مع المصلين في الجماعة . قوله عز وجل (أتأمرون الناس بالبر) الاستفهام فيه للتقرير مع التقريع والتعجب من حالهم . والبر اسم جامع لجميع أعمال الخير والطاعات ، نزلت هذه الآية في علماء اليهود ، وذلك أن الرجل منهم كان يقول لقريبه وحليفه من المسلمين إذا سأله عن أمر محمد ﷺ اثبت على دينه فان أمره حق وقوله صدق وقيل إن جماعة من اليهود قالوا لمشركي العرب : إن رسولا سيظهر منكم ويدعوكم إلى الحق وكانوا يرغبونهم في اتباعه فلما بعث الله محمدا ﷺ حسدوه وكفروا به فبكتهم الله ووبخهم بذلك حيث إنهم كانوا يأمرون الناس باتباعه قبل ظهوره فلما ظهر تركوه وأعرضوا عنه . وقيل كانوا يأمرون الناس بالطاعة والصلاة والزكاة وأنواع البر ولا يفعلونه فوبخهم الله بذلك (وتنسون أنفسكم) أي وتعدلون عما لها فيه نفع والنسيان عبارة عن السهو الحادث بعد حصول العلم والمعنى أتتركون أنفسكم ولا تتبعون محمدا صلى الله عليه وسلم (وأنتم تتلون الكتاب) يعني تقرءون التوراة وتدرسونها وفيها نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته وفيها أيضا الحث على الأفعال الحسنة والإعراض عن الأفعال القبيحة والإثم (أفلا تعقلون) يعني أنه حق فتتبعونه. والعقل قوة تهيء قبول العلم ويقال للعلم الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل ومنه قول علي بن أبي طالب .

وإن العقل عقلان فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مطبوع إذا لم يك مسموع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

وأصل العقل الإمساك لأنه مأخوذ من عقال الدابة كعقل البعير بالعقال لمنعه من الشرود فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود والأفعال القبيحة . ومعنى الآية أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إرشاد الغير إلى تحصيل المصلحة وتحذيره عما يوقعه في المفسدة والإحسان إلى النفس أولى من الإحسان إلى الغير وذلك لأن الإنسان إذا وعظ غيره ولم يتعظ هو فكأنه أتى بفعل متناقض لا يقبله العقل فلهذا قال أفلا تعقلون وقيل إن من وعظ الناس يجتهد

رسول الله ﷺ قال «رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء ياجبريل قال هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب» أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا على بن عبدالله أنا سفيان الأعمش عن أبى وائل

قال قال أسامة سمعت رسول الله ﷺ «يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أى فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » وقال شعبة عن الأعمش «فيطحن بها كما يطحن الحمار برحاه» (واستعينوا) على ما يستقبلكم من أنواع البلاء . وقيل على طلب الآخرة (بالصبر والصلوة) على تمحيص محو الذنوب أراد حبس النفس عن المعاصى ، وقيل أراد بالصبر الصبر على أداء الفرائض وقال مجاهد الصبر الصوم ، ومنه سمى شهر رمضان شهر الصبر وذلك لأن الصوم يزهده فى الدنيا والصلاة ترغبه فى الآخرة . وقيل الواو بمعنى على أى واستعينوا بالصبر على الصلاة كما قال الله تعالى «وأمر أهلك بالصلوة واصطبر عليها» (وإنها) ولم يقل وإنهما رد الكناية إلى كل واحد منهما أى وإن كل خصلة منهما كما قال «كلتا الجنتين آتت أكلها» أى أكل كل واحد منهما . وقيل معناه واستعينوا بالصبر وإنه لكبير وبالصلاة وإنها لكبيرة فحذف أحدهما اختصارا . وقال المورج رد الكناية إلى الصلاة لأنها أعم كقوله تعالى «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها» رد الكناية إلى الفضة لأنها أعم . وقيل رد الكناية إلى الصلاة لأن الصبر داخل فيها كما قال الله تعالى «والله ورسوله

أن ينفذ موعظته إلى القلوب فاذا خالف قوله فعله كان ذلك سبب تنفير القلوب عن قبول موعظته (ق) عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يافلان مالك ألم تكن تأمر الناس بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول بل كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه» قوله فتندلق ، أى تخرج أقتاب بطنه أى أمعاء بطنه واحدها قتب وروى البغوى بسنده عن أنس قال قال رسول الله ﷺ «رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء ياجبريل قال هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون قيل مثل الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كالسراج يضىء للناس ويحرق نفسه . وقيل من وعظ بقوله ضاع كلامه ، ومن وعظ بفعله نفذت سهامه ، وقال بعضهم :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ماتقول ويقتدى بالقول منك وينفع التعليم

قوله عز وجل (واستعينوا بالصبر والصلوة) قيل إن المخاطبين بهذا هم المؤمنون لأن من ينكر الصلاة والصبر على دين محمد صلى الله عليه وسلم لايقال له استعن بالصبر والصلاة فلا جرم وجب صرفه إلى من صدّق محمدا صلى الله عليه وسلم وآمن به . وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لبنى إسرائيل لأن صرف الخطاب إلى غيرهم يوجب تفكيك نظم القرآن ولأن اليهود لم ينكروا أصل الصلاة والصبر لكن صلاتهم غير صلاة المؤمنين ، فعلى هذا القول أن الله تعالى لما أمرهم بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والتزام شريعته وترك الرياسة وحب الجاه والمال قال لهم استعينوا بالصبر أى بحبس النفس عن اللذات وإن ضممتم إلى ذلك الصلاة هان عليكم ترك ما أنتم فيه من حب الرياسة والجاه والمال ، وعلى القول الأول يكون معنى الآية واستعينوا على حوائجكم إلى الله . وقيل على مايشغلكم من أنواع البلاء . وقيل على طلب الآخرة بالصبر وهو حبس النفس عن اللذات وترك المعاصى . وقيل بالصبر على أداء الفرائض . وقيل الصبر هو الصوم لأن فيه حبس النفس عن المفطرات وعن سائر اللذات وفيه انكسار النفس والصلاة ، أى أجمعوا بين الصبر والصلاة وقيل معناه واستعينوا بالصبر على الصلاة وعلى مايجب فيها من تصحيح النية وإحضار القلب ومراعاة الأركان والآداب مع الخشوع والخشية فان من اشتغل بالصلاة ترك ماسواها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، أى إذا أهمه أمر لجأ إلى الصلاة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه نعى له أخوه قثم وهو فى سفره فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما السجود ثم قام إلى راحلته وهو يقول فاستعينوا بالصبر والصلاة (وإنها)

أحق أن يرضوه» ولم يقل يرضوهما لأن رضى الرسول داخل في رضى الله عز وجل وقال الحسين بن الفضل رد الكناية إلى الاستعانة (لكبيرة) أي لثقيلة (إلا على الخاشعين) يعني المؤمنين. وقال الحسن الخائفين. وقيل المطيعين وقال مقاتل بن حيان المتواضعين. وأصل الخشوع السكون. قال الله تعالى «وخشعت الأصوات للرحمن» فالخاشع ساكن إلى طاعة الله تعالى (الذين يظنون) يستيقنون فالظن من الأضداد يكون شكا ويقينا، كالرجاء يكون أمنا وخوفا (أنهم ملاقوا) معاينو (ربهم) في الآخرة وهو رؤية الله تعالى. وقيل المراد من اللقاء الصيرورة إليه (وأنهم إليه راجعون) فيجزيهم بأعمالهم (يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين) أي عالمي زمانكم وذلك التفضيل وإن كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف في حق الأبناء (واتقوا يوما) واخشوا عقاب يوم (لاتجزي نفس) لاتقضي نفس (عن نفس شيئا) أي حقا لزمها وقيل لاتغني، وقيل لاتكفي شيئا من الشدائد (ولا تقبل منها شفاعة) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بالتاء لتأنيث الشفاعة، وقرأ الباقون بالياء لأن الشفع والشفاعة بمعنى واحد كالوعظ والموعظة فالتذكير على المعنى والتأنيث على اللفظ كقوله تعالى «قد جاءتكم موعظة من ربكم» وقال في موضع آخر «فمن جاءه موعظة من ربه» أي لاتقبل منها شفاعة إذا كانت كافرة (ولا يؤخذ منها عدل) أي فداء وسمي به لأنه مثل المفدى والعدل المثل (ولا هم ينصرون) يمنعون من عذاب الله (وإذ نجيناكم) أي أسلافكم وأجدادكم فاعتدها منة عليهم لأنهم نجوا بنجاتهم (من آل فرعون) أتباعه وأهل دينه. وفرعون هو الوليد بن مصعب بن الريان، وكان من القبط العماليق وعمر أكثر من أربعمائة سنة (يسومونكم) يكلفونكم ويذيقونكم (سوء العذاب)

وقيل

يعني الصلاة وقيل الاستعانة (لكبيرة) أي ثقيلة (إلا على الخاشعين) يعني المؤمنين وقيل الخائفين: وقيل المطيعين المتواضعين لله وأصل الخشوع السكون فالخاشع ساكن إلى الطاعة وقيل الخشوع الضراعة وأكثر ماتستعمل في الجوارح وإنما كانت الصلاة ثقيلة على غير الخاشعين لأن من لايرجو لها ثوابا ولا يخاف على تركها عقابا فهي ثقيلة عليه. وأما الخاشع الذي يرجو لها ثوابا ويخاف على تركها عقابا فهي سهلة عليه (الذين يظنون) أي يستيقنون وقيل يعلمون (أنهم ملاقوا ربهم) يعني في الآخرة وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة (وأنهم إليه راجعون) يعني بعد الموت فيجزيهم بأعمالهم. قوله عز وجل (يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) إنما أعاد هذا الكلام مرة أخرى توكيدا للحجة عليهم وتحذيرا من ترك إتباع محمد صلى الله عليه وسلم (وأني فضلتكم على العالمين) يعني على عالمي زمانكم وهذا التفضيل وإن كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف للأبناء (واتقوا يوما) أي واخشوا عذاب يوم (لاتجزي) أي لاتقضي (نفس عن نفس شيئا) يعني حقا لزمها. وقيل معناه لاتنوب نفس عن نفس يوم القيامة ولا ترد عنها شيئا مما أصابها، بل يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه (ولا تقبل منها شفاعة) أي في ذلك اليوم والمعنى لاتقبل الشفاعة إذا كانت النفس كافرة وذلك أن اليهود قالوا يشفع لنا آباؤنا فرد الله عليهم ذلك بقوله ولا تقبل منها شفاعة وقيل إن طاعة المطيع لاتقضي عن العاصي ما كان واجبا عليه وقيل معناه أن النفس الكافرة لو جاءت بشفيع لايقبل منها (ولا يؤخذ منها عدل) أي فدية وهو مماثلة الشيء بالشيء (ولا هم ينصرون) أي لايمنعون من العذاب. قوله عز وجل (وإذ نجيناكم) أي واذكروا إذ خلصنا أسلافكم وأجدادكم فاعتدها نعمة ومنة عليهم لأنهم نجوا بنجاة أسلافهم (من آل فرعون) أي من أتباعه وأهل دينه وفرعون اسم علم لمن كان يملك مصر من القبط والعماليق وفرعون هذا كان اسمه الوليد بن مصعب بن الريان وعمر أكثر من أربعمائة سنة (يسومونكم) أي يكلفونكم ويذيقونكم (سوء العذاب) أي أشد العذاب وأسوأه وقيل يصرفونكم في العذاب مرة كذا ومرة كذا وذلك أن فرعون جعل بني إسرائيل خدما وخولا وصنفهم في الأعمال أصنافا صنف يبنون ويزرعون وصنف يخدمونه ومن لم يكن في عمل وضع عليه الجزية وقال ابن وهب كانوا أصنافا في أعمال فرعون فذو القوة يسلخون السواري من الجبال حتى تقرعت أيديهم وأعناقهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها وصنف ينقلون الحجارة والطين يبنون له القصور وطائفة يضربون اللبن ويطبخون الآجر وطائفة نجارون وحدادون والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج يعني الجزية ضريبة يؤدونها كل يوم فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي ضريبته غلت يداه إلى عنقه شهرا والنساء يغزلن الكتان وينسجنه

أشد العذاب وأسوأه وقيل يصر فونكم فى العذاب مرة هكذا ومرة هكذا كالإبل السائمة فى البرية . وذلك أن فرعون جعل بنى إسرائيل خدما وخولا وصنفهم فى الأعمال فصنف يبنون وصنف يحرثون ويزرعون وصنف يخدمونه ومن لم يكن منهم فى عمل وضع عليه الجزية . قال وهب كانوا أصنافا فى أعمال فرعون فذوو القوة ينحتون السوارى من الجبال حتى قرحت أعناقهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها وطائفة ينقلون الحجارة وطائفة يبنون له القصور وطائفة منهم يضربون اللبن ويطبخون الآجر وطائفة نجارون وحدادون والضعفة منهم يضرب عليهم الخراج ضريبة يؤدونها كل يوم فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدى ضريبته غلت يمينه إلى عنقه شهرا والنساء يغزلن الكتان وينسجن وقيل تفسير قوله «يسومونكم سوء العذاب» مابعده وهو قوله تعالى (يذبحون أبناءكم) فهو مذكور على وجه البدل من قوله يسومونكم سوء العذاب (ويستحيون نساءكم) يتركونهن أحياء وذلك أن فرعون رأى فى منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت كل قبطى فيها ولم يتعرض لبنى إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا يولد ولد فى بنى إسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل وجمع القوابل فقال لهن لايسقط على أيديكن غلام من بنى إسرائيل إلا قتل ولا جارية إلا تركت ووكل بالقوابل فكن يفعلن ذلك حتى قيل إنه قتل فى طلب موسى عليه السلام اثنى عشر ألف صبى وقال وهب بلغنى أنه ذبح فى طلب موسى عليه السلام تسعين ألف وليد ثم أسرع الموت فى مشيخة بنى إسرائيل فدخل رءوس القبط على فرعون وقالوا إن الموت قد وقع فى بنى إسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هارون فى السنة التى لايذبحون فيها وولد موسى فى السنة التى يذبحون فيها (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) قيل البلاء المحنة أى فى سومهم إياكم سوء العذاب محنة عظيمة وقيل البلاء النعمة أى فى إنجائى إياكم منهم نعمة عظيمة فالبلاء يكون بمعنى النعمة وبمعنى الشدة فالله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر وعلى الشدة بالصبر قال الله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (وإذ فرقنا بكم الأرض) قيل معناه فرقنا لكم وقيل فرقنا البحر بدخولكم إياه وسمى البحر بحرا لاتساعه ومنه قيل للفرس بحر إذا اتسع فى جريه وذلك أنه لما دنا هلاك فرعون أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يسير ببنى إسرائيل من مصر ليلا فأمر موسى قومه أن يسرجوا فى بيوتهم إلى الصبح

(٥٧)

وقيل تفسير يسومونكم سوء العذاب مابعده وهو قوله عز وجل (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) أى يتركونهن أحياء . وذلك أن فرعون رأى فى منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت كل قبطى بها ولم تتعرض لبنى إسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا يولد غلام يكون على يديه هلاكك وزوال ملكك فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل ووكل بالقوابل فكن يفعلن ذلك حتى قتل فى طلب موسى اثنى عشر ألفا وقيل سبعين ألفا وأسرع الموت فى مشيخة بنى إسرائيل فدخل رؤساء القبط على فرعون وقالوا إن الموت قد وقع ببنى إسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هارون فى السنة التى لايذبح فيها وولد موسى فى السنة التى يذبح فيها (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أى اختبار وامتحان ، والبلاء يطلق على النعمة العظيمة وعلى المحنة الشديدة ليختبر الله العبد على النعمة بالشكر وعلى الشدة بالصبر فان حمل قوله « وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » على صنع فرعون كان من البلاء والمحنة وإن حمل على الإنجاء كان من النعمة . قوله عز وجل (وإذ فرقنا بكم البحر) أى فصلنا بعضه من بعض وجعلنا فيه مسالك بسبب دخولكم البحر وسمى بحرا لاتساعه .

(ذكر سياق القصة)

وذلك أنه لما دنا هلاك فرعون أمر الله موسى عليه الصلاة والسلام أن يسرى ببنى إسرائيل من مصر بالليل فأمر موسى قومه أن يسرجوا فى بيوتهم السرج إلى الصبح وأن يستعيروا حلى القبط لتبقى لهم أو ليتبعوهم لأجل المال وأخرج الله كل ولد زنا كان فى القبط من بنى إسرائيل إلى بنى إسرائيل وكل ولد زنا كان فى بنى إسرائيل من القبط إلى القبط حتى يرجع كل ولد إلى أبيه وألقى الله الموت على القبط فمات كل بكر لهم فاشتغلوا بدفنهم وقيل بلغ ذلك فرعون فقال لا أخرج فى طلبهم حتى يصيح الديك فما صاح تلك الليلة ديك وخرج موسى فى بنى إسرائيل وهم ستمائة ألف وعشرون ألفا لا يعدون ابن عشرين سنة لصغره ولا ابن ستين سنة لكبره وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين إنسانا مابين رجل وامرأة فلما أرادوا السير ضرب عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبون فدعا موسى

وأخرج الله تعالى كل ولد زنا فى القبط من بنى إسرائيل إليهم وكل ولد زنا فى بنى إسرائيل من القبط إلى القبط حتى رجع كل إلى أبيه وألقى الله الموت على القبط فمات كل بكر لهم فاشتغلوا بدفنهم حتى أصبحوا حتى طلعت الشمس وخرج موسى عليه السلام فى ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل لا يعدون ابن العشرين لصغره ولا ابن الستين لكبره وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب اثنين وسبعين إنسانا مابين رجل وامرأة وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال كان أصحاب موسى ستمائة ألف وسبعين ألفا وعن عمرو بن ميمون قال كانوا ستمائة ألف فلما أرادوا السير ضرب عليهم التيه فلم يدروا أين يذهبوا فدعا موسى مشيخة بنى إسرائيل وسألهم عن ذلك فقالوا إن يوسف عليه السلام لما حضره الموت أخذ على إخوته عهدا أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فلذلك انسد علينا الطريق فسألهم عن

موضع قبره فلم يعلموا فقام موسى ينادى أنشد الله كل من يعلم أين موضع قبر يوسف عليه السلام إلا أخبرنى به ومن لم يعلم به فصمت أذناه عن قولى وكان يمر بين الرجلين ينادى ولا يسمعان صوته حتى سمعته عجوز لهم فقالت أرأيتك إن دللتك على قبره أتعطينى كل ما سألتك فأبى عليها وقال حتى أسأل ربى فأمره الله تعالى بايتائها سؤلها فقالت إنى عجوز كبيرة لا أستطيع المشى فاحملنى وأخرجنى من مصر هذا فى الدنيا وأما فى الآخرة فأسألك أن لا تنزل غرفة من الجنة إلا نزلتها معك قال نعم قالت إنه فى جوف الماء فى النيل فادع الله حتى يحسر عنه الماء فدعا الله تعالى فحسر عنه الماء ودعا أن يؤخر طلوع الفجر إلى أن يفرغ من أمر يوسف عليه السلام فحفر موسى عليه السلام ذلك الموضع واستخرجه فى صندوق من مرمر وحمله حتى دفنه بالشام ففتح لهم الطريق فساروا وموسى عليه السلام على ساقتهم وهارون على مقدمتهم وندر بهم فرعون فجمع قومه وأمرهم أن لا يخرجوا فى طلب بنى إسرائيل حتى يصيح الديك فوالله ماصاح ديك تلك الليلة فخرج فرعون فى طلب بنى إسرائيل وعلى مقدمة عسكره هامان فى ألف ألف وسبعمائة ألف .وكان فيهم سبعون ألفا من دهم الخيل سوى سائر الشيات وقال محمد بن كعب رضى الله عنه كان فى عسكر فرعون مائة ألف حصان أدهم سوى سائر الشيات وكان فرعون فى الدهم وقيل كان فرعون فى سبعة آلاف ألف وكان بين يديه مائة ألف ناشب ومائة ألف أصحاب حراب ومائة ألف أصحاب الأعمدة فسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر أو الماء فى غاية الزيادة ونظروا فاذا هم بفرعون حين أشرقت الشمس فبقوا متحيرين

مشيخة بنى إسرائيل وسألهم عن ذلك فقالوا إن يوسف لما حضره الموت أخذ على أخوته عهدا أن لا يخرجوا من مصر حتى يخرجوه معهم فلذلك انسد علينا الطريق فسألهم عن موضع قبره فلم يعلموه فقال موسى ينادى أنشد الله كل من يعلم أين قبر يوسف إلا أخبرنى به ومن لم يعلم صمت أذناه عن سماع قولى فكان يمر بالرجل وهو ينادى فلا يسمع صوته حتى سمعته عجوز منهم فقالت له أرأيتك إن دللتك على قبره أتعطينى كل ماأسألك فأبى عليها وقال حتى أسأل ربى فأمره أن يعطيها سؤالها فقالت إنى عجوز لا أستطيع المشى فاحملنى معك وأخرجنى من مصر هذا فى الدنيا وأما فى الآخرة فأسألك أن لا تنزل غرفة من غرف الجنة إلا نزلتها معك قال نعم قالت إنه فى النيل فى جوف الماء فادع الله أن يحسر عنه الماء فدعا الله فحسر عنه الماء ودعا الله أن يؤخر عنه طلوع الفجر حتى يفرغ من أمر يوسف ثم حفر موسى ذلك الموضع فاستخرجه وهو فى صندوق من مرمر وحمله معه حتى دفنه بالشام فعند ذلك فتح لهم الطريق فسار موسى ببنى إسرائيل هو فى ساقتهم وهرون فى مقدمتهم ثم خرج فرعون فى طلبهم فى ألف ألف وسبعمائة ألف وكان فيهم سبعون ألفا من دهم الخيل سوى سائر الشيات وقيل كان معهن مائة ألف حصان أدهم وكان فرعون فى الدهم وكان على مقدمة عسكر هامان وكان فرعون فى سبعة آلاف ألف وكان بين يديه مائة ألف ألف ناشب ومائة ألف ألف حراب ومائة فى ألف ألف معهم الأعمدة وسار بنو إسرائيل حتى وصلوا البحر والماء فى غاية الزيادة ونظروا حين أشرقت الشمس فاذا هم بفرعون فى جنوده فبقوا متحيرين وقالوا ياموسى أين ماوعدتنا به فكيف نصنع هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا والبحر أمامنا إن دخلناه غرقنا . فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فلم يطعه فأوحى الله إليه أن كنه فضربه وقال انفلق يا أبا خالد فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وظهر فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط منهم طريق وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا وخاضت بنو إسرائيل البحر كل سبط فى طريق عن جوانبهم الماء كالجبال الضخم لا يرى بعضهم بعضا فخافوا وقال كل سبط منهم قد هلك إخواننا فأوحى الله إلى جبال الماء أن تشبكى فصار الماء كالشباك يرى بعضهم

فقالوا ياموسى كيف نصنع وأين ماوعدتنا هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا والبحر أمامنا إن دخلناه غرقنا قال الله تعالى فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال موسى كلا إن معى ربى سيهدين فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فلم يطعه فأوحى الله إليه أن كنه فضربه وقال انفلق ياأباخالد باذن الله تعالى فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وظهر فيه إثنا عشر طريقا لكل سبط طريق وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل وأرسل الله الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا فخاضت بنو إسرائيل البحر كل سبط فى طريق وعن جانبيهم الماء كالجبل الضخم ولا يرى بعضهم بعضا فخافوا وقال كل سبط قد قتل إخواننا فأوحى الله تعالى إلى جبال الماء أن تشبكى فصار الماء شبكات كالطبقات يرى بعضهم بعضا ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى «وإذ فرقنا بكم البحر (٥٩) (فأنجيناكم) من آل فرعون والغرق (وأغرقنا آل فرعون) وذلك أن فرعون لما وصل إلى البحر فرآه منفلقا قال لقومه انظروا إلى البحر انفلق من هيبتى حتى أدرك عبيدى الذين أبقوا منى ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه وقيل قالوا له إن كنت ربا فادخل البحر كما دخل موسى وكان فرعون على حصان أدهم ولم يكن فى خيل فرعون أنثى فجاء جبريل على فرس أنثى وديق فتقدمهم وخاض البحر فلما شم أدهم فرعون ريحها اقتحم البحر فى أثرها وهم لا يرونه ولم يملك فرعون من أمره شيئا وهو لا يرى فرس جبريل واقتحمت الخيول خلفه فى البحر وجاء ميكائيل على فرس

بعضهم بعضا ويسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى « وإذ فرقنا بكم البحر» (فأنجيناكم) يعنى من فرعون (وأغرقنا آل فرعون) . وذلك أن فرعون لما وصل إلى البحر فرآه منفلقا قال لقومه انظروا إلى البحر كيف انفلق من هيبتى حتى أدرك عبيدى الذين أبقوا منى ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوا وقيل قالوا له إن كنت ربا فادخل البحر كما دخل موسى وكان فرعون على حصان أدهم ولم يكن فى خيل فرعون فرس أنثى فجاء جبريل عليه السلام على فرس أنثى وديق فتقدمه وخاض البحر فلما شم أدهم فرعون ريحها اقتحم البحر فى أثرها ولم يملك فرعون من أمره شيئا واقتحمت الخيول خلفه فى البحر وجاء ميكائيل خلفهم يسوقهم وهو على فرس ويقول الحقوا بأصحابكم حتى صاروا كلهم فى البحر وخرج جبريل من البحر وهم أولهم بالخروج فأمر الله البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين وكان بين طرفى البحر أربع فراسخ وهو بحر القلزم وهو على طرف من بحر فارس وقيل هو بحر من وراء مصر يقال له إساف وكان إغراق آل فرعون بمرأى من بنى إسرائيل فذلك قوله (وأنتم تنظرون) يعنى إلى هلاكهم وقيل إلى مصارعهم وقيل إن البحر قذفهم حتى نظروا إليهم ووافق ذلك يوم عاشوراء فصام موسى عليه السلام ذلك اليوم شكراً لله تعالى . قوله عز وجل (وإذ وعدنا) من المواعدة وهو من الله الأمر ومن موسى القبول وذلك أن الله وعده بمجىء الميقات (موسى) اسم عبري معرب فمو بالعبرية الماء والشجر سمى موسى لأنه أخذ من بين الماء والشجر ثم قلبت الشين سينا فسمى موسى (أربعين ليلة) أى انقضاء أربعين ليلة ثلاثين من ذي القعدة وعشر من ذى الحجة وقرن التاريخ بالليل دون النهار لأن الأشهر العربية وضعت على سير القمر وقيل لأن الظلمة أقدم من الضوء . ذكر القصة فى ذلك : قال العلماء لما أنجى الله بنى إسرائيل من البحر وأغرق عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما وعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة فقال موسى لقومه إنى ذاهب إلى ميقات ربى لآتيكم منه بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون ووعدهم أربعين ليلة واستخلف عليهم أخاه هارون فلما جاء الموعد أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام على فرس يقال له فرس الحياة لا يصيب شيئاً إلا حيى ليذهب بموسى إلى ميقات

خلف القوم يسوقهم حتى لايشذ رجل منهم ويقول لهم الحقوا بأصحابكم حتى خاضوا كلهم البحر وخرج جبريل من البحر وخرج ميكائيل من البحر وهم أولهم بالخروج فأمر الله تعالى البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين وكان بين طرفى البحر أربعة فراسخ وهو على طرف بحر من بحر فارس قال قتادة بحر من وراء مصر يقال إساف وذلك بمرأى من بنى إسرائيل فذلك قوله تعالى (وأنتم تنظرون) إلى مصارعهم وقيل إلى هلاكهم (وإذ واعدنا) هو من المفاعلة التى تكون من الواحد كقولهم عافاك الله وعاقبت اللص وطارقت النعل وقال الزجاج كان من الله الأمر ومن موسى القبول فلذلك ذكر بلفظ المواعدة ، وقرأ أبو عمرو وأهل البصرة وإذ واعدنا من الوعد (موسى) اسم عبرى عرب وهو بالعبرانية الماء والشجر سمى به لأنه أخذ من بين الماء والشجر ثم قلبت الشين المعجمة سينا فى العربية (أربعين ليلة) أى انقضاءها ثلاثون من ذى القعدة

وعشر من ذى الحجة وقرن بالليل دون النهار لأن شهور العرب وضعت على سير القمر والهلال إنما يهل بالليل وقيل لأن الظلمة آقدم من الضوء وخلق الليل قبل النهار قال الله تعالى «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار» وذلك أن بنى إسرائيل لما أمنوا من عدوهم ودخلوا مصر لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما فوعد الله موسى أن ينزل عليهم التوراة فقال موسى لقومه إنى ذاهب لميقات ربكم آتيكم بكتاب فيه بيان ماتأتون وما تذرون وواعدهم أربعين ليلة ثلاثين من ذى القعدة وعشر من ذى الحجة واستخلف عليهم أخاه هارون فلما أتى الوعد جاء جبريل على فرس يقال له فرس الحياة لايصيب شيئا إلا حيى ليذهب بموسى إلى ربه فلما رآه السامرى وكان رجلا صائغا من أهل باجرمى واسمه ميخا وقال سعيد بن جبير كان من أهل كرمان وقال ابن عباس اسمه موسى بن ظفر وقال قتادة كان من بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ورأى موضع قدم الفرس تخضر من ذلك وكان منافقا أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر فلما رأى جبرائيل على ذلك الفرس علم أن لهذا شأنا فأخذ قبضة من تربة حافر فرس جبرائيل عليه السلام قال عكرمة ألقى فى روعه أنه إذا ألقى فى شىء غيره حيى وكانت بنو إسرائيل قد استعاروا حلية كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعلة عرس لهم فأهلك الله فرعون وبقيت تلك الحلى فى أيدى بنى إسرائيل فلما فصل موسى قال السامرى لبنى إسرائيل إن الحلى التى استعرتموها من قوم فرعون غنيمة لاتحل لكم فاحفروا حفرة وادفنوها فيها حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه، وقال السدى إن هارون عليه السلام أمرهم أن يلقوها فى حفيرة حتى يرجع موسى فيرى ففعلوا فلما اجتمعت الحلى صاغها السامرى عجلا فى ثلاثة أيام ثم ألقى فيها القبضة التى أخذها من تراب أثر فرس جبرائيل عليه السلام فخرج عجلا من ذهب مرصعا بالجواهر كأحسن مايكون فخار خورة وقال السدى كان يخور ويمشى فقال السامرى هذا إلهكم وإله موسى فنسى أى فتركه ههنا وخرج يطلبه وكانت بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضى عشرون يوما ولم يرجع موسى وقعوا فى الفتنة وقيل كان موسى قد وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم فى تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ظنوا أنه قد مات ورأوا العجل وسمعوا قول السامرى فعكف ثمانية آلاف رجل منهم على العجل يعبدونه وقيل كلهم عبدوه إلا هارون مع اثنى عشر ألف رجل وهذا أصح وقال الحسن كلهم عبدوه إلا هارون وحده فذلك قوله تعالى (ثم اتخذتم العجل) أى إلها (من بعده) أظهر ابن كثير وحفص الذال من أخذت واتخذت

(وأنتم

ربه فرآه السامرى وكان صائغاً اسمه ميخا وقال ابن عباس اسمه موسى بن ظفر وقيل كان من أهل ماجرا وقيل كرمان وقيل من بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة وكان منافقا يظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر فلما رأى جبريل على ذلك الفرس ورأى موضع قدم الفرس يخضر فى الحال فقال فى نفسه إن لهذا لشأنا وقيل رأى جبريل حين دخل البحر قدام فرعون فقبض قبضة من تراب فرسه وألقى فى روعه أنه إذا ألقى فى شىء حيى فلما ذهب موسى إلى الميقات ومكث على الطور أربعين ليلة وأنزل الله عليه التوراة فى الألواح وكانت الألواح من زبرجد وقربه نجيا وأسمعه صرير الأقلام وقيل إنه بقى أربعين ليلة لم يحدث فيها حدثا حتى هبط من الطور وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلياً كثيراً من القبط حين أرادوا الخروج من مصر بعلة عرس لهم فلما هلك فرعون وقومه بقى ذلك الحلى فى أيديهم فلما فصل موسى قال لهم السامرى إن الحلى الذى استعرتموه من القبط غنيمة لاتحل لكم فاحفروا حفيرة وادفنوه فيها حتى يرجع موسى ويرى فيها رأيه وقيل إن هارون أمرهم بذلك فلما اجتمعت الحلى أخذها السامرى وصاغها عجلا فى ثلاثة أيام ثم ألقى فيها القبضة التى أخذها من تراب فرس جبريل عليه الصلاة والسلام فصار عجلا من ذهب مرصعاً بالجواهر وخار خورة وقيل كان يخور ويمشى فقال لهم السامرى «هذا إلهكم وإله موسى فنسى» أى فتركه ههنا وخرج يطلبه وكان بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضى عشرون يوما ولم يرجع موسى وقعوا فى الفتنة وقيل كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم فى تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ظنوا أنه قد مات ورأوا العجل وسمعوا قول السامرى فعكف عليه ثمانية آلاف رجل يعبدونه وقيل عبده كلهم إلا هارون مع اثنى عشر ألف رجل وهذا أصح فذلك قوله عز وجل (ثم اتخذتم العجل) يعنى إلها (من بعده) أى من بعد موسى

والآخرون يدغمونها (وأنتم ظالمون) ضارون لأنفسكم بالمعصية واضعون العبادة فى غير موضعها (ثم عفونا عنكم) محونا ذنوبكم (من بعد ذلك) من بعد عبادتكم العجل (لعلكم تشكرون) لكى تشكروا عفوى عنكم وصنيعى إليكم قيل الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح فى السر والعلانية. قال الحسن شكر النعمة ذكرها قال الله تعالى «وأما بنعمة ربك فحدث» قال الفضيل: شكر كل نعمة أن لا يعصى الله بعد تلك النعمة وقيل حقيقة الشكر العجز عن الشكر. حكى أن موسى عليه السلام قال إلهى أنعمت على النعم السوابغ وأمرتنى بالشكر وإنما شكرى إياك نعمة منك قال الله تعالى: يا موسى تعلمت العلم الذى لا يفوقه

(وأنتم ظالمون) أى وأنتم ضارون لأنفسكم بالمعصية حيث وضعتم العبادة فى غير موضعها (ثم عفونا عنكم) أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم (من بعد ذلك) أى من بعد عبادتكم العجل (لعلكم تشكرون) أى لكى تشكروا عفوى عنكم وحسن صنيعى إليكم وأصل الشكر هو تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها والشكر على ثلاث أضرب: شكر القلب وهو تصور النعمة. وشكر اللسان وهو الثناء على النعمة. وشكر بسائر الجوارح وهو مكافاة النعمة بقدر استحقاقها، وقيل الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح فى السر والعلانية، وقيل حقيقة الشكر العجز عن الشكر. وحكى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال الهى أنعمت على النعم السوابغ وأمرتنى بالشكر وإنما شكرى إياك نعمة منك فأوحى الله تعالى إليه ياموسى تعلمت العلم الذى لا فوقه علم حسبى من عبدى أن يعلم أن ما به من نعمة فهى منى. وقال داود عليه الصلاة والسلام سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكرا كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة وقال الفضيل شكر كل نعمة أن لا يعصى بعدها بتلك النعمة وقيل شكر النعمة ذكرها وقيل شكر النعمة أن لا يراها ألبتة ويرى المنعم وقيل الشكر لمن فوقك بالطاعة والثناء ولنظيرك بالمكافأة ولمن دونك بالإحسان والإفضال. قوله عز وجل (وإذ آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (والفرقان) قيل هو نعت الكتاب والواو زائدة. والمعنى الكتاب المفرق بين الحلال والحرام والكفر والإيمان وقيل الفرقان هو النصر على الأعداء والواو أصلية (لعلكم تهتدون) يعنى بالتوراة (وإذ قال موسى لقومه) يعنى الذين عبدوا العجل (ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) يعنى إلها تعبدونه فكأنهم قالوا فما نصنع قال (فتوبوا إلى بارئكم) أى ارجعوا إلى خالقكم بالتوبة قالوا كيف نتوب قال (فاقتلوا أنفسكم) يعنى ليقتل البرىء منكم المجرم. فان قلت التوبة عبارة عن الندم على فعل القبيح والعزم على أن لا يعود إليه وهذا مغاير للقتل فكيف يجوز تفسير التوبة بالقتل. قلت ليس المراد تفسير التوبة بالقتل بل بيان أن توبتهم لا تتم إلا بالقتل وإنما كان كذلك لأن الله أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن توبة المرتد لا تتم إلا بالقتل. فان قلت التائب من الردة لا يقتل فكيف استحقوا القتل وقد تابوا من الردة. قلت ذلك مما تختلف فيه الشرائع فلعل شرع موسى كان يقتضى أن يقتل التائب من الردة إما عاما فى حق الكل أو خاصا فى حق الذين عبدوا العجل (ذلكم خير لكم عند بارئكم) يعنى القتل وتحمل هذه الشدة لأن الموت لا بد منه فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا نصبر لأمر الله تعالى فجلسوا

شئ من علم حسبى من عبدى أن يعلم أن ما به من نعمة فهو منى. وقال داود: سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن شكره شكرا كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة. قوله تعالى (وإذ آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (والفرقان) قال مجاهد هو التوراة أيضا ذكرها باسمين، وقال الكسائى: الفرقان نعت الكتاب والواو زائدة يعنى الكتاب الفرقان أى المفرق بين الحلال والحرام. وقال يمان بن رياب: أراد بالفرقان انفراق البحر كما قال وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم (لعلكم تهتدون) بالتوراة (وإذ قال موسى لقومه) الذين عبدوا العجل (ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم) ضررتم بأنفسكم (باتخاذكم العجل) إلها قالوا فأى شئ نصنع؟ قال (فتوبوا) فارجعوا (إلى بارئكم) خالقكم قالوا كيف نتوب؟ قال (فاقتلوا أنفسكم) يعنى ليقتل البرئ منكم المجرم (ذلكم) أى القتل (خير لكم عند بارئكم) فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا نصبر لأمر الله فجلسوا بالأفنية محتبين وقيل لهم: من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته وأصلت القوم عليهم الخناجر وكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره فلم يمكنهم المضى لأمر الله تعالى قالوا: ياموسى كيف نفعل؟ فأرسل الله تعالى عليهم ضبابة وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضا فكانوا يقتلونهم إلى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهارون عليهما السلام وبكيا وتضرعا وقالا يارب هلكت بنو إسرائيل البقية البقية فكشف الله تعالى السحابة وأمرهم أن يكفوا عن القتل فكشفت عن ألوف

من القتلى . يروى عن علي رضي الله عنه أنه قال كان عدد القتلى سبعين ألفا فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول فى الجنة ؟ فكان من قتل منهم شهيدا ومن بقى مكفرا عنه ذنوبه فذلك قوله تعالى (فتاب عليكم) أى ففعلتم ماأمرتم به فتاب عليكم فتجاوز عنكم (إنه هو التواب) القابل للتوبة (الرحيم) بهم . قوله تعالى (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل فاختار موسى سبعين رجلا من قومه (٦٢) من خيارهم وقال لهم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا فخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقات ربه فقالوا لموسى اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام وتغشى الجبل كله فدخل فى الغمام وقال للقوم ادنوا فدنا القوم حتى دخلوا فى الغمام وخروا سجدوا وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على وجهه نور ساطع لايستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونهم الحجاب وسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه ، وأسمعهم الله إنى أنا الله لا إله إلا أنا ذو بكة أخرجتكم من أرض مصر بيد شديدة فاعبدونى ولاتعبدوا غيرى فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا له «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » معاينة وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية فقال جهرة ليعلم أن المراد منه العيان (فأخذتكم الصاعقة) أى الموت ، وقيل نار جاءت من السماء فأحرقتهم (وأنتم تنظرون) أى ينظر بعضكم لبعض حين أخذكم الموت ، وقيل تعلمون . والنظر يكون بمعنى العلم فلما هلكوا جعل موسى يبكى ويتضرع ويقول ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد هلك خيارهم « لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلا رجلا بعد ماماتوا يوما وليلة ينظر بعضهم

محتبين من الحبوة وهو ضم الساق إلى البطن بثوب ، وقيل لهم من حل حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد أو رجل فهو ملعون مردودة توبته ، وأصلت القوم الخناجر والسيوف وأقبلوا عليهم فكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره فيرق له فما يمكنهم المضى لأمر الله تعالى فقالوا ياموسى كيف نفعل؟ فأرسل الله تعالى عليهم سحابة سوداء لايبصر بعضهم بعضا فكانوا يقتلون إلى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهارون الله وبكيا وتضرعا إليه وقال يارب هلكت بنو إسرائيل البقية البقية فكشف الله السحابة عنهم وأمرهم أن يكفوا عن القتل فتكشف عن ألوف من القتلى قال على بن أبى طالب رضى الله عنه كان عدد القتلى سبعين ألفا فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله إليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة فكان من قتل منهم شهيدا ومن بقى مكفرا عنه ذنوبه فذلك قوله عز وجل (فتاب عليكم) أى فعلتم ما أمرتم به فتجاوز عنكم (إنه هو التواب) أى الرجاع بالمغفرة القابل التوبة (الرحيم) بخلقه . قوله عز وجل (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك) أى لن نصدقك (حتى نرى الله جهرة) أى عيانا وذلك أن الله عز وجل أمر موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل فاختار موسى من قومه سبعين رجلا من خيارهم وقال لهم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ففعلوا وخرج بهم موسى إلى طور سيناء لميقات ربه فقالوا لموسى اطلب لنا أن نسمع كلام ربنا قال أفعل فلما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام وتغشى الجبل كله فدخل موسى فى الغمام وقال للقوم ادنوا حتى دخلوا تحت الغمام وخروا سجدا وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على وجه نور ساطع فلا يستطيع أحد أن ينظر إليه فضرب دونهم الحجاب وسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاكم وأسمعهم الله تعالى : إنى أنا الله لا إله إلا أنا ذو بكة أخرجتكم من أرض مصر بيد شديدة فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل إليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» وإنما قالوا جهرة توكيد للرؤية لئلا يتوهم متوهم أن المراد بالرؤية العلم (فأخذتكم الصاعقة) قيل هى الموت وفيه ضعف لأن قوله وأنتم تنظرون يرده إذ لو كان المراد منها الموت لامتنع كونهم ناظرين إليها وقيل إن الصاعقة هى سبب الموت واختلفوا فى ذلك السبب فقيل إن نارا نزلت من السماء فأحرقتهم . وقيل جاءت صيحة من السماء وقيل أرسل جموعا من الملائكة فسمعوا بحسهم فخروا صعقين (وأنتم تنظرو) أى ينظو بعضكم إلى بعض كيف يأخذه الموت فلما هلكوا جعل موسى يبكى ويتضرع ويقول إلهى ماذا أقول لبنى إسرائيل

إذا

إلى بعض كيف يحيون؟ فذلك قوله تعالى (ثم بعثناكم) أحييناكم والبعث إثارة الشيء عن محله، يقال بعثت البعير وبعثت النائم فانبعث (من بعد موتكم) قال قتادة أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة (لعلكم تشكرون وظللنا عليكم الغمام) فى التيه تقيكم حر الشمس، والغمام من الغم وأصله التطغية والستر سمى السحاب غماما لأنه يغطى وجه الشمس وذلك أنه لم يكن لهم فى التيه كن يسترهم فشكوا إلى موسى فأرسل الله تعالى غماما أبيض رقيقا أطيب من غمام المطر وجعل لهم عمودا من نور يضيء لهم الليل إذا لم يكن لهم قمر (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) أى فى التيه والأكثرون على أن المن هو الترنجبين وقال مجاهد هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد وقال وهب هو الخبز الرقاق، قال الزجاج جملة المن ما يمن الله به من غير تعب. أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى (٦٣) أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو نعيم أنا سفيان عن عبد الملك هو ابن عمير عن عمرو بن حريث عن سعيد بن زيد قال قال النبى ﷺ «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين» قالوا فكان هذا المن كل ليلة يقع على أشجارهم مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع فقالوا ياموسى قتلنا هذا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأنزل الله تعالى عليهم السلوى وهو طائر يشبه السمانى، وقيل هو السمانى بعينه بعث الله سحابة فمطرت السمانى فى عرض ميل وطول رمح فى السماء بعضه على بعض. وقال المؤرخ: السلوى العسل

إذا أتيتهم وقد هلك خيارهم «لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا» فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله رجلا بعد رجل بعد ما ماتوا يوما وليلة ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون فذلك قوله تعالى (ثم بعثناكم) أى أحييناكم (من بعد موتكم) أى لتستوفوا بقية آجالكم وأرزاقكم ولو أنهم كانوا قد ماتوا لانقضاء آجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة (لعلكم تشكرون) قوله عز وجل (وظللنا عليكم الغمام) يعنى فى التيه يقيكم حر الشمس وذلك أنه لم يكن لهم فى التيه شيء يسترهم ولا يستظلون به فشكوا إلى موسى فأرسل الله غماما أبيض رقيقا يسترهم من الشمس وجعل لهم عمودا من نور يضيء لهم بالليل إذا لم يكن قمر (وأنزلنا عليكم المن والسلوى) أى فى التيه الأكثرون على أن المن هو الترنجبين وقيل هو شيء كالصمغ يقع على الشجر طعمه كالشهد. وقال وهب هو الخبز الرقاق، وأصل المن هو ما يمن الله به من غير تعب (ق) عن سعيد بن زيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين» ومعنى الحديث أن الكمأة شيء أنبته الله من غير سعى أحد ولا مؤنة وهو بمنزلة المن الذى كان ينزل على بنى إسرائيل، وقوله وماؤها شفاء للعين معناه أن يخلط مع الأدوية فينتفع به لأنه يقطر ماؤها بحتا فى العين وقيل إن تقطيره فى العين ينفع لكن لوجع مخصوص وليس يوافق كل وجع العين وكان هذا المن ينزل على أشجارهم فى كل ليلة من وقت السحر إلى طلوع الشمس كالثلج لكل إنسان صاع فقالوا ياموسى قد قتلنا هذا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأرسل الله عليهم السلوى وهو طائر يشبه السمانى وقيل هو السمانى بعينه فكان الرجل يأخذ ما يكفيه يوما وليلة فإذا كان يوم الجمعة يأخذ ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت شيء (كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات) أى حلالات (ما رزقناكم) أى ولا تدخروا لغد فخالفوا وادخروا فدود وفسد فقطع الله عنهم ذلك (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر» قوله لم يخنز اللحم لم ينتن ولم يتغير (وما ظلمونا) أى وما بخسوا حقنا (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى بأخذهم أكثر مما حولهم فاستحقوا بذلك عذابى وقطع مادة الرزق الذى

فكان الله ينزل عليهم المن والسلوى كل صباح من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فيأخذ كل واحد منهم ما يكفيه يوما وليلة وإذا كان يوم الجمعة أخذ كل واحد منهم ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت (كلوا) أى وقلنا لهم كلوا (من طيبات) حلالات (ما رزقناكم) ولا تدخروا لغد ففعلوا فقطع الله ذلك عنهم ودود وفسد ما ادخروا فقال الله تعالى (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما بخسوا بحقنا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون باستيجابهم عذابى وقطع مادة الرزق الذى كان ينزل عليهم بلا مؤنة فى الدنيا ولا حساب فى العقبى. أخبرنا حسان بن سعيد المنيعى أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر» قوله تعالى

(وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) سميت القرية قرية لأنها تجمع أهلها ومنه المقراة للحوض لأنها تجمع الماء قال ابن عباس رضي الله عنهما هي أريحاء وهي قرية الجبارين كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق وقيل بلقاء وقال مجاهد بيت المقدس وقال الضحاك هي الرملة والأردن وفلسطين وتدمر . وقال مقاتل إيليا وقال ابن كيسان الشام (وكلوا منها حيث شئتم رغدا) موسعا عليكم (وادخلوا الباب) يعني بابا من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب (سجدا) أي ركعا خضعا منحنين وقال وهب فاذا دخلتموه فاسجدوا شكرا لله تعالى (وقولوا حطة) قال قتادة حط عنا خطايانا أمروا بالاستغفار وقال ابن عباس لا إله إلا الله لأنها تحط الذنوب ورفعها على تقدير قولوا مسئلتنا حطة (نغفر لكم خطايا كم) من الغفر وهو الستر فالمغفرة تستر الذنوب وقرأ نافع بالياء وضمها وفتح الفاء . وقرأها ابن عامر بالتاء وضمها وفتح الفاء وفي الأعراف قرأ جميعا ويعقوب بالتاء وضمها وقرأ الآخرون فيهما بنصب النون وكسر الفاء (وسنزيد المحسنين) ثوابا من فضلنا (فبدل) فغير (الذين ظلموا) أنفسهم وقالوا (قولا غير الذي قيل لهم) وذلك أنهم بدلوا قول الحطة بالحنطة فقالوا بلسانهم حطانا سمقاثا أي حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى، وقال مجاهد طوطئ لهم الباب ليخفضوا رءوسهم فأبوا أن يدخلوها سجدا فدخلوا يزحفون على أستاههم مخالفة في الفعل كما بدلوا القول وقالوا قولا غير الذي قيل لهم . أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إسحاق بن نصر أنا عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ « قيل لبني إسرائيل لكل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء) قيل أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفا (بما كانوا يفسقون) يعصون ويخرجون من أمر الله تعالى (وإذ استسقى موسى) طلب السقيا (لقومه)وذلك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل فأوحى الله إليه كما قال (فقلنا اضرب بعصاك) وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نورا واسمها عليق حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب عليه السلام فأعطاها موسى عليه السلام قال مقاتل اسم العصا بنعته قوله تعالى (الحجر) اختلفوا فيه قال وهب لم يكن حجرا معينا بل كان موسى يضرب أي حجر كان

كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا تعب في الدنيا ولا حساب في العقبى . قوله عز وجل (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) سميت قرية لاجتماع الناس فيها قال ابن عباس هي أريحاء قرية الجبارين وقيل كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق فعلى هذا يكون القائل يوشع بن نون لأنه هو الذي فتح أريحاء بعد موت موسى لأن موسى مات في التيه، وقيل هي بيت المقدس وعلى هذا فيكون القائل موسى . والمعنى إذا خرجتم من التيه بعد مضي الأربعين سنة ادخلوا بيت المقدس (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) أي موسعا عليكم (وادخلوا الباب) فمن قال إن القرية أريحاء قال ادخلوا من أي باب كان من أبوابها وكان لها سبعة أبواب ومن قال إن القرية هي بيت المقدس قال هو باب حطة (سجدا) منحنين خضعا متواضعين كالراكع ولم يرد به نفس السجود (وقولوا حطة) أي حط عنا خطايانا أمروا بالاستغفار . وقال ابن عباس قولوا لا إله إلا الله لأنها تحط الذنوب والخطايا على تقدير مسئلتنا حطة (نغفر لكم خطايا كم) أي نسترها عليكم من الغفر وهو الستر لأن المغفرة تستر الذنوب (وسنزيد المحسنين) يعني ثوابا (فبدل) أي فغير (الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) أي قالوا قولا غير ما قيل لهم ، وذلك أنهم بدلوا قول الحطة بالحنطة وقالوا بلسانهم حطانا سمقاثا أي حنطة حمراء وذلك استخفافا منهم بأمر الله تعالى وقيل طؤطئ لهم الباب ليخفضوا رءوسهم فأبوا ذلك ودخلوا زحفا على أستاههم فخالفوا في الفعل كما خالفوا في القول وبدلوه (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء) يعني عذابا من السماء قيل أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفا (بما كانوا يفسقون) أي يعصون ويخرجون عن أمر الله تعالى . قوله عز وجل (وإذ استسقى موسى لقومه) أي طلب السقيا لقومه وذلك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل فأوحى الله إليه كما قال مبينا (فقلنا اضرب بعصاك) وكانت العصا من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى عليه الصلاة والسلام ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نورا واسمها عليق وقيل نبعة حملها آدم معه من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى (الحجر) قال وهب لم يكن حجرا معينا بل كان موسى يضرب أي حجر كان فيتفجر عيونا

من عرض الحجارة فينفجر عيونا لكل سبط عين وكانوا اثنى عشر سبطا ثم تسيل كل عين فى جدول إلى السبط الذى أمر ان يسقيهم وقال الآخرون كان حجرا معينا بدليل أنه عرفه بالألف واللام قال ابن عباس كان حجرا خفيفا مربعا على قدر رأس الرجل كان يضعه فى مخلاته فاذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه ، وقال عطاء كان للحجر أربعة وجوه لكل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين وقيل كان الحجر خاما وقيل كان من الكذان فيه اثنتا عشرة حفرة ينبع من كل حفرة عين ماء عذب فاذا فرغوا وأراد موسى حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء وكان يسقى كل يوم ستمائة ألف . وقال سعيد بن جبير هو الحجر الذى وضع موسى ثوبه عليه ليغتسل ففر بثوبه ومر به على ملأ من بنى إسرائيل حين رموه بالأدرة فلما وقف أتاه جبرائيل فقال إن الله تعالى يقول ارفع هذا الحجر فلى فيه قدرة ولك فيه معجزة فرفعه ووضعه فى مخلاته (٦٥) قال عطاء كان يضرب به موسى اثنتى عشرة ضربة فيظهر على موضع كل ضربة مثل ثدى المرأة فيعرق تفجر الأنهار ثم يسيل وأكثر أهل التفسير يقولون انبجست وانفجرت واحد وقال أبو عمرو بن العلاء انبجست عرقت وانفجرت أى سالت فذلك قوله تعالى (فانفجرت) أى فضرب فانفجرت أى سالت (منه اثنتا عشرة عينا) على عدد الأسباط (قد علم كل أناس مشربهم) موضع شربهم لايدخل سبط على غيره فى شربه (كلوا واشربوا من رزق الله) أى وقلنا لهم كلوا من المن والسلوى واشربوا من الماء فهذا كله من رزق الله الذى يأتيكم بلا مشقة (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) والعثى أشد الفساد ، يقال عثى يعثى عثيا وعثا يعثو عثوا وعاث يعيث عيثا . قوله تعالى (وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد) وذلك أنهم أجمعوا وسئموا من أكل المن والسلوى وإنما قال على طعام واحد وهما اثنان لأن العرب تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرج من المالح دون العذب وقيل كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكانا كطعام واحد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كانوا يعجنون المن بالسلوى فيصيران واحدا (فادع لنا) فسل لأجلنا (ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها) قال ابن عباس الفوم الخبز وقال عطاء الحنطة وقال القتيبى رحمه الله تعالى الحبوب التى تؤكل كلها وقال الكلبى الثوم (وعدسها وبصلها) قال لهم موسى عليه السلام

لكل سبط عين وكانوا اثنى عشر سبطا وقيل كان حجرا معينا بدليل أنه عرفه بالألف واللام قال ابن عباس كان حجرا خفيفا مربعا قدر رأس الرجل وكان موسى عليه الصلاة والسلام يضعه فى مخلاة فاذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه وقيل كان للحجر أربعة وجوه فى كل وجه ثلاثة أعين لكل سبط عين وقيل كان من الرخام وقيل كان من الكذان وهى الحجارة اللينة وقيل هو الحجر الذى وضع عليه موسى ثوبه ليغتسل ففر به فأتاه جبريل وقال إن الله يأمرك أن ترفع هذا الحجر فلى فيه قدرة ولك فيه معجزة فوضعه فى مخلاة فلما سألوه السقيا قيل اضرب بعصاك الحجر فكان إذا احتاجوا إلى الماء وضعه وضربه بعصاه فتتفجر منه عيون لكل سبط عين تسيل إليهم فى جدول وكان إذا أراد حمله ضربه بعصاه فيذهب الماء وييبس الحجر فذلك قوله تعالى (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) يعنى على عدد أسباط بنى إسرائيل والمعنى فضرب به فانفجرت قال المفسرون انفجرت وانبجست بمعنى واحد وقيل انبجست أى عرقت وانفجرت أى سالت (قد علم كل أناس مشربهم) أى موضع شربهم لايدخل سبط على غيره (كلوا واشربوا) أى وقلنا لهم كلوا واشربوا (من رزق الله) يعنى المن والسلوى والماء فهذا كله من رزق الله كان يأتيهم بلا مشقة ولا كلفة (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) العيث أشد الفساد فى هذه الآية معجزة عظيمة لموسى عليه الصلاة والسلام حيث انفجر من الحجر الصغير ماروى منه الجمع الكثير ومعجزة نبينا محمد ﷺ أعظم لأنه انفجر الماء من بين أصبعيه فروى منه الجم الغفير لأن انفجار الماء من الدم واللحم أعظم من انفجاره من الحجر . قوله عز وجل (وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد) وذلك أنهم سئموا من المن والسلوى وملوه فاشتهوا عليه غيره لأن المواظبة على الطعام الواحد تكون سببا لنقصان الشهوة . فان قلت هما طعامان فما بالهم قالوا على طعام واحد . قلت أرادوا بالواحد مالا يختلف ولا يتبدل ولو كان على مائدة الرجل عدة ألوان يداوم عليها فى كل يوم لايبدلها كانت بمنزلة الطعام الواحد (فادع لنا ربك) أى فاسأل لنا ربك (يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها) قال ابن عباس الفوم الخبز وقيل هو الحنطة وقيل هو الثوم (وعدسها وبصلها) إنما طلبوا هذه الأنواع لأنها تعين على تقوية الشهوة أو لأنهم ملوا من البقاء

(أتستبدلون الذى هو أدنى) أخس وأردأ (بالذى هو خير) أشرف وأفضل ، وجعل الحنطة أدنى فى القيمة وإن كانت هى خيرا من المن والسلوى أو أراد أنها أسهل وجودا على العادة ويجوز أن يكون الخير راجعا إلى اختيار الله لهم واختيارهم لأنفسهم (اهبطوا مصرا) يعنى فان أبيتم إلا ذلك فانزلوا مصرا من الأمصار ، وقال الضحاك هو مصر موسى وفرعون والأول أصح لأنه لو أراده لم يصرفه (فان لكم ماسألتم) من نبات الأرض (وضربت عليهم) جعلت عليهم وألزموا (الذلة) الذل والهوان ، قيل بالجزية ، وقال عطاء بن السائب هو الكستيج والزنار وزى اليهودية (والمسكنة) الفقر سمى الفقير مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة فترى اليهود وإن كانوا مياسير كأنهم فقراء ، وقيل الذلة هى فقر القلب فلا ترى فى أهل الملل أذل وأحرص على المال من اليهود (وباءوا بغضب من الله) رجعوا ولا يقال باء إلا بالشر . وقال أبو عبيدة احتملوا وأقروا به ومنه الدعاء « أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى » أى أقر (ذلك) أى الغضب (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) بصفة محمد ﷺ وآية الرجم فى التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن (ويقتلون النبيين) تفرد نافع بهمز النبى وبابه فيكون معناه المخبر من أنبأ ينبئ ونبأ ينبئ والقراءة المعروفة ترك الهمزة وله وجهان أحدهما هو أيضا من الإنباء تركت الهمزة فيه تخفيفا لكثرة الاستعمال والثانى هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة وهى المكان المرتفع فعلى هذا يكون النبيين على الأصل (بغير الحق) أى بلا جرم . فان قيل فلم قال بغير الحق وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق قيل ذكره وصفا للقتل والقتل تارة يوصف بالحق وتارة يوصف بغير الحق وهو مثل قوله تعالى « قال رب احكم بالحق » ذكر الحق وصفا للحكم لا أن حكمه ينقسم إلى الجور والحق . ويروى أن اليهود قتلت سبعين نبيا فى أول النهار وقامت سوق بقتلهم فى آخر النهار (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) يتجاوزون أمرى ويرتكبون محارمى قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا) يعنى اليهود سموا به لقولهم « إنا هدنا إليك » أي ملنا إليك وقيل لأنهم هادوا أى تابوا عن عبادة العجل وقيل لأنهم مالوا عن دين الإسلام وعن دين موسى عليه السلام وقال أبو عمرو بن العلاء لأنهم يتهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة ويقولون إن السموات والأرض تحركت حين أتى الله موسى التوراة (والنصارى) سموا به لقول الحواريين « نحن أنصار الله » وقال مقاتل لأنهم نزلوا قرية يقال لها ناصرة وقيل لاعتزائهم إلى نصرة وهى قرية كان ينزلها عيسى عليه السلام (والصابئين) قرأ أهل المدينة والصابين والصابون بترك الهمزة

فى التيه فسألوا هذه الأطعمة التى لا توجد إلا فى البلاد وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة (قال) يعنى موسى (أتستبدلون الذى هو أدنى) أى الذى هو أخس وأردأ وهو الذى طلبوه (بالذى هو خير) يعنى بالذى هو أشرف وأفضل وهو ماهم فيه (اهبطوا مصرا) يعنى إن أبيتم إلا ذلك فأتوا مصرا من الأمصار ، وقيل بل هو مصر البلد الذى كانوا فيه ودخول التنوين عليه كدخوله على نوح ولوط والقول هو الأول (فان لكم ماسألتم) يعنى من نبات الأرض (وضربت عليهم الذلة) أى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذال والهوان وقيل الذلة الجزية وزى اليهودية وفيه بعد لأنه لم تكن ضربت عليهم الجزية بعد (والمسكنة) أى الفقر والفاقة وسمى الفقير مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة فترى اليهود وإن كانوا أغنياء مياسير كأنهم فقراء فلا ترى أحدا من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود (وباءوا) أى رجعوا ولا يقال باء إلا بشر (بغضب من الله) وغضب الله إرادة الانتقام ممن عصاه (ذلك) أى الغضب (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله) أى بصفة محمد ﷺ وآية الرجم التى فى التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن (ويقتلون النبيين) النبى معناه المخبر من أنبأ ينبئ وقيل هو بمعنى الرفيع مأخوذ من النبوة وهو المكان المرتفع (بغير الحق) أى بغير جرم . فان قلت قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير حق فما فائدة ذكره . قلت ذكره وصفا للقتل والقتل يوصف تارة بالحق وهو ماأمر الله به وتارة بغير الحق وهو قتل العدوان فهو كقوله « قل رب احكم بالحق » فالحق وصف للحكم لا أن حكمه ينقسم إلى حق وجور . يروى أن اليهود قتلت سبعين نبيا فى أول النهار وقامت إلى سوق بقلها فى آخره وقتلوا زكريا ويحيى وشعياء وغيرهم من الأنبياء (ذلك بما عصوا) أى ذلك القتل والكفر بما عصوا أمرى (وكانوا يعتدون) أى يتجاوزون أمرى ويرتكبون محارمى قوله عز وجل (إن الذين آمنوا والذين هادوا) يعنى اليهود سموا بذلك لقولهم « إنا هدنا إليك » أى ملنا إليك وقيل هادوا أى تابوا عن عبادة العجل وقيل إنهم مالوا عن دين الإسلام ودين موسى عليه السلام (والنصارى) سموا بذلك لقول الحواريين نحن « أنصار الله » وقيل لاعتزائهم إلى قرية يقال لها ناصرة وكان المسيح ينزلها (والصابئين) أصله من صبأ إذا خرج من دين إلى دين آخر

والباقون بالهمزة وأصله الخروج ، يقال صبا فلان أى خرج من دين إلى دين آخر وصبأت النجوم إذا خرجت من مطالعها وصبأ ناب البعير إذا خرج فهؤلاء سموا به لخروجهم من دين إلى دين . قال عمر بن الخطاب وابن عباس هم قوم من أهل الكتاب قال عمر تحل ذبائحهم مثل ذبائح أهل الكتاب . وقال ابن عباس لا تحل ذبائحهم ولا مناكحتهم قال مجاهد هم قبيلة نحو الشام بين اليهود والمجوس وقال الكلبي هم قوم بين اليهود والنصارى يحلقون أوساط رءوسهم ويجبون مذاكيرهم وقال قتادة هم قوم يقرون بالله ويقرءون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة أخذوا من كل دين شيئا . قال عبد العزيز بن يحيى انقرضوا (من آمن بالله واليوم الآخر) فان قيل كيف يستقيم قوله من آمن بالله

وقد ذكر في ابتداء الآية : إن الذين آمنوا ، قيل اختلفوا فى حكم الآية فقال بعضهم أراد بقوله إن الذين آمنوا على التحقيق ثم اختلفوا فى هؤلاء المؤمنين فقال قوم هم الذين آمنوا بمحمد ﷺ قبل المبعث وهم طلاب الدين مثل حبيب النجار وقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل والبراء الشنى وأبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى وبحيرا الراهب ووفد النجاشى فمنهم من أدرك النبى ﷺ وتابعه ومنهم من لم يدركه وقيل هم المؤمنون من الأمم الماضية وقيل هم المؤمنون من هذه الأمة والذين هادوا الذين كانوا على دين موسى عليه السلام ولم * يبدلوا والنصارى الذين كانوا على دين عيسى عليه السلام ولم يغيروا وماتوا على ذلك قالوا وهذان الاسمان لزماهم زمن موسى وعيسى عليهما السلام حيث كانوا على الحق كالإسلام لأمة محمد ﷺ والصابئون زمن استقامة أمرهم من آمن أى من مات منهم وهو مؤمن لأن حقيقة الإيمان بالموافاة ويجوز أن يكون الواو مضمرا أى ومن آمن بعدك يا محمد إلى يوم القيامة وقال بعضهم إن المذكورين بالإيمان فى أول الآية على طريق المجاز دون الحقيقة ثم اختلفوا فيهم فقال بعضهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك وقيل أراد بهم المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم واليهود والنصارى الذين اعتقدوا اليهودية والنصرانية بعد التبديل والصابئون بعض أصناف الكفار من آمن بالله واليوم الآخر من هذه الأصناف بالقلب واللسان

سموا بذلك لخروجهم من الدين قال عمر وابن عباس هم قوم من أهل الكتاب قال عمر ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب وقال ابن عباس لا تحل ذبائحهم ولا مناكحتهم وقيل هم قوم بين اليهود والمجوس لا تحل ذبائحهم ولا مناكحتهم وقيل هم بين اليهود والنصارى يحلقون أوساط رءوسهم وقيل هم قوم يقرون بالله ويقرءون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة أخذوا من كل دين شيئا والأقرب أنهم قوم يعبدون الكواكب وذلك أنهم يعتقدون أن الله تعالى خلق هذا العالم وجعل الكواكب مدبرة له فيجب على البشر عبادتها وتعظيمها وأنها هى التى تقرب إلى الله تعالى . ولما ذكر هذه الوظائف قال (من آمن بالله واليوم الآخر) فان قلت كيف قال فى أول الآية إن الذين آمنوا وقال فى آخرها من آمن بالله فما فائدة التعميم أولا ثم التخصيص آخرا قلت اختلف العلماء فى حكم الآية فلهم فيه طريقان أحدهما أنه أراد أن الذين آمنوا على التحقيق ثم اختلفوا فيهم فقيل هم الذين آمنوا فى زمن الفطرة وهم طلاب الدين مثل حبيب النجار وقس ابن ساعدة وورقة بن نوفل وبحيرا الراهب وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسى فمنهم من أدرك النبى ﷺ وتابعه ومنهم من لم يدركه فكأنه تعالى قال إن الذين آمنوا قبل مبعث النبى ﷺ والذين كانوا على الدين الباطل المبدل من اليهود والنصارى والصابئين من آمن منهم بالله واليوم الآخر وبمحمد ﷺ فلهم أجرهم عند ربهم وقيل هم المؤمنون من الأمم الماضية وقيل هم المؤمنون من هذه الأمة والذين هادوا يعنى الذين كانوا على دين موسى ولم يبدلوا والنصارى الذين كانوا على دين عيسى ولم يغيروا والصابئين يعنى في زمن استقامة أمرهم من آمن منهم ومات وهو مؤمن لأن حقيقة الإيمان تكون بالوفاة . وأما الطريقة الثانية فقالوا إن المذكورين بالإيمان فى أول الآية إنما هو على طريق المجاز دون الحقيقة وهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك وقيل هم المنافقون الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم واليهود والنصارى والصابئون فكأنه تعالى قال هؤلاء المطلوبون كل من آمن منهم الإيمان الحقيقى صار مؤمنا عند الله ، وقيل إن المراد من قوله إن الذين آمنوا يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم فى الحقيقة حين الماضى وثبتوا على ذلك فى المستقبل وهو المراد من قوله تعالى من آمن بالله واليوم الآخر

(وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم) وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن من يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث (ولا خوف عليهم) فى الدنيا (ولاهم يحزنون) فى الآخرة. قوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم) عهدكم يامعشر اليهود (ورفعنا فوقكم الطور) وهو دليل بالسريانية فى قول بعضهم وهو قول مجاهد وقيل مامن لغة فى الدنيا إلا فى القرآن ، وقال الأكثرون ليس فى القرآن لغة غير لغة العرب لقوله تعالى «قرآنا عربيا » وإنما هذا وأشباهه وفاق وقع بين اللغتين. وقال ابن عباس أمر الله تعالى جبلا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رءوسهم وذلك أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام فأمر موسى قومه أن يقبلوها ويعملوا بأحكامها فأبوا أن يقبلوها للآصار والأثقال التى هى فيها وكانت شريعة ثقيلة فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام فقلع جبلا على قدر عسكرهم وكان فرسخا فى فرسخ فرفعه فوق رءوسهم مثل قامة الرجل كالظلة وقال لهم إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما رفع الله فوق رءوسهم الطور وبعث نارا من قبل وجوههم وآتاهم البحر الملح من خلفهم (خذوا) أى قلنا لهم خذوا (ما آتيناكم) أعطيناكم (بقوة) بجد واجتهاد ومواظبة (واذكروا) وادرسوا (مافيه) وقيل احفظوا واعملوا (لعلكم تتقون) لكى تنجوا من الهلاك في الدنيا والعذاب فى العقبى فان قبلتم وإلا رضختكم بهذا الجبل وأغرقتكم فى هذا البحر وأحرقتكم بهذه النار فلما رأوا أن لامهرب لهم منها قبلوا وسجدوا أو جعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصارسنة قد في اليهود لايسجدون إلا على أنصاف وجوههم ويقولون بهذا السجود رفع العذاب عنا (ثم توليتم) أعرضتم (من بعد ذلك) من بعد ماقبلتم التوراة (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) يعنى بالإمهال والادراج وتأخير العذاب عنكم (لكنتم) لصرتم (من الخاسرين) من المغبونين بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة ، وقيل من المعذبين فى الحال كأنه رحمهم بالإمهال. قوله تعالى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) أى جاوزوا الحد وأصل السبت القطع قيل سمى يوم السبت بذلك لأن الله تعالى قطع فيه الخلق ، وقيل لأن اليهود أمروا فيه بقطع الأعمال. والقصة فيه أنهم كانوا زمن داود عليه السلام بأرض يقال لها أيلة حرم الله

(وعمل صالحا) أى فى إيمانه (فلهم أجرهم عند ربهم) أى جزاء أعمالهم (ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون) أى فى الآخرة . قوله عز وجل (وإذ أخذنا ميثاقكم) أى عهدكم يامعشر اليهود (ورفعنا فوقكم الطور) يعنى الجبل العظيم قال ابن عباس أمر الله جبلا من جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام على رءوسهم وسبب ذلك أن الله تعالى لما أنزل التوراة على موسى وأمرهم أن يعملوا بأحكامها فأبوا أن يقبلوها لما فيها من الآصار يعنى الأثقال والتكاليف الشاقة أمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن يقلع جبلا على قدر عسكرهم وكان قدره فرسخا فى فرسخ فرفعه فوق رءوسهم قدر قامة كالظلة وقيل لهم إن لم تقبلوا مافى التوراة وإلا أرسلت هذا الجبل عليكم (خذوا) أى قلنا لهم خذوا (ما آتيناكم) أى ما أعطيناكم (بقوة) أى بجد واجتهاد (واذكروا مافيه) أى ادرسوا مافيه (لعلكم تتقون) أى لكى تنجوا من الهلاك فى الدنيا والعذاب فى العقبى وإلا رضخت رؤوسكم بهذا الجبل فلما رأوا ذلك نازلا بهم قبلوا وسجدوا وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصار ذلك سنة فى سجود اليهود لايسجدون إلا على أنصاف وجوههم ويقولون بهذا السجود رفع عنا العذاب (ثم توليتم) أى أعرضتم (من بعد ذلك) أى من بعد ماقبلتم التوراة (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) أى بالإمهال (لكنتم من الخاسرين) أى المغبونين بذهاب الدنيا والعذاب فى العقبى. قوله عز وجل (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم) أى جاوزوا الحد (فى السبت) يقال سبت اليهود لأنهم يعظمونه ويقطعون فيه أعمالهم ، وأصل السبت القطع .

﴿ذكر الإشارة إلى القصة﴾

قال العلماء بالأخبار إنهم كانوا فى زمن داود عليه الصلاة والسلام بقرية بأرض إيلة وحرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت فكان إذا دخل يوم السبت لم يبق حوت فى البحر إلا اجتمع هناك حتى لايرى الماء من كثرتها فاذا مضى السبت تفرقت الحيتان ولزمن قعر البحر فذلك قوله تعالى إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لايسبتون لايأتيهم ثم أن الشيطان وسوس إليهم وقال إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ولم تنهوا عن أخذها فى غيره فعمد رجال منهم فحفروا حياضا كبارا حول البحر وشرعوا منه إليها أنهارا فاذا كان عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فيقبل الموج من البحر بالحيتان إلى تلك الحياض فيقعن فيها ولا يقدرن على الخروج منها لعمقها فاذا كان يوم الأحد أخذوها وقيل أنهم كانوا ينصبون الشخوص والحبائل يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد ففعلوا ذلك زمانا ولم تنزل بهم عقوبة فتجرءوا على السبت وقالوا مانرى السبت إلا

عليها صيد السمك يوم السبت فكان إذا دخل السبت لم يبق حوت فى البحر إلا اجتمع هناك حتى يخرجن خراطيمهن من الماء لأمنها حتى لا يرى الماء لكثرتها فاذا مضى السبت تفرقن ولزمن قعر البحر فلا يرى شىء منها فذلك قوله تعالى « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم » ثم أن الشيطان وسوس إليهم وقال إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا منه إليها الأنهار . فاذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا يقدرن على الخروج لبعد عمقها وقلة مائها فاذا كان يوم الأحد أخذوها وقيل كانوا يسوقون الحيتان إلى الحياض يوم السبت ولا يأخذونها ثم يأخذونها يوم الأحد. وقيل كانوا ينصبون الحبائل والشخوص يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد ففعلوا ذلك زمانا ولم تنزل عليهم عقوبة فتجرءوا على الذنب وقالوا ماندرى السبب إلا وقد أحل لنا فأخذوا وأكلوا وملحوا وباعوا وأثروا وكثر مالهم فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية وكانوا نحوا من سبعين ألفا ثلاثة أصناف : صنف أمسك ونهى ، وصنف أمسك ولم ينه ، وصنف انتهك الحرمة وكان الناهون اثنى عشر ألفا فلما أبى المجرمون قبول نصحهم قالوا والله لانساكنكم فى قرية واحدة فقسموا القرية بجدار وغيروا بذلك سنتين ولعنهم داود عليه السلام وغضب الله عليهم لإصرارهم على المعصية فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا بابهم فلما أبطئوا تسوروا عليهم الحائط فاذا هم جميع قردة لها أذناب يتعاوون قال قتادة صار الشبان قردة والشيوخ خنازير فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يمكث مسخ فوق ثلاثة أيام ولم يتوالدوا قال الله تعالى (فقلنا لهم كونوا قردة) أمر تحويل وتكوين (خاسئين) مبعدين مطرودين قيل فيه تقديم وتأخير أى كونوا خاسئين قردة ولذلك لم يقل خاسئات . والخسأ الطرد والإبعاد وهو لازم ومتعد يقال خسأته خسأ فخسأ خسوءا مثل رجعته رجعا فرجع رجوعا (فجعلناها) أى جعلنا عقوبتهم بالمسخ (نكالا) أى عقوبة وعبرة عقوبة . والنكال اسم لكل عقوبة ينكل الناظر من فعل ماجعلت العقوبة جزاء عليه ومنه النكول عن اليمين وهو الامتناع وأصله من النكل وهو القيد وجمعه يكون إنكالا (لما بين يديها) قال قتادة أراد بما بين يديها يعنى ماسبق من الذنوب أى جعلنا تلك العقوبة جزاء لما تقدم من ذنوبهم قبل نهيهم عن أخذ الصيد (وما خلفها) ماحضر من الذنوب التى أخذوا بها وهى العصيان بأخذ الحيتان ، وقال أبو العالية والربيع عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم أن يستنوا بسنتهم وما الثانية بمعنى من وقيل جعلناها أى جعلنا قرية أصحاب السبت عبرة لما بين يديها أى القرى التى كانت مبنية فى الحال وما خلفها وما يحدث من القرى من بعد ليتعظوا وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره فجعلناها وما خلفها أى ماأعد لهم من العذاب فى الآخرة نكالا وجزاء لما بين يديها أى لما تقدم من ذنوبهم باعتدائهم فى السبت (وموعظة للمتقين) للمؤمنين من أمة محمد ﷺ فلا يفعلون مثل فعلهم قوله عز وجل (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) البقرة هى الأنثى من البقر يقال هى مأخوذة من البقر وهو الشق سميت به لأنها

قد أحل لنا فأخذوا وملحوا وأكلوا وباعوا واشتروا فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية ثلاثة أصناف وكانوا نحو سبعين ألفا صنف أمسك عن الصيد ونهى عن الاصطياد وصنف أمسك ولم ينه وصنف انهمكوا فى الذنب وهتكوا الحرمة وكان الصنف الناهون اثنى عشر ألفا فلما أبى المجرمون قبول نصيحتهم قالوا والله لانساكنكم فى قرية واحدة فقسموا القرية بينهم بجدار فغبروا على ذلك سنين ، ثم لعنهم داود وغضب الله عليهم لإصرارهم على المعصية فخرج الناهون ذات يوم من بابهم ولم يخرج من المجرمين أحد ولم يفتحوا الباب فلما أبطئوا تسوروا عليهم الجدار فاذا هم جميع قردة لهم أذناب وهم يتعاوون وقيل صار الشباب قردة والشيوخ خنازير فمكثوا ثلاثة أيام ثم هلكوا ولم يمكث مسخ فوق ثلاث ولم يتوالدوا . قال الله عز وجل (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أمر تحويل وتكوين ، ومعنى خاسئين مبعدين مطرودين ؛ وقيل فيه تقديم وتأخير معناه كونوا خاسئين قردة ولهذا لم يقل خاسئات (فجعلناها) يعنى عقوبتهم بالمسخ (نكالا) أى عقوبة وعبرة (لما بين يديها وما خلفها) قيل معناه عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم وقيل جعلنا عقوبة قرية أصحاب السبت عبرة لمن بين يديها من القرى التى كانت عامرة فى الحال وما خلفها أى . مايحدث بعدها من القرى ليتعظوا بذلك وقوله عز وجل (وموعظة للمتقين) أى المؤمنين من أمة محمد ﷺ لئلا يفعلوا مثل فعلهم . قوله عز وجل (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) البقرة واحدة البقر وهى الأنثى وأصلها البقر وهو الشق سميت بذلك لأنها تشق الأرض للحراثة

تبقر الأرض أى تشقها للحراثة . والقصة فيه أنه كان فى بنى إسرائيل رجل غنى وله ابن عم فقير لاوارث له سواه فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى وألقاه بفنائهم ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى موسى يدعى عليهم القتل فسألهم موسى فجحدوا فاشتبه أمر القتيل على موسى قال الكلبى وذلك قبل نزول قسامة فى التوراة فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه فأمرهم الله بذبح بقرة فقال لهم موسى : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة (قالوا أتتخذنا هزوا) أى تستهزئ بنا نحن نسألك عن أمر القتيل وتأمرنا بذبح البقرة ؟ وإنما قالوا ذلك لبعد مابين الأمرين فى الظاهر ولم يدروا ما الحكمة فيه . قرأ حمزة هزءا وكفوا بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتثقيل ويترك الهمزة حفص (قال) موسى (أعوذ بالله) أمتنع بالله (أن أكون من الجاهلين) أى من المستهزئين بالمؤمنين ، وقيل من الجاهلين بالجواب لاعلى وفق السؤال لأن الجواب لاعلى وفق السؤال جهل فلما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله عز وجل استوصفوها ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم وكانت تحته حكمة ، وذلك أنه كان فى بنى إسرائيل رجل صالح له ابن طفل وله عجلة أتى بها إلى غيضة وقال : اللهم (٧٠) إنى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى تكبر ومات الرجل فصارت العجلة فى الغيضة عوانا وكانت تهرب من كل من رآها فلما كبر الابن كان بارا بوالدته وكان يقسم الليل ثلاثة أثلاث يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا فاذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتى به إلى السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطى والدته ثلثه فقالت له أمه يوما إن أباك ورثك عجلة استودعها الله فى غيضة كذا فانطلق وادع إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت تلك البقرة تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال : أعزم عليك باله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها يقودها فتكلمت البقرة باذن الله تعالى فقالت أيها الفتى البار بوالدتك اركبنى فان ذلك أهون عليك فقال الفتى إن أمى لم تأمرنى بذلك ولكن قالت خذ بعنقها فقالت البقرة باله بنى إسرائيل لو ركبتنى ماكنت تقدر على أبدا فانطلق فانك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لفعل لبرك بأمك فسار الفتى بها إلى أمه فقالت له أمه إنك فقير لامال لك فيشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة قال بكم أبيعها قالت بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتى وكان ثمن البقرة يومئذ ثلاثة دنانير فانطلق بها إلى السوق فبعث الله ملكا ليرى خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بره بأمه وكان الله به خبيرا فقال له الملك بكم تبيع هذه البقرة قال بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضى والدتى فقال الملك لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك فقال الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهبا لم آخذه إلا برضا أمى فردها إلى أمه وأخبرها بالثمن فقالت أرجع فبعها بستة دنانير على رضى منى ، فانطلق بها إلى السوق وأتى الملك؟ فقال استأمرت أمك؟ فقال الفتى إنها أمرتنى أن لا أنقصها عن ستة دنانير على أن أستأمرها وقال الملك فانى أعطيتك إثنى عشر على أن لاتستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أمه

(ذكر الإشارة إلى القصة فى ذلك)

قال علماء السير والأحبار إنه كان فى زمن بنى إسرائيل رجل غنى وله ابن عم فقير لاوارث له سواه فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى وألقاه على بابها ثم أصبح يطلب ثاره وجاء بناس إلى موسى يدعى عليهم بالقتل فجحدوا واشتبه أمر القتيل على موسى عليه الصلاة والسلام فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ماأشكل عليهم فسأل موسى ربه فى ذلك فأمره بذبح بقرة وأمره أن يضرب به ببعضها فقال لهم إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة (قالوا أتتخذنا هزوا) أى نحن نسألك أمر القتيل وأنت تستهزئ بنا وتأمرنا بذبح بقرة وإنما قالوا ذلك لبعد مابين الأمرين فى الظاهر، ولم يعلموا ماوجه الحكمة فيه (قال) يعنى موسى (أعوذ بالله) أى أمتنع بالله (أن أكون من الجاهلين) أى المستهزئين بالمؤمنين وقيل من الجاهلين بالجواب لاعلى وفق السؤال فلما علموا أن ذبح البقرة عزم من الله تعالى استوصفوه إياها ولو أنهم عمدوا إلى أى بقرة كانت فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد عليهم وكان فى ذلك حكمة لله عز وجل ، وذلك أنه كان رجل صالح فى بنى إسرائيل وله ابن طفل وله عجلة فأتى بها غيضة وقال اللهم إنى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ومات ذلك الرجل وصارت العجلة فى الغيضة عوانا وكانت تهرب من الناس فلما كبر ذلك الطفل وكان بارا بأمه وكان يقسم ليلة ثلاثة أجزاء يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا فاذا أصبح انطلق فيحتطب ويأتى به السوق فيبيعه بما يشاء الله فيتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطى أمه ثلثه فقالت له أمه يوما يابنى إن أباك ورثك عجلة استودعها الله فى غيضة كذا فانطلق وادع إله إبراهيم وإسماعيل

فأخبرها بذلك فقالت إن الذى يأتيك ذلك فى صورة آدمى ليختبرك فاذا أتاك فقل له أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ففعل فقال له الملك اذهب إلى أمك وقل لها أمسكى هذه البقرة فان موسى ابن عمران عليه السلام يشتريها منك لقتيل يقتل فى بنى إسرائيل فلا تبعها إلا بملء مسكها دنانير فأمسكها وقدر الله تعالى على بنى إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفونها حتى وصفت لهم تلك البقرة بعينها مكافأة له على بره بوالدته فضلا منه ورحمة فذلك قوله تعالى (قالوا ادع لنا ربك يبين لناماهى) أى ماسنها (قال) موسى (إنه يقول) يعنى فسأل الله تعالى فقال إنه يعنى أن الله تعالى يقول (إنها بقرة لافارض ولا بكر) أى لا كبيرة ولا صغيرة والفارض المسنة التى لاتلد يقال منه فرضت تفرض فروضا، والبكر الفتية الصغيرة التى لم تلد قط وحذفت الهاء منهما للاختصاص بالإناث كالحائض (عوان) وسط نصف (بين ذلك) أى بين السنين يقال عونت المرأة تعوينا إذا زادت على الثلاثين قال الأخفش العوان التى نتجت مرارا وجمعها عون (فافعلوا ماتؤمرون) من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها) قال ابن عباس شديدة الصفرة وقال قتادة صاف وقال الحسن الصفراء السوداء والأول أصح لأنه لايقال أسود فاقع إنما يقال أصفر فاقع وأسود حالك وأحمر قانئ وأخضر ناضر وأبيض يقق للمبالغة (تسر الناظرين) إليها يعجبهم حسنها وصفاء لونها (قالوا ادع لناربك يبين لناماهى) أسائمة أم عاملة (إن البقر تشابه علينا) ولم يقل تشابهت لتذكير لفظ البقر كقوله تعالى «أعجاز نخل منقعر» وقال الزجاج أى جنس البقر تشابه أى التبس واشتبه أمره علينا فلا نهتدى إليه (وإنا إن شاء الله لمهتدون) إلى وصفها قال رسول الله ﷺ وأيم

وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت تسمى المذهبة لحسنها وصفرتها فأتى الفتى غيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال أعزم عليك باله إبراهيم وإسمعيل وإسحق فأقبلت البقرة حتى وقفت بين يديه فقبض على قرنها يقودها فتكلمت البقرة باذن الله تعالى وقالت أيها الفتى البار بأمه اركبنى فانه أهون عليك فقال الفتى إن أمى لم تأمرنى بذلك فقالت البقرة والله لو ركبتنى ما كنت تقدر علىّ أبدا فانطلق فانك لو أمرت الجبل أن ينقلع من أصله لانقلع لبرك بأمك فسار الفتى بها إلى أمه فقالت له أمه إنك رجل فقير ولامال لك ويشق عليك الاحتطاب بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع البقرة فقال بكم أبيعها قالت بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتى وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير فانطلق بها الفتى إلى السوق وبعث الله ملكا ليرى خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بره بأمه وهو أعلم فقال له الملك بكم هذه البقرة قال بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضى أمى فقال له الملك لك ستة دنانير ولا تستأمر أمك فقال له الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهبا لم آخذه إلى برضا أمى ورجع الفتى إلى أمه فأخبرها بالثمن فقالت له ارجع فبعها بستة دنانير ولاتبعها إلا برضاى فرجع بها إلى السوق وأتى الملك فقال له استأمرت أمك فقال الفتى نعم إنها أمرتنى إن لا أنقصها عن ستة على رضاها فقال الملك إنى أعطيتك اثنى عشر دينارا ولا تستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أمه فأخبرها بذلك فقالت له أمه إن الذى يأتيك ملك فى صورة آدمى ليجربك فاذا أتاك فقل له أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ففعل فقال له الملك اذهب إلى أمك فقل لها أمسكى هذه البقرة فان موسى بن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل فى بنى إسرائيل فلا تبعها إلا بملء مسكها ذهبا والمسك الجلد فأمسكتها وقدر الله على بنى إسرائيل ذبح البقرة بعينها فما زالوا يستوصفون البقرة حتى وصفت لهم تلك البقرة بعينها مكافأة بذلك الفتى على بره بأمه فضلا من الله تعالى ورحمة فذلك قوله تعالى (قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) أى ماسنها (قال) يعنى موسى (إنه يقول) يعنى الله عز وجل (إنها بقرة لافارض ولا بكر) أى لا كبيرة ولا صغيرة والفارض المسنة التى لم تلد، والبكر الفتية التى لم تلد (عوان) أى نصف (بين ذلك) أى بين السنين (فافعلوا ماتؤمرون) أى من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها) قال ابن عباس شديد الصفرة وقيل لونها صاف وقيل الصفراء السوداء والأول أصح لأنه يقال أصفر فاقع وأسود حالك (تسر الناظرين) أى يعجبهم حسنها وصفاء لونها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) أى سائمة أو عاملة (إن البقرة تشابه علينا) أى التبس واشتبه أمرها علينا (وإنا إن شاء الله لمهتدون) أى إلى وصفها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وايم الله لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الدهر

الله لو لم يستثنوا لما بينت لهم إلى آخر الأبد (قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول) مذللة بالعمل يقال رجل ذلول بين الذل ودابة ذاولة بينة الذل (تثير الأرض) تلقبها للزراعة (ولا تسقى الحرث) أى ليست بسانية (مسلمة) بريئة من العيوب (لاشية فيها) لا لون لها سوى لون جميع جلدها قال عطاء لاعيب فيها قال مجاهد لابياض فيها ولا سواد (قالوا الآن جئت بالحق) أى بالبيان التام الشافى الذى لاإشكال فيه وطلبوها فلم يجدوا بكمال وصفها إلا مع الفتى فاشتروها بملء مسكها ذهبا (فذبحوها وما كادوا يفعلون) من غلاء ثمنها وقال محمد بن كعب وما كادوا يجدونها باجتماع أوصافها وقيل وما كادوا يفعلون من شدة اضطرابهم واختلافهم فيها. قوله عز وجل (وإذ قتلتم نفسا) هذا أول القصة وإن كان مؤخرا فى التلاوة واسم القتيل عاميل (فادارأتم فيها) أصله تدار أتم فأدغمت التاء فى الدال وأدخلت الألف مثل قوله اثاقلتم قال ابن عباس ومجاهد معناه فاختلفتم وقال الربيع بن أنس تدافعتم أى يحيل بعضكم على بعض من الدرء وهو الدفع فكان كل واحد يدفع عن نفسه (والله مخرج) أى مظهر (ما كنتم تكتمون) فان القاتل كان يكتم القتل قوله عزوجل (فقلنا اضربوه) يعنى القتيل (ببعضها) أى ببعض البقرة واختلفوا فى ذلك البعض قال ابن عباس رضى الله عنه وأكثر المفسرين ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف

وهو المقتل وقال مجاهد وسعيد بن جبير بعجب الذنب لأنه أول مايخلق وآخر مايبلى ويركب عليه الخلق ثانيا وهو البعث، وقال الضحاك بلسانها وقال الحسين بن الفضل هذا أدل بها لأنه آلة الكلام وقال الكلبى وعكرمة بفخذها الأيمن وقيل بعضو منها لابعينه ففعلوا ذلك فقام القتيل حيا باذن الله تعالى وأوداجه أى عروق العنق تشخب دما وقال قتلنى فلان ثم سقط ومات مكانه فحرم قاتله الميراث وفى الخبر «ماورث قاتل بعد صاحب البقرة» وفيه إضمار تقديره فضربت فحيي (كذلك يحيي الله الموتى) كما أحيا عاميل (ويريكم آياته لعلكم تعقلون) قيل تمنعون أنفسكم من المعاصى أما حكم هذه المسئلة إذا وجد فى الإسلام قتيل فى الإسلام موضع ولا يعرف قاتله فان كان ثم لوث على إنسان واللوث أن يغلب على القلب صدق المدعى بأن اجتمع جماعة فى بيت أو صحراء فتفرقوا عن قتيل يغلب على القلب أن القاتل فيهم أو وجد قتيل فى محلة أو قرية كلهم أعداء للقتيل لايخالطهم غيرهم فيغلب على القلب أنهم قتلوه فادعى الولى على بعضهم يحلف المدعى خمسين يمينا على من يدعى عليه وإن كان الأولياء جماعة توزع الأيمان عليهم ثم بعد ماحلفوا أخذوا الدية من عاقلة المدعى عليه إن ادعوا قتل خطأ وإن ادعوا قتل عمد فمن ماله ولا قود على قول الأكثرين وذهب بعضهم إلى وجوب القود وهو قول عمر بن عبدالعزيز وبه قال مالك وأحمد وإن لم يكن على المدعى عليه لوث فالقول قول المدعى عليه مع يمينه ثم هل يحلف يمينا واحدة أم خمسين يمينا فيه قولان أحدهما يمينا واحدة كما فى سائر الدعاوى والثانى يحلف خمسين يمينا تغليظا لأمر الدم وعند أبى حنيفة رضى الله عنه لاحكم للوث ولا يبدأ بيمين المدعى وقال إذا وجد قتيل فى محلة يختار الإمام خمسين رجلا من صلحاء أهلها فيحلفهم أنهم ماقتلوه ولا عرفوا له قاتلا ثم يأخذ الدية من سكانها

(قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول) أى ليست مذللة بالعمل (تثير الأرض) أى تقلبها للزراعة (ولا تسقى الحرث) أى ليست بسنانية والسانية هى التى تستسقى الماء من البئر لسقى الأرض (مسلمة) أى بريئة من العيوب (لاشية فيها) أى لالون فيها غير لونها (قالوا الآن جئت بالحق) أى بالبيان التام الذى لاإشكال فيه فطلبوها فلم يجدوا بقرة بكمال وصفها إلا بقرة ذلك الفتى فاشتروها منه بملء مسكها ذهبا (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أى وما قاربوا أن يفعلوا ماأمروا به، قيل لغلاء ثمنها وقيل لخوف الفضيحة وقيل لعزة وجودها بهذه الأوصاف جميعا . قوله عز وجل (وإذ قتلتم نفسا) خوطبت الجماعة بذلك لوجود القتل فيهم (فادارأتم فيها) قال ابن عباس أى اختلفتم واختصمتم من الدرء وهو الدفع لأن المتخاصمين يدفع بعضهم بعضا (والله مخرج ما كنتم تكتمون) أى مظهر ما كنتم من أمر القتيل لامحالة ولايتركه مكتوما (فقلنا اضربوه) يعنى القتيل (ببعضها) أى ببعض البقرة قال ابن عباس ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف وهو أصل الأذن وقيل ضربوه بلسانها وقيل بعجب الذنب وقيل بفخذها اليمين والأقرب أنهم كانوا مخيرين فى ذلك البعض وإنهم إذا ضربوه بأى جزء منها أجزا وحصل المقصود وإنه ليس فى القرآن مايدل على ذلك البعض ماهو وذلك يقتضى التخيير وفى الآية إضمار تقديره فضربوه فحيي وقام باذن الله تعالى وأوداجه تشخب دما وقال قتلنى فلان يعنى ابن عمه ثم سقط ميتا مكانه فحرم قاتله الميراث وفى الخبر ماورث قاتل بعد صاحب البقرة (كذلك) أى كما أحيا الله عاميل صاحب البقرة (يحيي الله الموتى) يعنى يوم القيامة (ويريكم آياته لعلكم تعقلون) أى

تمنعون

تمنعون أنفسكم عن المعاصى . فان قلت كان حق هذه القصة أن يقدم ذكر القتيل أولا ثم ذكر ذبح البقرة بعد ذلك، فما وجه ترتيب هذه القصة على هذا الترتيب ؟ قلت وجهه أن الله لما ذكر من قصص بنى إسرائيل وما وجد من خياناتهم تقريعا لهم على ذلك وما وجد فيهم من الآيات العظيمة وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين فى نفس الأمر فالأولى لتقريعهم على ترك المسارعة إلى امتثال الأمر وما يتبعه والثانية لتقريعهم على قتل النفس المحرمة فلو قدم قصة القتيل على قصة الذبح لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية التقريع فلهذا قدم ذكر الذبح أولا ثم عقبه بذكر القتل . فان قلت ما فائدة ضرب القتيل ببعض البقرة والله تعالى قادر على أن يحييه ابتداء من غير ضرب بشىء ؟ قلت الفائدة فيه أن تكون الحجة أوكد وعن الحيلة أبعد لاحتمال أن يتوهم متوهم أن موسى عليه السلام إنما أحياه بضرب من السحر والحيلة فاذا أحيي القتيل عند ما ضرب ببعض البقرة انتفت الشبهة وعلم أن ذلك من عند الله تعالى وبأمره كان ذلك . فان قلت هلا أمروا بذبح غير البقرة ؟ قلت الكلام فى غير البقرة لو أمروا به كالكلام فى البقرة ثم فى ذبح البقرة فوائد منها التقرب بالقربان على ما كانت العادة جارية عندهم، ومنها أن هذا القربان كان عندهم من أعظم القرابين ومنها تحمل المشقة العظيمة فى تحصيلها بتلك الصفة ومنها حصول ذلك المال العظيم الذى أخذه صاحبها من ثمنها.

(فصل : فى حكم هذه المسئلة فى شريعة الإسلام إذا وقعت) وذلك أنه إذا وجد قتيل فى موضع ولا يعرف قاتله فان كان ثم لوث على إنسان ادعى به . واللوث أن يغلب على الظن صدق المدعى بأن اجتمع جماعة فى بيت أو صحراء ثم تفرقوا عن قتيل فيغلب على الظن أن القاتل فيهم أو وجد قتيل فى محلة أو قرية وكلهم أعداء القتيل لا يخالطهم غيرهم فيغلب على الظن أنهم قتلوه فان ادعى الولى على بعضهم حلف خمسين يمينا على من يدعى عليه، وإن كان الأولياء جماعة توزع الإيمان عليهم فاذا حلفوا أخذوا الدية من عاقلة المدعى عليه إن ادعوا قتل خطأ وإن ادعوا قتل عمد فمن مال المدعى عليه ولا قود عليه فى قول الأكثرين وذهب عمر بن عبد العزيز إلى وجوب القود وبه قال مالك وأحمد فان لم يكن ثم لوث فالقول قول المدعى عليه لأن الأصل براءة ذمته من القتل وهل يحلف يمينا واحدة أم خمسين يمينا ؟ فيه قولان أحدهما أنه يحلف يمينا واحدة كما فى سائر الدعاوى والثانى أنه يحلف خمسين يمينا تغليظا لأمر القتيل وعند أبى حنيفة لا حكم للوث ولا يبدأ بيمين المدعى بل إذا وجد قتيل فى محلة يختار الإمام خمسين رجلا من صلحاء أهلها فيحلفهم أنهم ما قتلوه ولا يعرفون له قاتلا فان حلفوا وإلا أخذ الدية من سكانها . والدليل على أن البداءة بيمين المدعى عند وجود اللوث ما روى عن سهل بن أبى خيثمة قال انطلق عبد الله بن سهل ومحيصة بن مسعود إلى خيبر وهى يومئذ صلح فتفرقا فأتى محيصة إلى عبد الله بن سهل وهو يتشحط فى دمه قتيلا فدفنه ثم قدم المدينة فانطلق عبد الرحمن بن سهل ومحيصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبى صلى الله عليه وسلم فذهب عبد الرحمن يتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كبر كبر وهو أحدث القوم سنا فسكت فتكلما فقال أتحلفون وتستحقون

والدليل على أن البداءة بيمين المدعى عند وجود اللوث ما أخبرنا به عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى عن يحيى بن سعيد عن بشير ابن يسار عن سهل بن أبى حثمة أن عبد الله بن سهل ومحيصة بن مسعود خرجا إلى خيبر فتفرقا لحاجتهما فقتل عبد الله ابن سهل فانطلق هو وعبد الرحمن أخو المقتول وحويصة مسعود إلى رسول الله ﷺ فذكروا له قتل عبد الله بن سهل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تحلفون خمسين يمينا وتستحقون دم صاحبكم أو قاتلكم فقالوا يارسول الله لم نشهد ولم نحضر فقال رسول الله ﷺ فتبرئكم يهود بخمسين يمينا فقالوا يارسول الله كيف نقبل أيمان قوم كفار فزعم ٧ النبى صلى الله عليه وسلم عقله من عنده وفى لفظ آخر فزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم عقله من عنده قال بشير بن يسار قال سهل لقد ركضتنى فريضة من تلك الفرائض فى مربد لنا وفى رواية لقد ركضتنى ناقة حمراء من تلك الفرائض فى مربد لنا وجه الدليل من الخبر أن النبى ﷺ بدأ بأيمان المدعين لتقوى جانبهم باللوث ، وهو أن عبد الله بن سهل وجد قتيلا فى خيبر وكانت العداوة ظاهرة بين الأنصار وأهل خيبر وكان يغلب على القلب أنهم قتلوه واليمين أبدا تكون حجة لمن يقوى جانبه وعند عدم اللوث تقوى جانب المدعى عليه

من حيث أن الأصل براءة ذمته وكان القول قوله مع يمينه قوله (ثم قست قلوبكم) أى يبست وجفت جفاف القلب خروج الرحمة واللين عنه وقيل غلظت وقيل اسودت (من بعد ذلك) من بعد ظهور الدلالات قال الكلبي قالوا بعد ذلك نحن لم نقتله فلم يكونوا قط أعمى قلبا ولا أشد تكذيبا لنبيهم منهم عند ذلك (فهى) فى الغلظة والشدة (كالحجارة أو أشد قسوة) قيل أو بمعنى بل أو بمعنى الواو كقوله «مائة ألف أو يزيدون» أى بل يزيدون أو يزيدون وإنما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة لأن الحديد قابل للين فانه يلين بالنار وقد لان لداود عليه السلام والحجارة لاتلين قط ثم فضل الحجارة على القلب القاسى فقال (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) قيل أراد به جميع الحجارة وقيل أراد به الحجر الذى كان يضرب عليه موسى للأسباط (وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) أراد به عيونا دون الأنهار (وإن منها لما يهبط) ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله (من خشية الله) وقلوبكم لاتلين ولا تخشع يامعشر اليهود . فان قيل الحجر جماد لايفهم فكيف يخشى قيل الله يفهمه ويلهمه فيخشى بالهامه ومذهب أهل السنة والجماعة أن لله تعالى علما فى الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لايقف عليه غير الله فلها صلاة وتسبيح وخشية كما قال جل ذكره « وإن من شىء إلا يسبح بحمده» وقال « والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » وقال « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر » الآية فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله سبحانه وتعالى وروى أن النبى ﷺ كان على ثبير والكفار يطلبونه فقال الجبل انزل عنى فانى أخاف أن تؤخذ علىّ فيعاقبنى الله بذلك فقال له جبل حراء إلىّ يارسول الله أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى ثنا السدي أبو الحسين محمد بن حسن العلوى أنا أحمد بن محمد بن عبد الوهاب النيسابورى أنا محمد بن إسماعيل الصائغ أنا يحي بن أبى بكر أنا إبراهيم بن طهمان عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال قال رسول الله ﷺ « إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث وإنى لأعرفه الآن» هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يحيى بن أبى بكر وصح عن أنس أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال «هذا جبل يحبنا ونحبه» وروى عن أبى هريرة يقول «صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ثم أقبل على الناس بوجهه وقال بينما رجل يسوق بقرة إذ عيي فركبها فضربها فقالت إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا لحراثة الأرض فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم؟ فقال رسول الله ﷺ فانى أومن به أنا وأبو بكر وعمر وماهما ثم» وقال «بينما رجل فى غنم له إذ عدا الذئب على شاة منها فأدركها صاحبها فاستنقذها فقال الذئب فمن لها يوم السبع أى يوم القيامة يوم لاراعى لها غيرى فقال الناس سبحان الله ذئب يتكلم فقال أومن به أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم» وصح عن أبى هريرة ، قال « كان رسول الله ﷺ على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال النبى صلى الله عليه وسلم اهدأ أى اسكن فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد» صحيح أخرجه مسلم . أنا عبد الله الصالحى أنا أبو سعيد يحيى بن أحمد بن

(٧٤)

قاتلكم أو قال صاحبكم قالوا كيف نحلف ولم نشهد ولم نر ؟ قال فتبرئكم يهود بأيمان خمسين منهم قالوا كيف نأخذ بأيمان قوم كفار فعقله النبى صلى الله عليه وسلم من عنده وفى رواية يقسم خمسون منكم على رجل منهم فيدفع برمته وذكر نحوه وزاد فى رواية فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبطل دمه فوداه بمائة من إبل الصدقة أخرجاه فى الصحيحين ، ووجه الدليل من هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم بدأ بأيمان المدعين ليقوى جانبهم باللوث لأن اليمين أبدا تكون لمن يقوي جانبه وعند عدم اللوث تكون من جانب المدعى عليه من حيث إن الأصل براءة ذمته فكان القول قوله مع يمينه والله أعلم . قوله عز وجل (ثم قست قلوبكم) أى يبست وجفت وقساوة القلب انتزاع الرحمة منه وقيل معناه غلظت واسودت (من بعد ذلك) أى من بعد ظهور الدلالات التى جاء بها موسى وقيل هى إشارة إلى إحياء القتيل بعد ضربه ببعض البقرة (فهى) يعنى القلوب فى الغلظ والشدة (كالحجارة) أى كالشىء الصلب الذى لاتخلخل فيه (أو) قيل أو بمعنى بل وقيل بمعنى الواو أى و (أشد قسوة) فان قلت لم شبه قلوبهم بالحجارة ولم يشبهها بالحديد وهو أشد من الحجارة وأصلب . قلت لأن الحديد قابل للين بالنار وقد لان لداود عليه الصلاة والسلام والحجارة ليست قابلة للين فلا تلين قط ثم فضل الحجارة على القلب القاسى فقال (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) قيل أراد به جميع الحجارة وقيل أراد به الحجر الذى كان يضرب عليه موسى ليسقى الأسباط والتفجير التفتح بالسعة والكثرة (وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) يعنى العيون الصغار التى دون الأنهار (وإن منها لما يهبط من خشية الله)

أى ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ، وخشيتها عبارة عن انقيادها لأمر الله وأنها لا تمتنع عما يريد منها » وقلوبكم يامعشر اليهود لاتلين ولا تخشع . فان قلت الحجر جماد لايعقل ولا يفهم فكيف يخشى ؟ قلت إن الله تعالى قادر على إفهام الحجر والجمادات فتعقل وتخشى بالهامه لها ، ومذهب أهل السنة إن الله تعالى أودع فى الجمادات والحيوانات علما وحكمة لايقف عليهما غيره فلها صلاة وتسبيح وخشية يدل عليه قوله « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » وقال تعالى « والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله تعالى (م) عن جابر بن سمرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث وإنى لأعرفه الآن » عن على قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا إلى بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول السلام عليك يارسول الله أخرجه الترمذى وقال حديث غريب (خ) عن جابر بن عبد الله قال « كان فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جذع فى قبلته يقوم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبته فلما وضع المنبر سمعنا للجذع حنينا مثل صوت العشار حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه ، وفى رواية : صاحت النخلة صياح الصبى فنزل صلى الله عليه وسلم حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبى الذى لايسكت حتى استقرت قال بكت على ما كانت تسمع من الذكر » قال مجاهد ماينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله وذلك يشهد لما قلنا (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد وتهديد والمعنى أن الله بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم وحافظ لأعمالهم حتى يجازيهم بها فى الآخرة . قوله عز وجل (أفتطمعون) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه هو الداعى إلى الإيمان وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيما له وقيل هو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأنهم كانوا يدعونهم إلى الإيمان أيضا ومعنى أفتطمعون أفترجون (أن يؤمنوا لكم) أى يصدقكم اليهود بما تخبرونهم وقيل معناه أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع أنهم لم يؤمنوا بموسى عليه الصلاة والسلام وكان هو السبب فى خلاصهم من الذل وظهور المعجزات على يده (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) قيل المراد بالفريق هم الذين كانوا مع موسى يوم الميقات وهم الذين سمعوا كلام الله تعالى وقيل المراد بهم الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وهو الأقرب لأن الضمير راجع إليهم فى أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، فعلى هذا يكون معنى يسمعون كلام الله يعنى التوراة لأنه يصح أن يقال لمن يسمع التوراة يسمع كلام الله (ثم يحرفونه) أى يغيرون كلام الله ويبدلونه فمن فسر الفريق الذين يسمعون كلام الله بالفريق الذين كانوا مع موسى عليه السلام استدل بقول ابن عباس رضى الله عنهما إنها نزلت فى السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه وذلك لأنهم لما رجعوا إلى قومهم بعد ماسمعوا كلام الله أما الصادقون منهم فانهم أدوا كما سمعوا وقالت طائفة منهم سمعنا الله يقول فى آخر كلامه إن استطعتم أن تفعلوا فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا فكان هذا تحريفهم ومن فسر الفريق الذين كانوا يسمعون كلام الله بالذين كانوا فى زمن النبى صلى الله

على الصائغ أنا أبو الحسن على بن إسحاق بن هشام الرازى أنا محمد أيوب بن ضريس وهو بجلى الرازى أنا محمد بن الصباح عن الوليد ابن أبى ثور عن السدى عن عبادة بن أبى يزيد عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « كنا مع رسول الله ﷺ بمكة فخرجنا فى نواحيها خارجا من مكة بين الجبال والشجر فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال السلام عليك يارسول الله » أنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز ابن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا عبد المجيد ابن عبد العزيز عن ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله رضى الله عنه يقول « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سوارى المسجد فلما صنع له المنبر فاستوى عليه اضطربت تلك السارية وحنت كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل رسول الله ﷺ فاعتنقها فسكنت » قال مجاهد لاينزل حجر من الأعلى إلى الأسفل إلا من خشية الله ويشهد لما قلنا قوله تعالى « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » قوله عز وجل (وما الله بغافل) بساه (عما تعملون) وعيد وتهديد وقيل بتارك عقوبة ما تعملون بل يجازيكم به . قرأ ابن كثير يعملون بالياء والآخرون بالتاء . قوله عز وجل (أفتطمعون) أفترجون يريد محمدا وأصحابه (أن يؤمنوا لكم) تصدقكم اليهود بما تخبرونهم به (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) يعنى التوراة (ثم يحرفونه) يغيرون مافيها

من الأحكام (من بعد ماعقلوه) علموه كما غيروا صفة محمد ﷺ وآية الرجم (وهم يعلمون) أنهم كاذبون هذا قول مجاهد وقتادة وعكرمة والسدى وجماعة وقال ابن عباس ومقاتل نزلت فى السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه وذلك أنهم لما رجعوا بعد ماسمعوا كلام الله إلى قومهم رجع الناس إلى قولهم وأما الصادقون منهم فأدوا كما سمعوا وقالت طائفة منهم سمعنا الله يقول فى آخر كلامه إن استطعتم أن تفعلوا فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا فهذا تحريفهم وهم يعلمون أنه الحق. قوله عز وجل (وإذا لقوا الذين آمنوا) قال ابن عباس والحسن وقتادة يعنى منافقى اليهود الذين آمنوا بألسنتهم إذا لقوا المؤمنين المخلصين (قالوا آمنا) كايمانكم (وإذا خلا) رجع (بعضهم إلى بعض) كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا أو غيرهم من رؤساء اليهود

لاموهم على ذلك (قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) بما قص الله عليكم فى كتابكم أن محمدا حق وقوله صدق والفتاح القاص" وقال الكسائى بما بينه لكم من العلم بصفة محمد ﷺ ونعته وقال الواقدى بما أنزل الله عليكم وأعطاكم ونظيره «لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» أى أنزلنا، وقال أبو عبيدة بما من" الله عليكم وأعطاكم (ليحاجوكم به) ليخاصموكم به يعنى أصحاب محمد ﷺ ويحتجوا بقولكم عليكم فيقولوا قد أقررتم أنه نبى حق فى كتابكم ثم لاتتبعونه وذلك أنهم قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم فى اتباع محمد ﷺ آمنوا به فانه حق ثم قال بعضهم لبعض أتحدثونهم بما فتح الله عليكم

الأمانى

ليحاجوكم به ويعنى لتكون لهم الحجة عليكم (عند ربكم) فى الدنيا والآخرة وقيل إنهم أخبروا المؤمنين بما عذبهم الله به على الجنايات فقال بعضهم لبعض أتحدثونهم بما أنزل الله عليكم من العذاب ليحاجوكم به عند ربكم ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله. وقال مجاهد هو قول يهود قريظة قال بعضهم لبعض حين قال لهم النبى ﷺ ياإخوان القردة والخنازير فقالوا من أخبر محمدا بهذا ماخرج هذا إلا منكم (أفلا تعقلون) قوله عز وجل (أو لايعلمون أن الله يعلم مايسرون) يخفون (وما يعلنون) يبدون يعنى اليهود، وقوله تعالى (ومنهم أميون) أى من اليهود أميون لايحسنون القراءة والكتابة جمع أمى منسوب إلى الأم كأنه باق على ماانفصل من الأم لم يعلم كتابة ولا قراءة، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «إنا أمة أمية» أى لانكتب ولا نحسب وقيل هو منسوب إلى أم القرى وهى مكة (لايعلمون الكتاب إلا أمانى) قرأ أبو جعفر أمانى بتخفيف الياء كل

عليه وسلم قال كان تحريفهم تبديلهم صفة النبى ﷺ وآية الرجم فى التوراة (من بعد ماعقلوه) أى علموا صحة كلام الله ومراده فيه ثم مع ذلك خالفوه (وهم يعلمون) أى فساد مخالفته ويعلمون أيضا أنهم كاذبون. قوله عز وجل (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) نزلت هذه الآية فى اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس رضى الله عنهما إن منافقى اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لهم آمنا بالذى آمنتم به وإن صاحبكم صادق وقوله حق وإنا نجد نعته وصفته فى كتابنا (وإذا خلا بعضهم إلى بعض) يعنى كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا ورؤساء اليهود لاموا منافقى اليهود على ذلك و(قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) يعنى قص الله عليكم فى كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه حق وقوله صدق (ليحاجوكم به) أى ليخاصمكم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويحتجوا عليكم بقولكم فيقولون لكم قد أقررتم أنه نبى حق فى كتابكم ثم لاتتبعونه، وذلك أن اليهود قالوا لأهل المدينة حين شاوروهم فى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم: آمنوا به فانه نبى حق ثم لام بعضهم بعضا وقالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم لتكون لهم الحجة عليكم (عند ربكم) أى فى الدنيا والآخرة وقيل هو قول يهود بنى قريظة بعضهم لبعض حين قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم يا إخوان القردة والخنازير قالوا من أخبر محمدا بهذا؟ هذا ماخرج إلا منكم وقيل أن اليهود أخبروا المؤمنين بما عذبهم الله به من الجنايات فقال بعضهم لبعض أتحدثونهم بما قضى الله عليكم من العذاب ليروا الكرامة لأنفسهم عليكم عند الله (أفلا تعقلون) أى إن ذلك لايليق بما أنتم عليه (أولا يعلمون) يعنى اليهود (أن الله يعلم مايسرون) أى مايخفون (ومايعلنون) أى مايبدون وما يظهرون. قوله عز وجل (ومنهم) أى من اليهود (أميون) أى لايحسنون الكتابة ولا القراءة جمع أمى وهو المنسوب إلى أمه كأنه باق على ماانفصل من الأم لم يتعلم كتابة ولا قراءة (لايعلمون الكتاب إلا أمانى) جمع أمنية وهى التلاوة، ومنه قول الشاعر:

تمنى كتاب الله أول ليلة ... تمنى داود الزبور على رسل

أى تلا كتاب الله. وقال ابن عباس رضى الله عنهما معناه غير عارفين بمعانى كتاب الله تعالى وقيل

القرآن حذف إحدى الياءين تخفيفا وقراءة العامة بالتشديدوهو جمع الأمنية وهي التلاوة قال الله تعالى «إلا إذاتمنى ألقى الشيطان في أمنيته» أي في قراءته ، قال أبو عبيدة إلا تلاوة وقراءة عن ظهر القلب لايقرءونه من كتاب وقيل يعلمونه حفظا وقراءة لايعرفون معناه قال ابن عباس يعني غير عارفين بمعاني الكتاب. وقال مجاهد وقتادة إلا كذبا وباطلا . قال الفراء إلا أماني الأحاديث المفتعلة . قال عثمان رضي الله عنه ماتمنيت منذ أسلمت أي ما كذبت وأراد بها الأشياء التي كتبها علماؤهم من عند أنفسهم ثم أضافوها إلى الله من تغيير نعت النبي صلى الله عليه وسلم وغيره وقال الحسن وأبو العالية هي من التمني وهي أمانيهم الباطلة التي يتمنونها على الله عز وجل مثل قولهم «لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى» وقولهم «لن تمسنا النار إلا أياما معدودة» وقولهم «نحن أبناء الله وأحباؤه» فعلى هذا لايكون بمعنى لكن أي لايعلمون الكتاب لكن يتمنون

(٧٧)

أشياء لايحصل لهم (وإن هم) وما هم (إلا يظنون) يعني وما يظنون إلا ظنا وتوهما لا يقينا قاله قتادة والربيع وقال مجاهد يكذبون قوله عز وجل (فويل) قال الزجاج ويل كلمة تقولها العرب لكل واقع في هلكة وقيل هو دعاء الكفار على أنفسهم بالويل والثبور وقال ابن عباس شدة العذاب وقال سعيد ابن المسيب ويل واد في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لانماعت ولذابت من شدة حرها أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد ابن الحارث أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن رشيد بن سعد عن عمرو بن الحارث أنه حدث عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره والصعود جبل من نار يتصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوي فهو كذلك» (للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) وذلك أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا في تعويق اليهود عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة وكانت صفته فيها : حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة القامة فغيروها وكتبوا مكانها طوال أزرق سبط الشعر ، فاذا سألهم سفلتهم عن صفته قرءوا ما كتبوه فيجدونه مخالفا لصفته ويكذبونه قال الله تعالى (فويل لهم مما كتبت أيديهم) يعني كتبوه بأنفسهم اختراعا من تغيير نعته صلى الله عليه وسلم (وويل لهم مما يكسبون) من المآكل ويقال من المعاصي (وقالوا) يعني اليهود (لن تمسنا النار) لن تصيبنا النار (إلا أياما معدودة) قدرا مقدرا ثم يزول عنا العذاب واختلفوا في هذه الأيام فقال

الأماني الأحاديث الكاذبة المختلفة وهي الأشياء التي كتبها علماؤهم من عند أنفسهم وأضافوها إلى الله تعالى وذلك من تغيير نعت النبي صلى الله عليه وسلم وصفته وغير ذلك ، وقيل هو من التمني وهو قولهم «لن تمسنا النار إلا أياما معدودة» وغير ذلك مما تمنوه فعلى هذا يكون المعنى لا يعلمون الكتاب لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم (وإن هم إلا يظنون) أي على يقين (فويل) الويل كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة وأصلها في اللغة العذاب والهلاك وقال ابن عباس الويل شدة العذاب وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب . الخريف سنة (للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) تأكيد للكتابة لأنه يحتمل أن يأمر غيره بأن يكتب فقال بأيديهم لنفي هذه الشبهة والمراد بالذين يكتبون الكتاب اليهود وذلك أن رؤساء اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فاحتالوا في تعويق سفلتهم عن الإيمان به فعمدوا إلى صفته في التوراة فغيروها وكانت صفته فيها حسن الوجه حسن الشعر أكحل العينين ربعة فغيروا ذلك وكتبوا مكانه طوال أزرق العينين سبط الشعر فكانوا إذا سألهم سفلتهم عن ذلك قرءوا عليهم ما كتبوا (ثم يقولون هذا من عند الله) يعني هذه الصفة التي كتبوها . فاذا نظروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى تلك وجدوه مخالفا لها فيكذبونه ويقولون إنه ليس به (ليشتروا به) أي بما كتبوا (ثمنا قليلا) أي المآكل والرشا التي كانوا يأخذونها من سفلتهم ، قال الله تعالى (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) . قوله عز وجل (وقالوا) أي اليهود (لن تمسنا) أي لن تصيبنا (النار إلا أياما معدودة) أي قدرا مقدرا ثم يزول عنا العذاب قال ابن عباس قالت اليهود مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما ثم ينقطع عنا العذاب بعد سبعة أيام وقيل إنهم عنوا بالأيام الأربعين يوما التي عبدوا فيها العجل وقيل إن اليهود زعموا أن الله تعالى عتب عليهم

ابن عباس ومجاهد كانت اليهود يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما واحدا ثم ينقطع العذاب بعد سبعة أيام. وقال قتادة وعطاء يعنون أربعين يوما التي عبد فيها آباؤهم العجل وقال الحسن وأبو العالية قالت اليهود إن ربنا عتب علينا في أمرنا فأقسم الله ليعذبنا أربعين يوما فلن تمسنا النار إلا أربعين يوما تحلة القسم فقال الله عز وجل تكذيبا لهم (قل) يا محمد (أتخذتم عند الله) ألف استفهام دخلت على ألف الوصل (عهدا) موثقا أن لا يعذبكم إلا هذه المدة (فلن يخلف الله عهده) وعده قال ابن مسعود عهدا بالتوحيد يدل عليه قوله تعالى «إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا» يعني قوله لا إله إلا الله (أم تقولون على الله مالا تعلمون) ثم قال (بلى) وبلى وبل حرفا استدراك ومعناهما نفي الخبر الماضي وإثبات الخبر المستقبل (من كسب سيئة) يعني الشرك (وأحاطت به خطيئته) قرأ أهل المدينة خطيئاته بالجمع ، والإحاطة الإحداق بالشيء من جميع نواحيه قال ابن عباس وعطاء والضحاك وأبو العالية والربيع وجماعة هي الشرك يموت عليه وقيل السيئة الكبيرة والإحاطة به أن يصر عليها فيموت غير تائب قاله عكرمة والربيع بن خيثم قال الواحدي رحمه الله في تفسيره الوسيط المؤمنون لا يدخلون في حكم هذه الآية لأن الله تعالى أوعد بالخلود في النار من أحاطت به خطيئته وتقدمت منه سيئة وهي الشرك، والمؤمن وإن عمل الكبائر لم يوجد منه الشرك وقال مجاهد هي الذنوب تحيط بالقلب كلما عمل ذنبا ارتفعت حتى يغشى القلب وهي الرين . قال الكلبي أوبقته ذنوبه دليله قوله تعالى «إلا أن يحاط بكم» أي تهلكوا (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) قوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل) في التوراة. والميثاق العهد الشديد (لا تعبدون إلا الله) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي لا يعبدون بالياء والآخرون بالتاء كقوله تعالى «وقولوا للناس حسنا» معناه أن لا تعبدوا فلما حذف أن صار الفعل مرفوعا وقرأ أبيّ بن كعب لا تعبدوا على النهي (وبالوالدين) أي ووصيناهم بالوالدين (إحسانا) برا بهما وعطفا عليهما ونزولا عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى (وذي القربى)

في أمر فأقسم ليعذبهم أربعين يوما تحلة القسم فقال الله ردا عليهم وتكذيبا لهم (قل) أي يا محمد لليهود (أتخذتم عند الله عهدا) أي موثقا أن لا يعذبكم إلا هذه المدة (فلن يخلف الله عهده) أي وعده (أم تقولون على الله مالا تعلمون؟ بلى) إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله لن تمسنا النار والمعنى بلى تمسكم النار أبدا (من كسب سيئة) السيئة اسم يتناول جميع المعاصي كبيرة كانت أو صغيرة . والسيئة هنا الشرك في قول ابن عباس (وأحاطت به خطيئته) أي أحدقت به من جميع جوانبه قال ابن عباس هي الشرك يموت عليه صاحبه وقيل أحاطت به أي أهلكته خطيئته وأحبطت ثواب طاعته فعلى مذهب أهل السنة يتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك لقوله تعالى (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فان الخلود في النار هو للكفار والمشركين (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) . فان قلت العمل الصالح خارج عن اسم الإيمان لأنه تعالى قال « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » فلو دل الإيمان على العمل الصالح لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكرارا . قلت أجاب بعضهم بأن الإيمان وإن كان يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة إلا أن قوله آمن لا يفيد إلا أنه فعل فعلا واحداً من أفعال الإيمان فلذا حسن أن يقول والذين آمنوا وعملوا الصالحات وقيل إن قوله آمنوا يفيد الماضي وعملوا الصالحات يفيد المستقبل فكأنه تعالى قال آمنوا أولا ثم داوموا عليه آخرا ويدخل فيه جميع الأعمال الصالحات (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) قوله عز وجل (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل) يعني في التوراة. والميثاق العهد الشديد (لا تعبدون إلا الله) أي أمر الله تعالى بعبادته فيدخل تحته النهي عن عبادة غيره لأن الله تعالى هو المستحق للعبادة لا غيره (وبالوالدين إحسانا) أي برا بهما ورحمة لهما ونزولا عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى ويوصل إليهما ما يحتاجان إليه ولا يؤذيهما البتة وإن كانا كافرين بل يجب عليه الإحسان إليهما ومن الإحسان إليهما أن يدعوهما إلى الإيمان بالرفق واللين وكذا إن كانا فاسقين يأمرهما بالمعروف بالرفق واللين من غير عنف وإنما عطف بر الوالدين على الأمر بعبادته لأن شكر المنعم واجب ولله على عبده أعظم النعم لأنه هو الذي خلقه وأوجده بعد العدم فيجب تقديم شكره على شكر غيره ثم إن للوالدين على الولد نعمة عظيمة لأنهما السبب في كون الولد ووجوده ثم أن لهما عليه حق التربية أيضاً فيجب شكرهما ثانيا (وذي القربى) أي القرابة لأن حق القرابة تابع لحق الوالدين والإحسان إليهم إنما هو بواسطة الوالدين فلهذا حسن عطف القرابة على

الوالدن

أى وبذى القرابة والقربى مصدر كالحسنى (واليتامى) جمع يتيم وهو الطفل الذى لاأب له (والمساكين) يعنى الفقراء (وقولوا للناس حسنا) صدقا وحقا فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم فمن سألكم عنه فأصدقوه وبينوا صفته ولا تكتموا أمره هذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وابن جريج ومقاتل وقال سفيان الثورى مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر وقيل هو اللين فى القول والمعاشرة بحسن الخلق قرأ حمزة والكسائى ويعقوب حسنا بفتح الحاء والسين أى قولا حسنا (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم) أعرضتم عن العهد والميثاق (إلا قليلا منكم) وذلك أن قوما منهم آمنوا (وأنتم معرضون) كاعراض آبائكم. قوله عز وجل (وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون) أى لاتريقون (دماءكم) أى لايسفك بعضكم دم بعض وقيل لا تسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) لايخرج بعضكم بعضا من داره وقيل لاتسيئوا جوار من جاوركم فتلجئوهم إلى الخروج بسوء جواركم (ثم أقررتم) بهذا العهد أنه حق وقبلتم (وأنتم تشهدون) اليوم على ذلك يامعشر اليهود وتعترفون بالقبول. قوله عز وجل (ثم أنتم هؤلاء) يعنى ياهؤلاء، وهؤلاء للتنبيه (تقتلون أنفسكم) أى يقتل بعضكم بعضا (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم) بتشديد الظاء أى تتظاهرون أدغمت التاء فى الظاء وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الظاء فحذفوا تاء التفاعل وأبقوا تاء الخطاب كقوله تعالى «ولا تعاونوا» معناهما جميعا تتعاونون، والظهير العون (بالإثم والعدوان) بالمعصية والظلم (وإن يأتوكم أسارى) قرأ حمزة أسرى وهما جمع أسير ومعناهما واحد (تفادوهم) بالمال وتنقذوهم وقرأ أهل المدينة وعاصم والكسائى ويعقوب تفادوهم أى تبادلوهم أراد مفاداة الأسير بالأسير وقيل معنى القراءتين واحد ومعنى الآية قال السدى إن الله تعالى أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة أن لايقتل بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه، وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج وكانوا يقتتلون فى حرب سنين فيقاتل بنو قريظة مع حلفائهم وبنو النضير مع حلفائهم وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم منها وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه وإن كان الأسير من عدوهم فتعيرهم العرب

الوالدين (واليتامى) جمع يتيم وهو الذى مات أبوه وهو طفل صغير فاذا بلغ الحلم زال عنه اليتم وتجب رعاية حقوق اليتيم لثلاثة أمور لصغره ويتمه وخلوه عمن يقوم بمصلحته إذ لايقدر هو أن ينتفع بنفسه ولا يقوم بحوائجه (والمساكين) جمع مسكين وسيأتى بيانه إن شاء الله تعالى وإنما تأخرت درجة المساكين عن اليتامى لأنه قد يمكن أن ينتفع بنفسه وينفع غيره بالخدمة (وقولوا للناس حسنا) فيه وجهان: أحدهما أنه خطاب للحاضرين من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فلهذا عدل من الغيبة إلى الحضور، والمعنى قولوا حقا وصدقا فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم فمن سألكم عنه فأصدقوه وبينوا صفته ولاتكتموها قاله ابن عباس. الوجه الثانى إن المخاطبين به هم الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام وأخذ عليهم الميثاق وإنما عدل من الغيبة إلى الحضور على طريق الالتفات كقوله «حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم» وقيل فيه حذف تقديره وقلنا لهم فى الميثاق وقولوا للناس حسنا ومعناه مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر وقيل هو اللين فى القول والعشرة وحسن الخلق (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ولما أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لهم المنزلة عنده بما التزموا به أخبر عنهم أنهم ماوفوا بذلك بقوله تعالى (ثم توليتم) أى أعرضتم عن العهد (إلا قليلا منكم) يعنى من الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه فانهم وفوا بالعهد (وأنتم معرضون) أى كاعراض آبائكم. قوله عز وجل (وإذ أخذنا ميثاقكم) قيل هو خطاب لمن كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم من اليهود وقيل هو خطاب لآبائهم وفيه تقريع لهم (لاتسفكون) أى لاتريقون (دماءكم) أى لايسفك بعضكم دم بعض وقيل معناه لاتسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكأنكم أنتم سفكتم دماء أنفسكم (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لايخرج بعضكم بعضا من داره، وقيل لاتفعلوا شيئا فتخرجوا بسببه من دياركم (ثم أقررتم) أى بهذا العهد أنه حق (وأنتم تشهدون) يعنى أنتم يامعشر اليهود اليوم تشهدون على ذلك (ثم أنتم هؤلاء) يعنى ياهؤلاء اليهود (تقتلون أنفسكم) أى يقتل بعضكم بعضا (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) أى يخرج بعضكم بعضا من ديارهم (تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان) أى تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم (وإن يأتوكم أسارى) جمع أسير (تفادوهم) أى بالمال وهو استنقاذهم بالشراء وقرىء تفادوهم أى تبادلهم وهو مفادة الأسير بالأسير ومعنى الآية أن الله تعالى أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة أن لايقتل

ويقولون كيف تقاتلونهم وتفدونهم قالوا إنا أمرنا أن نفديهم فيقولون فلم تقاتلوهم قالوا إنا نستحى أن تذل حلفاؤنا فعيرهم الله تعالى فقال « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » وفى الآية تقديم وتأخير ونظمها وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان (وهو محرم عليكم إخراجهم) وإن يأتوكم أسارى تفادوهم فكان الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود ترك القتال وترك الإخراج وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم وفداء أسرائهم فأعرضوا عن الكل إلا الفداء قال الله تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) قال مجاهد يقول إن وجدته فى يد غيرك فديته وأنت تقتله بيدك (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) يا معشر اليهود (إلا خزي) عذاب وهوان (فى الحياة الدنيا) فكان خزى بنى قريظة القتل والسبى وخزى بنى النضير الجلاء والنفى من منازلهم إلى أذرعات وأريحاء من الشام (ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) وهو عذاب النار (وما الله بغافل عما تعملون) قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالياء والباقون بالتاء. قوله عز وجل (أولئك الذين اشتروا) استبدلوا (الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف) يهون (عنهم العذاب ولا هم ينصرون) لايمنعون من عذاب الله عز وجل. قوله تعالى (ولقد آتينا) أعطينا (موسى الكتاب) التوراة جملة واحدة (وقفينا) وأتبعنا (من بعده بالرسل) رسولا بعد رسول (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) الدلالات الواضحات والقدس

وهى ماذكر الله فى سورة آل عمران والمائدة وقيل أراد الإنجيل (وأيدناه) قويناه (بروح القدس) قرأ ابن كثير القدس بسكون الدال والآخرون بضمها وهما لغتان مثل الرعب والرعب واختلفوا فى روح القدس قال الربيع وغيره أراد الروح الذى نفخ فيه والقدس هو الله أضافة إلى نفسه تكريما وتخصيصا أى التى نفخ فيه نحو بيت الله وناقة الله كما قال فنفخنا فيه من روحنا

بعضهم بعضا ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم وأيما عبد أو أمة من بنى إسرائيل وجدتموه فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه وكانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج وكان بين الأوس والخزرج حروب فكانت بنو النضير تقاتل مع حلفائهم وبنو قريظة تقاتل مع حلفائهم فإذا غلب أحد الفريقين أخرجوهم من ديارهم وخربوها وكان إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالا يفدونه به فعيرتهم العرب وقالوا كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم فقالوا إنا أمرنا أن نفديهم فقالوا كيف تقاتلونهم فقالوا إنا نستحى أن تذل حلفاؤنا فعيرهم الله تعالى فقال ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وفى الآية تقديم وتأخير تقديره وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان (وهو محرم عليكم إخراجهم) وإن يأتوكم أسارى تفدوهم فكان الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود ترك القتل وترك الإخراج وترك المظاهر مع أعدائهم وفك أسراهم فأعرضوا عن الكل إلا الفداء قال الله عز وجل (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) معناه إن وجدتموهم فى يد غيركم فديتموهم وأنتم تقتلونهم بأيديكم فكان إيمانهم الفداء وكفرهم قتل بعضهم بعضا فذمهم على مناقضة أفعالهم لا على الفداء لأنهم أتوا ببعض ماوجب عليهم وتركوا البعض (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) يعنى يامعشر اليهود (إلا خزى فى الحياة الدنيا) أى عذاب وهوان فكان خزى بنى قريظة القتل والسبى وخزى بنى النضير الأجلاء والنفى من منازلهم إلى أريحاء وأذرعات من أرض الشام (ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) يعنى عذاب النار (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد وتهديد عظيم (أولئك الذين اشتروا) أى استبدلوا (الحياة الدنيا بالآخرة) لأن الجمع بين لذات الدنيا والآخرة غير ممكن فمن اشتغل بتحصيل لذات الدنيا فاتته لذات الآخرة (فلا يخفف عنهم العذاب) أى فلا يهون عليهم (ولا هم ينصرون) أى ولا يمنعون من عذاب الله تعالى. قوله عز وجل (ولقد آتينا) أى أعطينا (موسى الكتاب) يعنى التوراة جملة واحدة (وقفينا) أى وأتبعنا من التقفية وهو أن يقفو أثر الآخر (من بعده بالرسل) يعنى رسولا بعد رسول وكانت الرسل بعد موسى إلى زمن عيسى عليهم السلام متواترة يظهر بعضهم فى أثر بعض والشريعة واحدة: قيل إن الرسل بعد موسى يوشع بن نون وأشمويل وداود وسليمان وأرمياء وحزقيل وإلياس ويونس وزكرياء ويحيى وغيرهم وكانوا يحكمون بشريعة موسى إلى أن بعث الله تعالى عيسى عليه السلام فجاءهم بشريعة جديدة وغير بعض أحكام التوراة فذلك قوله تعالى (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) أى الدلالات الواضحات وهى المعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وقيل هى الإنجيل. واسم عيسى بالسريانية أيشرع ومريم بمعنى الخادم وقيل هو اسم علم لها كزيد من الرجال (وأيدناه) أى قويناه (بروح القدس) قيل أراد بالروح الذى نفخ فيه

وروح منه وقيل أراد بالقدس الطهارة يعنى الروح الطاهرة سمى روحه قدسا لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث إنما كان أمرا من أمر الله تعالى قال قتادة والسدى والضحاك روح القدس جبريل عليه السلام . وقيل وصف جبريل بالقدس أى بالطهارة لأنه لم يقترف ذنبا وقال الحسن القدس هو الله وروحه جبريل قال الله تعالى «قل نزله روح القدس من ربك بالحق» وتأييد عيسى بجبريل عليهما السلام أنه أمر أن يسير معه حيث سار حتى صعد به إلى السماء وقيل سمى جبريل عليه السلام روحا للطافته ولمكانته من الوحى الذى هو سبب حياة القلوب وقال ابن عباس وسعيد بن جبير روح القدس هو اسم الله تعالى الأعظم الذى كان يحيى به الموتى ويرى الناس العجائب وقيل هو الإنجيل جعل له روحا كما جعل القرآن روحا لمحمد ﷺ لأنه سبب حياة القلوب وقال الله تعالى «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا» فلما سمعت اليهود ذكر عيسى عليه السلام فقالوا : يامحمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ولا كما يقص علينا من الأنبياء فعلت فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقا ، قال الله تعالى (أفكلما جاءكم) يامعشر اليهود (رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم) تكبرتم وتعظمتم عن الإيمان (ففريقا) طائفة (كذبتم) مثل عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم (وفريقا تقتلون) أى قتلتم مثل زكريا ويحيى وشعيا وسائر من قتلوا من الأنبياء عليهم السلام (وقالوا) يعنى اليهود (قلوبنا غلف) جمع أغلف وهو الذى عليه غشاوة معناه عليها غشاوة فلا تسمع ولا تفقه مايقول قال مجاهد وقتادة نظيره قوله تعالى «وقالوا قلوبنا فى أكنة» وقرأ ابن عباس غلف بضم اللام وهى قراءة الأعرج وهى جمع غلاف أى قلوبنا أوعية لكل علم فلا تحتاج إلى علمك قاله ابن عباس وعطاء وقال الكلبى معناه أوعية لكل علم فهى لا تسمع حديثا إلا وعته إلا حديثك لا تعقله ولا تعيه ولو كان فيه خير لوعته وفهمته قال الله عز وجل (بل لعنهم الله) طردهم الله وأبعدهم عن كل خير (بكفرهم فقليلا مايؤمنون) قال قتادة معناه لا يؤمن منهم إلا قليل لأن من آمن من المشركين أكثر ممن آمن من اليهود أى فقليلا يؤمنون ونصب قليلا على الحال. وقال معمر لا يؤمنون إلا بقليل مما فى أيديهم ويكفرون بأكثره أى فقليل يؤمنون ونصب قليلا بنزع الخافض وما صلة على قولهما وقال الواقدى معناه لا يؤمنون لا قليلا ولا كثيرا كقول الرجل للآخر ما أقل ماتفعل كذا أى لا تفعله أصلا (ولما جاءهم كتاب من عند الله) يعنى القرآن (مصدق) موافق (لما معهم) يعنى التوراة

والقدس هو الله تعالى وأضاف روح عيسى إليه تشريفا وتكريما وتخصيصا له كما تقول عبد الله وأمة الله وبيت الله وناقة الله وقال ابن عباس هو اسم الله الأعظم الذى كان عيسى يحيى به الموتى وقيل هو الإنجيل لأنه حياة القلوب سماه روحا كما سمى القرآن روحا وقيل هو جبريل ووصف بالقدس وهو الطهارة لأنه لم يقترف ذنبا قط وقيل القدس هو الله تعالى والروح جبريل كما تقول عبد الله ، سمى جبريل روحا للطافته لأنه روحانى خلق من النور وقيل سمى روحا لمكانه من الوحى الذى هو سبب حياة القلوب وحمل روح القدس هنا على جبريل أولى لأنه تعالى قال وأيدناه أى قويناه بجبريل وذلك أنه أمر أن يكون مع عيسى ويسير معه حيث سار فلم يفارقه حتى صعد به إلى السماء فلما سمعت اليهود بذكر عيسى قالوا يامحمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ولا كما يقص علينا من أخبار الأنبياء فعلت فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقا قال الله تعالى (أفكلما جاءكم) يعنى يامعشر اليهود (رسول بما لا تهوى) تقبل (أنفسكم استكبرتم) أى تعظمتم عن الإيمان به (ففريقا كذبتم) يعنى مثل عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم (وفريقا تقتلون) يعنى مثل زكريا ويحيى وسائر من قتلوه ، وذلك أن اليهود كانوا إذا جاءهم رسول بما لا يهوون كذبوه فان تهيأ لهم قتله قتلوه وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الدنيا وطلب الرياسة (وقالوا) يعنى اليهود (قلوبنا غلف) جمع أغلف وهو الذى عليه غشاوة فلا يعى ولا يفقه . قال ابن عباس غلف بضم اللام جمع غلاف والمعنى أن قلوبنا أوعية للعلم فلا تحتاج إلى علمك وقيل أوعية من الوعى لا تسمع حديثا إلا وعته إلا حديثك فانها لا تعيه ولا تعقله ولو كان خيرا لفهمته ووعته قال الله تعالى (بل لعنهم الله بكفرهم) أى طردهم وأبعدهم من كل خير . وسبب كفرهم أنهم اعترفوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم إنهم أنكروه وجحدوه فلهذا لعنهم الله تعالى (فقليلا مايؤمنون) أى لم يؤمن منهم إلا قليل لأن من آمن من المشركين كان أكثر منهم . قوله عز وجل (ولما جاءهم كتاب من عند الله) يعنى القرآن (مصدق لما معهم) يعنى التوراة وهذا التصديق فى صحة نبوة

(وكانوا) يعني اليهود (من قبل) من قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم (يستفتحون) يستنصرون (على الذين كفروا) على مشركي العرب وذلك أنهم كانوا يقولون إذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد صفته فى التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم (فلما جاءهم ما عرفوا) يعنى محمدا ﷺ من غير بنى إسرائيل وعرفوا نعته وصفته (كفروا به) بغيا وحسدا (فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم) بئس ونعم فعلان ماضيان وضعا للمدح والذم لا يتصرفان تصرف الأفعال معناه بئس الذى اختاروا لأنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق وقيل الاشتراء ههنا بمعنى البيع والمعنى بئس ما باعوا به حظ أنفسهم أى اختاروا الكفر وبذلوا أنفسهم للنار (أن يكفروا (٨٢) بما أنزل الله) يعنى القرآن (بغيا) أى حسدا وأصل البغي الفساد يقال بغى الجرح إذا فسد والبغى الظلم وأصله الطلب والباغى طالب الظلم والحاسد يظلم المحسود جهده طلبا لإزالة نعمة الله تعالى عنه (أن ينزل الله من فضله) أى النبوة والكتاب (على من يشاء من عباده) محمد ﷺ قرأ أهل مكة والبصرة ينزل وبابه بالتخفيف إلا فى سبحان الذى فى موضعين وننزل من القرآن وحتى تنزل علينا كتابا نقرؤه. فان ابن كثير يشددهما وشدد البصريون فى الأنعام على أن ينزل آية زاد يعقوب تشديد بما ينزل فى النحل ووافق حمزة والكسائى فى تخفيف وينزل الغيث فى سورة لقمان وحمعسق، والآخرون يشددون الكل ولم يختلفوا فى تشديد وما ننزله إلا بقدر فى الحجر (فباءوا) رجعوا (بغضب على غضب) أى مع غضب، قال ابن عباس ومجاهد الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلهم، والثانى بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن، وقال قتادة الأول بكفرهم بعيسى والإنجيل، والثانى بكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن وقال السدى الأول بعبادة العجل، والثانى بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم (وللكافرين) الجاحدين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم (عذاب مهين) مخز يهانون فيه. قوله عز وجل (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) يعنى القرآن (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) يعنى التوراة يكفينا ذلك (ويكفرون بما وراءه) أى بما سواه من الكتب كقوله عز وجل «فمن ابتغى وراء ذلك» أى سواه وقال أبو عبيدة بما بعده (وهو الحق) يعنى القرآن (مصدقا) نصب على الحال (لما معهم) من التوراة (قل) لهم يا محمد (فلم تقتلون) أى قتلتم (أنبياء الله من قبل) ولم أصله لما فحذفت الألف فرقا بين

محمد صلى الله عليه وسلم لأن نبوته وصفته ثابتة فى التوراة (وكانوا) يعنى اليهود (من قبل) أى من قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم (يستفتحون) أى يستنصرون به (على الذين كفروا) يعنى مشركى العرب وذلك أنهم كانوا إذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو يقولون: اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد صفته فى التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم (فلما جاءهم ما عرفوا) أى الذى عرفوه يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم عرفوا نعته وصفته وأنه من غير بنى إسرائيل (كفروا به) أى جحدوه وأنكروه بغياً وحسداً (فلعنة الله على الكافرين بئسما اشتروا به أنفسهم) أى بئس شىء اشتروا به أنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق واشتروا بمعنى باعوا والمعنى بئس ما باعوا به حظ أنفسهم (أن يكفروا بما أنزل الله) يعنى القرآن (بغيا) أى حسدا (أن ينزل الله من فضله) يعنى الكتاب والنبوة (على من يشاء من عباده) يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم (فباءوا) أى فرجعوا (بغضب على غضب) أى مع غضب قال ابن عباس الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلها والثانى بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقيل الأول بكفرهم بعيسى والإنجيل والثانى بمحمد ﷺ والقرآن. وقيل الأول بعبادتهم العجل والثانى بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (وللكافرين) يعنى الجاحدين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم (عذاب مهين) أى يهانون فيه (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) يعنى بالقرآن وقيل بكل ما أنزل الله (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) يعنى التوراة وما أنزل على أنبيائهم (ويكفرون بما وراءه) أى بما سواه من الكتب وقيل بما بعده يعنى الإنجيل والقرآن (وهو الحق) يعنى القرآن (مصدقا لما معهم) يعنى التوراة (قل) يا محمد (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل) إنما أضاف القتل للمخاطبين من اليهود وإن كان سلفهم قتلوا لأنهم رضوا بفعلهم قيل إذا عملت المعصية فى الأرض فمن كرهها وأنكرها

الخبر والاستفهام كقولهم فيم وبم (إن كنتم مؤمنين) بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء عليهم السلام. قوله عز وجل (ولقد جاءكم موسى بالبينات) بالدلالات الواضحة والمعجزات الباهرة (ثم اتخذتم العجل من بعده) أى من بعد انطلاقه إلى الجبل (وأنتم ظالمون. وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) أى استجيبوا وأطيعوا سميت الطاعة والإجابة سمعا على المجاز لأنه سبب للطاعة والإجابة (قالوا سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك وقيل سمعنا بالأذن وعصينا بالقلوب. قال أهل المعانى إنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكن لما سمعوه وتلقوه بالعصيان نسب ذلك إلى القول اتساعا (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) أى حب العجل أى معناه أدخل فى قلوبهم حب العجل وخالطها كاشراب اللون لشدة الملازمة يقال فلان أشرب اللون إذا اختلط بياضه بالحمرة. وفى القصص أن موسى أمر أن يبرد العجل

بالمبرد ثم يذره فى النهر وأمرهم بالشرب منه فمن بقى فى قلبه شىء من حب العجل ظهرت سحالة الذهب على شاربه. قوله عز وجل (قل بئسما يأمركم به إيمانكم) أن تعبدوا العجل من دون الله، أى بئس إيمان يأمر بعبادة العجل (إن كنتم مؤمنين) بزعمكم وذلك أنهم قالوا نؤمن بما أنزل علينا فكذبهم الله عز وجل. قوله تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله) وذلك أن اليهود ادعوا دعاوى باطلة مثل قولهم: «لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى» وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه «فكذبهم» الله عز وجل وألزمهم الحجة فقال قل لهم يا محمد إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله يعنى الجنة (خالصة) أى خاصة (من دون الناس فتمنوا الموت) أى فأريدوه أو اسألوه لأن من علم أن الجنة مأواه حن إليها ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت فاستعجلوه بالتمنى (إن كنتم صادقين) فى قولكم. وقيل فتمنوا الموت أى ادعوا بالموت على الفرقة الكاذبة، وروى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال «لو تمنوا الموت لغسل كل إنسان منهم بريقه وما بقى على وجه الأرض يهودى إلا مات» قال الله تعالى (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم) لعلمهم أنهم فى دعواهم كاذبون وأراد بما قدمت أيديهم ما قدموه من الأعمال وأضاف العمل إلى اليد لأن أكثر جنايات الإنسان تكون باليد فأضيف إلى اليد أعماله وإن لم يكن لليد فيها عمل (والله عليم بالظالمين ولتجدنهم) اللام لام القسم والنون تأكيد للقسم تقديره والله لتجدنهم يا محمد، يعنى اليهود

برئ منها ومن رضيها كان من أهلها (إن كنتم مؤمنين) أى بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء. قوله عز وجل (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى بالدلالات الواضحة والمعجزات الباهرة (ثم اتخذتم العجل من بعده) أى من بعد موسى لما ذهب إلى الميقات (وأنتم ظالمون) إنما كرره تبكيتا لهم وتأكيداً للحجة عليهم (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) أى استجيبوا وأطيعوا أى فيما أمرتم به (قالوا سمعنا) يعنى قولك (وعصينا) يعنى أمرك وقيل إنهم لم يقولوا بألسنتهم ولكن لما سمعوه وتلقوه تلقوه بالعصيان فنسب ذلك إليهم (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) أى تداخل حبه فى قلوبهم والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ فى الثوب. وقيل إن موسى أمر أن يبرد العجل ويذرى فى النهر وأمرهم أن يشربوا منه فمن بقى فى قلبه شىء من حب العجل ظهر سحالة الذهب على شاربه (قل بئسما يأمركم به إيمانكم) أى بأن تعبدوا العجل والمعنى بئس الإيمان إيمان يأمر بعبادة العجل (إن كنتم مؤمنين) أى بزعمكم وذلك أنهم قالوا نؤمن بما أنزل علينا فكذبهم الله تعالى بذلك فى قوله تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس) وذلك أن اليهود ادعوا دعاوى باطلة منها قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وقولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه فكذبهم الله وألزمهم الحجة فقال قل يا محمد لليهود إن كانت لكم الدار الآخرة يعنى الجنة خالصة لكم دون الناس (فتمنوا الموت) أى فاطلبوه واسألوه لأن من علم أن الجنة مأواه وأنها له حن إليها ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت فاستعجلوه بالتمنى (إن كنتم صادقين) أى فى قولكم ودعواكم. روى ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه وما بقى على وجه الأرض يهودى إلا مات» قال الله تعالى (ولن يتمنوه أبداً) أى لعلمهم أنهم فى دعواهم كاذبون (بما قدمت أيديهم) يعنى من الأعمال السيئة وإنما أضاف العمل إلى اليد لأن أكثر جنايات الإنسان تكون من يده (والله عليم بالظالمين) فيه تخويف وتهديد لهم وإنما خصهم بالظلم لأنه أعم من الكفر لأن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافرا فلهذا كان أعم وكانوا أولى به (ولتجدنهم) اللام للقسم والنون للتوكيد تقديره والله لتجدنهم يا محمد

(أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا) قيل هو متصل بالأول أى وأحرص من الذين أشركوا . وقيل تم الكلام بقوله على حياة ثم ابتدأ ومن الذين أشركوا وأراد بالذين أشركوا المجوس قال أبو العالية والربيع سموا مشركين لأنهم يقولون بالنور والظلمة (يود) يريد ويتمنى (أحدهم لو يعمر ألف سنة) يعنى تعمير ألف سنة وهى تحية المجوس فيما بينهم يقولون عش ألف سنة وكل ألف نيروز ومهرجان يقول الله تعالى : اليهود أحرص على الحياة من المجوس الذين يقولون ذلك (وما هو بمزحزحه) مباعده (من العذاب) من النار (أن يعمر) أى طول عمره لايبعده من العذاب وزحزح لازم ومتعد يقال زحزحته فتزحزح وزحزحته فزحزح (والله بصير بما يعملون) قرأ يعقوب بالتاء والباقون بالياء . قوله عز وجل (قل من كان عدوا لجبريل) قال ابن عباس رضى الله عنهما إن حبرا من أحبار اليهود يقال له عبد الله بن صوريا قال للنبى صلى الله عليه وسلم أى ملك يأتيك من السماء قال جبريل قال ذلك عدونا من الملائكة ولو كان ميكائيل لآمنا بك إن جبريل ينزل بالعذاب والقتال والشدة وإنه عادانا مرارا كان أشد ذلك علينا أن الله تعالى أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب على يد رجل يقال له بختنصر وأخبرنا بالحين الذى يخرب فيه فلما كان وقته بعثنا رجلا من أقوياء بنى إسرائيل فى طلبه ليقتله فانطلق حتى لقيه ببابل غلاما مسكينا فأخذه ليقتله فدفع عنه جبريل وكبر بختنصر وقوى وغزانا وخرب بيت المقدس فلهذا نتخذه عدوا فأنزل الله هذه الآية . وقال مقاتل قالت اليهود إن جبريل عدونا لأنه أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا . وقال قتادة وعكرمة والسدى كان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه أرض بأعلى المدينة وممرها على مدارس اليهود فكان إذا أتى أرضه يأتيهم ويسمع منهم فقالوا له مافى أصحاب محمد أحب إلينا منك ، إنهم يمرون بنا فيؤذوننا وأنت لاتؤذينا وإنا لنطمع فيك فقال عمر والله ماآتيكم لحبكم ولا أسألكم لأنى شاك فى دينى وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم فقالوا من صاحب محمد الذى يأتيه من الملائكة قال جبريل فقالوا ذاك عدونا يطلع محمدا على سرنا وهو صاحب كل عذاب وخسف وسنة وشدة وإن ميكائيل إذا جاء جاء بالخصب والسلم فقال لهم عمر تعرفون جبريل وتنكرون محمدا قالوا نعم قال فأخبرونى عن منزلة جبريل وميكائيل من الله عز وجل قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وميكائيل عدو لجبريل قال عمر فانى أشهد أن من كان عدوا لجبريل فهو عدو لميكائيل ومن كان عدوا لميكائيل فانه

يعنى اليهود (أحرص الناس على حياة) أى حياة متطاولة ، والحرص أشد الطلب (ومن الذين أشركوا) قيل هو متصل بما قبله ومعطوف عليه والمعنى وأحرص من الذين أشركوا . فان قلت الذين أشركوا قد دخلوا تحت الناس فى قوله أحرص الناس فلم أفردهم بالذكر ؟ قلت أفردهم بالذكر لشدة حرصهم وفيه توبيخ عظيم لليهود لأن الذين لا يؤمنون بالمعاد ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا لايستبعد حرصهم عليها فاذا زاد عليهم فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالبعث والجزاء كان حقيقا بالتوبيخ العظيم وقيل إن الواو واو استئناف تقديره ومن الذين أشركوا أناس (يود أحدهم) وهم المجوس سموا بذلك لأنهم يقولون بالنور والظلمة يود أى يتمنى أحدهم (لو يعمر ألف سنة) أى تعمير ألف سنة وإنما خص الألف لأنها نهاية العقود ولأنها تحية المجوس فيما بينهم يقولون زه هزار سال أى عش ألف سنة أو ألف نيروز أو ألف مهرجان فهذه تحيتهم . والمعنى أن اليهود أحرص من المجوس الذين يقولون ذلك (وما هو بمزحزحه) أى بمباعده (من العذاب) أى النار (أن يعمر) أى لو عمر طول عمره لاينقذه من العذاب (والله بصير بما يعملون) أى لايخفى عليه خافية من أحوالهم . قوله عز وجل (قل من كان عدوا لجبريل) قال ابن عباس سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن صوريا حبر من أحبار اليهود قال للنبى صلى الله عليه وسلم أى ملك يأتيك من السماء ؟ قال جبريل قال ذلك عدونا ولو كان ميكائيل لآمنا بك إن جبريل ينزل بالعذاب والشدة والخسف وإنه عادانا مرارا وأشد ذلك علينا أن الله أنزل على نبينا أن بيت المقدس سيخرب على يد رجل يقال له بختنصر فلما كان زمنه بعثنا من يقتله فلقيه ببابل غلاما مسكينا فأخذه ليقتله فدفع عنه جبريل وقال إن كان الله أمره بهلاككم فلن تسلط عليه وإن لم يكن هو فعلى أى حق تقتله فلما كبر ذلك الغلام وقوي غزانا وخرب بيت المقدس فلهذا نتخذه عدوا فأنزل الله هذه الآية وقيل قالوا إن الله أمره أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا فاتخذناه عدوا . وقيل إن عمر بن الخطاب كان له أرض بأعلى المدينة وكان ممره إليها على مدارس اليهود فكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا يوما مافى أصحاب محمد أحب

عدو لجبريل ومن كان عدوا لهما كان الله عدوا له ثم رجع عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد جبريل قد سبقه بالوحى فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات فقال لقد وافقك ربك ياعمر فقال عمر لقد رأيتنى بعد ذلك فى دين الله أصلب من الحجر. قال الله تعالى: قل من كان عدوا لجبريل (فانه) يعنى جبريل (نزله) يعنى القرآن كناية عن غير مذكور (على قلبك) يامحمد (باذن الله) بأمر الله (مصدقا) موافقا (لما بين يديه) لما قبله من الكتب (وهدى وبشرى للمؤمنين) قوله عز وجل (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) (٨٥) خصهما بالذكر من جملة الملائكة مع دخولهما فى قوله وملائكته تفضيلا وتخصيصا كقوله تعالى «فيهما فاكهة ونخل ورمان» خص النخل والرمان بالذكر مع دخولهما فى ذكر الفاكهة للتفضيل والواو فيهما بمعنى أو، يعنى من كان عدوا لأحد هؤلاء فانه عدو للكل لأن الكافر بالواحد كافر بالكل (فان الله عدو للكافرين) قال عكرمة جبر وميك وإسراف هى العبد بالسريانية وال وإيل هو الله تعالى ومعناهما عبدالله وعبد الرحمن وقرأ ابن كثير جبريل بفتح الجيم غير مهموز بوزن فعليل قال حسان:

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

وقرأ حمزة والكسائى بالهمزة والإشباع بوزن سلسبيل وقرأ أبو بكر بالاختلاس وقرأ الآخرون بكسر الجيم غير مهموز وميكائيل قرأ أبو عمرو ويعقوب وحفص ميكال بغير همز. قال جرير:

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد ... وبجبرائيل وكذبوا ميكال

وقال آخر:

ويوم بدر لقينا كم لنا مدد ... فيه مع نصر جبريل وميكال

وقرأ نافع وأهل المدينة بالهمزة والاختلاس بوزن ميكاعل وقرأ الآخرون بالهمزة والإشباع بوزن ميكاعيل. قال ابن

أحب إلينا منك وإنا لنطمع فيك فقال عمر والله ما آتيكم لحبكم ولا أسألكم لأنى شاك فى دينى وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم فقالوا من صاحب محمد الذى يأتيه من الملائكة قال جبريل قالوا ذلك عدونا يطلع محمدا على سرنا وهو صاحب كل عذاب وخسف وشدة وإن ميكائيل يجىء بالخصب والسلامة فقال لهم تعرفون جبريل وتنكرون محمدا صلى الله عليه وسلم قالوا نعم قال فأخبرونى عن منزلة جبريل وميكائيل من الله تعالى قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وميكائيل عدو لجبريل فقال عمر أشهد أن من كان عدوا لأحدهما كان عدوا للآخر ومن كان عدوا لهما كان عدوا لله ثم رجع عمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فوجد جبريل قد سبقه بالوحى فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات وقال: لقد وافقك ربك ياعمر، فقال عمر: والله لقد رأيتنى بعد ذلك فى دينى أصلب من الحجر. والأقرب أن سبب هذه العداوة كون جبريل كان ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم بالوحى لأن قوله: فانه نزله على قلبك مشعر بذلك وقوله (فانه نزله) يعنى جبريل نزل بالقرآن كناية عن غير مذكور (على قلبك) يامحمد وإنما خص القلب بالذكر لأنه محل الحفظ (باذن الله) أى بأمره (مصدقا) أى موافقا (لما بين يديه) أى لما قبله من الكتب (وهدى وبشرى للمؤمنين) أى فى القرآن هداية للمؤمنين إلى الأعمال الصالحة التى يترتب عليها الثواب وبشرى لهم بثوابها إذا أتوا بها (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) لما بين فى الآية الأولى أن من كان عدوا لجبريل لأجل أنه نزل بالقرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وجب أن يكون عدوا لله لأن الله تعالى هو الذى نزله على محمد بين فى هذه الآية أن كل من كان عدوا لأحد هؤلاء فانه عدو لجميعهم وبين أن الله عدوه بقوله (فان الله عدو للكافرين) فأما عداوتهم لله فانها لاتضره ولا تؤثر وعداوته لهم تؤديهم إلى العذاب الدائم الذى لاضرر أعظم منه وقيل المراد من عداوتهم لله وعداوتهم لأوليائه وأهل طاعته فهو كقوله «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله» أى يحاربون أولياء الله وأهل طاعته. وقوله وملائكته ورسله يعنى أن من عادى واحدا منهم فقد عادى جميعهم ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بجميعهم وجبريل وميكائيل إنما خصهما بالذكر وإن كانا داخلين فى جملة الملائكة لبيان شرفهما وفضلهما وعلو منزلتهما وقدم جبريل على ميكائيل لفضله عليه لأن جبريل ينزل بالوحى الذى هو غذاء الأرواح وميكائيل ينزل بالمطر الذى هو سبب غذاء الأبدان وجبريل وميكائيل اسمان أعجميان ومعناهما عبد الله وعبدالله لأن جبر وميك

صوريا ماجئتنا بشيء نعرفه فأنزل الله تعالى (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود
والأحكام (وما يكفر بها إلا الفاسقون) الخارجون عن أمر الله عز وجل (أو كلما) واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام
(عاهدوا عهدا) يعنى اليهود عاهدوا لئن خرج محمد لنؤمنن به فلما خرج إليهم محمد كفروا به قال ابن عباس رضى الله
عنهما لما ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأخذ الله عليهم وعهد إليهم فى محمد أن يؤمنوا به قال مالك بن الصيف والله
ماعهد إلينا عهدا فى محمد فأنزل الله

تعالى هذه الآية يدل عليه قراءة أبى رجاء العطاردى أو كلما
عوهدوا فجعلهم مفعولين
وقال عطاء هى العهود
التى كانت بين رسول
الله صلى الله عليه وسلم
وبين اليهود أن لايعاونوا
المشركين على قتاله
فنقضوها كفعل
بنى قريظة والنضير ، دليله
قوله تعالى «الذين عاهدت
منهم ثم ينقضون عهدهم»
(نبذه) طرحه ونقضه
(فريق) طوائف (منهم)
من اليهود (بل أكثرهم
لايؤمنون . ولما جاءهم
رسول من عند الله)
يعنى محمدا (مصدق لما
معهم نبذ فريق من
الذين أوتوا الكتاب
كتاب الله وراء ظهورهم)
يعنى التوراة وقيل القرآن
(كأنهم لايعلمون) قال
الشعبى كانوا يقرءون
التوراة ولا يعملون بها
وقال سفيان بن عيينة
أدرجوها فى الحرير
والديباج وحلوها بالذهب والفضة ولم يعملوا بها فذلك نبذهم (واتبعوا)

الملامة

يعنى اليهود (ماتتلوا الشياطين) أى ماتلت والعرب تضع المستقبل موضع الماضى والماضى موضع المستقبل وقيل ما كانت تتلو
أى تقرأ قال ابن عباس رضى الله عنه تتبع وتعمل به وقال عطاء تحدث وتتكلم به (على ملك سليمان) أى فى ملكه وعهده .
وقصة الآية أن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف بن برخيا هذا ماعلم آصف بن برخيا سليمان الملك ثم
دفنوها تحت مصلاه حتى نزع الله الملك عنه ولم يشعر بذلك سليمان فلما مات استخرجوها وقالوا للناس إنما ملككهم سليمان

بالسريانية هو العبد وإيل هو الله (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) قال ابن عباس هذا جواب لابن
صوريا حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يامحمد ماجئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك
من آية بينة فنتبعك بها فأنزل الله هذه الآيات ، ومعنى بينات واضحات مفصلات بالحلال والحرام
والحدود والأحكام (وما يكفر بها) أى وما يجحد بهذه الآيات (إلا الفاسقون) أى الخارجون
عن طاعتنا وما أمروا به (أو كلما عاهدوا عهدا) قال ابن عباس لما ذكرهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ماأخذ عليهم من العهود فى محمد صلى الله عليه وسلم وأن يؤمنوا به قال مالك بن الصيف والله
ماعهد إلينا فى محمد عهد فأنزل الله هذه الآية أوكلما استفهام إنكار عاهدوا عهدا هو قولهم إنه
قد أظل زمان نبى مبعوث وإنه فى كتابنا وقيل إنهم عاهدوا الله عهودا كثيرة ثم نقضوها (نبذه)
أى طرح العهد ونقضه (فريق منهم) يعنى اليهود (بل أكثرهم لايؤمنون) يعنى كفر فريق منهم
بنقض العهد وكفر فريق منهم بالجحد للحق (ولما جاءهم رسول من عند الله) يعنى محمدا صلى الله
عليه وسلم (مصدق لما معهم) يعنى مصدق بصحة التوراة ونبوة موسى عليه الصلاة والسلام وقيل
إن التوراة بشرت بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كان مجرد
مبعثه مصدقا للتوراة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم) قيل أراد
بالكتاب القرآن وقيل التوراة وهو الأقرب لأن النبذ لايكون إلا بعد التمسك ولم يتمسكوا بالقرآن
أما نبذهم التوراة فانهم كانوا يقرءونها ولا يعملون بها وقيل إنهم أدرجوها فى الحرير وحلوها
بالذهب ولم يعملوا بما فيها (كأنهم لايعلمون) يعنى أنهم نبذوا كتاب الله ورفضوه عن علم به
ومعرفة وإنما حملهم على ذلك عداوة النبى صلى الله عليه وسلم وهم علماء اليهود الذين كانوا فى زمن
النبى ﷺ وكتموا أمره وكان أولئك النفر قليلا . قوله عز وجل (واتبعوا ماتتلوا الشياطين) يعنى
اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ماتتلو الشياطين ومعنى تتلو تقرأ من التلاوة وقيل معناه تفترى
وتكذب (على ملك سليمان) وهو قولهم إن سليمان ملك الناس بالسحر وقيل على ملك سليمان أى
على عهده وزمانه . وقصة ذلك أن الشياطين كتبوا السحر والنيرنجيات على لسان آصف : هذا ماعلم
آصف بن برخيا سليمان الملك وكتبوه ودفنوه تحت كرسيه وذلك حين نزع الله عنه الملك ولم يشعر
بذلك وقيل إن بنى إسرائيل أشتغلوا بتعليم السحر فى زمانه فمنعهم سليمان من ذلك وأخذ كتبهم
ودفنها تحت سريره فلما مات استخرجها الشياطين وقالوا للناس إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه
فأما صلحاء بنى إسرائيل وعلماؤهم فأنكروا ذلك وقالوا معاذ الله أن يكون هذا العلم من علم
سليمان وأما السفلة منهم فقالوا هذا هو علم سليمان وأقبلوا على تعليمه وتركوا كتب أنبيائهم وفشت

بهذا فتعلموها فأما علماء بنى إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا معاذ الله أن يكون هذا من علم سليمان وأما السفلة فقالوا هـذا علم سليمان وأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم وفشت الملامة لسليمان فلم يزل هذا حالهم حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه براءة سليمان هذا قول الكلبى وقال السدى كانت الشياطين تصعد إلى السماء فيستمعون كلام الملائكة فيما يكون فى الأرض من موت وغيره فيأتون الكهنة ويخلطون بما سمعوا فى كل كلمة سبعين كذبة ويخبرونهم بها فاكتتب الناس ذلك وفشا فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب فبعث سليمان فى الناس وجمع تلك الكتب وجعلها فى صندوق ودفنه تحت كرسيه وقال لاأسمع أحدا يقول إن الشيطان يعلم الغيب إلا ضربت عنقه فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب وخلف من بعدهم خلف تمثل الشيطان على صورة إنسان فأتى نفرا من بنى إسرائيل فقال هل أدلكم على كنز لاتأكلونه أبدا قالوا نعم قال فاحفروا تحت الكرسى وذهب معهم فأراهم المكان وقام ناحية فقالوا ادن قال لا ولكن هاهنا فان لم تجدوه فاقتلونى وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسى إلا احترق فحفروا وأخرجوا تلك الكتب قال الشيطان إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطير بهذا ثم طار الشيطان وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحرا وأخذ بنو إسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر مايوجد السحر فى اليهود فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برأ الله تعالى سليمان من ذلك وأنزل فى عذر سليمان (وما كفر سليمان) بالسحر. وقيل لم يكن سليمان كافرا يسحر ويعمل به (ولكن الشياطين كفروا) قرأ ابن عباس رضى الله عنه والكسائى وحمزة ولكن خفيفة النون والشياطين رفع، وقرأ الآخرون ولكن مشددة النون والشياطين نصب وكذلك «ولكن الله قتلهم» «ولكن الله رمى» ومعنى لكن نفى الخبر الماضى وإثبات المستقبل (يعلمون الناس السحر) قيل معنى السحر العلم والحذق بالشىء قال الله تعالى «وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك» أى العالم، والصحيح أن السحر عبارة عن

الملامة لسليمان فلم تزل هذه حالهم إلى أن بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى «واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان (وما كفر سليمان)» يعنى بالسحر ولم يعمل به، وفيه تنزيه سليمان عن السحر، وذلك أن اليهود أنكروا نبوة سليمان وقالوا إنما حصل له هذا الملك وسخرت الجن والإنس له بسبب السحر وقيل إن السحرة من اليهود زعموا أنهم أخذوا السحر عن سليمان فبرأه الله من ذلك، وقيل إن بعض أحبار اليهود قال ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان كان نبيا وما كان إلا ساحرا فأنزل الله تعالى «وما كفر سليمان» يعنى أن سليمان كونه نبيا ينافى كونه ساحرا كافرا ثم بين الله تعالى أن الذى برأه منه لاحق بغيره فقال (ولكن الشياطين كفروا) يعنى أن الذين اتخذوا السحر لأنفسهم هم الذين كفروا ثم بين سبب كفرهم فقال تعالى (يعلمون الناس السحر) يعنى ما كتب لهم الشياطين من كتب السحر وقيل يحتمل أن يكون يعلمون يعنى اليهود الذين عنوا بقوله: واتبعوا. وسمى السحر سحرا لخفاء سببه فلا يفعل إلا فى خفية وقيل معنى السحر الإزالة وصرف الشىء عن وجهه تقول العرب ماسحرك عن كذا أى ماصرفك عنه فكأن الساحر لما رأى الباطل فى صورة الحق فقد سحر الشىء عن وجهه أى صرفه هذا أصله من حيث اللغة، وأما حقيقته فقد قيل إنه عبارة عن التمويه والتخييل، ومذهب أهل السنة أن له وجودا أو حقيقة والعمل به كفر وذلك إذا اعتقد أن الكواكب هى المؤثرة فى قلب الأعيان وروى عن الشافعى أنه قال السحر يخيل ويمرض وقد يقتل حتى أوجب القصاص على من قتل به وقيل إن السحر يؤثر فى قلب الأعيان فيجعل الإنسان على صورة الحمار والحمار على صورة الكلب وقد يطير الساحر فى الهواء وهذا القول ضعيف عند أهل السنة لأنهم قالوا إن الله تعالى هو الخالق الفاعل لهذه الأشياء عند عمل الساحر لذلك إلا أن الساحر هو الفاعل لها المؤثر فيها والأصح أن السحر يخيل ويؤثر فى الأبدان بالأمراض والجنون والموت ويدل على ذلك أن للكلام تأثيرا فى الطباع فقد يسمع الإنسان مايكره فيحم وقد مات قوم بكلام سمعوه فالسحر بمنزلة العلل فى الأبدان وأما حكمه فانه من الكبائر التى نهى عنها ويحرم تعلمه لما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «اجتنبوا السبع الموبقات قيل يارسول الله وماهن؟ قال الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم والزنا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» أخرجاه فى الصحيحين فعد رسول الله صلى الله عليه وسلم السحر من الكبائر وثناه بالشرك وأمرنا باجتنابه وقوله الموبقات يعنى المهلكات. والسحر على قسمين أحدهما يكفر به صاحبه وهو أن يعتقد أن القدرة لنفسه فى ذلك وهو المؤثر أو يعتقد

التمويه والتخييل والسحر . وجوده حقيقة عند أهل السنة وعليه أكثر الأمم ولكن العمل به كفر ؛ حكى عن الشافعى رضى الله عنه
أنه قال السحر يخيل ويمرض وقد يقتل حتى أوجب القصاص على من قتل به فهو من عمل الشيطان يتلقاه الساحر منه بتعليمه
إياه فاذا تلقاه منه بتعليمه إياه استعمله فى غيره . وقيل إنه يؤثر فى قلب الأعيان فيجعل الآدمى على صورة الحمار ويجعل
الحمار على صورة الكلب ، والأصح أن ذلك تخييل قال الله تعالى « يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » لكنه يؤثر فى الأبدان
بالأمراض والموت والجنون وللكلام (٨٨) تأثير فى الطباع والنفوس وقد يسمع الإنسان ما يكره فيحمى ويغضب
وربما يحم منه وقد مات قوم بكلام سمعوه فهو بمنزلة العوارض والعلل التى تؤثر فى الأبدان ، قوله عز وجل (وما أنزل على الملكين ببابل) أي ويعلمون الذى أنزل على الملكين ، أى إلهاما وعلما فالإنزال بمعنى الإلهام والتعليم ، وقيل واتبعوا ما أنزل على الملكين. وقرأ ابن عباس والحسن الملكين بكسر اللام . وقال ابن عباس هما رجلان ساحران كانا ببابل. وقال الحسن علجان لأن الملائكة لايعلمون السحر. وبابل هى بابل العراق سميت بابل لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود أى تفرقها . قال ابن مسعود بابل أرض الكوفة : وقيل جبل نهاوند والقراءة المعروفة على الملكين بالفتح ، فان قيل كيف يجوز تعليم
السحر من الملائكة ؟ قيل له تأويلان : أحدهما أنهما لايتعمدان التعليم لكن يصفان السحر ويذكران بطلانه بنى آدم
ويأمران باجتنابه ، والتعليم بمعنى الإعلام ، فالشقى يترك نصيحتهما ويتعلم السحر من صنعتهما . والتأويل الثانى وهو الأصح
أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين فى ذلك الوقت ، فمن شقى يتعلم السحر منهما فيكفر به ، ومن سعد يتركه فيبقى على الإيمان
ويزداد المعلمان بالتعليم عذابا ، ففيه ابتلاء للمعلم والمتعلم ، ولله أن يمتحن عباده بما شاء فله الأمر والحكم . قوله عز وجل
(هاروت وماروت) هما اسمان سريانيان وهما فى محل الخفض على تفسير الملكين إلا أنهما نصبا لعجمتهما ومعرفتهما وكانت

أن الكواكب هى المؤثرة الفعالة فاذا انتهى به السحر إلى هذه الغاية صار كافرا بالله تعالى
ويجب قتله لما روى عن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «حد الساحر ضربه بالسيف»
أخرجه الترمذى . والقسم الثانى من السحر وهو التخييل الذى يشاكل النيرنجيات والشعبذة ولا يعتقد
صاحبه لنفسه فيه قدرة ولا أن الكواكب هى المؤثرة ويعتقد أن القدرة لله تعالى وأنه هو المؤثر
فهذا القدر لا يكفر به صاحبه ولكنه معصية وهو من الكبائر ويحرم فعله فان قتل بسحره قتل
قصاصا لما روى عن مالك أنه بلغه أن حفصة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قتلت جارية لها سحرتها
وقد كانت دبرتها فأمرت بها فقتلت أخرجه فى الموطأ . قوله عز وجل (وما أنزل على الملكين) أى
ويعلمون الذى أنزل على الملكين والإنزال هنا بمعنى الإلهام والتعليم أى ما ألهما وعلما وقرىء
فى الشاذ الملكين بكسر اللام قال هما رجلان ساحران كانا ببابل وقيل علجان ووجهه أن الملائكة
لايعلمون السحر والقراءة المشهورة بفتح اللام. فان قلت كيف يجوز أن يضاف إلى الله تعالى إنزال
ذلك على الملائكة وكيف يجوز للملائكة تعليم السحر ؟ . قلت قال ابن جرير الطبرى إن الله تعالى عرف
عباده جميع ما أمرهم به وجميع ما نهاهم عنه ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه
ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر والنهى معنى مفهوم والسحر مما نهى عباده من بنى آدم
عنه فغير منكر أن يكون الله تعالى علمه الملكين اللذين سماهما فى تنزيله ، وجعلهما فتنة لعباده من بنى
آدم كما أخبر عنهما أنهم يقولان لمن جاء يتعلم ذلك منهما : إنما نحن فتنة فلا تكفر ليختبر بهما عباده
الذين نهاهم عن السحر وعن التفريق بين المرء وزوجه ، فيتمحض المؤمن بتركه التعلم منهما ويجرى
للكافر بتعلمه الكفر والسحر منهما ويكون الملكان فى تعليمهما ما علما من ذلك مطيعين لله تعالى
إذ كان عن إذن الله تعالى لهما بتعليم ذلك وغير ضارهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما بعد نهيهما إياه عنه
بقولهما إنما نحن فتنة فلا تكفر إذ كانا قد أديا ما أمرا به وقال غيره إنهما لا يتعمدان ذلك بل يصفان
السحر ويذكران بطلانه ويأمران باجتنابه فالشقى من ترك نصحهما وتعلم السحر من وصفهما
والسعيد من قبل نصحهما وترك تعلم السحر منهما . وقيل إن الله تعالى امتحن الناس بهما فى ذلك
الزمان فالشقى من تعلم السحر منهما فيكفر به والسعيد من تركه فيبقى على إيمانه ولله تعالى أن يمتحن
عباده بما شاء كما امتحن بنى إسرائيل بنهر طالوت بقوله «فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه
منى» (ببابل) قيل هى بابل العراق بأرض الكوفة سميت بذلك لتبلبل الألسنة بها عند سقوط
صرح نمرود وقيل إنها بابل نهاوند والأول أصح وأشهر (هاروت وماروت) اسمان سريانيان .
وقصة الآية على ما ذكره ابن عباس وغيره قالوا إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال

قصتهما على ماذكر ابن عباس والمفسرون أن الملائكة رأوا مايصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة فى زمن إدريس عليه السلام فعيروهم وقالوا هؤلاء الذين جعلتهم فى الأرض خليفة واخترتهم فهم يعصونك فقال الله تعالى لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ماركبت فيهم لارتكبتم مثل ماارتكبوا فقالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نعصيك قال الله تعالى فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم وقال الكلبى قال الله تعالى لهم اختاروا ثلاثة فاختاروا عزا وهو هاروت وعزايا وهو ماروت غير اسمهما لما قارفا الذنب وعزائيل فركب الله فيهم الشهوة وأهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر فأما عزائيل فانه لما وقعت الشهوة فى قلبه استقبل ربه وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله فسجد أربعين سنة لم يرفع رأسه ولم يزل بعد ذلك مطأطئا رأسه حياء من الله تعالى وأما الآخران فانهما ثبتا على ذلك وكانا يقضيان بين الناس يومهما فاذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا به إلى السماء قال قتادة فما مر عليهما شهر حتى افتتنا قالوا جميعا وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة وكانت من أجمل النساء ، قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه وكانت من أهل فارس وكانت ملكة فى بلدها فلما رأياها أخذت بقلوبهما فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلا مثل ذلك فأبت وقالت لا إلا أن تعبدا ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا لاسبيل إلى هذه الأشياء فان الله تعالى قد نهانا عنها فانصرفت ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفى أنفسهما من الميل إليها ما فيها فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ماقالت بالأمس فقالا الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة فزنيا فلما فرغا رآهما إنسان فقتلاه قال الربيع بن أنس وسجدا للصنم فمسخ الله الزهرة كوكبا وقال بعضهم جاءتهما امرأة من أحسن الناس تخاصم زوجا لها فقال

بنى آدم الخبيثة فى زمن إدريس عليه السلام عيروهم وقالوا هؤلاء الذين جعلتهم فى الأرض واخترتهم وهم يعصونك فقال الله تعالى لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ماركبت فيهم لركبتم مثل ماركبوا قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نعصيك قال الله تعالى فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم وكان اسم هاروت عزا وماروت عزايا فغير اسمهما لما قارفا الذنب وركب الله فيهما الشهوة وأهبطهما إلى الأرض وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر فكانا يقضيان بين الناس يومهما فاذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء فما مر عليهما شهر حتى افتتنا . وقيل بل افتتنا فى أول يوم وذلك أنه اختصم إليهما امرأة يقال لها الزهرة وكانت من أجمل أهل فارس وقيل كانت ملكة فلما رأياها أخذت بقلوبهما فقال أحدهما لصاحبه هل سقط فى نفسك مثل الذى سقط فى نفسى قال نعم فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلا مثل ذلك فأبت وقالت لا إلا أن تعبدا هذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا : لاسبيل إلى هذه الأشياء فان الله تعالى قد نهانا عنها فانصرفت ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح خمر وفى أنفسهما من الميل إليها مافيها فراوداها عن نفسها فعرضت عليهما ماقالت بالأمس فقالا : الصلاة لغير الله عظيم وقتل النفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا فلما انتشيا وقعا بالمرأة فزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاه خوف الفضيحة . وقيل إنهما سجدا للصنم وقيل جاءتهما امرأة من أحسن الناس تخاصم زوجها فقال أحدهما للآخر هل سقط فى نفسك مثل الذى سقط فى نفسى ؟ قال نعم قال هل لك أن تقضى لها على زوجها فقال له صاحبه أما تعلم ماعند الله من العقوبة والعذاب فقال له صاحبه أما تعلم ماعند الله من العفو والرحمة فسألاها نفسها فقالت : لاإلا أن تقضيا لى على زوجى فقضيا ثم سألاها نفسها فقالت لا إلا أن تقتلاه فقال أحدهما لصاحبه أما تعلم ماعند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه أما تعلم ماعند الله من العفو والرحمة؟ فقتلاه ثم سألاها نفسها فقالت : لا إلا أن لى صنما أعبده إن انتما صليتما معى عنده فعلت فقال أحدهما لصاحبه مثل القول الأول فرد عليه مثله فصليا معها عنده فمسخت شهابا . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه قالت لهم لن تدركانى حتى تخبرانى بالذى تصعدان به إلى السماء فقالا : اسم الله الأكبر قالت فما انتما بمدركى حتى تعلمانى إياه فقال أحدهما للآخر علمها فقال إنى أخاف الله فقال الآخر فأين رحمة الله فعلمها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكبا فذهب

أحدهما للآخر هل سقط فى نفسك مثل الذى سقط فى نفسى قال نعم فقال وهل لك أن تقضى لها على زوجها فقال له صاحبه أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب فقال له صاحبه أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة فسألاها عن نفسها فقالت لا إلا أن تقضيا لى على زوجى فقضيا لها ثم سألاها نفسها فقالت: لا إلا أن تقتلاه فقال أحدهما أما تعلم ماعند الله من العقوبة والعذاب فقال له صاحبه أما تعلم ماعند الله من العفو والرحمة فقتلاه ثم سألاها نفسها فقالت لا إلا أن لنا صنما نعبده إن أنتما صليتما معى عنده فعلت فقال أحدهما لصاحبه مثل القول الأول وقال صاحبه مثله فصليا معها فمسخت شهابا قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه والكلبى والسدى إنها قالت لهما لن تدركانى حتى تخبرانى بالذى تصعدان به إلى السماء فقالا باسم الله الأكبر قالت فما أنتما بمدركي حتى تعلمانيه فقال أحدهما لصاحبه علمها فقال إنى أخاف الله، قال الآخر فأين رحمة الله تعالى فعلماها ذلك فتكلمت به وصعدت إلى السماء فمسخها الله كوكبا وذهب بعضهم إلى أنها هى الزهرة بعينها وأنكر الآخرون هذا وقالوا إن الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التى أقسم الله بها فقال «فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس» والتى فتنت هاروت وماروت امرأة كانت تسمى الزهرة لجمالها فلما بغت مسخها الله تعالى شهابا قالوا فلما أمسى هاروت وماروت بعد ماقارفا الذنب هما بالصعود إلى السماء وقد فلم تطاوعهما أجنحتهما فعلما ما حل بهما فقصدا إدريس النبى عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عز وجل وقالا له إنا رأيناك يصعد لك من العبادات مثل مايصعد لجميع أهل الأرض فاستشفع لنا إلى ربك ففعل ذلك إدريس عليه السلام فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع فهما ببابل يعذبان واختلفوا فى كيفية عذابهما فقال عبد الله بن مسعود هما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة وقال عطاء بن أبى رباح رءوسهما

بعضهم إلى أنها هى الزهرة بعينها وأنكر آخرون ذلك وقالوا إن الزهرة من الكواكب السيارة السبعة التى أقسم الله بها فقال «فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس» والتى فتنت هاروت وماروت كانت امرأة تسمى الزهرة لجمالها وحسنها فلما بغت مسخها الله تعالى شهابا قالوا فلما أمسى هاروت وماروت بعد ماقارفا الذنب هما بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما فعلما ماحل بهما فقصدا إدريس النبى عليه السلام وأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله عز وجل وقالا له: رأينا يصعد لك من العبادة مثل مايصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى ربك ففعل ذلك إدريس فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا إذ علما أنه ينقطع فهما ببابل يعذبان قيل إنهما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة وقيل إنهما منكوسان يضربان بسياط الحديد وقيل إن رجلا قصدهما ليتعلم السحر فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة عيونهما مسودة جلودهما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا قدر أربع أصابع وهما يعذبان بالعطش فلما رأى ذلك هاله فقال: لا إله إلا الله فلما سمعا كلامه قالا لا إله إلا الله من أنت قال رجل من الناس فقالا من أي أمة أنت؟ قال من أمة محمد ﷺ قالا؟ أو قد بعث محمد صلى الله عليه وسلم قال نعم فقال الحمد لله وأظهر الاستبشار فقال الرجل مم استبشار كما؟ قالا إنه نبى الساعة وقد دنا إنقضاء عذابنا.

(فصل: فى القول بعصمة الملائكة) أجمع المسلمون على أن الملائكة معصومون فضلا واتفق أئمة المسلمين على أن حكم الرسل من الملائكة حكم النبيين سواء فى العصمة فى باب البلاغ عن الله عز وجل وفى كل شىء ثبتت فيه عصمة الأنبياء فكذلك الملائكة وأنهم مع الأنبياء فى التبليغ إليهم كالأنبياء مع أممهم ثم اختلفوا فى غير المرسلين من الملائكة فذهب طائفة من المحققين وجميع المعتزلة إلى عصمة جميع الملائكة عن جميع الذنوب والمعاصى واحتجوا على ذلك بوجوه سمعية وعقلية وذهب طائفة إلى أن غير المرسلين من الملائكة غير معصومين واحتجوا على ذلك بوجوه سمعية وعقلية منها قصة هاروت وماروت عن على وما نقله أهل الأخبار والسير ونقله ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن جماعة من الصحابة والتابعين فنقل قصة هاروت وماروت بألفاظ متقاربة عن على بن أبى طالب وابن مسعود وكعب الأحبار والسدى والربيع ومجاهد وأجاب من ذهب إلى عصمة جميع الملائكة عن قصة هاروت وماروت بأن مانقله المفسرون وأهل الأخبار فى ذلك لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء وهذه الأخبار إنما أخذت من اليهود وقد علم افتراؤهم على الملائكة والأنبياء

مصوبة تحت أجنحتهما وقال قتادة كبلا من أقدامهما إلى أصول أفخاذهما وقال مجاهد جعلا فى جب ملىء نارا وقال عمر بن سعد منكوسان يضربان بسياط الحديد وروى أن رجلا قصد هاروت وماروت لتعلم السحر فوجدهما معلقين بأرجلهما مزرقة أعينهما مسودة جلودهما ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربع أصابع وهما يعذبان بالعطش فلما رأى ذلك هاله مكانهما فقال لا إله إلا الله فلما سمعا كلامه قالا له من أنت قال رجل من الناس قالا من أى أمة قال من أمة محمد ﷺ قالا أوقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم قال نعم قالا الحمد لله وأظهر الاستبشار فقال الرجل (٩١) وبم استبشاركما قالا إنه نبى الساعة وقد دنا انقضاء عذابنا (وما يعلمان من أحد) أى أحدا ومن صلة (حتى) ينصحاه أولا (يقولا إنما نحن فتنة) ابتلاء ومحنة (فلا تكفر) أى لا تتعلم السحر فتعمل به فتكفر وأصل الفتنة الاختبار والامتحان من قولهم فتنت الذهب والفضة إذا أذبتهما بالنار ليتميز الجيد من الردىء وإنما وحد الفتنة وهما اثنان لأن الفتنة مصدر والمصادر لا تثنى ولا تجمع وقيل إنهما يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات قال عطاء والسدى فان أبى إلا التعلم قالا له ائت هذا الرماد فبل عليه فيخرج منه نور ساطع فى السماء فذلك نور المعرفة وينزل شىء أسود شبه الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى قال مجاهد إن هاروت وماروت لا يصل إليهما أحد ويختلف فيما بينهما شيطان فى كل مسألة اختلافة واحدة (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) وهو أن يؤخذ كل واحد عن صاحبه ويبغض كل واحد إلى صاحبه قال الله تعالى (وما هم) قيل أى السحرة وقيل الشياطين (بضارين به) أى بالسحر (من أحد) أى أحدا (إلا باذن الله) أى بعلمه وتكوينه فالساحر يسحر والله يكون. قال سفيان الثورى معناه إلا بقضائه وقدرته ومشيئته (ويتعلمون ما يضرهم) يعنى السحر يضرهم (ولا ينفعهم ولقد علموا) يعنى اليهود (لمن اشتراه) أى اختار السحر (ماله فى الآخرة) أى فى الجنة (من خلاق) من نصيب (ولبئس ما شروا به) باعوا به (أنفسهم) حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق (لو كانوا يعلمون)

وقد ذكر الله عز وجل فى هذه الآيات افتراء اليهود على سليمان أولا ثم عطف على ذلك قصة هاروت وماروت ثانيا قالوا ومعنى الآية وما كفر سليمان يعنى بالسحر الذى افتعله عليه الشياطين واتبعتهم فى ذلك اليهود فأخبر عن افترائهم وكذبهم ، وذكروا أيضا فى الجواب عن هذه القصة وأنها باطلة وجوها : الأول إن فى القصة أن الله تعالى قال للملائكة لو ابتليتم بما ابتليت به بنو آدم لعصيتمونى قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نعصيك وفيه رد على الله تعالى وذلك كفر وقد ثبت أنهم كانوا معصومين قبل ذلك فلا يقع هذا منهم . الوجه الثانى أنهما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وذلك فاسد لأن الله تعالى لا يخير من أشرك وإن كان قد صحت توبتهما فلا عقوبة عليهما . الوجه الثالث أن المرأة لما فجرت فكيف يعقل أنها صعدت إلى السماء وصارت كوكبا وعظم الله قدرها بحيث أقسم بها فى قوله « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس » فبان بهذه الوجوه ركة هذه القصة ، والله أعلم بصحة ذلك وسقمه . والأولى تنزيه الملائكة عن كل ما لا يليق بمنصبهم وقوله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا) يعنى وما يعلمان أحدا حتى ينصحاه أولا ويقولا (إنما نحن فتنة) أى ابتلاء ومحنة (فلا تكفر) أى لا تتعلم السحر فتعمل به فتكفر ، قيل يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات فان أبى قبول نصحهما وصمم على التعلم يقولان له ائت هذا الرماد فبل عليه فاذا فعل ذلك خرج منه نور ساطع فى السماء فذلك الايمان والمعرفة وينزل شىء أسود مثل الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى (فيتعلمون منهما) يعنى من الملكين (ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أى علم السحر الذى يكون سببا فى التفريق بين الزوجين كالتمويه والتخييل والنفث فى العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده البغضاء والنشوز والخلاف بين الزوجين ابتلاء من الله تعالى لا أن السحر له تأثير فى نفسه بدليل قوله (وما هم) يعنى السحرة (بضارين به) أى بالسحر (من أحد) أى أحدا (إلا باذن الله) أى بعلمه وقضائه وتكوينه فالساحر يسحر والله تعالى يقدر ويكون ذلك بقضائه تعالى وقدرته ومشيئته (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) يعنى السحر لأنهم يقصدون به الشر (ولقد علموا) يعنى اليهود (لمن اشتراه) أى اختار السحر (ماله فى الآخرة من خلاق) يعنى ماله نصيب فى الجنة (ولبئس ما شروا به أنفسهم) أى باعوا حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق (لو كانوا يعلمون) فان قلت كيف أثبت الله لهم العلم أولا فى قوله ولقد علموا على التوكيد القسمى ثم نفاه عنهم آخر فى قوله لو كانوا يعلمون . قلت قد علموا أن من اشترى السحر ماله فى الآخرة من خلاق ثم مع هذا العلم خالفوا واشتغلوا بالسحر وتركوا العمل بكتاب الله تعالى وما جاءت به الرسل عنادا منهم وبغيا وذلك على معرفة منهم بما

فان قيل أليس قد قال ولقد علموا لمن اشتراه فما معنى قوله تعالى لو كانوا يعلمون بعد ما أخبر أنهم علموا . قيل أراد بقوله ولقد علموا يعنى الشياطين وقوله لو كانوا يعلمون يعنى اليهود وقيل كلاهما فى اليهود ولكنهم لما لم يعلموا بما علموا فكأنهم لم يعلموا (ولو أنهم آمنوا) بمحمد ﷺ والقرآن (واتقوا) اليهودية والسحر (لمثوبة من عند الله خير) لكان ثواب الله إياهم خيرا لهم (لو كانوا يعلمون) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا) وذلك أن المسلمين كانوا يقولون راعنا يارسول الله من المراعاة أى أرعنا سمعك أى فرغ سمعك لكلامنا يقال أرعى إلى الشىء وأرعاه وراعاه أى أصغى إليه واستمعه وكانت هذه اللفظة سبا قبيحا بلغة اليهود . وقيل كان معناها عندهم اسمع لا سمعت وقيل هى من الرعونة كانوا إذا أرادوا أن يحمقوا إنسانا قالوا راعنا بمعنى ياأحمق فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين قالوا فيما بينهم كنا نسب محمدا سرا فأعلنوا به الآن فكانوا يأتونه ويقولون راعنا يامحمد ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها وكان يعرف لغتهم فقال لليهود لئن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه فقالوا أو لستم تقولونها فأنزل الله تعالى «لاتقولوا راعنا» لكيلا يجد اليهود بذلك سبيلا إلى شتم رسول الله ﷺ (وقولوا انظرنا) أى انظر إلينا وقيل انتظرنا وتأن بنا يقال نظرت فلانا وانتظرته ومنه قوله تعالى « انظرونا نقتبس من نوركم » قال مجاهد معناه فهمنا (واسمعوا) ماتؤمرون به وأطيعوا (وللكافرين) يعنى اليهود (عذاب أليم) قوله تعالى (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب) وذلك أن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود آمنوا بمحمد ﷺ قالوا ما هذا الذي تدعوننا إليه بخير مما نحن عليه ولوددنا لو كان خيرا فأنزل الله تكذيبا لهم « مايود الذين» أى مايحب ومايتمنى الذين كفروا من أهل الكتاب يعنى اليهود (ولا المشركين) جره بالنسق على من (أن ينزل عليكم من خير من ربكم) أى خير ونبوة ومن صلة (والله يختص برحمته) بنبوته (من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

لمن فعل ذلك منهم من العقاب فكأنهم حين لم يعملوا بعلمهم كانوا منسلخين منه (ولو أنهم) يعنى اليهود (آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (واتقوا) يعنى اليهودية والسحر وما يؤثمهم (لمثوبة من عند الله) أى لكان ثواب الله إياهم (خير) لهم يعنى هذا الثواب (لو كانوا يعلمون) يعنى ذلك . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا) سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يقولون راعنا يارسول الله من المراعاة أى أرعنا سمعك وفرغه لكلامنا وكانت هذه اللفظة سبا قبيحا بلغة اليهود ومعناها عندهم اسمع لا سمعت . وقيل من الرعونة إذا أرادوا أن يحمقوا إنسانا قالوا راعنا يعنى أحمق فلما سمعت اليهود هذه الكلمة من المسلمين قالوا فيما بينهم كنا نسب محمدا سرا فأعلنوا به الآن فكانوا يأتونه ويقولون راعنا يامحمد ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ رضى الله تعالى عنه ففطن لها وكان يعرف لغتهم فقال لليهود لئن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه فقالوا أو لستم تقولونها فأنزل الله تعالى «ياأيها الذين آمنوا لاتقولوا» راعنا أى لكى لا يجد اليهود بذلك سبيلا إلى شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقولوا انظرنا) أى انظر إلينا . وقيل معناه انتظرنا وتأن بنا وفهمنا (واسمعوا) أى ماتؤمرون به وأطيعوا نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم راعنا لئلا يتطرق أحد إلى شتمه وأمرهم بتوقيره وتعظيمه وأن يتخيروا لخطابه صلى الله عليه وسلم من الألفاظ أحسنها ومن المعانى أدقها وإن سألوه يسألوه بتبجيل وتعظيم ولين لايخاطبوه بما يسر اليهود (وللكافرين) يعنى اليهود (عذاب أليم) أى مؤلم (مايود) أى ما يحب (الذين كفروا من أهل الكتاب) يعنى اليهود (ولا المشركين) يعنى عبدة الأوثان لأن الكفر اسم جنس تحته نوعان أهل الكتاب وهم الذين بدلوا كتابهم وكذبوا الرسل وعبدة الأوثان وهم من عبدوا غير الله (أن ينزل عليكم من خير من ربكم) يعنى ما أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم من الوحى والنبوة وإنما كرهت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك حسدا وبغيا منهم على المؤمنين وذلك أن المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قالوا ما هذا الذى تدعوننا إليه بخير مما نحن فيه ولو ددنا لو كان خيرا فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيبا لهم (والله يختص برحمته من يشاء) يعنى أنه تعالى يختص بنبوته ورسالته من يشاء من عباده ويتفضل بالإيمان والهداية على من أحب من خلقه رحمة منه لهم (والله ذو الفضل العظيم) يعنى أن كل خير ناله عباده فى دينهم ودنياهم فانه منه ابتداء وتفضلا عليهم من غير استحقاق أحد منهم

لذلك

والفضل ابتداء إحسان بلا علة وقيل المراد بالرحمة الإسلام والهداية وقيل معنى الآية أن الله تعالى بعث الأنبياء من ولد إسحاق فلما بعث النبي ﷺ من ولد إسماعيل لم يقع ذلك بود اليهود ومحبتهم، وأما المشركون فانما لم يقع بودهم لأنه جاء بتفضيحهم وغيب آلهتهم فنزلت الآية فيه . قوله عز وجل (ماننسخ من آية أو ننسها) وذلك أن المشركين قالوا إن محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلاف ما يقوله إلا من تلقاء نفسه يقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا كما أخبر الله «وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر» وأنزل «ماننسخ من آية أو ننسها فبين» وجه الحكمة فى النسخ بهذه الآية. والنسخ فى اللغة شيئان أحدهما بمعنى التحويل والنقل ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحول من كتاب إلى كتاب فعلى هذا الوجه كل القرآن منسوخ لأنه نسخ من اللوح المحفوظ . والثانى يكون بمعنى الرفع يقال نسخت الشمس الظل أى ذهبت به وأبطلته فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخا وبعضه منسوخا وهو المراد من الآية وهذا على وجوه أحدها أن يثبت الخط وينسخ الحكم مثل آية الوصية للأقارب وآية عدة الوفاة بالحول وآية التخفيف فى القتال وآية الممتحنة ونحوها وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى «ماننسخ من آية» مانثبت خطها ونبدل حكمها ومنها أن يرفع تلاوتها ويبقى حكمها مثل آية الرجم ومنها أن يرفع أصلا عن المصحف وعن القلوب كما روى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أن قوما من الصحابة رضى الله عنهم قاموا ليلة ليقرءوا سورة فلم يذكروا منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فغدوا إلى النبى ﷺ فأخبروه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها » وقيل كانت سورة الأحزاب مثل سورة البقرة فرفع أكثرها تلاوة وحكما . ثم من نسخ الحكم ما يرفع ويقام غيره مقامه كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس إلى الكعبة والوصية للأقارب نسخت بالميراث وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشر ومصابرة الواحد العشر فى القتال ونسخت بمصابرة الاثنين ومنها ما يرفع ولا يقام

لذلك بل له الفضل والمنة على خلقه. قوله عزوجل (ماننسخ من آية أو ننسها) الآية . وسبب نزولها أن المشركين قالوا إن محمدا يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا مايقول إلا من تلقاء نفسه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله «إذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر » فأنزل ماننسخ من آية فبين بهذه الآية وجه الحكمة فى النسخ وأنه من عنده لا من عند محمد صلى الله عليه وسلم. وأصل النسخ فى اللغة يكون بمعنى النقل والتحويل ومنه نسخ الكتاب وهو أن ينقل من كتاب إلى كتاب آخر كذلك لا يقتضى إزالة الصورة الأولى بل يقتضى إثبات مثله فى كتاب آخر ، فعلى هذا المعنى يكون القرآن كله منسوخا وذلك أنه نسخ من اللوح المحفوظ ونزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ويكون النسخ بمعنى الرفع والإزالة وهو إزالة شىء بشىء يعقبه كنسخ الشمس الظل والشيب الشباب فعلى هذا المعنى يكون بعض القرآن منسوخا وبعضه ناسخا وهو المراد من حكم هذه الآية وهو إزالة الحكم بحكم يعقبه .

(فصل فى حكم النسخ) هو فى إصطلاح العلماء عبارة عن رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى متأخر عنه والنسخ جائز عقلا وواقع سمعا خلافا لليهود فان منهم من ينكره عقلا لكنه منعه سمعا وشذت طائفة قليلة من المسلمين فأنكرت النسخ احتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ ووقوعه بأن الدلائل قد دلت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته لا تصح إلا مع القول بالنسخ وهو نسخ شرع من قبله فوجب القطع بالنسخ. ولنا على اليهود إلزامات : منها أن الله تعالى حرم عليهم العمل فى يوم السبت ولم يحرمه على من كان قبلهم . ومنها أنه قد جاء فى التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه الصلاة والسلام عند خروجه من الفلك إنى جعلت كل دابة مأكولا لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم ثم إنه تعالى حرم على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى بنى إسرائيل كثيرا من الحيوانات . ومنها إن آدم عليه الصلاة والسلام كان يزوج الأخ للأخت وقد حرمه على من بعده وعلى موسى عليه الصلاة والسلام فثبت بهذا جواز النسخ وحيث ثبت جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه : أحدها أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والانجيل وغيرهما . الوجه الثانى المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا الوجه الثالث وهو الصحيح الذى عليه جمهور العلماء أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات بدليل آخر يأتى بعده وهو المراد بقوله تعالى « ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها» لأن الآية إذ أطلقت فالمراد به آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا (مسئلة) قال الشافعى

غيره مقامه كامتحان اللساء والنسخ إنما يعترض على الأوامر والنواهى دون الأخبار . أما معنى الآية فقوله مانلسخ من آية قراءة
العامة بفتح النون والسين من النسخ أى ترفعها . وقرأ ابن عامر بضم النون وكسر السين من الإنساخ وله وجهان أحدهما نجعله
فى المنسوخ . والثانى أن نجعله فى المنسوخ نسخة لك يقال نسخت الكتاب أى كتبته وأنسخته غيرى إذا جعلته
نسخة له . أو ننسها أى ننسها عن قلبك وقال ابن عباس رضى الله عنهما نتركها لاننسخها قال الله تعالى « نسوا الله فنسيهم » أى تركوه فتركهم وقيل ننسها أى نأمر بتركها يقال أنسيت الشىء إذا أمرت بتركه فيكون النسخ الأول من رفع الحكم وإقامة غيره مقامه والإنساء يكون نسخا من غير إقامة غيره مقامه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو أو ننسأها بفتح النون الأول والسين مهموزا أى نؤخرها فلا نبدلها يقال نسأ الله فى أجله وأنسأ الله أجله فى معناه قولان : أحدهما نرفع تلاوتها ونؤخر حكمها كما فعل فى آية الرجم فعلى هذا تكون النسخ الأول بمعنى رفع التلاوة والحكم . والقول الثانى قال سعيد بن المسيب وعطاء أما مانسخ من آية فهو ما قد نزل من القرآن جعلاه من النسخة أو ننسأها أى نؤخرها ونتركها فى اللوح المحفوظ

أسهل

فلا نزلها (نأت بخير منها) أى بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجركم ، لا أن آية خير من آية لأن كلام الله واحد وكله
خير (أو مثلها) فى المنفعة والثواب فكل مانسخ إلى الأيسر فهو أسهل فى العمل وما نسخ إلى الأشق فهو فى الثواب أكثر

رضى الله عنه الكتاب لاينسخ بالسنة المتواترة واستدل بهذه الآية وهو أنه تعالى قال «ما ننسخ
من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » وذلك يفيد أنه تعالى هو الآتى والمأتى به هو من جنس
القرآن وما كان من جنس القرآن فهو قرآن . وقوله نأت بخير منها يفيد أنه هو المنفرد بالإتيان
بذلك الخير وهو القرآن الذى هو كلام الله دون السنة ولأن السنة لاتكون خيرا من القرآن
ولا مثله . واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصية للأقربين منسوخة بقوله
صلى الله عليه وسلم « لا وصية لوارث » أجاب الشافعى رضى الله تعالى عنه بأن هذا ضعيف لأن كون
الميراث حقا للوارث يمنع من صرفه إلى الوصية فثبت أن آية الميراث مانعة من الوصية ، وتقرير
هذا وبسطه معروف فى أصول الفقه . ثم النسخ فى القرآن على وجوه : أحدها مارفع حكمه وتلاوته
كما روى عن أبى إمامة بن سهل أن قوما من الصحابة قاموا ليلة ليقرءوا سورة فلم يذكروا منها
إلا بسم الله الرحمن الرحيم فغدوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال رسول الله ﷺ
تلك السورة رفعت بتلاوتها وحكمها » أخرجه البغوى بغير سند . وقيل إن سورة الأحزاب كانت
مثل سورة البقرة فرفع بعضها تلاوة وحكما . الوجه الثانى مارفع تلاوته وبقى حكمه مثل آية الرجم
روى عن ابن عباس قال قال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم :
إن الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها
وعقلناها ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان
أن يقول قائل : مانجد الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وإن الرجم فى كتاب
الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف .
أخرجه مسلم وللبخارى نحوه . والوجه الثالث مارفع حكمه وثبت خطه وتلاوته وهو كثير
فى القرآن مثل آية الوصية للأقربين نسخت بآية الميراث عند الشافعى وبالسنة عند غيره وآية
عدة الوفاة بالحول نسخت بآية أربعة أشهر وعشرا وآية القتال وهى قوله « إن يكن منكم عشرون
صابرون يغلبوا مائتين » الآية نسخت بقوله « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » الآية
ومثل هذا كثير فى القرآن . وأما معنى الآية فقوله : ما ننسخ من آية أى نرفعها أو نرفع حكمها أو
ننسها قرئ بضم النون وكسر السين ومعناه ننسها على قلبك وقال ابن عباس نتركها لاننسخها
وقيل معناه نأمر بتركها فعلى هذا يكون النسخ الأول رفع الحكم وإقامة غيره مقامه ، والإنساء
نسخ من غير إقامة غيره مقامه وقرئ ننسأها بفتح النون والسين وبالهمزة ومعناها نؤخرها
فلا نزلها أو نرفع تلاوتها ونؤخر حكمها كآية الرجم فعلى هذا يكون النسخ الأول بمعنى رفع
التلاوة والحكم قال سعيد بن المسيب وعطاء مانسخ من آية فهو مانزل من القرآن جعلاه من
نسخت الكتاب إذا نقلته إلى كتاب آخر وننسأها أن نؤخرها ونتركها فى اللوح المحفوظ فلا
نزلها (نأت بخير منها) أى بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجوركم وليس معناه أن آية خير
من آية لأن كلام الله تعالى كله واحد (أو مثلها) أى فى المنفعة والثواب فما نسخ إلى الأيسر كان

(ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) من النسخ والتبديل . لفظه استفهام ومعناه تقرير أي إنك تعلم (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم) يامعشر الكفار عند نزول العذاب (من دون الله) مما سوى الله (من ولي) قريب وصديق وقيل وال وهو القيم بالأمور (ولا نصير) ناصر يمنعكم من العذاب . قوله (٩٥) (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) نزلت في اليهود حين قالوا يامحمد ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة فقال تعالى : أم تريدون يعني أتريدون فالميم صلة وقيل بل تريدون أن تسألوا رسولكم محمدا صلى الله عليه وسلم (كما سئل موسى من قبل) سأله قومه أرنا الله جهرة وقيل إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا كما أن موسى سأله قومه فقالوا أرنا الله جهرة ففيه منعهم عن السؤالات المقترحة بعد ظهور الدلائل والبراهين (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) يستبدل الكفر بالإيمان (فقد ضل سواء السبيل) أخطأ وسط الطريق وقيل قصد السبيل قوله تعالى (ود كثير من أهل الكتاب) الآية نزلت في نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد : لو كنتم على الحق ماهزمتم فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم فقال لهم عمار كيف نقض العهد فيكم ؟ قالو شديدا قال فإني قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ماعشت فقالت اليهود ، أما هذا فقد صبأ ، وقال حذيفة أما أنا فقد رضيت بالله تعالى ربا وبمحمد نبيا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا . ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم

أسهل في العمل كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل ثم نسخ ذلك فكان خيرا لهم في عاجلهم لسقوط التعب والمشقة عليهم وما نسخ إلى الأشق كان أكمل في الثواب كالذي كان عليهم من صيام أيام معدودات في السنة فنسخ ذلك وفرض صيام شهر رمضان فكان صوم شهر كامل في كل سنة أثقل على الأبدان وأشق من صيام أيام معدودات فكان ثوابه أكمل وأكثر . أما المثل فكنسخ التوجه إلى بيت المقدس وصرفه إلى المسجد الحرام واستواء الأجر في ذلك لأن على المصلي التوجه إلى حيث أمره الله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) أي على النسخ والتبديل ، والمعنى ألم تعلم يامحمد أني قادر على تعويضك مما نسخت من أحكامي وغيرته من فرائضي التي كنت افترضتها عليك ماأشاء مما هو خير لك ولعبادي المؤمنين وأنفع لك ولهم عاجلا وآجلا (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) يعني أنه تعالى هو المتصرف في السموات والأرض وله سلطانهما دون غيره يحكم فيهما وفيما فيهما بما شاء من أمر ونهي ونسخ وتبديل هذا الخبر وإن كان خطابا للنبي ﷺ لكن فيه تكذيب لليهود الذين أنكروا النسخ وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وأن الخلق كلهم عبيده وتحت تصرفه يحكم فيهم بما يشاء وعليهم السمع والطاعة (ومالكم) يعني يامعشر الكفار عند نزول العذاب (من دون الله) أي مما سوى الله (من ولي) أي قريب وصديق . وقيل من وال وهو المقيم بالأمور (ولا نصير) أي ناصر يمنعكم من العذاب وقيل في معنى الآية وليس لكم أيها المؤمنون بعد الله من قيم بأمركم ولا نصير يؤيدكم ويقويكم على أعدائكم . قوله عز وجل (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) نزلت في اليهود وذلك أنهم قالوا يامحمد ائتنا بكتاب من السماء جملة كما أتى موسى بالتوراة ، وقيل إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا كما سأل قوم موسى موسى فقالوا : أرنا الله جهرة فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والمعنى أتريدون وقيل بل تريدون أن تسألوا رسولكم يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (كما سئل موسى من قبل) وذلك أن موسى سأله قومه فقالوا : أرنا الله جهرة ففي الآية منعهم ونهيهم عن السؤالات المقترحة بعد ظهور الدلالات والمعجزات وثبوت الحجج والبراهين على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (ومن يتبدل) أي يستبدل (الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) أي أخطأ قصد الطريق ، وقيل إن قوله ومن يتبدل الكفر بالإيمان خطاب للمؤمنين أعلمهم أن اليهود أهل غش وحسد وأنهم يتمنون للمؤمنين المكاره فنهاهم الله تعالى أن يقبلوا من اليهود شيئا ينصحونهم به في الظاهر وأخبرهم أن من ارتد عن دينه فقد أخطأ قصد السبيل . قوله عز وجل (ود كثير من أهل الكتاب) نزلت هذه الآية في نفر من اليهود ، وذلك أنهم قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد : لو كنتم على الحق ماهزمتم فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم ، فقال عمار ابن ياسر كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال إني عاهدت أن لا أكفر بمحمد صلى الله

فأخبراه بذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصبتما الخير وأفلحتما فأنزل الله تعالى: ود كثير من أهل الكتاب أى تمنى وأراد كثير من أهل الكتاب من اليهود (لو يردونكم) يامعشر المؤمنين (من بعد إيمانكم كفارا حسدا) نصب على المصدر أى يحسدونكم حسدا (من عند أنفسهم) أى من تلقاء أنفسهم ولم يأمرهم الله بذلك (من بعد ماتبين لهم الحق) فى التوراة أن قول محمد صلى الله عليه وسلم صدق ودينه حق (فاعفوا) فاتركوا (واصفحوا) وتجاوزوا فالعفو المحو والصفح الإعراض وكان هذا قبل آية القتال (حتى يأتى الله بأمره) بعذابه القتل والسبى لبنى قريظة والجلاء والنفى لبنى (٩٦)

النضير وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقال قتادة هو أمره بقتالهم فى قوله «قاتلوا المشركين الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» إلى قوله «وهم صاغرون» وقال ابن كيسان بعلمه وحكمه فيهم حكم لبعضهم بالإسلام ولبعضهم بالقتل والسبى والجزية (إن الله على كل شىء قدير، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وماتقدموا) تسلفوا (لأنفسكم من خير) طاعة وعمل صالح (تجدوه عند الله) وقيل أراد بالخير المال كقوله تعالى «إن ترك خيرا» وأراد من زكاة أو صدقة تجدوه عند الله التمرة واللقمة مثل أحد (إن الله بما تعملون بصير) قوله (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا) أى يهوديا قال الفراء حذف الياء الزائدة ورجع إلى الفعل من اليهودية وقال الأخفش الهود جمع هائد مثل عائد وعود وحائل وحول (أو نصارى) وذلك أن اليهود قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ولا دين إلا دين اليهودية، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ولا دين إلا دين النصرانية. وقيل نزلت في وفد نجران وكانوا نصارى اجتمعوا فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود فكذب بعضهم بعضا، قال الله تعالى (تلك أمانيهم) أى شهواتهم الباطلة التى تمنوها على الله بغير الحق (قل) يامحمد (هاتوا) أصله آتوا (برهانكم) حجتكم

عليه وسلم ماعشت قالت اليهود، أما هذا فقد صبأ وقال حذيفة: أما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا ثم إنهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بذلك فقال أصبتما الخير وأفلحتما فأنزل الله تعالى (ود) أى تمنى كثير من أهل الكتاب يعنى اليهود (لو يردونكم) أى يامعشر المؤمنين (من إيمانكم كفارا) أى ترجعون إلى ما كنتم عليه من الكفر (حسدا) أى يحسدونكم حسدا وأصل الحسد تمنى زوال النعمة عمن يستحقها وربما يكون مع ذلك سعى فى إزالتها والحسد مذموم لماروى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إياكم والحسد فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب» أخرجه أبو داود فاذا أنعم الله على عبده نعمة فتمنى آخر زوالها عنه فهذا هو الحسد وهو حرام فان استعان بتلك النعمة على الكفر والمعاصى فتمنى آخر زوالها عنه فليس بحسد ولا يحرم ذلك لأنه لم يحسده على تلك النعمة من حيث إنها نعمة بل من حيث إنه يتوصل بتلك النعمة إلى الشر والفساد وقوله (من عند أنفسهم) أى من تلقاء أنفسهم لم يأمرهم الله بذلك (من بعد ماتبين لهم الحق) يعنى فى التوراة أن قول محمد صلى الله عليه وسلم ودينه حق لايشكون فيه فكفروا به حسدا وبغيا (فاعفوا واصفحوا) أى فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وحسد وكان هذا الأمر بالعفو والصفح قبل أن يؤمر بالقتال (حتى يأتى الله بأمره) أى بعذابه وهو القتل والسبى لبنى قريظة والإجلاء والنفى لبنى النضير قال ابن عباس هو أمر الله له بقتالهم فى قوله قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية (إن الله على كل شىء قدير) فيه وعيد وتهديد لهم (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) لما أمر الله المؤمنين بالعفو والصفح عن اليهود أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة الواجبتين ونبه بذلك على سائر الواجبات ثم قال تعالى (وما تقدموا لأنفسكم من خير) أى من طاعة وعمل صالح، وقيل أراد بالخير المال يعنى صدقة التطوع لأن الزكاة تقدم ذكرها (تجدوه عند الله) يعنى ثوابه وأجره حتى التمرة واللقمة مثل أحد (إن الله بما تعملون بصير) أى لايخفى عليه شىء من قليل الأعمال وكثيرها ففيه ترغيب فى الطاعات وأعمال البر وزجر عن المعاصى. قوله عز وجل (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا) يعنى يهوديا، وقيل هو جمع هائد (أو نصارى) وذلك أن اليهود قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ولا دين إلا دين اليهودية وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ولا دين إلا دين النصرانية قيل نزلت فى وفد نجران وكانوا نصارى اجتمعوا مع اليهود فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذب بعضهم بعضا فى دعواه قال الله (تلك أمانيهم) أى شهواتهم الباطلة التى تمنوها على الله بغير حق (قل) يعنى يامحمد (هاتوا برهانكم) أى حجتكم

على

على ما زعمتم (إن كنتم صادقين) ثم قال رداً عليهم (بلى من أسلم وجهه) أى ليس كما قالوا بل الحكم للإسلام وإنما يدخل الجنة من أسلم وجهه (لله) أى أخلص دينه لله وقيل أخلص عبادته لله وقيل خضع وتواضع لله وأصل الإسلام الاستسلام والخضوع وخص الوجه لأنه إذا جاد بوجهه فى السجود لم يبخل بسائر جوارحه (وهو محسن) فى عمله وقيل مؤمن وقيل مخلص (فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قوله (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء) نزلت فى يهود المدينة ونصارى أهل نجران، وذلك أن وفد نجران لما قدموا على النبى ﷺ أتاهم أحبار اليهود

فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم

على دعواكم أن الجنة لايدخلها إلا من كان يهوديا أو نصرانيا دون غيرهم (إن كنتم صادقين) يعنى فيما تدعون . ثم قال تعالى ردا عليهم (بلى) أى ليس الأمر كما تزعمون ولكن (من أسلم وجهه لله وهو محسن) فانه الذى يدخل الجنة وينعم فيها ومعنى أسلم وجهه لله أخلص فى دينه لله وقيل أخلص عبادته لله وقيل خضع وتواضع لله لأن أصل الإسلام الاستسلام وهو الخضوع وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء وإذا جاد الإنسان بوضع وجهه على الأرض فى السجود فقد جاد بجميع أعضائه ، قال عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرا ثقالا

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا

يعنى بذلك استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته الأرض والمزن وهو محسن أى فى عمله لله (فله أجره عند ربه) أى ثواب عمله (ولا خوف عليهم) أى فى الآخرة (ولاهم يحزنون) أى على مافاتهم من الدنيا . قوله عز وجل (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) نزلت فى يهود المدينة ونصارى نجران وذلك أن وفد نجران لما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود وتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت اليهود للنصارى ماأنتم على شىء من الدين وكفروا بعيسى والإنجيل ، وقالت النصارى لليهود ماأنتم على شىء من الدين وكفروا بموسى والتوراة فأنزل الله تعالى «وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء» (وهم يتلون الكتاب) يعنى وكلا الفريقين يقرءون الكتاب وليس فى كتابهم هذا الاختلاف فدلت تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم لما فيه على كفرهم وكونهم على الباطل . وقيل إن الإنجيل الذى تدين بصحته النصارى يحقق مافى التوراة من نبوة موسى وما فرض الله فيها على بنى إسرائيل من الفرائض ، وإن التوراة التى تدين بصحتها اليهود تحقق نبوة عيسى وما جاء به من عند ربه من الأحكام ثم كلا الفريقين قالوا ماأخبر الله عنهم بقوله «وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء» مع علم كل واحد من الفريقين ببطلان ماقاله (كذلك قال الذين لايعلمون) يعنى مشركى العرب قالوا فى نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه إنهم ليسوا على شىء (مثل قولهم) يعنى مثل قول اليهود للنصارى والنصارى لليهود . وقيل أمم كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب قالوا فى أنبيائهم ليسوا على شىء (فالله يحكم) أى يقضى (بينهم يوم القيامة) يعنى بين المحق والمبطل (فيما كانوا يختلفون) يعنى من أمر الدين . قوله عز وجل (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر

فقالت لهم اليهود ما أنتم على شئ من الدين وكفروا بعيسى والإنجيل وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شئ من الدين وكفروا بموسى والتوراة فأنزل الله تعالى (وقالت النصارى ليست اليهود على شئ وهم يتلون الكتاب) وكلا الفريقين يقرءون الكتاب ، قيل معناه ليس فى كتبهم هذا الاختلاف فدل تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم مافيه على كونهم على الباطل (كذلك قال الذين لايعلمون) يعنى آباءهم الذين مضوا (مثل قولهم) قال مجاهد يعنى عوام النصارى. وقال مقاتل يعنى مشركى العرب كذلك قالوا فى نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه إنهم ليسوا على شئ من الدين . وقال عطاء أمم

كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام قالوا لنبيهم إنه ليس على شئ (فالله يحكم بينهم يوم القيامة) يقضى بين المحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) من الدين . قوله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر) الآية نزلت فى ططوس بن اسبيسبانوس الرومى وأصحابه وذلك أنهم غزوا بنى إسرائيل فقتلوا مقاتلتهم وسبوا ذراريهم وحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير فكان خرابا إلى أن بناه المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وقال قتادة والسدى هو بختنصر

وأصحابه غزوا اليهود وخربوا بيت المقدس وأعانهم على ذلك النصارى ططوس الرومى وأصحابه من أهل الروم قال السدى من أجل أنهم قتلوا يحيى بن زكريا وقال قتادة حملهم بعض اليهود على معاونة بختنصر البابلى المجوسى فأنزل الله تعالى: ومن أظلم أي أكفر ممن منع مساجد الله يعنى بيت المقدس ومحاريبه أن يذكر (فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى ومحل زيارتهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما لم يدخلها يعنى بيت المقدس بعد عمارتها رومى

إلا خائفا لو علم به قتل ، وقال قتادة ومقاتل لايدخل بيت المقدس أحد من النصارى إلا مستنكرا لو قدر عليه لعوقب قال سيدى أخيفوا بالجزية وقيل هذا خبر بمعنى الأمر أى أجهضوهم بالجهاد حتى لايدخلها أحد منهم إلا خائفا من القتل والسبى ، أى ماينبغى لهم (لهم فى الدنيا خزى) عذاب وهوان قال قتادة هو القتل للحربى والجزية للذمى قال مقاتل والكلبى تفتح مدائنهم الثلاثة قسطنطينية ورومية وعمورية (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) وهو النار وقال عطاء وعبد الرحمن بن زيد نزلت فى مشركى مكة وأراد بالمساجد المسجد الحرام، منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من حجه والصلاة فيه عام الحديبية وإذا منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يعمره بذكر الله فقد سعوا فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين يعنى أهل مكة يقول أفتحها عليكم حتى تدخلوها وتكونوا أولى بها منهم ففتحها سبب عليهم وأمر النبى صلى الله عليه وسلم مناديا ينادى ألا لايحجن بعد هذا العام مشرك فهذا خوفهم وثبت فى الشرع أن لايمكن مشرك من دخول الحرم لهم فى الدنيا خزي الذل والهوان والقتل والسبي والنفي. قوله عز وجل (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) قال ابن عباس رضى الله عنهما خرج نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر قبل تحويل القبلة إلى الكعبة فأصابهم الضباب وحضرت الصلاة فتحروا القبلة وصلوا فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصيبوا

فيها اسمه) نزلت فى خراب بيت المقدس وذلك أن ططوس الرومى غزا بنى إسرائيل فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وحرق التوراة وخرب بيت المقدس فلم يزل خرابا حتى بناه المسلمون فى زمن عمر بن الخطاب فأنزل الله تعالى ومن أظلم أى ومن أكفر وأبغى ممن منع مساجد الله يعنى بيت المقدس ومحاريبه أن يذكر فيها اسمه أى يعبد ويصلى له فيها (وسعى فى خرابها) وقيل أن بختنصر المجوسى من أهل بابل هو الذى غزا بنى إسرائيل وخرب بيت المقدس وأعانة على ذلك النصارى من أجل اليهود قتلوا يحيى ابن زكريا (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى وزيارتهم قال ابن عباس لم يدخلها بعد عمارتها رومى أو نصرانى إلا خائفا إن علم به قتل وقيل أخيفوا بالجزية والقتل فالجزية على الذمى والقتل على الحربى وقيل خوفهم هو فتح مدائنهم الثلاث قسطنطينية ورومية وعمورية (لهم فى الدنيا خزى) يعنى الصغار والذل والقتل والسبى (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) يعنى النار. وقيل أن الآية نزلت فى مشركى مكة وأراد بالمساجد المسجد الحرام وذلك أنهم منعوا رسول الله ﷺ وأصحابه أن يصلوا فيه فى ابتداء الإسلام ومنعوهم من حجه والصلاة فيه عام الحديبية وإذا منعوا من يعمره بذكر الله تعالى وصلواته فيه فقد سعوا فى خرابه أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين يعنى مشركى مكة يقول الله تعالى أفتحها عليكم أيها المسلمون حتى تدخلوها وتكونوا أولى بها منهم ففتحها عليهم وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن ينادى بالموسم لما نزلت سورة براءة : ألا لايحجن البيت بعد هذا العام مشرك فكان هذا خوفهم وثبت فى الشرع أن لايمكن مشرك من دخول الحرم . فان قلت كيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو إما بيت المقدس أو المسجد الحرام ؟. قلت يجوز أن يجىء الحكم عاما وإن كان السبب خاصا كما تقول لمن آذى صالحا واحدا ومن أظلم ممن آذى الصالحين . فان قلت أي القولين أرجح ؟. قلت رجح الطبرى القول الأول وقال إن النصارى هم الذين سعوا فى خراب بيت المقدس بدليل أن مشركى مكة لم يسعوا فى خراب المسجد الحرام وإن كانوا قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأوقات من الصلاة فيه ، وأيضا فان الآية التى قبل هذه والتى بعدها فى ذم أهل الكتاب ولم يجر لمشركى مكة ذكر ولا للمسجد الحرام فتعين أن يكون المراد بهذه بيت المقدس، ورجح غيره القول الثانى بدليل أن النصارى يعظمون بيت المقدس أكثر من اليهود فكيف يسعون فى خرابه وهو موضع حجهم. وذكر ابن العربى فى أحكام القرآن قولا ثالثا وهو أنه كل مسجد قال وهو الصحيح لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع فتخصيصه ببعض المساجد أو ببعض الأزمنة محال. قوله عز وجل (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله)

فلما قدموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت هذه الآية وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما نزلت فى المسافر يصلى التطوع حيث ماتوجهت به راحلته . أخبرنا أبو الحسن محمد ابن محمد السرخسى ، أنا زاهر بن أحمد الفقيه السرخسى أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على راحلته فى السفر حيث ماتوجهت به» وقال عكرمة نزلت فى تحويل القبلة قال أبو العالية صرفت القبلة إلى الكعبة عيرت اليهود المؤمنين

وقالوا ليست لهم قبلة معلومة فتارة يستقبلون هكذا وتارة هكذا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مجاهد والحسن لما نزلت «وقال ربكم ادعونى أستجب لكم» قالوا أين ندعوه فأنزل الله عز وجل «ولله المشرق والمغرب» ملكا وخلقا «فأينما تولوا فثم وجه الله» يعنى أينما تحولوا وجوهكم فثم أى هناك وجه الله . قال الكلبى فثم الله يعلم ويرى والوجه صلة كقوله تعالى «كل شىء هالك إلا وجهه» أى إلا هو وقال الحسن ومجاهد وقتادة ومقاتل ابن حيان فثم قبلة الله والوجه والوجهة والجهة القبلة . وقيل رضا الله تعالى (إن الله واسع) أى غنى يعطى من السعة قال الفراء الواسع الجواد الذى يسع عطاؤه كل شىء قال الكلبى واسع المغفرة (عليم) بنياتهم حيث ماصلوا ودعوا

قوله تعالى (وقالوا اتخذ الله ولدا) قرأ ابن عامر قالوا بلا واو، وقرأ الآخرون وقالوا اتخذ الله ولدا نزلت فى يهود المدينة حيث قالوا عزير ابن الله وفى نصارى نجران حيث قالوا المسيح ابن الله وفى مشركي العرب حيث قالوا الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه وعظم نفسه . أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن عبد الرحمن بن أبى حسن نافع بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال «قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى فقوله لى

سبب نزول هذه الآية قال ابن عباس «خرج نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر قبل تحويل القبلة إلى الكعبة فأصابهم الضباب وحضرت الصلاة فتحروا القبلة وصلوا فلما ذهب الضباب استبان لهم أنهم لم يصيبوا فلما قدموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت هذه الآية . وعن عامر بن ربيعة عن أبيه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فى ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل رجل منا على حياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فأينما تولوا فثم وجه الله» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب . وقال ابن عمر نزلت فى المسافر يصلى التطوع حيثما توجهت به راحلته (ق) عن ابن عمر قال «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسبح على ظهر راحلته حيث كان وجهه يومىء» وكان ابن عمر يفعله وفى رواية لمسلم «كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى على دابته وهو مقبل من مكة إلى المدينة حيثما توجهت وفيه نزلت فأينما تولوا فثم وجه الله» الآية . وقيل نزلت فى تحويل القبلة إلى الكعبة وذلك أن اليهود عيرت المؤمنين وقالوا ليس لهم قبلة معلومة فتارة يستقبلون هكذا وتارة يستقبلون هكذا فأنزل الله هذه الآية . وقيل أنها نزلت فى تخيير النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليصلوا حيث شاءوا من النواحى ثم إنها نسخت بقوله تعالى «فول وجهك شطر المسجد الحرام» ومعنى الآية إن لله المشرق والمغرب وما بينهما خلقا وملكا ، وإنما خص المشرق والمغرب اكتفاء عن جميع الجهات لأن له كلها وما بينهما خلقه وعبيده وإن على جميعهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه فما أمرهم باستقباله فهو القبلة فان القبلة ليست قبلة لذاتها بل لأن الله تعالى جعلها قبلة وأمر بالتوجه إليها فأينما تولوا فثم وجه الله أى فهنالك قبلة الله التى وجهكم إليها وقيل معناه فثم وجه الله تعالى بعلمه وقدرته . والوجه صفة ثابتة لله تعالى لا من حيث الصورة . وقيل فثم رضا الله أى يريدون بالتوجه إليه رضاه (إن الله واسع) من السعة وهو الغنى أى يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير . وقيل واسع المغفرة (عليم) أى بأعمالكم ونياتكم حيثما تصلوا وتدعوا لا يغيب عنه منها شىء (مسئلة تتعلق بحكم الآية) وهى أن المسافر إذا كان فى مفازة أو بلاد الشرك واشتبهت عليه القبلة فانه يجتهد فى طلبها بنوع من الدلائل ويصلى إلى الجهة التى أدى إليها اجتهاده ولا إعادة عليه وإن لم يصادف القبلة فان جهة الاجتهاد قبلته وكذا الغريق فى البحر إذا بقى على اللوح فانه يصلى على حسب حاله وتصح صلاته وكذلك المشدود على جذع بحيث لا يمكنه الاستقبال . قوله عز وجل (وقالوا اتخذ الله ولدا) نزلت فى يهود المدينة حيث قالوا عزير ابن الله ، وفى نصارى نجران حيث قالوا المسيح ابن الله وفى مشركى العرب حيث قالوا الملائكة بنات الله (سبحانه) أى تنزيها لله فنزه الله نفسه

ولد فسبحانی أن اتخذ صاحبة أو ولدا »قوله تعالى (بل له ما فی السموات والأرض) عبيدا وملكا (كل له قانتون) قال مجاهد وعطاء والسدى مطيعون وقال عكرمة ومقاتل مقرون له بالعبودية وقال ابن كيسان قائمون بالشهادة. وأصل القنوت القيام قال النبی صلى الله عليه وسلم « أفضل الصلاة طول القنوت» واختلفوا فی حكم الآية فذهب جماعة إلى أن حكم الآية خاص وقال مقاتل هو راجع إلى عزير والمسيح والملائكة وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام فی جميع الخلق لأن لفظ «كل » يقتضى الإحاطة بالشیء بحيث

لايشذ منه شیء ثم سلكوا فی الكفار طريقين فقال مجاهد يسجد ظلالهم لله على كره منهم قال الله تعالى « وظلالهم بالغدو والآصال» وقال السدى هو يوم القيامة دليله «وعنت الوجوه للحی القيوم» وقيل قانتون مذللون مسخرون لما خلقوا له. قوله عز وجل (بديع السموات والأرض) أی مبدعها ومنشؤها من غير مثال سبق (وإذا قضى أمرا) أی قدره وقيل أحكمه وأتقنه وأصل القضاء الفراغ ومنه قيل لمن مات قضى عليه لفراغه من الدنيا ومنه قضاء الله وقدره لأنه فرغ منه تقديرا وتدبيرا (فانما يقول له كن فيكون) قرأ ابن عامر كن فيكون بنصب النون فی جميع المواضع إلا فی آل عمران « كن فيكون الحق من ربك » وفی سورة الأنعام « كن فيكون قوله الحق» وإنما نصبها لأن جواب الأمر بالفاء يكون منصوبا. وقرأ الآخرون بالرفع على معنى فهو يكون. فان قيل كيف قال فانما يقول له كن والمعدوم لايخاطب. قيل قال ابن الانبارى معناه فانما يقول له أی لأجل تكوينه فعلى هذا ذهب معنى الخطاب وقيل هو وإن كان معدوما ولكنه لما قدر وجوده وهو كائن لامحالة كان كالموجود فصح الخطاب. قوله عز وجل (وقال الذين لايعلمون) قال ابن عباس رضى الله عنهما اليهود. وقال مجاهد النصارى. وقال قتادة مشركو العرب (لولا) هلا (يكلمنا

عن اتخاذ الولد وعن قولهم وافترائهم عليه (خ) عن ابن عباس عن النبی صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل «كذبنی ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنی ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فزعم إنی لا أقدر إن أعيده كما كان وأما شتمه إياى فقوله لی ولد فسبحانی أن اتخذ صاحبة أو ولدا (بل له ما فی السموات والأرض) يعنى عبيدا وملكا فكيف ينسب إليه الولد وهو داخل فيهما. وقيل إن الولد لابد وأن يكون من جنس الوالد والله تعالى منزه عن الشبيه والنظير. وقيل إن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه والانتفاع به عند عجز الوالد وكبره، والله تعالى منزه عن ذلك كله فاضافة الولد إليه محال (كل له قانتون) يعنى أن أهل السموات والأرض مطيعون لله ومقرون له بالعبودية وأصل القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع. وقيل أصله القيام ومنه قوله ﷺ « أفضل الصلاة طول القنوت » فعلى هذا يكون معنى الآية كل له قائمون بالشهادة ومقرون له بالوحدانية. وقيل قانتون أی مذللون مسخرون لما خلقوا له. واختلف العلماء فی حكم الآية فقال بعضهم هو خاص ثم سلكوا فی تخصيصه طريقين أحدهما قالوا هو راجع إلى عزير والمسيح والملائكة. الثانی قال ابن عباس رضى الله عنهما هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الكفار وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام لأن لفظه كل تقتضى الشمول والإحاطة ثم سلكوا فی الكفار طريقين أحدهما أن ظلالهم تسجد لله وتطيعه والثانی أن هذه الطاعة تكون فی يوم القيامة ومن ذهب إلى تخصيص حكم الآية أجاب عن لفظه كل بأنها لاتقتضى الشمول والإحاطة بدليل قوله تعالى « وأوتيت من كل شیء» ولم تؤت ملك سليمان فدل على أن لفظه كل لاتقتضى ذلك. قوله عز وجل ١١٧ (بديع السموات والأرض) أی خالقها ومبدعها ومنشئها على غير مثال سبق. وقيل البديع الذی يبدع الأشياء أی يحدثها مما لم يكن (وإذا قضى أمرا) أی قدره وأراد خلقه. وقيل إذا أحكم أمرا وحتمه وأتقنه. وأصل القضاء الحكم والفراغ والقضاء فی اللغة على وجوه كلها ترجع إلى انقطاع الشیء وتمامه والفراغ منه (فانما يقول له كن فيكون) أی إذا أحكم أمرا وحتمه فانما يقول له فيكون ذلك الأمر على ما أراد الله تعالى وجوده. فان قلت المعدوم لايخاطب فكيف قال فانما يقول له كن فيكون. قلت إن الله تعالى عالم بكل ما هو كائن قبل تكوينه وإذا كان كذلك كانت الأشياء التی لم تكن كأنها كائنة لعلمه بها فجاز أن يقول لها كونی ويأمرها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود وقيل اللام فی قوله «له» لام أجل فيكون المعنى إذا قضى أمرا فانما يقول لأجل تكوينه وإرادته له كن فيكون فعلى هذا يذهب معنى الخطاب. قوله عز وجل ١١٨ (وقال الذين لايعلمون) قال ابن عباس هم اليهود الذين كانوا فی زمن رسول الله ﷺ وقيل هم النصارى وقيل هم مشركو العرب (لولا) أی هلا

(يكلمنا الله) عيانا بأنك رسوله وكل ما في القرآن لولا فهو بمعنى هلا إلا واحدا وهو قوله «فلولا أنه كان من المسبحين» معناه فلو لم يكن (أو تأتينا آية) دلالة علامة على صدقك قال الله تعالى (كذلك قال الذين من قبلهم) أي كفار الأمم الخالية (مثل قولهم تشابهت قلوبهم) أي أشبه بعضهم بعضا في الكفر والقسوة وطلب المحال (قد بينا الآيات لقوم يوقنون. إنا أرسلناك بالحق) أي بالصدق كقوله «ويستنبئونك أحق هو قل أي وربي إنه لحق» أي صدق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالقرآن، دليله «بل كذبوا بالحق لما جاءهم» وقال ابن كيسان بالإسلام وشرائعه، دليله قوله عز وجل «وقل جاء الحق» وقال مقاتل معناه لم نرسلك عبثا إنما أرسلناك بالحق كما قال «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق» قوله عز وجل (بشيرا) أي مبشرا لأوليائي وأهل طاعتي بالثواب الكريم (ونذيرا) أي منذرا مخوفا لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم. قرأ نافع ويعقوب (ولا تسأل) على النهي قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم «ليت شعري ما فعل أبواي» فنزلت هذه الآية وقيل هو على معنى قولهم لا تسأل عن شر فلان فانه فوق ما تحسب وليس على النهي. وقرأ الآخرون ولا تسأل بالرفع على النفي بمعنى ولست بمسئول عنهم كما قال الله تعالى «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» (عن أصحاب الجحيم) والجحيم معظم النار. قوله عز وجل (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى) وذلك أنهم كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم الهدنة ويطعمونه أنه إن أمهلهم اتبعوه فأنزل الله تعالى هذه الآية معناه أنك وإن هادنتهم فلا يرجون بها وإنما يطلبون ذلك تعللا ولا يرضون منك إلا باتباع ملتهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما هذا في القبلة وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبي صلى الله عليه وسلم حين كان يصلي إلى قبلتهم فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله تعالى: ولن ترضى عنك اليهود إلا باليهودية ولا النصارى إلا

(يكلمنا الله) أي عيانا بأنك رسوله (أو تأتينا آية) أي دلالة وعلامة على صدقك (كذلك قال الذين من قبلهم) أي كفار الأمم الخالية (مثل قولهم) وذلك أن اليهود سألوا موسى أن يريهم الله جهرة وأن يسمعهم كلام الله وسألوه من الآيات ما ليس لهم مسئلته فأخبر الله عن الذين كانوا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا مثل ما قال من كان قبلهم (تشابهت قلوبهم) يعني أن المكذبين للرسل تشابهت أقوالهم وأفعالهم. وقيل تشابهت في الكفر والقسوة والتكذيب وطلب المحال (قد بينا الآيات) أي الدلالات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (لقوم يوقنون) يعني أن آيات القرآن وما جاء به محمد ﷺ من المعجزات الباهرات كافية لمن كان طالبا لليقين وإنما خص أهل الإيقان بالذكر لأنهم هم أهل التثبت في الأمور ومعرفة الأشياء على يقين. قوله عز وجل (إنا أرسلناك بالحق) أي بالصدق وقال ابن عباس بالقرآن وقيل بالاسلام وقيل معناه إنا لم نرسلك عبثا، بل أرسلناك بالحق (بشيرا) أي مبشرا لأوليائي وأهل طاعتي بالثواب العظيم (ونذيرا) أي منذرا ومخوفا لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم (ولا تسأل) قرئ بفتح التاء على النهي قال ابن عباس وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم «ليت شعري ما فعل أبواي» فنزلت هذه الآية، والمعنى إنا أرسلنا لتبليغ ما أرسلت به ولا تسأل عن أصحاب الجحيم. وقرئ ولا تسأل بضم التاء ورفع اللام على الخبر. وقيل على النفي والمعنى إنا أرسلناك بالحق لتبليغ ما أرسلت به فانما عليك البلاغ ولست مسئولا عمن كفر (عن أصحاب الجحيم) أي عن أهل النار، سميت النار جحيما لشدة تأججها وقيل الجحيم معظم النار. قوله عز وجل (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) وذلك أنهم كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم الهدنة ويطمعونه أنه إن أمهلهم اتبعوه فأنزل الله هذه الآية والمعنى إنك وإن هادنتهم فلا يرجون بها وإنما يطلبون ذلك تعللا ولا يرجون منك إلا باتباع ملتهم وقال ابن عباس هذا في أمر القبلة وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون النبي صلى الله عليه وسلم حين كان يصلي إلى بيت المقدس فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة أيسوا منه أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله تعالى ولن ترضى عنك اليهود يعني إلا باليهودية، ولا النصارى يعني إلا بالنصرانية وهذا شيء لا يتصور إذ لا يجتمع في رجل واحد شيئان في وقت واحد وهو قوله «حتى تتبع ملتهم» يعني دينهم وطريقتهم (قل) أي يا محمد (إن هدى الله) يعني دين الله الذي هو الاسلام (هو الهدى)

إلا بالنصرانية .والملة الطريقة (ولئن اتبعت أهواءهم) قيل الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد به الأمة كقوله «لئن أشركت ليحبطن عملك» (بعد الذى جاءك من العلم) البيان بأن دين الله هو الإسلام والقبلة قبلة إبراهيم عليه السلام وهى الكعبة (مالك من الله من ولى (١٠٢) ولا نصير .الذين آتيناهم الكتاب) قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى أهل السفينة قدموا مع جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه وكانوا أربعين رجلا : اثنان وثلاثون من الحبشة ، وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا ، وقال الضحاك هم من آمن من اليهود عبد الله بن سلام وشعبة بن عمرو وتمام بن يهودا وأسد وأسيد ابنا كعب وابن يامين وعبد الله بن صوريا. وقال قتادة وعكرمة هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم المؤمنون عامة (يتلونه حق تلاوته) قال الكلبى يصفونه فى كتبهم حق صفته لمن سألهم من الناس، والهاء راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وقال الآخرون هى عائدة إلى الكتاب واختلفوا فى معناه فقال ابن مسعود رضى الله عنهما يقرءونه كما أنزل ولا يحرفونه ويحلون حلاله ويحرمون حرامه وقال الحسن يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون علم ما أشكل عليهم إلى عالمه . وقال مجاهد يتبعونه حق اتباعه . وهو قوله (أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون. يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولاهم ينصرون * وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قرأ ابن عامر إبراهام بالألف فى بعض المواضع وهو ثلاثة وثلاثون موضعا جملته تسعة وتسعون

أى يصح أن يسمى هدى (ولئن اتبعت) يامحمد (أهواءهم) يعنى أهواء اليهود والنصارى فيما يرضيهم عنك وقيل أهواءهم أقوالهم التى هى أهواء وبدع (بعد الذى جاءك من العلم) أى البيان لأن دين الله هو الاسلام وأن القبلة هى قبلة إبراهيم عليه السلام وهى الكعبة (مالك من الله من ولى) يعنى يلى أمرك ويقوم بك (ولا نصير) أى ينصرك ويمنعك من عقابه .وقيل فى قوله ولئن اتبعت أهواءهم أنه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته والمعنى إياكم أخاطب ولكم أؤدب وأنهى فقد علمتم أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد جاءكم بالحق والصدق وقد عصمته فلا تتبعوا أنتم أهواء الكافرين ولئن اتبعتم أهواءهم بعد الذى جاءكم من العلم والبينات مالكم من الله من ولى ولا نصير . قوله عز وجل (١٢١) (الذين آتيناهم الكتاب) قال ابن عباس نزلت فى أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب وكانوا أربعين رجلا اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الرهب ، وقيل هم مؤمنو أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه . وقيل هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وقيل هم مؤمنون عامة (يتلونه حق تلاوته) أى يقرءونه كما أنزل لايغيرونه ولا يحرفونه ولا يبدلون مافيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل معناه يتبعونه حق اتباعه فيحلون حلاله ويحرمون حرامه ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويقفون عنده ويكلون علمه إلى الله تعالى . وقيل معناه تدبره حق تدبره وتفكروا فى معانيه وحقائقه وأسراره (أولئك) يعنى الذين يتلونه حق تلاوته (يؤمنون به) أى يصدقون به فان قلنا إن الآية فى أهل الكتاب فيكون المعنى إن المؤمن بالتوراة الذى يتلوها حق تلاوتها هو المؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن فى التوراة نعته وصفته. وإن قلنا إنها نزلت فى المؤمنين عامة فظاهر (ومن يكفر به) أى يجحد مافيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم (فأولئك هم الخاسرون) أى خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان . قوله عز وجل (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) أى أيادى لديكم وصنعى بكم واستنقاذى إياكم من أيدى عدوكم فى نعم كثيرة أنعمت بها عليكم (وأنى فضلتكم على العالمين) أى واذكروا تفضيلى إياكم على عالمى زمانكم وفى هذه الآية عظة لليهود الذين كانوا فى زمن رسول الله ﷺ وكررها فى أول السورة وهنا للتوكيد وتذكير النعم (واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا) وفى هذه الآية ترهيب لهم والمعنى يامعشر بنى إسرائيل المبدلين كتابى المحرفين له خافوا عذاب يوم لاتجزى فيه نفس عن نفس شيئا (ولايقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة) أى لايقبل منها فدية ولا يشفع لها شافع وهذا من العام الذى يراد به الخاص كقوله تعالى « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له» ومعنى الآية ولا تنفعها شفاعة إذا وجب عليها العذاب ولم تستحق سواه . وقيل إنه رد على اليهود فى قولهم إن آباءنا يشفعون لنا (ولاهم ينصرون) أى ولا ناصر لهم ينصرهم من الله إذا انتقم منهم قوله عز وجل (١٢٤) (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن) إبراهيم اسم أعجمى ومعناه أب رحيم

وهو إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناخور بن شاروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، وكان مولد إبراهيم بالسوس من أرض الأهواز وقيل ببابل وقيل بكوثى وهى قرية من سواد الكوفة وقيل بحران ولكن أباه نقله إلى أرض بابل وهى أرض نمروذ الجبار . وإبراهيم عليه السلام تعترف بفضله جميع الطوائف قديما وحديثا فأما اليهود والنصارى فانهم مقرون بفضله ويتشرفون بالنسبة إليه وأنهم من أولاده وأما العرب فى الجاهلية فانهم أيضا يعترفون بفضله ويتشرفون على غيرهم به، لأنهم من أولاده ومن ساكنى حرمه وخدام بيته، ولما جاء الاسلام زاده الله شرفا وفضلا فحكى الله تعالى عن إبراهيم أمورا توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد صلى الله عليه وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه لأن ما أوجبه الله على إبراهيم عليه السلام هو من خصائص دين محمد صلى الله عليه وسلم وفى ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركى العرب فى وجوب الانقياد لمحمد صلى الله عليه وسلم والإيمان به وتصديقه . وأصل الابتلاء الامتحان والاختبار ليعرف حال الانسان وسمى التكليف بلاء لأنه يشق على الأبدان . وقيل ليختبر به حال الإنسان فاذا قيل ابتلى فلان بكذا يتضمن أمرين : أحدهما تعرف حاله والوقوف على مايجهل من أمره . والثانى ظهور جودته ورداءته وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم والوقوف على مايجهل منها لأنه عالم بجميع المعلومات التى لانهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد ولكن ليعلم العباد أحوالهم من ظهور جودة ورداءة وعلى هذا ينزل قوله تعالى «وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات» . واختلفوا فى تلك الكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم عليه السلام قال ابن عباس هى ثلاثون سماهن شرائع الاسلام لم يبتل بها أحد فأقامها كلها إلا إبراهيم فكتب الله له البراءة فقال «وإبراهيم الذى وفى» ومعنى هذا الكلام إنه لم يبتل أحد قبل إبراهيم فأما بعده فقد أتى الأنبياء بجميع ما أمروا به من الدين خصوصا نبينا محمد ﷺ فقد أتى بجميع ما أمر به وهى عشرة مذكورة فى سورة براءة فى قوله «التائبون العابدون» الآية وعشرة فى سورة الأحزاب فى قوله «إن المسلمين والمسلمات» الآية وعشرة فى سورة المؤمنون فى قوله «قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلواتهم خاشعون» الآيات وهى مذكورة أيضا فى سورة سأل سائل . وعن ابن عباس أيضا قال ابتلاه الله بعشرة أشياء هن الفطرة خمس فى الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وخمس فى الجسد تقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء (ق) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الفطرة خمس، وفى رواية خمس من الفطرة الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الأبط» (م) عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك والاستنشاق بالماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة

موضعا . وهو اسم أعجمى ولذلك لايجرى عليه الصرف وهو إبراهيم بن تارخ وهو آزر بن ناخور وكان مولده بالسوس من أرض الأهواز . وقيل بابل . وقيل كوثى وقيل كسكر، وقيل حران ولكن أباه نقله إلى أرض بابل بأرض نمروذ بن كنعان ومعنى الابتلاء الاختبار والامتحان والأمر . وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء لأنه عالم بهم ولكن ليعلم العباد أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضا . واختلفوا فى الكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم فقال عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما : هى ثلاثون سماهن شرائع الإسلام لم يبتل بها أحد فأقامها كلها إبراهيم فكتب له البراءة فقال وإبراهيم الذى وفى : عشر فى براءة التائبون العابدون إلى آخرها وعشر فى الأحزاب : إن المسلمين والمسلمات إلى آخرها وعشر فى سورة المؤمنين فى قوله قد أفلح المؤمنون الآيات وقوله إلا المصلين فى سأل سائل . وقال طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما ابتلاه الله تعالى بعشرة أشياء وهى الفطرة : خمس فى الرأس : قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس . وخمس فى البدن : تقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء بالماء . وفى الخبر « إن إبراهيم عليه السلام أول من قص الشارب وأول من اختتن وأول من قلم الأظافر وأول من رأى الشيب فلما رآه قال يارب ماهذا قال الوقار قال يارب زدنى وقارا . قال مجاهد هى الآيات التى بعدها فى قوله عز وجل « إنى جاعلك للناس إماما » إلى آخر القصة وقال الربيع وقتادة مناسك الحج ، وقال الحسن ابتلاه الله بسبعة أشياء بالكواكب والقمر والشمس فأحسن فيها النظر وعلم أن ربه دائم لا يزول وبالنار فصبر عليها

وبالهجرة وبذبح ابنه وبالختان فصبر عليها قال سعيد بن جبير هو قول إبراهيم وإسماعيل إذ يرفعان البيت : ربنا تقبل منا الآية فرفعاه بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . قال يمان بن رباب هن محاجة قومه

قال الله تعالى « وحاجه قومه » إلى قوله تعالى « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم » وقيل هى قوله الذى خلقنى فهو يهدين إلى آخر الآيات فأتمهن قال قتادة أداهن قال الضحاك قام بهن وقال يمان عمل بهن قال الله تعالى (قال إنى جاعلك للناس إماما) يقتدى بك فى الخير (قال) إبراهيم (ومن ذريتى) أى ومن أولادى أيضا فاجعل أئمة يقتدى بهم (قال) الله تعالى (لاينال) لا يصيب (عهدى الظالمين) قرأ حمزة وحفص باسكان الياء والباقون بفتحها أى من كان منهم ظالما لايصيبه قال عطاء بن أبى رباح عهدى رحمتى وقال السدى نبوتى . وقيل الإمامة قال مجاهد ليس لظالم أن يطاع فى ظلمه ومعنى الآية لاينال ماعهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالما من ولدك وقيل أراد بالعهد الأمان من النار وبالظالم المشرك كقوله تعالى « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن » قال الله تعالى (وإذ جعلنا البيت) يعنى الكعبة (مثابة للناس) مرجعا لهم قال مجاهد وسعيد بن جبير يتوبون إليه من جانب ويحجون قال ابن عباس رضى الله عنهما معاذا وملجأ وقال قتادة وعكرمة مجمعا (وأمنا) أى مأمنا يؤمنون فيه

وانتقاص الماء » يعنى الاستنجاء قال مصعب ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة قال وكيع انتقاص الماء يعنى الاستنجاء قال العلماء الفطرة السنة وقيل الملة وقيل الطريقة وهذه الأشياء المذكورة فى الحديث وأنها من الفطرة قيل كانت على إبراهيم عليه السلام فرضا وهى لنا سنة واتفقت العلماء على أنها من الملة وأما معانيها فقد قيل أما قص الشارب وإعفاء اللحية فمخالفة للأعاجم فانهم كانوا يقصون لحاهم أويوفرون شواربهم أويوفرونهما معا وذلك عكس الجمال والنظافة وأما السواك والمضمضة والاستنشاق فلتنظيف الفم والأنف من الطعام والقلح والوسخ وأما قص الأظفار فللجمال والزينة فانها إذا طالت قبح منظرها واحتوى الوسخ فيها وأما غسل البراجم وهى العقد التى فى ظهور الأصابع فانه يجتمع فيها الوسخ ويشين المنظر وأما حلق العانة ونتف الأبط فللتنظف عما يجتمع من الوسخ فى الشعر وأما الاستنجاء فلتنظيف ذلك المحل عن الأذى وأما الختان فلتنظيف القلفة عما يجتمع فيها من البول . واختلف العلماء فى وجوبه فذهب الشافعى إلى أن الختان واجب لأنه تنكشف له العورة ولا يباح ذلك إلا فى الواجب وذهب غيره إلى أنه سنة . وأول من ختن إبراهيم عليه السلام ولم يختتن أحد قبله (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « اختتن إبراهيم بالقدوم » يروى القدوم بالتخفيف والتشديد فمن خفف ذهب إلى أنه اسم للآلة التى يقطع بها ومن شدد قال إنه اسم موضع . عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول « كان إبراهيم خليل الرحمن أول الناس ضيف الضيف وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب قال رب ماهذا قال الرب تبارك وتعالى وقارا ياإبراهيم قال يارب زدنى وقارا » أخرجه مالك فى الموطأ وقيل فى الكلمات إنها مناسك الحج . وقيل ابتلاه الله بسبعة أشياء بالكوكب والقمر والشمس فأحسن النظر فيهن وبالنار والهجرة وذبح ولده والختان فصبر عليها وقيل إن الله اختبر إبراهيم بكلمات أوحاها إليه وأمره أن يعمل بهن فأتمهن أى أداهن حق التأدية وقام بموجبهن حق القيام وعمل بهن من غير تفريط وتوان ولم ينتقص منهن شيئا . واختلفوا هل كان هذا الابتلاء قبل النبوة أو بعدها فقيل كان قبل النبوة بدليل قوله فى سياق الآية « إنى جاعلك للناس إماما » والسبب يتقدم على المسبب وقيل بل كان هذا الابتلاء بعد النبوة لأن التكليف لا يعلم إلا من جهة الوحى الإلهى وذلك بعد النبوة . والصواب أنه إن فسر الابتلاء بالكوكب والقمر والشمس كان ذلك قبل النبوة وإن فسر بما وجب عليه من شرائع الدين كان ذلك بعد النبوة . وقوله تعالى (قال إنى جاعلك للناس إماما) أى يقتدى بك فى الخير ويأتمون بسنتك وهديك ، والإمام هو الذى يؤتم به (قال ومن ذريتى) أى قال إبراهيم واجعل من ذريتى وأولادى أئمة يقتدى بهم (قال) الله (لاينال) أى لا يصيب (عهدى) أى نبوتى . وقيل الإمامة (الظالمين) يعنى من ذريتك والمعنى لاينال ماعاهدت إليك من النبوة والإمامة من كان ظالما من ذريتك وولدك . قوله عز وجل (وإذ جعلنا البيت) يعنى البيت الحرام وهو الكعبة ويدخل فيه الحرم فان الله تعالى وصفه بكونه آمنا وهذه صفة جميع الحرم (مثابة للناس) أى مرجعا من ثاب يثوب إذا رجع والمعنى يثوبون إليه من كل جانب يحجونه (وأمنا) أى موضعا ذا أمن يؤمنون فيه من أذى

المشركين

من إيذاء المشركين فانهم ما كانوا يتعرضون لأهل مكة ويقولون هم أهل الله ويتعرضون لمن حوله كما قال الله تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا على بن عبد الله أنا جرير عن منصور عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه فقال العباس يا رسول الله إلا الإذخر فانه لقينهم ولبيوتهم فقال رسول الله ﷺ إلا الإذخر» (واتخذوا) قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء على الخبر وقرأ الباقون بكسر الخاء على الأمر (من مقام إبراهيم مصلى) قال يمان: المسجد كله مقام إبراهيم وقال إبراهيم النخعى الحرم كله مقام إبراهيم وقيل أراد بمقام إبراهيم جميع مشاهد الحج مثل عرفة ومزدلفة وسائر المشاهد والصحيح أن مقام إبراهيم هو الحجر الذى فى المسجد يصلى إليه الأئمة وذلك الحجر الذى قام عليه إبراهيم عند بناء البيت وقيل كان أثر أصابع رجليه بينا فيه فاندرس من كثرة المسح بالأيدى قال قتادة ومقاتل والسدى أمروا بالصلاة عند مقام إبراهيم ولم يؤمروا بمسحه

المشركين فانهم كانوا لا يتعرضون لأهل مكة ويقولون هم أهل الله وقال ابن عباس معاذا وملجأ (ق) عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه فقال العباس يارسول الله إلا الإذخر فانه لقينهم وبيوتهم فقال إلا الإذخر». معنى الحديث أنه لا يحل لأحد أن ينصب القتال والحرب فى الحرم وإنما أحل ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة فقط ولا يحل لأحد بعده. قوله لا يعضد شوكه أى لا يقطع شوك الحرم وأراد به ما لا يؤذى منه أما ما يؤذى منه كالعوسج فلا بأس بقطعه. قوله ولا ينفر صيده أى لا يتعرض له بالاصطياد ولا يهاج. قوله ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها أى ينشدها. والنشد رفع الصوت بالتعريف. واللقطة فى جميع الأرض لا تحل إلا لمن يعرفها حولا فان جاء صاحبها أخذها وإلا انتفع بها الملتقط بشرط الضمان. وحكم مكة فى اللقطة أن يعرفها على الدوام بخلاف غيرها من البلاد فانه محدود بسنة. قوله ولا يختلى خلاه. الخلى مقصور الرطب من النبات الذى يرعى وقيل هو اليابس من الحشيش وخلاه قطعه. وقوله لقينهم القين الحداد

وقوله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قيل الحرم كله مقام إبراهيم، وقيل أراد بمقام إبراهيم جميع مشاهد الحج مثل عرفة والمزدلفة والرمى وسائر المشاهد والصحيح أن مقام إبراهيم هو الحجر الذى يصلى عنده الأئمة وذلك الحجر هو الذى قام إبراهيم عليه عند بناء البيت، وقيل كان أثر أصابع رجلى إبراهيم عليه السلام فيه فاندرست بكثرة المسح بالأيدى وقيل إنما أمروا بالصلاة عنده ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله (ق) عن أنس بن مالك قال قال عمر «وافقت ربى فى ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» الحديث. وكان بدء قصة المقام على ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال أول ما اتخذت النساء المنطق من قبل أم إسمعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسمعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم من أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسمعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها فقالت له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت إذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه وقال ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم إسمعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت

وتقبيله. أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد عن يحيى بن حميد عن أنس قال قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وافقت الله فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله عز وجل آية الحجاب، قال وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت لهن إن انتهيتن أو ليبدلنه الله خيرا منكن فأنزل الله تعالى «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن» الآية ورواه محمد بن إسماعيل أيضا عن عمرو بن عون أنا هشام عن حميد عن أنس رضى الله عنه قال قال عمر رضى الله عنه «وافقت ربى فى ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» وأما بدء قصة المقام فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما أتى إبراهيم إسماعيل وهاجر وضعهما بمكة وأتت على ذلك مدة ونزلها الجرهميون وتزوج إسماعيل منهم امرأة وماتت هاجر واستأذن إبراهيم سارة أن يأتى هاجر فأذنت له وشرطت عليه أن لاينزل فقدم إبراهيم مكة وقد ماتت هاجر فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته أين صاحبك

عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادى ورفعت طرف درعها وسعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت يامن قد أسمعت إن كان عندك غواث فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم إسمعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لاتخافى الضيعة فان هاهنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى ومافيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذاهم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لاحق لكم فى الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسمعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسمعيل يطالع تركته فلم يجد إسمعيل فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغى لنا وفى رواية ذهب يصيد لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر نحن فى ضيق وشدة وشكت إليه فقال إذا جاء زوجك اقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئا فقال هل جاءكم من أحد قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة فقال هل أوصاك بشىء قالت نعم أمرنى أن اقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك قال ذلك أبى وقد أمرنى أن أفارقك الحقى بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسأل عنه فقالت خرج يبتغى لنا قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل فقال وماطعامكم قالت اللحم قال وما شرابكم قالت الماء قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء قال النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم حب دعا لهم فيه قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه وفى رواية فجاء فقال أين إسماعيل فقالت امرأته قد ذهب يصيد فقالت امرأته ألا تنزل عندنا فتطعم وتشرب قال وماطعامكم وشرابكم قالت طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم قال فقال أبو القاسم بركة دعوة إبراهيم قال فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام

ومريه

قالت ذهب يتصيد وكان إسماعيل عليه السلام يخرج من الحرم فيصيد فقال لها إبراهيم هل عندك ضيافة قالت ليس عندى ضيافة وسألها عن عيشهم فقالت نحن فى ضيق وشدة فشكت إليه فقال لها إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له فليغير عتبة بابه فذهب إبراهيم فجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه فقال لامرأته هل جاءك أحد؟ فقالت جاءنى شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه قال فما قال لك قالت قال أقرئى زوجك السلام وقولى له فليغير عتبة بابه قال ذلك أبى وقد أمرنى أن أفارقك الحقى بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخرى فلبث إبراهيم ماشاء الله أن يلبث ثم استأذن سارة أن يزور إسماعيل فأذنت له وشرطت عليه أن لاينزل فجاء إبراهيم عليه السلام حتى انتهى إلى باب إسماعيل فقال لامرأته أين صاحبك قالت ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله فأنزل رحمك الله قال هل عندك ضيافة قالت نعم فجاءت باللبن واللحم وسألها عن عيشهم فقالت نحن بخير وسعة فدعا لهما بالبركة ولو جاءت يومئذ (١٠٧) بخبز بر أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله برا أو شعيرا أو تمرا فقالت له انزل حتى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عن شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولته إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فبقى أثر قدميه عليه فقال لها إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له قد استقامت عتبة بابك فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه فقال لامرأته هل جاءك أحد قالت نعم شيخ أحسن الناس وجها وأطيبهم ريحا وقال لى كذا وكذا وقلت له كذا وكذا وغسلت رأسه وهذا موضع قدميه فقال: ذاك إبراهيم النبى أبى وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك. وروى عن سعيد بن جبير أيضا عن ابن عباس قال ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا تحت دوحة قريبة من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال يا إسماعيل إن الله تعالى أمرنى بأمر تعيننى عليه قال أعينك عليه قال إن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا فعند ذلك رفع القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى فلما ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام إبراهيم على حجر المقام وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. وفى الخبر «الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ولولا مسته أيدى المشركين لأضاء مابين المشرق والمغرب» قوله عز وجل (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل) أى أمرناهما وأوصينا إليهما. قيل سمى إسماعيل لأن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولدا ويقول اسمع يا إيل، وإيل هو الله فلما رزق الولد سماه به.

ومريه أن يثبت عتبة بابه فلما جاء إسمعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال فأوصاك بشىء قالت نعم يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك فقال: ذاك أبى وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسمعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال يا إسمعيل إن الله أمرنى بأمر قال فاصنع ما أمرك ربك قال وتعيننى قال وأعينك قال فان الله أمرنى أن أبنى بيتا ههنا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها فعند ذلك رفع القواعد من البيت فجعل إسمعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام إبراهيم عليه وهو يبنى وإسمعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم: وفى رواية حتى إذا ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم. وقيل إن امرأة إسمعيل قالت لإبراهيم انزل اغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بالمقام فوضعته عن شقه الأيمن فوضع قدمه عليه فغسلت شق رأسه الأيمن ثم حولته إلى شقه الأيسر فغسلت شق رأسه الأيسر فبقى أثر قدميه عليه. عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاء مابين المشرق والمغرب» أخرجه الترمذى وقال هذا يروى عن ابن عمر موقوفا. واختلفوا في قوله: مصلى فمن فسر المقام بمشاهد الحج ومشاعره قال مصلى مدعى من الصلاة التى هى الدعاء ومن فسر المقام بالحجر قال معناه واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى قبلة أمروا بالصلاة عنده وهذا القول هو الصحيح لأن لفظ الصلاة إذا أطلق لا يعقل منه إلا الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود ولأن مصلى الرجل هو الموضع الذى يصلي فيه (وعهدنا إلى إبراهيم وإسمعيل) أى أمرناهما وألزمناهما وأوجبنا

عليهما . قيل إنما سمى إسمعيل لأن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولدا ويقول فى دعائه اسمع يا إيل وإيل بلسان السريانية هو الله فلما رزق الولد سماه به (أن طهرا بيتى) يعنى الكعبة أضافه إليه تشريفا وتفضيلا وتخصيصاً ، أى ابنياه على الطهارة والتوحيد ، وقيل طهراه من سائر الأقذار والأنجاس ، وقيل طهراه من الشرك والأوثان وقول الزور (للطائفين) يعنى الدائرين حوله (والعاكفين) يعنى المقيمين به والمجاورين له (والركع السجود) جمع راكع وساجد وهم المصلون وقيل الطائفين يعنى الغرباء الواردين إلى مكة والعاكفين يعنى أهل مكة المقيمين بها قيل إن الطواف للغرباء أفضل والصلاة لأهل مكة بمكة أفضل . قوله عز وجل (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا) إشارة إلى مكة وقيل إلى الحرم (بلدا آمنا) أى ذا أمن يأمن فيه أهله ، وإنما دعا إبراهيم له بالأمن لأنه بلد ليس فيه زرع ولا ثمر فاذا لم يكن آمنا لم يجلب إليه شىء من النواحى فيتعذر المقام به . فأجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وجعله بلدا آمنا فما قصده جبار إلا قصمه الله تعالى كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم من الجبابرة . فان قلت قد غزا مكة الحجاج وخرب الكعبة . قلت لم يكن قصده بذلك مكة ولا أهلها ولا إخراب الكعبة وإنما كان قصده خلع ابن الزبير من الخلافة ولم يتمكن من ذلك إلا بذلك فلما حصل قصده أعاد بناء الكعبة فبناها وشيدها وعظم حرمتها وأحسن إلى أهلها . واختلفوا هل كانت مكة محرمة قبل دعوة إبراهيم عليه السلام أو حرمت بدعوته على قولين ؟ : أحدهما أنها كانت محرمة قبل دعوته بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض » وقول إبراهيم عليه السلام « إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » فهذا يقتضى أن مكة كانت محرمة قبل دعوة إبراهيم . القول الثانى أنها إنما حرمت بدعوة إبراهيم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حرم مكة وإنى حرمت المدينة » وهذا يقتضى أن مكة كانت قبل دعوة إبراهيم حلالا كغيرها من البلاد وإنما حرمت بدعوة إبراهيم ، ووجه الجمع بين القولين وهو الصواب أن الله تعالى حرم مكة يوم خلقها كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض » ولكن لم يظهر ذلك التحريم على لسان أحد من أنبيائه ورسله وإنما كان تعالى يمنعها ممن أرادها بسوء ويدفع عنها وعن أهلها الآفات والعقوبات فلم يزل ذلك من أمرها حتى بوأها الله تعالى إبراهيم وأسكن بها أهله فحينئذ سأل إبراهيم ربه عز وجل أن يظهر تحريم مكة لعباده على لسانه فأجاب الله تعالى دعوته وألزم عباده تحريم مكة فصارت مكة حراما بدعوة إبراهيم وفرض على الخلق تحريمها والامتناع من استحلالها واستحلال صيدها وشجرها فهذا وجه الجمع بين القولين وهو الصواب ، والله أعلم (وارزق أهله من الثمرات) إنما سأل إبراهيم ذلك لأن مكة لم يكن بها زرع ولا ثمر فاستجاب الله تعالى له وجعل مكة حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء (من آمن منهم بالله واليوم الآخر) يعنى ارزق المؤمنين من أهله خاصة . وسبب هذا التخصيص أن إبراهيم عليه السلام لما سأل ربه عز وجل أن يجعل النبوة والإمامة فى ذريته فأجابه الله بقوله « لاينال عهدى الظالمين » صار ذلك تأديبا له فى المسئلة فلا جرم خص هاهنا بدعائه المؤمنين دون الكافرين ثم أعلمه أن الرزق فى الدنيا يستوى فيه المؤمن

جبير وعطاء طهراه من الأوثان والريب وقول الزور وقيل بخراه وخلقاه قاله يمان بن رباب قرأ أهل المدينة وحفص بيتى بفتح الياء هاهنا وفى سورة الحج وزاد حفص فى سورة نوح (للطائفين) الدائرين حوله (والعاكفين) المقيمين المجاورين (والركع) جمع راكع (السجود) جمع ساجد وهم المصلون قال الكلبى ومقاتل الطائفين هم الغرباء والعاكفين أهل مكة قال عطاء ومجاهد وعكرمة الطواف للغرباء أفضل والصلاة لأهل مكة أفضل (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا) يعنى مكة ، وقيل الحرم (بلدا آمنا) أى ذا أمن يأمن فيه أهله (وارزق أهله من الثمرات) إنما دعا بذلك لأنه كان بواد غير ذى زرع وفى القصص أن الطائف كانت من بلاد الشام بأردن فلما دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى قلعها من أصلها وأدارها حول البيت سبعا ثم وضعها موضعها الذى هى الآن فيه ، فمنها أكثر ثمرات (من آمن منهم بالله واليوم الآخر) دعا للمؤمنين خاصة

المؤمن والكافر بقوله (قال ومن كفر فأمتعه) أى سأرزق الكافر أيضا (قليلا) أى فى الدنيا إلى منتهى أجله وذلك قليل لأنه ينقطع (ثم أضطره إلى عذاب النار) أى ألجئه أكرهه وأدفعه إلى عذاب النار، والمضطر هو الذى لايملك لنفسه الامتناع مما اضطر إليه (وبئس المصير) أى وبئس المكان الذى يصير إليه الكافر وهو العذاب . قوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل) وكانت قصة بناء البيت على ماذكره العلماء وأصحاب السير أن الله تعالى خلق موضع البيت قبل أن يخلق الأرض بألفى عام فكانت زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحتها فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله تعالى فأنزل البيت المعمور وهو من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقى وباب غربى فوضعه على موضع البيت وقال يا آدم إنى أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى وأنزل الله عليه الحجر الأسود وكان أبيض فاسود من مس الحيض فى الجاهلية فتوجه آدم من الهند ماشيا إلى مكة وأرسل الله إليه ملكا يدله على البيت فحج آدم البيت وأقام المناسك فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا له برحجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام . قال ابن عباس : حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجليه فكان على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله إلى السماء الرابعة وهو البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لايعودون إليه وبعث الله جبريل حتى خبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خاليا إلى زمن إبراهيم عليه السلام ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ماولد له إسمعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه ويعبد فسأل الله أن يبين له موضعه فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت وهى ريح خجوج لها رأسان تشبه الحية والخجوج من الرياح هى الشديدة السريعة الهبوب وقيل هى المتلوية فى هبوبها وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فتبعها إبراهيم حتى أتت موضع البيت فتطوقت عليه كتطويق الحجفة وقال ابن عباس بعث الله سبحانه وتعالى سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشى فى ظلها إلى أن وقفت على موضع البيت ونودى منها يا إبراهيم ابن على قدر ظلها لا تزد ولا تنقص . وقيل إن الريح كنست له ماحول الكعبة حتى ظهر له أساس البيت الأول فذلك قوله تعالى « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » فبنى إبراهيم وإسمعيل البيت فكان إبراهيم يبنيه وإسمعيل يناوله الحجارة فذلك قوله تعالى « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت » جمع قاعدة وهى أس البيت . وقيل جدرة من البيت . قال ابن عباس بنى ابرهيم البيت من خمسة أجبل : من طور سيناء وطور زيتا ولبنان جبل بالشام والجودى جبل بالجزيرة وبنى قواعده من حراء جبل بمكة فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسمعيل ائتنى بحجر حسن يكون للناس علما فأتاه بحجر فقال ائتنى بأحسن منه فمضى إسمعيل ليطلب حجرا أحسن منه فصاح أبو قبيس : يا إبراهيم إن لك عندى وديعة فخذها فقذف بالحجر الأسود فأخذه إبراهيم فوضعه مكانه وقيل إن الله أمد إبراهيم وإسمعيل بسبعة أملاك يعينونهما فى بناء البيت فلما فرغا من بنائه قالا:

واحد (قليلا) أى سأرزق الكافر أيضا قليلا إلى منتهى أجله وذلك أن الله تعالى وعد الرزق للخلق كافة مؤمنهم وكافرهم وإنما قيد بالقلة لأن متاع الدنيا قليل (ثم أضطره) أى ألجئه فى الآخرة (إلى عذاب النار وبئس المصير) أى المرجع يصير إليه . قال مجاهد وجد عند المقام كتاب فيه : « أنا الله ذو بكة صنعتها يوم خلقت الشمس والقمر وحرمتها يوم خلقت السموات والأرض وحففتها بسبعة أفلاك حنفاء يأتيها رزقها من ثلاثة سبل مبارك لها فى اللحم والماء » قوله عز وجل (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) قال الرواة : إن الله تعالى خلق موضع البيت قبل الأرض بألفى عام وكانت زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض من تحتها فلما أهبط الله آدم إلى الأرض استوحش فشكا إلى الله تعالى فأنزل الله البيت المعمور من ياقوتة من يواقيت الجنة له بابان من زمرد أخضر باب شرقى وباب غربى فوضعه على موضع البيت وقال يا آدم إنى أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى تصلى عنده كما يصلى عند عرشى ، وأنزل

الحجر وكان أبيض فاسود من لمس الحيض فى الجاهلية فتوجه آدم من أرض الهند إلى مكة ماشيا وقيض الله له ملكا يدله على البيت فحج البيت وأقام المناسك فلما فرغ تلقته الملائكة وقالوا بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام. قال ابن عباس رضى الله عنه: حج آدم أربعين حجة من الهند إلى مكة على رجليه فكان على ذلك إلى أيام الطوفان فرفعه الله تعالى إلى السماء الرابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة وبعث جبريل عليه السلام حتى خبأ الحجر الأسود فى جبل أبى قبيس صيانة له من الغرق فكان موضع البيت خاليا إلى زمن إبراهيم، ثم إن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ماولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه فسأل الله عز وجل أن يبين له موضعه فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت وهى ريح خجوج لها رأسان شبه الحية فأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة فتطوقت السكينة على موضع البيت كتطوق الحجفة هذا قول على والحسن. وقال ابن عباس بعث الله بسحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشى فى ظلها إلى أن وافق مكة ووقفت على موضع البيت فنودى منها إبراهيم أن ابن على ظلها لا تزد ولا تنقص، وقيل أرسل الله جبريل ليدله على موضع البيت فذلك قوله تعالى «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت» فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت فكان إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجر فذلك قوله تعالى «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل» يعنى أسسه واحدتها قاعدة وقال الكسائى جدر البيت قال ابن عباس إنما بنى البيت من خمسة أجبل: طور سيناء وطور زيتا ولبنان وهو جبل بالشام والجودى وهو جبل بالجزيرة وبنيا قواعده من حراء وهو جبل بمكة فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر الأسود قال لإسماعيل ائتنى بحجر حسن يكون للناس علما فأتاه بحجر فقال ائتنى بأحسن من هذا، فمضى إسماعيل يطلبه فصاح أبو قبيس يا إبراهيم إن لك عندى وديعة فخذها فأخذ الحجر الأسود فوضعه مكانه. وقيل إن الله تعالى بنى فى السماء بيتا وهو البيت المعمور ويسمى ضراح وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة فى الأرض بحياله على قدره ومثاله. وقيل أول من بنى الكعبة آدم واندرس زمن الطوفان ثم أظهره الله لإبراهيم حتى بناه (ربنا تقبل منا) فيه إضمار أى ويقولان ربنا تقبل منا بناءنا (إنك أنت السميع) لدعائنا (العليم) بنياتنا (ربنا واجعلنا مسلمين لك) موحدين مطيعين مخلصين خاضعين لك (ومن ذريتنا) أى أولادنا (أمة) جماعة. والأمة أتباع الأنبياء (مسلمة لك) خاضعة لك (وأرنا) علمنا وعرفنا. قرأ ابن كثير ساكنة الراء وأبو عمرو بالاختلاس والباقون بكسرها ووافق ابن عامر وأبو بكر فى الإسكان فى حم السجدة وأصله أرئنا فحذفت الهمزة طلبا للخفة ونقلت حركتها إلى الراء ومن سكنها قال ذهبت الهمزة فذهبت حركتها (مناسكنا) شرائع ديننا وأعلام حجنا وقيل مواضع حجنا وقال مجاهد مذابحنا والنسك الذبيحة وقيل متعبداتنا وأصل النسك العبادة والناسك العابد فأجاب الله تعالى دعاءهما فبعث جبريل فأراهما المناسك فى يوم عرفة فلما بلغ عرفات قال عرفت يا إبراهيم قال نعم فسمى

(ربنا تقبل منا) وفى الآية إضمار تقديره ويقولان ربنا تقبل منا أى ماعملنا لك وتقبل طاعتنا إياك وعبادتنا لك (إنك أنت السميع) أى لدعائنا (العليم) يعنى بنياتنا. قوله عز وجل (ربنا واجعلنا مسلمين لك) يعنى موحدين مخلصين مطيعين خاضعين لك. فان قلت الاسلام إما أن يكون المراد منه الدين والاعتقاد أو الاستسلام والانقياد وقد كانا كذلك حالة هذا الدعاء فما فائدة هذا الطلب؟. قلت: فيه وجهان أحدهما أن الاسلام عرض قائم بالقلب وقد لا يبقى، فقوله واجعلنا مسلمين لك يعنى فى المستقبل وذلك لا ينافى حصوله فى الحال. الوجه الثانى يحتمل أن يكون المراد منه طلب الزيادة فى الإيمان فكأنهما طلبا زيادة اليقين والتصديق وذلك لا ينافى حصوله فى الحال (ومن ذريتنا) أى من أولادنا (أمة) أى جماعة (مسلمة) أى خاضعة منقادة (لك) وإنما أدخل من التى هى للتبعيض لأن الله تعالى أعلمهما بقوله «لا ينال عهدى الظالمين» إن فى ذريتهما الظالم فلهذا خص بعض الذرية بالدعاء. فان قلت لم خص ذريتهما بالدعاء. قلت لأنهم أحق بالشفقة والنصيحة، قال الله تعالى «قوا أنفسكم وأهليكم نارا» ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم غيرهم ألا ترى أن المتقدمين من العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد كيف يتسببون لسداد من وراءهم. وقيل أراد بالأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى «وابعث فيهم رسولا منهم» (وأرنا) أى علمنا وبصرنا (مناسكنا) أى شرائع ديننا وأعلام حجنا، وقيل مناسكنا يعنى مذابحنا والنسك الذبيحة، وقيل متعبداتنا وأصل النسك العبادة والناسك العابد فأجاب الله دعاءهما وبعث جبريل فأراهما المناسك فى يوم

الوقت عرفة والموضع عرفات (وتب علينا) تجاوز عنا (إنك أنت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم) أى فى الأمة المسلمة من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وقيل فى أهل مكة (رسولا منهم) أى مرسلا منهم راد به محمدا صلى الله عليه وسلم. حدثنا السيد أبوالقاسم على بن موسى الموسوى حدثنى أبو بكر أحمد بن محمد بن عباس البلخى، أنا الإمام أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى أنا محمد بن المكى أنا إسحاق بن إبراهيم أنا ابن أخى بن وهب أنا عمى أنا معاوية عن صالح عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى عن هلال السلمى عن العرباض ابن سارية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنى عند الله مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم بأول أمرى أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى وقد خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام، وأراد بدعوة إبراهيم هذا فانه دعا أن يبعث فى بنى إسماعيل رسولا منهم . قال ابن عباس كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين (يتلو) يقرأ (عليهم آياتك) كتابك يعنى القرآن والآية من القرآن كلام متصل إلى انقطاعه وقيل هى جماعة حروف، يقال خرج القوم بآيتهم أى بجماعتهم (ويعلمهم الكتاب) يعنى القرآن (والحكمة) قال مجاهد فهم القرآن وقال مقاتل مواعظ القرآن وما فيه من الأحكام. قال قتيبة هى العلم والعمل ولا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما وقيل هى السنة وقيل هى الأحكام والقضاء وقيل الحكمة الفقه. قال أبوبكر بن دريد كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة .

عرفة فلما بلغ عرفات قال عرفت يا إبراهيم قال إبراهيم نعم فسمى ذلك الوقت عرفة والموضع عرفات (وتب علينا) أى تجاوز عنا (إنك أنت التواب) أى المتجاوز عن عباده (الرحيم) بهم واحتج بقوله « وتب علينا » من جوز الذنوب على الأنبياء . ووجهه أن التوبة لا تطلب من الله إلا بعد تقدم الذنب فلولا تقدم الذنب لم يكن لطلب التوبة وجه . وأجيب عنه بأن العبد وإن اجتهد فى طاعة ربه عز وجل فانه لا ينفك عن تقصير فى بعض الأوقات إما على سبيل السهو أو ترك الأولى والأفضل، وكان هذا الدعاء لأجل ذلك، وقيل يحتمل أن الله تعالى لما أعلم إبراهيم أن فى ذريته من ظالم فلا جرم سأل ربه التوبة لأولئك الظلمة، والمعنى وتب على الظلمة من أولادنا حتى يرجعوا إلى طاعتك فيكون ظاهر الكلام الدعاء لأنفسهما والمراد به ذريتهما. وقيل يحتمل أنهما لما رفعا قواعد البيت وكان ذلك المكان أحرى الأماكن بالإجابة دعوا الله بذلك الدعاء ليجعلا ذلك سنة وليقتدى من بعدهما فى ذلك الدعاء لأن ذلك المكان هو موضع التنصل من الذنوب وسؤال التوبة والمغفرة من الله تعالى . قوله عز وجل (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) يعنى وابعث فى الأمة المسلمة أو الذرية وهم العرب من ولد إسمعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وقوله رسولا منهم يعنى ليدعوهم إلى الاسلام ويكمل الدين والشرع وإذا كان الرسول منهم يعرفون نسبه ومولده ومنشأه كان أقرب لقبول قوله ويكون هو أشفق عليهم من غيره، وأجمع المفسرون على أن المراد بقوله «رسولا منهم» هو محمد ﷺ لأن إبراهيم عليه السلام إنما دعا لذريته وهو بمكة ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد ﷺ، فدل على أن المراد به محمد صلى الله عليه وسلم وروى البغوي باسناده عن العرباض بن سارية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إنى عند الله مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم بأول أمرى أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى وقد خرج لها نور ساطع أضاءت لها منه قصور الشام » وقوله لمنجدل فى طينته معناه أنه مطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح وأراد بدعوة إبراهيم قوله : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم، فاستجاب الله دعاء إبراهيم وبعث محمدا صلى الله عليه وسلم فى آخر الزمان وأنقذهم به من الكفر والظلم وأراد ببشارة عيسى عليه السلام قوله فى سورة الصف «ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد» (يتلو عليهم) أى يقرأ عليهم (آياتك) يعنى ما توحيه إليه وهو القرآن الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأن الذى كان يتلوه عليهم هو القرآن فوجب حمله عليه (ويعلمهم الكتاب) يعنى معانى الكتاب وحقائقه لأن المقصود الأعظم تعليم ما فى القرآن من دلائل التوحيد والنبوة والأحكام الشرعية فلما ذكر الله تعالى أولا أمر التلاوة وهى حفظ القرآن ودراسته ليبقى مصونا عن التحريف والتبديل ذكر بعده تعليم حقائقه وأسراره (والحكمة) أى ويعلمهم الحكمة وهى الإصابة فى القول والعمل ولا يسمى الرجل

(ويزكيهم) أى يطهرهم من الشرك والذنوب ، وقيل يأخذ الزكاة من أموالهم وقال ابن كيسان يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة إذا شهدوا للأنبياء بالبلاغ ، من التزكية وهى التعديل (إنك أنت العزيز الحكيم) قال ابن عباس العزيز الذى لايوجد مثله ، وقال الكلبى المنتقم ؛ بيانه قوله تعالى «والله عزيز ذو انتقام» وقيل المنيع الذى لاتناله الأيدى ولا يصل إليه شىء ، وقيل القوى ، والعزة القوة قال الله تعالى «فعززنا بثالث» قالوا أى قوينا ، وقيل الغالب قال الله تعالى إخبارا «وعزنى فى الخطاب» أى غلبنى ويقال فى المثل من عزيز أى من غلب سلب (ومن يرغب عن ملة إبراهيم) وذلك أن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما قد علمتما أن الله عز وجل قال فى التوراة إنى باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله عز وجل «ومن يرغب عن ملة إبراهيم» أى يترك دينه وشريعته ، يقال رغب فى الشىء إذا أراده ورغب عنه إذا تركه وقوله من لفظه استفهام ومعناه التقريع والتوبيخ يعنى ما يرغب عن ملة إبراهيم (إلا من سفه نفسه) قال ابن عباس من خسر نفسه . وقال الكلبى ضل من قبل نفسه . وقال أبو عبيدة أهلك نفسه وقال ابن كيسان والزجاج معناه جهل نفسه . والسفاهة الجهل وضعف الرأى وكل سفيه جاهل وذلك أن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعرف أن الله خالقها وقد جاء «من عرف نفسه فقد عرف ربه» وفى الأخبار « إن الله تعالى أوحى إلى داود اعرف نفسك واعرفنى فقال يارب كيف أعرف نفسى وكيف أعرفك فأوحى الله إليه اعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء واعرفنى بالقوة والقدرة والبقاء . وقال الأخفش معناه

حكيما إلا إذا اجتمع فيه الأمران . وقيل الحكمة هى التى تردع عن الجهل والخطأ وذلك إنما يكون بما ذكرناه من الاصابة فى القول والعمل ووضع كل شىء موضعه ، وقيل الحكمة معرفة الأشياء بحقائقها . واختلف المفسرون فى المراد بالحكمة ههنا فروى ابن وهب قال قلت لمالك ما الحكمة قال المعرفة بالدين والفقه فيه والاتباع له . وقال قتادة الحكمة هى السنة وذلك لأن الله تعالى ذكر تلاوة الكتاب وتعليمه ثم عطف عليه الحكمة فوجب أن يكون المراد بها شيئا آخر وليس ذلك إلا السنة . وقيل الحكمة هى العلم بأحكام الله تعالى التى لايدرك علمها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم والمعرفة بها منه . وقيل الحكمة هى الفصل بين الحق والباطل . وقيل هى معرفة الأحكام والقضاء وقيل هى فهم القرآن ، والمعنى ويعلمهم مافى القرآن من الأحكام والحكمة وهى مافيه من المصالح الدينية والأحكام الشرعية . وقيل كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة (ويزكيهم) أى ويطهرهم من الشرك وعبادة الأوثان وسائر الأرجاس والرذائل والنقائص ، وقيل يزكيهم من التزكية أى يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة إذا شهدوا للأنبياء بالبلاغ ثم ختم إبراهيم الدعاء بالثناء على الله تعالى فقال (إنك أنت العزيز) قال ابن عباس العزيز الذى لايوجد مثله . وقيل هو الذى يقهر ولا يقهر وقيل هو المنيع الذى لاتناله الأيدى وقيل العزيز القوى والعزة القوة من قولهم أرض عزاز أى صلبة قوية (الحكيم) أى العالم الذى لاتخفى عليه خافية ، وقيل هو العالم بالأشياء وإيجادها على غاية الإحكام . قوله عز وجل (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن سلام دعا ابنى أخيه إلى الاسلام مهاجرا وسلمة وقال لهما قد علمتما أن الله تعالى قال فى التوراة إنى باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله تعالى «ومن يرغب عن ملة إبراهيم» أى يترك دينه وشريعته ، وفيه تعويض باليهود والنصارى ومشركى العرب لأن اليهود والنصارى يفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم والوصلة إليه لأنهم من بنى إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم والعرب يفتخرون به لأنهم من ولد إسمعيل بن إبراهيم وإذا كان كذلك كان إبراهيم هو الذى طلب بعثة هذا الرسول فى آخر الزمان فمن رغب عن الإيمان بهذا الرسول الذى هو دعوة إبراهيم فقد رغب عن ملة إبراهيم ومعنى يرغب عن ملة إبراهيم أى يترك دينه وشريعته يقال رغب فى الشىء إذا أراده ورغب عنه إذا تركه إلا من سفه نفسه قال ابن عباس خسر نفسه وقيل أهلك نفسه وقيل امتهنها واستخف بها وأصل السفه الخفة وقيل الجهل وضعف الرأى فكل سفيه جاهل لأن من عبد غير الله فقد جهل نفسه لأنه لم يعترف بأن الله خالقها وقد جاء «من عرف نفسه فقد عرف ربه» ومعناه أن يعرف نفسه بالذل والعجز والضعف والفناء

سفه فى نفسه، ونفسه على هذا القول نصب بنزع حرف الصفة وقال الفراء نصب على التفسير وكان الأصل سفهت نفسه فلما أضاف الفعل إلى صاحبها خرجت النفس مفسرة ليعلم موضع السفه كما يقال ضقت به ذرعا أى ضاق ذرعى به (ولقد اصطفيناه فى الدنيا) اخترناه فى الدنيا (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) يعنى أى مع الأنبياء فى الجنة وقال الحسين بن الفضل فيه تقديم وتأخير تقديره ولقد اصطفيناه فى الدنيا والآخرة وإنه لمن الصالحين (١١٣) (إذ قال له ربه أسلم) أى

استقم على الإسلام واثبت عليه لأنه كان مسلما قال ابن عباس قال له ذلك حين خرج من السرب وقال الكلبى أخلص دينك وعبادتك لله وقال عطاء أسلم نفسك إلى الله عز وجل وفوض أمورك إليه (قال أسلمت لرب العالمين) أى فوضت قال ابن عباس وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى فى النار (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) قرأ أهل المدينة والشام وأوصى بالألف وكذلك فى مصاحفهم . وقرأ الباقون ووصى مشددا وهما لغتان مثل نزل ونزل معناه ووصى بها إبراهيم بنيه ووصى يعقوب بنيه قال الكلبى ومقاتل يعنى كلمة الإخلاص لا إله إلا الله قال أبو عبيدة إن شئت رددت الكناية إلى الملة لأنه ذكر ملة إبراهيم وإن شئت رددتها إلى الوصية أى

والفناء ويعرف ربه بالعز والقدرة والقوة والبقاء ويدل على هذا أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام اعرف نفسك واعرفنى قال يارب وكيف أعرف نفسى وكيف أعرفك ؟ قال اعرف نفسك بالعجز والضعف والفناء واعرفنى بالقوة والقدرة والبقاء (ولقد اصطفيناه) أى اخترناه (فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) يعنى الفائزين وقيل مع الأنبياء فى الجنة (إذ قال له ربه أسلم) أى استقم على الإسلام واثبت عليه لأنه كان مسلما لأن الأنبياء إنما نشئوا على الإسلام والتوحيد قال ابن عباس رضى الله عنهما قال له ذلك حين خرج من السرب وذلك عند استدلاله بالكواكب والشمس والقمر واطلاعه على أمارات الحدوث فيها وافتقارها إلى محدث مدبر فلما عرف ذلك قال له ربه أسلم (قال أسلمت لرب العالمين) أى قال إبراهيم خضعت بالطاعة وأخلصت العبادة لمالك الخلائق ومدبرها ومحدثها . وقيل معنى أسلم أخلص دينك وعبادتك لله واجعلها سليمة . وقيل الإيمان من صفات القلب والإسلام من صفات الجوارح وإن إبراهيم كان مؤمنا بقلبه عارفا بالله فأمره الله أن يعمل بجوارحه وقيل معناه أسلم نفسك إلى الله تعالى وفوض أمرك إليه قال أسلمت أى فوضت أمرى لرب العالمين قال ابن عباس رضى الله عنهما وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى فى النار. قوله عز وجل (ووصى بها إبراهيم بنيه) يعنى بكلمة الإخلاص، وهى لا إله إلا الله. وقيل هى الملة الحنيفية وكان لإبراهيم ثمانية أولاد إسماعيل وأمه هاجر القبطية وإسحق وأمه سارة ومدين ومدان ويقشان وزمران وشيق وشوخ وأمهم قطورا بنت يقطن الكنعانية تزوجها إبراهيم حين وفاة سارة فان قلت لم قال وصى بها إبراهيم بنيه ولم يقل أمرهم ؟. قلت لأن لفظ الوصية أوكد من لفظ الأمر لأن الوصية إنما تكون عند الخوف من الموت وفى ذلك الوقت يكون احتياط الإنسان لولده أشد وأعظم وكانوا هم إلى قبول وصيته أقرب وإنما خص بنيه بهذه الوصية لأن شفقة الرجل على بنيه أكثر من شفقته على غيرهم. وقيل لأنهم كانوا أئمة يقتدى بهم فكان صلاحهم صلاحا لغيرهم (ويعقوب) أى ووصى يعقوب بمثل ما وصى به إبراهيم، وسمى يعقوب لأنه هو والعيص كانا توأمين فى بطن واحد فتقدم العيص وقت الولادة فى الخروج من بطن أمه وخرج يعقوب على أثره آخذا بعقبه قال ابن عباس وقيل سمى يعقوب لكثرة عقبه وكان له من الولد اثنا عشر وهم : روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وربالون ويشجرودان ونفتالى وجاد وآشر ويوسف وبنيامين، ثم خاطب يعقوب بنيه فقال (يابنى إن الله اصطفى لكم الدين) أى اختار لكم دين الإسلام (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى مؤمنون مخلصون فالمعنى دوموا على إسلامكم حتى يأتيكم الموت وأنتم مسلمون لأنه لا يعلم فى أى وقت يأتى الموت على الإنسان وقيل فى معنى وأنتم مسلمون أى محسنون الظن بالله عز وجل يدل عليه ما روى عن جابر قال

وصى إبراهيم بنيه الثمانية إسماعيل وأمه هاجر القبطية وإسحاق وأمه سارة وستة أمهم قنطورا بنت يقطن الكنعانية تزوجها إبراهيم بعد وفاة سارة . ويعقوب سمى بذلك لأنه والعيص كانا توأمين فتقدم عيص فى الخروج من بطن أمه وخرج يعقوب على أثره آخذا بعقبه قاله ابن عباس وقيل سمى يعقوب لكثرة عقبه يعنى ووصى أيضا يعقوب بنيه الاثنى عشر (يابنى) معناه أن يابنى (إن الله اصطفى) اختار (لكم الدين) أى دين الإسلام (فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)

مؤمنون وقيل مخلصون وقيل مفوضون والنهى فى ظاهر الكلام وقع على الموت وإنما نهوا فى الحقيقة عن ترك الإسلام معناه داوموا على الإسلام حتى لايصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون وعن الفضيل بن عياض رحمه الله أنه قال إلا وأنتم مسلمون أى محسنون بربكم الظن. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبى شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى أنا على بن الجعد أنا أبو جعفر الرازى عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر ابن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول «لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل» قوله تعالى (أم كنتم شهداء) يعنى أكنتم شهداء يريد ماكنتم شهداء حضورا (إذ حضر يعقوب الموت) أى حين قرب يعقوب من الموت قيل نزلت فى اليهود (١١٤) حين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فعلى هذا القول يكون الخطاب لليهود وقال الكلبى لما دخل يعقوب مصر رآهم يعبدون الأوثان والنيران فجمع ولده وخاف عليهم ذلك فقال عز وجل (إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى) قال عطاء إن الله تعالى لم يقبض نبيا حتى خيره بين الحياة والموت فلما خير يعقوب قال يارب أنظرنى حتى أسأل ولدى وأوصيهم ففعل الله ذلك به فجمع ولده وولد ولده وقال لهم قد حضر أجلى فما تعبدون من بعدى؟ (قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق) وكان إسماعيل عما لهم والعرب تسمى العم أبا كما تسمى الخالة أما قال النبى ﷺ «عم الرجل صنو أبيه» وقال فى عمه العباس «ردوا على أبى فانى أخشى أن تفعل به قريش مافعلت ثقيف بعروة بن مسعود» وذلك أنهم قتلوه (إلها واحدا) نصب على البدل من قوله إلهك وقيل نعرفه إلها واحدا (ونحن له مسلمون تلك أمة) جماعة (قد خلت) مضت (لها ما كسبت) من العمل (ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون) يعنى يسئل كل عن عمله لاعن عمل غيره. قوله (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) قال ابن عباس نزلت فى رؤساء يهود المدينة كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبى ياسر بن أخطب وفى نصارى أهل نجران السيد والعاقب وأصحابهما وذلك أنهم خاصموا المسلمين فى الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله فقالت اليهود نبينا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب وديننا أفضل الأديان وكفرت بعيسى والإنجيل وبمحمد

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول «لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» أخرجاه فى الصحيحين. قوله عز وجل (أم كنتم شهداء) جمع شهيد بمعنى الحاضر أى ماكنتم حاضرين (إذ حضر يعقوب الموت) أى حين احتضر وقرب من الموت نزلت فى اليهود وذلك لأنهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم إن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية فأنزل الله تعالى هذه الآية تكذيبا لهم والمعنى أم كنتم يامعشر اليهود شهودا على يعقوب إذ حضره الموت أى إنكم لم تحضروا ذلك فلا تدعوا على أنبيائى ورسلى الأباطيل وتنسبوهم إلى اليهودية فانى ما ابتعثت خليلى إبراهيم وولده وأولادهم إلا بدين الإسلام وبذلك وصوا أولادهم وبه عهدوا إليهم ثم بين ماقال يعقوب لبنيه فقال تعالى (إذ قال) يعنى يعقوب (لبنيه) يعنى لأولاده الاثنى عشر (ماتعبدون) أى أى شىء تعبدون (من بعدى) قيل إن الله تعالى لم يقبض نبيا حتى يخيره بين الحياة والموت فلما خير يعقوب وكان قد رأى أهل مصر يعبدون الأوثان والنيران فقال أنظرنى حتى أسأل ولدى وأوصيهم فأمهله فجمع ولده وولد ولده قال لهم قد حضر أجلى ماتعبدون من بعدى؟ (قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) إنما قدم إسمعيل لأنه كان أكبر من إسحق وأدخله فى جملة الآباء وإن كان عما لهم لأن العرب تسمي العم أبا والخالة أما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عم الرجل صنو أبيه» وقال فى عمه العباس «ردوا على أبى» (إلها واحدا ونحن له مسلمون) أى مخلصون العبودية (تلك) إشارة إلى الأمة المذكورة يعنى إبراهيم وإسمعيل وإسحق ويعقوب وولدهم (أمة قد خلت) أى مضت لسبيلها والمعنى يامعشر اليهود والنصارى دعوا ذكر إبراهيم وإسمعيل وإسحق والمسلمين من أولادهم ولاتقولوا عليهم ماليس فيهم (لها ما كسبت) يعنى من العمل (ولكم) يعنى يامعشر اليهود والنصارى (ما كسبتم) أى من العمل (ولاتسئلون عما كانوا يعملون) يعنى كل فريق يسئل عن عمله لا عن عمل غيره. قوله عز وجل (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) قال ابن عباس نزلت فى رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبى ياسر بن أخطب وفى نصارى نجران السيد والعاقب وأصحابهما وذلك أنهم خاصموا

المؤمنين

صلى الله عليه وسلم والقرآن وقالت النصارى نبينا أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد ﷺ والقرآن وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك فقال تعالى (قل) يامحمد (بل ملة إبراهيم) بل تتبع ملة إبراهيم وقال الكسائي هو نصب على الإغراء كأنه يقول اتبعوا ملة إبراهيم . وقيل معناه بل نكون على ملة إبراهيم فحذف على فصار منصوبا (حنيفا) نصب على الحال عند نحاة البصرة وعند نحاة الكوفة نصب على القطع أراد به ملة بل إبراهيم الحنيف فلما أسقطت الألف واللام لم تتبع النكرة المعرفة فانقطع منه فنصب . قال مجاهد الحنيفية اتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التى صار بها إماما للناس قال ابن عباس الحنيف المائل عن الأديان كلها إلي دين الإسلام وأصله من الحنف وهو ميل وعوج يكون فى القدم وقال سعيد بن جبير الحنيف هو الحاج المختتن ، وقال الضحاك إذا كان مع الحنيف المسلم فهو الحاج وإذا لم يكن مع المسلم فهو المسلم قال قتادة الحنيفية الختان وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وإقامة المناسك (وما كان من المشركين) ثم علم المؤمنين طريق الإيمان فقال جل ذكره (قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا) يعنى القرآن (وما أنزل إلي إبراهيم) وهو عشر صحف (وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) يعنى أولاد يعقوب وهم اثنا عشر سبطا واحدهم سبط سموا بذلك لأنه ولد لكل واحد منهم جماعة وسبط الرجل حافده . ومنه قيل للحسن والحسين رضى الله عنهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب من بنى إسرائيل والشعوب من العجم وكان فى الأسباط أنبياء ولذلك قال : وما أنزل إليهم وقيل هم بنو يعقوب من صلبه صاروا كلهم أنبياء (وما أوتى موسى) يعنى التوراة (وعيسى) يعنى الإنجيل (وما أوتى) أعطى (النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم) أى نؤمن بالكل لانفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى (ونحن له مسلمون) أخبرنا عبد الواحد المليحى ، أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن بشار أنا عثمان بن عمر أنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله

المؤمنين فى الدين فكل فريق منهم يزعم أنه أحق بدين الله فقالت اليهود نبينا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب وديننا أفضل الأديان وكفروا بعيسى والإنجيل ومحمد والقرآن وقالت النصارى كذلك وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك فأنزل الله عزوجل (قل) يعنى يامحمد (بل ملة إبراهيم) يعنى إذا كان لابد من الاتباع فنتبع ملة إبراهيم لأنه مجمع على فضله (حنيفا) أصله من الحنف وهو ميل واعوجاج يكون فى القدم قال ابن عباس الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، قال الشاعر :

ولكنا خلقنا إذ خلقنا حنيفا ديننا عن كل دين

والعرب تسمى كل من حج أواختتن حنيفا تنبيها على أنه على دين إبراهيم وقيل الحنيفية الختان وإقامة المناسك مسلما يعنى أن الحنيفية هى دين الإسلام وهو دين إبراهيم عليه السلام (وما كان من المشركين) يعنى إبراهيم وفيه تعريض لليهود والنصارى وغيرهم ممن يدعى اتباع ملة إبراهيم وهو على الشرك ثم علم المؤمنين طرائق الإيمان فقال تعالى (قولوا آمنا بالله) يعنى قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا : آمنا بالله أى صدقنا بالله (وما أنزل إلينا) يعنى القرآن (وما أنزل إلى إبراهيم) يعنى وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم وهو عشر صحائف (وإسمعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر واحدهم سبط وكانوا أنبياء وقيل السبط هو ولد الولد وهو الحافد ومنه قيل للحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب من بنى إسماعيل وكان فى الأسباط أنبياء (وما أوتى موسى) يعنى التوراة (وعيسى) يعنى الإنجيل (وما أوتى النبيون من ربهم) والمعنى آمنا أيضا بالتوراة والإنجيل والكتب التى أوتى جميع النبيين وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونور وأن الجميع من عند الله وأن جميع ماذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى وحق (لانفرق بين أحد منهم) أى لانؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وأقرت ببعض الأنبياء وكما تبرأت النصارى من محمد صلى الله عليه وسلم وأقرت ببعض الأنبياء بل نؤمن بكل الأنبياء وأن جميعهم كانوا على حق وهدى (ونحن له مسلمون) أى ونحن لله تعالى خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية

عليه وسلم «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله» الآية (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به) اى بما امنتم به وكذلك كان يقرؤها ابن عباس والمثل صلة كقوله تعالي «ليس كمثله شيء» أى ليس هو كشيء وقيل معناه فان آمنوا بجميع ما آمنتم به أى أتوا بايمان كايمانكم وتوحيد كتوحيدكم وقيل معناه فان آمنوا مثل ما آمنتم والباء زائدة كقوله تعالي «وهزى إليك بجذع النخلة» وقال أبو معاذ النحوى معناه فان آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم (فقد اهتدوا وإن تولوا فانما هم فى شقاق) أى فى خلاف ومنازعة قال ابن عباس وعطاء يقال شاق مشاقة إذا خالف كأن كل واحد أخذ فى شق غير شق صاحبه قال الله تعالي «لايجر منكم شقاقى» أى خلافى وقيل فى عداوة دليله قوله تعالي «ذلك بأنهم شاقوا الله» أى عادوا الله (فسيكفيكهم الله) يا محمد أى يكفيك شر اليهود والنصارى وقد كفى باجلاء بنى النضير وقتل بنى قريظة وضرب الجزية على اليهود والنصارى (وهو السميع) لأقوالهم (العليم) بأحوالهم. قوله تعالى (صبغة الله) قال ابن عباس فى رواية الكلبى وقتادة والحسن دين الله وإنما سماه صبغة لأنه يظهر أثر الدين على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب وقيل لأن المتدين يلزمه ولا يفارقه كالصبغ يلزم الثوب وقال مجاهد فطرة الله وهو قريب من الأول وقيل سنة الله وقيل أراد به الختان لأنه يصبغ صاحبه بالدم وقال ابن عباس هى أن النصارى إذا ولد لأحدهم ولد فأتت عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لهم أصفر يقال له المعمودية يعنى وصبغوه به ليطهروه بذلك الماء مكان الختان فاذا فعلوا به ذلك قالوا الآن صار نصرانيا حقا فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما يفعله النصارى، وهو نصب على الإغراء يعنى الزموا دين الله قال الأخفش هى بدل من قوله : ملة إبراهيم (ومن أحسن من الله صبغة) دينا وقيل تطهيرا (ونحن له عابدون) مطيعون (قل) يا محمد لليهود والنصارى (أتحاجوننا فى الله) أى فى دين الله والمحاجة المجادلة فى الله لإظهار الحجة وذلك بأنهم قالوا إن الأنبياء كانوا منا وعلى ديننا وديننا أقدم فنحن أولى بالله منكم فقال الله قل أتحاجوننا فى الله (وهو ربنا وربكم) أى نحن وأنتم سواء في الله فانه ربنا وربكم (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى لكل واحد

(خ) عن أبى هريرة قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا» الآية. قوله عز وجل (فان آمنوا) يعنى اليهود والنصارى (بمثل ما آمنتم به) أى بما آمنتم به ومثل صلة فهو كقوله «ليس كمثله شىء» أى ليس مثله شىء وقيل فان أتوا بايمان كايمانكم وتوحيد كتوحيدكم (فقد اهتدوا) والمعنى إن حصلوا دينا آخر يساوى هذا الدين فى الصحة والسداد فقد اهتدوا ولكن لما استحال أن يوجد دين آخر يساوى هذا الدين فى الصحة والسداد استحال الاهتداء بغيره لأن هذا الدين مبناه على التوحيد والإقرار بكل الأنبياء وما أنزل إليهم وقيل معناه فان آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا (وإن تولوا) أى أعرضوا (فانما هم فى شقاق) أى فى خلاف ومنازعة وقيل فى عداوة ومحاربة وقيل فى ضلال. وأصله من الشق كأنه صار فى شق غير شق صاحبه بسبب عداوته وقيل هو من المشقة لأن كل واحد منهما يحرص على مايشق على صاحبه ويؤذيه (فسيكفيكهم الله) أى يكفيك الله يامحمد شر اليهود والنصارى وهو ضمان من الله تعالى لإظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه إذا تكفل بشىء أنجزه وهو إخبار بغيب نفيه معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم وقد أنجز الله وعده بقتل بنى قريظة وسبيهم وإجلاء بنى النضير وضرب الجزية على اليهود والنصارى (وهو السميع) لأقوالهم (العليم) بأحوالهم يسمع جميع ماينطقون به ويعلم جميع مايضمرون من الحسد والغل وهو مجازيهم ومعاقبهم عليه. قوله عز وجل (صبغة الله) قال ابن عباس دين الله وإنما سماه الله صبغة لأن أثر الدين يظهر على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب وقيل فطرة الله وقيل سنة الله وقيل أراد به الختان لأنه يصبغ المختتن بالدم قال ابن عباس إن النصارى إذا ولد لأحدهم مولود وأتى عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لهم أصفر يسمونه ماء المعمودية وصبغوه به ليطهروه به مكان الختان فاذا فعلوا ذلك به قالوا الآن صار نصرانيا حقا فأخبر الله أن دينه الاسلام لا ما تفعله النصارى (ومن أحسن من الله صبغة) أى دينا وقيل تطهيرا لأنه يطهر من أوساخ الكفر (ونحن له عابدون) أى مطيعون (قل) يعنى يامحمد لليهود والنصارى الذين قالوا إن دينهم خير من دينكم وأمروكم باتباعهم (أتحاجوننا فى الله) أى أتخاصموننا وتجادلوننا في دين الله الذى أمرنا أن نتدين به والمحاجة المجادلة لإظهار الحجة وذلك أنهم قالو إن ديننا أقدم من دينكم وإن الأنبياء منا وعلى ديننا فنحن أولى بالله منكم فأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا لهم : أتحاجوننا فى الله (وهو ربنا وربكم) أى ونحن وأنتم فى الله سواء فانه ربنا وربكم (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم)

جزاء عمله فكيف تدعون أنكم أولى بالله (ونحن له مخلصون) وأنتم به مشركون قال سعيد بن جبير الإخلاص أن يخلص
العبد دينه وعمله فلا يشرك به فى دينه ولا يرائى بعمله قال الفضيل ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل
من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما . قال الله تعالي (أم تقولون) يعنى أتقولون صيغة استفهام ومعناه التوبيخ وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وحفص بالتاء لقوله تعالي « قل أتحاجوننا فى الله » وقال بعده «قل أأنتم أعلم أم الله» وقرأ الآخرون بالياء يعني يقول اليهود والنصارى (إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصرى قل) يامحمد (أأنتم أعلم) بدينهم (أم الله) ؟ وقد أخبر الله تعالي أن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما (ومن أظلم ممن كتم) أخفى (شهادة عنده من الله) تعالي وهى علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم حق ورسول أشهدهم الله عليه فى كتبهم (وما الله بغافل عما تعملون تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما
كانوا يعملون) كرره تأكيدا .قوله تعالى(سيقول السفهاء) الجهال(من الناس ماولاهم) أى شيء صرفهم وحولهم (عن قبلتهم التى
كانوا عليها) يعنى بيت المقدس والقبلة فعلة من المقابلة. نزلت فى اليهود ومشركى مكة طعنوا فى تحويل القبلة من بيت المقدس
إلي مكة فقالوا لمشركى مكة قد تردد على محمد أمره فاشتاق إلي مولده وقد توجه نحو بلدكم وهو راجع إلي دينكم فقال الله

يعنى أن لكل أحد جزاء عمله (ونحن له مخلصون) أى مخلصو الطاعة والعبادة له وفيه توبيخ
لليهود والنصارى والمعنى وأنتم به مشركون. والإخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله تعالى فلا
يشرك فى دينه ولا يرائى بعمله قال الفضيل بن عياض ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل
من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما وهذه الآية منسوخة بآية السيف .
قوله عز وجل (أم تقولون) يعنى اليهود والنصارى وهو استفهام ومعناه التوبيخ (إن إبراهيم
وإسمعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى) يعنى أتزعمون أن إبراهيم وبنيه
كانوا على دينكم وملتكم وإنما حدثت اليهودية والنصرانية بعدهم فثبت كذبكم يامعشر اليهود
والنصارى على إبراهيم وبنيه (قل) يامحمد (أأنتم أعلم) يعنى بدينهم (أم الله) ؟ أى الله أعلم بذلك
وقد أخبر أن إبراهيم وبنيه لم يكونوا على اليهودية والنصرانية ولكن كانوا مسلمين حنفاء
(ومن أظلم ممن كتم) يعنى أخفى (شهادة عنده من الله) وهى علمهم بأن إبراهيم وبنيه كانوا
مسلمين وأن محمدا أحق بنعته وصفته وجدوا ذلك فى كتبهم وكتموه وجحدوه ، والمعنى ومن أظلم
ممن كتم شهادة جاءته من عند الله فكتمها وأخفاها (وما الله بغافل عما تعملون) يعنى من
كتمانكم الحق فيما ألزمكم به فى كتابه من أن إبراهيم وبنيه كانوا مسلمين حنفاء وأن الدين هو
الإسلام لا اليهودية والنصرانية ، والمعنى وما الله غافل عن عملكم بل هو محصيه عليكم ثم يعاقبكم
عليه فى الآخرة (تلك أمة قد خلت) يعنى إبراهيم وبنيه (لها ما كسبت) أى جزاء ما كسبت
(ولكم ما كسبتم) أى جزاء ما كسبتم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) يعنى أن كل إنسان إنما
يسئل يوم القيامة عن كسبه وعمله لا عن كسب غيره وعمله وفيه وعظ وزجر لليهود ولمن يتكل
على فضل الآباء وشرفهم أى لا تتكلوا على فضل الآباء فكل يؤخذ بعمله وإنما كررت هذه
الآية لأنه إذا اختلف مواطن الحجاج والمجادلة حسن تكريره للتذكير به وتأكيده ، قيل إنما
كرره تنبيها لليهود لئلا يغتروا بشرف آبائهم . قوله عز وجل (سيقول السفهاء من الناس) أى
الجهال من الناس والسفه خفة فى النفس لنقصان العقل فى الأمور الدينية والدنيوية ولا شك
أن ذلك فى باب الدين أعظم لأن العادل عن الأمر الواضح فى أمر دنياه يعد سفيها فمن كان
كذلك فى أمر دينه كان أولى بهذا الاسم فلا كافر إلا وهو سفيه ولهذا أمكن حمل هذا اللفظ
على اليهود والمشركين والمنافقين فقيل نزلت هذه الآية فى اليهود وذلك إنهم طعنوا فى تحويل
القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة لأنهم لا يرون النسخ وقيل نزلت فى مشركى مكة وذلك
أنهم قالوا قد تردد على محمد أمره واشتاق مولده وقد توجه إلى نحو بلدكم فلعله يرجع إلى
دينكم وقيل نزلت فى المنافقين وإنما قالوا ذلك استهزاء بالاسلام وقيل يحتمل أن لفظ السفهاء
للعموم فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود ويحتمل وقوع هذا الكلام من كلهم
إذ لا فائدة فى التخصيص ولأن الأعداء يبالغون فى الطعن والقدح فاذا وجدوا مقالا قالوا أو
مجالا جالوا (ماولاهم) يعنى أى شىء صرفهم (عن قبلتهم التى كانوا عليها) يعنى بيت المقدس
والقبلة هى الجهة التى يستقبلها الإنسان وإنما سميت قبلة لأن المصلى يقابلها وتقابله ولما قال

تعالي (قل : لله المشرق والمغرب) ملكا والخلق عبيده (يهدى من يشاء إلي صراط مستقيم وكذلك جعلناكم أمة وسطا) نزلت فى رؤساء اليهود قالوا لمعاذ بن جبل : ماترك محمد قبلتنا إلا حسدا وإن قبلتنا قبلة الأنبياء ولقد علم محمد أنا عدل بين الناس فقال معاذ إنا على حق وعدل فأنزل الله تعالى : وكذلك ، أى وهكذا وقيل الكاف للتشبيه وهى مردودة على قوله : «ولقد اصطفيناه فى الدنيا» أى كما اخترنا إبراهيم وذريته واصطفيناهم كذلك جعلناكم أمة وسطا أى عدلا خيارا قال الله تعالي «قال أوسطهم» أى خيرهم وأعلمهم وخير الأشياء أوسطها وقال الكلبى يعنى أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان فى الدين. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أبو معشر إبراهيم بن محمد بن الحسين الوراق ، أنا أبو عبد الله محمد بن زكريا بن يحيى أنا أبو الصلت أنا حماد ابن زيد أنا على بن زيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد العصر ، فما ترك شيئا إلى يوم القيامة إلا ذكره فى مقامه ذلك حتى إذا كانت الشمس على رءوس النخل وأطراف الحيطان قال أما إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا ألا وإن هذه الأمة توفى سبعين أمة هى آخرها وأخيرها وأكرمها على الله تعالى» قوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس) يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم قال ابن جريج قلت لعطاء مامعنى قوله تعالى : «لتكونوا شهداء على الناس» قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم شهداء على من يترك الحق من الناس أجمعين (ويكون الرسول) محمد صلى الله عليه وسلم (عليكم شهيدا) معدلا مزكيا لكم

قوله

السفهاء ذلك رد الله تعالى عليهم بقوله (قل) يامحمد (لله المشرق والمغرب) يعنى أن له قطرى المشرق والمغرب وما بينهما ملكا فلا يستحق شىء أن يكون لذاته قبلة لأن الجهات كلها شىء واحد وإنما تصير قبلة لأن الله تعالى هو الذى جعلها قبلة فلا اعتراض عليه وهو قوله (يهدى من يشاء) يعنى من عباده (إلي صراط مستقيم) يعنى إلى جهة الكعبة وهى قبلة إبراهيم عليه السلام . قوله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) الكاف فى قوله وكذلك كاف التشبيه جاء لمشبه به وفيه وجوه أحدها أنه معطوف على ماتقدم من قوله فى حق إبراهيم «ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وكذلك جعلناكم أمة وسطا» الثانى أنه معطوف على قوله« يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وكذلك هديناكم وجعلنا قبلتكم وسطا بين المشرق والمغرب كذلك جعلناكم أمة وسطا يعنى عدولا خيارا وخير الأمور أوسطها ، قال زهير :

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم   إذا نزلت إحدى الليالى بمعظم

وقيل متوسطة والمعنى أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان فى أمر الدين لا كغلو النصارى فى عيسى ولا كتقصير اليهود فى الدين وهو تحريفهم وتبديلهم . وسبب نزول هذه الآية أن رؤساء اليهود قالوا لمعاذ بن جبل : ماترك محمد قبلتنا إلا حسدا وإن قبلتنا قبلة الأنبياء ولقد علم محمد أنا أعدل الناس فقال معاذ : أنا على حق وعدل فأنزل الله تعالى هذه الآية . وروى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ألا وإن هذه الأمة توفى سبعين أمة هى آخرها وخيرها وأكرمها على الله تعالى » . وقوله تعالى (لتكونوا شهداء على الناس) يعنى يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم رسالات ربهم ، وقيل إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم شهداء على من ترك الحق من الناس أجمعين (ويكون الرسول) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (عليكم شهيدا) يعنى عدلا مزكيا لكم وذلك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد ثم يقول لكفار الأمم : ألم يأتكم نذير فينكرون ويقولون ماجاءنا من نذير فيسأل الله الأنبياء عن ذلك فيقولون كذبوا قد بلغناهم فيسألهم البينة وهو أعلم بهم إقامة الحجة فيقولون أمة محمد تشهد لنا فيؤتى بأمة محمد عليه الصلاة والسلام فيشهدون لهم بأنهم قد بلغوا فتقول الأمم الماضية من أين علموا وإنما أتوا بعدنا فيسأل هذه الأمة فيقولون أرسلت إلينا رسولا وأنزلت عليه كتابا أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل وأنت صادق فيما أخبرت ثم يؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم (خ) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجاء بنوح وأمته يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم أى رب فيسأل أمته هل بلغكم فيقولون ما جاءنا من نذير فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيجاء بكم فتشهدون ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » زاد الترمذى وسطا عدولا .

وذلك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ثم يقول لكفار الأمم الماضية: ألم يأتكم نذير فينكرون ويقولون ماجاءنا من بشير ولا نذير فيسأل الله الأنبياء عليهم السلام عن ذلك فيقولون كذبوا قد بلغناهم فيسأل البينة وهو أعلم بهم إقامة للحجة فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون لهم أنهم قد بلغوا فتقول الأمم الماضية من أين علموا وإنما أتوا بعدنا فيسأل هذه الأمة فيقولون أرسلت إلينا رسولا وأنزلت عليه كتابا أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل وأنت صادق فيما أخبرت ثم يؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا إسحاق بن منصور أخبرنا أبو أسامة قال الأعمش أخبرنا أبو صالح عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم يارب فيسأل أمته هل بلغكم فيقولون ماجاءنا من نذير فيقال من شهودك فيقول محمد وأمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجاء بكم فتشهدون ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» قوله تعالى (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) أي تحويلها يعني بيت المقدس فيكون من باب حذف المضاف ويحتمل أن يكون المفعول الثاني للجعل محذوفا على تقدير وما جعلنا القبلة التي كنت عليها منسوخة وقيل معناه التي أنت عليها وهي الكعبة كقوله تعالى «كنتم خير أمة» أي أنتم (إلا لنعلم من يتبع الرسول) فان قيل مامعنى قوله «إلا لنعلم» وهو عالم بالأشياء كلها قبل كونها، قيل أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب فانه لايتعلق بما هو عالم به في الغيب إنما يتعلق بما يوجد معناه لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب، وقيل إلا لنعلم أي لنرى ونميز من يتبع الرسول في القبلة (ممن ينقلب على عقبيه) فيرتد وفي الحديث «إن القبلة لما حولت ارتد قوم من المسلمين إلي اليهودية وقالوا رجع محمد إلي دين آبائه» وقال أهل المعاني معناه إلا لعلمنا من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه كأنه سبق في علمه أن تحويل القبلة سبب لهداية قوم وضلالة قوم وقد يأتي لفظ الاستقبال بمعنى الماضي كما قال الله تعالي «فلم تقتلون أنبياء الله» أي فلم قتلتموهم (وإن كانت) أي وقد كانت أو تولية القبلة وقيل الكناية راجعة إلي القبلة وقيل إلي الكعبة قال الزجاج وإن كانت التحويلة (لكبيرة) ثقيلة شديدة (إلا على الذين هدي الله) أي هداهم الله قال سيبويه وإن تأكيد شبيه باليمين ولذلك دخلت اللام في جوابها (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وذلك أن حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس إن كانت هدى فقد تحولتم عنها، وإن كانت ضلالة فقد دنتم الله بها ومن مات منكم عليها

(١١٩)

قوله عز وجل (وماجعلنا القبلة التي كنت عليها) أي وما جعلنا صرفك عن القبلة التي كنت عليها وهي بيت المقدس وإنما حذف ذكر الصرف اكتفاء بدلالة اللفظ عليه وقيل معناه وماجعلنا القبلة التي كنت عليها منسوخة وقيل معناه وما جعلنا القبلة التي كنت عليها وهي الكعبة و (إلا لنعلم من يتبع الرسول) فان قلت مامعنى قوله: إلا لنعلم وهو عالم بالأشياء كلها قبل كونها قلت أراد به العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب فانه لايتعلق بما هو عالم به في الغيب إنما يتعلق بما يوجد والمعنى لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب، وقيل العلم هنا بمعنى الرؤية أي لنرى ونميز من يتبع الرسول في القبلة ممن ينقلب على عقبيه وقيل معناه إلا لتعلم رسلي وحزبي وأوليائي من المؤمنين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وكان من شأن العرب إضافة مافعله الاتباع إلى الكبير كقولهم فتح عمر العراق وجبى خراجها وإنما فعل ذلك أتباعه عن أمره، وقيل إنما قال إلا لنعلم وهو بذلك عالم قبل كونه على وجه الرفق بعباده ومعناه إلا لتعلموا أنتم إذ كنتم جهالا به قبل كونه فاضافة العلم إلى نفسه رفقا بعباده المخاطبين وقيل معناه لعلمنا لأنه تعالى سبق في علمه أن تحويل القبلة سبب لهداية قوم وضلالة آخرين ومعنى من يتبع الرسول أي يطيعه في أمر القبلة وتحويلها (ممن ينقلب على عقبيه) أي يرجع إلى ما كان عليه من الكفر فيرتد وفي الحديث «إنه لما تحولت القبلة إلى الكعبة ارتد قوم إلى اليهودية وقالوا رجع محمد إلي دين آبائه» (وإن كانت) أي وقد كانت (لكبيرة) يعني تولية القبلة ثقيلة شاقة وقيل هي التولية من بيت المقدس إلى الكعبة وقيل الكبيرة هي القبلة التي وجهه إليها قبل التحويل وهي بيت المقدس وأنث الكبيرة لتأنيث القبلة وقيل لتأنيث التولية (إلا على الذين هدى الله) يعني الصادقين في اتباع الرسول (وما كان الله ليضيع إيمانكم) يعني صلاتكم إلي بيت المقدس، وذلك

فقد مات على الضلالة ؟ فقال المسلمون إنما الهدى ماأمر الله به والضلالة مانهى الله عنه قالوا فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا وكان قد مات قبل أن تحول إلى الكعبة من المسلمين أسعد بن زرارة من بنى النجار والبراء بن معرور من بنى سلمة وكانا من النقباء ورجال آخرون ؟ فانطلق عشائرهم إلي النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا يارسول الله قد صرفك الله إلي قبلة إبراهيم فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلي بيت المقدس فأنزل الله تعالي «وما كان الله ليضيع إيمانكم» يعنى صلاتكم إلي بيت المقدس (إن الله بالناس لرءوف رحيم) قرأ أهل الحجاز وابن عامر وحفص لرءوف مشبعا على وزن فعول لأن أكثر أسماء الله تعالي على فعول وفعيل كالغفور والشكور والرحيم والكريم وغيرها وأبو جعفر يلين الهمزة وقرأ الآخرون بالاختلاس على وزن فعل قال جرير

ترى للمسلمين عليك حقا
كفعل الواحد الرؤف الرحيم

والرأفة أشد الرحمة. قوله تعالي (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) هذه الآية وإن كانت متأخرة فى التلاوة فهى متقدمة فى المعنى فانها رأس القصة . وأمر القبلة أول مانسخ من أمور الشرع ، وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلي الكعبة ، فلما هاجر إلي المدينة أمره الله أن يصلى نحو صخرة بيت المقدس ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلي قبلتهم مع مايجدون من نعته فى التوراة فصلى بعد الهجرة ستة عشر أو سبعة عشر أشهر إلي بيت المقدس وكان يحب أن يوجه إلي الكعبة لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام وقال مجاهد كان يحب ذلك من أجل اليهود لأنهم كانوا يقولون يخالفنا محمد صلى الله عليه وسلم فى ديننا ويتبع قبلتنا فقال لجبريل عليه السلام وددت لو حولنى الله إلي الكعبة فانها قبلة أبي إبراهيم عليه السلام فقال جبريل إنما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربك فسل أنت ربك فانك عند الله عز وجل بمكان فعرج جبريل عليه السلام وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة فأنزل الله تعالي «قد نرى تقلب وجهك فى السماء» (فلنولينك قبلة) فلنحولنك إلي قبلة :

أن حيى بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين أخبرونا عن صلاتكم إلي بيت المقدس إن كانت على هدى فقد تحولتم عنه وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة ومن مات عليها فقد مات على ضلالة فقال المسلمون إنما الهدى فيما أمر الله به والضلالة نهى الله عنه قالوا فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا وكان قد مات قبل أن تحول القبلة إلي الكعبة أسعد بن زرارة من بنى النجار والبراء بن معرور من بنى سلمة وكانا من النقباء ورجال آخرون فانطلق عشائرهم إلي النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله قد صرفك الله إلي قبلة إبراهيم فكيف باخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلي بيت المقدس فأنزل الله تعالي «وما كان الله ليضيع إيمانكم» يعنى صلاتكم إلي بيت المقدس (إن الله بالناس لرءوف رحيم) يعنى لانضيع أجورهم والرأفة أخص من الرحمة وأرق وقيل الرأفة أشد من الرحمة وقيل الرأفة الرحمة وقيل فى الفرق بين الرأفة والرحمة أن الرأفة مبالغة فى رحمة خاصة وهى دفع المكروه وإزالة الضرر وأما الرحمة فانها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه أيضا جميع الإفضال والإنعام فذكر الله الرأفة ولا بمعنى أنه لانضيع أعمالهم ثم ذكر الرحمة ثانيا لأنها أعم وأشمل . قوله عز وجل (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) سبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يصلون بمكة إلى الكعبة فلما هاجر إلى المدينة أحب أن يستقبل بيت المقدس يتألف بذلك اليهود وقيل أن الله تعالى أمره بذلك ليكون أقرب إلى تصديق اليهود إياه إذا صلى إلى قبلتهم مع مايجدون من نعته وصفته فى التوراة فصلى إلى بيت المقدس بعد الهجرة ستة عشرا وسبعة عشر شهرا وكان يحب أن يتوجه إلى الكعبة لأنها قبلة أبيه إبراهيم وقيل كان يحب ذلك من أجل أن اليهود قالوا يخالفنا محمد فى ديننا ويتبع قبلتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل وددت لو حولنى الله إلى الكعبة بأنها قبلة أبى إبراهيم فقال جبريل صلى الله عليه وسلم إنما أنا عبد مثلك وأنت كريم على ربك فسل أنت ربك فانك عند الله بمكان ثم عرج جبريل وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السماء رجاء أن ينزل جبريل بما يحب من أمر القبلة فأنزل الله عز وجل قد نرى تقلب وجهك فى السماء يعنى تردد وجهك وتصرف نظرك فى السماء أى إلى جهة السماء وهذه الآية وإن كانت متأخرة فى التلاوة فهى متقدمة فى المعنى لأنها رأس القصة وأول مانسخ من أحكام الشرع أمر القبلة (فلنولينك) أى فلنحولنك ولنصرفنك (قبلة) أى ولنصرفنك عن بيت المقدس إلى قبلة (ترضاها)

(تُرضاها) أى تحبها وتهواها (فول) أى حول (وجهك شطر المسجد الحرام) أى نحوه وأراد به الكعبة والحرام المحرم (وحيثما كنتم) من بر أو بحر شرق أو غرب (فولوا وجوهكم شطره) عند الصلاة . أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا إسحاق بن نصر أخبرنا عبدالرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال سمعت ابن عباس قال : لما دخل النبى صلى الله عليه وسلم البيت دعا فى نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه فلما خرج ركع ركعتين فى قبل الكعبة وقال هذه القبلة . أخبرنا عبد الواحد المليحى أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عمرو بن خالد أخبرنا زهير أخبرنا أبو إسحاق عن البراء أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أول ماقدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت . وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس وأهل الكتاب فلما تولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك . وقال البراء فى حديثه هذا إنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر مانقول فيهم ؟ فأنزل الله تعالى «وماكان الله ليضيع إيمانكم» وكان تحويل القبلة فى رجب بعد زوال الشمس قبل قتال بدر بشهرين قال مجاهد وغيره نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين ، وقيل كان التحويل خارج الصلاة بين الصلاتين وأهل قباء وصل إليهم الخبر فى صلاة الصبح . أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى أخبرنا أبو على زاهر بن أحمد الفقيه السرخسى أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى السامرى أخبرنا

(ترضاها) أى تحبها وتميل إليها (فول وجهك شطر المسجد الحرام) أى نحوه وتلقاءه وأراد به الكعبة (ق) عن ابن عباس قال لما دخل النبى صلى الله عليه وسلم البيت دعا فى نواحيه كلها ولم يصل حتى خرج منه ولما خرج ركع ركعتين قبل الكعبة وقال هذه القبلة يعنى أن أمر القبلة قد استقر على هذا البيت فلا ينسخ بعد اليوم فصلوا إلى الكعبة أبدا فهى قبلتكم (ق) عن البراء بن عازب أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أول ماقدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخواله من الأنصار وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد قباء وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الكعبة فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ ذاك أنه يصلى قبل بيت المقدس وهى قبلة أهل الكتاب فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك . قال البراء فى حديثه هذا وأنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله تعالى « وما كان الله ليضيع إيمانكم » واختلفت العلماء فى وقت تحويل القبلة فقال الأكثرون كان فى يوم الاثنين بعد الزوال للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وقيل كان يوم الثلاثاء لثمانية عشر شهرا وقيل كان لستة عشر شهرا وقيل لثلاثة عشر شهرا وقيل نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سلمة وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول فى الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين ووصل الخبر إلى أهل قباء فى صلاة الصبح (ق) عن ابن عمر قال بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال إن النبى صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة وقوله تعالى (وحيثما كنتم) أى من بر أو بحر مشرق أو مغرب (فولوا وجوهكم شطره) أى نحو البيت وتلقاءه . عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مابين المشرق والمغرب قبلة» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح قيل أراد بالمشرق مشرق الشتاء فى أقصر يوم من السنة وبالمغرب مغرب الصيف فى أطول يوم من السنة فمن جعل

أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهرى عن مالك بن أنس عن عبد الله بن دينار أن عبد الله بن عمر قال : بينا الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت وقال لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلي الشام فاستداروا إلي الكعبة ، فلما تحولت القبلة قالت اليهود يامحمد ماهو إلا شيء تبتدعه من تلقاء نفسك فتارة تصلى إلي بيت المقدس وتارة إلي الكعبة ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذى ننتظره فأنزل الله تعالى (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه) يعنى أمر الكعبة (الحق من ربهم) ثم هددهم فقال (وما الله بغافل عما تعملون) (١٢٢) قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائى بالتاء ، قال ابن عباس يريد أنكم يامعشر المؤمنين تطلبون مرضاتى وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم. وقرأ الباقون بالياء يعنى ما أنا بغافل عما يفعل اليهود فأجازيهم فى الدنيا وفى الآخرة . قوله تعالي (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب) يعنى اليهود والنصارى قالوا ائتنا بآية على ما تقول فقال الله تعالي : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب (بكل آية) معجزة (ماتبعوا قبلتك) يعنى الكعبة (وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض) لأن اليهود تستقبل بيت المقدس وهو المغرب والنصارى تستقبل المشرق وقبلة المسلمين الكعبة. أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن الجراح أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى أخبرنا الحسن بن بكر المروزى أخبرنا المعلى بن منصور أخبرنا عبد الله بن جعفر المخزومى عن عثمان الأخنسى عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال« قبلة مابين المشرق والمغرب» وأراد به فى حق أهل المشرق وأراد بالمشرق مشرق الشتاء فى أقصر يوم من السنة وبالمغرب مغرب الصيف فى أطول يوم من السنة ، فمن جعل مغرب الصيف فى هذا الوقت على يمينه ومشرق الشتاء على يساره كان وجهه إلي القبلة (ولئن اتبعت أهواءهم) مرادهم الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد به الأمة (من بعد ماجاءك من العلم) من الحق فى القبلة (إنك إذا لمن الظالمين) قوله تعالي (الذين آتيناهم الكتاب)

مغرب الصيف فى هذا الوقت عن يمينه ومشرق الشتاء عن يساره كان مستقبلا للقبلة وهذا فى حق أهل المشرق لأن المشرق الشتوى جنوبى متباعد عن خط الاستواء بمقدار الميل والمغرب الصيفى شمالى متباعد عن خط الاستواء والذى بينهما فقو سهامكة . والفرض لمن بمكة فى القبلة إصابة عين الكعبة ولمن بعد من مكة إصابة الجهة ويعرف ذلك بدلائل القبلة وليس هذا موضع ذكرها . ولما تحولت القبلة إلى الكعبة قالت اليهود يامحمد ماهو إلا شىء ابتدعته من تلقاء نفسك فتارة تصلى إلى بيت المقدس وتارة إلى الكعبة ولو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبنا الذى ننتظره فأنزل الله تعالى (وإن الذين أوتوا الكتاب) يعنى اليهود والنصارى (ليعلمون أنه الحق من ربهم) يعنى أمر القبلة وتحويلها إلى الكعبة ثم هددهم فقال تعالى (وما الله بغافل عما يعملون) يعنى وما أنا بساه عما يفعل هؤلاء اليهود فأنا أجازيهم عليه فى الدنيا والآخرة وقرىء تعملون بالتاء قال ابن عباس يريد أنكم يامعشر المؤمنين تطلبون مرضاتى وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم فأنا أثيبكم على على طاعتكم أفضل الثواب وأجزيكم أحسن الجزاء . قوله عز وجل (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب) يعنى اليهود والنصارى (بكل آية) أى بكل معجزة وقيل بكل حجة وبرهان وذلك بأنهم قالوا ائتنا بآية على ماتقول فأنزل الله تعالى هذه الآية (ماتبعوا قبلتك) يعنى الكعبة (وما أنت بتابع قبلتهم) يعنى أن اليهود تصلى إلى بيت المقدس والنصارى إلى المشرق وأنت يامحمد تصلى إلى الكعبة فكيف يكون سبيل إلى اتباع قبلة أحد هؤلاء مع اختلاف جهاتها فالزم أنت قبلتك التى أمرت بالصلاة إليها (وما بعضهم بتابع قبلة بعض) يعنى وما اليهود بتابعة قبلة النصارى ولا النصارى بتابعة قبلة اليهود لأن اليهود والنصارى لا يجتمعون على قبلة واحدة (ولئن اتبعت أهواءهم) يعنى مرادهم ورضاهم لو رجعت إلى قبلتهم (من بعد ما جاءك من العلم) أى فى أمر القبلة وقيل معناه من بعد ماوصل إليك من العلم بأن اليهود والنصارى مقيمون على باطل وعناد للحق (إنك إذا لمن الظالمين) يعنى إنك إن فعلت ذلك كنت بمنزلة من ظلم نفسه وضرها . قيل هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به الأمة لأنه صلى الله عليه وسلم لايتبع أهواءهم أبدا . وقيل هو خطاب له خاصة فيكون ذلك على سبيل التذكير والتنبيه . قوله عز وجل (الذين آتيناهم الكتاب) يعنى علماء اليهود والنصارى وقيل أراد

به مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (يعرفونه) أى يعرفون محمدا ﷺ معرفة جلية بالوصف المعين الذى يجدونه عندهم (كما يعرفون أبناءهم) أى لا يشكون فيه ولايشتبه عليهم كما لا تشتبه عليهم أبناؤهم من أبناء غيرهم ، روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لعبد الله بن سلام إن الله أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» فكيف هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله ياعمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ومعرفتى بمحمد صلى الله عليه وسلم أشد من معرفتى بابنى فقال عمر وكيف ذلك فقال : أشهد أنه رسول الله حق من الله وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ماتصنع النساء فقبل عمر رأس عبدالله وقال وفقك الله ياابن سلام فقد صدقت . وقيل الضمير فى يعرفونه يعود إلي أمر القبلة والمعنى أن علماء اليهود والنصارى يعرفون أن القبلة التى صرفتك إليها هى قبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قبلك كما يعرفون أبناءهم لايشكون فى ذلك (وإن فريقا منهم) أى من علماء أهل الكتاب (ليكتمون الحق) يعنى صفة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل أمر القبلة (وهم يعلمون) يعنى أن كتمان الحق معصية . وقيل يعلمون أن صفة محمد صلى الله عليه وسلم مكتوبة عندهم فى التوراة والإنجيل وهم مع ذلك يكتمونه (الحق) أى الذى يكتمونه هو الحق (من ربك فلا تكونن من الممترين) أى من الشاكين فى أن الذين تقدم ذكرهم علموا صحة نبوتك وقيل يرجع إلى أمر القبلة والمعنى أن بعضهم عاند وكتم الحق فلا تشك فى ذلك . فان قلت النبى صلى الله عليه وسلم لم يمتر ولم يشك فما معنى هذا النهى ؟. قلت هذا الخطاب وإن كان للنبى صلى الله عليه وسلم ولكن المراد غيره والمعنى فلا تشكوا أنتم أيها المؤمنون وقد تقدم نظير هذا . قوله عز وجل (ولكل وجهة) أى ولكل أهل ملة قبلة والوجهة اسم للمتوجه إليه وقيل الوجهة الهيئة والحالة فى التوجه إلي القبلة ، وقيل في قوله (ولكل وجهة) إن المراد به جميع المؤمنين أى ولكل أهل جهة من الآفاق وجهة من الكعبة يصلون إليها . وقيل المراد بالوجهة المنهاج والشرع والمعنى ولكل قوم شريعة وطريقة لأن الشرائع مصالح للعباد فلهذا اختلفت الشرائع بحسب اختلاف الزمان والأشخاص (هو موليها) أى مستقبلها والمعنى أن لكل أهل ملة وجهة هو مول وجهه إليها وقيل متوليها أى مختارها وقيل إن هو عائد على اسم الله تعالي والمعنى إن الله موليها إياه وقرىء مولاها أى مصروف إليها (فاستبقوا الخيرات) أى بادروا بالطاعات وقبول الأوامر وفيه حث على المبادرة إلى الأولوية والأفضلية فعلى هذا تكون الآية دليلا لمذهب الشافعى فى أن الصلاة أول الوقت أفضل لقوله : فاستبقوا الخيرات لأن ظاهر الأمر للوجوب فاذا لم يتحقق الوجوب فلا أقل من الندب (أينما تكونوا) يعنى أنتم وأهل الكتاب (يأت بكم الله جميعا) يعنى يوم القيامة فهو وعد لأهل الطاعة بالثواب ووعيد لأهل المعصية بالعقاب (إن الله على كل شىء قدير) أى على الإعادة بعد الموت والإثابة لأهل الطاعة والعقاب لمستحق العقوبة . قوله عز وجل (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام) أى من أى موضع خرجت فى سفر وغيره فول وجهك يامحمد قبل المسجد الحرام ونحوه (وإنه) يعنى التوجه إليه (للحق

يعنى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه (يعرفونه) يعنى يعرفون محمدا صلى الله عليه وسلم (كما يعرفون أبناءهم) من بين الصبيان . قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام إن الله قد أنزل على نبيه الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فكيف هذه المعرفة ؟ قال عبد الله ياعمر لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابنى ومعرفتى بمحمد صلى الله عليه وسلم أشد من معرفتى بابنى فقال عمر كيف ذلك فقال : أشهد أنه رسول حق من الله تعالي وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ماتصنع النساء فقال عمر : وفقك الله يا ابن سلام فقد صدقت (وإن فريقا منهم ليكتمون الحق) يعنى صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأمر الكعبة (وهم يعلمون) ثم قال (الحق من ربك) أى هذا الحق خبر مبتدأ مضمر . وقيل رفع باضمار فعل أى جاء الحق من ربك (فلا تكونن من الممترين) الشاكين . قوله تعالي (ولكل وجهة) أى لأهل كل ملة قبلة والوجهة اسم للمتوجه إليه (هو موليها) أى مستقبلها ومقبل عليها يقال وليته ووليت إليه إذا أقبلت عليه ووليت عنه إذا أدبرت عنه . قال مجاهد هو موليها وجهه وقال الأخفش هو كناية عن الله عز وجل يعنى مولي الأمم إلي قبلتهم وقرأ ابن عامر هو مولاها أى المستقبل مصروف إليها (فاستبقوا الخيرات) أى إلي الخيرات ، يريد بادروا بالطاعات والمراد المبادرة إلي القبول (أينما تكونوا) أنتم وأهل الكتاب (يأت بكم الله جميعا) يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم (إن الله على كل شيء قدير) قوله تعالي (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق

من ربك وما الله بغافل عما تعملون) قرأ أبو عمرو بالياء ، والباقون بالتاء (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) وإنما كرره لتأكيد النسخ (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا) اختلفوا فى تأويل هذه الآية ، ووجه قوله إلا فقال بعضهم معناه حولت القبلة إلى الكعبة لئلا يكون للناس عليكم حجة إذا توجهتم إلي غيرها فيقولون ليست لكم قبلة « إلا » الذين ظلموا وهم قريش واليهود . فأما قريش فتقول رجع محمد إلي الكعبة لأنه علم أنها الحق وأنها قبلة آبائه فكذلك يرجع إلي ديننا وأما اليهود فتقول لم ينصرف عن بيت المقدس مع علمه بأنه حق إلا أنه يعمل برأيه وقال قوم لئلا يكون للناس عليكم حجة يعني اليهود وكانت حجتهم على طريق المخاصمة على المؤمنين فى صلاتهم إلي بيت المقدس أنهم كانوا يقولون مادري محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم نحن . وقوله إلا الذين ظلموا وهم مشركو مكة وحجتهم أنهم قالوا لما صرفت قبلتهم إلي الكعبة : إن محمدا قد تحير في دينه وسيعود إلي ملتنا كما عاد إلي قبلتنا وهذا معنى قول مجاهد وعطاء وقتادة ، وعلى هذين التأويلين يكون الاستثناء صحيحاً . وقوله إلا الذين ظلموا ، يعنى لاحجة لأحد عليكم إلا مشركو قريش فانهم يحاجونكم فيجادلونكم ويخاصمونكم بالباطل والظلم والاحتجاج بالباطل يسمى حجة كما قال الله تعالي « حجتهم داحضة عند ربهم » وموضع الذين خفض كأنه قال سوى الذين ظلموا قاله الكسائى وقال الفراء نصب بالاستثناء قوله. تعالي (منهم) يعنى من الناس وقيل هذا استثناء منقطع عن الكلام الأول ولكن الذين ظلموا يجادلونكم بالباطل كما قال الله تعالي « مالهم به من علم إلا اتباع الظن » يعنى لكن يتبعون الظن فهو كقول الرجل عندى حق إلا أن تظلمنى قال أبو روق لئلا يكون للناس يعنى اليهود عليكم حجة وذلك أنهم عرفوا أن الكعبة قبلة إبراهيم ووجدوا فى التوراة أن محمدا سيحول إليها فحوله الله تعالي إليها لئلا يكون لهم حجة فيقولوا إن النبى الذى نجده فى كتابنا سيحول إليها ولم تحول أنت فلما حول إليها ذهبت حجتهم إلا الذين ظلموا يعنى إلا أن يظلموا فيكتموا ماعرفوا من الحق . وقال أبو عبيدة قوله إلا الذين ظلموا ليس باستثناء ولكن إلا فى موضع واو العطف يعنى والذين ظلموا أيضا لا يكون لهم حجة ، كما قال الشاعر :

وكل أخ مفارقه أخوه ... لعمر أبيك إلا الفرقدان

معناه والفرقدان وأيضا يتفرقان فمعنى الآية فتوجهوا إلي الكعبة لئلا يكون للناس يعنى لليهود عليكم حجة فيقولوا لم

(١٢٤)

من ربك) أى الحق الذى لاشك فيه فحافظ عليه (وما الله بغافل عما تعملون) أى ليس هو بساه عن أعمالكم ولكنه محصيها لكم وعليكم فيجازيكم بها يوم القيامة (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) فان قلت هل فى هذا التكرار فائدة . قلت فيه فائدة عظيمة جليلة وهى أن هذه الواقعة أول الوقائع التى ظهر النسخ فيها فى شرعنا فدعت الحاجة إلي التكرار لأجل التأكيد والتقرير وإزالة الشبهة وإيضاح البيان فحسن التكرار فيهم لنقلهم من جهة إلي جهة (لئلا يكون للناس عليكم حجة) قيل أراد بالناس أهل الكتاب وقيل هو على العموم وقيل هم قريش واليهود فأما قريش فقالوا رجع محمد إلى الكعبة لأنه علم أنها الحق وأنها قبلة أبيه وسيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا وقالت اليهود لم ينصرف محمد عن بيت المقدس مع علمه أنه حق إلا أنه يعمل برأيه فعلى هذا يكون الاستثناء فى قوله إلا الذين ظلموا منهم متصلا صحيحا والمعنى لاحجة لأحد عليكم إلا مشركو قريش واليهود فانهم يجادلونك بالباطل والظلم وإنما سمى الاحتجاج بالباطل حجة لأن اشتقاقها من حجه إذا غلبه فكما تكون صحيحة فكذلك تسمى حجة وتكون باطلة قال الله تعالى «حجتهم داحضة عند ربهم» وقيل هذا الاستثناء منقطع عن الكلام الأول ومعناه لكن الذين ظلموا منهم يجادلونك بالباطل كما قال النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

أى لكن سيوفهم بهن فلول وليس بعيب وقيل فى معنى الآية إن اليهود عرفوا أن الكعبة قبلة إبراهيم ووجدوا فى التوراة أن محمدا سيحول إليها فتكون حجتهم أنهم يقولون إن النبى الذى نجده فى كتابنا سيحول إلي الكعبة ولم تحول أنت فلما حول إلي الكعبة ذهبت حجتهم (إلا الذين ظلموا منهم) أى إلا أن يظلموا فيكتموا ماعرفوا من الحق .

تركتم الكعبة وهى قبلة إبراهيم وأنتم على دينه ولا الذين ظلموا وهم مشركو مكة فيقولون لم ترك محمد قبلة جده وتحول عنها إلي قبلة اليهود (فلا تخشوهم) فى انصرافكم إلي الكعبة وفى تظاهرهم عليكم بالمجادلة فانى وليكم أظهركم عليهم بالحجة والنصرة (واخشونى ولأتم نعمتى عليكم) عطف على قوله: لئلا يكون للناس عليكم حجة ولكى أتم نعمتى عليكم بهدايتى إياكم إلي قبلة إبراهيم لتتم به لكم الملة الحنيفية. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه تمام النعمة الموت على الإسلام. قال سعيد ابن جبير لايتم نعمة على المسلم إلا أن يدخل الجنة (ولعلكم تهتدون) لكى (١٢٥) تهتدوا من الضلالة. ولعل وعسى من الله واجب. قوله تعالى (كما أرسلنا فيكم) هذه الكاف للتشبيه ويحتاج إلى شيء يرجع إليه فقال بعضهم يرجع إلى ماقبلها معناه ولأتم نعمتى عليكم كما أرسلنا فيكم رسولا منكم قال محمد بن جرير دعا إبراهيم عليه السلام بدعوتين إحداهما قال: ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، والثانية قوله: ربنا وابعث فيهم رسولا منهم فبعث الله الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم ووعد إجابة الدعوة الثانية بأن يجعل من ذريته أمة مسلمة يعنى كما أجيبت دعوته ببعث الرسول كذلك أجيبت دعوته بأن أهديكم لدينه وأجعلكم مسلمين وأتم نعمتى عليكم ببيان شرائع الملة الحنيفية وقال مجاهد وعطاء والكلبى هى متعلقة بما بعدها وهو قوله: فاذكرونى أذكركم معناه كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاذكرونى. وهذه الآية خطاب لأهل مكة والعرب يعنى كما أرسلنا فيكم يامعشر العرب (رسولا منكم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (يتلو عليكم آياتنا) يعنى القرآن (ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة) قيل الحكمة السنة. وقيل مواعظ القرآن (ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) من الأحكام وشرائع الإسلام (فاذكرونى أذكركم) قال ابن عباس اذكرونى بطاعتى أذكركم بمعونتى وقال سعيد بن جبير اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى وقيل اذكرونى فى النعمة والرخاء أذكركم فى الشدة والبلاء، بيانه فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه

(فلا تخشوهم) أى فلا تخافوهم فى انصرافكم إلى الكعبة فى تظاهرهم عليكم بالمجادلة الباطلة فانى وليكم وناصركم أظهركم عليهم بالحجة والنصرة (واخشونى) أى احذروا عقابى إن أنتم عدلتم عما ألزمتكم به وفرضته عليكم (ولأتم نعمتى عليكم) ولكى أتم نعمتى عليكم بهدايتى إلى قبلة إبراهيم لتتم لكم الملة الحنيفية. وقيل تمام النعمة الموت على الإسلام ثم دخول الجنة ثم رؤية الله تعالى (ولعلكم تهتدون) أى لكى تهتدوا من الضلالة. ولعل وعسى من الله واجب. قوله عز وجل (كما أرسلنا فيكم) كاف التشبيه تحتاج إلى شيء ترجع إليه فقيل ترجع إلى ماقبلها ومعناه ولأتم نعمتى عليكم كما أرسلنا فيكم وقيل إن إبراهيم قال: ربنا وابعث فيهم رسولا منهم وقال: ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، فبعث الله فيهم رسولا منهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم ووعده إجابة الدعوة الثانية بأن يجعل فى ذريته أمة مسلمة، والمعنى كما أجبت دعوته ببعثة الرسول كذلك أجبت دعوته بأن أهديكم لدينه وأجعلكم مسلمين وأتم نعمتى عليكم ببيان شرائع الملة الحنيفية وقيل إن الكاف متعلقة بما بعدها وهو قوله «فاذكرونى أذكركم» والمعنى كما أرسلنا فيكم رسولا منكم فاذكرونى، ووجه التشبيه أن النعمة بالذكر جارية مجرى النعمة بارسال الرسول، وإن قلنا إنها متعلقة بما قبلها كان وجه التشبيه أن النعمة فى أمر القبلة كالنعمة بالرسالة، وفيكم خطاب لأهل مكة والعرب وكذا قوله منكم، وفى إرساله رسولا منهم نعمة عظيمة عليه لما فيه من الشرف لهم ولأن المعروف من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير فكان بعثة الرسول منهم وفيهم أقرب إلى قبول قوله والانقياد له، والمعنى كما أرسلنا فيكم يامعشر العرب (رسولا منكم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (يتلو عليكم آياتنا) يعنى القرآن وذلك من أعظم النعم لأنه معجزة باقية على الدهر (ويزكيكم) أى ويطهركم من دنس الشرك والذنوب وقيل يعلمكم ما إذا فعلتموه صرتم أزكياء مثل محاسن الأخلاق ومكارم الأفعال (ويعلمكم الكتاب) يعنى أحكام الكتاب وهو القرآن وقيل إن التعليم غير التلاوة فليس بتكرار (والحكمة) يعنى السنة والفقه فى الدين (ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون) يعنى يعلمكم من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية وقصص الأنبياء والخبر عن الحوادث المستقبلة مما لم تكونوا تعلمون وذلك قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فاذكرونى) قيل الذكر يكون باللسان، وهو أن يسبحه ويحمده ويمجده ونحو ذلك من الأذكار ويكون بالقلب وهو أن يتفكر فى عظمة الله تعالى وفى الدلائل الدالة على وحدانيته ويكون بالجوارح وهو أن تكون مستغرقة فى الأعمال التى أمروا بها مثل الصلاة وسائر الطاعات التى للجوارح فيها فعل (أذكركم) أى بالثواب والرضا عنكم قال ابن عباس

إلى يوم يبعثون » أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد ابن إسماعيل أخبرنا عمر بن حفص أخبرنا أبي أخبرنا الأعمش قال سمعت أبا صالح عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » أخبرنا الإمام (١٣٦) أبو علي الحسين بن محمد بن القاضي وثنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة الكشميهني قال حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحان أخبرنا أبو أحمد محمد ابن قريش بن سليمان ، أخبرنا أبو عبد الملك الدمشقي أخبرنا سليمان ابن عبدالرحمن أخبرنا منذر بن زياد عن صخر ابن جويرية عن الحسن عن أنس قال إني سمعت هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد أناملي هذه العشر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى يقول : يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منه وإن دنوت مني شبرا دنوت منك ذراعا وإن دنوت مني ذراعا دنوت منك باعا وإن مشيت إلى هرولت إليك وإن هرولت إلى سعيت إليك وإن سألتني أعطيتك وإن لم تسألني غضبت عليك » . أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يحيى بن عبد الله أخبرنا الأوزاعي أخبرنا إسماعيل بن عبدالله عن أبي الدرداء عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » أخبرنا عبدالواحد المليحي أخبرنا عبد الرحمن أبو شريح أنا أبو القاسم البغوي أخبرنا علي بن الجعد أخبرنا إسماعيل بن عياش أخبرنا عمرو بن قيس السكوني عن عبدالله بن بشير المازني قال « جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟

اذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي وقيل اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء وقال أهل المعاني اذكروني بالتوحيد والإيمان أذكركم بالجنان والرضوان وقيل اذكروني بالاخلاص أذكركم بالخلاص اذكروني بالقلوب أذكركم بغفران الذنوب اذكروني بالدعاء اذكركم بالعطاء (ق) على أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » قوله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي قيل معناه بالغفران إذا استغفر وبالقبول والإجابة إذا دعا وبالكفاية إذا طلب الكفاية . وقيل المراد منه تحقيق الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح . قوله : وأنا معه إذا ذكرني يعني بالرحمة والتوفيق والهداية والإعانة . وقوله فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي . النفس في اللغة لها معان : منها ذات الشيء والله تعالى له ذات حقيقة . ومنها الغيب فعلى هذا يكون المعنى فان ذكرني خاليا ذكرته بالإثابة والمجازاة مما لا يطلع عليه أحد . قوله وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه . الملأ أشراف الناس وعظماؤهم الذين يرجع إلى رأيهم وهذا مما استدلت به المعتزلة ومن وافقهم على تفضيل الملائكة على الأنبياء . وأجيب عنه بأن الذكر غالبا يكون في جماعة لا نبي فيهم . قوله وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا الخ . وهذا من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره فلا بد من التأويل فعلى هذا يكون ذكر الشبر والذراع والباع والمشي والهرولة استعارة ومجازا فيكون المراد بقرب العبد من الله تعالى القرب بالذكر والطاعة والعمل الصالح والمراد بقرب الله من العبد قرب نعمه والطافه وبره وكرمه وإحسانه إليه وفيض مواهبه ورحمته عليه والمعنى كلما زاد بالطاعة والذكر زدت بالبر والإحسان وإن أتاني يمشي في طاعتي أتيته هرولة أي صببت عليه الرحمة صبا وسبقته بها (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » (ق) عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » المفردون الذين ذهب القرن الذي كانوا فيه وبقوا وهم

يذكرون

يذكرون الله تعالى، ويقال تفرد الرجل إذا تفقه واعتزل . وقوله تعالى (واشكروا لي) يعنى بالطاعة (ولا تكفرون) أى بالمعصية فمن أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفره . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلوة) إنما خصهما بذلك لما فيهما من المعونة على العبادات؛ أما الصبر فهو حبس النفس على احتمال المكاره فى ذات الله وتوطينها على تحمل المشاق فى العبادات وسائر الطاعات وتجنب الجزع وتجنب المحظورات ومن الناس من حمل الصبر على الصوم وفسره به ومنهم من حمله على الجهاد وأما الاستعانة بالصلاة فلأنها تجب أن تفعل على طريق الخضوع والتذلل للمعبود والإخلاص له. وقيل استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض وبالصلوات الخمس فى مواقيتها على تمحيص الذنوب (إن الله مع الصابرين) أى بالعون والنصر (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات) نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وعمير بن أبى وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة الزهرى أخو سعد بن أبى وقاص وذو الشمالين واسمه عمير بن عبد عمرو بن العاص بن نضلة بن عمرو بن خزاعة ثم بنى غبشان وعاقل بن البكير من بنى سعد بن ليث بن كنانة ومهجع مولى لعمر بن الخطاب وصفوان بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر ومن الأنصار ثمانية وهم سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد بن المنذر ويزيد بن الحرث بن قيس بن فسحم وعمير ابن الحمام ورافع بن المعلى وحارثة بن سراقة وعوف ومعوذ ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد وهما ابنا عفراء وهى أمهما كان الناس يقولون لمن قتل فى سبيل الله مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل أن الكفار والمنافقين قالوا إن الناس يقتلون أنفسهم ظلما لمرضاة محمد من غير فائدة فنزلت هذه الآية وأخبر أن من قتل فى سبيل الله فانه حى بقوله تعالى (بل أحياء) وإنما أحياهم الله عز وجل فى الوقت لإيصال الثواب إليهم. وعن الحسن إن الشهداء أحياء عند الله تعالى تعرض أرزاقهم على أرواحهم ويصل إليهم الروح والريحان والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وغشيا فيصل إليهم الألم والوجع ففيه دليل عل أن المطيعين لله يصل إليهم ثوابهم وهم فى قبورهم فى البرزخ وكذا العصاة يعذبون فى قبورهم . فان قلت نحن نراهم موتى فما معنى قوله بل أحياء وما وجه النهى فى قوله ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات . قلت معناه لا تقولوا أموات بمنزلة غيرهم من الأموات بل هم أحياء تصل أرواحهم إلى الجنان كما ورد «إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة» فهم أحياء من هذه الجهة وإن كانوا أمواتا من جهة خروج الروح من أجسادهم وجواب آخر وهو أنهم أحياء عند الله تعالى فى عالم الغيب لأنهم صاروا إلى الآخره فنحن لا نشاهدهم كذلك ويدل على ذلك قوله تعالى (ولكن لا تشعرون) أى لا تروهم أحياء فتعلموا ذلك حقيقة وإنما تعلمون ذلك باخبارى إياكم به . فان قلت ليس سائر المطيعين من المسلمين لله يصل إليهم من نعيم الجنة فى قبورهم فلم خصص الشهداء بالذكر . قلت إنما خصهم لأن الشهداء فضلوا على غيرهم بمزيد النعيم وهو أنهم يرزقون من مطاعم الجنة ومآكلها وغيرهم ينعمون بما دون ذلك وجواب آخر وهو أنه رد لقول من قال أن من قتل فى سبيل الله قد مات وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأخبر الله تعالى بقوله : بل أحياء بأنهم فى نعيم دائم . قوله عز وجل (ولنبلونكم) أى ولنختبرنكم ياأمة محمد واللام جواب القسم تقديره والله لنبلونكم والابتلاء

يعنى واشكروا لى بالطاعة ولا تكفرون بالمعصية فان من أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفره قوله تعالي (ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلوة إن الله مع الصابرين) بالعون والنصرة (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات) نزلت فى قتلى بدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار كان الناس يقولون لمن يقتل فى سبيل الله مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها فأنزل الله تعالى: ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات (بل أحياء ولكن لا تشعرون) كما قال فى شهداء أحد «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» قال الحسن إن الشهداء أحياء عند الله تعالى تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفرح كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوة وعشية فيصل إليهم الوجع .قوله تعالى (ولنبلونكم) أى ولنختبرنكم ياأمة محمد واللام لجواب القسم المحذوف تقديره والله لنبلونكم والابتلاء من الله لإظهار المطيع من العاصى ، لا ليعلم شيئا لم يكن عالما به .

لإظهار الطائع من العاصى لا ليعلم شيئا لم يكن عالما به فانه سبحانه وتعالى عالم بجميع الأشياء قبل كونها وحدوثها (بشيء) إنما قال بشيء ولم يقل بأشياء لئلا يوهم أن أشياء تدل على ضروب من الخوف وكذا الباقى فلما قال بشيء كان التقدير بشيء من الخوف وبشيء من الجوع . وقيل معناه بشيء قليل من هذه الأشياء (من الخوف) قال ابن عباس يعنى خوف العدو والخوف توقع مكروه يحصل منه ألم فى القلب (والجوع) يعنى القحط وتعذر حصول القوت (ونقص من الأموال) يعنى بالهلاك والخسران (والأنفس) أى ونقص من الأنفس بالموت أو القتل (والثمرات) يعنى الجوائح فى الثمار وقيل قد يكون بالجدب أيضا وبترك العمل والعمارة فى الأشجار . وحكى عن الشافعى رضى الله عنه فى تفسير هذه الآية قال الخوف خوف الله تعالى والجوع صيام شهر رمضان ونقص من الأموال يعنى إخراج الزكاة والصدقات والأنفس يعنى بالأمراض، والثمرات يعنى موت الأولاد لأن الولد ثمرة القلب . عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته أقبضتم ولد عبدى؟ قالوا نعم قال أقبضتم ثمرة فؤاده قالوا نعم قال فماذا قال قالوا: حمدك واسترجع قال ابنوا له بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن . فان قلت ما الحكمة فى تقديم تعريف هذا الابتلاء فى قوله «ولنبلونكم» قلت فيه حكم: منها أن العبد إذا علم أنه مبتلى بشيء وطن نفسه على الصبر فاذا نزل به ذلك البلاء لم يجزع . ومنها أن الكفار إذا شاهدوا المؤمنين مقيمين على دينهم ثابتين عند نزول البلاء صابرين له علموا بذلك صحة الدين فيدعوهم ذلك إلى متابعته والدخول فيه . ومنها أن الله تعالى أخبر بهذا الابتلاء قبل وقوعه فاذا وقع كان ذلك إخبارا عن غيب فيكون معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم ومنها أن المنافقين إنما ظهروا الإيمان طمعا فى المال وسعة الرزق من الغنائم فلما أخبر الله أنه مبتلى عباده فعند ذلك تميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب ومنها أن الإنسان فى حال الابتلاء أشد إخلاصا لله منه فى حال الرخاء فاذا علم أنه مبتلى دام على التضرع والابتهال إلى الله تعالى لينجيه مما عسى أن ينزل به من البلاء ثم قال تعالى (وبشر الصابرين) يعنى عند نزول البلاء والمعنى وبشر يا محمد الصابرين على امتحانى بما أمتحنهم به من الشدائد والمكاره ثم وصفهم بقوله تعالى (الذين إذا أصابتهم مصيبة) أى نائبة وابتلاء (قالوا إنا لله) أي عبيدا وملكا (وإنا إليه راجعون) يعنى فى الآخرة (م) عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «مامن عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى هواخلف لى خيرا منها إلا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيرا منها» قيل ماأعطى أحد ماأعطيت هذه الأمة يعنى الاسترجاع عند المصيبة ولو أعطيها أحد لأعطى يعقوب عليه السلام ألا تسمع إلى قوله عند فقد يوسف يا أسفى على يوسف . وقيل فى قول العبد إنا لله وإنا إليه راجعون تفويض منه إلى الله وأنه راض بكل مانزل به من المصائب

(بشيء من الخوف) قال ابن عباس خوف العدو (والجوع) يعنى القحط (ونقص من الأموال) بالخسران والهلاك (والأنفس) يعنى بالقتل والموت وقيل بالمرض والشيب (والثمرات) يعنى الجوائح فى الثمار وحكى عن الشافعى أنه قال الخوف خوف الله تعالى والجوع صيام رمضان ونقص من الأموال أداء الزكاة والصدقات والأنفس الأمراض والثمرات موت الأولاد لأن ولد الرجل ثمرة قلبه . أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد ابن عبد الجبار الريانى أخبرنا حميد ابن زنجويه أخبرنا الحسن بن موسى أخبرنا حماد بن سلمة عن أبى سنان قال: دفنت ابنى سنانا وأبو طلحة الخولانى على شفير القبر فلما أردت الخروج أخذ بيدى فأخرجنى فقال: ألا أبشرك؟ حدثنى الضحاك عن عروة عن أبى موسى الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: أقبضتم ولد عبدى؟ قالوا نعم قال أقبضتم ثمرة فؤاده قالوا نعم قال فماذا قال عبدي؟ قالوا: استرجع وحمدك قال ابنوا له بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد» (وبشر الصابرين) على البلايا والرزايا ثم وصفهم فقال (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله) عبيدا وملكا (وإنا إليه راجعون)

(أولئك

(أولئك) يعنى من هذه صفتهم (عليهم صلوات من ربهم) قال ابن عباس أى مغفرة من ربهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « اللهم صل على آل أبى أوفى » أى اغفر لهم وارحمهم وإنما جمع الصلوات لأنه عنى مغفرة بعد مغفرة ورحمة بعد رحمة (ورحمة) قال ابن عباس ونعمة والرحمة من الله إنعامه وإفضاله وإحسانه ، ومن الآدميين رقة وتعطف . وقيل : إنما ذكر الرحمة بعد الصلوات لأن الصلاة من الله الرحمة لاتساع المعنى واتساع اللفظ وتفعل ذلك العرب كثيرا إذا اختلف اللفظ واتفق المعنى وقيل كررها للتأكيد أى عليهم رحمة بعد رحمة (وأولئك هم المهتدون) يعنى إلى الاسترجاع . وقيل إلى الجنة الفائزون بالثواب . وقيل المهتدون إلى الحق والصواب . وقال عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية .

(فصل) فى ذكر أحاديث وردت فى ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين

(خ) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يصب منه » يعنى يبتليه بالمصائب حتى يأجره على ذلك (ق) عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى ﷺ قال « ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها خطاياه » النصب التعب والإعياء والوصب المرض (ق) عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه من سيئاته كما تحط الشجرة ورقها » (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى عليه وسلم « مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تفيئه ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزة لا تهتز حتى تحصد » الأرزة شجر معروف بالشام ويعرف فى العراق ومصر بالصنوبر والصنوبر ثمرة الأرزة وقيل : الأرزة الثابتة فى الأرض . عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة فى الدنيا وإذا أراد الله بعبد شرا أمسك عنه حتى يوافى يوم القيامة » وبهذا الإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط » أخرجه الترمذى . وله عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت فى الدنيا بالمقارض » وله عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة » وقال حديث حسن صحيح (خ) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » عن سعد بن أبى وقاص قال قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء قال « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على دينه فان كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة هون عليه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن .

فى الآخرة . أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أبومنصور محمد بن محمد بن سمعان أخبرنا أبوجعفر الزياتى أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا محاضر ابن الموزع أخبرنا سعيد عن عمرو بن كثير أنا أفلح ، أخبرنا مولى أم سلمة عن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من مصيبة تصيب عبدا فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها » إلا أجره الله فى مصيبته ، وأخلف له خيرا منها قالت أم سلمة لما توفى أبو سلمة عزم الله لى فقلت : اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها » فأخلف الله لى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال سعيد ابن جبير : ما أعطى أحد فى المصيبة ما أعطى هذه الأمة يعنى الاسترجاع ، ولو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب عليه السلام ألا تسمع إلى قوله تعالى فى قصة فقد يوسف عليه السلام « يا أسفى على يوسف » (أولئك) أهل هذه الصفة (عليهم صلوات من ربهم ورحمة) صلوات أى رحمة فان الصلاة من الله الرحمة والرحمة ذكرها الله تأكيدا وجميع الصلوات ، أى رحمة (وأولئك هم المهتدون) إلى الاسترجاع . وقيل إلى الحق والصواب . وقيل إلى الجنة والثواب قال عمر

رضى الله عنه : نعم العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية وقد وردت أخبار فى ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين منها ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى أخبرنا أبو على زاهر بن أحمد السرخسى أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم ابن عبد الصمد الهاشمى أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة أنه قال سمعت أبا الحباب سعد بن يسار يقول سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيرا يصب منه » أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن محمد أخبرنا عبد الملك بن عمر أخبرنا زهير بن محمد عن محمد بن عمرو بن حلحلة عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » أخبرنا عبد الواحد المليحى أخبرنا أبو منصور السمعانى ؛ أخبرنا أبو جعفر الزياتى أخبرنا حميد بن زنجويه أنا محمد بن عبيد أخبرنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال جاءت امرأة بها لمم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ادع الله لى أن يشفينى قال « إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئت فاصبري ولاحساب عليك » قالت بل أصبر ولا حساب على. أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أخبرنا أبو سعيد خلف بن عبد الرحمن بن أبى نذار أخبرنا أبو منصور العباس بن الفضل النضروي أخبرنا أحمد بن نجدة أخبرنا يحيى بن عبد الحميد الحمانى أخبرنا حماد بن زيد عن عاصم هو ابن أبى النجود عن مصعب بن سعد عن سعد قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشد الناس بلاء قال « الأنبياء والأمثل فالأمثل يبتلى الله الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلبا ابتلى على قدر ذلك وإن كان فى دينه رقة هون عليه فما يزال كذلك حتى يمشى على الأرض وماله ذنب » أخبرنا عبد الواحد المليحى أخبرنا أبو منصور السمعانى أخبرنا أبو جعفر الزياتى أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبد الله بن صالح قال حدثنى الليث حدثنى يزيد بن أبى حبيب عن سعيد بن سنان عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن عظم الجزاء عند الله مع عظم البلاء فان الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط » أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحى أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسى أخبرنا محمد ابن يحيى أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة » أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أخبرنا أبو الحسين على بن محمد بن عبد الله بن بشران أخبرنا أبو إسماعيل بن محمد الصفار « أخبرنا أحمد بن منصور الرمادى أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمن كمثل الزرع لاتزال الريح تفيئه ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الأرزة لاتهتز حتى تستحصد » أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أخبرنا أبو الحسين بن بشران أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار أخبرنا أحمد ابن منصور الرمادى أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أبى إسحاق عن العيزار بن حريث عن عمرو بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ « عجبا للمؤمن إن أصابه خير حمد الله وشكره وإن أصابته مصيبة حمد الله وصبر فالمؤمن يؤجر فى كل أمره حتى يؤجر فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) الصفا جمع صفاة وهى الصخرة الصلبة الملساء يقال صفاة وصفا مثل حصاة وحصى ونواة ونوى والمروة الحجر الرخو وجمعها مروات وجمع الكثير مرو مثل تمرة وتمرات وتمر، وإنما عنى بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفى المسعى ولذلك أدخل فيهما الألف واللام

قوله عز وجل : (إن الصفا والمروة من شعائر الله) الصفا جمع صفاة وهى الصخرة الصلبة الملساء. وقيل هى الحجارة الصافية. والمروة الحجر الرخو، وجمعها مرو ومروات وهذان أصلهما فى اللغة وإنما عنى الله بهما الجبلين المعروفين بمكة فى طرفى المسعى ولذلك أدخل فيهما الألف واللام وشعائر الله أعلام دينه وأصلها من الإشعار وهو الاعلام واحدتها شعيرة وكل ما كان معلما لقربان يتقرب به إلى الله تعالي من صلاة ودعاء وذبيحة فهو شعيرة من شعائر الله. ومشاعر الحج معالمه الظاهرة للحواس ويقال شعائر الحج فالمطاف والموقف والمنحر كلها شعائر والمراد بالشعائر هنا المناسك التى جعلها الله أعلاما لطاعته فالصفا والمروة منها حيث يسعى بينهما

وشعائر الله أعلام دينه أصلها من الإشعار وهو الإعلام واحدتها شعيرة وكل ما كان معلما لقربات يتقرب به إلى الله تعالى من صلاة ودعاء وذبيحة فهو شعيرة فالمطاف والموقف والنحر كلها شعائر الله، ومثلها المشاعر والمراد بالشعائر ههنا المناسك التى جعلها الله أعلاما لطاعته فالصفا والمروة منها حتى يطاف بهما جميعا (فمن حج البيت أو اعتمر) فالحج في اللغة القصد والعمرة الزيارة وفى الحج والعمرة المشروعين قصد وزيارة (فلا جناح عليه) أى لا إثم عليه وأصله من جنح أى مال عن القصد (أن يطوف بهما) أي يدور بهما وأصله يتطوف أدغمت التاء فى الطاء. وسبب نزول هذه الآية أنه كان على الصفا والمروة صنمان إساف ونائلة وكان إساف على الصفا ونائلة على المروة وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيما للصنمين ويتمسحون بهما فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام كان المسلمون يتحرجون عن السعى بين الصفا والمروة لأجل الصنمين فأذن الله فيه وأخبر أنه من شعائر الله. واختلف أهل العلم فى حكم هذه الآية ووجوب السعى بين الصفا والمروة فى الحج والعمرة فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة وبه قال الحسن وإليه ذهب مالك والشافعى. وذهب قوم إلى أنه تطوع وهو قول ابن عباس وبه قال ابن سيرين ومجاهد، وإليه ذهب سفيان الثورى وأصحاب الرأى وقال الثورى وأصحاب الرأى على من تركه دم. واحتج من أوجبه بما أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الكسائى الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعى أخبرنا عبد الله بن نوفل العائذى عن عمرو ابن عبد الرحمن بن محيص عن عطاء بن أبى رباح عن صفية بنت شيبة قالت

أخبرتنى بنت أبى تجزاة اسمها حبيبة إحدى نساء بنى عبدالدار، قالت «دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبى حسين ننظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يسعى بين الصفا والمروة فرأيته يسعى وإن مئزره ليدور من شدة السعى حتى لأقول إنى لأرى ركبته وسمعته يقول اسعوا فان الله كتب عليكم السعى»

بينهما (فمن حج البيت) قصد البيت هذا أصله فى اللغة وفى الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة لإقامة المناسك (أو اعتمر) أى زار البيت والعمرة الزيارة فى الحج والعمرة المشروعين قصد وزيارة (فلا جناح عليه) أى فلا إثم عليه وأصله من جنح إذا مال عن القصد المستقيم (أن يطوف بهما) أى يدور بهما ويسعى بينهما. وسبب نزول هذه الآية أنه كان على الصفا والمروة صنمان يقال لهما إساف ونائلة فكان إساف على الصفا ونائلة على المروة وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة تعظيما للصنمين فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام تحرج المسلمون عن السعى بين الصفا والمروة فأنزل الله هذه الآية وإذن فى السعى بينهما وأخبر أنه من شعائر الله (ق) عن عاصم بن سليمان الأحول قال قلت لأنس: أكنتم تكرهون السعى بين الصفا والمروة؟ فقال نعم لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما». وفى رواية قال كانت الأنصار

أخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال «قلت لعائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أرأيت قول الله تعالى «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما» فما أرى على أحد شيئا ألا يطوف بهما قالت عائشة: كلا لو كانت كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما إنما أنزلت هذه الآية فى الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت مناة حذو قديد وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله تعالى «إن الصفا والمروة من شعائر الله» الآية وقال عاصم قلت لأنس بن مالك أكنتم تكرهون السعى بين الصفا والمروة فقال نعم لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله تعالى «إن الصفا والمروة من شعائر الله» أخبرنا أبو الحسن السرخسى، أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من المسجد وهو يريد الصفا يقول «نبدأ بما بدأ الله تعالى به فبدأ بالصفا وقال كان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثا ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير يصنع ذلك ثلاث مرات ويدعو ويصنع على المروة مثل ذلك وقال كان إذا نزل من الصفا مشى حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى يسعى حتى يخرج منه» قال مجاهد رحمه الله حج موسى عليه السلام على جمل أحمر وعليه عباءتان قطوانيتان فطاف بالبيت ثم صعد الصفا ودعا ثم هبط إلى السعى وهو يلبى فيقول «لبيك اللهم لبيك» فقال الله تعالى «لبيك عبدى أنا معك وسامع لك وناظر إليك» فخر

يكرهون أن يطوفوا بين الصفا والمروة حتى نزلت « إن الصفا والمروة من شعائر الله » .

(فصل) اختلف العلماء فى حكم السعى بين الصفا والمروة فى الحج والعمرة فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة وبه قال الحسن وإليه ذهب مالك والشافعى وذهب قوم إلى أنه تطوع وهو قول ابن عباس وبه قال ابن سيرين وذهب الثورى وأبو حنيفة إلى أنه ليس بركن وعلى من تركه دم وروى عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء أن من تركه فلا شىء عليه واختلفت الرواية عن أحمد فى ذلك فروى عنه أن من ترك السعى بين الصفا والمروة لم يجزه حجه، وروى عنه أنه لاشىء فى تركه عمدا ولا سهوا ولا ينبغى أن يتركه، ونقل الجمهور عنه أنه تطوع وسبب هذا الاختلاف أن قوله تعالى « فلا جناح عليه » يصدق عليه أنه لاإثم عليه فى فعله فدخل تحته الواجب والمندوب والمباح فظاهر هذه الآية لايدل على أن السعى بين الصفا والمروة واجب أو ليس بواجب لأن اللفظ الدال على القدر المشترك بين الأقسام الثلاثة لادلالة فيه على خصوصية أحدها فاذا لابد من دليل خارج يدل على أن السعى واجب أو غير واجب فحجة الشافعى ومن وافقه فى أن السعى بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة ماروى الشافعى بسنده عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتنى بنت أبى تجزاة واسمها حبيبة إحدى نساء بنى عبد الدار قالت دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبى حسين ننظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يسعى بين الصفا والمروة فرأيته يسعى وإن مئزره ليدور من شدة السعى حتى لأقول إنى لأرى ركبته وسمعته يقول « اسعوا فان الله كتب عليكم السعى » وصححه الدارقطنى (ق) عن عروة بن الزبير قال قلت لعائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أرأيت قول الله « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » فما أرى على أحد شيئا أن لايطوف بهما فقالت عائشة كلا لو كان كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لايطوف بهما إنما نزلت هذه الآية فى الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت مناة حذو قديد وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : إن الصفا والمروة من شعائر الله الآية (م) عن جابر فى حديثه الطويل فى صفة حجة الوداع قال « ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ « إن الصفا والمروة من شعائر الله أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا » الحديث فاذا ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم سعى وجب علينا السعى لقوله تعالى فاتبعوه، ولقوله صلى الله عليه وسلم « خذوا عنى مناسككم » والأمر للوجوب ومن القياس أن السعى أشواط شرعت فى بقعة من بقاع الحرم ويؤتى به فى إحرام كامل فكان ركنا كطواف الزيارة واحتج أبو حنيفة ومن لايرى وجوب السعى بقوله « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » وهذا لايقال فى الواجبات ثم انه تعالى أكد ذلك بقوله (ومن تطوع خيرا) فبين أنه تطوع وليس بواجب . وأجيب عن الأول بأن قوله تعالى : فلا جناح عليه ليس فيه إلا أنه لاإثم على فعله وهذا القدر مشترك بين الواجب وغيره كما تقدم بيانه فلايكون فيه دلالة على نفى الوجوب . وعن الثانى وهو التمسك بقوله تعالى « ومن تطوع خيرا » فضعيف لأن هذا لايقتضى أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف المذكور أولا بل يجوز أن يكون المقصود منه شيئا آخر يدل على ذلك قول الحسن إن المراد من قوله : ومن تطوع خيرا جميع الطاعات فى الدين يعنى فعل فعلا زائدا على ماافترض عليه من صلاة وصدقة وصيام وحج وعمرة وطواف وغير

موسى عليه السلام ساجدا . قوله تعالى (ومن تطوع خيرا) قرأ حمزة والكسائى بالياء وتشديد الطاء ، وجزم العين وكذلك الثانية « فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا » بمعنى يتطوع ووافق يعقوب فى الأول وقرأ الباقون بالتاء وفتح العين فى الماضى . وقال مجاهد معناه فمن تطوع بالطواف بالصفا والمروة وقال مقاتل والكلبى : فمن تطوع أى زاد فى الطواف بعد الواجب وقيل من تطوع بالحج والعمرة بعد أداء الحجة الواجبة عليه . وقال الحسن وغيره : أراد سائر الأعمال ، يعنى فعل غير المفترض عليه من زكاة وصلاة

ذلك

وطواف وغيرها من أنواع الطاعات (فان الله شاكر) مجاز لعبده بعمله (عليم) بنيته. والشكر من الله تعالى ان يعطى لعبده فوق مايستحق يشكر اليسير ويعطى الكثير. قوله تعالى (إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب) نزلت فى علماء اليهود كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغيرهما من الأحكام التى كانت فى التوراة (أولئك يلعنهم الله) وأصل اللعن الطرد والبعد (ويلعنهم اللاعنون) أى يسألون الله أن يلعنهم ويقولون: اللهم العنهم. واختلفوا فى هؤلاء اللاعنين قال ابن عباس جميع الخلائق إلا الجن و لإنس وقال قتادة هم الملائكة وقال عطاء الجن والإنس وقال الحسن جميع عباد الله قال ابن مسعود ماتلاعن اثنان من المسلمين إلا رجعت تلك اللعنة على اليهود والنصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ وصفته . وقال مجاهد اللاعنون البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر وقالت هذا من شؤم ذنوب بنى آدم ثم استثنى فقال (إلا الذين تابوا) من الكفر (وأصلحوا) أسلموا وأصلحوا الأعمال فيما بينهم وبين ربهم (وبينوا) ماكتموا (فأولئك أتوب عليهم) أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم (وأنا التواب) الرجاع بقلوب عبادى المنصرفة عنى إلى (الرحيم) بهم بعد إقبالهم على (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة) أى لعنة الملائكة (والناس أجمعين) قال أبو العالية هذا يوم

ذلك من أنواع الطاعات. وقال مجاهد ومن تطوع خيرا بالطواف بهما وهذا على قول من لا يرى الطواف بهما فرضا وقيل معناه ومن تطوع خيرا فزاد فى الطواف بعد الواجب والقول الأول أولى للعموم (فان الله شاكر) أى مجاز على الطاعة (عليم) أى بنيته وحقيقة الشاكر فى للغة هو المظهر للانعام عليه والشكر هو تصور النعمة وإظهارها والله تعالى لايوصف بذلك لأنه لايلحقه المنافع والمضار فالشاكر فى صفة الله تعالى مجاز فاذا وصف به أريد به أنه المجازى على الطاعة بالثواب إلا أن اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد مظاهرة فى الإحسان إليهم . قوله عز وجل (إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى) نزلت فى علماء اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغيرها من الأحكام التى كانت فى التوراة وقيل إن الآية على العموم فيمن كتم شيئا من أمر الدين لأن اللفظ عام والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ومن قال بالقول الأول وإنها فى اليهود قال إن الكتم لايصح إلا منهم لأنهم كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومعنى الكتمان ترك إظهار الشىء مع الحاجة إلى بيانه وإظهاره فمن كتم شيئا من أمر الدين فقد عظمت مصيبته (ق) عن أبى هريرة قال لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ماحدثت شيئا أبدا « إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى» وقوله «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » إلى آخر الآيتين ، وهل إظهار علوم الدين فرض كفاية أو فرض عين فيه خلاف والأصح أنه إذا ظهر للبعض بحيث يتمكن كل واحد من الوصول إليه لم يبق مكتوما وقيل متى سئل العالم عن شىء يعلمه من أمر الدين يجب عليه إظهاره وإلا فلا (من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب) يعنى فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم فعلى هذا يكون المراد بالناس علماء بنى إسرائيل ومن قال إن المراد بالكتاب جميع ما أنزل الله على أنبيائه من الأحكام قال المراد بالناس العلماء كافة (أولئك) يعنى الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى (يلعنهم الله) أى يبعدهم من رحمته وأصل اللعن فى اللغة الطرد والإبعاد (ويلعنهم اللاعنون) قال ابن عباس جميع الخلائق إلا الجن والإنس وذلك أن البهائم تقول إنما منعنا القطر بمعاصى بنى آدم وقيل اللاعنون هم الجن والانس لأنه وصفهم بوصف من يعقل وقيل ماتلاعن اثنان من المسلمين إلا رجعت إلى اليهود والنصارى الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ثم استثنى فقال تعالى (إلا الذين تابوا) أى ندموا على مافعلوا فرجعوا عن الكفر إلي الإسلام (وأصلحوا) يعنى الأعمال فيما بينهم وبين الله تعالي (وبينوا) يعنى ما كتموا من العلم (فأولئك أتوب عليهم) أى أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم (وأنا التواب) أى المتجاوز عن عبادى الرجاع بقلوبهم المنصرفة عنى إلي (الرحيم) يعنى بهم بعد إقبالهم على . قوله عز وجل (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) قيل هذا اللعن يكون يوم القيامة يؤتى بالكافر فيوقف فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون . فان قلت الكافر لايلعن نفسه ولا يلعنه أهل دينه وملته فما معنى قوله والناس أجمعين . قلت فيه أوجه : أحدها أنه أراد بالناس من يعتد بلعنه وهم المؤمنون. الثانى أن الكفار يلعن بعضهم بعضا يوم القيامة . الثالث أنهم يلعنون الظالمين والكفار من الظالمين فيكون قد لعن نفسه

القيامة يوقف الكافر فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس . فان قيل فقد قال والناس أجمعين والملعون هو من جملة الناس فكيف يلعن نفسه . قيل يلعن نفسه فى القيامة قال الله تعالى « ويلعن بعضكم بعضا » وقيل إنهم يلعنون الظالمين والكافرين ومن يلعن الظالمين والكافرين وهو منهم فقد لعن نفسه (خالدين فيها) مقيمين فى اللعنة وقيل فى النار (لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون) لايمهلون ولا يؤجلون . وقال أبو العالية لا ينظرون فيعتذروا كقوله تعالى «ولايؤذن لهم فيعتذرون» قوله تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا يامحمد صف لنا ربك وانسبه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وسورة الإخلاص . والواحد الذى لانظير له ولا شريك له ، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أبومنصور السمعانى أخبرنا أبوجعفر الزياتى أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنى بكر بن إبراهيم وأبو عاصم عن عبدالله بن أبى زياد عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أنها قالت : سمعت النبى ﷺ يقول «إن فى هاتين الآيتين اسم الله الأعظم : وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم والله لا إله إلا هو الحى القيوم» قال أبو الضحى لما نزلت هذه الآية قال المشركون : وما إن محمدا يقول أن إلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان من الصادقين فأنزل الله عز وجل (إن فى خلق السموات والأرض)

(خالدين فيها) أى مقيمين فى اللعنة وقيل فى النار وإنما أضمرت لعظم شأنها (لايخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون) أى لايمهلون ولا يؤجلون . وقيل لاينظرون ليعتذروا . وقيل لاينظر إليهم نظر رحمة .

(فصل فيما يتعلق بهذه الآية من الحكم) قال العلماء لا يجوز لعن كافر معين لأن حاله عند الوفاة لايعلم فلعله يموت على الإسلام وقد شرط الله فى هذه الآية إطلاق اللعنة على من مات على الكفر ويجوز لعن الكفار يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها » وذهب بعضهم إلى جواز لعن إنسان معين من الكفار بدليل جواز قتاله وأما العصاة من المؤمنين فلا يجوز لعنة أحد منهم على التعيين وأما على الاطلاق فيجوز لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله السارق يسرق البيضة والحبل فتقطع يده» ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشمة وآكل الربا ومؤكله ولعن من غير منار الأرض ومن انتسب لغير أبيه وكل هذه فى الصحيح . قوله عز وجل (وإلهكم إله واحد) سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا يامحمد صف لنا ربك وانسبه ، فأنزل الله هذه الآية وسورة الإخلاص ومعنى الوحدة الإنفراد وحقيقة الواحد هو الشىء الذى لايتبعض ولا ينقسم والواحد فى صفة الله أنه واحد لا نظير له وليس كمثله شىء وقيل واحد فى ألوهيته وربوبيته ليس له شريك لأن المشركين أشركوا معه الآلهة فكذبهم الله تعالى بقوله : وإلهكم إله واحد يعنى لاشريك له فى ألوهيته ولا نظير له فى الربوبية والتوحيد هو نفى الشريك والقسيم والشبيه فالله تعالى واحد فى أفعاله لا شريك له يشاركه فى مصنوعاته وواحد فى ذاته لاقسيم له وواحد فى صفاته لا يشبهه شىء من خلقه (لا إله إلا هو) تقرير للوحدانية بنفى غيره من الألوهية وإثباتها له سبحانه وتعالى (الرحمن الرحيم) يعنى أنه المولى لجميع النعم وأصولها وفروعها فلا شىء سواه بهذه الصفة لأن كل ماسواه إما نعمة وأما منعم عليه وهو المنعم على خلقه الرحيم بهم . عن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين : وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، وفاتحة آل عمران » الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث صحيح وقيل لما نزلت هذه الآية قال المشركون إن محمدا يقول : إلهكم إله واحد فليأتنا بآية إن كان صادقا فأنزل الله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض) وعلمه كيفية الاستدلال على وحدانية الصانع وردهم إلى التفكر فى آياته والنظر فى عجائب مصنوعاته وإتقان أفعاله ففى ذلك دليل على وحدانيته إذ لو كان فى الوجود صانعان لهذه الأفعال لاستحال اتفاقهما على أمر واحد ولامتنع فى أفعالهما التساوى فى صفة الكمال فثبت بذلك أن خالق هذا العالم والمدبر له واحد قادر مختار ، فبين سبحانه وتعالى من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع أولها : إن فى خلق السموات والأرض وإنما جمع السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى ووحد الأرض لأنها جنس واحد وهو التراب ، والآية فى السماء هى سمكها وارتفاعها بغير عمد ولا علاقة ومايرى فيها من الشمس والقمر والنجوم ، والآية فى الأرض مدها وبسطها على الماء

ذكر السموات بلفظ الجمع والأرض بلفظ الواحد لأن كل سماء من جنس آخر والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب فالآية فى السموات سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم ، والآية فى الأرض مدها وبسطها وسعتها وما يرى فيها من الأشجار والأنهار والجبال والبحار والجواهر والنبات . قوله تعالى (واختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما فى الذهاب والمجئ يخلف أحدهما صاحبه إذا ذهب أحدهما جاء الآخر خلفه أى بعده ، نظيره قوله تعالى «وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة» قال عطاء أراد اختلافهما

فى النور والظلمة والزيادة والنقصان والليل جمع ليلة والليالى جمع الجمع والنهار جمع نهر وقدم الليل على النهار فى الذكر لأنه أقدم منه قال الله تعالى «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار» (والفلك التى تجرى فى البحر) يعنى السفن واحده وجمعه سواء فاذا أريد به الجمع يؤنث وفى الواحد يذكر . قال الله تعالى فى الواحد والتذكير «إذ أبق إلى الفلك المشحون» وقال فى الجمع والتأنيث «حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة . والفلك التى تجرى فى البحر» الآية فى الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهى موقرة لا ترسب تحت الماء (بما ينفع الناس) يعنى ركوبها والحمل عليها فى التجارات والمكاسب وأنواع المطالب (وما أنزل الله من السماء من ماء) يعنى المطر قيل أراد بالسماء السحاب يخلق الله الماء فى السحاب ثم من السحاب ينزل ، وقيل أراد به السماء المعروفة يخلق الله تعالى الماء فى السماء ثم ينزل من السماء إلى السحاب ثم من السحاب ينزل إلى الأرض (فأحيا به) أى بالماء (الأرض بعد موتها) أى بعد يبسها وجدوبتها (وبث فيها) أى فرق فيها (من كل دابة وتصريف الرياح) قرأ حمزة والكسائى الريح بغير ألف وقرأ الباقون بالألف وكل ريح فى القرآن ليس فيها ألف ولام اختلفوا فى جمعها وتوحيدها إلا فى الذاريات الريح العقيم اتفقوا على توحيدها وفى الحرف الأول من سورة الروم الرياح مبشرات اتفقوا على جمعها وقرأ أبو جعفر سائرها على الجمع والقراء مختلفون فيها والريح يذكر ويؤنث ، وتصريفها أنها يتصرف إلى الجنوب والشمال والقبول والدبور والنكباء وقيل تصريفها أنها تارة تكون لينا وتارة

وما يرى فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والأنهار والأشجار والثمار والنبات . النوع الثانى قوله تعالى (واختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما فى المجىء والذهاب وقيل اختلافهما فى الطول والقصر والزيادة والنقصان والنور والظلمة . وإنما قدم الليل على النهار لأن الظلمة أقدم . والآية فى الليل والنهار أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون فى النهار وطلب النوم والراحة يكون فى الليل فاختلاف الليل والنهار إنما هو لتحصيل مصالح العباد . النوع الثالث قوله تعالى (والفلك التى تجرى فى البحر) أى السفن واحدة وجمعه سواء وسمى البحر بحرا لاتساعة وانبساطه ، والآية فى الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهى موقرة بالأثقال والرجال فلا ترسب وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة ، وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر فلا ينجى منه إلا الله تعالى النوع الرابع قوله تعالى (بما ينفع الناس) يعنى ركوبها والحمل عليها فى التجارات لطلب الأرباح ، والآية فى ذلك أن الله تعالى لو لم يقو قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض فى تجاراتهم ومنافعهم وأيضا فان الله تعالى خص كل قطر من أقطار العالم بشىء معين وأحوج الكل إلى الكل فصار ذلك سببا يدعوهم إلى اقتحام الأخطار فى الأسفار من ركوب السفن وخوض البحر وغير ذلك فالحامل ينتفع لأنه يربح والمحمول إليه ينتفع بما حمل إليه . النوع الخامس قوله تعالى (وما أنزل الله من السماء من ماء) يعنى المطر قيل أراد بالسماء السحاب سمى سماء لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء خلق الله الماء فى السحاب ومنه ينزل إلى الأرض وقيل أراد السماء بعينها خلق الله الماء فى السماء ومنه ينزل إلى السحاب ثم منه إلى الأرض (فأحيا به) أى بالماء (الأرض بعد موتها) أى يبسها وجدبها سماه موتا مجازا لأنها إذا لم تنبت شيئا ولم يصبها المطر فهى كالميتة ، والآية فى إنزال المطر وإحياء الأرض به أن الله تعالى جعله سببا لإحياء الجميع من حيوان ونبات ، ونزوله عند وقت الحاجة إليه بمقدار المنفعة وعند الاستسقاء والدعاء وإنزاله بمكان دون مكان . النوع السادس قوله تعالى (وبث) أى فرق (فيها) أى فى الأرض (من كل دابة) قال ابن عباس يريد كل ما دب على وجه الأرض من جميع الخلق من الناس وغيرهم ، والآية فى ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم ثم ما فيهم من الاختلاف فى الصور والأشكال والألوان والألسنة والطبائع والأخلاق والأوصاف إلى غير ذلك ثم يقاس على بنى آدم سائر الحيوان . النوع السابع قوله تعالى (وتصريف الرياح) يعنى فى مهابها قبولا ودبورا وشمالا وجنوبا ونكباء وهى الريح التى تأتى من غير مهب

تكون عاصفا وتارة تكون حارة وتارة تكون باردة قال ابن عباس أعظم جنود الله الريح والماء ، وسميت الريح ريحا لأنها تريح النفوس . قال شريح القاضى : ماهبت ريح إلا لشفاء سقيم أو لسقم صحيح والبشارة فى ثلاث من الرياح فى الصبا والشمال والجنوب ، أما الدبور فهى الريح العقيم لا بشارة فيها . وقيل الرياح ثمانية : أربعة للرحمة وأربعة للعذاب فأما التى للرحمة المبشرات والناشرات والذاريات والمرسلات ، وأما التى للعذاب فالعقيم والصرصر فى البر ، والعاصف والقاصف فى البحر (والسحاب المسخر) أى الغيم المذلل ، سمى سحابا لأنه ينسحب أى يسير فى سرعة كأنه يسحب أى يجر (بين السماء والأرض

لآيات لقوم يعقلون) فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقا وصانعا . قال وهب بن منبه : ثلاثة لايدرى من أين تجىء : الرعد والبرق والسحاب. قوله تعالى (ومن الناس) يعنى المشركين (من يتخذ من دون الله أندادا) أى أصناما يعبدونها (يحبونهم كحب الله) أى يحبون آلهتهم كحب المؤمنين الله. وقال الزجاج يحبون الأصنام كما يحبون الله لأنهم أشركوها مع الله فسووا بين الله وبين أوثانهم فى المحبة (والذين آمنوا أشد حبا لله) أى أثبت وأدوم على حبه من المشركين لأنهم لا يختارون على الله ماسواه ، والمشركون إذا اتخذوا صنما ثم رأوا أحسن منه طرحوا الأول واختاروا الثانى

قال قتادة إن الكافر يعرض عن معبود فى وقت البلاء ويقبل على الله تعالى دعوا

كما أخبر الله عز وجل عنهم فقال « فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » والمؤمن لا يعرض عن الله فى السراء والضراء والشدة والرخاء قال سعيد بن جبير إن الله عز وجل يأمر يوم القيامة من أحرق نفسه فى الدنيا على رؤية الأصنام أن يدخلوا جهنم مع أصنامهم فلا يدخلون لعلمهم أن عذاب جهنم على الدوام ثم يقول للمؤمنين وهم بين أيدى الكفار إن كنتم أحبائى فادخلوا جهنم فيقتحمون فيها فينادى مناد من تحت العرش « والذين آمنوا أشد حبا لله » وقيل إنما قال « والذين آمنوا أشد حبا لله » لأن الله تعالى أحبهم أولا ثم أحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم قال الله تعالى « يحبهم

صحيح فكل ريح تختلف مهابها تسمى نكباء وقيل تصريفها فى أحوال مهابها لينة وعاصفة وحارة وباردة وسميت ريحا لأنها تريح قال ابن عباس أعظم جنود الله الريح وقيل ماهبت ريح إلا لشفاء سقيم أو ضده . وقيل البشارة فى ثلاث رياح الصبا والشمال والجنوب والدبور هى الريح العقيم التى أهلكت بها عاد فلا بشارة فيها ، والآية فى الريح أنها جسم لطيف لا تمسك ولا ترى وهى مع ذلك فى غاية القوة تقلع الشجر والصخر وتخرب البنيان العظيم وهى مع ذلك حياة الوجود فلو أمسكت طرفة عين لمات كل ذى روح وأنتن ما على وجه الأرض النوع الثامن قوله تعالى (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) أى الغيم المذلل سمى سحابا لسرعة سيره كأنه يسحب والآية فى ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التى تسيل منها الأودية العظيمة يبقى معلقا بين السماء والأرض ففى هذه الأنواع الثمانية المذكورة فى هذه الآية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار وأنه الواحد فى ملكه فلا شريك له ولا نظير وهو المراد من قوله « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو » وقوله (لآيات) أى فيما ذكر من دلائل مصنوعاته الدالة على وحدانيته قيل إنما جمع آيات لأن فى كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع آيات كثيرة تدل على أن لها خالقا مدبرا مختارا (لقوم يعقلون) أى ينظرون بصفاء عقولهم ويتفكرون بقلوبهم فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقا ومدبرا مختارا وصانعا قادرا على ما يريد . قوله عز وجل (ومن الناس) يعنى المشركين (من يتخذ من دون الله أندادا) يعنى أصناما يعبدونها والند المثل المنازع فعلى هذا الأصنام أندادا بعضها لبعض وليست أندادا لله تعالى وتعالى الله أن يكون له ند أوله مثل منازع وقيل الأنداد الأكفاء من الرجال وهم رؤساؤهم وكبراؤهم الذين يطيعونهم فى معصية الله تعالى (يحبونهم) أى يودونهم ويميلون إليهم والحب نقيض البغض وأحببت فلانا أى جعلته معرضا بأن تحبه والمحبة الإرادة (كحب الله) أى كحب المؤمنين لله والمعنى يحبون الأصنام كما يحب المؤمنون ربهم عز وجل وقيل معناه يحبونهم كحب الله فيكون المعنى أنهم يسوون بين الأصنام وبين الله فى المحبة فمن قال بالقول الأول لم يثبت للكفار محبة الله تعالى ومن قال بالقول الثانى أثبت للكفار محبة الله تعالى لكن جعلوا الأصنام شركاء له فى الحب (والذين آمنوا أشد حبا لله) أى أثبت وأدوم على محبته لأنهم لا يختارون مع الله سواه والمشركون إذا اتخذوا صنما ثم رأوا آخر أحسن منه طرحوا الأول واختاروا الثانى . وقيل إن الكفار يعدلون عن أصنامهم فى الشدائد ويقبلون إلى الله تعالى كما أخبر عنهم فإذا ركبوا فى الفلك

ويحبونه . قوله تعالى (ولو يرى الذين ظلموا) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب ولو ترى بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء وجواب لو ههنا محذوف ومثله كثير فى القرآن كقوله تعالى «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به» الآية يعنى لكان هذا القرآن فمن قرأ بالتاء معناه ولو ترى يا محمد الذين ظلموا أنفسهم فى شدة العذاب لرأيت أمرا عظيما ، قيل معناه قل يا محمد أيها الظالم لو ترى الذين ظلموا أى أشركوا فى شدة العقاب لرأيت أمرا فظيعا، ومن قرأ بالياء معناه ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب أى لو رأوا شدة عذاب الله وعقوبته حين يرون العذاب لعرفوا مضرة الكفر وأن ما اتخذوا من الأصنام لا ينفعهم . قوله تعالى (إذ يرون) قرأ ابن عامر بضم الياء والباقون بفتحها (العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب) أى بأن القوة لله جميعا، معناه لرأوا وأيقنوا أن القوة لله جميعا وقرأ أبو جعفر

ويعقوب: إن القوة وإن الله بكسر الألف على الاستئناف والكلام تام عند قوله إذ يرون العذاب مع إضمار الجواب (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب)هذا فى يوم القيامة حين يجمع الله القادة والأتباع فيتبرأ بعضهم من بعض ، هذا قول أكثر المفسرين وقال السدى هم الشياطين يتبرءون من الإنس (وتقطعت بهم)أى عنهم (الأسباب)أى الصلات التى كانت بينهم فى الدنيا من القرابات والصداقات وصارت مخالطتهم عداوة وقال ابن جريج الأرحام كما قال الله تعالى «فلا أنساب بينهم يومئذ» وقال السدى يعنى الأعمال التى كانوا يعملونها فى الدنيا كما قال الله تعالى «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا» وأصل السبب ما يوصل به إلى الشىء من ذريعة أو قرابة أو مودة، ومنه يقال للحبل سبب، وللطريق سبب (وقال الذين اتبعوا) يعنى الأتباع (لو أن لنا كرة) أى رجعة إلى الدنيا (فنتبرأ منهم) أى من المتبوعين (كما تبرءوا منا) اليوم (كذلك) أى كما أراهم العذاب كذلك (يريهم الله) وقيل كتبرئ بعضهم من بعض يريهم الله (أعمالهم حسرات) ندامات (عليهم) جمع حسرة . قيل يريهم ما ارتكبوا من السيئات فيتحسرون لم عملوا؟. وقيل يريهم ما تركوا من الحسنات فيندمون على تضييعها. وقال ابن كيسان إنهم أشركوا بالله الأوثان رجاء أن تقربهم إلى الله عز وجل فلما عذبوا على ما كانوا يرجون ثوابه تحسروا وندموا . قال السدى ترفع لهم الجنة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله فيقال لهم تلك مساكنكم لو أطعتم الله ، ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين

دعوا الله مخلصين له الدين» والمؤمنون لا يعدلون عن الله تعالى فى السراء ولا فى الضراء ولا فى الشدة ولا فى الرخاء وقيل إن المؤمنين يوحدون ربهم والكفار يعبدون أصناما كثيرة فتنقص المحبة لصنم واحد. وقيل إنما قال «والذين آمنوا أشد حبا لله» لأن الله أحبهم أولا فأحبوه ومن شهد له المعبود بالمحبة كانت محبته أتم وسيأتى بسط الكلام فى معنى المحبة عند قوله: يحبهم ويحبونه (ولو يرى الذين ظلموا) قرئ بالتاء والمعنى ولو ترى يا محمد الذين ظلموا يعنى أشركوا فى شدة العذاب لرأيت أمرا عظيما وقرئ بالياء ومعناه ولو يرى الذين ظلموا أنفسهم عند رؤية العذاب حين يقذف بهم فى النار لعرفوا مضرة الكفر وأن ما اتخذوه من الأصنام لا ينفعهم (إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا) معناه لو رأى الذين كانوا يشركون فى الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرون العذاب أن القوة ثابتة لله جميعا ، والمعنى أنهم شاهدوا من قدرة الله تعالى ما تيقنوا معه أن القوة له جميعا وأن الأمر ليس على ما كانوا عليه من الشرك والجحود (وأن الله شديد العذاب) قوله عز وجل (إذ تبرأ) أى تنزه وتباعد (الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب) أى القادة من مشركى الانس من الأتباع وذلك يوم القيامة حين يجمع القادة والأتباع فيتبرأ بعضهم من بعض عند نزول العذاب بهم وعجزهم عن دفعه عن أنفسهم فكيف عن غيرهم . وقيل هم الشياطين يتبرءون من الانس ، والقول هو الأول (وتقطعت بهم الأسباب) يعنى الوصلات التى كانت بينهم فى الدنيا يتواصلون بها من قرابة وصداقة . وقيل الأعمال التى كانت بينهم يعملونها فى الدنيا . وقيل العهود والحلف التى كانت بينهم يتوادون عليها . وأصل السبب فى اللغة الحبل الذى يصعد به النخل وسمى كل ما يتوصل به إلى شىء من ذريعة أو قرابة أو مودة سببا تشبيها بالحبل الذى يصعد به (وقال الذين اتبعوا) يعنى الأتباع (لو أن لنا كرة) أى رجعة إلى الدنيا (فنتبرأ منهم) أى من المتبوعين (كما تبرءوا منا) اليوم (كذلك يريهم الله) أى كما أراهم العذاب يريهم الله (أعمالهم حسرات عليهم) لأنهم أيقنوا بالهلاك . والحسرة الغم على ما فاته وشدة الندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه ، والمعنى إن الله تعالى يريهم السيئات التى عملوها وارتكبوها فى الدنيا فيتحسرون لم عملوها ؟. وقيل يريهم ما تركوا

يندمون ويتحسرون (وماهم بخارجين من النار) قوله تعالى (ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) نزلت فى ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبنى مدلج فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام فالحلال ماأحله الشرع ، طيبا قيل مايستطاب ويستلذ والمسلم يستطيب الحلال ويعاف الحرام وقيل الطيب الطاهر (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) قرأ أبو جعفر وابن عامر والكسائى وحفص ويعقوب بضم الطاء والباقون بسكونها وخطوات الشيطان آثاره وزلاته وقيل هى النذر فى المعاصى وقال أبو عبيدة هى المحقرات من الذنوب وقال الزجاج : طرقه (إنه لكم عدومبين) بين العداوة وقيل مظهر العداوة وقد أظهر عداوته بإبائه السجود لآدم وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة . وأبان يكون لازما ومتعديا ثم ذكر عداوته فقال (إنما يأمركم بالسوء) أى بالإثم وأصل السوء مايسوء صاحبه وهو مصدر ساء يسوء سوءا ومساءة أى أحزنه وسوأته فساء أى حزنته فحزن (والفحشاء) المعاصى وما قبح من القول والفعل وهو مصدر كالسراء والضراء روى باذن عن ابن عباس قال الفحشاء من المعاصى مايجب فيه الحد، والسوء من الذنوب ما لا حد فيه وقال السدى هى الزنا وقيل هي البخل (وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) من تحريم الحرث والأنعام . يعنى قوله تعالي (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) قيل هذه قصة مستأنفة والهاء والميم فى «لهم» كناية عن غير مذكور وروى عن ابن عباس قال دعا رسول الله ﷺ اليهود إلي الإسلام فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أى ماوجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أفضل وأعلم منا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل الآية متصلة بما قبلها وهي نازلة فى مشركى العرب وكفار قريش والهاء والميم عائدة إلى قوله« ومن الناس من يتخذ من

من الحسنات فيندمون على تضييعها. وقيل يرفع لهم منازلهم فى الجنة فيقال لهم تلك مسا كنكم لو أطعتم الله ثم تقسم بين المؤمنين فذلك حين يتحسرون ويندمون على ما فاتهم ولا ينفعهم الندم (وماهم بخارجين من النار) قوله عز وجل (ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) نزلت فى ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبنى مدلج فيما حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام. والحلال المباح الذى أحله الشرع وانحلت عقدة الحظر عنه وأصله من الحل الذى هو نقيض العقد. والطيب مايستلذ، والمسلم لايستطيب إلا الحلال ويعاف الحرام. وقيل الطيب هو الطاهر لأن النجس تكرهه النفس وتعافه (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى لاتسلكوا سبيله. وقيل معناه لاتأتموا به ولا تتبعوا آثاره وزلاته، والمعنى احذروا أن تتعدوا ماأحل الله لكم إلى مايدعوكم إليه الشيطان. قيل هى النذور فى المعاصى . وقيل هى المحقرات من الذنوب ثم بين علة هذا التحذير بقوله تعالى (إنه لكم عدو مبين) أى ظاهر العداوة وقد أظهر الله تعالى عداوته بآية السجود لآدم ثم بين عداوته ماهى فقال تعالى (إنما يأمركم بالسوء) يعنى بالإثم . والسوء مايسوء صاحبه ويحزنه (والفحشاء) يعنى بها المعاصى وما قبح من قول أو فعل قال ابن عباس السوء ما لا حد فيه، والفحشاء مايجب فيه الحد. وقيل الفحشاء الزنا . وقيل هو البخل (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) يعنى من تحريم الحرث والأنعام ويتناول ذلك جميع المذاهب الفاسدة التى لم يأذن فيها الله ولم ترد عن رسول الله ﷺ . واعلم أن أمر الشيطان ووسوسته عبارة عن هذه الخواطر التى يجدها الإنسان فى قلبه وماهية هذه الخواطر حروف وأصوات منتظمة خفية تشبه الكلام فى الخارج ثم إن فاعل هذه الخواطر هو الله تعالى وهو المحدث لها فى باطن الإنسان وإنما الشيطان كالعرض ، والله هو المقدر له على ذلك وقد ورد في الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم« إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم» وإنما أقدر على ذلك لإيصال هذه الخواطر إلى باطن الإنسان . قوله عز وجل (وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله) هذه قصة مستأنفة والضمير فى«لهم» يعود إلي غير مذكور قال ابن عباس دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلي الإسلام فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا فهم كانوا خيرا منا وأعلم منا فأنزل الله هذه الآية. وقيل إن الآية متصلة بما قبلها والضمير فى «لهم» يعود إلي قوله «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا» وهم مشركو العرب قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا يعنى من عبادة الأصنام. وقيل بل الضمير فى «لهم» يعود على قوله«ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض» والمعنى وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله

دون الله أندادا » (قالوا بل نتبع ماألفينا) أى ماوجدنا (عليه آباءنا) من عبادة الأصنام . وقيل معناه وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله فى تحليل ماحرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحيرة والسائبة والهاء والميم عائدتان إلي الناس فى قوله تعالى« ياأيها الناس كلوا»قالوا بل نتبع قرأ الكسائى: بل نتبع بادغام اللام فى النون وكذلك يدغم لام هل وبل فى التاء والثاء والزاء والسين والصاد والطاء والظاء ووافق حمزة فى الثاء والسين، ماألفينا ماوجدنا عليه آباءنا من التحريم والتحليل قال تعالى (أو لو كان آباؤهم) أى كيف يتبعون آباءهم، وآباؤهم (لايعقلون شيئا) الواو فى أو لو واو العطف ويقال لها أيضا واو التعجب دخلت عليها ألف الاستفهام للتوبيخ . والمعنى أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالا لايعقلون شيئا لفظه عام ومعناه الخصوص أى لايعقلون شيئا من أمور الدين لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا (ولا يهتدون) ثم ضرب لهم مثلا فقال جل ذكره (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع) والنعيق والنعق صوت الراعى بالغنم ، معناه مثلك يا محمد ومثل الكفار فى وعظهم ودعائهم إلي الله عز وجل كمثل الراعى الذى ينعق بالغنم وقيل مثل واعظ الكفار وداعيهم معهم كمثل الراعى ينعق بالغنم وهى لاتسمع (إلا دعاء) صوتا (ونداء) فأضاف المثل إلى الذين كفروا لدلالة الكلام عليه كما فى قوله تعالى « واسأل القرية» معناه كما أن البهائم تسمع من صوت الراعي ولا تفهم ولا تعقل مايقال لها كذلك الكافر لا ينتفع بوعظك إنما يسمع صوتك . وقيل معناه ومثل الذين كفروا في قلة عقلهم وفهمهم عن الله وعن رسوله كمثل المنعوق به من البهائم التى لاتفقه من الأمر والنهى إلا الصوت فيكون المعنى للمنعوق به والكلام خارج عن الناعق وهو فاش في كلام العرب يفعلون ذلك يقلبون الكلام لإيضاح المعنى عندهم يقولون فلان يخافك كخوف الأسد أى كخوفه الأسد وقال تعالى «ماإن مفاتحه لتنوء بالعصبة» وإنما العصبة لتنوء بالمفاتيح . وقيل معناه مثل الذين كفروا فى دعاء الأصنام التى لاتفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم فلا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه فى عناء من الدعاء والنداء كذلك الكافر ليس له من دعاء الآلهة وعبادتها إلى العناء والبلاء كما قال تعالى « إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم» وقيل معنى الآية ومثل الذين كفروا فى دعاء الأوثان كمثل الذى يصيح فى جوف الجبال فيسمع صوتا يقال له الصداء لايفهم منه شيء فمعنى الآية كمثل الذى ينعق بما لايسمع منه الناعق إلا دعاء ونداء (صم) تقول العرب لمن لايسمع ولا يعقل كأنه أصم (بكم) عن الخير لايقولونه (عمى) عن الهدى لايبصرونه (فهم لايعقلون) قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات) حلالات (مارزقناكم) أخبرنا

يعنى فى تحليل ماحرموا على أنفسهم (قالوا بل نتبع ماألفينا) يعنى وجدنا (عليه آباءنا) من التحريم والتحليل، قال الله تعالى (أو لوكان آباؤهم) يعنى الذين يتبعونهم (لايعقلون شيئا) يعنى لايعلمون شيئا من أمر الدين ، لفظه عام ومعناه خاص وذلك أنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا (ولا يهتدون) أى إلى الصواب. ثم ضرب لهم مثلا فقال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء) النعيق صوت الراعى بالغنم، ولا يقال نعق إلا للراعى بالغنم وحدها ومعنى الآية ومثلك يامحمد ومثل الكفار فى وعظهم ودعائهم إلى الله كمثل الراعى الذى ينعق بالغنم وهى لاتسمع إلا صوتا فصار الداعى إلى الله وهو الرسول صلى الله عليه وسلم بمنزلة الراعى وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها ، ووجه المثل أن الغنم تسمع الصوت ولا تفطن للمراد وكذلك الكفار يسمعون صوت الرسول ﷺ ولكن لاينتفعون به وقيل معناه ومثل الذين كفروا فى قلة عقلهم وفهمهم عن الله ورسوله كمثل المنعوق به من البهائم التى لاتفهم من الأمر والنهى إلا الصوت فيكون المعنى بالمثل المنعوق به خارج عن الناعق . وقيل معناه ومثل الذين كفروا فى دعائهم الأصنام التى لاتفقه ولا تعقل كمثل الناعق بالغنم فهو لاينتفع من نعيقه بشيء غير أنه غنى عن الدعاء والنداء فكذلك الكافر ليس له من دعاء الأصنام وعبادتها إلا العناء والبلاء، والفرق بين هذا القول والقول الذى قبله أن المحذوف هنا هو المدعو وهى الأصنام وفى القول الأول المحذوف هو الداعى وهو الرسول صلى الله عليه وسلم (صم بكم عمى) لما شبههم بالبهائم زاد فى تبكيتهم فقال: صم لأنهم إذا سمعوا الحق ودعاء الرسول ولم ينتفعوا به صاروا بمنزلة الأصم الذى لايسمع يقال لمن يسمع ولا يعقل كأنه أصم ، بكم أى عن النطق بالحق عمى أى عن طريق الهدى (فهم لايعقلون) قيل المراد به العقل الكسبى لأن العقل الطبيعى كان حاصلا فيهم قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) قيل إن الأمر فى قوله: كلوا قد يكون للوجوب كالأكل لحفظ النفس ودفع الضرر عنها، وقد يكون للندب كالأكل مع الضيف وقد يكون

عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو محمد وعبد الرحمن بن أبي شريح أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى أخبرنا علي بن الجعد أخبرنا فضيل بن مرزوق عن عدى بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا، يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء: يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك» (واشكروا لله) على نعمه (إن كنتم إياه تعبدون) ثم بين المحرمات فقال (إنما حرم عليكم الميتة) قرأ أبو جعفر الميتة كل القرآن بالتشديد والباقون يشددون البعض. والميتة كل ما لم تدرك ذكاته مما يذبح (والدم) أراد به الدم الجارى يدل عليه قوله تعالي «أو دما مسفوحا» واستثنى الشرع من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال فأحلها. أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال (١٤٠) أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعى أخبرنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحلت لنا ميتتان ودمان الميتتان الحوت والجراد والدمان أحسبه قال الكبد والطحال» (ولحم الخنزير) أراد به جميع أجزائه فعبر عن ذلك باللحم لأنه معظمه (وما أهل به لغير الله) أى ما ذبح للأصنام والطواغيت. وأصل الإهلال رفع الصوت وكانوا إذا ذبحوا لآلهتهم يرفعون أصواتهم بذكرها فجرى ذلك من أمرهم حتى قيل لكل ذابح وإن لم يجهر بالتسمية مهل وقال الربيع بن أنس وغيره وما أهل به لغير الله قال ما ذكر عليه اسم غير الله (فمن اضطر) بكسر النون وإخواته عاصم وحمزة ووافق أبو عمرو إلا فى اللام والواو مثل قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن ويعقوب إلا فى الواو ووافق ابن عامر فى التنوين والباقون كلهم بالضم فمن كسر قال لأن الجزم يحرك إلى الكسر ومن ضم فنضمه أول الفعل نقل حركتها إلى ماقبلها وأبو جعفر بكسر الطاء ومعناه فمن اضطر إلى أكل الميتة أى أحوج وألجىء إليه (غير) نصب على الحال وقيل على الاستثناء وإذا رأيت غير لا يصلح فى موضعها إلا فهى حال وإذا صلح فى موضعها إلا فهى استثناء (باغ ولا عاد) أصل البغى قصد الفساد يقال بغى الجرح يبغى بغيا إذا ترامى إلي الفساد وأصل العدوان الظلم ومجاوزة الحد يقال عدا عليه عدوا وعدوانا إذا ظلم. واختلفوا فى معنى قوله غير باغ ولا عاد فقال بعضهم غير باغ أى غير خارج على السلطان ولا عاد متعد عاص بسفره بأن خرج لقطع الطريق أو لفساد فى الأرض وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقالوا لا يجوز للعاصى بسفره أن يأكل الميتة إذا اضطر إليها ولا أن يترخص برخص المسافر حتى يتوب وبه قال الشافعى لأن إباحة الميتة له إعانة له على فساده وذهب جماعة إلى أن البغى والعدوان راجعان إلى الأكل واختلفوا فى تفصيله فقال الحسن وقتادة غير باغ بأكله من غير اضطرار ولا عاد أى لا يعدو لشبعه وقيل

أصله

للاباحة إذا خلا من هذه العوارض. والطيب هو الحلال (م) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك» قوله أشعث أغبر هو البعيد العهد بالدهن والغسل والنظافة. وقيل الطيب المستلذ من الطعام فلعل قوما تنزهوا عن أكل المستلذ من المطاعم فأباح الله تعالى لهم ذلك (وأشكروا الله) يعنى على نعمه (إن كنتم إياه تعبدون) أى اشكروا الله الذى رزقكم هذه النعم إن كنتم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه إلهكم لا غيره وقيل إن كنتم عارفين بالله وبنعمه فاشكروه عليها. قوله عز وجل (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) لما أمرنا الله تعالى فى الآية التى تقدمت بأكل الطيبات التى هى الحلالات بين فى هذه الآية أنواعا من المحرمات أما الميتة فكل ما فارقته روحه من غير ذكاة مما يذبح. وأما الدم فهو الجارى وكانت العرب تجعل الدم فى المصارين ثم تشويه وتأكله فحرم الله الدم. وأما الخنزير فانه أراد بلحمه جميع أجزائه وإنما خص اللحم بالذكر لأنه المقصود لذاته بالأكل (وما أهل به لغير الله) يعنى وما ذبح للأصنام والطواغيت وأصل الاهلال رفع الصوت وذلك أنهم كانوا يرفعون أصواتهم بذكر آلهتهم إذا ذبحوا لها فجرى ذلك مجرى أمرهم وحالهم حتى قيل لكل ذابح مهل وإن لم يجهر بالتسمية (فمن اضطر) يعنى إلى أكل الميتة وأحوج إليها (غير باغ) أصل البغى الفساد (ولا عاد)

أصله من العدوان وهو الظلم ومجاوزة الحد (فلا إثم عليه) أى فأكل فلا إثم عليه أى فلا حرج فى أكلها (إن الله غفور) أى لما أكله فى حال الضرورة (رحيم) يعنى حيث رخص لعباده فى ذلك .

(فصل فى حكم هذه الآية وفيه مسائل) الأولى فى حكم الميتة أجمعت الأمة على تحريم أكل الميتة وأنها نجسة واستثنى الشرع منها السمك والجراد أما السمك فلقوله ﷺ فى البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » أخرجه الجماعة غير البخارى ومسلم قال الترمذى فيه حديث حسن صحيح . وأما الجراد فلما روى عن ابن أبى أوفى قال « غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أوستا وكنا نأكل الجراد ونحن معه » أخرجاه فى الصحيحين . واختلف فى السمك الميت الطافى على الماء فقال مالك والشافعى لا بأس به وقال أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن جنى إنه مكروه وروى عن على بن أبى طالب أنه قال ماطفى من صيد البحر فلا تأكله وعن ابن عباس وجابر ابن عبد الله مثله وروى عن أبى بكر الصديق وأبى أيوب أباحته . واختلف فى الجراد فقال الشافعى وأبو حنيفة لا بأس بأكل الجراد كله ماأخذته وما وجدته ميتا وروى مالك أن ماوجد ميتا فلا يحل وما أخذ حيا يذكى زكاة مثله بأن يقطع رأسه ويشوى فان غفل عنه حتى يموت فلا يحل (المسئلة الثانية فى حكم الدم) اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به قال الشافعى تحرم جميع الدماء سواء كان مسفوحا أو غير مسفوح وقال أبو حنيفة دم السمك ليس بحرام قال لأنه إذا يبس ابيض واستثنى الشارع من الدم الكبد والطحال . روى الدارقطنى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « أحل لنا من الدم دمان ومن الميتة ميتتان الحوت والجراد ومن الدم الكبد والطحال » وفى لفظ آخر « أحلت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالجراد والحوت وأما الدمان فالطحال والكبد » أخرجه ابن ماجه وأحمد بن حنبل . قال أحمد وعلى بن المدينى عبد الرحمن بن زيد ضعيف وأخوه عبد الله بن زيد قوى ثقة وقد أخرج الدارقطنى هذا الحديث من رواية عبد الله بن زيد عن أبيه عن ابن عمر مرفوعا وضعف أبو بكر بن العربى هذا الحديث وقال يروى عن عمر بما لا يصح سنده وقال البيهقى يروى هذا الحديث عن ابن عمر موقوفا ومرفوعا والصحيح الموقوف . واختلف فى تخصيص هذا العموم فى الكبد والطحال فقال مالك لا تخصيص لأن الكبد والطحال لحم ويشهد لذلك العيان الذى لا يفتقر إلى برهان وقال الشافعى هما دمان ويشهد له الحديث فهو تخصيص من العموم (المسئلة الثالثة فى الخنزير) أجمعت الأمة على أن الخنزير بجميع أجزائه محرم وإنما ذكر الله تعالى لحمه لأن معظم الانتفاع متعلق به ثم اختلفوا فى نجاسته ، فقال جمهور العلماء إنه نجس وقال مالك إنه طاهر وكذا كل حيوان عنده لأن علة الطهارة هى الحياة وللشافعى قولان فى ولوغ الخنزير الجديد أنه كالكلب والقديم يكفى فى ولوغه غسلة واحدة والفرق بينهما أن التغليظ فى الكلب لأن العرب كانت تألفه بخلاف الخنزير وقيل إن التغليظ فى الكلب تعبدى لا يعقل معناه فلا يتعدى إلى غيره (المسئلة الرابعة فى حكم قوله وما أهل به لغير الله) من الناس من زعم أن المراد بذلك ذبائح عبدة الأوثان التى كانوا يذبحونها لأصنامهم وأجاز ذبيحة النصارى إذا سمى عليها باسم المسيح وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبى وسعيد بن المسيب لعموم قوله « وطعام الذين أوتوا الكتاب

غير باغ أى غير طالبها وهو يجد غيرها ولا عاد أى غير متعد ما حد له فيأكل حتى يشبع ولكن يأكل منها قوتا مقدار ما يمسك رمقه وقال مقاتل بن حيان غير باغ أى مستحل لها ولا عاد أى متزود منها وقيل غير باغ أى غير مجاوز للقدر الذى أحل له ولا عاد أى لا يقصر فيما أبيح له فيدعه قال مسروق من اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار . واختلف العلماء فى مقدار ما يحل للمضطر أكله من الميتة فقال بعضهم مقدار ما يسد رمقه وهو قول أبى حنيفة رضى الله عنه وأحد قولى الشافعى رضى الله عنه والقول الآخر يجوز أن يأكل حتى يشبع وبه قال مالك رحمه الله تعالى وقال سهل بن عبد الله غير باغ مفارق للجماعة ولا عاد مبتدع مخالف للسنة ولم يرخص للمبتدع فى تناول المحرم عند الضرورة (فلا إثم عليه) فلا حرج عليه فى أكلها (إن الله غفور) لمن أكل فى حال الاضطرار (رحيم) حيث رخص

للعباد فى ذلك . قوله تعالى (إن الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب) نزلت فى رؤساء اليهود وعلمائهم كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم من غيرهم خافوا ذهاب مأكلهم وزوال رياستهم فعمدوا إلى صفة رسول الله ﷺ فغيروها ثم أخرجوها إليهم فلما نظرت السفلة إلى النعت المغير وجدوه مخالفا لصفة محمد ﷺ ونبوته فلم يتبعوه فأنزل الله تعالى «إن الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب» يعنى صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته (ويشترون به) أى بالمكتوم (ثمنا قليلا) أى عوضا يسيرا يعنى المآكل التى يصيبونها من سفلتهم (أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار) يعنى إلا مايؤديهم إلى النار وهو الرشوة والحرام وثمن الدين فلما كان يفضى ذلك بهم إلى النار فكأنهم أكلوا النار ، وقيل معناه إنه يصير نارا في بطونهم (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) أى لايكلمهم بالرحمة وبما يسرهم إنما يكلمهم بالتوبيخ وقيل أراد به أن يكون عليهم غضبان كما يقال فلان لايكلم فلانا إذا كان عليه غضبان (ولا يزكيهم) أى لا يطهرهم من دنس الذنوب (ولهم عذاب أليم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) اختاروا

حل لكم » وقال مالك والشافعى وأبوحنيفة لا يحل ذلك والحجة فيه أنهم إذا ذبحوا على اسم المسيح فقد أهلوا به لغير الله فوجب أن يحرم . وروى عن على بن أبى طالب أنه قال إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا وإذا لم تسمعوهم فكلوا فان الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون (المسئلة الخامسة في حكم المضطر) المضطر هو المكلف بالشيء الملجأ إليه المكره عليه والمراد بالمضطر فى قوله فمن اضطر أى خاف التلف حتى قيل من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل منها حتى مات دخل النار . والمضطر على ثلاثة أقسام: إما باكراه أو بجوع في مخمصة أو بفقر لايجد شيئا البتة فان التحريم يرتفع مع وجود هذه الأقسام بحكم الاستثناء في قوله: فلا إثم عليه وتباح له الميتة فأما الإكراه فيبيح ذلك إلى زوال الإكراه وأما المخمصة فلا يخلو إن كانت دائمة فلا خلاف فى جواز الشبع منها وإن كانت نادرة فاختلف العلماء فيه . وللشافعى قولان أحدهما أنه يأكل مايسد به الرمق وبه قال أبو حنيفة. والثانى يأكل قدر الشبع وبه قال مالك (المسئلة السادسة في قوله غير باغ ولا عاد) قال ابن عباس معنى غير باغ غير خارج على السلطان ولا عاد أى معتد يعنى العاصى بسفره بأن يخرج لقطع الطريق أو أبق من مولاه فلا يجوز للعاصى بسفره أن يأكل من الميتة إذا اضطر إليها ولا يترخص برخص المسافرين حتى يتوب وبه قال الشافعى لأن إباحة الميتة له إعانة له على فساده وذهب قوم إلى أن البغى والعدوان يرجعان إلى الأكل وبه قال أبو حنيفة وأباح أكل الميتة للمضطر وإن كان عاصيا وقيل فى معنى قوله غير باغ أى غير طالب الميتة وهو يجد غيرها ولا عاد أى غير متعد ماحد له وقيل غير مستحل لها ولا متزود منها . قوله عز وجل (إن الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب) نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم وذلك أنهم كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهو من غيرهم خافوا على ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم فعمدوا إلى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتموها فأنزل الله «إن الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب» أى في الكتاب من صفة رسول الله ﷺ ونعته ووقت نبوته هذا قول المفسرين قال الإمام فخر الدين الرازى وعند المتكلمين هذا ممتنع لأن التوراة والإنجيل قد بلغا من الشهرة والتواتر إلى حيث تعذر ذلك فيهما بل كانوا يكتمون التأويل لأنه قد كان منهم من يعرف الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكانوا يذكرون لها تأويلات باطلة ويصرفونها عن محالها الصحيحة الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهذا هو المراد بالكتمان فيصير المعنى إن الذين يكتمون معانى ماأنزل الله من الكتاب (ويشترون به) أى بالكتمان وقيل يعود الضمير إلى ماأنزل الله من الكتاب (ثمنا قليلا) أى عوضا يسيرا وهى المآكل التى كانوا يأخذونها من سفلتهم (أولئك ماياكلون في بطونهم إلا النار) يعنى مايؤديهم إلى النار وهو الرشا والحرام فلما كان يفضى بهم ذلك إلى النار فكأنهم أكلوها (ولا يكلمهم الله يوم القيامة) أى كلام رحمة وما يسرهم بل يكلمهم بالتوبيخ وهو قوله اخسئوا فيها وقيل أراد به الغضب يقال فلان لايكلم فلانا إذا غضب عليه (ولا يزكيهم) أى ولا يطهرهم من دنس الذنوب (ولهم عذاب أليم) أى وجيع يصل ألمه إلى قلوبهم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) معناه أنهم

فما أصبرهم على النار) قال عطاء والسدي هو ما الاستفهام معناه ما الذي صبرهم على النار وأي شيء صبرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل قال الحسن وقتادة والله مالهم عليها من صبر ولكن ماأجرأهم على العمل الذي يقربهم إلى النار وقال الكسائي فما أصبرهم على عمل النار أي ماأدومهم عليه (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) يعني ذلك العذاب بأن الله نزل الكتاب بالحق فأنكروه وكفروا به وحينئذ يكون ذلك في محل الرفع وقال بعضهم محله نصب معناه فعلنا ذلك بهم بأن الله أي لأن الله نزل الكتاب بالحق فاختلفوا فيه وقيل معناه ذلك أي فعلهم الذين يفعلون من الكفر والاختلاف والاجتراء على الله من أجل أن الله نزل الكتاب بالحق وهو قوله تعالى « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ختم الله على قلوبهم» (وإن الذين اختلفوا في الكتاب) فآمنوا ببعض وكفروا ببعض (لفي شقاق بعيد) أي في خلاف وضلال بعيد. قوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) قرأ حمزة وحفص ليس البر بنصب الراء والباقون برفعها فمن رفعها جعل البر اسم ليس وخبره في قوله: أن تولوا تقديره ليس البر توليتكم وجوهكم ومن نصب جعل أن تولوا في موضع الرفع على اسم ليس تقديره ليس توليتكم وجوهكم البر كله كقوله تعالى «ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا» والبر كل عمل خير يفضي بصاحبه إلى الجنة . واختلفوا في المخاطبين بهذه الآية فقال قوم عنى بها اليهود والنصارى وذلك أن اليهود كانت تصلي قبل المغرب إلى بيت المقدس والنصارى قبل المشرق وزعم كل فريق منهم أن البر في ذلك فأخبر الله تعالى أن البر غير دينهم وعملهم ولكنه مابينه في هذه الآية وعلى هذا القول قتادة ومقاتل بن حيان ، وقال الآخرون المراد بها المؤمنون وذلك أن الرجل كان في ابتداء الإسلام قبل نزول الفرائض إذا أتى بالشهادتين وصلى الصلاة إلى أي جهة كانت ثم مات على ذلك وجبت له الجنة ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الفرائض وحددت الحدود وصرفت القبلة إلى الكعبة أنزل الله هذه الآية فقال ليس البر أي كله أن تصلوا قبل المشرق والمغرب ولا تعملوا على غير ذلك (ولكن البر) ماذكر في هذه الآية وعلى هذا القول ابن عباس ومجاهد وعطاء والضحاك ولكن البر قرأ نافع وابن عامر ولكن خفيفة النون البر رفع وقرأ الباقون بتشديد النون ونصب البر . قوله تعالى (من آمن بالله) جعل من وهي اسم خبر للبر وهو فعل ولا يقال البر زيد واختلفوا في وجهه قيل لما وقع من في موقع المصدر جعله خبرا للبر كأنه قال ولكن البر الإيمان بالله والعرب تجعل الاسم خبرا للفعل وأنشد الفراء : لعمرك ما الفتيان أن تنبت اللحى ولكنما الفتيان كل فتى ندى

اختاروا الضلالة على الهدى واختاروا العذاب على المغفرة لأنهم كانوا عالمين بالحق ولكن كتموه وأخفوه وكان في إظهاره الهدى والمغفرة وفي كتمانه الضلالة والعذاب فلما أقدموا على إخفاء الحق وكتمانه كانوا بائعين الهدى بالضلالة والمغفرة بالعذاب (فما أصبرهم على النار) أي ما الذي صبرهم وأي شيء جسرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل فهو استفهام بمعنى التوبيخ وقيل إنه بمعنى التعجب من حالهم في التباسهم بموجبات النار من غير مبالاة منهم فلما أقدموا على مايوجب النار مع علمهم بذلك صاروا كالراضين بالعذاب والصابرين عليه تعجب من حالهم بقوله: فما أصبرهم على النار (ذلك بأن الله نزل الكتاب) يعني ذلك العذاب بسبب إن الله نزل الكتاب (بالحق) فكفروا به وأنكروه وقيل معناه فعلنا بهم ذلك لأن الله أنزل الكتاب بالحق فحرفوه فعلى هذا يكون المراد بالكتاب التوراة (وإن الذين اختلفوا في الكتاب) يعني اختلفوا في معانيه وتأويله فحرفوها وبدلوها وقيل آمنوا ببعض وكفروا ببعض (لفي شقاق) أي خلاف ومنازعة (بعيد) يعني عن الحق . قوله عز وجل (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) هذا خطاب لأهل الكتاب لأن النصارى تصلي قبل المشرق واليهود قبل المغرب إلى بيت المقدس وزعم كل طائفة منهم أن البر في ذلك فأخبر الله تعالى أن البر ليس فيما زعموا ولكن فيما بينه في هذه الآية. وقال ابن عباس هو خطاب للمؤمنين وذلك أن الرجل كان في ابتداء الاسلام إذا أتى بالشهادتين وصلى إلى أي جهة كانت ثم مات على ذلك وجبت له الجنة فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الفرائض وصرفت القبلة إلى الكعبة أنزل الله هذه الآية فقال تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم » أي في صلاتكم قبل المشرق والمغرب ولاتعملوا ذلك (ولكن البر) يعني مابينته لكم والبر اسم جامع لكل الطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله الموجبة للثواب والمؤدية إلى الجنة ثم بين خصالا من البر فقال تعالى (من آمن بالله) أي ولكن البر من آمن بالله فالمراد بالبر هنا الإيمان بالله والتقوى من الله

فجعل نبات اللحية خبراً للفتى وقيل فيه إضمار معناه ولكن البر بر من آمن بالله فاستغنى بذكر الأول عن الثاني كقولهم الجود حاتم أي الجود جود حاتم وقيل معناه ولكن ذا البر من آمن بالله كقوله تعالى «هم درجات عند الله» أي ذو درجات وقيل معناه ولكن البار من آمن بالله كقوله تعالى والعاقبة للتقوى أي للمتقي والمراد من البر هاهنا الإيمان والتقوى (واليوم الآخر والملائكة) كلهم (والكتاب) يعني الكتب المنزلة (والنبيين) أجمع (وآتى المال) أعطى المال (على حبه) اختلفوا في هذه الكناية فقال أكثر أهل التفسير إنها راجعة إلى المال أي أعطى المال في حال صحته ومحبته المال قال ابن مسعود أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا موسى بن إسماعيل أخبرنا عبد الواحد ثنا عمارة بن القعقاع أنا أبو زرعة أخبرنا أبو هريرة قال «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان» وقيل هي عائدة إلى الله عز وجل أي على حب الله تعالى (ذوي القربى) أهل القرابة. أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي أخبرنا أبو العباس المحبوبي أخبرنا أبو عيسى الترمذي أخبرنا قتيبة أخبرنا سفيان ابن عيينة عن عاصم الأحول عن حفصة بنت سيرين عن الرباب عن عمها سليمان بن عامر يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال «الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة» قوله تعالى (واليتامى والمساكين وابن السبيل) قال مجاهد يعني المسافر المنقطع عن أهله يمر عليك ويقال للمسافر ابن السبيل لملازمته الطريق وقيل هو الضيف ينزل بالرجل قال النبي صلى الله عليه وسلم «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» (والسائلين) يعني الطالبين أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن ابن بجيد الأنصاري وهو عبد الرحمن بن بجيد عن جدته وهي أم بجيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ردوا السائل ولو بظلف محرق» وفي رواية قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لم تجدي شيئاً إلا ظلفا محرقا فادفعيه

(واليوم الآخر) وإنما ذكر الإيمان باليوم الآخر لأن عبدة الأوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت (والملائكة) أي ومن البر الإيمان بالملائكة كلهم لأن اليهود قالوا: إن جبريل عدونا (والكتاب) قيل أراد به القرآن وقيل جميع الكتب المنزلة لسياق ما بعده وهو قوله (والنبيين) يعني أجمع وإنما خص الإيمان بهذه الأمور الخمسة لأنه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها (وآتى المال على حبه) يعني من أعمال البر إيتاء المال على حبه قيل إن الضمير راجع إلى المال فالتقدير على هذا وآتى المال على حب المال (ق) عن أبي هريرة قال «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أي الصدقة أعظم أجرا قال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان» قوله حتى إذا بلغت الحلقوم يعني الروح وإن لم يتقدم لها ذكر وقوله فلان كذا هو كناية عن الموصى له وقوله وقد كان لفلان كناية عن الوارث وقيل الضمير في حبه راجع إلى الله تعالى أي وآتى المال على حب الله وطلب مرضاته (ذوي القربى) يعني أهل قرابة المعطي وإنما قدمهم لأنهم أحق بالإعطاء. عن سلمان بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذوي الرحم ثنتان صدقة وصلة» أخرجه النسائي (ق) «إن ميمونة رضي الله عنها أعتقت وليدة ولم تستأذن النبي صلى الله عليه وسلم فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت أشعرت يارسول الله أني أعتقت وليدتي قال أوقد فعلت قالت نعم قال أما إنك لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك» الوليدة الجارية (واليتامى) اليتيم هو الذي لا أب له مع الصغر وقيل يقع على الصغير والبالغ أي وآتى الفقراء من اليتامى (والمساكين) جمع مسكين سمي بذلك لأنه دائم السكون إلى الناس لأنه لا شيء له (وابن السبيل) يعني المسافر المنقطع عن أهله سمي المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق وقيل هو الضيف ينزل بالرجل لأنه إنما وصل إليه من السبيل وهو الطريق والأول أشبه لأن ابن السبيل اسم جامع جعل للمسافر (والسائلين) يعني الطالبين المستطعمين. عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «للسائل حق ولو جاء على فرس» أخرجه أبو داود عن زيد بن أسلم أن رسول الله

إليه قوله تعالى (وفى الرقاب) يعنى المكاتبين قاله أكثر المفسرين. وقيل عتق النسمة وفك الرقبة. وقيل فداء الأسارى (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) وأعطى الزكاة (والموفون بعهدهم) فيما بينهم وبين الله عز وجل وفيما بينهم وبين الناس (إذا عاهدوا) يعنى إذا وعدوا أنجزوا وإذا حلفوا ونذروا أوفوا وإذا عاهدوا وفوا وإذا قالوا صدقوا وإذا ائتمنوا أدوا، واختلفوا فى رفع قوله والموفون قيل هو عطف على خبر معناه ولكن ذا البر المؤمنون والموفون بعدهم وقيل تقديرهم الموفون كأنه عد أصنافا ثم قال هم والموفون كذا وقيل رفع على الابتداء والخبر يعنى وهم الموفون ثم قال (والصابرين) وفى نصبها أربعة أوجه. قال أبو عبيدة نصبها على تطاول الكلام ومن شأن العرب أن تغير الإعراب إذا طال الكلام والنسق ومثله فى سورة النساء والمقيمين الصلاة وفى سورة المائدة والصابئون والنصارى وقيل معناه أعنى الصابرين وقيل نصبه نسقا على قوله ذوى القربى أى وآتى الصابرين وقال الخليل نصب على المدح والعرب تنصب الكلام على المدح والذم كأنهم يريدون أفراد الممدوح والمذموم فلا يتبعونه أول الكلام وينصبونه، فالمدح كقوله تعالى «والمقيمين الصلاة» والذم كقوله تعالى «ملعونين أينما ثقفوا» قوله تعالى (فى البأساء) أى الشدة والفقر (والضراء) المرض والزمانة (وحين البأس) أى القتال والحرب. أخبرنا المطهر ابن على بن عبد الله الفارسى. أخبرنا أبو ذر محمد بن إبراهيم الصالحانى أخبرنا أبو محمد عبد الله ابن محمد بن جعفر بن حبان. أخبرنا عبد الله بن محمد البغوى، أخبرنا على بن الجعد، أخبرنا زهير عن أبى إسحاق عن حارثة بن مضرب عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال «كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه» يعنى إذا اشتد الحرب (أولئك الذين صدقوا) فى إيمانهم (وأولئك هم المتقون) محارم الله. قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص) قال الشعبى والكلبى وقتادة: نزلت هذه الآية فى حيين من أحياء العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبيل الإسلام بقليل وكانت بينهما قتلى وجراحات لم يأخذها بعضهم من بعض حتى جاء الإسلام قال قتادة ومقاتل بن حيان: كانت بين بنى قريظة والنضير، وقال سعيد بن جبير: كانت بين الأوس والخزرج قالوا جميعا وكان لأحد الحيين على الآخر طول فى الكثرة والشرف وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهور فأقسموا لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم وبالرجل منا الرجلين منهم وبالرجلين منا أربعة رجال منهم، وجعلوا جراحاتهم ضعفى جراحات أولئك فرفعوا أمرهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمر بالمساواة فرضوا وأسلموا. قوله «كتب عليكم القصاص» أى فرض عليكم القصاص (فى القتلى) والقصاص المساواة والمماثلة فى الجراحات والديات وأصله من قص الأثر إذا اتبعه فالمفعول به يتبع ما فعل به فيفعل مثله ثم بين المماثلة فقال:

صلى الله عليه وسلم قال «أعطوا السائل ولو جاء على فرس» أخرجه مالك فى الموطأ عن أم بجيد قالت: قلت يا رسول الله إن المسكين ليقوم على بابى فلم أجد شيئا أعطيه إياه قال «إن لم تجدى إلا ظلفا محرقا فادفعيه إليه فى يده» أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح وفى رواية مالك فى الموطأ عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ردوا المسكين ولو بظلف محرق» قوله ردوا المسكين، لم يرد به رد الحرمان وإنما أراد به ردوه بشىء تعطونه إياه ولو كان ظلفا وهو خف الشاة وفى كونه محرقا مبالغة فى قلة ما يعطى (وفى الرقاب) يعنى المكاتبين وقيل هو فك النسمة وعتق الرقبة وفداء الأسارى (وأقام الصلاة) يعنى المفروضة فى أوقاتها (وآتى الزكاة) يعنى الواجبة (والموفون بعهدهم) يعنى ما أخذه الله من العهود على عباده بالقيام بحدوده والعمل بطاعته وقيل أراد بالعهد ما يجعله الإنسان على نفسه ابتداء من نذر وغيره. وقيل العهد الذى كان بينه وبين الناس مثل الوفاء بالمواعيد وأداء الأمانات (إذا عاهدوا) يعنى إذا وعدوا أنجزوا وإذا نذروا أوفوا وإذا حلفوا بروا فى أيمانهم وإذا قالوا صدقوا فى أقوالهم وإذا ائتمنوا أدوا (والصابرين فى البأساء) أى فى الشدة والفقر والفاقة (والضراء) يعنى المرض والزمانة (وحين البأس) يعنى القتال والحرب فى سبيل الله وسمى الحرب بأسا لما فيه من الشدة (ق) عن البراء قال كنا والله إذا احمر البأس نتقى به وأن الشجاع منا الذى يحاذى به يعنى النبى ﷺ قوله احمر البأس: أى اشتد الحرب ونتقى به أى نجعله وقاية لنا من العدو (أولئك الذين صدقوا) أى أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا فى إيمانهم (وأولئك هم المتقون) قوله عز وجل [١٧٨] (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى) نزلت فى حيين من أحياء العرب اقتتلوا فى الجاهلية بسبب قتيل، فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء

(الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) وجملة الحكم فيه أنه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين أو العبيد من المسلمين أو الأحرار من المعاهدين أو العبيد منهم قتل من كل صنف منهم الذكر إذا قتل بالذكر وبالأنثى وتقتل الأنثى إذا قتلت بالأنثى وبالذكر ، ولا يقتل مؤمن بكافر ولا حر بعبد ولا والد بولد ولا مسلم بذمي ، ويقتل الذمي بالمسلم والعبد بالحر والولد بالوالد هذا قول أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم . أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب . أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم ، أخبرنا الربيع بن سليمان أنا الشافعي ، أخبرنا سفيان بن عيينة عن مطرف عن الشعبي عن أبي جحيفة قال سألت عليا رضي الله عنه : هل عندك عن النبي ﷺ شيء سوى القرآن ؟ فقال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في القرآن وما في هذه الصحيفة قلت وما في هذه الصحيفة قال العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مؤمن

بكافر . وروى عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ «لا تقام الحدود في المساجد ولا يقاد بالولد الوالد» وذهب الشعبي والنخعي وأصحاب الرأي إلى أن المسلم يقتل بالكافر الذمي وإلى أن الحر يقتل بالعبد . والحديث حجة لمن لم يوجب القصاص على المسلم بقتل الذمي . وتقتل الجماعة بالواحد . روي عن سعيد ابن المسيب أن عمر بن الخطاب قتل سبعة أو خمسة برجل قتلوه غيلة وقال : لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعا . ويجري القصاص في الأطراف كما يجري في النفوس إلا في شيء واحد وهو أن الصحيح السوي يقتل بالمريض والزمن وفي الأطراف لو قطع يدا شلاء أو ناقصة بالأصبع لا تقطع بها الصحيحة الكاملة . وذهب أصحاب الرأي إلى أن القصاص في الأطراف لا يجري إلا بين حرين أو حرتين . ولا يجري بين الذكر والأنثى ولا بين العبد ولا بين الحر والعبد وعند الآخرين : الطرف في القصاص مقيس على النفس . أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي . أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن منير أنه سمع عبد الله بن بكر السهمي أخبرنا حميد عن أنس بن النضر أن الربيع عمته كسرت ثنية جارية فطلبوا إليها العفو فأبوا فعرضوا الأرش فأبوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبوا إلا القصاص فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص . قال أنس بن النضر يا رسول الله أتكسر ثنية الربيع لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أنس كتاب الله

الاسلام وقيل نزلت في الأوس والخزرج وكان لأحد الحيين طول على الآخر في الكثرة والشرف وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهر وأقسموا لنقتلن بالعبد منا الحر منهم وبالمرأة منا الرجل منهم وبالرجل منا الرجلين ، وجعلوا جراحاتهم ضعفي جراحات أولئك فرفعوا أمرهم إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية وأمره بالمساواة فرضوا وسلموا . وقيل إنما نزلت هذه الآية لإزالة الأحكام التي كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط بلا عفو والنصارى يوجبون العفو بلا قتل والعرب في الجاهلية كانوا يوجبون القتل تارة ويوجبون أخذ الدية تارة وكانوا يتعدون في الحكمين فان وقع القتل على شريف قتلوا به عددا ويأخذون دية الشريف أضعاف دية الخسيس ، فلما بعث محمد ﷺ أوجب الله رعاية العدل وسوى بين عباده في حكم القصاص فأنزل الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم» أي فرض عليكم (القصاص في القتلى) . فان قلت كيف يكون القصاص فرضا والولي مخير فيه بين العفو والقصاص وأخذ الدية؟ . قلت إن القصاص فرض على القاتل للولي لا على الولي . وقيل إذا أردتم القصاص فقد فرض عليكم . والقصاص المساواة والمماثلة في القتل والدية والجراح من قص الأثر إذا اتبعه فالمفعول به يتبع ما فعل فيفعل به مثل ذلك فلو قتل رجل رجلا بعصا أو خنقه أو شدخ رأسه بحجر فمات فيقتل القاتل بمثل الذي قتل به وهو قول مالك والشافعي وإحدى الروايتين عن أحمد وقيل يقتل بالسيف وهو قول أبي حنيفة والرواية الثانية عن أحمد (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) ومعناه أنه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين أو العبيد من المسلمين أو الأحرار من المعاهدين أو العبيد منهم فيقتل كل صنف إذا قتل بمثله الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى وبالذكر ولا يقتل مؤمن بكافر ولا حر بعبد ولا والد بولد ويقتل الذمي بالمسلم والعبد بالحر والولد بالوالد هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد ويدل عليه ما روى البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة قال سألت عليا هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن قال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في القرآن وما في هذه الصحيفة قلت : وما في هذه الصحيفة قال : العقل وفك الأسير وأن لا يقتل مؤمن بكافر

القصاص فرضي القوم فعفوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» قوله تعالى (فمن عفي له من أخيه شيء) أي ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد ورضي بالدية هذا قول أكثر المفسرين قالوا العفو أن يقبل الدية في قتل العمد وقوله من أخيه أي من دم أخيه وأراد بالأخ المقتول والكنايتان في قوله: له ومن أخيه ترجعان إلى من وهو القاتل وقوله: شيء دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا يسقط القود لأن شيئا من الدم قد بطل. قوله تعالى (فاتباع بالمعروف) أي على الطالب للدية أن يتبع بالمعروف فلا يطالب بأكثر من حقه (وأداء إليه باحسان) أي على المطلوب منه أداء الدية بالإحسان من غير مماطلة، أمر كل واحد منهما بالإحسان فيما له وعليه، ومذهب أكثر العلماء من الصحابة والتابعين أن ولي الدم إذا عفا عن القصاص على الدية فله أخذ الدية وإن لم يرض به القاتل وقال قوم لا دية له إلا برضى القاتل وهو قول الحسن والنخعي وأصحاب الرأي، وحجة المذهب الأول: ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي شريح الكعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ثم أنتم يا خزاعة قد قتلتم هذا القتيل من هذيل وأنا والله عاقله فمن قتل بعده قتيلا فأهله بين خيرتين إن أحبوا قتلوا وإن أحبوا أخذوا العقل» قوله تعالى (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) أي ذلك الذي ذكرت من العفو عن القصاص وأخذ الدية تخفيف

بكافر، وقد أخرج مسلم عن علي نحو هذا من غير رواية أبي جحيفة العقل هنا هو الدية والعاقلة الجماعة من أولياء القاتل الذين يعقلون. عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا تقام الحدود في المساجد ولا يقتل الوالد بالولد» أخرجه الترمذي، وذهب أصحاب الرأي إلى أن المسلم يقتل بالذمي والحر بالعبد وهذه الآية مع الأحاديث حجة لمذهب الشافعي ومن وافقه ويقولون هي مفسرة لما أبهم في قوله «النفس بالنفس» وأن تلك واردة لحكاية ما كتب على بني إسرائيل في التوراة وهذه الآية خطاب للمسلمين بما كتب عليهم وذهب أصحاب الرأي إلى أن هذه منسوخة بقوله «النفس بالنفس» وتقتل الجماعة بالواحد يدل عليه ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر أن غلاما قتل غيلة فقال عمر لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم به قال البخاري وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه أن أربعة قتلوا صبيا فقال عمر مثله وروى مالك في الموطأ عن ابن المسيب أن عمر قتل نفرا خمسة أو سبعة برجل واحد قتلوه غيلة وقال لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعا. الغيلة أن يقتل الرجل خديعة ومكرا من غير أن يعلم ما يراد به وقوله لو تمالأ أي تعاونوا واجتمعوا عليه. وقوله تعالى (فمن عفي له من أخيه شيء) أي ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد ورضي بالدية أو العفو عنها، أو قبول الدية في قتل العمد من أخيه أي من دم أخيه وأراد بالأخ ولي المقتول، وإنما قيل له أخ لأنه لابسه من قبل أنه ولي الدم والمطالب به وقيل إنما ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بما هو ثابت بينهما من الجنسية وأخوة الإسلام. وفي قوله شيء دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا سقط القود وثبتت الدية لأن شيئا من الدم قد بطل (فاتباع بالمعروف) أي فليتبع الولي القاتل بالمعروف فلا يأخذ أكثر من حقه ولا يعنفه (وأداء إليه باحسان) أي على القاتل أداء الدية إلى ولي الدم من غير مماطلة، أمر كل واحد منهما بالإحسان فيما له وعليه وقيل في تقدير الآية وإذا عفا ولي الدم عن شيء يتعلق بالقاتل وهو وجوب القصاص فليتبع القاتل ذلك العفو بمعروف وليؤد ما وجب عليه من الدية إلى ولي الدم باحسان من غير مطل ولا مدافعة. وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافرا وأن الفاسق مؤمن ووجه ذلك من وجوه: الأول إن الله تعالى خاطبه بعد القتل بالإيمان وسماه مؤمنا بقوله «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص» فسماه مؤمنا حال ما وجب عليه من القصاص. وإنما وجب عليه بعد صدور القتل منه وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالاجماع فدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن. الوجه الثاني أنه تعالى أثبت الأخوة بين القاتل وولي الدم بقوله «فمن عفي له من أخيه شيء» وأراد بالأخوة أخوة الإيمان فلولا أن الإيمان باق على القاتل لم تثبت له الأخوة. الوجه الثالث أنه تعالى ندب إلى العفو عن القاتل والعفو لا يليق إلا عن المؤمن لا عن الكافر. وقوله تعالى (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) يعني الذي ذكر من الحكم بشرع القصاص والعفو عن القصاص وأخذ الدية تخفيف من ربكم، يعني في حقكم ورحمة، وذلك لأن العفو وأخذ الدية كان حراما على اليهود

من ربكم ورحمة وذلك أن القصاص فى النفس والجراح كان حتما فى التوراة على اليهود ولم يكن لهم أخذ الدية وكان فى شرع النصارى الدية ولم يكن لهم القصاص فخير الله هذه الأمة بين القصاص وبين العفو عن الدية تخفيفا منه ورحمة (فمن اعتدى بعد ذلك) فقتل الجانى بعد العفو وقبول الدية (فله عذاب أليم) (١٤٨) وهو أن يقتل قصاصا قال ابن جريج يتحتم قتله

حتى لا يقتل بعد العفو وفى الآية دليل على أن القاتل لايصير كافرا بالقتل لأن الله تعالى خاطبه بعد القتل بخطاب الإيمان فقال «ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص» وقال فى آخر الآية «فمن عفى له من أخيه شىء» وأراد به أخوة الإيمان فلم يقطع الأخوة بينهما بالقتل. قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) أى بقاء وذلك أن القاصد للقتل إذا علم أنه إذا قتل يقتل يمتنع عن القتل فيكون فيه بقاؤه وبقاء من هم بقتله. وقيل فى المثل: القتل أنفى للقتل. وقيل معنى الحياة سلامته من قصاص الآخرة فانه إذا اقتص منه فى الدنيا حيي فى الآخرة وإذا لم يقتص منه فى الدنيا اقتص منه فى الآخرة (ياأولي الألباب لعلكم تتقون) أى تنتهون عن القتل مخافة القود. قوله تعالى (كتب عليكم) أى فرض عليكم (إذا حضر أحدكم الموت) أى جاء أسباب الموت وآثاره من العلل والأمراض

وكان القصاص حتما فى التوراة، وكان فى شرع النصارى أخذ الدية ولم يكتب عليهم القصاص وقيل كان عليهم العفو دون القصاص وأخذ الدية فخير الله هذه الأمة بين القصاص أو العفو وأخذ الدية توسعة عليهم وتيسيرا وتفضيلا لهم على غيرهم (فمن اعتدى بعد ذلك) يعنى بعد هذا التخفيف فقتل الجانى بعد العفو أو قبول الدية (فله عذاب أليم) وهو أن يقتل قصاصا ولا تقبل منه دية ولا يعفى عنه. وقيل المراد بالعذاب الأليم عذاب الآخرة. قوله عز وجل (ولكم فى القصاص حياة) أى بقاء وذلك أن القاصد للقتل إذا علم أنه إذا قتل قتل ترك القتل وامتنع عنه فيكون فيه بقاؤه وبقاء من هم بقتله. وقيل إن نفس القصاص سبب للحياة وذلك أن القاتل إذا اقتص منه ارتدع غيره ممن كان يهم بالقتل. واعلم أن هذا الحكم ليس مختصا بالقصاص الذى هو القتل بل يدخل فيه جميع الجراح والشجاج وغير ذلك لأن الجارح إذا علم أنه إذا جرح جرح لم يجرح فيصير ذلك سببا لبقاء الجارح والمجروح وربما أفضت الجراحة إلى الموت فيقتص من الجارح. وقيل فى معنى الآية إن الحياة سلامته من قصاص الآخرة فانه إذا اقتص منه فى الدنيا لم يقتص منه فى الآخرة وفى ذلك حياته وإذا لم يقتص منه فى الدنيا اقتص منه فى الآخرة (ياأولى الألباب) أى ياذوى العقول الذين يعرفون الصواب لأن العاقل لايريد إتلاف نفسه باتلاف غيره (لعلكم تتقون) يعنى لعلكم تنتهون عن القتل خوف القصاص. قوله عز وجل (كتب) أى فرض وأوجب (عليكم إذا حضر أحدكم الموت) أى قرب ودنا منه وظهرت آثاره عليه من العلل والأمراض المخوفة وليس المراد منه معاينة الموت لأنه فى ذلك الوقت يعجز عن الإيصاء (إن ترك خيرا) يعنى مالا قيل يطلق على القليل والكثير وهو قول الزهرى فتجب الوصية فى الكل وقيل إن لفظة الخير لاتطلق إلا على المال الكثير وهو قول الأكثرين واختلفوا فى مقدار الكثير الذى تقع فيه الوصية فقيل ألف درهم فما زاد عليها وقيل سبعمائة فما فوقها وقيل ستون دينارا فما فوقها وقيل إنه من خمسمائة إلى ألف وقيل إنه المال الكثير الفاضل عن العيال روى أن رجلا قال لعائشة إنى أريد أن أوصى فقالت كم مالك؟ قال ثلاثة آلاف درهم قالت كم عيالك قال أربعة قالت إنما قال الله «إن ترك خيرا» وهذا شىء يسير فاتركه لعيالك (الوصية) أى الإيصاء والوصية التقدم إلى الغير بما يعمل به وقيل هي القول المبين لما يستأنف من العمل والقيام به بعد الموت (للوالدين والأقربين) كانت الوصية فى ابتداء الإسلام فريضة للوالدين والأقربين على من مات وله مال. وسبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يوصون للأبعدين طلبا للفخر والشرف والرياء ويتركون الأقربين فقراء فأوجب الله تعالى الوصية للأقربين ثم نسخت هذه الآية بآية المواريث وبما روى عن عمرو بن خارجة قال كنت آخذا بزمام ناقة النبى صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فسمعته يقول «إن الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث» أخرجه النسائى والترمذى نحوه وذهب ابن عباس إلى أن وجوبها صار منسوخا فى حق من يرث وبقى وجوبها فى حق من لايرث من الوالدين والأقربين وهو قول الحسن ومسروق

(إن ترك خيرا) أى مالا نظيره قوله تعالى «وما تنفقوا من خير» (الوصية للوالدين والأقربين) كانت الوصية فريضة فى ابتداء الإسلام للوالدين والأقربين على من مات وله مال ثم نسخت بآية الميراث. أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى

أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي. أخبرنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر ، أخبرنا محمد بن أحمد ابن الوليد أخبرنا الهيثم بن جميل ، أخبرنا حماد بن سلمة عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن عمرو ابن خارجة قال كنت آخذا بزمام ناقة النبي صلى الله عليه وسلم فقال « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» فذهب جماعة إلي أن وجوبها صار منسوخا في حق الأقارب الذين يرثون ، وبقي وجوبها في حق الذين لا يرثون من الوالدين والأقارب وهو قول ابن عباس وطاوس وقتادة والحسن ، قال طاوس من أوصى بقوم سماهم وترك ذوي قرابته محتاجين انتزعت منهم وردت إلي ذوي قرابته ، وذهب الأكثرون إلي أن الوجوب صار منسوخاً في حق الكافة ، وهي مستحبة في حق الذين لا يرثون. أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا طاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « ماحق امرئ مسلم له شئ يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه» قوله تعالى (بالمعروف) يريد يوصى بالمعروف ولا يزيد على الثلث ولا يوصى للغني ويدع الفقير قال ابن مسعود : الوصية للأخل فالأخل ، أي الأحوج فالأحوج. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أخبرنا أبو جعفر محمد ابن علي بن رحيم الشيباني. أخبرنا أحمد بن حازم ابن أبي عروة أخبرنا عبد الله بن موسى وأبو نعيم عن سفيان الثوري ، عن سعيد بن إبراهيم عن عامر بن سعيد عن سعد بن مالك قال « جاء ني النبي صلى الله عليه وسلم يعودني فقلت يارسول الله أوصى بمالي كله قال لا ، قلت فالشطر قال لا قلت فالثلث قال الثلث والثلث كثير إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس بأيديهم» فقوله يتكففون الناس أي يسألون الناس الصدقة بأكفهم وعن ابن أبي مليكة أن رجلا قال لعائشة رضي الله عنها إني أريد أن أوصى قالت كم مالك قال ثلاثة آلاف قالت كم عيالك قال أربعة قالت إنما قال الله « إن ترك خيرا » وإن هذا شيء يسير فاتركه لعيالك » وقال علي رضي الله عنه : لأن أوصى بالخمس أحب إلي من أن أوصى بالربع ولأن أوصى بالربع أحب إلي من أن أوصى بالثلث فمن أوصى بالثلث فلم يترك. وقال الحسن البصري رضي الله عنه يوصى بالسدس أو الخمس أو الربع. وقال الشعبي إنما كانوا يوصون بالخمس أو الربع. قوله تعالى (حقا) نصب على المصدر وقيل على المفعول ، أي جعل الوصية حقا (على المتقين) المؤمنين. قوله تعالى (فمن بدله) أي غير الوصية من الأوصياء

ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار وحجة هؤلاء أن الآية دالة على وجوب الوصية للوالدين والأقربين ثم نسخ ذلك الوجوب في حق من يرث بآية الميراث وبالحديث المذكور فوجب أن تبقى الآية دالة على وجوب الوصية للقريب الذي لا يرث فعلى قول هؤلاء النسخ يتناول بعض أحكام الآية ، وذهب الأكثرون من المفسرين والعلماء وفقهاء الحجاز والعراق إلى أن وجوبها صار منسوخا في حق الكافة وهي مستحبة في حق من لا يرث ويدل على استحباب الوصية والحث عليها ماروى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ماحق امرىء مسلم له شيء يوصى فيه» وفي رواية «له شيء يريد أن يوصى به أن يبيت ليلتين» وفي رواية «ثلاث ليال إلا ووصيته مكتوبة عنده» قال نافع سمعت عبد الله بن عمر يقول مامرت على ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلا ووصيتي مكتوبة عندي أخرجه الجماعة . قوله ماحق امرئ الحق يشتمل معناه على الوجوب والندب والحث ، فيحمل هنا على الحث في الوصية لأنه لا يدري متى يأتيه الموت فربما أتاه بغتة فيمنعه عن الوصية . وقوله تعالى (بالمعروف) أي بالعدل الذي لا وكس فيه ولا شطط فلا يزيد على الثلث ولا يوصى للغني ويدع الفقير (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال «جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي فقلت يارسول الله إني قد بلغ بي من الوجع ماترى وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بثلثي مالي قال لا قلت فالشطر يارسول الله قال لا قلت فالثلث قال الثلث والثلث كثير أو قال والثلث كبير إنك أن تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» العالة الفقراء وقوله يتكففون الناس التكفف المسئلة من الناس كأنه من الطلب بالأكف (ق) عن ابن عباس قال في الوصية لو أن الناس غضوا من الثلث إلي الربع فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لسعد والثلث كثير وقال على بن أبي طالب لأن أوصى بالخمس أحب إلي من أن أوصى بالربع ولأن أوصى بالربع أحب إلي من أن أوصى بالثلث فمن أوصى بالثلث فلم يترك» وقيل يوصى بالسدس أو بالخمس أو الربع (حقا) أي ثابتا ثبوت ندب لا ثبوت فرض ووجوب (على المتقين) أي على المؤمنين الذين يتقون الشرك (فمن بدله) أي غير الوصية من الأولياء والأوصياء وذلك التغيير يكون إما في الكتابة

أو الأولياء أو الشهود (بعد ماسمعه) أى بعدماسمع قول الموصى ، ولذلك ذكر الكناية مع كون الوصية مؤنثة ، وقيل : الكناية راجعة إلى الإيصاء كقوله تعالى «فمن جاءه موعظة من ربه» رد الكناية إلى الوعظ (فانما إثمه على الذين يبدلونه) والميت برىء منه (إن الله سميع) لما أوصى به الموصى (عليم) بتبديل المبدل أو سميع لوصيته عليم بنيته. قوله تعالى (فمن خاف) أى علم كقوله تعالى «فان خفتم ألا يقيما حدود الله» أى علمتم (من موص) قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر ويعقوب بفتح الواو وتشديد الصاد كقوله تعالى «ماوصى به نوحا ووصينا الإنسان» وقرأ الآخرون بسكون الواو وتخفيف الصاد كقوله تعالى «يوصيكم الله فى أولادكم من بعد وصية يوصى بها أو دين» (جنفا) أى جورا وعدولا عن الحق والجنف الميل (أو إثما) أى ظلما ، وقال السدى وعكرمة والربيع الجنف الخطأ والإثم العمد (فأصلح بينهم فلا إثم عليه) (١٥٠) واختلفوا فى معنى الآية . قال مجاهد معناه أن الرجل إذا حضر مريضاً وهو يوصى فرآه يميل : إما بتقصير ، أو إسراف أو وضع الوصية فى غير موضعها فلا حرج على من حضره أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف فينظر للموصى وله والورثة. وقال الآخرون إنه أراد به أنه إذا أخطأ الميت فى وصيته أو جار متعمدا فلا حرج على وليه أو وصيه أو والى أمور المسلمين أن يصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصى لهم ويرد الوصية إلى العدل والحق فلا إثم عليه ، أى لا حرج عليه (إن الله غفور رحيم) وقال طاوس جنفه توجيهه وهو أن يوصى لبنى بنيه يريد ابنه أو ولد ابنته ولزوج ابنته يريد بذلك ابنته . وقال الكلبى كان الأولياء والأوصياء يمضون وصية الميت بعد نزول قوله تعالى «فمن بدله بعد ماسمعه» الآية وإن استغرق المال كله ولم يبق للورثة شىء ثم نسخها قوله تعالى «فمن خاف من موص جنفا» الآية. قال ابن زيد فعجز الموصى أن يوصى للوالدين والأقربين كما أمر الله تعالى وعجز الوصى أن يصلح فانتزع الله تعالى ذلك منهم ففرض الفرائض . روى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران فى الوصية فتجب لهما النار » ثم قرأ أبو هريرة «من بعد وصية إلى قوله غير مضار» قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) أى فرض وأوجب الصوم. والصيام فى اللغة الإمساك يقال صام النهار إذا اعتدل وقام قائم الظهير ، لأن الشمس إذا بلغت كبد السماء ، كأنها وقفت وأمسكت عن السير سريعة. ومنه قوله تعالى « فقولى إنى نذرت للرحمن

أو فى قسمة الحقوق ، أو الشهود بأن يكتموا الشهادة أو يغيروها. وإنما ذكر الكناية فى بدله مع أن الوصية مؤنثة لأن الوصية بمعنى الإيصاء كقوله «فمن جاءه موعظة» أى وعظ والتقدير فمن بدل قول الميت ، أو ما أوصى به (بعد ماسمعه) أى من الموصى وتحققه (فانما إثمه على الذين يبدلونه) أى إن إثم ذلك التبديل لا يعود إلا على المبدل ، والموصى والموصى له بريئان منه (إن الله سميع) يعنى لما أوصى به الموصى (عليم) يعنى بتبديل المبدل (فمن خاف) أى علم وهو خطاب عام لجميع المسلمين (من موص جنفا) يعنى جورا فى الوصية وعدولا عن الحق ، والجنف الميل (أو إثما) أى ظلما (فأصلح بينهم) وقيل الجنف الخطأ فى الوصية والإثم العمد. وقيل فى معنى الآية إنه إذا حضر رجل مريضا وهو يوصى فرآه يميل فى وصيته إما بتقصير أو إسراف أو وضع الوصية فى غير موضعها فلا حرج عليه أن يأمره بالعدل فى وصيته وينهاه عن الجنف والميل ، وقيل إنه أراد به إذا أخطأ الميت فى وصيته أو حاف متعمدا فلا حرج على وليه أو وصيه أو ولى أمور المسلمين أن يصلح بعد موته بين ورثته وبين الموصى لهم ويرد الوصية إلى العدل والحق (فلا إثم عليه) أى فلا حرج عليه فى الصلح (إن الله غفور رحيم) أى لمن أصلح وصيته بعد الجنف والميل . عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال « إن الرجل والمرأة ليعمل بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران فى الوصية فتجب لهما النار » ثم قرأ أبو هريرة «من بعد وصية يوصى بها أو دين» إلى قوله «ذلك الفوز العظيم» أخرجه أبو داود والترمذى. قوله فيضار إن المضارة إيصال الضرر إلى شخص ومعنى المضارة فى الوصية أن لا تمضى أو ينقص بعضها أو يوصى لغير أهلها أو يحيف فى الوصية ونحو ذلك . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا كتب) أى فرض (عليكم الصيام) . والصوم فى اللغة : الإمساك يقال صام النهار إذا اعتدل وقام قائم الظهيرة ومنه قوله تعالى « إنى نذرت للرحمن صوما» أى صمتا لأنه إمساك عن الكلام ، والصوم فى الشرع : عبارة عن الإمساك عن الأكل والشرب والجماع فى وقت مخصوص وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس

صوما» أى صمتا لأنه إمساك عن الكلام ؛ وفى الشريعة الصوم وهو : الإمساك عن الأكل والشرب والجماع مع النية فى وقت مخصوص (كما كتب على الذين من قبلكم) من الأنبياء والأمم. واختلفوا فى هذا التشبيه فقال سعيد بن جبير كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة كما كان فى ابتداء الإسلام. وقال جماعة من أهل العلم أراد أن صيام رمضان كان واجبا على النصارى كما فرض علينا فربما كان يقع فى الحر الشديد والبرد الشديد وكان يشق عليهم فى أسفارهم ويضرهم فى معايشهم فاجتمع رأى علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم فى فصل من السنة بين الشتاء والصيف فجعلوه فى الربيع وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم إن ملكا لهم اشتكى فمه فجعل لله عليه إن هو برأ من وجعه أن يزيد فى صومهم أسبوعا فبرأ فزاد فيه أسبوعا ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال أتموه خمسين يوما. وقال مجاهد أصابهم موتان فقالوا زيدوا فى صيامكم فزادوا فيه عشرا قبل وعشرا بعد قال الشعبى لو صمت السنة كلها لأفطرت اليوم الذى يشك فيه فيقال من شعبان ويقال من رمضان ، وذلك أن النصارى فرض الله عليهم شهر رمضان فصاموا قبله يوما وبعده يوما ثم لم يزل الآخر يستن بسنة القرن الذى قبله حتى صاروا إلى خمسين يوما فذلك قوله تعالى : «كما كتب على الذين من قبلكم» (لعلكم تتقون) يعنى بالصوم لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات ، وقيل لعلكم تتقون تحذرون عن الشهوات من الأكل والشرب والجماع (أياما معدودات) قيل كان فى ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجبا وصوم يوم عاشوراء فصاموا كذلك من الربيع إلى شهر رمضان سبعة عشر شهرا ثم نسخ بصوم رمضان قال ابن عباس أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة والصوم ويقال نزل صوم شهر رمضان قبل بدر بشهر وأيام قال محمد بن إسحاق كانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشر ليلة خلت من شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة ؛ حدثنا أبو الحسن الشيرازى أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت كان يوم عاشوراء يوما تصومه قريش فى الجاهلية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صامه وأمر الناس بصيامه فلما فرض رمضان كان هو الفريضة

مع النية (كما كتب على الذين من قبلكم) يعنى من الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم والمعنى أن الصوم عبادة قديمة أى فى الزمن الأول ما أخلى الله أمة لم يفرضه عليهم كما فرضه عليكم وذلك لأن الصوم عبادة شاقة والشىء الشاق إذا عم سهل عمله وقيل إن صيام شهر رمضان كان واجبا على النصارى كما فرض علينا فصاموا رمضان زمانا فربما وقع فى الحر الشديد والبرد الشديد وكان يشق ذلك عليهم فى أسفارهم ويضرهم فى معايشهم فاجتمع رأى علمائهم ورؤسائهم أن يجعلوه فى فصل من السنة معتدل بين الصيف والشتاء فجعلوه فى فصل الربيع ثم زادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصاموا أربعين يوما ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فمه فجعل لله عليه إن هو برأ من وجعه أن يزيد فى صومهم أسبوعا فبرأ فزاد فيه أسبوعا ثم مات ذلك الملك بعد زمان ووليهم ملك آخر فقال ما شأن هذه الثلاثة أيام أتموه خمسين يوما فأتموه وقيل أصابهم موتان فقالوا زيدوا فى صيامكم فزادوا عشرا قبله وعشرا بعده . وقيل إن النصارى فرض الله عليهم صوم رمضان فصاموا قبله يوما وبعده يوما ثم لم يزالوا يزيدونه يوما بعد يوم حتى بلغ خمسين فلذلك نهى عن صوم يوم الشك (لعلكم تتقون) يعنى ما حرم عليكم فى صيامكم لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من كسر النفس وترك الشهوات من الأكل والجماع وغيرهما وقيل معناه لعلكم تتقون ما فعله النصارى من تغيير الصوم وقيل لعلكم تنتظمون فى زمرة المتقين لأن الصوم من شعارهم (أياما معدودات) أى مقدرات وقيل قليلات قيل إنه كان فى ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجبا وصوم يوم عاشوراء ثم نسخ ذلك بفريضة صوم شهر رمضان . قال ابن عباس أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة ثم الصوم (ق) عن عائشة قالت كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهلية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه فى الجاهلية فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة صامه وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه وقيل إن المراد من قوله أياما معدودات أيام شهر رمضان ووجهه أن الله تعالى قال أولا «كتب عليكم الصيام» وهذا يحتمل صوم يوم أو يومين ثم بينه بقوله : معدودات

وترك يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه.وقيل المراد من قوله أياما معدودات شهر رمضان وهي غير منسوخة ونصب أياما على الظرف أى فى أيام معدودات وقيل على التفسير وقيل على أنه خبر مالم يسم فاعله (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة) أى فأفطر فعدة (من أيام أخر) أى فعليه عدة والعدد والعدة واحد من أيام أخر، أى غير أيام مرضه وسفره وأخر فى موضع خفض لكنها لاتنصرف فلذلك نصبت . قوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه) اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية وحكمها فذهب أكثرهم إلى أن الآية منسوخة وهو قول ابن عمر وسلمة بن الأكوع وغيرهما وذلك أنهم كانوا فى ابتداء الإسلام مخيرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا أو يفتدوا خيرهم الله تعالى لئلا يشق عليهم لأنهم كانوا لم يتعودوا الصوم ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» قال قتادة هى خاصة فى حق الشيخ الكبير الذى يطيق الصوم ولكن يشق عليه رخص له فى أن يفطر ويفدى ثم نسخ وقال الحسن هذا فى المريض الذى به مايقع عليه اسم المرض وهو مستطيع للصوم خير بين أن يصوم وبين أن يفطر أو يفدى ثم نسخ بقوله تعالى «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» وثبتت الرخصة للذين لايطيقون وذهب جماعة إلا أن الآية محكمة غير منسوخة ومعناه وعلى الذين كانوا يطيقونه فى حال الشباب فعجزوا عنه فى حال الكبر فعليهم الفدية بدل الصوم.وقرأ ابن عباس «وعلى الذين يطوقونه» بضم الياء وفتح الطاء وتخفيفها وفتح الواو وتشديدها أى يكلفون الصوم وتأويله على الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لايستطيعان الصوم مكان والمريض الذى لايرجى زوال مرضه فهم يكلفون الصوم ولا يطيقونه فلهم أن يفطروا ويطعموا مكان كل يوم مسكينا وهو قول سعيد بن جبير وجعل الآية محكمة. قوله تعالى (فدية طعام مسكين) قرأ أهل المدينة والشام مضافا وكذلك فى المائدة «كفارة طعام مساكين» أضاف الفدية إلى الطعام وإن كان واحدا لاختلاف اللفظين كقوله تعالى «وحب الحصيد» وقولهم: مسجد الجامع وربيع الأول وقرأ الآخرون فدية وكفارة منونة طعام رفع وقرأ مساكين بالجمع هنا أهل المدينة والشام وآخرون على التوحيد فمن جمع نصب النون ومن وحد خفض النون ونونها.والفدية الجزاء ويجب أن يطعم مكان كل يوم مسكينا مدا من الطعام بمد النبي ﷺ وهو رطل وثلث من غالب قوت البلد. هذا قول فقهاء الحجاز وقال بعض

على أنه أكثر من ذلك لكنها غير منحصرة بعدد ثم بين حصرها بقوله شهر رمضان فاذا أمكن ذلك فلا وجه لحمل الأيام المعدودات على غير رمضان فتكون الآية غير منسوخة يقال إن فريضة رمضان نزلت فى السنة الثانية من الهجرة وذلك قبل غزوة بدر بشهر وأيام وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة (فمن كان منكم مريضا أو على سفر) أى فأفطر (ف)عليه (عدة من أيام أخر) يعنى غير أيام مرضه وسفره (وعلى الذين يطيقونه) أى يطيقون الصوم .واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فذهب أكثرهم إلى أنها منسوخة وهو قول عمر بن الخطاب وسلمة بن الأكوع وغيرهما وذلك أنهم كانوا فى ابتداء الإسلام مخيرين بين أن يصوموا وبين أن يفطروا ويفدوا وإنما خيرهم الله تعالى لئلا يشق عليهم لأنهم كانوا لم يتعودوا الصوم ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله تعالى «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» فصارت هذه الآية ناسخة للتخيير (ق) عن سلمة بن الأكوع قال لما نزلت هذه الآية «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» كان من أراد أن يفطر ويفتدى فعل حتى نزلت هذه الآية التى بعدها فنسختها وفى رواية حتى نزلت هذه الآية «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» ،وقال قتادة هى خاصة فى حق الشيخ الكبير الذى لايطيق الصوم ولكن يشق عليه رخص له أن يفطر ويفتدى ثم نسخ ذلك.وقال الحسن هذا فى المريض الذى يقع عليه اسم المرض وهو يستطيع الصوم خير بين الصيام وبين أن يفطر ويفتدى ثم نسخ وذهب جماعة منهم ابن عباس إلى أن الآية محكمة غير منسوخة ومعناها وعلى الذين كانوا يطيقونه فى حال الشباب ثم عجزوا عنه عند الكبر فعليهم الفدية بدل الصوم وقرأ ابن عباس وعلى الذين يطوقونه بضم الياء وفتح الطاء وبالواو المشددة المفتوحة عوض الياء ومعناه يكلفون الصوم (خ) عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقرأ «وعلى الذين يطوقونه فدية طعام مسكين» قال ابن عباس ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لايستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا (فدية طعام مسكين) الفدية الجزاء وهو القدر الذى يبذله الإنسان يقى به نفسه من تقصير وقع منه فى عبادة ونحوها ويجب على من أفطر فى رمضان ولم يقدر على القضاء لكبر أن يطعم

فقهاء أهل العراق عليه لكل مسكين نصف صاع لكل يوم يفطر وقال بعضهم نصف صاع من قمح أو صاع من غيره وقال بعض الفقهاء ما كان المفطر يتقوته يومه الذى أفطره وقال ابن عباس يعطى كل مسكين عشاءه وسحوره (فمن تطوع خيرا فهو خير له) أى زاد على مسكين واحد فأطعم مكان كل يوم مسكينين فأكثر قال مجاهد وعطاء وطاوس وقيل من زاد على القدر الواجب عليه فأعطى صاعا وعليه مد فهو خير له (وأن تصوموا خير لكم) فمن ذهب إلى النسخ قال معناه الصوم خير له من الفدية وقيل هذا فى الشيخ الكبير لو تكلف الصوم وإن شق عليه فهو خير له من أن يفطر ويفدى (إن كنتم تعلمون) واعلم أنه لارخصة لمؤمن مكلف فى إفطار رمضان إلا لثلاثة. أحدهم يجب عليه القضاء والكفارة والثانى عليه القضاء دون الكفارة والثالث عليه الكفارة دون القضاء. أما الذى عليه القضاء والكفارة فالحامل والمرضع إذا خافتا على ولدهما فانهما تفطران وتقضيان وعليهما مع القضاء الفدية وهو قول ابن عمر وابن عباس وبه قال مجاهد وإليه ذهب الشافعى رحمه الله وقال قوم لافدية عليهما وبه قال الحسن وعطاء وإبراهيم النخعى والزهرى وإليه ذهب الأوزاعى والثورى وأصحاب الرأى وأما الذى عليه القضاء دون الكفارة فالمريض والمسافر والحائض والنفساء وأما الذى عليه الكفارة دون القضاء فالشيخ الكبير والمريض الذى لا يرجى زوال مرضه ثم بين الله تعالى أيام الصيام فقال (شهر رمضان) رفعه على معنى هو شهر رمضان وقال الكسائى كتب عليكم شهر رمضان وسمى الشهر شهرا لشهرته وأما رمضان فقد قال مجاهد هو من أسماء الله تعالى يقال شهر رمضان كما يقال شهر الله والصحيح أنه اسم للشهر سمى به، من الرمضاء وهى الحجارة المحماة وهم كانوا يصومونه فى الحر الشديد وكانت ترمض فيه الحجارة من الحرارة. قوله تعالى (الذى أنزل فيه القرآن) سمى القرآن قرآنا لأنه يجمع السور والآى والحروف وجمع فيه القصص والأمر والنهى والوعد والوعيد وأصل القرء الجمع وقد يحذف الهمزة فيقال قريت الماء فى الحوض إذا جمعته وقرأ ابن كثير القران بفتح الراء غير مهموز، وكذلك كان يقرأ الشافعى ويقول ليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والإنجيل روى عن مقسم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله عز وجل «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن» وقوله «إنا أنزلناه فى ليلة القدر» وقوله «إنا أنزلناه فى ليلة مباركة» وقد

مكان كل يوم مسكينا مدا من غالب قوت البلد وهذا قول فقهاء الحجاز وقال بعض فقهاء العراق عليه لكل مسكين نصف صاع عن كل يوم وقال بعضهم نصف صاع من البر وصاع من غيره وقال ابن عباس يعطى كل مسكين عشاءه وسحوره (فمن تطوع خيرا فهو خير له) يعنى زاد على مسكين واحد فأطعم عن كل يوم مسكينين فأكثر وقيل فمن زاد على قدر الواجب عليه فأطعم صاعا وعليه مد فهو خير له (وأن تصوموا خير لكم) قيل هو خطاب مع الذين يطيقونه فيكون المعنى وأن تصوموا أيها المطيقون وتتحملوا المشقة فهو خير لكم من الإفطار والفدية وقيل هو خطاب مع الكافة وهو الأصح لأن اللفظ عام فرجوعه إلى الكل أولى (إن كنتم تعلمون) يعنى أن الصوم خير لكم وقيل معناه إذا صمتم علمتم ما فى الصوم من المعانى المورثة للخير والتقوى. واعلم أنه لارخصة لأحد من المسلمين المكلفين فى إفطار رمضان بغير عذر والأعذار المبيحة للفطر ثلاثة أحدها السفر والمرض والحيض والنفاس فهؤلاء إذا أفطروا فعليهم القضاء دون الكفارة. الثانى الحامل والمرضع إذا خافتا على ولدهما أفطرتا وعليهما القضاء والكفارة وإليه ذهب الشافعى وذهب أهل الرأى إلى أنه لافدية عليهما. الثالث الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة والمريض الذى لا يرجى برؤه فعليهم الكفارة دون القضاء. قوله عز وجل (شهر رمضان) يعنى وقت صيامكم شهر رمضان سمى الشهر شهرا لشهرته يقال للسر إذا أظهره شهره وسمي الهلال شهرا لشهرته وبيانه وقيل سمى الشهر شهرا باسم الهلال، وأما رمضان فاشتقاقه من الرمضاء وهي الحجارة المحماة فى الشمس وقيل إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسموه به وقيل إن رمضان اسم من أسماء الله تعالى فيكون معناه شهر الله والأصح أن رمضان اسم لهذا الشهر كشهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان (الذى أنزل فيه القرآن) لما خص الله شهر رمضان بهذه العبادة العظيمة بين سبب تخصيصه بانزال أعظم كتبه فيه والقرآن اسم لهذا الكتاب المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم روى عن الشافعى أنه كان يقول القرآن اسم وليس بمهموز وليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والإنجيل فعلى هذا القول إنه ليس بمشتق وذهب الأكثرون إلى أنه مشتق

نزل فى سائر الشهور وقال عز وجل « وقرآناً فرقناه » فقال أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ فى ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ثم نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ نجوما فى ثلاث وعشرين سنة فذلك قوله تعالى « فلا أقسم بمواقع النجوم » قال داود بن أبى هند قلت للشعبى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن أما كان ينزل فى سائر الشهور قال بلى ولكن كان جبرائيل يعارض محمدا صلى الله عليه وسلم فى رمضان ما أنزل الله إليه فيحكم الله مايشاء ويثبت مايشاء وينسيه مايشاء. وروى عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أنزلت صحف إبراهيم فى ثلاث ليال مضين من رمضان ويروى فى أول ليلة من رمضان وأنزلت توراة موسى فى ست ليال مضين من رمضان وأنزل الإنجيل على عيسى فى ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان وأنزل الزبور على داود فى ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان وأنزل الفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم فى الرابعة والعشرين من شهر رمضان لست بقين بعدها » . قوله تعالى (هدى للناس) من الضلالة وهدى فى محل النصب على القطع لأن القرآن معرفة وهدى نكرة (وبينات من الهدى) أى دلالات واضحات من الحلال والحرام والحدود والأحكام (والفرقان) أى الفارق بين الحق والباطل. قوله تعالى (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى فمن كان مقيما فى الحضر فأدركه الشهر. واختلف أهل العلم فيمن أدركه الشهر وهو مقيم ثم سافر ، روى عن على رضى الله عنه أنه قال يجوز له الفطر

من القرء وهو الجمع فسمى قرآناً لأنه يجمع السور والآيات بعضها إلى بعض ويجمع الأحكام والقصص والأمثال والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى. قال ابن عباس أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ فى ليلة القدر من شهر رمضان فوضع فى بيت العزة فى سماء الدنيا ثم نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة فذلك قوله « فلا أقسم بمواقع النجوم » وروى أبو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنزلت صحف إبراهيم فى ثلاث ليال مضين من رمضان وفى رواية فى أول ليلة من رمضان وأنزلت توراة موسى فى ست ليال مضين من رمضان وأنزل إنجيل عيسى فى ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان وأنزل زبور داود فى ثمان عشرة ليلة مضت من رمضان وأنزل الفرقان على محمد صلى الله عليه وسلم فى الرابعة والعشرين لست بقين بعدها » فعلى هكذا يكون ابتداء نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان وهو قول ابن إسحاق وأبى سليمان الدمشقى وقيل فى معنى الآية شهر رمضان الذى نزل بفرض صيامه القرآن كما تقول نزلت هذه الآية فى الصلاة والزكاة ونحو ذلك من الفرائض يروى ذلك عن مجاهد والضحاك وهو اختيار الحسن بن الفضل (هدى للناس) يعنى من الضلال (وبينات من الهدى والفرقان) . فان قلت هذا فيه إشكال وهو أنه يقال مامعنى قوله : وبينات من الهدى بعد قوله هدى الناس ؟. قلت إنه تعالى ذكر أولا أنه هدى ثم الهدى على قسمين تارة يكون هدى جليا وتارة لا يكون كذلك فكأنه قال هو هدى فى نفسه ثم قال : هو المبين من الهدى الفارق بين الحق والباطل وقيل إن القرآن هدى فى نفسه فكأنه قال إن القرآن هدى للناس على الإجمال وبينات من الهدى والفرقان على التفصيل لأن البينات هى الدلالات الواضحات التى تبين الحلال والحرام والحدود والأحكام ومعنى الفرقان الفارق بين الحق والباطل . قوله عز وجل (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى فمن كان حاضرا مقيما غير مسافر فأدركه الشهر فليصمه والشهود الحضور ، وقيل هو محمول على العادة بمشاهدة الشهر وهى رؤية الهلال ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » أخرجاه فى الصحيحين ولا خلاف أنه يصوم رمضان من

وبه قال عبيدة السلمانى لقوله تعالى « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » أى الشهر كله وذهب أكثر الصحابة والفقهاء إلى أنه إذا أنشأ السفر فى شهر رمضان جاز له أن يفطر ومعنى الآية فمن شهد منكم الشهر كله فليصمه أى الشهر كله ومن لم يشهد منكم الشهر كله فليصم ماشهد منه ، والدليل عليه ما أخبرنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أخبرنا أبو منصور عن مالك عن ابن شهاب عن عبيدالله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس « أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح فى رمضان فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأفطر الناس معه فكانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من أمر رسول الله ﷺ »

قوله تعالى (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) أباح الفطر لعذر المرض والسفر وأعاد هذا الكلام ليعلم أن هذا الحكم ثابت في الناسخ ثبوته في المنسوخ . واختلفوا في المرض الذي يبيح الفطر فذهب أهل الظاهر إلى أن مايطلق عليه اسم المرض يبيح الفطر وهو قول ابن سيرين قال طريف بن تمام العطاردي : دخلت على محمد بن سيرين في رمضان وهو يأكل فقال إنه وجعت أصبعي هذه . وقال الحسن وإبراهيم النخعي هو المرض الذي يجوز به الصلاة قاعدا وذهب الأكثرون إلى أنه مرض يخاف معه من الصوم زيادة علة غير محتملة . وفي الجملة أنه إذا أجهده الصوم فأفطر وإن لم يجهده فهو كالصحيح . وأما السفر فالفطر فيه مباح والصوم جائز عند عامة أهل العلم إلا ماروى عن ابن عباس وأبي هريرة وعروة ابن الزبير وعلى بن الحسين أنهم قالوا لايجوز الصوم في السفر (١٥٥) ومن صام فعليه القضاء احتجوا بقول النبي ﷺ «ليس من البر الصوم في السفر» وذلك عند الآخرين في حق من يجهده الصوم فالأولى له أن يفطر ، والدليل ماأخبرنا به عبد الواحد ابن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا آدم أخبرنا شعبة أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الأنصاري قال سمعت محمد بن عمرو ابن الحسين بن على عن جابر بن عبد الله قال «كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال ماهذا قالوا هذا صائم فقال ليس من البر الصوم في السفر » والدليل على جواز الصوم ماحدثنا الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، أخبرنا أبو نعيم الإسفرايني أخبرنا أبو عوانة أخبرنا أبو أمية أخبرنا عبد الله القواريري أخبرنا حماد بن زيد أخبرنا الحريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال « كنا نسافر مع رسول الله ﷺ في رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر فلا يعيب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم » واختلفوا في أفضل الأمرين فقالت طائفة الفطر في السفر أفضل من الصوم روى ذلك عن ابن عمر وإليه ذهب سعيد بن المسيب والشعبي ، وذهب قوم إلى أن الصوم أفضل وروى ذلك عن معاذ بن جبل وأنس وبه قال إبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ، وقالت طائفة أفضل الأمرين أيسرهما عليه لقوله تعالى «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» وهو قول مجاهد وقتادة وعمر بن عبد العزيز . ومن أصبح مقيما صائما ثم سافر في أثناء النهار لايجوز له أن يفطر ذلك اليوم عند أكثر

من رأى الهلال ومن أخبر به واختلف العلماء في وجه الخبر عنه منهم من قال يجزئ فيه خبر الواحد قاله أبو ثور ومنهم من أجراه مجرى الشهادة في سائر الحقوق قاله مالك ومنهم من أجرى أوله مجرى الأخبار فقبل فيه خبر الواحد وأجرى آخره مجرى الشهادة فلا يقبل في آخره أقل من اثنين قاله الشافعي وهذا للاحتياط في أمر العبادة لدخولها وخروجها (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) إنما كرره لأن الله تعالى ذكر في الآية الأولى تخيير المريض والمسافر والمقيم الصحيح ثم نسخ تخيير المقيم الصحيح بقوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه» فلو اقتصر على هذا لاحتمل أن يشمل النسخ الجميع فأعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر ليعلم أن الحكم باق على ما كان عليه .

(فصل في حكم الآية ، وفيه مسائل : الأولى) اختلفوا في المرض المبيح للنظر على ثلاثة أقوال : أحدها وهو قول أهل الظاهر أي مرض كان وهو مايطلق عليه اسم المرض فله أن يفطر تنزيلا للفظ المطلق على أقل أحواله وإليه ذهب الحسن وابن سيرين. القول الثاني وهو قول الأصم إن هذه الرخصة مختصة بالمريض الذي لو صام لوقع في مشقة عظيمة تنزيلا للفظ المطلق على أكمل أحواله . القول الثالث وهو قول أكثر الفقهاء إن المرض المبيح للفطر هو الذي يؤدي إلى ضرر في النفس أو زيادة علة محتملة كالمحموم إذا خاف أنه لو صام اشتدت حماه وصاحب وجع العين يخاف لو صام أن يشتد وجع عينه فالمراد بالمرض مايؤثر في تقويته قال الشافعي إذا أجهده الصوم أفطر ، إلا فهو كالصحيح .

(المسألة الثانية) الفطر في السفر مباح والصوم جائز وبه قال عامة العلماء وقال ابن عباس وأبو هريرة وبعض أهل الظاهر لا يجوز الصوم في السفر ومن صام فعليه القضاء واحتجوا بقوله ﷺ «ليس من البر الصيام في السفر» وحمله عامة العلماء على من يجهده الصوم في السفر فالأولى له الفطر ويدل على ذلك ماروى عن جابر قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال ماهذا قالوا صائم قال ليس من البر الصيام في السفر» أخرجه البخاري ومسلم ، وحجة الجمهور على جواز الصوم والفطر في السفر ما روى عن أنس قال

أهل العلم . وقالت طائفة له أن يفطر وهو قول الشعبي وبه قال أحمد ، أما المسافر إذا أصبح صائما فيجوز له أن يفطر بالاتفاق، والدليل عليه ما أخبر عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا عبد العزيز بن محمد بن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر «أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة عام الفتح في رمضان فصام حتى بلغ كراع الغميم صام الناس معه فقيل له يارسول الله إن الناس قد شق عليهم الصيام فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون فأفطر بعض الناس وصام بعضهم فبلغه أن ناساً صاموا فقال أولئك العصاة» واختلفوا في السفر الذي يبيح الفطر فقال قوم مسيرة يوم وذهب جماعة إلى مسيرة يومين وهو قول الشافعي رحمه الله وذهب جماعة إلى مسيرة ثلاثة أيام وهو قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي. قوله تعالى

(يريد الله بكم اليسر) بإباحة الفطر في المرض والسفر (ولا يريد بكم العسر) قرأ أبو جعفر العسر واليسر ونحوهما بضم السين وقرأ الآخرون بالسكون وقال الشعبي ماخير رجل بين أمرين فاختار أيسرهما إلا كان ذلك أحبهما إلى الله عز وجل (ولتكملوا العدة) قرأ أبو بكر بتشديد الميم وقرأ الآخرون بالتخفيف وهو الاختيار لقوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم» والواو في قوله تعالى «ولتكملوا» واو النسق واللام لام كي تقديره ويريد لكي تكملوا العدة أي لتكملوا عدة أيام الشهر بقضاء ما أفطرتم في مرضكم وسفركم. وقال عطاء ولتكملوا العدة أيام أي عدد أيام الشهر . أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «الشهر تسع وعشرون فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فان غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين» أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي أخبرنا محمد بن يحيى أخبرنا يزيد ابن هارون ، أخبرنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «لا تقدموا الشهر بصوم يوم ولا يومين إلا أن يوافق ذلك صوما كان يصومه أحدكم، صوموا لرؤيته وأفطروا لرأيته فان غم عليكم فعدوا ثلاثين ثم أفطروا»

«سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم» أخرجاه في الصحيحين .

(المسألة الثالثة) اختلف العلماء في قدر السفر المبيح للفطر. فقال داود الظاهري أي سفر كان ولو كان فرسخا . وقال الأوزاعي السفر المبيح للفطر مسيرة يوم واحد وقال الشافعي وأحمد ومالك أقله مسيرة ستة عشر فرسخا يومان وقال أبو حنيفة وأصحابه أقله مسيرة ثلاثة أيام .

(المسألة الرابعة) إذا استهل الشهر وهو مقيم ثم أنشأ السفر في أثنائه جاز له أن يفطر حالة السفر ويجوز له أن يصوم في بعض السفر وأن يفطر في بعضه إن أحب، يدل عليه ماروى عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة عام الفتح في رمضان فصام حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأفطر الناس معه وكانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم» أخرجاه في الصحيحين. الكديد اسم موضع وهو على ثمانية وأربعين ميلا من مكة .

(المسألة الخامسة) اختلفوا في الأفضل. فذهب الشافعي إلى أن الصوم أفضل من الفطر في السفر وبه قال مالك وأبو حنيفة وقال أحمد الفطر أفضل من الصوم في السفر وقالت طائفة من العلماء هما سواء، وأفضل الأمرين أيسرهما، لقوله تعالى «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» .

(المسألة السادسة) يبيح الفطر كل سفر مباح ليس سفر معصية ولا يجوز للعاصي بسفره أن يترخص برخص الشرع وقوله تعالى «فعدة من أيام أخر» معناه فأفطر فعليه عدة من أيام آخر فظاهر هذا أنه يجوز قضاء الصوم متفرقا وإن كان التتابع أولى ، وفيه أيضا وجوب القضاء من غير تعيين لزمن القضاء فيدل على جواز التراخي في القضاء ويدل عليه أيضا ماروى عن عائشة قالت «كان يكون على الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضي إلا في شعبان ذلك من الشغل بالنبي صلى الله عليه وسلم» أخرجاه في الصحيحين (يريد الله بكم اليسر) أي التسهيل في هذه العبادة وهي إباحة الفطر للمسافر أو المريض (ولا يريد بكم العسر) أي وقد نفى عنكم الحرج في أمر الدين قيل ماخير رجل بين أمرين فاختار أيسرهما إلا كان ذلك أحب إلى الله تعالى (ولتكملوا العدة) أي عدد الأيام التي أفطرتم فيها بعذر السفر والمرض والحيض لتقضوا بعددها وقيل أراد عدد

(ولتكبروا الله) ولتعظموا الله (على ماهداكم) أرشدكم إلي ما رضى به من صوم شهر رمضان وخصكم به دون سائر أهل الملل قال ابن عباس هو تكبيرات ليلة الفطر وروى الشافعي عن ابن المسيب وعروة وأبي سلمة أنه كانوا يكبرون ليلة الفطر يجهرون بالتكبير ،وشبه ليلة النحر بها إلا من كان حاجا وذكره التلبية (ولعلكم تشكرون) الله على نعمه وقد وردت أخبار في فضل شهر رمضان وثواب الصائمين أخبرنا أبو عبد الله محمد بن حسن المروزي أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج الطحان أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليمان أخبرنا على بن عبد العزيز المكي أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام حدثني إسماعيل بن جعفر عن أبي سهيل نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إذا دخل رمضان صفدت الشياطين وفتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار» أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن الجراح أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أخبرنا أبو عيسى محمد ابن عيسى الترمذي أخبرنا أبو كريب محمد بن العلاء أخبرنا أبو بكر محمد بن عياش عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين .ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب وينادى مناد : ياباغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة» أخبرنا أبو بكر أحمد بن أبي نصر بن أحمد الكوفاني الهروي بها أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد التجيبي المصري بها المعروف بأبي النجاش قيل له أخبركم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد المقبري البصري بمكة المعروف بابن الأعرابي أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني أخبرنا سفيان بن عيينة عن الزهري أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه ومن قام رمضان إيماناً واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه» أخبرنا الإمام أبو على الحسين ابن محمد القاضي أخبرنا أبو سعيد خلف بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي نزار حدثنا الحسين بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الصفار أخبرنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي إسحاق العنزي ، أخبرنا على بن حجر بن إياس السعدي

أيام الشهر (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «الشهر تسع وعشرون ليلة فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فان غم عليكم فاقدروا له» ،وفي رواية «فأكملوا العدة ثلاثين» (ولتكبروا الله) فيه قولان أحدهما أنه تكبير ليلة العيد قال ابن عباس حق على المسلمين إذا رأوا إهلال شوال أن يكبروا .وقال الشافعي واجب إظهار التكبير في العيدين وبه قال مالك وأحمد وأبو يوسف ومحمد وقال أبو حنيفة لايكبر في عيد الفطر ويكبر في عيد الأضحى حجة الشافعي ومن وافقه قوله تعالى «ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم» قالوا معناه ولتكملوا عدة صوم رمضان ولتكبروا الله على ماهداكم إلى آخر هذه العبادة .القول الثاني في معنى قوله ولتكبروا الله أي ولتعظموا الله شكرا على ماأنعم به عليكم ووفقكم للقيام بهذه العبادة (على ماهداكم) أي أرشدكم إلي طاعته وإلى مايرضى به عنكم (ولعلكم تشكرون) الله على نعمه .

(فصل : في فضل شهر رمضان وفضل صيامه) (ق) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إذا دخل شهر رمضان صفدت الشياطين وفتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار» الصفد الغل أي شدت بالأغلال (ق) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه . قوله إيمانا واحتسابا أي طلبا لوجه الله تعالى وثوابه وقيل إيمانا بأنه فرض عليه ، واحتسابا ثوابه عند الله وقيل معناه نية وعزيمة وهو أن يصوم على التصديق به والرغبة في ثوابه طيبة بها نفسه غير كارهة (ق) عن أبي هريرة أن النبي صلي الله عليه وسلم قال «كل عمل ابن آدم له يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى : إلا الصوم فانه لي وأنا أجزى به يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك ،زاد في رواية «والصيام جنة فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب فان شتمه أحد أو قاتله فليقل إني صائم» . قوله كل عمل ابن آدم له معناه أن له فيه حظا لإطلاع الخلق عليه إلا الصوم فانه لايطلع عليه أحد وإنما خص الصوم بقوله تعالى ، لي وإن كانت جميع الأعمال الصالحة له وهو يجزى عليها لأن الصوم لايظهر من ابن آدم بقول ولا فعل

أخبرنا يوسف بن زياد عن علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن سلمان قال «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم من شعبان فقال يا أيها الناس إنه قد أظلكم شهر عظيم وفي رواية قد أطلكم بالطاء أطل أشرف شهر عظيم شهر مبارك شهر فيه ليلة القدر خير من ألف شهر شهر جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعا من تقرب فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ومن أدى فيه فريضة كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة وشهر المواساة أي المساهمة وشهر يزاد فيه الرزق ومن فطر فيه صائما كان له مغفرة لذنوبه وعتق رقبة من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء قالوا يا رسول الله ليس كلنا نجد ما نفطر به الصائم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي الله هذا الثواب لمن فطر صائما على مذقة لبن أو تمرة أو شربة من ماء ومن أشبع صائما سقاه الله عز وجل من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة ومن خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار حتى يدخل الجنة وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار فاستكثروا فيه من أربع خصال: خصلتين ترضون بها ربكم وخصلتين لا غنى بكم عنهما أما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله وتستغفرونه وأما اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار» أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادي أخبرنا أبو بكر محمد ابن عمر بن حفص التاجر أخبرنا إبراهيم ابن عبد الله بن عمر بن بكير الكوفي أخبرنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف قال الله تعالى إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع الصائم طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ربنا للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك الصوم جنة وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا محمد ابن مطرف حدثني أبو حازم عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون» أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أخبرنا عبد الله بن محمود أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أخبرنا عبد الله بن المبارك عن راشد بن سعد عن يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يقول الصيام أي رب إني منعته الطعام والشراب والشهوات بالنهار فشفعني فيه ويقول القرآن رب إني منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان» قوله تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس

حتى تكتبه الحفظة وإنما هو من أعمال القلوب بالنية ولا يطلع عليه إلا الله تعالى لقول الله تعالى: إنما أولى جزاءه علي ما أحب لا علي حساب ولا كتاب له. وقوله وللصائم فرحتان فرحة عند فطره أي بالطعام لما بلغ به من الجوع لتأخذ النفس حاجتها منه وقيل فرحة بما وفق له من إتمام الصوم الموعود عليه بالثواب وهو قوله: وفرحة عند لقاء ربه لما يرى من جزيل ثوابه. وقوله ولخلوف بضم الخاء وفتحها لغتان وهو تغير طعم الفم وريحه لتأخير الطعام ومعنى كونه أطيب عند الله من ريح المسك هو الثناء على الصائم والرضا بفعله لئلا يمتنع من المواظبة على الصوم الجالب للخلوف والمعنى أن خلوف فم الصائم أبلغ عند الله في القبول من ريح المسك عند أحدكم. قوله الصيام جنة أي حصن من المعاصي لأن الصوم يكسر الشهوة فلا يواقع المعاصي قوله فلا يرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الإنسان من المرأة وقيل هو التصريح بذكر الجماع. والصخب الضجر والجلبة والصياح (ق) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة بابا يقال له باب الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة يقال أين الصائمون فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد وفي رواية إن في الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون» عن أبي أمامة قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله مرني بأمر ينفعني الله به قال «عليك بالصوم فإنه لا مثل له» وفي رواية «أي العمل أفضل فقال عليك بالصوم فإنه لا عدل له» أخرجه النسائي. قوله عز وجل (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب) قال ابن عباس قال يهود المدينة يا محمد كيف يسمع

قال قال اليهود أهل المدينة يامحمد كيف يسمع ربنا دعاءنا وانت تزعم ان بيننا وبين السماء مسيرة خمسمائة عام وان غلظ كل سماء مثل ذلك فنزلت هذه الآية. وقال الضحاك سأل بعض الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم فقالو أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله تعالى «وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب» وفيه إضمار كأنه قال فقل لهم إنى قريب منهم بالعلم لايخفى على شئ كما قال «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الواحد عن عاصم عن أبى عثمان عن أبي موسى الأشعرى قال: لما غزارسول الله صلي الله عليه وسلم خيبر، أوقال: لما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر الله أكبر لاإله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أربعوا على أنفسكم إنكم لاتدعون أصم ولاغائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم» قوله تعالى (أجيب دعوة الداع إذا دعان) قرأ أهل المدينة غير قالون وأبو عمرو باثبات الياء فيهما فى الوصل، والباقون يحذفونها وصلا ووقفا وكذلك اختلف القراء فى إثبات اليآت المحذوفة من الخط وحذفها فى التلاوة وأثبت يعقوب جميعها وصلا ووقفا واتفقوا على إثبات ماهو مثبت فى الخط وصلا ووقفا (فليستجيبوا لى) قيل الاستجابة بمعنى الإجابة أى فليجيبوا لى بالطاعة، والإجابة فى اللغة الطاعة وإعطاء ماسئل فالإجابة من الله تعالى العطاء ومن العبد الطاعة وقيل فليستجيبوا لى أى ليستدعوا منى الإجابة وحقيقته

ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام وأن غلظ كل سماء مثل ذلك فنزلت هذه الآية وقيل سأل بعض الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه وقيل إنهم سألوه فى أى ساعة ندعو ربنا فنزلت وقيل إنهم قالوا أين ربنا؟ فنزلت هذه الآية وهذا السؤال لايخلو إما أن يكون عن ذات الله أو عن صفاته أو عن أفعاله أما السؤال عن ذات الله فهو سؤال عن القرب والبعد بحسب الذات، وأما السؤال عن صفاته تعالى فهو أن يكون السائل سأل هل يسمع ربنا دعاءنا. وأما السؤال عن أفعاله تعالى فهو أن يكون السائل سأل هل يجيب ربنا إذا دعوناه؟ فقوله تعالى «وإذا سألك عبادى عنى» فيحتمل هذه الوجوه كلها، وقوله تعالى فانى قريب معناه قريب بالعلم والحفظ لايخفى على شيء، وفيه إشارة إلى سهولة إجابته لمن دعاه وإنجاح حاجة من سأله (ق) عن أبي موسى الأشعرى قال لما غزا رسول الله ﷺ خيبر، أو قال توجه إلى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر لاإله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فانكم لاتدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا بصيرا قريبا وهو معكم» قوله أربعوا على أنفسكم أى ارفقوا بها وقيل معناه أمسكوا عن الجهر فانه قريب يسمع دعاءكم. وقوله تعالى (أجيب دعوة الداع إذا دعان) أى أسمع دعاء عبدى الداعي إذا دعانى وقيل الدعاء عبارة عن التوحيد والثناء على الله تعالى كقول العبد: ياألله لاإله إلاأنت فقولك ياألله فيه دعاء وقولك لاإله إلا أنت فيه توحيد وثناء على الله تعالي فسمى هذا دعاء بهذا الاعتبار وسمى قبوله إجابة لتجانس اللفظ، وفيه أشارة إلى أن العبد يعلم أن له ربا ومدبرا يسمع دعاءه إذا دعاء ولايخيب رجاء من رجاه وذلك ظاهر فان العبد إذا دعا وهو يعلم أن له ربا باخلاص وتضرع أجاب الله دعوته. فان قلت إنا نرى الداعي يبالغ فى الدعاء والتضرع فلايجاب له فما وجه: قوله أجيب دعوة الداع؟ وقوله تعالي ادعونى أستجب لكم. قلت ذكر العلماء فيه أجوبة: أحدها أن هذه الآية مطلقة وقد وردت آية أخرى مقيدة وهى قوله «بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء» والمطلق يحمل على المقيد. وثانيها أن معنى الدعاء هنا هو الطاعة ومعنى الاجابة هو الثواب وذلك في الآخرة. وثالثها أن معنى الآيتين خاص وإن كان لفظهما عاما فيكون معناه أجيب دعوة الداعي إذا وافق القضاء أو أجيبه إن كانت الإجابة خيرا له أو أجيبه إذا لم يسأل إثما أو محالا. ورابعها أن معناها عام أى أسمع وهو معنى الإجابة المذكورة فى الآية، وأما إعطاء الأمنية فليس بمذكور فالإجابة حاصلة عند وجود الدعوة وقد يجيب السيد عبده ولا يعطيه سؤله. وخامسها أن للدعاء أدابا وشرائط وهي أسباب الإجابة فمن استكملها وأتى بها كان من أهل الإجابة ومن أخطأها كان من أهل الاعتداء فى الدعاء فلا يستحق الجواب والله أعلم. وقوله تعالى (فليستجيبوا لى)

فليطيعونى (وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) لكى يهتدوا . فان قيل فما وجه قوله تعالى: أجيب دعوة الداع وقوله ادعونى أستجب لكم وقد يدعى كثيرا فلا يجيب. قلنا اختلفوا فى معنى الآيتين قيل معنى الدعاء ههنا الطاعة ومعنى الإجابة الثواب وقيل معنى الآيتين خاص وإن كان لفظهما عاما (١٦٠) تقديرهما : أجيب دعوة الداعى إن شئت كما قال «فيكشف ماتدعون إليه إن شاء» أو جيب دعوة الداعى إن وافق القضاء أو أجيبه إن كانت الإجابة خيرا له أو أجيبه إن لم يسأل محالا. أخبرنا عبدالواحد ابن أحمد المليحى أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد السمعانى أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الزيانى أخبرنا حميد ابن زنجويه أخبرنا عبدالله ابن صالح حدثنى معاوية ابن صالح أن ربيعة بن يزيد حدثه عن أبى إدريس عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «يستجيب الله لأحدكم مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل قالوا وما الاستعجال يارسول الله قال يقول قد دعوتك يارب قد دعوتك يارب فلا أراك تستجيب لى فيستحسر عند ذلك فيدع الدعاء » وقيل هو عام ومعنى قوله أجيب أى أسمع ويقال ليس فى الآية أكثر من استجابة الدعوة ، فأما إعطاء المنية فليس بمذكور فيها ، وقد يجيب السيد عبده والوالد ولده ثم لايعطيه سؤله فالإجابة كائنة لامحالة عند حصول الدعوة ، وقيل معنى الآية أنه يجيب دعاءه فان قدر له ماسأل أعطاه وإن لم يقدر له ادخر له الثواب فى الآخرة أو كف عنه به سوءا ، والدليل عليه ماأخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعانى أخبرنا أبو جعفر الزيانى أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا ابن ثوبان وهو

يعنى إذا دعوتهم إلى الإيمان والطاعة كما أنى أجيبهم إذا دعونى لحوائجهم. والإجابة فى اللغة الطاعة فالإجابة من العبد الطاعة ومن الله الإثابة والعطاء (وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) أى لكى يهتدوا إلى مصالح دينهم ودنياهم .

(فصل : فى فضل الدعاء وآدابه) (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له » هذا الحديث من أحاديث الصفات ، وفيه مذهبان مشهوران للعلماء: أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يجب الإيمان به وبأنه حق على مايليق به ونكل علمه إلى الله تعالى ورسوله وإن ظاهره المتعارف فى حقنا غير مراد ولا نتكلم فى تأويله مع اعتقادنا تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوقين وعن الانتقال والحركات. والمذهب الثانى مذهب أكثر المتكلمين وجماعة من السلف أنها تؤول على مايليق فعلى هذا نقل عن مالك وغيره أن معناه تنزل رحمته وأمره وملائكته وقيل إنه على الاستعارة ومعناه الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف وفى الحديث الحث على الدعاء والترغيب فيه عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ربكم حيي كريم يستحى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين» أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن غريب. الصفر الخالي يقال بيت صفر ليس فيه متاع .عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال « ماعلى الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من الشر مثلها مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم فقال رجل من القوم إذا نكثر قال الله أكثر» أخرجه الترمذى . قوله الله أكثر معناه الله أكثر إجابة عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لايستجيب دعاء من قلب غافل لاه» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب . عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس شىء أكرم على الله من الدعاء» أخرجه الترمذى وله عن أنس أن النبى ﷺ قال « الدعاء مخ العبادة » وله عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من فتح له باب من الدعاء فتحت له أبواب الرحمة وما سئل الله شيئا أحب إليه من أن يسئل العافية وإن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل أوله عن سلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر» وله عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من لم يسأل الله يغضب عليه» (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «يستجاب لأحدكم مالم يعجل يقوله قد دعوت فلم يستجب لى» ولمسلم قال «لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل قيل يارسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم يستجب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » . قوله يستحسر أى يستنكف عن السؤال وأصله من حسر الطرف إذا كل وضعف (ق) عن أبى هريرة

محمد بن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن عبادة بن الصامت حدثهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ماعلى الأرض رجل مسلم يدعو الله تعالى بدعوة إلا آتاه الله إياها أو كف عنه من السوء مثلها مالم يدع باثم أو قطيعة رحم» وقيل إن الله تعالي يجيب دعاء المؤمن فى الوقت ويؤخر إعطاء من يجيب مراده ليدعوه فيسمع صوته ويعجل إعطاء من لايحبه لأنه يبغض صوته . وقيل إن للدعاء آدابا وشرائط وهى أسباب الإجابة فمن استكملها كان من أهل الإجابة ومن أخل بها فهو من أهل الاعتداء فى الدعاء فلا يستحق الإجابة .قوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) فالرفث كناية عن الجماع . قال ابن عباس إن الله حيي كريم يكني كل ما ذكر فى القرآن من المباشرة والملامسة والإفضاء والدخول والرفث فانما عنى به الجماع وقال الزجاج الرفث كلمة جامعة لكل مايريده الرجال من النساء.قال أهل التفسير كان فى ابتداء الأمر إذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلى العشاء الآخرة أو يرقد قبلها فاذا صلى العشاء أو رقد قبلها حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى الليلة القابلة ثم إن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه واقع أهله بعدما صلي العشاء فلما اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه فأتى النبي ﷺ فقال يارسول الله إنى أعتذر إلى الله وإليك من نفسى هذه الخطيئة إنى رجعت إلى أهلى بعد

ماصليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسى فجامعت أهلى فقال النبي ﷺ «ماكنت جديرا بذلك ياعمر» فقام رجال واعترفوا بمثله فنزل فى عمر وأصحابه «أحل لكم ليلة الصيام» أى أبيح لكم ليلة الصيام «الرفث إلي نسائكم» (هن لباس لكم) أى سكن لكم (وأنتم لباس لهن) أى سكن لهن ، دليله قوله تعالي «وجعل منها زوجها ليسكن إليها» وقيل لايسكن شئ إلي شئ كسكون أحد الزوجين إلي الآخر وقيل سمي كل واحد من الزوجين لباسا لتجردهما عند النوم واجتماعهما فى ثوب واحد حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذى يلبسه وقال الربيع بن أنس هن فراش لكم وأنتم لحاف لهن قال أبو عبيدة وغيره يقال للمرأة هى لباسك وفراشك وإزارك وقيل اللباس اسم لما يوارى الشئ فيجوز أن يكون كل واحد منهما سترا لصاحبه عما لايحل كما جاء فى الحديث «من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه» (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تخونونها وتظلمونها بالمجامعة بعد العشاء قال البراء لما نزل صوم رمضان كانوا

أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفرلى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ولكن ليعزم المسئلة فان الله لامكره له» زاد البخارى «ارزقنى إن شئت ليعزم مسئلته فانه يفعل ما يشاء لامكره له» قوله ليعزم المسئلة أى لاتكن فى دعائك ربك مترددا بل أعزم وجد فى المسئلة . عن فضالة بن عبيد قال «سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو فى صلاته فلم يصل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى ﷺ عجل هذا ثم دعاه فقال له أو لغيره إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبى صلى الله عليه وسلم ثم ليدع بما شاء» أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح . قوله عز وجل (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) سبب نزول هذه الآية أنه كان فى ابتداء الأمر بالصوم إذا أفطر الرجل حل له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلى العشاء الأخيرة أو يرقد قبلها فاذا صلى أورقد حرم عليه ذلك كله إلى الليلة القابلة ثم إن عمر بن الخطاب واقع أهله بعد ماصلى العشاء فلما اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخطيئة إنى رجعت إلي أهلى بعد ماصليت العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لى نفسى فجامعت أهلى فقال النبى ﷺ «ما كنت بذلك جديرا ياعمر» فقام رجال فاعترفوا بمثل ذلك فنزلت فى عمر وأصحابه أحل لكم أى أبيح لكم ليلة أراد بالليلة ليالي الصيام الرفث إلى نسائكم الرفث كلام يستقبح لفظه من ذكر الجماع ودواعيه وهو هنا كناية عن الجماع قال ابن عباس إن الله تعالى حيي كريم يكنى فما ذكره من المباشرة والملامسة وغير ذلك إنما هو الجماع (هن لباس لكم) أى سكن لكم (وأنتم لباس لهن) أى سكن لهن قيل لايسكن شىء إلي شىء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر وسمى كل واحد من الزوجين لباسا لتجردهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد وقيل اللباس اسم لمايوارى فيكون كل واحد منهما سترا لصاحبه عما لايحل كما جاء فى الحديث «من تزوج فقد أحرز ثلثى دينه» (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) قال ابن عباس يريد فيما ائتمنكم عليه وخيانتهم أنهم كانوا يباشرون فى ليالي الصوم والمعنى يظلمونها بالمجامعة بعد العشاء وهو من الخيانة وأصل الخيانة أن يؤتمن

لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله تعالى «علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم (فتاب عليكم) تجاوز عنكم (وعفا عنكم) محا ذنوبكم (فالآن باشروهن) جامعوهن حلالا سميت المجامعة مباشرة لملاصقة بشرة كل واحد منهما صاحبه (ابتغوا ما كتب الله لكم) أى فاطلبوا ما قضى الله لكم وقيل ما كتب الله لكم فى اللوح المحفوظ يعنى الولد قاله أكثر المفسرين قال مجاهد ابتغوا الولد إن لم تلد هذه فهذه وقال قتادة وابتغوا الرخصة التى كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع فى اللوح المحفوظ وقال معاذ بن جبل وابتغوا ما كتب الله لكم يعنى ليلة القدر. قوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض) نزلت (١٦٢) فى رجل من الأنصار اسمه أبو صرمة بن قيس بن صرمة وقال عكرمة أبو قيس بن صرمة وقال الكلبى أبو قيس صرمة ابن أنس بن صرمة وذلك أنه ظل نهاره يعمل فى أرض له وهو صائم فلما أمسى رجع إلى أهله بتمر وقال لأهله قدمى الطعام فأرادت المرأة أن تطعمه شيئا سخينا فأخذت تعمل له سخينة وكان فى الابتداء من صلى العشاء أو نام حرم عليه الطعام والشراب فلما فرغت من طعامه إذ هو به قد نام وكان قد أعيا وكل فأيقظته فكره أن يعصى الله ورسوله فأبى أن يأكل فأصبح صائما مجهودا فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه فلما أفاق أتى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال له يا أبا قيس مالك أصبحت طليحا فذكر له حاله فاغتم لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل «وكلوا واشربوا» يعنى فى ليالى الصوم «حتى يتبين لكم الخيط الأبيض (من الخيط الأسود) يعنى بياض النهار من سواد الليل سميا خيطين لأن كل واحد منهما يبدو فى الابتداء ممتدا كالخيط. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا سعيد بن أبى مريم أخبرنا أبو غسان محمد بن مطرف ثنا أبو حازم عن سهل بن سعد قال أنزلت «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود» ولم ينزل قوله: من الفجر فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولا يزال يأكل ويشرب

الرجل على شىء فلا يؤدى فيه الأمانة ويقال للعاصى خائن لأنه مؤتمن على دينه (فتاب عليكم) أى فتبتم فتاب عليكم وتجاوز عنكم (وعفا عنكم) أى محا ذنوبكم (خ) عن البراء قال لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله فكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله «علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم» الآية قال ابن عباس فكان ذلك مما نفع الله به الناس ورخص لهم ويسر (فالآن باشروهن) أى جامعوهن فهو حلال لكم فى ليالى الصوم وسميت المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحد بصاحبه (وابتغوا ما كتب الله لكم) أى ما قضى لكم فى اللوح المحفوظ يعنى الولد وقيل وابتغوا الرخصة التى كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع فى اللوح المحفوظ يعنى الولد. وقيل وابتغوا الرخصة التى كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع فى اللوح المحفوظ وقيل اطلبوا ليلة القدر (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) نزلت فى صرمة بن قيس بن صرمة الأنصارى ويقال قيس بن صرمة وذلك أنه ظل يعمل فى أرض له وهو صائم فلما أمسى رجع إلى أهله بتمر وقال لأهله قدمى الطعام فأرادت المرأة أن تطعمه شيئا سخنا فأخذت تعمل له ذلك فلما فرغت فإذا هو قد نام وكان قد أعيا من التعب فأيقظته فكره أن يعصى الله ورسوله وأبى أن يأكل وأصبح صائما مجهودا فلم ينتصف النهار حتى غشى عليه فلما أفاق أتى النبى صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال يا أبا قيس مالك أمسيت طليحا فذكر له حاله فاغتم لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية وقوله طليحا أى مهزولا مجهودا (خ) عن البراء قال كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى وإن قيس بن صرمة الأنصارى كان صائما فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال أعندك طعام قالت لا ولكن أنطلق فأطلب لك وكان يومه يعمل فغلبته عينه فجاءته امرأته فلما رأته قالت خيبة لك فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم» ففرحوا بها فرحا شديدا ونزلت «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» ومعنى الآية وكلوا واشربوا فى ليالى الصوم حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود: بياض النهار من سواد الليل وسميا خيطين لأن واحد كل منهما يبدو فى الأفق ممتدا كالخيط، قال الشاعر:

حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله تعالى بعده (من الفجر) فعلموا أنما يعني بهما الليل والنهار ، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا حجاج بن منهال أخبرنا هشيم أخبرنا حصين بن عبد الرحمن عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال لما نزلت حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي فجعلت (١٦٣) أنظر إليهما وإلى الليل فلا يستبين لي فغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار . أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن الشهاب عن سالم بن عبد الله ابن عمرو عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن بلالا ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم» قال وكان ابن أم مكتوم رجلا أعمى لا ينادي حتى يقال له : أصبحت أصبحت . واعلم أن الفجر فجران كاذب وصادق فالكاذب يطلع أولا مستطيلا كذنب السرحان يصعد إلى السماء فبطلوعه لا يخرج الليل ولا يحرم الطعام والشراب على الصائم ثم يغيب فيطلع بعده الفجر الصادق مستطيرا ينتشر سريعا في الأفق فبطلوعه يدخل النهار ويحرم الطعام والشراب على الصائم أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي أخبرنا أبو العباس المحبوبي أخبرنا أبو عيسى الترمذي أخبرنا هناد بن يوسف بن عيسى قال أخبرنا وكيع عن أبي هلال عن سواد بن حنظلة عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير في الأفق» قوله تعالى (ثم أتموا الصيام إلي الليل) فالصائم يحرم عليه الطعام والشراب بطلوع الفجر الصادق ويمتد إلى غروب الشمس وإذا

فلما أضاءت لنا سدفة ولاح من الصبح خيط أنارا

السدف اختلاط الظلام وأسدف الفجر أضاء (ق) عن سهل بن سعد قال لما نزلت «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود» ولم ينزل «من الفجر» فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولا يزال يأكل حتى تتبين له رؤيتهما فأنزل الله عز وجل بعده (من الفجر) فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهار (ق) عن عدي بن حاتم «لما نزلت حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود عمدت إلى عقال أسود وعقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي وجعلت أنظر في الليل فلا يتبين لي فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار» (ق) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «إن بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم» قال وكان ابن أم مكتوم رجلا أعمى لا ينادي حتى يقال له : أصبحت أصبحت. واعلم أن الفجر الذي يحرم به على الصائم الطعام والشراب والجماع هو الفجر الصادق المستطير المنتشر في الأفق سريعا ، لا الفجر الكاذب المستطيل . فان قلت كيف شبه الصبح الصادق بالخيط والخيط مستطيل والصبح الصادق ليس بمستطيل ؟. قلت إن القدر الذي يبدو من البياض هو أول الصبح يكون رقيقا صغيرا ثم ينتشر فلهذا شبه بالخيط ، والفرق بين الفجر الصادق والفجر الكاذب أن الفجر الكاذب يبدو في الأفق فيرتفع مستطيلا ثم يضمحل ويذهب ثم يبدو الفجر الصادق بعده منتشرا في الأفق مستطيرا (م) عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم «لا يغرنكم من سحوركم أذان بلال ولا بياض الأفق المستطيل هكذا حتى يستطير هكذا» وحكاه حماد بيديه قال يعني معترضا وفي رواية الترمذي «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكن الفجر المستطير في الأفق» فاذا تحقق طلوع الفجر الثاني وهو الصادق حرم على الصائم الطعام والشراب والجماع إلي غروب الشمس وهو قوله تعالى «ثم أتموا الصيام إلى الليل» يعني منتهى الصوم إلى الليل فاذا دخل الليل حصل الفطر (ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم» وهل يلزم الصائم أن يتناول عند تحقق غروب الشمس شيئا؟ فيه وجهان : أحدهما نعم يلزم ذلك لنهيه صلى الله عليه وسلم عن الوصال . والثاني لا ، لأنه قد حصل الفطر بمجرد دخول الليل سواء أكل أو لم يأكل وتمسكت الحنفية بهذه الآية في أن الصوم النفل يجب إتمامه وقالوا لأن قوله تعالى (ثم أتموا الصيام إلى الليل) أمر وهو للوجوب وهو يتناول كل الصيام . أجاب أصحاب الشافعي عنه بأن هذا إنما

فربت حصل الفطر أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا الحميدي أخبرنا سفيان الثوري أخبرنا هشام بن عروة قال سمعت أبي يقول سمعت عاصم بن عمر ابن الخطاب عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم» قوله تعالى (١٦٤) (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) العكوف هو الإقامة على الشيء والاعتكاف فى الشرع هو الإقامة فى المسجد على عبادة الله وهو سنة ولا يجوز فى غير المسجد ويجوز فى جميع المساجد. أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن يوسف أخبرنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى ثم اعتكفت أزواجه من بعده» والآية نزلت فى نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعتكفون فى المسجد فاذا عرضت للرجل منهم الحاجة إلى أهله خرج إليها فجامعها ثم اغتسل فرجع إلى المسجد فنهوا عن ذلك ليلا ونهارا حتى يفرغوا من اعتكافهم فالجماع حرام فى حال الاعتكاف ويفسد به الاعتكاف، أما مادون الجماع من المباشرات كالقبلة واللمس بالشهوة فمكروه ولا يفسد به الاعتكاف عند أكثر أهل العلم وهو أظهر قولى الشافعي كما لا يبطل به الحج وقالت طائفة يبطل بها اعتكافه وهو قول مالك وقيل إن أنزل بطل اعتكافه وإن لم ينزل فلا كالصوم، وأما اللمس الذى لا يقصد به التلذذ فلا يفسد به الاعتكاف لما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها أنها

ورد فى بيان أحكام صوم الفرض فكان المراد منه صوم الفرض ويدل على إباحة الفطر من النفل ماروى عن عائشة قالت «دخل النبي ﷺ ذات يوم فقال هل عندكم شيء قلنا لا قال فانى إذا صائم ثم أتانا يوما آخر فقلت يارسول الله أهدى لنا حيس قال أرنيه فلقد أصبحت صائما فأكل» أخرجه مسلم. الحيس هو خلط الأقط والتمر والسمن وقد يجعل عوض الأقط دقيق أو فتيت وقيل هو التمر ينزع نواه ويخلط بالسويق والأول أعرف. قوله عز وجل (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) الاعتكاف هو الإقبال على الشيء والملازمة له على سبيل التعظيم. وهو فى الشرع عبارة عن الإقامة فى المسجد على عبادة الله تعالى. وسبب نزول هذه الآية أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعتكفون فى المسجد فاذا عرض لرجل منهم حاجة إلى أهله خرج إليها وخلا بها ثم اغتسل ورجع إلى المسجد فنهوا عن ذلك حتى يفرغوا من اعتكافهم. واعلم أن الله تعالى بين أن الجماع يحرم على الصائم بالنهار ويباح له فى الليل فكان يحتمل أن يكون حكم الاعتكاف كحكم الصوم فبين الله تعالى فى هذه الآية أن الجماع يحرم على المعتكف فى النهار والليل حتى يخرج من اعتكافه.

(فصل فى حكم الاعتكاف) الاعتكاف سنة ولا يجوز فى غير المسجد وذلك لأن المسجد يتميز عن سائر البقاع بالفضل لأنه بنى لإقامة الطاعات والعبادات فيه. ثم اختلفوا فنقل عن على أنه لا يجوز إلا فى المسجد الحرام لقوله «وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود» فخصه به وقال عطاء لا يجوز إلا فى المسجد الحرام ومسجد المدينة. وقال حذيفة يجوز فى هذين المسجدين ومسجد بيت المقدس وقال الزهرى لا يصح الا فى الجامع وقال أبو حنيفة لا يجوز إلا فى مسجد له إمام ومؤذن وقال الشافعي ومالك وأحمد يجوز فى سائر المساجد لعموم قوله «وأنتم عاكفون فى المساجد» إلا أن المسجد الجامع أفضل حتى لا يحتاج إلى الخروج من معتكفه لصلاة الجمعة (ق) عن عائشة «أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه بعده» (ق) عن ابن عمر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان».

[فروع: الأول] يجوز الاعتكاف بغير صوم والأفضل أن يصوم معه وقال أبو حنيفة الصوم شرط فى الاعتكاف ولا يصح إلا به وحجة الشافعي ما روى عن ابن عمر «قال يارسول الله إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة فى المسجد الحرام قال فأوف بنذرك» أخرجاه فى الصحيحين ومعلوم أنه لا يصح الصوم فى الليل.

(الفرع

قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف أدنى إلي رأسه فأرجله ، وكان لايدخل البيت إلا لحاجة الإنسان . قوله تعالى (تلك حدود الله) يعني تلك الأحكام التي ذكرها في الصيام والاعتكاف حدود الله أي مامنع الله عنها قال السدي شروط الله وقال شهر بن حوشب فرائض الله . وأصل الحد في اللغة المنع ومنه يقال للبواب حداد لأنه يمنع الناس من الدخول وحدود الله مايمنع الناس من مخالفتها (فلا تقربوها) فلا تأتوها (كذلك) هكذا (يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) لكي يتقوها فينجوا من العذاب قوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) قيل نزلت هذه الآية في امرئ القيس بن عابس الكندي ادعى عليه ربيعة ابن عبدان الحضرمي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضا فقال النبي صلى الله عليه وسلم للحضرمي ألك بينة ؟ قال لا قال فلك يمينه فانطلق ليحلف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إن حلف على ماله ليأكله ظلما ليلقين الله وهو عنه معرض فأنزل الله هذه الآية : ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل أي لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أي من غير الوجه الذي أباحه الله . وأصل الباطل الشيء الذاهب والأكل بالباطل أنواع قد يكون بطريق الغصب والنهب وقد يكون بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغني

(الفرع الثاني) لا يقدر للاعتكاف زمان عند الشافعي وأقله لحظة ولا حد لأكثره فلو نذر اعتكاف ساعة صح نذره ولو نذر أن يعتكف مطلقا يخرج من نذره باعتكاف ساعة قال الشافعي وأحب أن يعتكف يوما وإنما قال ذلك للخروج من الخلاف فان أقل زمن الاعتكاف عند مالك وأبي حنيفة يوم بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر ويخرج منه بعد غروب الشمس .

(الفرع الثالث) الجماع حرام في حال الاعتكاف ويفسد به وأمامادون الجماع كالقبلة ونحوها فمكروه ولا يفسد به عند أكثر العلماء وهو أظهر قولي الشافعي والثاني يبطل به وهو قول مالك وقيل إن أنزل بطل اعتكافه وإن لم ينزل فلا وهو قول أبي حنيفة . وأما الملامسة بغير شهوة فجائز ولا يفسد به الاعتكاف لما روي عن عائشة «أنها كانت ترجل النبي صلى الله عليه وسلم وهي حائض وهو معتكف في المسجد وهي في حجرتها يناولها رأسه» زاد في رواية «وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة إذا كان معتكفا» وفي رواية «وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان» أخرجاه في الصحيحين الترجيل تسريح الشعر وقولها إلا لحاجة حوائج الإنسان كثيرة والمراد منها ههنا كل مايضطر الإنسان إليه مما لا يجوز له فعله في المسجد وموضع معتكفه . وقوله تعالى (تلك حدود الله) يعني تلك الأحكام التي ذكرت في الصيام والاعتكاف من تحريم الأكل والشرب والجماع حدود الله وقيل حدود الله فرائض الله . وأصل الحد في اللغة المنع ، والحد الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر وحد الشيء بالوصف المحيط بمعناه المميز له عن غيره وقيل معنى حدود الله المقادير التي قدرها ومنع من مخالفتها (فلا تقربوها) أي فلا تأتوها ولا تغشوها . فان قلت في الآية إشكالان : أما الأول فهو أنه قال : تلك حدود الله وهو إشارة إلى ماتقدم من الأحكام وبعضها فيه إباحة وبعضها فيه حظر فكيف قال في الجميع فلاتقربوها ؟ . الإشكال الثاني هو أنه تعالى قال في هذه الآية «تلك حدود الله فلا تقربوها» وقال في آية أخري «تلك حدود الله فلا تعتدوها» وقال في آية أخرى «ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده» فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟ . قلت : الجواب عن السؤالين من وجهين : أما الإشكال الأول فجوابه أن الأحكام التي تقدمت فيما قبل وإن كانت كثيرة إلا أن أقربها إلى هذه الآية قوله تعالى «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد» وذلك يوجب تحريم الجماع في حال الاعتكاف وقال قبلها «ثم أتموا الصيام إلى الليل» وذلك يوجب تحريم الأكل والشرب في النهار فلما كان الأقرب إلى هذه الآية جانب التحريم قال «تلك حدود الله فلا تقربوها» والجواب عن الإشكال الثاني أن من كان في طاعة الله تعالى والعمل بفرائضه فهو متصرف في حيز الحق فنهي أن يتعداه فيقع في حيز الباطل ثم بولغ في ذلك فنهي أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل فيقع فيه فهو كقوله صلى الله عليه وسلم «كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه» وقيل أراد بحدوده هنا محارمه ومناهيه لقوله «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد» ونحو هذا من التحريم فهي حدود لا تقرب (كذلك) أي كما بين لكم ماأمركم به ونهاكم عنه كذلك (يبين الله آياته) أي معالم دينه وأحكام شريعته (للناس) مثل هذا البيان الشافي الوافي (لعلهم يتقون) أي لكي يتقوا ماحرم عليهم فينجوا من العذاب . قوله عز وجل (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) نزلت في امرىء القيس بن عابس الكندي ادعي عليه ربيعة بن عبدان الحضرمي عند رسول الله

وغيرهما وقد يكون بطريق الرشوة والخيانة (وتدلوا بها إلي الحكام) أى تلقوا أمور تلك الأموال بينكم وبين أربابها إلي الحكام وأصل الإدلاء إرسال الدلو وإلقاؤه فى البئر يقال أدلي دلوه إذا أرسله ودلاه يدلوه إذا أخرجه . قال ابن عباس هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة فيجحد المال ويخاصم فيه الحاكم وهو يعرف أن الحق عليه وأنه آثم بمنعه قال مجاهد فى هذه الآية لاتخاصم وأنت ظالم قال الكلبي هو أن يقيم شهادة الزور. وقوله وتدلوا فى محل الجزم بتكرير حرف النهى معناه ولا تدلوا بها إلى الحكام وقيل معناه ولا تأكلوا بالباطل وتنسبونه إلى الحكام قال قتادة لاتدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فان قضاءه لايحل حراما وكان شريح القاضى يقول إنى لأقضى لك وإنى لأظنك ظالما ولكن لا يسعنى إلا أن أقضى لك بما يحضرنى من البينة وإن قضائى لايحل لك حراما . أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز ابن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعى أخبرنا مالك بن أنس عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أبى سلمة عن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له بشئ من حق أخيه فلا يأخذه، فانما أقطع له قطعة من النار» قوله تعالى (لتأكلوا فريقا) طائفة (من أموال الناس بالإثم) بالظلم ، وقال ابن عباس باليمين الكاذبة يقتطع بها مال أخيه (وأنتم تعلمون) أنكم مبطلون. قوله تعالى (يسئلونك عن الأهلة) نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة ابن غنم الأنصاريين قالا يارسول الله ما بال الهلال، يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلىء نورا ثم يعود دقيقا كما بدا ولا يكون على حالة فأنزل الله تعالي يسألونك عن الأهلة وهى جمع هلال مثل رداء وأردية سمى هلالا لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته من قولهم استهل الصبى إذا صرخ حين يولد وأهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية (قل هى مواقيت للناس

صلى الله عليه وسلم فى أرض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحضرمى : ألك بينة قال لا قال فلك يمينه فانطلق ليحلف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إن حلف على ماله ليأكله ظلما ليلقين الله وهو عنه معرض فأنزل الله هذه الآية . والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أي من غير الوجه الذى أباحه الله له . وأصل الباطل الشىء الذاهب .

(فصل) أما حكم الآية فأكل المال بالباطل على وجوه : الأول أن يأكله بطريق التعدى والنهب والغصب. الثانى أن يأكله بطريق اللهو كالقمار وأجرة المغنى وثمن الخمر والملاهى ونحو ذلك. الثالث أن يأكله بطريق الرشوة فى الحكم وشهادة الزور. الرابع الخيانة وذلك فى الوديعة والأمانة ونحو ذلك. وإنما عبر عن أخذ المال بالأكل لأنه المقصود الأعظم، ولهذا وقع فى التعارف فلان يأكل أموال الناس بمعنى يأخذها بغير حلها (وتدلوا بها إلى الحكام) أى وتلقوا أمور تلك الأموال التى فيها الحكومة إلى الحكام قال ابن عباس هذا فى الرجل يكون عليه المال وليس عليه بينة فيجحد ويخاصم إلى الحكام وهو يعلم أن الحق عليه وهو آثم بمنعه وقيل هو أن يقيم شهادة الزور عند الحاكم وهو يعلم ذلك. وقيل معناه ولا تأكلوا المال بالباطل وتنسبوه إلى الحكام وقيل لاتدل بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فان قضاءه لايحل حراما وكان شريح القاضى يقول إنى لأقضى لك وإنى لأظنك ظالما ولكن لايسعنى إلا أن أقضى بما يحضرنى من البينة وإن قضائى لايحل لك حراما (ق) عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض، وفى رواية ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضى له فمن قضيت له بحق مسلم فانما هى قطعة من النار فليحملها أو يذرها» قوله سمع جلبة خصم يعنى أصوات خصم قوله ألحن بحجته يقال فلان ألحن بحجته من فلان أى أقوم بها منه وأقدر عليها، من اللحن بفتح الحاء وهو الفطنة (لتأكلوا فريقا) أى طائفة وقطعة (من أموال الناس بالإثم) يعنى بالظلم وقال ابن عباس باليمين الكاذبة وقيل بشهادة الزور (وأنتم تعلمون) يعنى أنكم على الباطل . قوله عز وجل (يسألونك) أى يا محمد (عن الأهلة) نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريين قالا يارسول الله مابال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يمتلىء نورا ثم لايزال ينقص حتى يعود دقيقا كما بدا ولا يكون على حال واحدة فأنزل الله : يسألونك عن الأهلة وكان هذا سؤالا منهم على وجه الفائدة عن وجه الحكمة فى تبيين حال الهلال فى الزيادة والنقصان والأهلة جمع هلال وهو أول حال القمر حين يراه الناس أول ليلة من الشهر (قل هى مواقيت للناس)

والحج) جمع ميقات أى فعلنا ذلك ليعلم الناس أوقات الحج والعمرة والصوم والإفطار وآجال الديون وعدد النساء وغيرها فلذلك خالف بينه وبين الشمس التى هى دائمة على حالة واحدة (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) قال أهل التفسير كان الناس فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطا ولا بيتا ولا دارا من بابه فان كان من أهل المدر نقب نقبا فى ظهر بيته ليدخل منه ويخرج أو يتخذ سلما فيصعد منه وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب (١٦٧) حتى يحل من إحرامه ويرون ذلك برا إلا أن يكون من الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخيثم وبنو عامر بن صعصعة وبنو نضر بن معاوية ، سموا حمسا لتشددهم فى دينهم والحماسة الشدة والصلابة قالوا فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بيتا لبعض الأنصار فدخل رجل من الأنصار يقال له رفاعة بن التابوت على أثره من الباب وهو محرم فأنكروا عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم دخلت من الباب وأنت محرم؟ قال رأيتك دخلت فدخلت على أثرك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أحمسى فقال الرجل إن كنت أحمسيا فانى أحمسى رضيت بهديك وسمتك ودينك فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال الزهرى كان ناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يحل بينهم وبين السماء شىء وكان الرجل يخرج مهلا بالعمرة فتبدو له الحاجة بعد ما يخرج من بيته فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء فيفتح الجدار من ورائه ثم يقوم فى حجرته فيأمر بحاجته حتى بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرة فدخل رجل على أثره من الأنصار من بنى سلمة فقال النبى صلى الله عليه وسلم لم فعلت ذلك قال لأنى رأيتك دخلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أحمسى فقال الأنصارى وأنا أحمسى يقول

جمع ميقات ، والمعنى أن فعلنا ذلك لمصالح دينية ودنيوية ليعلم الناس أوقات حجهم وصومهم وإفطارهم ومحل ديونهم وأجارهم وعدد النساء وأوقات الحيض وغير ذلك من الأحكام المتعلقة بالأهلة ولهذا خالف بينه وبين الشمس التى هى دائمة على حالة واحدة (والحج) أى وللحج وإنما أفرد الحج بالذكر وإن كان داخلا في جملة العبادات لفائدة عظيمة وهى أن العرب فى الجاهلية كانت تحج بالعدد وتبدل الشهور فأبطل الله ذلك من فعلهم وأخبر أن الحج مقصور على الأشهر التى عينها لفرض الحج بالأهلة وأنه لايجوز نقل الحج عن تلك الأشهر التى عينها الله تعالى له كما كانت العرب تفعل بالنسىء (وليس البر بأن تأتو البيوت من ظهورها) (ق) عن عن البراء قال نزلت هذه الآية فينا فكانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه عير بذلك فنزلت : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها وفي رواية كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيوت من ظهورها فأنزل الله هذه الآية وقيل كان الناس فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم لم يدخل حائطا ولا دارا ولا فسطاطا من بابه فان كان من أهل المدر نقب نقبا فى ظهر بيته منه يدخل ويخرج أو يتخذ سلما يصعد منه وإن كان من أهل الوبر دخل وخرج من خلف الخباء ولا يدخل ولا يخرج من الباب ويرون ذلك برا وكانت الحمس وهم قريش وكنانة وخزاعة ومن دان بدينهم ، سموا حمسا لتشديدهم فى دينهم والحماسة الشدة كانوا إذا أحرموا لم يدخلوا بيتا البتة ولم يستظلوا بظل ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حائطا فدخل رجل من الأنصار معه وقيل كانت الحمس لايبالون بذلك ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل ذات يوم بيتا فدخل على أثره رجل من الأنصار يقال له رفاعة بن التابوت من الباب وهو محرم فأنكروا عليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لم دخلت من الباب وأنت محرم فقال رأيتك دخلت فدخلت على أثرك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أحمسى فقال الرجل إن كنت أحمسيا فانا أحمسى رضيت بهديك وسمتك ودينك فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال الزهرى كان ناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يجعلوا بينهم وبين السماء شيئا وكان الرجل يخرج مهلا بالعمرة فتبدو له الحاجة بعد ماخرج من بيته فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف البيت أن يحول بينه وبين السماء فيفتح الجدار من ورائه ثم يقوم فى حجرته فيأمر بحاجته ثم بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرة فدخل رجل من

وأنا على دينك فأنزل الله تعالى وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها قرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر : البيوت والغيوب والجيوب والعيوب وشيوخا بكسر أوائلهن لمكان الياء ، وقرأ الباقون بالضم على الأصل وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى جيوب بكسر الجيم وقرأ أبو بكر وحمزة العيوب بكسر العين (ولكن البر من اتقى) أى البر بر من اتقى (وأتوا البيوت من أبوابها) فى حال الإحرام (واتقوا الله لعلكم تفلحون وقاتلوا فى سبيل الله) أى فى طاعة الله (الذين يقاتلونكم) **(١٦٨)** كان فى ابتداء الإسلام أمر الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكف عن قتال المشركين ثم لما هاجر إلى المدينة أمره بقتال من قاتله منهم بهذه الآية وقال الربيع بن أنس هذه أول آية نزلت فى القتال ثم أمره بقتال المشركين كافة قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله « اقتلوا المشركين » فصارت هذه الآية منسوخة بها وقيل نسخ بقوله « اقتلوا المشركين » قريب من سبعين آية وقوله (ولا تعتدوا) أى لا تبدءوهم بالقتال وقيل هذه الآية محكمة غير منسوخة أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتال المقاتلين ومعنى قوله ولا تعتدوا أى لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير والرهبان ولا من ألقى إليكم السلام ، هذا قول ابن عباس ومجاهد. أخبرنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر ابن أحمد أخبرنا أبو بكر بن محمد بن سهل القهستانى المعروف بأبى تراب أخبرنا محمد بن عيسى الطوسى أنا يحيى بن بكير أنا الليث بن سعد بابتداء عن جرير بن حازم عن شعبة عن علقمة بن يزيد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشا قال اغزوا بسم الله وفى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تعتدوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا ولا شيخا كبيرا . وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس نزلت هذه الآية فى صلح الحديبية وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه للعمرة وكانوا ألفا وأربعمائة فساروا حتى نزلوا الحديبية فصدهم المشركون عن البيت الحرام فصالحهم على أن

الأنصار من بنى سلمة على أثره فقال النبى ﷺ لم فعلت ذلك قال لأنى رأيتك دخلت فقال عليه الصلاة والسلام إنى أحمسى فقال الأنصارى وأنا أحمسى يقول أنا على دينك فأنزل الله تعالى وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها (ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) يعنى فى حال الإحرام وغيره (واتقوا الله لعلكم تفلحون) قوله عز وجل (وقاتلوا فى سبيل الله) أى فى طاعة الله وطلب رضوانه (ق) عن أبى موسى الأشعرى قال سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله (الذين يقاتلونكم) كان فى ابتداء الإسلام أمر الله رسوله ﷺ بالكف عن قتال المشركين ثم لما هاجر إلى المدينة أمر بقتال من قاتله منهم بهذه الآية. قال الربيع بن أنس هذه أول آية نزلت فى القتال ثم أمر الله بقتال المشركين كافة قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله تعالى «وقاتلوا المشركين كافة» وبقوله «اقتلوهم حيث ثقفتموهم» فصارت آية السيف ناسخة لهذه الآية وقيل إنها محكمة ومعناها على هذا القول وقاتلوا فى سبيل الله الذين أعدوا أنفسهم للقتال فأما من لم يعد نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ والزمنى والمكافيف والمجانين فلا تقاتلوهم لأنهم لم يقاتلوكم وهو قوله تعالى (ولا تعتدوا) وقال ابن عباس ولا تقتلوا النساء والصبيان والشيوخ والرهبان ولا من ألقى إليكم السلام (م) عن بريدة قال كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال اغزوا بسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا. قوله ولا تغلوا الغلول الخيانة وهو ما يخفيه أحد الغزاة من الغنيمة وقوله ولا تعتدوا أى ولا تنقضوا العهد وقيل فى معنى الآية لا تعتدوا أى لا تبدءوهم بالقتال فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية القتال قال ابن عباس لما صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية وصالحوه على أن يرجع من قابل فيخلوا له مكة ثلاثة أيام يطوف بالبيت فلما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء خافوا أن لا تفى قريش بما قالوا ويصدوهم عن البيت وكره المسلمون قتالهم فى الشهر الحرام وفى الحرم فأنزل الله «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم» فأطلق لهم قتال الذين يقاتلونهم فى الشهر الحرام وفى الحرم ورفع عنهم الحرج والجناح فى ذلك وقال ولا تعتدوا

يرجع عامه ذلك على أن يخلوا له مكة العام القابل ثلاثة أيام فيطوف بالبيت فلما كان العام القابل تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا أن لاتفى قريش بما قالوا وأن يصدوهم عن البيت الحرام وكره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالهم فى الشهر الحرام وفى الحرم فأنزل الله تعالى «وقاتلوا فى سبيل الله» يعنى محرمين الذين يقاتلونكم يعنى قريشا ولا تعتدوا فتبدءوا بالقتال فى الحرم محرمين (إن الله لايحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم) قيل : نسخت الآية الأولى بهذه الآية وأصل الثقافة الحذق والبصر بالأمر ومعناه واقتلوهم حيث أبصرتم مقاتلتهم وتمكنتم من قتلهم (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة فقال أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم (والفتنة أشد من القتل) يعنى شركهم بالله عز وجل أشد وأعظم من قتلكم إياهم فى الحرم والإحرام (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم) قرأ حمزة والكسائى ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فان قتلوكم بغير ألف فيهن من القتل على معنى ولا تقتلوا بعضهم. تقول العرب قتلنا بنى فلان وإنما قتلوا بعضهم ، وقرأ الباقون بالألف من القتال وكان هذا فى ابتداء الإسلام كان لا يحل بدايتهم بالقتال فى البلد الحرام ثم صار منسوخا بقوله تعالى : وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة هذا قول قتادة وقال مقاتل بن حبان قوله واقتلوهم حيث ثقفتموهم أى حيث أدركتموهم فى الحل والحرم صارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام ثم نسختها آية السيف فى براءة فهى ناسخة منسوخة وقال مجاهد وجماعة هذه الآية محكمة ولا يجوز الابتداء بالقتال فى الحرم (كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا) عن القتال والكفر (فان الله غفور رحيم) أى غفور لما سلف رحيم بالعباد (وقاتلوهم) يعنى المشركين (حتى لاتكون فتنة) أى شرك يعنى قاتلوهم حتى يسلموا فلا يقبل من الوثنى إلا الإسلام فان أبى قتل (ويكون الدين) أى الطاعة والعبادة (لله) وحده فلا يعبد شىء دونه قال نافع جاء رجل إلى ابن عمر فى فتنة ابن الزبير فقال مايمنعك أن تخرج قال يمنعنى أن الله حرم دم أخى قال ألا تسمع ماذكره الله عز وجل «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» فقال يا ابن أخى ولأن أعتبر بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلى من أن أعتبر بالآية التى يقول

بابتداء القتال (إن الله لايحب المعتدين) قوله عز وجل (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى حيث وجدتموهم وأدركتموهم في الحل والحرم، وتحقيق القول فيه أن الله تعالى أمر بالجهاد فى الآية الأولى بشرط إقدام الكفار على القتال وفى هذه الآية أمرهم بالجهاد معهم سواء قاتلوا أولم يقاتلوا واستثنى منه المقاتلة عند المسجد الحرام (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى وأخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم (والفتنة أشد من القتل) يعنى أن شركهم بالله أشد وأعظم من قتلكم إياهم فى الحرم والإحرام وإنما سمى الشرك بالله فتنة لأنه فساد فى الأرض يؤدى إلى الظلم. وإنما جعل أعظم من القتل لأن الشرك بالله ذنب يستحق صاحبه الخلود فى النار وليس القتل كذلك، والكفر يخرج صاحبه من الأمة وليس القتل كذلك فثبت أن الفتنة أشد من القتل (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه) اختلف العلماء فى هذه الآية فذهب مجاهد فى جماعة من العلماء إلى أنها محكمة وأنه لايحل أن يقاتل فى المسجد الحرام إلا من قاتل فيه وهو قوله (فان قاتلوكم فاقتلوهم) أى فقاتلوهم، وثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم «أنه قال إن مكة لاتحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد بعدى وإنما أحلت لى ساعة من نهار ثم عادت حراما إلى يوم القيامة» فثبت بهذا تحريم القتال فى الحرم إلا أن يقاتلوا فيقاتلوا ويكون دفعا لهم وذهب قتادة إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» فأمر بقتالهم فى الحل والحرم. وقيل إنها منسوخة بقوله «وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة» (كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا) يعنى عن القتال. وقيل عن الشرك والكفر (فان الله غفور) يعنى لما سلف (رحيم) يعنى بعباده حيث لم يعاجلهم بالعقوبة (وقاتلوهم) أى وقاتلوا المشركين (حتى لاتكون فتنة) أى شرك والمعنى وقاتلوهم حتى يسلموا ولا يقبل من الوثنى إلا الإسلام والقتل بخلاف الكتابى والفرق بينهما أن أهل الكتاب معهم كتب منزلة فيها شرائع وأحكام يرجعون إليها وإن كانوا قد حرفوا وبدلوا فأمهلهم الله تعالى بحرمة تلك الكتب من القتل وأمر بإصغارهم وأخذ الجزية منهم لينظروا فى كتبهم ويتدبروها فيقفوا على الحق منها فيتبعوه كفعل مؤمنى أهل الكتاب الذين عرفوا الحق فأسلموا، وأما عبدة الأصنام فلم يكن لهم كتاب يرجعون إليه ويرشدهم إلى الحق فكان إمهالهم زيادة فى شركهم وكفرهم فأبى الله عز وجل أن يرضى منهم إلا بالاسلام أو القتل (ويكون الدين لله) أى الطاعة والعبادة لله وحده فلا

الله عز وجل فيها «ومن يقتل مؤمنا متعمدا» قال ألم يقل الله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة قال قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلا وكان الرجل يفتن في دينه إما يقتلونه أو يعذبونه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله . وعن سعيد بن جبير قال قال رجل لابن عمر كيف ترى في قتال الفتنة فقال هل تدري ما الفتنة كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة وليس كقتالكم على الملك (فان انتهوا) عن الكفر وأسلموا (فلا عدوان) فلا سبيل (إلا على الظالمين) قاله ابن عباس يدل عليه قوله تعالى «أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي» أي فلا سبيل علي وقال أهل المعاني العدوان الظلم أي فان أسلموا فلا نهب ولا أسر ولا قتل إلا على الظالمين الذين بقوا على الشرك وما يفعل بأهل الشرك من هذه الأشياء لا يكون ظلما وسماه عدوانا على طريق المجازاة والمقابلة كما قال «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه» وكقوله تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» وسمى الكافر ظالما لأنه يضع العبادة في غير موضعها . قوله تعالى (الشهر الحرام بالشهر الحرام) نزلت هذه الآية في عمرة القضاء وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج معتمرا في ذي القعدة فصده المشركون عن البيت بالحديبية فصالح أهل مكة على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع العام المقبل فيقضي عمرته فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عامه ذلك ورجع في العام القابل في ذي القعدة وقضى عمرته سنة سبع من الهجرة فذلك معنى قوله تعالى «الشهر الحرام» يعني ذي القعدة الذي دخلتم فيه مكة وقضيتم فيه عمرتكم سنة سبع «بالشهر الحرام» يعني ذا القعدة الذي صددتم فيه عن البيت سنة ست (والحرمات قصاص) جمع حرمة وإنما جمعها لأنه أراد حرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام والقصاص المساواة والمماثلة وهو أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل وقيل هذا في أمر القتال معناه إن بدءوكم بالقتال في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه فانه قصاص بما فعلوا فيه (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) وقاتلوه (بمثل ما اعتدى عليكم) سمى الجزاء باسم الابتداء على ازدواج الكلام كقوله تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) قوله تعالى (وأنفقوا في سبيل الله) أراد به الجهاد وكل خير هو في سبيل الله ولكن

يعبد من دونه شيء (فان انتهوا) يعني عن القتال وقيل عن الشرك والكفر (فلا عدوان) أي فلا سبيل (إلا على الظالمين) قاله ابن عباس فعلى القول الأول تكون الآية منسوخة بآية السيف وعلى القول الآخر الآية محكمة. وقيل: معناه فلا تظلموا إلا الظالمين، سمى جزاء الظالمين ظلما على سبيل المشاكلة، وسمى الكافر ظالما لوضعه العبادة في غير موضعها. قوله عز وجل (الشهر الحرام بالشهر الحرام) نزلت في عمرة القضاء وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج معتمرا في ذي القعدة سنة ست من الهجرة فصده المشركون عن البيت بالحديبية فصالح أهل مكة على أن ينصرف عامه ذلك ويرجع من قابل فيقضي عمرته فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع في ذي القعدة سنة سبع فقضى عمرته وذلك قوله تعالى «الشهر الحرام» يعني ذا القعدة الذي دخلتم فيه مكة وقضيتم عمرتكم «بالشهر الحرام» الذي صددتم فيه عن البيت (والحرمات) جمع حرمة وإنما جمعت لأنه أراد حرمة الشهر وحرمة البلد وحرمة الإحرام (قصاص) القصاص المساواة والمماثلة وهو أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل، والمعنى أنهم لما منعوكم عن العمرة وأضاعوا هذه الحرمات في سنة ست فقد وفقتم حتى قضيتموها على رغمهم في سنة سبع. وقيل هذا في القتال ومعناه فان بدءوكم بالقتال في الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فانه قصاص (فمن اعتدى عليكم) أي بالقتال (فاعتدوا عليه) أي فقاتلوه (بمثل ما اعتدى عليكم) سمى الجزاء بالاعتداء على سبيل المشاكلة (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) قوله عز وجل (وأنفقوا في سبيل الله) يعني به الجهاد وذلك أن الله تعالى لما أمر بالجهاد والاشتغال به يحتاج إلى الانفاق فأمر به، والانفاق هو صرف المال في وجوه المصالح الدينية كالانفاق في الحج والعمرة وصلة الرحم والصدقة وفي الجهاد وتجهيز الغزاة وعلى النفس والعيال وغير ذلك مما فيه قربة لله تعالى لأن كل ذلك مما هو في سبيل الله لكن إطلاق هذه اللفظة ينصرف إلى الجهاد (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا واحتسابا لله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني حسنات. عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف» أخرجه الترمذي

إطلاقه بنصرف إلى الجهاد (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قيل الباء فى قوله تعالى بأيديكم زائدة يريد ولا تلقوا أيديكم أى أنفسكم إلى التهلكة عبر عن الأنفس بالأيدى كقوله تعالى «بما كسبت أيديكم» أى بما كسبتم وقيل الباء فى موضعها وفيه حذف أى ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة أى الهلاك وقيل التهلكة كل شئ يصير عاقبته إلى الهلاك أى ولا تأخذوا فى ذلك وقيل التهلكة ما يمكن الاحتراز عنه والهلاك ما لا يمكن الاحتراز عنه والعرب لا تقول للإنسان ألقى بيده إلا فى الشر. واختلفوا فى تأويل هذه الآية فقال بعضهم هذا فى البخل وترك الإنفاق يقول ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك الإنفاق فى سبيل الله وهو قول حذيفة والحسن وقتادة وعكرمة وعطاء وقال ابن عباس فى هذه الآية أنفق فى سبيل الله وإن لم يكن لك إلا سهم أو مشقص ولا يقولن أحدكم إنى لا أجد شيئا. وقال السدى فيها أنفق فى سبيل الله ولو عقالا ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ولا تقل ليس عندى شىء وقال سعيد بن المسيب ومقاتل بن حبان لما أمر الله تعالى بالإنفاق قال رجال أمرنا بالنفقة فى سبيل الله ولو أنفقنا أموالنا بقينا فقراء فأنزل الله هذه الآية وقال مجاهد فيها لا يمنعكم من نفقة فى حق خيفة العيلة. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أخبرنا أحمد بن الحسن الحيرى أخبرنا أبو جعفر محمد بن على بن دحيم الشيبانى أخبرنا أحمد ابن حازم ابن أبى غرزة أخبرنا أبو غسان أخبرنا خالد بن عبد الله الواسطى أخبرنا واصل مولى أبى عتبة عن بشار بن أبى سيف عن الوليد بن عبد الرحمن عن عياض بن غضيف قال أتينا أبا عبيدة نعوده قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فبسبعمائة ومن أنفق نفقة على أهله فالحسنة بعشرة أمثالها. وقال زيد بن أسلم كان رجال يخرجون فى البعوث بغير نفقة فاما أن يقطع بهم وإما أن يكونوا عيالا فأمرهم الله تعالى بالإنفاق على أنفسهم فى سبيل الله ومن لم يكن عنده شئ ينفقه فلا يخرج بغير نفقة ولا قوت فيلقى بيده إلى التهلكة فالتهلكة أن يهلك من الجوع والعطش أو بالمشى. وقيل نزلت الآية فى ترك الجهاد قال أبو أيوب الأنصارى نزلت فينا معشر الأنصار وذلك أن الله تعالى لما أعز دينه ونصر رسوله قلنا فيما بيننا إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر الله نبيه فلو رجعنا إلى أهلنا وأموالنا فأقمنا فيها فأصلحنا ما ضاع منها فأنزل

الترمذى والنسائى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قيل: الباء زائدة ومعناه لا تلقوا أيديكم إلى التهلكة، والمراد بالأيدى الأنفس والمعنى ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة عبر بالأيدى عن الأنفس وقيل الباء على أصلها وفى الكلام حذف تقديره ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة كما يقال أهلك فلان نفسه بيده « إذا تسبب فى هلاكها وقيل التهلكة كل شىء تصير عاقبته إلى الهلاك وقيل التهلكة ما يمكن الاحتراز عنه والهلاك ما لا يمكن الاحتراز عنه، ومعنى الآية النهى عن ترك الإنفاق فى سبيل الله لأنه سبب الإهلاك قال ابن عباس أنفق فى سبيل الله وإن لم يكن لك إلا سهم أو مشقص ولا يقول أحدكم لا أجد شيئا. السهم هنا هو ما يرمى به والمشقص سهم فيه نصل عريض وقيل كان رجال يخرجون فى البعوث بغير نفقة فاما أن ينقطع بهم وإما أن يكونوا عالة فأمرهم الله تعالى بالإنفاق على أنفسهم فى سبيل الله ومن لم يكن عنده شىء ينفق عليه فى الغزو فلا يخرج لئلا يلقى نفسه فى التهلكة وهو أنه يهلك من الجوع والعطش والمشى. وقيل نزلت الآية فى ترك الجهاد (ت) عن أبى عمران واسمه أسلم قال كنا بمدينة الروم فأخرجوا لنا صفا عظيما من الروم فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس. سبحان الله يلقى بيديه إلى التهلكة فقام أبو أيوب الأنصارى فقال: « أيها الناس إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا «وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة» فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو فما زال أبو أيوب شاخصا فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم» وقال حديث غريب صحيح [illegible] أبو أيوب فى آخر غزوة غزاها بأرض قسطنطينية ودفن فى أصل سورها فهم يتبركون بقبره ويستسقون به (م) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق» قال ابن المبارك فنرى أن ذلك كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم. وقيل

الله تعالي وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة فالتهلكة الإقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد فما زال أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية فى زمن معاوية فتوفى هناك ودفن فى أصل سور القسطنطينية وهم يستسقون به. وروى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» وقال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني الإلقاء إلى التهلكة هو القنوط من رحمة الله تعالى قال أبو قلابة هو الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليس لى توبة فييأس من رحمة الله وينهمك فى المعاصى فنهاهم الله تعالى عن ذلك قال الله تعالى «إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) قوله عز وجل (وأتموا الحج والعمرة لله) قرأ علقمة وإبراهيم النخعى وأقيموا الحج والعمرة لله واختلفوا فى إتمامهما فقال بعضهم هو أن يتمهما بمناسكهما وحدودهما وسننهما وهو قول ابن عباس وعلقمة وإبراهيم النخعى ومجاهد. وأركان الحج خمسة الإحرام والوقوف بعرفة وطواف الزيارة والسعى بين الصفا والمروة وحلق الرأس أو التقصير. وللحج تحللان وأسباب التحلل ثلاثة رمى جمرة العقبة يوم النحر وطواف الزيارة والحلق فإذا وجد شيئان من هذه الأشياء الثلاثة حصل التحلل الأول، وبالثلاث حصل التحلل الثانى، وبعد التحلل الأول يستبيح جميع محظورات الإحرام إلا النساء وبعد الثانى يستبيح الكل. وأركان العمرة أربعة: الإحرام والطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة والحلق. قال سعيد بن جبير وطاوس تمام الحج والعمرة أن تحرم بهما مفردين مستأنفين من دويرة أهلك وسئل على بن أبي طالب عن قوله تعالى «وأتموا الحج والعمرة لله» قال أن تحرم بهما من دويرة أهلك ومثله عن ابن مسعود قال قتادة تمام العمرة أن تعتمر فى غير أشهر الحج فان كانت فى أشهر الحج ثم أقام حتى حج فهى تمتعه وعليه فيها. الهدى إن وجده أو الصيام إن لم يجد الهدى، وتمام الحج أن يؤتى بمناسكه كلها حتى لايلزمه عما ترك دم بسبب قران ولا متعة. وقال الضحاك إتمامهما أن تكون النفقة حلالا وينتهى عما نهى الله عنه وقال سفيان الثورى إتمامهما أن تخرج من أهلك لهما ولا تخرج لتجارة ولا لحاجة أخري. قال عمر بن الخطاب الوفد كثير والحاج قليل، واتفقت الأمة على وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلا

(١٧٢)

الإلقاء إلى التهلكة هو أن يقنط من رحمة الله وهو أن الرجل يصيب الذنب فيقول قد هلكت ليس لي توبة فييأس من رحمة الله وينهمك على المعاصى فهو القنوط فنهى الله عن ذلك وقيل فى معنى الآية أنفقوا فى سبيل الله ولا تقولوا إنا نخاف الفقر إن أنفقنا فنهلك فنهوا أن يجعلوا أنفسهم هالكين بالإنفاق (خ) عن حذيفة قال أنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة قال نزلت فى النفقة (وأحسنوا) أى بالإنفاق على من تلزمكم مؤنته ونفقته وقيل أحسنوا فى الإنفاق ولا تسرفوا ولا تقتروا، نهوا عن الإسراف والاقتار فى الإنفاق وقيل معناه وأحسنوا فى أداء فرائض الله تعالى (إن الله يحب المحسنين) أى يثيبهم على إحسانهم. قوله عز وجل (وأتموا الحج والعمرة لله) قال ابن عباس وهو أن يتمهما بمناسكهما وحدودهما وسننهما وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك وقيل هو أن تفرد لكل واحد منهما سفرا وقيل إتمامهما أن تكون النفقة حلالا وتنتهى عما نهى الله عنه. وقيل إتمامهما أن تخرج من أهلك لهما لا للتجارة ولا لحاجة. وقيل إذا شرع فيهما وجب عليه الإتمام.

(فصل): واتفقت الأمة على وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلا (م) عن أبى هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا، فقال رجل أفى كل عام يارسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله ﷺ لو قلت نعم لوجب ولما استطعتم» وفى وجوب العمرة قولان للشافعى أصحهما أنها واجبة وهو قول على وابن عمر وابن عباس والحسن وابن سيرين وعطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومجاهد وإليه ذهب أحمد بن حنبل، والقول الثانى أنها سنة ويروى ذلك عن ابن مسعود وجابر وإبراهيم والشعبي وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة. حجة من أوجب العمرة ماروى فى حديث الضبى بن معبد أنه قال لعمر بن الخطاب إنى وجدت الحج والعمرة مكتوبين على وإنى أهللت بهما فقال أهديت لسنة نبيك محمد ﷺ أخرجه أبو داود والنسائى بأطول من هذا وجه الدليل أنه أخبر عن وجوبهما عليه وصوبه عمر وبين أنه مهتد بما رآه فى وجوبهما عليه لسنة النبى صلى الله عليه وسلم. وروى عن ابن عباس أنها كقرينها فى كتاب الله «وأتموا الحج والعمرة لله» وعن ابن عمر قال «الحج والعمرة فريضتان» وعنه «ليس أحد من خلق الله إلا وعليه حجة وعمرة واجبتان من

واختلفوا فى وجوب العمرة فذهب أكثر أهل العلم إلى وجوبها وهو قول عمر وعلى وابن عمر وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال والله أن العمرة لقرينة الحج فى كتاب الله «وأتموا الحج والعمرة لله» وبه قال عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وقتادة وسعيد بن جبير وإليه ذهب الثورى والشافعى فى أصح قوليه وذهب قوم إلى أنها سنة وهو قول جابر ، وبه قال الشعبى وإليه ذهب مالك وأهل العراق وتأولوا قوله تعالى «وأتموا الحج والعمرة لله» على معنى أتموهما إذا دخلتم فيهما أما ابتداء الشروع فيها فتطوع واحتج من لم يوجبها بما روى عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه سئل عن العمرة أواجبة هى فقال لا وأن تعتمروا خير لكم والقول الأول أصح ومعنى قوله «وأتموا الحج والعمرة لله » أى ابتدئوهما فاذا دخلتم فيهما

فأتموهما ، فهو أمر بالإبداء والإتمام أى أقيموهما كقوله تعالى «ثم أتموا الصيام إلى الليل» أى ابتدئوه وأتموه. أخبرنا عبد الواحد المليحى أخبرنا أبو منصور السمعانى أخبرنا أبو جعفر الزيانى أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا ابن أبى شيبة أخبرنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس عن عاصم عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «تابعوا بين الحج والعمرة فانهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحج المبرور جزاء إلا الجنة» وقال ابن عمر «ليس من خلق الله أحد إلا وعليه حجة وعمرة واجبتان إن استطاع إلى ذلك سبيلا كما قال الله تعالى « وأتموا الحج والعمرة لله » فمن زاد بعد ذلك فهو خير وتطوع » . واتفقت الأمة على أنه يجوز أداء الحج والعمرة على ثلاثة أوجه : الإفراد والتمتع والقران فصورة الإفراد أن يفرد الحج ثم بعد الفراغ منه يعتمر وصورة التمتع أن يعتمر فى أشهر الحج ثم بعد الفراغ من أعمال العمرة يحرم بالحج من مكة فيحج فى هذا العام وصورة القران أن يحرم بالحج والعمرة معا ، أو يحرم بالعمرة ثم يدخل عليها الحج قبل أن يفتتح الطواف فيصير قارنا ؛ واختلفوا فى الأفضل من هذه الوجوه فذهب جماعة إلى أن الإفراد أفضل ثم التمتع ثم القران وهو قول مالك والشافعى لما أخبرنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن أبى الأسود محمد ابن عبد الرحمن بن نوفل عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين ، أنها قالت «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام

من استطاع إلى ذلك سبيلا» وعن ابن عباس قال «العمرة واجبة كوجوب الحج» وعن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تابعوا بين الحج والعمرة فانهم ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة» أخرجه النسائى والترمذى وزاد « ومامن مؤمن يظل يومه محرما إلا غابت الشمس بذنوبه» وقال حديث حسن صحيح. وجه الدليل أنه أمر بالمتابعة بين الحج والعمرة والأمر للوجوب ولأنها قد نظمت مع الحج فى الأمر بالإتمام فكانت واجبة كالحج ، وحجة من قال بأنها سنة ماروى عن جابر قال «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العمرة أواجبة هى؟ قال لا وأن تعتمروا خير لكم» أخرجه الترمذى . وأجيب عنه بأن هذا الحديث يرويه حجاج بن أرطاة وحجاج ليس ممن يقبل منه ماتفرد به لسوء حفظه وقلة مراعاته لما يحدث به واجتمعت الأمة على جواز أداء الحج والعمرة على ثلاثة أنواع إفراد وتمتع وقران فصورة الإفراد أن يحج ثم بعد فراغه منه يعتمر من أدنى الحل أو يعتمر قبل أشهر الحج ثم يحج فى تلك السنة . وصورة التمتع أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج ويأتى بأعمالها فاذا فرغ من أعمالها أحرم بالحج من مكة فى تلك السنة وإنما سمى تمتعا لأنه يستمتع بمحظورات الإحرام بعد التحلل من العمرة إلى أن يحرم بالحج. وصورة القرآن أن يحرم بالحج والعمرة معا فى أشهر الحج فينويهما بقلبه وكذلك لو أحرم بالعمرة فى أشهر الحج ثم أدخل عليها الحج قبل أن يفتتح الطواف فيصير قارنا . واختلفوا فى الأفضل فذهب مالك والشافعى إلى أن الإفراد أفضل ثم التمتع ثم القران يدل عليه ماروى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرد الحج ، أخرجه مسلم وله عن ابن عمر قال أهللنا مع رسول الله ﷺ الحج مفردا وفى رواية إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل بالحج مفردا ، وله عن جابر قال قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نصرخ بالحج صراخا. وعن ابن عمر قال افصلوا بين حجكم وعمرتكم فان ذلك أتم لحج أحدكم وأتم لعمرته أن يعتمر فى غير أشهر الحج أخرجه مالك فى الموطأ وذهب الثورى وأبو حنيفة إلى أن القران أفضل يدل عليه ماروى عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبى بالحج والعمرة جميعا وفى رواية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لبيك عمرة وحجا أخرجاه فى الصحيحين وذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه إلى أن

حجة الوداع فمنا من أهل بعمرة ومنا من أهل بحج وعمرة ومنا من أهل بحج وأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج فأما من أهل بالعمرة فحل وأما من أهل بالحج أو جمع بين الحج والعمرة فلن يحلوا حتى كان يوم النحر» أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر وهو يحدث عن حجة النبي صلى الله عليه وسلم «قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لاننوي إلا الحج ولا نعرف غيره ولا نعرف العمرة» وروي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم أفرد الحج، وذهب قوم إلى أن القران أفضل (١٧٤) وهو قول الثوري وأصحاب الرأي واحتجوا بما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم أخبرنا محمد بن هشام ابن ملا بن النميري أخبرنا مروان بن معاوية الفزاري أخبرنا حميد قال أنس ابن مالك أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لبيك بحجة وعمرة. وذهب قوم إلى أن التمتع أفضل وهو قول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه واحتجوا بما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا يحيى بن بكير أخبرنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر قال «تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج فتمتع الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم بالعمرة إلى الحج فكان من الناس من أهدى فساق الهدي، ومنهم من لم يهد فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة قال للناس من كان منكم أهدى فإنه لا يحل من شيء حرم منه حتى يقضي حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت ويسع بين الصفا والمروة ويقصر وليحلل ثم ليهل بالحج فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله فطاف حين قدم مكة واستلم الركن أول شيء ثم خب ثلاثة أشواط ومشى أربعا فركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين ثم سلم فانصرف فأتى الصفا فطاف بالصفا والمروة سبعة أشواط، ثم لم يتحلل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ونحر هديه يوم النحر وأفاض فطاف

بنى

التمتع أفضل يدل عليه ماروى عن ابن عباس قال «تمتع رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان فأول من نهى عنهما معاوية» أخرجه الترمذي (ق) عن ابن عمر قال تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج وتمتع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة إلى الحج وكان من الناس من أهدى ومنهم لم يهدى فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قال للناس من كان منكم أهدى فانه لايحل من شيء حرم منه حتى يقضي حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت والصفا والمروة وليقصر وليتحلل ثم ليهل بالحج وليهد فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله وطاف رسول الله ﷺ حين قدم مكة فاستلم الركن أول شيء ثم خب ثلاثة أطواف من السبع ومشى أربعة أطواف ثم ركع حين قضى طوافه بالبيت عند المقام ركعتين ثم سلم فانصرف فأتى الصفا فطاف بالصفا والمروة سبعة أشواط ثم لم يحل من شيء حرم منه حتى قضى حجه ونحر هديه يوم النحر وأفاض وطاف بالبيت ثم حل من كل شيء حرم منه وفعل مثل مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهدى فساق الهدي من الناس». اختلفت الروايات في حجة النبي صلى الله عليه وسلم هل كان مفردا أو متمتعا أو قارنا؟ وهي ثلاثة أقوال للعلماء بحسب مذاهبهم السابقة ورجحت كل طائفة نوعا وادعت أن حجة النبي صلى الله عليه وسلم كذلك وطريق الجمع بين روايات الصحابة واختلافهم في حجته ﷺ أنه كان أولا مفردا ثم إنه صلى الله عليه وسلم أحرم بالعمرة بعد ذلك وأدخلها على الحج فصار قارنا فمن روى أنه كان مفردا فهو الأصل ومن روى القرآن اعتمد آخر الأمر ومن روى التمتع أراد التمتع اللغوي وهو الانتفاع والارتفاق وقد ارتفق بالقران كارتفاق التمتع وزيادة وهو الاقتصار على فعل واحد، وبهذا أمكن الجمع بين الأحاديث المختلفة في صفة حجة الوداع وهو الصحيح وذكر الشافعي في كتاب اختلاف الحديث كلاما موجزا في ذلك فقال إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم المفرد والقارن والمتمتع وكل كان يأخذ منه أمر نسكه ويصدر عن تعليمه فأضيف الكل إليه على معنى أنه أمر به وأذن فيه ويجوز في لغة العرب إضافة الفعل إلى الأمر به كما تجوز إضافته إلى فاعله كما يقال

بالبيت ثم حل من كل شيء حرم منه وفعل مثل مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهدى وساق الهدى من الناس « وعن عروة عن عائشة رضى الله عنها « أخبرته عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تمتعه بالعمرة إلى الحج فتمتع الناس معه بمثل الذى أخبرنى سالم عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شيخنا الإمام رضى الله عنه قد اختلف الرواة فى إحرام النبى صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا وذكر الشافعى فى كتاب اختلاف الأحاديث كلاما موجزا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهم المفرد والقارن والمتمتع وكل كان يأخذ منه أمر نسكه ويصدر عن تعليمه فأضيف الكل إليه على معنى أنه أمر به وأذن فيه فيجوز فى لغة العرب إضافة الفعل إلى الآمر به كما يجوز إضافته إلى الفاعل له كما يقال بنى فلان دارا وأريد أنه أمر ببنائها وكما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم «رجم ماعزا» وإنما أمر برجمه، واختار الشافعى الإفراد لرواية جابر وعائشة وابن عمر وقدمها على رواية غيرهم لتقدم صحبة جابر النبى صلى الله عليه وسلم وحسن سياقه لابتداء قصة حجة الوداع وآخرها ولفضل حفظ عائشة وقرب ابن عمر من النبى صلى الله عليه وسلم . وقال الشافعى فى اختلاف الأحاديث إلى التمتع وقال ليس شيء من الاختلاف أيسر من هذا وإن كان الغلط فيه قبيحا من جهة أنه مباح لأن الكتاب ثم السنة ثم مالا أعلم فيه خلافا يدل على أن التمتع بالعمرة إلى الحج وإفراد الحج والقران واسع كله أى التمتع والإفراد والقران وقال من قال إنه أفرد الحج يشبه أن يكون قاله على مايعرف من أهل العلم الذين أدركوا دور رسول الله ﷺ أن أحدا لا يكون مقيما على الحج إلا وقد ابتدأ إحرامه بالحج. قال شيخنا الإمام ومما يدل على أنه كان متمتعا أن الرواية عن ابن عمر وعائشة متعارضة وقد روينا عن ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر قال تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج ، وقال ابن شهاب عن عروة إن عائشة أخبرته عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تمتعه بالعمرة إلى الحج فتمتع الناس معه بمثل الذى أخبرنى سالم عن ابن عمر وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذه عمرة استمتعنا بها» وقال سعد بن أبى وقاص فى المتعة صنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصنعناها معه قال شيخنا الامام وما روى عن جابر أنه قال خرجنا لاننوى إلا الحج لاينافى التمتع لأن خروجهم كان لقصد الحج ثم منهم من قدم العمرة ومنهم من أهل بالحج إلى أن أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعله متعة . قوله تعالى (فان أحصرتم) اختلف العلماء فى الإحصار

بنى فلان داره وأريد به أنه أمر ببنائها وكما يروى « أن النبى صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا » وإنما أمر برجمه واختار الشافعى الإفراد واحتج فى ترجيحه بأنه صح ذلك من رواية جابر وابن عمر وابن عباس وعائشة وهؤلاء لهم مزية فى حجة الوداع على غيرهم فأما جابر فهو أحسن الصحابة سياقة لرواية حديث حجة الوداع فانه ذكرها من حين خرج النبى صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى آخرها فهو أضبط لها من غيره وأما ابن عمر فصح عنه أنه كان آخذا بخطام ناقة النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وإنما سمعه يلبى بالحج وأما ابن عباس فمحله من العلم والفقه والدين معروف مع كثرة بحثه عن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما عائشة فقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم معروف واطلاعها على باطن أمره وظاهره مع كثرة فقهها وعلمها، ومن دلائل ترجيح الإفراد أن الخلفاء الراشدين أفردوا الحج بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وواظبوا عليه. وأركان الحج خمسة الإحرام والوقوف بعرفة والطواف والسعي بين الصفا والمروة وحلق الرأس أو التقصير فى أصح القولين . وأركان العمرة أربعة : الإحرام والطواف والسعي والحلق أو التقصير وبهذه الأركان تمام الحج والعمرة . قوله تعالى (فان أحصرتم) أصل الحصر فى اللغة الحبس والتضييق ثم اختلف أهل اللغة فى الحصر والاحصار فقيل إذا رد الرجل عن وجه يريده فقد أحصر، وإذا حبس فقد حصر وقال ابن السكيت أحصره المرض إذا منعه من السفر أو حاجة يريدها وحصره العدو إذا ضيق عليه . وقال الزجاج الرواية عن أهل اللغة يقال للذى يمنعه الخوف أو المرض أحصر والمحبوس حصر . وقال ابن قتيبة فى قوله « فان أحصرتم »هو أن يعرض للرجل مايحول بينه وبين الحج من مرض أو كسر أو عدو يقال أحصر فهو محصر فان حبس فى دار أو سجن قيل حصر فهو محصور وذهب قوم إلى أنهما بمعنى واحد قال الزجاج يقال الرجل من حصرك هنا ومن أحصرك وقال أحمد بن يحيى أصل الحصر والإحصار الحبس وحصر فى الحبس أقوى من أحصر وقيل الإحصار يقال فى المنع الظاهر كالعدو والمنع الباطن كالمرض والحصر لا يقال إلا فى المنع الباطن. وأما قوله فان أحصرتم فمحمول على الأمرين وبحسب اختلاف أهل اللغة فى معناها اختلف الفقهاء فى حكمها فذهب قوم إلى أن كل مانع من عدو أو مرض

الذى يبيح للمحرم التحلل من إحرامه فذهب جماعة إلى أن كل مانع يمنعه عن الوصول إلى البيت الحرام والمضى فى إحرامه من عدو أو مرض أو جرح أو ذهاب نفقة أوضلال راحلة يبيح له التحلل. وبه قال ابن مسعود وهو قول إبراهيم النخعى والحسن ومجاهد وعطاء وقتادة وعروة بن الزبير. وإليه ذهب سفيان الثورى وأهل العراق وقالوا إن الإحصار فى كلام العرب هو حبس العلة أو المرض وقال الكسائى وأبو عبيدة ما كان من مرض أو ذهاب نفقة يقال منه أحصر فهو محصر وما كان من حبس عدو أو سجن يقال منه حصر فهو محصور إنما جعل ههنا حبس العدو إحصارا قياسا على المرض إذ كان فى معناه واحتجوا بما روي عن عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كسر أو عرج فقد حل وعليه الحج من قابل . قال عكرمة فسألت ابن عباس وأبا هريرة فقالا صدق وذهب جماعة إلى أنه لا يباح له التحلل إلا بحبس العدو وهو قول ابن عباس وقال لا حصر إلا حصر العدو. وروى معناه عن ابن عمر وعبدالله بن الزبير وهو قول سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وإليه ذهب

الشافعى وأحمد وإسحاق وقالوا الحصر والإحصار بمعنى واحد وقال ثعلب تقول العرب: حصرت الرجل عن حاجته فهو محصور وأحصره العدو إذا منعه عن السير فهو محصر واحتجوا بأن نزول هذه الآية فى قصة الحديبية وكان ذلك حبسا من جهة العدو ويدل عليه قوله تعالى فى سياق الآية «فاذا أمنتم» والأمن يكون من الخوف وضعفوا حديث الحجاج بن عمرو بما ثبت عن ابن عباس أنه قال لا حصر إلا حصر العدو وتأوله بعضهم على أنه إنما يحل بالكسر والعرج إذا كان قد شرط ذلك فى عقد الإحرام كما روى أن ضباعة بنت الزبير كانت وجعة فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم «حجى واشترطى وقولى اللهم محلى حيث حبستنى» ثم المحصر يتحلل بذبح الهدى وحلق الرأس والهدى بشاة وهو المراد من قوله تعالى «فما استيسر من الهدى» ومحل ذبحه حيث أحصر عند أكثر أهل العلم لأن النبى صلى الله عليه وسلم ذبح الهدى عام الحديبية بها وذهب قوم إلى أن المحصر يقيم على إحرامه ويبعث بهديه إلى الحرم ويواعد من يذبحه هناك ثم يحل وهو قول أهل العراق واختلف القول فى المحصر إذا لم يجد هديا ففى قول لابدل له فيتحلل والهدى فى ذمته إلى أن يجده والقول الثانى له بدل فعلى هذا اختلف القول فيه ففى قول عليه صوم التمتع وفى قول تقوم الشاة بدراهم ويجعل الدراهم طعاما فيتصدق به فان عجز عن الإطعام صام عن كل مد من الطعام يوما كما فى فدية الطيب واللبس فان المحرم إذا احتاج إلى ستر رأسه لحر أو برد أو إلى لبس قميص أو مرض فاحتاج إلى مداواته بدواء فيه طيب فعل وعليه الفدية وفديته على الترتيب والتعديل ؛ فعليه ذبح شاة فان لم يجد يقوم الشاة بدراهم والدراهم يشترى بها طعاما فيتصدق به فان عجز صام عن كل مد يوما ، ثم المحصر إن كان إحرامه بفرض قد استقر عليه

أو ذهاب نفقة فانه يبيح له التحلل من إحرامه وهو قول عطاء ومجاهد وقتادة وهو مذهب أبى حنيفة ويدل عليه ماروى عن عكرمة قال حدثنى الحجاج بن عمرو قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كسر أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى» قال عكرمة فذكرت ذلك لأبى هريرة وابن عباس فقالا صدق أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى وقال حديث حسن وذهب قوم إلى أنه لا يباح له التحلل إلا بحبس العدو وهو قول ابن عمر وابن عباس وأنس وبه قال مالك والليث والشافعى وأحمد وقالوا الحصر والإحصار بمعنى واحد واحتجوا بأن نزول الآية كان فى قصة الحديبية فى سنة ست وكان ذلك حبسا من جهة العدو لأن كفار مكة منعوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الطواف بالبيت فنزلت هذه الآية فحل النبى صلى الله عليه وسلم من عمرته ونحر هديه وقضاها من قابل ويدل عليه أيضا سياق الآية وهو قوله «فاذا أمنتم» والأمن لا يكون إلا من خوف وثبت عن ابن عباس أنه قال لا حصر إلا حصر العدو فثبت بذلك أن المراد من الإحصار هو حصر العدو دون المرض وغيره . وأجيب عن حديث الحجاج بن عمرو بأنه محمول على من شرط التحلل بالمرض ونحوه حال إحرامه ويدل على جواز الاشتراط فى الإحرام ماروى عن ابن عباس أن ضباعة بنت الزبير أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله إنى أريد الحج أفاشترط قال نعم قالت كيف أقول ؟ قال قولى لبيك اللهم لبيك محلى من الأرض حيث تحبسنى أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ولغيره أن ضباعة بنت الزبير كانت وجعة فقال لها النبى ﷺ حجي واشترطي وقولى اللهم محلى حيث حبستنى فذهب الشافعي وأحمد وإسحق إذا اشترط فى الحج فعرض له مرض أو عذر أن يتحلل ويخرج من

فذلك الفرض في ذمته وإن كان بحج تطوع فهل عليه القضاء ؟ اختلفوا فيه فذهب جماعة إلى أنه لاقضاء عليه وهو قول مالك والشافعي وذهب قوم إلى أن عليه القضاء وهو قول مجاهد والشعبي والنخعي وأصحاب الرأي قوله تعالى (فما استيسر من الهدى) أي فعليه ما تيسر من الهدى ومحله رفع وقيل ما في محل النصب أي فاهدوا ما استيسر والهدى جمع هدية وهي اسم لكل ما يهدى إلى بيت الله تقربا إليه وما استيسر من الهدى شاة قاله علي بن أبي طالب وابن عباس لأنه أقرب إلى اليسر وقال الحسن وقتادة أعلاه بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة . قوله تعالى (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) اختلفوا في المحل الذي يحل المحصر ببلوغ هديه إليه فقال بعضهم هو ذبحه بالموضع الذي أحصر فيه سواء كان في الحل أو في الحرم ومعنى محله حيث يحل ذبحه فيه ، أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن محمد أخبرنا عبدالرزاق أخبرنا معمر أخبرني الزهري أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة في قصة الحديبية ، قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا فوالله ماقام رجل منهم حتى قال ذلك ثلاث مرات فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها مالقي من الناس فقالت أم سلمة يانبي الله أتحب ذلك أخرج ثم لاتكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا أي ازدحاما غما . وقال بعضهم محل هدى المحصر الحرم فان كان حاجا فمحله يوم النحر وإن كان معتمرا فمحله يوم يبلغ هديه الحرم . قوله تعالى (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه) معناه لاتحلقوا رءوسكم في حال الإحرام إلا أن تضطروا إلى حلقه لمرض أو لأذى في الرأس من هوام أو صداع (ففدية) فيه إضمار أي فحلق فعليه فدية نزلت في كعب بن عجرة ، أنا أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا الحسن بن خلف أخبرنا إسحاق بن يوسف عن أبي بشر ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال حدثني عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه وقمله يسقط على وجهه فقال « أيؤذيك هوامك؟ قال نعم فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلق وهو بالحديبية ولم يبين لهم أنهم يحلون بها وهم على طمع أن يدخلوا مكة

من إحرامه ثم المحصر يتحلل بذبح الهدى وحلق الرأس وهو المراد من قوله تعالى (فما استيسر من الهدى) ومعنى الآية فان أحصرتم دون تمام الحج أو العمرة فحللتم فعليكم ما استيسر من الهدى. والهدى ما يهدى إلى البيت وأعلاه بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة قال ابن عباس شاة لأنه أقرب إلى اليسر . ومحل ذبح هدى المحصر حيث أحصر وإليه ذهب الشافعي لأن النبي صلى الله عليه وسلم ذبح الهدى عام الحديبية بها وذهب أبو حنيفة إلى أنه يقيم على إحرامه ويبعث بهديه إلى الحرم ويواعد من يذبحه هناك ثم يحل في ذلك الوقت (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) أي مكانه الذي يجب أن يذبح فيه ، وفيه قولان أحدهما أنه الحرم فان كان حاجا فمحله يوم النحر وإن كان معتمرا فمحله يوم يبلغ هديه إلى الحرم وهو قول أبي حنيفة والقول الثاني محل ذبحه حيث أحصر سواء كان في الحل أو في الحرم ، ومعنى محله يعني حيث يحل ذبحه وأكله وهو قول مالك والشافعي وأحمد ويدل عليه ماروى عن ابن عمر قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمرين فحال كفار قريش دون البيت فنحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلق رأسه أخرجه البخاري . قوله عز وجل (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه) معناه ولا تحلقوا رءوسكم في حال الإحرام إلا أن تضطروا إلى حلقه لمرض أو أذى وهو القمل أو الصداع (ففدية) فيه إضمار تقديره فحلق رأسه فعليه فدية . نزلت هذه الآية في كعب بن عجرة (ق) عن كعب بن عجرة قال أتى علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أوقد تحت قدر لي والقمل يتناثر على وجهي فقال أيؤذيك هوام رأسك؟ قال قلت نعم قال فاحلق وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة لا أدري بأي ذلك بدأ وفي رواية قال نزلت هذه الآية «فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك» وذكر نحوه وفي أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم وذكره ، وفي أخرى أن النبي ﷺ قال له ما كنت أرى أن الوجع بلغ منك ماأرى أو ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك ماأرى أتجد شاة قلت لا قال فصم ثلاثة أيام أو أطعم

فأنزل الله الفدية فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطعم فرقا بين ستة مساكين أو يهدى شاة أو يصوم ثلاثة أيام. قوله تعالى ففدية (من صيام) أى ثلاثة أيام (أو صدقة) أى ثلاثة آصع على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع (أو نسك) واحدتها نسيكة أى ذبيحة أعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة أيتها شاء ذبح ؛ فهذه الفدية على التخيير والتقدير ويتخير بين أن يذبح أو يصوم أو يتصدق وكل هدى أو طعام يلزم المحرم يكون بمكة ويتصدق به على مساكين الحرم إلا هديا يلزم المحصر فانه يذبحه حيث أحصر وأما الصوم فله أن يصوم حيث شاء. قوله تعالى (فاذا أمنتم) أى من خوفكم وبرأتم من مرضكم (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) اختلفوا فى هذه المتعة فذهب عبد الله بن الزبير إلى أن معناه فمن أحصر حتى فاته الحج ولم يتحلل فقدم مكة يخرج من إحرام بعمل عمرة واستمتع باحلاله ذلك فتلك العمرة إلى السنة المقبلة ثم حج فيكون متمتعا بذلك الإحلال إلى إحرامه الثانى فى العام القابل. وقال بعضهم معناه فاذا أمنتم وقد حللتم من إحرامكم بعد الإحصار ولم تقضوا عمرتكم وأخرتم العمرة إلى السنة القابلة فاعتمرتم فى أشهر الحج ثم حللتم فاستمتعتم باحلالكم إلى الحج ثم أحرمتم بالحج فعليكم ما استيسر من الهدى، وهو قول علقمة وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير. وقال ابن عباس وعطاء وجماعة هو الرجل يقدم معتمرا من أفق من الآفاق فى أشهر الحج فقضى عمرته وأقام حلالا بمكة حتى أنشأ منها الحج فحج من عامه ذلك فيكون مستمتعا بالإحلال من العمرة إلى إحرامه بالحج فمعنى التمتع هو الاستمتاع بعد الخروج من العمرة بما كان محظورا عليه فى الإحرام يوما إلى إحرامه بالحج. ولوجوب هدى التمتع أربع شرائط: أحدها أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج. والثانى أن يحج بعد الفراغ من العمرة فى هذه السنة. الثالث أن يحرم بالحج فى مكة ولا يعود إلى الميقات لإحرامه. الرابع أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام فمتى وجدت هذه الشرائط فعليه ما استيسر من الهدى، وهو دم شاة ويذبحها يوم النحر فلو ذبحها قبله بعد ما أحرم بالحج يجوز عند بعض أهل العلم كدماء الجنايات وذهب بعضهم إلى أنه لا يجوز قبل يوم النحر كدم الأضحية. قوله تعالى (فمن لم يجد) الهدى (فصيام ثلاثة أيام فى الحج) أى صوموا ثلاثة أيام يصوم يوما قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة ولو صام قبله بعد ما أحرم بالحج جاز ولا يجوز يوم النحر ولا أيام التشريق عند أكثر أهل العلم وذهب بعضهم إلى جواز صوم الثلاثة فى أيام التشريق يروى ذلك

ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع» قال كعب فنزلت فى خاصة وهى لكم عامة ومعنى قوله تعالى ففدية (من صيام) أى صوم ثلاثة أيام (أو صدقة) يعنى إطعام ثلاثة أصوع ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع (أو نسك) واحدتها نسيكة أى ذبيحة وأعلاها بدنة وأوسطها بقرة وأدناها شاة وهذه الفدية على التخيير إن شاء ذبح أو صام أو تصدق وكل هدى أو طعام يلزم المحرم فانه لمساكين الحرم إلا هدى المحصر فانه يذبحه حيث أحصر. وأما الصوم فله أن يصوم حيث شاء. قوله تعالى (فاذا أمنتم) يعنى من خوفكم وبرأتم من مرضكم وقيل إذا أمنتم من الإحصار (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج) قال ابن الزبير معناه فمن أحصر حتى فاته الحج ولم يتحلل فقدم مكة فخرج من إحرامه بعمل عمرة فاستمتع باحلاله ذلك بتلك العمرة إلى السنة المستقبلة ثم حج فيكون متمتعا بذلك الإحلال إلى إحرامه الثانى فى العام المقبل وقيل معناه فاذا أمنتم وقد أحللتم من إحرامكم بعد الإحصار ولم تعتمروا فى تلك السنة ثم اعتمرتم فى السنة القابلة فى أشهر الحج ثم أحللتم فاستمتعتم باحلالكم إلى الحج ثم أحرمتم بالحج فعليكم ما استيسر من الهدى وقال ابن عباس هو الرجل يقدم معتمرا من أفق الآفاق فى أشهر الحج فقضى عمرته وأقام بمكة حلالا حتى أنشأ منها الحج فحج من عامه ذلك فيكون مستمتعا بالإحلال عن العمرة إلى إحرامه بالحج. ومعنى التمتع فى اللغة هو الاستمتاع بعد الخروج من العمرة والتلذذ بما كان محظورا عليه فى حال الإحرام إلى إحرامه بالحج (فما استيسر من الهدى) يعنى فعليه ما استيسر من الهدى وهو شاة يذبحها يوم النحر فلو ذبح قبله بعد ما أحرم بالحج أجزأه عند الشافعى كدم الجبرانات ولا يجزئه ذبحه عند أبى حنيفة قبل يوم النحر كدم الأضحية. ولوجوب دم التمتع خمس شرائط: أحدها أن يقدم العمرة على الحج الثانى أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج الثالث أن يحج بعد الفراغ من العمرة فى هذه السنة الرابع أن يحرم بالحج من مكة ولا يعود إلى ميقات بلده فان رجع إلى الميقات وأحرم منه لم يكن متمتعا الخامس أن لا يكون من حاضرى المسجد الحرام فهذه الشروط معتبرة فى وجوب دم التمتع ومتى فقد شىء منها لم يكن متمتعا ودم التمتع دم جبران عند الشافعى فلا يجوز أن يأكل منه وقال أبو حنيفة هو دم نسك فيجوز أن يأكل منه وقوله (فمن لم يجد) يعنى الهدى (فصيام ثلاثة أيام فى الحج) أى فعليه صيام ثلاثة أيام فى وقت اشتغاله بالحج قيل يصوم

عن عائشة وابن عمر وابن الزبير وهو قول مالك والأوزاعى وأحمد وإسحاق. قوله تعالى (وسبعة إذا رجعتم) أى صوموا سبعة أيام إذا رجعتم إلى أهليكم وبلدكم فلو صام السبعة قبل الرجوع إلى أهله لا يجوز وهو قول أكثر أهل العلم روى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وقيل يجوز أن يصومها بعد الفراغ من أعمال الحج وهو المراد من الرجوع المذكور فى الآية. قوله تعالى (تلك عشرة كاملة) ذكرها على وجه التأكيد وهذا لأن العرب ما كانوا يهتدون إلى الحساب فكانوا يحتاجون إلى فضل شرح وزيادة بيان وقيل فيه تقديم وتأخير يعنى فصيام عشرة أيام ثلاثة فى الحج وسبعة إذا رجعتم فهى عشرة كاملة وقيل كاملة فى الثواب والأجر وقيل كاملة فيما أريد به من إقامة الصوم بدل الهدى وقيل كاملة بشروطها وحدودها وقيل لفظه خبر ومعناه أمر أى فأكملوها ولا تنقصوها (ذلك) أى هذا الحكم (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) (١٧٩) واختلفوا فى حاضرى المسجد الحرام فذهب قوم إلى أنهم أهل مكة وهو قول مالك، وقيل هم أهل الحرم وبه قال طاوس وقال ابن جريج أهل عرفة والرجيع وضجنان وقال الشافعى كل من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر فهو من حاضرى المسجد الحرام. وقال عكرمة هم من دون الميقات وقيل هم أهل الميقات فما دونه وهو قول أصحاب الرأى ودم القران كدم التمتع والمكى إذا قرن أو تمتع فلا هدى عليه قال عكرمة سئل ابن عباس عن متعة الحج فقال أهل المهاجرون والأنصار وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وأهللنا فلما قدمنا مكة قال رسول الله ﷺ اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلد الهدى فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج فاذا فرغنا فقد تم حجنا وعلينا الهدى فجمعوا بين نسكين فى عام بين الحج والعمرة فانه الله أنزل فى كتابه وسنة نبيه وأباحه للناس من غير أهل مكة قال الله تعالى «ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام» ومن فاته الحج وفواته يكون بفوات الوقوف بعرفة حتى يطلع الفجر يوم النحر فانه يتحلل بعمل العمرة وعليه القضاء من قابل والفدية وهى على الترتيب والتقدير كفدية التمتع والقران. أخبرنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن سليمان بن يسار أن هناد بن الأسود جاء يوم النحر وعمر ابن الخطاب ينحر هديه فقال يا أمير المؤمنين أخطأنا العدد كنا نظن أن هذا اليوم يوم عرفة فقال له عمر اذهب إلى مكة فطف أنت ومن معك بالبيت واسعوا بين الصفا والمروة وانحروا هديا إن كان معكم ثم احلقوا وقصروا ثم ارجعوا فاذا كان العام

يوما قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة وقيل بل المستحب أن يصوم فى أيام الحج بحيث يكون يوم عرفة مفطرا فان لم يصم قبل يوم النحر فقيل يصوم أيام التشريق وبه قال مالك وأحمد وهو أحد قولى الشافعى وقيل بل يصوم بعد أيام التشريق وهو رواية عن أحمد والقول الآخر للشافعى (وسبعة إذا رجعتم) يعنى وصوموا سبعة أيام إذا رجعتم إلى أوطانكم وأهليكم قاله ابن عباس وبه قال الشافعى فلو صام قبل الرجوع إلى أهله لم يجزه عنده وقيل المراد من الرجوع هو الفراغ من أعمال الحج والأخذ فى الرجوع فعلى هذا يجزئه أن يصوم السبعة أيام بعد الفراغ من أعمال الحج وقبل الرجوع إلى أهله وبه قال أبو حنيفة (تلك عشرة كاملة) يعنى فى الثواب والأجر وقيل كاملة فى قيامها مقام الهدى لأنه قد يحتمل أن يظن ظان أن الثلاثة قد قامت مقام الهدى فاعلم الله أن العشرة بكمالها هى القائمة مقام الهدى وقيل فائدة التكرار التوكيد كقول الفرزدق:

ثلاث واثنتان فهن خمس ... وسادسة تميل إلى سهام

ولأن القرآن أنزل بلغة العرب والعرب تكرر الشىء تريد به التوكيد وقيل فائدة ذلك الفذلكة فى علم الحساب وهو أن يعلم العدد مفصلا ثم يعلمه جملة ليحتاط به من جهتين فكذلك قوله تعالى «فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة» وقيل أن العرب لما كانوا لا يعلمون الحساب وكانوا يحتاجون إلى زيادة بيان وإيضاح فلذلك قال تلك عشرة كاملة وقيل لفظه خبر ومعناه أمر أى أكملوها ولا تنقصوها (ذلك) أى هذا الحكم الذى تقدم (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) قيل حاضرو المسجد الحرام هم أهل مكة وهو قول مالك وقيل هم أهل الحرم وبه قال طاوس وقال ابن جريج هم أهل عرفة والرجيع وضجنان ونخلة وقال الشافعى كل من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر فهو من حاضرى المسجد الحرام وقيل هم من دون الميقات وقال أبو حنيفة حاضرو المسجد الحرام أهل الميقات والمواقيت ذو الحليفة والجحفة وقرن ويلملم وذات عرق فمن كان من أهل هذه المواضع فما دونها إلى مكة فهو من حاضرى المسجد الحرام. وقيل حاضرو المسجد الحرام من تلزمه الجمعة فيه ومعنى الآية

أن المشار إليه فى قوله «ذلك» يرجع إلى أقرب مذكور وهو لزوم الهدى أو بدله على المتمتع وهو الآفاقى فأما المكى إذا تمتع أو قرن فلا هدى عليه ولا بدله لأنه لايجب عليه أن يحرم من الميقات فاقدامه على التمتع لايوجب خللا فى حجه فلا يجب عليه الهدى ويدل على ذلك ماأخرجه البخارى تعليقا من حديث عكرمة قال سئل ابن عباس عن متعة الحج فقال أهل المهاجرون والأنصار وأزواج رسول الله ﷺ فى حجة الوداع وأهللنا فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلد الهدى فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب وقال من قلد الهدى فانه لايحل من شىء حتى يبلغ الهدى محله ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج فاذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وقد تم حجنا وعلينا الهدى كما قال تعالى فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم إلي أمصاركم والشاة تجزىء فجمعوا بين النسكين فى عام بين الحج والعمرة فان الله أنزله فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأباحه للناس من غير أهل مكة قال الله تعالي «ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام» وفى الحديث زيادة قال الحميدى قال أبومسعود الدمشقى هذا حديث غريب ولم أجده إلا عند مسلم بن الحجاج ولم يخرجه فى صحيحه من أجل عكرمة فانه لم يروعنه فى صحيحه. وعندى أن البخارى إنما أخذه من مسلم. وقوله تعالى (واتقوا الله) أى فيما فرضه عليكم ونهاكم عنه فى الحج وفى غيره (واعلموا أن الله شديد العقاب) يعنى لمن خالف أمره وتهاون بحدوده وارتكب مناهيه. قوله عز وجل (الحج أشهر معلومات) يعنى أشهر الحج أشهر معلومات وقيل وقت الحج أشهر معلومات وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة إلي طلوع الفجر من يوم النحر وبه قال عبد الله بن مسعود وجابر بن عبد الله وعبد الله بن الزبير ومن التابعين الحسن وابن سيرين والشعبى وهو قول الشافعى والثورى وأبى ثور وحجة الشافعى ومن وافقه أن الحج يفوت بطلوع الفجر الثانى من يوم النحر والعبادة لاتفوت مع بقاء وقتها فدل على أن يوم النحر ليس من أشهر الحج وأيضا فان الإحرام بالحج فيه لايجوز فدل على أنه وما بعده ليس من أشهر الحج. وقال ابن عباس أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشرة أيام من ذى الحجة آخرها يوم النحر وبه قال ابن عمر وعروة بن الزبير وطاوس وعطاء والنخعى وقتادة ومكحول والضحاك والسدى وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وهي إحدى الروايتين عن مالك وحجة هذا القول أن يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر ولأن فيه يقع طواف الإفاضة وهو تمام أركان الحج وقيل إن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله وهو رواية عن ابن عمر وبه قال الزهرى وهى الرواية الأخرى عن مالك وحجة هذا القول أن الله تعالى ذكر أشهر الحج بلفظ الجمع وأقل الجمع المطلق ثلاث ولأن كل شهر كان أوله من أشهر الحج كان آخره كذلك. فان قلت هنا إشكال. وهو أن الله تعالى قال قبل هذه الآية «يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج» فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج. قلت قوله هى مواقيت للناس والحج عام وهذه الآية وهى قوله تعالى «الحج أشهر معلومات» خاص والخاص مقدم على العام وقيل إن الآية الأولى مجملة وهذه الآية مفسرة لها. فان قلت إنما قال الحج أشهر بلفظ الجمع وعند الشافعي أشهر الحج شهران وعشر ليال وعند أبى حنيفة وعشرة أيام فما وجه هذا؟ قلت إن لفظ الجمع يشترك فيه ماوراء الواحد بدليل قوله تعالى فقد صغت

القابل فحجوا واهدوا فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع (واتقوا الله) فى أداء الأوامر (واعلموا أن الله شديد العقاب) على ارتكاب المناهى. قوله تعالي (الحج أشهر معلومات) أى وقت الحج أشهر معلومات وهى شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ويروى عن ابن عمر شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة وكل واحد من اللفظين صحيح غير مختلف فيه فمن قال عشر عبر به عن الليالى ومن قال تسع عبر به عن الأيام فان آخر أيامها يوم عرفة وهو يوم التاسع، وإنما قال أشهر بلفظ الجمع وهى شهران وبعض الثالث لأنها وقت والعرب تسمى الوقت تاما بقليله وكثيره فيقول أتيتك يوم الخميس وإنما أتاه فى ساعة منه ويقولون زرتك العام وإنما زاره فى بعضه وقيل الاثنان فما فوقهما جماعة لأن معنى الجمع ضم شىء إلى شىء فاذا جاز أن يسمى الاثنان جماعة جاز أن يسمى الاثنان وبعض الثالث جماعة وقد ذكر الله تعالى الاثنين بلفظ الجمع فقال «فقد صغت قلوبكما» أى قلباكما وقال عروة بن الزبير وغيره أراد بالأشهر

شوالا وذا القعدة وذا الحجة كمالا لأنه يبقى على الحاج أمور بعد عرفة يجب عليه فعلها مثل الرمى والذبح والحلق وطواف الزيارة والبيتوتة بمنى فكانت فى حكم الحج (فمن فرض فيهن الحج) أى فمن أوجب على نفسه الحج بالإحرام والتلبية وفيه دليل على أن من أحرم بالحج فى غير أشهر الحج لاينعقد إحرامه بالحج وهو قول ابن عباس وجابر وبه قال عطاء وطاوس ومجاهد وإليه ذهب الأوزاعى والشافعى وقال سعيد ينعقد إحرامه بالعمرة لأن الله تعالى خص هذه الأشهر بفرض الحج فيها فلو انعقد فى غيرها لم يكن لهذا التخصيص فائدة كما أنه علق الصلوات بالمواقيت ثم من أحرم بفرض الصلاة قبل دخول وقته لا ينعقد إحرامه عن الفرض وذهب جماعة إلى أنه ينعقد إحرامه بالحج وهو قول مالك والثورى وأبى حنيفة رضى الله عنه. وأما العمرة فجميع أيام السنة لها وقت إلا أن يكون متلبسا بالحج وروى عن أنس أنه كان بمكة فكان إذا حمم رأسه خرج فاعتمر. قوله تعالى (فلا رفث ولا فسوق) قرأ ابن كثير وأهل البصرة فلارفث ولافسوق بالرفع والتنوين فيهما وقرأ الآخرون بالنصب من غير تنوين كقوله تعالى «ولا جدال فى الحج» وقرأ أبوجعفر كلها بالرفع والتنوين واختلفوا فى الرفث قال ابن مسعود وابن عباس وابن عمر هو الجماع وهو قول الحسن ومجاهد وعمرو بن دينار وقتادة وعكرمة والربيع وإبراهيم النخعى وقال

قلوبكما» وقيل أنه نزل بعض الشهر منزلة كله كما يقال رأيتك سنة كذا وإنما رآه في ساعة منها ولا إشكال فيه على القول الثالث وهو قول من قال إن أشهر الحج ثلاث شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله (فمن فرض فيهن الحج) يعنى فمن الزم نفسه وأوجب عليها فيهن الحج والمراد بهذا الفرض مابه يصير حاجا وهو فعل يفعله ثم اختلفوا في ذلك الفعل فقال الشافعى ينعقد الإحرام بمجرد النية من غير حاجة إلى التلبية ووجهه أن فرض الحج عبارة عن النية فوجب أن تكون النية كافية في انعقاد الحج وقال أبوحنيفة لايصح الشروع في الإحرام بمجرد النية حتى تنضم إليه التلبية أوسوق الهدى ووجهه أن الحج عبادة لها تحليل وتحريم فلابد من انضمام شىء إلى النية كتكبيرة الإحرام مع النية في الصلاة ، وفى الآية دليل على أن الإحرام بالحج لاينعقد إلا فى أشهره وهو قول ابن عباس وإليه ذهب الشافعى وأحمد وإسحاق لأن الله تعالى خصص هذه الأشهر بفرض الحج فيها فلو انعقد فى غيرها لم يكن لهذا التخصيص وجه ولا فائدة وقال مالك والثورى وأبو حنيفة ينعقد إحرامه بالحج فى جميع شهور السنة ووجهه أن الإحرام إلزام الحج فجاز تقديمه على الوقت كالنذر لأن الله تعالى جعل الأهلة كلها مواقيت للحج بقوله «هى مواقيت للناس والحج» وقد تقدم الجواب عنه . وقوله تعالى (فلا رفث) قال ابن عباس الرفث الجماع وفى رواية عنه إن الرفث غشيان النساء والتقبيل والغمز وأن يعرض لهن بالفحش من الكلام فعلى هذا القول التلفظ به فى غيبة النساء لايكون رفثا ، قال حصين ابن قيس أخذ ابن عباس بذنب بعيره يلويه وهو يحدو ويقول :

وهن يمشين بنا هميسا   إن يصدق الطير ننك لميسا

فقلت أترفث وأنت محرم فقال إن الرفث ماقيل عند النساء وقوله لميسا هو اسم امرأة وقيل الرفث كلام متضمن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه وقوله فلا رفث يحتمل أن يكون نهيا عن تعاطى الجماع وأن يكون نهيا عن الحديث فى ذلك لأنه من دواعيه وقيل الرفث هو الفحش والخنا والقول القبيح . وقيل الرفث اللغو من الكلام ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولايصخب» (ولا فسوق) أصله الخروج عن الطاعة قال ابن عباس هى المعاصى كلها وهو قول طاوس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والزهرى والربيع والقرظى وقال ابن عمر هو مانهى عنه المحرم فى حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظافر وأخذ الشعر وما أشبه ذلك وقيل هو السباب والتنابز بالألقاب (ق) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من حج ولم يرفث ولم يفسق

على بن أبى طلحة عن ابن عباس الرفث غشيان النساء والتقبيل والغمز وأن يعرض لها بالفحش من الكلام قال حصين بن قيس أخذ ابن عباس رضى الله عنه بذنب بعيره فجعل يلويه وهو يحدو ويقول وهن يمشين بنا هميسا إن تصدق الطير ننك لميسا فقلت له أترفث وأنت محرم ؟ فقال إنما الرفث ماقيل عند النساء . قال طاوس الرفث التعريض للنساء بالجماع وذكره بين أيديهن. وقال عطاء الرفث قول الرجل للمرأة فى حال الإحرام إذا حللت أصبتك وقيل الرفث : الفحش والقول القبيح . أما الفسوق فقد قال ابن عباس هو المعاصى كلها وهو قول طاوس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والزهرى والربيع والقرظى

وقال ابن عمر هو ما نهى عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظفار وأخذ الأشعار وما أشبههما وقال إبراهيم وعطاء ومجاهد هو السباب بدليل قول النبي ﷺ «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وقال الضحاك هو التنابز بالألقاب بدليل قوله تعالى «ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا آدم أخبرنا شعبة أخبرنا سيار أبو الحكم قال سمعت أبا حازم يقول سمعت أبا هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه» قوله تعالى (ولا جدال في الحج) قال ابن مسعود وابن عباس الجدال أن يماري صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه وهو قول عمرو بن دينار وسعيد بن جبير وعكرمة والزهري وعطاء وقتادة. وقال القاسم بن محمد هو أن يقول بعضهم الحج اليوم ويقول بعضهم الحج غدا وقال القرظي كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء حجنا أتم من حجكم، وقال هؤلاء حجنا أتم من حجكم وقال مقاتل هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم في حجة الوداع وقد أحرموا بالحج «اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلد الهدي قالوا كيف نجعله عمرة وقد سمينا الحج» فهذا جدالهم وقال ابن زيد كانوا يقفون مواقف مختلفة كلهم يزعم أن موقفه موقف إبراهيم فكانوا يجادلون فيه وقيل هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم النعيم بالمزدلفة وكان بعضهم يحج في ذي القعدة وكان بعضهم يحج في ذي الحجة فكل يقول ما فعلته فهو الصواب فقال جل ذكره «ولا جدال في الحج» أي استقر أمر الحج على ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا اختلاف فيه من بعد وذلك معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» قال مجاهد معناه ولا شك في الحج أنه في ذي الحجة فأبطل النسيء قال أهل المعاني ظاهر الآية نفي ومعناها نهي أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا كقوله تعالى «لا ريب فيه» أي لا ترتابوا (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) أي لا يخفى عليه فيجازيكم به . قوله تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى)

رجع كيوم ولدته أمه» (ولا جدال في الحج) قال ابن عباس الجدال هو المراء وهو أن يماري الرجل صاحبه ويخاصمه حتى يغضبه وقيل هو قول الرجل الحج اليوم ويقول آخر الحج غدا وقيل هو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع وقد أحرموا بالحج «اجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلد الهدي قالوا كيف نجعلها عمرة وقد سمينا الحج فهذا كان جدالهم . وقيل هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بمزدلفة وكان بعضهم يحج في ذي القعدة وبعضهم في ذي الحجة وكل يقول الصواب فيما فعله، فأنزل الله «ولا جدال في الحج» فأخبر أن أمر الحج قد استقر على ما فعله رسول الله ﷺ لا خلاف فيه بعده وذلك معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم «ألا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» وقيل معناه ولا شك في الحج أنه في ذي الحجة فأبطل النسيء وقيل ظاهر الآية خبر ومعناه نهي أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا في الحج وإنما نهى عن ذلك وأمر باجتنابه في الحج وإن كان اجتناب ذلك في كل الأحوال والأزمان واجبا لأن الرفث والفسوق والجدال في الحج أسمج وأفظع منه في غيره (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وهو الذي يجازيكم عليها حث الله على فعل الخير عقيب النهي عن الشر وهو أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن ومكان الفسوق البر والتقوى ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة وقيل جعل فعل الخير عبارة عن ربط الأنفس عن الشر حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه . وقيل إنما ذكر الخير وإن كان عالما بجميع أفعال العباد من الخير والشر لفائدة وهي أنه تعالى إذا علم من العبد الخير ذكره وشهره وإذا علم منه الشر ستره وأخفاه فاذا كان هذا فعله مع عبده في الدنيا فكيف يكون في العقبى وهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) نزلت في أناس من أهل اليمن كانوا يخرجون للحج من غير زاد ويقولون نحن متوكلون ويقولون نحج بيت ربنا أفلا يطعمنا فاذا قدموا مكة سألوا الناس وربما أفضى بهم الحال إلى النهب والغصب فأنزل الله وتزودوا أي ما تتبلغون به وتكفون به وجوهكم عن الناس واتقوا إبرامهم والتثقيل عليهم فان خير الزاد التقوى وقيل في معنى الآية وتزودوا من التقوى فان الإنسان لابد له من سفر في الدنيا ولا بد فيه من زاد ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب وسفر من الدنيا إلى الآخرة ولا بد فيه من زاد أيضا وهو تقوى الله والعمل بطاعته وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول فان زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها وزاد الآخرة يوصل إلى

نزلت فى ناس من أهل اليمن كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد ويقولون نحن متوكلون ويقولون نحن نحج بيت الله فلا يطعمنا فاذا قدموا مكة سألوا الناس وربما يفضى بهم الحال إلي النهب والغصب فقال الله جل ذكره : وتزودوا أي ماتبلغون به وتكفون به وجوهكم. قال أهل التفسير الكعك والزبيب والسويق والتمر ونحوها فان خير الزاد التقوى من السؤال والنهب (واتقون ياأولى الألباب) ياذوى العقول . قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا على

ابن عبدالله أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله عنه قال كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها فأنزل الله تعالى «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» فى مواسم الحج قرأ ابن عباس كذا وروى عن أبى أمامة التيمى قال قلت لابن عمر إنا قوم نكرى فى هذا الوجه يعنى إلى مكة فيزعمون أن لا حج لنا فقال ألستم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون كما يرمون قلت بلى قال أنت حاج جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الذى سألتنى عنه فلم يجبه بشيء حتى نزل جبريل بهذه الآية «ليس عليكم جناح» أى حرج «أن تبتغوا فضلا» أى رزقا «من ربكم» يعنى بالتجارة فى مواسم الحج (فاذا أفضتم) دفعتم والإفاضة دفع بكثرة وأصله من قول العرب أفاض الرجل ماءه أى صبه (من عرفات) هى جمع عرفة جمعت عرفة بما حولها وإن كانت بقعة واحدة كقولهم : ثوب أخلاق . واختلفوا فى المعنى الذى لأجله سمي الموقف عرفات واليوم عرفة فقال عطاء كان جبريل عليه السلام يرى إبراهيم عليه السلام المناسك ويقول أعرفت ؟ فيقول عرفت فسمى ذلك المكان عرفات واليوم عرفة وقال الضحاك إن آدم عليه السلام لما أهبط إلى الأرض وقع بالهند وحواء بجدة فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه فاجتمعا بعرفات يوم عرفة وتعارفا فسمى اليوم يوم عرفة والموضع عرفات وقال السدى لما أذن إبراهيم فى الناس بالحج وأجابوه بالتلبية وأتاه من أتاه أمره الله

النعيم المقيم فى الآخرة وفى هذا المعنى قال الأعشى :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لاتكون كمثله ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

(واتقون) أي وخافوا عقابى وقيل معناه واشتغلوا بتقواى وفيه تنبيه على كمال عظمة الله جل جلاله (يا أولى الألباب) ياذوى العقول الذين يعلمون حقائق الأمور . قوله عز وجل (ليس عليكم جناح) أى حرج (أن تبتغوا فضلا من ربكم) يعنى رزقا ونفعا وهو الربح فى التجارة (خ) عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية فلما كان الإسلام فكأنهم تأثموا أن يتجروا فى المواسم فنزلت «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج» . وقرأها ابن عباس هكذا وفى رواية أن تبتغوا فى مواسم الحج فضلا من ربكم . وعكاظ سوق معروف بقرب مكة ومجنة بفتح الميم وكسرها سوق بقرب مكة أيضا قال الأزرقى هى بأسفل مكة على بريد منها وذو المجاز سوق عند عرفة كانت العرب فى الجاهلية يتجرون فى هذه الأسواق ولها مواسم فكانوا يقيمون بعكاظ عشرين يوما من ذى القعدة ثم ينتقلون إلى مجنة فيقيمون بها ثمانية عشر يوما عشرة أيام من آخر ذى القعدة وثمانية أيام من أول ذى الحجة ثم يخرجون إلى عرفة فى يوم التروية وقال الداودى مجنة عند عرفة وعن أبى أمامة التيمى قال كنت رجلا أكرى فى هذا الوجه وكان الناس يقولون لى إنه ليس لك حج فلقيت ابن عمر فقلت له يا أبا عبد الرحمن إنى رجل أكرى فى هذا الوجه وإن أناسا يقولون إنه ليس لك حج فقال ابن عمر أليس تحرم وتلبى وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمى الجمار فقلت بلى قال فان ذلك حجا جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن مثل ماسألتنى عنه فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه حتى نزلت هذه الآية «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم» فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم «وقرأها عليه وقال لك حج» أخرجه أبو داود والترمذى وقال بعض العلماء إن التجارة إن أوقعت نقصا فى أعمال الحج لم تكن مباحة وإن لم توقع نقصا فيه كانت من المباحات التى الأولى تركها لتجريد العبادة عن غيرها لأن الحج بدون التجارة أفضل وأكمل . قوله تعالى (فاذا أفضتم) أى دفعتم والإفاضة دفع بكثرة (من عرفات) جمع عرفة سميت بذلك وإن كانت بقعة واحدة لأن كل موضع من تلك المواضع عرفة فسمى مجموع تلك المواضع عرفات وقيل إن اسم الموضع عرفات واسم اليوم عرفة قال عطاء كان

أن يخرج إلي عرفات ونعتها له فخرج فلما بلغ الجمرة عند العقبة استقبله الشيطان ليرده فرماه بسبع حصيات فكبر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية فرماه وكبر فطار فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبر فلما رأى الشيطان أنه لايطيعه ذهب فانطلق إبراهيم حتى أتى ذا المجاز فلما نظر إليه لم يعرفه فجاز فسمى ذا المجاز ثم انطلق حتى وقف بعرفات فعرفها بالنعت فسمى الوقت عرفة والموضع عرفات حتى إذا أمسى ازدلف أى قرب إلي جمع فسمى المزدلفة وروى عن أبي صالح عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام رأى ليلة التروية فى منامه أنه يؤمر بذبح ابنه فلما أصبح روى يومه أجمع أى فكر أمن الله تعالى هذه الرؤيا أم من الشيطان فسمى اليوم يوم التروية ثم رأى ذلك ليلة عرفة ثانيا فلما أصبح عرف أن ذلك من الله تعالى فسمى اليوم يوم عرفة وقيل سمى بذلك لعلو الناس فيه على جباله والعرب تسمى ماعلا عرفة ومنه سمى عرف الديك لعلوه وقيل سمى بذلك لأن الناس يعترفون فى ذلك اليوم بذنوبهم وقيل سمى بذلك من العرف وهو الطيب وسمى منى لأنه يمنى فيه الدم أى يصب فيه فيكون فيه الفروث والدماء ولا يكون الموضع طيبا وعرفات طاهرة عنها فتكون طيبة . قوله تعالى (فاذكروا الله) بالدعاء والتلبية (عند المشعر الحرام) وهو مابين جبلى المزدلفة من مرمى عرفة إلي المحسر وليس المأزمان ولا المحسر من المشعر الحرام وسمى مشعرا من الشعار وهى العلامة لأنه من معالم الحج وأصل الحرام من المنع ممنوع فهو ممنوع أن يفعل فيه مالم يؤذن فيه وسمى المزدلفة جمعا لأنه يجمع فيه بين صلاة المغرب والعشاء والإفاضة من عرفات تكون بعد غروب الشمس ومن جمع قبل طلوعها من يوم النحر . قال طاوس كان أهل الجاهلية يدفعون من عرفة قبل أن تغيب الشمس ومن المزدلفة بعد أن تطلع الشمس ويقولون: أشرق ثبير كيما نغير فأخر الله هذه وقدم هذه ؛ أخبرنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن موسى بن عقبة عن كريب مولى عبد الله بن عباس عن أسامة بن زيد أنه سمعه يقول دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل

جبريل يرى إبراهيم المناسك ويقول له عرفت فيقول عرفت فسمى ذلك المكان عرفات واليوم عرفة . وقال الضحاك إن آدم لما أهبط وقع بالهند وحواء بجدة فجعل كل واحد منهما يطلب صاحبه فاجتمعا بعرفات فى يوم عرفة فتعارفا فسمى اليوم عرفة والموضع عرفات وقال السدى إن إبراهيم لما أذن فى الناس بالحج وأجابوه بالتلبية وأتى من أتى أمره الله تعالى أن يخرج إلى عرفات ونعتها له فخرج فلما بلغ الشجرة استقبله الشيطان يرده فرماه بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة فطار فوقع على الجمرة الثانية فرماه وكبر فطار فوقع على الجمرة الثالثة فرماه وكبر فطار فلما رأى الشيطان أنه لايطيعه ذهب فانطلق إبراهيم حتى أتى ذا المجاز فنظر إليه فلم يعرفه فجازه فسمي ذا المجاز ثم انطلق إبراهيم حتى وقع بعرفات فعرفها بالنعت فسمى الوقت عرفة والموضع عرفات حتى إذا أمسى ازدلف إلى جمع فسمى ذلك الموضع المزدلفة وفى رواية عن ابن عباس أن إبراهيم رأى ليلة التروية فى منامه أنه يؤمر بذبح ولده فلما أصبح تروى يومه أجمع أى تفكر هل هذه الرؤيا من الله تعالى أم من الشيطان فسمى يوم التروية ثم رأى ذلك فى ليلة عرفة ثانيا فلما أصبح عرف أن ذلك من الله فسمى اليوم عرفة وقيل سمى بذلك لأن الناس يعترفون فى ذلك اليوم بذنوبهم وقيل سمى عرفة من العرف وهو الطيب وسميت منى لما يمنى فيها من الدماء أى يصب فيكون فيه الفروث والدماء فلا يكون الموضع طيبا وعرفات طاهرة عن مثل هذا فتكون طيبة . واعلم أن الوقوف بعرفة ركن من أركان الحج ولا يتم الحج إلا به ومن فاته الوقوف فى وقته فقد فاته الحج . ويدخل وقت الوقوف بعرفة بزوال الشمس من يوم عرفة ويمتد إلى طلوع الفجر الثانى من يوم النحر وذلك نصف يوم وليلة كاملة فمن وقف بعرفات فى هذا الوقت ولو لحظة واحدة من ليل أو نهار فقد حصل له الوقوف ويتم حجه وقال أحمد وقت الوقوف من طلوع الفجر يوم عرفة إلى طلوعه من يوم النحر ووقت الإضافة من عرفات بعد غروب الشمس فاذا غربت الشمس دفع من عرفات وأخر صلاة المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء بمزدلفة (ق) عن أسامة بن زيد قال دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرفة حتى إذا كان بالشعب نزل فبال ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء فقلت الصلاة يارسول الله فقال الصلاة أمامك ثم ركب فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب ثم أناخ كل إنسان بعيره فى منزله ثم أقيمت العشاء فصلى ولم يصل بينهما شيئا . وقوله تعالى (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) سمى مشعرا من الشعار وهى العلامة لأنه من معالم الحج وأصل الحرام المنع فهو

فبال ثم توضأ فلم يسبغ الوضوء فقلت له الصلاة يارسول الله قال فقال الصلاة أمامك فركب فلما جاء المزدلفة نزل فتوضأ فأسبغ الوضوء ثم أقيمت الصلاة فصلى المغرب ثم أناخ كل إنسان بعيره فى منزله، ثم أقيمت العشاء فصلاها ولم يصل بينهما شيئا. وقال جابر دفع رسول الله ﷺ حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئا ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة (١٨٥) ثم ركب القصواء حتى أتى

ممنوع من أن يفعل فيه مالم يؤذن فيه والمشعر الحرام هو مابين جبلى المزدلفة من مأزمى عرفة إلى وادى محسر وليس المأزمان ولا وادى محسر من المشعر الحرام وقيل المشعر الحرام هو المزدلفة وسماه الله بذلك لأن الصلاة والمبيت به والدعاء عنده من معالم الحج وقيل المشعر الحرام هو قزح وهو آخر حد المزدلفة والأول أصح وسميت المزدلفة من الازدلاف وهو الاقتراب لأنها منزلة من الله تعالى وقربة وقيل لنزول الناس بها زلف الليل وقيل لاجتماع الناس بها وتسمى المزدلفة جمعا لأنه يجمع فيها بين المغرب والعشاء • قيل المراد بالذكر عند المشعر الحرام هو الجمع بين صلاتى المغرب والعشاء هناك ويدل عليه أن قوله فاذكروا الله أمر وهو للوجوب ولا يجب هناك إلا الصلاة • والذى عليه جمهور العلماء أن المراد بالذكر هو الدعاء والتلبية والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير (ق) عن ابن عباس أن أسامة بن زيد كان رديف النبى صلى الله عليه وسلم من عرفة إلى المزدلفة ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى فكلاهما قال لم يزل النبى صلى الله عليه وسلم يلبى حتى رمى جمرة العقبة، عن جابر قال دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده ولم يزل واقفا حتى أسفر جدا ودفع قبل أن تطلع الشمس هذا الحديث ذكره البغوى بغير سند ولم أجده فى الأصول قال طاوس كانوا فى الجاهلية يدفعون من عرفة قبل أن تغيب الشمس ومن المزدلفة بعد طلوعها وكانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير، فنسخ الله تعالى أحكام الجاهلية فأخر الإفاضة من عرفة إلى مابعد غروب الشمس وقدم الإفاضة من المزدلفة إلى ماقبل طلوعها. وثبير جبل بمكة ومعنى قولهم أشرق ثبير ادخل أيها الجبل فى الشروق وهو نور الشمس وقولهم كيما نغير أى ندفع للنحر يقال أغار إذ أسرع ودفع فى عدوه (خ) عن عمرو بن ميمون قال قال عمر كان أهل الجاهلية لايفيضون من جمع حتى تطلع الشمس وكانوا يقولون: أشرق ثبير فخالفهم النبى صلى الله عليه وسلم فأفاض قبل طلوع الشمس. وقوله تعالى (واذكروه كما هداكم) أى اذكروه بالتوحيد والتعظيم كماذكركم بالهداية فهداكم لدينه ومناسك حجه (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) أى لاتعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه • والهاء في من قبله راجعة إلى الهدى وقيل إلى الرسول أى من قبل إرسال الرسول لمن الضالين وهو كناية عن غير مذكور وقيل يرجع إلى القرآن والمعنى واذكروه كما هداكم بكتابه الذى أنزله عليكم وإن كنتم من قبل إنزاله لمن الضالين. قوله عز وجل (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) أى لتكن إفاضتكم من حيث أفاض الناس وفى المخاطبين بهذا قولان أحدهما أنه خطاب لقريش قال أهل التفسير كانت قريش ومن دان

المشعر الحرام فاستقبل القبلة ودعاه وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا فدفع قبل أن تطلع الشمس. أخبرنا عبد الواحد المليحى أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا زهير ابن حرب أخبرنا وهب ابن جرير أخبرنا أبى عن يونس الأيلى عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أن أسامة ابن زيد كان ردف النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة ثم أردف الفضل من مزدلفة إلى منى قال فكلاهما قال لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يلبى حتى رمى جمرة العقبة قوله تعالى (واذكروه كما هداكم) أى واذكروه بالتوحيد والتعظيم كما ذكركم بالهداية فهداكم لدينه ومناسك حجه (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) أى وقد كنتم وقيل وما كنتم من قبله إلا من الضالين كقوله تعالى «وإن نظنك لمن الكاذبين» أى وما نظنك إلا من الكاذبين والهاء فى قوله من قبله راجعة إلى الهدى وقيل إلى رسول الله ﷺ كناية عن غير مذكور قوله تعالى (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) قال أهل التفسير كانت قريش وحلفاؤها ومن دان بدينها وهم الحمس يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل الله وقطان حرمه فلانخلف الحرم ولا نخرج منه ويتعظمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات وسائر الناس كانوا يقفون بعرفات فاذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحمس من المزدلفة

فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى جمع مع سائر الناس وأخبرهم أنه سنة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقال بعضهم خاطب به جميع المسلمين وقوله تعالى من حيث أفاض الناس من جمع أي ثم أفيضوا من جمع إلى منى وقالوا لأن الإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع فكيف يسوغ أن يقول فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله ثم أفيضوا من عرفات والأول قول أكثر أهل التفسير وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام وقيل ثم بمعنى الواو أي وأفيضوا كقوله تعالى ثم كان من الذين آمنوا وأما الناس فهم العرب كلهم غير الحمس وقال الكلبي هم أهل اليمن وربيعة وقال الضحاك الناس هاهنا إبراهيم عليه السلام وحده كقوله تعالى أم يحسدون الناس وأراد به محمدا صلى الله عليه وسلم وحده ويقال هذا الذي يقتدي به ويكون لسان قومه وقال الزهري الناس هاهنا آدم عليه السلام وحده دليله قراءة سعيد بن جبير ثم أفيضوا من حيث أفاض الناسي بالياء وقال هو آدم نسي عهد الله حين أكل من الشجرة. أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن والنص هشام بن عروة عن أبيه أنه قال سئل أسامة وأنا جالس كيف كان يسير رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع حين دفع قال كان يسير العنق فاذا وجد فجوة نص قال هشام والنص فوق العنق. أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا إبراهيم بن سويد حدثني عمرو ابن أبي عمرو مولى المطلب قال أخبرني سعيد بن جبير مولى والبة الكوفي حدثني ابن عباس أنه دفع مع النبي صلى الله عليه وسلم

بدينها وهم الحمس يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل الله وقطان حرمه فلا نخلف الحرم ولا نخرج منه ويتعاظمون أن يقفوا مع سائر الناس بعرفات وكان سائر الناس يقفون بعرفات فاذا أفاض النا س من عرفات أفاض الحمس من المزدلفة فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات مع سائر الناس ثم يفيضوا منها إلى جمع وأخبرهم أنه سنة إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام (ق) عن عائشة رضى الله عنها قالت كان قريش ومن دان بدينها يقفون بالمزدلفة وكان يسمون الحمس وكانت سائر العرب يقفون بعرفة فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأتي عرفات فيقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله تعالى «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس» قولها كانوا يسمون الحمس هو جمع أحمس وأصله من الشدة والشجاعة وإنما سميت قريش وكنانة حمسا لتشددهم في دينهم فعلى هذا القول الناس معناهم جميع العرب سوى الحمس والقول الثاني إنه خطاب لسائر المسلمين أمرهم الله أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم وهو المراد بقوله من حيث أفاض الناس، وقيل الناس هنا آدم وحده بدليل قراءة سعيد بن جبير ثم أفيضوا من حيث أفاض الناسي بالياء وقال هو آدم عهد إليه فنسي، ووجه هذا أن الوقوف بعرفات والإفاضة منها شرع قديم وما سواه مبتدع محدث وقيل المراد من هذه الآية أن الإفاضة من المزدلفة إلى منى يوم النحر قبل طلوع الشمس للرمي والنحر وأراد بالناس إبراهيم وإسمعيل وأتباعهما لأنه كانت إفاضتهم من المزدلفة قبل طلوع الشمس ووجه هذا القول أن الإفاضة من عرفات قد تقدم ذكرها في قوله فاذا أفضتم من عرفات ثم قال بعد ذلك ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس فدل على أن هذه الإفاضة من المزدلفة إلى منى لكن القول الأول هو الأصح الذى عليه جمهور المفسرين . فان قلت على القول الأول الذى هو قول جمهور المفسرين إشكال وهو أن ظاهر الكلام لا يقتضى ذلك لأن قوله فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله والإفاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع فكيف قال ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس فكأنه قال فاذا أفضتم من عرفات فأفيضوا من عرفات وذلك غير جائز . قلت أجيب عن هذا الإشكال بأن فيه تقديما وتأخيرا وتقديره ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله فعلى هذا الترتيب يصح أن تكون هذه الإفاضة تلك الافاضة بعينها وقيل إن ثم في قوله ثم أفيضوا بمعنى الواو أى وأفيضوا كقوله ثم كان من الذين آمنوا والافاضة الدفع (ق) عن هشام بن عروة عن أبيه قال سئل أسامة بن زيد وأنا جالس كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في حجة الوداع قال كان يسير العنق فاذا وجد فجوة نص قال هشام

يوم عرفة فسمع النبي صلى الله عليه وسلم وراءه زجرا شديدا وضربا للإبل ، فأشار بسوطه إليهم وقال أيها الناس عليكم بالسكينة فان البر ليس بالإيضاع . قوله تعالى (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم (١٨٧) فاذا قضيتم مناسككم) أي فرغتم من حجكم وذبحتم مناسككم أي ذبائحكم يقال نسك الرجل ينسك نسكا إذا ذبح نسيكته وذلك بعد رمى جمرة العقبة والاستقرار بمنى (فاذكروا الله) بالتكبير والتحميد والثناء عليه (كذكركم آباءكم)وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وقفت عند البيت فذكرت مفاخر آبائها فأمرهم الله بذكره وقال فاذكرونى فانى الذى فعلت ذلك بكم وبآبائكم وأحسنت إليكم وإليهم قال ابن عباس وعطاء معناه فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء وذلك أن الصبى أول مايتكلم يلهج بذكر أبيه لا يذكر غيره فيقول الله فاذكروا الله لا غير كذكر الصبى أباه (أو أشد ذكرا) وسئل ابن عباس عن قوله : فاذكروا الله كذكركم آباءكم فقيل قد يأتى على الرجل اليوم لايذكر فيه أباه . قال ابن عباس ليس كذلك ولكن أن تغضب لله إذا عصى أشد من غضبك لوالديك إذا شتما . وقوله تعالى أوأشد ذكرا يعنى بل أشد أى وأكبر ذكرا (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا) أراد به المشركين كانوا لايسألون الله تعالى فى الحج إلا الدنيا يقولون : اللهم أعطنا غنما وإبلا وبقرا وعبيدا وكان الرجل يقوم فيقول اللهم إن أبى كان عظيم القبة كبير الجفنة كثير المال فأعطنى مثل ما أعطيته قال قتادة هذا عبد نيته الدنيا لها أنفق ولها

والنص فوق العنق . العنق بفتح العين ضرب من السير سريع هو أشد من المشى والفجوة : الفرجة وهى المتسع من الأرض والنص السير السريع حتى يستخرج من الناقة أقصى وسعها (خ) عن ابن عباس أنه دفع مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم عرفة فسمع النبى صلى الله عليه وسلم وراءه زجرا شديدا وضربا للابل فأشار بسوطه إليهم وقال يا أيها الناس عليكم بالسكينة فان البر ليس بالإيضاع ، الإيضاع السير السريع الشديد . قوله تعالى (واستغفروا الله) أى من مخالفتكم فى الموقف ولجميع ذنوبكم (إن الله غفور رحيم) يعنى إن الله هو الساتر لذنوب عباده برحمته والغفور يفيد المبالغة في الغفر وكذا الرحيم وفيه دليل على أنه تعالى يقبل التوبة من عباده التائبين ويغفر لهم لأنه تعالى أمر المذنب بالاستغفار ثم وصف نفسه تعالى بأنه كثير الغفران كثير الرحمة فدل ذلك على أنه تعالى يغفر للمستغفرين ويرحم المذنبين بمنه وكرمه . قوله عز وجل (فاذا قضيتم مناسككم) أى فرغتم من حجكم وعبادتكم وذبحتم نسائككم أى ذبائحكم وذلك بعد رمى جمرة العقبة والاستقرار بمنى (فاذكروا الله) يعنى بالتحميد والتمجيد والتهليل والتكبير والثناء عليه (كذكركم آباءكم) قال أهل التفسير كانت العرب فى الجاهلية إذا فرغوا من حجهم وقفوا بين المسجد بمنى وبين الجبل وقيل عند البيت فيذكرون مفاخر آبائهم ومآثرهم وفضائلهم ومحاسنهم ومناقبهم فيقول أحدهم كان أبى كبير الجفنة رحب الفناء يقرى للضيف وكان كذا وكذا يعد مفاخره ومناقبه ويتناشدون الأشعار فى ذلك ويتكلمون بالمنثور والمنظوم من الكلام الفصيح وغرضهم الشهرة والسمعة والرفعة بذكر مناقب سلفهم وآبائهم فلما من الله عليهم بالإسلام أمرهم أن يكون ذكرهم لله لا لآبائهم وقال اذكرونى فأنا الذى فعلت ذلك بكم وبهم وأحسنت إليكم وإليهم قال ابن عباس معناه فاذكروا الله كذكر الصبيان الصغار الآباء وذلك أن الصبى أول مايفصح بالكلام ويقول أبه أمه لايعرف غير ذلك فأمرهم أن يذكروه كذكر الصبيان الصغار الآباء (أو أشد ذكرا) أى بل أشد ذكرا ، وقيل أو بمعنى الواو أى وأشد ذكرا أى وأكثر ذكرا للآباء لأنه هو المنعم عليهم وعلى الآباء فهو المستحق للذكر والحمد مطلقا وسئل ابن عباس عن هذه الآية قيل له قد يأتى على الرجل اليوم ولا يذكر فيه أباه فقال ليس كذلك ولكن أن تغضب لله عز وجل إذا عصى أشد من غضبك لوالديك إذا شتما (فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا) يعنى أن المشركين كانوا يسألون الله فى حجهم للدنيا ونعيمها كانوا يقولون اللهم أعطنا إبلا وغنما وبقرا وعبيدا وإماء وكان أحدهم يقوم فيقول اللهم إن أبى كان عظيم الفئة كبير الجفنة كثير المال فأعطنى مثل ماأعطيته قال قتادة هذا عبد نيته الدنيا لها أنفق ولها عمل ونصب (خ) عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش . قوله تعس عبد الدينار هذا دعاء عليه بالهلاك وهو الوقوع على الوجه من العثار والخميصة ثوب من خز أو صوف معلم وقوله وانتكس هذا دعاء عليه أيضا لأن من انتكس على رأسه أو فى أمره فقد خاب وخسر وقوله وإذا شيك هذا فعل ما لم يسم فاعله تقول شاكته الشوكة إذا دخلت في جسمه والانتقاش

عمل ونصب (وما له فى الآخرة من خلاق) من حظ ونصيب (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) يعنى المؤمنين . واختلفوا فى معنى الحسنتين قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الدنيا حسنة امرأة صالحة وفى الآخرة حسنة الجنة والحور العين . أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفى أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الطوسى أخبرنا أبو بكر أحمد بن يوسف بن خلاد ، أنا الحارث بن أسامة أنا أبو عبد الرحمن المقرى أخبرنا حياة وابن لهيعة قالا أخبرنا شرحبيل بن شريك أنه سمع أبا عبد الرحمن الجبلى يحدث عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «الدنيا كلها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» وقال الحسن فى الدنيا حسنة العلم والعبادة وفى الآخرة حسنة الجنة والنظر وقال السدى وابن حبان فى الدنيا حسنة رزقا حلالا وعملا صالحا وفى الآخرة حسنة المغفرة والثواب . أخبرنا أبو بكر ابن محمد بن عبد الله بن أبى توبة أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائى أخبرنا عبد الله بن محمود أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال ثنا عبد الله بن المبارك عن يحيى بن أيوب حدثنى عبيد الله بن زجر عن على بن يزيد عن القاسم ابن عبد الرحمن عن أبى إمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه فأطاعه فى السر وكان غامضا فى الناس لايشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك ثم نقر بيده فقال هكذا عجلت منية قلت بواكيه قل تراثه» وقال قتادة فى الدنيا عافية وفى الآخرة عافية وقال عوف أبو داود فى هذه الآية من آتاه الله الإسلام والقرآن وأهلا ومالا فقد أوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة . أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله بن على الكرمانى الطوسى أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادى أخبرنا أبو الفضل عبدوس بن الحسين بن منصور السمسار أخبرنا أبو حاتم محمد بن إدريس الحنظلى الرازى أخبرنا محمد بن عبد الله الأنصارى ، أخبرنا حميد الطويل عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك قال رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا قد صار مثل الفرخ فقال هل كنت تدعو الله بشىء أو تسأله إياه فقال يارسول الله كنت أقول اللهم ما كنت معاقبنى به فى الآخرة فحوله لي فى الدنيا فقال سبحان الله لاتستطيعه ولا تطيقه هلاقلت اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد

إخراج الشوكة من الجسم وإنما كان سؤال المشركين للدنيا ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لأنهم كانوا ينكرون البعث (وماله فى الآخرة من خلاق) أى وماله في الآخرة من حظ ولا نصيب (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) يعنى المؤمنين . واعلم أن الله تعالى قسم الداعين فريقين فريق اقتصروا فى الدعاء على طلب الدنيا وهم الكفار لأنهم كانوا لايعتقدون البعث والآخرة ، والفريق الثانى هم المؤمنون الذين جمعوا فى الدعاء بين طلب الدنيا والآخرة وذلك لأن الإنسان خلق ضعيفا محتاجا لاطاقة له بآلام الدنيا ومتاعبها فالأولى له أن يستعيذ بالله من شرها وآلامها لأنه لو اضطرب علي الإنسان عرق من عروقه لشوش عليه حياته فى الدنيا وتعطل عن الاشتغال بطاعة الله تعالى فثبت بذلك أن طلب الدنيا فى الدعاء من أمر الدين فلذلك قال الله تعالى إخبارا عن المؤمنين «ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة» قيل إن الحسنة فى الدنيا عبارة عن الصحة والأمن والكفاية والتوفيق إلى الخير والنصر على الأعداء والولد الصالح والزوجة الصالحة (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» وقيل الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة وفى الآخرة الجنة وقيل الحسنة فى الدنيا الرزق الحلال والعمل الصالح وفي الآخرة المغفرة والثواب وقيل من آتاه الله الاسلام والقرآن وأهلا ومالا فقد أوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة يعنى فى الدنيا عافية وفى الآخرة عافية (م) عن أنس أن رسول الله صلي الله عليه وسلم عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ «هل كنت تدعو الله بشىء أو تسأله إياه قال نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبنى به فى الآخرة فعجله لي فى الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه أفلا قلت : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» قال فدعا الله به فشفاه (ق) عن أنس بن مالك قال كان أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . عن عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بين الركنين «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» أخرجه

السرخسي . أخبرنا أبوالحسن أحمد بن محمد بن أبي إسحاق الحجاجي أخبرنا أبو العباس محمد بن عبد الرحمن الداغولي أخبرنا محمد بن مسكان أخبرنا أبو داود أخبرنا شعبة عن ثابت عن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سعيد بن سالم القداح عن ابن جريج عن يحيى بن عبيد مولى السائب عن أبيه عن عبد الله بن السائب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما بين ركن بني جمح والركن الأسود ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . قوله تعالى (أولئك لهم نصيب) حظ (مما كسبوا) من الخير والدعاء بالثواب والجزاء (والله سريع الحساب) يعني إذا حاسب عبده فحسابه سريع لايحتاج إلى عقد يد ولا وعى صدر ولا إلى روية ولا فكر . قال الحسن أسرع من لمح البصر: وقيل معناه إتيان القيامة قريب لأن ماهو آت لامحالة فهو قريب قال الله تعالى «ومايدريك لعل الساعة قريب» قوله تعالى (واذكروا الله) يعني التكبيرات أدبار الصلاة وعند الجمرات يكبر مع كل حصاة وغيرها من الأوقات (في أيام معدودات) الأيام المعدودات هي أيام التشريق وهي أيام منى ورمى الجمار سميت معدودات لقلتهن كقوله «دراهم معدودة» والأيام المعلومات عشر ذي الحجة آخرهن يوم النحر هذا قول أكثر أهل العلم وروى عن ابن عباس المعلومات يوم النحر ويومان بعده والمعدودات أيام التشريق وعن علي قال المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده وقال عطاء عن ابن عباس المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق وقال محمد بن كعب هما شيء واحد وهي أيام التشريق وروى عن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله» ومن الذكر في أيام التشريق التكبير واختلفوا فيه فروي عن عمر وعن عبد الله بن عمر أنهما كانا يكبران بمنى تلك الأيام خلف الصلاة وفي المجلس وعلى الفراش والفسطاط وفي الطريق ويكبر الناس بتكبيرهما ويتلوان هذه الآية والتكبير أدبار الصلاة مشروع في هذه الأيام في حق الحاج وغير الحاج عند عامة العلماء . واختلفوا في قدره فذهب قوم إلى أنه يبتدىء التكبير عقيب صلاة الصبح من يوم عرفة ويختم بعد العصر من آخر أيام التشريق يروى ذلك عن عمر

أبو داود (أولئك) إشارة إلى المؤمنين الداعين بالحسنتين ووجه هذا القول أن الله ذكر حكم الفريق بكماله فقال وماله في الآخرة من خلاق وقيل يرجع إلى الفريقين (لهم) جميعا أي لكل فريق من هؤلاء (نصيب) أي حظ (مما كسبوا) يعني من الخير والدعاء بالثواب والجزاء على الدعاء بالدنيا من جنس ما كسب ودعا (والله سريع الحساب) ذكروا في معنى الحساب أن الله تعالى يعلم العباد بمالهم وعليهم بمعنى أن الله تعالى يخلق العلوم الضرورية في قلوبهم بمقادير أعمالهم وكمياتها وكيفياتها وبمقادير مالهم من الثواب وعليهم من العقاب وقيل إن المحاسبة عبارة عن المجازاة ويدل عليه قوله تعالى «وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا» وقيل إن الله تعالى يكلم عباده يوم القيامة ويعرفهم أحوال أعمالهم ومالهم من الثواب والعقاب وقيل إنه تعالى إذا حاسب عباده فحسابه سريع لأنه تعالى لا يحتاج إلى عقد يد وروية فكر ووصف الله نفسه تعالى بسرعة الحساب مع كثرة الخلائق وكثرة أعمالهم ليدل بذلك على كمال قدرته لأنه تعالى لايشغله شأن عن شأن ولا يحتاج إلى آلة ولا مادة ولا مساعد فلا جرم كان قادرا على أن يحاسب جميع الخلائق في أقل من لمح البصر وروى أنه تعالى يحاسب الخلائق في قدر حلب شاة أو ناقة وقيل في معنى كونه تعالى سريع الحساب أي سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم وذلك أنه تعالى يسأله السائلون في الوقت الواحد كل واحد منهم أشياء مختلفة من أمور الدنيا والآخرة فيعطي كل واحد مطلوبه من غير أن يشتبه عليه شيء من ذلك لأنه تعالى عالم بجميع أحوال عباده وأعمالهم وقيل في معنى الآية إن إتيان القيامة قريب لأن كل ماهو كائن وآت قريب لامحالة وفيه إشارة إلى المبادرة بالدعاء والذكر وسائر الطاعات وطلب الآخرة . قوله عز وجل (واذكروا الله) يعني بالتوحيد والتعظيم والتكبير في إدبار الصلوات وعند رمي الجمرات وذلك أنه يكبر مع كل حصاة من حصى الجمار فقد ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كبر مع كل حصاة (في أيام معدودات) يعني أيام التشريق وهي أيام منى ورمى الجمار سميت معدودات لقلتهن وهي ثلاثة أيام بعد يوم النحر أولها اليوم الحادي عشر من ذي الحجة وهو قول ابن عمر وابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة وهو مذهب الشافعي وقيل إن

وعن علي رضى الله عنهما وبه قال مكحول وإليه ذهب أبو يوسف رضى الله عنه وذهب قوم إلى أنه يبتدئ التكبير عقيب صلاة الصبح من يوم عرفة ويختم بعد العصر من يوم النحر يروى ذلك عن ابن مسعود وبه قال أبو حنيفة رضى الله عنه وقال قوم يبتدئ التكبير عقيب صلاة الظهر من يوم النحر ويختم بعد الصبح من آخر أيام التشريق يروى

ذلك عن ابن عباس وبه قال مالك والشافعى فى أحد قوليه قال الشافعى لأن الناس فيه تبع للحاج وذكر الحاج قبل هذا الوقت التلبية ويأخذون فى التكبير يوم النحر من بعد صلاة الظهر ولفظ التكبير كان سعيد ابن جبير والحسن يقولان الله أكبر الله أكبر الله أكبر ثلاثا نسقا وهو قول أهل المدينة وإليه ذهب الشافعى وقال وما زاد من ذكر الله فهو حسن وعند أهل العراق يكبر اثنين يروى ذلك عن ابن مسعود . قوله تعالى (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه) أراد من نفر الحاج فى اليوم الثانى من أيام التشريق فلا إثم عليه وذلك أنه على الحاج أن يبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق ويرمى كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة عند كل جمرة بسبع حصيات ورخص فى ترك البيتوتة لرعاء الإبل وأهل سقاية الحاج ثم كل من رمى اليوم الثانى من أيام التشريق وأراد أن ينفر فيدع البيتوتة الليلة الثالثة ورمى يومها فذلك له واسع لقوله تعالى «فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه» ومن لم ينفر حتى غربت الشمس فعليه أن يبيت حتى يرمى اليوم الثالث ثم ينفر وقوله (ومن تأخر فلا إثم عليه) يعنى لا إثم على من تعجل فنفر فى اليوم الثانى فى تعجيله ومن تأخر حتى ينفر فى اليوم الثالث فلا إثم عليه فى تأخيره وقيل معناه فمن تعجل فقد ترخص فلا

الأيام المعدودات يوم النحر ويومان بعده وهو قول على بن أبى طالب ويروى عن ابن عمر أيضا وهو مذهب أبى حنيفة (م) عن نبيشة الهذلي قال قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله» ومن الذكر فى هذه الأيام التكبير (خ) عن ابن عمر أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات وعلى فراشه وفى فسطاطه وفى مجلسه وفى ممشاه فى تلك الأيام جميعا وفى رواية أنه كان يكبر فى قبته فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى أخرجه البخارى بغير إسناد وأجمع العلماء على أن المراد بهذا هو التكبير عند رمى الجمار وهو أن يكبر مع كل حصاة يرمى بها فى جميع أيام التشريق وأجمعوا أيضا على أن التكبير في عيد الأضحى وفى هذه الأيام فى إدبار الصلوات سنة واختلفوا فى وقت التكبير فقيل يبتدأ به من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق فيكون التكبير على هذا القول فى خمسة عشر صلاة وهو قول ابن عباس وابن عمر وبه قال الشافعى فى أصح أقواله قال الشافعى لأن الناس فيه تبع للحاج وذكر الحاج قبل هذا الوقت هو التلبية ويأخذون فى التكبير يوم النحر من صلاة الظهر وقيل إنه يبتدأ به من صلاة المغرب ليلة النحر ويختم بصلاة الصبح من آخر أيام التشريق وهو القول الثانى الشافعى فيكون التكبير على هذا القول فى ثمانية عشر صلاة والقول الثالث للشافعى إنه يبتدأ بالتكبير من صلاة الصبح يوم عرفة ويختم به بعد صلاة العصر من آخر أيام التشريق فيكون التكبير على هذا القول فى ثلاث وعشرين صلاة وهو قول على بن أبى طالب ومكحول وبه قال أبو يوسف ومحمد وقال ابن مسعود يبتدأ به من صبح يوم عرفة ويختم بصلاة العصر من يوم النحر فعلى هذا القول يكون التكبير فى ثمان صلوات وبه قال أبو حنيفة وقال أحمد بن حنبل إذا كان حلالا كبر عقيب ثلاث وعشرين صلاة أولها الصبح من يوم عرفة وآخرها صلاة العصر من آخر أيام التشريق وإن كان محرما كبر عقيب سبعة عشر صلاة أولها الظهر من يوم النحر وآخرها عصر آخر أيام التشريق . ولفظ التكبير عند الشافعى ثلاثا نسقا الله أكبر الله أكبر الله أكبر وهو قول سعيد بن جبير والحسن وهو قول أهل المدينة قال الشافعى وما زاد من ذكر الله فحسن ويروى عن ابن مسعود أنه يكبر مرتين فيقول الله أكبر الله أكبر وهو قول أهل العراق . وقوله تعالى (فمن تعجل فى يومين) أى فمن تعجل النفر الأول وهو فى الثانى من أيام التشريق (فلا إثم عليه) أى فلا حرج عليه وذلك أنه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالى أيام التشريق ليرمى كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة يرمى عند كل جمرة سبع حصيات ثم من رمى فى اليوم الثانى وأراد أن ينفر ويدع البيتوتة الليلة الثالثة ورمى يومها فذلك واسع له لقوله تعالى «فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه» يعنى فلا إثم على من تعجل فنفر فى اليوم الثانى فى تعجيله (ومن تأخر فلا إثم عليه) يعنى ومن تأخر إلى النفر الثانى وهو اليوم الثالث من أيام التشريق

إثم عليه بالترخص ومن تأخر فلا إثم عليه بترك الترخص وقيل معناه رجع مغفورا له لاذنب عليه تعجل أو تأخر كما روينا «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع أى خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» وهذا قول على وابن مسعود . قوله تعالى (لمن اتقى) أى لمن اتقى أن يصيب فى حجه شيئا نهاه الله عنه كما قال من حج فلم يرفث ولم يفسق . قال ابن مسعود :

التشريق فلا إثم عليه فى تأخره . واعلم أنه إنما يجوز التعجيل لمن نفر بعد الزوال من اليوم الثانى من أيام التشريق وقبل غروب الشمس من ليلة ذلك اليوم وإن غربت عليه الشمس وهو بمنى لزمه المبيت بها لرمى اليوم الثالث هذا مذهب الشافعى وأكثر الفقهاء وقال أبو حنيفة يجوز له أن ينفر ما لم يطلع الفجر لأنه لم يدخل وقت الرمى بعد ورخص لرعاة الإبل وأهل سقاية الحاج ترك المبيت بمنى ليالى منى . فان قلت قوله ومن تأخر فلا إثم عليه فيه إشكال وهو أن الذى أتى بأفعال الحج كاملة تامة فقد أتى بما يلزمه فما معنى قوله فلا إثم عليه إنما يخاف من الإثم من قصر فيما يلزمه . قلت فيه أجوبة أحدها أنه تعالى لما أذن فى التعجيل على سبيل الرخصة احتمل أن يخطر ببال قوم أن من لم يجر على موجب هذه الرخصة فانه يأثم فأزال الله تعالى هذه الشبهة وبين أنه لا إثم عليه فى الأمرين فان شاء عجل وإن شاء أخر . الجواب الثانى أن من الناس من كان يتعجل ومنهم من كان يتأخر وكل فريق يصوب فعله على فعل الفريق الآخر فبين الله تعالى أن كل واحد من الفريقين مصيب فى فعله وأنه لا إثم عليه . الجواب الثالث إنما قال ومن تأخر فلا إثم عليه لمشاكلة اللفظة الأولى فهو كقوله «وجزاء سيئة سيئة مثلها» ومعلوم أن جزاء السيئة ليس بسيئة . الجواب الرابع أن فيه دلالة على جواز الأمرين فكأنه تعالى قال فتعجلوا أو تأخروا فلا إثم فى التعجيل ولا فى التأخير (لمن اتقى) أى ذلك التخيير ونفى الإثم للحاج المتقى وقيل لمن اتقى أن يصيب فى حجه شيئا مما نهاه الله عنه من قتل صيد وغيره مما هو محظور فى الحج وقيل معناه أنه ذهب إثمه إن اتقى فيمن بقى من عمره وذلك أن الحاج يرجع مغفورا له بشرط أن لا يرتكب ما نهى عنه فيما بقى من عمره وهو قوله (واتقوا الله) أى فى المستقبل والتقوى عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات (واعلموا أنكم إليه تحشرون) أى فيجازيكم بأعمالكم وفيه حث على التقوى . قوله عز وجل (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة واسمه أبى وإنما سمي الأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بنى زهرة عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه أشار على بنى زهرة بالرجوع يوم بدر وقال لهم إن محمدا ابن أختكم فان يك كاذبا كفاكموه الناس وإن يك صادقا كنتم أسعد الناس به قالوا نعم ما رأيت قال إنى سأخنس بكم فاتبعونى فخنس فسمى الأخنس بذلك وكان الأخنس حلو الكلام حلو المنظر وكان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجالسه ويظهر الإسلام ويقول إنى لأحبك ويحلف بالله على ذلك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى مجلسه وكان الأخنس منافقا فنزل فيه ومن الناس من يعجبك قوله أى يروقك وتستحسنه ويعظم فى قلبك فى الحياة الدنيا يعنى أن حلاوة كلامه فيما يتعلق بأمر الدنيا (ويشهد الله على ما فى قلبه) يعنى قوله : والله إنى بك مؤمن ولك محب (وهو ألد الخصام) أى شديد الجدال فى الباطل ؛ وقيل هو كاذب القول وقيل هو شديد القسوة فى المعصية جدل

إنما جعلت مغفرة الذنوب لمن اتقى الله تعالى فى حجه وفى رواية الكلبى عن ابن عباس معناه لمن اتقى الصيد لا يحل له أن يقتل صيدا حتى تنقضى أيام التشريق ، وقال أبو العالية ذهب إثمه إن اتقى فيما بقى من عمره (واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون) تجمعون فى الآخرة يجزيكم بأعمالكم قوله تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) قال الكلبى ومقاتل وعطاء نزلت فى الأخنس ابن شريق الثقفى حليف بنى زهرة واسمه أبى وسمى الأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بنى زهرة عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رجلا حلو الكلام حلوا المنظر وكان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجالسه ويظهر الإسلام ويقول إنى لأحبك ويحلف بالله على ذلك وكان منافقا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى مجلسه فنزل قوله تعالى «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا» أى تستحسنه ويعظم فى قلبك ويقال فى الاستحسان أعجبنى كذا وفى الكراهية والإنكار عجبت من كذا (ويشهد الله على ما فى قلبه) يعنى قول الأخنس المنافق والله إنى بك مؤمن ولك محب (وهو ألد الخصام) أى شديد الخصومة يقال لددت يا هذا وأنت تلد لددا ولدادة فاذا أردت أنه غلب على خصمه قلت لده يلده لدا يقال رجل ألد وامرأة لداء وقوم لد قال الله تعالى «وتنذر به قوما لدا» ،

قال الزجاج اشتقاقه من لد يدى العنق وهما صفحتان وتأويله أنه فى أى وجه أخذ من يمين أو شمال فى أبواب الخصومة غلب والخصام مصدر خاصمه خصاما ومخاصمة قاله أبو عبيدة وقال الزجاج وهو جمع خصم يقال خصم وخصام وخصوم مثل بحر وبحار وبحور قال الحسن ألد الخصام أى كاذب القول . قال قتادة شديد القسوة فى المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة . أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا (١٩٢) أبو عاصم عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم (وإذا تولى) أى أدبر وأعرض عنك (سعى فى الأرض) أى عمل فيها وقيل سار فيها ومشى (ليفسد فيها) قال ابن جريج قطع الرحم وسفك دماء المسلمين (ويهلك الحرث والنسل) وذلك أن الأخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلة فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم . قال مقاتل خرج إلى الطائف مقتضيا مالا له على غريم فأحرق له كدسا وعقر له أتانا . والنسل نسل كل دابة والناس منهم . وقال الضحاك وإذا تولى أى ملك الأمر وصار واليا سعى فى الأرض. قال مجاهد فى قوله عز وجل « وإذا تولى سعى فى الأرض » قال إذا ولى يعمل بالعدوان والظلم فأمسك الله المدر وأهلك الحرث والنسل (والله لايحب الفساد) أى لا يرضى بالفساد. وقال سعيد بن المسيب قطع الدراهم من الفساد فى الأرض. قوله (وإذا قيل له اتق الله) أى خف الله (أخذته العزة بالإثم) أى حملته العزة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم أى بالظلم والعزة التكبر والمنعة وقيل معناه أخذته العزة للإثم الذى فى قلبه فأقام الباء مقام اللام . قوله (فحسبه جهنم) أى كافيه (ولبئس المهاد) أى الفراش قال عبد الله بن مسعود إن من أكبر الذنب عند الله أن يقال للعبد اتق الله فيقول عليك بنفسك . وروى أنه قيل لعمر بن الخطاب اتق الله فوضع خده على الأرض تواضعا لله عز وجل قوله تعالى (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) أى لطلب رضا الله تعالى

بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة (ق) عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم يعنى الشديد فى الخصومة (وإذا تولى) أى أدبر وأعرض عنك بعد إلانة القول وحلاوة المنطق (سعى فى الأرض) أى سار ومشى فى الأرض (ليفسد فيها) يعنى بقطع الأرحام وسفك دماء المسلمين (ويهلك الحرث والنسل) وذلك أن الأخنس بن شريق كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلا فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم وقيل خرج إلى الطائف مقتضيا دينا كان له على غريم فأحرق له كدسا وعقر له أتانا وقيل معناه إذا تولى أى صار واليا وملك الأمر سعى فى الأرض ليفسد فيها يعنى بالظلم والعدوان كما يفعله ولاة السوء والظلمة وقيل يظهر ظلمه حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر فيهلك الحرث والنسل بسبب منع المطر وقيل أن الآية عامة فى حق كل من كان موصوفا بهذه الصفات المذكورة ولا يمتنع أن تنزل فى رجل واحد ثم تكون عامة فى حق كل من كان موصوفا بهذه الصفات (والله لايحب الفساد) قال ابن عباس لايرضى بالمعاصى واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن المحبة عبارة عن الإرادة . وأجيب عنه بأن الإرادة معنى غير المحبة فان الإنسان قد يريد شيئا ولا يحبه وذلك لأنه قد يتناول الدواء المر ولا يحبه فبان الفرق بين الإرادة والمحبة وقيل إن المحبة مدح الشىء وتعظيمه والإرادة بخلاف ذلك (وإذا قيل له اتق الله) أى خف الله فى سرك وعلانيتك (أخذته العزة بالإثم) أى حملته العزة وحمية الجاهلية على فعل الإثم وقيل بأن يعمل الإثم وهو الظلم وترك الالتفات إلى الوعظ وعدم الإصغاء إليه وأصل العزة المنعة والتكبر (فحسبه جهنم) أى كافية له جهنم جزاء وعذابا وجهنم اسم من أسماء النار التى يعذب بها الكفار فى الآخرة وقيل هو اسم أعجمى وقيل بل هو عربى سميت النار بذلك لبعد قعرها (ولبئس المهاد) أى الفراش والمهاد التوطئة أيضا والمعنى أن العذاب بالنار يجعل تحته وفوقه قال ابن مسعود إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد اتق الله فيقول عليك بنفسك وروى أنه قيل لعمر اتق الله فوضع خده على الأرض تواضعا لله تعالى . قوله عز وجل (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى سرية الرجيع وكانت بعد أحد (خ) عن أبى هريرة قال بعث النبى صلى الله عليه وسلم سرية عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كانوا بين عسفان ومكة ذكروا الحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتفوا آثارهم حتى أتوا منزلا نزلوه

فوجدوا

فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا هذا تمر يثرب فتبعوا أثرهم حتى لحقوهم فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا فقال عاصم أما أنا فلا أنزل فى ذمة كافر اللهم أخبر عنا رسولك فقاتلوهم فرموهم حتى قتلوا عاصما فى سبعة نفر بالنبل وبقى خبيب وزيد ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها فقال الرجل الثالث الذى معهم هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة فاشترى خبيبا بنو الحارث بن عامر ابن نوفل وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيرا حتى إذا اجتمعوا على قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته قالت فغفلت عن صبى لى فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك منى وفى يده الموسى فقال أتخشين منى أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى وكانت تقول : ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ تمرة وإنه لموثق فى الحديد وما كان إلا رزقا رزقه الله خبيبا فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه قال دعونى أصلى ركعتين فصلى ركعتين ثم انصرف فقال لولا ترون إن ما بى جزع من الموت لزدت فكان أول من سن ركعتين عند القتل « وقال اللهم أحصهم عددا وقال :

فلست أبالي حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله وبعثت قريش إلى عاصم ليأتوا بشىء من جسده بعد موته وكان قتل عظيما من عظمائهم يوم بدر فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شىء زاد فى رواية وأخبر يعنى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم أصيبوا خبرهم . الفدفد الموضع الذى فيه غلظ وارتفاع وقوله عالجوه أى مارسوه وأراد به أنهم يخدعونه ليتبعهم فأبى. وقوله ليستحد الاستحداد حلق العانة. والقطف العنقود من العنب قوله على أوصال شلو الشلو العضو من أعضاء الإنسان والممزع المفرق والظلة الشىء الذى يظل من فوق الإنسان والدبر جماعة النحل والزنابير . وقال أهل التفسير إن كفار قريش بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة أنا قد أسلمنا فابعث إلينا نفرا من علماء أصحابك يعلمونا دينك وكان ذلك مكرا منهم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خبيب ابن عدى الأنصارى ومرثد بن أبى مرثد الغنوى وخالد بن بكر وعبدالله بن طارق بن شهاب البلوى وزيد بن الدثنة وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن أبى أفلح الأنصارى وذكر نحو حديث البخارى وزاد عليه فقالوا نصلب خبيبا حيا فقال اللهم إنك تعلم أنه ليس لى أحد حولى يبلغ سلامى رسولك فأبلغه سلامى فقام إليه أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله ويقال كان رجل من المشركين يقال له أبو ميسرة سلامان معه رمح فوضعه بين ثديى خبيب فقال له خبيب اتق الله فما زاده ذلك إلا عتوا فطعنه فأنفذه فذلك قوله تعالى «وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » يعنى سلامان . وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف

فبعثه مع مولى له يسمى بنسطاس إلى التنعيم ليقتله في الحل واجتمع رهط من قريش فيهم أبوسفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل أنشدك الله يازيد أتحب محمدا عندنا الآن مكانك يضرب عنقه وأنك في أهلك فقال زيد والله ماأحب أن محمدا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى فقال أبو سفيان مارأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ثم قتله نسطاس ، فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم هذا الخبر قال لأصحابه أيكم ينزل خبيبا عن خشبته وله الجنة فقال الزبير أنا يارسول الله وصاحبي المقداد بن الأسود فخرجا يمشيان الليل ويكمنان النهار حتى أتيا التنعيم ليلا ، فاذا حول الخشبة أربعون من المشركين نشاوى وهم نيام فأنزلاه عن خشبته فاذا هو رطب ينثنى ولم يتغير منه شئ بعد أربعين يوما ويده على جراحته وهى تبض دما اللون لون الدم والريح ريح المسك فحمله الزبير على فرسه وسار فانتبه الكفار وقد فقدوا خبيبا فأخبروا قريشا فركب معهم سبعون فارسا فلما لحقوهم قذف الزبير خبيبا فابتلعته الأرض فسمى بليع الأرض وقال الزبير ماأجرأكم علينا يا معشر قريش ثم رفع العمامة عن رأسه وقال أنا الزبير بن العوام وأمى صفية بنت عبد المطلب وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان ضاريان يدفعان عن أشبالهما فان شئتم ناضلتكم وإن شئتم نازلتكم وإن شئتم انصرفتم فانصرفوا إلى مكة وقدم الزبير وصاحبه المقداد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عنده فقال يامحمد إن الملائكة لتباهى بهذين من أصحابك ونزل فى الزبير والمقداد «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله» حين شريا أنفسهما بانزال خبيب عن خشبته . وقال أكثر المفسرين نزلت في صهيب ابن سنان الرومى وإنما نسب إلى الروم لأن منازلهم كانت بأرض الموصل فأغارت الروم على تلك الناحية فسبوه وهو غلام صغير فنشأ بالروم وإنما كان من العرب ابن النمر بن قاسط قال سعيد بن المسيب وعطاء أقبل صهيب مهاجرا إلي النبى ﷺ فاتبعه نفر من مشركى قريش فنزل عن راحلته ونثل ماكان فى كنانته وقال والله لا تصلوا إلى أو أرم بكل سهم معى ثم اضرب بسيفى مابقى فى يدى وإن شئتم دللتكم على مال دفنته بمكة وخليتم سبيلى فقالوا نعم ففعل فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله» الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ربح البيع أبا يحيي وتلا عليه هذه الآية . وقال الحسن أتدرون فيم نزلت هذه الآية؟ نزلت فى المسلم يلقى الكافر فيقول له قل : لا إله إلا الله فيأبى أن يقولها فيقولها فيقول المسلم والله لأشرين نفسى لله فتقدم فقاتل وحده حتى قتل ، وقيل نزلت هذه الآية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقال ابن عباس رضى الله عنهما أرى من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله يقوم فيأمر هذا بتقوى الله فاذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم قال وأنا أشرى نفسى لله فقاتله وكان على كرم الله وجهه إذا قرأ هذه الآية يقول اقتتلا ورب الكعبة وسمع عمر رجلا يقرأ هذه الآية «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله» فقال عمر إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فقتل . عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وأما تفسير الآية فذكر المفسرون أن المراد بهذا الشراء البيع ومنه قوله «وشروه بثمن» أى باعوه والمعنى أن المسلم باع نفسه بثواب

الله

(والله رءوف بالعباد) روى عن ابن عباس والضحاك أن هذه الآية نزلت فى سرية الرجيع وذلك أن كفار قريش بعثوا إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة إنا قد أسلمنا فابعث إلينا نفرا من علماء أصحابك يعلموننا دينك وكان ذلك مكرا منهم فبعث رسول الله ﷺ خبيب بن عدى الأنصارى ومرثد بن أبى مرثد الغنوى وخالد بن بكير وعبدالله بن طارق بن شهاب البلوي وزيد بن الدثنة وأمر عليهم عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح الأنصارى. قال أبو هريرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى فساروا فنزلوا ببطن الرجيع بين مكة والمدينة ومعهم تمر عجوة فأكلوا فمرت عجوز فأبصرت النوى فرجعت إلي قومها بمكة وقالت قد سلك هذا الطريق أهل يثرب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فركب سبعون رجلا منهم معهم الرماح حتى أحاطوا بهم وقال أبو هريرة رضى الله عنه ذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان فتبعوهم بقريب من مائة رجل رام فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر فى منزل نزلوه فقالوا تمر يثرب فاتبعوا آثارهم فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد فأحاط بهم القوم فقتلوا مرثدا وخالدا وعبد الله بن طارق ونثر عاصم بن ثابت كنانته وفيها سبعة أسهم فقتل بكل سهم رجلا من عظماء المشركين ثم قال : اللهم إنى قد حميت دينك صدر النهار فاحم لحمى آخر النهار ثم أحاط به المشركون فقتلوه فلما قتلوه أرادوا جز رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن فى قحفه الخمر فأرسل الله رجلا من الدبر، وهى الزنابير فحمت عاصما فلم يقدروا عليه فسمى حمى الدبر فقالوا دعوه حتى تمسى فتذهب عنه فنأخذه فجاءت سحابة سوداء وأمطرت مطرا كالعزالى فبعث الله الوادى غديرا فاحتمل عاصما به فذهب به إلى الجنة وحمل خمسين من المشركين إلى النار وكان عاصم قد أعطى الله تعالى عهدا أن لايمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا **(١٩٥)** وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول حين بلغه أن الدبر منعته عجيبا لحفظ الله العبد المؤمن . ان عاصم نذر أن لايمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا فمنعه الله

الله تعالى فى الدار الآخرة وهذا البيع هو أن يبذل نفسه فى طاعة الله من صلاة وصيام وحج وجهاد وأمر بمعروف ونهى عن المنكر، فكان مايبذله من نفسه كالسلعة فصار كالبائع والله تعالى المشتري والثمن هو ثواب الله تعالى فى الآخرة ابتغاء مرضاة الله أى طلب رضا الله (والله رءوف بالعباد) أى من رأفة الله بعباده أن جعل النعيم الدائم فى الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع ومن رأفته أنه يقبل توبة عبده ومن رأفته أن نفس العباد وأموالهم له ثم إنه

بعد وفاته كما امتنع عاصم فى حياته وأسر المشركون خبيب بن عدى الأنصارى وزيد بن الدثنة فذهبوا بهما إلى مكة فأما خبيب فابتاعه بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ليقتلوه بأبيهم وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم بدر فلبث خبيب عندهم أسيرا حتى أجمعوا على قتله فاستعار من بعض بنات الحارث موسى ليستحديها فأعارته فدرج بنى لها وهى غافلة فما راع المرأة إلا خبيب قد أجلس الصبى على فخذه والموسى بيده فصاحت المرأة فقال خبيب أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك إن الغدر ليس من شأننا فقالت المرأة بعد والله مارأيت أسيرا خيرا من خبيب والله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب فى يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة إن كان إلا رزقا رزقه الله خبيبا ثم إنهم خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحل وأرادوا أن يصلبوه فقال لهم خبيب دعونى أصلى ركعتين فتركوه فكان خبيب هو أول من سن لكل مسلم قتل صبرا الصلاة فركع ركعتين ثم قال لولا أن يحسبوا أن مابى جزع لزدت اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم أنشأ يقول :

فلست أبالى حين أقتل مسلما　　على أى شق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ　　يبارك على أوصال شلو ممزع

فصلبوه حيا فقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد حولى يبلغ سلامى رسولك فأبلغه سلامى ثم قام أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله، ويقال كان رجل من المشركين يقال له سلامان أبو ميسرة معه رمح فوضعه بين ثدى خبيب فقال له خبيب اتق الله فما زاده ذلك إلا عتوا فطعنه فأنفذه وذلك قوله عز وجل «وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم يعنى سلامان وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف فبعثه مع مولى له يسمى نسطاس إلى التنعيم ليقتله بأبيه واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل أنشدك الله يازيد أتحب أن محمدا عندنا الآن بمكانك ونضرب عنقه وأنك فى أهلك فقال والله ما أحب أن محمدا صلى الله عليه وسلم الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة

تؤذيه وأنا جالس في أهلي. فقال أبو سفيان ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ثم قتله نسطاس فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الخبر، قال لأصحابه «أيكم ينزل خبيبا عن خشبته وله الجنة؟ فقال الزبير أنا يارسول الله وصاحبي المقداد بن الأسود فخرجا يمشيان بالليل ويكمنان بالنهار حتى أتيا التنعيم ليلا، وإذا حول الخشبة أربعون رجلا من المشركين نائمون نشاوى فأنزلاه فإذا هو رطب ينثني لم يتغير منه شيء بعد أربعين يوما ويده على جراحته وهي تبض دما اللون لون الدم والريح ريح المسك فحمله الزبير على فرسه وساروا فانتبه الكفار وقد فقدوا خبيبا فأخبروا قريشا فركب منهم سبعون فلما لحقوهم قذف الزبير خبيبا فابتلعته الأرض فسمي بليع الأرض فقال الزبير ما جرأكم علينا يامعشر قريش. ثم رفع العمامة عن رأسه وقال أنا الزبير بن العوام وأمي صفية بنت عبد المطلب وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان رابضان يدافعان عن شبليهما فإن شئتم ناضلتكم وإن شئتم نازلتكم وإن شئتم انصرفتم فانصرفوا إلى مكة وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عنده فقال يامحمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك فنزل في الزبير والمقداد بن الأسود «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله» حين شريا أنفسهما بإنزال خبيب عن خشبته وقال أكثر المفسرين نزلت في صهيب بن سنان الرومي حين أخذه المشركون في رهط من المؤمنين فعذبوهم فقال لهم صهيب إني شيخ كبير لايضركم أمنكم كنت أم من غيركم فهل أن تأخذوا مالي وتذروني وديني ففعلوا وكان شرط عليهم راحلة ونفقة فأقام بمكة ماشاء الله ثم خرج إلى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر في رجال فقال له أبو بكر ربح بيعك ياأبا يحيى فقال له صهيب وبيعك فلا تتحسر قال صهيب: ماذا لي؟ فقال قد أنزل الله فيك وقرأ هذه الآية وقال سعيد بن المسيب وعطاء أقبل صهيب مهاجرا نحو النبي صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من مشركي قريش فنزل عن راحلته ونثل ما كان في كنانته ثم قال يامعشر قريش لقد علمتم أني لمن أرماكم رجلا والله لا أضع سهما مما في كنانتي إلا في قلب رجل منكم وايم الله لا تصلون إلى حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي ثم افعلوا ماشئتم وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وخليتم سبيلي قالوا نعم ففعل ذلك فأنزل الله هذه الآية. وقال الحسن: أتدرون فيمن نزلت هذه الآية؟ نزلت في المسلم يلقى الكافر فيقول له قل: لا إله إلا الله فيأبى أن يقولها فقال المسلم: والله لأشرين نفسي لله فتقدم فقاتل وحده حتى قتل، وقيل نزلت الآية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ابن عباس أرى من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله يقوم فيأمر هذا بتقوى الله فإذا لم يقبل وأخذته العزة بالإثم قال وأنا أشري نفسي لله فقاتله فاقتتل الرجلان لذلك وكان علي إذا قرأ هذه الآية يقول اقتتلا ورب الكعبة وقال أبو الخليل سمع عمر بن الخطاب إنسانا يقرأ هذه الآية «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله» فقال عمر إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل. أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا عبد الرحمن بن شريح أخبرنا أبو القاسم البغوي أخبرنا علي بن الجعد أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي غالب عن أبي أمامة أن رجلا قال يارسول الله أي الجهاد أفضل قال أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) قرأ أهل الحجاز والكسائي السلم ههنا بفتح السين وقرأ الباقون بكسرها وفي سورة الأنفال بالكسر وقرأ أبو بكر والباقون بالفتح وفي سورة محمد صلى الله عليه وسلم بالكسر حمزة وأبو بكر نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام النضيري وأصحابه وذلك أنهم كانوا يعظمون السبت ويكرهون لحوم الإبل وألبانها بعد ما أسلموا وقالوا يارسول الله إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقم بها في صلاتنا بالليل فأنزل الله تعالى «ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة» أي في الإسلام. قال مجاهد في أحكام أهل الإسلام وأعمالهم كافة أي جميعا وقيل ادخلوا في الإسلام إلى منتهى شرائعه كافين عن المجاوزة إلى غيره وأصل السلم من الاستسلام والانقياد ولذلك قيل للصلح سلم قال حذيفة بن اليمان في هذه الآية: الإسلام ثمانية أسهم. فعد الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال

تعالى يشتري ملكه بملكه فضلا منه ورحمة وإحسانا قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وذلك لما أسلموا قاموا على تعظيم شرائع موسى فعظموا السبت وكرهوا لحوم الإبل وألبانها وقالوا إن ترك هذه الأشياء مباح في الإسلام وواجب في التوراة وقالوا أيضا يارسول الله إن التوراة كتاب الله دعنا فلنقم به في صلاتنا بالليل فأنزل الله هذه الآية وأمرهم أن يدخلوا في السلم أي في

شرائع

قد خاب من لاسهم له (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى آثاره فيما زين لكم من تحريم السبت ولحوم الإبل وغيره (إنه لكم عدو مبين) أخبرنا محمد بن الحسن المروزى أخبرنا أبو العباس الطحان أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش أخبرنا على بن عبد العزيز المكى أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام أخبرنا هاشم أخبرنا مخلد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم حين أتاه عمر فقال إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا أفترى أن نكتب بعضها فقال «أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا

اتباعى» (فان زللتم) ضللتم وقيل ملتم يقال زلت قدمه تزل زلا وزللا إذا دحضت قال ابن عباس يعنى الشرك قال قتادة قد علم الله أنه سيزل زالون من الناس فتقدم فى ذلك وأوعد فيه ليكون لديه الحجة عليهم (من بعد ماجاءتكم البينات) أى الدلالات الواضحات (فاعلموا أن الله عزيز) فى نقمته (حكيم) فى أمره فالعزيز هو الغالب الذى لا يفوته شىء، والحكيم ذو الإصابة فى الأمر قوله تعالى (هل ينظرون) أي هل ينتظر التاركون الدخول فى السلم والمتبعون خطوات الشيطان يقال نظرته وانتظرته بمعنى واحد فاذا كان النظر مقرونا بذكر الوجه أو إلى لم يكن إلا بمعنى الرؤية (إلا أن يأتيهم الله فى ظلل) جمع ظلة (من الغمام) وهو السحاب الأبيض الرقيق سمى غماما لأنه يغم أى يستر. وقال مجاهد هو غير السحاب ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم وقال مقاتل كهيئة الضبابة أبيض قال الحسن فى سترة من الغمام فلا ينظر إليهم أهل الأرض (والملائكة) قرأ أبو جعفر بالخفض عطفا على الغمام تقديره مع الملائكة تقول العرب أقبل الأمير فى العسكر أى مع العسكر وقرأ الباقون بالرفع على معنى إلا أن يأتيهم الله والملائكة فى ظلل من الغمام والأولى فى هذه الآية وفيما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهرها ويكل علمها إلى الله تعالى أو يعتقد أن الله عز اسمه منزه عن سمات الحدوث على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة قال الكلبي: هذا من المكتوم الذى لا يفسر وكان مكحول والزهرى والأوزاعى ومالك

شرائع الإسلام ولا يتمسكوا بالتوراة فانها منسوخة والمعنى استسلموا لله وأطيعوه فيما أمركم به وقيل هو خطاب لمن لم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمعنى ياأيها الذين آمنوا بموسى وعيسى ادخلوا فى السلم كافة أى فى الإسلام. وروى جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم حين أتاه عمر فقال إنا نسمع أحاديث من يهود وتعجبنا فترى أن نكتب بعضها فقال صلى الله عليه وسلم أتتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو أن موسى حى ما وسعه إلا اتباعى» قوله أتتهوكون أى تتحيرون أنتم فى دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى وقوله لقد جئتكم بها يعنى بالملة الحنيفية بيضاء نقية أى لا تحتاج إلى شىء وقيل يحتمل أن يكون خطابا للمنافقين من المؤمنين والمعنى ياأيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا فى السلم أى الانقياد والطاعة لأن أصل السلم الاستسلام وهو الانقياد كافة أى بأجمعكم ولا تتفرقوا وقيل يحتمل أن يرجع إلى الإسلام والمعنى ادخلوا فى أحكام الإسلام وشرائعه كافة وهذا المعنى أليق بظاهر التفسير لأنهم أمروا بالقيام بها كلها قال حذيفة بن اليمان فى هذه الآية للاسلام ثمانية أسهم فعل الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال وقد خاب من لاسهم له (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) يعنى آثاره فيما زين لكم من تحريم السبت ولحوم الإبل وغير ذلك، وقيل ولا تلتفتوا إلى الشبهات التى يلقيها إليكم أصحاب الضلالة والغواية والأهواء المضلة لأن من اتبع سنة إنسان فقد تبع أثره (إنه لكم عدو مبين) يعنى الشيطان. فان قلت عداوته بايصال الضرر وإلقاء الوسوسة فكيف يصح ذلك مع الاعتقاد فان الله هو الفاعل لجميع الأشياء. قلت إنه يحاول إيصال الضرر والبلاء إلينا ولكن الله منعه عن ذلك وأما معنى الوسوسة فمعلوم أنه يزين المعاصى وإلقاء الشبهات وكل سبب لوقوع الإنسان فى مخالفة الله تعالى فيصده بذلك عن الثواب فهذا من أعظم جهات العداوة. فان قلت كيف يصح وصف الشيطان بأنه مبين مع أنا لانراه. قلت إن الله تعالى بين عداوته ماهى فكأنه بين وإن لم يشاهد (فان زللتم) أى ملتم وضللتم وقال ابن عباس أشركتم (من بعد جاءتكم البينات) أى الدلالات الواضحات (فاعلموا أن الله عزيز) أى فى نقمته ممن خالفه غالب لايعجزه شىء (حكيم) يعنى أنه لاينتقم إلا بحق والحكيم ذو الإصابة فى الأمور كلها وفى الآية وعيد وتهديد لمن فى قلبه شك ونفاق أو عنده شبهة فى الدين. قوله عز وجل (هل ينظرون) أى ينتظرون التاركون الدخول فى السلم والمتبعون خطوات الشيطان (إلا أن يأتيهم الله فى ظلل) جمع ظلة (من الغمام) يعنى السحاب الأبيض الرقيق سمى غماما لأنه يغم ويستر وقيل هو شىء غير السحاب ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم وهو كهيئة الضباب الأبيض (والملائكة)

أى وتأتيهم الملائكة . وروى الطبرى فى تفسيره بسند متصل عن عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من الغمام طاقات يأتى الله عز وجل فيها محفوفا ، وذلك قوله تعالى هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر » قال عكرمة والملائكة حوله وقيل معناه حول الغمام وقيل حول الرب تبارك وتعالى . واعلم أن هذه الآية من آيات الصفات وللعلماء فى آيات الصفات وأحاديث الصفات مذهبان أحدهما وهو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة : الإيمان والتسليم لما جاء فى آيات الصفات وأحاديث الصفات وأنه يجب علينا الإيمان بظاهرها ونؤمن بها كما جاءت ونكل علمها إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم مع الإيمان والاعتقاد بأن الله تعالى منزه عن سمات الحدوث وعن الحركة والسكون قال الكلبى . هذا من الذى لا يفسر وقال سفيان بن عيينة كل ما وصف الله به نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عليه ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله وكان الزهرى والأوزاعى ومالك وابن المبارك وسفيان الثورى والليث بن سعد وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه يقولون فى هذه الآية وأمثالها اقرءوها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل هذا مذهب أهل السنة ومعتقد سلف الأمة ، وأنشد بعضهم فى المعنى :

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته ولا ذاته شىء عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا وتأويلنا فعل اللبيب المغالب
ونركب للتسليم سفنا فانها لتسليم دين المرء خير المراكب

(المذهب الثانى) وهو قول جمهور علماء المتكلمين وذلك أنه أجمع جميع المتكلمين من العقلاء والمعتبرين من أصحاب النظر على أنه تعالى منزه عن المجىء والذهاب ويدل على ذلك أن كل ما يصح عليه المجىء والذهاب لا ينفك عن الحركة والسكون وهما محدثان وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث ، والله تعالى منزه عن ذلك فيستحيل ذلك فى حقه تعالى فثبت بذلك أن ظاهر الآية ليس مرادا فلابد من التأويل على سبيل التفصيل فعلى هذا قيل فى معنى الآية هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله الآيات فيكون مجىء الآيات مجيئا لله تعالى على سبيل التفخيم لشأن الآيات وقيل معناه إلا أن يأتيهم أمر الله ووجه هذا التأويل أن الله تعالى فسره فى آية أخرى فقال هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك فصار هذا الحكم مفسرا لهذا المجمل فى هذه الآية وقيل معناه يأتيهم الله بما أوعد من الحساب والعقاب فحذف ما يأتى به تهويلا عليهم إذ لو ذكر ما يأتى به كان أسهل عليهم فى باب الوعيد وإذا لم يذكر كان أبلغ وقيل يحتمل أن تكون الفاء بمعنى الباء لأن بعض الحروف يقوم مقام بعض فيكون المعنى هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة والمراد العذاب الذى يأتى من الغمام مع الملائكة وقيل معناه ما ينظرون إلا أن يأتيهم قهر الله وعذابه فى ظلل من الغمام . فان قلت لم كان إتيان العذاب فى الغمام . قلت لأن الغمام مظنة الرحمة ومنه ينزل المطر فاذا نزل منه العذاب كان أعظم وأفظع وقيل إن نزول الغمام علامة لظهور القيامة وأهوالها (وقضى الأمر) أى وجب العذاب وفرغ من الحساب وذلك فصل الله القضاء بين العباد يوم القيامة (وإلى الله ترجع الأمور) أى إلى الله تصير أمور العباد فى الآخرة . فان قلت هل كانت ترجع إلى غيره . قلت إن أمور جميع العباد ترجع إليه فى الدنيا

والآخرة

وابن المبارك وسفيان الثورى والليث بن سعد وأحمد وإسحاق يقولون فيه وفى أمثاله أمرها كما جاء بلا كيف قال سفيان ابن عيينة كل ما وصف الله به نفسه فى كتابه فتفسيره قراءته والسكوت عليه ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى ورسوله . قوله تعالى (وقضى الأمر) أى وجب العذاب وفرغ من الحساب وذلك فصل الله القضاء بالحق بين الخلق يوم القيامة (وإلى الله ترجع الأمور) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم . وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الجيم . قوله تعالى

(سل بنى إسرائيل) أى سل يا محمد يهود المدينة (كم آتيناهم) أعطيناهم آباءهم وأسلافهم (من آية بينة) قرأ أهل الحجاز وقتيبة بتشديد الياء والباء والباقون بتشديد الياء دلالة واضحة على نبوة موسى عليه السلام مثل العصا واليد البيضاء وفلق البحر وغيرها وقيل معناه الدلالات التى آتاهم الله فى التوراة والإنجيل على نبوة محمد ﷺ (ومن يبدل) يعنى يغير (نعمة الله) كتاب الله وقيل عهد الله وقيل من ينكر الدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (١٩٩) (من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب زين للذين كفروا الحياة الدنيا) الأكثرون على أن المزين هو الله تعالى والتزيين من الله تعالى، هو أنه خلق الأشياء الحسنة والمناظر العجيبة فنظر الخلق إليها بأكثر من قدرها فأعجبهم حسنها ففتنوا بها وقال الزجاج زين لهم الشيطان، قيل نزلت هذه الآية فى مشركى العرب أبى جهل وأصحابه كانوا يتنعمون بما بسط الله لهم فى الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد (ويسخرون من الذين آمنوا) أى يستهزئون بالفقراء من المؤمنين. قال ابن عباس أراد بالذين آمنوا عبد الله ابن مسعود وعمار بن ياسر وصهيبا وبلالا وخبابا وأمثالهم وقال مقاتل نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه كانوا يتنعمون فى الدنيا ويسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين ويقولون انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم وقال عطاء نزلت فى رؤساء اليهود من بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع سخروا من فقراء المهاجرين فوعدهم الله أن يعطيهم أموال بنى قريظة والنضير بغير قتال ويسخرون من الذين آمنوا لفقرهم (والذين اتقوا) يعنى هؤلاء الفقراء (فوقهم يوم القيامة) لأنهم فى أعلى عليين وهم فى أسفل السافلين. أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهرى أخبرنا جدى عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أخبرنا أبو بكر محمد بن زكريا

والآخرة ولكن المراد من هذا إعلام الخلق إنه المجازى على الأعمال بالثواب والعقاب ، وجواب آخر وهو أنه لما عبد قوم غيره فى الدنيا أضافوا أفعاله إلى سواه ثم فاذا كان يوم القيامة وانكشف الغطاء ردوا إلى الله ما أضافوه الى غيره فى الدنيا . قوله عز وجل (سل بنى إسرائيل) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يسأل يهود المدينة وليس المراد بهذا السؤال العلم بالآيات لأنه كان صلى الله عليه وسلم قد علمها باعلام الله إياه ولكن المراد بهذا السؤال التقريع والتوبيخ والمبالغة فى الزجر عن الإعراض عن دلائل الله وترك الشكر وقيل المراد بهذا السؤال التقرير وتذكير النعم التى أنعم بها على سلفهم (كم آتيناهم من آية بينة) أى من دلالة واضحة على نبوة موسى عليه السلام مثل العصا واليد البيضاء وفلق البحر وإنزال المن والسلوى (ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته) يعنى يغير الآية التى جاءته من الله لأنها هى سبب الهدى والنجاة من الضلالة وقيل هى حجج الله الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أنهم أنكروها وبدلوها وقيل المراد بنعم الله عهده الذى عهد إليهم فلم يفوا به (فان الله شديد العقاب) يعنى لمن بدل نعمة الله . قوله عز وجل (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) نزلت فى مشركى العرب أبى جهل وأصحابه لأنهم كانوا يتنعمون بما بسط لهم فى الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد، وقيل نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه وقيل نزلت فى رؤساء اليهود ويحتمل أنها نزلت فى الكل والمزين هو الله تعالى بدليل قراءة من قرأ زين بفتح الزاى وذلك أنه لايمتنع أن يكون الله تعالى هو المزين لهم بما أظهره فى الدنيا من الزهرة والنضارة والطيب واللذة وخلق الأشياء العجيبة والمناظر الحسنة وإنما فعل ذلك ابتلاء العباد وذلك أنه جعل دار الدنيا ابتلاء وامتحان وركب فى الطباع الميل إلى اللذات وحب الشهوات لا على سبيل الالجاء والقسر الذى لا يمكن تركه بل على سبيل التحبب الذى تميل النفس إليه مع إمكان ردها عنه فنظر الخلق إلى الدنيا أكثر من قدرها فأعجبهم حسنها وزهرتها وزينتها فأحبوها وفتنوا بها وقيل إن المراد من التزيين أنه تعالى أمهلهم فى الدنيا حتى أقبلوا عليها وأحبوها فكان هذا الإمهال هو التزين وقيل إن المزين هو الشيطان وغواة الجن والإنس وذلك أنهم زينوا للكفار الحرص على الدنيا وطلبها وقبحوا لهم أمر الآخرة وقيل أوهموهم أن لا آخرة ليقبلوا على لذات الدنيا وطلب الحرص عليها وهذا التأويل ضعيف لأن قوله تعالى زين الذين كفروا يتناول جميع الكفار فيدخل فيه الشيطان وغواة الجن والإنس وأن كلهم مزين لهم وهذا المزين لابد وأن يكون مغايرا لهم فثبت بهذا ضعف قول المعتزلة (ويسخرون من الذين آمنوا) يعنى أن الكفار يستهزئون بفقراء المؤمنين قال ابن عباس مثل عبد الله ابن مسعود وعمار بن ياسر وصهيب وبلال ونظرائهم وقيل كانوا يقولون انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم (والذين اتقوا) يعنى الفقراء من المؤمنين (فوقهم) أى فوق الكفار (يوم القيامة) لأن الفقراء فى عليين والكفار والمنافقين فى أسفل السافلين (ق) عن حارثة

العذافرى أخبرنا إسحاق الديرى أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ « وقفت على باب الجنة فرأيت أكثر أهلها المساكين ووقفت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء وإذا أهل الجد محبوسون إلا من كان منهم من أهل النار فقد أمر به إلى النار » أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى (٢٠٠) أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنى عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن سهل بن سعد الساعدى أنه قال مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده جالس ما رأيك فى هذا فقال رجل من أشراف الناس هذا والله حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيك فى هذا فقال يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى إن خطب أن لاينكح وإن شفع أن لايشفع وإن قال أن لايسمع لقوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خير من ملء الأرض مثل هذا (والله يرزق من يشاء بغير حساب) قال ابن عباس يعنى كثيرا بغير مقدار لأن كل مادخل عليه الحساب فهو قليل يريد يوسع على من يشاء ويبسط لمن يشاء من عباده وقال الضحاك يعنى من غير تبعة فان يرزقه فى الدنيا ولا يحاسبه فى الآخرة وقيل هذا يرجع إلى الله معناه يقتر على من يشاء ويبسط لمن يشاء ولا يعطى لكل أحد بقدر حاجته بل يعطى الكثير من لايحتاج إليه ولا يعطى القليل من يحتاج إليه فلا يعترض عليه ولا يحاسب فيما يرزق ولا يقال لم أعطيت هذا وحرمت هذا ولم أعطيت هذا أكثر مما أعطيت ذاك وقيل معناه لايخاف نفاد خزائنه فيحتاج إلى حساب مايخرج منها لأن الحساب من المعطى إنما يكون بما يخاف من نفاد خزائنه قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة) على دين واحد

ابن وهب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ جعظرى مستكبر » العتل الفظ الغليظ الشديد فى الخصومة الذى لاينقاد لخير والجواظ الفاجر المختال فى مشيته وقيل هو القصير البطين والجعظرى الفظ الغليظ وقيل هو الذى يتمدح بما ليس فيه أو عنده (ق) عن أسامة بن زيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء » الجد بفتح الجيم هو الحظ والغنى وكثرة المال (والله يرزق من يشاء بغير حساب) قال ابن عباس يعطى كثيرا بغير مقدار لأن كل مايدخل عليه الحساب فهو قليل والمعنى أنه يوسع لمن يشاء من عباده وقيل يرزقه فى الدنيا ولا يحاسبه فى الآخرة وقيل معناه أنه يرزق من يشاء من حيث لايحتسب وقيل معناه أنه يرزقه بغير استحقاق وقيل معناه أنه تعالى لايخاف نفاد مافى خزائنه حتى يحتاج إلى حساب لما يخرج منها لأن الحساب إنما يكون ليعلم قدر مايعطى والله غنى عالم بما يعطى ولا يخاف نفاد خزائنه لأنها بين الكاف والنون وقيل معناه إن الله يقتر الرزق على مايشاء ويبسط الرزق لمن يشاء ولا يعطى كل واحد على قدر حاجته بل يعطى الكثير لمن لايحتاج إليه ولا معارض له فى حكمه ويحاسب فيما رزق ولايقال له لم أعطيت هذا وحرمت هذا ولا لم أعطيت هذا أكثر من ذاك لأنه تعالى لاشريك له فى ملكه ينازعه ولا يسأل عما يفعل . وقيل يحتمل أن يكون المراد منه مايعطى الله المتقين فى الآخرة من الثواب والكرامة بغير محاسبة منه لهم على ما من به عليهم وذلك أن نعيم الجنة لانفاد له ولا انقطاع وقيل إنه تعالى يعطى أهل الجنة الثواب والأجر بقدر أعمالهم ثم يتفضل عليهم فذلك الفضل منه إليهم بغير حساب قوله عز وجل (كان الناس أمة واحدة) أى على دين واحد قيل هو آدم وذريته كانوا مسلمين على دين واحد إلى أن قتل قابيل هابيل فاختلفوا وقيل كان الناس على شريعة واحدة من الحق والهدى من وقت آدم إلى مبعث نوح ثم اختلفوا فبعث الله نوحا وهو أول رسول بعث ثم بعث بعده الرسل وقيل هم أهل السفينة الذين كانوا مع نوح وكانوا مؤمنين ثم اختلفوا بعد وفاته وقيل ان العرب كانت على دين إبراهيم عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحى وقيل كانت الناس أمة واحدة حين أخرجوا من ظهر آدم لأخذ الميثاق فقال ألست بربكم قالوا بلى فاعترفوا بالعبودية ولم يكونوا أمة واحدة غير ذلك اليوم ثم لما ظهروا إلى الوجود اختلفوا بسبب البغى والحسد وقيل إن آدم وحده كان أمة واحدة يعنى إماما وقدوة يقتدى به وإنما ظهر الاختلاف بعده وقيل كان الناس أمة واحدة على الكفر والباطل بدليل قوله فبعث الله النبيين

قال مجاهد أراد آدم وحده كان أمة واحدة قال سمى الواحد بلفظ الجمع لأنه أصل النسل وأبو البشر ثم خلق الله تعالى منه حواء ونشر منهما الناس فانتشروا وكانوا مسلمين إلى أن قتل قابيل هابيل فاختلفوا (فبعث الله النبيين) قال الحسن وعطاء كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمة واحدة على ملة الكفر أمثال البهائم فبعث الله نوحا وغيره من النبيين وقال قتادة وعكرمة كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى ثم اختلفوا فى زمن نوح فبعث الله إليهم نوحا فكان أول نبى بعث ثم بعث بعده النبيين ، وقال الكلبى هم أهل سفينة نوح كانوا مؤمنين ثم اختلفوا بعد وفاة نوح وروى عن ابن عباس قال كان الناس على عهد إبراهيم عليه السلام أمة واحدة كفارا كلهم فبعث الله إبراهيم وغيره من النبيين وقيل كان العرب على دين إبراهيم إلى

أن غيره عمرو بن لحى لعنة الله عليه وروى عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال كان الناس حين عرضوا على آدم وأخرجوا من ظهره وأقروا بالعبودية لله تعالى أمة واحدة مسلمين كلهم ولم يكونوا أمة واحدة قط غير ذلك اليوم ثم اختلفوا بعد آدم نظيره فى سورة يونس «وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا» فبعث الله النبيين وجملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر والمذكورون فى القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون نبيا (مبشرين) بالثواب من آمن وأطاع (ومنذرين) محذرين بالعقاب من كفر وعصى (وأنزل معهم الكتاب) أى الكتب تقديره وأنزل مع كل واحد منهم الكتاب (بالحق) بالعدل والصدق (ليحكم بين الناس)

فان قيل أليس قد كان فيهم من هو مسلم نحو هابيل وشيث وإدريس ونحوهم . فالجواب أن الغالب فى ذلك الزمان كان الكفر والحكم للغالب وقيل إن الآية دلت على أن الناس كانوا أمة واحدة وليس فيها مايدل على أنهم كانوا على إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج (فبعث الله النبيين) وجملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر المذكورون منهم فى القرآن بأسماء الأعلام ثمانية وعشرون نبيا (مبشرين) بالثواب لمن آمن وأطاع (ومنذرين) يعنى مخوفين بالعقاب لمن كفر وعصى وإنما قدم البشارة على الإنذار لأن البشارة تجرى مجرى حفظ الصحة للأبدان والإنذار يجرى مجرى إزالة المرض ولا شك أن المقصود ذو الأول فكان أولى بالتقديم (وأنزل معهم الكتاب) أى الكتب أو يكون التقدير وأنزل مع كل واحد الكتاب (بالحق) أى بالعدل والصدق وجملة الكتب المنزلة من السماء مائة وأربعة كتب أنزل على آدم عشر صحائف وعلى شيث ثلاثون وعلى إدريس خمسون وعلى موسى عشر صحائف والتوراة وعلى داود الزبور وعلى عيسى الإنجيل وعلى محمد ﷺ وعليهم القرآن (ليحكم بين الناس) يعنى الكتاب وإنما أضيف الحكم إلى الكتاب وإن كان الحاكم هو الله تعالى لأنه أنزله والمعنى ليحكم الله بالكتاب الذى أنزله وقيل معناه ليحكم بين الناس كل نبى بكتابه المنزل عليه فاسناد الحكم إلى الكتاب أو للنبى مجاز والله هو الحاكم فى الحقيقة (فيما اختلفوا فيه) أى فى الحق الذى اختلفوا فيه من بعد ما كانوا متفقين عليه (وما اختلف فيه) أى فى الحق (إلا الذين أوتوه) أى أعطوا الكتاب والمراد به التوراة والإنجيل والذين أوتوه اليهود والنصارى واختلافهم هو تكفير بعضهم بعضا بغيا وحسدا وقيل اختلافهم هو تحريفهم وتبديلهم وقيل الكناية فيه راجعة إلى محمد ﷺ والمعنى وما اختلف فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم بعد وضوح الدلالات على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم إلا اليهود الذين أوتوا الكتاب بغيا منهم وحسدا (من بعد ماجاءتهم البينات) أى الدلالات الواضحات على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (بغيا بينهم) أى إنهم لم يبق لهم عذر فى العدول عنه وترك ماجاء به وإنما تركوا إتباعه بغيا

قرأ أبو جعفر ليحكم بضم الياء وفتح الكاف ههنا وفى أول آل عمران وفى النور موضعين لأن الكتاب لا يحكم فى الحقيقة إنما يحكم به وقراءة العامة بفتح الياء وضم الكاف أى ليحكم الكتاب ذكره على سعة الكلام كقوله تعالى «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق» وقيل معناه ليحكم كل نبى بكتابه (فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه) أى فى الكتاب (إلا الذين أوتوه) أى أعطوا الكتاب (من بعد ماجاءتهم البينات) يعنى أحكام التوراة والإنجيل قال الفراء ولاختلافهم معنيان أحدهما كفر بعضهم بكتاب بعض قال الله تعالى «ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض» والآخر تحريفهم كتاب الله قال الله «يحرفون الكلم عن مواضعه» وقيل الآية راجعة إلى محمد ﷺ وكتابه اختلف فيه أهل الكتاب من بعد ماجاءتهم البينات صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتبهم (بغيا) ظلما وحسدا (بينهم

فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه) أى إلى ما اختلفوا فيه (من الحق باذنه) بعلمه وإرادته فيهم . قال ابن زيد فى هذه الآية اختلفوا فى القبلة فمنهم من يصلى إلى المشرق ومنهم من يصلى إلى المغرب ومنهم من يصلى إلى بيت المقدس فهدانا الله إلى الكعبة . واختلفوا فى الصيام فهدانا الله لشهر رمضان . واختلفوا فى الأيام فأخذت اليهود السبت والنصارى الأحد فهدانا الله للجمعة . واختلفوا فى إبراهيم عليه السلام فقالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا فهدانا الله للحق من ذلك واختلفوا فى عيسى فجعلته اليهود الفرية وجعلته النصارى إلها وهدانا الله للحق فيه (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) قوله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) قال قتادة والسدى: نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد وشدة الخوف والبرد وضيق العيش وأنواع الأذى كما قال الله تعالى «وبلغت القلوب الحناجر» وقيل نزلت فى حرب أحد وقال عطاء لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة اشتد عليهم الضر لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدى المشركين وآثروا رضا الله ورسوله وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسر قوم النفاق فأنزل الله تعالى تطييبا لقلوبهم « أم حسبتم » معناه حسبتم والميم صلة قاله الفراء وقال الزجاج بل حسبتم ومعنى الآية أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة (ولما يأتكم) أى ولم يأتكم وما صلة (مثل الذين خلوا) شبه الذين مضوا (من قبلكم) من النبيين والمؤمنين (مستهم البأساء) الفقر والشدة والبلاء (والضراء) المرض والزمانة (وزلزلوا) أى حركوا بأنواع البلايا والرزايا وخوفوا

وحسدا وهو طلب الدنيا وطلب الرياسة (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه) أى إلى ما اختلفوا فيه (من الحق) والمعنى فهدى الله الذين آمنوا لمعرفة ما اختلفوا فيه من الحق وقيل هو من المقلوب والمعنى فهدى الله الذين آمنوا للحق الذى اختلفوا فيه وكان اختلافهم الذى اختلفوا فيه الجمعة فهدى الله تعالى هذه الأمة الإسلامية إليها (ق) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله فغدا لليهود وبعد غد للنصارى» وفى رواية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «نحن الآخرون السابقون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له» زاد النسائى يعنى يوم الجمعة ثم اتفقا فالناس لنا تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد (م) عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أضل الله عن يوم الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الله الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا الأولون يوم القيامة المقضى لهم يوم القيامة قبل الخلائق وقيل اختلفوا فى شأن القبلة فصلت اليهود نحو المغرب إلى بيت المقدس وصلت النصارى إلى المشرق وهدانا الله إلى الكعبة وقيل اختلفوا فى الصيام فهدانا الله لشهر رمضان واختلفوا فى إبراهيم فقالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا فهدانا الله إلى الحق فقلنا كان حنيفا مسلما واختلفوا فى عيسى بن مريم فاليهود فرطوا فيه والنصارى أفرطوا فيه فهدانا الله فى ذلك كله للحق والمعنى فهدى الله الذين آمنوا إلى الحق الذى اختلف فيه من اختلف (باذنه) يعنى بعلمه وأمره وإرادته (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) قوله عز وجل (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) نزلت فى غزوة الأحزاب وهى غزوة الخندق وذلك أن المسلمين أصابهم ما أصابهم من الجهد والشدة والخوف والبرد وضيق العيش الذى كانوا فيه يومئذ. وقيل نزلت فى غزوة أحد وقيل لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة فى أول الهجرة اشتد عليهم الضر لأنهم خرجوا بلا مال وتركوا أموالهم وديارهم بأيدى المشركين وآثروا رضا الله ورسوله وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأسر قوم النفاق فأنزل الله هذه الآية تطييبا لقلوبهم ومعنى الآية أحسبتم والميم صلة وقيل هل حسبتم والمعنى أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة بمجرد الإيمان ولم يصبكم مثل ما أصاب من كان قبلكم من أتباع الأنبياء والرسل من الشدائد والمحن والابتلاء والاختبار وهو قوله (ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) أى شبه الذين مضوا قبلكم من النبيين وأتباعهم من المؤمنين ومثل محنتهم (مستهم البأساء) أى أصابهم الفقر والشدة والمسكنة وهو اسم من البؤس (والضراء) يعنى المرض والزمانة وضروب الخوف (وزلزلوا) أى وحركوا بأنواع البلايا والرزايا وأصل

الزلزلة

(حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) مازال البلاء بهم حتى استبطؤا النصر قال الله تعالى (ألا إن نصر الله قريب) قرأ نافع حتى يقول الرسول بالرفع معناه حتى قال الرسول وإذا كان الفعل الذى يلى حتى فى معنى الماضى ولفظه لفظ المستقبل فلك فيه الوجهان الرفع والنصب فالنصب على ظاهر الكلام لأن حتى

تنصب الفعل المستقبل والرفع لأن معناه الماضي وحتى لاتعمل فى الماضى قوله تعالى (يسئلونك ماذا ينفقون) نزلت فى عمرو ابن الجموح وكان شيخا كبيرا ذا مال فقال يارسول الله بماذا نتصدق وعلى من ننفق فأنزل الله تعالى « يسألونك ماذا ينفقون » وفى قوله ماذا وجهان من الإعراب أحدهما أن يكون محله نصبا بقوله ينفقون تقديره أى شىء ينفقون والآخر أن يكون رفعا بما ومعناه ما الذى ينفقون (قل ماأنفقتم من خير) أي من مال (فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) يجازيكم به قال أهل التفسير كان هذا قبل فرض الزكاة فنسخت بالزكاة قوله تعالى (كتب عليكم القتال) أى فرض عليكم الجهاد واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقال عطاء الجهاد تطوع والمراد من الآية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيرهم وإليه ذهب الثورى واحتج من ذهب إلى هذا بقوله تعالى « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » ولو كان القاعد تاركا فرضا لم يكن يعده الحسنى وجرى بعضهم على ظاهر الآية وقال الجهاد فرض على كافة المسلمين إلى قيام الساعة ، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحى الخوارزمى

الزلزلة الحركة وذلك لأن الخائف لايستقر بل لايزال يضطرب ويتحرك لقلقه (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) وذلك لأن الرسل أثبت من غيرهم وأصبر وأضبط للنفس عند نزول البلاء وكذا أتباعهم من المؤمنين والمعنى أنه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء ولم يبق لهم صبر وذلك هو الغاية القصوى فى الشدة فلما بلغ بهم الحال فى الشدة إلى هذه الغاية واستبطؤا النصر قيل لهم (ألا إن نصر الله قريب) إجابة لهم فى طلبهم والمعنى هكذا كان حالهم لم يغيرهم طول البلاء والشدة عن دينهم إلى أن يأتيهم نصر الله فكونوا يامعشر المؤمنين كذلك وتحملوا الأذى والشدة والمشقة فى طلب الحق فان نصر الله قريب (خ) عن خباب بن الأرت قال شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا ألا تنتصر لنا ألا تدعو لنا فقال « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه مايصده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» . قوله عز وجل (يسئلونك ماذا ينفقون) نزلت فى عمرو بن الجموح وكان شيخا كبيرا ذا مال فقال يارسول الله بماذا نتصدق وعلى من ننفق فأنزل الله تعالى يسألونك ماذا ينفقون (قل ماأنفقتم من خير) أى مال والمعنى وما تفعلوا من إنفاق شىء من المال قل أو كثر (فللوالدين) وإنما قدم الإنفاق على الوالدين لوجوب حقهما على الولد لأنهما كانا السبب فى إخراجه من العدم إلى الوجود (والأقربين) وإنما ذكر بعد الوالدين الأقربين لأن الإنسان لايقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء فتقديم القرابة أولى من غيرهم (واليتامى) وإنما ذكر بعد الأقربين اليتامى لصغرهم ولأنهم لايقدرون على الاكتساب ولا لهم أحد ينفق عليهم (والمساكين) وإنما أخرهم لأن حاجتهم أقل من حاجة غيرهم (وابن السبيل) يعنى المسافر فانه بسبب انقطاعه عن بلده قد يقع فى الحاجة والفقر فانظر إلى هذا الترتيب الحسن العجيب فى كيفية الإنفاق . ثم لما فصل الله هذا التفصيل الحسن الكامل أتبعه بالإجمال فقال تعالى (وما تفعلوا من خير فان الله به عليم) وماتفعلوا من خير مع هؤلاء أو غيرهم طالبا لوجه الله تعالى ورضوانه فان الله به عليم فيجازيكم عليه وذكر علماء التفسير أن هذه الآية منسوخة قال ابن مسعود نسختها آية الزكاة وقال الحسن إنها محكمة ووجه إحكامها أن الله ذكر فيها من تجب النفقة عليه مع فقره وهما الوالدان وقال ابن زيد هذا فى النفل وهو ظاهر الآية فمن أحب التقرب إلى الله تعالى بالإنفاق فالأولى به أن ينفق فى الوجوه المذكورة فى الآية فيقدم الأول فالأول. (بقى فى الآية سؤال: وهو أنه كيف طابق السؤال الجواب وهو أنهم سألوا عن بيان ماينفق فأجيبوا ببيان المصرف وأجيب عن هذا السؤال بأنه قد تضمن قوله ما أنفقتم من خير بيان ماينفقونه وهو المال ثم ضم إلى جواب السؤال ما يكمل به المقصود وهو بيان المصرف لأن النفقة لاتعد نفقة إلا أن تقع موقعها قال الشاعر :

إن الصنيعة لاتعد صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع

قوله عز وجل (كتب عليكم القتال) أى فرض عليكم الجهاد . واختلف العلماء فى حكم

أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرنا أبو عمرو أحمد بن أبي الفراتي . أخبرنا أبو الهيثم بن كليب أخبرنا أحمد ابن حازم بن أبي غرزة أخبرنا سعيد

بن عثمان العبدي عن عمرو بن محمد بن المنكدر عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات ولم يغزو لم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق » وقال قوم وعليه الجمهور إن الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين مثل صلاة الجنازة ورد السلام قال الزهري والأوزاعي كتب الله الجهاد على الناس غزوا أو قعدوا فمن غزا فبها ونعمت ومن قعد فهو عدة إن استعين به أعان وإن استنفر نفر وإن استغنى عنه قعد . قوله تعالى (وهو كره لكم) أي شاق عليكم قال بعض أهل المعاني هذا الكره من حيث نفور الطبع عنه لما فيه من مؤنة المال ومشقة النفس وخطر الروح لا أنهم كرهوا أمر الله تعالى وقال عكرمة نسخها قوله تعالى «سمعنا وأطعنا» يعني أنهم كرهوا ثم أحبوه فقالوا سمعنا وأطعنا قال الله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) لأن في الغزو إحدى الحسنيين إما الظفر والغنيمة وإما الشهادة والجنة (وعسى أن تحبوا شيئا) يعني القعود عن الغزو (وهو شر لكم) لما فيه من فوات الغنيمة والأجر (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) قوله تعالى (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه) سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ

الآية فقال عطاء الجهاد تطوع والمراد من الآية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيرهم وإليه ذهب الثوري وحكى عن الأوزاعي نحوه وحجة هذا القول أن قوله كتب يقتضي الإيجاب ويكفي العمل به مرة واحدة وحجة من أوجبه على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قوله عليكم يقتضي تخصيص هذا الخطاب بالموجودين في ذلك الوقت وقيل بل الآية على ظاهرها والجهاد فرض على كل مسلم ويدل على ذلك ما روى عن أبي هريرة قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برا كان أو فاجرا » أخرجه أبو داود بزيادة فيه (ق) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم الفتح «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» وقيل إن الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط الفرض عن الباقين وهذا القول هو المختار الذي عليه جمهور العلماء قال الزهري كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فبها ونعمت ومن قعد فهو عدة إن استعين به أعان وإن استنفر نفر وإن استغنى عنه قعد قال الله تعالى «فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » ولو كان القاعد تاركا فرضا لم يعده بالحسنى واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على ثلاثة أقوال : أحدها أنها محكمة ناسخة للعفو عن المشركين القول الثاني أنها منسوخة لأن فيها وجوب الجهاد على الكافة ثم نسخ بقوله تعالى «وما كان المؤمنون لينفروا كافة» القول الثالث أنها ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه فالناسخ منها إيجاب الجهاد مع المشركين بعد المنع منه والمنسوخ إيجاب الجهاد على الكافة . وقوله تعالى (وهو كره لكم) أي القتال شاق عليكم وهذا الكره إنما حصل من حيث نفور الطبع عن القتال لما فيه من مؤنة المال ومشقة النفس وخطر الروح والخوف لا أنهم كرهوا أمر الله قيل نسخ هذا الكره بقوله تعالى إخبارا عنهم « وقالوا سمعنا وأطعنا » وقيل إنما كان كراهتهم القتال قبل أن يفرض عليهم لما فيه من الخوف والشدة وكثرة الأعداء فبين الله تعالى أن الذين تكرهون من القتال هو خير لكم من تركه لئلا يكرهونه بعد أن فرض عليهم (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) لفظة عسى توهم الشك مثل لعل وهي من الله يقين وقيل إنها كلمة مطمعة فهي لا تدل على حصول الشك للقائل وتدل على حصول الشك للمستمع والمعنى أن الغزو فيه إحدى الحسنيين إما الظفر والغنيمة وإما الشهادة والجنة وقيل ربما كان الشيء شاقا في الحال وهو سبب المنافع الجليلة في المستقبل ومثله شرب الدواء المر فانه ينفر عنه الطبع في الحال ويكرهه لكن يتحمل هذه الكراهة والمشقة لتوقع حصول الصحة في المستقبل (وعسى أن تحبوا شيئا) يعني القعود عن الغزو (وهو شر لكم) يعني لما فيه من فوت الغنيمة والأجر وطمع العدو فيكم لأنه إذا علم ميلكم إلى الراحة والدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتالكم وإذا علم أن فيكم شهامة وجلادة على القتال كف عنكم (والله يعلم) يعني ما في الجهاد من الغنيمة والأجر والخير (وأنتم لا تعلمون) يعني ذلك والمعنى أن العبد إذا علم قصور علمه وكمال علم الله ثم إن الله تعالى أمره بأمر كان ذلك الأمر فيه مصلحة عظيمة فيجب على العبد امتثال أمر الله تعالى وإن كان يشق على النفس في الحال . قوله عز وجل (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه) سبب نزول

هذه

هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش وهو ابن عمته فى سرية فى جمادي الآخرة قبل قتال بدر بشهرين وأمره على السرية وكتب له كتابا وقال سر على اسم الله ولا تنظر فى الكتاب حتى تسير يومين فاذا نزلت فافتح الكتاب فاقرأه على أصحابك ثم امض لما أمرتك به ولا تستكرهن أحدا منهم على السير معك فسار عبد الله يومين ثم نزل وفتح الكتاب فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فسر على بركة الله تعالى بمن معك من أصحابك حتى تنزل بطن نخلة فارصد بها عيرا لقريش لعلك تأتينا منها بخبر فقال سمعا وطاعة ثم قال لأصحابه ذلك وقال أنه نهانى أن أستكره أحدا منكم فمن كان يريد الشهادة فلينطلق ومن كان يكره فليرجع ثم مضى ومضى أصحابه معه وكانوا ثمانية رهط ولم يتخلف عنه أحد منهم حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع بموضع من الحجاز يقال له نجران أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يتعقبانه فتخلفا فى طلبه ومضى عبد الله ببقية أصحابه حتى نزل فى بطن نخلة بين مكة والطائف فبينما هم كذلك إذ مرت بهم عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة الطائف وفى العير عمرو بن الحضرمى والحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ونوفل بن عبد الله بن المخزوميان فلما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هابوهم وقد نزلوا قريبا منهم فقال عبد الله بن جحش إن القوم قد ذعروا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم وليتعرض لهم فاذا رأوه محلوقا أمنوا فحلقوا رأس عكاشة بن محصن ثم أشرف عليهم فلما رأوه آمنوا وقالوا قوم عمار فلا بأس علينا وكان ذلك فى آخر يوم من جمادى الآخرة وكانوا يرون أنه من رجب فتشاور القوم فيهم وقالوا متى تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم وليمتنعن منكم فأجمعوا أمرهم فى مواقعة القوم فرمى واقد بن عبد الله السهمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله فكان أول قتيل من المشركين وأسر الحكم ابن كيسان وعثمان وكانا أول أسيرين فى الإسلام وأفلت نوفل فأعجزهم واستاق المسلمون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام وسفك الدماء وأخذ الحرائب يعنى المال وعير بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين وقالوا يامعشر الصباة استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعبد الله بن جحش وأصحابه ما أمرتكم بالقتال فى الشهر الحرام ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ شيئا من ذلك وعنف المسلمون أصحاب السرية فيما صنعوا وقالوا لم صنعتم مالم تؤمروا به فعظم ذلك على أصحاب السرية وظنوا أنهم قد هلكوا وسقط فى أيديهم وقالوا يارسول الله إنا قتلنا ابن الحضرمى ثم أمسينا فنظرنا هلال رجب فلا ندرى أفى رجب أصبناه أم فى جمادى وأكثر الناس فى ذلك فأنزل الله هذه الآية فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العير فعزل منها الخمس وكان أول خمس فى الإسلام وأول غنيمة قسمت فقسم الباقى على أصحاب السرية وبعث أهل مكة فى فداء أسيريهم فقال بل نبقيهما حتى يقدم سعد وعتبة وإن لم يقدما قتلناهما بهما فلما قدما فاداهما فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقتل يوم بئر معونة شهيدا وأما عثمان بن عبد الله فرجع إلى مكة فمات بها كافرا وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فوقع فى الخندق مع فرسه فتحطما جميعا

بعث عبد الله بن جحش وهو ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم أخت أبيه فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه إلى المدينة وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين سعد بن أبي وقاص الزهرى وعكاشة بن محصن الأسدى وعتبة بن غزوان السلمى وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسهيل ابن بيضاء وعامر بن ربيعة وواقد بن عبد الله وخالد ابن بكير وكتب لأميرهم عبد الله بن جحش كتابا وقال له سر على اسم الله ولا تنظر فى الكتاب حتى تسير يومين فاذا نزلت فافتح الكتاب واقرأه على أصحابك ثم امض لما أمرتك .ولا تستكرهن أحدا من أصحابك على السير معك فسار عبد الله يومين ثم نزل وفتح الكتاب فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فسر على بركة الله بمن تبعك من أصحابك حتى تنزل بطن نخلة فترصد بها عير قريش لعلك تأتينا منه بخبر فلما نظر فى الكتاب قال سمعا وطاعة ، ثم قال لأصحابه ذلك وقال إنه نهانى أن أستكره أحدا منكم فمن كان يريد الشهادة فلينطلق ومن كره فليرجع ثم مضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد حتى كان بمعدن فوق الفرع بموضع من الحجاز يقال له نجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما يعتقبانه فتخلفا فى طلبه ومضى ببقية أصحابه حتى نزلوا بطن نخلة بين مكة والطائف فبيناهم كذلك إذ مرت عير لقريش تحمل زبيبا

وآدما وتجارة من تجارة الطائف فيهم عمرو بن الحضرمى والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان فلما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هابوهم فقال عبد الله بن جحش إن القوم قد ذعروا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم وليتعرض لهم فحلقوا رأس عكاشة ثم أشرفوا عليهم فقالوا قوم عمار لابأس عليكم فأمنوهم وكان ذلك فى آخر يوم من جمادى الآخرة وكانوا يرون أنه من جمادى وهو من رجب فتشاور القوم وقالوا لئن تركتموهم الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم فأجمعوا أمرهم فى موافقة القوم فرمى واقد بن عبد الله السهمى عمرو ابن الحضرمى بسهم فقتله فكان أول قتيل من المشركين وهو أول قتيل فى الهجرة وأدى النبى صلى الله عليه وسلم دية ابن الحضرمى إلى ورثته من قريش قال مجاهد وغيره لأنه كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش عهد وادع أهل مكة سنتين أن لايقاتلهم ولا يقاتلوه واستأسر الحكم وعثمان فكانا أول أسيرين فى الإسلام وأفلت نوفل فأعجزهم واستاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالت قريش قد استحل محمد الشهر الحرام فسفك فيه الدماء وأخذ الحرائب وعير بذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين وقالوا يامعشر الصباة استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لابن جحش وأصحابه ماأمرتكم بالقتال فى الشهر الحرام ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ شيئا من ذلك فعظم ذلك على أصحاب السرية وظنوا أن قد هلكوا وسقط فى أيديهم وقالوا يارسول الله إناقد قتلنا ابن الحضرمى ثم أمسينا فنظرنا إلى هلال رجب فلا ندرى أفى رجب أصبناه أم فى جمادى وأكثر الناس فى ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العير فعزل منها الخمس فكان أول خمس فى الإسلام وقسم الباقى بين أصحاب السرية فكان أول غنيمة فى الإسلام وبعث أهل مكة فى فداء أسيريهم فقال بل نبقيهما حتى يقدم سعد وعقبة وإن لم يقدما قتلناهما بهما فلما قدما فاداهما فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقتل يوم بئر معونة شهيدا وأما عثمان بن عبد الله فرجع إلى مكة فمات بها كافرا وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فوقع فى الخندق مع فرسه فتحطما جميعا فقتله الله فطلب المشركون جيفته بالثمن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوه فانه خبيث الجيفة خبيث الدية فهذا سبب نزول هذه الآية قوله تعالى (يسئلونك عن الشهر الحرام) يعنى رجبا سمى بذلك لتحريم القتال فيه قوله تعالى (قتال فيه) أى عن قتال فيه (قل) يامحمد (قتال فيه كبير) عظيم تم الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال (وصد عن سبيل الله) وصدكم المسلمين عن الإسلام (وكفر به) أى كفركم بالله (والمسجد الحرام) أى بالمسجد الحرام وقيل وصدكم عن المسجد الحرام (وإخراج أهله) أى إخراج أهل المسجد (منه أكبر) أعظم وزرا (عند الله والفتنة)

(٢٠٦)

وقتله الله فطلب المشركون جيفته بالثمن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوه فانه خبيث الجيفة خبيث الدية وأما تفسير الآية فقوله تعالى «يسألونك» يعنى يامحمد عن الشهر الحرام يعنى رجبا وسمى بذلك لتحريم القتال فيه وفى السائلين رسول الله صلى الله عليه وسلم قولان أحدهما أنهم المسلمون سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أخطؤا أم أصابوا وقيل إن المسلمين كانوا يعلمون أن القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام لا يحل فلما كتب عليهم القتال سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتال فى الشهر الحرام فنزلت هذه الآية والقول الثانى أن السائلين هم المشركون وإنما سألوه على وجه العيب على المسلمين فنزلت هذه الآية يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه (قل) أى قل لهم يامحمد (قتال فيه كبير) أى عظيم مستكبر واختلف العلماء فى حكم هذه الآية على قولين أحدهما أنها محكمة وأنه لايجوز الغزو فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه فيقاتلوا على سبيل الدفع روى عن عطاء أنه كان يحلف بالله مايحل للناس أن يغزوا فى الشهر الحرام ولا أن يقاتلوا فيه ومانسخت والقول الثانى الذى عليه جمهور العلماء وهو الصحيح أنها منسوخة قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار القتال جائز فى الشهر الحرام وهذه الآية منسوخة بقوله «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وبقوله «وقاتلوا المشركين كافة» يعنى فى الأشهر الحرم وغيرها (وصد عن سبيل الله) هذا ابتداء كلام والمعنى وصدكم المسلمين عن الحج أو وصدكم عن الإسلام من يريده (وكفر به) أى بالله (والمسجد الحرام) أى وصدكم عن المسجد الحرام (وإخراج أهله منه) يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حين أذوهم حتى هاجروا وتركوا مكة وإنما جعلهم الله أهله لأنهم كانوا هم القائمين بحقوق المسجد الحرام دون المشركين (أكبر عند الله) أى أعظم وزرا عند الله من القتال فى الشهر الحرام (والفتنة) أى

أى الشرك الذى أنتم عليه (أكبر من القتل) أى أعظم من قتل ابن الحضرمى فى الشهر الحرام فلما نزلت هذه الآية كتب عبدالله بن أنيس إلى مؤمنى مكة إذا عيركم المشركون بالقتال فى الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله ﷺ من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت الحرام ثم قال (ولا يزالون) يعنى مشركى مكة وهو فعل لا مصدر له مثل عسى (يقاتلونكم) يامعشر المؤمنين (حتى يردوكم) يصرفوكم (عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت) جزم بالنسق (وهو كافر فأولئك حبطت) بطلت (أعمالهم) حسناتهم (فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) قال أصحاب السرية يارسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا وهل نطمع أن يكون سفرنا هذا غزوا فأنزل الله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هاجروا) فارقوا عشائرهم ومنازلهم وأموالهم (وجاهدوا) المشركين (فى سبيل الله) طاعة الله فجعلها جهادا (أولئك يرجون رحمة الله) أخبر أنهم على رجاء الرحمة (والله غفور رحيم) قوله تعالى (يسئلونك عن الخمر والميسر) الآية نزلت فى عمر بن الخطاب ومعاذ ابن جبل ونفر من الأنصار أتوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله افتنا فى الخمر والميسر فانهما مذهبة للعقل مسلبة للمال فأنزل الله هذه الآية وجملة القول فى تحريم الخمر على ماقاله المفسرون أن الله تعالى أنزل فى الخمر أربع آيات نزلت بمكة وهى «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا» فكان المسلمون يشربونها وهى لهم حلال يومئذ ثم نزلت هذه الآية فى مسئلة عمر ومعاذ بن جبل «يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير» فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ إن الله تقدم فى تحريم الخمر فتركها قوم لقوله إثم كبير وشربها قوم لقوله ومنافع للناس إلى أن

أى الشرك الذى أنتم عليه (أكبر من القتل) يعنى قتل ابن الحضرمى فى الشهر الحرام فلما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس وقيل عبدالله بن جحش إلى مؤمنى مكة إن عيركم المشركون بالقتال فى الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر وباخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة والمسلمين ومنعهم إياهم من البيت (ولا يزالون) يعنى مشركى مكة (يقاتلونكم) يعنى يامعشر المؤمنين (حتى يردوكم عن دينكم) يعنى إلى دينهم وهو الكفر (إن استطاعوا) يعنى إن قدروا على ذلك وفيه استبعاد لاستطاعتهم فهو كقول الرجل لعدوه إن ظفرت بى فلا تبق على وهو واثق أنه لا يظفر به (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر) يعنى ومن يطاوعهم منكم فيرجع إلى دينهم فيمت على ردته قبل أن يتوب (فأولئك حبطت أعمالهم) أى بطلت أعمالهم (فى الدنيا والآخرة) وهو أن المرتد يقتل وتبين زوجته منه ولا يستحق الميراث من أقاربه المؤمنين ولا ينصر إن استنصر ولا يمدح ولا يثنى عليه ويكون ماله فيئا للمسلمين هذا فى الدنيا ولا يستحق الثواب على أعماله ويحبط أجرها فى الآخرة وظاهر الآية يقتضى أن الارتداد إنما تتفرع عليه الأحكام إذا مات المرتد على الكفر أما إذا أسلم بعد الردة لم يثبت عليه شىء من أحكام الردة وفيه دليل للشافعى أن الردة لا تحبط الأعمال حتى يموت المرتد على ردته وعند أبى حنيفة أن الردة تحبط العمل وإن أسلم (وأولئك أصحاب النار) يعني الذين ماتوا على الردة والكفر هم أصحاب النار (هم فيها خالدون) أى لا يخرجون منها أبدا (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله) نزلت فى عبد الله بن جحش وأصحابه وذلك أن أصحاب السرية قالوا يارسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا ونطمع أن يكون لنا غزو فأنزل الله هذه الآية وعن جندب بن عبدالله قال لما كان من أمر عبدالله بن جحش وأصحابه وأمر ابن الحضرمى ماكان قال بعض المسلمين إن لم يكونوا أصابوا فى صفرهم وزرا فليس لهم فيه أجر فأنزل الله هذه الآية إن الذين آمنوا والذين هاجروا أى فارقوا مساكنهم وعشائرهم وأموالهم وفارقوا مساكنة المشركين في أمصارهم ومجاورتهم في ديارهم فتحولوا عن المشركين وعن بلادهم إلى غيرها وجاهدوا يعنى المشركين في سبيل الله أى في طاعة الله فجعل الله لأصحاب هذه السرية جهادا (أولئك يرجون رحمة الله) أى يطمعون في نيل رحمة الله أخبر أنهم على رجاء الرحمة وقيل المراد من الرجاء هنا القطع في أصل الثواب وإنما دخل الظن في كميته ووقته قال قتادة أثنى الله تعالى على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحسن الثناء فقال «إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله» هؤلاء هم خيار هذه الأمة ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون وأنه من رجا طلب ومن خاف هرب (والله غفور) أى لذنوب عباده (رحيم) بهم والمعنى أنه تعالى غفر لعبدالله بن جحش وأصحابه مالم يعلموا به قوله عز وجل (يسئلونك عن الخمر والميسر)

صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعا ناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاة المغرب فقدموا بعضهم ليصلي بهم فقرأ قل ياأيها الكافرون أعبد ماتعبدون هكذا إلى آخر السورة بحذف لا ، فأنزل الله تعالى « ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون » فحرم السكر في أوقات الصلاة فلما نزلت هذه الآية تركها قوم وقالوا لاخير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة وتركها قوم في أوقات الصلاة وشربوها في غير حين الصلاة حتى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال عنه السكر ويشرب بعد صلاة الصبح فيصحوا إذا جاء وقت الظهر واتخذ عتبان بن مالك صنيعا ودعا رجالا من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقاص ، وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر حتى أخذت منهم ثم إنهم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الإشعار ، فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء للأنصار وفخر لقومه فأخذ رجل من الأنصار لحى بعير فضرب به رأس سعد فشجه موضحة . فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصاري فقال عمر اللهم بين لنا رأيك في الخمر بيانا شافيا فأنزل الله تعالى تحريم الخمر في سورة المائدة إلى قوله فهل أنتم منتهون وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام فقال عمر رضي الله عنه انتهينا يارب قال أنس حرمت الخمر ، ولم يكن يومئذ للعرب عيش بذلك أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال لما نزلت الآية التي في سورة المائدة حرمت الخمر فخرجنا بالحباب إلى الطريق فمنا من كسر حبه ومنا من غسله بالماء والطين ولعله غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حسنا فلما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت منها ريحها وعن أنس رضي الله عنه سميت الخمر خمرا لأنهم كانوا يدعونها في الدنان

الآية نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجماعة من الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله أفتنا في الخمر والميسر فانهما مذهبة للعقل مسلبة للمال فأنزل الله هذه الآية وأصل الخمر في اللغة الستر والتغطية وسميت الخمر خمرا لأنها تخامر العقل أي تخالطه وقيل لأنها تستره وتغطيه وجملة القول في تحريم الخمر أن الله عزوجل أنزل في الخمر أربع آيات نزلت بمكة « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا » فكان المسلمون يشربونها في أول الإسلام وهي لهم حلال ثم نزل بالمدينة في جواب سؤال عمر ومعاذ « يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير » فتركها قوم لقوله إثم كبير وشربها قوم لقوله ومنافع للناس ثم إن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما ودعا إليه ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمهم وسقاهم الخمر وحضرت صلاة المغرب فقدموا أحدهم ليصلي بهم فقرأ قل ياأيها الكافرون أعبد ماتعبدون بحذف حرف لا إلى آخر السورة فأنزل الله عز وجل « ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » فحرم الله السكر في أوقات الصلوات فكان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال سكره فيصلي الصبح ويشربها بعد صلاة الصبح فيصحو وقت صلاة الظهر ثم إن عتبان بن مالك اتخذ صنيعا يعني وليمة ودعا رجالا من المسلمين وفيهم سعد بن أبي وقاص وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا وشربوا الخمر حتى أخذت منهم فافتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار فأنشد سعد قصيدة فيها فخر قومه وهجاء الأنصار فأخذ رجل من الأنصار لحي البعير فضرب به رأس سعد فشجه موضحة فانطلق سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الأنصاري فقال عمر اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا وروى أن حمزة بن عبد المطلب شرب الخمر يوما وخرج فلقي رجلا من الأنصار وبيده ناضح له والأنصاري يتمثل ببيتين لكعب بن مالك يمدح قومه وهما :

جمعنا مع الإيواء نصرا وهجرة ... فلم ير حي مثلنا في المعاشر

فأحياؤنا من خير أحياء من مضى ... وأمواتنا من خير أهل المقابر

فقال حمزة أولئك المهاجرون وقال الأنصاري بل نحن الأنصار فتنازعا فجرد حمزة سيفه وعدا على الأنصاري فهرب الأنصاري وترك ناضحه فقطعه حمزة فجاء الأنصاري مستعديا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بفعل حمزة فغرم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ناضحا فقال عمر اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فأنزل الله تعالى الآية التي في المائدة إلى قوله فهل أنتم منتهون فقال عمر انتهينا يارب وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم

حتى تختمر وتتغير وعن ابن المسيب لأنها تركت حتى صفا لونها ورسب كدرها أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا يعقوب بن إبراهيم، أخبرنا ابن علية أخبرنا عبد العزيز بن سهيب قال قال لي أنس بن مالك ما كان لنا خمر غير فضيخكم وإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلانا وفلانا إذ جاء رجل فقال حرمت الخمر فقالوا أهرق هذه القلال يا أنس قال فما (٢٠٩) سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل واختلف العلماء في ماهية الخمر فقال قوم هي عصير العنب أو الرطب الذي اشتد وغلا من غير عمل النار فيه واتفقت الأئمة على أن هذه الخمر نجس يحد شاربها ويفسق ويكفر مستحلها وذهب سفيان الثوري وأبو حنيفة وجماعة إلى أن التحريم لايتعدى هذا ولا يحرم مايتخذ من غيرهما كالمتخذ من الحنطة والشعير والذرة والعسل والفانيذ إلا أن يسكر منه فيحرم وقالوا إذا طبخ عصير العنب والرطب حتى ذهب نصفه فهو حلال ولكنه يكره وإن طبخ حتى ذهب ثلثاه قالوا هو حلال مباح شربه إلا أن السكر منه حرام ويحتجون بما روى أن عمر بن الخطاب كتب إلى بعض عماله أن ارزق المسلمين من الطلاء ماذهب ثلثاه وبقي ثلثه ورأى أبو عبيدة ومعاذ شرب الطلاء على الثلث وقال قوم إذا طبخ العصير أدنى طبخ صار حلالا وهو قول إسماعيل بن علية وذهب أكثر أهل العلم إلى أن كل شراب أسكر كثيره فهو خمر وقليله حرام يحد شاربه واحتجوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت سئل رسول الله ﷺ عن البتع فقال «كل شراب أسكر فهو حرام» أخبرنا أبو عبد الله بن محمد بن الفضل الخرقي

بذلك كثيراً فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق ذلك عليهم فلا جرم استعمل هذا التدريج وهذا الرفق قال أنس حرمت الخمر ولم يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها وما حرم عليهم شيء أشد من الخمر (ق) عن أنس قال ما كان لنا خمر غير فضيخكم وإني لقائم أسقي أبا طلحة وأبا أيوب وفلانا وفلانا إذ جاء رجل فقال حرمت الخمر فقالوا أهرق هذه القلال يا أنس فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر هذا الرجل. الفضيخ بالضاد والخاء المعجمتين شراب يتخذ من بسر مطبوخ والمفضوخ المشدوخ والمكسور والاهراق الصب والقلال جمع قلة وهي الجرة الكبيرة:

(فصل: في تحريم الخمر ووعيد من شربها) أجمعت الأمة على تحريم الخمر وأنه يحد شاربها ويفسق بذلك مع اعتقاد تحريمها فان استحلها كفر بذلك ويجب قتله (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة» لفظ مسلم (م) عن جابر «أن رجلا قدم من جيشان وجيشان من اليمن فسأل النبي ﷺ عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المزر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مسكر هو؟ قال نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مسكر حرام وإن على الله عهدا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال قالوا وما طينة الخبال يارسول الله قال عرق أهل النار أو عصارة أهل النار» وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب مسكرا بخست صلاته أربعين صباحا فان تاب تاب الله عليه فان عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال قيل وما طينة الخبال يارسول الله قال صديد أهل النار» أخرجه أبو داود عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من شرب الخمر فجعلها في بطنه لم تقبل منه صلاة سبعا وإن مات فيها مات كافرا فان أذهبت عقله عن شيء من الفرائض. وفي رواية عن القرآن لم تقبل صلاته أربعين يوما وإن مات فيها مات كافرا» أخرجه النسائي. عن عثمان بن عفان قال اجتنبوا الخمر فانها أم الخبائث فانها والله لايجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا يوشك أن يخرج أحدهما صاحبه أخرجه النسائي موقوفا عليه وفيه قصة عن أنس قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر عشرة عاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وواهبها وآكل ثمنها أخرجه الترمذي.

(فصل: في أحكام تتعلق بالخمر) وفيه مسائل: الأولى في ماهيتها. قال الشافعي الخمرة عبارة عن عصير العنب النيء الشديد الذي قذف بالزبد وكذلك نقيع الزبيب والتمر المتخذ من العسل والحنطة والشعير والأرز والذرة وكل ما أسكر فهو خمر وقال أبو حنيفة الخمر من

أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن داود بن بكر بن أبي الفرات عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما أسكر كثيره فقليله حرام» أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني ، أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا إبراهيم بن محمد بن أبي سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو الربيع العتكي أخبرنا حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كل مسكر حرام ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها ولم يتب لم يشربها في الآخرة» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أحمد بن أبي رجاء أنا يحيى عن أبي حيان التيمي عن الشعبي عن ابن عمر قال خطب عمر على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنه قد نزل تحريم الخمر وهي من خمسة أشياء من العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل والخمر ما خامر العقل وروى الشعبي عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ « إن من العنب خمرا وإن من التمر خمرا وإن من العسل خمرا وإن من البر خمرا وإن من الشعير خمرا » فثبت أن الخمر لا تختص بما يتخذ من العنب أو الرطب أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال إني وجدت من فلان ريح خمر أو شراب وزعم أنه شرب الطلاء وأنا سائل عما شرب فان كان يسكر جلدته فجلده عمر الحد تاما وما روي عن عمر وأبي عبيدة ومعاذ في الطلاء فهو فيما طبخ حتى خرج عن أن يكون مسكرا سئل ابن عباس عن

العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب فان طبخ حتى ذهب ثلثاه حل شربه والمسكر منه حرام واحتج علي ذلك بما روى عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى بعض عماله أن ارزق المسلمين من الطلاء ما ذهب ثلثاه وبقي ثلثه وفي رواية أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فان له اثنين ولكم واحد أخرجه النسائي الطلاء بكسر الطاء والمد الشراب المطبوخ من عصير العنب الذي ذهب ثلثاه وبقي ثلثه واحتج أيضا بما روى عن ابن عباس قال حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها والسكر من كل شراب أخرجه النسائي واستدل أيضا على أن السكر حرام لما روى عن أبي الأحوص عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي بردة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «اشربوا ولا تسكروا » وعن عائشة نحوه أخرجه النسائي وقال هذا حديث غير ثابت واستدل الشافعي على أن الخمر من عدة أشياء بما روى عن ابن عمر أن عمر قال على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد أيها الناس أنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير والخمر ما خامر العقل ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فيهن عهدا ننتهي إليه الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا أخرجه البخاري ومسلم (ق) عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن البتع فقال كل شراب أسكر فهو حرام . البتع شراب يتخذ من العسل كان أهل اليمن يشربونه . عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن من العنب خمرا وإن من البر خمرا وإن من الشعير خمرا وإن من التمر خمرا » أخرجه أبو داود وزاد وزاد في رواية والذرة وإني أنهاكم عن كل مسكر وللترمذي نحوه وزاد وإن من العسل خمرا (خ) عن ابن عباس أنه سئل عن الباذق فقال سبق حكم محمد الباذق فما أسكر فهو حرام عليك والشراب الحلال الطيب ليس بعد الحلال الطيب إلا الحرام الخبيث قال صاحب المطالع الباذق بفتح الذال المعجمة هو الطلاء المطبوخ من عصير العنب كان أول من صنعه وسماه بنو أمية لينقلوه عن اسم الخمر وكل ما أسكر فهو خمر لأن الاسم لا ينقله عن معناه الموجود فيه وقال ابن الأثير في النهاية الباذق الخمر تعريب باذه وهو اسم للخمر بالفارسية أي لم يكن في زمانه أو سبق قوله فيها وفي غيرها من جنسها وقيل معناه سبق حكم محمد صلى الله عليه وسلم إن ما أسكر فهو حرام . عن أم سلمة قالت نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر أخرجه أبو داود والمفتر كل شراب أحمى الجسد، وصار فيه فتور وضعف وانكسار واستدل الشافعي على ما أسكر كثيره فقليله حرام مما روى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما أسكر كثيره فقليله حرام» أخرجه الترمذي وأبو داود عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل مسكر حرام وما أسكر منه الفرق فملء الكف منه حرام أخرجه أبو داود والنسائي وفي رواية له والحسوة منه حرام الفرق بالتحريك مكيال يسع

الباذق فقال سبق محمد الباذق فما أسكر فهو حرام قوله تعالى والميسر يعنى القمار قال ابن عباس كان الرجل فى الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله فأنزل الله تعالى هذه الآية والميسر مفعل من قولهم يسر لى الشىء إذا وجب ييسر يسرا وميسرا ثم قيل للقمار ميسر وللمقامر ياسر ويسر وكان أصل الميسر فى الجزور وذلك أن أهل الثروة من العرب كانوا يشترون جزورا فينحرونها ويجزءونها عشرة أجزاء ثم يسهمون عليها بعشرة قداح يقال لها الأزلام والأقلام السبعة منها انصباء وهى الفذ وله نصيب واحد والتوأم وله نصيبان والرقيب وله ثلاثة أسهم والحلس وله أربعة والنافس وله خمسة والمسبل وله ستة والمعلى وله سبعة وثلاثة منها لا أنصباء لها وهى المنيح والسفيح والوغد ثم يجعلون القداح فى خريطة تسمى الربابة ويضعونها على يدى رجل عدل عندهم يسمى المجيل والمفيض ثم يجيلها ويخرج قدحا منها باسم رجل منهم فأيهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر ماخرج فان خرج له واحد من هذه الثلاثة التى لا أنصباء لها كان لايأخذ شيئا ويغرم ثمن الجزور كله وقال بعضهم كان لايأخذ شيئا ولا يغرم ويكون ذلك القدح لغوا ثم يدفعون ذلك الجزور إلى الفقراء ولا يأكلون منه شيئا وكانوا يفتخرون بذلك ويذمون من لم يفعل ذلك ويسمونه البرم وهو أصل القمار الذى كانت تفعله العرب والمراد من الآية أنواع القمار

يسع تسعة عشر رطلا بالبغدادى وأجيب عن حديث عمر فى الطلاء بأنه معارض بما روى عن السائب بن يزيد أن عمر قال وجدت من فلان ريح شراب وزعم أنه شرب الطلاق وأنا سائل عنه فان كان يسكر جلدته فسأل عنه فقيل له إنه يسكر فجلده عمر الحد تاما أخرجه مالك فى الموطأ وأما حديث ابن عباس فموقوف عليه ومعارض بما روى عنه فى الباذق وقوله والسكر من كل شراب قد رواه الحفاظ السكر بفتح السين قال صاحب الغريبين السكر خمر الأعاجم ويقال لما يسكر السكر وروى هذا الحديث ابن حنبل وقال فيه والمسكر من كل شراب وقال موسى بن هارون وهو الصواب وأما حديث أبى الأحوص ففيه وهمان أحدهما فى سنده حيث قال عن أبى بردة وإنما يرويه سماك عن القاسم عن أبى بريدة عن أبيه والوهم الثانى فى متنه حيث قال اشربوا ولا تسكروا وإنما يرويه الناس ولا تشربوا مسكرا ويدل على صحة هذا ماروى مسلم فى صحيحه عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كنت نهيتكم عن الأشربة فى ظروف الأدم فاشربوا فى كل وعاء غير أن لاتشربوا مسكرا» وقال النسائى فى حديث أبى الأحوص هذا حديث منكر غلط فيه أبو الأحوص سلام بن سليم لايعلم أن أحدا تابعه عليه من أصحاب سماك وأما حديث عائشة فيه فهو غير ثابت كما تقدم فى قول النسائى .

المسئلة الثانية فى الحكم بنجاسة الخمر . الخمر وما يلحق بها نجسة العين ويدل على نجاستها قوله تعالى « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » والرجس فى اللغة النجس والشىء المستقذر وقوله تعالى « فاجتنبوه » فأمر باجتنابها فكانت نجسة العين ويدل على نجاستها أيضا أنها محرمة التناول لا للاحترام ولأن الناس مشغوفون بها فينبغى أن يحكم بنجاستها تأكيدا للزجر عنها .

المسئلة الثالثة فى تحريم بيعها والانتفاع بها . أجمعت الأمة على تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وتحريم ثمنها ويدل على ذلك ماروى عن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام فتح مكة « إن الله تعالى حرم بيع الخمر والانتفاع بها والميتة والخنزير والأصنام » أخرجاه فى الصحيحين مع زيادة اللفظ (ق) عن عائشة قالت خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «حرمت التجارة فى الخمر» (ق) عن ابن عباس قال بلغ عمر بن الخطاب أن فلانا باع خمرا فقال قاتل الله فلانا ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها» .عن المغيرة بن شعبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من باع الخمر فليشقص الخنازير» أخرجه أبو داود وقوله فليشقص الخنازير أى فليقطعها قطعا قطعا كما تقطع الشاة للبيع والمعنى من استحل بيع الخمر فليستحل بيع الخنازير فانهما فى التحريم سواء . عن أبى طلحة قال يانبى الله إنى اشتريت خمرا لأيتام فى حجرى فقال اهرق الخمر واكسر الدنان أخرجه الترمذى وقال وقد روى عن أنس إن أبا طلحة كان عنده خمر لأيتام وهو أصح . فان قلت فما وجه قوله تعالى « ومنافع للناس» . قلت منافعها اللذة التى توجد عند شربها والفرح والطرب معها وما كانوا يصيبون من الربح فى ثمنها وذلك قبل التحريم فلما حرمت الخمر حرم ذلك كله .

(فصل) وأما الميسر فهو القمار واشتقاقه من اليسر لأنه أخذ مال بسهولة من غير تعب

على رضى الله عنه فى النرد والشطرنج أنهما من الميسر قوله تعالى (قل فيهما إثم كبير) وزر عظيم من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش ، قرأ حمزة والكسائى إثم كثير بالثاء المثلثة وقرأ الباقون بالياء فالإثم فى الخمر والميسر ماذ كره الله فى سورة المائدة «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة فهل أنتم منتهون» (ومنافع للناس) فمنفعة الخمر اللذة عند شربها والفرح واستمراء الطعام وما يصيبون من الربح بالتجارة فيها ومنفعة الميسر إصابة المال من غير كد ولا تعب وارتفاق الفقراء به والإثم فيه أنه إذا ذهب ماله من غير عوض ساءه ذلك فعادى صاحبه فقصده بالسوء (وإثمهما أكبر من نفعهما) قال الضحاك وغيره إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم وقيل إثمهما أكبر من نفعهما قبل التحريم وهو ما يحصل به من العداوة والبغضاء قوله تعالى : (ويسئلونك ماذا ينفقون) وذلك أن رسول الله ﷺ حثهم على الصدقة فقالوا ماذا ننفق فقال (قل العفو) قرأ أبو عمرو والحسن المال

وكذا قال ابن عباس كان الرجل فى الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله فأنزل الله هذه الآية وأصل الميسر أن أهل الثروة من العرب فى الجاهلية كانوا يشترون جزورا فينحرونها ويجزؤنها ثمانية وعشرين جزءا ثم يسهمون عليها بعشرة قداح يقال لها الأزلام والأقلام وأسماؤها الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد وكانوا يسهمون لسبعة منها أنصباء فللفذ سهما وللتوأم سهمين وللرقيب ثلاثة أسهم وللحلس أربعة وللنافس خمسة وللمسبل ستة وللمعلى سبعة وثلاثة من القداح لا أنصباء لها وهى المنيح والسفيح والوغد قال بعضهم :

لى فى للدنيا سهام ليس فيهن ربيح إنما سهمى وغد ومنيح وسفيح

ثم يجمعون القداح فى خريطة يسمونها الربابة ويضعونها على يد رجل عدل عندهم يسمونه المحيل والمفيض فيحيلها فى الخريطة ويخرج منها قدحا باسم رجل منهم فأيهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر مايخرج من القداح وإن خرج له قدح من الثلاثة التى لاأنصباء لها لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله وقيل لايأخذ ولا يغرم ويسمون ذلك القدح لغوا ثم يدفعون ذلك الجزور إلى الفقراء ولا يأكلون منه شيئا وكانوا يفتخرون بذلك ويذمون من لايفعله ويسمونه البرم يعنى البخيل الذى لايخرج شيئا بين الأصحاب لبخله وأما حكم الآية فالمراد به جميع أنواع القمار فكل شىء فيه قمار فهو من الميسر روى عن ابن سيرين ومجاهد وعطاء كل شئ فيه خطر يعنى الرهن فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب وأما النرد فيحرم اللعب به سواء كان بخطر أم لا ويدل على تحريمه ماروى عن بريدة أن رسول الله ﷺ قال من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى دم خنزير أخرجه مسلم وعن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من لعب بنرد أو نرد شير فقد عصى الله ورسوله» أخرجه أبوداود وعن على بن أبى طالب قال النرد والشطرنج من الميسر. واختلفوا فى الشطرنج فمذهب أبى حنيفة أنه يحرم اللعب به سواء كان برهن أو بغير رهن ومذهب الشافعى أنه مباح بشروط ذكرها الشافعى فقال إذا خلا الشطرنج عن الرهان واللسان عن الطغيان ويروى عن الهذيان والصلاة عن النسيان لم يكن حراما وهو خارج عن الميسر لأن الميسر مايوجب دفع مال وأخذ مال وهذا ليس كذلك وقوله تعالى (قل فيهما) يعنى فى الخمر والميسر (إثم كبير) أى وزر عظيم وقيل إن الخمر عدو للعقل فاذا غلبت على عقل الإنسان ارتكب كل قبيح ففى ذلك آثام كبيرة منها إقدامه على شرب المحرم ومنها فعل مالا يحل فعله وأما الإثم الكبير فى الميسر فهو أكل المال الحرام بالباطل وما يجرى بينهما من الشتم والمخاصمة والمعاداة وكل ذلك فيه آثام كثيرة(ومنافع للناس) يعنى إنهم كانوا يربحون فى بيع الخمر قبل تحريمها. وأما منافع الميسر فهو أخذ مال بغير كد ولا تعب قيل ربما أن الواحد منهم كان يقمر فى المجلس الواحد مائة بعير فيحصل له المال الكثير وربما كان يصرفه إلى المحتاجين فيكسب بذلك الثناء والمدح وهو المنفعة(وإثمهما أكبر من نفعهما) يعنى إثمهما بعد التحريم أكبر من نفعهما قبل التحريم وقيل إثمهما قوله تعالى «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » فهذه ذنوب يترتب عليها آثام كبيرة بسبب الخمر والميسر .قوله تعالى (ويسئلونك ماذا ينفقون) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حضهم على الصدقة فقالوا ماذا ننفق فقال الله تعالى (قل العفو) يعنى الفضل والعفو ما فضل عن قدر الحاجة فكانت الصحابة يكتسبون

وقتادة وابن أبي إسحاق العفو بالرفع معناه أي الذي ينفقون هو العفو وقرأ الآخرون بالنصب على معنى قل أنفقوا العفو واختلفوا في معنى العفو فقال قتادة وعطاء والسدي: هو مافضل عن الحاجة وكانت الصحابة يكتسبون المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفضل بحكم هذه الآية ثم نسخ بآية الزكاة وقال مجاهد معناه التصدق عن ظهر غنى حتى لايبقى كلا على الناس أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر أنا إبراهيم بن عبد الله بن عمر الكوفي أنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» وقال عمرو بن دينار الوسط من غير إسراف ولا إقتار قال الله تعالى «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا» وقال طاوس مايسر والعفو اليسر من كل شيء ومنه قوله تعالى «خذ العفو» أي الميسور من أخلاق الناس أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أنا سفيان عن محمد بن عجلان عن سعيد بن أبي سعد عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يارسول الله عندي دينار قال صلى الله عليه وسلم أنفقه على نفسك قال عندي آخر قال ﷺ أنفقه على ولدك قال عندي آخر قال صلى الله عليه وسلم أنفقه على أهلك قال عندي آخر قال صلى الله عليه وسلم أنفقه على خادمك قال عندي آخر قال صلى الله عليه وسلم أنت أعلم. قوله تعالى (كذلك يبين الله لكم الآيات) قال الزجاج إنما قال كذلك على الواحد وهو يخاطب جماعة لأن الجماعة معناها القبيل كأنه قال كذلك أيها القبيل وقيل هو خطاب للنبي ﷺ فانه خطاب يشتمل على خطاب الأمة كقوله تعالى «يا أيها النبي إذا طلقتم النساء» قوله تعالى (لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) قيل معناه يبين الله لكم الآيات في أمر النفقة لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة فتحبسون من أموالكم مايصلحكم في معاش الدنيا وتنفقون الباقي فيما ينفعكم في العقبى وقال أكثر المفسرين معناها هكذا يبين الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون وقيل معناه يبين الله لكم الآيات في أمر النفقة لعلكم تتفكرون في زوال الدنيا وفنائها فتزهدوا فيها وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها قوله تعالى (ويسئلونك عن اليتامى) قال ابن عباس وقتادة لما نزل قوله تعالى «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن» وقوله تعالى «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما» الآية تحرج المسلمون من أموال اليتامى تحرجا شديدا حتى عزلوا أموال اليتامى عن أموالهم حتى كان يصنع لليتيم طعام فيفضل منه شيء فيتركونه ولا يأكلونه حتى يفسد فاشتد ذلك عليهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية (قل إصلاح لهم خير) أي الاصلاح لأموالهم من غير أجرة ولا أخذ عوض خير وأعظم أجرا لما لكم في ذلك من الثواب وخير لهم لما في ذلك من توفر أموالهم عليهم قال مجاهد يوسع عليه من طعام نفسه ولا يوسع من طعام اليتيم (وإن تخالطوهم) هذه إباحة المخالطة أي إن تشاركوهم في أموالهم وتخلطوها بأموالكم في

(٢١٣)

المال ويمسكون قدر النفقة ويتصدقون بالفاضل بحكم هذه الآية ثم نسخ ذلك بآية الزكاة وقيل هو التصدق عن ظهر غنى (ق) عن الزهري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» وقيل هو الوسط في الانفاق من غير إسراف ولا إقتار وقيل هو في صدقة التطوع إذ لو كان المراد بهذا الإنفاق الواجب لبين الله قدره فلما لم يبينه دل ذلك على أن المراد به صدقة التطوع (كذلك يبين الله لكم الآيات) أي يبين لكم الأمور التي سألتم عنها من وجوه الانفاق ومصارفه (لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة) يعني فتأخذون مايصلحكم في الدنيا وتنفقون الباقي فينفعكم في الآخرة وقيل لعلكم تتفكرون في زوال الدنيا فتزهدوا فيها وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها. قوله عز وجل (ويسألونك عن اليتامى) قال ابن عباس لما نزلت «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما» تحرج المسلمون من أموال اليتامى تحرجا شديدا حتى عزلوا أموالهم عن أموالهم وتركوا مخالطتهم وربما كان يصنع لليتيم الطعام فيفضل منه فيتركونه ولا يأكلونه فاشتد ذلك عليهم فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ويسألونك عن اليتامى (قل إصلاح لهم خير) أي إصلاح أموال اليتامى من غير أخذ أجرة ولا عوض خير لكم أي أعظم أجرا وقيل هو أن يوسع على اليتيم من طعام نفسه ولا يوسع من طعام اليتيم (وإن تخالطوهم) يعني في الطعام والخدمة والسكنى وهذا فيه إباحة المخالطة أي شاركوهم في أموالهم واخلطوها بأموالكم ونفقاتكم ومساكنكم وخدمكم ودوابكم فتصيبوا من أموالهم عوضا من قيامكم بأمورهم أو تكافؤهم

نفقاتكم ومساكنكم وخدمكم ودوابكم فتصيبوا من أموالهم عوضا من قيامكم بأمورهم أو تكافئوهم على ماتصيبون من أموالهم (فاخوانكم) أى فهم إخوانكم والاخوان يعين بعضهم بعضا ويصيب بعضهم من أموال بعض على وجه الاصلاح والرضا (والله يعلم المفسد) لأموالهم (من المصلح) لها يعنى الذى يقصد بالمخالطة الخيانة وإفساد مال اليتيم وأكله بغير حق من الذى يقصد الإصلاح (ولو شاء الله لأعنتكم) أى لضيق عليكم وما أباح لكم مخالطتهم وقال ابن عباس ولو شاء الله لجعل ماأصبتم من أموال اليتامى موبقا لكم وأصل العنت الشدة والمشقة ومعناه كلفكم فى كل شىء مايشق عليكم (إن الله عزيز) أى عزيز فى سلطانه وقدرته على الاعنات وقيل العزيز الذى يأمر بعزه سهل على العباد أو شق عليهم (حكيم) فيما صنع من تدبيره وترك الاعنات قوله تعالى (ولا تنكحوا (٢١٤) المشركات حتى يؤمن) سبب نزول هذه الآية أن أبا مرثد بن أبى مرثد الغنوى وقال مقاتل هو أبو مرثد الغنوى وقال عطاء أبو مرثد كناز بن الحصين وكان شجاعا بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين سرا فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق وكانت خليلته فى الجاهلية فأتته وقالت ياأبا مرثد ألا تخلو فقال لها ويحك ياعناق إن الإسلام قد حال بيننا وبين ذلك قالت فهل لك أن تتزوج بى قال نعم ولكن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمره فقالت أبى تتبرم ثم استعانت عليه فضربوه ضربا شديدا ثم خلوا سبيله فلما قضى حاجته بمكة وانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بالذى كان من أمره وأمر عناق وما لقى بسببها وقال يارسول الله أتحل لى أن أتزوجها فأنزل الله تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن وقيل الآية منسوخة فى حق الكتابيات لقوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » وبخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وباجماع الأمة روى الحسن عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا» فان قيل كيف أطلقتم اسم الشرك على من لم ينكر إلا نبوة محمد ﷺ قال أبو الحسن بن فارس لأن من يقول القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غيره وقال قتادة وسعيد بن جبير أراد بالمشركات الوثنيات فان عثمان تزوج نائلة بنت فراقصة وكانت نصرانية فأسلمت تحته وتزوج طلحة بن عبد الله نصرانية وتزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر رضى الله عنه خل سبيلها فكتب إليه أتزعم

على ماتصيبون من أموالهم (فاخوانكم) أى فهم إخوانكم والإخوان يعين بعضهم بعضا ويصيب بعضهم من مال بعض على وجه الإصلاح والرضا (والله يعلم المفسد من المصلح) يعنى المفسد لمال اليتيم والمصلح له ويعلم الذى يقصد بالمخالطة الخيانة وأكل مال اليتيم بغير حق والذى يقصد الإصلاح (ولو شاء الله لأعنتكم) أى لضيق عليكم وماأباح لكم مخالطتهم وأصل العنت الشدة والمشقة والمعنى لكلفكم فى كل شىء مايشق عليكم (إن الله عزيز حكيم) أى غالب يقدر أن يشق على عباده ويعنتهم ولكنه حكيم لايكلف عباده إلا ماتتسع فيه طاقتهم . قوله عز وجل (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) نزلت فى أبى مرثد بن أبى مرثد الغنوى واسم أبى مرثد يسار بن حصين بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين سرا فلما قدمها سمعت به امرأة مشركة يقال لها عناق وكانت خليلته فى الجاهلية فأتته فقالت ألا تخلو فقال ويحك ياعناق أن الإسلام حال بينى وبين ذلك فقالت له هل لك أن تتزوج بى قال نعم ولكن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره فقالت أبى تتبرم واستعانت عليه فضربوه ضربا شديدا ثم خلوا سبيله فلما قضى حاجته بمكة وانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه بما كان من أمره وأمر عناق وما لقى بسببها وقال يارسول الله أيحل لى أن أتزوجها فأنزل الله تعالى هذه الآية وأصل النكاح فى اللغة الوطء ثم كثر حتى قيل العقد نكاح ومعنى الآية ولاتنكحوا أيها المؤمنون المشركات حتى يؤمن أى يصدقن بالله ورسوله وهو الإقرار بالشهادتين والتزام أحكام المسلمين واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فقيل إنها تدل على أن كل مشركة يحرم نكاحها على كل مسلم من أى أجناس الشرك كانت كالوثنية والمجوسية والنصرانية وغيرهن من أصناف المشركات ثم استثنى الله تعالى من ذلك نكاح الحرائر الكتابيات بقوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم فأباح الله تعالى نكاحهن بهذه الآية قال ابن عباس فى قوله تعالى «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» ثم استثنى نساء أهل الكتاب فقال «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» وقيل إن حكم الآية نزل فى مشركات العرب الوثنيات خاصة ولم ينسخ منها شىء ولم يستثن وإنما حكمها عام مخصوص قال قتادة ولاتنكحوا

المشركات

أنها حرام فقال لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تتعاطوا المؤمنات منهن قوله تعالى (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) بجمالها وما لها نزلت في خنساء وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان قال حذيفة يا خنساء قد ذكرت في الملأ الأعلى على سوادك ودمامتك فأعتقها وتزوجها وقال السدي نزلت في عبد الله ابن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها ولطمها ثم خرج فأتى النبي ﷺ وأخبره بذلك فقال له ﷺ وما هي يا عبد الله فقال هي تشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وتصوم رمضان وتحسن الوضوء وتصلي فقال رسول الله ﷺ «هذه مؤمنة» قال عبد الله فوالذي بعثك بالحق نبيا لأعتقنها ولأتزوجنها ففعل ذلك فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا أتنكح أمة وعرضوا عليه حرة مشركة فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) هذا إجماع لا يجوز للمسلمة أن تنكح المشرك (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك) يعني المشركين (يدعون إلى النار) أي إلى الأعمال الموجبة للنار (والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه) أي بقضائه وقدره وإرادته (ويبين آياته للناس) أي أوامره ونواهيه (لعلهم يتذكرون) يتعظون قوله تعالى (ويسألونك عن المحيض) أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني أنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي أنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمر اللؤلؤي أنا أبو داود سليمان بن الأشعث

المشركات حتى يؤمن يعني مشركات العرب اللاتي ليس فيهن كتاب يقرأنه وبيان هذا في مسئلة وهي أن لفظ الشرك على من يطلق فالأكثرون من العلماء وهو القول الصحيح المختار أن لفظ الشرك يندرج فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكذلك عبدة الأصنام والمجوس وغيرهم ويدل على أن اليهود والنصارى يطلق عليهم اسم الشرك قوله تعالى «وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله» ثم قال تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون» فهذه الآية صريحة في شرك اليهود والنصارى وقيل كل من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم وإن زعم أن الله تعالى واحد فهو مشرك وذلك أن من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم مع صحة نبوته وظهور معجزاته فقد زعم أن ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم هو من عند غير الله فقد أشرك مع الله غيره فعلى هذا القول أيضا يدخل فيه اليهود والنصارى لإنكارهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل إن اسم الشرك لا يتناول إلا عبدة الأوثان فقط والأول أصح لما تقدم من الأدلة فعلى قول من قال أن اسم الشرك لا يتناول إلا الوثنيات تكون الآية محكمة وعلى قول الأكثرين أن اسم الشرك يتناول الوثنيات والكتابيات وغيرهن تكون الآية محكمة في حق الوثنيات منسوخة في حق الكتابيات وقوله تعالى (ولأمة مؤمنة خير) يعني أنفع وأصلح وأفضل (من مشركة) يعني حرة (ولو أعجبتكم) يعني بجمالها ومالها ونسبها فالأمة المؤمنة خير وأفضل عند الله من الحرة المشركة نزلت في خنساء وليدة كانت لحذيفة بن اليمان فقال يا خنساء قد ذكرت في الملأ الأعلى على سوادك ودمامتك ثم أعتقها وتزوجها وقيل نزلت في عبد الله بن رواحة كانت عنده أمة سوداء فغضب عليها يوما فلطمها ثم فزع فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال وما هي يا عبد الله قال هي تشهد أن الله لا إله إلا الله وأنك رسول الله وتصوم رمضان وتحسن الوضوء وتصلي فقال هذه أمة مؤمنة قال عبد الله فو الذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا أتنكح أمة وعرضوا عليه حرة مشركة فأنزل الله هذه الآية (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) هذا خطاب لأولياء المرأة أي لا تزوجوا المسلمة من المشركين حرم على المؤمنات أن ينكحن مشركين من أي أصناف الشرك كان وانعقد الإجماع على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج بالمشرك (ولعبد مؤمن خير من مشرك) يعني حرا (ولو أعجبكم) بحسنه وماله وجماله (أولئك يدعون إلى النار) يعني يدعون إلى الشرك الذي يؤدي إلى النار (والله يدعو إلى الجنة والمغفرة) يعني أنه تعالى بين هذه الأحكام وأباح بعضها وحرم بعضها فاعملوا بما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه فاته من عمل بذلك استحق الجنة والمغفرة (بإذنه) أي بتيسير الله وإرادته وتوفيقه (ويبين آياته للناس) أي يوضح أدلته وحججه في أوامره ونواهيه وأحكامه (لعلهم يتذكرون) أي فيتعظون. قوله عز وجل (ويسئلونك عن المحيض) (م) عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل «ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض» الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اصنعوا كل شيء إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا

السجستاني أنا موسى بن إسماعيل أنا حماد هو ابن سلمة أنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن اليهود كانوا إذا حاضت منهم المرأة أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض) الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء إلا النكاح فقالت اليهود ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئا من أمرنا إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشير إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالا يارسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا ننكحهن في المحيض فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أن قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث في آثارهما فسقاهما فعرفنا أنه لم يجد عليهما قوله تعالى «ويسئلونك عن المحيض» أي عن الحيض وهو مصدر حاضت المرأة تحيض حيضا ومحيضا كالسير والمسير وأصل الحيض الانفجار والسيلان وقوله (قل هو أذى) أي قذر والأذى كل ما يكره من كل شيء فاعتزلوا النساء في المحيض أراد بالاعتزال ترك الوطء (ولا تقربوهن) أي لا تجامعوهن أما الملامسة والمضاجعة معها فجائزة أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قبيصة أنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت كنت أغتسل أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد كلانا جنب وكان يأمرني أن أتزر فيباشرني وأنا حائض وكان يخرج رأسه إلي وهو معتكف فأغسله وأنا حائض أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعد بن حفص أنا شيبان عن يحيى عن أبي سلمة عن زينب بنت أبي سلمة حدثته أن أم سلمة قالت حضت وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخميلة فانسللت فخرجت منها فأخذت ثياب حيضتي فلبستها فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفست ؟ قلت نعم فدعاني فأدخلني معه في الخميلة أخبرنا أبو القاسم ابن عبد الله بن محمد الحنفي ، أنا أبو الحارث طاهر بن محمد الطاهري أنا محمد الحسن بن محمد ابن حكيم أنا أبو الموجة محمد بن عمرو أنا صدقة أنا وكيع أنا مسعر وسفيان عن المقدام بن شريح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت «كنت أشرب وأنا حائض فأناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع في وأتعرق العرق فيتناوله فيضع فاه على موضع في» فوطء الحائض حرام ومن فعله يعصي الله عز وجل ويعزره الإمام إن علم منه ذلك واختلف أهل العلم في وجوب الكفارة عليه فذهب أكثرهم إلى أنه لا كفارة عليه فيستغفر الله ويتوب إليه وذهب قوم إلى وجوب الكفارة عليه منهم قتادة والأوزاعي وأحمد وإسحاق لما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا أبو القاسم البغوي أنا علي بن الجعد أنا أبو جعفر الرازي عن عبد الكريم بن أبي المخارق عن مقسم عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في رجل جامع امرأته وهي حائض قال إن كان الدم عبيطا فليتصدق بدينار وإن كان صفرة فنصف دينار ويروى هذا موقوفا على ابن عباس ويمنع الحيض جواز الصلاة ووجوبها ويمنع جواز الصوم ولا يمنع وجوبه حتى إذا طهرت يجب عليها قضاء الصوم ولا يجب قضاء الصلاة، وكذلك النفساء أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسمعيل الضبي أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذي أنا علي بن حجر أنا علي بن مسهر عن عبيدة بن معتب الضبي عن عبد الكريم عن إبراهيم النخعي عن الأسود عن عائشة قالت «كنا نحيض عند رسول الله ﷺ ثم نطهر فيأمرنا بقضاء الصيام ولا يأمرنا بقضاء الصلاة ولا يجوز للحائض الطواف بالبيت ولا الاعتكاف في المسجد ولا مس المصحف ولا قراءة القرآن ولا يجوز للزوج غشيانها أخبرنا عمر بن عبد العزيز أنا القاسم بن جعفر أنا أبو علي اللؤلؤي أنا أبو داود أنا مسدد أنا عبد الواحد بن زياد أنا أفلت بن خليفة قال حدثتني جسرة بنت دجاجة قالت سمعت عائشة تقول جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوه بيوت أصحابه شارعة في المسجد فقال وجهوا هذه البيوت عن المسجد فاني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب

شيئا إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يارسول الله إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أنه قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلتهما هدية من لبن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفنا أنه لم يجد عليهما الوجد الغضب وأصل الحيض السيلان والانفجار يقال حاض الوادي إذا سال وفاض ماؤه (قل هو أذى) أي هو شيء قذر والأذى في اللغة ما يكره من كل شيء (فاعتزلوا النساء في المحيض) أي فاجتنبوا مجامعتهن (ولا تقربوهن) يعني بالوطء والمجامعة فهو كالتوكيد لقوله فاعتزلوا النساء

قوله تعالى (حتى يطهرن) قرأ عاصم برواية أبي بكر وحمزة والكسائي بتشديد الطاء والهاء حتى يغتسلن وقرأ الآخرون بسكون الطاء وضم الهاء مخفف ومعناه حتى يطهرن من الحيض وينقطع دمهن (فإذا تطهرن) يعني اغتسلن (٢١٧) (فأتوهن) أي فجامعوهن

في المحيض (حتى يطهرن) يعني من الحيض والمعنى ولا تقربوهن حتى يزول عنهن الدم وقرئ يطهرن بتشديد الطاء ومعناه حتى يغتسلن (فإذا تطهرن) أي اغتسلن من حيضهن (فأتوهن من حيث أمركم الله) قال ابن عباس طئوهن في الفرج ولا تعدوا إلى غيره فإنه هو الذي أمر الله به ولا تأتوهن إلى غير المأتى وقيل فأتوهن من الوجه الذي أمركم الله به وهو الطهر وقيل معناه وأتوهن من حيث يحل لكم غشيانهن وذلك بأن لا يكن صائمات ولا معتكفات ولا محرمات.

(فصل: في حكم هذه الآية وفيه مسائل)

(المسألة الأولى) أجمع المسلمون على تحريم الجماع في زمن الحيض ومستحله كافر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من أتى حائضا أو امرأة في دبرها أو كاهنا فقد كفر بما أنزل على محمد» أخرجه الترمذي وقال إنما معنى هذا عند أهل العلم على التغليظ ومن فعله وهو عالم بالتحريم عزره الإمام وفي وجوب الكفارة قولان أحدهما أنه يستغفر الله ويتوب إليه ولا كفارة عليه وهو قول أبي حنيفة والشافعي في الجديد والقول الثاني أنه تجب عليه الكفارة وهو القول القديم للشافعي وبه قال أحمد بن حنبل لما روي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل يقع على امرأته وهي حائض قال يتصدق بنصف دينار وفي رواية قال إذا كان دما أحمر فدينار وإن كان دما أصفر فنصف دينار أخرجه الترمذي وقال رفعه بعضهم عن ابن عباس ووقفه بعضهم.

(المسألة الثانية) أجمع العلماء على جواز الاستمتاع بالمرأة الحائض بما فوق السرة ودون الركبة وجواز مضاجعتها وملامستها ويدل على ذلك ما روي عن عائشة قالت كانت إحدانا إذا كانت حائضا وأراد رسول الله ﷺ أن يباشرها أمرها أن تأتزر بإزار في فور حيضها ثم يباشرها وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك إربه وفي رواية قالت كنت أغتسل أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم من إناء واحد وكلانا جنب وكان يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائض أخرجاه في الصحيحين المراد بالمباشرة الاستمتاع بما دون الفرج وفور كل شيء أوله وابتداؤه وقولها يملك إربه يروى بسكون الراء وهو العضو وبفتحها وهو الحاجة (م) عن عائشة قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ناوليني الخمرة من المسجد قلت أنا حائض قال إن حيضتك ليست في يدك الخمرة حصير صغير مضفور من سعف النخل أو غيره بقدر الكف وقولها من المسجد يعني ناداها من المسجد لأنه صلى الله عليه وسلم كان معتكفا في المسجد وعائشة في حجرتها فطلب منها الخمرة وهي حائض.

(المسألة الثالثة) يحرم على الحائض الصلاة والصوم ودخول المسجد وقراءة القرآن ومس المصحف وحمله فلو أمنت الحائض من التلويث في عبور المسجد جاز في أحد الوجهين قياسا على الجنب والثاني لا لأن حدثها أغلظ ويجب على الحائض قضاء الصوم دون الصلاة لما روي عن معاذة العدوية قالت سألت عائشة فقلت ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة قالت أحرورية أنت قلت لست بحرورية ولكني أسأل قالت كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة أخرجاه في الصحيحين.

(من حيث أمركم الله) أي من حيث أمركم أن تعتزلوهن منه وهو الفرج قاله مجاهد وقتادة وعكرمة وقال ابن عباس طئوهن في الفرج ولا تعدوه إلى غيره أي اتقوا الأدبار وقيل من حيث بمعنى في أي في حيث أمركم الله تعالى وهو الفرج كقوله عز وجل «إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة» أي في يوم الجمعة وقيل فأتوهن من الوجه الذي أمركم الله أن تأتوهن وهو الطهر. وقال ابن الحنفية من قبل الحلال دون الفجور وقيل لا تأتوهن صائمات ولا معتكفات ولا محرمات وأتوهن وغشيانهن لكم حلال، واعلم أنه لا يرتفع تحريم شيء مما منعه الحيض بانقطاع الدم ما لم تغتسل أو تتيمم عند عدم الماء إلا تحريم الصوم فإن الحائض إذا انقطع دمها بالليل ونوت الصوم فوقع غسلها بالنهار صح صومها والطلاق في حال الحيض يكون بدعيا

وإذا طلقها بعد انقطاع الدم قبل الغسل لا يكون بدعيا وذهب أبو حنيفة رضي الله عنه إلى أنه إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهي عنده عشرة أيام يجوز للزوج غشيانها قبل الغسل وقال مجاهد وعطاء وطاوس إذا غسلت فرجها يجوز للزوج غشيانها قبل الغسل وأكثر أهل العلم على التحريم ما لم تغتسل أو

ثيمم عند عدم الماء لأن الله تعالى علق جواز وطئها بشرطين بانقطاع الدم والغسل فقال حتى يطهرن يعني من الحيض فاذا
تطهرن يعني اغتسلن فأتوهن ومن قرأ يطهرن بالتشديد فالمراد منه الغسل كقوله تعالى « وإن كنتم جنبا
فاطهروا » أى فاغتسلوا فدل على أن قبل الغسل لا يحل الوطء. قوله تعالى (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) قال عطاء ومقاتل بن سليمان والكلبي يحب التوابين من الذنوب ويحب المتطهرين بالماء من الأحداث والنجاسات وقال مقاتل بن حيان يحب التوابين من الذنوب والمتطهرين من الشرك وقال سعيد ابن جبير التوابين من الشرك والمتطهرين من الذنوب وقال مجاهد التوابين من الذنوب لا يعودون فيها والمتطهرين منها لم يصيبوها والتواب الذى كلما أذنب تاب نظيره قوله تعالى « فانه كان للأوابين غفورا » قوله تعالى (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) أخبرنا أبو سعيد أحمد ابن إبراهيم الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا عبد الله بن حامد الأصبهاني أخبرنا محمد بن يعقوب أنا ابن المنادى أنا يونس
أنا يعقوب القمي عن جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير
عن ابن عباس جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله هلكت قال وما الذى أهلكك قال حولت رحلي البارحة فلم يرد عليه شيئا وأوحى الله إليه « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » يقول أدبر وأقبل واتق الدبر والحيضة

(المسألة الرابعة) لا يرتفع شىء مما منعه الحيض بانقطاع الدم مالم تغتسل أو تتيمم عند عدم الماء إلا الصوم فانه إذا انقطع دمها بالليل ونوت الصوم فانه يصح وإن اغتسلت فى النهار وذهب أبو حنيفة إلى أنه يجوز للزوج غشيانها إذا انقطع الدم لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده قبل الغسل ومذهب الشافعي وغيره من العلماء أنه لا يجوز للزوج غشيانها مالم تغتسل من الحيض أو تتيمم عند عدم الماء لأن الله تعالى علق جواز وطء الحائض بشرطين: أحدهما انقطاع الدم والثانى الغسل فقال «ولا تقربوهن حتى يطهرن» يعنى من الحيض «فاذا تطهرن» يعنى اغتسلن «فأتوهن من حيث أمركم الله» فدل ذلك على أن الوطء لا يحل قبل الغسل. وقوله تعالى (إن الله يحب التوابين) يعنى من الذنوب والتواب الذى كلما أذنب جدد توبة وقيل التواب هو الذى لا يعود إلى الذنب (ويحب المتطهرين) يعنى من الأحداث وسائر النجاسات بالماء وقيل المتطهرين من الشرك وقيل هم الذين لم يصيبوا الذنوب. قوله عز وجل (نساؤكم حرث لكم) الآية (ق) عن جابر قال كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم» وفى رواية للترمذى كانت اليهود تقول من أتى المرأة فى قبلها من دبرها وذكر الحديث وعن ابن عباس قال جاء عمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله هلكت قال وما أهلكك قال حولت رحلى الليلة قال فلم يرد عليه شيئا فأوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية «نساؤكم حرث لكم» فأتوا حرثكم أنى شئتم» أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح قوله حولت رحلى هو كناية عن الإتيان فى غير المحل المعتاد هذا ظاهره ويجوز أن يريد به أنه أتاها فى المحل المعتاد لكن من جهة ظهرها وعن ابن عباس قال كان هذا الحى من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحى من يهود وهم أهل كتاب فكانوا يرون لهم فضلا عليهم فى العلم فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم وكان من شأن أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف وذلك أشق ماتكون المرأة فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحا منكرا ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب أن يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت إنا كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك وإلا فاجتنبنى حتى سرى أمرهما فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » أى مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعنى بذلك موضع الولد أخرجه أبو داود والوثن الصنم وقيل الصورة لا جثة لها وقوله على حرف الحرف الجانب وحرف كل شىء جانبه وقوله يشرحون النساء يقال شرح فلان جاريته إذا وطئها على قفاها وأصل الشرح البسط وقوله سرى أمرهما أى ارتفع وعظم وتفاخم وأصله من سرى البرق إذا لج فى اللمعان عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى قوله تعالى « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم فى صمام واحد» ويروى سمام بالسين أخرجه الترمذى وقال حديث حسن وقوله تعالى « حرث لكم »معناه مزرع لكم ومنبت للولد وهذا على سبيل التشبيه فجعل فرج المرأة كالأرض والنطفة كالبذر والولد كالنبات الخارج (فأتوا حرثكم أنى شئتم) يعنى كيف شئتم وحيث شئتم إذا كان فى القبل والمعنى كيف شئتم

مقبلة

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أخبرنا أحمد بن الحسين الحيرى أنا صاحب بن أحمد الطوسى أنا عبد الرحيم بن منيب أنا ابن عيينة عن ابن المنكدر أنه سمع جابر بن عبد الله يقول كانت اليهود تقول فى الذى يأتى امرأته من دبرها فى قبلها أن الولد يكون أحول فنزلت «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم» وروى مجاهد عن ابن عباس قال كان من شأن أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف وذلك أستر ماتكون المرأة وكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم وكان هذا الحى من قريش يتلذذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرت عليه وقالت إنا كنا نؤتى على حرف فان شئت فاصنع ذلك وإلا فاجتنبنى حتى سرى أمرهما فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى «نساؤكم حرث لكم» الآية يعنى موضع الولد «فأتوا حرثكم أنى شئتم» مقبلات ومدبرات ومستلقيات وأنى حرف استفهام يكون سؤالا عن الحال والمحل معناه كيف شئتم وحيث شئتم بعد أن يكون فى صمام واحد وقال عكرمة أنى شئتم إنما هو الفرج ومثله عن الحسن وقيل حرث لكم أى مزرع لكم ومنبت الولد بمنزلة الأرض التى تزرع وفيه دليل على تحريم الأدبار لأن محل الحرث والزرع هو القبل لا الدبر وقال سعيد بن

المسيب هذا فى العزل يعنى إن شئتم فاعزلوا وإن شئتم فلا تعزلوا وسئل ابن عباس عن العزل فقال حرثك إن شئت فاعطش وإن شئت فارو وروى عنه أنه قال تستأمر الحرة فى العزل ولا تستأمر الجارية وبه قال أحمد وكره جماعة العزل وقال هو الوأد الخفى وروى عن مالك عن نافع قال كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ هذه الآية «نساؤكم حرث لكم» فقال أتدرى فيم نزلت هذه الآية قلت لا قال نزلت فى رجل أتى امرأته فى دبرها فشق ذلك عليه فنزلت هذه الآية ويحكى عن مالك إباحة ذلك وأنكر ذلك أصحابه وروى عن عبد الله بن الحسن أنه لقى سالم بن عبد الله فقال له يا أبا عمر ماحديث يحدث نافع عن عبد الله أنه لم يكن يرى بأسا باتيان النساء فى أدبارهن فقال كذب العبد وأخطأ إنما قال عبد الله يؤتون فى فروجهن من أدبارهن والدليل على تحريم الأدبار ما أخبرنا عبد الوهاب ابن محمد بن الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أخبرنا الشافعى أنا عمر محمد بن على بن شافع أخبرنى عبد الله بن على بن السائب عن عمرو بن أبى أجنحة بن الحلاج عن خزيمة بن ثابت أن رجلا سأل النبى ﷺ عن إتيان النساء فى أدبارهن فقال النبى صلى الله عليه وسلم فى أى الخزمتين أو فى أى الخرزتين أو فى الخومتين أى من دبرها فى قبلها فنعم أو من دبرها فى دبرها فلا فان الله لا يستحى من الحق لا تأتوا النساء فى أدبارهن أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ أنا عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندى أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمى أنا عبد الله بن أبان أنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن مسلم بن خالد عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ملعون من أتى امرأته فى دبرها» قوله تعالى (وقدموا لأنفسكم) قال عطاء التسمية عند الجماع قال مجاهد وقدموا لأنفسكم يعنى إذا أتى أهله فليدع أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن إسماعيل

مقبلة ومدبرة على كل حال إذا كان فى الفرج وفى الآية دليل على تحريم إتيان النساء فى أدبارهن لأن محل الحرث والزرع هو القبل لا الدبر ويؤيد ذلك ماروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ملعون من أتى امرأة فى دبرها» أخرجه أبو داود وقال سعيد بن المسيب هذا فى العزل يعنى إن شئتم فاعزلوا وإن شئتم لا تعزلوا وسئل ابن عباس عن العزل فقال حرثك إن شئت فعطش وإن شئت فارو ويروى عنه أنه قال تستأمر الحرة فى العزل ولا تستأمر الجارية وبه قال أحمد وكره جماعة العزل وقالوا هو الوأد الخفى وروى نافع قال كنت أمسك على ابن عمر المصحف فقرأ هذه الآية «نساؤكم حرث لكم» قال تدرى فيم نزلت هذه الآية قلت لا قال نزلت فى رجل أتى امرأته فى دبرها فشق ذلك عليه فنزلت هذه الآية وروى عبد الله ابن الحسن أنه لقى سالم بن عبد الله بن عمر فقال له ياعم ما حديث يحدثه نافع عن عبد الله أنه لم يكن يرى بأسا باتيان النساء فى أدبارهن فقال كذب العبد وأخطأ إنما قال عبد الله يؤتون فى فروجهن من أدبارهن ويحكى عن مالك إباحة ذلك وأنكره أصحابه وأجمع جمهور العلماء على تحريم إتيان النساء فى أدبارهن وقالوا لأن الله حرم الفرج فى حال الحيض لأجل النجاسة العارضة وهو الدم فأولى أن يحرم الدبر لأجل النجاسة اللازمة ولأن الله تعالى نص على ذكر الحرث والحرث به يكون نبات الولد فلا يحل العدول عنه إلى غيره. وقوله تعالى (وقدموا لأنفسكم) يعنى الولد وقيل قدموا التسمية والدعاء عند الجماع (ق) عن ابن عباس قال: قال النبى

أنا عثمان بن أبي شيبة أنا جرير عن منصور عن سالم عن كريب عن ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدا» وقيل قدموا لأنفسكم يعني طلب الولد أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني أخبرنا عبدالله بن عمر الجوهري أنا أحمد بن علي الكشميهني أنا علي بن حجر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» وقيل هو التزوج بالعفاف ليكون الولد صالحا أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد ابن يوسف أنا مسدد أنا يحيى عن عبد الله حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها (٢٢٠) ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» وقيل معنى الآية تقديم الإفراط أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر ابن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم» وقال الكلبي والسدي وقدموا لأنفسكم يعني الخير والعمل الصالح بدليل سياق الآية (واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه) صائرون إليه فيجزيكم بأعمالكم (وبشر المؤمنين) قوله تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) نزلت في عبد الله بن رواحة كان بينه وبين ختنه على أخته بشير بن النعمان الأنصاري شيء فحلف عبد الله أن لايدخل عليه ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين خصمه وإذا قيل له فيه قال قد حلفت بالله أن لا أفعل فلا يحل لي إلا أن تبر يميني فأنزل الله هذه الآية وقال ابن جريج نزلت في أبي بكر الصديق حين حلف أن لاينفق على مسطح حين خاض في حديث الإفك والعرضة أصلها الشدة والقوة ومنه قيل للدابة التي تتخذ للسفر عرضة لقوتها عليه ثم قيل لكل مايصلح لشيء هو عرضة له حتى قالوا للمرأة هي عرضة النكاح إذا صلحت له والعرضة كل مايعترض فيمنع عن الشيء ومعنى الآية لاتجعلوا الحلف بالله سببا مانعا لكم من البر والتقوى يدعى أحدكم إلى صلة رحم أو بر فيقول حلفت بالله أن لاأفعله فيعتل بيمينه في ترك البر (أن تبروا) معناه أن لاتبروا كقوله تعالى «يبين الله لكم أن تضلوا» أي لئلا تضلوا (وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم) أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق

صلى الله عليه وسلم «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدا» وقيل أراد به تقديم الإفراط (ق) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم» قوله إلا تحلة القسم يعني قدر مايبر الله قسمه فيه وهو قوله تعالى «وإن منكم إلا واردها» فاذا وردها جاوزها فقد أبر الله قسمه وقيل قدموا لأنفسكم يعني من الخير والعمل الصالح بدليل سياق الآية (واتقوا الله) أي احذروا أن تأتوا شيئا مما نهاكم الله عنه (واعلموا أنكم ملاقوه) أي صائرون إليه في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم (وبشر المؤمنين) يعني بالكرامة من الله تعالى. قوله عز وجل (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) نزلت في عبد الله بن رواحة كان بينه وبين ختنه بشير بن النعمان شيء فحلف عبد الله لا يدخل عليه ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين خصم له فكان إذا قيل له فيه يقول قد حلفت بالله أن لا أفعل فلا يحل لي إلا أن تبر يميني فأنزل الله هذه الآية وقيل نزلت في أبي بكر الصديق حين حلف ألا ينفق على مسطح حين خاض في حديث الإفك والعرضة ما يجعل معرضا للشيء وقيل العرضة الشدة والقوة وكل ما يعترض فيمنع عن الشيء فهو عرضة والمعنى ولا تجعلوا الحلف بالله سببا مانعا لكم من البر والتقوى يدعى أحدكم إلى بر وصلة رحم فيقول قد حلفت بالله لا أفعله فيعتل بيمينه في ترك البر والإصلاح (أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) قيل معناه لا تحلفوا بالله أن لا تبروا ولا تتقوا ولا تصلحوا بين الناس (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأتها وليكفر عن يمينه» وقيل معناه لا تكثروا الحلف بالله وإن كنتم بارين متقين مصلحين فان كثرة الحلف بالله ضرب من الجراءة عليه (والله سميع) أي لحلفكم (عليم) يعني بنياتكم. قوله عز وجل

لايؤاخذكم

الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حلف بيمين فرأى خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير » قوله تعالى (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) اللغو كل مطرح من الكلام لايعتد به واختلف أهل العلم فى لغو اليمين المذكورة فى الآية فقال قوم هو مايسبق إلى اللسان على عجلة لصلة الكلام من غير عقد وقصد كقول القائل لا والله وبلى والله وكلا والله أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائى أنا عبد العزيز ابن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت : لغو اليمين قول الإنسان لا والله وبلى والله ورفعه بعضهم وإلى هذا ذهب الشعبى وعكرمة وبه قال الشافعى وروى عن عائشة أيمان اللغو ما كانت فى الهزل والمراء والخصومة والحديث الذى لايعقد عليه القلب وقال قوم هو أن يحلف على شىء يرى أنه صادق فيه ثم يتبين له خلاف ذلك وهو قول الحسن والزهرى وإبراهيم النخعى وقتادة ومكحول وبه قال أبو حنيفة رضى الله عنه وقالوا لا كفارة فيه ولا إثم وقال على هو اليمين على الغضب وبه قال طاوس وقال سعيد بن جبير هو اليمين فى المعصية لايؤاخذه الله بالحنث فيها بل يحنث ويكفر وقال مسروق ليس عليه كفارة أنكفر خطوات الشيطان وقال الشعبى فى الرجل يحلف على المعصية كفارته أن يتوب منها وكل يمين لايحل لك أن تفى بها فليس فيها كفارة ولو أمرته بالكفارة لأمرته أن يتم ويستمر على قوله وقال زيد بن أسلم هو دعاء الرجل على نفسه كقول الإنسان أعمى الله بصرى أن أفعل كذا فهذا كله لغو لايؤاخذه الله به ولو آخذهم به لعجل لهم العقوبة ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم وقال « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير » قوله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) أى عزمتم وقصدتم إلى اليمين وكسب القلب العقد والنية

(لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) اللغو كل ساقط مطرح من الكلام وما لا يعتد به وهو الذى يورد لاعن روية وفكر واللغو فى اليمين هو الذى لاعقد معه كقول القائل لاوالله بلى والله على سبق اللسان من غير قصد ونية وبه قال الشافعى ويعضده ماروى عن عائشة قالت نزل قوله تعالى «لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم» فى قول الرجل لاوالله وبلى والله أخرجه البخارى موقوفا ورفعه أبو داود قال قالت عائشة قال رسول الله ﷺ « هو قول الرجل فى يمينه كلا والله وبلى والله » ورواه عنها أيضا موقوفا وقيل فى معنى اللغو هو أن يحلف الرجل على شىء يرى أنه صادق ثم يتبين له خلاف ذلك وبه قال أبو حنيفة ولا كفارة فيه ولا إثم عليه عنده قال مالك فى الموطأ أحسن ماسمعت فى ذلك أن اللغو حلف الإنسان على الشىء يتيقن أنه كذا ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه قال والذى يحلف على الشىء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحدا ويعتذر المخلوق أو يقتطع به مالا فهذا أعظم من أن تكون فيه كفارة وإنما الكفارة على من حلف أن لايفعل الشىء المباح له فعله ثم يفعله أو أن يفعله ثم لايفعله مثل أن يحلف لايبيع ثوبه بعشرة دراهم ثم يبيعه بذلك أو يحلف ليضربن غلامه ثم لايضربه وفائدة الخلاف الذى بين الشافعى وأبى حنيفة فى لغو اليمين أن الشافعى لايوجب الكفارة فى قول الرجل لاوالله وبلى والله ويوجبها فيما إذا حلف على شىء يعتقد أنه كان ثم بان أنه لم يكن وأبو حنيفة يحكم بضد ذلك ومذهب الشافعى هو قول عائشة والشعبى وعكرمة ومذهب أبى حنيفة هو قول ابن عباس والحسن ومجاهد والنخعى والزهري وسليمان بن يسار وقتادة ومكحول وقيل فى معنى اللغو أنه اليمين فى الغضب وقيل هو مايقع سهوا من غير قصد البتة ومعنى لايؤاخذكم أى لايعاتبكم الله بلغو اليمين وقيل لايؤاخذكم أى لايلزمكم الكفارة بلغو اليمين (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) يعنى لكن يؤاخذكم بما عزمتم عليه وقصدتم له وكسب القلب هو العقد والنية .

(فصل فى بيان حكم الآية : وفيه مسائل)

(المسئلة الأولى) لاتنعقد اليمين إلا بالله وبأسمائه وصفاته فأما اليمين بالله فهو كقول الرجل والذى نفسى بيده والذى أعبده ونحو ذلك والحلف بأسمائه كقوله والله والرحمن والرحيم والمهيمن ونحو ذلك والحلف بصفاته كقوله وعزة الله وقدرته وعظمته ونحوه فاذا حلف بشىء من ذلك ثم حنث فعليه الكفارة .

(المسئلة الثانية) لايجوز الحلف بغير الله كقوله والكعبة والنبى وأبى ونحو ذلك فاذا حلف بشىء من ذلك لاتنعقد يمينه ولا كفارة عليه ويكره الحلف به لما روى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر وهو يسير فى ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله صلى الله

(والله غفور حليم) واعلم أن اليمين لاتنعقد إلا بالله أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته فاليمين بالله أن يقول والذى أعبده والذى أصلى له والذى نفسى بيده ونحو ذلك واليمين بأسمائه كقوله والله والرحمن ونحوه واليمين بصفاته كقوله وعزة الله وعظمة الله وجلال الله وقدرة الله ونحوها فاذا حلف بشيء منها على أمر فى المستقبل فحنث يجب عليه الكفارة وإذا حلف على أمر ماض أنه كان ولم يكن أو على أنه لم يكن وقد كان إن كان عالما به حالة ماحلف فهو اليمين الغموس وهو من الكبائر ويجب فيه الكفارة عند بعض أهل العلم عالماكان أو جاهلا وبه قال الشافعى ولا يجب عند بعضهم وهو قول أصحاب الرأى وقالوا إن كان عالما فهو كبيرة ولا كفارة لها كما فى سائر الكبائر وإن كان جاهلا فهو يمين اللغو عندهم ومن حلف بغير الله مثلا مثل أن قال : والكعبة وبيت الله ونبى الله أو حلف بأبيه ونحو ذلك فلا يكون يمينا فلا يجب به الكفارة إذا حلف وهو يمين مكروهة قال الشافعى وأخشى أن يكون معصية أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير فى ركب وهو يحلف بأبيه فقال رسول الله ﷺ « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » قوله تعالى (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر) يؤلون أى يحلفون والألية اليمين والمراد من الآية اليمين على ترك وطء المرأة قال قتادة كان الإيلاء طلاقا لأهل الجاهلية وقال سعيد بن المسيب كان ذلك من ضرار أهل الجاهلية وكان الرجل لايحب امرأته ولا يريد أن يتزوج بها غيره فيحلف أن لايقربها أبدا فيتركها لاأيما ولا ذات بعل وكانوا عليه فى ابتداء الإسلام فضرب الله له أجلا فى الإسلام ، واختلف أهل العلم فيه فذهب أكثرهم إلى أنه إن حلف أن لايقرب زوجته أبدا أو سمى مدة أكثر من أربعة أشهر يكون موليا فلا يتعرض قبل مضى أربعة أشهر وبعد مضيها يوقف ويؤمر بالفىء أو بالطلاق بعد مطالبة المرأة والفىء هو الرجوع عما قاله بالوطء إن قدر عليه وإن لم

عليه وسلم « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » أخرجاه فى الصحيحين .

(المسئلة الثالثة) إذا حلف على أمر فى المستقبل فحنث فعليه الكفارة وإن كان على أمر ماض ولم يكن أو على أنه لم يكن فكان فان كان عالما به حال حلفه بأن يقول والله مافعلت وقد فعل أو لقد فعلت وما فعل فهذه اليمين الغموس وهى من الكبائر سميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى الإثم وتجب فيها الكفارة عند الشافعى سواء كان عالما أو جاهلا وذهب أبو حنيفة إلى أنه لا كفارة عليه فان كان عالما فهى كبيرة وإن كان جاهلا فهى من لغو اليمين (والله غفور) يعنى لعباده فيما لغوا من أيمانهم التى أخبر أنه لايؤاخذهم عليها ولو شاء آخذهم وألزمهم للكفارة فى العاجل والعقوبة عليها فى الآجل (حليم) يعنى فى ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة قال الحليمى فى معنى الحليم أنه الذى لايحبس إنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم ولكنه يرزق العاصى كما يرزق المطيع ويبقيه وهو منهمك فى معاصيه كما يبقى البر المتقى وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لايذكره فضلا عن أن يدعوه كما يقيها الناسك الذى يدعوه ويسأله وقال أبو سليمان الخطابى الحليم ذو الصفح والأناة الذى لا يستفزه غضب ولا يستخفه جهل جاهل ولا عصيان عاص ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم إنما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام المتأنى الذى لايعجل بالعقوبة . قوله عز وجل (للذين يؤلون من نسائهم) يؤلون أى يحلفون والألية اليمين قال كثير :

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت

والإيلاء فى عرف الشرع هو اليمين على ترك الوطء كما إذا قال والله لاأجامعك أولا أباضعك أولا أقربك قال ابن عباس كان أهل الجاهلية إذا طلب الرجل من امرأته شيئا فأبت أن تعطيه حلف لايقربها السنة والسنتين والثلاث فيدعها لاأيما ولا ذات بعل فلما كان الإسلام جعل الله ذلك للمسلمين أربعة أشهر وأنزل هذه الآية وقال سعيد بن المسيب كان الإيلاء ضرار أهل الجاهلية فكان الرجل يريد امرأته ولا يحب أن يتزوجها غيره فيحلف أن لايقربها أبدا فيتركها لاأيما ولا ذات بعل وكانوا عليه فى ابتداء الإسلام فجعل الله تعالى له الأجل الذى يعلم به ماعند الرجل فى المرأة أربعة أشهر وأنزل هذه الآية للذين يؤلون من نسائهم (تربص) أى انتظار (أربعة أشهر) والتربص التثبت والانتظار

فان

يقدر فبالقول فان لم يف ولم يطلق طلق عليه السلطان واحدة وذهب إلى الوقوف بعد مضى المدة عمر وعثمان وعلى وأبو الدرداء وابن عمر قال سليمان بن يسار أدركت بضعة عشر من أصحاب النبى ﷺ كلهم يقولون يوقف المولى وإليه ذهب سعيد بن جبير وسليمان بن يسار ومجاهد وبه قال مالك والشافعى وأحمد وإسحاق وقال بعض أهل العلم إذا مضت أربعة أشهر تقع عليها طلقة بائنة وهو قول ابن عباس وابن مسعود وبه قال سفيان الثورى وأصحاب الرأى ، وقال سعيد بن المسيب والزهرى تقع طلقة رجعية ولو حلف أن لايطأها أقل من أربعة أشهر لايكون موليا بل هو (٢٢٣) حالف فاذا وطئها قبل مضى تلك المدة تجب عليه كفارة اليمين ولو حلف أن لايطأها أربعة أشهر لايكون موليا عند من يقول بالوقف بعد مضى المدة لأن بقاء المدة شرط للوقف وثبوت المطالبة بالفىء أو الطلاق وقد مضت المدة وعند من لايقول بالوقف يكون موليا ويقع الطلاق بمضى المدة ؛ ومدة الإيلاء أربعة أشهر فى حق الحر والعبد جميعا عند الشافعى رحمه الله لأنها ضربت لمعنى يرجع إلى الطبع وهو قلة صبر المرأة عن الزوج فيستوى فيه الحر والعبد كمدة العنة وعند مالك رحمه الله وأبى حنيفة رحمه الله تتنصف مدة العنة بالرق غير أن عند أبى حنيفة تتنصف برق المرأة وعند مالك برق الزوج كما قالا فى الطلاق قوله تعالى «تربص أربعة أشهر» أى انتظار أربعة أشهر والتربص التثبت والتوقف (فان فاءوا) رجعوا عن اليمين بالوطىء (فان الله غفور رحيم) وإذا وطئ فى الفرج خرج عن الإيلاء وتجب عليه كفارة اليمين عند أكثر أهل العلم وقال الحسن وإبراهيم النخعى وقتادة لاكفارة عليه لأن الله تعالى وعد بالمغفرة فقال «فان الله غفور رحيم» وذلك عند الأكثرين فى سقوط العقوبة لافى الكفارة ولو قال لزوجته إن قربتك فعبدى حر أو ضربتك فأنت طالق أو لله على عتق عبد أو صوم أو صلاة فهو مول لأن المولى من يلزمه أمر بالوطىء ويوقف بعد مضى المدة فان فاء يقع الطلاق أو العتق المعلق به وإن التزم فى الذمة تلزمه كفارة اليمين فى قول وفى قول يلزمه ما التزم فى ذمته من الإعتاق أو الصلاة والصوم (وإن عزموا الطلاق) أى حققوه بالإيقاع (فان الله سميع) لقولهم (عليم) بنياتهم وفيه دليل على

(فان فاءوا) أى رجعوا عن اليمين بالوطء والمعنى فان رجعوا عما حلفوا عليه من ترك جماعها (فان الله غفور رحيم) للزوج إذا تاب من إضراره بامرأته فانه غفور رحيم لكل التائبين .

(فروع) تتعلق بحكم الآية :

(الفرع الأول) إذا حلف أنه لايقرب زوجته أبدا أو مدة هى أكثر من أربعة أشهر فهو مول فاذا مضت أربعة أشهر يوقف الزوج ويؤمر بالفى وهو الرجوع أو الطلاق وذلك بعد مطالبة الزوجة فان رجع عما قال بالوطء إن قدر عليه أو بالقول مع العجز عنه فان لم يفىء ولم يطلق طلق عليه الحاكم واحدة وهو قول عمر وعثمان وأبى الدرداء وابن عمر قال سليمان بن يسار أدركت بضعة عشر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يقول يوقف المولى وذهب إليه سعيد بن جبير وسليمان بن يسار ومجاهد وبه قال مالك والشافعى وأحمد وإسحاق وقال ابن عباس وابن مسعود إذا مضت مدة أربعة أشهر يقع عليها طلقة بائنة وبه قال سفيان الثورى وأبو حنيفة وقال سعيد بن المسيب والزهرى يقع عليها طلقة رجعية .

(الفرع الثانى) لو حلف أن لايطأها أقل من أربعة أشهر فليس بمول بل هو حالف فان وطئها قبل مضى المدة لزمه كفارة يمين .

(الفرع الثالث) لو حلف أن لايطأها أربعة أشهر فليس بمول بعد مضى المدة عند الشافعى لأن بقاء المدة شرط للوقوف وثبوت المطالبة بالفىء أو الطلاق وقد مضت المدة وعند أبى حنيفة يكون موليا ويقع الطلاق بمضى المدة .

(الفرع الرابع) مدة الإيلاء أربعة أشهر فى حق الحر والعبد جميعا عند الشافعى لأنها مدة ضربت لمعنى يرجع إلى الطبع وهو قلة صبر المرأة عن الزوج فيستوى فيه الحر والعبد كمدة العنة وعن مالك وأبى حنيفة تتنصف مدة الإيلاء بالرق غير أن عند أبى حنيفة تتنصف مدة الإيلاء برق المرأة وعند مالك برق الزوج كما فى الطلاق .

(الفرع الخامس) إذا وطئ خرج من الإيلاء ويجب عليه كفارة يمين وهذا قول أكثر العلماء وقيل لا كفارة عليه لأن الله تعالى وعده المغفرة فقال «فان فاءوا فان الله غفور رحيم» ومن قال بوجوب الكفارة عليه قال ذلك فى إسقاط العقوبة عنه لافى الكفارة . قوله تعالى (وإن عزموا الطلاق) أى تحققوه بالإيقاع (فان الله سميع) يعنى أى لأقوالهم (عليم) يعنى بنياتهم وفيه دليل على أنها لاتطلق مالم يطلقها زوجها لأنه تعالى شرط فيها العزم . قوله عز وجل

أنها لا تطلق بعد مضى المدة مالم يطلقها زوجها لأنه شرط فيه العزم وقال فان الله سميع عليم فدل على أنه يقتضى مسموعاً والقول هو الذى يسمع قوله تعالى (والمطلقات) أى المخليات من حبال أزواجهن (يتربصن) ينتظرن (بأنفسهن ثلاثة قروء) فلا يتزوجن والقروء جمع قرء مثل قرع وجمعه القليل أقرؤ والجمع الكثير أقراء واختلف أهل العلم فى القرء فذهب جماعة إلى أنها الحيض وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس وبه قال الحسن ومجاهد وإليه ذهب الأوزاعى والثورى وأصحاب الرأى واحتجوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم قال للمستحاضة «دعى الصلاة أيام أقرائك» وإنما تدع المرأة الصلاة أيام حيضها وذهب جماعة إلى أنها الأطهار وهو قول زيد ابن ثابت وعبد الله بن عمر وعائشة وهو قول الفقهاء السبعة والزهرى وبه قال ربيعة ومالك والشافعى واحتجوا بأن ابن عمر رضى الله عنه لما طلق امرأته وهى حائض قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر «مره فليراجعها حتى تطهر ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء» فأخبر أن زمان العدة هو الطهر ومن جهة اللغة قول الشاعر :

ففى كل عام أنت جاشم غزوة ... تشد لأقصاها عزيم عرائكا
مورثة مالا وفى الحى رفعة ... لما ضاع فيها من قروء نسائكا

وأراد به أنه كان يخرج إلى الغزو ولم يغش نساءه فتضيع أقراؤهن وإنما تضيع بالسفر زمان الطهر لازمان الحيض وفائدة الخلاف تظهر فى أن المعتدة إذا شرعت فى الحيضة الثالثة تنقضى عدتها على قول من يجعلها أطهارا وتحسب بقية الطهر الذى وقع فيه الطلاق قرءا . قالت عائشة رضى الله عنها إذا طعنت المطلقة فى الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها ومن ذهب إلى أن الأقراء هى الحيض يقول لاتنقضى عدتها مالم تطهر من الحيضة الثالثة وهذا الخلاف من حيث إن اسم القرء يقع على الطهر والحيض جميعا . يقال أقرأت المرأة إذا حاضت وأقرأت إذا طهرت فهى مقرئ واختلفوا فى أصله فقال أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة هو الوقت لمجىء الشىء

(والمطلقات) أى المخليات من حبال أزواجهن والمطلقة هى التى أوقع الزوج عليها الطلاق (يتربصن بأنفسهن) أى ينتظرن فلا يتزوجن (ثلاثة قروء) جمع قرء والقرء اسم يقع على الحيض والطهر قال أبو عبيدة الأقراء من الأضداد كالشفق اسم للحمرة والبياض وقيل إنه حقيقة فى الحيض مجاز فى الطهر وقيل بالعكس واختلفوا فى أصله فقيل أصله الجمع من قرأ أى جمع لأن فى وقت الحيض يجتمع الدم فى الرحم وفى وقت الطهر يجتمع فى البدن وقيل أصله الوقت يقال رجع فلان لقرئه أى لوقته الذى كان فيه لأن الحيض يأتى لوقت والطهر يأتى لوقت وبحسب اختلاف أهل اللغة فى الأقراء اختلف الفقهاء على قولين أحدهما أن الأقراء هى الحيض روى ذلك عن عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس وأبى موسى وعبادة بن الصامت وأبى الدرداء وبه قال عكرمة والضحاك والسدى والأوزاعى وسفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابه وقال أحمد بن حنبل كنت أقول إن الأقراء هى الأطهار وأنا اليوم أذهب إلى أنها الحيض القول الثانى أنها الأطهار روى ذلك عن زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة وبه قال الزهرى وأبان بن عثمان ومالك والشافعى وحجة من يقول إن الأقراء هى الحيض قوله صلى الله عليه وسلم للمستحاضة دعى الصلاة أيام أقرائك يعنى أيام حيضك لأن المرأة لاتدع الصلاة إلا أيام حيضها وحجة من يقول إنها الأطهار أن ابن عمر لما طلق امرأته وهى حائض قال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر مره فليراجعها حتى تطهر ثم إن شاء أمسكها وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها فأخبر أن زمان العدة هو الطهر لا الحيض ويعضده من اللغة قول الأعشى :

ففى كل عام أنت جاشم غزوة ... تشد لأقصاها عزيم عرائكا
مورثة مالا وفى الحى رفعة ... لما ضاع فيها من قروء نسائكا

أراد أنه كان يخرج للغزو ولم يغش نساءه فتضيع أقراؤهن وإنما تضيع بالسفر زمان الطهر لا زمان الحيض وفائدة الخلاف أن مدة العدة عند الشافعى أقصر وعند غيره أطول وذلك أن المعتدة إذا شرعت فى الحيضة الثالثة فقد انقضت عدتها وحلت للأزواج وبحسب بقية الطهر الذى وقع فيه الطلاق قرءا على قول من يجعل الأقراء الأطهار قالت عائشة رضى الله عنها إذا دخلت المطلقة فى الحيضة الثالثة فقد بانت من زوجها وحلت للأزواج وروى عنها أنها قالت القرء الطهر ليس بالحيضة قال الشافعى والنساء بهذا أعلم لأن هذا مما يبتلى به النساء وإن طلقها فى حال الحيض فاذا شرعت فى الحيضة الرابعة انقضت عدتها وعلى قول من يجعل

الأقراء

وذهابه يقال رجع فلان لقرئه ولقارئه أى لوقته الذى يرجع فيه وهذا قارئ الرياح أى وقت هبوبها . قال مالك بن الحارث الهذلى :

كرهت العقر عقر بنى شليل إذا هبت لقارئها الرياح

أى لوقتها والقرء يصلح للوجهين لأن الحيض يأتى لوقت والطهر مثله وقيل هو من القرء وهو الحبس والجمع ؛ تقول العرب ماقرأت الناقة سلا قط أى لم تضم رحمها على ولد ومنه قريت الماء فى المقرأة وهى الحوض : أى جمعته بترك همزها فالقرء ههنا احتباس الدم واجتماعه ؛ فعلى هذا يكون الترجيح فيه للطهر لأنه يحبس الدم ويجمعه والحيض يرخيه ويرسله وجملة الحكم فى العدد أن المرأة إذا كانت حاملا فعدتها بوضع الحمل ، سواء وقعت الفرقة بينها وبين الزوج بالطلاق أو بالموت لقوله تعالى «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن» فان لم تكن (٢٢٥) حاملا نظر إن وقعت الفرقة بينهما بموت الزوج فعليها أن تعتد بأربعة أشهر وعشر سواء مات الزوج قبل الدخول أو بعده وسواء كانت المرأة ممن تحيض أو لا تحيض لقول الله «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا» وإذ وقعت الفرقة بينهما بالطلاق فى الحياة نظر إن كان قبل الدخول بها فلا عدة عليها لقول الله تعالى «إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها» وإن كان بعد الدخول نظر إن كانت المرأة ممن لم تحض قط أو بلغت فى الكبر سن الآيسات فعدتها ثلاثة أشهر لقول الله تعالى

الأقراء حيضا وهو مذهب أبى حنيفة لاتنقضى عدتها مالم تطهر من الحيضة الثالثة إن كان قع الطلاق فى حال الطهر أو من الحيضة الرابعة إن وقع فى حال الحيض . فان قلت مامعنى الإخبار عنهن بالتربص فى قوله والمطلقات يتربصن بأنفسهن . قلت هو خبر فى صورة الأمر وأصل الكلام وليتربص المطلقات فاخرج الأمر فى صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عن موجود ونظيره قولهم فى الدعاء يرحمك الله أخرج فى صورة الخبر ثقة بالإجابة فكأنه قال وجدت الرحمة فهو يخبر عنها .

(فصل فى أحكام العدة) وفيه مسائل :

(المسئلة الأولى) عدة الحامل تنقضى بوضع الحمل سواء المطلقة والمتوفى عنها زوجها وسواء فى ذلك الحرة والأمة .

(المسئلة الثانية) عدة المتوفى عنها سوى الحامل أربعة أشهر وعشرة أيام سواء مات عنها زوجها قبل الدخول أو بعده وسواء فى ذلك الحيض والأمة والآيسة .

(المسئلة الثالثة) عدة المطلقة المدخول بها وهى ضربان : أحدهما الحيض فعدتها بالإقراء وهى ثلاثة أقراء الضرب الثانى الآيسات من الحيض وإما الكبر أو تكون لم تحض قط فعدتها ثلاثة أشهر وأما المطلقة قبل الدخول فلا عدة عليها .

(المسئلة الرابعة) عدة الإماء نصف عدة الحرائر فيما له نصف وفى الأقراء قرآن لأنه لايتنصف قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ينكح العبد اثنتين ويطلق طلقتين وتعتد الأمة بحيضتين وقوله تعالى (ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن) قال ابن عباس يعنى الولد وقيل الحيض ؛ والمعنى أنه لا يحل للمرأة كتمان ماخلق الله فى رحمها من الحيض أو الحمل لتبطل بذلك الكتمان حق الزوج من الرجعة والولد (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) هذا وعيد شديد لتأكيد تحريم الكتمان وإيجاب أداء الأمانة فى الإخبار عما فى الرحم من الحيض أو الولد والمعنى أن هذا

«واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن» وإن كانت ممن تحيض فعدتها ثلاثة أقرؤ لقوله تعالى «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» وقوله يتربصن بأنفسهن لفظه خبر ومعناه أمر وعدة الأمة إن كانت حاملا بوضع الحمل كالحرة وإن كانت حائلا ففى الوفاة عدتها شهران وخمس ليال وفى الطلاق إن كانت ممن تحيض فعدتها قرآن وإن كانت ممن لاتحيض فشهر ونصف وقيل شهران كالقرءين فى حق من تحيض قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ينكح العبد امرأتين ويطلق طلقتين وتعتد الأمة بحيضتين فان لم تكن تحيض فشهرين أو شهرا ونصفا.

قوله عز وجل (ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن) قال عكرمة يعنى الحيض وهو أن يريد الرجل مراجعتها فتقول قد حضت الثالثة وقال ابن عباس وقتادة يعنى الحمل ومعنى الآية لايحل للمرأة كتمان ماخلق الله فى رحمها من الحيض والحمل لتبطل حق الزوج من الرجعة والولد (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) معناه أن هذا من فعل المؤمنات وإن كانت

المؤمنة والكافرة فى هذا الحكم سواء كما تقول أد حقى إن كنت مؤمنا ؛ يعنى أداء الحقوق من فعل المؤمنين (وبعولتهن) يعنى أزواجهن جمع بعل كالفحولة جمع فحل سمى الزوج بعلا لقيامه بأمور زوجته وأصل البعل السيد والمالك (أحق بردهن) أولى برجعتهن إليهم (فى ذلك) أى فى حال العدة (إن أرادوا إصلاحا) أى إن أرادوا بالرجعة الصلاح وحسن العشرة لا الإضرار كما كانوا يفعلونه فى الجاهلية كالرجل يطلق امرأته فاذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم تركها مدة ثم طلقها فاذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم بعد مدة طلقها يقصد بذلك تطويل العدة عليها (ولهن) أى للنساء على الأزواج مثل الذى عليهن للأزواج بالمعروف قال ابن عباس فى معناه إنى أحب أن أتزين لامرأتى كما تحب امرأتى أن تتزين لى لأن الله تعالى قال (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسن المروزى أخبرنا أبو سهل محمد بن عمر بن طرفة الشجرى أنا أبو سليمان الخطابى أخبرنا أبو بكر ابن داسه أنا أبو داود السجستانى أنا موسى بن إسماعيل أنا حماد أنا أبو قزعة سويد بن حجير الباهلى عن حكيم بن معاوية القشيرى عن أبيه قال «قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه قال أن تطعمها إذا طعمت وأن تكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت» أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجانى أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسى أنا محمد ابن عيسى الجلودى أنا أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد بن سفيان أنا محمد بن الحجاج أنا أبو بكر بن أبى شيبة أنا حاتم بن إسماعيل المدنى عن جعفر بن محمد عن أبيه أنه قال دخلنا على جابر بن عبد الله فقلت أخبرنى عن حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسرد قصة حجة الوداع إلى أن ذكر خطبته يوم عرفة قال «فاتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فان فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده كتاب الله وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد ثلاث مرات» أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أحمد بن الحسن الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا محمد بن يحيى أنا يعلى بن عبيد أنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أكمل المؤمنين

من فعل المؤمنات وإن كانت المؤمنة والكافرة فيه سواء فهو كقولك أد حقى إن كنت مؤمنا يعنى أن أداء الحقوق من أفعال المؤمنين وتقول للذى يظلم إن كنت مؤمنا فلا تظلمنى، والمعنى ينبغى أن يمنعك إيمانك من الظلم وفى سبب وعيد النساء بهذا قولان أحدهما أنه لأجل ما يستحقه الزوج من الرجعة قاله ابن عباس والثانى أنه لأجل إلحاق الولد بغير أبيه قاله قتادة وقيل كانت المرأة إذا رغبت فى زوجها تقول إنى حائض وإن كانت قد طهرت ليراجعها وإن كانت زاهدة فيه كتمت حيضها وتقول قد طهرت لتفوته فنهاهن الله عن ذلك وأمرهن بأداء الأمانة (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك) يعنى أزواجهن سمى الزوج بعلا لقيامه بأمر زوجته وأصل البعل السيد والمالك والمعنى وأزواجهن أولى برجعتهن وردهن إليهم فى ذلك أى فى حال العدة فاذا انقضى وقت العدة فقد بطل حق الرد والرجعة (إن أرادوا إصلاحا) يعنى إن أراد الزوج بالرجعة الإصلاح وحسن العشرة لا الإضرار بهن وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يراجعون ويريدون بذلك الإضرار فنهى الله المؤمنين عن مثل ذلك وأمرهم بالإصلاح وحسن العشرة بعد الرجعة (ولهن) يعنى وللنساء على الأزواج (مثل الذى عليهن) يعنى للأزواج (بالمعروف) وذلك أن حق الزوجية لا يتم إلا إذا كان كل واحد منهما يراعى حق الآخر فيما له وعليه فيجب على الزوج أن يقوم بجميع حقها ومصالحها ويجب على الزوجة الانقياد والطاعة له قال ابن عباس فى معنى الآية إنى أحب أن أتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى لأن الله تعالى قال ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف (م) عن جابر أنه ذكر خطبة النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وقال فيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فاتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانات الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فان فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. قوله فاتقوا الله فى النساء فيه الحث على الوصية بهن ومراعاة حقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف. قوله فانكم أخذتموهن بأمانات الله ويروى بأمانة وقوله واستحللتم فروجهن بكلمة الله معناه بإباحة الله والكلمة هى قوله «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» وقيل الكلمة هى قوله «فامساك بمعروف أو تسريح باحسان» وقيل الكلمة هى كلمة
التوحيد

إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائكم». قوله تعالى (وللرجال عليهن درجة) قال ابن عباس بما ساق إليها من المهر وأنفق
عليها من المال وقال قتادة بالجهاد وقيل بالعقل وقيل بالشهادة وقيل بالميراث وقيل بالدية وقيل بالطلاق

التوحيد وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم وقوله لا يوطئن فرشكم
أحدا تكرهونه معناه ولا يأذن لأحد أن يتحدث إليهن وكان من عادة العرب أن يتحدث الرجال
مع النساء ولا يرون ذلك عيبا ولا يعدونه ريبة إلى أن نزلت آية الحجاب فنهوا عن ذلك وليس
المراد بوطء الفرش نفس الزنا فان ذلك محرم على كل الوجوه فلا معنى لاشتراط الكراهة فيه
ولو كان المراد ذلك لم يكن الضرب فيه ضربا غير مبرح إنما كان فيه الحد والضرب المبرح هو
الشديد وقوله ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف يعني بالعدل وفيه وجوب نفقة الزوجة
وكسوتها وذلك ثابت بالإجماع . وقوله تعالى (وللرجال عليهن درجة) أي منزلة ورفعة قال
ابن عباس بما ساق إليها من المهر وأنفق عليها من المال وقيل إن فضيلة الرجال على النساء بأمور
منها العقل والشهادة والميراث والدية وصلاحية الإمامة والقضاء وللرجال أن يتزوج عليها
ويتسرى وليس لها ذلك وبيد الرجل الطلاق فهو قادر على تطليقها وإذا طلقها رجعية فهو قادر
على رجعتها وليس شيء من ذلك بيدها (والله عزيز) أي غالب لا يمتنع عليه شيء (حكيم) أي
في جميع أفعاله وأحكامه، روى البغوي بسنده عن أبي ظبيان أن معاذ بن جبل خرج في غزاة
بعثه رسول الله ﷺ فيها ثم رجع فرأى رجالا يسجد بعضهم لبعض فذكر ذلك لرسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» .
قوله عز وجل (الطلاق مرتان) عن عروة بن الزبير قال كان الرجل إذا طلق زوجته ثم ارتجعها
قبل أن تنقضي عدتها كان له ذلك وإن طلقها ألف مرة فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا
شارفت انقضاء عدتها ارتجعها ثم قال والله لا آويك إلي ولا تحلين أبدا فأنزل الله تعالى «الطلاق
مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان» فاستقبل الناس الطلاق جديدا من ذلك اليوم من
كان طلق أو لم يطلق أخرجه الترمذي وله عن عائشة قالت كان الناس والرجل يطلق امرأته
ماشاء الله أن يطلقها وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مائة أو أكثر حتى قال
رجل لامرأته والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك أبدا قالت وكيف ذلك قال أطلقك فكلما
همت عدتك أن تنقضي راجعتك فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت عائشة
حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فسكت النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل القرآن
الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان قالت عائشة فاستأنف الطلاق مستقبلا من
كان قد طلق ومن لم يطلق ومعنى الآية أن الطلاق الرجعي مرتان ولا رجعة بعد الثالثة إلا أن
تنكح زوجا آخر وهذا التفسير هو قول من جوز الجمع بين الطلاق الثلاث في دفعة واحدة
وهو الشافعي، وقيل في معنى الآية إن التطليق الشرعي يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة بعد تطليقة
على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة وهذا التفسير هو قول من قال إن الجمع بين
الثلاثة حرام إلا أن أبا حنيفة قال يقع الثلاث وإن كان حراما وقيل إن الآية دالة على عدد
الطلاق الذي يكون للرجل فيه الرجعة على زوجته والعدد الذي تبين به زوجته منه، والمعنى أن
عدد الطلاق الذي لكم فيه رجعة على أزواجكم إذا كن مدخولا بهن تطليقتان وأنه لا رجعة

لأن الطلاق بيد الرجال
وقيل بالرجعة وقال
سفيان وزيد بن أسلم
بالإمارة وقال القتيبي
وللرجال عليهن درجة
معناه فضيلة في الحق
(والله عزيز حكيم) أخبرنا
أحمد بن عبد الله الصالحي
أخبرنا أبو سعيد محمد
ابن موسى الصيرفي أنا
أبو عبد الله محمد بن
عبد الله الصفار أخبرنا
أحمد بن محمد بن عيسى
البرتي أنا حذيفة أنا سفيان
عن الأعمش عن أبي
ظبيان أن معاذ بن جبل
خرج في غزاة بعثه
النبي صلى الله عليه وسلم
فيها ثم رجع فرأى
رجالا يسجد بعضهم
لبعض فذكر ذلك للنبي
صلى الله عليه وسلم
فقال النبي صلى الله عليه
وسلم « لو أمرت أحدا
أن يسجد لأحد لأمرت
المرأة أن تسجد لزوجها»
قوله تعالى (الطلاق
مرتان) روى عن عروة
ابن الزبير قال كان الناس
في الابتداء يطلقون من
غير حصر ولا عدد وكان
الرجل يطلق امرأته فاذا
قاربت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها كذلك ثم راجعها يقصد مضارتها فنزلت هذه الآية الطلاق مرتان يعني الطلاق الذي يملك
الرجعة عقيبة مرتان فاذا طلق ثلاثا فلا تحل له إلا بعد نكاح زوج آخر . قوله تعالى (فامساك بمعروف) قيل أراد بالإمساك الرجعة بعد
الثانية والصحيح أن المراد منه الإمساك بعد الرجعة يعني إذا راجعها بعد الطلقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف والمعروف كل

مايعرف فى الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة (أو تسريح باحسان) هو أن يتركها بعد الطلاق حتى تنقضى عدتها وقيل الطلقة قوله تعالى أو تسريح باحسان وصريح اللفظ الذى يقع به الطلاق من غير نية ثلاثة الطلاق والفراق والسراح وعند أبى حنيفة الصريح هو لفظ الطلاق فحسب وجملة الحكم فيه أن الحر إذا طلق زوجته طلقة أو طلقتين بعد الدخول بها يجوز له مراجعتها بغير رضاها مادامت فى العدة وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها أو طلقها قبل الدخول بها أو خالعها فلا تحل له إلا بنكاح جديد باذنها وإذن وليها فان طلقها ثلاثا فلاتحل له مالم تنكح زوجا غيره وأما العبد إذا كانت تحته امرأة فطلقها طلقتين فانها لاتحل إلا بعد نكاح زوج آخر. (٢٢٨) واختلف أهل العلم فيما إذا كان أحد الزوجين رقيقا فذهب أكثرهم إلى أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج فالحر يملك على زوجته الأمة ثلاث طلقات والعبد لايملك على زوجته الحرة إلا طلقتين. قال عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه الطلاق بالرجال والعدة بالنساء يعنى يعتبر فى عدد الطلاق حال الرجل وفى قدر العدة حال المرأة وهو قول عثمان وزيد بن ثابت وابن عباس رضى الله عنهم وبه قال عطاء وسعيد بن المسيب وإليه ذهب مالك والشافعى وأحمد وإسحاق، وذهب قوم إلى أن الاعتبار بالمرأة فى عدد الطلاق فيملك العبد على زوجته الحرة ثلاث طلقات ولا يملك الحر على زوجته الأمة إلا طلقتين وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى قوله تعالى (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا) أعطيتموهن شيئا من المهور وغيرها ثم استثنى الخلع فقال (إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله) نزلت فى جميلة بنت عبد الله بن أبى أوفى ويقال فى حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه وهو يحبها فكان بينهما كلام فأتت أباها فشكت إليه زوجها وقالت له إنه يسىء إلى ويضربنى فقال ارجعى إلى زوجك فانى أكره للمرأة أن لا تزال رافعة يديها تشكو زوجها قال فرجعت إليه الثانية وبها أثر الضرب فقال لها ارجعى إلى زوجك فلما رأت أن أباها لايشكيها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت إليه زوجها وأرته آثارا بها من ضربه وقالت يارسول الله لا أنا ولا هو فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت ابن قيس فقال مالك ولأهلك فقال والذى بعثك بالحق نبيا ماعلى وجه الأرض أحب إلى منها غيرك فقال لها ماتقولين فكرهت

له بعد التطليقتين إن سرحها فطلقها الثالثة (فامساك بمعروف) يعنى بعد الرجعة وذلك أنه إذا راجعها بعد التطليقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف وهو كل ماعرف فى الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة (أو تسريح باحسان) يعنى أنه يتركها بعد الطلاق حتى تنقضى عدتها من غير مضارة وقيل هو أنه إذا طلقها أدى إليها جميع حقوقها المالية ولايذكرها بعد المفارقة بسوء ولا ينفر الناس عنها.

(فروع) تتعلق بأحكام الطلاق:

(الفرع الأول) صريح اللفظ الذى يقع به الطلاق من غير نية ثلاث الطلاق والفراق والسراح، وعند أبى حنيفة الصريح هو لفظ الطلاق فقط.

(الفرع الثانى) الحر إذا طلق زوجته طلقة أو طلقتين بعد الدخول بها فله مراجعتها من غير رضاها مادامت فى العدة فاذا لم يراجعها حتى انقضت عدتها أو طلقها قبل الدخول بها أو خالعها فلاتحل له إلا بنكاح جديد باذنها وإذن وليها.

(الفرع الثالث) العبد يملك على زوجته الأمة تطليقتين. واختلف فيما إذا كان أحد الزوجين حرا فالحر يملك على زوجته الأمة ثلاث تطليقات والعبد يملك على زوجته الحرة تطليقتين فالاعتبار بحال الزوج فى عدد الطلاق وبه قال الشافعى ومالك وأحمد وذهب أبو حنيفة إلى أن الإعتبار بالمرأة فالعبد يملك على زوجته الحرة ثلاث تطليقات والحر يملك على زوجته الأمة تطليقتين (ولايحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن) يعنى أعطيتموهن شيئا) يعنى من مهر أو غيره ثم استثنى الخلع فقال تعالى (إلا أن يخافا أن لايقيما حدود الله) نزلت فى جميلة بنت عبد الله ابن أبى أوفى ويقال حبيبة بنت سهل الأنصارى كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه وهو يحبها وكان بينهما كلام فأتت أباها تشكو إليه زوجها وقالت إنه يسب أبى ويضربنى فقال ارجعى إلى زوجك فانى أكره للمرأة أن لاتزال رافعة يديها تشكو زوجها قال فرجعت إليه الثالثة وبها أثر الضرب فقال ارجعى إلى زوجك فلما رأت إن أباها لايشكيها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت إليه زوجها وأرته آثارا بها من ضربه وقالت يارسول الله لا أنا ولا هو فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ثابت فقال مالك ولأهلك فقال والذى بعثك

ان تكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألها فقالت صدق يارسول الله ولكن قد خشيت أن يهلكني فأخرجني منه
وقالت يارسول الله ما كنت لأحدثك حديثا ينزل الله عليك خلافه فهو من أكرم الناس محبة لزوجته ولكني أبغضه فلا أنا
ولا هو قال ثابت يارسول الله قد أعطيتها حديقة فقل لها تردها علي وأخلي سبيلها . فقال لها تردين عليه حديقته وتملكين
أمرك قالت نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياثابت خذ منها ما أعطيتها وخل سبيلها . ففعل أخبرنا عبد الواحد المليحي
أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا زاهر بن جميل أخبرنا عبد الوهاب الثقفي أنا خالد
عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما « أن امرأة ثابت بن قيس أتت

النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتردين عليه حديقته قالت نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل الحديقة وطلقها تطليقة» قوله تعالى إلا أن يخافا أي يعلما أن لا يقيما حدود الله. قرأ أبو جعفر وحمزة ويعقوب إلا أن يخافا بضم الياء أي يعلم ذلك منهما يعني يعلم القاضي والوالي ذلك من الزوجين بدليل قوله تعالى فان خفتم فجعل الخوف لغير الزوجين ولم يقل فان خافا وقرأ الآخرون يخافا بفتح الياء أي يعلم الزوجان من أنفسهما أن لا يقيما حدود الله تخاف المرأة أن
تعصى الله في أمر زوجها ويخاف الزوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها . فنهى الله الرجل أن يأخذ من امرأته
شيئا مما آتاها إلا أن يكون النشوز من قبلها فقالت لا أطيع لك أمرا ولا أطأ لك مضجعا ونحو ذلك قال الله تعالى (فان خفتم ألا
يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أي فيما افتدت به المرأة نفسها منه قال الفراء أراد بقوله عليهما الزوج دون المرأة
فذكرهما جميعا لاقترانهما كقوله تعالى نسيا حوتهما وإنما الناسي فتى موسى دون موسى وقيل أراد أنه لاجناح عليهما جميعا
لاجناح على المرأة في النشوز إذا خشيت الهلاك والمعصية ولا فيما افتدت به وأعطت من المال لأنها ممنوعة من إتلاف المال بغير
حق ولا على الزوج فيما أخذ منها من المال إذا أعطته طائعة وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الخلع جائز على أكثر مما أعطاها وقال
الزهري لا يجوز بأكثر مما أعطاها من المهر وقال سعيد بن المسيب لا يأخذ منها جميع ما أعطاها بل يترك شيئا ويجوز الخلع على

بالحق نبيا ما على وجه الأرض أحب إلي منها غيرك فقال لها ما تقولين ؟ فكرهت أن تكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألها فقالت صدق يارسول الله ولكني خشيت أن يهلكني فأخرجني منه وقالت يارسول الله ما كنت أحدثك حديثا ينزل عليك خلافه هو أكرم الناس حبا لزوجته ولكني أبغضه فلا أنا ولا هو قال ثابت أعطيتها حديقة نخل فقل لها فلتردها علي وأخلي سبيلها فقال لها تردين عليه حديقته وتملكين أمرك قالت نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياثابت خذ منها ما أعطيتها وخل سبيلها ففعل (خ) عن ابن عباس « أن امرأة ثابت ابن قيس أتت النبي ﷺ فقالت يارسول الله إن ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا مال ولكني أكره الكفر في الإسلام قال أبو عبد الله يعني تبغضه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تردين عليه حديقته ؟ قالت نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» قوله ما أعتب عليه يعني ما أجد عليه والعتبى الموجدة والحديقة البستان من النخل إذا كان عليه الحائط ومعنى قوله تعالى إلا أن يخافا أي يعلما الزوجان من أنفسهما أن لا يقيما حدود الله والمعنى تخاف المرأة أن تعصى الله في أمور زوجها ويخاف الزوج أنه إذا لم تطعه أن يعتدي عليها فنهى الله الرجل أن يأخذ من امرأته شيئا مما أعطاها إلا أن يكون النشوز من قبلها وذلك أن تقول لا أطيع لك أمرا ولا أطألك مضجعا ونحو ذلك وقرئ يخافا بضم الياء ومعناه إلا أن يعلم ذلك من حالهما يعني يعلم القاضي والوالي (فان خفتم) يعني فان خشيتم وأشفقتم وقيل معناه فان ظننتم (ألا يقيما حدود الله) يعني ما أوجب الله على كل واحد منهما من طاعته فيما أمره به من حسن الصحبة والمعاشرة بالمعروف وقيل هو يرجع إلى المرأة وهو سوء خلقها واستخفافها بحق زوجها (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أي لا جناح على المرأة في النشوز إذا خشيت الهلاك والمعصية فيما افتدت به نفسها أو أعطت من المال لأنها ممنوعة من إتلاف المال بغير حق ولا على الزوج فيما أخذ من المال إذا أعطته المرأة طائعة راضية .

(فصل : في حكم الخلع وفيه مسائل)

الأولى قال الزهري والنخعي وداود : لا يباح الخلع إلا عند الغضب والخوف من أن لا يقيما حدود الله فان وقع الخلع في غير هذه الحالة فهو فاسد وحجة هذا القول أن الآية صريحة في أنه

غير حال النشوز غير أنه يكره لما فيه من قطع الوصلة بلا سبب . أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله ابن فنجويه الدينوري أنا عبد الله بن محمد بن شيبة أنا أحمد بن جعفر المستملي أنا أبو محمد يحيى بن إسحاق بن شاكر بن أحمد ابن خباب أنا عيسى بن يونس أنا عبيد الله بن الوليد الوصافي عن محارب بن دثار عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى (٢٣٠) الطلاق ولا أحب إليه من العتق » أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرني ابن فنجويه أنا ابن أبي شيبة أنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة أنا أبي أنا أبو أسامة عن حماد ابن زيد عن أبي أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة » . وقال طاوس الخلع يختص بحالة خوف النشوز لظاهر الآية والآية خرجت على وفق العادة في أن الخلع لا يكون إلا في حال خوف النشوز غالبا وإذا طلق الرجل امرأته بلفظ الطلاق على مال فقبلت وقعت البينونة وانتقص به العدد . واختلف أهل العلم في الخلع ، فذهب أكثرهم إلى أنه تطليقة بائنة ينتقص بها عدد الطلاق وهو قول عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وبه قال سعيد بن المسيب وعطاء والحسن والشعبي والنخعي وإليه ذهب مالك والثوري والأوزاعي وأصحاب الرأي وهو أظهر قولي الشافعي وذهب قوم إلى أنه فسخ لا ينتقص به عدد الطلاق وهو قول عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وبه قال عكرمة وطاوس وإليه ذهب أحمد وإسحاق واحتجوا بأن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين ثم ذكر بعده الخلع ثم ذكر بعده الطلقة الثالثة فقال فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ولو كان الخلع طلاقا لكان الطلاق أربعا ومن

لا يجوز للزوج أن يأخذ من المرأة شيئا عند طلاقها ثم استثنى الله تعالى حالة مخصوصة فقال إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فكانت هذه صريحة في أنه لا يجوز الأخذ في غير حالة الغضب والخوف من أن لا يقيما حدود الله، وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز الخلع من غير نشوز ولا غضب غير أنه يكره لما فيه من قطع الوصلة بلا سبب عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة » أخرجه أبو داود والترمذي. عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » أخرجه أبو داود ودليل الجمهور على جواز الخلع من غير نشوز قوله تعالى «فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا »فاذا جاز لها أن تهب مهرها من غير أن يحصل لها شيء فاذا بذلت كان ذلك في الخلع الذي تصير بسببه مالكة أمر نفسها أولى. وأجيب عن الاستثناء المذكور في هذه الآية أنه محمول على الاستثناء المنقطع .

(المسئلة الثانية) الخلع جائز على أكثر مما أعطاها وبه قال أكثر العلماء، وقال بعضهم لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها وهو قول علي وبه قال الزهري والشعبي والحسن وعطاء وطاوس وقال سعيد بن المسيب بل يأخذ دون ما أعطاها حتى يكون الفضل فيه وحجة الجمهور أن الخلع عقد على معاوضة فوجب أن لا يقيد بمقدار معين كما أن للمرأة أن لا ترضى عند عقد النكاح إلا بالكثير فكذلك للزوج أن لا يرضى عند الخلع إلا بالبذل الكثير لا سيما وقد أظهرت الاستخفاف بالزوج حيث أظهرت بغضه وكراهته .

(المسئلة الثالثة) اختلف العلماء في الخلع هل هو فسخ أو طلاق فقال الشافعي في القديم إنه فسخ وهو قول ابن عباس وطاوس وعكرمة وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور وقال الشافعي في الجديد إنه طلاق وهو الأظهر وهو قول عثمان وعلي وابن مسعود والحسن والشعبي والنخعي وعطاء وابن المسيب ومجاهد ومكحول والزهري وبه قال أبو حنيفة ومالك وسفيان الثوري. وحجة القول القديم أن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين ثم ذكر بعده الخلع ثم ذكر الطلقة الثالثة فقال «فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » ولو كان الخلع طلاقا لكان الطلاق أربعا وحجة القول الجديد أنه لو كان فسخا لما صح بالزيادة على المهر المسمى كالإقالة في البيع وأيضا لو كان الخلع فسخا فاذا خالعها ولم يذكر مهرا وجب أن يجب المهر عليها كالإقالة فان الثمن يجب رده وإن لم يذكره فثبت أن الخلع ليس بفسخ وإذا بطل ذلك ثبت أنه طلاق وأيضا فان الطلقة الثالثة قوله أو تسريح باحسان. وفائدة الخلاف أنا إذا جعلناه طلاقا ينتقص به عدد الطلاق فان تزوجها بعده كانت معه على طلقتين وإن جعلناه فسخا بانت منه بثلاث . قوله تعالى

(تلك

قال بالقول الأول جعل الطلقة الثالثة أو تسريح باحسان. قوله تعالى (تلك حدود الله) أى هذه أوامر الله ونواهيه وحدود الله مامنع الشرع من المجاوزة عنه (فلاتعتدوها) فلاتجاوزوها (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) قوله تعالى (فان طلقها) يعنى الطلقة الثالثة (فلا تحل له من بعد) أى من بعد الطلقة الثالثة (حتى تنكح زوجا غيره) أى غير المطلق فيجامعها والنكاح يتناول الوطء والعقد جميعا نزلت فى تميمة وقيل فى عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك القرظى كانت تحت ابن عمها رفاعة ابن وهب بن عتيك القرظى فطلقها ثلاثا أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أخبرنا سفيان عن الزهرى عن عروة عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنه سمعها تقول جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إنى كنت عند رفاعة القرظى فطلقنى فبت طلاقى وتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنما معه مثل هدبة الثوب فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة قالت نعم قال لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقى عسيلته وروى أنها لبثت ما شاء الله ثم رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن زوجى قد مسنى فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم كذبت بقولك الأول فلن نصدقك فى الآخر فلبثت حتى قبض النبى صلى الله عليه وسلم فأتت أبا بكر رضى الله عنه فقالت ياخليفة رسول الله ﷺ أرجع إلى زوجى الأول فان زوجى الآخر قد مسنى وطلقنى فقال لها أبو بكر قد شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتيته وقال لك ما قال فلا ترجعى إليه فلما قبض أبو بكر رضى الله عنه أتت عمر رضى الله عنه وقالت له مثل ذلك فقال لها عمر رضى الله عنه لا ترجعى إليه لئن رجعت إليه لأرجمنك. قوله تعالى (فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا) يعنى فان طلقها الزوج الثانى بعد ماجامعها فلا جناح عليهما يعنى على المرأة وعلى الزوج الأول أن يتراجعا يعنى بنكاح جديد (إن ظنا) أى علما وقيل رجوا لأن أحدا لايعلم ماهو كائن إلا الله عز وجل (أن يقيما حدود الله)

(تلك حدود الله) يعنى هذه أوامر الله ونواهيه وهو ماتقدم من أحكام الطلاق والرجعة والخلع وحدود الله مامنع من مجاوزتها وهو قوله (فلا تعتدوها) أى فلا تجاوزوها (ومن يتعد حدود الله) أى يجاوزها (فأولئك هم الظالمون) قوله عز وجل (فان طلقها) يعنى الطلقة الثالثة (فلا تحل له من بعد) أى لاتحل له رجعتها بعد الثلاث (حتى تنكح زوجا غيره) يعنى حتى تتزوج زوجا آخر غير المطلق فيجامعها والنكاح يتناول العقد والوطء جميعا والمراد هنا الوطء نزلت فى تميمة وقيل عائشة بنت عبد الرحمن بن عتيك القرظى وكانت تحت ابن عمها رفاعة بن وهب بن عتيك القرظى فطلقها ثلاثا (ق) عن عائشة قالت «جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إنى كنت عند رفاعة فطلقنى فبت طلاقى فتزوجت بعده عبدالرحمن ابن الزبير وإنما معه مثل هدبة الثوب فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقى عسيلته» قولها فبت طلاقى أى قطعه والبت القطع وقولها مثل هدبة الثوب أى طرفه وهو كناية عن استرخاء الذكر قوله حتى يذوق عسيلتك بضم العين تصغير العسل شبه لذة الجماع بالعسل وهو كناية عنه وإنما أنث العسل لأن من العرب من يؤنثه وقيل أنثه حملا له على المعنى لأن المراد منه النطفة وعبدالرحمن المذكور هو عبدالرحمن ابن الزبير بفتح الزاى وكسر الباء مشددة، وروى أنها لبثت ما شاء الله ثم رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن زوجى قد مسنى فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم كذبت بقولك الأول فلن أصدقك فى الآخر فلبثت حتى قبض رسول الله ﷺ فأتت أبا بكر فقالت ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجع إلى زوجى الأول فان زوجى الآخر قد مسنى وطلقنى فقال لها أبو بكر قد شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتيته وقال لك ماقال فلا ترجعى إليه فلما قبض أبو بكر أتت عمر وقالت لأبى بكر فقال لها لئن رجعت إليه لأرجمنك. قوله تعالى (فان طلقها) يعنى الزوج الثانى بعد وطئها (فلا جناح عليهما) يعنى على المرأة والزوج الأول (أن يتراجعا) يعنى بنكاح جديد (إن ظنا) أى علما وأيقنا وقيل إن رجوا لأن أحداً لايعلم ماهو كائن إلا الله تعالى (أن يقيما حدود الله) يعنى يقيما بينهما الصلاح وحسن العشرة والصحبة وقيل معناه إن علما أن نكاحها على غير دلسة والمراد بالدلسة التحليل.

(فرعان: الأول) مذهب جمهور العلماء أن المطلقة بالثلاث لاتحل للزوج المطلقة منه بالثلاث إلا بشرائط وهى أن تعتد منه ثم تتزوج بزوج آخر ويطأها ثم يطلقها ثم تعتد منه فاذا

أى يكون بينهما الصلاح وحسن الصحبة ، وقال مجاهد معناه إن علما أن نكاحهما على غير دلسة وأراد بالدلسة التحليل وهو مذهب سفيان الثورى والأوزاعى ومالك وأحمد وإسحاق قالوا إذا تزوجت المطلقة ثلاثة زوجا آخر ليحلها للزوج الأول فان النكاح فاسد وذهب جماعة إلي أنه إذا لم يشترط فى النكاح مع الثانى أنه يفارقها فالنكاح صحيح ويحصل به التحليل ولها صداق مثلها غير أنه يكره إذا كان فى عزمها ذلك . أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمى أخبرنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمى أنا أبو أحمد عبد الله بن عدى الحافظ أنا الحسن بن الفرج أخبرنا عمرو بن خالد الحرانى أنا عبيد الله ابن عبد الكريم هو الجوزى عن أبى واصل (٢٣٢) عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله المحلل والمحلل له » وقال نافع أتى رجل ابن عمر فقال له إن رجلا طلق امرأته ثلاثا فانطلق أخ له من غير مؤامرة فتزوجها ليحلها للأول فقال لا إلا نكاح رغبة كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله ﷺ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعن الله المحلل والمحلل له » (وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) يعنى يعلمون ما أمرهم الله تعالى به . قوله تعالى (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) الآية نزلت فى رجل من الأنصار يدعى ثابت ابن يسار طلق امرأته حتى قاربت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها يقصد بذلك مضارتها قوله تعالى فبلغن أجلهن أى أشرفن على أن تبين بانقضاء العدة ولم يرد حقيقة انقضاء العدة لأن العدة إذا انقضت لم يكن للزوج إمساكها فالبلوغ ههنا بلوغ مقاربة ، وفى قوله تعالى بعد هذا فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن حقيقة انقضاء العدة والبلوغ يتناول المعنيين يقال بلغت المدينة إذا قربت منها وإذا دخلتها (فأمسكوهن) أى راجعوهن (بمعروف) قيل المراجعة بالمعروف أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء (أو سرحوهن بمعروف) أى اتركوهن حتى تنقضى عدتهن فيكن أملك لأنفسهن (ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) أى لا تقصدوا بالرجعة المضارة بتطويل الحبس (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) أى أضر بنفسه بمخالفة أمر الله تعالى (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) قال الكلبى يعنى قوله تعالى «فامساك بمعروف أو تسريح باحسان» وكل من خالف أمر الشرع فهو متخذ آيات الله هزوا وقال أبو الدرداء هو أن الرجل

حصلت هذه الشرائط فقد حلت للأول وإلا فلا وقال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب تحل بمجرد العقد والمذهب الأول هو الأصح واختلف العلماء فى اشتراط الوطء هل ثبت بالكتاب أو بالسنة على ثلاثة أقوال الثالث وهو المختار أنه ثبت بهما (الثانى) إذا تزوج بالمطلقة ثلاثا ليحلها للأول فهذا نكاح باطل وعقد فاسد وبه قال مالك وأحمد لما روى عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم «أنه لعن المحلل والمحلل له» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح وروى أنه قال هو التيس المستعار ولو تزوجها ولم يشترط فى النكاح أنه يفارقها فالنكاح صحيح ويحصل به التحليل إذا طلقها وانقضت العدة غير أنه يكره إذا كان فى عزمهما ذلك وبه قال الشافعى وأبو حنيفة ودليل ذلك أن الآية دلت على أن الحرمة تنتهى بوطء مسبوق بعقد وقد وجد ذلك فوجب القول بانتهاء الحرمة وقال نافع «أتى رجل إلى ابن عمر فقال إن رجلا طلق امرأته ثلاثا فانطلق أخ له من غير مؤامرة فتزوجها ليحلها للأول فقال لا إلا نكاح رغبة كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ» وقوله تعالى (وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون) يعنى يعلمون ما أمرهم به ونهاهم عنه وإنما خص العلماء لأنهم هم الذين ينتفعون بذلك البيان. قوله عز وجل (وإذا طلقتم النساء) نزلت فى ثابت بن يسار رجل من الأنصار طلق امرأته حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها يقصد بذلك مضارتها (فبلغن أجلهن) أى قاربن انقضاء عدتهن وشارفن منتهاها ولم يرد انقضاء العدة لأنه لو انقضت عدتها لم يكن للزوج إمساكها فالبلوغ هنا بلوغ مقاربة كما يقال بلغ فلان البلد إذا قاربه وشارفه فهذا من باب المجاز الذى يطلق اسم الكل فيه على الأكثر وقيل إن الأجل اسم للزمان فيحمل على الزمان الذى هو آخر زمان يمكن إيقاع الرجعة فيه بحيث إذا فات لا يبقى بعده مكنة إلى الرجعة وعلى هذا التأويل فلا حاجة لنا إلى المجاز (فأمسكوهن) أى راجعوهن (بمعروف) وهو أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء (أو سرحوهن بمعروف) أى اتركوهن حتى تنقضى عدتهن فيملكن أنفسهن (ولا تمسكوهن ضرارا) أى لا تقصدوا بالرجعة المضارة بتطويل الحبس وقيل كانوا يضاروهن لتفتدى المرأة منه بمالها (لتعتدوا) أى لتظلموهن بمجاوزتكم فى أمورهن حدود الله التى بينها لكم وقيل معناه لا تضاروهن على قصد الاعتداء عليهن (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) أى ضر نفسه بمخالفة أمر الله وتعريضها عذاب الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) يعنى

كان يطلق امرأته ثم يقول كنت لاعبا ويعتق ويقول مثل ذلك وينكح ويقول مثل ذلك. أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الحرقى أنا أبو الحسن الطيسفونى أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهرى أخبرنا أحمد بن على الكشميهنى أخبرنا على بن حجر أخبرنا إسماعيل بن جعفر عن أبى حبيب بن أردك هو عبد الرحمن بن حبيب وابن ماهك هو يوسف بن ماهك عن عطاء بن أبى رباح عن أبى ماهك عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ثلاث جدهن جد وهزلهن **(٢٣٣)** جد الطلاق والنكاح والرجعة

(واذكروا نعمت الله عليكم) بالإيمان (وما أنزل عليكم من الكتاب) يعنى القرآن (والحكمة) يعنى السنة وقيل مواعظ القرآن (يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) نزلت فى جميلة بنت يسار أخت معقل ابن يسار المزنى كانت تحت أبى القداح بن عاصم بن عدى بن عجلان فطلقها أخبرنا عبد الواحد المليحى أخبرنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد بن أبى عمرو حدثنى أبى حدثنى أبو هاشم عن يونس عن الحسن قال حدثنى معقل بن يسار قال زوجت أختا لى من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها فقلت له زوجتك وفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها لا والله

لا تعود إليك أبدا وكان رجلا لا بأس به وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه فأنزل الله تعالى (فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) فقلت الآن أفعل يا رسول الله قال فزوجها إياه. قوله تعالى: فبلغن أجلهن أى انقضت عدتهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن أى لا تمنعوهن عن النكاح والعضل المنع وأصله الضيق والشدة يقال عضلت المرأة إذا نشب ولدها فى بطنها فضاق عليه الخروج والداء العضال الذى لا يطاق علاجه وفى الآية دليل على

بذلك ما بين من حلاله وحرامه وأمره ونهيه فى وحيه وتنزيله فلا تتخذوا ذلك استهزاء ولعباً فمن وجب عليه طاعة الله وطاعة رسوله ثم وصل إليه هذه الأحكام التى تقدم ذكرها فى العدة والرجعة والخلع وترك المضارة فلا يتخذها هزوا ففيه تهديد عظيم ووعيد شديد وقيل هو راجع إلى قوله فامساك بمعروف أو تسريح باحسان فكل من خالف أمراً من أمور الشرع فهو متخذ آيات الله هزوا وقيل كان الرجل يطلق ويعتق ويتزوج ويقول كنت لاعباً فنهوا عن ذلك. عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة » أخرجه أبو داود والترمذى. وقوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم) يعنى بالإيمان الذى أنعم به الله عليكم فهداكم له وسائر نعمه التى أنعم بها عليكم (وما أنزل عليكم) أى واذكروا نعمته فيما أنزله عليكم (من الكتاب) يعنى القرآن (والحكمة) يعنى السنة التى علمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنها لكم وقيل المراد بالحكمة مواعظ القرآن (يعظكم به) أى بالكتاب الذى أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم (واتقوا الله) يعنى خافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه (واعلموا أن الله بكل شىء عليم) يعنى أن الله تعالى يعلم ما أخفيتم من طاعة ومعصية فى سر وعلن لا يخفى عليه شىء من ذلك. قوله عز وجل (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) نزلت فى معقل بن يسار المزنى عضل أخته جميلة وكانت تحت أبى القداح عاصم بن عدى فطلقها معقل بن يسار قال كانت لى أخت تخطب إلى وأمنعها من الناس فأتانى ابن عم لى فأنكحتها إياه فاصطحبا ماشاء الله ثم طلقها طلاقا له رجعة ثم تركها حتى انقضت عدتها فلما خطبت إلى أتانى يخطبها مع الخطاب فقلت له خطبت إلى فمنعتها الناس وآثرتك بها فزوجتك ثم طلقتها طلاقا لك فيه رجعة ثم تركتها حتى انقضت عدتها فلما خطبت إلى أتيتنى تخطبها مع الخطاب والله لا أنكحتها لك أبدا ففى ذلك نزلت هذه الآية « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » الآية فكفرت عن يمينى وأنكحتها إياه أخرجه البخارى، وقيل أن جابر ابن عبد الله كانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقة فلما انقضت عدتها أراد أن يرتجعها فأبى جابر وقال طلقت ابنة عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية وكانت المرأة تريد زوجها قد رضيته فنزلت هذه الآية وأراد ببلوغ الأجل فى قوله فبلغن أجلهن انقضاء العدة بخلاف الآية التى قبل هذه الآية قال الشافعى دل اختلاف الكلامين على افتراق البلوغين (فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) خطاب للأولياء، والمعنى لا تضيقوا عليهن أيها الأولياء فتمنعوهن من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد تبتغون بذلك مضارتهن فهو خطاب عام لجميع الأولياء وإن كان سبب الآية خاصا وأصل العضل المنع والتضييق ومنه قول أوس ابن حجر :

وليس أخوك الدائم العهد بالذى … يذمك إن ولى ويرضيك مقبلا

ان المرأة لاتلى عقد النكاح إذ لو كانت تملك ذلك لم يكن هناك عضل ولا لنهى الولى عن العضل معنى وقيل الآية خطاب مع الأزواج لمنعهم من الإضرار لأن ابتداء الآية خطاب معهم والأول أصح (إذا تراضوا بينهم بالمعروف) بعقد حلال ومهر جائز (ذلك) أى الذى ذكر من النهى (يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) وإنما قال ذلك موحدا والخطاب للأولياء لأن الأصل فى مخاطبة الجمع ذلكم ثم كثر حتى توهموا أن الكاف من نفس الحرف وليست بكاف خطاب فقالوا ذلك فاذا قالوا هذا كانت الكاف موحدة مستوية فى الاثنين والجمع والمؤنث والمذكر قيل هو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فلذلك وحد ثم رجع إلى خطاب المؤمنين فقال (ذلكم أزكى لكم) أى خير لكم (وأطهر) لقلوبكم من الريبة وذلك أنه كان فى نفس كل واحد منهما علاقة حيث لم يؤمن أن يتجاوز ذلك إلى غير ماأحل الله لهما ولم يؤمن من الأولياء أن يسبق إلى قلوبهم منهما مالعلهما أن يكونا

بريئين من ذلك فيأثمون (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى يعلم من حب كل واحد منهما لصاحبه مالا تعلمون أنتم. قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن) أى المطلقات اللاتى لهن أولاد من أزواجهن يرضعن خبر بمعنى الأمر، وهو أمر استحباب لا لأمر إيجاب لأنه لا يجب عليهن الإرضاع إذا كان يوجد من يرضع الولد لقوله تعالى فى سورة الطلاق «فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن» فان رغبت الأم فى الإرضاع فهى أولى من غيرها (حولين كاملين) أى سنتين وذكر الكمال للتأكيد كقوله تعالى «تلك عشرة كاملة» وقيل إنما قال كاملين لأن العرب قد تسمى بعض الحول حولا وبعض الشهر شهرا كما قال الله تعالى الحج أشهر معلومات وإنما هى شهران وبعض الثالث وقال «فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه» وإنما يتعجل فى يوم وبعض يوم ويقال أقام فلان بموضع كذا حولين وإنما أقام به حولا وبعض آخر فبين الله تعالى أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهرا. واختلف أهل العلم فى هذا الحد فمنهم من قال هو حد لبعض المولودين فروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها إذا وضعت لستة أشهر فانها ترضعه حولين كاملين وإن وضعت لسبعة أشهر فانها ترضعه ثلاثة وعشرين شهرا وإن وضعت لتسعة أشهر فانها ترضعه أحدا وعشرين شهرا وإن وضعت لعشرة أشهر فانها ترضعه عشرين شهرا كل ذلك تمام ثلاثين شهرا لقوله تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وقال قوم هو لكل مولود بأى وقت ولد لاينقص رضاعه عن حولين إلا باتفاق الأبوين فأيهما أراد الفطام قبل تمام الحولين ليس له ذلك إلا أن يجتمعا عليه لقوله تعالى «فان أراد إفصالا عن تراض منهما وتشاور» وهذا قول ابن جريج والثورى ورواية الوالبى

ولكنه النائى إذا كنت آمنا — وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

يعنى إذا أضاق الأمر، وفى الآية دليل للشافعى ومن وافقه فى أن المرأة لا تلى عقد النكاح ولا تأذن فيه إذ لو كانت تملك ذلك لم يكن عضل ولا لنهى الولى عن العضل معنى. وقوله تعالى (إذا تراضوا بينهم بالمعروف) يعنى إذا تراضى الخطاب والنساء والمعروف هنا ما وافق الشرع من عقد حلال ومهر جائز وقيل هو أن يرضى كل واحد منهما بما التزمه لصاحبه بحق العقد حتى تحصل الصحبة الحسنة والعشرة الجميلة (ذلك) أى ذلك الذى ذكر من النهى (يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) يعنى أن المؤمن هو الذى ينتفع بالوعظ دون غيره (ذلكم أزكى لكم وأطهر) يعنى أنه خير لكم وأطهر لقلوبكم وأطيب عند الله (والله يعلم) يعنى مافى ذلك من الزكاة والتطهير (وأنتم لا تعلمون) يعنى ذلك. قوله عز وجل (والوالدات) يعنى المطلقات اللاتى لهن أولاد من أزواجهن وقيل المراد بهن جميع الوالدات سواء كن مطلقات أو متزوجات ويدل عليه أن اللفظ عام وما قام على دليل التخصيص فوجب تركه على عمومه ولأنه ظاهر اللفظ فوجب حمله عليه (يرضعن أولادهن) هذا خبر بمعنى الأمر والتقدير والوالدات يرضعن أولادهن فى حكم الله الذى أوجبه وهذا الأمر ليس أمر إيجاب وإنما هو أمر ندب واستحباب لأن تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من لبن غيرها ولكمال شفقتها عليه ويدل على أنه لا يجب على الوالدة إرضاع الولد. قوله «فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن» ولو وجب عليها الرضاع لما استحقت الأجرة وقال تعالى «وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى» هذا نص صريح فى ذلك فان لم يوجد من يرضع الطفل أولم يقبل غير لبن أمه وجب عليها إرضاعه كما يجب على كل أحد مواساة المضطر فان رغبت الأم فى ارضاع ولدها فهى أولى به من غيرها (حولين كاملين) الحول السنة وأصله من حال يحول إذا انقلب وإنما قال كاملين للتوكيد لأنه مما يتسامح فيه تقول أقمت عند فلان

عن ابن عباس رضى الله عنهما، وقيل المراد من الآية بيان أن الرضاع الذى يثبت الحرمة ما يكون فى الحولين فلا يحرم ما يكون بعد الحولين. قال قتادة فرض الله على الوالدات إرضاع حولين كاملين ثم أنزل التخفيف فقال (لمن أراد أن يتم الرضاعة) أى هذا منتهى الرضاعة وليس فيما دون ذلك حد محدود وإنما هو على مقدار صلاح الصبى وما يعيش به (وعلى المولود له) يعنى الأب (رزقهن) طعامهن (وكسوتهن) لباسهن (بالمعروف) أى على قدر الميسرة (لاتكلف نفس إلا وسعها) أى طاقتها (لاتضار والدة بولدها) قرأ ابن كثير وأهل البصرة برفع الراء نسقا على قوله (٢٣٥) لاتكلف وأصله تضار فأدغمت الراء فى الراء وقرأ الآخرون تضار بنصب الراء وقالوا لما أدغمت الراء فى الراء حركت إلى أخف الحركات وهو النصب ؛ ومعنى الآية لاتضار والدة بولدها فينزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بارضاعه (ولا مولود له بولده) أى لاتلقيه المرأة إلى أبيه بعد ما ألفها تضاره بذلك وقيل معناه لاتضار والدة فتكره على إرضاعه إذا كرهت إرضاعه وقبل الصبى من غيرها لأن ذلك ليس بواجب عليها ولا مولود له بولده فيحتمل أن يعطى الأم أكثر مما يجب لها إذا لم يرتضع الولد من غيرها فعلى هذين القولين أصل الكلمة لاتضارر بفتح الراء الأولى على الفعل المجهول والوالدة والمولود مفعولان ويحتمل أن يكون الفعل لهما

حولا وإن لم تستكملاه فبين الله أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهرا وهذا التحديد بالحولين ليس تحديد إيجاب ويدل على ذلك قوله بعده (لمن أراد أن يتم الرضاعة) فلما علق الإتمام بارادتنا علمنا أن هذا الإتمام غير واجب فثبت أن المقصود من هذا التحديد قطع النزاع بين الزوجين فى مقدار زمن الرضاعة فقدر الله تعالى ذلك بالحولين حتى يرجعا إليه عند التنازع قال ابن عباس فى رواية عكرمة إذا وضعت الولد لستة أشهر أرضعته حولين وإن وضعته لسبعة أشهر أرضعته ثلاثا وعشرين شهرا وإن وضعته لتسعة أشهر أرضعته أحدا وعشرين شهرا كل ذلك ثلاثون شهرا لقوله تعالى «وحمله وفصاله ثلاثون شهرا» وقال فى رواية الوالبى عنه هو حد لكل مولود في أى وقت ولد لاينقص رضاعه عن حولين إلا باتفاق من الأبوين فأيهما أراد فطام الولد قبل الحولين فليس له ذلك إلا إذا اتفقا عليه يدل على ذلك قوله «فان أرادا فصالا عن تراض منهما» وقيل فرض الله على الوالدات إرضاع الولد حولين ثم أنزل التخفيف فقال لمن أراد أن يتم الرضاعة أى هذا منتهى الرضاع لمن أراد إتمام الرضاعة وليس فيما دون ذلك حد محدود وإنما هو على مقدار إصلاح الطفل وما يعيش به (وعلى المولود له) يعنى الأب وإنما عبر عنه بهذا لأن الوالدات إنما ولدن للآباء ولذلك ينسب الولد للأب دون الأم قال بعضهم :

وإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناء

وقيل إن هذا تنبيه على أن الولد إنما يلتحق بالوالد لكونه مولود على فراشه فكأنه قال إذا ولدت المرأة الولد لأجل الرجل وعلى فراشه وجب عليه رعاية مصالحه (رزقهن) أى طعامهن (وكسوتهن) أى لباسهن (بالمعروف) أى على قدر الميسرة (لا تكلف نفس إلا وسعها) يعنى طاقتها، والمعنى أن أبا الولد لايكلف فى الإنفاق عليه وعلى أمه إلا قدر ما تتسع به مقدرته ولا يبلغ إسراف القدرة (لاتضار والدة بولدها) يعنى لاينزع الولد من أمه بعد أن رضيت بارضاعه ولا يدفع إلى غيرها وقيل معناه لاتكره الأم على إرضاع الولد إذا قبل الصبى لبن غيرها لأن ذلك ليس بواجب عليها (ولامولود له بولده) يعنى لاتلقى المرأة الولد إلى أبيه وقد ألفها تضاره بذلك وقيل معناه لا يلزم الأب أن يعطى أم الولد أكثر مما يجب عليه لها إذا لم يرضع الولد من غير أمه فعلى هذا يرجع الضرار إلى الوالدين فيكون المعنى لايضار كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد وقيل يحتمل أن يكون الضرر راجعا إلى الولد والمعنى لا يضار كل واحد من الأبوين الولد فلا ترضعه حتى يموت فيتضرر بذلك ولا ينفق عليه الأب أو ينزعه من أمه فيضره بذلك فعلى هذا تكون الباء صلة والمعنى لاتضار والدة ولدها ولا أب ولده (وعلى الوارث مثل ذلك) يعنى وعلى وارث أبى الولد إذا مات مثل ما كان يجب عليه من النفقة والكسوة فيلزم وارث

وتكون تضار بمعنى تضارر بكسر الأولى على تسمية الفاعل والمعنى لاتضار والدة فتأبى أن ترضع ولدها ليشق على أبيه ولا مولود له أى لايضار الأب أم الصبى فينزعه منها ويمنعها من إرضاعه وعلى هذه الأقوال يرجع الضرار إلى الوالدين يضار كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد ويجوز أن يكون الضرار راجعا إلى الصبى أى لايضار كل واحد منهما الصبى ولا ترضعه الأم حتى يموت أو لاينفق الأب أو ينتزعه من الأم حتى يضر بالصبى فعلى هذا تكون الباء زائدة ومعناه لاتضار والدة ولدها ولا أب ولده وكل هذه الأقاويل مروية عن المفسرين. قوله تعالى (وعلى الوارث مثل ذلك) اختلفوا فى هذا الوارث فقال قوم هو

وارث الصبي معناه وعلى وارث الصبي الذي لو مات الصبي وله مال ورثه مثل الذي كان على أبيه في حال حياته ثم اختلفوا في أنه أي وارث هو من ورثته فقال بعضهم هو عصبة الصبي من الرجال مثل الجد والأخ وابن الأخ والعم وابن العم وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وبه قال إبراهيم والحسن ومجاهد وعطاء وهو مذهب سفيان قالوا إذا لم يكن للصبي مال ينفق عليه أجبرت عصبته الذين يرثونه على أن يسترضعوه وقيل هو وارث الصبي من كان من النساء والرجال وهو قول قتادة وابن أبي ليلى ومذهب أحمد وإسحاق وقالوا يجبر على نفقته كل وارث على قدر ميراثه عصبته كانوا أو غيرهم وقال بعضهم هو من كان ذا رحم محرم من ورثة المولود فمن ليس بمحرم مثل ابن العم والمولى فغير مراد بالآية وهو قول أبي حنيفة رحمه الله وذهب جماعة إلى أن المراد (٢٣٦) بالوارث هو الصبي نفسه الذي هو وارث أبيه المتوفى يكون أجرة رضاعه ونفقته في ماله فان لم يكن له مال فعلى الأم ولا يجبر على نفقة الصبي إلا الوالدان وهو قول مالك والشافعي رحمهما الله وقيل هو الباقي من والدي المولود بعد وفاة الآخر عليه مثل ما كان على الأب من أجرة الرضاع والنفقة والكسوة وقيل ليس المراد منه النفقة بل معناه وعلى الوارث ترك المضارة ، وبه قال الشعبي والزهري (فان أرادا) يعني الوالدين (فصالا) فطاما قبل الحولين (عن تراض منهما) أي اتفاق الوالدين (وتشاور) أي يشاورون أهل العلم به حتى يخبروا أن الفطام في ذلك الوقت لا يضر بالولد والمشاورة استخراج الرأي (فلا جناح عليهما) أي لا حرج عليهما في الفطام قبل الحولين (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم) أي لأولادكم مراضع غير أمهاتهم إذا أبت أمهاتهم إرضاعهم أو تعذر لعلة بهن أو انقطاع لبن أو أردن النكاح (فلا جناح عليكم إذا سلمتم) إلى أمهاتهم (ما آتيتم) ما سميتم لهن من أجرة الرضاع بقدر ما أرضعن وقيل إذا سلمتم أجور المراضع إليهن (بالمعروف) قرأ ابن كثير ▪ آتيتم وفي الروم وما أتيتم من ربا بقصر الألف ومعناه ما فعلتم يقال أتيت جميلا إذا فعلته فعلى هذه القراءة يكون التسليم بمعنى الطاعة والانقياد لا بمعنى تسليم الأجرة يعني إذا سلمتم لأمره وانقدتم لحكمه وقيل إذا سلمتم للاسترضاع عن تراض وإنفاق دون الضرار (واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير) قوله تعالى (والذين يتوفون منكم) أي يموتون ويتوفى آجالهم وتوفى واستوفى بمعنى واحد ومعنى التوفي أخذ الشيء وافيا (ويذرون أزواجا) يتركون أزواجا (يتربصن) ينتظرن (بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) أي يعتددن بترك الزينة والطيب والنقلة على فراق أزواجهن هذه المدة إلا أن يكن حوامل

الأب أن يقوم مقامه في القيام بحق الولد وقيل المراد بالوارث وارث الصبي الذي لو مات الصبي ورثه فعلى هذا الوارث مثل ما كان على أبي الصبي في حال حياته واختلف في أي وارث هو فقيل هم عصبة الصبي كالجد والأخ والعم وابنه وقيل هو كل وارث له من الرجال والنساء وبه قال أحمد فيجبرون على نفقة الصبي كل على قدر سهمه منه وقيل هو من كان ذا رحم محرم منه وبه قال أبو حنيفة وقيل المراد بالوارث الصبي نفسه فعلى هذا تكون أجرة رضاع الصبي في ماله فان لم يكن له مال فعلى الأم ولا يجبر على نفقة الصبي غير الأبوين وبه قال مالك والشافعي وقيل معناه وعلى الوارث ترك المضارة (فان أرادا) يعني الوالدين (فصالا) يعني فطام الولد قبل الحولين (عن تراض منهما) أي على اتفاق من الوالدين في ذلك (وتشاور) أي يشاورون أهل العلم في ذلك حتى يخبروا أن الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد والمشاورة استخراج الرأي بما فيه مصلحة (فلا جناح عليهما) أي فلا حرج ولا إثم على الوالدين في الفطام قبل الحولين إذا لم يضر بالولد (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم) أي لأولادكم مراضع غير أمهاتهم إذا أبت أمهاتهم إرضاعهم أو تعذر ذلك لعلة بهن من انقطاع لبن أو غير ذلك أو أردن التزويج (فلا جناح عليكم إذا سلمتم) يعني إلى المراضع (ما آتيتم) يعني لهن من أجرة الرضاع وقيل إذا سلمتم إلى أمهاتهم من أجرة الرضاع بقدر ما أرضعن (بالمعروف) أي بالإحسان والإجمال أمروا أن يكونوا عند تسليم الأجرة مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيبين لأنفس المراضع بما أمكن حتى يؤمن من تفريطهن بقطع معاذيرهن (واتقوا الله) يعني وخافوا الله فيما فرض عليكم من الحقوق وفيما أوجب عليكم لأولادكم (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) يعني لا يخفى عليه خافية من جميع أعمالكم سرها وعلانيتها فانه تعالى يراها ويعلمها . قوله عز وجل (والذين يتوفون) يعني يموتون (منكم) وأصل التوفي أخذ الشيء وافيا فمن مات فقد استوفى عمره كاملا ويقال توفي فلان يعني قبض وأخذ (ويذرون) أي ويتركون (أزواجا) والمراد بالأزواج هنا النساء لأن العرب تطلق اسم الزوج على الرجل والمرأة (يتربصن) أي ينتظرن (بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) يعني قدر هذه المدة

فعدتهن بوضع الحمل وكانت عدة الوفاة فى الابتداء حولا كاملا لقوله تعالى «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج» ثم نسخت بأربعة أشهر وعشرا وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد كانت هذه العدة يعنى أربعة أشهر وعشرا واجبة عند أهل زوجها فأنزل الله تعالى «متاعا إلى الحول» فجعل لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت وهو قول الله عز وجل غير إخراج فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فالعدة كما هى واجبة عليها وقال عطاء قال ابن عباس رضى الله عنهما نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها وسكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت قال عطاء ثم جاء الميراث فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت ولا سكنى لها ويجب عليها الإحداد فى عدة الوفاة وهى أن تمتنع من الزينة والطيب فلا يجوز لها تدهين رأسها بأى

دهن سواء كان فيه طيب أو لم يكن ولها تدهين جسدها بدهن لا طيب فيه فان كان فيه طيب فلا يجوز، ولا يجوز لها أن تكتحل بكحل فيه طيب أو فيه زينة كالكحل الأسود ولا بأس بالكحل الفارسى الذى لا زينة فيه فان اضطرت إلى كحل فيه زينة فقد رخص فيه كثير من أهل العلم منهم سالم بن عبد الله وسليمان بن يسار وعطاء والنخعى وبه قال مالك وأصحاب الرأى وقال الشافعى رحمه الله تكتحل به ليلا وتمسحه بالنهار قالت أم سلمة «دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين توفى أبو سلمة وقد جعلت على صبرا فقال إنه يشب الوجه فلا تجعليه إلا بالليل وتنزعيه بالنهار» ولا يجوز لها الخضاب ولا لبس الوشى والديباج والحلى ويجوز لها لبس البيض من الثياب ولبس الصوف والوبر ولا تلبس الصوف المصبوغ للزينة كالأحمر والأخضر الناضر والأصفر، ويجوز ما صبغ لغير زينة كالسواد والكحل وقال سفيان لا تلبس المصبوغ بحال أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمر بن حزم عن حميد بن نافع عن زينب بنت أبى سلمة أنها أخبرته بهذه الأحاديث الثلاثة قالت زينب «دخلت على أم حبيبة زوج النبى صلى الله عليه وسلم حين توفى أبوها أبو سفيان ابن حرب فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مست به بطنها ثم قالت والله مالى بالطيب من حاجة غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر لا يحل لامرأة أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» وقالت زينب «ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفى أخوها عبد الله فدعت بطيب فمست

المدة وإنما قال عشرا بلفظ التأنيث لأن العرب إذا أبهمت فى العدد من الليالى والأيام غلبوا الليالى حتى إن أحدهم ليقول صمت عشرا من الشهر لكثرة تغليبهم الليالى على الأيام فاذا أظهروا الأيام قالوا صمنا عشرة أيام وقيل إن هذه الأيام أيام حزن ولبس إحداد فشبهها بالليالى على سبيل الاستعارة ووجه الحكمة فى أن الله تعالى حد العدة بهذا القدر لأن الولد يركض فى بطن أمه لنصف مدة الحمل يعنى يتحرك وقيل إن الروح ينفخ فى الولد فى هذه العشرة أيام ويدل على ذلك ما روى عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح» أخرجاه فى الصحيحين بزيادة فدل هذا الحديث على أن خلق الولد يجتمع فى مدة أربعة أشهر ويتكامل خلقه بنفخ الروح فيه فى هذه الأيام الزائدة.

(فصل: فى حكم عدة المتوفى عنها زوجها والإحداد. وفيه مسائل)

(المسئلة الأولى) عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر وعدة الأمة على نصف عدة الحرة شهران وخمسة أيام وبه قال جمهور العلماء وقال أبو بكر الأصم عدة الأمة كعدة الحرائر وتمسك بظاهر هذه الآية وعدة الحامل بوضع الحمل سواء فيه الحرة والأمة ولو وضعت بعد وفاة زوجها بلحظة حل لها أن تتزوج ويدل على هذا ما روى عن سبيعة الأسلمية أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بنى عامر بن لؤى وكان ممن شهد بدرا فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاته فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك رجل من بنى عبد الدار فقال مالى أراك تجملت للخطاب لعلك ترجين النكاح وإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر قالت سبيعة فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج إن بدا لى أخرجاه فى الصحيحين وفيه قال ابن شهاب ولا

به ثم قالت والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر «لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» قالت زينب وسمعت أمي أم سلمة تقول: «جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفتكحلها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ثم قال إنما هي أربعة أشهر وعشرا وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول» قال حميد فقلت لزينب وما ترمي بالبعرة على رأس الحول فقالت زينب كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت خفشا ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبا ولا شيئا حتى يمر بها سنة ثم تؤتى بدابة حمارا أو شاة أو طيرا فتفتض به فقلما تفتض بشيء إلا مات ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ثم تراجع بعد ذلك ما شاءت من طيب أو غيره وقال مالك

أرى بأسا أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها غير أنه لا يقربها حتى تطهر فعلى هذا حكم الآية عام في كل من توفي عنها زوجها بأن تعتد أربعة أشهر وعشرا ثم خصص من هذا العموم أولات الأحمال بهذا الحديث وبقوله تعالى «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن».

(المسئلة الثانية) يجب على من توفي عنها زوجها الإحداد وهو ترك الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب فان اضطرت إلى كحل فيه زينة فيرخص لها وبه قال مالك وأبو حنيفة وقال الشافعي تكتحل به بالليل وتمسحه بالنهار عن أم سلمة قالت دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين توفي أبو سلمة وقد جعلت على صبرا فقال ماهذا يا أم سلمة فقلت إنما هو صبر يارسول الله ليس فيه طيب فقال إنه يشب الوجه فلا تجعليه إلا بالليل وتنزعيه بالنهار ولا تمتشطي بالطيب ولا بالحناء فانه خضاب قلت بأي شيء أمتشط يارسول الله قال بالسدر تغلفين به رأسك أخرجه أبو داود وللنسائي نحوه قوله فانه يشب الوجه أي يوقده ويحسنه وبنوره من شب النار إذا أوقدها قوله تغلفين به رأسك أي تلطخين به رأسك والتغلف هو الغمرة على وجه المرأة وكذا رأسها إذا لطخته بشيء فأكثرت منه ولا يجوز لها لبس الديباج والحرير والحلي والمصبوغ للزينة كالأحمر والأصفر ويجوز لها لبس ماصبغ لغير الزينة كالأسود والأزرق ويجوز لها أن تلبس البياض من الثياب والصوف والوبر (ق) عن زينب بنت أبي سلمة قالت دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مست بعارضيها ثم قالت والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» قالت زينب ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها فدعت بطيب فمست منه ثم قالت والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» (م) عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت

فوق

تفتض أي تنسلخ جلدها وقال سعيد بن المسيب الحكمة في هذه المدة أن فيها ينفخ الروح في الولد ويقال إن الولد يرتكض أي يتحرك في البطن لنصف مدة الحمل أربعة أشهر وعشرا قريبا من نصف مدة الحمل وإنما قال عشرا بلفظ المؤنث لأنه أراد الليالي لأن العرب إذا أبهمت العدد بين الليالي والأيام غلبت عليها الليالي فيقولون صمنا عشرا والصوم لا يكون إلا بالنهار وقال المبرد إنما أنث العشر لأنه أراد المدة أي عشر مدد كل مدة يوم وليلة وإذا كانت المتوفى عنها زوجها حاملا فعدتها بوضع الحمل عند أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم روى عن علي وابن عباس رضي الله عنهم أنها تنتظر آخر الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشرا وقال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى أراد بالقصرى سورة الطلاق «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن» نزلت بعد قوله تعالى «يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا» في سورة البقرة فحمل على النسخ وعامة الفقهاء خصوا الآية بحديث سبيعة وهو ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن المسور بن مخرمة أن سبيعة نفست بعد وفاة زوجها بليال فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنته أن تنكح فأذن لها فنكحت قوله تعالى

فوق ثلاث إلا على زوجها أربعة أشهر وعشرا» (ق) عن أم عطية قالت «كنا ننهى أن نحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا ولا نكتحل ولا نتطيب ولا نلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عصب وقد رخص لنا عند الطهر إذا اغتسلت إحدانا من حيضتها فى نبذة من كست أظفار» قولها إلا ثوب عصب العصب بالعين والصاد المهملتين من البرود الذى صبغ غزله قبل النسج قولها نبذة من كست النبذة الشىء اليسير والكست لغة فى القسط وهو شىء معروف يتبخر به عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتلبس المتوفى عنها زوجها المعصفرة من الثياب ولا الممشقة ولا الحلى ولا تختضب ولا تكتحل ولا تطيب» أخرجه أبوداود قولها ولا الممشقة الثياب الممشقة هى المصبوغة بالمشق وهى المغرة عن نافع «أن صفية بنت عبد الله اشتكت عينها وهى حاد على زوجها ابن عمر فلم تكتحل حتى كادت عيناها ترمضان» أخرجه مالك فى الموطأ .

(المسئلة الثالثة) اختلفوا فى أن هذه المدة سببها الوفاة أو العلم بالوفاة فقال بعضهم مالم تعلم بوفاة زوجها لاتعتد بانقضاء الأيام فى العدة واحتجوا على ذلك بأن الله تعالى قال « يتربصن بأنفسهن» وذلك لايحل إلا بالقصد إلى التربص ولا يحل ذلك إلا مع العلم قال الجمهور السبب هو الموت فلو انقضت المدة أو أكثرها أو بعضها ثم بلغها خبر موت الزوج وجب أن تعتد بما انقضى ويدل على ذلك أن الصغيرة التى لاعلم لها يكفى فى انقضاء عدتها هذه المدة .

(المسئلة الرابعة) أجمع العلماء على أن هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول وإن كانت هذه الآية متقدمة فى التلاوة وسنذكر تمام الكلام عليه بعد فى موضعه إن شاء الله تعالى والله أعلم . وقوله تعالى (فاذا بلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن (فلا جناح عليكم) خطاب للأولياء لأنهم هم الذين يتولون العقد (فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف) يعنى من التزين والتطيب والنقلة من المسكن الذى كانت معتدة فيه ونكاح من يجوز لها نكاحه وقيل إنما عنى بذلك النكاح خاصة وقيل معنى قوله بالمعروف هو النكاح الحلال الطيب واحتج أصحاب أبى حنيفة على جواز النكاح بغير ولى بهذه الآية لأن إضافة الفعل إلى الفاعل محمول على المباشرة . وأجاب أصحاب الشافعى إن قوله تعالى فلا جناح عليكم خطاب للأولياء ولو صح العقد بغير ولى لما كان مخاطبا . وأجيب على قوله فيما فعلن فى أنفسهن إنما هو التزين والتطيب بعد انقضاء العدة لا أنها تزوج نفسها (والله بما تعملون خبير) يعنى أنه تعالى لايخفى عليه خافية والخبير فى صفة الله تعالى هو العالم بكنه الشىء وحقيقته من غير شك والخبير فى صفة المخلوقين إنما يستعمل فى نوع من العلم وهو الذى يتوصل إليه بالاجتهاد والفكر والله تعالى منزه عن ذلك كله . قوله عز وجل (ولا جناح) أى لاحرج (عليكم فيما عرضتم به) أى لوحتم وأشرتم به والتعريض ضد التصريح ومعناه أن يضمن كلامه مايصلح للدلالة على مقصوده ويصلح للدلالة على غير مقصوده ولكن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح وقيل هو الإشارة إلى الشىء بما يفهم السامع مقصوده من غير تصريح به وقيل التعريض من الكلام ماله ظاهر وباطن (من خطبة النساء) يعنى

(فاذا بلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن (فلا جناح عليكم) خطاب للأولياء (فيما فعلن فى أنفسهن) أى من اختيار الأزواج دون العقد إلى الولى وقيل فيما فعلن من التزين للرجال زينة لا ينكرها الشرع (بالمعروف والله بما تعملون خبير) والإحداد واجب على المرأة فى عدة الوفاة أما المعتدة عن الطلاق نظر فان كانت رجعية لا إحداد عليها فى العدة لأن لها أن تضع ما يشوق قلب الزوج إليها ليراجعها وفى البائنة بالخلع والطلقات الثلاث قولان : أحدهما الإحداد كالمتوفى عنها زوجها وهو قول سعيد ابن المسيب وبه قال أبو حنيفة والثانى لا إحداد عليها وهو قول عطاء وبه قال مالك قوله تعالى (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) أى النساء المعتدات وأصل التعريض هو التلويح بالشىء والتعريض فى الكلام بما يفهم به السامع مراده من غير تصريح والتعريض بالخطبة مباح فى العدة وهو أن يقول رب راغب فيك من يجد مثلك إنك لجميلة وإنك لصالحة وإنك على لكريمة وإنى فيك لراغب وإن من غرضى أن أتزوج بك وإن جمع الله بينى وبينك بالحلال أعجبنى ولئن تزوجتك لأحسن إليك ونحو ذلك من الكلام من غير أن يقول أنكحينى والمرأة تجيبه بمثله وإن رغبت فيه ، وقال إبراهيم لابأس أن يهدى إليها ويقوم بشغلها فى العدة إذا كانت غير شابة روى أن سكينة بنت حنظلة بانت من زوجها فدخل عليها أبو جعفر محمد بن على الباقر فى عدتها وقال يابنت حنظلة أنا من قد علمت

قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدى علي وقدمى فى الإسلام ؟ فقالت سكينة أتخطبني وأنا فى العدة وأنت يؤخذ عنك فقال إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وهى فى عدة زوجها أبى سلمة فذكر لها منزلته من الله عز وجل وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير فى يده من شدة تحامله على يده والتعريض (٢٤٠) بالخطبة جائز فى عدة الوفاة أما المعتدة عن فرقة الحياة ينظر إن كانت ممن لايحل لمن بانت منه نكاحها كالمطلقة ثلاثا والمبانة باللعان والرضاع فانه يجوز خطبتها تعريضا وإن كانت ممن يحل للزوج نكاحها كالمختلعة والمفسوخ نكاحها يجوز لزوجها خطبتها تعريضا وتصريحا وهل يجوز للغير تعريضا ؟ فيه قولان : أحدهما يجوز كالمطلقة ثلاثا والثانى لايجوز لأن المعاودة ثابتة لصاحب العدة كالرجعية لا يجوز للغير تعريضا بالخطبة وقوله تعالى « من خطبة النساء الخطبة التماس النكاح وهى مصدر خطب الرجل المرأة يخطب خطبة وقال الأخفش الخطبة الذكر والخطبة التشهد فيكون معناه فيما عرضتم به من ذكر النساء عندهن (أو أكننتم) أضمرتم (فى أنفسكم) من نكاحهن يقال أكننت الشىء وكننته لغتان وقال ثعلب أكننت الشىء أى أخفيته فى نفسى وكننته سترته قال السدى هو أن يدخل فيسلم ويهدى إن شاء ولا يتكلم بشىء (علم الله أنكم ستذكرونهن) ومنع بقلوبكم (ولكن لاتواعدوهن سرا) اختلفوا فى السر المنهى عنه فقال قوم هو الزنا كان الرجل يدخل على المرأة من أجل الزنية وهو يعرض بالنكاح ويقول لها دعينى فاذا وفيت عدتك أظهرت نكاحك ، هذا قول الحسن وقتادة وإبراهيم وعطاء ورواية عطية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال زيد بن أسلم أى لاينكحها سرا فيمسكها فاذا حلت أظهر ذلك وقال مجاهد هو قول الرجل لاتفوتيني بنفسك فانى ناكحك وقال الشعبي والسدى لايأخذ ميثاقها أن لاتنكح غيره وقال عكرمة لا ينكحها

المعتدات فى عدتهن والخطبة بالكسر طلب النكاح والتماسه وقيل هو ذكر النساء والخطبة بالضم كلام منظوم له أول وآخر ومعنى الآية فيما عرضتم به من ذكر النساء عندهن والتعريض بالخطبة فى العدة مباح وهو أن يقول إنك لجميلة وإنك لصالحة وإن غرضى التزويج وإنى فيك لراغب وعسى الله أن ييسر لى امرأة صالحة ونحو ذلك من الكلام الموهم من غير تصريح لأن يقول إنى أريد أن أنكحك أو أتزوجك ونحو ذلك ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن ابن عباس فى قوله تعالى « فيما عرضتم به من خطبة النساء » هو أن يقول إنى أريد التزويج وإن النساء لمن حاجتى ولوددت أن تيسر لى امرأة صالحة أخرجه البخارى . وروى أن سكينة بنت حنظلة تأيمت فدخل عليها أبو جعفر محمد بن على الباقر فى عدتها فقال قد علمت قرابتي من رسول الله ﷺ وحق جدى على وقدمى فى الإسلام فقالت سكينة غفر الله لك أتخطبنى فى العدة وأنت يؤخذ عنك فقال إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة وهى فى عدة زوجها أبى سلمة فذكر لها منزلته من الله عز وجل وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير فى يده صلى الله عليه وسلم من شدة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة (أو أكننتم) يعنى أضمرتم (فى أنفسكم) يعنى من نكاحهن وقيل هو أن يدخل ويسلم ويهدى إن شاء ولا يتكلم بشىء والمقصود أنه لاحرج عليكم فى التعريض للمرأة فى عدة الوفاة ولا فيما يضمر الرجل فى نفسه من الرغبة فيها (علم الله أنكم ستذكرونهن) يعنى بقلوبكم لأن شهوة النفس والتمنى لايخلو منه أحد فلما كان هذا الخاطر كالشىء الشاق أسقط عنه الحرج (ولكن لاتواعدوهن سرا) اختلفوا فى معنى هذا السر المنهى عنه فقيل هو الزنا كان الرجل يدخل على المرأة يعرض بالنكاح ومراده الزنا ويقول لها دعينى فاذا وفيت عدتك أظهرت نكاحك فنهوا عن ذلك وقيل هو قول الرجل للمرأة لاتفوتيني نفسك فانى ناكحك وقيل هو أن يأخذ عليها العهد والميثاق أن لاتتزوج غيره وقيل هو أن يخطبها فى العدة وقال الشافعى السر الجماع وهو رواية عن ابن عباس قال الكلبي لاتصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع ويدل على أن لفظ السر كناية عن الجماع قول امرئ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وألا يحسن السر أمثالى

بسباسة اسم امرأة وإنما وقع الكناية عن الجماع بالسر لأنه مما يسر والله تعالى حى كريم فكنى به عن لفظ الجماع الصريح ومعنى الآية لا تواعدوهن مواعدة سرية أو لا تواعدوهن بالشىء الموصوف بالسر وقيل فى معنى الآية أن الله تعالى أذن فى أول الآية فى التعريض بالخطبة

ولا يخطبها فى العدة . قال الشافعى السر هو الجماع وقال الكلبى أى لاتصفوا أنفسكم لهن بكثرة الجماع فيقول آتيك الأربعة والخمسة وأشباه ذلك ويذكر السر ويراد به الجماع قال امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى ‏ كبرت وألا يحسن السر أمثالى

وإنما قيل للزنا والجماع سر لأنه يكون فى خفاء بين الرجل والمرأة . قوله تعالى (إلا أن تقولوا قولا معروفا) هو ماذكرنا من التعريض بالخطبة . قوله تعالى (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) أى لاتحققوا العزم على عقد النكاح فى العدة حتى يبلغ الكتاب أجله أى حتى تنقضى العدة وسماها الله كتابا لأنها فرض من الله كقوله تعالى كتب عليكم أى فرض عليكم (واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه) أى فخافوا الله (واعلموا (٢٤١) أن الله غفور حليم) لايعجل بالعقوبة ، وقوله تعالى (لاجناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة) أى ولم تمسوهن ولم تفرضوا نزلت فى رجل من الأنصار تزوج امرأة من بنى حنيفة ولم يسم لها مهرا ثم طلقها قبل أن يمسها فنزلت هذه الآية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم متعها ولو بقلنسوتك قرأ حمزة والكسائى مالم تماسوهن بالألف هاهنا وفى الأحزاب على المفاعلة لأن بدن كل واحد منهما يلاقى بدن صاحبه كما قال الله تعالى (من قبل أن يتماسا) وقرأ الباقون تمسوهن بلا ألف لأن الغشيان يكون من فعل الرجل دليله قوله تعالى «ولم يمسسنى بشر» «أوتفرضوا لهن فريضة» أى توجبوا لهن صداقا فان قيل فما الوجه فى نفى الجناح عن المطلق قيل الطلاق قطع سبب الوصلة وجاء فى الحديث أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق فنفى الجناح عنه إذا كان الفراق أروح من الإمساك وقيل معناه لاسبيل للنساء عليكم إن طلقتموهن من قبل المسيس والفرض بصداق ولا نفقة وقيل لاجناح عليكم فى تطليقهن قبل المسيس فى أى وقت شئتم حائضا كانت المرأة أو طاهرا لأنه لاسنة ولا بدعة فى طلاقهن قبل الدخول بها بخلاف المدخول بها فانه لايجوز تطليقها فى حال الحيض (ومتعوهن) أى أعطوهن من مالكم ماية‌متعن به والمتعة والمتاع مايتبلغ به من الزاد (على الموسع) أى على الغنى (قدره وعلى المقتر) أى الفقير (قدره) أى إمكانه وطاقته قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائى وحفص قدره بفتح الدال فيهما وقرأ الآخرون بسكونهما وهما لغتان وقيل القدر بسكون الدال المصدر وبالفتح الاسم متاعا نصب على المصدر أى متعوهن (متاعا بالمعروف) أى بما أمركم الله به من غير ظلم (حقا على المحسنين) وبيان حكم الآية أن من

ومنع فى آخرها عن التصريح بالخطبة (إلا أن تقولوا قولا معروفا) يعنى هو ماذكر من التعريض بالخطبة وقيل هو إعلام ولى المرأة أنه راغب فى نكاحها (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) أى لاتحققوا العزم على عقدة النكاح فى العدة حتى تنقضى وإنما سماها الله كتابا لأنها فرضت به (واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه) أى فخافوه (واعلموا أن الله غفور حليم) لا يعجل بالعقوبة على من جاهره بالمعصية بل يستر عليه . قوله عزوجل (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة) أى ولم تمسوهن ولم تفرضوا لهن فريضة يعنى ولم تعينوا لهن صداقا ولم توجبوه عليكم نزلت فى رجل من الأنصار تزوج امرأة من بنى حنيفة ولم يسم لها صداقا ثم طلقها قبل أن يمسها فنزلت هذه الآية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمتعها ولو بقلنسوتك . فان قلت هل على من طلق امرأته جناح بعد المسيس حتى يوضع عنه الجناح قبل المسيس فما وجه نفى الحرج والجناح عنه . قلت فيه سبب قطع الوصلة وما جاء فى الحديث « إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق فنفى الله الجناح عنه إذا كان الفراق أروح من الإمساك وقيل معناه لا حرج عليكم فى تطليقهن قبل المسيس فى أي وقت شئتم حائضا كانت المرأة أوطاهرا لأنه لا سنة فى طلاقهن قبل الدخول (ومتعوهن) أى أعطوهن من مالكم مايتمتعن به والمتعة والمتاع ما يتبلغ به من الزاد (على الموسع) أي الغنى الذى يكون فى سعة من غناه (قدره) أى قدر إمكانه وطاقته (وعلى المقتر) أى الفقير الذى هو فى ضيق من فقره (قدره) أى قدر إمكانه وطاقته (متاعا بالمعروف) يعنى متعوهن تمتيعا بالمعروف يعنى من غير ظلم ولا حيف (حقا) أى حق ذلك التمتع حقا واجبا لازما (على المحسنين) يعنى إلى المطلقات بالتمتع وإنما خص المحسنين بالذكر لأنهم الذين ينتفعون بهذا البيان وقيل معناه من أراد أن يكون من المحسنين فهذا شأنه وطريقه والمحسن هو المؤمن .

فصل : فى بيان حكم الآية وفيه فروع

(الفرع الأول) إذا تزوج امرأة ولم يفرض لها مهرا ثم طلقها قبل المسيس يجب لها عليه المتعة

تزوج امرأة ولم يفرض لها مهرا ثم طلقها قبل المسيس يجب عليه المتعة بالاتفاق وإن طلقها بعد الفرض قبل المسيس فلا متعة لها على قول الأكثرين ولها نصف المهر المفروض . واختلفوا فى المطلقة بعد الدخول بها ، فذهب جماعة إلى أنها لا متعة لها لأنها تستحق المهر وهو قول أصحاب الرأى وذهب جماعة إلى أنها تستحق المتعة لقوله تعالى «وللمطلقات متاع بالمعروف» وهو قول عبد الله بن عمر وبه قال عطاء ومجاهد والقاسم بن محمد وإليه ذهب الشافعى لأن استحقاقها المهر بمقابلة ما أتلف عليها من منفعة البضع فلها المتعة على وحشة الفراق فعلى القول الأول لا متعة إلا لواحدة وهى المطلقة قبل الفرض والمسيس وعلى القول الثانى لكل مطلقة متعة إلا لواحدة وهى المطلقة بعد الفرض قبل المسيس قال عبد الله بن عمر لكل مطلقة متعة إلا التى فرض لها ولم يمسها زوجها فحسبها نصف المهر قال الزهرى متعتان : يقضى بإحداهما السلطان ولا يقضى بالأخرى بل يلزمه فيما بينه وبين الله تعالى فأما التى يقضى بها السلطان فهى المطلقة قبل الفرض والمسيس وهو قوله تعالى حقا على المحسنين والتى تلزمه فيما بينه وبين الله تعالى ولا يقضى بها السلطان (٢٤٢) فهى المطلقة بعد المسيس وهو قوله تعالى حقا على المتقين وذهب الحسن وسعيد بن جبير إلى أن لكل مطلقة متعة سواء كان قبل الفرض والمسيس أو بعد الفرض قبل المسيس لقوله تعالى «وللمطلقات متاع بالمعروف» ولقوله تعالى فى سورة الأحزاب «فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا» وقالا معنى قوله تعالى (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة) أى أو لم تفرضوا لهن فريضة وقال بعضهم المتعة غير واجبة والأمر بها أمر ندب واستحباب روى أن رجلا طلق امرأته وقد دخل بها فخاصمته إلى شريح فى المتعة فقال شريح لا تأب أن تكون من المحسنين ولا تأب أن تكون من المتقين ولم يجبره على ذلك . واختلفوا فى قدر المتعة فروى عن ابن عباس أعلاها خادم وأوسطها ثلاثة أثواب درع وخمار وإزار ودون ذلك وقاية أو شىء من الورق وبه قال الشعبى والزهرى وهذا مذهب الشافعى قال أعلاها على الموسع خادم وأوسطها ثوب وأقلها ماله ثمن وحسن ثلاثون درهما وطلق عبد الرحمن بن عوف امرأته وحممها جارية سوداء أى متعها ومتع الحسن بن على رضى الله عنه امرأة له بعشرة آلاف درهم فقالت : متاع قليل من حبيب مفارق .

وقال أبو حنيفة رحمه الله مبلغها إذا اختلف الزوجان قدر نصف مهر مثلها لا يجاوز والآية تدل على أنه يعتبر حال الزوج فى العسر واليسر ومن حكم الآية أن من تزوج امرأة بالغة برضاها على غير مهر يصح النكاح وللمرأة مطالبته بأن يفرض لها صداقا فان دخل بها قبل الفرض فلها عليه مهر مثلها وإن طلقها قبل الفرض والدخول فلها المتعة وإن مات أحدهما قبل الفرض والدخول فاختلف أهل العلم فى أنها هل تستحق المهر أم لا؟ فذهب جماعة إلى أنه لا مهر لها وهو قول على وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس كما لو طلقها قبل الفرض والدخول ، وذهب قوم إلى أن لها المهر لأن الموت

وبه قال الشافعى وأبو حنيفة وأحمد وقال مالك المتعة مستحبة ولو طلقها قبل الدخول وقد فرض لها مهرا وجب لها عليه نصف المهر المفروض ولا متعة لها عليه .

(الفرع الثانى المطلقة المدخول بها) فيها قولان قال فى القديم لا متعة لها لأنها تستحق المهر كاملا وبه قال أبو حنيفة وهو إحدى الروايتين عن أحمد وقال فى الجديد لها المتعة لقوله تعالى «وللمطلقات متاع بالمعروف» وهو الرواية الأخرى عن أحمد قال ابن عمر لكل مطلقة متعة إلا التى فرض لها المهر ولم يدخل بها زوجها فحسبها نصف المهر .

(الفرع الثالث فى قدر المتعة) قال ابن عباس أعلاها خادم وأوسطها ثلاثة أثواب درع وخمار وإزار وأقلها دون ذلك وقاية أو مقنعة أو شىء من الورق وهو مذهب الشافعى لأنه قال أعلاها على الموسع خادم وأوسطها ثوب وأقلها ماله ثمن وحسن ثلاثون درهما . وروى أن عبد الرحمن بن عوف طلق امرأته وحممها يعنى متعها جارية سوداء ومتع الحسن بن على زوجته بعشرة آلاف درهم فقالت : متاع قليل من حبيب مفارق . وقال أبو حنيفة مبلغها إذا اختلف الزوجان قدر نصف مهر مثلها لا يجاوز وقال أحمد فى إحدى الروايتين عنه تتقدر بما تجزى فيه الصلاة وقال فى الرواية الأخرى تتقدر بتقدير الحاكم والآية تدل على أن المتعة تعتبر بحال الزوج فى اليسر والعسر وأنه مفوض إلى الاجتهاد لأنها كالنفقة التى أوجبها الله تعالى للزوجات وبين أن حال الموسر مخالف حال المعسر فى ذلك .

(الفرع الرابع) ومن حكم الآية أن من تزوج امرأة بالغة برضاها على غير مهر صح النكاح ولها مطالبته بأن يفرض لها صداقا فان دخل بها قبل الفرض فلها عليه مهر مثلها وإن طلقها

قبل

كالدخول فى تقرير المسمى كذلك فى إيجاب مهر المثل إذا لم يكن فى العقد مسمى وهو قول الثورى وأصحاب الرأى واحتجوا بما روى عن علقمة عن ابن مسعود أنه سئل عن رجل تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقا ولم يدخل بها حتى مات فقال ابن مسعود لها صداق نسائها ولا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث فقال معقل بن يسار الأشجعى فقال قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بروع بنت واشق امرأة منا مثل ماقضيت ففرح بها ابن مسعود رضى الله عنه وقال الشافعى رحمه الله فان ثبت حديث بروع بنت واشق فلا حجة فى قول أحد دون قول النبى صلى الله عليه وسلم

وإن لم يثبت فلا مهر لها ولها الميراث وكان على يقول فى حديث بروع لانقبل قول أعرابى من أشجع على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم) هذا فى المطلقة بعد الفرض قبل المسيس ثم فلها نصف المفروض وإن مات أحدهما قبل المسيس فلها كمال المهر المفروض والمراد بالمس المذكور فى الآية الجماع واختلف أهل العلم فيما لو خلا الرجل بامرأته ثم طلقها قبل أن يدخل بها فذهب قوم إلى أنه لايجب لها إلا نصف الصداق ولا عدة عليها لأن الله تعالى أوجب بالطلاق قبل المسيس نصف المهر ولم يوجب العدة وهو قول ابن عباس رضى الله عنه وابن مسعود وبه قال الشافعى رحمه الله وقال قوم يجب لها كمال المهر وعليها العدة لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال إذا أرخيت الستور فقد وجب الصداق ومثله عن زيد بن ثابت وحمل بعضهم قول عمر على وجوب تسليم الصداق إليها إذا سلمت نفسها لا على تقدير الصداق وقيل هذه الآية ناسخة للآية التى فى الأحزاب «فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن» فقد كان للمطلقة قبل المسيس متاع فنسخت بهذه الآية وأوجب للمطلقة المفروض لها قبل المسيس نصف المفروض ولا متاع لها وقوله تعالى «وقد فرضتم لهن فريضة» أى سميتم لهن مهرا «فنصف مافرضتم» أى لها نصف المهر المسمى (إلا أن يعفون) يعنى النساء أى إلا أن تترك المرأة نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج قوله تعالى (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) اختلفوا

قبل الفرض والدخول فلها المتعة . قوله عز وجل (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) يعنى تجامعوهن وهذا فى المطلقة بعد تسمية المهر وقبل الدخول حكم الله لها بنصف المهر ولا عدة عليها وهو قوله تعالى (وقد فرضتم لهن فريضة) أى سميتم لهن مهرا (فنصف مافرضتم) أى فلهن نصف المهر المسمى ، ومذهب الشافعى أن الخلوة من غير مسيس لاتوجب إلا نصف المهر المسمى لأن المسيس إما حقيقة فى المس باليد أو جعل كناية عن الجماع وأيهما كان فقد وجد الطلاق قبله وقال أبو حنيفة الخلوة الصحيحة تقرر المهر ومعنى الخلوة الصحيحة أن يخلو بها وليس هناك مانع حسى ولا شرعى ، فالحسى نحو الرتق والقرن أو يكون معهما ثالث ، والشرعى نحو الحيض والنفاس وصوم الفرض وصلاة الفرض والإحرام سواء كان فرضا أونفلا والآية حجة لمذهب الشافعى ، قال شريح لم أسمع الله ذكر فى كتابه بابا ولا سترا إن زعم أنه لم يمسها فلها نصف الصداق وقال ابن عباس إذا خلا بها ولم يمسها فلها نصف المهر .

(فرع) لومات أحد الزوجين بعد التسمية وقبل المسيس فلها المهر كاملا وعليها العدة إن كان الزوج هو الميت . وقوله تعالى (إلا أن يعفون) يعنى النساء المطلقات والمعنى إلا أن لا تترك المرأة نصيبها من الصداق فتهبه للزوج فيعود جميع الصداق إلى الزوج (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) فيه قولان : أحدهما أنه الولى وهو قول ابن عباس فى رواية عنه والحسن وعلقمة وطاوس والشعبى والنخعى والزهرى والسدى وبه قال الشافعى فى القديم ومالك . والقول الثانى أنه الزوج وهو قول على وابن عباس فى الرواية الأخرى وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وابن جبير ومجاهد والربيع وقتادة ومقاتل والضحاك ومحمد بن كعب القرظى وهو قول أبى حنيفة والشافعى فى الجديد وأحمد وجمهور الفقهاء فعلى القول الأول يكون معنى الآية إلا أن تعفو المرأة إذا كانت ثيبا بالغة من أهل العفو عن نصيبها للزوج أو يعفو وليها إذا كانت المرأة بكرا صغيرة أو غير جائزة التصرف فيجوز عفو وليها فيترك نصيبها للزوج وإنما يجوز عفو الولى بشروط وهى أن تكون بكرا صغيرة ويكون الولى أبا أو جدا لأن غيرهما لا يزوج الصغيرة وعلى القول الثانى أن الذى بيده عقدة النكاح هو الزوج وصحح هذا القول الطبرى والواحدى فيكون معنى الآية أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح يعنى الزوج فيعطى المرأة الصداق كاملا لأن الله تعالى لما ذكر عفو المرأة عن النصف الواجب لها ذكر عفو الزوج عن النصف الساقط عنه فيحسن للمرأة أن تعفو ولا تطالب بشىء من الصداق وللرجل أن يعفو فيوفى لها

فيه فذهب بعضهم إلى ان الذى بيده عقدة النكاح هو الولى وبه قال ابن عباس رضى الله عنه معناه إلا أن تعفو المرأة بترك نصيبها إلى الزوج إن كانت ثيبا من أهل العفو أو يعفو وليها فيترك نصيبها إن كانت المرأة بكرا أو غير جائزة العفو فيجوز عفو وليها وهو قول علقمة وعطاء والحسن والزهرى وربيعة وذهب بعضهم إلى أنه إنما يجوز عفو الولي إذا كانت المرأة بكرا فان كانت ثيبا فلا يجوز عفو وليها وقال بعضهم الذى بيده عقدة النكاح هو الزوج وهو قول على وبه قال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والشعبي والشريحى ومجاهد وقتادة وقالوا لا يجوز لوليها ترك الشيء من الصداق بكرا كانت أو ثيبا كما لا يجوز له ذلك قبل الطلاق بالاتفاق كما لا يجوز له أن يهب شيئا من مالها وقالوا معنى الآية إلا أن تعفو المرأة بترك نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج أو يعفو الزوج بترك نصيبه فيكون لها جميع الصداق فعلى هذا التأويل وجه الآية الذى بيده عقدة النكاح نكاح نفسه فى كل حال قبل الطلاق أو بعده (وأن تعفوا أقرب للتقوى) موضعه رفع بالابتداء أى والعفو أقرب للتقوى أى إلى التقوى والخطاب للرجال والنساء جميعا لأن المذكر والمؤنث إذا اجتمعا كانت الغلبة للمذكر معناه وعفو بعضكم عن بعض أقرب للتقوى (ولا تنسوا الفضل بينكم) أى إفضال بعضكم على بعض باعطاء الرجل تمام الصداق أو ترك المرأة نصيبها حثهما جميعا على الإحسان (إن الله بما تعملون بصير) قوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) أى واظبوا وداوموا على الصلوات المكتوبات بمواقيتها وحدودها وإتمام أركانها ثم خص من بينها الصلاة الوسطى بالمحافظة عليها دلالة على فضلها ووسطى تأنيث الأوسط ووسط الشيء خيره وأعدله واختلف العلماء من الصحابة ومن بعدهم فى الصلاة الوسطى فقال: فقال قوم هى صلاة الفجر وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس ومعاذ وجابر وبه قال عطاء وعكرمة ومجاهد وإليه مال مالك والشافعى لأن الله تعالى قال وقوموا لله قانتين فالقنوت طول القيام وصلاة الصبح مخصوصة بطول القيام وبالقنوت لأن الله تعالى خصها فى آية أخرى من بين

المهر كاملا. وروى أن جبير بن مطعم تزوج امرأة ثم طلقها قبل الدخول بها فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو ولأن المهر حق المرأة فليس لوليها أن يهب من مالها شيئا فكذلك المهر لأنه مال لها (وأن تعفوا أقرب للتقوى) هذا خطاب للرجال والنساء جميعا وإنما غلب جانب التذكير لأن الذكورة هى الأصل والتأنيث فرع عنها والمعنى وعفو بعضكم عن بعض أيها الرجال والنساء أقرب إلى حصول التقوى وقيل هو خطاب للزوج والمعنى وليعف الزوج فيترك حقه الذى ساق من المهر إليها قبل الطلاق فهو أقرب للتقوى (ولا تنسوا الفضل بينكم) يعنى ليتفضل بعضكم على بعض فيعطى الرجل الصداق كاملا أو يترك المرأة نصيبها من الصداق حثهما جميعا على الإحسان ومكارم الأخلاق (إن الله بما تعملون) يعنى من عفو بعضكم لبعض عما وجب له عليه من حق (بصير) أى لا يخفى عليه شيء من ذلك. قوله عز وجل (حافظوا) أى داوموا وواظبوا (على الصلوات) يعنى الخمس المكتوبات أمر الله عز وجل عباده بالمحافظة على الصلوات الخمس المكتوبات بجميع شروطها وحدودها وإتمام أركانها وفعلها فى أوقاتها المختصة بها (والصلوة الوسطى) تأنيث الأوسط ووسط كل شيء خيره وأعدله وقيل الوسطى يعنى الفضلى من قولهم للأفضل أوسط وإنما أفردت وعطفت على الصلوات لانفرادها بالفضل وقيل سميت الوسطى لأنها أوسط الصلوات محلا.

فصل فى ذكر اختلاف العلماء فى الصلاة الوسطى

قد اختلف العلماء من الصحابة فمن بعدهم فى الصلاة الوسطى على مذاهب: الأول أن الصلاة الوسطى هى صلاة الفجر وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس ومعاذ وجابر وعطاء وعكرمة ومجاهد والربيع بن أنس وبه قال مالك والشافعى ويدل على ذلك أن مالكا بلغه أن على ابن أبى طالب وابن عباس كانا يقولان الصلاة الوسطى صلاة الفجر أخرجه مالك فى الموطأ وأخرجه الترمذى عن ابن عباس وابن عمر تعليقا ولأنها بين صلاتى جمع فالظهر والعصر يجمعان وهما صلاتا نهار والمغرب والعشاء يجمعان وهما صلاتا ليل وصلاة الفجر لا تقصر ولا تجمع إلى غيرها ولأنها تأتى فى وقت مشقة بسبب برد الشتاء وطيب النوم فى الصيف وفتور الأعضاء وكثرة النعاس وغفلة الناس عنها فخصت بالمحافظة عليها لكونها معرضة للضياع ولأن الله تعالى قال عقبها وقوموا لله قانتين والقنوت هو طول القيام وصلاة الفجر مخصوصة بطول القيام ولأن الله تعالى خصها بالذكر فى قوله وقرآن الفجر (إن قرآن الفجر كان مشهودا) يعنى تشهده ملائكة الليل

الصلاة فقال الله تعالى «وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا» يعني تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار فهي مكتوبة في ديوان الليل وديوان النهار ولأنها بين صلاتي جمع وهي لا تقصر ولا تجمع إلى غيرها وذهب قوم إلى أنها صلاة الظهر وهو قول زيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وأسامة بن زيد لأنها في وسط النهار وهي أوسط صلاة النهار في الطول أخبرنا عمر بن عبد العزيز أخبرنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي اللولوي أنا أبو داود أنا محمد بن المثنى أنا محمد بن جعفر أنا شعبة حدثني عمرو بن أبي حكيم قال سمعت الزبير يحدث عن عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت قال «كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منها فنزلت حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» وذهب الأكثرون إلى أنها صلاة العصر رواه جماعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول علي وعبد الله بن مسعود وأبي أيوب وأبي هريرة وعائشة رضوان الله عليهم وبه قال إبراهيم النخعي وقتادة والحسن أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر ابن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن القعقاع بن حكيم عن أبي يونس مولى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما أنه قال أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفا وقالت إذا بلغت هذه الآية فآذني «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» فلما بلغتها آذنتها فأملت علي «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت عائشة رضي الله عنها سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن حفصة مثل ذلك أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر الزياتي أنا حميد بن زنجويه أخبرنا أبو نعيم أنا سفيان عن عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش قال قلنا لعبيدة سل عليا عن الصلاة الوسطى فسأله قال كنا نرى أنها صلاة الفجر حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الخندق «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا» ولأنها بين صلاتي نهار وصلاتي ليل وقد خصها النبي ﷺ بالتغليظ . أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد

الليل وملائكة النهار فهي مكتوبة في ديوان حفظة الليل وديوان حفظة النهار فدل ذلك على مزيد فضلها . المذهب الثاني أنها صلاة الظهر وهو قول زيد بن ثابت وأسامة بن زيد وأبي سعيد الخدري ورواية عائشة وبه قال عبيدالله بن شداد وهو رواية عن أبي حنيفة ويدل على ذلك ماروي عن زيد بن ثابت وعائشة قالا الصلاة الوسطى صلاة الظهر أخرجه مالك في الموطأ عن زيد والترمذي عنهما تعليقا وأخرجه أبوداود عن زيد قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فنزلت : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» وقال إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين ولأن صلاة الظهر تأتي وسط النهار وفي شدة الحر ولأنها تأتي بين البردين يعني صلاة الفجر وصلاة العصر . المذهب الثالث أنها صلاة العصر وهو قول علي وابن مسعود وأبي أيوب وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة وهو قول عبيدة السلماني والحسن البصري وإبراهيم النخعي وقتادة والضحاك والكلبي ومقاتل وبه قال أبوحنيفة وأحمد وداود وابن المنذر وقال الترمذي هو قول أكثر الصحابة فمن بعدهم وقال الماوردي من أصحابنا هذا مذهب الشافعي لصحة الأحاديث فيه قال وإنما نص على أنها الصبح لأنه لم تبلغه الأحاديث الصحيحة في العصر ومذهبه إتباع الحديث ويدل على صحة هذا المذهب ماروى عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب وفي رواية يوم الخندق «ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس» وفي رواية «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر» وذكر نحوه وزاد في أخرى «ثم صلاها بين المغرب والعشاء» أخرجاه في الصحيحين (م) عن ابن مسعود قال حبس المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارا أوحشا الله أجوافهم وقبورهم نارا» عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «الصلاة الوسطى صلاة العصر» أخرجه الترمذي وله عن ابن مسعود مثله وقال في كل واحد منهما حسن صحيح (م) عن أبي يونس مولى عائشة قال أمرتني عائشة أن أكتب مصحفا وقالت إذا بلغت هذه الآية فآذني «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» قال فلما بلغتها آذنتها فأملت علي «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت عائشة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عن حفصة نحو ذلك ولأن صلاة

ابن عبدالله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسلم بن إبراهيم أنا هشام أنا يحيى بن أبى كثير عن أبى قلابة عن أبى المليح قال كنا مع بريدة فى غزوة فى يوم ذى غيم فقال بكروا بصلاة العصر فان النبى ﷺ قال « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » وقال قبيصة بن ذؤيب هى صلاة المغرب لأنها وسط ليس بأقلها ولا أكثرها وقال بعضهم إنها صلاة العشاء ولم ينقل عن السلف فيها شيء وإنما ذكرها بعض المتأخرين لأنها بين صلاتين لاتقصران وقال بعضهم هى إحدى الصلوات الخمس لابعينها أبهمها الله تعالى تحريضا للعباد على المحافظة على أداء جميعها ، كما أخفى ليلة القدر فى شهر رمضان وساعة إجابة الدعوة فى يوم الجمعة وأخفى الاسم الأعظم فى الأسماء ليحافظوا على جميعها قوله تعالى (وقوموا لله قانتين) أى مطيعين قال الشعبى وعطاء وسعيد ابن جبير والحسن وقتادة وطاوس القنوت الطاعة قال الله تعالى « أمة قانتا لله » أى مطيعا وقال الكلبى ومقاتل لكل أهل دين صلاة يقومون فيها عاصين فقوموا أنتم لله فى صلاتكم مطيعين ، وقيل القنوت السكوت عما لايجوز التكلم به فى الصلاة أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبى أنا أبو محمد عبد الجبار ابن محمد الجراحي أنا أبو العباس محمد ابن أحمد المحبوبى أنا أبو عيسى الترمذى أنا أحمد بن منيع أنا هشيم ، أنا إسماعيل بن أبى خالد عن الحارث بن سقيل عن أبى عمرو الشيبانى عن زيد بن أرقم قال كنا « نتكلم خلف رسول الله ﷺ فى الصلاة يكلم الرجل منا صاحبه إلى جنبه حتى نزلت « وقوموا لله قانتين » فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام وقال مجاهد خاشعين ، وقال من القنوت طول الركوع وغض البصر والركود وخفض الجناح كان العلماء إذا كان أحدهم يصلى يهاب الرحمن أن يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من أمر الدنيا إلا ناسيا وقيل المراد من القنوت طول القيام. أخبرنا أبو عثمان الضبى أنا أبو محمد الجراحى أنا أبو العباس المحبوبى أنا أبو عيسى الترمذى أنا ابن أبى عمر أنا سفيان بن عيينة عن ابن الزبير عن جابر ، قال قيل للنبى ﷺ أى

العصر تأتى وقت اشتغال الناس بمعايشهم فكان الأمر بالمحافظة عليها أولى ولأنها تأتى بين صلاتى نهار وهما الفجر والظهر وصلاتى ليل وهما المغرب والعشاء وقد خصت بمزيد التأكيد والأمر بالمحافظة والتغليظ لمن ضيعها ويدل على ذلك ماروى عن أبى المليح قال كنا مع بريدة فى غزوة فقال فى يوم ذى غيم بكروا بصلاة العصر فان النبى صلى الله عليه وسلم قال « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » أخرجه البخاري . قوله بكروا بصلاة العصر أي قدموها فى أول وقتها (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الذى تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » قوله وتر أى نقص وسلب أهله وماله فبقى فردا بلا أهل ولا مال ومعنى الحديث ليكن حذره من فوت صلاة العصر كحذره من ذهاب أهله وماله . المذهب الرابع أنها صلاة المغرب قاله قبيصة بن ذؤيب وحجة هذا المذهب أن صلاة المغرب تأتى بين بياض النهار وسواد الليل ولأنها أزيد من ركعتين كما فى الصبح وأقل من أربع ولا تقصر فى السفر وهى وتر النهار ولأن صلاة الظهر تسمى الأولى لأن ابتداء جبريل كان بها وإذا كانت الظهر أولى الصلوات كانت المغرب هى الوسطى . المذهب الخامس أنها صلاة العشاء ولم ينقل عن أحد من السلف فيها شيء وإنما ذكرها بعض المتأخرين وحجة هذا المذهب أنها متوسطة بين صلاتين لا تقصران وهما المغرب والصبح ولأنها أثقل صلاة على المنافقين . المذهب السادس أن الصلاة الوسطى هى إحدى الصلوات الخمس لا بعينها لأن الله تعالى أمر بالمحافظة على الصلوات الخمس ثم عطف عليها بالصلاة الوسطى وليس فى الآية ذكر بيانها وإذا كان كذلك أمكن أن يقال فى كل واحدة من الصلوات الخمس أنها هى الوسطى أبهمها الله على عباده مع ماخصها بمزيد التوكيد تحريضا لهم على المحافظة على أداء جميع الصلوات على صفة الكمال والتمام ولهذا السبب أخفى الله تعالى ليلة القدر فى شهر رمضان وأخفى ساعة الإجابة فى يوم الجمعة وأخفى اسمه الأعظم فى جميع أسمائه ليحافظوا على ذلك كله وهذا المذهب اختاره جمع من العلماء قال محمد بن سيرين إن رجلا سأل زيد بن ثابت عن الصلاة الوسطى فقال حافظ على الصلوات كلها تصبها وسئل الربيع ابن خيثم عن الصلاة الوسطى فقال للسائل الوسطى واحدة منهن فحافظ على الكل تكن محافظا على الوسطى ثم قال أرأيت لو علمتها بعينها أكنت محافظا عليها ومضيعا سائرهن فقال السائل لا فقال الربيع إنك إن حافظت عليهن فقد حافظت على الوسطى والصحيح من هذه الأقوال كلها قولان قول من قال إنها الصبح وقول من قال إنها العصر وأصح الأقوال كلها أنها العصر للأحاديث الصحيحة الواردة فيها والله تعالى أعلم . وقوله تعالى (وقوموا لله قانتين) أى طائعين

فهو

الصلاة أفضل قال طول القنوت وقيل قانتين أي داعين « دليله ماروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « قنت رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا متتابعا يدعو على أحياء من بني سليم على رعل وذكوان وعصية » وقيل معناه مصلين لقوله تعالى « أمن هو قانت آناء الليل » أي مصل . قوله تعالى (فان خفتم فرجالا أو ركبانا) فرجالا أي رجالة يقال راجل ورجال مثل صاحب وصحاب وقائم وقيام ونائم ونيام أو ركبانا على دوابهم وهو جمع راكب معناه إن لم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين للصلاة حقها لخوف فصلوا مشاة على أرجلكم أو ركبانا على ظهور دوابكم وهذا في حال المقاتلة والمسايفة يصلي حيث كان وجهه راجلا أو راكبا مستقبل القبلة وغير مستقبلها ويومئ بالركوع والسجود ويجعل السجود أخفض من الركوع ، وكذلك إذا قصده سبع أو غشيه سيل يخاف منه على نفسه فعدا إمامه مصليا بالإيماء يجوز والصلاة في حال الخوف على أقسام فهذه أحد أقسام شدة صلاة الخوف وسائر الأقسام سيأتي بيانها في سورة النساء إن شاء الله تعالى ولا ينتقص عدد الركعات بالخوف عند أكثر أهل العلم وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « فرض الله الصلاة على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة » وهو قول عطاء وطاوس والحسن ومجاهد وقتادة أنه يصلي في حال شدة الخوف ركعة وقال سعيد بن جبير إذا كنت في القتال وضرب الناس بعضهم بعضا فقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله

فهو عبارة عن إكمال الطاعة وإتمامها والاحتراز عن إيقاع الخلل في أركانها وسننها قيل لكل أهل دين صلاة يقومون فيها عاصين فقوموا أنتم لله في صلاتكم طائعين وقيل القنوت هو الدعاء والذكر بدليل « أمن هو قانت » ولما أمر بالمحافظة على الصلوات وجب أن يحمل هذا القنوت على مافيها من الذكر والدعاء فمعنى الآية وقوموا لله داعين ذاكرين وقيل إنما خص القنوت بصلاة الصبح والوتر لهذا المعنى وقيل القنوت هو السكوت عما لا يجوز التكلم به في الصلاة ويدل على ذلك ماروى عن زيد بن أرقم قال « كنا نتكلم في الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت : وقوموا لله قانتين فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام » أخرجاه في الصحيحين وقيل القنوت هو طول القيام في الصلاة ويدل عليه ماروى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الصلاة طول القنوت » أخرجه مسلم ومن القنوت أيضا طول الركوع والسجود وغض البصر والهدوء في الصلاة وخفض الجناح والخشوع فيها وكان العلماء إذا قام أحدهم يصلي يهاب الرحمن أن يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من أمور الدنيا إلا ناسيا . قوله عز وجل (فان خفتم فرجالا) أي رجالة (أو ركبانا) يعني على الدواب جمع راكب والمعنى إن لم يمكنكم أن تصلوا قانتين موفين حقوق الصلاة من إتمام الركوع والسجود والخضوع والخشوع لخوف عدو أو غيره فصلوا مشاة على أرجالكم أو ركبانا على دوابكم مستقبلي القبلة وغير مستقبليها وهذا في حال المقاتلة والمسايفة في وقت الحرب وصلاة الخوف قسمان : أحدهما أن يكون في حال القتال وهو المراد بهذه الآية وقسم في غير حال القتال وهو المذكور في سورة النساء في قوله تعالى « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة » وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى في موضعه فاذا التحم القتال ولم يمكن تركه لأحد فمذهب الشافعي أنهم يصلون ركبانا على الدواب ومشاة على الأرجل إلى القبلة وإلى غير القبلة يومئون بالركوع والسجود ويكون السجود أخفض من الركوع ويحترزون عن الصياح فانه لا حاجة إليه وقال أبو حنيفة لا يصلي الماشي بل يؤخر الصلاة ويقضيها لأن النبي ﷺ أخر الصلاة يوم الخندق فصلى الظهر والعصر والمغرب بعد ماغربت الشمس فيجب علينا الاقتداء به في ذلك واحتج الشافعي لمذهبه بهذه الآية . وأجيب عن تأخير النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة يوم الخندق بأنه لم يكن نزل حكم صلاة الخوف وإنما نزل بعد فلما نزلت صلاة الخوف لم يؤخر النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك صلاة قط أما الخوف الحاصل لا في القتال بل بسبب آخر كالهارب من العدو أو قصده سبع هائج أو غشيه سيل يخاف على نفسه الهلاك لو صلى صلاة أمن فله أن يصلي صلاة شدة الخوف بالإيماء في حال العدو لأن قوله تعالى « فان خفتم » مطلق يتناول الكل . فان قلت قوله تعالى « فرجالا أو ركبانا » يدل على أن المراد منه خوف العدو حال القتال . قلت هو كذلك إلا أنه هناك ثابت لدفع الضرر وهذا المعنى موجود هنا فوجب أن يكون الحكم كذلك هاهنا وروى عن ابن عباس قال « فرض الله الصلاة على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم في الحضر أربعا وفي السفر ركعتين وفي الخوف

والله أكبر واذكر الله فاذا ذكرت الله فتلك صلاتك (فاذا أمنتم فاذكروا الله) أى فصلوا الصلوات الخمس تامة بحقوقها (كما علمكم مالم تكونوا تعلمون) قوله تعالى (والذين يتوفون منكم) يامعشر الرجال (ويذرون) أى يتركون (أزواجا) أى زوجات (وصية لأزواجهم) قرأ أهل البصرة وابن عامر وحمزة وحفص وصية بالنصب على معنى فليوصوا وصية وقرأ الباقون بالرفع أى كتب عليكم الوصية

(متاعا إلى الحول) متاعا نصب على المصدر أى متعوهن متاعا وقيل جعل الله ذلك لهن متاعا والمتاع نفقة سنة لطعامها وكسوتها وسكنها وما تحتاج إليه (غير إخراج) نصب على الحال وقيل بنزع حرف على الصفة أى من غير إخراج نزلت هذه الآية فى رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة وله أولاد ومعه أبواه وامرأته فمات فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبى صلى الله عليه وسلم والديه وأولاده من ميراثه ولم يؤت امرأته شيئا وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا كاملا وكانت عدة الوفاة فى ابتداء الإسلام حولا كاملا وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول وكانت نفقتها وسكنها واجبة فى مال زوجها تلك السنة مالم تخرج ولم يكن لها الميراث فان خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها وكان على الرجل أن يوصى بها فكان كذلك حتى نزلت آية الميراث فنسخ الله تعالى نفقة الحول بالربع والثمن ، ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشرا . قوله تعالى (فان خرجن) يعنى من قبل أنفسهن قبل الحول من غير إخراج الورثة (فلا جناح عليكم) ياأولياء الميت (فيما فعلن فى أنفسهن من معروف) يعنى التزين للنكاح. والرفع الجناح عن الرجال وجهان أحدهما لاجناح عليكم فى قطع النفقة عنهن إذا خرجن قبل انقضاء الحول ، والآخر لاجناح عليكم فى ترك يعنى

ركعة » أخرجه مسلم وقد عمل بظاهر هذا جماعة من السلف منهم الحسن البصرى وعطاء وطاوس ومجاهد وقتادة والضحاك وإبراهيم وإسحاق بن راهويه قالوا يصلى في حال شدة الخوف ركعة وقال الشافعي ومالك وجمهور العلماء صلاة الخوف كصلاة الأمن فى عدد الركعات فان كان الخوف في الحضر وجب عليه أن يصلي أربع ركعات وإن كان فى السفر صلى ركعتين ولا يجوز الاقتصار على ركعة واحدة فى حال من الأحوال وتأولوا حديث ابن عباس هذا على أن المراد به ركعة مع الإمام وركعة أخرى يأتى بها منفردا كما جاءت الأحاديث الصحيحة فى صفة صلاة النبى ﷺ وأصحابه في صلاة الخوف وهذا التأويل لابد منه للجمع بين الأحاديث . وقوله تعالى (فاذا أمنتم) يعنى من خوفكم (فاذكروا الله) أى فصلوا لله الصلوات الخمس تامة بأركانها وسننها (كما علمكم مالم تكونوا تعلمون) فيه إشارة إلى إنعام الله تعالى علينا بالعلم ولولا هدايته وتعليمه إيانا لم نعلم شيئا ولم نصل إلى معرفة شىء فله الحمد على ذلك . قوله عز وجل (والذين يتوفون منكم) يعنى يامعشر الرجال (ويذرون أزواجا) يعنى زوجات (وصية لأزواجهم) قرىء بالنصب على معنى فليوصوا وصية وبالرفع علي معنى كتب عليهم وصية (متاعا إلى الحول) أى متعوهن متاعا وقيل جعل الله لهن ذلك متاعا والمتاع نفقة سنة لطعامها وكسوتها وما تحتاج إليه (غير إخراج) أى غير مخرجات من بيوتهن نزلت هذه الآية فى رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة ومعه أبواه وامرأته وله أولاد فمات فرفع ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبى صلى الله عليه وسلم أبويه وأولاده ميراثه ولم يعط امرأته شيئا وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا وكان الحكم فى ابتداء الإسلام أنه إذا مات الرجل اعتدت زوجته حولا وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول وكانت نفقتها وسكناها واجبتين فى مال زوجها تلك السنة وليس لها من الميراث شىء ولكنها تكون مخيرة فان شاءت اعتدت فى بيت زوجها ولها النفقة والسكنى وإن شاءت خرجت قبل تمام الحول وليس لها نفقة ولا سكنى وكان يجب على الرجل أن يوصى بذلك فدلت هذه الآية على مجموع أمرين: أحدهما أن لها النفقة والسكنى من مال زوجها سنة والثانى أن عليها عدة سنة ثم إن الله تعالى نسخ هذين الحكمين أما الوصية بالنفقة والسكنى فنسخ بآية الميراث فجعل لها الربع أو الثمن عوضا عن النفقة والسكنى ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشرا . فان قلت كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة . قلت قد تكون الآية المتقدمة متقدمة فى التلاوة متأخرة فى التنزيل كقوله تعالى «سيقول السفهاء من الناس» مع قوله تعالى «قد نرى تقلب وجهك فى السماء» . وقوله تعالي (فان خرجن فلاجناح عليكم) يعنى يامعشر أولياء الميت (فيما فعلن فى أنفسهن من معروف)

منعهن من الخروج لأن مقامها فى بيت زوجها حولا غير واجب عليها خيرها الله تعالى بين أن تقيم حولا ولها النفقة والسكنى وبين أن تخرج فلا نفقة ولا سكنى إلى أن نسخه بأربعة أشهر وعشرا (والله عزيز حكيم وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) إنما أعاد ذكر المتعة ههنا لزيادة معنى وذلك أن فى غيرها بيان حكم غير الممسوسة ▪ وفى هذه الآية بيان حكم جميع المطلقات فى المتعة . وقيل إنه لما نزل قوله تعالى «ومتعوهن على الموسع قدره (٢٤٩) وعلى المقتر قدره» إلى قوله «حقا على المحسنين» قال رجل من المسلمين إن أحسنت فعلت وإن لم أرد ذلك لم أفعل فقال الله تعالى «وللمطلقات متاع» جعل المتعة لهن بلام التمليك وقال «حقا على المتقين» يعنى المؤمنين المتقين الشرك (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) قوله تعالى (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) قال أكثر أهل التفسير كانت قرية يقال لها داوردان قبل واسط بها وقع الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقى بالقرية وسلم الذين خرجوا فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال الذين بقوا أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلى أرض لا وباء بها فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح فلما

يعنى التزين للنكاح ولرفع الحرج عن الورثة وجهان: أحدهما أنه لا جناح عليكم فى قطع النفقة عنهن إذا خرجن قبل انقضاء الحول . والوجه الثانى لا جناح عليكم فى ترك منعهن من الخروج لأن مقامها فى بيت زوجها حولا غير واجب عليها خيرها الله تعالى بين أن تقيم فى بيت زوجها حولا ولها النفقة والسكنى وبين أن تخرج ولا نفقة لها ولا سكنى ثم نسخ الله ذلك بأربعة أشهر وعشرا (والله عزيز) أى غالب قوى فى انتقامه ممن خالف أمره ونهيه وتعدى حدوده (حكيم) يعنى فيما شرع من الشرائع وبين من الأحكام . قوله عز وجل (وللمطلقات متاع بالمعروف) إنما أعاد الله تعالى ذكر المتعة هنا لزيادة معنى وهو أن فى تلك الآية بيان حكم غير الممسوسة وفى هذه الآية بيان حكم جميع المطلقات فى المتعة وقيل لأنه لما نزل قوله تعالى «ومتعوهن على الموسع قدره» إلى قوله «حقا على المحسنين» قال رجل من المسلمين إن فعلت أحسنت وإن لم أرد لم أفعل فأنزل الله تعالى «وللمطلقات متاع بالمعروف» فجعل المتعة لهن بلام التمليك وقال تعالى (حقا على المتقين) يعنى المؤمنين الذين يتقون الشرك وقد تقدم أحكام المتعة . وقوله تعالى (كذلك يبين الله لكم آياته) يعنى يبين لكم ما يلزمكم ويلزم أزواجكم أيها المؤمنون وكما عرفتكم أحكامى والحق الذى يجب لبعضكم على بعض فى هذه الآيات كذلك أبين لكم سائر أحكامى فى آياتى التى أنزلتها على محمد صلى الله عليه وسلم فى هذا الكتاب (لعلكم تعقلون) أى لكى تعقلوا ما بينت لكم من الفرائض والأحكام وما فيه صلاحكم وصلاح دينكم اه . قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) قال أكثر المفسرين كانت قرية يقال لها داوردان وقع بها الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فسلم الذين خرجوا وهلك أكثر من بقى بالقرية فلما ارتفع الطاعون رجع الذين خرجوا سالمين فقال الذين بقوا كان أصحابنا أحزم منا رأيا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا كما بقوا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلى أرض لا وباء فيها فرجع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها فخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح فلما نزلوا المكان الذين يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادى وملك آخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعا (ق) عن عمر أنه خرج إلى الشام فلما جاء سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بها فأخبره عبد الرحمن ابن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فرارا منه» فحمد الله عمر ثم انصرف وقيل إنما فروا من الجهاد وذلك أن ملكا من ملوك بنى إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلوا وقالوا لملكهم إن الأرض التى تأتيها بها وباء فلا تخرج حتى ينقطع منها الوباء فأرسل الله عليهم الموت فخرجوا فرارا منه فلما رأى الملك ذلك قال اللهم رب يعقوب وإله موسى قد ترى معصية عبادك فأرهم آية فى أنفسهم حتى يعلموا أنهم

نزلوا المكان الذى يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادى وآخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعا . أخبرنا أبو الحسن السرخسى ، أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى الشام فلما جاء سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام فأخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ قال «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع

بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » فرجع عمر من سرغ قال الكلبي ومقاتل والضحاك إنما فروا من الجهاد، وذلك أن ملكا من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلوا وقالوا لملكهم إن الأرض التي تأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع منها الوباء فأرسل الله عليهم الموت فخرجوا من ديارهم فرارا من الموت فلما رأى الملك ذلك، قال: اللهم رب يعقوب وإله موسى وهارون قد ترى معصية عبادك فأرهم آية في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك فلما خرجوا قال لهم الله تعالى موتوا عقوبة لهم فماتوا جميعا وماتت دوابهم كموت رجل واحد فأتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا وأروحت أجسادهم فخرج إليهم الناس فعجزوا عن دفنهم، فحظروا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم فيها. واختلفوا في مبلغ عددهم قال عطاء الخراساني كانوا ثلاثة آلاف وقال وهب أربعة آلاف وقال مقاتل والكلبي ثمانية آلاف وقال أبو رواق عشرة آلاف وقال السدي بضعة وثلاثون ألفا وقال ابن جريج أربعون ألفا. وقال عطاء بن أبي رباح سبعون ألفا. وأولى الأقاويل قول من قال كانوا زيادة على عشرة آلاف لأن الله تعالى قال وهم ألوف والألوف جمع الكثير وجمعه القليل آلاف والألوف (٢٥٠) لا يقال لما دون عشرة آلاف قالوا فأتت على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعريت عظامهم فمر عليهم نبي يقال له حزقيل بن بوذى ثالث خلفاء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام وذلك أن القيم بعد موسى بأمر بني إسرائيل يوشع ابن نون ثم كالب بن يوقنا ثم حزقيل كان يقال له ابن العجوز لأن أمه كانت عجوزا فسألت الله الولد بعد ما كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى لها قال الحسن ومقاتل هو ذو الكفل وسمي حزقيل ذا الكفل لأنه تكفل بسبعين نبيا وأنجاهم من القتل فلما مر حزقيل على أولئك الموتى وقف عليهم، فجعل يتفكر فيهم متعجبا فأوحى الله تعالى إليه تريد أن أريك آية قال نعم فأحياهم الله وقيل دعا حزقيل ربه أن يحييهم فأحياهم وقال مقاتل والكلبي هم كانوا قوم حزقيل أحياهم الله بعد ثمانية أيام وذلك أنه لما أصابهم ذلك خرج حزقيل في طلبهم فوجدهم موتى فبكى وقال يارب كنت في قوم يحمدونك ويسبحونك ويقدسونك ويكبرونك ويهللونك فبقيت وحيدا لا قوم لي فأوحى الله تعالى إليه إني جعلت حياتهم إليك. قال حزقيل أحيوا باذن الله فعاشوا قال مجاهد إنهم قالوا حين أحيوا سبحانك اللهم ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت فرجعوا إلى قومهم وعاشوا دهرا طويلا وسحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبا إلا عاد دنسا مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم قال ابن عباس رضي الله عنهما وإنها لتوجد اليوم في ذلك السبط من اليهود تلك الريح قال قتادة مقتهم الله على فرارهم من الموت فأماتهم عقوبة لهم ثم بعثوا ليستوفوا مدة آجالهم ولو جاءت آجالهم ما بعثوا فذلك قوله تعالى ألم تر أي ألم تعلم باعلامي إياك وهو من رؤية القلب وقال أهل المعاني هو تعجيب يقول هل رأيت مثلهم؟ كما تقول ألم تر إلى ما يصنع فلان وكل ما في القرآن ألم تر ولم يعاينه النبي ﷺ فهذا وجهه «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم» (وهم ألوف) جمع ألف وقيل مؤتلفة قلوبهم

لا يستطيعون الفرار منك فلما خرجوا قال لهم موتوا عقوبة لهم فماتوا وماتت دوابهم كموت رجل واحد فما أتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا وأروحت أجسادهم فخرج الناس إليهم فعجزوا عن دفنهم فحظروا حظيرة دون السباع فذلك قوله تعالى «ألم تر» أي ألم تعلم يامحمد باعلامي إياك وهو من رؤية القلب قال أهل المعاني هو تعجيب له يقول هل رأيت مثل هؤلاء كما تقول ألم تر إلى صنيع فلان وكل ما في القرآن من قوله ألم تر ولم يعاينه النبي صلى الله عليه وسلم فهذا معناه. قوله تعالى (وهم ألوف) قيل هو من العدد واختلفوا في مبلغ عددهم فقيل ثلاثة آلاف وقيل عشرة آلاف وقيل بضع وثلاثون ألفا وقيل أربعون ألفا وقيل سبعون ألفا وأصح الأقوال قول من قال إنهم كانوا زيادة على عشرة آلاف لأن الله تعالى قال «وهم ألوف» والألوف جمع الكثير وجمع القليل آلاف وقيل معنى وهم ألوف مؤتلفون جمع إلف والأول أصح قالوا فمر عليهم مدة فبليت أجسادهم وعريت عظامهم فمر عليهم حزقيل ابن بوذى هو ثالث خلفاء بني إسرائيل بعد موسى وذلك أن القيم بأمر بني إسرائيل بعد موسى كان يوشع بن نون ثم كان من بعده كالب بن يوقنا ثم قام من بعده حزقيل وكان يقال له ابن العجوز لأن أمه كانت عجوزا فسألت الله تعالى الولد بعدما كبرت وعقمت فوهب الله لها حزقيل ويقال له ذو الكفل سمي به لأنه تكفل سبعين نبيا وأنجاهم من القتل فلما مر حزقيل على هؤلاء الموتى وقف عليهم وجعل يفكر فيهم فأوحى الله تعالى إليه أتريد أن أريك قال نعم يارب فأحياهم الله تعالى وقيل دعا ربه حزقيل أن يحييهم فأحياهم الله تعالى وقيل إنهم

جمع آلف مثل قاعد وقعود والصحيح أن المراد منه العدد (حذر الموت) أى خوف الموت (فقال لهم الله موتوا) أمر تحويل كقوله تعالى « كونوا قردة خاسئين » (ثم أحياهم) بعد موتهم (إن الله لذو فضل على الناس) قيل هو على العموم فى حق الكافة وقيل على الخصوص فى حق المؤمنين (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أما الكفار فلم يشكروا وأما المؤمنون

كانوا قومه أحياهم الله تعالى بعد ثمانية أيام وذلك أنه لما أصابهم ذلك خرج فى طلبهم فوجدهم موتى فبكى وقال يارب كنت فى قوم يعبدونك ويذكرونك فبقيت وحيدا لا قوم لى فأوحى الله إليه إنى قد جعلت حياتهم إليك فقال حزقيل احيوا بإذن الله فعاشوا ، وقيل إنهم قالوا حين أحيوا سبحانك ربنا وبحمدك لا إله إلا أنت ثم رجعوا إلى قومهم وعاشوا دهرا طويلا وسحنة الموت على وجوههم لا يلبسون ثوبا إلا عاد دنسا مثل الكفن حتى ماتوا لآجالهم التى كتبت لهم قال ابن عباس وإنها لتوجد اليوم تلك الريح فى ذلك السبط من اليهود قال قتادة مقتهم الله على فرارهم من الموت فأماتهم عقوبة لهم ثم بعثهم الله ليستوفوا بقية آجالهم ولو جاءت آجالهم لما بعثوا . فان قلت كيف أميت هؤلاء مرتين فى الدنيا وقد قال الله تعالى « لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى » قلت إن موتهم كان عقوبة لهم كما قال قتادة وقيل إن موتهم وإحياءهم كان معجزة من معجزات ذلك النبى ومعجزات الأنبياء خوارق للعادات ونوادر فلا يقاس عليها فيكون قوله إلا الموتة الأولى عاما مخصوصا بمعجزات الأنبياء أى إلا الموتة الأولى التى ليست من معجزات الأنبياء ولا من خوارق العادات وفى هذه الآية احتجاج على اليهود ومعجزة عظيمة لنبينا صلى الله عليه وسلم حيث أخبرهم بأمر لم يشاهدوه وهم يعلمون صحة ذلك وفيه احتجاج على منكرى البعث أيضا إذ قد أخبر الله تعالى وهو الصادق فى خبره أنه أماتهم ثم أحياهم فى الدنيا فهو تعالى قادر على أن يحييهم يوم القيامة . وقوله تعالى (حذر الموت) أى مخافة الطاعون وكان قد نزل بهم وقيل إنهم أمروا بالجهاد ففروا منه حذر الموت (فقال لهم الله موتوا) يحتمل أنهم ماتوا عند قوله تعالى موتوا ويحتمل أن يكون ذلك أمر تحويل فهو كقوله « كونوا قردة خاسئين » (ثم أحياهم) يعنى بعد موتهم (إن الله لذو فضل على الناس) يعنى أن الله تعالى تفضل على أولئك الذين أماتهم بإحيائهم لأنهم ماتوا على معصيته فتفضل عليهم بإعادتهم إلى الدنيا ليتوبوا وقيل هو على العموم فهو تعالى متفضل على كافة الخلق فى الدنيا ويخص المؤمنين بفضله يوم القيامة (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) يعنى أن أكثر من أنعم الله عليه لا يشكره أما الكافر فانه لم يشكره أصلا وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية شكره . قوله عز وجل (وقاتلوا فى سبيل الله) قيل هو خطاب للذين أحيوا أحياهم الله ثم أمرهم بالجهاد فعلى هذا القول فيه إضمار تقديره وقيل لهم قاتلوا فى سبيل الله وقيل هو خطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ومعناه لا تهربوا من الموت كما هرب هؤلاء فلم ينفعهم ذلك ففيه تحريض للمؤمنين على الجهاد (واعلموا أن الله سميع) يعنى لما يقوله المتعلل عن القتال (عليم) بما يضمره . قوله عز وجل (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) القرض اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازى عليه فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له قرضا على رجاء ما وعدهم به من الثواب لأنهم يعملون لطلب الثواب وقيل القرض من ما أسلفت من عمل صالح أو شىء قال أمية بن أبى الصلت :

فلم يبلغوا غاية الشكر (وقاتلوا فى سبيل الله) أى فى طاعة أعداء الله (واعلموا أن الله سميع عليم) قال أكثر أهل التفسير هذا خطاب للذين أحيوا أمروا بالقتال فى سبيل الله فخرجوا من ديارهم فرارا من الجهاد فأماتهم الله ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا وقيل الخطاب لهذه الأمة أمرهم بالجهاد . قوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) القرض اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازى عليه فسمى الله تعالى عمل المؤمنين له على رجاء ما أعد لهم من الثواب قرضا لأنهم يعملونه لطلب ثوابه . قال الكسائى القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سىء وأصل القرض فى اللغة القطع سمى به القرض لأنه يقطع به من ماله شيئا يعطيه ليرجع إليه مثله وقيل فى الآية اختصار مجازه من ذا الذى يقرض عباد الله والمحتاجين من خلقه كقوله تعالى « إن الذين يؤذون الله ورسوله » أى يؤذون عباد الله كما جاء فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول يوم القيامة يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى » وقوله عز وجل « يقرض الله » أى ينفق فى طاعة الله « قرضا حسنا » قال الحسين

ابن على الواقدى يعنى محتسبا طيبة به نفسه قال ابن المبارك من مال حلال وقال لايمن به ولا يؤذى (فيضاعفه له) قرأ ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب فيضعفه وبابه بالتشديد ووافق أبو عمرو فى سورة الأحزاب وقرأ الآخرون فيضاعفه بالألف مخففا وهما لغتان ودليل التشديد (٢٥٢) قوله أضعافا كثيرة لأن التشديد للتكثير وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنصب الفاء وكذلك فى سورة الحديد على جواب الاستفهام وقيل باضمار أن وقرأ الآخرون برفع الفاء نسقا على قوله يقرض (أضعافا كثيرة) قال السدي هذا التضعيف لايعلمه إلا الله عز وجل وقيل سبعمائة ضعف (والله يقبض ويبسط) قرأ أهل البصرة وحمزة يبسط هاهنا وفى الأعراف بسطة بالسين كنظائرهما وقرأ الآخرون بالصاد وقيل يقبض بامساك الرزق والنفس والتقتير ويبسط بالتوسيع وقيل يقبض بقبول التوبة والصدقة ويبسط بالخلف والثواب وقيل هو الإحياء والإماتة فمن أماته فقد قبضه ومن مد له فى عمره فقد بسط له وقيل هذا فى القلوب لما أمرهم الله تعالى بالصدقة أخبر أنهم لايمكنهم ذلك إلا بتوفيقه قال يقبض بعض القلوب فلا ينشط بالخير ويبسط بعضها فيقدم لنفسه خيرا كما جاء فى الحديث « القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها الله كيف يشاء » الحديث لفظه

(وإليه ترجعون) أى إلى الله تعودون فيجزيكم بأعمالكم وقال قتادة الهاء راجعة إلى التراب كناية من غير مذكور أى من التراب خلقهم وإليه يعودون. قوله تعالى (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل) والملأ من القوم وجوههم وأشرافهم وأصل

كل امرئ سوف يجزى قرضه حسنا أو سيئا أو مدينا كالذى دانا

وأصل القرض فى اللغة القطع سمى به لأن المقرض يقطع من ماله شيئا فيعطيه ليرجع إليه مثله ومعنى الآية من ذا الذى يقدم لنفسه إلى الله مايرجو ثوابه عنده وهذا تلطف من الله تعالى فى استدعاء عباده إلى أعمال البر والطاعة وقيل فى الآية اختصار تقديره من ذا الذى يقرض عباد الله والمحتاجين من خلقه فهو كقوله « إن الذين يؤذون الله » أى يؤذون عباد الله وكما جاء فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى » الحديث واختلفوا فى المراد بهذا القرض فقيل هو الإنفاق فى سبيل الله وقيل هو الصدقة الواجبة وقيل صدقة التطوع لأن الله تعالى سماه قرضا والقرض لايكون إلا تبرعا ولما روى الطبرى بسنده عن ابن مسعود قال لما نزلت « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » قال أبو الدحداح وإن الله يريد منا القرض قال النبى صلى الله عليه وسلم نعم يا أبا الدحداح قال ناولنى يدك فناوله يده قال فانى قد أقرضت ربى حائطى حائطا فيه ستمائة نخلة ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه فى عيالها فناداها يا أم الدحداح قالت لبيك قال اخرجى من الحائط فانى قد أقرضته لربى زاد غيره فقال النبى صلى الله عليه وسلم كم من عذق رداح لأبى الدحداح وقيل فى معنى يقرض الله أى ينفق فى طاعته فيدخل فيه الواجب والتطوع وهو الأقرب حسنا يعنى محتسبا طيبة به نفسه وقيل هو الإنفاق من المال الحلال فى وجوه البر وقيل هو أن لايمن بالقرض ولا يؤذى وقيل هو الخالص لله تعالى ولا يكون فيه رياء ولا سمعة (فيضاعفه له) يعنى ثواب ما أنفق (أضعافا كثيرة) قيل هو يضاعفه إلى سبعمائة ضعف وقال السدى هذا التضعيف لايعلمه إلا الله تعالى وهذا هو الأصح وإنما أبهم الله ذلك لأن ذكر المبهم فى باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود (والله يقبض ويبسط) قيل يقبض بامساك الرزق والتقتير على من يشاء ويبسط بمعنى يوسع على من يشاء وقيل يقبض بقبول الصدقة ويبسط بالخلف والثواب وقيل إنه تعالى لما أمرهم بالصدقة وحثهم على الإنفاق أخبر أنه لايمكنهم ذلك إلا بتوفيقه وإرادته وإعانته والمعنى والله يقبض بعض القلوب حتى لاتقدر على الإنفاق فى الطاعة وعمل الخير ويبسط بعض القلوب حتى تقدر على فعل الطاعات والإنفاق فى البر كما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم مصرف القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك » أخرجه مسلم وهذا الحديث من أحاديث الصفات التى يجب الإيمان بها والسكوت عنها وإمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا إثبات جارحة هذا مذهب أهل السنة وسلف هذه الأمة (وإليه ترجعون) يعنى فى الآخرة فيجزيكم بأعمالكم. قوله عز وجل (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل) الملأ أشراف القوم ووجوههم وأصله الجماعة من الناس لاواحد له من

الملأ الجماعة من الناس ولا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والإبل والخيل والجيش وجمعه أملاء (من بعد موسى)
أى من بعد موت موسى (إذ قالوا لنبي لهم) واختلفوا فى ذلك النبي فقال قتادة هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه
السلام وقال السدي اسمه شمعون وإنما سمى شمعون لأن أمه دعت الله أن يرزقها غلاما فاستجاب الله دعاءها
فولدت غلاما فسمته شمعون تقول سمع الله تعالى دعائى ، والسين تصير شينا بالعبرانية وهو شمعون بن صفية بنت علقمة من ولد لاوى ابن يعقوب وقال سائر المفسرين هو أشمويل وهو بالعبرانية إسمعيل ابن يال بن علقمة وقال مقاتل هو من نسل هارون وقال مجاهد هو أشمويل وهو بالعبرانية إسماعيل ابن هلقايا وقال وهب وابن إسحاق والكلبي وغيرهم كان سبب مسألتهم إياه ذلك أنه لما مات موسى عليه السلام خلف بعده فى بنى إسرائيل يوشع بن نون يقيم فيهم التوراة وأمر الله تعالى حتى قبضه الله تعالى ثم خلف فيهم كالب ابن يوقنا كذلك حتى قبضه الله تعالى ثم خلف حزقيل حتى قبضه الله ثم عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل ونسوا عهد الله حتى عبدوا الأوثان فبعث الله إليهم إلياس نبيا فدعاهم إلى الله تعالى وكانت الأنبياء من بنى
إسرائيل من بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد مانسوا من التوراة ثم خلف من بعد إلياس اليسع فكان فيهم ماشاء الله ثم قبضه الله
وخلف فيهم الخلوف وعظمت الخطايا فظهر لهم عدو يقال له البلثاثا وهم قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر
وفلسطين وهم العمالقة فظهروا على بنى إسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيرا من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم

لفظه كالقوم والرهط (من بعد موسى) أى من بعد موت موسى أى من بعد زمنه (إذ قالوا) يعنى
أولئك الملأ (لنبي لهم) اختلفوا فى ذلك النبي فقيل هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب
وقيل هو شمعون بن صفية بن علقمة من ولد لاوى بن يعقوب وإنما سمى شمعون لأن أمه دعت الله
أن يرزقها غلاما فاستجاب الله لها فولدت غلاما فسمته شمعون ومعناه سمع الله دعائى وتبدل السين
بالعبرانية شينا وقال أكثر المفسرين هو اشمويل بن يال وقيل هو ابن هلفائى قيل إنه من ولد
هارون ومعرفة حقيقة ذلك النبي بعينه ليست مرادة من القصة إنما المراد منها الترغيب فى الجهاد
وذلك حاصل .

(ذكر الإشارة إلى القصة)

كان سبب مسئلة أولئك الملأ لذلك النبي أنه لما مات موسى عليه السلام خلف من بعده
فى بنى إسرائيل يوشع بن نون يقيم فيهم أمر الله تعالى ويحكم بالتوراة حتى قبضه الله تعالى ثم
خلف من بعده كالب بن يوقنا كذلك ثم حزقيل كذلك حتى قبضه الله تعالى فعظمت
الأحداث بعده فى بنى إسرائيل ونسوا عهد الله حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم إلياس نبيا
فدعاهم إلى الله تعالى وكانت الأنبياء من بنى إسرائيل من بعد موسى يبعثون إليهم ليجددوا مانسوا
من التوراة ويأمروهم بالعمل بأحكامها ثم خلف من بعد إلياس اليسع فكان فيهم ماشاء الله تعالى
ثم قبضه الله تعالى ثم خلف من بعده خلوف وعظمت فيهم الخطايا وظهر لهم عدو يقال له البلثاثا
وهم قوم جالوت وكانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة فظهروا
على بنى إسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيرا من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم
أربعمائة وأربعين غلاما فضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ولقى بنو إسرائيل منهم بلاء
وشدة ولم يكن لهم نبى يدبر أمرهم وكان سبط النبوة قد هلكوا كلهم إلا امرأة حبلى فحبسوها
فى بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بنى إسرائيل فى ولدها وجعلت المرأة
تدعو الله أن يرزقها غلاما فولدت غلاما فسمته أشمويل ومعناه بالعربية إسمعيل تقول سمع الله
دعائى فلما كبر الغلام أسلمته لتعليم التوراة فى بيت المقدس وكفله شيخ من علمائهم وتبناه
فلما بلغ الغلام أتاه جبريل عليه السلام وهو نائم إلى جانب الشيخ وكان الشيخ لا يأمن عليه أحدا
فدعاه جبريل بلحن الشيخ يا أشمويل ! فقام الغلام فزعا إلى الشيخ وقال يا أبتاه رأيتك تدعونى
فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام فقال يابنى ارجع فنم فنام ثم دعاه الثانية فقال الغلام
دعوتنى فقال نم فان دعوتك فلا تجبنى فلما كانت الثالثة ظهر له جبريل عليه السلام وقال
له اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك فان الله قد بعثك فيهم نبيا فلما أتاهم كذبوه وقالوا له
استعجلت بالنبوة ولم تنلك وقالوا له إن كنت صادقا فابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله آية
على نبوتك وإنما كان قوام أمر بنى إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك أنبياءهم وكان الملك
هو الذى يسير بالجموع والنبي هو الذى يقيم له أمره ويشير عليه ويرشده ويأتيه بالخبر من ربه

اربعمائة واربعين غلاما فضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ولقى بنو إسرائيل منهم بلاء وشدة ، ولم يكن لهم من يدبر أمرهم وكان سبط النبوة قد هلكوا فلم يبق منهم إلا امرأة حبلى فحبسوها فى بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بنى إسرائيل فى ولدها وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاما فولدت غلاما فسمته اشمويل تقول سمع الله تعالى دعائى فكبر الغلام فأسلمته ليعلم التوراة فى بيت المقدس وكفله شيخ من علمائهم وتبناه ، فلما بلغ الغلام أتاه جبريل وهو نائم إلى جنب الشيخ وكان لا يأتمن عليه أحدا ، فدعاه جبريل بلحن الشيخ يا اشمويل فقام الغلام فزعا إلى الشيخ فقال ياأبتاه دعوتنى فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام وقال يابنى ارجع فنم فرجع الغلام فنام ثم دعاه الثانية فقال الغلام ياأبت دعوتنى فقال ارجع فنم فان دعوتك الثالثة فلا تجبنى ، فلما كانت الثالثة ظهر له جبريل فقال له اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك فان الله قد بعثك فيهم نبيا فلما أتاهم كذبوه وقالوا استعجلت بالنبوة ولم تنلك وقالوا له إن كنت صادقا فابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله آية من نبوتك وإنما كان قوام أمر بنى إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك لأنبيائهم فكان الملك هو الذى يسير بالجموع والنبى يقيم له أمره ، ويشير عليه برشده ويأتيه بالخبر من ربه . قال وهب بن منبه بعث الله تعالى اشمويل نبيا فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان فقالوا لشمويل (ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) جزم على جواب الأمر فلما قالوا له ذلك (قال هل عسيتم) استفهام شك يقول لعلكم قرأ نافع عسيتم بكسر السين كل القرآن وقرأ الباقون بالفتح وهى اللغة الفصيحة بدليل قوله تعالى عسى ربكم (إن كتب) فرض (عليكم القتال) من ذلك الملك (أن لا تقاتلوا) أن لا تفوا بما تقولون ولا تقاتلوا معه (قالوا ومالنا أن لا نقاتل فى سبيل الله) فان قيل فما وجه دخول أن فى هذا الموضع والعرب لا تقول مالك أن لا تفعل وإنما يقال مالك لا تفعل قيل دخول أن وحذفها لغتان صحيحتان فالإثبات كقوله تعالى «مالك أن لا تكون مع الساجدين» والحذف كقوله تعالى «مالكم لا تؤمنون بالله» وقال الكسائى معناه ومالنا فى أن لا نقاتل فحذف فى وقال الفراء أى وما يمنعنا أن لا نقاتل فى سبيل الله كقوله تعالى «مامنعك أن لا تسجد» وقال الأخفش أن هاهنا زائدة معناه ومالنا لا نقاتل فى سبيل الله (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أى أخرج من غلب عليهم من ديارهم ظاهر الكلام العموم وباطنه الخصوص لأن الذين قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله كانوا فى ديارهم وأوطانهم وإنما أخرج من أسر منهم ومعنى الآية أنهم قالوا مجيبين لنبيهم إنما كنا نزهد فى الجهاد إذ كنا ممنوعين فى بلادنا لا يظهر علينا عدونا فأما إذا بلغ ذلك منا فنطيع ربنا فى الجهاد ونمنع نساءنا وأولادنا قال الله تعالى (فلما كتب عليهم القتال تولوا) أعرضوا عن الجهاد وضيعوا أمر الله (إلا قليلا منهم) وهم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة على ماسيأتى إن شاء الله تعالى (والله عليم بالظالمين وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا)

قال وهب فبعث الله أشمويل نبيا فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان فذلك قوله تعالى «إذ قالوا لنبى لهم» (ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) جزم على جواب الأمر فلما قالوا له ذلك (قال) يعنى قال النبى صلى الله عليه وسلم (هل عسيتم) هذا استفهام شك يقول لعلكم (إن كتب) أى فرض (عليكم القتال) يعنى مع ذلك الملك (أن لا تقاتلوا) يعنى لا تفوا بما قلتم وتجبنوا عن القتال معه (قالوا ومالنا أن لا نقاتل فى سبيل الله) . فان قلت ماوجه دخول أن والعرب لا تقول مالك أن لا تفعل كذا ولكن تقول مالك لا تفعل كذا. قلت دخول أن وحذفها لغتان صحيحتان فالإثبات كقوله « مالك أن لا تكون مع الساجدين » والحذف كقوله «مالكم لا تؤمنون» وقيل معناه ومالنا فى أن لا نقاتل بحذف حرف الجر وقيل أن هنا زائدة ومعناه ومالنا لا نقاتل فى سبيل الله (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أى أخرج من غلب عليهم من ديارهم فظاهر الكلام العموم وباطنه الخصوص لأن الذين قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكا كانوا فى ديارهم وأبنائهم وإنما أخرج من أسر منهم ومعنى الآية أنهم قالوا لنبيهم إنا إنما كنا تركنا الجهاد لأنا كنا ممنوعين فى بلادنا لا يظهر علينا عدونا فأما إذا بلغ ذلك منا فنطيع ربنا فى جهاد عدونا ونمنع نساءنا وأولادنا قال الله تعالى (فلما كتب عليهم القتال) فى الكلام حذف وتقديره فسأل الله ذلك النبى فبعث لهم ملكا وكتب عليهم القتال فلما كتب عليهم القتال (تولوا) أى أعرضوا عن الجهاد وضيعوا أمر الله (إلا قليلا منهم) يعنى لم يتولوا عن الجهاد هم الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة على ما سيأتى فى قصتهم إن شاء الله تعالى (والله عليم بالظالمين) يعنى هو عالم بمن ظلم نفسه حين خالف أمر ربه ولم يف بما قال . قوله عزوجل (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا) وذلك أن أشمويل سأل

وذلك أن اشمويل سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكا فأتى بعصا وقرن فيه دهن القدس وقيل له إن صاحبكم الذى يكون طوله
طول هذه العصا وانظر هذا القرن الذى فيه الدهن فاذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذى فى القرن فهو ملك بنى إسرائيل
فادهن به رأسه وملكه عليهم وكان طالوت اسمه بالعبرانية ساول بن قيس من أولاد بنيامين بن يعقوب سمى طالوت لطوله
وكان أطول من كل أحد برأسه ومنكبيه وكان رجلا دباغا يعمل الأديم قاله وهب وقال السدى كان رجلا سقاء يسقى على حمار
له من النيل فضل حماره فخرج فى طلبه وقيل كان خربندجا وقال وهب بل ضلت حمر لأبى طالوت فأرسله
وغلاما له فى طلبها فمرا
ببيت أشمويل عليه السلام
فقال الغلام لطالوت
لو دخلنا على هذا النبى
فسألناه عن أمر الحمر
ليرشدنا ويدعو لنا فدخلا
عليه فبينما هما عنده
يذكران له حاجتهما إذ
نش الدهن الذى فى القرن
فقام أشمويل عليه السلام
فقاس طالوت بالعصا
فكانت طوله فقال
لطالوت قرب رأسك
فقربه فدهنه بدهن
القدس ثم قال له أنت
ملك بنى إسرائيل الذى
أمرنى الله تعالى أن أملكه
عليهم فقال طالوت أما
علمت أن سبطى أدنى
أسباط بنى إسرائيل وبيتى
أدنى بيوت بنى إسرائيل ؟
قال بلى قال فبأى آية قال
بآية أنك ترجع وقد وجد
أبوك حمره فكان كذلك
ثم قال لبنى إسرائيل
« إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » (قالوا أنى يكون له الملك علينا) أى من أين يكون له الملك علينا (ونحن أحق)
أولى (بالملك منه) وإنما قالوا ذلك لأنه كان فى بنى إسرائيل سبطان سبط النبوة وسبط المملكة فكان سبط النبوة سبط لاوى
ابن يعقوب ومنه كان موسى وهارون وسبط المملكة سبط يهوذا بن يعقوب ومنه كان داود وسليمان ، ولم يكن طالوت من
أحدهما إنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب وكانوا عملوا ذنبا عظيما كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارا فغضب الله
تعالى عليهم ونزع الملك والنبوة عنهم وكانوا يسمونه سبط الإثم فلما قال لهم نبيهم ذلك أنكروا عليه لأنه لم يكن من سبط
المملكة ومع ذلك قالوا هو فقير (ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه) اختاره (عليكم وزاده بسطة) فضيلة وسعة (فى العلم

سأل الله عز وجل أن يبعث لهم ملكا فأتى بعصا وقرن فيه دهن القدس وقيل له إن صاحبكم
الذى يكون ملكا يكون طوله طول هذه العصا وانظر إلى القرن الذى فيه الدهن فاذا دخل
عليك رجل فنش الدهن فى القرن فهو ملك بنى إسرائيل فادهن رأسه بالدهن وملكه عليهم
واسم طالوت بالعبرانية ساول بن قيس من سبط بنيامين بن يعقوب وإنما سمى طالوت لطوله
وكان أطول من جميع الناس برأسه ومنكبيه وكان طالوت رجلا دباغا يدبغ الأديم قاله وهب
وقيل كان سقاء يستقى الماء على حمار فضل حماره فخرج يطلبه وقال وهب ضلت حمر لأبى
طالوت فأرسله أبوه ومعه غلام فى طلبها فمر على بيت أشمويل النبى فقال الغلام لطالوت لو
دخلنا على هذا النبى فسألناه عن أمر الحمر ليرشدنا أو ليدعو لنا فدخلا عليه فبينما هما عنده
يذكران له حاجتهما إذ نش الدهن فى القرن فقام أشمويل فقاس طالوت بالعصا فكانت على
طوله فقال لطالوت قرب رأسك فقربه إليه فدهنه بدهن القدس وقال له أنت ملك بنى
إسرائيل الذى أمرنى الله تعالى أن أملكك عليهم فقال طالوت أو ما علمت أن سبطى من أدنى
أسباط بنى إسرائيل قال بلى قال فبأى آية قال بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك حمره فكان
كذلك ثم قال لبنى إسرائيل إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا وقيل إنه جلس عنده وقال يا أيها
الناس إن الله ملك طالوت فأتت عظماء بنى إسرائيل إلى نبيهم أشمويل وقالوا له ماشأن طالوت
تملك علينا وليس هو من بيت النبوة ولا المملكة وقد عرفت أن النبوة فى سبط لاوى بن يعقوب
والمملكة فى سبط يهوذا بن يعقوب فقال لهم نبيهم أشمويل إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا
(قالوا أنى يكون له الملك علينا) أى من أين يكون له الملك وكيف يستحقه (ونحن أحق بالملك
منه) إنما قالوا ذلك لأنه كان فى بنى إسرائيل سبطان سبط نبوة وسبط مملكة فسبط النبوة
سبط لاوى بن يعقوب ومنه كان موسى وهارون عليهما السلام وسبط المملكة سبط يهوذا
ابن يعقوب ومنه كان داود وسليمان عليهما السلام ولم يكن طالوت من أحدهما وإنما كان من
سبط بنيامين بن يعقوب فلهذا السبب أنكروا كونه ملكا لهم وزعموا أنهم أحق بالملك منه ثم
أكدوا ذلك بقولهم (ولم يؤت سعة من المال) يعنى أنه فقير والملك يحتاج إلى المال (قال) يعنى
أشمويل النبى (إن الله اصطفاه عليكم) أى اختاره عليكم وخصه بالملك وفى هذه الآية دليل
على بطلان قول من زعم من الشيعة أن الإمامة موروثة وذلك لأن بنى إسرائيل أنكروا أن
يكون ملكهم من لا يكون من بيت المملكة فرد الله عليهم وأعلمهم أن هذا شرط فاسد والمستحق
للملك من خصه الله به (وزاده بسطة) أى فضيلة وسعة (فى العلم) وذلك أنه كان من أعلم بنى

والجسم) وذلك أنه كان أعلم بنى إسرائيل فى وقته وقيل إنه أتاه الوحى حين أوتى الملك وقال الكلبى وزاده بسطة فضيلة ومنعة فى العلم بالحرب وفى الجسم بالطول وقيل الجسم بالجمال وكان طالوت أجمل رجل فى بنى إسرائيل وأعلمهم (والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم) قيل الواسع ذو السعة وهو الذى يعطى عن غنى والعليم العالم وقيل العالم بما كان والعليم بما يكون فقالوا له فما آية ملكه فقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فذلك قوله تعالى (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت) وكانت قصة التابوت (٢٥٦) أن الله تعالى أنزل تابوتا على آدم فيه صور الأنبياء عليهم السلام وكان من عود الشمشاد نحوا من ثلاثة أذرع فى ذراعين فكان عند آدم إلى أن مات ثم بعد ذلك عند شيث ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم ثم كان عند إسماعيل لأنه كان أكبر ولده ثم عند يعقوب ثم كان فى بنى إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى فكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه فكان عنده إلى أن مات موسى عليه السلام ثم تداولته أنبياء بنى إسرائيل إلى وقت أشمويل وكان فيه ماذكر الله تعالى (فيه سكينة من ربكم) اختلفوا فى السكينة ماهى قال على ابن أبى طالب رضى الله عنه ريح خجوج هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان وعن مجاهد شىء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وله جناحان وقيل له عينان لهما شعاع وجناحان من زمرد وزبرجد فكانوا إذا سمعوا صوته تيقنوا بالنصرة وكانوا إذا خرجوا وضعوا التابوت قدامهم فاذا سار ساروا وإذا وقف وقفوا وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال هى طشت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء وعن وهب بن منبه قال هى روح من الله يتكلم إذا اختلفوا فى شىء يخبرهم ببيان ما يريدون ، وقال عطاء بن أبى رباح هى مايعرفون من الآيات فيسكنون إليها وقال قتادة والكلبى السكينة فعيلة من السكون أى طمأنينة من ربكم فى أى مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) يعنى موسى وهارون نفسهما كان فيه لوحان من التوراة

إسرائيل وقيل إنه أوحى إليه حين أوتى الملك وقيل هو العلم فى الحرب (والجسم) يعنى بالطول وذلك لأنه كان أطول من الناس برأسه ومنكبيه وقيل بالجمال وكان طالوت من أجمل بنى إسرائيل وقيل المراد به القوة لأن العلم بالحروب والقوة على الأعداء مما فيه حفظ المملكة (والله يؤتى ملكه من يشاء) يعنى أن الله تعالى لااعتراض عليه لأحد فى فعله فيخص بملكه من يشاء من عباده (والله واسع) يعنى أن الله تعالى واسع الفضل والرزق والرحمة وسعت رحمته كل شىء ووسع فضله ورزقه كل خلقه والمعنى أنكم طعنتم فى طالوت بكونه فقيرا والله واسع الفضل والرزق فاذا فوض إليه الملك فتح عليه أبواب الرزق والمال من فضله وسعته وقيل الواسع ذو السعة وهو الذى يعطي عن غنى (عليم) يعنى أنه تعالى مع قدرته على إغناء الفقير عالم بما يحتاج إليه فى تدبير نفسه وملكه والعليم هو العالم بما يكون وبما كان قوله عز وجل (وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت) وذلك أنهم سألوا أشمويل النبى فقالوا ما آية ملكه فقال إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت . وكانت قصة التابوت على ماذكره علماء السير والأخبار أن الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام تابوتا فيه صور الأنبياء عليهم السلام وكان التابوت من خشب الشمشاد طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين فكان عند آدم ثم صار إلى شيث ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم عليه السلام ثم كان عند إسماعيل لأنه كان أكبر أولاده ثم صار إلى يعقوب ثم كان فى بنى إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان يضع فيه التوراة ومتاعا من متاعه ثم كان عنده إلى أن مات ثم تداوله أنبياء بنى إسرائيل إلى وقت أشمويل وكان فى التابوت ماذكر الله تعالى وهو قوله (فيه سكينة من ربكم) واختلفوا فى تلك السكينة ماهى فقال على بن أبى طالب هى ريح خجوج هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان وقال مجاهد هى شىء يشبه الهرة له رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وله جناحان وقيل له عينان لهما شعاع وجناحان من زمرد وزبرجد وكانوا إذا سمعوا صوته تيقنوا النصر فكانو إذا خرجوا وضعوا التابوت قدامهم فاذا سار ساروا وإذا وقف وقفوا وقال ابن عباس هي طشت من ذهب من الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء وقال وهب هي روح من الله تعالى تتكلم إذا اختلفوا فى شىء فتخبرهم ببيان مايريدون وقال عطاء بن أبى رباح هي مايعرفون من الآيات التى يسكنون إليها وقال قتادة والكلبى هى فعيلة من السكون أى طمأنينة من ربكم فى أى مكان كان التابوت اطمأنوا وسكنوا إليه وهذا القول أولى بالصحة فعلى هذا كل شىء كانوا يسكنون إليه فهو سكينة فيحمل على جميع ماقيل فيه لأن كل شى يسكن إليه القلب فهو سكينة ولم يرد فيه نص صريح فلا يجوز تصويب قول وتضعيف آخر . وقوله تعالى (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) يعنى موسى

ورضاض الألواح التى تكسرت وكان فيه عصا موسى ونعلاه وعمامة هارون وعصاه وقفيز من المن الذى كان ينزل على بنى إسرائيل فكان التابوت عند بنى إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا فى شىء تكلم وحكم بينهم وإذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم فيستفتحون به على عدوهم فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت . وكان السبب فى ذلك أنه كان لعيلى العالم الذى ربى أشمويل عليه السلام ابنان شابان وكان عيلى حبرهم وصاحب قربانهم فأحدث ابناه فى القربان شيئا لم يكن فيه وذلك أنه كان لعيلى منوط القربان الذى كانوا ينوطونه به كلا بين فما أخرجا **(٢٥٧)** كان للكاهن الذى ينوطه فجعل ابناه كلاليب وكان النساء يصلين فى بيت المقدس فيتشبثان بهن فأوحى الله تعالى إلى أشمويل عليه السلام انطلق إلى عيلى فقل له منعك حب الولد من أن تزجر ابنيك عن أن يحدثا فى قربانى وقدسى شيئا وأن يعصيانى فلأنزعن الكهانة منك ومن ولدك ولأهلكنك وإياهم فأخبر أشمويل عيلى بذلك ففزع فزعا شديدا فصار إليهم عدو ممن حولهم فأمر ابنيه أن يخرجا بالناس فيقاتلا ذلك العدو فخرجا وأخرجا معهما التابوت فلما تهيئوا للقتال جعل عيلى يتوقع الخبر ماذا صنعوا فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيه فقال إن الناس قد انهزموا وإن ابنيك قد قتلا قال فما فعل التابوت قال ذهب به العدو فشهق ووقع على قفاه من كرسيه ومات فخرج أمر بنى إسرائيل وتفرقوا إلى أن بعث الله طالوت ملكا فسألوه البينة فقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت. وكانت قصة التابوت أن الذين سبوا التابوت أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها أزدود وجعلوه فى بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم فأصبحوا من الغد والصنم تحته فأخذوه ووضعوه فوقه وسمروا قدمى الصنم على التابوت فأصبحوا وقد قطعت يد الصنم ورجلاه وأصبح ملقى تحت التابوت وأصبحت أصنامهم منكسة فأخرجوه من بيت الصنم ووضعوه فى ناحية من مدينتهم فأخذ أهل تلك الناحية وجع فى أعناقهم حتى هلك

وهارون أنفسهما بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لأبى موسى الأشعرى «لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود» فالمراد به داود نفسه . واختلفوا فى تلك البقية التى ترك آل موسى وآل هارون فقيل رضاض من الألواح وعصا موسى قاله ابن عباس وقيل عصا موسى وعصا هارون وشىء من ألواح التوراة وقيل كانت العلم والتوراة وقيل كان فيه عصا موسى ونعلاه وعصا هارون وعمامته وقفيز من المن الذى كان ينزل على بنى إسرائيل فكان التابوت عند بنى إسرائيل يتوارثونه قرنا بعد قرن وكانوا إذا اختلفوا فى شىء تحاكموا إليه فيتكلم ويحكم بينهم وكانوا إذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم فينصرون فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عز وجل عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وأخذوه منهم وكان السبب فى ذلك أنه كان لعيلى وهو الذى ربى أشويل ابنان شابان وكان عيلى حبر بنى إسرائيل وصاحب قربانهم فى زمنه فأحدث ابناه فى القربان شيئا لم يكن فيه وذلك أنه كان منوط القربان الذى ينوطونه كلابين فما أخرجا كانا للكاهن الذى كانا ينوطه فجعل ابناه كلاليب وكان النساء يصلين فى بيت المقدس فيتشبثان بهن فأوحى إلى أشمويل أن انطلق إلى عيلى وقل له منعك حب الولد من أن تزجر ابنيك عن أن يحدثا فى قربانى وقدسى شيئا وأن يعصيانى فلأنزعن الكهانة منك ومن ولدك ولأهلكنك وإياهما فأخبره أشمويل بذلك ففزع وسار إليهم عدوهم من حولهم فأمر عيلى ابنيه أن يخرجا بالناس فيقاتلا ذلك العدو فخرجا وأخرجا معهما التابوت فلما تهيئوا القتال جعل عيلى يتوقع الخبر فجاءه رجل فأخبره أن الناس قد انهزموا وقد قتل ابناه قال فما فعل فى التابوب قال أخذه العدو وكان عيلى قاعدا على كرسيه فشهق ووقع على قفاه فمات فخرج أمر بنى إسرائيل وتفرقوا إلى أن بعث الله طالوت ملكا فسألوا أشمويل البينة على صحة ملك طالوت فقال لهم نبيهم يعنى أشمويل إن آية ملكه يعنى علامة ملكه التى تدل على صحته أن يأتيكم التابوت وكانت قصة رجوع التابوت على ما ذكره أصحاب الأخبار أن الذين أخذوا التابوت من بنى إسرائيل أتوا به قرية من قرى فلسطين يقال لها أزدود فجعلوه فى بيت أصنام لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم فأصبحوا من الغد والصنم تحته فأخذوه ووضعوه فوقه وسمروا قدمى الصنم على التابوت فأصبحوا وقد قطعت يد الصنم ورجلاه وأصبح الصنم ملقى تحت التابوت وأصبحت أصنامهم منكسة فأخرجوا التابوت من بيت الأصنام ووضعوه فى ناحية من مدينتهم فأخذ أهل تلك الناحية وجع فى أعناقهم حتى هلك أكثرهم فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم أن إله بنى إسرائيل لا يقوم له شىء فأخرجوه إلى قرية أخرى فبعث الله على أهل تلك الناحية فأرة فكانت الفأرة

أكثرهم فقال بعضهم لبعض أليس قد علمتم أن إله بنى إسرائيل لا يقوم له شىء فأخرجوه إلى قرية كذا فبعث الله على أهل تلك القرية فأرا فكانت الفأرة تبيت مع الرجل فيصبح ميتا قد أكلت مافى جوفه فأخرجوه إلى الصحراء فدفنوه فى مخرأة لهم فكان كل من تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج فتحيروا فقالت لهم امرأة كانت عندهم من سبى بنى إسرائيل من أولاد الأنبياء لاتزالون ترون ماتكرهون مادام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم فأتوا بعجلة باشارة تلك المرأة وحملوا عليها التابوت ، ثم علقوها على ثورين وضربوا جنوبهما فأقبل الثوران يسيران ووكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما فأقبلا حتى وقفا على أرض بنى إسرائيل فكسرا نيريهما وقطعا حبالهما ووضعا التابوت فى أرض فيها حصاد بنى إسرائيل ورجعا إلى أرضهما فلم يرع بنى إسرائيل

إلا بالتابوت فكبروا وحمدوا الله فذلك قوله تعالى (تحمله الملائكة) أى تسوقه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت ، وقال الحسن كان التابوت مع الملائكة فى السماء فلما ولى طالوت الملك حملته الملائكة ووضعته بينهم وقال قتادة بل كان التابوت فى التيه خلفه موسى عند يوشع ابن نون فبقى هناك فحملته الملائكة حتى وضعته فى دار طالوت فأقروا بملكه (إن فى ذلك لآية) لعبرة (لكم إن كنتم مؤمنين) قال ابن عباس رضى الله عنهما إن التابوت وعصى موسى فى بحيرة طبرية وإنهما يخرجان قبل يوم القيامة . قوله تعالى (فلما فصل طالوت بالجنود) أى خرج بهم وأصل الفصل القطع يعنى قطع مستقره شاخصا إلى غيره فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم يومئذ سبعون ألف مقاتل وقيل ثمانون ألفا لم يتخلف عنه إلا كبير لهرمه أو مريض لمرضه أو معذور لعذره وذلك أنهم لما رأوا التابوت لم يشكوا فى النصر فتسارعوا إلى الجهاد فقال طالوت لاحاجة لى فى كل ما أرى لا يخرج معى رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا صاحب تجارة يشتغل بها ولا رجل عليه دين ولا رجل تزوج امرأة ولم يبن بها ولا يتبعنى إلا الشاب النشيط الفارغ فاجتمع له ثمانون ألفا ممن شرطه ، وكان فى حر شديد فشكوا قلة الماء بينهم وبين عدوهم فقالوا إن المياه قليلة لا تحملنا فادع الله أن يجرى لنا نهرا (قال) طالوت (إن الله مبتليكم بنهر) مختبركم ليرى طاعتكم وهو أعلم بنهر قال ابن عباس والسدى هو نهر فلسطين وقال قتادة نهر بين أردن وفلسطين عذب (فمن شرب منه فليس منى) أى من أهل دينى وطاعتى (ومن لم يطعمه) لم يشرب به (فانه منى

يعنى

تبيت مع الرجل فيصبح ميتا قد أكلت مافى جوفه فأخرجوه إلى الصحراء ودفنوه فى مخرأة لهم فكان كل من تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج فتحيروا فيه فقالت لهم امرأة من بنى إسرائيل كانت عندهم وهى من بنات الأنبياء لا تزالون ترون ما تكرهون مادام هذا التابوت فيكم فأخرجوه عنكم فأتوا بعجلة باشارة تلك المرأة وحملوا عليها التابوت ثم علقوها فى ثورين وضربوا جنوبهما فأقبل الثوران يسيران ووكل الله بالثورين أربعة أملاك يسوقونهما فأقبلا حتى وقفا على أرض بنى إسرائيل فكسرا نيريهما وقطعا حبالهما ووضعا التابوت فى أرض فيها حصاد لبنى إسرائيل ورجعا إلى أرضهما فلم يرع بنى إسرائيل إلا والتابوت عندهم فكبروا وحمدوا الله تعالى (تحمله الملائكة) أى تسوقه . وقال ابن عباس جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت . وقال الحسن كان التابوت مع الملائكة فى السماء فلما ولى طالوت الملك حملته الملائكة ووضعته بينهم . وقال قتادة بل كان التابوت فى التيه خلفه موسى عند يوشع بن نون فبقى هناك فأقبلت الملائكة تحمله حتى وضعته فى دار طالوت فأصبح فى داره فأقروا بملكه (إن فى ذلك لآية لكم) يعنى قال لهم نبيهم أشمويل إن فى مجيء التابوت تحمله الملائكة لآية لكم يعنى علامة ودلالة على صدقى فيما أخبرتكم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا (إن كنتم مؤمنين) يعنى مصدقين بذلك قال المفسرون فلما جاءهم التابوت وأقروا بالملك لطالوت تأهب للخروج إلى الجهاد فأسرعوا لطاعته وخرجوا معه وذلك قوله تعالى (فلما فصل طالوت بالجنود) أى خرج وأصل الفصل القطع يعنى قطع مستقره شاخصا إلى غيره فخرج طالوت من بيت المقدس بالجنود وهم سبعون ألف مقاتل وقيل ثمانون ألفا وقيل مائة وعشرون ألفا ولم يتخلف عنه إلا كبير لكبره أو مريض لمرضه أو معذور لعذره وذلك أنهم لما رأوا التابوت لم يشكوا فى النصر فسارعوا إلى الخروج فى الجهاد وكان مسيرهم فى حر شديد فشكوا إلى طالوت قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا إن المياه لا تحملنا فادع الله أن يجري لنا نهرا (فقال) طالوت (إن الله مبتليكم بنهر) أى مختبركم به لتبين طاعتكم وهو أعلم بذلك قال ابن عباس هو نهر فلسطين وقيل هو نهر عذب بين الأردن وفلسطين (فمن شرب منه فليس منى) أى فليس من أهل دينى وطاعتى (ومن لم يطعمه) أى لم يذقه يعنى الماء (فانه منى)

إلا من اغترف غرفة بيده) قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو غرفة بفتح الغين وقرأ الآخرون بضم الغين وهما لغتان قال الكسائى الغرفة بالضم الذى يحصل فى الكف من الماء إذا غرف والغرفة بالفتح الاغتراف فالضم اسم والفتح مصدر (فشربوا منه إلا قليلا منهم) نصب على الاستثناء. واختلفوا فى القليل الذين لم يشربوا فقال السدى كانوا أربعة آلاف وقال غيره ثلثمائة وبضعة عشر وهو الصحيح لما أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالله بن رجاء أنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن البراء قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا مؤمن وهم بضعة عشر وثلثمائة وروى ثلثمائة وثلاثة عشر فلما وصلوا إلى النهر وقد ألقى الله عليهم العطش فشرب منه الكل إلا هذا العدد القليل فمن اغترف غرفة كما أمر الله قوى قلبه وصح إيمانه وعبر النهر سالما وكفته تلك الغرفة الواحدة لشربه وحمله ودوابه والذين شربوا وخالفوا أمر الله اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على شط النهر وجبنوا عن لقاء العدو فلم يجاوزوا ولم يشهدوا الفتح وقيل كلهم جاوزوا ولكن لم يحضر القتال إلا الذين لم يشربوا (فلما جاوزه) يعنى النهر (هو) يعنى طالوت (والذين آمنوا معه) يعنى القليل (قالوا) يعنى الذين شربوا وخالفوا أمر الله وكانوا أهل شك ونفاق (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) قال ابن عباس رضى الله عنهما والسدى فانحرفوا ولم يجاوزوا (قال الذين يظنون) يستيقنون (أنهم ملاقو الله) وهم الذين ثبتوا مع طالوت (كم من فئة) جماعة وهى جمع لا واحد له من لفظه وجمعها فئات وفئون فى الرفع وفئين فى الخفض والنصب (قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) بقضائه وقدره وإرادته (والله مع الصابرين) بالنصر والمعونة (ولما برزوا) يعنى طالوت وجنوده يعنى المؤمنين (لجالوت وجنوده) المشركين ومعنى برزوا صاروا بالبراز من الأرض وهو ما ظهر واستوى منها (قالوا ربنا أفرغ علينا) أنزل واصبب (صبرا وثبت أقدامنا) قو قلوبنا

يعنى من أهل طاعتى (إلا من اغترف غرفة بيده) قرئ بفتح الغين وضمها لغتان. وقيل الغرفة بالضم التى تحصل فى الكف من الماء والغرفة بالفتح الاغتراف فالضم اسم والفتح مصدر (فشربوا منه) يعنى من النهر (إلا قليلا منهم) قيل هم أربعة آلاف لم يشربوا منه وقيل ثلثمائة وبضعة عشر رجلا وهو الصحيح ويدل على ذلك ما روى عن البراء بن عازب قال «كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يتحدثون أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوزه معه إلا مؤمن بضعة عشر وثلثمائة» أخرجه البخارى قيل البضع هنا ثلاثة عشر، فلما وصلوا إلى النهر ألقى عليهم العطش فشرب منه الكل إلا هذا العدد القليل، وكان من اغترف منه غرفة كما أمره الله تعالى كفته لشربه وشرب دوابه وقوى قلبه وصح إيمانه وعبر النهر سالما والذين شربوا منه وخالفوا أمر الله تعالى اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وجبنوا وبقوا على شط النهر ولم يجاوزوه، وقيل جاوزوه كلهم ولكن الذين شربوا لم يحضروا القتال وإنما قاتل أولئك القليل الذين لم يشربوا وهو قوله تعالى (فلما جاوزه هو) يعنى جاوز النهر طالوت (والذين آمنوا معه) يعنى أولئك القليل (قالوا) يعنى الذين شربوا من النهر وخالفوا أمر الله تعالى وكانوا أهل شك ونفاق فعلى هذا يكون قد جاوز النهر مع طالوت المؤمن والمنافق والطائع والعاصى فلما رأوا العدو قال المنافقون (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) فأجابهم المؤمنون بقولهم «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة» وقيل لم يجاوز النهر مع طالوت إلا المؤمنون خاصة لقوله تعالى «فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه». فان قلت فعلى هذا القول من القائل «لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده». قلت يحتمل أن يكون أهل الإيمان وهم الثلثمائة وبضعة عشر انقسموا إلى قسمين قسم حين رأوا العدو وكثرته وقلة المؤمنين قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده فأجابهم القسم الآخر بقولهم «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين» ومعنى لا طاقة لنا لا قوة لنا اليوم بجالوت وجنوده (قال الذين يظنون) أى يستيقنون ويعلمون (أنهم ملاقو الله) أى ملاقو ثواب الله ورضوانه فى الدار الآخرة (كم من فئة قليلة) الفئة الجماعة لا واحد له من لفظه كالرهط (غلبت فئة كثيرة باذن الله) أى بقضاء الله وإرادته (والله مع الصابرين) يعنى بالنصر والمعونة. قوله عز وجل (ولما برزوا) يعنى طالوت وجنوده المؤمنين (لجالوت وجنوده) يعنى الكافرين ومعنى برزوا صاروا بالبراز من الأرض وهو ما ظهر واستوى منها (قالوا) يعنى المؤمنين أصحاب طالوت (ربنا أفرغ) أى اصبب (علينا صبرا وثبت أقدامنا) أى قو قلوبنا لتثبت

(وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم باذن الله) أى بعلم الله تعالى (وقتل داود جالوت) وصفة قتله قال أهل التفسير عبر النهر مع طالوت فيمن عبر إيشا أبو داود فى ثلاثة عشر ابنا له وكان داود أصغرهم وكان يرمى بالقذافة فقال لأبيه يوما يا أبتاه ما أرمى بقذافتى شيئا إلا صرعته فقال له أبشر يابنى فان الله جعل رزقك فى قذافتك ثم أتاه مرة أخرى فقال يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسدا رابضا فركبته فأخذت بأذنيه فلم يهجنى فقال أبشر يابنى فان هذا خير يريده الله بك ثم أتاه يوما آخر فقال يا أبتاه إنى لأمشى بين الجبال فأسبح فما يبقى جبل إلا سبح معى فقال أبشر يابنى فان هذا خير أعطاكه الله تعالى فأرسل جالوت إلى طالوت أن ابرز إلى أو أبرز إلى من يقاتلنى فان قتلنى فلكم ملكى وإن قتلته فلى ملككم فشق ذلك على طالوت فنادى فى عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتى وناصفته ملكى فهاب الناس جالوت فلم يجبه أحد ، فسأل طالوت نبيهم أن يدعو الله تعالى فدعا الله فى ذلك فأتى بقرن فيه دهن القدس وتنور من حديد فقيل إن صاحبكم الذى يقتل جالوت هو الذى يوضع هذا القرن على رأسه فيغلى الدهن حتى يدهن منه رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل ويدخل فى هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه فدعا طالوت بنى إسرائيل فجربهم فلم يوافقه منهم أحد فأوحى الله إلى نبيهم إن فى ولد إيشا من يقتل الله به جالوت فدعا طالوت إيشا فقال اعرض على بنيك فأخرج له اثنى عشر رجلا أمثال السوارى فجعل يعرضهم على القرن فلا يرى شيئا فقال لإيشا هل بقى لك ولد غيرهم فقال لا فقال النبى ﷺ يارب إنه زعم أن لاولد له غيرهم فقال كذب فقال النبى صلى الله عليه وسلم إن ربى كذبك فقال صدق الله يانبى الله إن لى ابنا صغيرا يقال له داود استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته فخلفته فى الغنم يرعاها وهو فى شعب كذا وكذا وكان داود رجلا قصيرا مسقاما مصفارا أزرق أمعر فدعاه طالوت ويقال بل خرج طالوت إليه فوجد الوادى قد سال بينه وبين الزريبة التى كان يريح إليها فوجده يحمل

أقدامنا (وانصرنا على القوم الكافرين) وذلك أن جالوت وقومه كانوا يعبدون الأصنام فسأل المؤمنون الله أن ينصرهم على القوم الكافرين (فهزموهم باذن الله) يعنى أن الله تعالى استجاب دعاء المؤمنين فأفرغ عليهم الصبر وثبت أقدامهم ونصرهم على القوم الكافرين حين التقوا فهزموهم باذن الله يعنى بقضائه وإرادته وأصل الهزم فى اللغة الكسر أى كسروهم وردوهم (وقتل داود جالوت) وكانت قصة قتله ماذكره أهل التفسير وأصحاب الأخبار أنه عبر النهر فيمن عبر مع طالوت أيشا أبو داود فى ثلاثة عشر ابنا له وكان داود أصغرهم وكان يرمى بالقذافة فقال داود لأبيه يوما يا أبتاه ماأرمى بقذافتى شيئا إلا صرعته ، فقال له أبوه أبشر يابنى فان الله قد جعل رزقك فى قذافتك ثم أتاه مرة أخرى فقال ياأبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسداً رابضا فركبته وأخذت بأذنه فلم يهجنى فقال له أبوه أبشر يابنى فان هذا خير يريده الله بك ، ثم أتاه يوما آخر فقال له ياأبتاه إنى لأمشى بين الجبال فأسبح فلا يبقى جبل إلا سبح معى فقال يابنى أبشر فان هذا خير أعطاكه الله تعالى قالوا فأرسل جالوت الجبار إلى طالوت ملك بنى إسرائيل أن ابرز إلي وأبرز إليك أو أبرز إلى من يقاتلنى ، فان قتلنى فلكم ملكى وإن قتلته فلى ملككم فشق ذلك على طالوت ونادى فى عسكره من قتل جالوت زوجته ابنتى وناصفته ملكى فهاب الناس جالوت فلم يجبه أحد فسأل طالوت نبيهم أن يدعو الله فى ذلك فدعا الله فأتى بقرن فيه دهن القدس وتنور حديد وقيل له إن صاحبكم الذى يقتل جالوت هو الذى إذا وضع هذا القرن على رأسه سال على رأسه حتى يدهن من رأسه ولا يسيل على وجهه بل يكون على رأسه كهيئة الإكليل ويدخل فى هذا التنور فيملؤه ولا يتقلقل فيه فدعا طالوت بنى إسرائيل وجربهم فلم يوافقه أحد منهم فأوحى الله إلى نبيهم إن فى ولد إيشا من يقتل جالوت فدعا طالوت إيشا وقال له اعرض على بنيك فأخرج له اثنى عشر رجلا أمثال السوارى فجعل يعرض واحدا واحدا على القرن فلا يرى شيئا فقال لإيشا هل بقى لك ولد غير هؤلاء فقال لا ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم يارب إنه قد زعم أنه لاولد له غيرهم فقال له كذب فقال له النبى إن ربى قد كذبك فقال إيشا صدق ربى يانبى الله إن لى ولدا صغيرا مسقاما اسمه داود استحييت أن يراه الناس لقصر قامته وحقارته فجعلته فى الغنم يرعاها وهو فى شعب كذا وكان داود عليه السلام رجلا قصيرا مسقاما أزرق أمعر مصفرا فدعا به طالوت ويقال إنه خرج إليه فوجده فى الوادى وقد سال الوادي ماء وهو يحمل شاتين شاتين يعبر بهما السيل إلى الزريبة التى يريح فيها غنمه ، فلما رآه

رآه طالوت قال هذا هو الرجل المطلوب لاشك فيه فهذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم فدعاه
طالوت ووضع القرن على رأسه فنش وفاض فقال له طالوت هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك
ابنتى وأجرى خاتمك فى ملكى قال نعم فقال له هل أنست من نفسك شيئا تتقوى به على قتله قال
نعم أنا أرعى الغنم فيجىء الأسد أو النمر أو الذئب فيأخذ شاة من الغنم فأقوم فأفتح لحييه عنها
وأخرجها من قفاه فأخذ طالوت داود ورده إلى العسكر فمر داود عليه السلام فى طريقه بحجر
فناداه ياداود احملنى فانى حجر هارون فحمله ثم مر بحجر آخر فقال ياداود احملنى فانى حجر
موسى فحمله ثم مر بحجر آخر فقال له ياداود احملنى فانى حجرك الذى تقتل به جالوت فحمله
فوضع الثلاثة فى مخلاته فلما رجع طالوت إلى العسكر ومعه داود وتصافوا للقتال برز جالوت
يطلب المبارزة فانتدب له داود عليه السلام فأعطى طالوت داود فرسا وسلاحا فلبس السلاح
وركب الفرس وسار قريبا ثم رجع إلى طالوت فقال من حوله جبن الغلام فجاء فوقف على
طالوت فقال له ماشأنك فقال له داود عليه السلام إن لم ينصرنى ربى لم يغن هذا السلاح عنى شيئا
وإن نصرنى فلا حاجة لى به فدعنى أقاتل كما أريد قال نعم فأخذ داود مخلاته وتقلدها وأخذ
المقلاع بيده ومضى نحو جالوت وكان جالوت من أشد الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش
وحده وكان له بيضة حديد وزنها ثلثمائة رطل فلما نظر إلى داود وهو يريده وقع الرعب
فى قلبه فقال له جالوت وأنت تبرز لى قال نعم وكان جالوت على فرس أبلق عليه السلاح التام
فقال أتيتنى بالمقلاع والحجر كما يؤتى الكلب فقال نعم وأنت شر من الكلب قال جالوت
لا جرم لأقسمن لحمك بين سباع الأرض وطير السماء فقال داود عليه السلام أو يقسم الله
لحمك ثم قال داود : باسم إله إبراهيم وأخرج حجرا ثم قال باسم إله إسحاق وأخرج حجرا
ثم قال باسم إله يعقوب وأخرج حجرا ووضعها فى مقلاعه فصارت الثلاثة حجرا واحدا
وأدار داود المقلاع ورمى به جالوت فسخر الله له الريح فحملت الحجر حتى أصاب أنف
البيضة فخلط دماغ جالوت وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا وخر جالوت صريعا
قتيلا فأخذ داود يجره حتى ألقاه بين يدى طالوت ففرح بنو إسرائيل بذلك فرحا شديدا وهزم
الله الجيش فرجع طالوت بالناس إلى المدينة سالمين غانمين وجعل الناس يذكرون داود فجاء
داود إلى طالوت وقال له أنجز لى ما وعدتنى به فقال له أتريد ابنة الملك بغير صداق فقال له
داود ماشرطت على صداقا وليس لى شىء فقال لا أكلفك إلا ما تطيق أنت رجل جرىء

شاتين يجيز بهما السيل ولا يخوض بهما الماء فلما رآه قال هذا هو لا شك فيه هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم فدعاه ووضع
القرن على رأسه ففاض فقال طالوت هل لك أن تقتل جالوت ، وأزوجك ابنتى وأجرى خاتمك فى ملكى قال نعم قال وهل
أنست من نفسك شيئا تتقوى به على قتله قال نعم أنا أرعى الغنم فيجىء الأسد أو النمر أو الذئب فيأخذ شاة فأقوم إليه فأفتح
لحييه عنها وأخرجها من قفاه فأخذ طالوت داود ورده إلى عسكره فمر داود عليه السلام فى طريقه بحجر فناداه الحجر ياداود
احملنى فانى حجر هارون الذى قتل بى ملك كذا وكذا فحمله فى مخلاته ثم مر بحجر آخر فقال احملنى فانى حجر
موسى الذى قتل بى ملك كذا وكذا فحمله فى مخلاته ثم مر بحجر آخر فقال احملنى فانى حجرك الذى تقتل بى جالوت فوضعها فى مخلاته فلما تصافوا للقتال وبرز جالوت وسأل المبارزة انتدب له داود فأعطاه طالوت فرسا ودرعا وسلاحا فلبس السلاح وركب الفرس وسار قريبا ثم انصرف إلى الملك فقال من حوله جبن الغلام فجاء فوقف على الملك فقال ماشأنك فقال إن الله إن لم ينصرنى لم يغن عنى هذا السلاح شيئا فدعنى أقاتل جالوت كما أريد ، قال فافعل ماشئت قال نعم فأخذ داود مخلاته فتقلدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت وكان جالوت من أشد الرجال وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة فيها ثلثمائة
رطل حديد فلما نظر إلى داود ألقى الله فى قلبه الرعب فقال له أنت تبرز إلى قال نعم وكان جالوت على فرس أبلق وعليه السلاح
التام قال فأتينى بالمقلاع والحجر كما يؤتى الكلب قال داود عليه السلام نعم أنت شر من الكلب قال جالوت لا جرم لأقسمن
لحمك بين سباع الأرض وطير السماء فقال داود أو يقسم الله لحمك فقال داود باسم إله إبراهيم وأخرج حجرا ثم أخرج الآخر
وقال باسم إله إسحق ووضعه فى مقلاعه ثم أخرج الثالث وقال باسم إله يعقوب ووضعه فى مقلاعه فصارت كلها حجرا واحدا
ودور داود عليه السلام المقلاع ورمى به فسخر الله له الريح حتى أصاب الحجر أنف البيضة فخلط دماغه وخرج من قفاه وقتل
من ورائه ثلاثين رجلا وهزم الله تعالى الجيش وخر جالوت قتيلا فأخذ يجره حتى ألقاه بين يدى طالوت . ففرح المسلمون

فرحا شديدا وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين والناس يذكرون داود فجاء داود طالوت وقال أنجز لى ماوعدتنى فقال تريد ابنة الملك بغير صداق فقال داود ما شرطت على صداقا وليس لى شئ فقال لا أكلفك إلا ماتطيق أنت رجل جرىء ، وفى حيالنا أعداء لنا غلف فاذا قتلت منهم مائتى رجل وجئتنى بغلفهم زوجتك ابنتى فأتاهم فجعل كلما قتل واحدا منهم نظم غلفته فى خيط حتى نظم مائتى غلفة فجاء بها إلى طالوت وألقاها إليه وقال ادفع إلى امرأتى فزوجه ابنته وأجرى خاتمه فى ملكه فمال الناس إلى داود وأحبوه وأكثروا ذكره فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر بذلك ابنة طالوت رجل يقال له ذو العينين فقالت ابنة طالوت لداود إنك مقتول فى هذه الليلة قال ومن يقتلنى قالت أبى قال فهل أجرمت جرما فقالت حدثنى من لا يكذب ولا عليك أن تغيب هذه الليلة حتى تنظر مصداق ذلك قال لئن كان أراد ذلك ما أستطيع خروجا ولكن ائتينى بزق خمر فأتت به فوضعه فى مضجعه على السرير وسجاه ودخل تحت السرير فدخل طالوت نصف الليل فقال لها أين بعلك قالت هو نائم على السرير فضربه بالسيف ضربة فسال الخمر فلما وجد ريح الخمر . قال يرحم الله داود ما كان أكثر شربه الخمر وخرج فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئا فقال إن رجلا طلبت منه ماطلبت لخليق أن لايدعنى حتى يدرك منى ثأره فاشتد حجابه وحراسه وأغلق دونه أبوابه ثم إن داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون فأعمى الله سبحانه الحجبة وفتح له الأبواب فدخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سهما عند رأسه وسهما عند رجليه وسهما عن يمينه وسهما عن شماله ثم خرج فلما استيقظ طالوت بصر بالسهام فعرفها فقال يرحم الله تعالى داود هو خير منى ظفرت به فقصدت قتله وظفر بى فكف عنى ولو شاء لوضع هذا السهم فى حلقى وما أنا بالذى آمنه . فلما كانت القابلة أتاه ثانيا وأعمى الله الحجاب فدخل عليه وهو نائم ، فأخذ إبريق طالوت الذى كان يتوضأ منه وكوزه الذى كان يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشيئا من هدب ثيابه ثم خرج وهرب وتوارى ، فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وطلبه أشد الطلب فلم يقدر عليه ثم إن طالوت ركب يوما فوجد داود يمشى فى البرية فقال

وفى حيالنا أعداء لنا غلف فان قتلت مائتى رجل وجئتنى بغلفهم زوجتك ابنتى فأتاهم فجعل كلما قتل واحدا منهم نظم غلفته فى خيط حتى نظم مائتى غلفة فجاء بها إلى طالوت وألقاها بين يديه وقال ادفع إلى امرأتى فزوجه ابنته وأجرى خاتمه فى ملكه فمال الناس إلى داود عليه السلام وأحبوه وأكثروا ذكره فحسده طالوت وأراد قتله فأخبر بذلك ابنة طالوت رجل يقال له ذو العينين فأخبرت بذلك داود وقالت له إنك مقتول الليلة قال ومن يقتلنى قالت أبى قال وهل أجرمت جرما يوجب القتل قالت حدثنى بذلك من لا يكذب ولا عليك أن تغيب الليلة حتى تنظر مصداق ذلك فقال إن كان يريد ذلك فلا أستطيع خروجا ولكن ائتينى بزق خمر فأتته به فوضعه فى مضجعه على سريره وسجاه ودخل داود تحت السرير فدخل طالوت نصف الليل فقال لابنته أين بعلك قالت هو نائم على سريره فضربه بالسيف فسال الخمر فلما وجد ريح الخمر قال يرحم الله داود ماكان أكثر شربه للخمر وخرج فلما أصبح علم أنه لم يفعل شيئاً فقال إن رجلا طلبت منه ما طلبت لحقيق أن لايدعنى حتى يدرك ثأره منى فاشتد حجابه وحراسه وأغلق دونه أبوابه ثم إن داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون وأعمى الله عنه الحجاب ففتح الأبواب ودخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سهما عند رأسه وسهما عند رجليه وسهما عن يمينه وسهما عن شماله وخرج فاستيقظ طالوت فبصر بالسهام فعرفها فقال يرحم الله داود هو خير منى ظفرت به فقصدت قتله وظفر بى فكف عنى ولو شاء لوضع هذا السهم فى حلقى وما أنا بالذى آمنه فلما كان من الليلة القابلة أتاه ثانيا فأعمى الله عنه الحجاب فدخل عليه وهو نائم فأخذ إبريق وضوئه وكوزه الذى يشرب منه وقطع شعرات من لحيته وشيئا من طرف ثوبه ثم خرج وتوارى فلما أصبح طالوت ورأى ذلك سلط على داود العيون وطلبه أشد الطلب فلم يقدر عليه ثم إن طالوت ركب يوما فوجد داود يمشى فى البرية فقال اليوم أقتله وركض فى أثره فاشتد داود فى عدوه وكان إذا فزع لم يدرك فدخل غارا فأوحى الله تعالى إلى العنكبوت فنسجت عليه فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت قال لو كان دخل هنا لتخرق هذا النسج وانطلق طالوت وتركه فخرج داود حتى أتى جبل المتعبدين فتعبد معهم وطعن العلماء والعباد على طالوت فى شأن داود فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلا قتله فقتل خلقا كثيرا من العباد والعلماء حتى أتى بامرأة تعلم الاسم الأعظم فأمر خبازه بقتلها

فرحمها

اليوم أقتله فركض على أثره واشتد داود وكان إذا فزع لم يدرك فدخل غارا فأوحى الله تعالى إلى العنكبوت فنسج عليه بيتا فلما انتهى طالوت إلى الغار ونظر إلى بناء العنكبوت فقال لو كان دخل هاهنا لخرق بناء العنكبوت فتركه ومضى وانطلق داود وأتى الجبل مع المتعبدين فتعبد فيه فطعن العلماء والعباد على طالوت فى شأن داود فجعل طالوت لاينهاه أحد عن قتل داود إلا قتله وأغرى على قتل العلماء فلم يكن يقدر على عالم فى بنى إسرائيل يطيق قتله إلا قتله حتى أتى بامرأة تعلم اسم الله الأعظم فأمر خبازه بقتلها فرحمها الخباز وقال لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها فوقع فى قلب طالوت التوبة وندم على مافعل وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس وكان كل ليلة يخرج إلى القبور فيبكى وينادى أنشد الله عبدا يعلم أن لى توبة إلا أخبرنى بها فلما أكثر عليهم ناداه مناد من القبور ياطالوت أما ترضى أن قتلتنا حتى تؤذينا أمواتا فازداد بكاء وحزنا فرحمه الخباز فقال ما لك أيها الملك ؟ قال هل تعلم لى فى الأرض عالما أسأله هل لى من توبة ؟ فقال الخباز إنما مثلك مثل ملك نزل قرية عشاء فصاح الديك فتطير منه فقال لاتتركوا فى القرية ديكا إلا ذبحتموه فلما أراد أن ينام قال لأصحابه إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج فقالوا له وهل تركت ديكا نسمع صوته ولكن هل تركت عالما فى الأرض فازداد حزنا وبكاء فلما رأى الخباز ذلك قال له أرأيتك إن دللتك على عالم لعلك أن تقتله قال لافتوثق عليه الخباز فأخبره أن المرأة العالمة عنده قال انطلق بى إليها أسألها هل لى من توبة وكانت من أهل بيت يعلم الاسم الأعظم فاذا فنيت رجالهم علمت نساؤهم فلما بلغ طالوت الباب قال الخباز إنها إذا رأتك فزعت ولكن ائت خلفى ثم دخلا عليها فقال لها ألست أعظم الناس منة عليك أنجيتك من القتل وآويتك قالت بلى قال فان لى إليك حاجة هذا طالوت يسأل هل لى من توبة فغشى عليها من الفرق فقال لها إنه لايريد قتلك ولكن يسألك هل له من توبة قالت لا والله لاأعلم لطالوت توبة ولكن أعلم مكان قبر نبى فانطلقت بهما إلى قبر أشمويل فصلت ودعت ثم نادت ياصاحب القبر فخرج أشمويل من القبر ينفض رأسه من التراب فلما نظر إليهم ثلاثتهم قال مالكم أقامت القيامة قالت لاولكن طالوت يسألك هل له من توبة قال أشمويل ياطالوت مافعلت بعدى قال لم أدع من الشر شيئا إلا أتيته وجئت لطلب التوبة

فرحمها الخباز فلم يقتلها وقال لعلنا نحتاج إلى عالم فتركها ثم وقع فى قلب طالوت التوبة والندم على ما فعل وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس وكان كل ليلة يخرج إلى القبور ويبكى وينادى أنشد الله عبدا يعلم لى توبة إلا أخبرنى بها فلما كثر ذلك منه ناداه مناد من القبور ياطالوت أما ترضى أن قتلتنا حتى تؤذينا أمواتا فازداد حزنا وبكاء فتوجه الخباز إلى طالوت لما رأى من حاله وقال مالك أيها الملك فأخبره وقال هل تعلم لى توبة أو تعلم فى الأرض عالما أسأله عن توبتى فقال له الخباز أيها الملك إن دللتك على عالم يوشك أن تقتله فقال لا فتوثق منه باليمين فأخبره أن تلك المرأة العالمة عنده فقال انطلق بى إليها لأسألها عن توبتى قال نعم فانطلق به فلما قربا من الباب قال له الخباز أيها الملك إنها إذا رأتك فزعت ولكن ائت خلفى فلما دخلا عليها قال لها الخباز ياهذه ألست تعلمين حقى عليك قالت بلى قال فان لى إليك حاجة فتقضيها قالت نعم قال هذا طالوت قد جاءك يسأل هل له من توبة فلما سمعت بذكر طالوت غشى عليها فلما أفاقت قالت والله ما أعلم له توبة ولكن دلونى على قبر نبى فانطلقوا بها إلى قبر أشمويل فوقفت عليه ودعت وكانت تعلم الاسم الأعظم ثم قالت ياصاحب القبر فخرج ينفض التراب عن رأسه فلما نظر إلى ثلاثتهم قال مالكم أقامت القيامة قالت المرأة لاولكن هذا طالوت قد جاء يسألك هل له من توبة فقال أشمويل ياطالوت مافعلت بعدى قال لم أدع من الشر شيئا إلا فعلته وجئت أطلب التوبة فقال أشمويل ياطالوت كم لك من الولد قال عشرة رجال قال ما أعلم لك من توبة إلا أن تتخلى من ملكك وتخرج أنت وولدك فى سبيل الله ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ثم تقاتل أنت حتى تقتل آخرهم ثم إن أشمويل سقط ميتا ورجع طالوت أحزن ما كان رهبة أن لا يتابعه بنوه على مايريد وكان قد بكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه فجمع أولاده وقال لهم أرأيتم لو دفعت إلى النار هل كنتم تنقذوننى منها فقالوا بلى ننقذك بما نقدر عليه قال فانها النار إن لم تفعلوا ما آمركم به قالوا أعرض علينا ماأردت فذكر لهم القصة قالوا وإنك لمقتول قال نعم قالوا فلا خير لنا فى الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذى سألت فتجهز هو وولده وخرج طالوت مجاهدا فى سبيل الله فقدم أولاده فقاتلوا حتى قتلوا ثم شد هو من بعدهم فقاتل حتى قتل وجاء قاتل طالوت إلى داود فبشره بقتله وقال له قد قتلت عدوك فقال داود ماأنت بباق بعده وقتله فكان ملك طالوت إلى أن قتل مدة أربعين سنة فأتى بنو إسرائيل إلى داود

قال له كم لك عيال يعنى كم لك من الولد قال عشرة رجال قال ما أعلم لك من توبة إلا أن تتخلى من ملكك وتخرج أنت وولدك تقاتل فى سبيل الله ثم تقدم ولدك حتى يقتلوا بين يديك ثم تقاتل أنت حتى تقتل آخرهم ثم رجع أشمويل إلى القبر وسقط وخر ميتا ورجع طالوت أحزن ما كان رهبة أن لا يتابعه ولده وقد بكى حتى سقطت أشفار عينيه ونحل جسمه فدخل عليه أولاده فقال لهم أرأيتم لو دفعت إلى النار هل كنتم تفدوننى قالوا بلى نفديك بما قدرنا عليه قال فانها النار إن لم تفعلوا ما أقول لكم قالوا فاعرض علينا فذكر لهم القصة قالوا وإنك لمقتول ، قال نعم قالوا فلا خير لنا فى الحياة بعدك قد طابت أنفسنا بالذى سالت فتجهز بماله وولده فتقدم ولده وكانوا عشرة فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا ثم شد هو بعدهم للقتال حتى قتل فجاء قاتله إلى داود ليبشره وقال قتلت عدوك فقال داود ما أنت بالذى تحيا بعده فضرب عنقه وكان ملك طالوت إلى أن قتل أربعين سنة وأتى بنو إسرائيل إلى داود وأعطوه خزائن طالوت وملكوه على أنفسهم قال الكلبى والضحاك ملك داود بعد قتل طالوت سبع سنين ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد إلا على داود فذلك قوله تعالى (وآتاه الله الملك والحكمة) يعنى النبوة جمع الله لداود بين الملك والنبوة ولم يكن كذلك

من قبل بل كان الملك فى سبط والنبوة فى سبط وقيل الملك والحكمة هو العلم مع العمل قوله تعالى (وعلمه مما يشاء) قال الكلبى وغيره يعنى صنعة الدروع وكان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل إلا من عمل يده وقيل منطق الطير وكلام الجعل والنمل والذر والخنفساء وحمار قبان وما أشبهها مما لا صوت لها وقيل هو الزبور وقيل هو الصوت الطيب والألحان فلم يعط الله أحدا من خلقه مثل صوته وكان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها وتظله الطير مصيخة له ويركل الماء الجارى ويسكن الريح ، وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : هو أن الله تعالى أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته قوتها قوة الحديد ولونها لون النار وحلقها مستديرة مفصلة بالجواهر مدسرة بقضبان اللؤلؤ الرطب فلا يحدث فى الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فعلم داود ذلك الحدث ولا يمسها ذو عاهة إلا برئ وكانوا لا يتحاكمون إلا إليها بعد داود عليه السلام إلى أن رفعت فمن تعدى على صاحبه وأنكر له حقا أتى السلسلة فمن كان صادقا مد يده إلى السلسلة فتناولها ومن كان كاذبا لم ينلها فكانت كذلك إلى أن ظهر بهم المكر والخديعة فبلغنا أن بعض ملوكها أودع رجلا جوهرة ثمينة فلما استردها أنكرها فتحاكما إلى السلسلة فعمد الذى عنده الجوهرة إلى عكازه فنقرها وضمنها الجوهرة واعتمد عليها حتى حضر السلسلة فقال صاحب الجوهرة رد على الوديعة فقال صاحبه ما أعرف لك عندى من وديعة فان كنت صادقا فتناول السلسلة فتناولها بيده فقيل للمنكر قم أنت فتناولها فقال لصاحب الجوهرة خذ عكازتى هذه فاحفظها حتى أتناول السلسلة فأخذها المالك عنده ثم قام المنكر نحو السلسلة فأخذها فقال الرجل اللهم إن كنت تعلم أن هذه الوديعة التى يدعيها على قد وصلت إليه فقرب منى السلسلة فمد يده فتناولها فتعجب القوم وشكوا فيها فأصبحوا وقد رفع الله السلسلة

فملكوه عليهم وأعطوه خزائن طالوت قال الكلبى والضحاك ملك داود بعد قتل جالوت سبع سنين ولم يجتمع بنو إسرائيل على ملك واحد إلا على داود فذلك قوله تعالى (وآتاه الله الملك والحكمة) يعنى النبوة جمع الله لداود بين الملك والنبوة ولم يكن كذلك من قبل بل كانت النبوة فى سبط والملك فى سبط وقيل الحكمة هى العلم مع العمل به (وعلمه مما يشاء) أى وعلم الله داود صنعة الدروع فكان يصنعها ويبيعها وكان لا يأكل إلا من عمل يده وقيل علمه منطق الطير وقيل علمه الزبور وقيل هو الصوت الطيب والألحان ولم يعط الله أحدا من خلقه مثل صوت داود فكان إذا قرأ الزبور تدنوا منه الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها وتظله الطير مصيخة له ويركد الماء الجارى وتسكن الرياح عند قراءته وقيل علمه سياسة الملك وضبطه وذلك لأنه لم يكن من بيت الملك حتى يتعلمه من آبائه وقال ابن عباس هو أن الله تعالى أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة ورأسها عند صومعته قوتها قوة الحديد ولونها لون النور وحلقها مستديرة مفصلة بالجوهر مدسرة بقضبان اللؤلؤ الرطب فكان لا يحدث فى الهواء حدث إلا صلصلت السلسلة فيعلم داود ذلك الحدث ولا يمسها ذو عاهة إلا برىء وكانوا يتحاكمون إليها بعد داود إلى أن رفعت فمن تعدى على صاحبه أو أنكره حقا أتى السلسلة فمن كان صادقا مد يده إلى السلسلة فنالها ومن كان كاذبا لم ينلها فكانت كذلك إلى أن ظهر فيهم المكر والخبث فبلغنا أن بعض ملوكهم أودع رجلا جوهرة ثمينة فلما طالبه بالوديعة أنكره إياها فتحاكما إلى السلسلة فعمد الذى عنده الجوهرة إلى عكازه فنقرها وجعل الجوهرة فيها واعتمد عليها حتى أتيا السلسلة فقال صاحب

قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) قرأ أهل المدينة ويعقوب دفاع الله بالألف ههنا وفى سورة الحج وقرأ الآخرون بغير الألف لأن الله تعالى لا يغالبه أحد وهو الدافع وحده، ومن قرأ بالألف قال قد يكون الدفاع من واحد مثل قول العرب أحسن الله عنك الدفاع قال ابن عباس ومجاهد ولولا دفع الله الناس بجنود المسلمين لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المؤمنين وخربوا المساجد والبلاد وقال سائر المفسرين لولا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار لهلكت الأرض بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله بن فنجويه أنا أبو بكر بن خرجة أنا عبد الله بن أحمد بن حنبل أنا أبو حميد الحمصي أنا يحيى بن سعيد العطار أنا حفص بن سليمان عن محمد ابن سوقة عن وبرة عن عبد الرحمن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله عز وجل ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء» ثم قرأ ابن عمر رضي الله عنهما : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض (لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله) أي كلمه الله تعالى يعني موسى عليه السلام (ورفع بعضهم درجات) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم . قال الشيخ الإمام : وما أوتي نبي آية إلا أوتي نبينا مثل تلك الآية وفضل على غيره بآيات مثل انشقاق القمر بإشارته وحنين الجذع على مفارقته وتسليم الحجر والشجر عليه وكلام البهائم والشهادة برسالته ونبع الماء من بين أصابعه وغير ذلك من المعجزات والآيات التي لا تحصى وأظهرها القرآن الذي عجز أهل السماء والأرض عن الإتيان بمثله . أخبرنا أبو بكر يعقوب ابن أحمد بن محمد بن علي الصيرفي أنا أبو الحسن محمد بن أحمد المخلدي أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق الثقفي أنا قتيبة بن سعيد أنا الليث بن سعد عن سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله تعالى إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا محمد بن سنان أخبرنا هشيم أنا سيار أنا يزيد الفقير أنا جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال «أعطيت خمسا

الجوهرة ردعلى الوديعة فقال صاحبه ما أعرف لك عندي وديعة فان كنت صادقا فتناول السلسلة فتناولها بيده وقال للمنكر قم أنت أيضا فتناولها فقال لصاحب الجوهرة امسك عكازتي فأخذها الرجل منه وقام المنكر إلى السلسلة وقال : اللهم إن كنت تعلم أن الوديعة التي يدعيها قد وصلت إليه فقرب السلسلة مني ومد يده فتناولها فعجب القوم من ذلك وشكوا فيها فأصبحوا وقد رفع الله السلسلة . قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) يعني ولولا أن الله يدفع ببعض الناس وهم أهل الإيمان والطاعة بعضا وهم أهل الكفر والمعاصي قال ابن عباس ولولا دفع الله بجنوده المسلمين لغلب المشركون على الأرض فقتلوا المؤمنين وخربوا المساجد والبلاد وقيل معناه ولو دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار (لفسدت الأرض) يعني لهلكت بمن فيها ولكن الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر روى أحمد ابن حنبل عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء» ثم قرأ «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» (ولكن الله ذو فضل على العالمين) يعني إن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام وإفضال عم الناس كلهم (تلك آيات الله) يعني القصص التي اقتصها من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم وتمليك طالوت وإظهاره بالآية وهي التابوت وإهلاك الجبابرة على يد صبي (نتلوها عليك بالحق) أي باليقين الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لأنه في كتبهم (وإنك لمن المرسلين) يعني حيث تخبر بهذه الأخبار العجيبة والقصص القديمة من غير أن تعرف بقراءة كتاب ولا سماع أخبار فدل ذلك على أنك من المرسلين وأن الذي تخبر به وحي من الله تعالى . قوله عز وجل (تلك الرسل) يعني جماعة الرسل الذين تقدم ذكرهم في هذه السورة (فضلنا بعضهم على بعض) فيه دليل على زوال الشبهة لمن أوجب التسوية بين الأنبياء في الفضيلة لاستوائهم في القيام بالرسالة وأجمعت الأمة على أن الأنبياء بعضهم أفضل من بعض وأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفضلهم لعموم رسالته وهو قوله تعالى «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» (منهم) أي من الرسل (من كلم الله) أي كلمه الله وهو موسى عليه السلام (ورفع بعضهم درجات) يعني محمدا صلى الله

لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنا عبد الله ابن عمر الجوهري أنا أحمد ابن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر أنا إسماعيل ابن جعفر أنا العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «فضلت على الأنبياء بست: أوتيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون» قوله تعالى (وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم) أي من بعد الرسل (من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن) ثبت على إيمانه بفضل الله (ومنهم من كفر) بخذلانه (ولو شاء الله ما اقتتلوا) أعاده تأكيدا (ولكن الله يفعل ما يريد) يوفق من يشاء فضلا ويخذل من يشاء

يشاء عدلا. سأل رجل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال هو طريق مظلم فلا تسلكه

عليه وسلم رفع الله منصبه ومرتبته على كافة سائر الأنبياء بما فضله عليهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات فما أوتي نبي من الأنبياء آية أو معجزة إلا أوتي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مثل ذلك وفضل محمد صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء بآيات ومعجزات أخر مثل انشقاق القمر بإشارته وحنين الجذع الذي حن عند مفارقته وتسليم الحجر والشجر عليه وكلام البهائم له شاهدة برسالته ونبع الماء من بين أصابعه وغير ذلك من الآيات والمعجزات التي لا تحصى كثرة، وأعظمها وأظهرها معجزة وآية القرآن العظيم الذي عجز أهل الأرض عن معارضته والإتيان بمثله فهو معجزة باقية إلى يوم القيامة (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» (ق) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب؛ وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلائق كافة وختم بي النبيون» فان قلت لم ذكره على سبيل الرمز والإشارة ولم يصرح باسمه صلى الله عليه وسلم؟ قلت: في هذا الإبهام والرمز من تفخيم فضله وإعلاء قدره صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى لما فيه من الشهادة بأنه العلم الذي لا يشتبه ولا يلتبس فهو كما يقول الرجل وقد فعل شيئا فعله بعضكم أو أحدكم ويريد نفسه فيكون أفخم من التصريح به كما سئل الحطيئة: من أشعر الناس؟ قال زهير والنابغة. ثم قال ولو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه وقوله تعالى (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) يعني الحجج والأدلة الباهرة والمعجزات على نبوته مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى (وأيدناه بروح القدس) أي وقويناه بجبريل عليه السلام فكان معه إلى أن رفعه إلى عنان السماء السابعة. فان قلت لم خص موسى وعيسى بالذكر من بين سائر الأنبياء. قلت لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بين الله تعالى وجه التفضيل حيث جعل التكليم من الفضل وهو آية عظيمة وتأييد عيسى بروح القدس آية عظيمة أيضاً فلما أوتي موسى وعيسى من الآيات العظيمة خصا بالذكر في باب التفضيل فعلى هذا كل من كان من الأنبياء أعظم آيات وأكثر معجزات كان أفضل ولهذا أحرز نبينا صلى الله عليه وسلم قصبات السبق في الفضل لأنه أعظم الأنبياء آيات وأكثرهم معجزات فهو أفضلهم صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين (ولو شاء الله) أي ولو أراد الله وأصل المشيئة الإرادة (ما اقتتل الذين من بعدهم) يعني بعد الرسل الذين وصفهم الله (من بعد ما جاءتهم البينات) أي الدلالات الواضحات من الله بما فيه مزدجر لمن هداه الله تعالى ووفقه (ولكن اختلفوا) يعني اختلف هؤلاء الذين من بعد الرسل (فمنهم من آمن) أي ثبت على إيمانه بالله ورسوله بفضل الله (ومنهم من كفر) أي ومنهم من تعمد الكفر بعد قيام الحجة وبعثة الرسل (ولو شاء الله ما اقتتلوا) أي ولو أراد الله أن يحجزهم عن الاقتتال والاختلاف لحجزهم عن ذلك (ولكن الله يفعل ما يريد) يعني أنه تعالى يوفق من يشاء لطاعته والإيمان به فضلا منه ورحمة ويخذل من

يشاء عدلا منه لا اعتراض عليه فى ملكه وفعله . سأل رجل عليا بن أبى طالب رضى الله عنه عن القدر فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر فقال طريق مظلم فلا تسلكه فأعاد السؤال فقال بحر عميق فلا تلجه فأعاد السؤال فقال سر الله قد خفى عليك فلا تفتشه . قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) قيل أراد به الزكاة الواجبة وقيل أراد به صدقة التطوع والإنفاق فى وجوه الخير (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه) أى لا فدية فيه وإنما سماه بيعا لأن الفداء شراء النفس من الهلاك، والمعنى قدموا لأنفسكم اليوم من أموالكم من قبل أن يأتى يوم لا تجارة فيه فيكسب الإنسان ما يفتدى به من العذاب (ولا خلة) أى ولا مودة ولا صداقة (ولا شفاعة) وظاهر هذا يقتضى نفى الخلة والشفاعة وقد دلت النصوص على ثبوت المودة والشفاعة بين المؤمنين فيكون هذا عاما مخصوصا (والكافرون هم الظالمون) لأنهم وضعوا العبادة فى غير موضعها . قوله عز وجل (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) .

(فصل: فى فضل هذه الآية الكريمة)

عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لكل شىء سنام وإن سنام القرآن البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن آية الكرسى» أخرجه الترمذى قوله إن لكل شىء سناما سنام كل شىء أعلاه تشبيها بسنام البعير والمراد منه تعظيم هذه السورة والسيد الفاضل فى قومه والشريف والكريم وأصله من ساد يسود وقوله هى سيدة آى القرآن أى أفضله (م) عن أبى بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت الله لا إله إلا هو الحى القيوم فضرب فى صدرى وقال ليهنك العلم يا أبا المنذر» عن واثلة بن الأسقع «أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءهم فى صفة المهاجرين فسأله إنسان أى آية فى القرآن أعظم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم» أخرجه أبو داود وقال العلماء إنما تميزت آية الكرسى بكونها أعظم آية فى القرآن لما جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والقومية والملك والقدرة والإرادة فهذه أصول الأسماء والصفات وذلك لأن الله تعالى أعظم مذكور فما كان ذكرا له من توحيد وتعظيم كان أعظم الأذكار. وفي هذا الحديث حجة لمن يقول بجواز تفضيل بعض القرآن على بعض وتفضيله على سائر كتب الله المنزلة، ومنع من جواز تفضيل بعض القرآن على بعض جماعة منهم أبو الحسن الأشعرى وأبو بكر الباقلانى قالا لأن تفضيل بعضه على بعض يقتضى نقص المفضول وليس فى كلام الله عز وجل نقص وتأول هؤلاء ما ورد من إطلاق لفظ أعظم وأفضل على بعض الآيات أو السور بمعنى عظيم وفاضل ومن أجاز تفضيل بعض القرآن على بعض من العلماء والمتكلمين قالوا هذا التفضيل راجع إلى عظم أجر القارئ أو جزيل ثوابه وقول إن هذه الآية أو هذه السورة أعظم أو أفضل بمعنى أن الثواب المتعلق بها أكثر وهذا هو المختار وهو معنى الحديث والله أعلم. عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ حين يصبح آية الكرسى وآيتين من أول حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم حفظ يومه ذلك حتى يمسى ومن قرأها حين يمسى حفظ ليلته تلك حتى يصبح» أخرجه الترمذى وقال حديث غريب. وأما التفسير فقوله عز وجل الله لا إله إلا هو نفى الإلهية عن كل ما سواه وأثبت الإلهية له سبحانه وتعالى فهو كقولك

تعالى (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) قال السدى أراد به الزكاة المفروضة، وقال غيره أراد به صدقة التطوع والنفقة فى الخير (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه) أى لا فداء فيه سمى بيعا لأن الفداء شراء نفسه (ولا خلة) ولا صداقة (ولا شفاعة) إلا باذن الله، قرأ ابن كثير وأهل البصرة كلها بالنصب وكذلك فى سورة إبراهيم «لا بيع فيه ولا خلال» وفى سورة «الطور لا لغو فيها ولا تأثيم» وقرأ الآخرون كلها بالرفع والتنوين (والكافرون هم الظالمون) لأنهم وضعوا العبادة فى غير موضعها. قوله عز وجل (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) . أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور محمد بن سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد ابن عبد الجبار الزياتى أنا حميد بن زنجويه أنا ابن أبى شيبة أنا عبد الأعلى عن الجريرى عن أبى السليل عن عبد الله ابن رباح الأنصارى عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أبا المنذر أى آية من كتاب الله أعظم ؟ قلت؟ الله لا إله إلا هو الحى القيوم قال فضرب فى صدرى ثم قال ليهنك العلم يا أبا المنذر ثم قال والذى نفس محمد بيده إن لهذه الآية لسانا وشفتين

تقدس الملك عند ساق العرش» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو أخبرنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إني محتاج ولي عيال ولي حاجة شديدة قال فخليت سبيله فأصبحت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة مافعل أسيرك البارحة قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال أما إنه قد كذبك وسيعود فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فاني محتاج ولي عيال ولا أعود فرحمته فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة مافعل أسيرك البارحة قلت يارسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال أما إنه قد كذبك وسيعود فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لاتعود ثم تعود قال دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت ماهي قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» حتى تختم الآية فانك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ مافعل أسيرك البارحة قلت يارسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال وما هي قلت قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» وقال لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص الناس على الخير فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما إنه قد صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت لا قال ذاك شيطان»

(٢٦٨)

أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يحيى أخبرنا أبو معاوية عن عبد الرحمن بن أبي بكر هو المليكي عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من قرأ حين يصبح آية الكرسي وآيتين من أول: حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، حفظ في يومه ذلك حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ في ليلته تلك حتى يصبح» قوله عزوجل: الله رفع بالابتداء وخبره في لا إله إلا هو الحي الباقي الدائم على الأبد وهو من له الحياة والحياة صفة الله تعالى القيوم قرأ عمر وابن مسعود القيام وقرأ علقمة القيم وكلها لغات بمعنى واحد قال مجاهد القيوم القائم على كل شيء قال الكلبي القائم على كل نفس وقيل هو القائم بالأمور وقال أبو عبيدة الذي لا يزول (لاتأخذه سنة ولانوم) السنة النعاس وهو النوم الخفيف والوسنان بين النائم واليقظان يقال منه وسن يسن وسنا وسنة والنوم هو الثقيل المزيل للقوة والعقل قال المفضل الضبي السنة في الرأس والنوم في القلب فالسنة أول النوم وهو النعاس وقيل السنة في الرأس والنعاس في العين والنوم في القلب فهو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة

لا كريم إلا زيد فانه أبلغ من قولك زيد كريم الحي يعني الباقي على الأبد الدائم بلا زوال والحي في صفة الله تعالى وهو الذي لم يزل موجودا وبالحياة موصوفا لم تحدث له الحياة بعد موت ولا يعتريه الموت بعد حياة وسائر الأحياء سواء يعتريهم الموت والعدم فكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه وتعالى. القيوم قال مجاهد القيوم القائم على كل شيء وتأويله أنه تعالى قائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع مايحتاجون إليه وقيل هو القائم الدائم بلا زوال الموجود الذي يمتنع عليه التغير وقيل هو القائم على كل نفس بما كسبت والقيوم فيعول من القيام وهو نعت للقائم على الشيء (لاتأخذه سنة ولا نوم) السنة مايتقدم النوم من الفتور الذي يسمى نعاسا وهو النوم الخفيف والوسنان بين النائم واليقظان والنوم هو الثقل المزيل للعقل والقوة وقيل السنة في الرأس والنعاس في العين والنوم في القلب فالسنة هي أول النوم والنوم هو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء والمعنى لاتأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه نوم لأن النوم والسهو والغفلة محال على الله تعالى لأن هذه الأشياء عبارة عن عدم العلم وذلك نقص وآفة والله تعالى منزه عن النقص والآفات وأن ذلك تغير والله تعالى منزه عن التغير (م) عن أبي موسى الأشعري قال «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا بخمس كلمات فقال إن الله عزوجل لاينام ولاينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور» وفي رواية «النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه». شرح مايتعلق بلفظ هذا الحديث منقول من شرح مسلم للشيخ محيي الدين النووي قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله لاينام ولاينبغي له أن ينام»

بالأشياء نفى الله تعالى عن نفسه النوم لأنه آفة وهو منزه عن الآفات ولأنه تغير ولا يجوز عليه التغير. أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحى أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى أخبرنا عبد الله بن حامد أخبرنا محمد ابن جعفر أخبرنا على بن حرب أخبرنا أبو معاوية أخبرنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن أبى موسى قال «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ولكنه يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» ورواه المسعودي عن عمرو بن مرة وقال حجابه النار (له ما فى السموات وما فى الأرض) ملكا وخلقا (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) بأمره (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) قال مجاهد وعطاء والسدى ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة، وقال الكلبى ما بين أيديهم يعنى الآخرة لأنهم يقدمون عليهم وما خلفهم من الدنيا لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم، وقال ابن جريج ما بين أيديهم ما مضى أمامهم وما خلفهم ما يكون بعدهم، وقال مقاتل ما بين أيديهم ما كان قبل خلق الملائكة وما خلفهم أى ما كان بعد خلقهم وقيل ما بين أيديهم أى ما قدموه من خير وشر وما خلفهم ما هم فاعلوه

ينام» فمعناه الاخبار أنه سبحانه وتعالى لا ينام وأنه مستحيل فى حقه لأن النوم انغمار وغلبة على العقل يسقط به الإحساس والله تعالى منزه عن ذلك وقوله «يخفض القسط ويرفعه» أراد بالقسط الميزان الذى يقع به العدل ومعناه إن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن فيه من أعمال العباد المرتفعة إليه وقيل أراد بالقسط الرزق الذى هو قسط كل مخلوق ومعنى يخفض يقبض ويضيق على من يشاء ويرفعه أى يوسعه على من يشاء وقوله «يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار» يعنى أن الحفظة من الملائكة يصعدون بأعمال العباد فى الليل بعد انقضائه فى أول النهار ويصعدون بأعمال النهار بعد انقضائه فى أول الليل قوله «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» سبحات بضم السين المهملة والباء الموحدة تحت وبضم التاء فى آخره جمع سبحة ومعنى سبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه والحجاب أصله فى اللغة المنع وحقيقة الحجاب إنما تكون للأجسام المحدودة والله تعالى منزه عن الجسم والحد فالمراد به هنا الشىء المانع من الرؤية وسمى ذلك الشىء المانع نورا أو نارا لأنهما يمنعان من الإدراك فى العادة والمراد بالوجه الذات والمراد بما انتهى إليه بصره من خلقه جميع المخلوقات لأن بصره سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات ولفظة من فى قوله من خلقه لبيان الجنس لا للتبعيض ومعنى الحديث لو زال المانع وهو الحجاب المسمى نورا أو نارا وتجلى لخلقه لأحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته هذا آخر كلام للشيخ على هذا الحديث والله أعلم. وروى الطبرى بسنده عن ابن عباس فى قوله «لا تأخذه سنة ولا نوم» إن موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله تعالى فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما فجعل ينعس وينتبه وهما فى يده فى كل يد واحدة حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما قال معمر إنما هو مثل ضربه الله تعالى له يقول فكذلك السموات والأرض، ورواه عن أبى هريرة مرفوعا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى على المنبر قال «وقع فى نفس موسى هل ينام الله» وذكر نحو حديث ابن عباس قال بعض العلماء إن صح هذا الحديث فيحمل على أن هذا السؤال كان من جهال قوم موسى كطلب الرؤية من موسى لأن الأنبياء عليهم السلام هم أعلم بالله من غيرهم فلا يجوز أن ينسب لموسى مثل هذا السؤال والله تعالى أعلم. قوله تعالى (له ما فى السموات وما فى الأرض) يعنى أن الله تعالى مالك جميع ذلك بغير شريك ولا منازع وهو خالقهم وهم عبيده وفى ملكه. فان قلت لم قال له ما فى السموات ولم يقل من فى السموات؟ قلت لما كان المراد إضافة كل ما سواه إليه من الخلق والملك وكان الغالب فيهم من لا يعقل أجرى الغالب مجرى الكل فعبر عنه بلفظ ما (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) أى بأمره وهذا استفهام إنكارى والمعنى لا يشفع عنده أحد إلا بأمره وإرادته وذاك لأن المشركين زعموا أن الأصنام تشفع لهم فأخبر أنه لا شفاعة لأحد عنده إلا ما استثناه بقوله إلا باذنه يريد بذلك شفاعة النبى صلى الله عليه وسلم وشفاعة بعض الأنبياء والملائكة وشفاعة المؤمنين بعضهم لبعض (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) يعنى ما بين أيديهم من الدنيا وما خلفهم من الآخرة وقيل بعكسه لأنهم يقدمون على الآخرة ويخلفون الدنيا وراء ظهورهم وقيل يعلم ما كان قبلهم وما كان بعدهم وقيل يعلم ما قدموه بين أيديهم من خير أو شر

(ولا يحيطون بشيء من علمه) أى من علم الله (إلا بما شاء) أن يطلعهم عليه يعنى لايحيطون بشيء من علم الغيب إلا بما شاء مما أخبر به الرسل كما قال الله تعالى «فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول» قوله تعالى (وسع كرسيه السموات والأرض) أى ملأ وأحاط به واختلفوا فى الكرسى فقال الحسن هو العرش نفسه وقال أبو هريرة رضى الله عنه الكرسى موضوع أمام العرش ومعنى قوله «وسع كرسيه السموات والأرض» أى سعته مثل سعة السموات والأرض وفى الأخبار أن السموات والأرض فى جنب الكرسى

كحلقة فى فلاة والكرسى فى جنب العرش كحلقة فى فلاة. ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن السموات السبع والأرضين السبع فى الكرسى كدراهم سبعة ألقيت فى ترس وقال على ومقاتل كل قائمة من الكرسى طولها مثل السموات السبع والأرضين السبع وهو بين يدى العرش ويحمل الكرسى أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه وأقدامهم فى الصخرة التى تحت الأرض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام ملك على صورة سيد البشر آدم عليه السلام وهو يسأل للآدميين الرزق والمطر من السنة إلى السنة وملك على صورة سيد الأنعام وهو الثور وهو يسأل للأنعام الرزق من السنة إلى السنة وعلى وجهه غضاضة منذ عبد العجل وملك على صورة سيد السباع وهو الأسد يسأل للسباع الرزق من السنة إلى السنة وملك على صورة سيد الطير وهو النسر يسأل فوق الرزق للطير من السنة إلى السنة. وفى بعض الأخبار أن مابين حملة العرش وحملة الكرسى سبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام لولا ذلك لاحترقت حملة الكرسى من نور حملة العرش وروى سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أراد بالكرسى علمه وهو قول مجاهد ومنه قيل لصحيفة العلم كراسة وقيل كرسيه ملكه وسلطانه والعرب تسمى الملك القديم كرسيا (ولا يئوده) أى لا يثقله ولا يشق عليه يقال آدنى الشيء أى أثقلنى (حفظهما) أى حفظ السموات والأرض (وهو العلى) الرفيع فوق خلقه والمتعالى عن الأشباه والأنداد وقيل العلى بالملك والسلطنة

وما خلفهم بماهم فاعلوه والمقصود من هذا أنه سبحانه وتعالى عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه (ولا يحيطون بشيء من علمه) يقال أحاط بالشيء إذا علمه وهو أن يعلم وجوده وجنسه وقدره وحقيقته فاذا علمه ووقف عليه وجمعه فى قلبه فقد أحاط به والمراد بالعلم المعلوم والمعنى أن أحدا لا يحيط بمعلومات الله تعالى (إلا بما شاء) يعنى أن يطلعهم عليه وهم من الأنبياء والرسل ليكون مايطلعهم عليه من علم غيبه دليلا على نبوتهم كما قال تعالى «فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول» (وسع كرسيه السموات والأرض) يقال فلان وسع الشيء سعة إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به وأصل الكرسى فى اللغة من تركب الشيء بعضه على بعض ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض والكرسى فى العرف اسم لما يقعد عليه سمي به لتركب خشباته بعضها على بعض. واختلفوا فى المراد بالكرسى هنا على أربعة أقوال: أحدها أن الكرسى هو العرش نفسه قال الحسن لأن العرش والكرسى اسم للسرير الذي يصح التمكن عليه. القول الثانى أن الكرسى غير العرش وهو أمامه وهو فوق السموات السبع ودون العرش قال السدى إن السموات والأرض فى جوف الكرسى كحلقة ملقاة فى فلاة والكرسى في جنب العرش كحلقة فى فلاة وعن ابن عباس أن السموات السبع فى الكرسى كدراهم سبعة ألقيت فى ترس وقيل إن كل قائمة من قوائم الكرسى طولها مثل السموات والأرض وهو بين يدى العرش ويحمل الكرسى أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه وأقدامهم على الصخرة التى تحت الأرض السابعة السفلى: ملك على صورة أبى البشر آدم وهو يسأل الرزق والمطر لبنى آدم من السنة إلى السنة وملك على صورة النسر وهو يسأل الرزق للطير من السنة إلى السنة وملك على صورة الثور وهو يسأل الرزق للأنعام من السنة إلى السنة وملك على صورة السبع وهو يسأل الرزق للوحوش من السنة إلى السنة. وفى بعض الأخبار أن بين حملة العرش وحملة الكرسى سبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام لولا ذلك لاحترقت حملة الكرسى من نور حملة العرش. القول الثالث إن الكرسى هو الاسم الأعظم لأن العلم يعتمد عليه كما أن الكرسى يعتمد عليه قال ابن عباس كرسيه علمه. القول الرابع المراد بالكرسى الملك والسلطان والقدرة لأن الكرسى موضع الملك والسلطان فلا يبعد أن يكنى عن الملك بالكرسى على سبيل المجاز (ولا يئوده) أى لا يثقله ولا يجهده ولا يشق عليه (حفظهما) أى حفظ السموات والأرض (وهو العلى) أى الرفيع

(العظيم) الكبير الذى لاشىء أعظم منه. قوله تعالى (لا إكراه فى الدين) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة والمقلاة من النساء التى لا يعيش لها ولد وكانت تنذر لئن عاش لها ولد لتهودنه فاذا عاش ولدها جعلته فى اليهود فجاء الإسلام وفيهم منهم فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من أولاد الأنصار، فأرادت الأنصار استردادهم وقالوا هم أبناؤنا وإخواننا فنزلت هذه الآية : لا إكراه فى الدين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خير أصحابكم فان اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فأجلوهم معهم وقال مجاهد كان ناس مسترضعين فى اليهود من الأوس فلما أمر النبى صلى الله عليه وسلم باجلاء بنى النضير قال الذين كانوا مسترضعين فيهم لنذهبن معهم ولندينن بدينهم ، فمنعهم أهلوهم فنزلت لا إكراه فى الدين وقال مسروق كان لرجل من الأنصار من بنى سالم ابن عوف ابنان متنصران قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة فى نفر من النصارى يحملون الطعام فلزمهما أبوهما وقال لا أدعكما حتى تسلما فتخاصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر فأنزل الله تعالى لا إكراه فى الدين فخلى سبيلهما وقال قتادة وعطاء نزلت فى أهل الكتاب إذ قبلوا الجزية وذلك أن العرب كانت أمة أمية لم يكن لهم كتاب فلم يقبل منهم إلا الإسلام فلما أسلموا طوعا أو كرها أنزل الله تعالى لا إكراه فى الدين فأمر بقتال أهل الكتاب إلى أن يسلموا أو يقروا بالجزية فمن أعطى منهم الجزية لم يكره على الإسلام وقيل كان هذا فى الابتداء قبل أن يؤمر بالقتال فصارت منسوخة بآية السيف وهو قول ابن مسعود رضى الله عنهما (قد تبين الرشد من الغى) أى الإيمان من الكفر والحق من الباطل (فمن يكفر بالطاغوت) يعنى بالشيطان ، وقيل كل ماعبد من دون الله تعالى فهو طاغوت وقيل مايطغى الإنسان فاعول من الطغيان زيدت التاء فيه بدلا من اللام الفعل كقولهم

فوق خلقه الذى ليس فوقه شىء فيما يجب له أن يوصف به من معانى الجلال والكمال فهو العلى بالإطلاق المتعالى عن الأشباه والأنداد والأضداد وقيل العلى بالملك والسلطنة والقهر فلا أعلى منه أحد وقيل معنى العلو فى صفة الله تعالى منقول إلى اقتداره وقهره واستحقاق صفات المدح جميعها على كل وجه وقيل معناه أنه يعلو أن يحيط به وصف الواصفين (العظيم) يعنى أنه ذو العظمة والكبرياء الذى لاشىء أعظم منه. وقال ابن عباس العظيم الذى قد كمل فى عظمته وقيل العظيم هو ذو العظمة والجلال والكمال وهو فى صفة الله تعالى ينصرف إلى عظم الشأن وجلالة القدر دون العظم الذى هو من نعوت الأجسام . قوله عز وجل (لا إكراه فى الدين) سبب نزول هذه الآية فيما يروى عن ابن عباس قال كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة وهى التى لا يعيش لها ولد فكانت تنذر لئن عاش لها ولد لتهودنه فاذا عاش جعلته فى اليهود فجاء الإسلام وفيهم منهم ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من أولاد الأنصار فأرادت الأنصار استردادهم وقالوا هم أبناؤنا وإخواننا فنزلت الآية لا إكراه فى الدين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خير أصحابكم فان اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فأجلوهم معهم وقيل كان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له أبو الحصين ابنان متنصران قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة فى نفر من النصارى يحملون الزيت فلزمهما أبوهما وقال لا أدعكما حتى تسلما فاختصموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر فأنزل الله تعالى لا إكراه فى الدين فخلى سبيلهما وقيل نزلت فى أهل الكتاب إذا قبلوا بذل الجزية لم يكرهوا على الإسلام وذلك أن العرب كانت أمة أمية ولم يكن لهم كتاب يرجعون إليه فلم يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل ونزل فى أهل الكتاب لا إكراه فى الدين يعنى إذا قبلوا الجزية فمن أعطى الجزية منهم لم يكره على الإسلام فعلى هذا القول تكون الآية محكمة ليست بمنسوخة وقيل بل الآية منسوخة وكان ذلك فى ابتداء الإسلام قبل أن يؤمروا بالقتال ثم نسخت بآية القتال وهو قول ابن مسعود وقال الزهرى سألت زيد بن أسلم عن قول الله تعالى لا إكراه فى الدين قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين لا يكره أحدا فى الدين فأبى المشركون إلا أن يقاتلوه فاستأذن الله فى قتالهم فأذن له ومعنى لا إكراه فى الدين أى دين الإسلام ليس فيه إكراه عليه (قد تبين الرشد من الغى) يعنى ظهر ووضح وتميز الحق من الباطل والإيمان من الكفر والهدى من الضلالة بكثرة الآيات والبراهين الدالة على صحته (فمن يكفر بالطاغوت) يعنى الشيطان وقيل هو الساحر والكاهن وقيل هو كل ماعبد من دون الله تعالى وقيل كل

حانوت وتابوت. فالتاء فيها مبدل من هاء التأنيث (ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم فى الدين والوثقى تأنيث الأوثق وقيل العروة الوثقى السبب الذى يوصل إلى رضا الله تعالى (لاانفصام لها) لاانقطاع لها (والله سميع) لدعائك إياهم إلى الإسلام (عليم) بحرصك على إيمانهم قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا) ناصرهم ومعينهم وقيل محبهم وقيل متولى أمورهم لايكلهم (٢٧٢) إلى غيره وقال الحسن ولى هدايتهم (يخرجهم من الظلمات إلى النور) أى من الكفر إلى الإيمان قال الواقدى كل مافى القرآن من الظلمات والنور فالمراد منه الكفر والإيمان غير التى فى سورة الأنعام «وجعل الظلمات والنور» فالمراد منه الليل والنهار سمى الكفر ظلمة لالتباس طريقه وسمى الإسلام نورا لوضوح طريقه (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) قال مقاتل يعنى كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر رءوس الضلالة (يخرجونهم من النور إلى الظلمات) يدعونهم من النور إلى الظلمات والطاغوت يكون مذكرا ومؤنثا وواحدا وجمعا قال تعالى فى المذكر والواحد «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به» وقال فى المؤنث «والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها» وقال فى الجمع «يخرجونهم من النور إلى الظلمات» فان قيل كيف يخرجونهم من النور إلى الظلمات وهم كفار لم يكونوا فى نور قط قيل هم اليهود وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث لما يجدون فى كتبهم من نعته فلما بعث كفروا به وقيل هو على العموم فى حق جميع الكفار قالوا منعهم إياهم من الدخول فيه إخراج كما يقول الرجل لأبيه أخرجتنى من مالك ولم يكن فيه كما قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام «إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله» ولم يكن قط فى ملتهم (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) قوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) معناه هل انتهى إليك يا محمد خبر الذى حاج إبراهيم أى خاصم

مايطغى الإنسان فهو طاغوت فاعول من الطغيان (ويؤمن بالله) أى ويصدق بالله أنه ربه ومعبوده من دون كل شىء كان يعبده وفيه إشارة إلى أنه لابد للكافر أن يتوب أولا عن الكفر ويتبرأ منه ثم يؤمن بعد ذلك بالله فمن فعل ذلك صح إيمانه وهو قوله تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى فقد تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم فى الدين والوثقى تأنيث الأوثق وقيل العروة الوثقى السبب الذى يوصل إلى رضا الله تعالى وهو دين الإسلام (لاانفصام لها) أى لاانقطاع لها حتى تؤديه إلى الجنة والمعنى أن المتمسك بالدين الصحيح الذى هو دين الإسلام كالمتمسك بالشىء الوثيق الذى لايمكن كسره ولا انقطاعه (والله سميع) يعنى أنه تعالى يسمع قول من كفر بالطاغوت وأتى بالشهادتين (عليم) بما فى قلبه من الإيمان وقيل معناه سميع لدعائك إياهم إلى الإسلام عليم بحرصك على إسلامهم. قوله عز وجل (الله ولى الذين آمنوا) أى ناصرهم ومعينهم وقيل محبهم ومتولى أمورهم فلا يكلهم إلى غيره وقيل هو متولى هدايتهم (يخرجهم من الظلمات إلى النور) أى من الكفر إلى الإيمان وكل مافى القرآن من ذكر الظلمات والنور، فالمراد به الكفر والإيمان غير الذى فى سورة الأنعام وهو قوله تعالى وجعل الظلمات والنور، فالمراد به الليل والنهار وإنما سمى الكفر ظلمة لالتباس طريقه ولأن الظلمة تحجب الأبصار عن إدراك الحقائق فكذلك الكفر يحجب القلوب عن إدراك حقائق الإيمان وسمى الإسلام نورا لوضوح طريقه وبيان أدلته (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) يعنى كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وسائر رءوس الضلالة (يخرجونهم من النور إلى الظلمات) أى من الهدى إلى الضلالة. فان قلت كيف قال يخرجونهم من النور إلى الظلمات وهم كفار لم يكونوا فى نور قط؟ قلت هم اليهود كانوا موقنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته قبل أن يبعث لما يجدون فى كتبهم من نعته وصفته فلما بعث كفروا به وجحدوا نبوته وقيل هو على العموم فى حق جميع الكفار سمى منع الطاغوت إياهم عن الدخول فيه إخراجا من الإيمان بمعنى صدهم الطاغوت عنه وحرمهم خيره وإن لم يكونوا دخلوا فيه قط فهو كقول الرجل لأبيه أخرجتنى عن مالك إذا أوصى به لغيره فى حياته وحرمه منه وكقول الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام «إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله» ولم يكن قط فى ملتهم (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعنى الكفار والطاغوت أهل النار الذين يخلدون فيها دون غيرهم. قوله عز وجل (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) يعنى هل انتهى إليك يا محمد خبر الذى خاصم إبراهيم وجادله لأن ألم تر كلمة يوقف بها المخاطب على تعجب منها ولفظها استفهام كما يقال ألم تر إلى فلان كيف يصنع معناه هل رأيت فلانا فى صنعه والذى حاج إبراهيم هو نمرود بن كنعان الجبار وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر فى الأرض

وجادل وهو نمرود وهو أول من وضع التاج على رأسه وتجبر فى الأرض وادعى الربوبية (أن آتاه الله الملك) أو لأن آتاه الله الملك فطغى أى كانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه. قال مجاهد ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فسليمان وذو القرنين وأما الكافران فنمرود وبختنصر. واختلفوا فى وقت هذه المناظرة قال مقاتل لما كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمرود ثم أخرجه ليحرقه بالنار فقال له من ربك الذى تدعونا إليه؟ فقال ربى الذى يحيى ويميت وقال آخرون كان هذا بعد إلقائه فى النار وذلك أن الناس قحطوا على عهد نمرود وكان الناس يمتارون من عنده

الطعام فكان إذا أتاه الرجل فى طلب الطعام سأله من ربك فإن قال أنت باع منه الطعام فأتاه إبراهيم فيمن أتاه فقال له نمرود من ربك ؟ قال ربى الذى يحيى ويميت فاشتغل بالمحاجة ولم يعطه شيئا فرجع إبراهيم فمر على كثيب من رمل أعفر فأخذ منه تطييبا لقلوب أهله إذا دخل عليهم فلما أتى أهله ووضع متاعه نام فقامت امرأته إلى متاعه ففتحته، فإذا هو أجود طعام رأته أخذت فصنعت له منه فقربته إليه فقال من أين هذا قالت من الطعام الذى جئت به فعرف أن الله رزقه فحمد الله قال الله تعالى (إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت) وهذا جواب سؤال غير مذكور تقديره قال له من ربك فقال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قرأ حمزة ربى الذى يحيى ويميت باسكان الياء وكذلك «حرم ربى الفواحش، وعن آياتى الذين يتكبرون، وقل لعبادى الذين، وآتانى الكتاب، ومسنى الضر، وعبادى الصالحون وعبادى الشكور، ومسنى الشيطان، وإن أرادنى الله، وإن أهلكنى الله» أسكن الياء فيهن حمزة ووافق ابن عامر والكسائى فى لعبادى الذين آمنوا وابن عامر آياتى الذين وفتحها الآخرون (قال) نمرود (أنا أحيى وأميت) قرأ أهل المدينة أنا باثبات الألف والمد فى الوصل إذا تلتها ألف مفتوحة أو مضمومة والباقون بحذف الألف ووقفوا جميعا بالألف. قال أكثر المفسرين دعا نمرود برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل القتل إماتة وترك القتل إحياء فانتقل إبراهيم إلى حجة أخرى ليعجزه فان

فى الأرض وادعى الربوبية (أن آتاه الله الملك) أى لأن آتاه الله الملك فطغى وتجبر بسببه وكانت تلك المحاجة من بطر الملك وطغيانه قال مجاهد ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران فأما المؤمنان فسليمان بن داود وذو القرنين وأما الكافران فنمرود وبختنصر. واختلفوا فى وقت هذه المحاجة فقيل لما كسر إبراهيم الأصنام سجنه نمرود ثم أخرجه ليحرقه فقال له: من ربك الذى تدعونا إليه؟ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت وقيل كان هذا بعد إلقائه فى النار وذلك أن الناس قحطوا على عهد نمرود وكان الناس يمتارون من عنده الطعام فكان إذا أتاه أحد يمتار سأله من ربك ؟ فيقول أنت فيميره فخرج إبراهيم عليه السلام إليه يمتار لأهله الطعام فأتاه فقال له من ربك قال ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم «فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر» فرده بغير طعام فرجع إبراهيم إلى أهله فمر على كثيب رمل أعفر فأخذ منه تطييبا لقلوب أهله إذا دخل عليهم فلما أتى أهله وضع متاعه ثم نام فقامت زوجته سارة إلى رحله ففتحته فاذا هو طعام أجود ما رآه أحد فصنعت منه خبزا فلما انتبه قربته إليه فقال لها إبراهيم من أين هذا؟ وكان عهد أهله وليس عندهم طعام فقالت من الطعام الذى جئت به فعلم إبراهيم أن الله قد رزقه فحمد الله تعالى ثم إن الله تعالى بعث إلى نمرود الجبار ملكا فقال له إن ربك يقول لك أن آمن بى وأتركك فى ملكك قال وهل رب غيرى فجاءه الثانية فقال له مثل ذلك ثم أتاه الثالثة فرد عليه مثل ذلك فقال له الملك اجمع جموعك فجمع الجبار جموعه فأمر الله الملك ففتح عليه بابا من البعوض حتى سترت الشمس فلم يروها فبعثها الله عليهم فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلا العظام ونمرود ينظر ولم يصبه شىء من ذلك ثم بعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره فمكثت فى رأسه أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وكان أرحم الناس به من يجمع له يديه ثم يضرب بهما رأسه فكان كذلك يعذب أربعمائة سنة مدة ملكه حتى أماته الله عز وجل (إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت) هذا جواب سؤال غير مذكور تقديره قال له نمرود من ربك قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت (قال) يعنى قال نمرود (أنا أحيى وأميت) قال أكثر المفسرين دعا نمرود برجلين فقتل أحدهما واستحيا الآخر فجعل ترك القتل إحياء فانتقل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إلى حجة أخرى لا عجزا عن نصر حجته الأولى فانها كانت لازمة لأنه أراد بالإحياء إحياء الميت فكان لإبراهيم أن يقول لنمرود فأحيى من أمت إن كنت صادقا ولكن انتقل إلى حجة أخرى أوضح من الأولى لما رأى من قصور فهم نمرود وضعف رأيه فانه عارض

حجته كانت لازمة لأنه أراد بالله حيا إحياء الميت فكان له أن يقول فأحي من أمت إن كنت صادقا فانتقل إلى حجة أخرى أوضح من الأولى (قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر) أى تحير ودهش وانقطعت حجته. فان قيل كيف بهت وكان يمكنه أن يعارض إبراهيم فيقول له سل أنت ربك حتى يأتى بها من المغرب قيل إنما لم يقله لأنه خاف أن لو سأل ذلك دعا إبراهيم ربه فكان زيادة فى فضيحته وانقطاعه والصحيح أن الله صرفه عن تلك المعارضة إظهارا للحجة عليه أو معجزة لإبراهيم عليه السلام (والله لايهدى القوم الظالمين) قوله تعالى (أو كالذى مر على قرية) وهذه الآية منسوقة على الآية الأولى تقديره «ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه» وهل رأيت كالذى مر على قرية وقيل تقديره هل رأيت كالذى حاج إبراهيم فى ربه وهل رأيت كالذى مر على قرية. واختلفوا فى ذلك المار فقال قتادة وعكرمة والضحاك هو عزير بن شرخيا، وقال وهب بن منبه هو أرمياء بن حلقيا وكان من سبط هارون وهو الخضر، وقال مجاهد هو كافر شك فى البعث. واختلفوا فى تلك القرية فقال وهب وعكرمة وقتادة هى بيت المقدس وقال الضحاك هى الأرض المقدسة وقال الكلبى هى دير سابر أباد، وقال السدى مسلم أباد وقيل دير هرقل وقيل هى الأرض التى أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف وقيل هى قرية العنب وهى على فرسخين من بيت المقدس (وهى خاوية) ساقطة يقال فمن خوى البيت بكسر الواو يخوى خوى مقصورا إذا سقط وخوى البيت بالفتح خواء ممدودا إذا خلا (على عروشها) سقوفها واحدها عرش وقيل كل بناء عرش ومعناه أن السقوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها (قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها) وكان السبب فى ذلك على ماروى محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أن الله تعالى بعث أرمياء إلى ناشية بن أموص ملك بنى إسرائيل ليسدده فى ملكه ويأتيه بالخبر من الله عز وجل فعظمت الأحداث فى بنى إسرائيل وركبوا المعاصى فأوحى الله تعالى إلى أرمياء أن ذكر قومك

الفعل بمثله ونسى اختلاف الفعلين (قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر) يعنى تحير نمرود ودهش وانقطعت حجته ولم يرجع إليه شيئا وعرف أنه لايطيق ذلك. فان قلت كيف بهت الذى كفر وكان يمكنه أن يقول لإبراهيم سل أنت ربك حتى يأتى بها من المغرب. قلت إنما لم يقله لأنه خاف أنه لو سأل ذلك دعا إبراهيم ربه فكان ذلك زيادة فى فضيحة نمرود وانقطاعه وقيل إن الله تعالى صرفه عن تلك المعارضة إظهارا للحجة عليه ومعجزة لإبراهيم صلى الله عليه وسلم وهو الصحيح (والله لايهدى القوم الظالمين) يعنى لايرشدهم إلى حجة يدحضون بها حجج أهل الحق عند المحاجة والمخاصمة وعنى بالظالمين نمرود. قوله عز وجل (أو كالذى مر على قرية) هذه معطوفة على الآية التى قبلها والمعنى ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم أو كالذى مر على قرية فيكون هذا عطفا على المعنى وقيل تقديره هل رأيت كالذى حاج إبراهيم وهل رأيت كالذى مر على قرية وقيل الكاف زائدة التقدير ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم أو إلى الذى مر على قرية واختلفوا فى ذلك المار فروى عن مجاهد أنه كان كافرا شك فى البعث وهذا قول ضعيف لقوله تعالى «قال كم لبثت» والله تعالى لايخاطب الكافر ولقوله تعالى «ولنجعلك آية للناس» وهذا اللفظ لايستعمل فى حق الكافر وإنما يستعمل فى حق الأنبياء وقال قتادة وعكرمة والضحاك والسدى هو عزير بن شرخيا وقال وهب بن منبه هو أرمياء بن حلقيا من سبط هارون وهو الخضر ومقصود القصة تعريف منكرى البعث قدرة الله تعالى على إحياء خلقه بعد إماتتهم لا تعريف اسم ذلك المار على القرية فجائز أن يكون ذلك المار هو عزير وجائز أن يكون أرمياء وفى هذه القصة دلالة عظيمة بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر اليهود بما يجدونه فى كتبهم ويعرفونه وهو أمى لم يقرأ الكتب القديمة واختلفوا فى تلك القرية فقيل هى بيت المقدس وذلك لما خربها بختنصر والمراد بالإحياء هنا عمارتها وقيل هى القرية التى أهلك الله أهلها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف وقيل هى دير سابر آباد وقيل سلماباد وقيل هى دير هرقل وقيل قرية العنب هى على فرسخين من بيت المقدس وقوله هى دير سابر أباد موضع كان بفارس وسلماباد محلة أو قرية من نواحى جرجان وقيل أيضا من نواحى همدان ودير هرقل بكسر أوله وراء ساكنة وقاف مكسورة دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم وقيل هو موضع الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم لحزقيل كما تقدم ويقال إن المراد بقوله تعالى «أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها» هى التى عندها أحيا الله حمار عزير (وهى خاوية على عروشها) أى ساقطة على سقوفها وذلك أن السقوف سقطت أولا ثم وقفت الحيطان عليها بعد ذلك (قال) يعنى ذلك المار (أنى يحيى هذه الله بعد موتها)

لنعمى وعرفهم أحداثهم وادعهم إلى فقال أرمياء إنى ضعيف إن لم تقونى عاجز إن لم تبلغنى مخذول إن لم تنصرنى فقال الله عز وجل: أنا ألهمك فقام أرمياء فيهم ولم يدر مايقول فألهمه الله فى الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال فى آخرها عن الله تعالى وإنى أحلف بعزتى لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحكيم ولأسلطن عليهم جبارا فارسيا ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى الله تعالى إلى أرمياء إنى مهلك بنى إسرائيل ويافث من أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام فلما سمع أرمياء ذلك

صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فلما سمع الله تضرعه وبكاءه ناداه ياأرمياء أشق عليك ماأوحيت إليك قال نعم يارب أهلكنى قبل أن أرى فى بنى إسرائيل مالا أسر به فقال الله تعالى وعزتى لاأهلك بنى إسرائيل حتى يكون الأمر فى ذلك من قبلك ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه فقال لا والذى بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بنى إسرائيل ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكا صالحا فاستبشر وفرح فقال إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة وإن عفا عنا فبرحمته ثم إنهم لبثوا بعد الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا إلا معصية وتماديا فى الشر وذلك حين اقترب هلاكهم فقل الوحى ودعاهم الملك إلي التوبة فلم يفعلوا فسلط الله عليهم بختنصر فخرج فى ست مائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس فلما فصل سائرا أتى الملك الخبر فقال لأرمياء أين ما زعمت أن الله أوحى إليك فقال أرمياء إن الله لايخلف الميعاد وأنا به واثق فلما قرب الأجل بعث الله إلى أرمياء ملكا قد تمثل له رجلا من بنى إسرائيل فقال له أرمياء من أنت قال أنا رجل من بنى إسرائيل أتيتك أستفتيك فى أهل رحمى وصلت أرحامهم ولم آت إليهم إلا حسنا ولا يزيدهم إكرامى إياهم إلا إسخاطا لى فأفتنى فيهم قال أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير فانصرف الملك فمكث أياما ثم أقبل إليه فى صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال له أرمياء من أنت قال أنا الرجل الذى أتيتك أستفتيك فى شأن أهلى ؟ فقال له

فمن قال إن ذلك المار كان كافرا وهو ضعيف إنما حمله على الشك فى قدرة الله ومن قال كان نبيا حمله على سبيل الاستبعاد بحسب مجارى العرف والعادة لا على سبيل الإنكار لقدرة الله تعالى أو كان المقصود منه طلب زيادة الدلائل لأجل التأكيد كما قال إبراهيم عليه السلام «رب أرنى كيف تحيي الموتى» ومعنى «أنى يحيي هذه الله» من أين يحيي هذه القرية والمراد بالإحياء عمارتها فأحب الله أن يريه آية في نفسه وفى إحياء تلك القرية . وكان سبب القصة فى ذلك ماروى عن وهب بن منبه أن الله تعالى بعث أرمياء إلي ناشية بن أموص ملك بنى إسرائيل ليسدده ويأتيه بالخبر من الله تعالى فعظمت الأحداث فى بنى إسرائيل وركبوا المعاصى فأوحى الله تعالي إلى أرمياء أن ذكر قومك نعمى عليهم وعرفهم أحداثهم وادعهم إلى فقال أرمياء يارب إنى ضعيف إن لم تقونى عاجز إن لم تبلغنى مخذول إن لم تنصرنى فقال الله تعالي إنى ألهمك فقام أرمياء فيهم ولم يدر مايقول فألهمه الله تعالى فى الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال فى آخرها عن الله عز وجل إنى أحلف بعزتى لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحكيم ولأسلطن عليهم جبارا فارسيا ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى الله تعالى إليه إنى مهلك بنى إسرائيل بيافث ويافث هم أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح فلما سمع أرمياء ذلك صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فلما رأى الله تضرعه وبكاءه ناداه ياأرمياء أشق عليك ماأوحيت إليك قال نعم يارب أهلكنى قبل أن أرى في بنى إسرائيل مالا أسر به فقال الله عز وجل وعزتى وجلالى لاأهلك بنى إسرائيل حتى يكون الأمر فى ذلك من قبلك ففرح أرمياء بذلك وطابت نفسه وقال لاوالذى بعث موسى بالحق لاأرضى بهلاك بنى إسرائيل ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكا صالحا فاستبشر وفرح وقال إن يعذبنا ربنا فبذنوبنا وإن يعف عنا فبرحمته ثم إنهم مكثوا بعد ذلك الوحى ثلاث سنين لم يزدادوا إلا معصية وتماديا فى الشر وذلك حين اقترب هلاكهم فقل الوحى فدعاهم الملك إلي التوبة فلم يفعلوا فسلط الله عليهم بختنصر البابلى فخرج فى ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس فلما فصل سائرا وأتى الخبر إلى ملك بنى إسرائيل قال لأرمياء أين مازعمت أن الله تعالى أوحى إليك فقال أرمياء إن الله لايخلف الميعاد وأنا به واثق فلما قرب الأجل بعث الله تعالى إلى أرمياء ملكا قد تمثل له فى صورة رجل من بنى إسرائيل فقال له أرمياء من أنت قال أنا رجل من بنى إسرائيل أتيتك أستفتيك فى أهل رحمى وصلت أرحامهم ولم آت إليهم إلا حسنا ولا يزيدهم إكرامى إياهم إلا سخطا لى فأفتنى فيهم فقال أرمياء

ارمياء أما طهرت أخلاقهم بعدلك قال يانبي الله والذي بعثك بالحق ماأعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى رحمه إلا قدمتها إليهم وأفضل فقال له النبي أرمياء عليه الصلاة والسلام ارجع فأحسن إليهم أسأل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم فانصرف الملك فمكث أياما وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففزع منهم بنو إسرائيل فقال ملكهم لأرمياء يانبي الله أين ماوعدك الله قال إني بربي واثق ثم أقبل الملك إلى أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذي وعده

فقعد بين يديه فقال له أرمياء من أنت فقال أنا الذي أتيتك في شأن أهلي مرتين فقال النبي ألم يأن لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه فقال الملك يانبي الله كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه فاليوم رأيتهم في عمل لايرضى الله فقال النبي على أي عمل رأيتهم قال علي عمل عظيم من سخط الله فغضبت لله وأتيتك لأخبرك وإني أسألك بالله الذي بعثك بالحق نبيا إلا مادعوت الله عليهم ليهلكهم فقال أرمياء يامالك السموات والأرض إن كانوا علي حق وصواب فأبقهم وإن كانوا على عمل لاترضاه فأهلكهم فلما خرجت الكلمة من في أرمياء أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس فالتهب مكان القربان وخسف بسبعة أبواب من أبوابها فلما رأى ذلك أرمياء صاح وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه وقال يامالك السموات والأرض أين ميعادك الذي وعدتني به فنودي إنه لم يصبهم ماأصابهم إلا بفتياك ودعائك فاستيقن النبي ومعه عليه السلام أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسول ربه فطار أرمياء حتى خالط الوحوش ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ووطئ الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا فيقذفه في بيت المقدس ففعلوا حتى ملئوه ثم أمرهم أن يجمعوا من كان في بلدان بيت المقدس فاجتمع عندهم صغيرهم وكبيرهم من بني إسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبي فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمة وكان من

أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير فانصرف الملك فمكث أياما ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال له أرمياء من أنت قال أنا الرجل الذي أتيتك أستفتيك في شأن أهلي فقال له أرمياء أما طهرت أخلاقهم بعدلك فيهم فقال يانبي الله والذي بعثك بالحق نبيا ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى رحمه إلا قدمتها إليهم وأفضل فقال أرمياء ارجع إليهم فأحسن إليهم واسأل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم فقام الملك فمكث أياما ثم إن بختنصر نزل بجنوده بيت المقدس ففزع منهم بنو إسرائيل فقال ملكهم لأرمياء يانبي الله أين ماوعدك الله فقال إني بربي واثق ثم أقبل ذلك الملك إلى أرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه الذي وعده فقعد بين يديه فقال له أرمياء من أنت قال أنا الذي جئتك في شأن أهلي مرتين فقال أرمياء أما آن لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه فقال الملك يانبي الله إن كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه فاليوم رأيتهم على عمل لا يرضى الله تعالى فقال له أرمياء على أي عمل رأيتهم قال على عمل عظيم يسخط الله تعالي فغضبت لله عز وجل فأتيتك لأخبرك وأنا أسألك بالله الذي بعثك بالحق أن تدعو الله عليهم ليهلكوا فقال أرمياء يامالك السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام إن كانوا على حق وصواب فأبقهم وإن كانوا على عمل لا ترضاه فأهلكهم فما خرجت الكلمة من فيه حتى أرسل الله عز وجل صاعقة من السماء على بيت المقدس فالتهب مكان القربان وأحرقت سبعة أبواب من أبوابه فلما رأى ذلك أرمياء صاح وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه وقال يامالك السموات والأرض أين ميعادك الذي وعدتني به فنودي إنهم لم يصبهم ماأصابهم إلا بفتياك ودعائك عليهم فاستيقن أرمياء أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسولا من الله تعالى إليه فخرج أرمياء حتى خالط الوحوش ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ووطىء الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ويقذفه في بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملئوه ثم أمرهم أن يجمعوا من كان بقي في بلدان بيت المقدس فاجتمع عنده من كان بقي من بني إسرائيل من صغير وكبير فاختار منهم سبعين ألف صبي فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمة وكان في أولئك الغلمان دانيال عليه السلام وحنانيا وعزير وفرق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق فثلثا قتلهم وثلثا سباهم وثلثا أقرهم بالشام فكانت هذه الوقعة الأولي التي أنزلها الله ببني إسرائيل بظلمهم فلما ولى بختنصر راجعا إلي بابل ومعه سبايا بني إسرائيل أقبل أرمياء على حمار له

أولئك الغامان دانيال وحنانيا وفرق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق فثلثا قتلهم وثلثا سباهم وثلثا أقرهم بالشأم وكانت هذه الواقعة الأولي التي أنزلها الله في بني إسرائيل بظلمهم فلما ولى عنهم بختنصر راجعا إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل أقبل أرمياء على حمار له معه عصير عنب في ركوة وسلة تين حتى غشي إيلياء فلما وقف عليها ورأى خرابها قال أني يحيي هذه الله بعد موتها وقال الذي قال إن المار كان عزيرا وأن بختنصر لما خرب بيت المقدس وقدم بسبي بني إسرائيل ببابل كان فيهم عزير ودانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل دير هرقل على شط دجلة فطاف في القرية فلم ير فيها أحدا وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال أني يحيي هذه الله بعد موتها قالها تعجبا لاشكا في البعث.

رجعنا إلى حديث وهب قال ثم ربط أرمياء حماره بحبل جديد فألقى الله تعالى عليه النوم فلما نام نزع الله منه الروح مائة عام وأمات حماره وعصيره وتينه عنده فأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضحى ومنع الله السباع والطير لحمه فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل الله ملكا إلي ملك من ملوك فارس يقال له نوشلك فقال إن الله يأمرك أن تنفر بقومك فتعمر بيت المقدس وإيليا حتى يعود أعمر ما كان فانتدب الملك ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل وجعلوا يعمرونه ، فأهلك الله بختنصر ببعوضة دخلت دماغه ، ونجى الله من بقي من بني إسرائيل ، ولم يمت ببابل أحد وردهم جميعا إلى بيت المقدس ونواحيه وعمروها ثلاثين سنة وكثروا حتى عادوا على أحسن ما كانوا عليه فلما مضت المائة أحيا الله منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا جسده وهو ينظر إليه ثم نظر إلى حماره فاذا عظامه متفرقة بيض تلوح فسمع صوتا من السماء أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض ثم نودي إن الله يأمرك أن تكتسي لحما وجلدا فكانت كذلك ثم نودي إن الله يأمرك أن تحيا فقام باذن الله ونهق وعمر الله أرمياء فهو الذي يرى في الفلوات فذلك قوله تعالي (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) أي أحياه (قال كم لبثت) أي كم مكثت يقال لما أحياه الله بعث إليه ملكا فسأله كم لبثت (قال لبثت يوما)

ومعه عصير عنب في ركوة وسلة تين حتى غشي إيليا وهي أرض بيت المقدس فلما رأى خرابها قال أني يحيي هذه الله بعد موتها ومن قال إن المار كان عزيرا قال إن بختنصر لما خرب بيت المقدس قدم بسبايا بني إسرائيل وكان فيهم عزير ودانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار حتى نزل دير هرقل على شط دجلة فطاف بالقرية فلم ير أحدا وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق ولما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال أني يحيي هذه الله بعد موتها وإنما قال ذلك تعجبا لا شكا في البعث ورجعنا إلى حديث وهب قال ثم إن أرمياء ربط حماره بحبل جديد وألقى الله تعالي عليه النوم فلما نام نزع الله منه الروح فمات مائة عام وأمات حماره وبقي عصيره وتينه عنده وأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضحى ومنع لحمه من السباع والطير فلما مضى من وقت موته مدة سبعين سنة أرسل الله تعالى ملكا إلى ملك من ملوك فارس يقال له نوشك وقال له إن الله يأمرك أن تنفر بقومك فتعمر بيت المقدس وإيليا حتى يعود أعمر ما كان فانتدب الملك ألف قهرمان مع كل قهرمان ثلثمائة ألف عامل وجعلوا يعمرونه وأهلك الله بختنصر ببعوضة دخلت في دماغه ونجي الله من بقي من بني إسرائيل وردهم جميعا إلى بيت المقدس ونواحيها فعمروها ثلاثين سنة وكثروا كأحسن ما كانوا فلما مضت المائة أحيا الله منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا الله جسده وهو ينظر ثم نظر إلى حماره فاذا عظامه تلوح بيض متفرقة فسمع صوتا من السماء أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها إلى بعض ثم نودي إن الله يأمرك أن تكتسي لحما وجلدا فكان كذلك ثم نودي إن الله يأمرك أن تحيي فقام الحمار باذن الله ثم نهق وعمر الله أرمياء فهو يدور في الفلوات فذلك قوله تعالى (فأماته الله مائة عام) أصل العام من العوم وهو السباحة سميت السنة عاما لأن الشمس تعوم في جميع بروجها (ثم بعثه) أي ثم أحياه وأصله من بعثت الناقة إذا أقمتها من مكانها (قال كم لبثت) يعني قال الله تعالى له كم قدر الزمان الذي مكثت فيه ميتا قبل أن أبعثك من مكانك حيا ويقال إن الله تعالى لما أحياه بعث إليه ملكا فسأله كم لبثت (قال) يعني ذلك المبعوث بعد مماته (لبثت يوما) وذلك أن الله تعالى أماته ضحى في أول النهار

وأحياه بعد مائة سنة فى آخر النهار قبل أن تغيب الشمس فقال لبثت يوما وهو يرى أن الشمس قدغابت ثم التفت فرأى بقيةمن الشمس فقال (أو بعض يوم قال) يعنى قال الله له ، وقيل قال الملك له (بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك) يعنى التين الذى كان معه قبل موته (وشرابك) يعنى العصير (لم يتسنه) يعنى لم تغيره السنون التى أتت عليه فكان التين كأنه قد قطف من ساعته والعصير كأنه قد عصر من ساعته لم يتغير ولم ينتن (وانظر إلى حمارك) أى وانظر إلى إحياء حمارك فنظر فاذا هو عظام بيض فركب الله تعالى العظام بعضها على بعض ثم كساه اللحم والجلد وأحياه وهو ينظر (ولنجعلك آية للناس) قيل الواو زائدة مقحمة وقيل دخول الواو فيه دلالة علي أنها شرط لفعل بعدها والمعنى وفعلنا مافعلنا من الإماتة والإحياء لنجعلك آية للناس يعنى عبرة ودلالة على البعث بعد الموت وقال أكثر المفسرين وقيل إنه عاد إلى القرية وهو شاب أسود الرأس واللحية وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز شمط فكان ذلك آية للناس (وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما) قرئ بالراء ومعناه كيف نحييها يقال أنشر الله الميت إنشارا يعنى أحياه وقرئ بالزاى ومعنا: كيف نرفعها من الأرض ونردها إلى مكانها من الجسد وتركيب بعضها على بعض وإنشاز الشئ رفعه وازعاجه يقال نشزته فنشز أى رفعته فارتفع واختلفوا فى معنى الآية فقال الأكثرون إنه أراد عظام الحمار قيل إن الله تعالى أحيا عزيرا أو أرميا على اختلاف القولين فيه ثم قال له انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه فنظر وبعث الله ريحا فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل فاجتمعت فركب بعضها على بعض حتى الكسرة من العظم رجعت إلى موضعها فصار حمارا من عظام ليس عليه لحم ولا فيه دم ثم كسا الله تلك العظام اللحم والعروق والدم فصار حماراً ذا لحم ودم لاروح فيه ثم بعث الله ملكا فأقبل إليه يمشى حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ فيه الروح فقام الحمار حيا باذن الله تعالي ثم نهق وقيل أراد بالعظام عظام هذا الرجل نفسه وذلك أن الله تعالى أماته ثم بعثه ولم يمت حماره ثم قيل له انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره حيا قائما كهيئته يوم ربطه

وذلك أن الله تعالى أماته ضحى فى أول النهار وأحياه بعد مائة عام فى آخر النهار قبل غيبوبة الشمس فقال كم لبثت قال لبثت يوما وهو يرى أن الشمس قد غربت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال (أو بعض يوم) بل بعض يوم (قال) له الملك (بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك) يعنى التين (وشرابك) يعنى العصير (لم يتسنه) أى لم يتغير فكان التين كأنه قطف من ساعته والعصير كأنه عصر من ساعته قال الكسائى كأنه لم تأت عليه السنون ، وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب لم يتسن بحذف الهاء فى الوصل وكذلك «فبهداهم اقتده» وقرأ الآخرون بالهاء فيهما وصلا ووقفا فمن أسقط الهاء فى الوصل جعل الهاء صلة زائدة وقال أصله يتسنى فحذف الياء بالجزم وأبدل منه هاء فى الوقف وقال أبو عمرو هو من التسنن بنونين وهو التغير ، كقوله تعالى «من حمإ مسنون» أى متغير فعوضت من إحدى النونين ياء كقوله تعالى «ثم ذهب إلى أهله يتمطى» أى يتمطط وقوله «وقد خاب من دساها» وأصله دسسها ومن أثبت الهاء فى الحالين جعل الهاء أصلية لام الفعل وهذا علي قول من جعل أصل السنة السنهة وتصغيرها سنيهة والفعل من المسانهة وإنما قال لم يتسنه ولم يثنه مع أنه أخبر عن شيئين ردا للمتغير إلى أقرب اللفظين به ، وهو الشراب واكتفى بذكر أحد المذكورين لأنه فى معنى الآخر (وانظر إلى حمارك) فنظر فاذا هو عظام بيض فركب الله تعالى العظام بعضها على بعض فكساه اللحم والجلد وأحياه وهو ينظر (ولنجعلك آية للناس) قيل الواو زائدة مقحمة وقال الفراء أدخلت الواو فيه دلالة على أنها شرط لفعل بعدها معناه ولنجعلك آية عبرة ودلالة على البعث بعد الموت قاله أكثر المفسرون وقال الضحاك وغيره إنه عاد إلى قريته شابا وأولاده وأولاد أولاده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللحية قوله تعالى (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) قرأ أهل الحجاز والبصرة ننشرها بالراء معناها نحييها يقال أنشر الله الميت إنشارا أو نشره نشورا قال الله تعالى «ثم إذا شاء أنشره» وقال فى اللازم وإليه النشور وقال الآخرون بالزاى أى نرفعها من الأرض ونردها إلى مكانها ونركب بعضها على بعض وإنشاز الشيء رفعه وإزعاجه فقال أنشزته فنشز أى رفعته فارتفع واختلفوا فى معنى الآية فقال الأكثرون أراد به عظام حماره وقال السدى إن الله تعالى أحيا عزيرا ثم قال له انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه فبعث الله تعالى ريحا فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل وقد ذهبت بها الطير والسباع فاجتمعت فركب بعضها فى بعض وهو ينظر فصار حمارا من عظام ليس فيه لحم ولا دم (ثم نكسوها لحما) ثم كسى العظام لحما ودما فصار حمارا لاروح فيه ثم أقبل ملك يمشى حتى أخذ بمنخر الحمار لم

فنفخ فيه فقام الحمار ونهق باذن الله وقال قوم أراد به عظام هذا الرجل وذلك أن الله تعالى لم يمت حماره بل أماته هو فأحيا الله عينيه ورأسه وسائر جسده ميت ثم قال انظر إلى حمارك فنظر فرأى حمارا قائما واقفا كهيئته يوم ربطه حيا لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر إلى الرمة فى عنقه جديدة لم تتغير وتقدير الآية وانظر إلى حمارك وانظر إلى عظامك كيف ننشزها وهذا قول قتادة عن كعب والضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما والسدى عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما لما أحيا الله تعالى عزيرا بعد ما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس ومنازله فانطلق على وهم حتى أتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت عرفته وعقلته فقال لها عزير ياهذه هذا منزل عزير قالت نعم هذا منزل عزير وبكيت وقالت مارأيت أحدا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرا قال فانى أنا عزير قالت سبحان الله فان عزيرا قد فقدناه من مائة سنة لم نسمع له بذكر قال فانى أنا عزير كان الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى قالت فان عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة ويدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية فادع الله أن يرد علي بصرى حتى أراك فان كنت عزيرا عرفتك فدعا ربه ومسح بيديه على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال قومى باذن الله تعالى فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة فنظرت إليه فقالت أشهد أنك عزير فانطلقت إلى بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ كبير ابن مائة سنة وثمانية عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فى المجلس فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت أنا فلانة مولاتكم دعا لى ربه فرد على بصرى وأطلق رجلى وزعم أن الله كان أماته مائة سنة ثم بعثه فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ولده كان لأبى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فاذا هو عزير وقال السدى والكلبى لما رجع عزير إلى قومه وقد أحرق بختنصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلق فبكى عزير على التوراة فأتاه ملك باناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فمثلت التوراة فى صدره فرجع إلى بنى إسرائيل وقد علمه الله التوراة وبعثه نبيا فقال أنا عزير فلم يصدقوه ، فقال إنى عزير قد بعثنى الله إليكم لأجدد لكم توراتكم قالوا أملها علينا فأملاها عليهم من ظهر قلبه فقالوا ماجعل الله التوراة فى صدر رجل بعد ماذهبت إلا أنه ابنه فقالوا عزير ابن الله وستأتى القصة فى سورة براءة إن شاء الله تعالى (فلما تبين له) ذلك عيانا (قال أعلم) قرأ حمزة والكسائى مجزوما موصولا على الأمر

لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر إلى الرمة فى عنقه جديدة لم تتغير ثم قيل له انظر إلى العظام كيف ننشرها وذلك أن الله أول ما أحيا منه عينيه فنظر فرأى سائر جسده ميتا وفى الآية تقديم وتأخير تقديره وانظر إلى حمارك وانظر إلى العظام كيف ننشرها ولنجعلك آية للناس وعن ابن عباس وغيره من المفسرين لما أحيا الله عزيرا بعد ما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى إلى محلته فأنكره الناس وأنكر منازله فانطلق على وهم حتى أتى منزله فاذا بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة وكانت أمة لهم ولما خرج عزير عنهم كانت بنت عشرين سنة وكانت قد عرفته وعقلته فقال لها عزير ياهذه هذا منزل عزير فقالت نعم وبكت وقالت مارأيت أحدا يذكر عزيرا منذ كذا وكذا فقال أنا عزير فقالت سبحان الله إن عزيرا فقدناه من مائة سنة ولم نسمع له بذكر فقال إنى عزير إن الله تعالى أماتنى مائة سنة ثم أحيانى فقالت إن عزيرا كان رجلا مجاب الدعوة وكان يدعو للمريض وصاحب البلايا بالعافية فادع الله أن يرد علي بصرى حتى أراك فان كنت عزيرا عرفتك فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال لها قومى باذن الله تعالى فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة فنظرت إليه وقالت أشهد أنك عزير وانطلقت إلى بنى إسرائيل وهم فى أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ ابن مائة سنة وثمانية عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذبوها فقالت أنا فلانة مولاتكم فدعا عزير ربه فرد على بصرى وأطلق رجلى وزعم أن الله تعالى قد أماته مائة سنة ثم بعثه قال فنهض الناس إليه وقال ابنه كان لأبى شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فنظر إليها فرآها فعرف أنه عزير ، وقيل لما رجع عزير إلى قريته وقد أحرق بختنصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلائق بكى عزير على التوراة فأتاه ملك باناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فثبتت التوراة فى صدره فرجع إلى بنى إسرائيل وقد علمه الله التوراة وبعثه نبيا فقال أنا عزير فلم يصدقوه فقال إنى عزير وقد بعثنى الله إليكم لأجدد لكم توراتكم قالوا فأملها علينا فأملاها عليهم من ظهر قلبه فقالوا ماجعل الله التوراة فى قلب رجل بعد ماذهبت إلا أنه ابنه فقالوا عزير ابن الله وستأتى القصة فى سورة التوبة إن شاء الله تعالى . وقوله تعالى (فلما تبين له) يعنى فلما اتضح له عيانا ما كان ينكره من إحياء القرية ورآه عيانا فى نفسه (قال أعلم)

على معنى قال الله تعالى له اعلم وقرأ الآخرون أعلم بقطع الألف ورفع الميم على الخبر عن عزير أنه قال لما رأى ذلك أعلم (أن الله على كل شيء قدير) قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى) قال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والضحاك وابن جريج كان سبب هذا السؤال من إبراهيم عليه السلام أنه مر على دابة ميتة قال ابن جريج كانت جيفة حمار بساحل البحر قال عطاء في بحيرة طبرية قالوا فرآها وقد توزعتها دواب البحر والبر فكان إذا مد البحر جاءت الحيتان ودواب البحر فأكلت منها فما وقع منها يصير في البحر، فإذا جزر البحر ورجع جاءت السباع فأكلن منها فما سقط منها يصير ترابا، فإذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها فما سقط منها قطعته الريح في الهواء، فلما رأى ذلك إبراهيم عليه السلام تعجب منها وقال يارب قد علمت أنك لتجمعنها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف دواب البحر فأرني كيف تحييها لأعاين فأزداد يقينا فعاتبه الله تعالى (قال أولم تؤمن قال بلى) يارب علمت وآمنت (ولكن ليطمئن قلبي) أي ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة أراد أن يصير له علم اليقين عين اليقين لأن الخبر ليس كالمعاينة، وقيل كان سبب هذا السؤال من إبراهيم أنه لما احتج على نمرود فقال ربي الذي يحيي ويميت قال نمرود أنا أحيي وأميت فقتل أحد الرجلين وأطلق الآخر، فقال إبراهيم إن الله تبارك وتعالى يقصد إلى جسد ميت فيحييه فقال له نمرود أنت عاينته فلم يقدر أن يقول نعم فانتقل إلى حجة أخرى ثم سأل ربه أن يريه إحياء الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي بقوة حجتي فإذا قيل أنت عاينته فأقول نعم قد عاينته وقال سعيد ابن جبير لما اتخذ الله تعالى إبراهيم خليلا سأل ملك الموت ربه أن يأذن له فيبشر إبراهيم بذلك، فأذن له فأتى إبراهيم ولم يكن في الدار فدخل داره، وكان إبراهيم عليه السلام أغير الناس إذا خرج أغلق بابه فلما جاء وجد في داره رجلا فثار عليه ليأخذه وقال له من أذن لك أن تدخل داري فقال أذن لي رب هذه الدار فقال إبراهيم صدقت وعرف أنه ملك فقال من أنت قال أنا ملك الموت جئت أبشرك بأن الله تعالى قد اتخذك خليلا فحمد الله عز وجل قال فما علامة ذلك قال أن يجيب الله دعاءك ويحيي الله الموتى بسؤالك فحينئذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي إنك اتخذتني خليلا وتجيبني إذ دعوتك . أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد ابن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد بن صالح أنا ابن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن

قرئ مجزوما موصولا على الأمر يعني قال الله له أعلم وقرئ أعلم على قطع الألف ورفع الميم على الخبر عن الذي قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها والمعنى فلما تبين له ورأى ذلك عيانا قال أعلم (أن الله على كل شيء قدير) يعني الإماتة والإحياء . قوله عز وجل (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى) اختلفوا في سبب هذا السؤال من إبراهيم عليه السلام فقيل إنه مر على دابة ميتة وهي جيفة حمار وقيل بل كانت حوتا ميتا وقيل كان رجلا ميتا بساحل البحر وقيل بحر طبرية فرآها وقد توزعها دواب البحر والبر . فإذا مد البحر جاءت الحيتان فأكلت منها وإذا جزر البحر جاءت السباع فأكلت منها. فإذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها فلما رأى إبراهيم ذلك تعجب منها وقال يارب إني قد علمت إنك لتجمعها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف الدواب فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك فأزداد يقينا فعاتبه الله تعالى (قال أولم تؤمن) يعني أولم تصدق (قال بلى) يارب قد علمت وآمنت (ولكن ليطمئن قلبي) أي ليسكن قلبي عند المعاينة أراد إبراهيم عليه السلام أن يصير له علم اليقين عين اليقين لأن الخبر ليس كالمعاينة وقيل لما رأى الجيفة على البحر وقد تناولتها السباع والطير ودواب البحر تفكر كيف يجتمع ماتفرق من تلك الجيفة وتطلعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه ربه ولم يكن إبراهيم عليه السلام شاكا في إحياء الله الموتى ولا دافعا له ولكنه أحب أن يرى ذلك عيانا كما أن المؤمنين يحبون أن يروا نبيهم محمدا صلى الله عليه وسلم ويحبون رؤية الله تعالى في الجنة ويطلبونها ويسألونه في دعائهم مع الإيمان بصحة ذلك وزوال الشك عنهم فكذلك أحب إبراهيم أن يصير الخبر له عيانا وقيل كان سبب هذا السؤال من إبراهيم أنه لما احتج على نمرود فقال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت فقال نمرود: أنا أحيي وأميت فقتل أحد الرجلين وأطلق الآخر فقال إبراهيم إن الله تعالى يقصد إلى جسد ميت فيحييه فقال له نمرود أنت عاينته فلم يقدر إبراهيم أن يقول نعم فانتقل إلى حجة أخرى ثم سأل إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي بقوة حجتي فإذا قيل أنت عاينته فأقول نعم وقال سعيد بن جبير لما اتخذ الله إبراهيم خليلا

خليلا سأل ملك الموت ربه أن يأذن له فيبشر إبراهيم بذلك فأذن له فأتى إبراهيم ولم يكن في الدار فدخل داره وكان إبراهيم من أغير الناس وكان إذا خرج أغلق بابه فلما جاء وجد في الدار رجلا فثار إليه ليأخذه وقال له من أذن لك أن تدخل داري فقال أذن لي رب الدار فقال إبراهيم صدقت وعرف أنه ملك فقال له من أنت قال أنا ملك الموت جئتك أبشرك أن الله قد اتخذك خليلا فحمد الله عز وجل وقال له ما علامة ذلك قال أن يجيب الله دعاءك ويحيي الموتى بسؤالك فحينئذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي بأنك اتخذتني خليلا وتجيبني إذا دعوتك وتعطيني إذا سألتك (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن مالبث يوسف لأجبت الداعي». (القول على معنى الحديث) وما يتعلق به اختلف العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم «نحن أحق بالشك من إبراهيم» على أقوال كثيرة فأحسنها وأصحها ما نقل المزني وغيره من العلماء أن الشك مستحيل في حق إبراهيم فان الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به من إبراهيم ولقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أن إبراهيم لم يشك وإنما خص إبراهيم بالذكر لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة منها احتمال الشك فنفى ذلك عنه وقال الخطابي ليس في قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما يقول إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله لو لبثت في السجن مالبث يوسف لأجبت الداعي وفيه الإعلام بأن المسئلة من إبراهيم لم تعرض من جهة الشك لكن من قبل زيادة العلم بالبيان والعيان يفيد من المعرفة والطمأنينة مالا يفيد الاستدلال وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم شك إبراهيم ولم يشك نبينا ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن أحق بالشك من إبراهيم ومعناه أن هذا الذي تظنونه شكا أنا أولى به فانه ليس بشك وإنما هو طلب لمزيد اليقين وإنما رجح إبراهيم صلى الله عليه وسلم على نفسه صلى الله عليه وسلم تواضعا منه وأدبا أو قبل أن يعلم أنه صلى الله عليه وسلم خير ولد آدم وأما تفسير الآية فقوله تعالى وإذ قال إبراهيم أي واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم وقيل إنه معطوف على قوله «ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه» والتقدير ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ألم تر إذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال يعني قال الله لإبراهيم «أولم تؤمن» الألف في أولم تؤمن ألف إثبات وإيجاب كقول جرير: ألستم خير من ركب المطايا. أي ألستم كذلك والمعنى أو لست قد آمنت وصدقت أني أحيي الموتى قال بلى قد آمنت وصدقت ولكن ليطمئن قلبي يعني سألتك ذلك إرادة طمأنينة القلب وزيادة اليقين وقوة الحجة وقال ابن عباس: معناه ولكن لأرى من آياتك وأعلم أنك قد أجبتني (قال فخذ أربعة من الطير) قيل أخذ طاوسا وديكا وحمامة وغرابا وقيل نسرا بدل

وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ورحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول مالبث يوسف لأجبت الداعي» وأخرج مسلم بن الحجاج هذا الحديث عن حرملة بن يحيى عن وهب بهذا الإسناد مثله وقال «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى» حكى محمد بن إسحاق بن خزيمة عن أبي إبراهيم إسماعيل ابن يحيى المزني أنه قال على هذا الحديث لم يشك النبي ﷺ ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى وإنما شكا في أنه هل يجيبهما إلى ماسألا وقال أبو سليمان الخطابي ليس في قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما يقول إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله «لو لبثت في السجن طول مالبث يوسف لأجبت الداعي» وفيه الإعلام أن المسئلة من إبراهيم عليه لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان فان العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة مالايفيده الاستدلال وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه. قوله «أولم تؤمن» معناه قد آمنت فلم تسأل؟ شهد له بالإيمان كقول جرير: ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

يعنى أنتم كذلك ولكن ليطمئن قلبي بزيادة اليقين (قال فخذ أربعة من الطير) قال مجاهد وعطاء وابن

جريج أخذ طاوسا وديكا وحمامة وغرابا، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنه ونسرا بدل الحمامة وقال عطاء الخراساني أوحى إليه أن خذ بطة خضراء وغرابا أسود وحمامة بيضاء وديكا أحمر (فصرهن إليك) قرأ أبو جعفر وحمزة فصرهن إليك بكسر الصاد أي قطعهن ومزقهن يقال صار يصير صيرا إذا قطع وانصار الشيء إنصارا إذا انقطع قال الفراء هو مقلوب من صريت أصري صريا إذا قطعت وقرأ الآخرون فصرهن بضم الصاد ومعناه أملهن إليك ووجههن يقال صرت الشيء أصوره إذا أملته ورجل أصور إذا كان مائل العنق وقال عطاء معناه اجمعهن واضممهن إليك يقال صار يصور صورا إذا اجتمع ومنه قيل لجماعة النحل صور ومن فسره بالإمالة

والضم قال فيه إضمار معناه فصرهن إليك ثم قطعهن فحذفه اكتفاء بقوله «ثم اجعل على جبل منهن جزءا» لأنه يدل عليه، وقال أبو عبيدة فصرهن معناه قطعهن أيضا والصور القطع. قوله تعالى (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) قرأ عاصم برواية أبي بكر جزءا مثقلا مهموزا والآخرون بالتخفيف والهمزة وقرأ أبو جعفر مشدد الزاي بلا همز وأراد بعض الجبال، قال المفسرون أمر الله إبراهيم أن يذبح تلك الطيور وينتف ريشها ويقطعها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها بعضها ببعض ففعل ثم أمره أن يجعل أجزاءها على الجبال. واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال فقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء ويجعلها على أربعة أجبل على كل جبل ربعا من كل طائر وقيل جبل على جانب الشرق وجبل على جانب الغرب وجبل على الشمال وجبل على الجنوب، وقال ابن جريج والسدي جزأها سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رءوسهن ثم دعاهن فقال تعالين باذن الله فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى وكل عظم يصير إلى العظم الآخر وكل بضعة تصير إلى الأخرى وإبراهيم ينظر حتى لقيت كل جثة بعضها بعضا في الهواء بغير رأس ثم أقبلن إلى رءوسهن سعيا فكلما جاء طائر مال برأسه، فان كان رأسه دنا منه وإن لم يكن تأخر حتى التقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى (ثم ادعهن يأتينك سعيا) قيل المراد

الحمامة. فان قلت لم خص الطير من جملة الحيوانات بهذه الحالة. قلت لأن الطير صفته الطيران في السماء والارتفاع في الهواء وكانت همة إبراهيم عليه السلام كذلك وهو العلو في الوصول إلى الملكوت فكانت معجزته مشاكلة لهمته. فان قلت لم خص هذه الأربعة الأجناس من الطير بالأخذ. قلت فيه إشارة ففي الطاوس إشارة إلى ما في الإنسان من حب الزينة والجاه وفي النسر إشارة إلى شدة الشغف بالأكل وفي الديك إشارة إلى شدة الشغف بحب النكاح وفي الغراب إشارة إلى شدة الحرص، ففي هذه الطيور مشابهة لما في الإنسان من حب هذه الأوصاف وفيه إشارة إلى أن الإنسان إذا ترك هذه الشهوات الذميمة لحق أعلى الدرجات في الجنة وفاز بنيل السعادات (فصرهن) قرئ بكسر الصاد ومعناه قطعهن ومزقهن وقرئ بضم الصاد ومعناه أملهن (إليك) ووجههن وقيل معناه اجمعهن واضممهن إليك فمن فسره بالإمالة والضم قال فيه إضمار ومعناه فصرهن إليك ثم قطعهن فحذف اكتفاء بقوله (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) لأنه يدل عليه قال المفسرون أمر الله تعالى إبراهيم صلى الله عليه وسلم أن يذبح تلك الطيور وينتف ريشها وأن يخلط ريشها ولحمها ودمها بعضها ببعض ففعل ثم أمره أن يجعل على كل جبل منهن جزءا. واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء وأن يجعلها أربعة أجبل على كل جبل ربعا من كل طائر قيل جبل على جهة الشرق وجبل على جهة الغرب وجبل على جهة الشمال وجبل على جهة الجنوب وقيل جزأه سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رءوسهن بيده ثم دعاهن فقال تعالين باذن الله تعالى فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى وكل عظم يطير إلى العظم الآخر وكل بضعة تطير إلى البضعة الأخرى وإبراهيم ينظر حتى لقيت كل جثة بعضها ببعض في السماء بغير رءوس ثم أقبلن سعيا إلى رءوسهن كلما جاء طائر مال برأسه فان كان رأسه دنا منه وإن لم يكن تأخر عنه حتى التقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى (ثم ادعهن يأتينك سعيا) وقيل المراد بالسعي الإسراع والعدو وقيل المشي، والحكمة في سعي الطيور إليه دون الطيران لأن ذلك أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطيور أو أن أرجلها غير سليمة فنفى الله تعالى هذه الشبهة بقوله يأتينك سعيا وقيل المراد بالسعي المشي والمراد بالمشي الطيران وفيه ضعف لأنه لا يقال للطائر إذا طار سعى

بالسعى الإسراع والعدو وقيل المراد به المشى دون الطير كما قال الله تعالى «فاسعوا إلى ذكر الله» أى فامضوا والحكمة فى المشى دون الطيران كونه أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطير وأن أرجلها غير سليمة والله أعلم، وقيل السعى بمعنى الطيران (واعلم أن الله عزيز حكيم) قوله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) فيه إضمار تقديره مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم (كمثل) زارع (حبة) وأراد بسبيل الله الجهاد وقيل جميع أبواب الخير (أنبتت) أخرجت (سبع سنابل) جمع سنبلة (فى كل سنبلة مائة حبة) فان قيل فما رأينا سنبلة فيها مائة حبة فكيف ضرب المثل به قيل ذلك متصور غير مستحيل وما لا يكون مستحيلا جاز ضرب المثل به وإن لم يوجد معناه فى كل سنبلة مائة حبة إن جعل الله فيها وقيل هو موجود فى الدخن وقيل معناه أنها إن بذرت أنبتت مائة حبة فما حدث من البذر الذي كان فيها كان مضافا إليها وكذلك تأوله الضحاك فقال كل سنبلة أنبتت مائة حبة (والله يضاعف لمن يشاء) قيل معناه يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء، وقيل معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء ما بين سبع إلى سبعين إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف مما لا يعلمه إلا الله (والله واسع) غنى يعطى عن سعة (عليم) بنية من ينفق ماله. قوله تعالى (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) قال الكلبى نزلت هذه الآية فى عثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنهما «جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم صدقة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله كان عندى ثمانية آلاف فأمسكت منها لنفسى وعيالى أربعة آلاف درهم وأربعة آلاف أقرضتها ربى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت وأما عثمان فجهز جيش المسلمين فى غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها فنزلت فيهما هذه الآية» وقال عبد الرحمن بن سمرة «جاء عثمان رضى الله عنه بألف دينار فى جيش العسرة فصبها فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم يدخل فيها يده ويقلبها ويقول ماضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم فأنزل الله تعالى: الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، فى طاعة الله» (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا) وهو أن يمن عليه بعطائه فيقول أعطيتك كذا ويعد نعمه عليه فيكدرها (ولا أذى) هو أن

وقيل السعى هو الحركة الشديدة (واعلم أن الله عزيز) يعنى أنه تعالى غالب على جميع الأشياء لا يعجزه شىء (حكيم) يعنى فى جميع أموره. قوله عز وجل (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) قيل أراد به الإنفاق فى الجهاد وقيل هو الإنفاق فى جميع أبواب الخير ووجوه البر فيدخل فيه الواجب والتطوع وفيه إضمار تقديره مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله (كمثل حبة) أى كمثل زارع حبة (أنبتت) يعنى أخرجت تلك الحبة (سبع سنابل) جمع سنبلة (فى كل سنبلة مائة حبة). فان قلت فهل رأيت سنبلة فيها مائة حبة حتى يضرب المثل بها. قلت ذلك غير مستحيل وما لا يكون مستحيلا فضرب المثل به جائز وإن لم يوجد والمعنى فى كل سنبلة مائة حبة إن جعل الله ذلك فيها وقيل هو موجود فى الدخن وقيل إن المقصود من الآية أنه إذا علم الإنسان الطالب للزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمائة حبة ما كان ينبغى له ترك ذلك ولا التقصير فيه فكذلك ينبغى لمن طلب الأجر عند الله فى الآخرة أن لا يترك الانفاق فى سبيل الله إذا علم أنه يحصل له بالواحد عشرة ومائة وسبعمائة (والله يضاعف لمن يشاء) يعنى أنه تعالى يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء وقيل معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء من سبع إلى سبعين إلى سبعمائة إلى ما يشاء من الأضعاف مما لا يعلمه إلا الله (والله واسع) أى غنى يعطى عن سعة وقيل واسع القدرة على المجازاة وعلى الجود والإفضال (عليم) يعنى بنية من ينفق فى سبيله، وقيل عليم بمقادير الإنفاق وبما يستحق المنفق من الجزاء والثواب عليه. قوله عز وجل (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) قيل نزلت فى عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف، أما عثمان فجهز المسلمين فى غزوة تبوك بألف بعير بأقتابها وأحلاسها فنزلت هذه الآية وقال عبد الرحمن بن سمرة «جاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم فرأيته يدخل يده فيها ويقلبها ويقول ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم فأنزل الله تعالى «الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله» وأما عبد الرحمن فجاء بأربعة آلاف درهم صدقة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كان عندى ثمانية آلاف فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف وأربعة آلاف أخرجتها لربى عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت» والمعنى الذين يعينون المجاهدين فى سبيل الله بالإنفاق عليهم فى حوائجهم ومؤنتهم (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) أى لا يتبع نفقته التى أنفقها عليهم بالمن والأذى

يعيره فيقول إلى كم تسال وكم تؤذيني وقيل من الأذى هو أن يذكر إنفاقه عليه عند من لايحب وقوفه عليه وقال سفيان منا ولا أذى هو أن يقول قد أعطيتك فما شكرت قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كان أبي يقول إذا أعطيت

رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه فحظر الله على عباده المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه لأنه من العباد تعيير وتكدير ومن الله إفضال وتذكير (لهم أجرهم) أي ثوابهم (عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون قول معروف) أي كلام حسن ورد على السائل جميل وقيل عدة حسنة وقال الكلبي دعاء صالح يدعو لأخيه بظاهر الغيب وقال الضحاك نزلت في إصلاح ذات البين (ومغفرة) أي تستر عليه خلته ولاتهتك عليه ستره وقال الكلبي والضحاك يتجاوز عن ظالمه وقيل يتجاوز عن الفقير إذا استطال عليه عند رده (خير من صدقة) يدفعها إليه (يتبعها أذى) أي من وتعيير للسائل أو قول يؤذيه (والله غنى) أي مستغن عن صدقة العباد (حليم) لا يعجل بالعقوبة على من يمن ويؤذي بالصدقة قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم) أي أجور صدقاتكم (بالمن) على السائل وقال ابن عباس رضي الله عنهما بالمن على الله تعالى (والأذى) لصاحبها ثم ضرب لذلك مثلا فقال (كالذي ينفق ماله) أي كابطال الذي ينفق ماله (رئاء الناس) أي مراءاة وسمعة ليروا نفقته ويقولوا إنه كريم سخي (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) يريد أن الرياء يبطل الصدقة ولا تكون النفقة مع الرياء من بكفره

وهو أن يمن عليه بعطائه فيقول قد أعطيتك كذا وكذا فيعدد نعمه عليه فيكدرها عليه والأذى هو أن يعيره فيقول كم تسأل وأنت فقير أبدا وقد بليت بك وأراحني الله منك وأمثال ذلك. والمن في اللغة الإنعام والمنة النعمة الثقيلة يقال من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة ويكون ذلك بالقول أيضا ومنه قول الشاعر:

فمنى علينا بالسلام فانما ... كلامك ياقوت ودر منظم

ومن المن بالقول ماهو مستقبح بين الناس مثل أن يمن على الإنسان بما أعطاه، قال عبدالرحمن بن زيد كان أبي يقول إذا أعطيت رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فلا تسلم عليه والعرب تمدح بترك المن وكتم النعمة وتذم على إظهارها والمن بها قال قائلهم في المدح بترك المن:

زاد معروفك عندي عظما ... أنه عندك مستور حقير
تتناساه كأن لم تأته ... وهو في العالم مشهور كبير

وقال قائلهم يذم المنان بالعطاء:

أتيت قليلا ثم أسرعت منة ... فنيلك ممنون لذاك قليل

وأما الأذى فهو مايصل إلى الإنسان من ضرر بقول أو فعل. إذا عرفت هذا فنقول المن هو إظهار المعروف إلى الناس والمن عليهم به والأذى هو أن يشكو منهم بسبب ماأعطاهم فحرم الله تعالى على عباده المن بالمعروف والأذى فيه وذم فاعله. فان قلت قد وصف الله تعالى نفسه بالمنان فما الفرق. قلت المنان في صفة الله تعالى معناه المتفضل فمن الله إفضال على عباده وإحسانه إليهم فجميع ماهم فيه منة منه سبحانه وتعالى ومن العباد تعيير وتكدير فظهر الفرق بينهما. وقوله تعالى (لهم أجرهم) يعني ثوابهم (عند ربهم) يعني في الآخرة (ولا خوف عليهم) يعني يوم القيامة (ولاهم يحزنون) يعني على ماخلفوا من الدنيا (قول معروف) أي كلام حسن ورد جميل على الفقير السائل وقيل عدة حسنة توعده بها، وقيل دعاء صالح تدعو له بظهر الغيب (ومغفرة) أي تستر عليه خلته وفقره ولا تهتك ستره وقيل هو أن يتجاوز عن الفقير إذا استطال عليه حالة رده (خير من صدقة) يعني هذا القول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي تدفعها إلى الفقير (يتبعها أذى) وهو أن يعطى الفقير الصدقة ويمن عليه بها ويعيره بقول أو يؤذيه بفعل (والله غني) أي مستغن عن صدقة العباد والغني الكامل الغني الذي لايحتاج إلى أحد وليس كذلك إلا الله تعالى (حليم) يعني أنه تعالى حليم لايعجل بالعقوبة على من يمن على عباده ويؤذي بصدقته. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم) يعني أجور صدقاتكم (بالمن والأذى) يعني على السائل الفقير وقال ابن عباس بالمن على الله تعالى والأذى لصاحبها ثم ضرب الله تعالى لذلك مثلا فقال تعالى (كالذي) أي كابطال الذي (ينفق ماله رئاء الناس) أي مراءاة لهم وسمعة ليروا نفقته ويقولوا إنه سخي كريم (ولايؤمن بالله واليوم الآخر) يعني أن الرياء يبطل الصدقة ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين لكن من فعل المنافقين لأن الكافر معلن

في المؤمنين وهذا للمنافقين لأن الكافر معلن بكفره غير مراء (فمثله) أي مثل هذا المرائي (كمثل صفوان) وهو الحجر الأملس وهو واحد وجمع فمن جعله جمعا فواحده صفوانة ومن جعله واحدا فجمعه صفي (عليه) أي على الصفوان (تراب فأصابه وابل) وهو المطر الشديد العظيم القطر (فتركه صلدا) أي أملس والصلد الحجر الصلب الأملس الذي لا شيء عليه فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يمن بصدقته ويؤذي ويرى الناس في الظاهر أن لهؤلاء أعمالا كما يرى التراب على هذا الصفوان فاذا كان يوم القيامة بطل كله واضمحل لأنه لم يكن لله كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب فتركه صلدا (لا يقدرون على شيء مما كسبوا) أي على ثواب شيء مما كسبوا عملوا في الدنيا (والله لا يهدي القوم الكافرين) أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني أخبرنا علي بن حجر أخبرنا إسماعيل بن جعفر أخبرنا عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يارسول الله وما الشرك الأصغر قال الرياء يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا (٢٨٥) فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارثي أخبرنا أبو الحسن محمد ابن يعقوب الكسائي أخبرنا عبد الله بن محمد ابن محمود أخبرنا إبراهيم ابن عبد الله الخلال أخبرنا عبد الله بن المبارك عن حيوة بن شريح أخبرني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان المدائني أن عقبة بن مسلم حدثه أن أباسفيان الأصبحي حدثه أنه دخل المدينة فاذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال من هذا قال أبو هريرة فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت له أنشدك الله بحق لما حدثتني حديثا سمعته من رسول الله ﷺ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل قتل في سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي فقال بلى يارب قال فماذا عملت قال كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار فيقول الله له كذبت وتقول له الملائكة كذبت ويقول الله تعالى بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد قال بلى يارب قال فما عملت فيما آتيتك؟ قال كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله له كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله تعالى بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له فبماذا قتلت فيقول يارب أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول الملائكة كذبت ويقول الله تعالى بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة». قوله تعالى (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله) أي طلب رضا الله تعالى (وتثبيتا من أنفسهم) قال قتادة احتسابا. وقال الشعبي والكلبي

بكفره غير مراء به (فمثله) أي مثل هذا المرائي بصدقته وسائر أعماله (كمثل صفوان) هو الحجر الأملس الصلب وهو واحد وجمع فمن جعله جمعا قال واحده صفوانة ومن جعله واحدا قال جمعه صفي (عليه تراب) أي على ذلك الصفوان تراب (فأصابه وابل) يعني المطر الشديد العظيم القطر (فتركه صلدا) يعني ترك المطر ذلك الصفوان صلدا أملس لا شيء عليه من ذلك التراب فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن المنان بصدقته يؤذي الناس يرى الناس أن لهؤلاء أعمالا في الظاهر كما يرى التراب على الصفوان فاذا جاء المطر أذهبه وأزاله وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة تبطل أعمالهم وتضمحل لأنها لم تكن لله تعالى كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب (لا يقدرون على شيء مما كسبوا) أي لا يقدرون على ثواب شيء مما عملوا في الدنيا (والله لا يهدي القوم الكافرين) يعني الذين سبق في علمه أنهم يموتون على الكفر. روى البغوي بسنده عن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنما أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يارسول الله وما الشرك الأصغر قال الرياء يقال لهم يوم تجازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» (م) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». قوله عز وجل (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله) أي طلب رضا الله (وتثبيتا من أنفسهم) يعني على

تصديقا من أنفسهم أى يخرجون الزكاة طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب وتصديق بوعد الله يعلمون أن ماأخرجوا خيرلهم
مما تركوا وقيل على يقين باخلاف الله عليهم وقال عطاء ومجاهد يثبتون أى يضعون أموالهم . قال الحسن كان الرجل إذا هم
بصدقة يثبت فان كان لله أمضى وإن كان يخالطه شك أمسك وعلى هذا القول يكون التثبيت بمعنى التثبت كقوله تعالى «وتبتل
إليه تبتيلا» أى تبتل (كمثل جنة) (٢٨٦) أى بستان قال المبرد والفراء إذا كان فى البستان نخل فهو جنة وإن كان فيه
كرم فهو فردوس (بربوة)
قرأ ابن عامر وعاصم
بربوة وإلى ربوة فى سورة
المؤمنين بفتح الراء وقرأ
الآخرون بضمها وهي
المكان المرتفع المستوى
الذى تجرى فيه الأنهار
فلا يعلوه الماء ولا يعلو
عن الماء وإنما جعلها
بربوة لأن النبات عليها
أحسن وأزكى (أصابها
وابل) مطر شديد كثير
(فآتت أكلها) ثمرها
قرأ نافع وابن كثير
وأبو عمرو بالتخفيف
وقرأ الباقون بالتثقيل ؛
وزاد نافع وابن كثير
تخفيف أكلها والأكل
وخفف أبو عمرو رسلنا
ورسلكم ورسلهم وسبلنا
(ضعفين) أى أضعفت
فى الحمل : قال عطاء
حملت فى سنة من الريبع
مايحمل غيرها فى سنتين
وقال عكرمة حملت
فى السنة مرتين (فان لم
يصبها وابل فطل) أى
فطش وهو المطر الضعيف
الخفيف ويكون دائما قال السدى هو الندى، وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المؤمن المخلص فيقول كما أن هذه الجنة
تريع في كل حال ولا تخلف سواء قل المطر أو كثر كذلك يضعف الله صدقة المؤمن المخلص الذى لايمن ولايؤذي سواه قلت فكأنه
نفقته أو كثرت وذلك أن الطل إذا كان يدوم يعمل عمل الوابل الشديد (والله بما تعملون بصير أيود أحدكم أن تكون له جنة
من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار) هذه الآية متصلة بقوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى»
أيود يعنى أيحب أحدكم أن تكون له جنة أى بستان من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار (له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر

الإنفاق فى طاعة الله تعالى وتصديقا بثوابه وقيل معناه إن أنفسهم موقنة مصدقة بوعد الله إياها فيما
أنفقت وقيل إحسانا وقيل تصديقا والمعنى أنهم يخرجون زكاة أموالهم وينفقون أموالهم فى سائر وجوه
البر والطاعات طيبة أنفسهم بما أنفقوا على يقين بثواب الله وتصديق بوعده يعلمون أن ماأنفقوا
خير لهم مما تركوا وقيل معناه على يقين باخلاف الله عليهم وقيل معناه أنهم يتثبتون فى الموضع
الذى يضعون فيه صدقاتهم قيل كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت فان كانت لله خالصة أمضاها
وإن خالطه شك أو رياء أمسك (كمثل جنة) أى بستان قال الفراء إذا كان فى البستان نخل فهو جنة
وإن كان فيه كرم فهو فردوس (بربوة) هي المكان المرتفع عن الأرض المستوى لأن ما ارتفع
من الأرض عن مسيل الماء والأودية كان ثمرها أحسن وأزكى إذا كان لها من الماء مايرويها وقيل
هى الأرض المستوية الجيدة الطيبة إذا أصابها المطر انتفخت وربت فاذا كانت الأرض بهذه
الصفة كثر ريعها وحملت أشجارها (أصابها وابل) وهو المطر الكثير الشديد قال بعضهم :

ماروضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها وابل هطل

أراد بالحزن ماغلظ وارتفع من الأرض (فآتت أكلها ضعفين) أى فأعطت ثمرتها مثلين
قيل إنها حملت فى سنة من الريبع مايحمله غيرها فى سنتين وقيل أضعفت فحملت فى السنة مرتين
(فان لم يصبها وابل فطل) أى طش وهو المطر الخفيف الضعيف، والمعنى إن لم يكن أصابها وابل
وأصابها طل فتلك حال هذه الجنة فى تضاعف ثمرها فانها لاتنقص بالطل عن مقدار ثمرها بالوابل
وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المؤمن المخلص فى إنفاقه وسائر أعماله، يقول الله تعالى كما أن هذه
الجنة تريع وتزكو فى كل حال ولاتخلف سواء كان المطر قليلا أو كثيرا فكذلك يضعف الله صدقة
المؤمن المخلص فى صدقته وإنفاقه الذى لايمن ولايؤذى سواء قلت نفقته أو كثرت (والله بما تعملون
بصير) يعنى أن الله تعالى لاتخفى عليه نفقة المخلص فى صدقته الذي لايمن بها ولا يؤذى والذى يمن
بصدقته ويؤذى قوله عز وجل (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) هذه متصلة بما
قبلها وهو قوله تعالى لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى أيود يعنى أيحب أحدكم أن تكون له جنة
أى بستان من نخيل وأعناب إنما خصهما بالذكر لأنهما أشرف الفواكه وأحسنها ولما فيهما من
الغذاء والتفكه (تجرى من تحتها الأنهار) يعنى أن جرى الأنهار فيها من تمام حسنها وسبب لزيادة
ثمرها (له فيها من كل الثمرات) لأن ذلك من تمام كمال البستان وحسنه (وأصابه الكبر) يعنى
صاحب هذه الجنة كثرت جهات حاجاته ولم يكن له كسب غيرها فحينئذ يكون فى غاية الاحتياج
إلى تلك الجنة فان قلت كيف عطف وأصابه الكبر على أيود وكيف يجوز عطف الماضى على المستقبل
قلت فيه وجهان أحدهما أن يكون له جنة حال ماأصابه الكبر والوجه الثانى أنه عطف على المعنى

وله ذرية ضعفاء) أولاد صغار ضعاف عجزة (فأصابها إعصار) وهو الريح العاصف التى ترتفع إلى السماء كأنها عمود وجمعه أعاصير (فيه نار فاحترقت) هذا مثل ضربه الله لعمل المنافق والمرائى يقول عمله في حسنه كحسن الجنة ينتفع به كما ينتفع صاحب الجنة بالجنة فاذا كبر أو ضعف وصار له أولاد ضعاف وأصاب جنته أعصار فيه نار فاحترقت فصار أحوج ما يكون إليها وضعف عن إصلاحها لكبره وضعف أولاده عن إصلاحها لصغرهم ولم يجد هو ما يعود به على أولاده ولا أولاده مايعودون به عليه فبقوا جميعا متحيرين عجزة لاحيلة بأيديهم كذلك يبطل الله عمل هذا المنافق والمرائى حين لامغيث لهما ولا توبة ولا إقالة قال عبيد بن عمير قال عمر رضى الله عنه يوما لأصحاب النبى ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب» قالوا الله أعلم فغضب عمر رضى الله عنه فقال قولوا نعلم أو لانعلم فقال ابن عباس رضى الله عنهما فى نفسى منها شىء ياأمير المؤمنين فقال عمر رضى الله عنه ابن أخى قل ولا تحقر نفسك قال ابن عباس رضى الله عنهما ضربت مثلا لعمل فقال عمر رضى الله عنه أى عمل فقال ابن عباس رضى الله عنهما لعمل منافق ومراء قال عمر رضى الله عنه لأى رجل قال لرجل غنى يعمل بطاعة الله بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق أعماله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات) من خيار قال ابن مسعود رضى الله عنه ومجاهد من حلالات (ما كسبتم) بالتجارة والصناعة وفيه دلالة على إباحة الكسب وأنه ينقسم إلى طيب وخبيث. أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان أخبرنا أبو جعفر الزياتى أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يعلى بن عبيد أخبرنا الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ «إن أطيب مايأكل الرجل من

فكأنه قيل أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر (وله ذرية ضعفاء) يعنى له أولاد صغار عجزت عن الحركة بسبب الضعف والصغر (فأصابها) يعنى أصاب تلك الجنة (إعصار فيه نار فاحترقت) الإعصار ريح ترتفع إلى السماء وتستدير كأنها عمود وهذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المنافق والمرائى يقول مثل عمل المنافق والمرائى بعمله فى حسنه كحسن جنة ينتفع بها صاحبها فلما كبر وضعف وصار له أولاد ضعاف أصاب جنته إعصار فيه نار فأحرقها وهو أحوج مايكون إليها فحصل فى قلبه من الغم والحسرة مالا يعلمه إلا الله تعالى لكبره وضعفه وضعف أولاده فهو لايجد مايعود به على أولاده وهم لايجدون مايعودون به عليه فبقوا جميعا متحيرين عجزة لاحيلة بأيديهم فكذلك حال من أتى يوم القيامة بأعمال حسنة ولم يقصد بها وجه الله تعالى فيبطلها الله تعالى وهو فى غاية الحاجة إليها حين لامستعتب له ولا توبة. وقال عبيد بن عمير قال عمر يوما لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن ترون نزلت هذه الآية أيود أحدكم قالوا الله أعلم فغضب عمر وقال قولوا نعلم أو لانعلم فقال ابن عباس فى نفسى منها شئ ياأمير المؤمنين فقال عمر قل ياابن أخى ولا تحقرن نفسك فقال ضرب الله مثلا لعمل قال لأى عمل قال لرجل غنى يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق أعماله كلها (كذلك يبين الله لكم الآيات) يعنى كما بين الله تعالى لكم أمر النفقة المقبولة وغير المقبولة كذلك يبين الله لكم من الآيات سوى ذلك (لعلكم تتفكرون) أى فتتعظوا وقال ابن عباس لعلكم تتفكرون يعنى فى زوال الدنيا وإقبال الآخرة . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) أى من خيار ما كسبتم وجيده وقيل من حلالات ما كسبتم بالتجارة والصناعة وفيه دليل على إباحة الكسب وأنه ينقسم إلى طيب وخبيث. عن خولة الأنصارية قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن هذا المال خضر حلو من أصابه بحق بورك له فيه ورب متخوض فيما شاءت نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار» أخرجه الترمذى. المتخوض الذى يأخذ المال من غير وجهه كما يخوض الإنسان فى الماء يمينا وشمالا (خ) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يأتى على الناس زمان لايبالي المرء ماأخذ منه أمن حلال أم من حرام» (خ) عن المقدام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ماأكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن أطيب ماأكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم» أخرجه الترمذى والنسائى واختلفوا فى المراد بقوله تعالى أنفقوا فقيل المراد به الزكاة المفروضة لأن الأمر للوجوب والزكاة واجبة فوجب صرف الآية إليها وقيل المراد به صدقة التطوع وقيل إنه يتناول الفرض والنفل جميعا

كسبه وإن ولده من كسبه » أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبد الله بن صالح أخبرنا أبو معاوية بن صالح عن بحير بن سعيد عن خالد بن معدان عن المقدام ابن معد يكرب أنه حدثه عن النبي ﷺ أنه قال «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وكان داود لا يأكل إلا من عمل يده» أخبرنا أبو القاسم (٢٨٨) يحيى بن على بن محمد الكشميهني أخبرنا نجاح بن يزيد المحاربي بالكوفة أخبرنا أبو جعفر محمد ابن على بن دحيم الشيباني أخبرنا أحمد بن حازم أخبرنا يحيى بن عبيد أخبرنا أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد بن مرة الهمداني عن عبدالله ابن مسعود رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ لا يكتسب عبد مالا حراما فيتصدق منه فيقبل الله منه ولا ينفق منه فيبارك له فيه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث» والزكاة واجبة فى مال التجارة عند أكثر أهل العلم فبعد الحول يقوم العرض فيخرج من قيمتها ربع العشر إذا كان قيمتها عشرين دينارا أو مائتي درهم قال سمرة بن جندب «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذى نعده للبيع» وعن أبى عمرو بن حماس أن أباه قال مررت بعمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى عنقى أدمة أحملها فقال عمر ألا تؤدى زكاتك ياحماس فقلت مالى غير هذا واهب فى القرظ فقال ذاك مال فضع فوضعتها فحسبها فأخذ منها الزكاة. قوله تعالى (ومما أخرجنا لكم من الأرض) قيل هذا أمر باخراج العشور من الثمار والحبوب، واتفق أهل العلم على إيجاب العشر فى النخيل والكروم وفيما يقتات من الحبوب إن كان مسقيا بماء السماء أو من نهر يجرى الماء إليه من غير مؤنة وإن كان مسقيا بسانية أو بنضح ففيه نصف العشر. أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي

لأن المفهوم من هذا الأمر ترجيح جانب الفعل على الترك وهذا المفهوم قدر مشترك بين الفرض والنفل فوجب أن يدخل تحت هذا الأمر. فعلى القول الأول أن المراد من هذا الإنفاق هو الزكاة يتفرع عليه مسائل :

(المسئلة الأولى) ظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة فى كل مال يكتسبه الإنسان فيدخل فيه زكاة الذهب والفضة والنعم وعروض التجارة لأن ذلك يوصف بأنه مكتسب وذهب جمهور العلماء إلى وجوب الزكاة فى مال التجارة وقال داود الظاهرى لا تجب الزكاة بحكم التجارة فى العروض إلا أن ينوى به التجارة فى حال تملكه، ودليل الجمهور ماروى عن سمرة بن جندب قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا باخراج الصدقة من الذى يعد للبيع» أخرجه أبو داود وعن أبى عمرو بن حماس أن أباه قال مررت بعمر بن الخطاب وعلى عنقى أدمة أحملها فقال عمر ألا تؤدى زكاتك ياحماس فقلت مالى غير هذا واهب فى القرظ قال ذاك مال فضع فوضعها فحسبها فأخذ منها الزكاة فاذا حال الحول على عروض التجارة قوم فان بلغ قيمته عشرين دينارا أو مائتى درهم أخرج منه ربع العشر .

(المسئلة الثانية) فى قوله تعالى (ومما أخرجنا لكم من الأرض) ظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة فى كل ماخرج من الأرض من النبات مما يزرع الآدميون لكن جمهور العلماء خصصوا هذا العموم فأوجبوا الزكاة فى النخيل والكروم وفيما يقتات ويدخر من الحبوب وأوجب أبو حنيفة الزكاة فى كل مايقصد من نبات الأرض كالفواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والقثاء والخيار ونحو ذلك، دليل الجمهور ماروى عن معاذ « أنه كتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم يسأله عن الخضراوات وهى البقول فقال ليس فيها شىء» أخرجه الترمذى وقال هذا الحديث ليس بصحيح وليس يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب شىء وإنما يروى هذا عن موسى بن طلحة عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا والعمل على هذا عند أهل العلم أنه ليس فى الخضراوات صدقة . قلت وحديث موسى بن طلحة أخرجه الشيخ مجد الدين أبو البركات عبدالسلام بن عبد الله بن تيمية الحرانى فى أحكامه عن عطاء بن السائب قال «أراد عبد الله بن المغيرة أن يأخذ من أرض موسى بن طلحة من الخضراوات صدقة فقال له موسى ابن طلحة ليس ذلك لك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول ليس فى ذلك صدقة» رواه الأثرم فى سننه وهو أقوى المراسيل لاحتجاج من أرسله به وقال الزهرى والأوزاعى ومالك تجب الزكاة فى الزيتون وتجب فى الثمار عند بدو الصلاح وهو أن يحمر البسر ويصفر ووقت الإخراج بعد الاجتناء والجفاف وفى الحبوب عند الاشتداد ووقت الإخراج بعد الدراس والتصفية.

(المسألة

أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا عبد الله بن وهب أخبرني يونس بن زيد عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وفيما سقي بالنضح نصف العشر». أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا عبد الله بن نافع عن محمد بن صالح التمار عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن عثمان ابن أسيد أن رسول الله ﷺ قال في زكاة الكرم «يخرص كما يخرص النخل ثم تؤدى زكاته زبيبا كما يؤدى زكاة النخل تمرا» واختلف أهل العلم فيما سوى النخل والكروم وفيما سوى ما يقتات به من الحبوب فذهب قوم إلى أنه لا عشر في شيء منها وهو قول ابن أبي ليلى والشافعي رضي الله عنه وقال الزهري والأوزاعي ومالك رضي الله عنهم يجب في الزيتون وقال أبو حنيفة رضي الله عنه يجب العشر في جميع البقول والخضراوات كالثمار إلا الحشيش والحطب وكل ثمر أوجبنا فيها الزكاة فإنما يجب بدو الصلاح ووقت الإخراج بعد الاجتناء والجفاف، وكل حب أوجبنا فيه

(٢٨٩)

العشر فوقت وجوبه اشتداد الحب ووقت الإخراج بعد الدياسة والتنقية ولا يجب العشر في شيء منها حتى تبلغ خمسة أوسق عند أكثر أهل العلم وعند أبي حنيفة رحمه الله يجب في كل قليل وكثير منها، واحتج من شرط النصاب بما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي صعصعة المازني عن أبيه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة وليس فيما دون خمسة أواق من الورق صدقة وليس فيما دون خمس ذود من الإبل صدقة» وروى يحيى بن عبادة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ليس في حب ولا تمر صدقة» حتى تبلغ خمسة أوسق» وقال قوم الآية في صدقات التطوع. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الزياتي أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من مؤمن يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة» قوله تعالى (ولا تيمموا) قرأ ابن عامر برواية البزي بتشديد التاء في الوصل فيها وفي أخواتها وهي إحدى وثلاثون موضعا في القرآن لأنه في الأصل تاءان أسقطت إحداهما فرد هو الساقطة وأدغم وقرأ الآخرون بالتخفيف ومعناه لا تقصدوا (الخبيث منه تنفقون) روى عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: كانت الأنصار تخرج إذا كان جذاذ النخل أقناء من التمر والبسر فيعلقونه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل منه فقراء المهاجرين فكان الرجل منهم يعمل فيدخل قنو الحشو وهو يظن أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع من

(المسئلة الثالثة) يجب إخراج العشر فيما سقي بالمطر والأنهار والعيون ونصف العشر فيما سقي بنضح أو سانية ويدل على ذلك ما روى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر وما سقي بالنضح نصف العشر» أخرجه البخاري ولأبي داود والنسائي قال «فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بعلا العشر وما سقي بالسواني والنضح نصف العشر» قال أبو داود البعل ما شرب بعروقه ولم يتعن في سقيه وقال وكيع هو الذي ينبت من ماء السماء قوله أو كان عثريا أراد به القوي من الزرع وهو البعل وقد فسره في لفظ الحديث والنضح هو الاستسقاء وكذلك السانية وهي الدابة التي يسقى عليها سواء كانت من الإبل أو البقر ولا يجب العشر في السماء والزروع حتى تبلغ خمسة أوسق والوسق ستون صاعا وقال أبو حنيفة يجب العشر في كل قليل أو كثير من الثمار والزروع واحتج الجمهور في إيجاب النصاب بما روى عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة وليس فيما دون خمسة أواق صدقة وليس فيما دون خمسة ذود صدقة» وفي رواية «ليس فيما دون خمسة أوساق من تمر أو حب صدقة» أخرجاه في الصحيحين ومن قال إن المراد بقوله تعالى «أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض» صدقة التطوع احتج بما روى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى (ولا تيمموا الخبيث) أي ولا تقصدوا الخبيث يعني الرديء من أموالكم (منه تنفقون) أي من الخبيث. عن البراء بن عازب في قوله تعالى «ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون» قال نزلت

الأقناء فنزل فيمن فعل ذلك «ولا تيمموا الخبيث» أى الحشف والردىء وقال الحسن ومجاهد والضحاك كانوا يتصدقون بشرار ثمارهم ورذالة أموالهم ويعزلون الجيد ناحية لأنفسهم فأنزل الله تعالى «ولا تيمموا الخبيث» الردىء منه تنفقون (ولستم بآخذيه) يعنى الخبيث (إلا أن تغمضوا فيه) الإغماض غض البصر وأراد ها هنا التجويز والمساهلة معناه لو كان لأحدكم على رجل حق فجاءه بهذا لم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض له عن حقه وتركه قال الحسن وقتادة لو وجدتموه يباع فى السوق ماأخذتموه بسعر الجيد، وروى عن البراء قال «لو أهدى ذلك لكم ماأخذتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ فكيف ترضون لى مالا ترضون لأنفسكم» هذا إذا كان المال كله جيدا فليس له إعطاء الردىء لأن أهل السهمان شركاؤه فيما عنده فان كان كل ماله رديئا فلا بأس باعطاء الردىء (واعلموا أن الله غنى) عن صدقاتكم (حميد) محمود فى أفعاله (الشيطان يعدكم الفقر) أى يخوفكم بالفقر ويقال وعدته خيرا ووعدته شرا قال الله تعالى فى الخير «وعدكم الله مغانم كثيرة» وقال فى الشر النار وعدها الله الذين كفروا فاذا لم يذكر الخير والشر قلت فى الخير وعدته وفى الشر أوعدته والفقر سوء الحال وقلة ذات اليد وأصله من كسر الفقار ومعنى الآية أن الشيطان يخوفكم بالفقر ويقول للرجل أمسك عليك مالك فانك إذا تصدقت به افتقرت (ويأمركم بالفحشاء) أى بالبخل ومنع الزكاة وقال الكلبى كل الفحشاء فى القرآن فهو الزنا إلا هذا (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا)

فينا معشر الأنصار كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتى من نخله على قدر كثرته وقلته وكان الرجل يأتى بالقنو والقنوين فيعلقه فى المسجد وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصا فسقط البسر أو التمر فيأكل وكان ناس ممن لا يرغب فى الخير يأتى بالقنو فيه الشيص والحشف وبالقنو قد انكسر فيعلقه فأنزل الله تعالى «ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه» قال لو أن أحدكم أهدى إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض وحياء قال فكنا بعد ذلك يأتى أحدنا بصالح ماعنده» أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح غريب وقيل كانوا يتصدقون بشرار ثمارهم ورذالة أموالهم ويعزلون الجيد لأنفسهم فأنزل الله تعالى ولا تيمموا الخبيث يعنى الردىء منه تنفقون يعنى تتصدقون (ولستم بآخذيه) يعنى ذلك الشىء الخبيث الردىء (إلا أن تغمضوا فيه) الإغماض فى اللغة غض البصر وإطباق الجفن والمراد به هنا التجويز والمساهلة وذلك أن الإنسان إذا رأى مايكره أغمض عينيه لئلا يرى ذلك قال ابن عباس معناه لو أن لأحدكم على رجل حقا فجاءه بهذا لم يأخذه إلا وهو يرى أنه قد أغمض عن حقه وتركه وقال البراء هو لو أهدى ذلك ماأخذتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ فكيف ترضون لى مالا ترضون لأنفسكم إذا كان المال كله جيدا فليس له إعطاء الردىء لأن أهل السهمان شركاء له فيما عنده وإن كان كله رديئا فلا بأس باعطاء الردىء (واعلموا أن الله غنى) يعنى عن صدقاتكم لم يأمركم بالتصدق لعوز واحتياج إليها (حميد) أى محمود فى أفعاله وقيل حميد بمعنى حامد أى أجركم على ماتفعلونه من الخير . قوله عز وجل ٢٦٨ (الشيطان يعدكم الفقر) أى يخوفكم الفقر يقال وعدته خيرا ووعدته شرا وإذا لم يذكر الخير والشر يقال فى الخير وعدته وفى الشر أوعدته والفقر سوء الحال وقلة ذات اليد وأصله من كسر فقار الظهر ومعنى الآية أن الشيطان يخوفكم بالفقر ويقول للرجل أمسك عليك مالك فانك إذا تصدقت افتقرت (ويأمركم بالفحشاء) يعنى يوسوس لكم ويحسن لكم البخل ومنع الزكاة والصدقة قال الكلبى كل فحشاء فى القرآن فهى الزنا إلا هذا الموضع وفى هذه الآية لطيفة وهى أن الشيطان يخوف الرجل أولا بالفقر ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء وهى البخل وذلك لأن البخيل على صفة مذمومة عند كل أحد فلا يستطيع الشيطان أن يحسن له البخل إلا بتلك المقدمة وهى التخويف من الفقر فلهذا قال تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء (والله يعدكم مغفرة منه) يعنى مغفرة لذنوبكم وسترا لكم (وفضلا) يعنى رزقا وخلفا . فالمغفرة إشارة إلى منافع الآخرة والفضل إشارة إلى منافع الدنيا وما يحصل من الرزق والخلف. عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء» أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن غريب

أى لذنوبكم (والله واسع) غنى (عليم) أخبرنا حسان بن سعيد المنيعى أخبرنا أبوطاهر الزيادى أخبرنا محمد بن الحسين القطان أخبرنا أحمد بن يوسف السلمى أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن هشام عن همام بن منبه قال حدثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول ابن آدم أنفق أنفق عليك» وقال قال رسول الله ﷺ «يمين الله ملأى لاتغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ماأنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يغض مافى يمينه قال وعرشه على الماء وبيده الأخرى القسط يرفع ويخفض» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا عبدالله بن سعيد أخبرنا عبد الله بن نمير أخبرنا هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها «أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك» قوله تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء) قال السدى هى النبوة وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله وقال الضحاك القرآن والفهم فيه وقال فى القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لايسع المؤمنين تركهن حتى يتعلموهن ولا يكونوا كأهل النهروان تأولوا آيات من القرآن فى أهل القبلة وإنما أنزلت فى أهل الكتاب جهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهبوا الأموال وشهدوا علينا بالضلالة فعليكم بعلم القرآن فانه من علم فيم أنزل لم يختلف فى شىء منه وقال مجاهد هى القرآن والعلم والفقه وروى ابن أبى نجيح عنه الإصابة فى القول والفعل وقال إبراهيم النخعى معرفة معانى الأشياء وفهمها (ومن يؤت الحكمة) من فى محل الرفع على مالم يسم فاعله والحكمة خبره ٧ وقرأ يعقوب يؤتى الحكمة بكسر التاء أى من يؤته الله الحكمة دليله قراءة الأعمش ومن يؤته الله حكى عن الحسن ومن يؤت الحكمة قال الورع فى دين الله (فقد أوتى خيرا كثيرا) قال الحسن من أعطى القرآن فكأنما أدرجت النبوة

غريب قوله إن للشيطان لمة بابن آدم اللمة الخطرة الواحدة من الإلمام وهو القرب من الشىء والمراد بهذه اللمة اللمة التى تقع فى القلب من فعل خير أو شر والعزم فأما لمة الشيطان فوسوسة وأما لمة الملك فالهام من الله تعالى (والله واسع) أى غنى قادر على إغنائكم وإخلاف ما تنفقونه (عليم) يعنى بما تنفقونه لاتخفى عليه خافية (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مامن يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا» (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «قال الله تعالى أنفق ينفق عليك» وفى رواية «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار وقال أرأيتم ماأنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يغض مافى يده» وفى رواية «فانه لم يغض مافى يمينه وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع» وفى رواية وبيده الأخرى الفيض القبض يرفع ويخفض (ق) عن أسماء بنت أبى بكر الصديق قالت قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنفقى ولا تحصى فيحصى عليك ولا توعى فيوعى عليك» قوله ولا توعى أى لا تشحى فيشح الله عليك فيجازيك بالتقتير فى رزقك ولا يخلف عليك ولا يبارك لك، والمعنى لا تجمعى وتمنعى بل أنفقى ولا تعدى ولا تشحى. قوله عز وجل (يؤتى الحكمة من يشاء) قال ابن عباس هى علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وقال الضحاك القرآن والفهم فيه وإنما قال ذلك لتضمن القرآن الحكمة وقال فى القرآن مائة وتسع آيات ناسخة ومنسوخة وألف آية حلال وحرام لا يسع المؤمنين تركهن حتى يعلموهن ولا يكونوا كأهل النهروان يعنى الخوارج تأولوا آيات من القرآن فى أهل القبلة وإنما نزلت فى أهل الكتاب فجهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهبوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالضلالة فعليكم بعلم القرآن فانه من علم فيم نزل لم يختلف فى شىء منه وقيل هى القرآن والعلم والفقه وقيل هى الإصابة فى القول والفعل. وحاصل هذه الأقوال إلى شيئين: العلم والإصابة فيه ومعرفة الأشياء بذواتها وأصل الحكمة المنع ومنه حكمة الدابة لأنها تمنعها قال الشاعر: أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم

أى امنعوا سفهاءكم، وقال السدى الحكمة النبوة لأن النبى يحكم بين الناس فهو حاكم وقيل الحكمة الورع فى دين الله لأن الورع يمنع صاحبه من أن يقع فى الحرام أو مالا يجوز له فعله (ومن يؤت الحكمة) يعنى ومن يؤته الله الحكمة (فقد أوتى خيرا كثيرا) تنكير تعظيم معناه فقد أوتى أى خير كثير.

بين جنبيه إلا أنه لم يوح إليه (وما يذكر) يتعظ (إلا أولوا الألباب) ذوو العقول. قوله تعالى (وما أنفقتم من نفقة) فيما فرض الله عليكم (أو نذرتم من نذر) (٢٩٢) أى ما أوجبتموه أنتم على أنفسكم فى طاعة الله فوفيتم به (فان الله يعلمه) يحفظه حتى يجازيكم به وإنما قال يعلمه ولم يقل يعلمها لأنه رده إلى الآخر منهما كقوله تعالى «ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا» وإن شئت حملته على ما كقوله «وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به» ولم يقل بهما (وما للظالمين) الواضعين الصدقة فى غير موضعها بالرياء أو يتصدقون من الحرام (من أنصار) من أعوان يدفعون عذاب الله عنهم وهى جمع نصير مثل شريف وأشراف. قوله تعالى (إن تبدوا الصدقات) أى تظهروها (فنعما هى) أى نعمت الخصلة هى وما فى محل الرفع وهى فى محل النصب كما تقول نعم الرجل رجلا فاذا عرفت رفعت فقلت نعم الرجل زيد وأصله نعم ما وصلت قرأ أهل المدينة غير ورش وأبو عمرو وأبو بكر فنعما بكسر النون وسكون العين وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى بفتح النون وكسر العين وقرأ ابن كثير ونافع رواية ورش ويعقوب وحفص بكسرهما وكلها لغات صحيحة وكذلك فى سورة النساء

(وما يذكر إلا أولوا الألباب) أى وما يتعظ بما وعظه الله إلا ذوو العقول الذين عقلوا عن الله أمره ونهيه. قوله عز وجل (وما أنفقتم من نفقة) يعنى فيما فرضه الله عليكم من إعطاء زكاة وغيرها (أو نذرتم من نذر) يعنى بما أوجبتموه على أنفسكم فى طاعة الله فوفيتم به والنذر أن يوجب الإنسان على نفسه شيئا ليس بواجب يقال نذرت لله نذرا وأصله من الخوف لأن الإنسان إنما يعقد على نفسه النذر من خوف التقصير في الأمر المهم والنذر في الشرع على ضربين مفسر وغير مفسر. فالمفسر أن يقول لله على صوم أو حج أو عتق أو صدقة فيلزمه الوفاء به ولا يجزيه غيره وغير المفسر وهو أن يقول نذرت لله لا أفعل كذا ثم يفعله أو يقول لله على نذر من غير تسمية شيء فيلزمه فيه كفارة يمين (خ) عن عائشة رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه» عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من نذر نذرا لم يسمه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذرا في معصية فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذرا لا يطيقه فكفارته كفارة يمين ومن نذر نذرا فأطاقه فليف به» أخرجه أبوداود عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا نذر فى معصية ولا فيما لا يملك ابن آدم» أخرجه النسائى (ق) عن ابن عمر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن النذر وقال أنه لا يأتى بخير وإنما يستخرج به من البخيل» (م) عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن النذر لا يقرب من ابن آدم شيئا لم يكن الله قدره له ولكن النذر يوافق القدر فيخرج بذلك من البخيل مالم يكن البخيل يريد أن يخرج» قال بعض العلماء يحتمل أن يكون سبب النهى عن النذر كون الناذر يصير ملتزما مالا فيأتى به تكلفا من غير نشاط أو يكون سببه كونه يأتى به على سبيل المعارضة عن الأمر الذى طلبه فينقص أجره وشأن العبادة أن تكون متمحضة لله تعالى وقال بعضهم يحتمل أن يكون النهى لكونه قد يظن بعض الجهلة أن النظر يرد القدر أو يمنع من حصول المقدور فنهى عنه خوفا من اعتقاد ذلك وسياق الحديث يؤكد هذا، وقوله فى بعض روايات الحديث إنه لا يأتى بخير معناه أنه لا يرد شيئا من القدر. وقوله فيخرج بذلك من البخيل مالم يكن البخيل يريد أن يخرج معناه أنه لا يأتى بهذه القربة تطوعا محضا مبتدأ وإنما يأتى بها فى مقابلة شيء يريده كقوله إن شفى الله مريضى فلله على كذا ونحو ذلك مما يحصل بالنذر والله أعلم، وقوله تعالى (فان الله يعلمه) أى يعلم ما أنفقتم ونذرتم فيجازيكم به وإنما قال يعلمه ولم يقل يعلمهما لأنه رد الضمير على الآخر منهما فهو كقوله ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا وقيل إن الكناية عادت على «ما» في قوله وما أنفقتم لأنها اسم فهو كقوله «وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به» ولم يقل بهما (وما للظالمين) يعنى الواضعين الصدقة فى غير موضعها وقيل الذين يريدون بصدقاتهم الرياء والسمعة وقيل هم الذين يتصدقون بالمال الحرام (من أنصار) أى من أعوان يدفعون عنهم عذاب الله تعالى ففيه وعيد عظيم لكل ظالم. قوله عز وجل (إن تبدوا الصدقات) أى تظهروا الصدقات والصدقة مايخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة فيدخل فيه الزكاة الواجبة وصدقة التطوع (فنعما هي) أى فنعمت الخصلة هى وقيل فنعم الشيء هى وقيل معناه فنعم شيئا إبداء

(وإن تخفوها) تسروها (وتؤتوها الفقراء) أى تؤتوها الفقراء فى السر (فهو خير لكم) وأفضل وكل مقبول إذا كانت النية صادقة ولكن صدقة السر أفضل وفى الحديث صدقة السر تطفىء غضب الرب. أخبرنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبى سعيد الخدرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم (٢٩٣) لاظل إلاظله إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» وقيل الآية فى صدقة التطوع أما الزكاة المفروضة فالإظهار فيها أفضل حتى يقتدى به الناس كالصلاة المكتوبة فى الجماعة أفضل والنافلة فى البيت أفضل وقيل الآية فى الزكاة المفروضة كان الإخفاء فيها خيرا على عهد رسول الله ﷺ. أما فى زماننا فالإظهار أفضل حتى لا يساء به الظن. قوله تعالى (ونكفر عنكم من سيئاتكم) قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر بالنون ورفع الراء أى ونحن نكفر وقرأ ابن عامر وحفص بالياء ورفع الراء أى ويكفر الله وقرأ أهل المدينة وحمزة والكسائى بالنون والجزم نسقا على الفاء التى فى قوله فهو خير لكم لأن موضعها جزم بالجزاء وقوله من سيئاتكم قيل من صلة تقديره نكفر عنكم سيئاتكم وقيل هو للتحقيق والتبعيض يعنى نكفر الصغائر من الذنوب (والله بما تعملون خبير ليس عليك هداهم) قال الكلبى سبب نزول هذه الآية أن ناسا من المسلمين كانت لهم قرابة وأصهار فى اليهود وكانوا ينفقون عليهم قبل أن يسلموا فلما أسلموا كرهوا أن ينفقوا عليهم وأرادوهم على أن يسلموا وقال سعيد بن جبير كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة فلما كثر فقراء المسلمين

الصدقات (وإن تخفوها) أى تسروا الصدقة (وتؤتوها الفقراء) أى وتعطوها الفقراء فى السر (فهو خير لكم) يعنى إخفاء الصدقة أفضل من العلانية وكل مقبول إذا كانت النية صادقة واختلفوا فى المراد بالصدقة المذكورة فى الآية فقال الأكثرون المراد بها صدقة التطوع واتفق العلماء على أن كتمان صدقة التطوع أفضل وإخفاؤها خير من إظهارها لأن ذلك أبعد من الرياء وأقرب إلى الإخلاص ولأن فيه بعدا عما تؤثره النفس من إظهار الصدقة وفى صدقة السر أيضا فائدة ترجع إلى الفقير الآخذ وهى أنه إذا أعطى فى السر زال عنده الذل والانكسار وإذا أعطى فى العلانية يحصل له الذل والانكسار ويدل على أن صدقة السر أفضل ماروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله إمام عادل وشاب نشأ فى طاعة الله تعالى ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ورجلان تحابا فى الله تعالى اجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله تعالى ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» أخرجاه فى الصحيحين ووجه جواز إظهار الصدقة يكون ممن قد أمن على نفسه من مداخلة الرياء فى عمله أو يكون ممن يقتدى به فى أفعاله فاذا أظهر الصدقة تابعه غيره على ذلك وأما الزكاة فاظهار إخراجها أفضل من كتمانها كالصلاة المكتوبة فى الجماعة أفضل وصلاة التطوع فى البيت أفضل ولكن فى إظهار الزكاة نفى التهمة عن المزكي وقيل إن الآية واردة فى زكاة الفرض وكان إخفاؤها خيرا على عهد رسول الله ﷺ لأنهم كانوا لا يظنون بأحد أنه يمنع الزكاة فأما اليوم فى زماننا إظهار الزكاة أفضل حتى لا يساء الظن به وقيل إن الآية عامة فى جميع الصدقات الواجبة والتطوع والإخفاء أفضل فى كل صدقة من زكاة وغيرها. وقوله تعالى (ونكفر عنكم من سيئاتكم) قيل إن من صلة زائدة تقديره ونكفر عنكم سيئاتكم قال ابن عباس جميع سيئاتكم وقيل أدخل من للتبعيض ليكون العباد على وجل ولا يتكلوا والمعنى ونكفر عنكم الصغائر من سيئاتكم وأصل التكفير فى اللغة التغطية والستر (والله بما تعملون خبير) يعنى من إظهار الصدقات وإخفائها. قوله عز وجل (ليس عليك هداهم) قيل سبب نزول هذه الآية أن ناسا من المسلمين كان لهم قرابات وأصهار فى اليهود وكانوا ينفعونهم وينفقون عليهم قبل أن يسلموا فلما أسلموا كرهوا أن ينفعوهم وأرادوا بذلك أن يسلموا وقيل كانوا يتصدقون على فقراء أهل المدينة فلما كثر المسلمون نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التصدق على المشركين كى تحملهم الحاجة إلى الدخول فى الإسلام لحرصه صلى الله عليه وسلم على سلامهم فنزل ليس عليك هداهم ومعناه ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل أن يدخلوا فى الإسلام فحينئذ نتصدق عليهم فأعلمه الله

نهى رسول الله ﷺ عن التصدق على المشركين كى تحملهم الحاجة على الدخول فى الإسلام فنزل قوله «ليس عليك هداهم» فتمنعهم الصدقة ليدخلوا فى الإسلام حاجة منهم إليها (ولكن الله يهدى من يشاء) وأراد به هداية التوفيق أما هدي البيان والدعوة كان على عهد رسول الله ﷺ فأعطوهم بعد نزول الآية (وما تنفقوا من خير) أى مال (فلأنفسكم) أى تنفقونه لأنفسكم (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) لفظه جحد ومعناه نهى أى لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله (وما تنفقوا من خير) شرط كالأول ولذلك حذف النون منهما (يوف إليكم) (٢٩٤) أى يوفر لكم جزاءه ومعناه يؤدى إليكم ولذلك دخل فيه إلى (وأنتم لا تظلمون) لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئا وهذا في صدقة التطوع أباح الله تعالى أن توضع فى أهل الإسلام وأهل الذمة فأما الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها إلا فى المسلمين وهم أهل السهمان المذكورون فى سورة التوبة قوله تعالى (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله) اختلفوا في موضع هذا اللام قيل هي مردودة على موضع اللام من قوله فلأنفسكم كأنه قال وما تنفقوا من خير فللفقراء وإنما تنفقون لأنفسكم وقيل معناها الصدقات التى سبق ذكرها وقيل خبر محذوف تقديره للفقراء الذين صفتهم كذا حق واجب وهم فقراء المهاجرين كانوا نحوا من أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر وكانوا فى المسجد يتعلمون القرآن ويرضخون النوى بالنهار وكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها رسول الله ﷺ وهم أصحاب الصفة فحث الله تعالى عليهم الناس فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى «الذين أحصروا فى سبيل الله» فيه أقاويل . قال قتادة هم هؤلاء حبسوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله (لا يستطيعون ضربا فى الأرض) لا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش وهم أهل الصفة الذين ذكرناهم وقيل حبسوا أنفسهم على طاعة الله وقيل معناه حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد فى سبيل الله وقيل هؤلاء قوم أصابتهم جراحات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجهاد فى سبيل الله فصاروا زمنى أحصرهم المرض والزمانة عن الضرب

تعالى أنه إنما بعث بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه فأما كونهم مهتدين فليس ذلك إليك (ولكن الله يهدى من يشاء) يعنى أن الله تعالى يوفق من يشاء فيهديه إلى الإسلام وأراد بالهداية هنا هداية التوفيق وأما هداية البيان والدعوة فكانت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نزلت هذه الآية أعطوهم وتصدقوا عليهم (وما تنفقوا من خير) أى من مال (فلأنفسكم) أى ما تفعلوا تنفعوا به أنفسكم (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) ظاهره خبر ومعناه نهي أى ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وقال الزجاج هذا خاص للمؤمنين أعلمهم الله تعالى أنه قد علم أن مرادهم بنفقتهم ما عنده وقيل معناه لستم فى صدقاتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله وقد علم هذا من قلوبكم فأنفقوا عليهم إذا كنتم إنما تبتغون بذلك وجه الله فى صلة الرحم وسد خلة مضطر قال بعض العلماء لو أنفقت على شر خلق الله لكان لك ثواب نفقتك وأجمع العلماء على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلا إلى المسلمين وهم أهل السهمان المذكورون فى سورة التوبة وجوز أبو حنيفة صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة وخالفه سائر العلماء في ذلك فعلى هذا تكون الآية مختصة بصدقة التطوع أباح الله تعالى أن تصرف إلى فقراء المسلمين وفقراء أهل الذمة فأما زكاة الفرض فلا يجوز صرفها إلى أهل الذمة بحال (وما تنفقوا من خير يوف إليكم) أى يوفر لكم جزاؤه وقال ابن عباس يجازيكم به يوم القيامة ومعناه يؤدى إليكم يوم القيامة ولهذا حسن إدخال إلى مع التوفية لأنها تضمنت معنى التأدية (وأنتم لا تظلمون) أى لا تنتقصون شيئا من ثواب أعمالكم . قوله عز وجل (للفقراء) اختلفوا فى موضع اللام فى قوله للفقراء فقيل هو مردود على موضع اللام من قوله فلأنفسكم فكأنه قال وما تنفقوا من خير فللفقراء وإنما تنفقون لأنفسكم وقيل معناه الصدقات التى سبق ذكرها الفقراء وقيل خبر محذوف تقديره للفقراء الذين من صفتهم كذا وكذا حق واجب وهم فقراء المهاجرين كانوا نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر وكانوا يأوون إلى صفة فى المسجد يتعلمون القرآن بالليل ويرضخون النوى بالنهار وكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أصحاب الصفة فحث الله تعالى الناس على مواساتهم فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى وقوله (الذين أحصروا فى سبيل الله) يعنى هم الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل الله وقيل حبسوا أنفسهم على طاعة الله (لا يستطيعون ضربا فى الأرض) يعنى لا يتفرغون للتجارة وطلب المعاش والكسب وهم أهل الصفة الذين تقدم ذكرهم وقيل حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد فى سبيل الله وقيل هم قوم أصابتهم جراحات فى الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

في سبيل الله للجهاد وقيل معناه من كثرة ما جاهدوا صارت الأرض كلها حربا لهم فلا يستطيعون ضربا في الأرض من كثرة أعدائهم (يحسبهم) قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة يحسبهم وبابه بفتح السين وقرأ الآخرون بالكسر (الجاهل) بحالهم (أغنياء من التعفف) أي من تعففهم عن السؤال وقناعتهم يظن من لا يعرف حالهم أنهم أغنياء والتعفف التفعل من العفة وهي الترك يقال عف عن الشيء إذا كف عنه وتعفف إذا تكلف في الإمساك (تعرفهم بسيماهم) السيماء والسيمياء والسمة العلامة التي يعرف بها الشيء واختلفوا في معناها هاهنا فقال مجاهد هي التخشع والتواضع وقال السدي أثر الجهد من الحاجة والفقر وقال الضحاك صفرة ألوانهم من الجوع والضر وقيل رثاثة ثيابهم (لا يسألون الناس إلحافا) قال عطاء إذا كان عندهم غداء لا يسألون عشاء وإذا كان عندهم عشاء لا يسألون غداء وقيل معناه لا يسألون الناس إلحافا أصلا لأنه قال من التعفف والتعفف ترك السؤال ولأنه قال تعرفهم بسيماهم ولو كانت المسألة من شأنهم لما كانت إلى معرفتهم بالعلامة حاجة فمعنى الآية ليس لهم سؤال فيقع فيه إلحاف والإلحاف الإلحاح واللجاج أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أخبرنا أبو سعيد محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أخبرنا محمد ابن يعقوب أخبرنا محمد ابن عبد الله بن الحكم أخبرنا أنس بن عياض عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير قال قال رسول الله صلى الله عليه «وسلم لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره ، فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أشياءهم أعطوه أو منعوه» أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان قالوا فمن المسكين يارسول الله قال الذي لا يجد غنى فيغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس» وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافا» أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الظاهري أخبرنا جدي سهل بن عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أخبرنا محمد بن زكريا بن غدافر أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد الديري أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا

(٢٩٥)

فصاروا زمنى حصرهم المرض والزمانة عن الضرب في سبيل الله (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) أي يظن من لم يختبر حالهم أنهم أغنياء من التعفف وهو تفعل من العفة وهي ترك الشيء والكف عنه يقال تعفف إذا ترك السؤال وازم القناعة والمعنى يظنهم من لم يعرف حالهم أغنياء لأظهارهم التجمل وتركهم المسئلة (تعرفهم بسيماهم) السيماء والسيمياء والسمة العلامة التي يعرف بها الشيء واختلفوا في معناها فقيل هي الخضوع والتواضع وقيل هي أثر الجهد من الحاجة والفقر وقيل هي صفرة الوانهم من الجوع ورثاثة ثيابهم من الضر (لا يسألون الناس الحافا) يعني الحاحا قيل إذا كان عنده غداء لا يسأل عشاء وإذا كان عنده عشاء لا يسأل غداء وقيل لا يسألون الناس أصلا لأنه قال يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف وهو ترك المسئلة فعلم بذلك أنهم لا يسألون ألبتة ولأنه قال تعالى تعرفهم بسيماهم ولو كانت المسئلة من شأنهم لما كانت من معرفتهم بالعلامة حاجة فمعنى الآية ليس يصدر منهم سؤال حتى يقع فيهم الحاف فهم لا يسألون الناس إلحافا ولا غير إلحاف (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس» (ق) عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل» الناس لفظ (خ) عن الزبير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خير له» من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سأل الناس وله ما يغنيه، جاء يوم القيامة ومسئلته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح وقيل يارسول الله ما يغنيه قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب» أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «من سأل وله قيمة أو قية فقد ألحف» أخرجه أبو داود وقال زاد هشام في حديثه وكانت الأوقية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين درهما وفي رواية عطاء بن يسار من سأل منكم وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافا عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سأل الناس وله أربعون درهما فهو ملحف» أخرجه النسائي (م) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول

معمر عن هارون بن رياب عن كنانة العدوى عن قبيصة بن مخارق قال «إني تحملت بحمالة في قومي فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله إني تحملت بحمالة في قومي وأتيتك لتعينني فيها ، قال بل نتحملها عنك ياقبيصة ونؤديها إليهم من الصدقة ثم قال ياقبيصة أن المسئلة قد حرمت إلا في إحدى ثلاث : رجل أصابته حاجة فاجتاحت ماله فيسأل حتى يصيب قواما من عيشه ثم يمسك : ورجل أصابته حاجة حتى يشهد له ثلاثة نفر من ذوي الحجي من قومه لقد أصابت فلانا فاقة أن المسألة قد حلت له فيسأل حتى يصيب القوام من العيش ثم يمسك ورجل تحمل بحمالة فيسأل حتى إذا بلغ أمسك وما كان غير ذلك فانه سحت يأكله صاحبه سحتا أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي أخبرنا قتيبة أخبرنا شريك عن حكيم بن جبير عن محمد بن عبدالرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يا رسول الله وما يغنيه قال خمسون درهما أو قيمتها ذهبا» قوله تعالى (وما تنفقوا من خير) من مال (فان الله به عليم) وعليه مجازي (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) روى عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهم قال لما نزلت للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله بعث عبد الرحمن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أصحاب الصفة وأصل وبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في جوف الليل بوسق من تمر فأنزل الله تعالى فيهما «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار» الآية عني بالنهار علانية صدقة عبد الرحمن بن عوف وبالليل سرا : صدقة علي رضي الله عنه ، وقال أبو أمامة وأبو الدرداء ومكحول والأوزاعي نزلت في الذين يرتبطون الخيل للجهاد فانها تعتلف ليلا ونهارا سرا وعلانية أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا علي بن جعفر أخبرنا ابن المبارك أخبرنا طلحة بن أبي سعيد قال سمعت سعيد المقبري يحدث أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم «من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة وقوله تعالى (فلهم أجرهم عند ربهم) قال الأخفش جعل جواب الخبر بالفاء لأن الذين بمعنى من وجواب من بالفاء في الخبر أو معنى الآية من أنفق كذا فله أجره عند ربه (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قوله تعالى (الذين يأكلون الربا) أي الذين يعاملون به

الله صلى الله عليه وسلم «من سأل الناس تكثرا فانما يسأل جمرا فليستقل أو ليستكثر». وقوله تعالى (وما تنفقوا من خير فان الله به عليم) يعني أن الله تعالى يعلم مقادير الإنفاق ويجازي عليها ففيه حث على الصدقة والإنفاق في الطاعة . قوله عز وجل (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية) قال ابن عباس في رواية عنه نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب كانت عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية وفي رواية عنه قال «لما نزل للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله» بعث عبد الرحمن بن عوف بدنانير كثيرة إلى أهل الصفة وبعث علي بن أبي طالب في الليل بوسق من تمر فأنزل الله فيهما «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار» يعني بنفقة الليل نفقة علي وبالنهار نفقة عبد الرحمن وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية لأنه تعالى قدم نفقة الليل على نفقة النهار وقدم السر على العلانية وقيل نزلت الآية في الذين يربطون الخيل للجهاد في سبيل الله لأنهم يعلفونها بالليل والنهار وفي السر والعلانية (خ) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا واحتسابا وتصديقا بوعده كان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» يعني حسنات وقيل إن الآية عامة في الذين ينفقون أموالهم في جميع الأوقات ويعمون بها أصحاب الحاجات والفاقات (فلهم أجرهم عند ربهم) أي جزاء أعمالهم (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) يعني في الآخرة . قوله عز وجل (الذين يأكلون الربا) أي يعاملون به وإنما خص الأكل لأنه معظم الأمر المقصود من المال لأن المال لا يؤكل إنما يصرف في المأكول ثم يؤكل فمنع الله التصرف في الربا بما ذكر فيه من الوعيد (م) عن جابر قال «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء»

وإنما خص الأكل لأنه معظم المقصود من المال (لايقومون) يعنى يوم القيامة من قبورهم (إلا كما يقوم الذى يتخبطه) أى يصرعه (الشيطان) أصل الخبط الضرب والوطء وهو ضرب على غير استواء يقال ناقة خبوط للتى تطأ الناس وتضرب الأرض بقوائمها (من المس) أى الجنون يقال مس الرجل فهو ممسوس إذا كان مجنونا ومعناه أن آكل الربا يبعث يوم القيامة كمثل المصروع. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحى أخبرنا أبو إسحاق الثعلبى أخبرنا عبد الله بن حامد أخبرنا أحمد بن محمد ابن يوسف أخبرنا عبد الله بن يحيى أخبرنا يعقوب بن سفيان أخبرنا إسماعيل بن سالم أخبرنا عباد بن عباد عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصة الإسراء؟ قال «فانطلق بى جبريل عليه السلام إلى رجال كثير كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم منضدين على سابلة آل فرعون وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا قال فيقبلون مثل الإبل المنهومة يخبطون الحجارة والشجر لا يسمعون ولا يعقلون فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنه فيصرع فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيردوهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم فى البرزخ بين الدنيا والآخر قال وآل فرعون يقولون اللهم لا تقم الساعة أبدا قال ويوم القيامة يقال أدخلوا آل فرعون أشد العذاب قلت ياجبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس». قوله تعالى (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) أى ذلك الذى نزل بهم لقولهم هذا واستحلالهم إياه وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه فطالبه فيقول الغريم لصاحب الحق زدنى فى الأجل حتى أزيدك فى المال فيفعلان ذلك ويقولون سواء علينا الزيادة فى أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير فكذبهم الله تعالى وقال (وأحل الله البيع وحرم الربا) واعلم أن الربا فى اللغة الزيادة قال الله تعالى «وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس» أى ليكثر فلا يربو عند الله فطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام فى الجملة إنما المحرم زيادة على صفة

وأصل الربا فى اللغة الزيادة يقال ربا الشىء يربو إذا زاد وكثر فالربا الزيادة فى المال (لايقومون) يعنى من قبورهم يوم القيامة (إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان) أى يصرعه، وأصل الخبط الضرب والوطء وهو ضرب على غير استواء يقال ناقة خبوط للتى تضرب الأرض بقوائمها وتطأ الناس بأخفافها ومنه قولهم: يخبط خبط عشواء للرجل الذى يتصرف فى الأمور على غير اهتداء وتمييز وتدبر، وتخبطه الشيطان إذا مسه بخبل وجنون (من المس) يعنى من الجنون يقال مس الرجل فهو ممسوس إذا كان به جنون ومعنى الآية أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مثل المصروع الذى لايستطيع الحركة الصحيحة لأن الربا ربا فى بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإسراع قال سعيد بن جبير تلك علامة آكل الربا إذا استحله يوم القيامة وروى البغوى بسند الثعلبى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصة الإسراء قال «فانطلق بى جبريل إلى رجال كثير كل رجل بطنه مثل البيت الضخم منضدين على سابلة آل فرعون وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا قال فيقبلون مثل الإبل المنهومة يخبطون الحجارة والشجر لايسمعون ولا يعقلون فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا فتميل بهم بطونهم فيصرعون ثم يقوم أحدهم فيميل به بطنه فيصرع فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيردوهم مقبلين ومدبرين فذلك عذابهم فى البرزخ بين الدنيا والآخرة قال وآل فرعون يقولون اللهم لاتقم الساعة أبدا قال ويوم القيامة يقول أدخلوا آل فرعون أشد العذاب قلت ياجبريل من هؤلاء؟ قال هؤلاء الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس» قوله بطنه مثل البيت الضخم أى العظيم الكبير الغليظ، وقوله منضدين أى موضوعين بعضهم على بعض والسابلة الطريق، وقوله مثل الإبل المنهومة النهم بالتحريك إفراط فى الشهوة بالطعام من الجوع . قوله عز وجل (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) أى ذلك الذى نزل بهم من العذاب بقولهم هذا واستحلالهم إياه وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا حل ماله على غريمه يطالبه به فيقول الغريم لصاحب الحق زدنى فى الأجل حتى أزيدك فى المال فيفعلان ذلك وكانوا يقولون سواء علينا الزيادة فى أول البيع بالربح أو عند المحل لأجل التأخير فكذبهم الله تعالى ورد عليهم ذلك بقوله (وأحل الله البيع وحرم الربا) يعنى وأحل الله لكم الأرباح فى التجارة بالبيع والشراء وحرم الربا الذى هو زيادة فى المال لأجل تأخير الأجل وذلك لأن

مخصوصة فى مال مخصوص بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبرنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعى أخبرنا عبد الوهاب عن أيوب بن أبى تميمة عن محمد بن سيرين عن مسلم بن يسار ورجل آخر عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لاتبيعوا الذهب بالذهب ولا الورق بالورق ولا البر بالبر ولا الشعير بالشعير ولا التمر بالتمر ولا الملح بالملح إلاسواء بسواء عينا بعين يدا بيد ولكن بيعوا الذهب بالورق والورق بالذهب والبر بالشعير والشعير بالبر والتمر بالملح والملح بالتمر يدا بيد كيف شئتم نقص أحدهما الملح أو التمر

أو زاد أحدهما ومن زاد أو استزاد فقد أربى» وروى هذا الحديث مطرف عن محمد بن سيرين عن مسلم بن يسار وعبد الله ابن عتيك عن عبادة عن النبى صلى الله عليه وسلم نص على ستة أشياء وذهب عامة أهل العلم إلى أن حكم الربا يثبت فى هذه الأشياء الست بالأوصاف فيها فيتعدى إلى كل مالم توجد فيه تلك الأوصاف ثم اختلفوا فى تلك الأوصاف فذهب قوم إلى أن المعنى فى جميعها واحد وهو النفع وأثبتوا الربا فى جميع الأموال وذهب الأكثرون إلى أن الربا يثبت فى الدراهم والدنانير بوصف وفى الأشياء المطعومة بوصف آخر. واختلفوا فى ذلك الوصف فقال قوم ثبت فى الدراهم والدنانير بوصف النقدية وهو قول مالك والشافعى وقال قوم ثبت بعلة الوزن وهو قول أصحاب الرأى وأثبتوا الربا فى جميع الموزونات مثل الحديد والنحاس والقطن ونحوها.

وأما الأشياء الأربعة فذهب قوم إلى أن الربا ثبت فيها بعلة الكيل وهو قول أصحاب الرأى وأثبتوا الربا فى جميع المكيلات مطعوما كان أو غير مطعوم كالجص والنورة ونحوهما، وذهب جماعة إلى أن العلة فيها الطعم مع الكيل والوزن فكل مطعوم وهو مكيل أو موزون يثبت فيه الربا ولا يثبت فيما ليس بمكيل ولا موزون وهو قول سعيد بن المسيب وقاله الشافعى رحمه الله فى القديم وقال فى الجديد يثبت فيه الربا بوصف الطعم وأثبت الربا فى جميع الأشياء المطعومة من الثمار والفواكه والبقول والأدوية مكيلة كانت أو موزونة لما روى عن معمر بن عبد الله قال كنت أسمع رسول

الله تعالى خلق الخلق فهم عبيده وهو مالكهم يحكم فيهم بما يشاء ويستعبدهم بما يريد ليس لأحد أن يعترض عليه فى شيء مما حل أو حرم وإنما على كافة الخلق الطاعة والتسليم لحكمه وأمره ونهيه . وذكر بعض العلماء الفرق بين البيع والربا فقال إذا باع ثوبا يساوى عشرة بعشرين فقد جعل ذات الثوب مقابلا للعشرين فلما حصل التراضى على هذا التقابل صار كل واحد منهما مقابلا للآخر فى المالية عندهما فلم يكن أخذ من صاحبه شيئا بغير عوض أما إذا باع عشرة دراهم بعشرين فقد أخذ العشرة الزائدة بغير عوض ولايمكن أن يقال إن العوض هو الإمهال فى مدة الأجل لأن الإمهال ليس مالا أو شيئا يشار إليه حتى يجعله عوضا عن العشرة الزائدة فقد ظهر الفرق بين الصورتين .

(فصل : فى حكم الربا وفيه مسائل)

(المسئلة الأولى) ذكروا فى سبب تحريم الربا وجوها : أحدها أن الربا يقتضى أخذ مال الغير بغير عوض لأن من يبيع درهما بدرهمين نقدا كان أو نسيئة فقد حصل له زيادة درهم من غير عوض فهو حرام. الوجه الثانى إنما حرم عقد الربا لأنه يمنع الناس من الاشتغال بالتجارة لأن صاحب الدراهم إذا تمكن من عقد الربا خف عليه تحصيل الزيادة من غير تعب ولا مشقة فيفضى ذلك إلى انقطاع منافع الناس بالتجارات وطلب الأرباح. الوجه الثالث أن الربا هو سبب إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض فلما حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم للمحتاج واسترجاع مثله لطلب الأجر من الله تعالى . الوجه الرابع أن تحريم الربا قد ثبت بالنص ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومة للخلق فوجب القطع بتحريم الربا وإن كنا لانعلم وجه الحكمة فى ذلك .

(المسئلة الثانية) اعلم أن الربا فى اللغة هو الزيادة وطلب الزيادة بطريق التجارة غير حرام فثبت أن الزيادة المحرمة هو الربا وهو على صفة مخصوصة فى مال مخصوص بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ق) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الذهب بالورق ربا إلا هاء وهاء والبر بالبر ربا إلاهاء وهاء والشعير بالشعير ربا إلاهاء وهاء والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء» وفى رواية «الورق بالورق ربا إلا هاء وهاء والذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء» (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الذهب بالذهب وزنا بوزن

بوزن مثلا بمثل والفضة بالفضة وزنا بوزن مثلا بمثل فمن زاد واستزاد فقد أربى» وفي رواية «التمر بالتمر والحنطة بالحنطة والشعير بالشعير والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد فمن زاد واستزاد فقد أربى إلا ما اختلفت ألوانه» (م) عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل سواء بسواء يدا بيد فاذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد» فنص رسول الله صلى الله عليه وسلم على جريان الربا في هذه الستة أشياء وهي النقدان وأربعة أصناف من المطعومات وهي البر والشعير والتمر والملح، فذهب عامة أهل العلم إلى أن حكم الربا ثبت في هذه الأشياء لأوصاف فيها فيتعدى إلى كل ما يوجد من تلك الأوصاف فيه ثم اختلفوا في تلك الأوصاف فذهب قوم إلى أن المعنى في جميعها هو واحد وهو النفع فأثبتوا الربا في جميع الأموال وذهب الأكثرون إلى أن الربا يثبت في الدراهم والدنانير بوصف وفي الأشياء المطعومة بوصف آخر واختلفوا في ذلك الوصف فذهب الشافعي ومالك إلى أنه ثبت في الدراهم والدنانير بوصف النقدية وذهب أصحاب الرأي إلى أنه ثبت بعلة الوزن فأثبتوا الربا في جميع الموزونات مثل الحديد والنحاس والقطن ونحو ذلك وأما الأربعة أشياء المطعومة فذهب أصحاب الرأي إلى أن الربا ثبت فيها بعلة الوزن والكيل فأثبتوا الربا في جميع المكيلات والموزونات مطعوما كان أو غير مطعوم كالجص والنورة ونحوهما وذهب جماعة إلى أن العلة فيها الطعم مع الكيل والوزن فكل مطعوم مكيل أو موزون يثبت فيه الربا ولا يثبت فيما سوى ذلك مما ليس بمكيل أو موزون وهو قول سعيد بن المسيب والشافعي في القديم وقال في الجديد ثبت الربا فيها بوصف الطعم فأثبت الربا في جميع الأشياء المطعومة من الثمار والفواكه والبقول والأدوية مكيلة كانت أو موزونة لما روي عن معمر بن عبد الله أرسل غلامه بصاع قمح فقال بعه ثم اشتر به شعيرا فذهب الغلام فأخذ صاعا وزيادة بعض من صاع فلما جاء معمرا أخبره بذلك فقال له معمر لم فعلت ذلك انطلق فرده ولا تأخذن إلا مثلا بمثل فاني كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الطعام بالطعام مثلا بمثل» وكان طعامنا الشعير قيل له فانه ليس بمثله فقال إني أخاف أن يضارع أخرجه مسلم فجملة مال الربا عند الشافعي ما كان ثمنا أو مطعوما.

(المسألة الثالثة) الربا نوعان ربا فضل وهو الزيادة وربا نسيئة وهو الأجل فان باع ما يدخل فيه الربا بجنسه إن باع أحد النقدين بجنسه كالذهب بالذهب أو المطعوم بجنسه كالحنطة بالحنطة ونحو ذلك فيشترط فيه التماثل والمساواة بمعيار الشرع فان كان موزونا كالدراهم والدنانير فيشترط فيه المساواة في الوزن وإن كان مكيلا كالحنطة والشعير يشترط في بيعه بجنسه المساواة في الكيل ويشترط التقابض في مجلس العقد فان باع ما يدخل فيه الربا بغير جنسه ينظر فان باع بما لا يوافقه في وصف الربا مثل إن باع مطعوما بأحد النقدين فلا ربا فيه كما لو باعه بغير مال الربا فان باعه بما لا يوافقه في الوصف لا في الجلس مثل أن باع الدراهم بالدنانير أو باع الحنطة بالشعير أو كان مطعوما بمطعوم آخر من غير جنسه فلا يثبت فيه ربا التفاضل فيجوز بيعه متفاضلا ويثبت فيه ربا النسيئة فيشترط في بيعه التقابض في المجلس لقوله صلى الله عليه وسلم «إلا يدا بيد» وقوله «هاء وهاء» ففيه اشتراط التقابض في المجلس وتحريم النسيئة وقوله صلى الله

الله ﷺ يقول «الطعام بالطعام مثلا بمثل» فجملة مال الربا عند الشافعي ما كان ثمنا أو مطعوما. والربا نوعان: ربا الفضل وربا النساء فاذا باع مال الربا بجنسه مثلا بمثل بأن باع أحد النقدين بجنسه أو باع مطعوما بجنسه كالحنطة بالحنطة ونحوها يثبت فيه كلا نوعي الربا حتى لا يجوز إلا متساويين في معيار الشرع، فان كان موزونا كالدراهم والدنانير فيشترط المساواة في الوزن وإن كان مكيلا كالحنطة والشعير بيع بجنسه فيشترط المساواة في الكيل ويشترط التقابض في مجلس العقد وإذا باع مال الربا بغير جنسه نظر إن باع بما لا يوافقه في وصف الربا مثل أن باع مطعوما بأحد النقدين فلا ربا فيه كما لو باعه بغير مال الربا وإن باعه بما يوافقه في الوصف مثل أن باع الدراهم بالدنانير أو باع الحنطة بالشعير أو باع مطعوما بمطعوم آخر من غير جنسه فلا يثبت فيه ربا الفضل حتى يجوز متفاضلا أو جزافا ويثبت فيه ربا النساء حتى يشترط التقابض في المجلس وقول النبي صلى الله عليه وسلم «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلى أن قال إلا سواء بسواء» فيه إيجاب المماثلة وتحريم الفضل عند اتفاق الجنس وقوله عينا بعين فيه تحريم النساء، وقوله يدا بيد كيف شئتم فيه إطلاق التفاضل عند اختلاف الجنس مع إيجاب التقابض في المجلس هذا

فى ربا المبايعة، ومن أقرض شيئا بشرط أن يرد عليه أفضل فهو قرض جر منفعة وكل قرض جر منفعة فهو ربا. قوله تعالى (فمن جاءه موعظة من ربه) تذكير وتخويف وإنما ذكر الفعل ردا إلى الوعظ (فانتهى) عن أكل الربا (فله ماسلف) أى مامضى من ذنبه قبل النهى مغفور له (وأمره إلى الله) بعد النهى إن شاء عصمه حيث يثبت على الانتهاء وإن شاء خذله حتى يعود وقيل أمره إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس إليه من أمر نفسه شىء (ومن عاد) بعد التحريم إلى أكل الربا مستحلا له (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (٣٠٠) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد ابن يوسف أخبرنا محمد ابن إسماعيل أخبرنا محمد ابن المثنى حدثنى غندر أخبرنا شعبة عن عوف ابن أبى جحيفة عن أبيه أنه قال «إن النبى ﷺ نهى عن ثمن الدم وثمن الكلب وكسب البغى ولعن آكل الربا ومؤكله والواشمة والمستوشمة والمصور» أخبرنا إسماعيل ابن عبد القاهر الجرجانى أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسى أخبرنا محمد بن عيسى الجلودى أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أخبرنا مسلم بن الحجاج أخبرنا زاهر ابن حرب أخبرنا هشيم أخبرنا أبو الزبير عن جابر رضى الله عنه قال «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء». أخبرنا أبو سعيد الشريحى أخبرنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو محمد المخلدى أنا أبو حامد بن الشرقى أخبرنا أحمد بن يوسف السلمى، أخبرنا النضر بن محمد أخبرنا عكرمة بن عمار يحتمل أخبرنا يحيى هو ابن كثير قال حدثنى أبو سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الربا سبعون بابا أهونها عند الله عز وجل كالذى ينكح أمه» قوله تعالى (يمحق الله الربا) أى ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته، وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما يمحق الله الربا يعنى لا يقبل منه صدقة ولا جهادا ولا حجا ولا صلة (ويربى الصدقات) أى يثمرها ويبارك فيها فى الدنيا، ويضاعف بها الأجر والثواب فى العقبى (والله لا يحب كل كفار) بتحريم الربا (أثيم) فاجر بأكله

عليه وسلم «إلا سواء بسواء مثلا بمثل» ففيه إيجاب المماثلة وتحريم التفاضل عند اتفاق الجنس وقوله صلى الله عليه وسلم «فاذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم» ففيه إطلاق التبايع مع التفاضل عند اختلاف الجنس مع اشتراط التقابل فى المجلس وهو قوله صلى الله عليه وسلم «إذا كان يدا بيد» والله أعلم.

(المسألة الرابعة) فى القرض وهو من أقرض شيئا وشرط أن يرد عليه أفضل منه فهو قرض جر منفعة وكل قرض جر منفعة فهو ربا يدل عليه ما روى عن مالك قال بلغنى أن رجلا أتى ابن عمر فقال إنى أسلفت رجلا سلفا واشترطت عليه أفضل مما أسلفته فقال عبد الله بن عمر فذلك الربا أخرجه مالك فى الموطأ قال فان لم يشترط فضلا فى وقت القرض فرد المستقرض أفضل مما أخذ جاز ويدل على ذلك ماروى عن مجاهد أن ابن عمر استلف دراهم فقضى صاحبها خيرا منها فأبى أن يأخذها وقال هذه خير من دراهمى فقال ابن عمر قد علمت ولكن نفسى بذلك طيبة أخرجه مالك فى الموطأ. وقوله تعالى (فمن جاءه موعظة من ربه) أى تذكير وتخويف وإنما ذكر الفعل لأن تأنيثه غير حقيقى فجاز تذكيره وذلك لأن الوعظ والموعظة شىء واحد (فانتهى) أى عن أكل الربا (فله ماسلف) أى مامضى من ذنبه قبل النهى مغفور له (وأمره إلى الله) يعنى بعد النهى إن شاء عصمه حتى يثبت على الانتهاء وإن شاء خذله حتى يعود إلى أكل الربا وقيل معناه وأمره إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه وليس إليه من أمر نفسه شىء وقيل إن الآية فيمن يعتقد تحريم أكل الربا ثم يأكله فأمره إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه (ومن عاد) يعنى إلى أكل الربا بعد التحريم مستحلا له (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). قوله عز وجل (يمحق الله الربا) أى ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته قال ابن عباس لا يقبل الله منه صدقة ولا حجا ولا جهادا ولا صلة (ويربى الصدقات) أى يزيدها ويثمرها ويبارك فيها فى الدنيا ويضاعف أجرها فى الآخرة (ق) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ماتصدق أحد بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله» لفظ مسلم والبخارى «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله وفى رواية ولا يقبل الله إلا الطيب فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل» (والله لا يحب كل كفار) يعنى كل مصر على كفره مقيم عليه مستحل لأكل الربا (أثيم) يعنى متماديا فى الإثم وفيه نهى عنه وأن من أكل الربا لا ينزجر عنه ولا يتركه وقيل

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا) قال عطاء وعكرمة نزلت فى العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما وكانا قد أسلفا فى التمر فلما حضر الجذاذ قال لهما صاحب التمر إن أنتما أخذتما حقكما لايبقى لى ما يكفى عيالى فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما ففعلا فلما حل الأجل طلبا الزيادة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهما فأنزل الله تعالى هذه الآية فسمعا وأطاعا وأخذا رءوس أموالهما . (٣٠١) وقال السدى نزلت فى العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين فى الجاهلية يسلفان فى الربا إلى بنى عمرو بن عمير ناس من ثقيف فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة فى الربا فأنزل تعالى هذه الآية فقال النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فى خطبته يوم عرفة «ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ودماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوعة كلها وأول ربا أضع ربا العباس بن عبدالمطلب فانها موضوعة كلها» وقال مقاتل نزلت فى أربعة إخوة من ثقيف مسعود وعبد ياليل وحبيب وربيعة وهم بنو عمرو بن عمير بن عوف الثقفى كانوا يداينون بنى المغيرة بن عبدالله ابن عمر بن مخزوم وكانوا يرابون فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم على الطائف أسلم هؤلاء الإخوة فطلبوا رباهم من بنى المغيرة فقال بنو المغيرة والله مانعطى الربا فى الإسلام وقد وضعه الله تعالى عن المؤمنين فاختصموا إلى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة فكتب عتاب بن أسيد إلى النبى صلى الله عليه وسلم بقصة الفريقين وكان ذلك مالا عظيما فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا) أى إذا لم تذروا مابقى من الربا (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) قرأ حمزة وعاصم برواية أبى بكر فآذنوا بالمد على وزن آمنوا ، أى فأعلموا

يحتمل أن يكون الكفار راجعا إلى مستحل الربا والأثيم راجعا إلى من يفعله مع اعتقاد التحريم فتكون الآية جامعة للفريقين . قوله عز وجل (إن الذين آمنوا) يعنى صدقوا بالله ورسوله (وعملوا الصالحات) يعنى التى أمرهم الله بها (وأقاموا الصلاة) يعنى المفروضة بأركانها وحدودها فى أوقاتها (وآتوا الزكاة) يعنى المفروضة عليهم فى أموالهم (لهم أجرهم عند ربهم) أي لهم ثواب أعمالهم فى الآخرة (ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) أى يوم القيامة . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا) قيل نزلت فى العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وكانا قد أسلفا فى التمر فلما كانا وقت الجذاذ قال صاحب التمر لهما إن أنتما أخذتما حقكما لم يبق لى ما يكفى عيالى فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما ففعلا فلما حل الأجل طلبا منه الزيادة فبلغ ذلك النبى ﷺ فنهاهما وأنزل الله هذه الآية فسمعا وأطاعا وأخذا رؤوس أموالهما ، وقيل نزلت فى العباس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان فى الربا إلى بنى عمرو بن عمير ناس من ثقيف فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة فى الربا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فيما رواه جابر من أفراد مسلم «ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ودماء الجاهلية موضوعة وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب فانه موضوع كله» وقيل نزلت فى أربعة أخوة من ثقيف وهم مسعود وعبد ياليل وحبيب وربيعة بن عمرو بن عميرة بن عوف الثقفى كانوا يداينون بنى المغيرة بن عبدالله بن عمير بن مخزوم وكانوا يرابون فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم على الطائف أسلم هؤلاء الأخوة بنو عمرو الثقفى وطلبوا رباهم من بنى المغيرة فقال بنو المغيرة والله مانعطى الربا فى الإسلام وقد وضعه الله تعالى عن المؤمنين فاختصموا إلى عتاب بن أسيد وكان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة فكتب عتاب إلى النبى صلى الله عليه وسلم بقضية الفريقين وكان ذلك مالا عظيما فأنزل الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله) أي خافوا الله فيما أمركم به وانتهوا عما نهاكم عنه (وذروا) أى واتركوا مابقى من الربا والمعنى واتركوا طلب مابقى لكم مافضل على رؤوس أموالكم (إن كنتم مؤمنين) يعنى إن كنتم محققين لإيمانكم قولا وفعلا (فان لم تفعلوا) أى لم تتركوا مابقى من الربا بعد تحريمه (فأذنوا) قرىء بكسر الذال والمد على وزن آمنوا ومعناه فاعلموا غيركم أنه حرب لله ورسوله وقرىء فأذنوا بفتح الذال مع القصر ومعناه فاعلموا أنتم وأيقنوا (بحرب من الله ورسوله) قال ابن عباس يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب قال أهل المعانى حرب

غيركم أنكم حرب لله ورسوله وأصله من الإذن أي أوقعوا فى الأذان وقرأ الآخرون فأذنوا مقصورا بفتح الذال اى فاعلموا أنتم وأيقنوا بحرب من الله ورسوله . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما يقال لآكل الربا يوم القيامة خذ سلاحك للحرب . قال أهل المعانى حرب الله النار وحرب رسول الله السيف (وإن تبتم) أى تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه (فلكم رءوس أموالكم لاتظلمون) بطلب الزيادة (ولاتظلمون) بالنقصان عن رأس المال فلما نزلت الآية قال بنو عمرو الثقفى ومن كان يعامل بالربا من غيرهم (٣٠٢) بل نتوب إلى الله فانه لايدان لنا بحرب من الله ورسوله فرضوا برأس المال فشكابنو المغيرة العسرة وقالوا أخرونا إلى أن تدرك الغلات فأبوا أن يؤخروا فأنزل الله تعالى (وإن كان ذو عسرة) يعنى وإن كان الذى عليه الدين معسرا رفع الكلام باسم كان ولم يأت لها بخبر وذلك جائز فى النكرة تقول إن كان رجل صالح فأكرمه وقيل كان بمعنى وقع وحينئذ لايحتاج إلى خبر قرأ أبو جعفر عسرة بضم السين (فنظرة) أمر فى صيغة الخبر تقديره فعليه نظرة (إلى ميسرة) قرأ نافع ميسرة بضم السين وقرأ الآخرون بفتحها وقرأ مجاهد ميسرة بضم السين مضافا ومعناه اليسار والسعة (وأن تصدقوا) أى تتركوا رءوس أموالكم إلى المعسر (خير لكم إن كنتم تعلمون) قرأ عاصم تصدقوا بتخفيف الصاد والآخرون بتشديدها

الله النار وحرب رسوله السيف واختلفوا فى معنى هذه المحاربة فقيل المراد بها المبالغة فى الوعيد والتهديد دون نفس الحرب، وقيل بل المراد منه نفس الحرب وذلك أن من أصر على أكل الربا وعلم به الإمام قبض عليه وأجرى فيه حكم الله من التعزير والحبس إلى أن تظهر منه التوبة وإن كان آكل الربا ذا شوكة وصاحب عسكر حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية قال ابن عباس من كان مقيما على أكل الربا لا ينزع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه فان نزع أى تاب وإلا ضرب عنقه (وإن تبتم) أي إن تركتم أكل الربا ورجعتم عنه (فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) يعنى لا تظلمون أنتم الغريم بطلب زيادة على رأس المال ولا تظلمون أنتم بنقصان رأس المال فلما نزلت هذه الآية قال بنو عمرو الثقفى ومن كان يعامل بالربا من غيرهم بل نتوب إلي الله فانه لا يدان لنا يعنى لا قوة لنا بحرب الله ورسوله ورضوا برؤوس أموالهم فشكا بنو المغيرة العسرة ومن كان عليه دين وقالوا أخرونا إلى أن تدرك الغلات فأبوا أن يؤخروهم فأنزل الله عز وجل (وإن كان ذو عسرة) يعنى وإن كان الذى عليه الحق من غرمائكم معسرا والعسر نقيض اليسر وهو تعذر وجدان المال وأعسر الرجل إذا أضاق ولم يجد مايؤديه فى دينه (فنظرة) أى فامهال وتأخير (إلى ميسرة) أى إلى زمن اليسار وهو ضد الإعسار وهو وجدان المال الذى يؤديه فى دينه واختلفوا فى حكم الآية وهل الإنظار مختص بالربا أم هو عام فى كل دين على قولين: القول الأول وهو قول ابن عباس وشريح والضحاك والسدى أن الآية فى الربا وذكر عن شريح أن رجلا خاصم رجلا إليه فقضى عليه وأمر بحبسه فقال رجل كان عند شريح إنه معسر والله تعالى يقول فى كتابه وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة فقال شريح إنما ذاك فى الربا وإن الله تعالى قال فى كتابه «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» ولا يأمرنا الله بشيء ثم يعذبنا عليه. والقول الثانى وهو قول مجاهد وجماعة من المفسرين أن حكم الآية عام في كل دين على معسر واحتجوا بأن الله تعالى قال «وإن كان ذو عسرة» ولم يقل ذاعسرة ليكون الحكم عاما فى جميع المعسرين (وأن تصدقوا خير لكم) يعنى وإن تصدقوا على المعسر بما عليه من الدين فتتركوا رءوس أموالكم للمعسر خير لكم وإنما جاز هذا الحذف للعلم به لأنه قد جرى ذكر المعسرين وذكر رأس المال فعلم أن التصدق راجع إليهما (إن كنتم تعلمون) يعنى أن التصدق خير لكم وأفضل لأن فيه الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى العقبى

(فصل) أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أخبرنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان أخبرنا أبو العباس إسماعيل بن عبد الله الميكالى أخبرنا عبد الله بن أحمد بن موسى بن عبدان الحافظ أخبرنا أبو طاهر أحمد بن عمرو بن السرح أخبرنا ابن وهب عن جرير بن حازم عن أيوب عن يحيى بن كثير عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه أنه كان يطلب رجلا بحق فاختبى منه فقال ماحملك على ذلك قال العسرة فاستحلفه على ذلك فحلف فدعا بصكه فأعطاه إياه وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من أنظر معسرا ووضع عنه أنجاه الله من كرب يوم القيامة» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أبو منصور

محمد بن سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبيد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن منصور عن ربعي عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم، «إن الملائكة لتعلقت بروح رجل كان قبلكم فقالوا له هل علمت خيرا قط قال لا قالوا تذكر قال لا إلا أني رجل كنت أداين الناس فكنت آمر فتياني أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن المعسر قال الله تبارك وتعالى تجاوزوا عنه» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا أحمد بن عبد الله أخبرنا زائدة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي عن أبي اليسر قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول «من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»

(فصل: في الدين وحسن قضائه وتشديد أمره) أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا أحمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو الوليد أخبرنا شعبة أخبرنا سلمة بن كهيل قال سمعت أبا سلمة بمنى يحدث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا تقاضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأغلظ له فهم به أصحابه فقال «دعوه فان لصاحب الحق مقالا واشتروا له بعيرا فأعطوه إياه قالوا لا نجد إلا أفضل من سنه قال اشتروه فأعطوه إياه فان خياركم أحسنكم قضاء» أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مطل الغني ظلم فاذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع» أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أخبرنا الشافعي أخبرنا إبراهيم بن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه» أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسي أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا

(فصل: في ثواب إنظار المعسر والوضع عنه وتشديد أمر الدين والأمر بقضائه)

(م) عن أبي قتادة أنه طلب غريما له فتوارى عنه ثم وجده فقال إني معسر قال آلله قال آلله قال فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول «من سره أن ينجيه الله من كرب القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه» (م) عن أبي اليسر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كان فيمن كان قبلكم تاجر يداين الناس فان رأى معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه» وعن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه به عبد بعد الكبائر التي نهى الله عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء» أخرجه أبو داود (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عز وجل عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله» (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مطل الغني ظلم زاد في رواية وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع» (ق) عن كعب بن مالك أنه تقاضى ابن أبي حدرد دينا كان له في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيته فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته فنادى فقال يا كعب قلت لبيك يا رسول الله فأشار بيده أن ضع الشطر من دينك فقال كعب قد فعلت يا رسول الله قال قم فاقضه (ق) عن أبي هريرة قال «كان لرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سن من الإبل فجاء يتقاضاه فقال أعطوه فطلبوا سنه فلم يجدوا إلا سنا فوقها فقال أعطوه فقال أوفيتني وفاك الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن خيركم أحسنكم قضاء وفي رواية أنه أغلظ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين استقضاه حتى هم به بعض أصحابه فقال دعوه فان لصاحب الحق مقالا ثم أمر له بأفضل من سنه» (م) عن أبي قتادة الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والايمان بالله أفضل الأعمال فقام رجل فقال يا رسول الله أرأيت أن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف قلت قال أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم وأنت

أبو مصعب عن مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن عبد الله بن أبي قتادة الأنصاري عن أبيه أنه قال «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر يكفر الله عني خطاياي فقال رسول الله ﷺ نعم فلما أدبر ناداه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمر به فنودي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف قلت فأعاد عليه قوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم إلا الدين كذلك قال جبريل» قوله تعالى (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) قرأ أهل البصرة (٣٠٤) بفتح التاء أي تصيرون إلى الله وقرأ الآخرون بضم التاء وفتح الجيم أي تردون إلى الله تعالى (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) قال ابن عباس رضي الله عنه هذه آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له جبريل عليه السلام ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا وعشرين يوما: وقال ابن جريج تسع ليال وقال سعيد بن جبير سبع ليال ومات يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول حين زاغت الشمس سنة إحدى عشرة من الهجرة قال الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا. قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى) قال ابن عباس رضي الله عنهما لما حرم الله الربا أباح السلم وقال أشهد أن السلم المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله تعالى في كتابه وأذن فيه ثم قرأ (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) قوله إذا تداينتم أي تعاملتم بالدين يقال داينته إذا عاملته بالدين وإنما قال بدين بعد قوله إذا تداينتم؛ لأن المداينة قد تكون مجازاة وقد تكون معاطاة فقيده بالدين ليعرف المراد من اللفظ وقيل ذكره تأكيدا لقوله تعالى «ولا طائر يطير بجناحيه إلى أجل مسمى» الأجل مدة معلومة الأول والآخر والأجل يلزم في الثمن والمبيع في السلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محله وفي القرض لا يلزم الأجل عند أكثر أهل العلم «فاكتبوه» أي اكتبوا الذي تداينتم به بيعا كان أو سلما أو قرضا واختلفوا في هذه الكتابة فقال بعضهم هي واجبة والأكثرون

صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فان جبريل قال لي ذلك» عن محمد بن جحش قال «كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع رأسه إلى السماء ثم وضع يده على جبهته ثم قال: سبحان الله ماذا نزل من التشديد فسكتنا وفزعنا فلما كان من الغد سألته يارسول الله ماهذا التشديد الذي نزل فقال والذي نفسي بيده لو أن رجلا قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي وعليه دين مادخل الجنة حتى يقضى عنه دينه» أخرجه النسائي. قوله عزوجل (واتقوا) أي وخافوا (يوما ترجعون فيه إلى الله) قرئ بفتح التاء أي تصيرون فيه إلى الله وقرئ بضم التاء وفتح الجيم أي تردون فيه إلى الله (ثم توفى كل نفس ماكسبت) يعني من خير أو شر (وهم لا يظلمون) أي في ذلك اليوم. وفي هذه الآية وعد شديد وزجر عظيم قال ابن عباس هذه آخر آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جبريل ضعها على رأس مائتين وثمانين من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا وعشرين يوما وقيل تسع ليال وقيل سبعا ومات صلى الله عليه وسلم لليلتين خلتا من ربيع الأول في يوم الاثنين سنة إحدى عشرة من الهجرة وروى الشعبي عن ابن عباس إن آخر آية نزلت آية الربا. قوله عزوجل (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين) قال ابن عباس لما حرم الربا أباح السلم وقال أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله في كتابه وأذن فيه وقوله إذا تداينتم أي تعاملتم بالدين أو داين بعضكم بعضا والتداين تفاعل من الدين يقال داينته إذا عاملته بالدين وإنما قال بدين بعد قوله إذا تداينتم لأن المداينة قد تطلق على المجازاة وعلى المعاطاة فقيده بالدين ليعرف المراد من اللفظ ويخلص أحد المعنيين من الآخر وقيل إنما قال بدين ليرجع الضمير إليه في قوله فاكتبوه إذ لو لم يذكر ذلك لوجب أن يقال فاكتبوا الدين فلا يحسن النظم بذلك وقيل إنما ذكره تأكيدا (إلى أجل مسمى) يعني إلى مدة معلومة الأول والآخر مثل السنة والشهر ولا يجوز إلى غير مدة معلومة كما لو قال إلى الحصاد أو نحوه والأجل يلزم في الثمن في البيع وفي السلم حتى لا يكون لصاحب الحق الطلب قبل محل الأجل بخلاف القرض فانه لا يلزم فيه الأجل عند أكثر أهل العلم (ق) عن ابن عباس قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون في التمر العام والعامين فقال لهم «من أسلف في تمر ففي كيل معلوم أو وزن معلوم إلى أجل معلوم» وقوله تعالى (فاكتبوه) أي اكتبوا الدين الذي تداينتم به بيعا كان أو سلما أو قرضا واختلفوا في هذه الكتابة فقيل هي واجبة وهو مذهب عطاء وابن جريج والنخعي واختاره محمد بن جرير الطبري وقيل الأمر محمول على الندب والاستحباب

على أنه أمر استحباب فان ترك فلابأس كقوله تعالى «فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض» وقال بعضهم كانت كتابة الدين والإشهاد والرهن فرضا ثم نسخ الكل بقوله فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته وهو قول الشعبى ثم بين كيفية الكتابة فقال جل ذكره (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) أى ليكتب كتاب الدين بين الطالب والمطلوب كاتب بالعدل أى بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخير (ولا يأب) أى لايمتنع (كاتب أن يكتب)

واختلفوا فى وجوب الكتابة على الكاتب وتحمل الشهادة على الشهادة فذهب قوم إلى وجوبها إذا طولب وهو قول مجاهد. وقال الحسن يجب إذا لم يكن كاتب غيره وقال قوم هو على الندب والاستحباب وقال الضحاك كانت غريمة واجبة على الكاتب والشاهد فنسخها قوله تعالى ولا يضار كاتب ولا شهيد (كما علمه الله) أى كما شرعه الله وأمره (فليكتب وليملل الذى عليه الحق) يعنى المطلوب يقر على نفسه بلسانه ليعلم ماعليه والإملال والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد جاء بهما القرآن فالإملال هنا والإملاء قوله تعالى فهى تملى عليه بكرة وأصيلا (وليتق الله ربه) يعنى المملى (ولا يبخس منه شيئا) أى ولا ينقص منه أى من الحق الذى عليه شيئا (فان كان الذى عليه الحق سفيها)

أى جاهلا بالإملاء قاله مجاهد وقال الضحاك والسدى طفلا صغيرا وقال الشافعى السفيه المبذر المفسد لماله أو فى دينه قوله (أو ضعيفا) أى شيخا كبيرا وقيل هو ضعيف العقل لعته أو جنون (أو لايستطيع أن يمل هو) لخرس أو عمى أو عجمة أو حبس أو غيبة لايمكنه حضور الكتابة أو جهل بماله وعليه (فليملل وليه) أى قيمه (بالعدل) أى بالصدق والحق وقال ابن عباس رضى الله عنه ومقاتل أراد بالولى صاحب الحق يعنى إن عجز من عليه الحق من الإملال

والاستحباب فان ترك فلا بأس وهو قول جمهور العلماء وقيل بل كانت الكتابة والإشهاد والرهن فرضا ثم نسخ بقوله تعالى «فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته» وهو قول الحسن والشعبى والحكم بن عيينة ثم بين الله تعالى كيفية الكتابة فقال تعالى (وليكتب بينكم كاتب) أى ليكتب الدين بين الطالب والمطلوب كاتب (بالعدل) أى بالحق من غير زيادة ولا نقصان ولا تقديم أجل ولا تأخيره قيل إن فائدة الكتابة هى حفظ المال من الجانبين لأن صاحب الدين إذا علم أن حقه مقيد بالكتابة تعذر عليه طلب زيادة أو تقديم المطالبة قبل حلول الأجل ومن عليه الدين إذا عرف ذلك تعذر عليه الجحود أو النقص من أصل الدين الذى عليه فلما كانت هذه الفائدة من الكتابة أمر الله تعالى بها (ولا يأب) أى ولا يمتنع (كاتب أن يكتب) واختلفوا فى وجوب الكتابة على الكاتب وتحمل الشهادة على الشاهد فقيل بوجوبهما لأن ظاهر الكلام نهى عن الامتناع من الكتابة وإيجابها على كل كاتب فاذا طولب بالكتابة وتحمل الشهادة من هو من أهلهما وجب عليه ذلك وقيل هو من فرض الكفاية وهو قول الشعبى فان لم يوجد إلا واحد وجب عليه ذلك وقيل هو على الندب والاستحباب وذلك لأن الله تعالى لما علمه الكتابة وشرفه بها استحب له أن يكتب ليقضى حاجة أخيه المسلم ويشكر تلك النعمة التى أنعم الله بها عليه وقيل كانت الكتابة وتحمل الشهادة واجبتين على الكاتب والشاهد ثم نسخهما الله تعالى بقوله «ولا يضار كاتب ولا شهيد» (كما علمه الله) أى كما شرعه الله وأمر به (فليكتب) وذلك أن يكتب بحيث لا يزيد ولا ينقص ويكتب مايصلح أن يكون حجة عند الحاجة ولا يخص أحد الخصمين بالاحتياط له دون الآخر وأن يكون كل واحد منهما آمنا من أبطال حقه وأن يكون مايكتبه متفقا عليه عند العلماء وأن يحترز من الألفاظ التى يقع النزاع فيها وهذه الأمور لاتحصل إلا لمن هو فقيه عالم باللغة ومذاهب العلماء (وليملل الذى عليه الحق) يعنى أن المطلوب الذى عليه الحق يقر على نفسه بلسانه ليعلم ماعليه من الحق فيذكر قدره وجنسه وصفة الأجل ونحو ذلك والإملال والإملاء لغتان فصيحتان معناهما واحد (وليتق الله) ربه يعنى المملى (ولا يبخس) أى ولا ينقص (منه) أى من الحق الذى وجب (شيئا فان كان الذى عليه الحق سفيها) أى جاهلا بالإملاء وقيل هو الطفل الصغير وقال الشافعى السفيه هو المبذر المفسد لماله ودينه (أو ضعيفا) يعنى شيخا كبيرا وقيل هو ضعيف العقل لعته أو جنون (أو لايستطيع أن يمل هو) يعنى لخرس أو عمى أو عجمة فى كلامه أو حبس أو غيبة لايمكنه الحضور عند الكاتب أو يجهل بماله وعليه فهؤلاء كلهم لايصح إقرارهم فلا بد من أن يقوم غيرهم مقامهم وهو قوله تعالى (فليملل وليه) يعنى ولى كل واحد من هؤلاء الثلاثة المحجور عليهم لأنه مقامه فى صحة الإقرار وقال ابن عباس أراد بالولى صاحب الدين يعنى إن عجز الذى عليه الحق عن الإملاء فليملل صاحب الحق لانه أعلم بحقه (بالعدل) أى بالصدق

فليملل ولى الحق وصاحب الدين بالعدل لأنه اعلم بالحق (واستشهدوا) أى واشهدوا (شهيدين) اى شاهدين (من رجالكم) يعنى الأحرار المسلمين دون العبيد والصبيان وهو قول أكثر أهل العلم وأجاز شريح وابن سيرين شهادة العبيد (فان لم يكونا رجلين) أى لم يكن الشاهدان رجلين (فرجل وامرأتان) أى فليشهد رجل وامرأتان وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء جائزة مع الرجال فى الأموال حتى يثبت برجل وامرأتين. واختلفوا فى غير الأموال فذهب جماعة إلى أنه يجوز شهادتهن مع الرجال فى غير العقوبات وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى وذهب جماعة إلى أن غير المال لا يثبت إلا برجلين عدلين وذهب الشافعى رحمه الله إلى أن مايطلع عليه النساء غالبا كالولادة والرضاع والثيوبة والبكارة ونحوها يثبت بشهادة رجل وامرأتين وبشهادة أربع نسوة واتفقوا على أن شهادة النساء غير جائزة فى العقوبات. قوله تعالى (ممن ترضون من الشهداء) يعنى من كان مرضيا فى ديانته وأمانته وشرائط قبول الشهادة سبعة: الإسلام والحرية والعقل والبلوغ والعدالة والمروءة وانتفاء التهمة فشهادة الكافر مردودة لأن المعروفين بالكذب عند الناس لاتجوز شهادتهم فالذى يكذب على الله تعالى أولى أن يكون مردود الشهادة، وجوز أصحاب الرأى شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض ولا تقبل شهادة العبيد وأجازها شريح وابن سيرين وهو قول أنس بن مالك رضى الله عنه ولا قول للمجنون حتى يكون له شهادة ولا يجوز شهادة الصبيان، سئل ابن عباس رضى الله عنه عن ذلك فقال لايجوز لأن الله تعالى يقول ممن ترضون من الشهداء والعدالة شرط وهى أن يكون الشاهد مجتنبا للكبائر غير مصر على الصغائر والمروءة شرط وهى ماليتصل بآداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء، وهى حسن الهيئة والسيرة

واستشهدوا شهيدين) يعنى وأشهدوا على حقوقكم شهيدين لأن المقصود من الكتابة هو الإشهاد (من رجالكم) يعنى من أهل ملتكم يعنى من المسلمين الأحرار دون العبيد والصبيان وهذا قول أكثر أهل العلم وأجاز شريح وابن سيرين شهادة العبيد وحجة هذا القول أن قوله من رجالكم عام يتناول العبيد وغيرهم وذلك لأن عقل الإنسان ودينه وعدالته تمنعه من الكذب فاذا اجتمعت هذه الشرائط فيه كانت شهادته معتبرة وحجة جمهور العلماء ولايأب الشهداء إذا مادعوا فهذا نص يقتضى أن من تحمل شهادة وجب عليه الأداء إذا ماطولب بها والعبد ليس كذلك فان السيد إذا لم يأذن له فى ذلك حرم عليه الذهاب إلى الشهادة فوجب أن لايكون العبد من أهل الشهادة (فان لم يكونا رجلين) أى فان لم يكن الشاهدان رجلين (فرجل وامرأتان) أى فليشهد رجل وامرأتان، وأجمع الفقهاء على أن شهادة النساء مع الرجال جائزة فى الأموال فيثبت الحق بشهادة رجل وامرأتين واختلفوا فى غير الأموال فذهب سفيان الثورى وأصحاب الرأى إلى أنه يجوز شهادة النساء مع الرجال فى سائر الحقوق غير العقوبات وذهب جماعة إلى أن غير المال لايثبت إلا برجلين عدلين وذهب الشافعى إلى أن مايطلع عليه النساء غالبا كالولادة والرضاع والكبارة والثيوبة ونحوها تجوز شهادة رجل وامرأتين أوشهادة أربع نسوة واتفقوا على أن شهادة النساء غير جائزة ولامقبولة فى العقوبات والحدود، وقوله تعالى (ممن ترضون من الشهداء) يعنى من كان مرضيا عندكم فى دينه وأمانته والشرائط المعتبرة فى العدالة وقبول الشهادة عشرة وهى الإسلام والحرية والعقل والبلوغ والعدالة والمروءة وأن لايجر بتلك الشهادة منفعة إلى نفسه ولا يدفع عنه بها مضرة ولا يكون معروفا بكثرة الغلط والسهو وأن لايكون بينه وبين من شهد عليه عداوة فشهادة الكافر مردودة لأن الكذاب لاتقبل شهادته فالذى يكذب على الله أولى بأن ترد شهادته وجوز بعض أهل الرأى شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض ولا تقبل شهادة العبيد وأجازها ابن شريح وابن سيرين وهو قول أنس ولا قول للمجنون معتبر حتى تصح شهادته ولا تجوز شهادة الصبيان وسئل ابن عباس عن ذلك فقال لاتجوز لأن الله تعالى قال ممن ترضون من الشهداء والعدالة شرط وهو أن لايكون الشاهد مقيما على الكبائر مصرا على الصغائر والمروءة شرط وهى ماتتصل بآداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء وهي حسن الهيأة والسيرة والعشرة والصناعة فان كان الرجل يظهر فى نفسه شيئا مما يستحيي أمثاله من إظهاره فى الأغلب علم بذلك قلة مروءته وترد شهادته وانتفاء التهمة شرط فلا تقبل شهادة العدو على عدوه وإن كان مقبول الشهادة على غيره لأنه متهم فى حق عدوه لافى حق غيره ولاتقبل شهادة الرجل لولده ووالده وتقبل شهادته عليهما ولا تقبل شهادة من يجر بشهادته إلى نفسه نفعا عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتجوز شهادة خائن ولاخائنة ولا مجلود حدا

والعشرة والصناعة فان كان الرجل يظهر من نفسه شيئا مما يستحى أمثاله من إظهاره فى الأغلب يعلم به قلة مروءته وترد شهادته وانتفاء التهمة شرط حتى لاتقبل شهادة العدو على العدو وإن كان مقبول الشهادة على غيره لأنه متهم فى حق عدوه ولا تقبل شهادة الرجل لولده ووالده وإن كان مقبول الشهادة عليهما ولا يقبل شهادة من يجر إلى نفسه بشهادته نفعا كالوارث يشهد على رجل يقتل مورثه أو يدفع عن نفسه بشهادته ضررا كالمشهود عليه يشهد بجرح من شهد عليه لتمكن التهمة فى شهادته . أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسين المروزى أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سراج القطان أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش بن سليان أخبرنا على بن عبد العزيز المكى أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام أخبرنا مروان الفزارى عن شيخ من أهل الحيرة يقال له يزيد بن زياد عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها ترفعه لايجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا ذى غمر على أخيه ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة ولا القانع مع أهل البيت» قوله تعالى (٣٠٧) (أن تضل إحداهما) قرأ حمزة إن تضل بكسر الألف (فتذكر) برفع الراء ومعناه الجزاء والابتداء وموضع تضل جزم بالجزاء إلا أنه لا نسق بالتضعيف فتذكر رفع لأن ما بعد فاء الجزاء مبتدأ وقراءة العامة بفتح الألف ونصب الراء على الاتصال بالكلام الأول وتضل محله نصب بأن فتذكر منسوق عليه ومعنى الآية فرجل وامرأتان كى تذكر (إحداهما الأخرى) ومعنى تضل أى تنسى يريد إذا نسيت إحداهما شهادتها فتذكرها الأخرى فتقول ألسنا حضرنا مجلس كذا وسمعنا كذا قرأ ابن كثير وأهل البصرة فتذكر مخففا وقرأ الباقون مشددا وذكر واذكر بمعنى واحد وهما متعديان من الذكر الذى هو ضد النسيان وحكى عن سفيان بن عيينة أنه قال هو من الذكر أى تجعل إحداهما الأخرى ذكرا أى تصير شهادتهما كشهادة ذكر والأول أصح لأنه معطوف على النسيان. قوله تعالى (ولا يأب الشهداء إذا مادعوا) قيل أراد به إذا مادعوا لتحمل الشهادة سماهم شهداء على معنى أنهم يكونون شهداء وهو أمر إيجاب عند بعضهم وقال قوم تجب الإجابة إذا لم يكن غيرهم فان وجد غيرهم فهم مخيرون وهو قول الحسن وقال قوم هو أمر ندب وهو مخير فى جميع الأحوال وقال بعضهم هذا فى إقامة الشهادة وأدائها فمعنى الآية ولا يأب الشهداء إذا مادعوا لأداء الشهادة التى تحملوها وهو قول مجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وقال الشعبى الشاهد بالخيار مالم يشهده وقال الحسن الآية فى الأمرين جميعا فى التحمل والإقامة إذا كان فارغا (ولا تسأموا) أى ولا تملوا (أن تكتبوه) الهاء راجعة إلى الحق (صغيرا) كان الحق (أو كبيرا) قليلا كان أو كثيرا (إلى أجله) إلى محل الحق (ذلكم) أى الكتاب (أقسط) أعدل (عند الله) لأنه أمر به واتباع أمره

ولا ذى غمر على أخيه ولا مجرب شهادة ولا القانع أهل البيت لهم ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة» قال الفزارى القانع التابع أخرجه الترمذى. قوله لاتجوز شهادة خائن أراد بالخيانة الخيانة فى الدين والمال والأمانة فان من ضيع شيئا من أوامر الله أو ارتكب شيئا مما نهى الله عنه لايكون عدلا والغمر بكسر الغين الحقد والقانع هو السائل المستطعم وقيل المنقطع إلى قوم يخدمهم فترد شهادته للتهمة فى جر النفع إلى نفسه لأن التابع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم والظنين بكسر الظاء المتهم. وقوله تعالى (أن تضل إحداهما) أى تنسى إحدى المرأتين (فتذكر إحداهما الأخرى) لأن الغالب على طباع النساء النسيان فأقيمت المرأتان مقام الرجل الواحد حتى لو نسيت إحداهما تذكرها الأخرى فتقول حضرنا مجلس كذا وسمعنا كذا فيحصل بذلك الذكرى وحكي عن سفيان بن عيينة أنه قال هو من الذكر أى تجعل إحداهما الأخرى ذكرا والمعنى أن شهادتهما تصيرا كشهادة ذكر والقول الأول أصح لأنه معطوف على تضل وهو النسيان. وقوله تعالى (ولا يأب الشهداء إذا مادعوا) يعنى إذا دعوا لتحمل الشهادة وسماهم شهداء لأنهم يكونون شهداء وهذا أمر إيجاب عند بعضهم وقال قوم يجب إذا لم يكن غيره فان كان غيره فهو مخير، وقيل هو أمر ندب فهو مخير فى جميع الأحوال وقال بعضهم هذا فى إقامة الشهادة وأدائها ومعنى الآية ولا يأب الشهداء إذا مادعو الأداء الشهادة التى تحملوها وقيل الآية فى الأمرين جميعا يعنى فى التحمل والأداء والإقامة إذا كان عارفا وقيل الشاهد بالخيار مالم يشهد فاذا شهد وجب عليه الأداء (ولا تسأموا) أى ولا تملوا ولا تضجروا (أن تكتبوه) الضمير راجع إلى الحق أو الدين (صغيرا) كان (أو كبيرا) يعنى قليلا كان الحق أو الدين أو كثيرا (إلى أجله) يعنى إلى محل الحق والدين (ذلكم) يعنى ذلك الكتاب (أقسط عند الله) يعنى أعدل عند الله لأنه أمر به واتباع أمره أعدل

اعدل من تركه (وأقوم للشهادة) لأن الكتابة تذكر الشهود (وأدنى) وأحرى وأقرب إلى (ألا ترتابوا) تشكوا فى الشهادة (إلا إن تكون تجارة حاضرة) قرأهما عاصم بالنصب على خبر كان وأضمر الاسم مجازا إلا أن تكون التجارة تجارة أو المبايعة تجارة وقرأهما الباقون بالرفع وله وجهان أحدهما أن يجعل الكون بمعنى الوقوع معناه إلا أن تقع تجارة والثانى أن يجعل الاسم فى التجارة والخبر فى الفعل وهو قوله (تديرونها بينكم) تقديره إلا أن تكون تجارة حاضرة دائرة بينكم ومعنى الآية إلا أن تكون تجارة حاضرة يدا بيد تديرونها بينكم ليس فيها أجل (فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) يعنى التجارة (وأشهدوا إذا تبايعتم) قال الضحاك هو عزم من الله تعالى والإشهاد واجب فى صغير الحق وكبيره ونقده ونسئه وقال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه الأمر فيه إلى الأمانة كقوله تعالى

«فان أمن بعضكم بعضا» الآية وقال الآخرون هو أمر ندب. قوله تعالى (ولا يضار كاتب ولا شهيد) هذا نهى للغائب وأصله يضارر فأدغمت أحد الراءين فى الأخرى ونصبت لحق التضعيف لاجتماع الساكنين واختلفوا فيه فمنهم من قال أصله يضارر بكسر الراء الأولى وجعل الفعل للكاتب والشهيد معناه لا يضارر الكاتب فيأبى أن يكتب ولا الشهيد فيأبى أن يشهد ولا يضار الكاتب فيزيد أو ينقص أو يحرف ما أملى عليه ولا الشهيد فيشهد بما لم يستشهد عليه وهذا قول طاوس والحسن وقتادة وقال قوم أصله يضارر بفتح الراء على الفعل المجهول وجعلوا الكاتب والشهيد مفعولين ومعناه أن يدعو الرجل الكاتب أو الشاهد وهما على شغل مهم فيقولان نحن على شغل مهم فاطلب غيرنا فيقول الداعى إن الله أمركما أن تجيبا ويلح عليهما فيشغلهما عن حاجتهما فنهى عن ذلك وأمر بطلب غيرهما (وإن تفعلوا) ما نهيتكم عنه من الضرار (فانه فسوق بكم) أى معصية وخروج عن الأمر (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة) قرأ ابن كثير وأبو عمرو فرهن بضم الهاء والراء وقرأ الباقون فرهان وهو جمع رهن مثل بغل وبغال وجبل وجبال والرهن جمع الرهان جمع الجمع قاله الفراء والكسائى وقال أبو عبيدة وغيره هو جمع الرهن أيضا مثل سقف وسقف وقال أبو عمرو وإنما قرأنا فرهن ليكون فرقا بينهما وبين رهان الخيل وقال عكرمة رهن بضم الراء وسكون الهاء والتخفيف والتثقيل فى الرهن لغتان مثل كتب وكتب ورسل ورسل ومعنى الآية وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا الآن فارتهنوا ممن تداينونه رهونا

س تركه (وأقوم للشهادة) يعنى أن الكتابة تذكر الشهود (وأدنى ألا ترتابوا) يعنى وأحرى وأقرب إلى أن لا تشكوا فى الشهادة (إلا أن تكون تجارة حاضرة) أى إلا أن تقع تجارة حاضرة يدا بيد (تديرونها بينكم) أى فيما بينكم ليس فيها أجل (فليس عليكم جناح) أى لا ضرر عليكم (أن لا تكتبوها) يعنى التجارة الحاضرة والتجارة تقليب الأموال وتصريفها لطلب النماء والزيادة بالأرباح وإنما رخص الله تعالى فى الكتابة والإشهاد فى هذا النوع من التجارة لكثرة ما يجرى بين الناس فلو كلفوا فيها الكتابة والإشهاد لشق ذلك عليهم ولأنه إذا أخذ كل واحد من المتبايعين حقه من صاحبه فى ذلك المجلس لم يكن هناك خوف التجاحد فلا حاجة إلى الكتابة والإشهاد (وأشهدوا إذا تبايعتم) يعنى فيما جرت العادة بالإشهاد فيه واختلفوا فى هذا الأمر فقيل هو للوجوب فيجب أن يشهد فى صغير الحق وكبيره ونقده ونسيئته وقيل هو أمر ندب واستحباب وهو قول الجمهور وقيل إنه منسوخ بقوله «فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته» . وقوله تعالى (ولا يضار كاتب ولا شهيد) هذا نهى عن المضارة وأصله يضارر بكسر الراء الأولى ومعناه لا يضار الكاتب فيأبى أن يكتب والشاهد فيأبى أن يشهد أو يضار الكاتب فيزيد أو ينقص أو يحرف ما أملى عليه فيضر صاحب الحق أو من عليه الحق وكذلك الشاهد وقيل أصله يضارر بفتح الراء الأولى ومعناه أن يدعو الرجل الكاتب والشاهد وهما مشغولان فيقولان نحن على شغل مهم فاطلب غيرنا فيقول الداعى إن الله أمركما أن تجيبا إذا دعيتما ويلح عليهما فيشغلهما عن حاجتهما فنهى عن مضارتهما وأمر أن يطلب غيرهما (وإن تفعلوا) يعنى ما نهيتم عنه من الضرار (فانه فسوق بكم) أى معصية وخروج عن الأمر (واتقوا الله) أى خافوا الله واحذروه فيما نهاكم عنه من المضارة وغيرها (ويعلمكم الله) يعنى ما يكون إرشادا لكم فى أمر الدنيا كما يعلمكم ما يكون إرشادا لكم فى أمر الدين (والله بكل شىء عليم) يعنى أن الله تعالى عليم بجميع مصالح عباده لا يخفى عليه شىء من ذلك . قوله عز وجل (وإن كنتم على سفر) أى فى سفر (ولم تجدوا كاتبا) يعنى ولم تجدوا آلات الكتابة (فرهن) جمع رهن وقرئ فرهان (مقبوضة) يعنى فارتهنوا ممن تدينونه رهونا مقبوضة لتكون وثيقة بأموالكم

وأصل

لتكون وثيقة لكم بأموالكم، واتفقوا على أن الرهن لا يتم إلا بالقبض، وقوله فرهن مقبوضة أى ارتهنوا واقبضوا حتى لو رهن ولم يسلم فلا يجبر الراهن على التسليم فاذا سلم لزم من جهة الراهن حتى لا يجوز له أن يسترجعه مادام شئ من الحق باقيا ويجوز فى الحضر الرهن مع وجود الكاتب وقال مجاهد لا يجوز الرهن إلا فى السفر عند عدم الكاتب لظاهر الآية وعند الآخرين خرج الكلام فى الآية على الأعم الأغلب لا على سبيل الشرط والدليل عليه ماروى عن النبى ﷺ «أنه رهن درعه عند أبى الشحم اليهودى» ولم يكن ذلك فى السفر ولا عند عدم كاتب (فان أمن بعضكم بعضا) وفى حرف أبى فان ائتمن يعنى فان كان الذى عليه الحق أمينا عند صاحب الحق فلم يرتهن منه شيئا لحسن ظنه به (فليؤد الذى ائتمن أمانته) أى فليقضه على الأمانة (وليتق الله ربه) فى أداء الحق ثم رجع إلى خطاب الشهود فقال (ولا تكتموا الشهادة) إذا دعيتم إلى إقامتها نهى عن كتمان الشهادة وأوعد عليه فقال (ومن يكتمها فانه آثم قلبه) أى فاجر قلبه قيل ماوعد الله على شئ كايعاده على كتمان الشهادة قال فانه آثم قلبه وأراد به مسخ القلب نعوذ بالله من ذلك (والله بما تعملون) من بيان الشهادة وكتمانها (عليم لله مافى السموات ومافى الأرض) ملكا وأهلها له عبيد وهو مالكهم (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله

وأصل الرهن الدوام يقال رهن الشيء إذا دام وثبت، والرهن ماوضع عند الإنسان مما ينوب مناب ماأخذ منه دينا. فان قلت لم شرط الارتهان فى السفر مع عدم الكاتب ولا يختص به سفر دون حضر وقد صح أن رسول الله ﷺ رهن درعه عند أبى الشحم اليهودى على طعام أخذه إلى أجل ولم يكن ذلك فى سفر ولا عند عدم كاتب. قلت ليس الغرض تجويز الارتهان فى السفر خاصة دون الحضر ولكن لما كان السفر مظنة لإعواز الكاتب والإشهاد أمر الله تعالى به على سبيل الإرشاد إلى حفظ الأموال لمن كان على سفر بأن يقيم التوثيق بالارتهان مقام الكتابة والإشهاد. واتفق العلماء على جواز الرهن فى الحضر والسفر جميعا ومع وجود الكاتب وعدمه وقال مجاهد لا يجوز إلا فى السفر عند عدم الكاتب لظاهر الآية وأجاب الجمهور عن ظاهر الآية أن الكلام إنما خرج على الأعم الأغلب لا على سبيل الشرط. واتفق العلماء على أن الرهن لا يتم إلا بالقبض وهو قوله تعالى «فرهن مقبوضه» يعنى ارتهنوا واقبضوا لأن المقصود من الرهن هو استيثاق جانب صاحب الحق وذلك لا يتم إلا بالقبض فلو رهن ولم يسلم لم يجبر الراهن على التسليم فاذا سلم الرهن لزم من جهته حتى لا يجوز له أن يسترجعه مادام شيء من الحق باقيا قوله تعالى (فان أمن بعضكم بعضا) يعنى فان كان الذى عليه الحق أمينا عند صاحب الحق ولم يرتهن منه شيئا لحسن ظنه به (فليؤد الذى ائتمن أمانته) يعنى فليؤد المديون الذى عليه الحق الذى كان أمينا فى ظن الدائن الذى هو صاحب الحق أمانته يعنى حقه سمى الدين أمانة وإن كان مضمونا لائتمانه عليه حيث أمن من جحوده فلم يكتب ولم يشهد عليه ولم يأخذ منه رهنا حث المديون على أن يكون عند ظن الدائن الذى ائتمنه وأن يؤدى إليه حقه الذى ائتمنه عليه ولم يرتهن منه عليه شيئا ثم زاد ذلك تأكيدا بقوله (وليتق الله ربه) أى المديون فى أداء الحق عند حلول الأجل من غير مماطلة ولا جحود بل يعامله المعاملة الحسنة كما أحسن ظنه فيه ثم رجع إلى خطاب الشهود فقال تعالى (ولا تكتموا الشهادة) يعنى إذا دعيتم إلى إقامتها وأدائها وذلك لأن الشاهد متى امتنع من إقامة الشهادة وكتمها فقد أبطل بذلك حق صاحب الحق فلهذا نهى عن كتمان الشهادة وبالغ فى الوعيد عليه فقال تعالى (ومن يكتمها) يعنى الشهادة (فانه آثم قلبه) أى فاجر قلبه والآثم الفاجر وإنما أضيف الإثم إلى القلب لأن الأفعال من الدواعى والصوارف إنما تحدث فى القلب فلما كان الأمر كذلك أضيف الإثم إلى القلب قيل ماأوعد الله على شيء كايعاده عن كتمان الشهادة فانه تعالى قال فانه آثم قلبه وأراد به مسخ القلب نعوذ بالله من ذلك (والله بما تعملون عليم) يعنى من بيان الشهادة وكتمانها ففيه وعيد وتحذير لمن كتم الشهادة ولم يظهرها. قوله عز وجل (لله مافى السموات وما فى الأرض) ملكا وأهلها له عبيد وهو مالكهم (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وهذا يتناول حديث النفس والخواطر الفاسدة التى ترد على القلب ولا يتمكن من دفعها والمؤاخذة بها تجرى مجرى تكليف مالا يطاق: وأجيب عن هذا بأن الخواطر الحاصلة فى القلب على قسمين فمنها مايوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إظهاره إلى الوجود فهذا مما يؤاخذ الإنسان به والقسم الثانى مايخطر بالبال ولا يمكن دفعه عن نفسه لكن يكره ولا يعزم

على فعله ولا إظهاره إلى الوجود فهذا معفوعنه بدليل قوله تعالى «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» وقال قوم إن هذه الآية خاصة ثم اختلفوا فى وجه تخصيصها فقال بعضهم هى متصلة بالآية التى قبلها وإنما نزلت فى كتمان الشهادة ومعنى الآية وإن تبدوا مافى أنفسكم أيها الشهود من كتمان الشهادة أى تخفوه أى تخفوا الكتمان يحاسبكم به الله وهذا ضعيف لأن اللفظ عام وإن كان واردا عقيب قضية فلم يلزم صرفه إليها وقال بعضهم إن الآية نزلت فيمن يتولى الكافرين من المؤمنين والمعنى وإن تبدوا أى تظهروا مافى أنفسكم يعنى من ولاية الكفار أو تخفوه فلا تظهروه يحاسبكم به الله وذهب أكثر العلماء إلى أن الآية عامة ثم اختلفوا فقال قوم هى منسوخة بالآية التى بعدها ويدل عليه ماروى عن أبى هريرة قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم لله مافى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا أى رسول الله كلفنا من الأعمال مانطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى فى أثرها «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما فعلوا ذلك نسخها الله عز وجل فأنزل الله «لايكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» قال نعم «ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا» قال نعم ربنا «ولاتحملنا مالا طاقة لنا به» قال نعم «واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» قال نعم أخرجه مسلم وله عن ابن عباس نحوه وفيه قد فعلت بدل نعم (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تعالى تجاوز لأمتى ماحدثت به أنفسها مالم يعملوا به أو يتكلموا به وفى رواية ماوسوست به صدورها» وقال قوم إن الآية غير منسوخة لأن النسخ لايرد إلا على الأمر والنهى ولا يرد على الإخبار وقول الله تعالى يحاسبكم به الله خبر فلا يرد عليه النسخ ثم اختلفوا فى تأويلها فقال قوم قد أثبت الله تعالى للقلب كسبا فقال بما كسبت قلوبكم وليس لله عبد أسر عملا أو أعلنه من حركة جارحة أو همة قلب إلا يعلمه الله ثم يخبره به ويحاسبه عليه ثم يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وقال آخرون فى معنى الآية إن الله تعالى يحاسب خلقه بجميع ماأبدوا من أعمالهم واخفوه ويعاقبهم عليه غير أن معاقبتهم على ماأخفوه أخف مما لم يعملوا به وهو مايحدث لهم فى الدنيا من النوائب والمصائب والأمور التى يحزنون عليها وهذا قول عائشة عن أمية أنها سألت عائشة عن قول الله عز وجل وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله وعن قوله من يعمل سوءا يجز به فقالت ماسألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة حتى البضاعة يضعها فى يد قميصه فيفقدها فيفزع لها حتى إن العبد ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عليه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة» وقال قوم فى معنى الآية وإن تبدوا مافى أنفسكم يعنى مما عزمتم عليه أو تخفوه أى ولا تبدوه وأنتم

فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) اختلف العلماء فى هذه الآية فقال قوم هى خاصة، ثم اختلفوا فى وجه خصوصها فقال بعضهم هى متصلة بالآية الأولى نزلت فى كتمان الشهادة معناه وإن تبدوا ما فى أنفسكم أيها الشهود من كتمان الشهادة أو تخفوا الكتمان يحاسبكم به الله وهو قول الشعبي وعكرمة وقال بعضهم نزلت فيمن يتولى الكافرين من دون المؤمنين يعنى وإن تعلنوا ما فى أنفسكم من ولاية الكفار أو تسروه يحاسبكم به الله وهو قول مقاتل كما ذكر فى سورة آل عمران لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلى أن قال قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله وذهب الأكثرون إلى أن الآية عامة ثم اختلفوا فيها فقال قوم هى منسوخة بالآية التى بعدها والدليل عليه ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أخبرنا عبد الغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودى حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج حدثنى محمد بن المنهال الضرير وأمية ابن بسطام العيشى واللفظ له قال أخبرنا يزيد بن زريع أنا روح وهو ابن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم (لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) الآية قال اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله

صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا أي رسول الله صلى الله عليه وسلم كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها قال رسول الله ﷺ أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى أثرها «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» قال نعم «ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا»؟ قال نعم «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به»؟ قال نعم واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» قال نعم. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما بمعناه وقال فى كل ذلك قد فعلت بدل قوله نعم وهذا قول ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما وابن عمرو إليه ذهب محمد بن سيرين ومحمد بن كعب وقتادة والكلبي، أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصفهانى أخبرنا أبو بكر أحمد بن إسحاق الفقيه أخبرنا يعقوب بن يوسف القزوينى أخبرنا أبو القاسم بن الحكم المغربى أخبرنا مسعد بن كدام عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال إن الله تجاوز عن أمتى ما وسوست به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به وقال بعضهم الآية غير منسوخة لأن النسخ لا يرد على الأخبار إنما يرد على الأمر والنهى وقوله يحاسبكم به الله خبر لا يرد عليه النسخ ثم اختلفوا فى تأويلها فقال قوم قد أثبت الله تعالى للقلب كسبا فقال بما كسبت قلوبكم فليس لله عبد أسر عملا أو أعلنه من حركة

عازمون عليه يحاسبكم به الله فأما حديث النفس مما لم تعزموا عليه فان ذلك مما لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ولا يؤاخذ به قال عبد الله بن المبارك قلت لسفيان أيؤاخذ العبد بالهمة؟ فقال إذا كانت عزما أخذ بها وقيل معنى المحاسبة الإخبار والتعريف فيرجع معنى هذه المحاسبة إلى كونه تعالى عالما بكل ما فى الضمائر والسرائر مما ظهر وخفى ومعنى الآية وإن تبدوا ما فى أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم يحاسبكم به الله أى يخبركم به ويعرفكم إياه ثم يغفر للمؤمنين إظهارا لفضله ويعذب الكافرين إظهارا لعدله. يروى عن ابن عباس ويدل عليه أنه قال يحاسبكم به الله ولم يقل يؤاخذكم به لأن المحاسبة غير المؤاخذة ويدل عليه أيضا ما روى عن صفوان بن محرز المازنى قال بينما ابن عمر يطوف إذ عرض له رجل فقال يا أبا عبد الرحمن أخبرنى ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النجوى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدنى المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا وكذا فيقول أعرف رب أعرف مرتين فيقول الله سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم تطوى صحيفة حسابه وأما الآخرون وهم الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين» أخرجاه فى الصحيحين. وقوله تعالى (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) قال ابن عباس يغفر لمن يشاء الذنب العظيم ويعذب من يشاء على الذنب الصغير لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (والله على كل شيء قدير) يعنى أنه تعالى

من جوارحه أو همة فى قلبه إلا يخبره الله به ويحاسبه عليه ثم يغفر مايشاء ويعذب بما يشاء وهذا معنى قول الحسن يدل عليه قوله تعالى «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا» وقال الآخرون معنى الآية إن الله عز وجل يحاسب خلقه بجميع ماأبدوا من أعمالهم أو أخفوه ويعاقبهم عليه غير أن معاقبته على ماأخفوه مما لم يعملوه بما يحدث لهم فى الدنيا من النوائب والمصائب والأمور التى يحزنون عليها وهذا قول عائشة رضى الله عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال ياعائشة هذه معاتبة الله العبد بما يصيبه من الحمى والنكبة حتى الشوكة والبضاعة يضعها فى كمه فيفقدها فيروع لها حتى أن المؤمن يخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير «أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أبو منصور السمعانى أخبرنا أبو جعفر الزيانى أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا عبد الله بن صالح حدثنى الليث حدثنى يزيد بن أبى حبيب عن سعيد ابن سنان عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عليه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة» وقال بعضهم وإن تبدوا مافى أنفسكم يعنى مافى قلوبكم مما عزمتم عليه أو تخفوه يحاسبكم به الله ولا تبدوه وأنتم عازمون عليه يحاسبكم به الله فأما ماحدثت به أنفسكم مما لم تعزموا عليه فان ذلك مما لايكلف الله نفسا إلاوسعها ولايؤاخذكم به دليله قوله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم قال عبد الله بن المبارك قلت لسفيان أيؤاخذ الله العبد بالهمة قال إذا كان عزما أخذ بها وقيل معنى المحاسبة الإخبار والتعريف ومعنى الآية وإن تبدوا مافى أنفسكم فتعملوا به أو تخفوه مما أضمرتم ونويتم يحاسبكم به الله ويخبركم به ويعرفكم إياه ثم يغفر للمؤمنين إظهارا لفضله ويعذب الكافرين إظهارا لعدله وهذا معنى قول الضحاك وروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما يدل عليه أنه قال يحاسبكم به الله ولم يقل يؤاخذكم به والمحاسبة غير المؤاخذة والدليل عليه ماأخبرنا أبو طاهر محمد بن على الزراد أخبرنا أبو القاسم على بن أحمد الخزاعى أنا أبو سعيد الهيثم بن كليب أنا أبو عيسى بن أحمد العسقلانى أنا يزيد ابن هارون أنا همام بن يحيى عن قتادة عن صفوان بن محرز قال كنت آخذا بيد عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فأتاه رجل فقال كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله تعالى يدنى المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه يستره من الناس فيقول أى عبدى أتعرف ذنب كذا وكذا فيقول نعم إى رب ثم يقول أى عبدى تعرف ذنب كذا وكذا فيقول نعم أى رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال فانى سترتها عليك فى الدنيا وقد غفرتها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين قوله تعالى فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء رفع الراء والباء أبو جعفر وابن عامر وعاصم ويعقوب وجزمهما الآخرون فالرفع على الابتداء والجزم على النسق روى طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما فيغفر لمن يشاء الذنب العظيم ويعذب من يشاء على الذنب الصغير لايسأل عما يفعل وهم يسألون والله على كل شئ قدير. قوله تعالى (آمن الرسول) أى صدق (بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله) يعنى كل واحد منهم ولذلك وحد الفعل (وملائكته وكتبه ورسله) قرأ حمزة والكسائى وكتابه

قادر على كل شئ كامل القدرة فيغفر للمؤمنين فضلا ويعذب الكافرين عدلا. قوله عز وجل (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله دخل قلوبهم منها شئ لم يدخل من شئ فقالوا للنبى ﷺ فأنزل الله آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون الآية لايكلف الله نفسا إلاوسعها لها ما كسبت وعليها مااكتسبت ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا قال قد فعلت ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا قال قد فعلت ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين قال قد فعلت أخرجه الترمذى وقال حديث حسن قال الزجاج لما ذكر الله فى هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج والطلاق والإيلاء والحيض والجهاد وأقاصيص الأنبياء وما ذكر من كلام الحكماء ختم السورة بذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بجميع ذلك ومعنى آمن الرسول صدق الرسول يعنى محمدا ﷺ والمعنى صدق الرسول أن هذا القرآن وجملة مافيه من الشرائع والأحكام منزل من عند الله عز وجل (والمؤمنون) أى وصدق المؤمنون بذلك أيضا (كل) أى كل واحد من المؤمنين (آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) فهذه أربع مراتب من أصول الإيمان وضرورياته فأما الإيمان بالله

على الواحد يعنى القرآن وقيل معناه الجمع وإن ذكر بلفظ التوحيد كقوله تعالى «فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب» وقرأ الآخرون وكتبه بالجمع كقوله تعالى «وملائكته وكتبه ورسله» (لا نفرق بين أحد من رسله) فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى وفيه إضمار تقديره يقولون لا نفرق وقرأ يعقوب لا يفرق بالياء فيكون خبرا عن الرسول أو معناه لا يفرق الكل وإنما قال بين أحد ولم يقل بين آحاد لأن الأحد يكون للواحد والجمع قال الله تعالى «فما منكم من أحد عنه حاجزين» (وقالوا سمعنا) قولك (وأطعنا) أمرك روى عن حكيم عن جابر رضى الله عنهما «أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ حين نزلت هذه الآية إن الله قد أثنى عليك وعلى أمتك فسل تعطه» فسأل بتلقين الله تعالى فقال (غفرانك) وهو نصب على المصدر أى اغفر غفرانك أو على المفعول به أى نسألك غفرانك (ربنا وإليك المصير لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) ظاهر الآية قضاء لحاجته وفيها إضمار السؤال كأنه قال وقالوا لا تكلفنا إلا وسعنا وأجاب أى لا يكلف الله نفسا إلا وسعها أى طاقتها والوسع اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه. واختلفوا فى تأويله فذهب ابن عباس رضى الله عنه وعطاء وأكثر المفسرين إلى أنه أراد به حديث النفس الذى ذكر فى قوله «وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه» كما ذكرنا وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال هم المؤمنون خاصة وسع عليهم أمر دينهم ولم يكلفهم فيه إلا ما يستطيعون كما قال الله تعالى «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» وقال الله تعالى «وما جعل عليكم فى الدين من حرج» وسئل سفيان بن عيينة عن قوله عز وجل «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» قال إلا

بالله فهو أن يؤمن بأن الله واحد أحد لا شريك له ولا نظير له ويؤمن بجميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأنه حى عالم قادر على كل شىء، وأما الإيمان بالملائكة فهو أن يؤمن بوجودهم وأنهم معصومون مطهرون وأنهم السفرة الكرام البررة وأنهم الوسائط بين الله تعالى وبين رسله. وأما الإيمان بكتبه فهو أن يؤمن بأن الكتب المنزلة من عند الله هى وحى الله إلى رسله وأنها حق وصدق من عند الله بغير شك ولا ارتياب وأن القرآن لم يحرف ولم يبدل ولم يغير وأنه مشتمل على المحكم والمتشابه وأن محكمه يكشف عن متشابهه وأما الإيمان بالرسل فهو أن يؤمن بأنهم رسل الله إلى عباده وأمناؤه على وحيه وأنهم معصومون وأنهم أفضل الخلق وأن بعضهم أفضل من بعض وقد أنكر بعضهم ذلك وتمسك بقوله تعالى (لا نفرق بين أحد من رسله). وأجيب عنه بأن المقصود من هذا الكلام شىء آخر وهو إثبات نبوة الأنبياء والرد على اليهود والنصارى الذين يقرون بنبوة موسى وعيسى وينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقد ثبت بالنص الصريح تفضيل بعض الأنبياء على بعض بقوله «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض» ومعنى قوله (لا نفرق بين أحد من رسله) فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى بل نؤمن بجميع رسله، وفى الآية إضمار تقديره وقالوا يعنى المؤمنين لا نفرق بين أحد من رسله (وقالوا سمعنا وأطعنا) يعنى سمعنا قولك وأطعنا أمرك، والمعنى قال المؤمنون سمعنا قول ربنا فيما أمرنا به وأطعناه فيما ألزمنا من فرائضه واستعبدنا به من طاعته وسلمنا له فيما أمرنا به ونهانا عنه (غفرانك ربنا) أى نسألك غفرانك ربنا، أو يكون المعنى اغفر لنا غفرانك ربنا (وإليك المصير) يعنى قالوا إليك ياربنا مرجعنا ومعادنا فاغفر ذنوبنا روى البغوى بغير سند عن حكيم بن جابر «أن جبريل عليه السلام قال للنبى صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قد أثنى عليك وعلى أمتك فسل تعطه» قال بتلقين الله تعالى غفرانك ربنا وإليك المصير. قوله عز وجل (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) قيل يحتمل أن يكون ابتداء خبر من الله تعالى ويحتمل أن يكون حكاية عن المؤمنين وفيه إضمار كأنه قال الله تعالى عنهم وقالوا لا يكلف الله نفسا إلا وسعها يعنى طاقتها والوسع اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه قال ابن عباس وأكثر المفسرين إن هذه الآية نسخت حديث النفس والوسوسة وذلك أنه لما نزل وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه ضج المؤمنون منها وقالوا يارسول الله نتوب من عمل اليد والرجل واللسان فكيف نتوب من الوسوسة وحديث النفس فنزلت هذه الآية والمعنى أنكم لا تستطيعون أن تمتنعوا من الوسوسه وحديث النفس كان ذلك مالم تطيقوه وقال ابن عباس فى رواية عنه هم المؤمنون خاصة وسع الله عليهم أمر دينهم ولم يكلفهم مالا يستطيعون كما قال «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» وقال تعالى «وما جعل عليكم فى الدين من حرج» وسئل سفيان ابن عيينة عن قوله «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» قال إلا يسرها ولم يكلفها فوق طاقتها وهذا

يسرها ولم يكلفها فوق طاقتها وهذا قول حسن لأن الوسع مادون الطاقة. قوله تعالى (لها ما كسبت) أى للنفس ماعملت من الخير لها أجره وثوابه (وعليها ما اكتسبت) من الشر وعليها وزره (ربنا لا تؤاخذنا) أى لاتعاقبنا (إن نسينا) جعله بعضهم من النسيان الذى هو السهو قال الكلبى كانت بنو إسرائيل إذا نسوا شيئا مما أمروا به أو أخطئوا عجلت لهم العقوبة فحرم عليهم شئ من مطعم أو مشرب على حسب

ذلك الذنب فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك ، وقيل هو من النسيان الذى هو الترك كقوله تعالى « نسوا الله فنسيهم » قوله تعالى (أو أخطأنا) قيل معناه القصد والعمد يقال خطأ فلان إذا تعمد قال الله تعالى « إن قتلهم كان خطئا كبيرا » قال عطاء إن نسينا أو أخطأنا يعنى إن جهلنا أو تعمدنا ، وجعله الأكثرون من الخطأ الذى هو الجهل والسهو لأن ما كان عمدا من الذنب فغير معفو عنه بل هو فى مشيئة الله والخطأ معفو عنه قال النبى ﷺ « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » قوله تعالى (ربنا ولا تحمل علينا إصرا) أى عهدا ثقيلا وميثاقا لانستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه (كما حملته على الذين من قبلنا) يعنى اليهود فلم يقوموا به فعذبتهم هذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والسدى والكلبى وجماعة يدل عليه قوله تعالى « وأخذتم على ذلكم إصرى » أى عهدى وقيل معناه لاتشدد ولاتغلظ الأمر علينا كما شددت على من قبلنا من وقيل اليهود وذلك أن الله فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم فى الزكاة ومن أصاب ثوبه نجاسة قطعها ومن أصاب ذنبا أصبح وذنبه مكتوب على بابه ونحوها من الأثقال والأغلال وهذا معنى قول عثمان وعطاء ومالك بن أنس وأبى عبيدة وجماعة يدل عليه قوله تعالى « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » وقيل الإصر ذنب لا توبة له معناه اعصمنا من مثله

قول حسن لأن الوسع مادون الطاقة وقيل معناه أن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها فلا يتعبدها بما لا تطيق (لها ما كسبت) يعنى للنفس ماعملت من الخير فلها أجره وثوابه .
(وعليها ما اكتسبت) يعنى من الشر عليها وزره وعقابه وقيل في معنى الآية إن الله تعالى لايؤاخذ أحدا بذنب غيره . قوله عز وجل (ربنا لا تؤاخذنا) وهذا تعليم من الله تعالى عباده المؤمنين كيف يدعونه ومعناه قولوا ربنا لا تؤاخذنا أى لا تعاقبنا وإنما جاء بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد لأن المسىء قد أمكن من نفسه وطرق السبيل إليها بفعله فكأنه أعدى عليه من يعاقبه بذنبه ويأخذه به (إن نسينا أو أخطأنا) فيه وجهان ٧ أحدهما أنه من النسيان الذى هو السهو وهو ضد التذكر قيل كان بنوا إسرائيل إذا نسوا شيئا مما أمروا به أو أخطئوا عجلت لهم العقوبة فيحرم عليهم شىء مما كان حلالا لهم من مطعم أو مشرب، على حسب ذلك الذنب فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك . فان قلت أليس فعل الناسى فى محل العفو بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » فاذ كان النسيان فى محل العفو قطعا فما معنى طلب العفو عنه بالدعاء ؟ قلت الجواب عنه من وجوه : الأول أن النسيان على ضربين : أما الأول فهو ما كان من العبد على وجه التضييع والتفريط وهو ترك ماأمر بفعله كمن رأى على ثوبه دما فأخر إزالته عنه ثم نسى فصلى فيه وهو على ثوبه فيعد مقصر إذ كان يلزمه المبادرة إلى إزالته أما إذا لم يره فيعذر فيه وكذا لو ترك ماأمر بفعله على وجه السهو أو ارتكب منهيا عنه من غير قصد إليه كأكل آدم عليه السلام من الشجرة التى نهى عنها على وجه النسيان من غير عزم على المخالفة كما قال تعالى « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » فمثل هذا يجب أن يسأل الله تعالى أن يعفو له عن ذلك وأما الضرب الثانى فهو كمن ترك صلاة ثم نسيها أو ترك دراسة القرآن بعد أن حفظه حتى نسيه فهذا لا يعذر بنسيانه وسهوه لأنه فرط فثبت أن النسيان على قسمين وإذا كان كذلك صح طلب العفو والغفران عن النسيان . الوجه الثانى من الجواب أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا من المتقين لله حق تقاته فان صدر منهم مالا ينبغى فلا يكون إلا على سبيل السهو والنسيان فطلبهم العفو والغفران لما يقع منهم على سبيل السهو والنسيان إنما هو لشدة خوفهم وتقواهم . الوجه الثالث أن المقصود من هذا الدعاء هو التضرع والتذلل لله تعالى . وأما الخطأ في قوله أو أخطأنا فعلى وجهين أيضا : أحدهما أن يأتى العبد مانهى عنه بقصد وإرادة فذلك خطأ منه وهو به مأخوذ فيحسن طلب العفو والغفران لذلك الفعل الذى ارتكبه. الوجه الثانى أن يكون الخطأ على سبيل الجهل والظن لأن له فعله كمن ظن أن وقت الصلاة لم يدخل وهو في يوم غيم فأخرها حتى خرج وقتها فهذا من الخطأ الموضوع عن العبد لكن طلب العفو والغفران لسبب تقصيره وقوله (ربنا ولا تحمل علينا إصرا) يعنى عهدا ثقيلا وميثاقا غليظا فلا نستطيع القيام به فتعذبنا بنقضه وتركه (كما حملته على الذين من قبلنا) يعنى اليهود فلم يقوموا به فعذبتهم عليه ،

وقيل معناه ولا تشدد علينا كما شددت على اليهود من قبلنا وذلك أن الله تعالى فرض عليهم خمسين صلاة وأمرهم بأداء ربع أموالهم زكاة ومن أصاب منهم ثوبه نجاسة قطعها ومن أصاب ذنبا أصبح وذنبه مكتوب على بابه ونحو هذا من الأثقال والآصار التى كتبت عليهم فسأل المسلمون ربهم أن يصونهم عن أمثال هذه التغليظات والعهود الثقيلة وقد أجاب الله تعالى دعاءهم برحمته وخفف عنهم بفضله وكرمه فقال تعالى « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقيل الإصر ذنب لاتوبة له فسأل المؤمنون ربهم أن يعصمهم من مثله (ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به) يعنى لا تكلفنا من الأعمال مالا نطيق القيام به لثقل حمله علينا وتكليف مالا يطاق على وجهين : أحدهما ماليس فى قدرة العبد احتماله كتكليف الأعمى النظر والزمن العدو فهذا النوع من التكليف الذى لا يكلف الله به عبده بحال . الوجه الثانى من تكليف مالا يطاق هو مافي قدرة العبد احتماله مع المشقة الشديدة والكلفة العظيمة كتكليف الأعمال الشاقة والفرائض الثقيلة كما كان فى ابتداء الإسلام صلاة الليل واجبة ونحوه فهذا الذى سأل المؤمنون ربهم لا يحملهم مالا طاقة لهم به واستدل بهذه الآية من يقول إن تكليف مالا يطاق جائز اذ لو لم يكن جائزا لما حسن طلب تخفيفه بالدعاء من الله تعالى وقيل فى قوله ولا تحملنا مالا طاقة لنا به هو حديث النفس والوسوسة وقيل هيجان الغلمة وقيل هو الحب وقيل هو شماتة الأعداء وقيل هو الفرقة والقطيعة وقيل هو مسخ القردة والخنازير نعوذ بالله من ذلك كله (واعف عنا) أى تجاوز عن ذنوبنا وامحها عنا (واغفر لنا) أي استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا (وارحمنا) أى تغمدنا برحمة تنجينا بها من عقابك فانه ليس بناج من عقابك إلا من رحمته وقيل إنا لا ننال العمل بطاعتك ولا نترك معصيتك إلا برحمتك وأصل الرحمة رقة تقتضى الإحسان إلى المرحوم وإذا وصف بها الله تعالى فليس يراد بها إلا الإحسان المجرد والتفضل على العباد دون الرقة وقيل إن طلب العفو هو أن يسقط عنه عقاب ذنوبه وطلب المغفرة هو أن يستر عليه صونا له من الفضيحة كأن العبد يقول اطلب منك العفو وإذا عفوت عنى فاستره على فاذا عفا الله تعالي عن العبد وستره طلب الرحمة التى هى الإنعام والإحسان ليفوز بالنعيم والثواب (أنت مولانا) أى ناصرنا وحافظنا وولينا ومتولى أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) يعنى الجاحدين الذين عبدوا غيرك وجحدوا وحدانيتك. قال ابن عباس في قوله تعالى غفرانك ربنا قال قد غفرت لكم وفى قوله لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا قال لا أؤاخذكم ربنا ولا تحمل علينا إصرا قال لا أحمل عليكم ولا تحملنا مالا طاقة لنا به قال لاأحملكم واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانظرنا على القوم الكافرين قال قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين كان معاذ إذا ختم سورة البقرة قال آمين (م) عن عبد الله بن مسعود قال : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى وهى فى السادسة

والأصل فيه العقل والأحكام. قوله تعالى (ربنا ولاتحملنا مالاطاقة لنا به) أى لاتكلفنا من الأعمال مالانطيقه وقيل هو حديث النفس والوسوسة حكى عن مكحول أنه قال هو الغلمة قيل الغلمة شدة الشهوة وعن إبراهيم قال هو الحب وعن محمد بن عبدالوهاب قال العشق وقال ابن جريج وهو مسخ القردة والخنازير وقيل هو شماتة الأعداء وقيل هو الفرقة والقطيعة نعوذ بالله منها قوله تعالى (واعف عنا) أى تجاوز وامح عنا ذنوبنا (واغفر لنا) أى استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا (وارحمنا) فاننا لاننال العمل إلا بطاعتك ولا نترك معصيتك إلا برحمتك (أنت مولانا) ناصرنا وحافظنا وولينا (فانصرنا على القوم الكافرين) روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل غفرانك ربنا قال الله تعالى قد غفرت لكم وفى قوله لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا قال لا أؤاخذكم ربنا ولاتحمل علينا إصرا قال لا أحمل عليكم إصرا ولا تحملنا مالاطاقة لنا به قال لاأحملكم واعف عنا إلى آخره قال عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين وكان معاذ بن جبل إذا ختم سورة البقرة قال آمين أخبرنا إسماعيل ابن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو بكر بن أبى شيبة . أنا أبو أمامة حدثنى مالك بن مسعود عن الزبير بن عدى عن طلحة بن على بن مصرف عن مرة عن عبد الله قال « لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهى فى السماء السادسة إليها ينتهى مايعرج به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهى مايهبط فوقها فيقبض منها ، قال : إذ يغشى السدرة مايغشى قال فراش من ذهب قال

وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثا : الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لايشرك بالله من أمته شيئا من المقحمات
أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسين الإسفراينى أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ أنا يونس وأحمد بن سنان قال ثنا سفيان بن عيينة عن منصور عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود رضى الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما فى ليلة كفتاه » أي عن قيام الليل
أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أبو منصور السمعانى أنا أبو جعفر الزياتى أخبرنا حميد بن زنجويه أنا العلاء بن عبد الجبار أنا حماد بن سلمة أخبرنا الأشعث بن عبد الرحمن الجرمى عن أبى قلابة عن أبى الأشعث الصنعانى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا تقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها الشيطان » .

﴿سورة آل عمران : مدنية وهى مائتا آية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) قوله تعالى (الم الله) قال الكلبى والربيع بن أنس وغيرهما نزلت هذه الآية فى وفد نجران وكانوا ستين راكبا قدموا على رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وفى الأربعة عشر ثلاثة نفر يئول إليهم أمرهم العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم الذى لايصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم وأبو حارثة بن علقمة وهو أسقفهم وحبرهم دخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فى جمال رجال وإذا بالحارث بن كعب يقول ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة فى مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ دعوهم فصلوا إلى المشرق فتكلم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلما قالا قد أسلمنا قبلك قال كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير قالا إن لم يكن ولدا لله فمن أبوه وخاصموه جميعا فى عيسى فقال لهم النبى ﷺ ألستم تعلمون أنه لايكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا حى لايموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يحفظه ويرزقه؟ قالوا بلى قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئا قالوا لا قال ألستم تعلمون أن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم قالوا لا قال فان ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء وربنا لايأكل ولا يشرب قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يطعم ويشرب ويحدث قالوا بلى قال فكيف يكون هذا كما زعمتم فسكتوا فأنزل الله تعالى صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها فقال عز من قائل الم الله مفتوح الميم موصول عند العامة وإنما فتح الميم لالتقاء الساكنين حرك إلى أخف الحركات وقرأ أبو يوسف ويعقوب بن خليفة الأعشى عن أبى بكر الم الله مقطوعا مسكن الميم على نية الوقف ثم قطع الهمزة للابتداء وأجراه على لغة من يقطع ألف الوصل (لا إله إلا هو الحى القيوم)

وإليها ينتهى مايعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهى ماهبط من فوقها فيقبض منها قال إذ يغشى السدرة مايغشى قال فراش من ذهب قال فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا أعطى الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لايشرك بالله من أمته شيئا من المقحمات. المقحمات: الذنوب العظام التى تولج مرتكبها النار وأصل الاقتحام الولوج (ق) عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما فى ليلة كفتاه معناه كفتاه من كل مايحذر من كل هامة وشيطان فلا يقربه تلك الليلة وقيل كفتاه عن قيام الليل (م) عن ابن عباس قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده جبريل عليه السلام إذ سمع نقيضا من فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل من السماء إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إن الله كتب لنا كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام أنزل فيه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان أخرجه الترمذى وقال حديث غريب آخر تفسير سورة البقرة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

(تفسير سورة آل عمران)

(مدنية وهى مائتا آية وثلاث آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة وأربعة عشر ألفا وخمسمائة وعشرون حرفا). (بسم الله الرحمن الرحيم) قوله عز وجل (الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم)

قوله تعالى الله ابتداء وما بعده خبره والحى القيوم نعت له (نزل عليك الكتاب) أى القرآن (بالحق) بالصدق (مصدقا لما بين يديه) لما قبله من الكتب فى التوحيد والنبوة والأخبار وبعض الشرائع (وأنزل التوراة والإنجيل من قبل) وإنما قال وأنزل التوراة والإنجيل لأن التوراة والإنجيل أنزلا جملة واحدة وقال فى القرآن نزل لأنه نزل مفصلا والتنزيل للتكثير والتوراة قال البصريون أصلها وورية على وزن فوعلة مثل دوخلة وحوقلة فحولت الواو الأولى تاء وجعلت الياء المفتوحة ألفا فصارت توراة ثم كتبت بالياء على أصل الكلمة، وقال الكوفيون أصلها تفعلة مثل توصية وتوفية فقلبت الياء ألفا على لغة طيئ فانهم يقولون للجارية جاراة وللناصية ناصاة وأصلها من قولهم ورى الزند إذا خرجت ناره وأوريته أنا قال الله تعالى «أفرأيتم النار التى تورون» فسمى التوراة لأنها نور وضياء قال الله تعالى «وضياء وذكرى للمتقين» وقيل هى من التورية وهى كتمان السر والتعريض بغيره وكان فى التوراة معاريض من غير تصريح والإنجيل إفعيل من النجل وهو الخروج ومنه سمى الولد نجلا لخروجه فسمى الإنجيل به لأن الله تعالى أخرج به دارسا من الحق عافيا ويقال هو من النجل وهو سعة العين سمى به لأنه أنزل سعة لهم ونورا وقيل التوراة بالعبرانية تور، وتور معناه الشريعة والإنجيل بالسريانية انقليون ومعناه الإكليل. قوله تعالى (هدى للناس) هاديا

قال المفسرون نزلت هذه الآية فى وفد نجران وكانوا ستين راكبا قدموا على رسول الله ﷺ وفيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم وهم العاقب واسمه عبد المسيح وهو أمير القوم وصاحب مشورتهم الذى لا يصدرون إلا عن رأيه والسيد واسمه الأيهم وهو ثمالهم القائم بمالهم وصاحب رحلهم الذى يقوم بأمر طعامهم وشرابهم وأبو حارثة بن علقمة وهو أسقفهم وحبرهم وكان ملوك الروم يكرمونه لما بلغهم عن علمه واجتهاده فى دينه فدخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يصلى العصر وعليهم ثياب الحبرات جبب وأردية يقول من رآهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا للصلاة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوهم فصلوا إلى المشرق فلما فرغوا كلم السيد والعاقب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلما قالا قد أسلمنا قبلك قال كذبتما يمنعكما من الإسلام دعوا كما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير قال إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه وخاصموه جميعا فى عيسى فقال النبى صلى الله عليه وسلم ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الموت قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يحفظه ويرزقه قالوا بلى قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئا قالوا لا قال ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء قالوا بلى قال فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم قالوا لا قال ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب قالوا بلى قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يطعم ويشرب ويحدث قالوا بلى قال فكيف يكون إلها كما زعمتم فسكتوا فأنزل الله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها زاد بعضهم فقالوا يا محمد الست تزعم أن عيسى كلمة الله وروح منه قال بلى قالوا حسبنا ثم أبوا إلا جحودا فأنزل الله ردا عليهم الم الله لا إله إلا هو يعنى إن كانت منازعتكم يا معشر النصارى فى معرفة الإله فهو الله الذى لا إله إلا هو فكيف تثبتون له ولدا فبين تعالى أن أحدا لا يستحق العبادة سواه لأنه الواحد الأحد ليس معه إله ولا له ولد ثم اتبع ذلك بما يجرى مجرى الدلالة عليه فقال تعالى الحى القيوم أما الحى فى صفة الله تعالى فهو الدائم الباقى الذى لا يصح عليه الموت وأما القيوم فهو القائم بذاته والقائم بتدبير الخلق ومصالحهم فيما يحتاجون إليه فى معاشهم ومعادهم (نزل عليك الكتاب) يعنى القرآن (بالحق) أى بالصدق والعدل (مصدقا لما بين يديه) يعنى لما قبله من الكتب فى التوحيد والنبوات والأخبار وبعض الشرائع وقوله لما بين يديه من مجاز الكلام وذلك أن ما بين يديه فهو أمامه فقيل لكل شىء تقدم على الشىء هو بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره (وأنزل التوراة والإنجيل من قبل) أى من قبل القرآن. فان قلت لم قيل نزل الكتاب وأنزل التوراة والإنجيل. قلت لأن القرآن نزل منجما مفصلا فى أوقات كثيرة ونزل هو للتكثير وأنزل التوراة والإنجيل جملة واحدة (هدى للناس) يعنى أن إنزال التوراة والإنجيل قبل القرآن كان هدى للناس. فان قلت كيف وصف القرآن فى أول البقرة بأنه هدى للمتقين

ووصف هنا التوراة والإنجيل بأنهما هدى للناس . قلت إنما وصف القرآن بأنه هدى للمتقين لأنهم هم الذين انتفعوا به وتبعوه ووصف هنا التوراة والإنجيل بأنهما هدى للناس لأن المناظرة كانت مع نصارى نجران وهم يعتقدون صحة التوراة والإنجيل فلهذا السبب قال هنا هدى للناس وقيل ان قوله هدى للناس يعود إلى الكتب الثلاثة يعنى القرآن المتقدم ذكره والتوراة والإنجيل وإنما وصف هذه الكتب بأنها هدى للناس لما فيها من الشرائع والأحكام (وأنزل الفرقان) يعنى الفارق بين الحق والباطل قيل أراد به القرآن وإنما أعاد ذكره تعظيما لشأنه ومدحاله لكونه فارقا بين الحق والباطل وقيل إنما أعاد ذكره ليبين أنه تعالى أنزله بعد التوراة والإنجيل ليجعله فارقا بين مااختلف فيه اليهود والنصارى فى أمر عيسى عليه السلام وقيل المراد به الكتب الثلاثة لأنها كلها هدى للناس ومفرقة بين الحلال والحرام والحق والباطل وقال السدى فى الآية تقديم وتأخير تقديره وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس (إن الذين كفروا بآيات الله) يعنى الكتب المنزلة وغيرها قيل أراد بهم نصارى وفد نجران كفروا بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل أن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ فهو يتناول كل من كفر بشىء من آيات الله تعالى (لهم عذاب شديد والله عزيز) أى غالب لا يغلب (ذو انتقام) يعنى ممن كفر به والانتقام المبالغة فى العقوبة . قوله عز وجل (إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) أى لا يخفى عليه شىء من أمر العالم وهو المطلع على أحوالهم فقوله إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء إشارة إلى كمال علمه المتعلق بجميع المعلومات (هو الذى يصوركم فى الأرحام) التصوير جعل الشىء على صورة والصورة هيئة يكون عليها الشىء بالتأليف والأرحام جمع رحم (كيف يشاء) يعنى الصور المختلفة المتفاوتة فى الخلقة ذكرا أو أنثى أبيض أو أسود حسنا أو قبيحا كاملا أو ناقصا والمعنى أنه الذى يصوركم فى ظلمات الأرحام صورا مختلفة فى الشكل والطبع واللون وذلك من نطفة (ق) عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه ملك بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله شقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فو الله الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» (ق) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال« وكل الله بالرحم ملكا فيقول أى رب نطفة أى رب علقة أى رب مضغة فاذا أراد الله أن يقضى خلقها قال يارب أذكر أم أنثى أشقى أم سعيد فما الرزق فما الأجل؟ فيكتب له ذلك فى بطن أمه» وقيل أن الآية واردة فى الرد على النصارى وذلك أن عيسى عليه السلام كان يخبر ببعض الغيب فيقول أكلت فى دارك كذا صنعت كذا وإنه أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص وخلق من الطين طيرا فادعت النصارى فيه الإلهية وقالوا ماقدر على ذلك إلا أنه إله فرد الله تعالى عليهم بذلك وأخبر أن الإله المستحق لهذا الإسم هو الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء وأنه المصور فى الأرحام كيف يشاء وأن عيسى عليه السلام ممن صوره فى الرحم فنبه بكونه مصور فى الرحم على أنه عبد مخلوق كغيره وأنه يخفى عليه مالا يخفى على الله عز وجل (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) وهذا أيضا فى الرد على النصارى حيث قالوا عيسى ولد الله

لمن تبعه ولم يثنه لأنه مصدر (وأنزل الفرقان) المفرق بين الحق والباطل وقال السدى فى الآية تقديم وتأخير تقديرها وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس . قوله تعالى (إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا في السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) من الصور المختلفة ذكرا أو أنثى أبيض أو أسود حسنا أو قبيحا تاما أو ناقصا (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) وهذا رد على وفد نجران من النصارى حيث قالوا عيسى ولد الله وكأنه يقول كيف يكون ولدا وقد صوره الله تعالى فى الرحم أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أخبرنا أبو محمد عبد الرحيم ابن أحمد بن محمد الأنصارى أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى أنا على بن الجعد أنا أبو خيثمة زهير بن معاوية عن الأعمش عن زين بن وهب قال سمعت عبد الله ابن مسعود يقول حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك أو قال يبعث إليه الملك بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد قال وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى

مايكون بينها وبينه غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى
ما يكون بينها وبينه غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة

فيدخلها » أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم ابن الحجاج أنا محمد بن عبدالله بن نمير ثنا سفيان ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ «قال يدخل الملك على النطفة بعد ماتستقر فى الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة فيقول يارب أشقى أم سعيد فيكتب ذلك فيقول يارب أذكر أم أنثى فيكتبان ويكتب عمله وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص » قوله تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) مبينات مفصلات سميت محكمات من الإحكام كأنه أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها لظهورها ووضوح معناها (هن أم الكتاب) أى أصله الذى يعول عليه فى الأحكام وإنما قال هن أم الكتاب ولم يقل أمهات الكتاب لأن الآيات كلها فى تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة وكلام الله تعالى واحد . وقيل معناه كل آية منهن أم الكتاب كما قال « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » أى كل واحد منهما آية (وأخر) جمع أخرى ولم يصرفه لأنه معدول عن الآخر مثل عمر وزفر (متشابهات).

كأنه قال كيف يكون ولد إله وقد صوره الله فى الرحم . قوله عز وجل (هو الذى أنزل عليك الكتاب) يعنى القرآن (منه آيات محكمات) يعنى مبينات مفصلات أحكمت عبارتها من احتمال التأويل والاشتباه سميت محكمة من الإحكام كأنه تعالى أحكمها فمنع الخلق من التصرف فيها لظهورها ووضوح معناها (هن أم الكتاب) يعنى هن أصل الكتاب الذى يعول عليه فى الأحكام ويعمل به فى الحلال والحرام فان قلت كيف قال هن أم الكتاب ولم يقل أمهات الكتاب قلت لأن الآيات فى اجتماعها وتكاملها كالآية الواحدة وكلام الله كله شىء واحد وقيل إن كل آية منهن أم الكتاب كما قال وجعلنا ابن مريم وأمه آية يعنى أن كل واحد منهما آية (وأخر) جمع أخرى (متشابهات) يعنى أن لفظه يشبه لفظ غيره ومعناه يخالف معناه . فان قلت قد جعله هنا محكما ومتشابها وجعله فى موضع آخر كله محكما فقال فى أول هود الر كتاب أحكمت آياته وجعله فى موضع آخر كله متشابها فقال تعالى فى الزمر الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها فكيف الجمع بين هذه الآيات . قلت حيث جعله كله محكما أراد أنه كله حق وصدق ليس فيه عبث ولا هزل وحيث جعله كله متشابها أراد أن بعضه يشبه بعضا فى الحسن والحق والصدق وحيث جعله هنا بعضه محكما وبعضه متشابها فقد اختلفت عبارات العلماء فيه فقال ابن عباس المحكمات الثلاث آيات التى فى آخر سورة الأنعام وهي قوله تعالى « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم » ونظيرها فى بنى إسرائيل « وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه الآيات » وعنه أن الآيات المحكمة هى الناسخ والمتشابهات هى الآيات المنسوخة وبه قال ابن مسعود وقتادة والسدى وقيل إن المحكمات مافيه أحكام الحلال والحرام والمتشابهات ماسوى ذلك يشبه بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا وقيل أن المحكمات ماطلع الله عباده على معناه والمتشابه مااستأثر الله بعلمه فلا سبيل لأحد إلى معرفته نحو الخبر عن أشراط الساعة مثل الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام وطلوع الشمس من مغربها وفناء الدنيا وقيام الساعة فجميع هذا مما استأثر الله بعلمه وقيل إن المحكم مالا يحتمل من التأويل إلا وجها واحدا والمتشابه مايحتمل أوجها وروى ذلك عن الشافعى وقيل أن المحكم سائر القرآن والمتشابه هى الحروف المقطعة فى أوائل السور قال ابن عباس أن رهطا من اليهود منهم حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقال له حيى بلغنا أنك أنزل عليك الم فأنشدك الله أأنزلت عليك قال نعم قال إن كان ذلك حقا فانى أعلم مدة ملك أمتك هي إحدى وسبعون سنة فهل أنزل عليك غيرها قال نعم المص قال فهذه أكثر هى إحدى وستون ومائة فهل أنزل عليك غيرها قال نعم الر قال هذه أكثر هى مائتان وإحدى وثلاثون سنة فهل من غيرها قال نعم المر قال هذه أكثر هى مائتان وإحدى وسبعون سنة وقد اختلط علينا فلاندري أبكثيره نأخذ أم بقليله ونحن ممن لايؤمن بهذا فأنزل الله هذه الآية قوله تعالى فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه وقيل إن المحكم مالم تتكرر ألفاظه والمتشابه ماتكررت ألفاظه وقيل إن المحكم مااستقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان والمتشابه مااحتاج إلى بيان وقيل إن المحكم هو الأمر والنهى والوعد والوعيد والمتشابه هو القصص والأمثال . فان قلت إنما نزل القرآن لبيان الدين وإرشاد العباد وهدايتهم فما فائدة المتشابه وهلا كان كله محكما . قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة أحدها أن القرآن أنزل بألفاظ العرب ولغاتهم وكلام العرب على ضربين أحدهما الإيجاز

فإن قيل كيف فرق هاهنا بين المحكم والمتشابه وقد جعل الله كل القرآن محكما فى مواضع أخر فقال «الر كتاب أحكمت آياته» وجعل كله متشابها فقال «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها»؟ قيل حيث جعل الكل محكما أراد أن الكل حق ليس فيه عبث ولا هزل وحيث جعل الكل متشابها أراد أن بعضه يشبه بعضا فى الحق والصدق وفى الحسن وجعل هاهنا بعضه محكما وبعضه متشابها واختلف العلماء فيهما فقال ابن عباس رضى الله عنهما المحكمات هن الآيات الثلاث فى سورة الأنعام قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ونظيرها فى بنى إسرائيل وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه الآيات وعنه أنه قال المتشابهات حروف التهجى فى أوائل السور وقال مجاهد وعكرمة المحكم مافيه الحلال والحرام وما سوى ذلك متشابه يشبه بعضه بعضا فى الحق ويصدق بعضه بعضا كقوله تعالى وما يضل به إلا الفاسقين «ويجعل الرجس على الذين لايؤمنون» وقال قتادة والضحاك والسدى المحكم الناسخ الذى يعمل به (٣٢٠) والمتشابه المنسوخ الذى يؤمن به ولا يعمل به وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال محكمات القرآن ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به والمتشابهات منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به وقيل المحكمات ما أوقف الله الخلق على معناه والمتشابه مااستأثر الله تعالى بعلمه لاسبيل لأحد إلى علمه نحو الخبر عن أشراط الساعة وخروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام وطلوع الشمس من مغربها وقيام الساعة وفناء الدنيا قال محمد بن جعفر بن الزبير المحكم مالايحتمل من التأويل غير وجه واحد والمتشابه ما يحتمل أوجها وقيل المحكم مايعرف معناه وتكون حجته واضحة ودلائله لائحة لايشتبه والمتشابه هو الذى يدرك علمه بالنظر ولا يعرف العوام تفصيل الحق فيه من الباطل وقال بعضهم المحكم مايستقل بنفسه فى المعنى والمتشابه مالا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى رواية باذان المتشابه حروف التهجى فى أوائل السور وذلك أن رهطا من اليهود منهم حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له حيى بلغنا أنه أنزل عليك الم ننشدك الله أأنزلت عليك قال نعم قال فان كان ذلك حقا فانى أعلم مدة ملك أمتك هى إحدى وسبعون سنة فهل أنزل غيرها قال نعم المص قال فهذه أكثر هى إحدى وسبعون ومائة سنة قال فهل غيرها قال نعم الر قال هذه أكثر هى مائتان وإحدى وسبعون سنة فهل غيرها قال نعم المر قال هذه أكثر هى مائتان وإحدى وسبعون سنة ولقد خلطت علينا فلا ندرى أبكثيره نأخذ أم بقليله ونحن ممن لايؤمن بهذا فأنزل الله تعالى هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات (فأما الذين فى قلوبهم زيغ)

للاختصار والموجز الذى لايخفى على سامعه ولا يحتمل غير ظاهره والإطالة لبيان المراد والتوكيد. الضرب الثانى المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات وإغماض بعض المعانى وهذا الضرب هو المستحسن عند العرب والبديع فى كلامهم فأنزل الله تعالى القرآن على هذين الضربين ليتحقق عجزهم عن الإتيان بمثله فكأنه قال عارضوه بأى الضربين شئتم ولو نزل كله محكما واضحا لقالوا هلا أنزل بالضرب المستحسن عند الجواب الثانى أن الله تعالى أنزل المتشابه لفائدة عظيمة وهى أن يشتغل أهل العلم والنظر بردهم المتشابه إلى المحكم فيطول بذلك فكرهم ويتصل بالبحث عن معانيه اهتمامهم فيثابون على تعبهم كما أثيبوا على عباداتهم. ولو أنزل القرآن كله محكما لاستوى فى معرفته العالم والجاهل ولم يفضل العالم على غيره ولماتت الخواطر وخمدت الفكرة ومع الغموض تقع الحاجة إلى الفكرة والحيلة إلى استخراج المعانى وقد قيل فى عيب الغنى أنه يورث البلادة وفى فضيلة الفقر أنه يورث الفطنة وقيل إنه يبعث على الحيلة لأنه إذا احتاج احتال الجواب الثالث أن أهل كل علم يجعلون فى علومهم معانى غامضة ومسائل دقيقة ليختبروا بذلك أذهان المتعلمين منهم على انتزاع الجواب لأنهم إذ قدروا على انتزاع المعانى الغامضة كانوا على الواضح أقدر فلما كان ذلك حسنا عند العلماء جاز أن يكون ماأنزل الله تعالى من المتشابه على هذا النحو. الجواب الرابع إن الله تعالى أنزل المتشابه فى كتابه مختبرا به عباده ليقف المؤمن عنده ويرد علمه إلى عالمه فيعظم بذلك ثوابه ويرتاب به المنافق فيداخله الزيغ فيستحق بذلك العقوبة كما ابتلى بنو إسرائيل بالنهر والله أعلم بمراده . وقوله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) أى ميل عن الحق وقيل الزيغ الشك واختلفوا فى المعنى بهم والمشار إليهم فقيل هم وفد نجران الذين خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى عليه السلام وقالوا ألست تزعم أن عيسى روح الله وكلمته قال بلى قالوا حسبنا فأنزل الله هذه الآية وقيل هم اليهود لأنهم طلبوا معرفة مدة بقاء هذه الأمة واستخراجه بحساب الجمل

أى ميل عن الحق وقيل شك (فيتبعون ماتشابه منه) واختلفوا فى المعنى بهذه الآية قال الربيع . هم وفد نجران خاصموا النبى صلى الله عليه وسلم فى عيسى عليه السلام وقالوا له ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه قال بلى قالوا حسبنا ذلك فأنزل الله هذه الآية وقال الكلبى هم اليهود طلبوا علم أجل هذه الأمة واستخراجه بحساب الجمل وقال ابن جريج هم المنافقون وقال الحسن هم الخوارج وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية «فأما الذين فى قلوبهم زيغ» قال إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدرى من هم . وقيل هم جميع المبتدعة أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن مسلمة أنا يزيد بن إبراهيم التسترى عن ابن أبى مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها قالت تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية «هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات» إلى قوله أولوا الألباب قالت قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم «فاذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» قوله تعالى (ابتغاء الفتنة) طلب الشرك قاله الربيع والسدى وقال مجاهد ابتغاء الشبهات واللبس ليضلوا بها جهالهم (وابتغاء تأويله) تفسيره وعلمه دليله قوله تعالى «سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا» وقيل ابتغاء عاقبته وطلب أجل هذه الأمة من حساب الجمل دليله قوله تعالى «ذلك خير وأحسن تأويلا» أى عاقبة قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم) اختلف العلماء فى نظم هذه الآية فقال قوم الواو فى قوله والراسخون واو العطف يعنى أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون فى العلم وهم مع علمهم (يقولون آمنا به) وهذا قول مجاهد والربيع وعلى هذا يكون قوله يقولون حالا معناه والراسخون فى العلم مع علمهم قائلين : آمنا به هذا كقوله تعالى «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى» ثم قال «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم» إلى أن قال «والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم» ثم قال «والذين جاءوا من بعدهم» وهذا عطف على ماسبق ثم قال «يقولون ربنا اغفر لنا» يعنى هم مع استحقاقهم للفىء يقولون : ربنا اغفر لنا أى قائلين على الحال وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يقول فى هذه الآية أنا من الراسخين فى العلم وقال مجاهد أنا ممن يعلم تأويله . وذهب الأكثرون إلى أن الواو فى قوله والراسخون واو الاستئناف وتم الكلام عند قوله وما يعلم تأويله إلا الله وهو قول أبى بن كعب وعائشة وعروة بن الزبير رضى الله عنهم ورواية طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما وبه قال الحسن وأكثر التابعين واختاره الكسائى والفراء والأخفش وقالوا لايعلم تأويل المتشابه إلا الله ويجوز أن يكون فى القرآن تأويل

الجمل من الحروف المقطعة فى أوائل السور وقيل هم المنافقون وقيل هم الخوارج وكان قتادة يقول إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدرى من هم وقيل هم جميع المبتدعة (فيتبعون ماتشابه منه) يعنى يحيلون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم ويقولون مابال هذه الآية عمل بها كذا وكذا ثم نسخت وقيل كل من احتج لباطله بالمتشابه فهو المعنى بهذه الآية (ق) عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم «هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات إلى وما يذكر إلا أولوا الألباب» فقال إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم . وقوله تعالى (ابتغاء الفتنة) أى طلب الشرك والكفر وقيل طلب الشبهات واللبس ليضلوا بها جهالهم وقيل طلب إفساد ذات البين (وابتغاء تأويله) أى تفسيره وأصل التأويل فى اللغة : المرجع والمصير تقول آل الأمر إلى كذا إذا رجع إليه وتسمى العاقبة تأويلا لأن الأمر يصير إليه قال ابن عباس فى قوله وابتغاء تأويله أى طلب بقاء ملك محمد ﷺ وقيل المراد بهم الكفار طلبوا متى يبعثون وكيف إحياؤهم بعد الموت وقيل هو طلب تفسير المتشابه وعلمه (وما يعلم تأويله إلا الله) يعنى تأويل المتشابه وقيل لايعلم انقضاء ملك هذه الأمة إلا الله تعالى لأن انقضاء ملكها مع قيام الساعة . ولا يعلم ذلك إلا الله وقيل يجوز أن يكون للقرآن تأويل استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه كعلم قيام الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها وخروج الدجال ونزول عيسى بن مريم وعلم الحروف المقطعة وأشباه ذلك مما استأثر الله بعلمه فالإيمان به واجب وحقائق علومه مفوضة إلى الله تعالى وهذا قول أكثر المفسرين وهو مذهب ابن مسعود وابن عباس فى رواية عنه وأبى بن كعب وعائشة وأكثر التابعين فعلى هذا القول تم الكلام عند قوله إلا الله فيوقف عليه ثم ابتدأ فقال عز من قائل (والراسخون فى العلم) أى الثابتون فى العلم وهم الذين أتقنوا علمهم بحيث لا يدخل فى علمهم شك (يقولون آمنا به) قال ابن عباس سماهم الله راسخين فى العلم بقولهم آمنا به

استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه كما استأثر بعلم الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها وخروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحوها والخلق متعبدون فى المتشابه بالإيمان به وفى المحكم بالإيمان به والعمل ومما يصدق ذلك قراءة عبد الله إن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا وفى حرف أبى ويقول الراسخون فى العلم آمنا به . وقال عمر بن عبد العزيز فى هذه الآية انتهى علم الراسخين فى العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا آمنا به كل من عند ربنا وهذا القول أقيس فى العربية وأشبه بظاهر الآية قوله تعالى «والراسخون فى العلم» أى الداخلون فى العلم هم الذين اتقنوا علمهم بحيث لا يدخل فى معرفتهم شك وأصله من رسوخ الشئ فى الشئ وهو ثبوته يقال رسخ الإيمان فى قلب فلان يرسخ رسخاً ورسوخاً وقيل الراسخون فى العلم مؤمنوا أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه دليله قوله تعالى «لكن الراسخون فى العلم منهم» يعنى المدارسين علم التوراة والإنجيل وسئل مالك بن أنس رضى الله عنه عن الراسخين فى العلم قال العالم العامل بما علم المتبع لما علم وقيل الراسخ فى العلم من وجد فى علمه أربعة أشياء: التقوى بينه وبين الله والتواضع بينه وبين الخلق والزهد بينه وبين الدنيا والمجاهدة بينه وبين نفسه ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والسدى بقولهم آمنا به سماهم الله تعالى راسخين فى العلم فرسوخهم فى العلم قولهم آمنا به أى بالمتشابه (كل من عند ربنا) المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وما علمنا ومالم نعلم (وما يذكر) ما يتعظ بما فى القرآن (إلا أولوا الألباب) ذوو العقول قوله تعالى (ربنا لا تزغ قلوبنا) أى ويقول الراسخون ربنا لا تزغ قلوبنا أى لا تملها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين فى قلوبهم زيغ (بعد إذ هديتنا) وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك (وهب لنا من لدنك) أعطنا من عندك (رحمة) توثيقاً وتثبيتاً للذى نحن عليه من الإيمان والهدى وقال الضحاك تجاوزاً ومغفرة (إنك أنت الوهاب) أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمى أنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمى أنا أبو القاسم أحمد بن عدى الحافظ أنا أبو بكر بن عبد الرحمن بن القاسم القرشى يعرف بابن الرواس الكبير بدمشق أنا أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغسانى أنا صدقة أنا عبد الرحمن بن جابر حدثنى بشر بن عبيد الله قال سمعت أبا إدريس الخولانى يقول حدثنى النواس بن سمعان الكلابى قال: قال رسول الله ﷺ «مامن قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن» إذا شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم يامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك والميزان بيد الرحمن يرفع قوماً ويضع

فرسوخهم فى العلم هو الإيمان به وقال عمر بن عبد العزيز فى هذه الآية انتهى علم الراسخين فى العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا آمنا به (كل من عند ربنا) يعنى المحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وما علمنا منه ومالم نعلم ونحن معتبدون فى المتشابه بالإيمان به ونكل معرفته إلى الله تعالى وفى المحكم يجب علينا الإيمان به والعمل بمقتضاه وروى عن ابن عباس أنه قال تفسير القرآن على أربعة أوجه فمنه تفسير لا يسع أحداً جهله وتفسير تعرفه العرب بألسنتها وتفسير تعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه إلا الله وقيل أن الواو فى قوله والراسخون فى العلم واو عطف يعنى أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون فى العلم وهم مع علمهم يقولون آمنا به روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول أنا من الراسخين فى العلم وعن مجاهد عنه أنا ممن يعلم تأويله ووجه هذا القول أن الله تعالى أنزل كتابه لينتفع به عباده ولا يجوز أن يكون فى القرآن شىء لا يعرفه أحد من الأمة وفى المراد بالراسخين فى العلم هنا قولان أحدهما أنهم مؤمنوا أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه دليله قوله تعالى «لكن الراسخون فى العلم منهم» والقول الثانى أن الراسخين هم العلماء العاملون بعلمهم . سئل أنس ابن مالك عن الراسخين فى العلم فقال العالم العامل بما علم المتبع له وقيل الراسخ فى العلم من وجد فى علمه أربعة أشياء التقوى فيما بينه وبين الله تعالى والتواضع فيما بينه وبين الناس والزهد فيما بينه وبين الدنيا والمجاهدة فيما بينه وبين النفس (ومايذكر إلا أولوا الألباب) أى وما يتعظ بما فى القرآن إلا ذوو العقول وهذا ثناء من الله عز وجل على الذين قالوا آمنا به كل من عند ربنا . قوله عز وجل (ربنا لا تزغ قلوبنا) أى ويقول الراسخون فى العلم ربنا لا تزغ قلوبنا أى لا تملها عن الحق والهدى كما أزغت قلوب الذين فى قلوبهم زيغ (بعد إذ هديتنا) أى وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه من كتابك (وهب لنا من لدنك رحمة) أى أعطنا توفيقاً وتثبيتاً للذى نحن عليه من الإيمان والهدى وقيل هب لنا تجاوزاً ومغفرة (إنك أنت الوهاب) الهبة العطية

آخرين إلى يوم القيامة أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي حدثنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي
أنا عبد الرحيم بن منيب أنا يزيد بن هارون أنا سعيد بن إياس الجريري عن غنيم بن قيس عن أبي موسى الأشعري
رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل القلب كريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن» قوله تعالى (ربنا إنك جامع الناس ليوم) أي لقضاء يوم وقيل اللام بمعنى في أي يوم (لاريب فيه) أي لاشك فيه وهو يوم القيامة (إن الله لا يخلف الميعاد) وهو مفعال من الوعد قوله تعالى (إن الذين كفروا لن تغني) لن تنفع ولن تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله) قال الكلبي من عذاب الله وقال أبو عبيدة من بمعنى عند أي عند الله (شيئا وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون) قال ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومجاهد كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر والتكذيب وقال عطاء والكسائي وأبو عبيدة كسنة آل فرعون وقال الأخفش كأمر آل فرعون وشأنهم وقال النضر بن شميل كعادة آل فرعون يريد عادة هؤلاء الكفار
في تكذيب الرسل وجحود الحق كعادة آل فرعون (والذين من قبلهم) كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم (كذبوا بآياتنا فأخذهم الله) فعاقبهم الله (بذنوبهم) وقيل نظم الآية إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية أخذناهم فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا (والله شديد العقاب) قوله تعالى

العطية الخالية عن الأعواض والأغراض والوهاب في صفة الله تعالى أنه يعطي كل أحد على قدر استحقاقه (م) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» هذا من أحاديث الصفات وللعلماء فيه قولان أحدهما الإيمان به وإمراره كما جاء من غير تعرض لتأويل ولا تكييف ولا لمعرفة معناه بل نؤمن به كما جاء وأنه حق ونكل علمه إلى مراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هذا القول هو مذهب أهل السنة من سلف الأمة وخلفها من أهل الحديث وغيرهم والقول الثاني أنه يتأول بحسب مايليق به وأن ظاهره غير مراد قال تعالى «ليس كمثله شيء» فعلى هذا المراد هو المجاز كما يقال فلان في قبضتي وفي كفي يريد أنه تحت قدرته وفي تصرفه إلا أنه حال في كفه فمعنى الحديث أنه سبحانه وتعالى متصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء لايمتنع عليه منها شيء ولايفوته ما أراد منها كما لايمتنع على الإنسان مابين أصبعيه فخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بما يفهمونه ويعلمونه من أنفسهم وإنما ثنى لفظ الأصبعين والقدرة واحدة لأنه جرى على المعهود من التمثيل بحسب مااعتادوه وإن كان غير مقصود به التثنية أو الجمع وهذا مذهب جمهور المتكلمين وغيرهم من المتأخرين. وإنما خص القلوب بالذكر لفائدة وهي أن الله تعالى جعل القلوب محلا للخواطر والإرادات والنيات وهي مقدمات الأفعال ثم جعل سائر الجوارح تابعة للقلوب في الحركات والسكنات والله أعلم. قوله عز وجل (ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه) أي ليوم القضاء وقيل اللام بمعنى في أي في يوم لاريب فيه أي لاشك فيه أنه كائن وهو يوم القيامة (إن الله لايخلف الميعاد) هذا من بقية دعاء الراسخين في العلم وذلك أنهم طلبوا من الله تعالى أن يصرف قلوبهم عن الزيغ وأن يخصهم بالهداية والرحمة وذلك من مصالح الدين والدنيا ثم إنهم اتبعوا ذلك بقولهم «ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه» ومعناه إنا نعلم أنك جامع الناس للجزاء في يوم القيامة ونعلم أن وعدك حق وأنك لاتخلف الميعاد فمن أزغت قلبه فهو هالك ومن مننت عليه بالهداية والرحمة فهو ناج من العذاب سعيد قوله عز وجل (إن الذين كفروا) يعني برسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس هم قريظة والنضير (لن تغني) أي لن تنفع ولن تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) أي من عذاب الله شيئا وقيل من بمعنى عند أي عند الله شيئا (وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون) قال ابن عباس كفعل آل فرعون وصنيعهم في الكفر وقيل كسنة آل فرعون وقيل كعادة آل فرعون والمعنى أن عادة هؤلاء الكفار في تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجحود الحق كعادة آل فرعون فانهم كذبوا موسى وصدقوا فرعون (والذين من قبلهم) يعني كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود وغيرهم (كذبوا بآياتنا) يعني لماجاءتهم بها الرسل (فأخذهم الله بذنوبهم) أي فعاقبهم الله بسبب تكذيبهم (والله شديد العقاب) وقيل في معنى الآية إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم عند حلول النقمة والعقوبة مثل آل فرعون وكفار الأمم الخالية فأخذناهم

(قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم) قرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما أي أنهم يغلبون ويحشرون وقرأ الآخرون بالتاء فيهما على الخطاب أي قل لهم إنكم ستغلبون وتحشرون قال مقاتل أراد مشركي مكة معناه قل لكفار مكة ستغلبون يوم بدر وتحشرون إلى جهنم في الآخرة فلما نزلت هذه الآية ، قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر «إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم» وقال بعضهم المراد بهذه الآية اليهود وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يهود أهل المدينة قالوا لما هزم رسول الله ﷺ المشركين يوم بدر : هذا ، والله النبي الذي بشرنا به موسى لاترد له راية وأرادوا اتباعه ، ثم قال بعضهم لبعض لاتعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا فغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوا ذلك العهد وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكبا إلى مكة يستفزهم فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية وقال محمد بن إسحاق عن رجاله ورواه سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا أنه لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ببدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال يامعشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم مثل ما نزل بهم فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم .فقالوا يامحمد لايغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لاعلم فذكر لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس فأنزل الله تعالى «قل للذين كفروا» يعني اليهود «ستغلبون» تهزمون في الدنيا في قتالكم محمدا وتحشرون في الآخرة إلى جهنم (وبئس المهاد) أي الفراش أي بئس مامهد لهم يعني النار قوله تعالى (قد كان لكم آية) ولم يقل كانت والآية مؤنثة لأنه ردها إلى البيان أي قد كان لكم بيان فذهب إلى المعنى وقال الفراء إنما ذكر لأنه حالت الصفة بين الفعل والإسم المؤنث فذكر الفعل وكل ماجاء من هذا النحو فهذا وجهه فمعنى الآية قد كان لكم آية أي عبرة ودلالة على صدق ماأقول إنكم ستغلبون (في فئتين) فرقتين وأصلها فيء الحرب لأن بعضهم يفيء إلى بعض (التقتا)

فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم . قوله عز وجل (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون) قرئ بالتاء والياء فيهما فمن قرأ بالياء المنقوطة تحت فمعناه بلغهم يامحمد أنهم سيغلبون ويحشرون ومن قرأ بالتاء المنقوطة فوق فمعناه قل لهم ستغلبون وتحشرون (إلى جهنم) قيل أراد بالذين كفروا مشركي قريش والمعنى قل لكفار مكة ستغلبون يوم بدر وتحشرون في الآخرة إلى جهنم فلما نزلت هذه الآية قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم وقيل إن أبا سفيان جمع جماعة من قومه بعد وقعة بدر فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل أن هذه الآية نزلت في اليهود وقال ابن عباس إن يهود المدينة قالوا لما هزم رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين يوم بدر هذا والله النبي الذي بشر به موسى لا ترد له راية وأرادوا إتباعه ثم قال بعضهم لبعض لاتعجلوا حتى تنظروا واقعة أخرى فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا وغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى مدة فنقضوا العهد وانطلق كعب ابن الأشرف في ستين راكبا إلى مكة ليستفزهم فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن عباس وغيره لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال يامعشر اليهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم إني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم فقالوا يامحمد لايغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة وإنا والله لو قاتلناك لعرفت إنا نحن الناس فأنزل الله عز وجل قل للذين كفروا يعني من اليهود ستغلبون أي ستهزمون وتحشرون يعني في الآخرة إلى جهنم (وبئس المهاد) أي الفراش والمعنى بئس مامهد لهم في النار . قوله عز وجل (قد كان لكم آية في فئتين التقتا) قيل الخطاب للمؤمنين يروى ذلك عن ابن مسعود والحسن وقيل هو خطاب لكفار مكة فيكون عطفا على الذي قبله فيخرج على قول ابن عباس (١) وقيل هو خطاب لليهود قاله ابن جرير . فان قلت لم قال قد كان لكم آية ولم يقل قد كانت لأن الآية مؤنثة قلت كل ماليس بمؤنث حقيقي يجوز تذكيره وقيل إنه رد المعنى إلى البيان فمعناه قد كان لكم بيان فذهب إلى المعنى وترك اللفظ وقال الفراء إنما ذكر لأنه حالت الصفة بين الفعل والاسم المؤنث

(١) لم يتقدم لابن عباس قول أنها في كفار قريش حتى يخرج هذا عليه اهـ من هامش .

يوم بدر (فئة تقاتل فى سبيل الله) طاعة الله وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم كانوا ثلثمائة وثلاثة
عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة وثلاثون رجلا من الأنصار وصاحب راية المهاجرين على
بن أبي طالب رضى الله عنه وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيرا وفرسان فرس للمقداد بن
عمرو وفرس لمرثد بن أبي مرثد وأكثرهم رجالة ؛ وكان معهم من السلاح ستة أذرع وثمانية سيوف قوله تعالى
(وأخرى كافرة) أى فرقة أخرى كافرة وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا من المقاتلة يرأسهم عتبة بن ربيعة بن
عبد شمس وفيهم مائة فرس وكانت حرب بدر أول مشهد شهده رسول الله ﷺ (٣٢٥) (يرونهم مثليهم) قرأ أهل
المدينة ويعقوب بالتاء يعنى ترون يامعشر اليهود أهل مكة مثل عدد المسلمين وذلك أن جماعة من اليهود كانوا حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة فرأوا المشركين مثلى عدد المسلمين ورأوا النصر مع ذلك للمسلمين فكان ذلك معجزة وآية ؛ وقرأ الآخرون بالياء واختلفوا فى وجهه فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين ثم له تأويلان أحدهما يري المسلمون المشركين مثليهم كما هم فان قيل كيف قال مثليهم وهم كانوا ثلاثة أمثالهم قيل هذا مثل قول الرجل وعنده درهم أنا أحتاج إلى مثلى هذا الدرهم يعنى إلى مثليه سواه فيكون ثلاثة دراهم والتأويل الثانى
وهو الأصح كان المسلمون يرون المشركين مثلى عدد أنفسهم قللهم الله تعالى فى أعينهم حتى رأوهم ستمائة وستة
وعشرين ثم قللهم الله فى أعينهم فى حالة أخرى حتى رأوهم مثل عدد أنفسهم . قال ابن مسعود رضى الله عنه
نظرنا إلي المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا ؛ ثم قللهم الله تعالى
أيضا فى أعينهم حتى رأوهم عددا يسيرا أقل من أنفسهم . قال ابن مسعود رضى الله عنه حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم
سبعين قال أراهم مائة وقال بعضهم الرؤية راجعة إلى المشركين يعنى يرى المشركون المسلمين مثليهم قللهم الله
قبل القتال فى أعين المشركين ليجترئ المشركون عليهم ولا ينصرفوا فلما أخذوا فى القتال كثرهم الله فى أعين المشركين ليجبنوا

فذكر الفعل وكل ماجاء من هذا فهذا وجهه ومعنى الآية قد كان لكم آية أى عبرة ودلالة على
صدق ماأقول إنكم ستغلبون فى فئتين أى فرقتين وأصلها فى الحرب لأن بعضهم يفئ إلى بعض
أى يرجع التقتا يعنى يوم بدر (فئة تقاتل فى سبيل الله) أى فى طاعة الله وهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأصحابه وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعون رجلا من المهاجرين ومائتان وستة
وثلاثون رجلا من الأنصار وكان صاحب راية المهاجرين علي بن أبي طالب وصاحب راية
الأنصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيرا وفرسان وكان معهم من السلاح ستة أذرع وثمانية
سيوف وقوله تعالى (وأخرى كافرة) أي وفرقة أخرى كافرة وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة
وخمسين رجلا من المقاتلة وكان رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكان فيهم مائة فرس وكانت
وقعة بدر أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة وقوله تعالى (يرونهم مثليهم)
قرئ بالتاء يعنى ترون أهل مكة ضعفى المسلمين يامعشر اليهود وذلك أن جماعة من اليهود كانوا
قد حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة ولمن النصر فرأوا المشركين مثلي عدد المسلمين
ورأوا النصر للمسلمين فكان ذلك معجزة وقرئ يرونهم بالياء واختلفوا فى وجه قراءة الياء فجعل
بعضهم الرؤية للمسلمين ثم له تأويلان أحدهما يرى المسلمون المشركين مثليهم كما هم . فان قلت
كيف قال مثليهم وإنما كانوا ثلاثة أمثالهم . قلت هذا مثل قول الرجل وعنده درهم أنا محتاج إلى
مثلى هذا الدرهم يعنى إلى مثليه سواه فيكون ثلاثة دراهم ووجه آخر وهو أن يكون الله تعالى أظهر
للمسلمين من عدد المشركين القدر الذى يعلم المؤمنون أنهم يغلبونهم لإزالة الخوف من قلوبهم
وهذا التأويل الثانى هو الأصح قلل الله المشركون في أعين المسلمين حتى رأوهم مثليهم . فان قلت
كيف الجمع بين قوله تعالى يرونهم مثليهم وبين قوله «وإذ يريكموهم إذا التقيتم فى أعينكم قليلا
ويقللكم فى أعينهم» وكيف يقال إن المشركين استكثروا المسلمين أو المسلمين استكثروا المشركين
وأن الفئتين تساويا فى استقلال إحداهما الأخرى . قلت إن التقليل والتكثير كانا فى حالتين
مختلفتين فان قيل إن الفئة الرائية هم المسلمون فانهم رأوا عدد المشركين عند بداية القتال على
ماهم عليه . ثم قلل الله المشركين فى أعين المسلمين حتى اجترؤا عليهم فصبروا على قتالهم بذلك
السبب قال ابن مسعود نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ثم نظرنا فاهم فما رأيناهم
يزيدون علينا رجلا واحدا وفى رواية أخرى عنه قال لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى

وقللهم فى اعين المؤمنين ليجترءوا فذلك قوله تعالى وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم قوله تعالى (رأى العين) أى فى رأى العين نصب بنزع (٣٢٦) حرف الصفة (والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك) الذى ذكرت (لعبرة لأولى الأبصار) لذوى العقول وقيل لمن أبصر الجمعين قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات) جمع شهوة وهى ماتدعو النفس إليه (من النساء) بدأ بهن لأنهن حبائل الشيطان (والبنين والقناطير) جمع قنطار واختلفوا فيه فقال الربيع بن أنس القنطار المال الكثير بعضه على بعض وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه القنطار ألف ومائتا أوقية لكل أوقية أربعون درهما وقال ابن عباس رضى الله عنهما والضحاك ألف ومائتا مثقال وعنهما رواية أخرى اثنا عشر ألف درهم وألف دينار دية أحدكم، وعن الحسن قال القنطار دية أحدكم وقال سعيد بن جبير وعكرمة هو مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة درهم ولقد جاء الإسلام وبمكة مائة رجل قد قنطروا وقال سعيد بن المسيب وقتادة ثمانون ألفا وقال مجاهد سبعون ألفا وعن السدى قال أربعة آلاف مثقال وقال الحكم القنطار مابين السماء والأرض من مال وقال أبو نصرة ملء مسك ثور ذهبا أو فضة؛ وسمى قنطارا من الإحكام يقال قنطرت الشئ إذا أحكمته ومنه سميت القنطرة قوله تعالى (المقنطرة) قال الضحاك المحصنة المحكمة وقال قتادة هى الكثيرة المنضدة بعضها فوق بعض وقال يمان هى المدفونة وقال السدى هى المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير

جنبى تراهم سبعين قال أراهم مائة قال فأسرنا منهم رجلا فقلنا كم كنتم قال ألفا وإن قلنا إن الفئة الرائية هم المشركون على قول بعضهم إن الرؤية راجعة إلى المشركين يعنى رأى المشركون المسلمين مثليهم فقلل الله المسلمين فى أعين المشركين فى أول القتال ليجترؤا عليهم ولا ينصرفوا فلما أخذوا فى القتال كثر الله المسلمين فى أعين المشركين ليجبنوا فيكون ذلك سبب خذلانهم وقد روى أن المشركين لما أسروا يوم بدر قالوا للمسلمين كم كنتم قالوا كنا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا قالوا يعنى المشركين ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا فكان فى وقعة بدر أحوال فى التكثير والتقليل وما ذلك إلا إظهار للقدرة التامة وقوله تعالى (رأى العين) أى فى رأى العين (والله يؤيد) أى يقوى (بنصره من يشاء إن فى ذلك) يعنى الذى ذكر من النصرة وقيل رؤية الجيش مثليهم (لعبرة) أى لآية والعبرة الدلالة الموصلة إلى اليقين المؤدية إلى العلم وأصلها من العبور كأنه طريق يعبرونه فيوصلهم إلى مرادهم وقيل العبرة هى التى يعبر منها من منزلة الجهل إلى منزلة العلم (لأولى الأبصار) لذوى العقول والبصائر . قوله عز وجل (زين للناس) قال أهل السنة المزين هو الله تعالى لأنه تعالى خالق الجميع أفعال العباد ولأن الله تعالى خلق جميع ملاذ الدنيا وأباحها لعبيده وإباحتها للعبد تزيين لها قال الله تعالى «هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا» وقال تعالى «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» وقال الله تعالى «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها» وقال تعالى «وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا» وكل ذلك يدل على أن المزين هو الله تعالى ومما يؤيد ذلك قراءة مجاهد زين بفتح الزاى على تسمية الفاعل وقال الحسن المزين هو الشيطان وهو قول طائفة من المعتزلة ويدل على ذلك أن الله تعالى زهد فى هذه الأشياء بأن أعلم عباده زوالها ولأن الله تعالى أطلق حب الشهوات فيدخل فيه الشهوات المحرمة والمزين لذلك هو الشيطان ولأن الله تعالى ذكر هذه الأشياء فى معرض الذم للدنيا ويدل عليه آخر الآية وهو قوله تعالى والله عنده حسن المآب ونقل عن أبى على الجبائى من المعتزلة أن كل ما كان حراما كان المزين له هو الشيطان وكل ما كان مباحا كان المزين له هو الله تعالى والصحيح ماذهب إليه أهل السنة لأن الله تعالى خالق كل شئ ولا شريك له فى ملكه . وقوله تعالى (حب الشهوات) يعنى المشتهيات لأن الشهوة توقان النفس إلى الشئ المشتهى (من النساء) إنما بدأ بذكر النساء لأن الالتذاذ بهن أكثر والاستئناس بهن أتم ولأنهن حبائل الشيطان وأقرب إلى الافتتان (والبنين) إنما خص البنين بالذكر لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى ووجه حبه ظاهر لأنه يتكثر به ويعضده ويقوم مقامه وقد جعل الله تعالى فى قلب الإنسان حب الزوجة والولد لحكمة بالغة وهى بقاء التوالد ولو زالت تلك المحبة لما حصل ذلك (والقناطير المقنطرة) جمع قنطار وسمى قنطار من الإحكام والعقد يقال قنطرته إذا أحكمته ومنه القنطرة المحكمة الطاق واختلفوا فى القنطار هل محدود أو غير محدود على قولين أحدهما أنه محدود ثم اختلفوا فى حده فروى عن معاذ بن جبل أن القنطار ألف ومئتا أوقية وقال ابن عباس ألف ومائتا مثقال وعنه أنه اثنا عشر ألف درهم أو ألف دينار دية أحدكم وبه قال الحسن وقال سعيد بن جبير هو مائة ألف ومائة من ومائة رطل ومائة مثقال ومائة

وقال الفراء المضعفة فالقناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة (من الذهب والفضة) قيل سمى الذهب ذهبا لأنه يذهب ولا يبقى والفضة فضة لأنها تنفض أى تتفرق (والخيل المسومة) الخيل جمع لا واحد له من لفظه واحدها فرس كالقوم والنساء ونحوهما والمسومة قال مجاهد هى المطهمة الحسان وقال عكرمة تسويمها حسنها وقال سعيد بن جبير هى الراعية يقال أسام الخيل وسومها وقال الحسن وأبو عبيدة هى المعلمة من السيماء والسمة العلامة ثم منهم من قال سيماها الشبه واللون وهو قول قتادة وقيل الكى (والأنعام) جمع النعم وهى الإبل والبقر والغنم جمع لا واحد له من لفظه (والحرث) يعنى الزرع (ذلك) الذى ذكرت (متاع الحياة الدنيا) يشير إلي أنها متاع يفنى (والله عنده حسن المآب) أى المرجع فيه إشارة إلى التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة قوله تعالي (قل أؤنبئكم) أى أخبركم (بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) قرأ العامة بكسر الراء وروى أبو بكر عن عاصم بضم الراء وهما لغتان كالعدوان والعدوان ؛

درهم ولقد جاء الإسلام يوم جاء وبمكة مائة رجل قد قنطروا وقال سعيد بن المسيب وقتادة هو ثمانون ألفا وقال مجاهد سبعون ألفا وقال السدى هو أربعة آلاف مثقال والقول الثانى إن القنطار ليس بمحدود وقال الربيع بن أنس القنطار المال الكثير بعضه على بعض وروى عن أبى عبيدة أنه حكى عن العرب أن القنطار وزن لا يحد وهو اختيار ابن جرير الطبرى وغيره وقال الحاكم القنطار ما بين السماء والأرض من مال وقال أبو نصرة القنطار ملء مسك ثور ذهبا أو فضة وقال القنطار من المال ما فيه عبور الحياة تشبيها بعبور القنطرة المقنطرة أى المجموعة وقيل المضاعفة لأن القناطير جمع وأقله ثلاثة والمقنطرة المضاعفة فيحتمل أن تكون ستة أو تسعة وقيل المقنطرة المسكوكة المنقوشة (من الذهب والفضة) إنما بدأ بهما من بين سائر أصناف الأموال لأنهما قيم الأشياء وإنما كانا محبوبين لأن المالك لهما مالك قادر على ما يريده وهي صفة كمال وهى محبوبة وقيل سمي الذهب ذهبا لأنه يذهب ولا يبقى والفضة لأنها تنفض أى تتفرق (والخيل المسومة) الخيل جمع لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط سميت الأفراس خيلا لاختيالها فى مشيتها وقيل لأن الخيل لا يركبها أحد إلا وجد فى نفسه مخيلة يعنى عجبا واختلفوا فى معنى المسومة على ثلاثة أقوال القول الأول أنها الراعية يقال أسمت الدابة وسومتها إذا أرسلتها المرعى والمقصود أنها إذا رعت زاد حسنها والقول الثانى أنها من السمة وهى العلامة ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى تلك العلامة فقيل هى الغرة والتحجيل التى تكون فى الخيل وقيل هى الخيل البلق وقيل هى المعلمة بالكى والقول الثالث أنها المضمرة الحسان وتسويمها حسنها (والأنعام) جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم ولا يقال للجنس الواحد منها نعم إلا للابل خاصة فانه غلب عليها (والحرث) يعنى الزرع (ذلك) يعنى ذلك الذى ذكر من هذه الأصناف (متاع الحياة الدنيا) أى الذى يستمتع به فى الحياة الدنيا وهى زائلة فانية يشير إلي أن الحياة الدنيا متاع يفنى (والله عنده حسن المآب) أى المرجع فيه أشارة إلى التزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة وقيل فيه أشارة إلي أن من آتاه الله الدنيا كان الواجب عليه أن يصرفها فيما يكون فيه صلاحه فى الآخرة لأنها السعادة القصوى. قوله عز وجل (قل أؤنبئكم) أى أخبركم (بخير من ذلكم) يعنى الذى ذكر من متاع الدنيا (للذين اتقوا) قال ابن عباس فى رواية عنه يريد المهاجرين والأنصار. أراد أن يعرفهم ويشوقهم إلى الآخرة قال العلماء ويدخل فى هذا الخطاب كل من اتقى الشرك (عند ربهم) معناه أن الله تعالى أخبر أن ما عنده خير مما كان فى الدنيا وإن كان محبوبا فحثهم على ترك ما يحبون لما يرجون ثم فسر ذلك الخير فقال تعالى (جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) (ق) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله عزوجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون يارب وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأى شئ أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا وقيل إن العبد إذا علم أن الله تعالى قد رضى عنه كان أتم لسروره وأعظم لفرحه

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا يحيى بن سليمان حدثنى ابن وهب حدثنى مالك عن زين بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ « إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك يا ربنا وسعديك والخير فى يديك فيقول هل رضيتم فيقولون يارب

ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون يارب وأى شئ أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا قوله تعالى (والله بصير بالعباد الذين يقولون) إن شئت جعلت محل الذين خفضا ردا على قوله للذين اتقوا وإن شئت جعلته رفعا على الابتداء ويحتمل أن يكون نصبا تقديره أعنى الذين يقولون (ربنا إننا آمنا) صدقنا (فاغفر لنا ذنوبنا) استرها علينا وتجاوز عنا (وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين) إن شئت نصبتها على المدح وإن شئت خفضتها على النعت يعنى الصابرين فى أداء الأوامر ، وعن ارتكاب النهى وعلى البأساء والضراء وحين البأس والصادقين فى إيمانهم قال قتادة هم قوم صدقت نياتهم ، واستقامت قلوبهم وألسنتهم فصدقوا فى السر والعلانية (والقانتين) المطيعين المصلين (والمنفقين) أموالهم فى طاعة الله (والمستغفرين بالأسحار) قال مجاهد وقتادة والكلبى يعنى المصلين بالأسحار وعن زيد بن أسلم أنه قال هم الذين يصلون الصبح فى الجماعة وقيل بالسحر لقربه من الصبح وقال الحسن مدوا الصلاة إلى السحر ثم استغفروا وقال نافع كان ابن عمر رضى الله عنهما يحيى الليل ثم يقول يانافع أسحرنا فأقول لا فيعاود الصلاة فاذا قلت نعم قعد وأخذ يستغفر الله ويدعو حتى يصبح ؛ أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أبو محمد بن الحسن بن أحمد المخلدى حدثنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج أنا قتيبة أنا يعقوب بن عبد الله عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى الثلث (شهد

(والله بصير بالعباد) يعنى أن الله تعالى عالم بمن يؤثر ماعنده ممن يؤثر شهوات الدنيا فيجازى كلا على عمله فيثيب ويعاقب على قدر الأعمال وقيل إن الله تعالى بصير بالذين اتقوا فلذلك أعد لهم الجنات . قوله عز وجل (الذين[16] يقولون ربنا إننا آمنا) أى صدقنا (فاغفر لنا ذنوبنا) أى استر علينا وتجاوز عنا (وقنا عذاب النار) قوله عز وجل (الصابرين[17]) يعنى على أداء الواجبات وعن المحرمات والمنهيات وفى البأساء والضراء وحين البأس وقيل الصابرين على دينهم وما أصابهم (والصادقين) يعنى فى إيمانهم وقال قتادة هم قوم صدقت نياتهم واستقامت ألسنتهم وقلوبهم في السر والعلانية والصدق يكون فى القول والأفعال والنية فأما صدق القول فهو مجانبة الكذب والصدق فى الفعل هو عدم الإنصراف عنه قبل إتمامه والصدق في النية العزم على الفعل حتى يبلغه (والقانتين) يعنى المطيعين لله وقيل هم المصلون وهو عبارة عن دوام الطاعة والمواظبة عليها (والمنفقين) يعنى أموالهم في طاعة الله تعالي ويدخل فيه نفقة الرجل على نفسه وعلى أهله وأقاربه وصلة رحمه والزكاة والنفقة في جميع القربات (والمستغفرين بالأسحار) يعنى المصلين بالسحر وهو الوقت بعد ظلمة الليل إلى طلوع الفجر وقيل كانوا يصلون بالليل حتى إذا كان وقت السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار فكان هذا دأبهم فى ليلهم قال نافع كان ابن عمر يحيي الليل ثم يقول يانافع أسحرنا فأقول لا فيعاود الصلاة فاذا قلت نعم قعد يستغفر ويدعو حتى يصلى الصبح (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال ينزل ربنا تبارك وتعالي كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الأخير فيقول من يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له وفى لفظ مسلم فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى الحديث وله فى رواية أخرى فيقول هل من سائل فيعطى هل من داع فيستجاب له هل من مستغفر فيغفر له حتى ينفجر الصبح » هذا الحديث من أحاديث الصفات وللعلماء فيه وفى أمثاله مذهبان معروفان مذهب السلف الإيمان به وإجراؤه على ظاهره ونفى الكيفية عنه والمذهب الثانى هو مذهب من يتأول أحاديث الصفات قال أبو سليمان الخطابى إنما ينكر هذا الحديث من يقيس الأمور علي مايشاهده من النزول الذى هو تدل من أعلى إلى أسفل وانتقال من فوق إلى تحت وهذا صفة الأجسام فأما نزول من لاتستولى عليه صفات الأجسام فان هذه المعانى غير متوهمة فيه وإنما هو خبر عن قدرته ورأفته بعباده وعطفه عليهم واستجابته دعاءهم ومغفرته لهم يفعل مايشاء لايتوجه على صفاته كيفية ولا على أفعاله كمية سبحانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وقيل فى قوله والمستغفرين بالأسحار وصف الله تعالى هؤلاء بما وصف ثم بين أنهم مع ذلك لشدة خوفهم ووجلهم أنهم يستغفرون بالأسحار وروى أن لقمان قال لابنه يابنى لاتكن أعجز من الديك فانه يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك وقيل هم الذين يصلون صلاة الصبح فى جماعة فعلى هذا القول إنما سميت الصلاة استغفارا لأنهم طلبوا بفعلها المغفرة . قوله عز وجل

الأخير فيقول أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له من ذا الذى يسألنى فأعطيه من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له» وحكى عن الحسن أن لقمان قال لابنه: يابنى لاتكن أعجز من هذا الديك يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك. قوله تعالى (شهد الله أنه لاإله إلا هو) قيل نزلت هذه الآية فى نصارى نجران وقال الكلبى قدم حبران من أحبار الشام على النبى صلى الله عليه وسلم فلما أبصر المدينة قال أحدهما لصاحبه ماأشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى صلى الله عليه وسلم الذى يخرج فى آخر الزمان فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة فقالا له أنت محمد قال نعم قالا له وأنت أحمد قال أنا محمد وأحمد قالا له فانا نسألك عن شىء فان أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك فقال نعم قالا فأخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله عز وجل؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية فأسلم الرجلان. قوله «شهد الله» أى بين الله لأن الشهادة تبيين. وقال مجاهد حكم الله وقيل علم الله أنه لاإله إلا هو قال ابن عباس رضى الله عنهما خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة فشهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال «شهد الله أنه لا إله إلا هو» وقوله (والملائكة) أى وشهدت الملائكة قيل معنى شهادة الله الإخبار والإعلام ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار (وأولوا العلم) يعنى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقال ابن كيسان يعنى المهاجرين والأنصار. وقال مقاتل علماء مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه. قال السدى والكلبى يعنى جميع علماء المؤمنين (قائما بالقسط) أى بالعدل ونظم الآية شهد الله قائما بالقسط نصب على الحال وقيل نصب على القطع ومعنى قوله قائما بالقسط أي قائما بتدبير الخلق كما يقال فلان قائم بأمر فلان أى مدبر له ومتعهد لأسبابه وفلان قائم بحق فلان أى مجاز له فالله تعالى مدبر ورازق ومجاز بالأعمال (لاإله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام) يعنى الدين المرضى الصحيح كما قال «ورضيت لكم الإسلام دينا». وقال «ومن يبتغ غير الإسلام دينا

(شهد الله أنه لاإله إلا هو) قيل سبب نزول هذه الآية أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبى صلى الله عليه وسلم فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه ماأشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى صلى الله عليه وسلم الذى يخرج فى آخر الزمان فلما دخلا على النبى صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة فقالا له أنت محمد قال نعم قالا وأنت أحمد قال نعم قالا فانا نسألك عن شىء فان أنت أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك قال اسألانى قالا فأخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله عز وجل فأنزل الله هذه الآية فأسلم الحبران وقيل إن هذه الآية نزلت فى نصارى نجران فيما ادعوا فى عيسى عليه السلام فقوله تعالى شهد الله يعنى بين الله وأظهر لأن معنى الشهادة تبيين وإظهار وقيل معنى شهد الله حكم الله وقضى وقيل معناه أعلم الله أنه لاإله إلا هو وذلك بيان الدلائل لما أمكن التوصل إلى معرفة الوحدانية فهو تعالى أرشد عباده إلى معرفة توحيده بما بين من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته سئل بعض الأعراب ماالدليل على وجود الصانع فقال إن البعرة تدل على البعير وأثار القدم تدل على المسير فهيكل علوى بهذه اللطافة ومركز سفلى بهذه الكثافة أما يدلان على وجود الصانع الخبير قال ابن عباس خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة فشهد لنفسه بنفسه قبل أن خلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال تعالى شهد الله أنه لاإله إلا هو (والملائكة) أى وشهد الملائكة فمعنى شهادة الله تعالى الإخبار والإعلام ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين الإقرار والاعتراف بأنه لاإله إلا هو ولما كان كل واحد من هذين الأمرين يسمى شهادة حسن إطلاق لفظ الشهادة عليهما (وأولوا العلم) أى وشهد أولوا العلم بأنه لا إله إلا هو واختلفوا فى أولى العلم فقيل هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم أعلم الخلق بالله تعالى وقيل هم علماء أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وقيل هم علماء مؤمنى أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم علماء جميع المؤمنين (قائما بالقسط) أى بالعدل نصب على الحال والقطع أو المدح ومعناه أنه تعالى قائم بتدبير خلقه كما يقال فلان قائم بأمر فلان يعنى أنه مدبر له ومتعهد لأسبابه وفلان قائم بحق فلان أى أنه مجاز له فالله مدبر أمر خلقه وقائم بأرزاقهم ومجاز لهم بأعمالهم (لاإله إلا هو) إنما كرره للتأكيد وقيل أن الأول وصف وتوحيد والثانى رسم وتعليم أى قولوا لاإله إلا هو وقيل فائدة تكرارها الإعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه ففيه حث للعباد على تكريرها والاشتغال بها فانه من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات (العزيز) أى الغالب الذى لايقهر (الحكيم) يعنى فى جميع أفعاله (إن الدين عند الله الإسلام) يعنى أن الدين المرضى عند الله هو الإسلام كما قال تعالى ورضيت

فلن يقبل منه » وفتح الكسائي الألف من إن الدين ردا على أن الأولى تقديره شهد الله أنه لا إله إلا هو وشهد أن الدين عند الله الإسلام أو شهد الله أن الدين عند الله الإسلام بأنه لا إله إلا هو وكسر الباقون الألف على الابتداء والإسلام هو الدخول فى السلم وهو الانقياد والطاعة يقال أسلم أى دخل فى السلم واستسلم . قال قتادة فى قوله تعالى إن الدين عند الله الإسلام قال شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله تعالى وهو دين الله الذى شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه فلا يقبل غيره ولا يجزى إلا به. أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عمر الفراوى أنا أبو موسى عمران بن موسى أنا الحسن بن سفيان أنا عمار بن عمرو بن المختار حدثنى أبى عن غالب القطان قال أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش وكنت أختلف إليه فلما كنت ذات ليلة أردت أن أنحدر (٣٣٠) إلى البصرة فاذا الأعمش قائم من الليل يتهجد فمر بهذه الآية «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ثم قال الأعمش وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لى عند الله وديعة إن الدين عند الله الإسلام قالها مرارا قلت لقد سمع فيها شيئا فصليت الصبح معه وودعته ثم قال قلت إنى سمعتك تقرأ آية ترددها فما بلغك فيها قال لى أو ما بلغك ما فيها قلت أنا عندك منذ سنتين لم تحدثنى قال والله لا أحدثك بها إلى سنة فكتبت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة قال حدثنى أبو وائل عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله إن لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة» قوله تعالى (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) قال الكلبى نزلت فى اليهود والنصارى، حين تركوا الإسلام أى وما اختلف الذين أوتوا الكتاب فى نبوة محمد ﷺ (إلا من بعد ماجاءهم العلم) يعنى بيان نعته فى كتبهم . وقال الربيع بن أنس إن موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين رجلا من أحبار بنى إسرائيل فاستودعهم التوراة واستخلف يوشع بن نون فلما مضى القرن : الأول والثانى والثالث وقعت الفرقة بينهم وهم الذين أوتوا الكتاب من أبناء أولئك السبعين حتى أهرقوا بينهم الدماء ووقع الشر والاختلاف وذلك من بعد ماجاءهم العلم يعنى بيان ما فى التوراة (بغيا بينهم) أى طلبا للملك والرياسة فسلط الله عليهم الجبابرة . وقال محمد بن جعفر بن الزبير نزلت فى نصارى نجران ومعناها وما اختلف

لكم الإسلام دينا وفيه رد على اليهود والنصارى وذلك لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية وادعت النصاري أنه لا دين أفضل من النصرانية رد الله عليهم ذلك فقال إن الدين عند الله الإسلام وقرئ أن الدين بفتح الهمزة ردا على أن الأولى والمعنى شهد الله أنه لا إله إلا هو وشهد أن الدين عند الله الإسلام وأصل الدين فى اللغة الجزاء يقال كما تدين تدان ثم صار إسما للملة والشريعة ومعناه الإنقياد للطاعة والشريعة قال الزجاج الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالإقامة عليه والإسلام هو الدخول فى السلم وهو الإستسلام والإنقياد والدخول فى الطاعة وروى البغوى بسند الثعلبى عن غالب القطان قال أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريبا من الأعمش فكنت أختلف إليه فلما كان ذات ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام من الليل يتهجد فمر بهذه الآية شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم قال الأعمش وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله وديعة إن الدين عند الله الإسلام قالها مرارا قلت سمع فيها شيئا فصليت الصبح معه وودعته ثم قلت له إنى سمعتك ترددها فما بلغك فيها قال والله لا أحدثك فيها إلى سنة فكتبت على بابه ذلك اليوم وأقمت سنة، فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة فقال حدثنى أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل أن لعبدى هذا عندى عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة . قوله عز وجل (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) قال الكلبى نزلت فى اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام والمعنى وما اختلف الذين أوتوا الكتاب فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (إلا من بعد ماجاءهم العلم) يعنى بيان نعته وصفته فى كتبهم وقال الربيع أن موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين رجلا من خيار بنى إسرائيل وأودعهم التوراة واستخلف يوشع بن نون فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة والاختلاف بينهم وهم الذين أوتو الكتاب وهم من أبناء الملوك السبعين حتى أهرقوا الدماء ووقع الشر والاختلاف وذلك بعد ماجاءهم العلم يعنى بيان ما فى التوراة من الأحكام (بغيا بينهم) أى طلبا بينهم للملك والرياسة فسلط الله عليهم

الذين أوتوا الكتاب يعنى الإنجيل فى أمر عيسى عليه السلام وفرقوا القول فيه إلامن بعد ماجاءهم العلم بأن الله واحد وأن عيسى عبده ورسوله بغيا بينهم أى للمعاداة والمخالفة (ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب) قوله تعالى (فان حاجوك) أى خاصموك يامحمد فى الدين وذلك أن اليهود والنصارى قالوا لسنا على ماسميتنا به يامحمد إنما اليهودية والنصرانية نسب والدين هو الإسلام ونحن عليه فقال الله تعالى (فقل أسلمت وجهى لله) أى انقدت لله وحده بقلبى ولسانى وجميع جوارحى وإنما خص الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان وفيه بهاؤه فاذاخضع وجهه للشىء فقد خضع له جميع جوارحه وقال الفراء معناه أخلصت عملى لله (ومن اتبعن) أى ومن اتبعنى فأسلم كما أسلمت ، وأثبت نافع وأبو عمرو الياء فى قوله تعالى « اتبعنى »على الأصل وحذفه الآخرون على الخط لأنها فى المصحف بغير ياء ، وقوله (وقل للذين

أوتوا الكتاب والأميين)يعنى العرب (أأسلمتم) لفظه استفهام ومعناه أمر أي وأسلموا كما قال فهل أنتم منتهون أى انتهوا (فان أسلموا فقد اهتدوا)فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقال أهل الكتاب أسلمنا فقال لليهود أتشهدون أن عزيرا عبده ورسوله فقالوا معاذ الله أن يكون عزيرا عليه السلام عبدا وقال للنصارى أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله قالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبدا فقال الله عز وجل (وإن تولوا فانما عليك البلاغ)أى تبليغ الرسالة وليس عليك الهداية (والله بصير بالعباد) عالم بمن يؤمن وبمن لايؤمن. قوله تعالى (إن الذين يكفرون بآيات الله) يجحدون بآيات الله يعنى القرآن وهم اليهود والنصارى (ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) قرأ حمزة ويقاتلون الذين يأمرون بالألف . قال ابن جريج كان الوحى يأتى على أنبياء بنى إسرائيل ولم يكن يأتيهم كتاب الله فيذكرون قومهم فيقتلون أنبياءهم فيقوم رجال ممن تبعهم وصدقهم فيذكرون قومهم فيقتلون أيضا فهم الذين يأمرون بالقسط من الناس. أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد فنجويه الدينورى أنا أبو نصر منصور بن جعفر النهاوندى أنا أحمد بن يحيى بن الجارود أنا محمد بن عمرو بن حيان أنا محمد بن حمير أنا أبو الحسن مولى بنى أسد عن مكحول عن قبيصة بن ذؤيب الخزاعى عن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما قال قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس أشد عذابا يوم القيامة قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه

عليهم الجبابرة وقيل نزلت في نصارى نجران ومعناه وما اختلف الذين أوتوا الكتاب يعنى الإنجيل واختلافهم كان فى أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وما ادعوا فيه من الإلهية إلامن بعد ماجاءهم العلم يعنى بأن الله تعالى واحد أحد وأن عيسى عبده ورسوله بغيا بينهم يعنى المعاداة والمخالفة (ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب) فيه وعيد وتهديد لمن أصر على الكفر من اليهود والنصارى الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ قوله عز وجل (فان حاجوك) أى خاصموك يامحمد فى الدين وذلك أن اليهود والنصارى قالوا لسنا علي ماسميتنا به يامحمد إنما اليهودية والنصرانية نسب والدين هو الإسلام ونحن عليه فأمر الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يحتج عليهم بأنه اتبع أمر الله الذى هم مقرون به بقوله (فقل أسلمت وجهى لله) أى انقدت له بقلبى ولسانى وجميع جوارحى وإنما خص الوجه بالذكر لأنه أشرف جوارح الإنسان الظاهرة إذا خضع وجهه لشىء فقد خضع له سائر جوارحه وقيل أراد بالوجه العمل أى خلصت عملى لله وقصدت بعبادتى الله (ومن اتبعن) يعنى ومن أسلم كما أسلمت أنا (وقل للذين أوتوا الكتاب) يعنى اليهود والنصارى (والأميين) يعنى مشركى العرب (أأسلمتم) لفظه استفهام ومعناه أمر أى أسلموا (فان أسلموا فقد اهتدوا) يعنى إلى الفوز والنجاة فى الآخرة فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على أهل الكتاب قالوا قد أسلمنا فقال لليهود أتشهدون أن موسى كليم الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله وقال للنصارى أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبدا قال الله تعالى (وإن تولوا) أى أعرضوا (فانما عليك البلاغ) يعنى تبليغ الرسالة. وليس عليك هدايتهم واختلف علماء الناسخ والمنسوخ فى الآية فذهب طائفة إلى أنها محكمة والمراد بها تسلية النبى ﷺ لأنه كان يحرص على إيمانهم ويتألم لتركهم الإجابة وذهب طائفة إلى أنها منسوخة بآية السيف لأن المراد بها الاقتصار على التبليغ وهذا منسوخ بآية السيف(والله بصير بالعباد) يعنى أنه تعالى عالم بمن يؤمن وبمن لايؤمن . قوله عز وجل (إن الذين يكفرون بآيات الله) يعنى يجحدون القرآن وينكرونه وهم اليهود والنصارى (ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) كان أنبياء بنى إسرائيل يأتيهم الوحى ولم يكن

وسلم ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس إلى أن انتهى إلى قوله ومالهم من ناصرين ، ثم قال رسول الله ﷺ يا أبا عبيدة قتلت بنوا إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا فى أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا من قتلوهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعا فى آخر النهار فى ذلك اليوم فهم الذين ذكرهم الله فى كتابه وأنزل الآية فيهم (فبشرهم) أخبرهم (بعذاب أليم) وجيع وإنما أدخل الفاء على الباء فى خبر إن لتضمن الذين معنى الشرط والجزاء لأن تقديره الذين يكفرون ويقتلون فبشرهم لأنه لايقال إن زيد فقائم (أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين) وبطلان العمل فى الدنيا أن لايقبل وفى الآخرة أن لايجازى عليه قوله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) يعنى اليهود (يدعون إلى كتاب الله) اختلفوا فى هذا الكتاب . فقال قتادة هم اليهود دعوا إلى حكم القرآن فأعرضوا عنه وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية إن الله تعالى جعل القرآن حكما فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ فحكم القرآن على اليهود والنصارى أنهم على غير الهدى فأعرضوا عنه وقال الآخرون هو التوراة وروى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عز وجل فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أى دين أنت يامحمد فقال على ملة إبراهيم فقال إن إبراهيم كان يهوديا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم فأبيا عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا وامرأة من أهل خيبر زنيا ، وكان فى كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجوا أن يكون عنده رخصة فحكم عليهما بالرجم فقال له النعمان بن أوفى وبحرى بن عمرو جرت عليهما يامحمد ليس عليهما الرجم فقال رسول الله ﷺ بينى وبينكما التوراة فقالوا قد أنصفتنا قال فمن أعلمكم بالتوراة قالوا رجل أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا فأرسلوا إليه فقدم المدينة وكان جبريل قد وصفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت ابن صوريا قال نعم ؟ قال أنت أعلم اليهود قال كذلك يزعمون قال فدعا رسول الله ﷺ بشىء من التوراة فيها الرجم مكتوب فقال له اقرأ ، فلما أتى على آية الرجم

يأتيهم كتاب لأنهم كانوا ملتزمين بأحكام التوراة فكانوا يذكرون قومهم فيقتلونهم فيقوم رجال ممن آمن بهم وصدقهم فيذكرونهم ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر فيقتلونهم أيضا فهم الذين يأمرون بالقسط يعنى بالعدل من الناس روى البغوي بسند الثعلبى عن أبى عبيدة بن الجراح قال : قلت يارسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة «قال رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس إلى أن انتهى إلى قوله وما لهم من ناصرين ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعا من آخر النهار فى ذلك اليوم فهم الذين ذكرهم الله في كتابه وأنزل الآية فيهم» (فبشرهم بعذاب أليم) إنما دخلت الفاء فى قوله فبشرهم مع أنه خبر إن لأنه فى معنى الجزاء والتقدير من كفر فبشرهم بعذاب أليم يوم القيامة وهذا محمول على الاستعارة وهو أن إنذار الكفار بالعذاب قام مقام بشرى المحسنين بالثواب وفى هذه الآية توبيخ لليهود الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن كان أسلافهم الذين قتلوا الأنبياء لأنهم رضوا بفعلهم (أولئك الذين حبطت) أى بطلت (أعمالهم فى الدنيا والآخرة) وبطلان العمل هو أن لايقبل في الدنيا ولايجازى عليه فى الآخرة (ومالهم من ناصرين) يعنى يمنعونهم من العذاب . قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) أنزلت فى اليهود (يدعون إلى كتاب الله) يعنى القرآن وذلك أن اليهود دعوا إلى حكم القرآن فأعرضوا عنه قال ابن عباس إن الله جعل القرآن حكما فيما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فحكم القرآن على اليهود والنصارى أنهم على غير الهدى فأعرضوا عنه وروى عن ابن عباس أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت المدارس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عزوجل فقال له نعيم بن عمرو والحرث بن زيد على أى دين أنت يامحمد فقال على ملة إبراهيم قالا أن إبراهيم كان يهوديا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم فأبيا عليه فأنزل الله هذه الآية فعلى هذا القول يكون المراد بكتاب الله التوراة وروي عنه أيضا

وضع كفه عليها وقرأ مابعدها على رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن سلام يارسول الله قد جاوزها فقام فرفع كفه عنها ثم قرأ على رسول الله ﷺ وعلى اليهود بأن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة رجما وإن كانت امرأة حبلى تربص حتى تضع مافى بطنها فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باليهوديين فرجما فغضب اليهود لذلك وانصرفوا فأنزل الله عز وجل ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب التوراة حظا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله (ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم فى دينهم) والغرور هو الإطماع فيما لا يحصل منه شيء (ما كانوا يفترون) والافتراء اختلاق الكذب. قوله تعالى (فكيف إذا جمعناهم) أى فكيف حالهم أو كيف يصنعون إذا جمعناهم (ليوم لاريب فيه) وهو يوم القيامة (ووفيت) كوفئت (كل نفس ما كسبت) أى جزاء ما كسبت من خير أو شر (وهم لايظلمون) أى لاينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك) قال قتادة ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن عباس رضى الله عنهما وأنس ابن مالك رضى الله عنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعد أمته ملك فارس والروم قالت المنافقون واليهود هيهات هيهات من أين لمحمد ﷺ ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع فى ملك فارس والروم فأنزل الله تعالى هذه الآية «قل اللهم» قيل معناه ياألله فلما حذف حرف النداء زيد الميم فى آخره وقال قوم للميم فيه معنى ومعناها اللهم آمنا بخير أى أقصدنا حذف منه حرف النداء، كقولهم هلم إلينا كان أصله هل أم إلينا ثم كثرت فى الكلام فحذفت الهمزة استخفافا وربما خففوا أيضا فقالوا لاهم قوله ملك الملك يعنى يامالك الملك أى مالك العباد وما ملكوا وقيل يامالك السموات والأرض وقال الله تعالى فى بعض الكتب، أنا الله ملك الملوك ومالك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فان العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة وإن عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك، ولكن توبوا إلى

أن رجلا وامرأة من أهل خيبر زنيا وكان فى كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجوا أن تكون عنده رخصة فحكم عليهما بالرجم فقال النعمان بن أوفى وبحرى بن عمرو جرت عليهما يامحمد وليس عليهما الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبينكم التوراة فقالوا قد أنصفت فقال من أعلمكم بالتوراة فقالوا رجل أعور يقال له عبد الله بن صوريا يسكن فدك فأرسلوا إليه فقدم المدينة وكان جبريل قد وصفه للنبى صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أأنت ابن صوريا قال نعم قال أنت أعلم اليهود بالتوراة قال كذلك يزعمون فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة وقال له اقرأ فقرأ فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها وقرأ مابعدها فقال عبدالله بن سلام يارسول الله قد جاوزها ثم قام ورفع كفه عنها وقرأها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود وفيها أن المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة رجما وإن كانت المرأة حبلى تربص بها حتى تضع مافى بطنها فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باليهوديين فرجما فغضبت اليهود لذلك فأنزل الله عز وجل «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب» يعنى علمهم الذي علموه من التوراة يدعون إلى كتاب الله يعنى القرآن أو التوراة على اختلاف الروايتين (ليحكم بينهم) أي ليقضى بينهم وإضافة الحكم إلى الكتاب هو على سبيل المجاز (ثم يتولى فريق منهم) يعنى الرؤساء والعلماء (وهم معرضون) يعنى عن الحق وقيل الذين تولوا هم العلماء والذين أعرضوا هم الأتباع (ذلك بأنهم) يعنى ذلك التولى والإعراض إنما حصل بسبب أنهم (قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) تقدم تفسيره فى سورة البقرة (وغرهم) أى وأطمعهم (فى دينهم ما كانوا يفترون) أى يحلفون ويكذبون قيل هو قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه وقيل هو قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وقيل غرهم قولهم نحن على الحق وأنتم على الباطل (فكيف إذا جمعناهم) أى فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم (ليوم) أى فى يوم (لاريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت) أى لاشك فيه أنه كائن وواقع وهو يوم القيامة وفيه تهديد لهم واستعظام لما أعد لهم فى ذلك اليوم وأنهم يقعون فيما لاحيلة لهم فيه وإن ماحدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها تعلل بباطل وطمع فيما لايكون ولايحصل لهم قيل إن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود تفضحهم على رءوس الأشهاد ثم يؤمر بهم إلى النار (وهم لايظلمون) أى لاينقص من حسناتهم إن كانت لهم حسنة ولا يزاد على سيئاتهم . قوله عز وجل (قل اللهم مالك الملك) قال قتادة ذكر لنا أن نبى الله

صلى الله عليه وسلم سأل ربه عز وجل أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته فأنزل الله هذه الآية وقال ابن عباس لما فتح رسول الله ﷺ مكة وعد أمته ملك فارس والروم فقال المنافقون واليهود هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع فى ملك فارس والروم فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل إن اليهود قالوا والله لا نطيع رجلا جاء ينقل النبوة من بنى إسرائيل إلى غيرهم فنزلت هذه الآية قل اللهم معناه ياالله لما حذف حرف النداء زيد الميم فى آخره وقيل إن الميم فيه معنى آخر وهو ياالله أمنا بخير أى اقصدنا مالك الملك أى مالك العباد وما ملكوا وقيل مالك السموات والأرض وقيل معناه بيده الملك يؤتيه من يشاء وقيل معناه مالك الملوك ووارثهم يوم لا يدعى الملك أحد غيره وفى بعض كتب الله المنزلة أنا الله ملك الملوك ومالك الملك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فان العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة وإن هم عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم وقيل الملك هو القدرة والمالك هو القادر والمعنى أنه تعالى قادر على كل شىء وملك على كل مالك ومملوك وقادر ومقدور وقيل معناه مالك الملك أى جنس الملك يتصرف فيه كيف يشاء (تؤتى الملك من تشاء) يعنى النبوة لأنها أعظم مراتب الملك وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم له الأمر على بواطن الخلق وظواهرهم والملك ليس له الأمر إلا على ظواهر بعض الخلق وهو من يطيعه منهم وطاعة النبى واجبة على الكافة (وتنزع الملك ممن تشاء) يعنى بذلك نزع النبوة من بنى إسرائيل وإيتاءها محمدا صلى الله عليه وسلم فانه لانبى بعده ولم يشركه فى نبوته ورسالته أحد وقيل تؤتى الملك من تشاء يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتنزع الملك ممن تشاء يعنى من أبى جهل وصناديد قريش وقيل تؤتى الملك من تشاء يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتنزع الملك ممن تشاء يعنى فارس والروم وقيل تؤتى الملك من تشاء يعنى آدم وذريته وتنزع الملك ممن تشاء يعنى إبليس وجنوده الذين كانوا فى الأرض قبل آدم (وتعز من تشاء) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة (وتذل من تشاء) يعنى اليهود بأخذ الجزية منهم ونزع النبوة عنهم وقيل تعز المهاجرين والأنصار وتذل فارس والروم وقيل تعز من تشاء يعنى محمدا وأصحابه دخلوا مكة فى عشرة آلاف ظاهرين عليها وتذل من تشاء يعنى أباجهل وأضرابه حين قتلوا والقوا فى قليب بدر يوم بدر وقيل تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية وقيل تعز من تشاء بالغنى وتذل من تشاء بالفقر وقيل تعز من تشاء بالقناعة والرضا وتذل من تشاء بالحرص والطمع (بيدك الخير) يعنى النصر والغنيمة وقيل الألف واللام تفيد العموم والمعنى بيدك كل الخيرات . فان قلت كيف قال بيدك الخير دون الشر . قلت لأن الكلام إنما وقع فى الخير الذى يسوقه الله تعالى إلى عباده المؤمنين وهو الذى أنكرته اليهود والمنافقون فقال بيدك الخير تؤتيه أولياءك على رغم أعدائك وقيل أن قوله بيدك الخير لاينافى أن يكون بيد غيره فيكون المعنى بيدك الخير وبيدك ماسواه إلا أنه خص الخير بالذكر لأنه المنتفع به والمرغوب فيه (إنك على كل شىء قدير) يعنى من إيتاء الملك من تشاء وإعزاز من تشاء وإذلال من تشاء . قوله تعالى (تولج الليل فى النهار) الآية لما ذكر الله تعالى أنه مالك

اعطفهم عليكم قوله تعالى (تؤتى الملك من تشاء) قال مجاهد وسعيد بن جبير يعنى ملك النبوة وقال الكلبى تؤتى الملك من تشاء محمدا وأصحابه (وتنزع الملك ممن تشاء) أبى جهل وصناديد قريش وقيل تؤتى الملك من تشاء العرب وتنزع الملك ممن تشاء فارس والروم وقال السدى تؤتى الملك من تشاء آتى الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الملك وأمر العباد بطاعتهم وتنزع الملك ممن تشاء نزعه من الجبارين وأمر العباد بخلافهم وقيل تؤتى الملك من تشاء آدم وولده وتنزع الملك ممن تشاء إبليس وجنوده وقوله تعالى (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) قال عطاء تعز من تشاء المهاجرين والأنصار وتذل من تشاء فارس والروم وقيل تعز من تشاء محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى دخلوا مكة فى عشرة آلاف ظاهرين عليها وتذل من تشاء أبا جهل وأصحابه حتى جزت رءوسهم وألقوا فى القليب وقيل تعز من تشاء بالإيمان والهداية وتذل من تشاء بالكفر والضلالة . وقيل تعز من تشاء بالطاعة وتذل من تشاء بالمعصية وقيل تعز من تشاء بالنصرة وتذل من تشاء بالقهر وقيل تعز من تشاء بالغنى وتذل من تشاء بالفقر وقيل تعز من تشاء بالقناعة والرضى وتذل من تشاء بالحرص والطمع (بيدك الخير) أى بيدك الخير والشر فاكتفى بذكر أحدهما قال تعالى «سرابيل تقيكم الحر» أى الحر والبرد فاكتفى بذكر أحدهما (إنك على كل شىء قدير) قوله تعالى (تولج الليل فى النهار) الملك

أى تدخل الليل في النهار حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات (وتولج النهار فى الليل) حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات فما نقص من أحدهما زاد فى الآخر (وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى) قرأ أهل المدينة وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم الميت بتشديد الياء هاهنا وفى الأنعام ويونس والروم وفى الأعراف لبلد ميت وفى فاطر إلى بلد ميت زاد نافع أو من كان ميتا فأحييناه ولحم أخيه ميتاوالأرض الميتة أحييناها فشددها والآخرون يخففونها وشدد يعقوب يخرج الحى من الميت ولحم أخيه ميتا . قال ابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة معنى الآية يخرج الحيوان من النطفة وهي ميتة ويخرج النطفة من الحيوان . وقال عكرمة والكلبي تخرج الحى من الميت أى الفرخ من البيضة وتخرج البيض من الطير . وقال الحسن وعطاء : يخرج

المؤمن من الكافر ، ويخرج الكافر من المؤمن والمؤمن حى الفؤاد والكافر ميت الفؤاد قال الله تعالى أو من كان ميتا فأحييناه .وقال الزجاج يخرج النبات الغض الطرى من الحب اليابس ويخرج الحب اليابس من النبات الحى النامى (وترزق من تشاء بغير حساب) من غير تضييق ولا تقتير أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد الحنفى أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى أنا أبو جعفر عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمى أنا محمد ابن علي بن زيد الصائغ أنا محمد بن أزهر أنا الحارث بن عمير أنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ إن فاتحة الكتاب وآية الكرسى والآيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله إن الدين عند الله الإسلام وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب مشفعات معلقات بالعرش ما بينهن وبين الله عز وجل حجاب قلن يارب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك قال الله عز وجل بى حلفت لايقرأكن أحد من عبادى دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان فيه وأسكنته فى حظيرة القدس ونظرت إليه بعينى المكنونة وقضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة وأعذته من كل عدو وحاسد ونصرته عليهم رواه الحارث بن عمرو هو ضعيف قوله عز وجل (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) قال ابن عباس رضى الله عنه كان الحجاج بن عمرو وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد يبطنون بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر

الملك أردفه بذكر قدرته الباهرة فى حال الليل والنهار وفى المعاقبة بينهما وحال إخراج الحي من الميت ثم عطف عليه أنه يرزق من يشاء بغير حساب وفى ذلك دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة لذوى الأفهام والعقول فهو قادر أن ينزع الملك من فارس والروم واليهود ويذلهم ويؤتيه العرب ويعزهم فقوله تعالى تولج الليل فى النهار يعنى تدخل الليل فى النهار وهو أن تجعل الليل قصيرا وما نقص منه زائدا فى النهار حتى يكون النهار خمس عشرة ساعة ذلك غاية طول النهار ويكون الليل تسع ساعات وذلك غاية قصر الليل (وتولج النهار فى الليل) حتى يكون الليل خمس عشرة ساعة وذلك غاية طوله ويكون النهار تسع ساعات وذلك غاية قصره وقيل المراد أنه تعالى يأتى بسواد الليل عقيب ضوء النهار ويأتى بضوء النهار بعد ظلمة الليل والقول الأول أصح وأقرب الى معنى الآية لأنه إذا نقص الليل كان ذلك القدر زيادة فى النهار وبالعكس وهو معنى الولوج (وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحى) وهو أنه تعالى يخرج الإنسان الحى من النطفة وهى ميتة ويخرج النطفة من الإنسان ويخرج الفرخ وهو حى من البيضة وهى ميتة وبالعكس وكذلك سائر الحيوان وقيل يخرج النبات الغض الأخضر من الحب اليابس ويخرج النخلة من النواة وبالعكس وقيل معناه أنه تعالى يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن لأن المؤمن حى الفؤاد والكافر ميته (وترزق من تشاء بغير حساب) يعنى من غير تضييق ولا تقتير، بل تبسط الرزق لمن تشاء وتوسعه عليه . قوله عز وجل (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) قال ابن عباس كان الحجاج ابن عمرو وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد يبطنون بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر اجتنبوا هؤلاء اليهود لايفتنونكم عن دينكم فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت فى حاطب بن أبى بالتعة وغيره ممن كان يظهر المودة لكفار مكة وقيل نزلت فى عبد الله بن أبى وأصحابه كانوا يتولون المشركون واليهود ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل ذلك وقيل إن عبادة بن الصامت

أجتنبوا هؤلاء اليهود لايفتنونكم عن دينكم فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال مقاتل نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره وكانوا يظهرون المودة لكفار مكة وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتولون اليهود والمشركين ويأتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم قوله تعالى (ومن يفعل ذلك) أى موالاة الكفار فى نقل الأخبار إليهم وإظهارهم على عورة المسلمين (فليس من الله فى شىء) أى ليس من دين الله فى شىء ثم استثنى فقال (إلا أن تتقوا منهم تقاة) يعنى إلا أن تخافوا منهم مخافة قرأ مجاهد ويعقوب تقية على وزن بقية لأنهم كتبوها بالياء ولم يكتبوها بالألف مثل حصاة ونواة وهى مصدر يقال تقيت تقاة وتقى تقية وتقوى فاذا قلت اتقيت كان المصدر الإتقاء وإنما قال تتقوا من الإتقاء ثم قال تقاة ولم يقل إتقاء لأن معنى اللفظين إذا كان واحدا يجوز إخراج مصدر أحدهما على لفظ الآخر كقوله تعالى وتبتل إليه تبتيلا ومعنى الآية أن الله تعالى نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن فى قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان دفعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو يظهر الكفار على عورة المسلمين والتقية لاتكون إلا مع خوف القتل وسلامة النية قال الله تعالى إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ثم هذه رخصة فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم وأنكر قوم التقية اليوم ، وقال معاذ بن جبل ومجاهد كان التقية فى جدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين . فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام فليس ينبغى لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم وقال يحيى البكاء قلت لسعيد بن جبير فى أيام الحجاج أن الحسن كان يقول لكم تقية باللسان والقلب مطمئن بالإيمان ؟ فقال سعيد ليس فى الإسلام تقية إنما التقية فى أهل الحرب (ويحذركم الله نفسه) أى يخوفكم الله عقوبته على موالاة الكفار وارتكاب المنهى ومخالفة المأمور (وإلى الله المصير قل إن تخفوا مافى صدوركم) قلوبكم من مودة الكفار (أو تبدوه) من موالاتهم قولا وفعلا (يعلمه الله) قال الكلبي إن تسروا مافى قلوبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم من التكذيب أو تظهروه بحربه وقتاله يعلمه الله

كان له حلفاء من اليهود فقال يوم الأحزاب يارسول الله إن معى خمسمائة من اليهود وقد رأيت أن أستظهر بهم على العدو فنزلت هذه الآية وقوله «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء» يعنى أنصارا وأعوانا من دون المؤمنين يعنى من غير المؤمنين والمعنى لا يجعل المؤمن ولايته لمن هو غير مؤمن نهى الله المؤمنين أن يوالوا الكفار أو يلاطفوهم لقرابة بينهم أو محبة أو معاشرة والمحبة فى الله والبغض فى الله باب عظيم وأصل من أصول الإيمان (ومن يفعل ذلك) يعنى موالاة الكفار من نقل الأخبار إليهم وإظهار عورة المسلمين أو يودهم ويحبهم (فليس من الله فى شىء) أى فليس من دين الله فى شىء وقيل معناه فليس من ولاية الله فى شىء وهذا أمر معقول من أن ولاية المولى معاداة أعدائه وموالاة الله وموالاة الكفار ضدان لا يجتمعان (إلا أن تتقوا منهم تقاة) أى إلا أن تخافوا منهم مخافة ومعنى الآية أن الله نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن فى قوم كفارا فيداهنهم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان دفعا عن نفسه من غير أن يستحل دما حراما أو مالا حراما أو غير ذلك من المحرمات أو يظهر الكفار على عورة المسلمين والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل مع سلامة النية قال الله تعالى «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» ثم هذه التقية رخصة فلو صبر على إظهار إيمانه حتى قتل كان له بذلك أجر عظيم وأنكر قوم التقية اليوم وقالوا إنما كانت التقية فى جدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام والمسلمين فليس لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم قال يحيى البكاء قلت لسعيد بن جبير فى أيام الحجاج أن الحسن يقول التقية باللسان والقلب مطمئن بالإيمان فقال سعيد ليس فى الأمان تقية إنما التقية فى الحرب وقيل إنما تجوز التقية لصون النفس عن الضرر لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان (ويحذركم الله نفسه) أى ويخوفكم الله أن تعصوه بأن ترتكبوا المنهى أو تخالفوا المأمور به أو توالوا الكفار فتستحقوا عقابه على ذلك كله (وإلى الله المصير) يعنى أن الله يحذركم عقابه إذا صرتم إليه فى الآخرة . قوله عز وجل (قل إن تخفوا مافى صدوركم) يعنى مافى قلوبكم من موالاة الكفار ومودتهم وإنما ذكر الصدر لأنه وعاء القلب (أو تبدوه) يعنى تبدوا مودة الكفار قولا وفعلا وقيل معناه إن تخفوا مافى قلوبكم من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تبدوه أى تظهروه بالحرب والمقاتلة له (يعلمه الله) أى يحفظه عليكم ويجازيكم

ويحفظه عليكم حتى يجازيكم به ثم قال (ويعلم مافى السموات ومافى الأرض) يعنى إذا كان لايخفى عليه شئ فى السموات ولافى الأرض فكيف يخفى عليه موالاتكم الكفار وميلكم إليهم بالقلب (والله على كل شئ قدير) قوله تعالى (يوم تجد كل نفس) نصب يوم بنزع حرف الصفة أى في يوم وقيل باضمار فعل أى اذكروا واتقوا يوم تجد كل نفس (ماعملت من خير محضرا) لم يبخس منه شئ كما قال الله تعالى ووجدوا ماعملوا حاضرا (وما عملت من سوء) جعل بعضهم خبرا فى موضع النصب أى تجد محضرا ماعملت من الخير والشر فتسر بما عملت من الخير وجعل بعضهم خبرا مستأنفا ، ودليل هذا التأويل قراءة ابن مسعود رضى الله عنهما وما عملت من سوء ودت لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . قوله تعالى (تود لو أن بينها) أى بين النفس (وبينه) يعنى وبين السوء (أمدا بعيدا) قال السدى مكانا بعيدا وقال مقاتل كما بين المشرق والمغرب والأمد الأجل والغاية التى ينتهى إليها وقال الحسن يسر أحدهم أن لايلقى عمله أبدا وقيل يود أنه لم يعمله (ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) نزلت فى اليهود والنصارى حيث قالوا «نحن أبناء الله وأحباؤه» وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما وقف النبى ﷺ على قريش وهم فى المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا فى آذانها الشنوف وهم يسجدون لها فقال والله يامعشر قريش لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسماعيل فقالت له قريش إنما نعبدها حبا لله ليقربونا إلى الله زلفى فقال الله تعالى قل لهم يامحمد إن كنتم تحبون الله وتعبدون الأصنام ليقربوكم إليه فاتبعونى يحببكم الله فأنا رسوله إليكم وحجته عليكم اتبعوا شريعتى وسنتى يحببكم الله فحب المؤمنين لله اتباعهم أمره وإيثار طاعته وابتغاء مرضاته وحب الله للمؤمنين ثناؤه عليهم وثوابه لهم وعفوه عنهم فذلك قوله تعالى (ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)

ويجازيكم به (ويعلم مافى السموات ومافى الأرض) يعنى أنه تعالى إذا كان لا يخفى عليه شيء فى السموات ولا فى الأرض فكيف يخفى عليه حالكم وموالاتكم الكفار وميلكم إليهم بقلوبكم (والله على كل شيء قدير ، يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا) يعنى تجد كل نفس جزاء ماعملت محضرا يوم القيامة لم ينقص ولم يبخس منه شيء (وماعملت من سوء) أى تجد ماعملت من الخير محضرا فتسر به وماعملت من سوء (تود) أي تتمنى (لو أن بينها وبينه) أى وبين ما عملت من السوء (أمدا بعيدا) أى مكانا بعيدا قيل كما بين المشرق والمغرب والأمد الأجل والغاية وقيل معناه تود أنها لم تعمله ويكون بينها وبينه أمد بعيد (ويحذركم الله نفسه) إنما كرره لتأكيد الوعيد (والله رءوف بالعباد) قيل معناه أنه رءوف بهم حيث حذرهم نفسه وعرفهم كمال قدرته وعلمه وأنه يمهل ولا يهمل وقيل معناه أنه رءوف بالعباد حيث أمهلهم للتوبة ولتدارك العمل الصالح. وقيل إنه تعالى لما قال ويحذركم الله نفسه وهو وعيد أتبعه بقوله والله رءوف بالعباد وهو وعد ليعلم العبد المؤمن أن رحمته ووعده غلبت وعيده وسخطه . قوله عز وجل (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) نزلت فى اليهود والنصارى حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه فنزلت هذه الآية فعرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلم يقبلوها وقال ابن عباس وقف رسول الله ﷺ على قريش وهم فى المسجد الحرام وقد نصبوا أصنامهم وعلقوا عليها بيض النعام وجعلوا فى آذانها الشنوف وهم يسجدون لها فقال يامعشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم وإسمعيل فقالت قريش إنما نعبدها حبا لله لتقربنا إلى الله زلفى فنزلت هذه الآية وقيل إن نصارى نجران قالوا إنما نقول هذا القول فى عيسى حبا لله وتعظيما له فأنزل الله قل يامحمد إن كنتم تحبون الله فيما تزعمون فاتبعونى يحببكم الله لأنه قد ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة فوجب على كافة الخلق متابعته والمعنى قل إن كنتم صادقين فى ادعاء محبة الله فكونوا منقادين لأوامره مطيعين له فاتبعونى فان اتباعى من محبة الله تعالى وطاعته وقال العلماء إن محبة العبد لله عبارة عن إعظامه وإجلاله وإيثار طاعته واتباع أمره ومجانبة نهيه ومحبة الله للعبد ثناؤه عليه ورضاه عنه وثوابه له وعفوه عنه فذلك قوله تعالي (ويغفر لكم ذنوبكم) يعنى أن من غفر له فقد أزال عنه العذاب (والله غفور رحيم) يعنى أنه تعالى يغفر ذنوب من أحبه ويرحمه بفضله وكرمه ولما نزلت هذه الآية قال عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين لأصحابه إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن

قل لما نزلت هذه الآية قال عبدالله بن أبي لأصحابه إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمرنا أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى ابن مريم فنزل قوله تعالى (قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا) أعرضوا عن طاعتهما (فان الله لايحب الكافرين) لايرضى فعلهم ولا يغفر لهم. أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد ابن سنان أنا فليح أنا هلال بن على عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا ومن يأبى قال من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى» أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن عبادة أنا يزيد أنا سليمان بن حيان وأثنى عليه أنا سعيد بن ميناء قال حدثنا أو سمعت جابر بن عبد الله يقول جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا إن لصاحبكم هذا مثلا فاضربوا له مثلا فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا فمن أجاب الداعى دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة فقالوا أولوها له يفقهها فقال بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا أما الدار الجنة وأما الداعى محمد صلى الله عليه وسلم فمن أطاع محمدا فقد أطاع الله ومن عصى محمدا فقد عصى الله ومحمد صلى الله عليه وسلم فرق بين الناس. قوله تعالى (إن الله اصطفى آدم ونوحا) الآية قال ابن عباس رضى الله عنهما قالت اليهود نحن من أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونحن على دينهم فأنزل الله تعالى هذه الآية يعنى إن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام وأنتم على غير دين الإسلام. اصطفى اختار افتعل من الصفوة وهى الخالص من كل شئ. آدم أبا البشر ونوحا (وآل إبراهيم وآل عمران) قيل أراد بآل إبراهيم وآل عمران إبراهيم عليه السلام وعمران أنفسهما كقوله تعالى وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون يعنى موسى وهارون وقال آخرون آل إبراهيم إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وكان محمد صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم عليه السلام وأما آل عمران فقد قال مقاتل هو عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام وآله موسى وهارون وقال الحسن ووهب هو عمران بن أشهم بن عمون من ولد سليمان بن داود عليهما السلام وآله مريم وعيسى وقيل عمران بن ماثان

نحبه كما أحبت النصارى عيسى بن مريم فأنزل الله عز وجل (قل أطيعوا الله والرسول) يعنى أن طاعة الله متعلقة بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فان طاعته لا تتم مع عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال الشافعى رضى الله عنه كل أمر أونهى ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرى ذلك فى الفريضة واللزوم مجرى ما أمر الله به فى كتابه أو نهى عنه وقال ابن عباس رضى الله عنهما فان طاعتكم لمحمد صلى الله عليه وسلم طاعتكم لى فأما أن تطيعونى وتعصوا محمدا فلن أقبل منكم (فان تولوا) أى أعرضوا عن طاعة الله ورسوله (فان الله لا يحب الكافرين) أى لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم (خ) عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا ومن يأبى قال من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى» (ق) عنه قال: قال رسول الله ﷺ من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى». قوله عز وجل (إن الله اصطفى آدم ونوحا) قال ابن عباس قالت اليهود نحن من أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب ونحن على دينهم فأنزل الله هذه الآية والمعنى أن الله اصطفى هؤلاء بالإسلام وأنتم يامعشر اليهود على غير دين الإسلام ومعنى اصطفى اختار من الصفوة وهى الخالص من كل شىء آدم هو أبو البشر عليه السلام ونوحا هو نوح بن لامك بن متوشلخ ابن أخنوخ وهو إدريس عليه السلام وحكى ابن الجوزى فى تفسيره عن أبى سليمان الدمشقى أن اسم نوح السكن وإنما سمى نوحا لكثرة نوحه على نفسه (وآل إبراهيم) قيل أراد بآل إبراهيم إبراهيم نفسه وقيل آل إبراهيم إسماعيل وإسحاق ويعقوب وذلك أن الله تعالى جعل إبراهيم أصلا لشعبتين فجعل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أصلا للعرب ومحمد صلى الله عليه وسلم منهم فهو داخل فى هذا الاصطفاء وجعل إسحاق أصلا لبنى إسرائيل وجعل فيهم النبوة والملك إلى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثم جمع له ولأمته النبوة والملك إلى يوم القيامة وقيل أراد بآل إبراهيم من كان على دينه (وآل عمران) واختلفوا فى عمران هذا فقيل هو عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وهو والد موسى وهارون فيكون

آل عمران موسى وهرون أو نفسه وقيل هو عمران بن آشيم بن آمون وقيل ابن ماثان وهو من ولد سليمان بن داود عليهما السلام وعمران هذا هو والد مريم وابنها عيسى فعلى هذا يكون المراد بآل عمران مريم وابنها عيسى عليه السلام وإنما خص هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل من نسلهم (على العالمين) أى اختارهم واصطفاهم على العالمين بما خصهم من النبوة والرسالة (ذرية) أى اصطفى ذرية وأصلها من ذرأ بمعنى خلق وقيل من الذر لأن الله تعالى استخرجهم من ظهر آدم كالذر وإنما سمى الآباء والأبناء ذرية لأن الله خلق بعضهم من بعض فالأبناء من ذرية الآباء والآباء من ذرية آدم وهو ممن ذرأه الله تعالى أي خلقه (بعضها من بعض) أى بعضها من ولد بعض وقيل بعضها من بعض فى التناصر والتعاضد وقيل بعضها على دين بعض (والله سميع عليم) يعنى أن الله تعالى سميع لأقوال العباد عليم بنياتهم وإنما يصطفى لنبوته ورسالته من يعلم استقامته قولا وفعلا . قوله عز وجل (إذ قالت امرأة عمران) هى حنة بنت فاقوذا أم مريم وعمران هو عمران بن ماثان وقيل ابن أشيم وليس بعمران أبى موسى لأن بينهما ألفا وثمانمائة سنة وكان بنو ماثان رؤوس بنى إسرائيل فى ذلك الزمن وأحبارهم وملوكهم (رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا) أى جعلت الحمل الذى فى بطنى نذرا محررا منى لك والنذر مايوجبه الإنسان على نفسه والمعنى محررا أى عتيقا خالصا مفرغا لعبادة الله وخدمة الكنيسة لا أشغله بشئ من أمور الدنيا قيل كان المحرر عندهم إذا حرر جعل فى الكنيسة فيقوم عليها ويخدمها ولا يبرح مقيما فيها حتى يبلغ الحلم ثم يخير فان أحب أقام فيها وإن أحب ذهب حيث شاء فان اختار الخروج بعد أن اختار الإقامة فى الكنيسة لم يكن له ذلك ولم يكن أحد من أنبياء بنى إسرائيل ومن علمائهم إلا ومن أولاده محرر لخدمة بيت المقدس ولم يكن يحرر إلا الغلمان ولا تصلح الجارية لخدمة بيت المقدس لما يصيبها من الحيض والأذى فحررت أم مريم مافى بطنها وكانت القصة فى ذلك على ماذكره أصحاب السير والأخبار أن زكريا وعمران تزوجا أختين فكانت إيشاع بنت فاقوذا وهى أم يحيى عند زكريا وكانت حنة بنت فاقوذا أخت إيشاع عند عمران وهى أم مريم وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أيست وكبرت وكانوا أهل بيت صالحين وهم من الله بمكان فبينما هى فى ظل شجرة إذ بصرت بطائر يطعم فرخا فتحركت نفسها بذلك للولد فدعت الله أن يهب لها ولدا وقالت اللهم لك على إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه فلما حملت بمريم حررت مافى بطنها ولم تعلم ماهو فقال لها زوجها ويحك ماصنعت أرأيت إن كان مافى بطنك أنثى فلا تصلح لذلك فوقعا جميعا فى هم شديد من أجل ذلك فمات عمران قبل أن تضع حنة حملها ثم قال تعالي حاكيا عنها (فتقبل منى) يعنى فتقبل نذرى والتقبل أخذ الشئ على الرضا وأصله من المقابلة لأنه يقابل بالجزاء وهذا سؤال من لا يريد بما فعله إلا الطلب لرضا الله تعالى والإخلاص فى دعائه وعبادته (إنك أنت السميع) يعنى لتضرعى ودعائى (العليم) يعنى بنيتى ومافى ضميرى قوله عز وجل

خص هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل كلهم من نسلهم (على العالمين ذرية) اشتقاقها من ذرا بمعنى خلق وقيل من الذر لأنه استخرجهم من صلب آدم كالذر ويسمى الأولاد والآباء ذرية فالأولاد ذرية لأنه ذراهم والآباء ذرية لأنه ذرأ الأبناء منهم قال الله تعالى «وآية لهم أنا حملنا ذريتهم» أي آباءهم . ذرية نصب على معنى

واصطفى ذرية (بعضها من بعض) أى بعضها من ولد بعض وقيل بعضها من بعض فى التناصر وقيل بعضها على دين بعض (والله سميع عليم إذ قالت امرأة عمران) وهى حنة بنت فاقوذا أم مريم وعمران هو عمران بن ماثان وليس بعمران أبى موسى عليه السلام لأن بينهما ألفا وثمانمائة سنة وقيل كان بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ألف سنة وبين موسى وعيسى عليهما السلام ألفا سنة وكان بنو ماثان رءوس بنى إسرائيل وأحبارهم وملوكهم وقيل عمران ابن أشهم . قوله تعالى (رب إنى نذرت لك مافى بطنى محررا) أى جعلت لك الذى فى بطنى محررا نذرا منى لك (فتقبل منى إنك أنت السميع العليم) والنذر ما يوجبه الإنسان على نفسه محررا أى عتيقا خالصا لله مفرغا لعبادة الله ولخدمة الكنيسة لا أشغله بشئ من الدنيا وكل ما أخلص فهو محرر يقال حررت العبد إذا أعتقته وخلصته من الرق قال الكلبي ومحمد بن إسحاق وغيرهما كان المحرر إذا حرر جعل فى الكنيسة يقوم عليها ويكنسها ويخدمها ولا يبرحها حتى يبلغ الحلم ثم يخير إن أحب أقام فيه وإن أحب ذهب حيث شاء وإن أراد أن يخرج بعد التخيير لم يكن له ذلك ولم يكن أحد من الأنبياء والعلماء إلا من نسله محرر لبيت المقدس ولم يكن محررا إلا الغلمان ولا تصلح له الجارية لما يصيبها من

الحيض والأذى فحررت أم مريم مافى بطنها وكانت القصة فى ذلك أن زكريا وعمران تزوجا أختين وكانت إيشاع بنت فاقوذا أم يحيى عند زكريا وكانت حنة بنت فاقوذا أم مريم عند عمران وكان قد أمسك عن حنة الولد حتى أسنت وكانوا أهل بيت من الله بمكان فبينما هى فى ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخا فتحركت بذلك نفسها للولد فدعت الله أن يهب لها ولدا وقالت اللهم لك على إن رزقتنى ولدا أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه فحملت بمريم فحررت مافى بطنها ولم تعلم ماهو فقال لها زوجها ويحك ماصنعت أرأيت إن كان مافى بطنك أنثى لاتصلح لذلك فوقعا جميعا فى هم من ذلك فهلك عمران وحنة حامل بمريم (فلما وضعتها) أى ولدتها إذا هى جارية والهاء فى قوله وضعتها راجعة إلى النذيرة لا إلى ما ولذلك أنث (قالت) حنة وكانت (٣٤٠) ترجو أن يكون غلاما (رب إنى وضعتها أنثى) اعتذارا إلى الله عز وجل (والله أعلم بما وضعت) بجزم التاء إخبارا عن الله تعالى عز وجل وهى قراءة العامة وقرأ ابن عامر وأبو بكر ويعقوب وضعت برفع التاء جعلوها من كلام أم مريم (وليس الذكر كالأنثى) فى خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها للينها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس (وإنى سميتها مريم) وهى بلغتهم العابدة والخادمة وكانت مريم من أجمل النساء فى وقتها وأفضلهن (وإنى أعيذها) أمنعها وأجيرها (بك وذريتها) أولادها (من الشيطان الرجيم) والشيطان الطريد اللعين والرجيم المرمى بالشهب أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان « أنا شعيب عن الزهرى حدثنى سعيد بن المسيب قال : قال أبو هريرة رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «مامن بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل الصبى صارخا من الشيطان غير مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه «وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه بأصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن فى الحجاب» قوله (فتقبلها ربها بقبول حسن) أى قبل الله مريم من حنة مكان المحرر وتقبل بمعنى قبل ورضى والقول مصدر قبل يقبل قبولا ، مثل الولوع

(فلما وضعتها) أى ولدت حملها وإنما قال وضعتها لأنه كان فى علم الله أنها جارية وكانت حنة ترجو أن يكون غلاما (قالت) يعنى حنة (رب إنى وضعتها أنثى) تريد بذلك اعتذار إلى الله من إطلاقها النذر المتقدم فذكرت ذلك على سبيل الاعتذار لا على سبيل الإعلام لأن الله تعالى عالم بما فى بطنها قبل أن تضعه (والله أعلم بما وضعت) قرئ بجزم التاء إخبارا عن الله تعالى والمعنى أنه تعالى قال والله أعلم بالشىء الذى وضعت وقرىء وضعت برفع التاء وهو من كلام أم مريم على تقدير أنها لما قالت رب إنى وضعتها أنثى خافت أن تكون أخبرت الله بذلك فأزالت هذه الشبهة بقولها والله أعلم بما وضعت (وليس الذكر كالأنثى) يعنى فى خدمة الكنيسة والعباد الذين فيها وفى الكلام تقديم وتأخير تقديره وليس الأنثى كالذكر والمراد منه تفضيل الذكر على الأنثى لأن الذكر يصلح للخدمة للكنيسة ولا تصلح الأنثى لذلك لضعفها وما يحصل لها من الحيض ولأنها عورة ولا يجوز لها الحضور مع الرجال وقيل فى معنى الآية إن المراد منها هو تفضيل هذه الأنثى على الذكر كأنها قالت كان الذكر مطلوبى لخدمة المسجد وهذه الأنثى هى موهوبة لله تعالى وليس الذكر التى طلبت كالأنثى التى هى موهبة الله تعالى وكانت مريم من أجمل النساء وأفضلهن فى وقتها (وإنى سميتها مريم) يعنى العابدة والخادمة وهو بلغتهم أرادت بهذه التسمية أن يفضلها الله على إناث الدنيا (وإنى أعيذها بك وذريتها) أى أمنعها وأجيرها بك وذريتها (من الشيطان الرجيم) يعنى اللعين الطريد وذلك أن حنة أم مريم لما فاتها ما كانت تطلب من أن يكون ولدها ذكرا فاذا هى أنثى تضرعت إلى الله تعالى أن يحفظها ويعصمها من الشيطان الرجيم وأن يجعلها من الصالحات العابدات (ق) عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن بنى آدم من مولود إلا نخسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من نخسه إياه إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة اقرؤا إن شئتم «وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» وللبخارى عنه قال كل ابن آدم يطعن الشيطان فى جنبيه بأصبعيه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب ليطعن فطعن فى الحجاب . قوله عز وجل (فتقبلها ربها بقبول حسن) يعنى أن الله تعالى تقبل مريم من حنة مكان الذكر المحرر بمعنى قبل ورضى قال الزجاج الأصل فى العربية تقبلها

والوزوع ولم يأت غير هذه الثلاثة وقيل معنى التقبل التكفل فى التربية والقيام بشأنها (وأنبتها نباتا حسنا) معناه وأنبتها فنبتت نباتا حسنا وقيل هذا مصدر على غير الصدر أى المصدر وكذلك قوله فتقبلها ربها بقبول حسن ومثله سائغ كقولك تكلمت كلاما وقال جرير عن الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما فتقبلها ربها بقبول حسن أى سلك بها طريق السعداء وأنبتها نباتا حسنا يعنى سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان فكانت تنبت فى اليوم ماينبت المولود فى العام (وكفلها زكريا) قال أهل الأخبار أخذت حنة مريم حين ولدتها فلفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون ، وهم يومئذ يلون من بيت المقدس مايلى الحجبة من الكعبة فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال لهم زكريا أنا أحقكم بها عندى خالتها فقالت له الأحبار لانفعل ذلك فإنها لو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها التى ولدتها لكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلا إلى نهر جار . قال السدى هو نهر الأردن فألقوا أقلامهم فى الماء على أن من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها وقيل كان على كل قلم اسم واحد منهم وقيل كانوا يكتبون التوراة فألقوا أقلامهم التى كانت بأيديهم في الماء فارتد قلم زكريا فارتفع فوق الماء وانحدرت أقلامهم ورسبت فى النهر قاله محمد بن إسحاق وجماعة وقيل جرى قلم زكريا مصعدا إلى أعلى الماء وجرت أقلامهم بجرى الماء وقال السدى وجماعة بل ثبت قلم زكريا وقام فوق الماء كأنه فى طين وجرت أقلامهم في جرية الماء فسهمهم وقرعهم زكريا وكان رأس الأحبار ونبيهم فذلك قوله تعالى وكفلها زكريا قرأ حمزة وعاصم والكسائى كفلها بتشديد الفاء فيكون زكريا فى محل النصب أى ضمنها الله وضمها إليه بالقرعة وقرأ الآخرون بالتخفيف فيكون زكريا فى محل الرفع أى ضمها زكريا إلى نفسه وقام بأمرها وهو زكريا بن أذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهما السلام وقرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم زكريا مقصورا والآخرون بمدونه فلما ضم زكريا مريم إلي نفسه بنى لها بيتا واسترضع لها وقال محمد بن إسحاق ضمها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها محرابا فى المسجد وجعل بابه فى وسطها لا يرقى إليها إلا بالسلم مثل باب الكعبة لايصعد إليها غيره • وكان يأتيها بطعامها وشرابها ودهنها كل يوم (كلما دخل عليها زكريا المحراب)

تقبلها بتقبل ولكن قبول محمول على قبلها قبولا كما يقال قبلت الشئ قبولا إذا رضيته وقال أبو عمر وليس فى المصادر فعول بفتح الفاء إلا هذا ولم أسمع فيه الضم وقيل معنى التقبل والقبول واحد وهما سواء وهو أن يرى الشيء ويأخذه وقيل معنى التقبل والتكفل فى التربية والقيام بشأنها وإنما قال بقبول للجمع بين الأمرين يعنى التقبل الذى بمعنى التكفل والقبول الذى بمعنى الرضا (وأنبتها نباتا حسنا) معناه وأنبتها فنبتت هى نباتا حسنا قال ابن عباس فى قوله تعالى «فتقبلها ربها بقبول حسن» أى سلك بها طريق السعداء «وأنبتها نباتا حسنا» يعنى سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان فكانت تنبت فى اليوم ماينبت المولود في عام (وكفلها زكريا) قال أهل الأخبار لما ولدت حنة مريم أخذتها فلفتها فى خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هرون وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ماتلى الحجبة من الكعبة وقالت دونكم النذيرة فتنافس فيها الأحبار لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال زكريا أنا أحق بها لأن خالتها عندى فقالت له الأحبار لو تركت لأحق الناس بها لتركت لأمها التى ولدتها ولكنا نقترع عليها فتكون عند من خرج سهمه بها فانطلقوا وكانوا تسعة وعشرين رجلا إلى نهر جار قيل هو الأردن فألقوا أقلامهم فى الماء على أن من ثبت قلمه فى الماء وصعد فهو أولى بها من غيره وكان على كل قلم مكتوب اسم واحد منهم وقيل بل كانوا يكتبون التوراة فألقوا أقلامهم التى كانت بأيديهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ووقف وانحدرت أقلامهم ثم رسبت فى النهر وقيل جرى قلم زكريا مصعدا إلى أعلى وجرت أقلامهم مع جرى الماء إلى أسفل فسهمهم زكريا وقرعهم وكان زكريا رأس الأحبار ونبيهم فذلك قوله تعالى وكفلها زكريا قرئ بتشديد الفاء ومعناه وضمنها الله زكريا وضمها إليه بالقرعة وقرئ بتخفيف الفاء ومعناه وضمها زكريا إلى نفسه بالقرعة وقام بأمرها وهو زكريا بن أذن بن مسلم بن صدوق من أولاد سليمان بن داود عليهما السلام فلما ضم زكريا مريم إلى نفسه بنى لها بيتا واسترضع لها المراضع وقيل ضمها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا شبت وبلغت مبلغ النساء بنى لها محرابا فى المسجد وجعل بابه فى وسطه ولا يرقى إليه إلا بسلم ولا يصعد إليها غيره وكان يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم فذلك قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب) يعنى الغرفة والمحراب أشرف

وأراد بالمحراب الغرفة والمحراب أشرف المجالس ومقدمها وكذلك هو من المسجد ويقال للمسجد أيضا محراب وقال المبرد لايكون المحراب إلا أن يرتقى إليه بدرجة وقال الربيع بن أنس كان زكريا إذا خرج يغلق عليها سبعة أبواب فاذا دخل عليها فتحها (وجد عندها رزقا) أى فاكهة فى غير حينها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف (قال يامريم أنى لك هذا) قال أبو عبيدة معناه من أين لك هذا وأنكر بعضهم عليه وقال معناه من أى جهة لك هذا لأن أنى للسؤال عن الجهة وأين للسؤال عن المكان (قالت هو من عند الله) أى من قطف الجنة وقال أبو الحسن إن مريم من حين ولدت لم تلقم ثديا قط بل كان يأتيها رزقها من الجنة فيقول لها زكريا أنى لك هذا فتقول هو من عند الله تكلمت وهى صغيرة (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) قال محمد بن إسحاق ثم أصابت بنى إسرائيل أزمة وهى على ذلك من حالها حتى ضعف زكريا عن حملها فخرج على بنى إسرائيل فقال يا بنى إسرائيل تعلمون والله لقد كبرت سنى وضعفت عن حمل مريم بنت عمران فأيكم يكفلها بعدى فقالوا والله لقد جهدنا وأصابنا من السنة ماترى فتدافعوها بينهم ثم لم يجدوا من حملها بدا فتقارعوا عليها بالأقلام فخرج السهم على رجل نجار من بنى إسرائيل يقال له يوسف ابن يعقوب وكان ابن عم مريم فحملها فعرفت مريم فى وجهه شدة مؤنة ذلك عليه فقالت له يايوسف أحسن بالله الظن فان الله سيرزقنا فجعل يوسف يرزق بمكانها منه فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فاذا أدخله عليها فى الكنيسة أنماه الله فيدخل عليها زكريا فيرى عندها فضلا من الرزق ليس بقدر مايأتيها به يوسف فيقول يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب قال أهل الأخبار فلما رأى ذلك زكريا قال إن الذى قدر على أن يأتى مريم بالفاكهة فى غير حينها من غير سبب لقادر على أن يصلح زوجتى ويهب لى ولدا فى غير حينه على الكبر فطمع فى الولد وذلك أن أهل بيته كانوا قد انقرضوا وكان زكريا قد شاخ وأيس من الولد قال الله تعالى (هنالك) أى عند ذلك (دعا زكريا ربه) فدخل المحراب وغلق الأبواب وناجى ربه (قال رب) أى يارب (هب لى) أعطنى (من لدنك) أى من عندك (ذرية طيبة) أى ولدا مباركا تقيا صالحا رضيا والذرية تكون واحدا وجمعا ذكرا وأنثى وهو هاهنا واحد بدليل قوله عز وجل فهب لى من لدنك وليا وإنما قال طيبة لتأنيث لفظ الذرية

المجالس ومقدمها وكذلك هو من المسجد وقيل المحراب مايرقى إليه بدرج وقيل كان زكريا يغلق عليها سبعة أبواب فاذا دخل عليها المحراب (وجد عندها رزقا) يعنى فاكهة فى غير وقته فكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء (قال) يعنى زكريا (يامريم أنى لك هذا) أى من أين لك هذه الفاكهة (قالت) يعنى مريم مجيبة لزكريا (هو من عند الله) يعنى من الجنة وقيل إن مريم من حين ولدت لم تلقم ثديا بل كان يأتيها رزقها من الجنة فيقول زكريا يامريم أنى لك هذا فتقول هو من عند الله تكلمت وهى صغيرة فى المهد كما تكلم ولدها عيسى عليه السلام وهو صغير فى المهد وقال محمد بن إسحاق أصابت بنى إسرائيل أزمة وهى على ذلك من حالها حتى ضعف زكريا عن حملها وكفالتها فخرج على بنى إسرائيل فقال يابنى إسرائيل تعلمون والله لقد كبرت سنى وضعفت عن حمل بنت عمران فأيكم يكفلها بعدى فقالوا والله لقد جهدنا وأصابنا من السنة ماترى فتدافعوها بينهم ثم لم يجدوا من حملها بدا فتقارعوا عليها بالأقلام فخرج السهم لرجل نجار يقال له يوسف بن يعقوب وكان ابن عم لمريم فحملها فعرفت مريم فى وجهه شدة ذلك عليه فقالت له يايوسف أحسن بالله الظن فان الله سيرزقنا فصار يوسف يرزق لمكانها منه فكان يأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فاذا أدخله عليها فى المحراب أنماه الله وزاده فيدخل زكريا عليها فيقول يامريم أنى لك هذا فتقول هو من عند الله (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) وهذا يحتمل أن يكون من تمام كلام مريم أو ابتداء كلام من الله عز وجل ومعناه أن الله تعالى يرزق من يشاء بغير تقدير لكثرته أو من غير سبب وفى هذه الآية دليل على جواز كرامات الأولياء وظهور خوارق العادات على أيديهم قال أهل الأخبار فلما رأى زكريا ذلك قال إن الذى قدر على أن يأتى مريم بالفاكهة فى غير وقتها وحينها من غير سبب لقادر أن يصلح زوجى ويهب لى ولدا فى غير حينه مع الكبر وطمع فى الولد. وذلك أن أهل بيته كانوا انقرضوا وكان زكريا قد كبر وشاخ وأيس من الولد فذلك قوله عز وجل (هنالك دعا زكريا ربه) يعنى أنه عليه السلام دخل محرابه وأغلق الأبواب وسأل ربه الولد (قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة) يعنى أنه قال يارب أعطنى من عندك ولدا مباركا تقيا

(إنك سميع الدعاء) أي سامعه وقيل مجيبه كقوله تعالى إني آمنت بربكم فاسمعون أي فأجيبوني (فنادته الملائكة) قرأ حمزة والكسائي فناداه بالياء والآخرون بالتاء لتأنيث لفظ الملائكة وللجمع مع أن الذكور إذا تقدم فعلهم وهم جماعة كان التأنيث فيها أحسن كقوله تعالى قالت الأعراب وعن إبراهيم قال كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما يذكر الملائكة في القرآن قال أبو عبيدة إنما نرى عبد الله اختار ذلك خلافا للمشركين في قولهم الملائكة بنات الله تعالى وروي الشعبي أن ابن مسعود رضي الله عنه قال إذا اختلفتم في التاء والياء فاجعلوها ياء وذكروا القرآن وأراد بالملائكة هاهنا جبريل عليه السلام وحده كقوله تعالى في سورة النحل ينزل الملائكة يعني جبريل بالروح والوحي ويجوز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع كقولهم سمعت هذا الخبر من الناس وإنما سمع من واحد نظيره قوله تعالى «الذين قال لهم الناس» يعني نعيم بن مسعود أن الناس يعني أبا سفيان بن حرب وقال المفضل بن سلمة إذا كان القائل رئيسا يجوز الإخبار عنه بالجمع لاجتماع أصحابه معه وكان جبريل عليه السلام رئيس الملائكة وقل ما يبعث إلا ومعه جمع فجرى على ذلك قوله تعالى (وهو قائم يصلي في المحراب) أي في المسجد وذلك أن زكريا كان الحبر الكبير الذي يقرب القربان فيفتح باب المذبح فلا يدخلون حتى يأذن لهم في الدخول فبينما هو قائم يصلي في المحراب يعني في المسجد عند المذبح يصلي والناس ينتظرون أن يأذن لهم في الدخول فإذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض تلمع ففزع منه فناداه وهو جبريل عليه السلام يا زكريا (إن الله يبشرك) قرأ ابن عامر وحمزة إن الله بكسر الألف على إضمار القول تقديره فنادته الملائكة فقالت إن الله وقرأ الآخرون بالفتح بإيقاع النداء عليه كأنه قال فنادته الملائكة بأن الله يبشرك قرأ حمزة يبشرك وبابه بالتخفيف كل القرآن إلا قوله فبم تبشرون فإنهم اتفقوا على تشديدها ووافقه الكسائي هاهنا في الموضعين وفي سبحان والكهف وحمعسق ووافق ابن كثير وأبو عمرو في حمعسق والباقون بالتشديد فمن قرأ بالتشديد فهو من بشر يبشر تبشيرا وهو أعرب اللغات وأفصحها دليل التشديد قوله تعالى فبشر عبادي وبشرناه بإسحاق قالوا بشرناك بالحق وغيرها من الآيات ومن خفف فهو من بشر يبشر وهي لغة تهامة وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه (بيحيى) هو الاسم لا يجر لمعرفته وللزائد في أوله ومثل يزيد ويعمر وجمعه يحيون مثل موسون وعيسون واختلفوا في أنه لم سمي يحيى فقال ابن عباس رضي الله عنهما لأن الله أحيا به عقر أمه . قال قتادة لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان وقيل سمي يحيى لأنه استشهد والشهداء أحياء وقيل معناه يموت وقيل لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يعص ولم يهم بمعصية (مصدقا) نصب على الحال (بكلمة من الله) يعني عيسى عليه السلام سمي عيسى كلمة الله لأن الله تعالى قال له كن من غير أب فكان فوقع عليه اسم الكلمة وقيل سمي كلمة لأنه يهتدى به كما يهتدى بكلام الله تعالى وقيل هي بشارة الله تعالى لمريم بعيسى عليه

تقيا صالحا رضيا والذرية تطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى والمراد بها هنا الواحد وإنما قال طيبة لتأنيث لفظ الذرية (إنك سميع الدعاء) أي سامعه ومجيبه . قوله عز وجل (فنادته الملائكة) يعني جبريل عليه السلام وإنما أخبر عنه بلفظ الجمع تعظيما لشأنه ولأنه رئيس الملائكة وقل أن يبعث إلا ومعه جمع من الملائكة فجرى ذلك على مجرى العادة (وهو قائم يصلي في المحراب) أي في المسجد وذلك أن زكريا عليه السلام كان الحبر الكبير الذي يقرب القربان ويفتح لهم الباب فلا يدخلون حتى يأذن لهم في الدخول فبينما هو قائم يصلي في محرابه عند المذبح والناس ينتظرون أن يأذن في الدخول إذا هو برجل شاب عليه ثياب بيض ففزع زكريا منه فناداه جبريل عليه السلام يا زكريا (إن الله يبشرك بيحيى) أي بولد اسمه يحيى قال ابن عباس سمي يحيى لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه وقيل لأن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان وقيل لأن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يهم بمعصية قط (مصدقا بكلمة من الله) يعني عيسى ابن مريم وإنما سمي عيسى عليه السلام كلمة لأن الله تعالى قال له كن فكان من غير أب دلالة على كمال القدرة فوقع عليه اسم الكلمة لأنه بها كان وقيل سمي كلمة لأن عيسى عليه السلام كان يرشد الخلق إلى الحقائق والأسرار الإلهية ويهتدى به كما يهتدى بكلام الله تعالى فسمي كلمة بهذا الاعتبار وقيل سمي كلمة لأن الله تعالى بشر به مريم على لسان جبريل عليه السلام وقيل لأن الله تعالى أخبر الأنبياء الذين قبله في كتبه المنزلة عليهم أنه يخلق نبيا من غير واسطة أب فلما جاء قيل هذا هو تلك الكلمة يعني الوعد الذي وعد أنه يخلقه كذلك وكان يحيى أول من آمن بعيسى وصدقه وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر وكانا ابني خالة وقتل يحيى قبل أن يرفع

السلام بكلامه على لسان جبريل عليه السلام وقيل لأن الله تعالى أخبر الأنبياء بكلامه فى كتبه أنه يخلق نبيا بلا أب فسماه كلمة لحصوله بذلك الوعد وكان يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى عليه السلام وصدقه وكان يحيى عليه السلام أكبر من عيسى بستة أشهر وكانا ابنى خالة ثم قتل يحيى قبل أن يرفع عيسى عليه السلام وقال أبو عبيدة بكلمة من الله أى بكتاب من الله وآياته تقول العرب أنشدنى كلمة فلان أى قصيدته قوله تعالى (وسيدا) هو فعيل من ساد يسود وهو الرئيس الذى يتبع وينتهى إلى قوله . قال المفضل أراد سيدا فى الدين قال الضحاك السيد الحسن الخلق قال سعيد بن جبير السيد الذى يطيع ربه عز وجل وقال سعيد بن المسيب

السيد الفقيه العالم . وقال قتادة سيد فى العلم والعبادة والورع وقيل الحليم الذى لا يغضبه شئ قال مجاهد الكريم على الله تعالى وقيل السيد التقى قاله الضحاك قال سفيان الثورى الذى لا يحسد وقيل الذى يفوق قومه فى جميع خصال الخير وقيل هو القانع بما قسم الله له وقيل هو السخى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سيدكم يابنى سلمة قالوا جد بن قيس على أنا نبخله قال وأى داء أدوأ من البخل لكن سيدكم عمرو بن الجموح» قوله تعالى (وحصورا ونبيا من الصالحين) والحصور أصله من الحصر وهو الحبس والحصور فى قول ابن مسعود رضى الله عنه وابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة رضى الله عنهم وعطاء والحسن: الذى لايأتى النساء ولا يقربهن وهو على هذا القول فعول بمعنى فاعل ؛ يعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات وقال سعيد بن المسيب هو العنين الذى لا ماء له فيكون الحصور بمعنى المحصور يعنى الممنوع من النساء قال سعيد ابن المسيب كان له مثل هدبة الثوب وقد تزوج مع ذلك ليكون أغض لبصره وفيه قول آخر إن الحصور هو الممتنع من الوطئ مع القدرة عليه واختار قوم هذا القول لوجهين أحدهما لأن الكلام خرج مخرج الثناء وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء والثانى أنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء قوله تعالى (قال رب) أى ياسيدى قال لجبريل عليه السلام هذا قول الكلبى وجماعة وقيل قاله لله عز وجل (أنى يكون) يعنى أين يكون (لى غلام) أى أين (وقد بلغنى الكبر) هذا من المقلوب أى وقد بلغت الكبر وشخت كما تقول بلغنى الجهد أى أنا فى الجهد وقيل معناه وقد نالنى الكبر وأدركنى وأضعفنى قال الكلبى كان زكريا يوم بشر بالولد

عيسى عليه السلام وقيل إن أم يحيى لقيت أم عيسى وهما حاملتان فقالت أم يحيى لأم عيسى يامريم أشعرت أنى حامل فقالت مريم وأنا أيضا حامل فقالت أم يحيى يامريم إنى لأجد مافى بطنى يسجد لما في بطنك فذلك قوله مصدقا بكلمة من الله يعنى أن يحيى آمن بعيسى وصدق به (وسيدا) من ساد يسود والسيد هو الرئيس الذى يتبع وينتهى إلى قوله وكان يحيى عليه السلام سيد المؤمنين ورئيسهم فى الدين والعلم والحلم وقيل السيد هو الحسن الخلق وقيل هو الذى يطيع ربه وقيل هو الفقيه العالم وقيل سيدا فى العلم والعبادة والورع وقال السيد هو الحليم الذى لا يغضبه شئ وقيل السيد هو الذى يفوق قومه فى جميع خصال الخير وقيل هو السخى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سيدكم يابنى سلمة قالوا جد بن قيس على أنا نبخله قال وأى داء أدوأ من البخل لكن سيدكم عمرو بن الجموح» (وحصورا) قال ابن عباس وغيره من المفسرين الحصور الذى لا يأتى النساء ولا يقربهن فعلى هذا هو فعول بمعنى فاعل يعنى أنه حصر نفسه عن الشهوات وأصله من الحصر وهو الحبس وقيل هو العنين وقيل هو الفقير الذى لا مال له فيكون الحصور بمعنى المحصور يعنى الممنوع من النساء قال سعيد بن المسيب كان له مثل هدبة الثوب وقد تزوج مع ذلك ليغض بصره وفيه قول آخر وهو أن الحصور هو الممتنع عن الوطء مع القدرة عليه وإنما تركه للعفة والزهد فيه وهذا القول هو الصحيح وهو قول جماعة من المحققين وهو أليق بمنصب الأنبياء لأن الكلام إنما خرج مخرج المدح والثناء وذكر صفة النقص فى معرض المدح لا يجوز وأيضا فان منصب النبوة يجل من أن يضاف إلى أحد منهم نقص أو آفة فحمل الكلام على منع النفس عن الوطء مع القدرة عليه أولى من حمله على ترك الوطء مع العجز عنه (ونبيا من الصالحين) يعنى أنه من أولاد الأنبياء الصالحين . قوله عز وجل (قال) يعنى زكريا (رب) أى يارب قيل خطاب مع جبريل لأن الآية المتقدمة دلت على أن الذين نادوهم الملائكة فعلى هذا القول يكون الرب هنا بمعنى السيد والمربى أى ياسيدى وقيل إنه خطاب مع الله تعالى فيكون الرب بمعنى المالك وذلك أن الملائكة لما بشروه بالولد تعجب ورجع فى إزالة ذلك التعجب إلى الله تعالى فقال رب (أنى يكون لى غلام) يعنى من أين يكون وكيف يكون لي غلام (وقد بلغنى الكبر) قيل هو من المقلوب ومعناه وقد بلغت الكبر وشخت

ابن الثنتين وتسعين سنة وقيل ابن تسع وتسعين سنة وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما كان ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة فذلك قوله تعالى (وامرأتى عاقر) أى عقيم لاتلد ويقال رجل عاقر وامرأة عاقر وقد عقر بضم القاف يعقر عقرا وعقارة (قال كذلك الله يفعل مايشاء) فان قيل لم قال زكريا بعد ماوعده الله تعالى أنى يكون لى غلام أكان شاكا فى وعد الله وفى قدرته قيل إن زكريا لما سمع النداء من الملائكة

جاءه الشيطان فقال يازكريا إن الصوت الذى كنت تسمعه ليس من الله إنما هو من الشيطان ولو كان من الله لأوحاه إليك كما يوحى إليك فى سائر الأحوال فقال ذلك دفعا للوسوسة قاله عكرمة والسدى وجواب آخر وهو أنه لم يشك فى وعد الله إنما شك فى كيفيته ، أى كيف ذلك أتجعلنى وامرأتى شابين أم ترزقنا ولدا على الكبر منا أم ترزقنى من امرأة أخرى قاله مستفهما لا شاكا هذا قول الحسن قوله تعالى (قال رب اجعل لى آية) أى علامة أعلم بها وقت حمل امرأتى فأزيد فى العبادة شكرا لك (قال آيتك أن لاتكلم الناس) أى تكف عن الكلام (ثلاثة أيام) وتقبل بكليتك على عبادتى لا أنه يحبس لسانه عن الكلام ولكنه نهى عن الكلام وهو صحيح سوى كما قال فى سورة مريم « ألا تكلم الناس

ثلاث ليال سويا » يدل عليه قوله تعالى «وسبح بالعشى والإبكار» فأمره بالذكر ونهاه عن كلام الناس وقال أكثر المفسرين عقل لسانه عن الكلام مع الناس ثلاثة أيام وقال قتادة أمسك لسانه عن الكلام عقوبة له لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه فلم يقدر على الكلام ثلاثة أيام وقوله (إلارمزا) أى إشارة والإشارة قد تكون باللسان وبالعين واليد وكانت إشارته بالأصبع المسبحة . قال الفراء قد يكون الرمز باللسان من غير أن يبين وهو الصوت الخفى شبه الهمس.

وقيل معناه وقد نالنى الكبر وأدركنى الضعف . فان قلت كيف أنكر زكريا الولد مع تبشير الملائكة إياه به وما معنى هذه المراجعة ولم تعجب من ذلك بعد وعد الله إياه به أكان شاكا فى وعد الله أو فى قدرته . قلت لم يشك زكريا عليه السلام فى وعد الله وفى قدرته إنما قال ذلك على سبيل الاستفهام والاستعلام والمعنى من أى جهة يكون لى الولد أيكون بإزالة العقر عن زوجتى ورد شبابى على أو يكون ونحن على حالنا من الكبر والضعف فأجابه بقوله كذلك الله يفعل مايشاء وقال عكرمة والسدى لما سمع زكريا نداء الملائكة جاءه الشيطان وقال يازكريا إن الصوت الذى سمعت ليس هو من الله تعالى وإنما هو من الشيطان ولو كان من الله تعالى لأوحاه إليك كما يوحى إليك فى سائر الأمور فقال ذلك زكريا دفعا للوسوسة واعترض على الجواب بأنه لايجوز أن يشتبه على الأنبياء كلام الملائكة بكلام الشيطان إذ لو جوزنا ذلك لارتفع الوثوق بأخبارهم عن الوحى السماوى وأجيب عن هذا الاعتراض بأنه لما دلت الدلائل على صدق الأنبياء فيم يخبرون به عن الله تعالى بواسطة الملك فلا مدخل للشيطان فيه وذلك فيما يتعلق بالدين والشرائع فأما مايتعلق بمصالح الدنيا وبالولد فقد يحتمل فيه حصول الوسوسة فسأل زكريا ذلك لنزول هذه الوسوسة من خاطره قال الكلبى كان زكريا يوم بشر بالولد ابن اثنين وتسعين سنة وقيل ابن تسع وتسعين سنة وقال ابن عباس فى رواية الضحاك كان ابن مائة وعشرين سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة فذلك قوله تعالى (وامرأتى عاقر) أى عقيم لاتلد (قال كذلك الله يفعل مايشاء) يعنى أنه تعالى قادر على هبة الولد على الكبر يفعل مايشاء لايعجزه شىء . قوله عز وجل (قال) يعنى زكريا (رب اجعل لى آية) أى علامة أعلم بها وقت حمل امرأتى فأزيد فى العبادة والشكر لك (قال آيتك) أى علامتك على الذى طلبت معرفة علامه (أن لاتكلم الناس) أى لاتقدر على تكليم الناس (ثلاثة أيام) أى مدة ثلاثة أيام بلياليها : قال جمهور المفسرين عقد لسانه عن تكليم الناس ثلاثة أيام مع إبقائه على قدرة التسبيح والذكر ولذلك قال فى آخر الآية واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والأبكار يعنى فى أيام منعك من تكليم الناس وهذه من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة لأن قدرته على التسبيح والذكر مع عجزه عن تكليم الناس بأمور الدنيا وذلك مع صحة الجسم وسلامة الجوارح من أعظم المعجزات وإنما منع من الكلام مع الناس ليخلص فى هذه الأيام لعبادة الله تعالى وذكره ولا يشغل لسانه بشىء آخر توقيرا منه على قضاء حق هذه النعمة الجسيمة وشكراً لله على إجابته فيما طلب الآية من أجله وأن يكون ذلك دليلا على وجود الحمل ليتم سروره بذلك وقال قتادة إنما أمسك لسانه عن الكلام عقوبة لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ببشارة الولد فلم يقدر على الكلام (ثلاثة أيام إلا رمزا) يعنى الإشارة والإشارة قد تكون باليد وبالعين وبالإيماء بالرأس وكانت إشارته بالأصبع المسبحة وقيل الرمز قد يكون باللسان من غير تبين كلام وهو الصوت الخفى شبه الهمس وقيل أراد به صوم

وقال عطاء أراد به صوم ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا إلا رمزا (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار) قيل المراد بالتسبيح الصلاة والعشي مابين زوال الشمس إلى غروب الشمس ومنه سميت صلاة الظهر والعصر صلاتي العشي والإبكار مابين صلاة الفجر إلى الضحى قوله تعالى (وإذ قالت الملائكة) يعني جبريل (يامريم إن الله اصطفاك) إختارك (وطهرك) قيل من مسيس الرجال وقيل من الحيض والنفاس. قال السدي كانت مريم لاتحيض وقيل من الذنوب (واصطفاك على نساء العالمين) قيل على عالمي زمانها وقيل على جميع نساء العالمين في أنها ولدت بلا أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء وقيل بالتحرير في المسجد ولم تحرر أنثى أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أحمد ابن رجاء أخبرنا النضر عن هشام أخبرني أبي قال سمعت عبد الله بن جعفر قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة رضي الله عنهما» ورواه وكيع وأبو معاوية عن هشام ابن عروة وأشار وكيع إلى السماء والأرض أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا آدم أنا شعبة عن عروة بن مرة عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» أخبرنا أبو بكر سعيد بن عبدالله بن أحمد الطاهري أخبرنا جدي عبد الرحمن بن عبدالصمد البزار أخبرنا محمد بن زكريا العذافري أخبرنا إسحاق الدبري أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وآسية امرأة فرعون» قوله تعالى (يامريم اقنتي لربك) قالت لها الملائكة شفاها أي أطيعي ربك وقال مجاهد أطيلي

ثلاثة أيام لأنهم كانوا إذا صاموا لم يتكلموا والقول الأول أصح لموافقة أهل اللغة عليه (واذكر ربك كثيرا) وذلك لما منعه الله من الكلام في تلك المدة أمره بالذكر فقال واذكر ربك كثيرا فانك لاتمنع من ذلك ولا يحال بينك وبينه (وسبح) أي وعظم ربك ونزهه عن النقائص وقيل وصل لربك وسميت الصلاة تسبيحا لأن فيها تنزيها للرب سبحانه وتعالى (بالعشي والإبكار) فأما العشي فهو مابين زوال الشمس إلى غروبها ومنه سميت صلاتا الظهر والعصر صلاتي العشي والإبكار هو مابين طلوع الفجر إلى الضحى. قوله عز وجل (وإذ قالت الملائكة) يعني جبريل عليه السلام (يامريم إن الله اصطفاك) أي واختارك (وطهرك) يعني من مسيس الرجال وقيل من الحيض والنفاس وكانت مريم لا تحيض وقيل من الذنوب (واصطفاك) أي واختارك (على نساء العالمين) أي عالمي زمانها وقيل على جميع نساء العالمين. فان قلت هل فرق بين الإصطفاء الأول والثاني. قلت ذكر العلماء في معناهما وجوها يتحصل منها الفرق فقيل في معنى الاصطفاء الأول أن الله تعالى اختار مريم وقبلها منذورة محررة ولم تحرر قبلها أنثى ولم يجعل ذلك لغيرها من النساء وأن الله بعث إليها رزقها من عنده وكفلها زكريا ومعنى الإصطفاء الثاني أن الله تعالى وهب لها عيسى من غير أب وأسمعها كلام الملائكة ولم يحصل ذلك لغيرها من النساء (ق) عن علي بن أبي طالب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد» قال أبو كريب وأشار وكيع إلى السماء والأرض قيل أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير في قوله خير نسائها ومعناه أنهما خير كل النساء بين السماء والأرض قال الشيخ محيي الدين النووي والأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها وأما التفضيل بينهما فمسكوت عنه (ق) عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» قال العلماء معناه أن الثريد من كل طعام أفضل من المرق وثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد وثريد مالا لحم فيه أفضل من مرق من غير ثريد وفضل عائشة على النساء كزيادة فضل الثريد على غيره وليس في هذا تصريح بتفضيلها على مريم وآسية لاحتمال أن المراد تفضيلها على نساء هذه الأمة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون» أخرجه الترمذي. قوله عز وجل (يامريم اقنتي لربك) أي قالت الملائكة لها شفاها أطيعي ربك

القيام فى الصلاة لربك والقنوت الطاعة وقيل القنوت طول القيام . قال الأوزاعى لما قالت لها الملائكة ذلك قامت فى الصلاة حتى ورمت قدماها وسالت دما وقيحا (واسجدى واركعى) قيل إنما قدم السجود على الركوع لأنه كان كذلك فى شريعتهم وقيل بل كان الركوع قبل السجود فى الشرائع كلها وليس الواو للترتيب بل للجمع يجوز أن يقول الرجل رأيت زيدا وعمرا وإن كان قد رأى عمرا قبل زيد (مع الراكعين) ولم يقل مع الراكعات ليكون أعم وأشمل فانه يدخل فيه الرجال والنساء وقيل معناه مع المصلين فى الجماعة قوله تعالى (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك الذى ذكرت من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى على نبينا وعليهم السلام من أنباء الغيب أى من أخبار الغيب نوحيه إليك رد الكناية إلى ذلك فلذلك ذكره (وما كنت) يامحمد (لديهم إذ يلقون أقلامهم) سهامهم فى الماء للإقتراع (أيهم يكفل مريم) يحضنها ويربيها (وماكنت لديهم إذ يختصمون) فى كفالتها قوله تعالى (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم) إنما قال اسمه رد الكناية إلى عيسى واختلفوا فى أنه لم سمى مسيحا فمنهم من قال هو فعيل بمعنى المفعول يعنى أنه مسح من الأقذار وطهر من الذنوب وقيل لأنه مسح بالبركة وقيل لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن وقيل مسحه جبريل بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل وقيل لأنه كان مسيح القدم لا أخمص له وسمى الدجال مسيحا لأنه كان ممسوح إحدى العينين وقال بعضهم هو فعيل بمعنى الفاعل مثل عليم وعالم . قال ابن عباس رضى الله عنهما سمى عيسى عليه السلام مسيحا لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأ وقيل سمى بذلك لأنه كان يسيح فى الأرض ولا يقيم فى مكان وعلى هذا القول تكون الميم فيه زائدة وقال إبراهيم النخعى المسيح الصديق ويكون المسيح بمعنى الكذاب وبه سمى الدجال والحرف من الأضداد

وقيل معناه أطيلى القيام فى الصلاة لربك قال الأوزاعى لما قالت الملائكة لها ذلك قامت حتى تورمت قدماها وسالت دما وقيحا وحكى عن مجاهد نحوه (واسجدى واركعى مع الراكعين) إنما قدم السجود على الركوع لأن الواو لا تقتضى الترتيب إنما هى للجمع كأنه قيل لها افعلى الركوع والسجود وقيل إنما قدم السجود على الركوع لأنه كان كذلك فى شريعتهم . وقال ابن الأنبارى أمرها أمرا عاما وحضها على فعل الخير فكأنه قال استعملى السجود فى حال والركوع فى حال ولم يرد تقديم السجود على الركوع بل أراد العموم بالأمر على اختلاف الحالين وإنما قال اركعى مع الراكعين ولم يقل مع الراكعات لأن لفظ الراكعين أعم فيدخل فيه الرجال والنساء والصلاة مع الرجال أفضل وأتم وقيل معناه افعلى كفعل الراكعين وقيل المراد به الصلاة فى جماعة أى صلى مع المصلين فى جماعة . قوله عز وجل (ذلك من أنباء الغيب) يقول الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك الذى ذكرت لك من حديث زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام من أخبار الغيب (نوحيه إليك) أى نلقيه إليك يا محمد لأنه لا يمكنك أن تعلم أخبار الأمم الماضين إلا بوحى منا إليك وإنما قال نوحيه لأنه رد الضمير إلى ذلك فلذلك ذكر اللفظ (وما كنت) يعنى يا محمد (لديهم) هنالك عندهم (إذ يلقون أقلامهم) يعنى التى كانوا يكتبون بها فى الماء لأجل الإقتراع (أيهم يكفل مريم) يعنى يربيها ويقوم بمصالحها قيل سبب منازعتهم فى كفالة مريم حتى اقترعوا على ذلك أنها كانت بنت عمران وكان رئيسهم وكبيرهم فلأجل ذلك رغبوا فى كفالتها وقيل لأن مريم حررت لعبادة الله وخدمة المسجد وكان أبوها قد مات فلأجل ذلك رغبوا فى كفالتها (وما كنت لديهم إذ يختصمون) يعنى فى كفالتها وتربيتها قوله عز وجل (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) معناه وما كنت لديهم يا محمد إذ يختصمون وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة يعنى جبريل عليه السلام يا مريم إن الله يبشرك والبشارة إخبار المرء بما يسره من خير بكلمة منه يعنى برسالة من الله وخبر من عنده فهو كقول القائل ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها وأخبرنى خبرا فرحت به ومعنى الآية إذ قالت الملائكة لمريم يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده وهى ولد يولد لك من غير بعل ولا فحل وذلك الولد (اسمه المسيح عيسى ابن مريم) وقال قتادة فى قوله تعالى بكلمة منه هو قوله تعالى كن فسماه الله كلمة لأنه كان عن الكلمة التى هى كن كما يقال لما قدر الله من شىء هذا قدر الله وقضاء الله يعنى أن هذا الأمر عن قدره وقضائه حدث وقال ابن عباس الكلمة هى عيسى عليه السلام وإنما سمى كلمة لأنه وجد عن الكلمة التى هى كن . فان قلت أن كل مخلوق إنما يوجد بواسطة الكلمة التى هى كن فلم خص عيسى عليه السلام بهذا الإسم

وسماه كلمة دون غيره . قلت أن كل مخلوق وإن وجد حدوثه وخلقه بواسطة الكلمة إلا أن هذا السبب ماهو المتعارف ولما كان حدوث عيسى عليه السلام بمجرد الكلمة من غير واسطة أخرى فلا جرم كأن إضافة حدوثه إلى الكلمة أتم وأكمل وبهذا التأويل حسن أن يسمى عيسى عليه السلام نفس الكلمة لأنه حدث عنها فان قلت الضمير فى قوله اسم عائد إلى الكلمة وهى مؤنثة فلم ذكر الضمير . قلت لأن المسمى بها مذكر فلهذا ذكر الضمير : فان قلت لم قال اسمه المسيح عيسى ابن مريم وهذه ثلاثة الإسم منها واحد وهو عيسى وأما المسيح فلقب وابن مريم صفة . قلت الضمير فى قوله اسمه يرجع إلى عيسى وللمسمى علامة يعرف بها ويتميز عن غيره فكأنه قال الذى يعرف به ويتميز عن سواه هو مجموع هذه الثلاثة واختلفوا لم سمى عيسى عليه السلام مسيحا وهل هو اسم مشتق أو موضوع فقيل إنه موضوع واسمه بالعبرانية مشيخا فغيرته العرب وأصل عيسى أيشوع كما قالوا موسى وأصله موشى أو ميشى وقال الأكثرون أنه اسم مشتق ثم ذكروا فيه وجوها قال ابن عباس سمى عيسى مسيحا لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأمنها وقيل لأنه مسح بالبركة وقيل لأنه مسح من الأقذار وطهر من الذنوب وقيل إنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن وقيل لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه حتى لايكون للشيطان عليه سبيل وقيل لأنه كان يسيح فى الأرض ولايقيم بمكان فكأنه يمسح الأرض أى يقطعها مساحة فعلى هذا القول تكون الميم زائدة وقيل سمى مسيحا لأنه كان مسيح القدمين لاأخمص له وسمى الدجال مسيحا لأنه ممسوح إحدى العينين وقيل المسيح هو الصديق وبه سمى عيسى عليه السلام وقد يكون المسيح بمعنى الكذاب وبه سمى الدجال فعلى هذا تكون هذه الكلمة من الأضداد . وقوله تعالى (وجيها) أى شريفا رفيعا ذا جاه وقدر (فى الدنيا والآخرة) أما وجاهته فى الدنيا فبسبب النبوة وأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى وأما وجاهته فى الآخرة فبسبب علو مرتبته عند الله وهو قوله تعالى (ومن المقربين) يعنى عند الله يوم القيامة لأن لأهل الجنة منازل ودرجات ومنازل الأنبياء ودرجاتهم أعلى من سواهم وقيل فيه تنبيه على علو منزلته وأنه رفعه إلى السماء (ويكلم الناس فى المهد) يعنى ويكلم الناس صغيرا وهو فى المهد وذلك قبل أوان الكلام ووقته والكلام الذى تكلم به هو ماذكره الله عنه فى سورة مريم وهو قوله «إنى عبد الله آتانى الكتاب» الآية وتكلم ببراءة أمه مما رماها به أهل الفرية من القذف ويحكى أن مريم قالت كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدثنى وحدثته فاذا شغلنى عنه إنسان سبح وهو فى بطنى وأنا أسمع ولما تكلم ببراءة أمه سكت بعد ذلك فلم يتكلم إلا فى الوقت الذى يتكلم فيه الصغير قال ابن عباس تكلم عيسى ساعة ثم سكت ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغ النطق (وكهلا) يعنى ويكلم الناس فى حال الكهولة والكهل فى اللغة هو الذى اجتمعت قوته وكمل شبابه والكهل عند العرب الذى جاوز الثلاثين وقيل هو الذى وخطه الشيب، وهو السن الذى يستحكم فيه العقل وتنبأ فيه الأنبياء قال ابن قتيبة لما كان لعيسى ثلاثون سنة أرسله الله تعالى فمكث فى رسالته ثلاثين شهرا ثم رفعه الله تعالى وقال وهب بن منبه جاءه الوحى على رأس ثلاثين سنة فمكث فى نبوته ثلاث سنين ثم رفعه الله فمعنى الآية أنه يكلم الناس وهو فى المهد ببراءة أمه وهى معجزة عظيمة ويكلم الناس فى حال الكهولة بالدعوة والرسالة وقيل فيه بشارة لمريم أخبرها بأنه يبقى حتى يكتهل وقيل فيه أخبار بأنه يتغير من حال إلى حال ولو كان إلها كما زعمت النصارى لم يدخل عليه التغيير

(وجيها) أى شريفا رفيعا ذا جاه وقدر (فى الدنيا والآخرة ومن المقربين) عند الله (ويكلم الناس فى المهد) صغيرا قبل أوان الكلام كما ذكره فى سورة مريم «قال إنى عبد الله آتانى الكتاب» الآية حكى عن مجاهد قال: قالت مريم كنت إذا خلوت أنا وعيسى عليه السلام حدثنى وحدثته فاذا شغلنى عنه إنسان سبح فى بطنى وأنا أسمع قوله (وكهلا) قال مقاتل يعنى إذا اجتمعت قوته قبل أن يرفع إلى السماء وقال الحسين بن الفضل وكهلا بعد نزوله من السماء وقيل أخبرها أنه يبقى حتى يكتهل وكلامه بعد الكهولة أخبار عن الأشياء المعجزة وقيل وكهلا نبيا بشرها بنبوة عيسى عليه السلام وكلامه فى المهد معجزة وفى الكهولة دعوة. وقال مجاهد وكهلا أى حليما والعرب تمدح الكهولة لأنها الحالة الوسطى فى احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأى

والتجربة (ومن الصالحين) أى هو من العباد الصالحين (قالت رب) ياسيدى تقوله لجبريل وقيل تقول لله عز وجل (أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) ولم يصبنى رجل قالت ذلك تعجبا إذ لم تكن جرت العادة بأن يولد ولد لاأب له (قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمرا) أراد كون الشىء (فانما يقول له كن فيكون) كما يريد قوله تعالى (ويعلمه الكتاب) قرأ أهل المدينة وعاصم ويعقوب بالياء لقوله تعالى كذلك الله يخلق مايشاء وقيل رده على قوله إن الله يبشرك ويعلمه وقرأ الآخرون بالنون على التعظيم كقوله تعالى ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك قوله الكتاب أى الكتابة والخط (والحكمة) العلم والفقه (والتوراة والإنجيل) علمه الله التوراة والإنجيل (ورسولا) أى ونجعله رسولا (إلى بنى إسرائيل) قيل كان رسولا فى حال الصبا وقيل إنما كان رسولا بعد البلوغ وكان أول أنبياء بنى إسرائيل يوسف وآخرهم عيسى عليهما السلام فلما بعث قال (إنى) قال الكسائى إنما فتح لأنه أوقع الرسالة عليه وقيل معناه بأنى (قد جئتكم بآية) علامة (من ربكم) تصدق قولى وإنما قال بآية وقد أتى بآيات لأن الكل دل على شىء واحد وهو صدقه فى الرسالة فلما قال ذلك عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل قالوا وماهى قال (إنى) قرأ نافع بكسر الألف على الاستئناف وقرأ الباقون بالفتح على معنى أنى (أخلق) أى أصور وأقدر (لكم من الطين كهيئة الطير) قرأ أبوجعفر كهيئة الطائر هاهنا وفى المائدة والهيئة الصورة المهيأة من قولهم هيأت الشىء إذا قدرته وأصلحته (فأنفخ فيه) أى فى الطير (فيكون طيرا باذن الله) قراءة الأكثرين بالجمع لأنه خلق طيرا كثيرا وقرأ

ففيه رد على النصارى الذين يدعون فيه الألوهية وقال الحسن بن الفضل وكهلا يعنى ويكلم الناس كهلا بعد نزوله من السماء وفى هذه نص على أنه سينزل من السماء إلى الأرض ويقتل الدجال وقال مجاهد الكهل الحكيم والعرب تمدح الكهولة لأنها الحالة الوسطى فى احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأى والتجربة (ومن الصالحين) يعنى أنه من العباد الصالحين مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وغيرهم من الأنبياء وإنما ختم أوصاف عيسى عليه السلام بكونه من الصالحين بعد ماوصفه بالأوصاف العظيمة لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات لأنه لايسمى المرء صالحا حتى يكون مواظبا على النهج الأصلح والطريق الأكمل فى جميع أقواله وأفعاله فلما وصفه الله تعالى بكونه وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين وأنه يكلم الناس فى المهد وكهلا أردفه بقوله ومن الصالحين ليكمل له أعلى الدرجات وأشرف المقامات. قوله عز وجل (قالت) يعنى مريم (رب) يعنى ياسيدى تقوله لجبريل لما بشرها بالولد وقيل تقوله لله عز وجل (أنى يكون لى ولد) أى من أين يكون لى ولد (ولم يمسسنى بشر) أولم يصبنى رجل وإنما قالت ذلك تعجبا لاشكا فى قدرة الله تعالى إذا لم تكن العادة جرت أن يولد ولد من غير أب (قال كذلك الله يخلق مايشاء) يعنى هكذا يخلق الله منك ولدا من غير أن يمسك بشر فيجعله آية للناس وعبرة فانه يخلق مايشاء ويصنع مايريد وهو قوله (إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) يعنى كما يريد (ويعلمه الكتاب) يعنى الكتابة والخط باليد (والحكمة) يعنى العلم والسنة وأحكام الشرائع (والتوراة) يعنى التى أنزلت على موسى (والإنجيل) يعنى الذى أنزل عليه وهذا أخبار من الله تعالى لمريم ماهو فاعل بالولد الذى بشرها به من الكرامة وعلو المنزلة (ورسولا إلى بنى إسرائيل) أى ونجعله رسولا إلى بنى إسرائيل وكان أول أنبياء بنى إسرائيل يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى بن مريم عليه السلام فلما بعث إليهم قال (إنى قد جئتكم بآية من ربكم) يعنى بعلامة من ربكم على صدق قولى وإنما قال بآية وقد جاء بآيات كثيرة لأن الكل دل على شىء واحد وهو صدقه فى الرسالة فلما قال ذلك عيسى لبنى إسرائيل قالوا ماهذه الآية قال (إنى أخلق) أى أصور وأقدر (لكم من الطين كهيئة الطير) والهيئة الصورة المهيأة من قولهم هيأت الشىء إذا قدرته وأصلحته (فانفخ فيه) أى فى الطين المهيأ المصور (فيكون طيرا) قرىء بلفظ الجمع لأن الطير اسم جنس يقع على الواحد والاثنين والجمع وقرىء فيكون طائرا على التوحيد على معنى يكون ماأنفخ فيه طائرا أو ماأخلقه يكون طائرا وقيل أنه لم يخلق غير الخفاش وهو الذى يطير فى الليل وإنما خص الخفاش لأنه من أكمل الطير خلقا وذلك لأنه يطير بلا ريش وله أسنان ويقال إن الأنثى منه لها ثدى وتحيض ذكروا أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر لهم المعجزات أخذوا يتعنتون عليه فطلبوا منه أن يخلق لهم خفاشا فأخذ طينا وصوره كهيئة الخفاش ثم نفخ فيه فاذا هو طير يطير بين السماء والأرض قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فاذا غاب عنهم سقط ميتا ليتميز فعل المخلوق من فعل الخالق وهو الله تعالى وليعلم أن الكمال لله تعالى (باذن الله) معناه بتكوين الله وتخليقه والمعنى إنى أعمل

أهل المدينة ويعقوب فيكون طائرا على الواحد ههنا وفى سورة المائدة ذهبوا إلى نوع واحد من الطير لانه لم يخلق غير الخفاش وإنما خص الخفاش لأنه أكمل الطير خلقا لأن له ثديا وأسنانا وهى تحيض . قال وهب كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فاذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الخالق وليعلم أن الكمال لله عز وجل قوله تعالى (وأبرئ الأكمه والأبرص) أى أشفيهما وأصححهما واختلفوا فى الأكمه قال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة هو الذى ولد أعمى وقال الحسن والسدى هو الأعمى وقال عكرمة هو الأعمش وقال مجاهد هو الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل والأبرص هو الذى به وضح وإنما خص هذين لأنهما داءان عياءان وكان الغالب فى زمن عيسى عليه السلام الطب فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك قال وهب ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى فى اليوم الواحد خمسون ألفا من أطاق منهم أن يبلغه بلغه ومن لم يطق مشى إليه عيسى عليه السلام وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان قوله تعالي (وأحيي الموتى باذن الله) قال ابن عباس رضى الله عنهما لقد أحيا أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح فأما عازر فكان صديقا له فأرسلت أخته إلى عيسى عليه السلام أن أخاك عازر يموت وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه وقد مات منذ ثلاثة أيام فقال لأخته انطلقى بنا إلى قبره فانطلقت معهم إلى قبره فدعا الله تعالى فقام عازر وودكه يقطر فخرج من قبره وبقى وولد له وأما ابن العجوز فانه مر به ميتا على عيسى عليه السلام على سرير يحمل فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله فبقى وولد له وأما ابنة العاشر فكان والدها رجلا يأخذ العشور ماتت له بنت بالأمس فدعا الله عز وجل فأحياها وبقيت وولدت وأما سام بن نوح عليه السلام فان عيسى عليه السلام جاء إلى قبره فدعا باسم الله اعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة ولم يكونوا يشيبون فى ذلك الزمان فقال قد قامت القيامة قال لا ولكن دعوتك باسم الله الأعظم ثم قال له مت قال بشرط أن يعيذنى الله من سكرات الموت فدعا الله ففعل قوله تعالى (وأنبئكم) أخبركم (بما تأكلون) مما لم أعاينه (وما تدخرون) ترفعونه (فى بيوتكم) حتى تأكلوه وقيل كان يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما يأكل اليوم وبما ادخره

وقد

هذا التصوير أنا فأما خلق الحياة فيه فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزة على يد عيسى عليه السلام (وأبرىء الأكمه والأبرص) أى وأشفى الأكمه والأبرص وأصحهما واختلفوا فى الأكمه فقال ابن عباس هو الذى ولد أعمى وقيل هو الأعمى وإن كان أبصر وقيل هو الأعشى وهو الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل والأبرص هو الذى به وضح وكان الغالب على زمان عيسى عليه السلام الطب فأراهم المعجزة من جنس ذلك إلا أنه ليس فى علم الطب إبراء الأكمه والأبرص فكان ذلك معجزة له ودليلا على صدقه وقال وهب ربما اجتمع على عيسى عليه السلام من المرضى فى اليوم الواحد نحو خمسين ألفاً فمن أطاق أن يمشى إليه مشى ومن لم يطق مشى عيسى عليه السلام إليه وكان يداويهم بالدعاء على شرط الإيمان برسالته (وأحيي الموتى باذن الله) قال ابن عباس قد أحيا أربعة أنفس عازر وابن العجوز وابنة العاشر وسام ابن نوح وكلهم بقى وولد له إلا سام بن نوح فأما عازر فكان صديقا لعيسى عليه السلام فأرسلت إليه أخت عازر أن أخاك عازر يموت وكان بينهما مسيرة ثلاثة أيام فأتاه عيسى وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيام فقال لأخته انطلقى بنا إلى قبره فانطلقت بهم إلى قبره فدعا الله عيسى فقام عازر حيا باذن الله تعالى فخرج من قبره وعاش وولد له وأما ابن العجوز فانه مر به وهو ميت على عيسى عليه السلام يحمل على السرير فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وأتى أهله وعاش وولد له وأما ابنة العاشر فكان أبوها يأخذ العشور من الناس وماتت بالأمس فدعا الله عيسى فأحياها بدعوته فعاشت وولد لها وأما سام بن نوح فان عيسى جاء إلى قبره ودعا الله باسمه الأعظم فخرج من قبره وقد شاب نصف رأسه خوفا من قيام الساعة ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزمان فقال قد قامت الساعة فقال عيسى عليه السلام لا ولكن دعوتك باسم الله الأعظم ثم قال له مت فقال بشرط أن يعذنى الله من سكرات الموت مرة أخرى فدعا الله عيسى ففعل (وأنبئكم) يعنى وأخبركم (بما تأكلون) أى مما لم أعاينه (وما تدخرون فى بيوتكم) أى وما ترفعونه فتخبؤنه فى بيوتكم لتأكلوه فيما بعد ذلك قيل كان عيسى عليه السلام يخبر الرجل بما أكل البارحة وبما يأكله اليوم وبما يدخره للعشاء وقيل كان في الكتاب يحدث الغلمان بما يصنع آباؤهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا

للعشاء . وقال السدي كان عيسى عليه السلام في الكتاب يحدث الغلمان بما يصنع آباؤهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا ورفعوا لك كذا وكذا فينطلق الصبي إلى أهله ويبكي عليهم حتى يعطوه ذلك الشئ فيقولون من أخبرك بهذا فيقول عيسى عليه السلام فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا لاتلعبوا مع هذا الساحر فجمعوعهم في بيت فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم فقالوا ليسوا ههنا فقال فما في هذا البيت قالوا خنازير قال عيسى كذلك يكونون ففتحوا عليهم فاذا هم خنازير ففشا ذلك في بني إسرائيل فهمت به بنوا إسرائيل فلما خافت عليه أمه حملته على حمار لها وخرجت هاربة إلى مصر وقال قتادة إنما كان هذا في المائدة وكانت خوانا ينزل عليهم أينما كانوا كالمن والسلوى وأمروا أن لا يخونوا ولا يخبئوا للغد فخانوا وخبئوا للغد فجعل عيسى يخبرهم بما أكلوا من المائدة وبما ادخروا منها فمسخهم الله خنازير قوله تعالى (إن في ذلك) الذي ذكرت (لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا) عطف على قوله ورسولا (لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) من اللحوم والشحوم . وقال أبو عبيدة أراد بالبعض الكل يعني كل الذي حرم عليكم وقد يذكر البعض ويراد به الكل كقول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

وقد رفعوا لك كذا فينطلق الصبي فيبكي على أهله حتى يعطوه ذلك الشيء فيقولون من أخبرك بهذا فيقول عيسى فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا لاتقعدوا مع ذلك الساحر وجمعوهم في بيت فجاء عيسى يطلبهم فقالوا ليسوا هنا فقال وما في البيت قالوا خنازير فقال كذلك يكونون ففتحوا عليهم الباب فاذاهم خنازير ففشا ذلك في بني إسرائيل وظهر فهموا به فخافت عليه أمه فحملته على حمار لها وخرجت هاربة إلى مصر وقال قتادة إنما كان هذا في نزول المائدة وكان خوانا ينزل عليهم أينما كانوا فيه من طعام الجنة وأمروا أن لايخونوا ولا يدخروا الغد فخانوا وادخروا فكان عيسى عليه السلام يخبرهم بما أكلوا من المائدة وما أدخروا منها فمسخهم الله خنازير وفي هذا دليل قاطع على صحة نبوة عيسى عليه السلام ومعجزة عظيمة له وهي أخباره عن المغيبات مع ماتقدم له من الآيات الباهرات من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى باذن الله تعالى وإخباره عن الغيوب باعلام الله إياه ذلك وهذا مما لاسبيل لأحد من البشر عليه إلا الأنبياء عليهم السلام فان قلت قد يخبر المنجم والكاهن عن مثل ذلك فما الفرق . قلت إن المنجم والكاهن لابد لكل واحد منهما من مقدمات يرجع إليها ويعتمد في أخباره عليها أما المنجم فانه يستعين على ذلك بواسطة معرفة الكواكب وامتزاجاتها أو بواسطة حساب الرمل أونحو ذلك وقد يخطىء في كثير مما يخبر به وأما الكاهن فانه يستعين برائد من الجن وقد يخطىء أيضا في كثير مما يخبر به وأما أخبار الأنبياء عليهم السلام عن المغيبات فليس إلا بالوحي السماوي وهو من الله تعالي وليس ذلك باستعانة بواسطة حساب ولا غيره فحصل الفرق (إن في ذلك) يعني الذي تقدم ذكره من خلق الطير من الطين باذن الله وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات (لآية لكم) أي لعبرة ودلالة على صدق أني رسول من الله إليكم (إن كنتم مؤمنين) يعني مصدقين بذلك (ومصدقا) قيل أنه عطف على قوله ورسولا وقيل أنه عطف على أني قد جئتكم بآية من ربكم والمعنى وجئتكم مصدقا (لما بين يدي من التوراة) وذلك لأن الأنبياء عليهم السلام يصدق بعضهم بعضا فكل واحد منهم يصدق الذي قبله ويصدق بما أنزل الله من الكتب والشرائع والأحكام فلهذا قال عيسى عليه السلام مصدقا لما بين يدي من التوراة (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) قال وهب بن منبه أن عيسى كان على شريعة موسى عليهما السلام وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس وقال لبني إسرائيل إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة إلا لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وأضع عنكم الآصار وذلك إن الله تعالى كان قد حرم على اليهود بعض الأشياء عقوبة لهم على بعض ماصدر منهم من الخيانات كما قال تعالى «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» فبقي ذلك التحريم مستمرا على اليهود إلى أن جاء عيسى عليه السلام فرفع عنهم تلك التشديدات التي كانت عليهم وقال قتادة كان الذي جاء به عيسى الين من الذي جاء به موسى وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثروب والشحوم وأشياء من الطير والحيتان زاد بعضهم فجاءهم عيسى بالتخفيف وأحلها لهم وقال آخرون إن عيسى عليه السلام رفع كثيرا من أحكام التوراة ورفع السبت ووضع الأحد وكان ذلك كله بأمر الله فكان ذلك ناسخا لتلك الأحكام

يعني كل النفوس قوله تعالى (وجئتكم بآية من ربكم) يعني ماذكر من الآيات وإنما وحدها لأنها كلها جنس واحد في الدلالة على رسالته (فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فلما أحس عيسى) أي وجد قاله الفراء وقال أبو عبيدة عرف وقال مقاتل رأى (منهم الكفر) وأرادوا قتله استنصر عليهم (قال من أنصاري إلي الله) وقال السدي كان سبب ذلك أن عيسى عليه السلام لما بعثه الله تعالى إلى بني إسرائيل وأمره بالدعوة نفته بنو إسرائيل وأخرجوه فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض فنزل في قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان لتلك المدينة ملك جبار متعد فجاء ذلك الرجل يوما مهتما حزينا فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت لها مريم ماشأن زوجك أراه كئيبا قالت لاتسأليني قالت أخبريني لعل الله يفرج كربته قالت إن لنا ملكا يجعل على كل رجل منا يوما أن يطعمه وجنوده ويسقيهم الخمر فان لم يفعل عاقبه واليوم نوبتنا وليس لذلك عندنا سعة قالت فقولي له لايهتم فاني آمر ابني فيدعو له فيكفى ذلك فقالت مريم لعيسى عليه السلام في ذلك فقال عيسى إن فعلت ذلك وقع شر قالت فلانبالي فانه قد أحسن إلينا وأكرمنا فقال عيسى عليه السلام فقولي له إذا اقترب ذلك أن فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم اعلمني ففعل ذلك فدعا الله تعالى عيسى عليه السلام فتحول ماء القدور مرقا ولحما وماء الخوابي

والشرائع والناسخ والمنسوخ حق وصدق (وجئتكم بآية من ربكم) أي بحجة واضحة شاهدة على صحة رسالتي ثم خوفهم بقوله (فاتقوا الله) يعني يامعشر بني إسرائيل فيما أمركم به ونهاكم عنه (وأطيعون) يعني فيما أدعوكم إليه لأن طاعة الرسول من توابع تقوى الله وما أدعوكم إليه هو قولي (إن الله ربي وربكم فاعبدوه) لأن جميع الرسل كانوا على دين واحد وهو التوحيد ولم يختلفوا في الله تعالى وفي هذه الآية حجة بالغة على نصارى وفد نجران ومن قال بقولهم من سائر النصارى بأخبار الله عن عيسى عليه السلام أنه كان بريئا مما نسبه إليه النصارى وأنه كان عبد الله وخصه بنبوته ورسالته ثم ختم ذلك بقوله (هذا صراط مستقيم) يعني التوحيد. قوله عز وجل (فلما أحس عيسى منهم الكفر) أي وجد وعرف وقيل رأى والإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة والمعنى أنهم تكلموا بكلمة الكفر فأحس ذلك عيسى منهم وعرف إصرارهم عليه وعزمهم على قتله (ذكر سبب القصة) قال أهل الأخبار والسير لما بعث الله عيسى إلى بني إسرائيل وأمره باظهار رسالته والدعاء إليه نفوه وأخرجوه من بينهم فخرج هو وأمه يسيحان في الأرض فنزلا في قرية على رجل فأضافهما وأحسن إليهما وكان لتلك القرية ملك جبار معتد فجاء ذلك الرجل في بعض الأيام وهو مهموم حزين فدخل منزله ومريم عند امرأته فقالت مريم ماشأن زوجك أراه كئيبا حزينا فقالت لاتسأليني فقالت مريم أخبريني لعل الله أن يفرج كربته قالت المرأة إن لنا ملكا جبارا وقد جعل على كل رجل منا يوما يطعمه فيه هو وجنوده ويسقيهم الخمر وإن لم يفعل ذلك عاقبه واليوم نوبتنا وليس عندنا سعة لذلك فقالت لها قولي له لايهتم لذلك فأنا آمر ابني أن يدعو له فيكفى ذلك ثم قالت مريم لعيسى في ذلك فقال عيسى إن فعلت ذلك وقع شر فقالت مريم لانبالي فانه قد أحسن إلينا وأكرمنا فقال عيسى قولي له إذا قرب ذلك الوقت فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني ففعل الرجل ذلك ثم دعا الله عيسى عليه السلام فتحول ماء القدور مرقا ولحما وماء الخوابي خمرا لم تر الناس مثله فلما جاء الملك وأكل من ذلك الطعام وشرب من ذلك الخمر قال من أين لك هذا الخمر فقال الرجل هو من أرض كذا فقال الملك إن خمري من تلك الأرض وليست مثل هذه فقال هي من أرض أخرى فلما رآه الملك اختلط شدد عليه فقال الرجل إنا أخبرك أن عندي غلاما لايسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وأنه دعا الله تعالى فجعل الماء خمرا وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه في ملكه وقد مات قبل ذلك بأيام وكان يحبه حبا شديدا فقال الملك إن رجلا دعا الله تعالى حتى صار الماء خمرا بدعوته ليستجيبن له في إحياء ابني فطلب عيسى وكلمه في ذلك فقال له عيسى لاتفعل فانه إن عاش وقع شر فقال الملك لاأبالي اليس أراه فقال عيسى إن أنا أحييته تتركني أنا وأمي نذهب حيث نشاء قال نعم فدعا الله عيسى فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكة الرجل فقد عاش فبادروا إلى السلاح وقالوا قد أكلنا هذا الملك حتى إذا دنا أجله يريد أن يستخلف علينا ابنه ليأكلنا كما أكلنا أبوه فقاتلوه وظهر أثر عيسى فقصدوا قتله وكفروا به وقيل أن اليهود كانوا عارفين بأنه المسيح المبشر به في التوراة وأنه ينسخ دينهم فلما أظهر عيسى الدعوة اشتد ذلك عليهم فأخذوا في أذاه وطلبوا قتله وكفروا به فاستنصر عليهم كما أخبر الله عز وجل عنه بقوله (قال) يعني عيسى عليه السلام (من أنصاري إلى الله) أي مع الله وقيل معناه إلي

خمر لم ير الناس مثله قط فلما جاء الملك أكل فلما شرب الخمر قال من أين هذا الخمر قال من ارض كذا قال الملك فان خمرى من تلك الأرض وليست مثل هذه قال هي من أرض أخرى فلما خلط على الملك شدد عليه قال فأنا أخبرك عندى غلام لايسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وأنه دعا الله فجعل الماء خمرا ومرقا ولحما وكان للملك ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام وكان أحب الخلق إليه فقال إن رجلا دعا الله حتى جعل الماء خمرا ليجاء به إلى حتى يحيي ابنى ، فدعا عيسى فكلمه فى ذلك فقال عيسى لاتفعل فانه إن عاش وقع شر قال الملك لاأبالى أليس أراه حيا فقال عيسى إن أحييته تتركونى وأمى نذهب حيث نشاء قال نعم فدعا الله فعاش الغلام فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا إلى السلاح وقالوا أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكل أبوه فاقتتلوا فذهب عيسى وأمه فمر بالحواريين وهم يصطادون السمك فقال ماتصنعون فقالوا نصطاد السمك قال أفلا تمشون حتى نصطاد الناس قالوا من أنت قال عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله من أنصارى إلى الله فآمنوا به وانطلقوا معه قوله تعالى «من أنصارى إلى الله» . قال السدى وابن جريج مع الله تعالى تقول العرب الذود إلى الذود إبل أى مع الذود كما قال الله تعالى ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم أى مع أموالكم وقال الحسن وأبو عبيدة إلى بمعنى فى أى من أعوانى فى الله أى فى ذات الله وسبيله . وقيل إلى فى موضعها معناه من يضم نصرته إلى نصرة الله لى واختلفوا فى الحواريين . قال مجاهد والسدى كانوا صيادين يصطادون السمك سموا حواريين لبياض ثيابهم وقيل كانوا ملاحين وقال الحسن كانوا قصارين سموا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب أى يبيضونها وقال عطاء سلمت مريم عيسى عليه السلام إلى أعمال شتى فكان آخر مادفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين (٣٥٣) فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب وعرض له سفر فقال لعيسى إنك قد تعلمت هذه الحرفة وأنا خارج فى سفر ولا أرجع إلى عشرة أيام ، وهذه ثياب مختلفة الألوان وقد علمت كل واحد منها بخيط على اللون الذى يصبغ به فأحب أن تكون فارغا منها وقت قدومى وخرج فطبخ عيسى حبا واحدا على لون واحد وأدخل جميع الثياب وقال لها كونى باذن الله على ماأريد منك فقدم الحوارى والثياب كلها فى الحب فقال مافعلت فقال فرغت قال أين هى قال فى الحب قال كلها قال نعم قال لقد أفسدت تلك الثياب قال قم فانظر فأخرج عيسى ثوبا أحمر وثوبا أصفر وثوبا أخضر إلى أن أخرجها على الألوان التى أرادها فجعل الحوارى يتعجب ويعلم أن ذلك من الله فقال للناس تعالوا فانظروا فآمن به هو وأصحابه فهم الحواريون وقال الضحاك سموا حواريين لصفاء قلوبهم وقال ابن المبارك سموا به لما عليهم من أثر العبادة ونورها وأصل الحور عند العرب شدة البياض يقال رجل أحور وامرأة حوراء أى شديدة بياض العين وقال الكلبي وعكرمة الحواريون هم الأصفياء وهم كانوا أصفياء عيسى عليه السلام وكانوا اثنى عشر رجلا . قال روح بن أبى القاسم سألت قتادة عن الحواريين ؟ قال هم الذين تصلح لهم الخلافة وعنه أيضا أنه قال الحواريون هم الوزراء وقال الحسن الحواريون الأنصار والحوارى الناصر والحوارى فى كلام العرب، خاصة الرجل الذى يستعين به فيما ينوبه أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا الحميدى أخبرنا سفيان أخبرنا محمد بن المنكدر قال سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال النبى صلى الله عليه وسلم إن لكل نبى حواريا وحوارى الزبير . قال سفيان الحوارى الناصر قال معمر قال قتادة إن الحواريين كلهم من قريش أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وحمزة وجعفر وأبو عبيدة بن الجراح وعثمان بن مظعون وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضى الله عنهم أجمعين (قال الحواريون نحن أنصار الله) أعوان دين الله ورسوله

أن أبين أمر الله وأظهر دينه وقيل إلى بمعنى فى أى فى ذات الله وسبيله وقيل إلى فى موضعها والمعنى من يضم نصرته إلى نصرة الله لى (قال الحواريون نحن أنصار الله) وذلك أن عيسى عليه السلام لما دعا بنى إسرائيل إلى الله تعالى وتمردوا عليه وكفروا به خرج يسيح فى الأرض فمر بجماعة يصطادون السمك وكانوا اثنى عشر ورئيسهم شمعون ويعقوب فقال عيسى عليه السلام ماتصنعون قالوا نصيد السمك قال أفلا تمشون حتى نصيد الناس قالوا ومن أنت قال أنا عيسى بن مريم عبد الله ورسوله فسألوه آية تدلهم على صدقه وكان شمعون قد رمى بشبكته فى الماء فدعا الله عيسى فاجتمع فى تلك الشبكة من السمك ماكادت تتمزق من كثرته فاستعانوا بأهل سفينة أخرى

وملؤا السفينتين من السمك فعند ذلك آمنوا به وانطلقوا معه واختلف فى الحواريين فقيل كانوا يصطادون السمك فلما آمنوا بعيسى صاروا يصطادون الناس ويهدونهم إلى الدين ، سموا حواريين لبياض ثيابهم يقال حورت الشىء بمعنى بيضته وقيل كانوا قصارين سموا بذلك لأنهم كانوا يحورون الثياب أى يبيضونها وقيل إن مريم سلمت عيسى إلى أعمال شتى فكان آخر من سلمته إليه الحواريين وكانوا قصارين وصباغين فدفعته إلى رئيسهم ليتعلم منه فاجتمع عنده ثياب وعرض له سفر فقال لعيسى إنك قد تعلمت هذه الصنعة وأنا خارج إلى السفر ولا أرجع إلى عشرة أيام وهذه ثياب مختلفة الألوان وقد علمت كل واحد منها بخيط على اللون الذي يصبغ به فأريد أن تفرغ منها وقت وقدومى وخرج المعلم إلى سفره فطبخ عيسى حبا واحدا على لون واحد وأدخل فيه جميع الثياب وقال كونى باذن الله على ماأريد منك ثم قدم الحوارى والثياب كلها فى الحب فقال لعيسى مافعلت قال قد فرغت منها قال وأين هى قال فى الحب قال كلها قال نعم قال لقد أفسدت على الثياب قال عيسى لا ولكن قم فانظر وقام عيسى وأخرج ثوبا أحمر وثوبا أخضر وثوبا أصفر وثوبا أسود حتى أخرجها كلها على الألوان التى يريد الحوارى فجعل الحوارى يتعجب من ذلك وعلم أن ذلك من الله تعالى فقال للناس تعالوا فانظروا فآمن به هو وأصحابه وهم الحواريون وقيل سموا حواريين لصفاء قلوبهم ولما ظهر عليهم من أثر العبادة ونورها وقيل الحواريون الأصفياء وكانوا أصفياء عيسى وخاصته وقيل الحواريون هم الخلفاء وقيل هم الوزراء وكانوا خلفاء عيسى ووزراءه وقيل الحواريون هم الأنصار والحوارى الناصر والحوارى الرجل الذى يستعان به (ق) عن جابر بن عبد الله قال ندب النبى صلى الله عليه وسلم الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال النبى صلى الله عليه وسلم أن لكل نبى حواريا وحوارىّ الزبير قال الحواريون نحن أنصار الله يعنى أنصار دين الله ورسوله وأعوانه (آمنا بالله) أى صدقنا بأن الله ربنا ورب كل شىء (واشهد) يعنى أنت ياعيسى (بأنا مسلمون) قيل معناه واشهد بأنا منقادون لما تريد من نصرك والذب عنك ومستسلمون لأمر الله عز وجل وقيل هو إقرار منهم بأن دينهم الإسلام وأنه دين عيسى وكل الأنبياء قبله لا اليهودية والنصرانية (ربنا آمنا بما أنزلت) يعنى قال الحواريون بعد إشهاد عيسى عليهم بأنهم مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت يعنى بكتابك الذي أنزلته على عيسى عليه السلام (واتبعنا الرسول) يعنى عيسى (فاكتبنا مع الشاهدين) يعنى الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق واتبعوا أمرك ونهيك فأثبت أسماءنا مع أسمائهم واجعلنا فى عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به وهذا يقتضى أن يكون للشاهدين الذين سألوا الحواريون أن يكونوا معهم مزيد فضل عليهم فلهذا قال ابن عباس فى قوله فاكتبنا مع الشاهدين أى مع محمد صلى الله عليه وسلم وأمته لأنهم المخصوصون بتلك الفضيلة فانهم يشهدون للرسل بالبلاغ وقيل مع الشاهدين يعنى النبيين لأن كل نبى شاهد على أمته . قوله عز وجل (ومكروا) يعنى كفار بنى إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر وأصل المكر صرف الغير عما يقصده بضرب من الحيلة وقيل هو السعى بالفساد في الخفية فأما مكرهم بعيسى فانهم دبروا فى قتله وهو ابه وذاك أن عيسى عليه السلام بعد أن أخرجه قومه هو وأمه رجع مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة وأظهر رسالته إليهم فهموا بقتله والفتك به فذلك مكرهم والمكر من الخلق الخبث والخديعة والحيلة (ومكر الله) أى جازاهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء لأنه

في مقابلته

(آمنا بالله واشهد) ياعيسى (بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت) من كتابك (واتبعنا الرسول) عيسى (فاكتبنا مع الشاهدين) الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق وقال عطاء مع النبيين لأن كل نبى شاهد أمته وقال ابن عباس رضى الله عنهما مع محمد صلى الله عليه وسلم وأمته لأنهم يشهدون للرسل بالبلاغ قوله تعالى (ومكروا) يعنى كفار بنى إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر دبروا فى قتل عيسى عليه السلام وذلك أن عيسى عليه السلام بعد إخراج قومه إياه وأمه عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به فذلك مكرهم قال الله تعالى (ومكر الله

والله خير الماكرين) فالمكر من المخلوقين الخبث والخديعة والحيلة والمكر من الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لايعلم كما قال سنستدرجهم من حيث لايعلمون ؛ وقال الزجاج مكر الله عز وجل مجازاتهم على مكرهم فسمى الجزاء باسم الابتداء لأنه فى مقابلته كقوله تعالى الله يستهزئ بهم وهو خادعهم ومكر الله تعالى خاصة بهم فى هذه الآية وهو إلقاؤه الشبه على صاحبهم الذى أراد قتل عيسى عليه السلام حتى قتل . قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عيسى استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة وقذفوه وأمه فلما سمع ذلك عيسى عليه السلام منهم دعا عليهم ولعنهم فسخهم الله خنازير فلما رأى ذلك يهودا رأس اليهود وأميرهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى عليه السلام وساروا إليه ليقتلوه فبعث الله جبريل فأدخله فى خوخة فى سقفها روزنة فرفعه إلى السماء من تلك الروزنة فأمر يهودا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له ططيانوس أن يدخل الخوخة ويقتله فلما دخل غرفته لم ير عيسى فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام فلما خرج ظنوا أنه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه . قال وهب طرقوا عيسى فى بعض الليل ونصبوا خشبة ليصلبوه فأظلمت الأرض فأرسل الله الملائكة فحالت بينهم وبينه فجمع عيسى الحواريين تلك الليلة وأوصاهم ثم قال ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال لهم ماتجعلون لى إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه ولما دخل البيت ألقى الله

فى مقابلته وقيل مكر الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لايحتسب ومكر الله فى هذه الآية خاصة هو إلقاء الشبه على صاحبهم الذى دلهم على عيسى حين أرادوا قتله حتى قتل قال ابن عباس أن عيسى عليه السلام استقبل رهطا من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فقذفوه وأمه فلما سمع عيسى ذلك دعا عليهم ولعنهم فمسخوا خنازير فلما رأى ذلك يهودا رأس اليهود وملكهم فزع لذلك وخاف دعوته فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى وساروا إليه ليقتلوه فبعث الله عز وجل جبريل فأدخله خوخة فى سقفها روزنة فرفعه الله من تلك الروزنة وأمر يهودا ملك اليهود رجلا من أصحابه يقال له ططيانوس أن يدخل الخوخة فيقتله فيها فلما دخل لم ير عيسى وأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله فيها وألقى الله عليه شبه عيسى فلما خرج ظنوا أنه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه وقال وهب بن منبه إن اليهود طرقوا عيسى فى بعض الليل ونصبوا له خشبة ليصلبوه عليها فأظلمت الأرض وأرسل الله عز وجل الملائكة فحالت بينهم وبينه فجمع عيسى عليه السلام الحواريين تلك الليلة وأوصاهم وقال ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ويبيعنى بدراهم يسيرة فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأتى أحد الحواريين إلى اليهود وقال ماتجعلون لى إن دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلهم عليه فلما دخل البيت الذى فيه المسيح ألقى الله شبه عيسى عليه ورفع الله عيسى عليه السلام وأخذ الذى دل عليه فقال أنا الذى دللتكم عليه فلم يلتفتوا إلى قوله فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى فلما صلب الذى ألقى عليه شبه عيسى جاءت مريم وامرأة أخرى كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون بدعوته فجعلتا تبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى عليه السلام وقال على من تبكيان إن الله عز وجل قد رفعنى ولم يصبنى إلا خير وهذا شىء شبه لهم فلما كان بعد سبعة أيام قال الله تعالى لعيسى أهبط إلى مريم المجدلانية وهو اسم موضع نسبت إليه فانه لم يبك عليك أحد بكاءها ولم يحزن عليك أحد حزنها ثم لتجمع لك الحواريين فبثهم فى الأرض دعاة إلى الله عز وجل فأهبطه الله عز وجل إليها فاشتعل الجبل نورا حين هبط فجمعت له الحواريين فبثهم دعاة فى الأرض ثم رفعه الله فتلك الليلة التى تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون تكلم كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم فذلك قوله تعالى «ومكروا ومكر الله (والله خير الماكرين)» يعنى وهو أفضل المجازين بالسيئة العقوبة وقال السدى إن اليهود حبست عيسى عليه السلام فى بيت ومعه عشرة من الحواريين فدخل عليهم رجل منهم وكان قد نافق فألقى عليه شبه عيسى فأخذ وقتل وصلب وقال قتادة ذكر لنا أن نبى الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهى فانه مقتول فقال رجل منهم أنا يانبى الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى ورفعه إليه وكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وصار إنسيا ملكيا أرضيا سماويا قال أهل التاريخ حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدته ببيت لحم من أرض أورى شلم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل وأوحى الله

عليه شبه عيسى ورفع عيسى وأخذ الذى دلهم عليه فقال أنا الذى دللتكم عليه فلم يلتفتوا إلى قوله وقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى فلما صلب شبه عيسى جاءت مريم وامرأة كان عيسى دعا لها فأبرأها الله من الجنون تبكيان عند المصلوب فجاءهما عيسى عليه السلام فقال لهما علام تبكيان إن الله تعالى قد رفعنى ولم يصبنى إلا خير وإن هذا شيء شبه لهم فلما كان بعد سبعة أيام قال الله عز وجل لعيسى عليه السلام اهبط على مريم المجدلانية اسم موضع فى جبلها فانه لم يبك أحد عليك بكاءها ولم يحزن عليك أحد حزنها

وليجتمع لك الحواريون فبثهم فى الأرض دعاة إلى الله عز وجل فأهبطه الله عليها فاشتعل الجبل حين هبط نورا فجمعت له الحواريون فبثهم فى الأرض دعاة ثم رفعه الله عز وجل إليه وتلك الليلة هى التى تدخن فيها النصارى فلما أصبح الحواريون حدث كل واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم فذلك قوله تعالى ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين. وقال السدى إن اليهود حبسوا عيسى فى بيت وعشرة من الحواريين فدخل عليهم رجل منهم ليقتله فألقى الله عليه شبهه وقال قتادة ذكر لنا أن نبى الله عيسى عليه السلام قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهي فانه مقتول فقال رجل من القوم أنا يانبى الله فقتل ذلك الرجل ومنع الله عيسى عليه السلام ورفعه إليه وكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش وصار إنسيا ملكيا سمائيا أرضيا. قال أهل التاريخ حملت مريم بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وولدت عيسى ببيت لحم من أرض أورى شلم لمضى خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على أرض بابل فأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من شهر رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين فتوفيت مريم عليها السلام وهى بنت اثنين وخمسين سنة (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى) اختلفوا فى معنى التوفى ههنا قال الحسن والكلبى وابن جريج إنى قابضك ورافعك من الدنيا إلى من غير

إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين. قوله عز وجل (إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى) اختلفوا فى معنى التوفى هنا على طريقين: فالطريق الأول أن الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير وذكروا فى معناها وجوها: الأول معناه أنى قابضك ورافعك إلى من غير موت من قولهم توفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته وقبضته تاما والمقصود منه هنا أن لا يصل أعداؤه من اليهود إليه بقتل ولا غيره. الوجه الثانى أن المراد بالتوفى النوم ومنه قوله عز وجل الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فجعل النوم وفاة وكان عيسى قد نام فرفعه الله وهو نائم لئلا يلحقه خوف فمعنى الآية إنى منيمك ورافعك إلى. الوجه الثالث أن المراد بالتوفى حقيقة الموت، قال ابن عباس معناه إنى مميتك قال وهب بن منبه أن الله توفى عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ثم رفعه إليه وقيل أن النصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه إليه. الوجه الرابع أن الواو فى قوله ورافعك إلى لا تفيد الترتيب والآية تدل على أن الله تعالى يفعل به ما ذكر فأما كيف يفعل ومتى يفعل فالأمر فيه موقوف على الدليل وقد ثبت فى الحديث أن عيسى سينزل ويقتل الدجال وسنذكره إن شاء الله تعالى. الوجه الخامس قال أبو بكر الواسطى معناه إنى متوفيك عن شهواتك وعن حظوظ نفسك ورافعك إلى ذلك أن عيسى عليه السلام لما رفع إلى السماء صارت حالته حالة الملائكة فى زوال الشهوة. الوجه السادس أن معنى التوفى أخذ الشيء وافيا ولما علم الله تعالى أن من الناس من يخطر بباله أن الذى رفعه الله إليه هو روحه دون جسده كما زعمت النصارى أن المسيح رفع لاهوته يعنى روحه وبقى فى الأرض ناسوته يعنى جسده فرد الله عليهم بقوله إنى متوفيك ورافعك إلى فأخبر الله تعالى أنه رفع بتمامه إلى السماء بروحه وجسده جميعا الطريق الثانى أن فى الآية تقديما وتأخيرا تقديره إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك إلى الأرض وقيل لبعضهم هل تجد نزول عيسى إلى الأرض فى القرآن قال نعم قوله تعالى وكهلا وذلك لأنه لم يكتهل فى الدنيا وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء (ق) عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد زاد فى رواية حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها ثم يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته وفى رواية

كيف

وت يدل عليه قوله تعالى فلما توفيتنى اى قبضتنى إلى السماء وانا حى لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه لا بعد موته فعلى هذا للتوفى تأويلان أحدهما إنى رافعك إلى وافيا لم ينالوا منك شيئا من قولهم توفيت منه كذا وكذا واستوفيته إذا أخذته تاما والآخر إنى متسلمك من قولهم توفيت منه كذا أى تسلمته وقال الربيع بن أنس المراد بالتوفى النوم وكان عيسى قد نام فرفعه الله نائما إلى السماء معناه أنى منيمك ورافعك إلى كما قال الله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل أى ينيمكم بالليل ؛ وقال بعضهم المراد بالتوفى الموت وروى على بن طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن معناه إنى مميتك يدل عليه قوله تعالى قل يتوفاكم ملك الموت فعلى هذا له تأويلان : أحدهما ماقاله وهب توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ثم رفعه الله إليه وقال محمد بن إسحاق إن النصارى يزعمون أن الله تعالى توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه إليه

والآخر ماقاله الضحاك وجماعة إن فى هذه الآية تقديما وتأخيرا معناه إنى رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا عبد الرحمن ابن أبى شريح أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى أخبرنا على بن الجعد أخبرنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال والذى نفس محمد بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ويروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى نزول عيسى عليه السلام ؟ قال وتهلك فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويهلك الدجال فيمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون وقيل للحسين بن الفضل هل تجد نزول عيسى فى القرآن قال نعم قوله وكهلا وهو لم يكتهل فى الدنيا وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء قوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) أى مخرجك من بينهم ومنجيك منهم (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) قال قتادة والربيع والشعبى ومقاتل والكلبى هم أهل الإسلام الذين صدقوه واتبعوا دينه فى التوحيد من أمة محمد ﷺ فهو فوق الذين كفروا ظاهرين قاهرين بالعزة والمنعة والحجة وقال الضحاك يعنى الحواريين فوق الذين كفروا وقيل هم أهل الروم وقيل أراد بهم النصارى أى فهم فوق اليهود إلى يوم القيامة فان اليهود قد ذهب ملكهم وملك النصارى دائم إلى قريب من قيام الساعة فعلى هذا يكون الاتباع بمعنى الادعاء والمحبة لا اتباع الدين (ثم إلى مرجعكم) فى الآخرة (فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون)

كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم وفى رواية فأمكم منكم قال ابن أبى ذؤيب تدرى ما أمكم منكم قلت فأخبرنى قال فامكم كتاب ربكم عز وجل وبسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم وفى إفراد مسلم من حديث النواس بن سمعان قال فبينما هم كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق ، عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس بينى وبينه يعنى عيسى نبى وأنه نازل فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله الملل فى زمانه كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ثم يمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون أخرجه أبو داود ونقل بعضهم أن عيسى عليه السلام يدفن فى حجرة رسول الله ﷺ فيقوم أبو بكر وعمر يوم القيامة بين نبيين محمد وعيسى عليهما السلام . قوله عز وجل (ومطهرك من الذين كفروا) يعنى مخرجك من بينهم ومنجيك منهم (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) يعنى وجاعل الذين اتبعوك فى التوحيد وصدقوا قولك وهم أهل الإسلام من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فوق الذين كفروا بالعز والنصر والغلبة بالحجة الظاهرة وقيل هم الحواريين الذين اتبعوا عيسى على دينه وقيل هم النصارى فهم فوق اليهود وذلك لأن ملك اليهود قد ذهب ولم يبق لهم مملكة وملك النصارى باق فعلى هذا القول يكون الإتباع بمعنى المحبة والإدعاء لا اتباع الدين لأن النصارى وإن أظهروا متابعة عيسى عليه السلام فهم أشد مخالفة له وذلك أن عيسى عليه السلام لم يرض بما هم عليه من الشرك والقول الأول هو الأصح لأن الذين اتبعوه هم الذين شهدوا له بأنه عبد الله ورسوله وكلمته وهم المسلمون وملكهم باق إلى يوم القيامة (ثم إلى مرجعكم) يعنى يقول الله عز وجل إلى مرجع الفريقين فى الآخرة الذين اتبعوا عيسى وصدقوا به والذين كفروا به (فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) يعنى من

من الدين وأمر عيسى (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا) بالقتل والسبى والجزية والذلة (والآخرة) أى وفى الآخرة بالنار (وما لهم من ناصرين (٣٥٨) وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) قرأ ورش والحسن وحفص بالياء والباقون بالنون أى يوفيهم أجور أعمالهم (والله لا يحب الظالمين) أى لا يرحم الكافرين ولا يثنى عليهم بالجميل (ذلك) أى هذا الذى ذكرته لك من الخبر عن عيسى ومريم والحواريين (نتلوه عليك) يعنى نخبرك به بتلاوة جبريل عليك (من الآيات والذكر الحكيم) يعنى القرآن والذكر ذى الحكمة وقال مقاتل الذكر الحكيم أى المحكم الممنوع من الباطل وقيل الذكر الحكيم هو اللوح المحفوظ وهو معلق بالعرش من درة بيضاء وقيل من الآيات أى من العلامات الدالة على نبوتك لأنها أخبار لا يعلمها إلا قارئ كتاب الله أو من يوحى إليه وأنت أمى لا تقرأ (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) الآية نزلت فى وفد نجران ، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ مالك تشتم صاحبنا قال وما أقول قالوا تقول إنه عبد الله قال أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فغضبوا وقالوا هل رأيت إنسانا قط من غير أب فأنزل الله تعالى هذه الآية إن مثل عيسى عند الله فى كونه خلقه من غير أب كمثل آدم لأنه خلق من غير أب وأم (خلقه من تراب ثم قال له) يعنى لعيسى عليه السلام (كن

الحق فى أمر عيسى ثم بين ذلك الحكم فقال تعالى (فأما الذين كفروا) الذين جحدوا نبوة عيسى وخالفوا ملته وقالوا فيه ماقالوا من الباطل ووصفوه بما لا ينبغى من سائر اليهود والنصارى (فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا) يعنى بالقتل والسبى والذلة وأخذ الجزية منهم (والآخرة) أى وأعذبهم فى الآخرة بالنار (وما لهم من ناصرين) يعنى ما نعين يمنعونهم من عذابنا (وأما الذين آمنوا) يعنى بعيسى عليه السلام وصدقوا بنبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته (وعملوا الصالحات) يعنى عملوا بما فرضت عليهم وشرعت لهم (فيوفيهم أجورهم) يعنى جزاء أعمالهم لا ينقص منه شىء (والله لا يحب الظالمين) أى لا يحب من ظلم غيره حقا له أو وضع شيئاً فى غير موضعه والمعنى أنه تعالى لا يرحمهم ولا يثنى عليهم بجميل ثم قال تعالى (ذلك) يعنى الذى ذكرته لك من أخبار عيسى وأمه مريم والحواريين وغير ذلك من القصص (نتلوه عليك) أى نخبرك به يا محمد على لسان جبريل وإنما أضاف ما يتلوه جبريل عليه السلام إلى نفسه سبحانه وتعالى لأنه من عنده وبأمره من غير تفاوت أصلا فاضافه إليه (من الآيات) يعنى من القرآن وقيل الآيات يعنى العلامات الدالة على نبوتك يا محمد لأنها أخبار لا يعلمها إلا من يقرأ ويكتب أو نبى يوحى إليه وأنت أمى لا تقرأ ولا تكتب فثبت أن ذلك من الوحى السماوى الذى أنزل عليك (والذكر الحكيم) أى المحكم الممنوع من الباطل قيل المراد من الذكر الحكيم القرآن لأنه حاكم يستفاد منه . جميع الأحكام وقيل الذكر الحكيم هو اللوح المحفوظ الذى منه تنزلت جميع كتب الله على رسله وهو لوح من درة بيضاء معلق بالعرش. قوله عز وجل (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) الآية أجمع أهل التفسير أن هذه الآية نزلت فى محاجة نصارى وفد نجران قال ابن عباس أن رهطا من أهل نجران قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ما شأنك تذكر صاحبنا فقال من هو قالوا عيسى تزعم أنه عبد الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم أجل أنه عبد الله فقالوا له فهل رأيت له مثلا أو أنبئت به ثم خرجوا من عنده فجاءه جبريل عليه السلام فقال قل لهم إذا أتوك إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب وقيل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول فغضبوا وقالوا يا محمد هل رأيت إنسانا قط من غير أب فأنزل الله تعالى « إن مثل عيسى عند الله » أى فى الخلق والإنشاء فى كونه خلقه من غير أب كمثل آدم فى كونه خلقه من تراب من غير أب وأم ومعنى الآية أن صفة خلق عيسى من غير أب كصفة آدم فى كونه خلقه من تراب لا من أب وأم فمن أقر بأن الله خلق آدم من التراب اليابس وهو أبلغ فى القدرة فلم لا يقر بأن الله خلق عيسى من مريم من غير أب بل الشأن فى خلق آدم أعجب وأغرب وتم الكلام عند قوله كمثل آدم لأنه تشبيه كامل ثم قال تعالى خلقه من تراب فهو خبر مستأنف على جهة التفسير لحال خلق آدم فى كونه خلقه من تراب أى قدره جسدا من طين (ثم قال له كن) أى أنشأه خلقا بالكلمة وكذلك عيسى أنشأه خلقا بالكلمة فعلى هذا القول ذكروا فى الآية إشكالا وهو أنه تعالى قال خلقه من تراب ثم قال له كن فهذا يقتضى أن يكون خلق آدم

متقدما

فيكون) يعنى فكان فان قيل مامعنى قوله خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون خلقا ولاتكوين بعد الخلق قيل معناه خلقه
ثم أخبركم أنى قلت له كن فكان من غير ترتيب فى الخلق كما يكون فى الولادة وهو مثل قول الرجل أعطيتك
اليوم درهما ثم أعطيتك أمس درهما أى ثم أخبرك أنى أعطيتك أمس درهما وفيما سبق من التمثيل دليل على جواز القياس لأن القياس هو رد فرع إلى أصل بنوع شبه، وقد رد الله تعالى خلق عيسى إلى آدم عليهم السلام بنوع شبه قوله تعالى (الحق من ربك) أى هو الحق وقيل جاءك الحق من ربك (فلا تكن من الممترين) أى الشاكين الخطاب مع النبي ﷺ والمراد أمته قوله عز وجل (فمن حاجك فيه) أى جادلك فى أمر عيسى وفى الحق (من بعد ما جاءك من العلم) بأن عيسى عبد الله ورسوله (فقل تعالوا) أصله تعاليوا تفاعلوا من العلو فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت قال الفراء بمعنى تعال كأنه يقول ارتفع (ندع) جزم لجواب الأمر وعلامة الجزم سقوط الواو (أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) قيل أبناءنا أراد الحسن والحسين ونساءنا
فاطمة وأنفسنا عنى نفسه وعليا رضى الله عنه والعرب تسمى ابن عم الرجل نفسه كما قال الله تعالى ولا تلمزوا أنفسكم يريد إخوانكم
وقيل هو على العموم لجماعة أهل الدين (ثم نبتهل) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى نتضرع فى الدعاء وقال الكلبى نجتهد
ونبالغ فى الدعاء وقال الكسائى وأبو عبيدة نبتهل والابتهال الالتعان يقال عليه بهلة الله أى لعنته (فنجعل لعنة الله على الكاذبين)

متقدما على قوله كن ولا تكوين بعد الخلق . وأجيب عن هذا الإشكال بأن الله تعالى أخبر
بأنه خلقه من تراب لا من ذكر وأنثى ثم ابتدأ خبرا آخر فقال إنى أخبركم أيضا أنى قلت له
كن فكان من غير ترتيب فى الخلق كما يكون فى الولادة ويحتمل أن يكون المراد أنه تعالى
خلقه جسدا من تراب ثم قال له كن بشرا فكان يصح النظم وقيل الضمير فى قوله كن يرجع
إلى عيسى عليه السلام وعلى هذا فلا إشكال فى الآية . فان قلت كيف شبه عيسى عليه السلام
بآدم عليه السلام وقد وجد عيسى من غير أب ووجد آدم من غير أب ولا أم . قلت هو
مثله فى أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة
مشاركة فى بعض الأوصاف ولأنه شبه به فى أنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة
وهما فى ذلك نظيران لأن الوجود من غير أب وأم أغرب فى العادة من الوجود من غير أب
فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه
وحكى أن بعض العلماء أسر فى بعض بلاد الروم فقال لهم لم تعبدون عيسى قالوا لأنه
لا أب له قال فآدم أولى لأنه لا أب له ولا أم قالوا وكان يحيي الموتى فقال حزقيل أولى لأن
عيسى أحيا أربعة نفر وأحيا حزقيل أربعة آلاف قالوا وكان يبرئ الأكمه والأبرص قال
فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق ثم قام سليما وقوله كن (فيكون) قال ابن عباس معناه كن
فكان فأريد بالمستقبل الماضى وقيل معناه ثم قال له كن واعلم يا محمد أن ما قال له ربك كن
فانه يكون لا محالة (الحق من ربك) الذى أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو الحق من ربك
(فلا تكن من الممترين) أى من الشاكين إن ذلك كذلك وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
والمراد به أمته لأنه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط فهو كقوله تعالى يا أيها النبي إذا طلقتم النساء
والمعنى فلا تكن من الممترين يا أيها السامع كائنا من كان لهذا التمثيل والبرهان الذى ذكر فهو من
باب التهييج لزيادة الثبات والطمأنينة . قوله عز وجل (فمن حاجك فيه) أى فمن جادلك فى عيسى
وقيل فى الحق (من بعد ما جاءك من العلم) يعنى بأن عيسى عبد الله ورسوله (فقل تعالوا) أى هلموا
والمراد منه المجيء وأصله من العلو بالرأى والعزم كما تقول تعال نتفكر هذه المسئلة (ندع أبناءنا
وأبناءكم) أى يدع كل منا ومنكم أبناءه (ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) قيل أراد بالأبناء
الحسن والحسين وبالنساء فاطمة وبالنفس نفسه صلى الله عليه وسلم وعليا رضى الله عنه وقيل هو
على العموم لجماعة أهل الدين (ثم نبتهل) قال ابن عباس نتضرع فى الدعاء وقيل معناه نجتهد ونبالغ
فى الدعاء وقيل معناه نلتعن والابتهال الالتعان يقال عليه بهلة الله أى لعنة الله (فنجعل لعنة الله على
الكاذبين) يعنى منا ومنكم فى أمر عيسى قال المفسرون لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه
الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر فى أمرنا ثم نأتيك غدا فلما خلا
بعضهم ببعض قالوا للعاقب وكان كبيرهم وصاحب رأيهم ما ترى يا عبد المسيح قال لقد عرفتم
يا معشر النصارى أن محمدا نبي مرسل ولئن فعلتم ذلك لتهلكن فان أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه
من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

لنا ومنكم في أمر عيسى فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران ودعاهم إلى المباهلة قالوا حتى نرجع
وننظر في أمرنا ثم نأتيك غدا فخلا بعضهم ببعض فقالوا للعاقب وكان ذا رأيهم ياعبد المسيح ماترى قال والله لقد عرفتم
يامعشر النصارى أن محمدا نبي مرسل والله ما لاعن قوم نبيا قط فعاش كبيرهم ونبت صغيرهم ولئن فعلتم ذلك لتهلكن فان
أبيتم إلا الإقامة على ماأنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فأتوا رسول الله
ﷺ وقد غدا رسول الله ﷺ محتضنا للحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفها وهو يقول لهم إذا أنا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يامعشر النصارى إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا أن لانلاعنك وأن نتركك على دينك ونثبت على ديننا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فان أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ماللمسلمين وعليكم ماعليهم فأبوا فقال فاني أنابذكم فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكنا نصالحك على أن لاتغزونا ولاتخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة ألفا في صفر وألفا في
رجب فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال والذي نفسي بيده إن العذاب قد تدلى قوله
على أهل نجران ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي نارا ولاستأصل الله نجران واهله حتى الطير
على الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا قال الله تعالى (إن هذا لهو القصص الحق) النبأ الحق (ومامن إله
إلا الله) ومن صلة تقديره ومااله إلا الله (وإن الله لهو العزيز الحكيم فان تولوا) أعرضوا عن الإيمان (فان الله عليم بالمفسدين)

وقد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي يمشي خلفها والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم إذا دعوت فأمنوا فلما رآهم أسقف نجران قال يامعشر النصارى إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا لأزاله من مكانه فلاتبتهلوا فتهلكوا ولايبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة فقالوا ياأبا القاسم قد رأينا أن لانباهلك وأن نتركك على دينك وتتركنا على ديننا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فان أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ماللمسلمين وعليكم ماعليهم فأبوا ذلك فقال إني أناجز فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ولكنا نصالحك على أن لاتغزونا ولاتخيفنا ولا تردنا عن ديننا وأن نؤدي إليك في كل سنة ألفي حلة ألف في صفر وألف في رجب زاد في رواية وثلاثا وثلاثين درعا عادية وثلاثة وثلاثين بعيرا وأربعا وثلاثين فرسا غازية فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك وقال والذي نفسي بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا . فان قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا لتبيين الصادق من الكاذب منه ومن خصمه وذلك يختص به وبمن يباهله فما معنى ضم الأبناء والنساء في المباهلة . قلت ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه فلذلك ضمهم في المباهلة ولم يقتصر على تعريض نفسه لذلك وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك استئصال إن تمت المباهلة وإنما خص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلب وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل وإنما قدمهم في الذكر على النفس لينبه بذلك على لطف مكانهم وقرب منزلتهم وفيه دليل قاطع وبرهان واضح على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم لم يرو أحد من موافق ومخالف أنهم أجابوا إلى المباهلة لأنهم عرفوا صحة نبوته وما يدل عليها في كتبهم . قوله تعالى (إن هذا) يعني الذي قص عليك يامحمد من خبر عيسى عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله (لهو القصص الحق) وأصله من القصص وهو تتبع الأثر والقصص الخبر الذي تتابع فيه المعاني (وما من إله إلا الله) إنما دخلت من لتوكيد النفي والمعنى أن عيسى ليس بآله كما زعمت النصارى ففيه رد عليهم ونفي جميع من ادعى من المشركين أنهم آلهة وإثبات الإلهية لله تعالى وحده لاشريك له في الإلهية (وإن الله لهو العزيز) أي الغالب المنتقم ممن عصاه وخالف أمره وادعى معه إلها آخر (الحكيم) يعني في تدبيره وفيه رد على النصارى لأن عيسى لم يكن كذلك (فان تولوا) يعني فان أعرضوا عن الإيمان ولم يقبلوه (فان الله عليم بالمفسدين) أي الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غيره وفيه وعيد وتهديد لهم.

الذين يعبدون غير الله ويدعون الناس إلى عبادة غير الله (قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) الآية قال المفسرون قدم وفد نجران المدينة فالتقوا مع اليهود فاختصموا فى إبراهيم عليه السلام فزعمت النصارى أنه كان نصرانيا وهم على دينه وأولى الناس به وقالت اليهود بل كان يهوديا وهم على دينه وأولى الناس به فقال لهم رسول الله ﷺ كلا الفريقين برئ من إبراهيم ودينه بل كان حنيفا مسلما وأنا على دينه وأولى الناس به فاتبعوا دينه الإسلام فقالت اليهود يامحمد ماتريد إلا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى ربا وقالت النصارى يامحمد ماتريد إلا أن نقول فيك ماقالت اليهود فى عزير فأنزل الله تعالى «قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة» والعرب تسمى كل قصة لها شرح كلمة ومنه سميت القصيدة كلمة سواء عدل بيننا وبينكم مستوية أى أمر مستو يقال دعا فلان إلى السواء أى إلى النصفة، وسواء كل شيء وسطه ومنه قوله تعالى فرآه فى سواء الجحيم وإنما قيل للنصفة سواء لأن أعدل الأمور وأفضلها أوسطها، سواء (٣٦١) نعت لكلمة إلا أنه مصدر والمصدر لايثنى ولايجمع ولا يؤنث فاذا فتحت السين مددت وإذا كسرت أو ضممت قصرت كقوله تعالى «مكانا سوى» ثم فسر الكلمة فقال (أن لانعبد إلا الله) ومحل إن رفع على إضمار هى وقال الزجاج رفع بالابتداء وقيل محله نصب بنزع حرف الصلة معناه بأن لانعبد إلا الله وقيل محله خفض بدلا من الكلمة أى تعالوا إلى كلمة أن لانعبد إلا الله (ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) كما فعلت اليهود والنصارى قال الله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله»، وقال عكرمة هو سجود بعضهم لبعض أى لانسجد لغير الله وقيل معناه لانطيع أحدا فى معصية الله (فان تولوا فقولوا اشهدوا) أى فقولوا أنتم ياأمة محمد صلى الله عليه وسلم لهم اشهدوا (بأنا مسلمون) مخلصون بالتوحيد أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو اليمان الحكم بن نافع أخبرنا شعيب عن الزهرى أخبرنا عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهو بإيلياء فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث به مع دحية بن خليفة الكلبي وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصري فدفعه إلى هرقل فقرأه فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله

لهم. قوله عز وجل (قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) قال المفسرون لما قدم وفد نجران المدينة اجتمعوا باليهود واختصموا في إبراهيم صلى الله عليه وسلم فزعمت النصارى أنه كان نصرانيا وهم على دينه وأولى الناس به وقالت اليهود بل كان يهوديا وهم على دينه وأولى الناس به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا الفريقين برىء من إبراهيم ودينه بل كان حنيفا مسلما وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام فقالت اليهود ماتريد إلا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى ربا وقالت النصارى يامحمد ماتريد إلا أن نقول فيك ماقالت اليهود فى عزير فأنزل الله عزوجل قل ياأهل الكتاب تعالوا أى هلموا إلى كلمة يعنى فيها انصاف ولاميل فيها لأحد على صاحبه والعرب تسمى كل قصة أو قصيدة لها أول وآخر وشرح كلمة سواء أى عدل لايختلف فيها التوراة والإنجيل والقرآن وتفسير الكلمة قوله (أن لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) وذلك أن النصارى عبدوا غير الله وهو المسيح وأشركوا به وهو قولهم أب وابن وروح القدس فجعلوا الواحد ثلاثة واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله وذلك أنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الشرك ويسجدون لهم فهذا معنى اتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله فثبت أن النصارى قد جمعوا بين هذه الثلاثة أشياء ومعنى الآية قل يامحمد لليهود والنصارى هلموا إلى أمر عدل نصف وهو أن لانقول عزير ابن الله ولانقول المسيح ابن الله لأن كل واحد منهما بشر مخلوق مثلنا ولانطيع أحبارنا ورهباننا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ماشرع ولايسجد بعضنا لبعض لأن السجود لغير الله حرام فلا نسجد لغير الله وقيل معناه ولا نطيع أحدا فى معصية الله (فان تولوا) يعنى فان أعرضوا عما أمرتهم به (فقولوا) أنتم لهؤلاء (اشهدوا بأنا مسلمون) أى مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له (ق) عن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ ماد فيها أباسفيان

ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم إسلم يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فانما عليك إثم الأريسين «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» قوله تعالى (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم) تزعمون أنه كان على دينكم وإنما دينكم اليهودية والنصرانية وقد حدثت اليهودية بعد نزول التوراة والنصرانية بعد نزول الإنجيل (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) أي بعد إبراهيم بزمان طويل وكان بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفا سنة (أفلا تعقلون) بطلان قولكم قوله تعالى (ها أنتم) بتليين الهمزة حيث كان مدني وأبو عمرو والباقون بالهمزة واختلفوا في أصله فقال بعضهم أصله أنتم وهاء تنبيه، وقال الأخفش أصله أأنتم فقلبت الهمزة الأولى هاء كقولهم هرقت الماء وأرقت (هؤلاء) أصله أولاء دخلت عليه هاء التنبيه وهو موضع النداء يعني ياهؤلاء أنتم (حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) يعني في أمر موسى وعيسى وادعيتم أنكم على دينهما وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم وليس في كتابكم أنه كان يهوديا أو نصرانيا وقيل حاججتم فيما لكم به علم يعني في أمر محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم وجدوا نعته في كتابهم فجادلوا فيه بالباطل فلم تحاجون في إبراهيم وليس في كتابكم ولا

وكفار قريش فأتوه وهو بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به مع دحية الكلبي إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك أثم اليريسين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون لفظ الحديث أحد روايات البخاري وقد أخرجه بأطول من هذا وفيه زيادة قوله اليريسين وفي رواية الاريسين والاريس الأكار وهو الزراع والفلاح وقيل هم أتباع عبد الله ابن أريس رجل كان في الزمن الأول بعثه الله فخالفه قومه وقيل هم الأروسيون وهم نصارى أتباع عبد الله بن أروس وهم الأروسة وقيل هم الأريسون بضم الهمزة وهم الملوك الذين يخالفون أنبياءهم وقيل هم المتبخترون وقيل هم اليهود والنصارى الذين صدتهم عن الإسلام واتبعوك على كفرك . قوله عز وجل (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم) قال ابن عباس اجتمع عند النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وأحبار اليهود فتنازعوا عنده فقالت الأحبار ما كان إبراهيم إلا يهوديا وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانيا فأنزل الله فيهم يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) ومعنى الآية اليهود والنصارى لما اختصموا عند رسول الله ﷺ في شأن إبراهيم عليه السلام وادعت كل طائفة أنه كان منهم وعلى دينهم فبرأ الله عز وجل إبراهيم مما ادعوا فيه وأخبر أن اليهودية والنصرانية إنما حدثا بعد نزول التوراة والإنجيل وإنما نزلا بعد إبراهيم بزمان طويل فكان بين إبراهيم وبين موسى ونزول التوراة عليه خمسمائة سنة وخمسة وسبعون سنة وبين موسى وعيسى ألف وستمائة واثنتان وثلاثون سنة وقال ابن إسحاق كان بين إبراهيم وموسى خمسمائة سنة وخمس وستون سنة وبين موسى وعيسى ألف سنة وتسعمائة وعشرون سنة وأورد على هذا التأويل أن الإسلام أيضا إنما حدث بعد إبراهيم وموسى وعيسى بزمان طويل وكذلك إنزال القرآن إنما نزل بعد التوراة والإنجيل فكيف يصح ما ادعيتم في إبراهيم أنه كان حنيفا مسلما وأجيب عنه بأن الله عز وجل أخبر في القرآن بأن إبراهيم كان حنيفا مسلما وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا فصح وثبت ما ادعاه المسلمون وبطل ما ادعاه اليهود والنصارى وهو قوله تعالى (أفلا تعقلون) يعني بطلان قولكم يا معشر اليهود والنصارى حتى لا تجادلوا مثل هذا الجدال المحال (ها أنتم هؤلاء) ها للتنبيه وهو موضع النداء يعني يا هؤلاء والمراد بهم أهل الكتابين يعني يا معشر اليهود والنصارى (حاججتم) أي جادلتم وخاصمتم (فيما لكم به علم) يعني فيما وجدتم في كتبكم وأنزل عليكم بيانه في أمر موسى وعيسى وادعيتم أنكم على دينهما وقد أنزلت التوراة والإنجيل عليكم (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) يعني أنه ليس في كتابكم أن إبراهيم كان يهوديا

علم لكم به (والله يعلم وأنتم لاتعلمون) ثم برأ الله تعالى إبراهيم عما قالوا فقال (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) والحنيف المائل عن الأديان إلى الدين المستقيم وقيل الحنيف الذى يوحد ويحج ويضحى ويختتن ويستقبل الكعبة وهو أسهل الأديان وأحبها إلى الله عز وجل قوله تعالى (إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه) أى من اتبعه فى زمانه وملته بعده (وهذا النبى) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (والذين آمنوا) يعنى من هذه الأمة (والله ولى المؤمنين) روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ورواه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب باسناده حديث هجرة الحبشة لما هاجر جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه وأناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة واستقرت بهم الدار وهاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وكان من أمر بدر ما كان اجتمعت قريش فى دار الندوة وقالوا إن لنا فى الذين هم عند النجاشى من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثأرا ممن قتل منكم ببدر فاجمعوا مالا وأهدوه إلى النجاشى لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم ولينتدب لذلك رجلان من ذوى رأيكم ، فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد أو عمارة بن أبى معيط مع الهدايا الأدم وغيره فركبا البحر وأتيا الحبشة فلما دخل على النجاشى سجدا له وسلما عليه وقالا له إن قومنا لك ناصحون شاكرون ولأصحابك محبون

يهوديا أو نصرانيا (والله يعلم) يعنى ما كان إبراهيم عليه من الدين (وأنتم لاتعلمون) يعنى ذلك والمعنى وأنتم جاهلون بما تقولون فى إبراهيم ثم برأه الله عز وجل عما قالوا فيه وأعلمهم أن إبراهيم برىء من دينهم فقال تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا) يعنى لم يكن كما ادعوه فيه ثم وصفه بما كان عليه من الدين فقال تعالى (ولكن كان حنيفا مسلما) يعنى مائلا عن الأديان كلها إلى الدين المستقيم وهو الإسلام وقيل الحنيف الذى يوحد ويختتن ويضحى ويستقبل الكعبة فى صلاته وهو أحسن الأديان وأسهلها وأحبها إلى الله عز وجل (وما كان من المشركين) يعنى الذين يعبدون الأصنام وقيل فيه تعريض بكون النصارى مشركين لقولهم بالهية المسيح وعبادتهم له . قوله عز وجل (إن أولى الناس بابراهيم) يعنى أخصهم به وأقربهم منه (للذين اتبعوه) يعنى الذين كانوا فى زمانه وآمنوا به واتبعوا شريعته (وهذا النبى) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (والذين آمنوا) يعنى هذه الأمة الإسلامية (والله ولى المؤمنين) يعنى بالنصر والمعونة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ إن لكل نبى ولاة من النبيين وإن وليى أبى وخليل ربى إبراهيم ثم قرأ إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين أخرجه الترمذى وروى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ورواه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب باسناده حديث هجرة الحبشة قال لما هاجر جعفر بن أبى طالب وأناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة واستقرت بهم الدار وهاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وكان من أمر بدر ما كان اجتمعت قريش فى دار الندوة وقالوا إن لنا فى الذين عند النجاشى من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثأرا ممن قتل منكم ببدر فأجمعوا مالا وأهدوه إلى النجاشى لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم ولينتدب لذلك رجلان من ذوى رأيكم فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن أبى معيط معهما الهدايا الأدم وغيره فركبا البحر حتى أتيا الحبشة فلما دخلا على النجاشى سجدا له وسلما عليه وقالا له إن قومنا لك ناصحون شاكرون ولأصحابك محبون وأنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا عليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج يزعم أنه رسول الله ولم يتابعه أحد منا إلا السفهاء وإنا كنا قد ضيقنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لايدخل عليهم أحد ولايخرج منهم أحد فقتلهم الجوع والعطش فلما اشتد عليه الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم قال وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لايسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التى يحييك بها الناس رغبة عن دينك وسنتك قال فدعاهم النجاشى فلما حضروا صاح جعفر بالباب يستأذن عليك حزب الله تعالى فقال النجاشى مروا هذا الصائح فليعد كلامه ففعل جعفر فقال النجاشى نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته فنظر عمرو إلى صاحبه فقال ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم به الملك فساءهما ذلك ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له فقال عمرو بن العاص ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك فقال لهم النجاشى مامنعكم أن تسجدوا لى وتحيونى بالتحية التى يحيينى بها من أتانى من الآفاق قالوا نسجد لله الذى خلقك وملكك وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان فبعث الله فينا نبيا صادقا فأمرنا بالتحية التى رضيها الله وهى السلام تحية

وأنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا عليك لأنهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله ولم يتابعه أحد
منا إلا السفهاء وإنا كنا قد ضيقنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لايدخل عليهم أحد ولا يخرج
منهم أحد فقتلهم الجوع والعطش فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم قالوا وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لايسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التي يحييك بها الناس رغبة عن دينك وسنتك قال فدعاهم النجاشي فلما حضروا صاح جعفر بالباب يستأذن عليك حزب الله فقال النجاشي مروا هذا الصائح فليعد كلامه ففعل جعفر فقال النجاشي نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته فنظر عمرو بن العاص إلى صاحبه فقال ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم به النجاشي فساءهما ذلك ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له؟ فقال عمرو بن العاص ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك فقال لهم النجاشي مامنعكم أن تسجدوا لي
وتحيوني بالتحية التي يحييني بها من آتاني من الآفاق قالوا
نسجد لله الذي خلقك وملكك وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان فبعث الله فينا نبيا صادقا وأمرنا بالتحية التي

أهل الجنة فعرف النجاشي أن ذلك حق وأنه في التوراة والإنجيل قال أيكم الهاتف يستأذن عليك
حزب الله قال جعفر أنا قال فتكلم، قال إنك ملك من ملوك الأرض من أهل الكتاب ولا يصلح
عندك كثرة الكلام ولا الظلم وإنما أحب إن أجيب عن أصحابي فمر هذين الرجلين فليتكلم
أحدهما ولينصت الآخر فتسمع محاورتنا فقال عمرو لجعفر تكلم فقال جعفر للنجاشي سل
هذين الرجلين أعبيد نحن أم أحرار فإن كنا عبيدا قد أبقنا من أربابنا فردنا عليهم فقال النجاشي
أعبيدهم أم أحرار فقال بل أحرار كرام فقال النجاشي نجوا من العبودية فقال جعفر سلهما
هل أرقنا دما بغير حق فيقتص منا فقال عمرو لا ولا قطرة قال جعفر سلهما هل أخذنا أموال
الناس بغير حق فعلينا قضاؤها قال النجاشي إن كان قنطارا فعلي قضاؤه فقال عمرو لا ولا
قيراط فقال النجاشي فما تطلبون منهم قال كنا وإياهم على دين واحد وأمر واحد على دين
آبائنا فتركوا ذلك واتبعوا غيره فبعثنا قومنا لتدفعهم إلينا فقال النجاشي وما هذا الدين الذي
كنتم عليه والدين الذي اتبعوه فقال جعفر أما الدين الذي كنا عليه فهو دين الشيطان كنا نكفر
بالله ونعبد الحجارة وأما الذي تحولنا إليه فهو دين الله الإسلام جاءنا به من عند الله رسول
وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقا له فقال النجاشي ياجعفر تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك
ثم أمر النجاشي بضرب الناقوس فضرب فاجتمع إليه كل قسيس وراهب فلما اجتمعوا عنده
قال النجاشي أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة
نبيا مرسلا قالوا اللهم نعم قد بشرنا به عيسى فقال من آمن به فقد آمن بي ومن كفر به فقد
كفر بي فقال النجاشي لجعفر ماذا يقول لكم هذا الرجل وما يأمركم به وما ينهاكم عنه فقال
يقرأ علينا كتاب الله ويأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر ويأمرنا بحسن الجوار وصلة الرحم
وبر اليتيم ويأمرنا أن نعبد الله وحده لاشريك له فقال له اقرأ علي مما يقرأ عليكم فقرأ عليه
سورة العنكبوت والروم ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع وقالوا زدنا من هذا الحديث
الطيب فقرأ عليهم سورة الكهف فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال أنهم يشتمون عيسى
وأمه فقال النجاشي فما تقولون في عيسى وأمه فقرأ عليهم سورة مريم فلما أتى على ذكر مريم
وعيسى رفع النجاشي من سواكه قدر مايقذي العين وقال والله مازاد المسيح على ماتقولون
هذا ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي يقول آمنون من سبكم أو آذاكم
غرم ثم قال أبشروا ولا تخافوا فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم فقال عمرو يانجاشي ومن
حزب إبراهيم قال هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاءوا من عنده ومن اتبعهم فأنكر ذلك
المشركون وادعوا دين إبراهيم ثم رد النجاشي على عمرو وصاحبه المال الذي حملوه وقال
إنما هديتكم إلى رشوة فاقبضوها فإن الله ملكني ولم يأخذ مني رشوة قال جعفر فانصرفنا
فكنا في خير جوار وأنزل الله عز وجل في ذلك اليوم على رسول الله صلى الله عليه
وسلم في خصومتهم في إبراهيم وهو في المدينة « ان أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه
وهذا النبي، والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » . قوله تعالى
(ودت

رضيها الله وهى السلام تحية أهل الجنة فعرفت النجاشي أن ذلك حق وأنه فى التوراة والإنجيل ، قال أيكم الهاتف يستاذن عليك حزب الله قال جعفر أنا قال فتكلم قال إنك ملك من ملوك أهل الأرض ومن أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم وأنا أحب أن أجيب عن أصحابى فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما ولينصت الآخر فتسمع محاورتنا ؟ فقال عمرو لجعفر تكلم فقال جعفر للنجاشى سل هذين الرجلين أعبيد نحن أم أحرار كرام ، فان كنا عبيدا أبقنا من أربابنا فارددنا إليهم فقال النجاشى أعبيدهم أم أحرار فقال عمرو بل أحرار كرام فقال النجاشى نجوا من العبودية ثم قال جعفر سل هل أهرقنا دما بغير حق فيقتص منا فقال عمرو لا ولا قطرة فقال جعفر سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها قال النجاشى إن كان قنطارا فعلى قضاؤه فقال عمرو لاولا قيراطا . قال النجاشى فما تطلبون منهم قال عمرو كنا وهم على دين واحد وأمر واحد على دين آبائنا فتركوا ذلك واتبعوا غيره فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا فقال النجاشى ماهذا الدين الذى كنتم عليه والدين الذى اتبعتموه أصدقنى فقال جعفر أما الدين الذى كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة وأما الذى تحولنا إليه فدين الله الإسلام جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب عيسى ابن مريم موافقا له فقال النجاشى ياجعفر لقد تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك ثم أمر النجاشى فضرب بالناقوس فاجتمع عليه كل قسيس وراهب فلما اجتمعوا عنده قال النجاشى أنشدكم الله الذى أنزل الإنجيل علي عيسى هل تجدون بين عيسى (٣٦٥) وبين يوم القيامة نبي مرسل فقالوا اللهم نعم قد بشرنا به عيسى وقال من آمن به فقد آمن بى ومن كفر به فقد كفر بى فقال النجاشى لجعفر ماذا يقول لكم هذا الرجل وما يأمركم به وما ينهاكم عنه فقال يقرأ علينا كتاب الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأمرنا بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم ويأمرنا بأن نعبد الله وحده لاشريك له فقال اقرأ علي مما يقرأ عليكم فقرأ عليهم سورة العنكبوت والروم ففاضت عينا النجاشى وأصحابه من الدمع وقالوا زدنا ياجعفر من هذا الحديث الطيب فقرأ عليهم سورة الكهف فأراد عمرو أن يغضب النجاشى فقال إنهم يشتمون عيسى وأمه فقال النجاشى ماتقولون فى عيسى وأمه فقرأ جعفر عليهم سورة مريم فلما أتى على ذكر مريم وعيسى عليهما السلام رفع النجاشى نفثة من سواكه قدر مايقذى العين فقال والله مازاد المسيح على ماتقولون مثل هذا ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال اذهبوا فأنتم سيوم بأرضى يقول آمنون من سبكم أو أذاكم غرم ثم قال ابشروا ولا تخافوا فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم قال عمرو يانجاشى ومن حزب إبراهيم قال هؤلاء الرهط وصاحبهم الذى جاءوا من عنده ومن تبعهم فأنكر ذلك المشركون وادعوا دين إبراهيم ثم رد النجاشى على عمرو وصاحبه المال الذى حملوه وقال إنما هديتكم إلى رشوة فاقبضوها فان الله ملكنى ولم يأخذ منى رشوة قال جعفر فانصرفنا فكنا فى خير دار وأكرم جوار وأنزل الله تعالى فى ذلك اليوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خصومتهم فى إبراهيم وهو بالمدينة إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين قوله عز وجل (ودت طائفة من أهل الكتاب) نزلت فى معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم ، فنزلت ودت طائفة أى تمنت جماعة من أهل الكتاب يعنى اليهود (لو يضلونكم) يستنزلونكم عن دينكم ويردونكم إلى الكفر (وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله)

(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) نزلت فى معاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليمان ، وعمار ابن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم فنزلت فيهم ودت طائفة أى تمنت جماعة من أهل الكتاب يعنى اليهود لو يضلونكم يعنى عن دينكم ويردونكم إلى الكفر (وما يضلون إلا أنفسهم) لأن المؤمنين لا يقبلون قولهم فيحصل عليهم الإثم بتمنيهم إضلال المؤمنين (وما يشعرون) يعنى أن وبال الإضلال يعود عليهم لأن العذاب يضاعف لهم بسبب ضلالهم وتمنى إضلال المسلمين ومايقدرون على ذلك إنما يضلون أمثالهم وأتباعهم وأشياعهم (ياأهل الكتاب) الخطاب لليهود (لم تكفرون بآيات الله) يعنى القرآن وقيل المراد بآيات الله الواردة فى التوراة والإنجيل من نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته وسبب كفرهم بالتوراة والإنجيل على هذا القول هو تحريفهم وتبديلهم مافيها من بيان نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته والبشارة بنبوته لأنهم ينكرون ذلك ،

يعنى القرآن وبيان نعت محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تشهدون) أن نعته فى التوراة والإنجيل مذكور (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) تخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية وقيل لم تخلطون الإيمان بعيسى عليه السلام وهو الحق بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وهو الباطل وقيل لم تخلطون التوراة التى أنزلت على موسى بالباطل الذى حرفتموه وكتبتموه بأيديكم (وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) أن محمدا صلى الله عليه وسلم ودينه حق (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا) الآية . قال الحسن وقتادة والسدى تواطأ اثنا عشر حبرا من يهود خيبر وقرى عرينة ، وقال بعضهم لبعض أدخلوا فى دين محمد صلى الله عليه وسلم أول النهار باللسان دون الاعتقاد ثم اكفروا آخر النهار وقولوا إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ليس هو بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه فاذا فعلتم ذلك شك أصحابه فى دينهم واتهموه فقالوا إنهم أهل كتاب وهم أعلم منا به فيرجعون عن دينهم وقال مجاهد ومقاتل والكلبى هذا فى شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فقال كعب بن الأشرف لأصحابه آمنوا بالذى أنزل على محمد من أمر الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم اكفروا وارجعوا إلى قبلتكم آخر النهار لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم فيرجعون إلى قبلتنا فأطلع الله تعالى رسوله على سرهم وأنزل (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا (بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار) أوله سمى وجها لأنه أحسنه ، وأول ما يواجه الناظر فيراه (واكفروا آخره لعلهم يرجعون) فيشكون ويرجعون عن دينهم (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) هذا متصل بالأول من قول اليهود بعضهم لبعض ولا تؤمنوا أى ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم أى وافق ملتكم واللام فى لمن صلة أى لا تصدقوا

(وأنتم تشهدون) يعنى أن نعته وصفته مذكور فى التوراة والإنجيل وذلك أن أحبار اليهود كانوا يكتمون الناس نعته وصفته فاذا خلا بعضهم ببعض أظهروا ذلك فيما بينهم وشهدوا أنه حق (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) وذلك أن علماء اليهود والنصارى كانوا يعلمون بقلوبهم أن محمدا ﷺ رسول من عند الله وأن دينه حق وكانوا ينكرون ذلك بألسنتهم وكانوا يجتهدون فى إلقاء الشبهات والتشكيكات وذلك أن الساعى فى إخفاء الحق لا يقدر على ذلك إلا بهذه الأمور فقوله تعالى « لم تلبسون الحق بالباطل » معناه تحريف التوراة وتبديلها فيخلطون المحرف الذى كتبوه بأيديهم بالحق المنزل وقيل هو خلط الإسلام باليهودية والنصرانية وذلك أنهم تواطئوا على إظهار الإسلام فى أول النهار والرجوع عنه فى آخره والمراد بذلك تشكيك الناس وقيل إنهم كانوا يقولون إن محمدا صلى الله عليه وسلم معترف بصحة نبوة موسى وأنه حق ثم إن التوراة دالة على أن شرع موسى لا ينسخ فهذا من تلبيساتهم على الناس (وتكتمون الحق) يعنى نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته فى التوراة (وأنتم تعلمون) يعنى أنه رسول من عند الله وأن دينه حق وإنما كتمتم الحق عنادا وحسدا وأنتم تعلمون ما تستحقون على كتمان الحق من العقاب. قوله عز وجل (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره) وهذا نوع آخر من تلبيسات اليهود وقيل تواطأ اثنا عشر حبرا من يهود خيبر وقرى عرينة فقال بعضهم لبعض ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد القلب ثم اكفروا آخر النهار وقولوا إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا أن محمدا ليس هو بذلك المنعوت وظهر لنا كذبه فاذا فعلتم ذلك شك أصحاب محمد فى دينه واتهموه وقالوا إنهم أهل الكتاب وأعلم به منا فيرجعون عن دينهم وقيل هذا فى شأن القبلة وذلك أنه لما صرفت إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فقال كعب بن الأشرف لأصحابه آمنوا بالذى أنزل على محمد فى أمر الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم اكفروا وارجعوا إلى قبلتكم آخر النهار لعلهم يرجعون فيقولون هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم فيرجعون إلى قبلتنا فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على سرهم وأنزل هذه الآية ووجه النهار أوله والوجه مستقبل كل شىء لأنه أول ما يواجه منه وأنشدوا فى معناه .

من كان مسرورا بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار

وقوله (لعلهم يرجعون) يعنى عنه أى إنا ألقينا هذه الشبهة لعلهم يشكون فى دينهم فيرجعون عنه ولما دبروا هذه الحيلة أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بها فلم تتم لهم ولم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين ولولا هذا الإعلام من الله تعالى لكان ربما أثر ذلك فى قلوب بعض من كان فى إيمانه ضعف قوله تعالى (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) هذا متصل بالأول وهو من

إلا من تبع دينكم اليهودية كقوله تعالى «قل عسى أن يكون ردف لكم» أى ردفكم (قل إن الهدى هدى الله) هذا خبر من الله تعالى أن البيان بيانه ثم اختلفوا فيه فمنهم من قال هذا كلام معترض بين كلامين وما بعده متصل بالكلام الأول إخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض ومعناه ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والكتاب

قول اليهود يقول بعضهم لبعض ولا تؤمنوا أى ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم أى وافق ملتكم التى أنتم عليها وهى اليهودية واللام فى لمن صلة كقوله ردف لكم أى ردفكم (قل إن الهدى هدى الله) أى إن الدين دين الله والبيان بيانه وهذا خبر من الله تعالى ثم اختلفوا فيه فمنهم من قال هذا كلام معترض بين كلامين وما بعده متصل بالكلام الأول وهو إخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض ومعنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم من العلم والحكمة والكتاب والآيات من فلق البحر وإنزال المن والسلوى عليكم وغير ذلك من الكرامات ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنكم أصح دينا منهم فلما أخبر الله تعالى عن اليهود بذلك قال فى أثناء ذلك قل إن الهدى هدى الله والمعنى أن الذي أنتم عليه إنما صار دينا بحكم الله وأمره فاذا أمر بدين آخر وجب اتباعه والانقياد لحكمه لأنه هو الذي هدى إليه وأمر به وقيل معناه قل لهم يامحمد إن الهدى هدى الله وقد جئتكم به ولن ينفعكم فى دفعه هذا الكيد الضعيف وقرأ الحسن والأعمش إن يؤتى بكسر الألف فيكون قول اليهود تاما عند قوله إلا لمن تبع دينكم وما بعده من قول الله تعالى والمعنى قل يامحمد إن الهدى هدى الله (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) وتكون أن بمعنى الجحد أى مايؤتى أحد مثل ماأوتيتم ياأمة محمد من الدين والهدى (أويحاجوكم عند ربكم) يعنى إلا أن يحاجوكم أى اليهود بالباطل فيقولوا نحن أفضل منكم وقوله عند ربكم أى عند فعل ربكم وقيل أوفى قوله أويحاجوكم بمعنى حتى ومعنى الآية ماأعطى الله أحدا مثل ماأعطيتم ياأمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عند ربكم وقرأ ابن كثير آن يؤتى بالمد على الاستفهام وحينئذ يكون فى الكلام اختصار تقديره أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم يامعشر اليهود من الكتاب والحكمة فتحسدونه ولاتؤمنون به هذا قول قتادة والربيع قالا هذا من قول الله تعالى قل يامحمد إن الهدى هدى الله ألأن أنزل كتابا مثل كتابكم وبعث نبيا مثل نبيكم حسدتموه وكفرتم به قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وقوله أو يحاجوكم على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين وتكون أو بمعنى إن لأنهما حرفا شرط وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر والمعنى وأن يحاجوكم يامعشر المؤمنين عند ربكم قل يامحمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه ويحتمل أن يكون الجميع خطابا للمؤمنين ويكون نظم الآية أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم يامعشر المؤمنين فان حسدوكم فقل إن الفضل بيد الله فان حاجوكم فقل إن الهدى هدى الله ويحتمل أن يكون الخبر عن اليهود قد تم عند قوله لعلهم يرجعون وقوله ولا تؤمنوا من كلام الله تعالى ثبت به قلوب المؤمنين لئلا يشكوا عند تلبس اليهود وتزويرهم فى دينهم يقول الله عز وجل ولا تصدقوا يامعشر المؤمنين إلا لمن تبع دينكم ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم من الدين والفضل ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم أو يقدروا على ذلك فان الهدى هدى الله وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم فتكون الآية كلها خطابا للمؤمنين

والحكمة والآيات من المن والسلوى وفلق البحر وغيرها من الكرامات ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنكم أصح دينا منهم وهذا معنى قول مجاهد وقيل إن اليهود قالت لسفلتهم ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم) من العلم أى لئلا يؤتى أحد ولا فيه مضمرة كقوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا أى لئلا تضلوا يقولون لاتصدقوهم لئلا يعلموا مثل ماعلمتم فيكون لكم الفضل عليهم فى العلم أولئلا يحاجوكم عند ربكم فيقولوا عرفتم أن ديننا حق وهذا معنى قول ابن جريج وقرأ الحسن والأعمش إن يؤتى بكسر الألف فيكون قول اليهود تاما عند قوله إلا لمن تبع دينكم وما بعده من قول الله تعالى يقول قل يامحمد إن الهدى هدى الله إن يؤتى إن بمعنى الجحد أى ما يؤتى أحد مثل ماأوتيتم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم (أو يحاجوكم عند ربكم) يعنى إلا أن يجادلكم اليهود بالباطل فيقولوا نحن أفضل منكم فقوله عز وجل عند ربكم أى عند فعل ربكم بكم وهذا معنى قول سعيد بن جبير والحسن والكلبي ومقاتل وقال الفراء ويجوز أن يكون أو بمعنى حتى كما يقال تعلق به أو يعطيك حقك ومعنى الآية ماأعطى أحد مثل ماأعطيتم ياأمة محمد من الدين والحجة حتى يحاجوكم عند ربكم وقرأ ابن كثير آن يؤتى بالمد على الاستفهام وحينئذ يكون فيه اختصار تقدير

أن يؤتى أحد ماأوتيتم يامعشر اليهود من الكتاب والحكمة تحسدونه ولا تؤمنون به هذا قول قتادة والربيع قالا هذا من قول الله تعالى يقول قل لهم يامحمد إن الهدى هدى الله بأن أنزل كتابا مثل كتابكم وبعث نبيا حسدتموه وكفرتم به (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) قوله أو يحاجوكم على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين وتكون أو بمعنى إن لأنهما حرفا شرط وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر أى وإن يحاجوكم يامعشر المؤمنين عند ربكم فقل يامحمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه ويجوز أن يكون الجميع خطابا للمؤمنين ويكون نظم الآية أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم يامعشر المؤمنين حسدوكم فقل إن الفضل بيد الله وإن حاجوكم فقل إن الهدى هدى الله ويجوز أن يكون الخبر عن اليهود قد تم عند قوله لعلهم يرجعون وقوله تعالى ولاتؤمنوا من كلام الله

يثبت به قلوب المؤمنين لئلا يشكوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم فى دينهم ويقول لاتصدقوا يامعشر المؤمنين إلا لمن اتبع دينكم ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم من العلم والدين والفضل ولا تصدقوا أن يحاجوكم فى دينكم عند ربكم أى يقدروا على ذلك فان الهدى هدى الله وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم فتكون الآية كلها خطاب الله للمؤمنين عند تلبيس اليهود لئلا يرتابوا قوله (يختص برحمته) أى بنبوته (من يشاء والله ذو الفضل العظيم) قوله تعالى (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك) الآية نزلت فى اليهود ، أخبر الله تعالى أن فيهم أمانة وخيانة والقنطار عبارة عن المال الكثير والدينار عبارة عن المال القليل يقول منهم من يؤدى الأمانة وإن كثرت ومنهم من لايؤديها وإن قلت قال مقاتل ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك) يعنى كفار اليهود ككعب بن الأشرف وأصحابه وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله عز وجل ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك يعنى عبد الله بن سلام أودعه رجل ألفا ومائتى أوقية من ذهب فأداها إليه ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك يعنى فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش دينارا فخانه قوله يؤده إليك قرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة يؤده ولا يؤده ونصله ونوته ونوله ساكنة الهاء وقرأ أبو جعفر وقالون ويعقوب بالاختلاس كسرا والباقون بالإشباع كسرا فمن سكن الهاء قال لأنها وضعت فى موضع الجزم ، وهو الياء الذاهبة ومن اختلس فاكتفى بالكسرة عن الياء ومن أشبع فعلى الأصل لأن الأصل فى الهاء الأشباع (إلا مادمت عليه قائما)

عند تلبيس اليهود لئلا يرتابوا ولا يشكوا وقوله تعالى (قل إن الفضل) يعنى قل لهم يامحمد إن التوفيق للإيمان والهداية للإسلام (بيد الله) أى أنه مالك له وقادر عليه دونكم ودون سائر خلقه (يؤتيه من يشاء) يعنى الفضل الذى هو دين الإسلام يعطيه من يشاء من عباده ويوفق له من أراد من خلقه وفيه تكذيب لليهود فى قولهم أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم فقال الله تعالى ردا عليهم قل لهم ليس ذلك إليهم وإنما الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وأصل الفضل فى اللغة الزيادة وأكثر مايستعمل فى زيادة الإحسان والفاضل الزائد على غيره فى خصال الخير (والله واسع) أى ذو سعة يتفضل على من يشاء (عليم) أى بمن يتفضل عليه وهو للفضل أهل (يختص برحمته) يعنى بنبوته ورسالته وقيل بدينه الذى هو الإسلام وقيل بالقرآن (من يشاء) يعنى من خلقه وفيه دليل على أن النبوة لا تحصل إلا بالاختصاص والتفضل لا بالإستحقاق لأنه تعالى جعلها من باب الاختصاص وللفاعل أن يفعل ما يشاء إلى من يشاء بغير استحقاق (والله ذو الفضل العظيم) . قوله عز وجل (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك) الآية نزلت فى اليهود أخبر الله عز وجل أن فيهم أمانة وخيانة وقسمهم قسمين والقنطار عبارة عن المال الكثير والدينار عبارة عن المال القليل يقول منهم من يؤد الأمانة وإن كثرت مثل عبدالله بن سلام وأصحابه ومنهم من لا يؤديها وإن قلت وهم كفار أهل الكتاب مثل كعب بن الأشرف وأصحابه قال ابن عباس فى هذه الآية أودع رجل من قريش عبد الله بن سلام ألفا ومائتى أوقية من ذهب فأداها إليه فذلك قوله تعالى « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك » يعنى فنحاص بن عازوراء استودعه رجل من قريش دينارا فخانه وجحده ولم يؤده اليه وقيل أهل الأمانة هم النصارى وأهل الخيانة هم اليهود لأن مذهبهم أن يحل قتل من خالفهم فى أمر الدين وأخذ ماله بأى طريق كان (إلا مادمت عليه قائما) قال ابن عباس يريد تقوم عليه وتطالبه بالإلحاح والخصومة والملازمة وقيل معناه إلا مدة دوامك عليه ياصاحب الحق قائما على رأسه متوكلا عليه

قال ابن عباس ملحا يريد يقوم عليه يطالبه بالإلحاح وقال الضحاك مواظبا أى تواظب عليه بالاقتضاء وقيل أراد أودعته ثم استرجعته وأنت قائم على رأسه لم تفارقه رده إليك فان فارقته وأخرته أنكره ولم يؤده (ذلك) أى ذلك الاستحلال والخيانة (بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) أى فى مال العرب إثم وحرج كقوله تعالى «ما على المحسنين من سبيل» وذلك أن اليهود قالوا أموال العرب حلال لنا لأنهم ليسوا على ديننا ولا حرمة لهم فى كتابنا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم فى دينهم وقال الكلبى قالت اليهود إن الأموال كلها كانت لنا فما فى يد العرب منها فهو لنا وإنما ظلمونا وغصبونا فلا سبيل علينا فى أخذنا إياه منهم وقال الحسن وابن جريج ومقاتل بايع اليهود رجالا من المسلمين فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا ليس لكم علينا حق ولا عندنا قضاء لأنكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم فكذبهم الله عز وجل وقال عز من قائل (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) ثم قال ردا عليهم (بلى) أى ليس كما قالوا بل عليهم سبيل ثم ابتدأ فقال (من أوفى) أى ولكن من أوفى (بعهده) أى بعهد الله الذى عهد إليه فى التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن وأداء الأمانة وقيل الهاء فى عهده راجعة إلى الموفى (واتقى) الكفر والخيانة ونقض العهد (فان الله يحب المتقين) أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا قبيصة بن عقبة أنا سفيان عن الأعمش عن عبد الله ابن مرة عن مسروق عن عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ قال «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر» قوله تعالى (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) قال عكرمة نزلت فى رءوس اليهود كتموا ما عهد الله إليهم فى التوراة فى شأن محمد ﷺ وبدلوه وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا أنه من عند الله لئلا يفوتهم المآكل والرشا التى كانت لهم من أتباعهم أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا موسى بن إسماعيل أنا أبو عوانة عن الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ من حلف على يمين صبر يقتطع بها «مال امرئ مسلم لقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان» فأنزل الله تعالى تصديق ذلك «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا» إلى آخر الآية فدخل الأشعث بن

عليه بالمطالبة له والتعنيف بالرفع إلى الحاكم وإقامة البينة عليه وقيل أراد أنه إن أودعته شيئا ثم استرجعته منه فى الحال وأنت قائم على رأسه لم تفارقه رده عليك وإن أخرت استرجاع ما أودعته وأنكره ولم يرده عليك (ذلك) أى سبب ذلك الاستحلال والخيانة (بأنهم قالوا) يعنى اليهود (ليس علينا فى الأميين سبيل) يعنى أنهم يقولون ليس علينا إثم ولا حرج فى أخذ مال العرب وذلك أن اليهود قالوا أموال العرب حلال لنا إنهم ليسوا على ديننا ولا حرمة لهم فى كتابنا وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم فى دينهم وقيل إن اليهود قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه والخلق لنا عبيد فلا سبيل علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا وقيل أنهم قالوا إن الأموال كلها كانت لنا فما فى يد العرب فهو لنا وإنما هم ظلمونا وغصبوها منا فلا سبيل علينا فى أخذها منهم بأى طريق كان وقيل إن اليهود كانوا يبايعون رجالا من المسلمين فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم بقية أموالهم فقالوا ليس لكم علينا حق ولا عندنا قضاء لأنكم تركتم دينكم وانقطع العهد بيننا وبينكم وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم فأكذبهم الله تعالى فقال (ويقولون على الله الكذب) يعنى اليهود (وهم يعلمون) يعنى أنهم كاذبون ثم إنه تعالى رد على اليهود قولهم فقال (بلى) أى ليس الأمر كما قالوا بل عليهم سبيل ولفظة بلى لمجرد نفى ما قبلها فعلى هذا يحسن الوقوف عليها ثم يبتدئ (من أوفى) أى ولكن (من أوفى بعهده) أى بعهد الله الذى عهد إليه فى التوراة من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الذى أنزل عليه وبأداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها وقيل الهاء فى قوله بعهده راجعة إلى الموفى (واتقى) يعنى الكفر والخيانة ونقض العهد (فان الله يحب المتقين) يعنى الذين يتقون الشرك (ق) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر وفى رواية إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر . قوله عز وجل (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) قال عكرمة نزلت هذه الآية فى أحبار اليهود ورؤسائهم

قيس فقال ما يحدثكم أبو عبد الرحمن فقالوا كذا وكذا فقال فى أنزلت كانت لى بئر فى أرض ابن عم لى فأتيت رسول الله ﷺ فحدثته فقال هات بينتك أو يمينه قلت إذا يحلف عليها يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين صبر وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله يوم القيامة وهو عليه غضبان، أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر ابن محمد الفارسى أنا محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا قتيبة بن سعيد ، أنا أبو الأحوص عن سماك بن حرب عن علقمة بن وائل بن حجر عن أبيه قال جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبى فقال الحضرمى يا رسول الله إن هذا (٣٧٠) قد غلبنى على أرض لى كانت لأبى فقال الكندى هى أرضى فى يدى أزرعها ليس له فيها حق فقال النبى صلى الله عليه وسلم للحضرمى ألك بينة قال لا قال فلك يمينه قال يا رسول الله إن الرجل فاجر لا يبالى على ما حلف عليه قال ليس لك منه إلا ذلك فانطلق ليحلف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أدبر أما لئن حلف على ماله ليأكله ظلما ليلقين الله وهو عنه معرض» ورواه عبد الملك بن عمير عن علقمة وقال هو امرؤ القيس بن عابس الكندى وخصمه ربيعة بن عبدان وروى لما هم أن يحلف نزلت هذه الآية فامتنع امرؤ القيس أن يحلف وأقر لخصمه بحقه ودفعه إليه أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد السرخسى أنا أبو مصعب عن مالك عن العلاء بن عبد الرحمن عن سعيد بن كعب عن أخيه عبد الله بن كعب بن مالك عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار قالوا وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله قال وإن كان قضيبا من أراك» قالها ثلاث مرات أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن محمد أنا هشيم بن محمد أنا العوام بن حوشب عن إبراهيم بن عبد الرحمن عن عبد الله بن أبى أوفى أن رجلا أقام سلعة وهو فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها مالم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا» قوله تعالى إن الذين يشترون أى يستبدلون بعهد الله وأراد الأمانة وأيمانهم الكاذبة ثمنا قليلا أى شيئا قليلا من حطام الدنيا

أبى رافع وكنانة بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف وحيى بن أخطب الذين كتموا ما عهد الله إليهم فى التوراة فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم فبدلوه وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا أنه من عند الله لئلا تفوتهم الرشا والمآكل التى كانوا يأخذونها من أتباعهم وسفلتهم وقيل نزلت فى ادعاء اليهود الذين قالوا إنه ليس علينا فى الأميين سبيل وكتبوا ذلك بأيديهم وحلفوا أنه من عند الله وقيل نزلت فى الأشعث بن قيس وخصم له (ق) عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقى الله وهو عليه غضبان» قال عبد الله ثم قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقه من كتاب الله عز وجل «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا» إلى آخر الآية وفى رواية «قال من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان فأنزل الله تصديق ذلك إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية فدخل الأشعث بن قيس الكندى فقال ما يحدثكم أبو عبد الرحمن قلنا كذا وكذا فقال صدق فى نزلت كان بينى وبين رجل خصومة فى بئر فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداك أو يمينه قلت إنه إذا يحلف لا يبالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان» ونزلت إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا إلى آخر الآية وأخرجه الترمذى وأبو داود وقالا إن الحكومة كانت بين الأشعث وبين رجل يهودى وقيل نزلت هذه الآية فى رجل أقام سلعة فى السوق فحلف لقد أعطى بها مالم يعطه (خ) عن عبد الله ابن أبى أوفى «أن رجلا أقام سلعة وهو فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها مالم يعطه ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا» إلى آخر الآية وقيل الأقرب حمل الآية على الكل فقوله تعالى إن الذين يشترون بعهد الله يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق فكل ذلك من عهد الله الذى يجب الوفاء به ومعنى إن الذين يشترون يستبدلون بعهد الله يعنى الأمانة وأيمانهم يعنى الكاذبة ثمنا قليلا يعنى شيئا يسيرا من حطام الدنيا وذلك لأن المشترى يأخذ شيئا ويعطى شيئا

فكل

(أولئك لاخلاق لهم) لانصيب لهم (فى الآخرة) ونعيمها (ولا يكلمهم الله) كلاما ينفعهم ويسرهم وقيل هو بمعنى الغضب كما يقول الرجل إنى لاأكلم فلانا إذا كان غضب عليه (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) أى لايرحمهم ولا يحسن إليهم ولا ينيلهم خيرا (ولا يزكيهم) أى لايثنى عليهم بالجميل ولا يطهرهم من الذنوب (ولهم عذاب أليم) أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد الفارسى أنا محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا محمد بن جعفر عن شعبة عن على بن مدرك عن أبى زرعة عن خرشة ابن الحر عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قال قرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات فقال أبو ذر خابوا وخسروا من هم يارسول الله قال: المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» وفى رواية المسبل إزاره أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أسيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوى أنا أبو نصر محمد بن حمدويه المروزى أنا محمود بن آدم المروزى أنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال «ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل حلف يمينا على مال مسلم فاقتطعه ورجل حلف على يمين بعد صلاة العصر أنه أعطى بسلعته أكثر مما أعطى وهو كاذب ورجل منع فضل ماله فان الله تعالى يقول اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل مالم تعمل يداك قوله تعالى (وإن منهم لفريقا) يعنى من أهل الكتاب لفريقا أى طائفة وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيى بن أخطب وأبو ياسر وشعبة ابن عمرو الشاعر (يلوون ألسنتهم بالكتاب) أى يعطفون ألسنتهم بالتحريف والتغيير وهو ماغيروا من صفة النبى صلى الله عليه وسلم وآية الرجم وغير ذلك يقال لوى لسانه عن كذا أى غيره (لتحسبوه) أى لتظنوا ما حرفوا (من الكتاب) الذى أنزله الله تعالى (وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله

فكل واحد من يعطى والمأخوذ ثمنا للآخر فهذا معنى الشراء (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (لاخلاق لهم فى الآخرة) أى لانصيب لهم فى الآخرة ونعيمها وجميع منافعها (ولا يكلمهم الله) يعنى كلاما يسرهم به أو ينفعهم وقيل هو بمعنى الغضب (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) أى لايرحمهم ولا يحسن إليهم ولا ينيلهم خيرا (ولا يزكيهم) أى ولا يطهرهم من الذنوب ولا يثنى عليهم بجميل (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرىء مسلم ورجل منع فضل ماله فيقول الله له اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل مالم تعمل يداك» (م) عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قال فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فقلت خابوا وخسروا من هم يارسول الله قال المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» وللنسائى «المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب (م) عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار فقالوا يارسول الله وإن كان شيئا يسيرا قال وإن كان قضيبا من أراك» قوله عز وجل (وإن منهم) يعنى من اليهود (لفريقا) يعنى طائفة وجماعة وهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحيى بن أخطب وأبو ياسر وشعبة بن عمرو الشاعر (يلوون) أى يعطفون ويميلون وأصل اللى الفتل من قولك لويت يده إذا فتلتها (ألسنتهم بالكتاب) يعنى بالتحريف والتغيير والتبديل وتحريف الكلام تقليبه عن وجهه لأن المحرف يلوى لسانه عن سنن الصواب بما يأتى به من عند نفسه قال الواحدى ويحتمل أن يكون المعنى يلوون بألسنتهم الكتاب لأنهم يحرفون الكتاب عما هو عليه بألسنتهم فيأتون به على القلب ونقل الإمام فخر الدين عن القفال قال يلوون ألسنتهم معناه أن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفونها فى حركات الإعراب تحريفا يتغير به المعنى وهذا كثير فى لسان العرب فلا يبعد مثله فى العبرانية فلما فعلوا ذلك فى الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله يلوون ألسنتهم بالكتاب وقيل إنهم غيروا صفة النبى ﷺ من التوراة وبدلوها وآية الرجم وغير ذلك مما بدلوا وغيروا (لتحسبوه من الكتاب) يعنى لتظنوا أن الذى حرفوه وبدلوه من الكتاب الذى أنزله الله أنبيائه (وما هو من الكتاب) يعنى ذلك الذى يزعمون أنه من الكتاب ماهو منه (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) يعنى

ويقولون على الله الكذب) عمدا (وهم يعلمون) أنهم كاذبون وقال الضحاك عن ابن عباس أن الآية نزلت فى اليهود والنصارى جميعا وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل وألحقوا بكتاب الله ماليس منه قوله تعالى (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب) الآية قال مقاتل والضحاك ما كان لبشر يعنى عيسى عليه السلام وذلك أن نصارى نجران كانوا يقولون إن عيسى أمرهم أن يتخذوه ربا فقال تعالى ما كان لبشر يعنى عيسى أن يؤتيه الله الكتاب أى الإنجيل وقال ابن عباس وعطاء ما كان لبشر يعنى محمدا أن يؤتيه الله الكتاب أى القرآن وذلك أن أبا رافع القرظى من اليهود والرئيس من نصارى أهل نجران قالا يامحمد تريد أن نعبدك ونتخذك ربا فقال معاذ الله أن آمر بعبادة غير الله وما بذلك أمرنى الله وما بذلك بعثنى فأنزل الله تعالى هذه الآية ما كان لبشر أى ماينبغى لبشر كقوله تعالى مايكون لنا أن نتكلم بهذا أى ما ينبغى لنا والبشر جميع بنى آدم لا واحد له من لفظه كالقوم والجيش ويوضع موضع الواحد والجمع أن يؤتيه الله الكتاب (والحكم) الفهم والعلم وقيل إمضاء الحكم عن الله عز وجل (والنبوة) المنزلة الرفيعة بالأنباء (ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا) أى ولكن يقول كونوا (ربانيين) اختلفوا فيه قال على وابن عباس والحسن كونوا فقهاء علماء وقال قتادة حكماء وعلماء وقال سعيد بن جبير العالم الذى يعمل بعلمه وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقهاء معلمين وقيل الربانى الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره وقال عطاء حكماء وعلماء ونصحاء لله فى خلقه قال أبو عبيدة سمعت رجلا عالما يقول الربانى العالم بالحلال والحرام والأمر والنهى العارف بأنباء الأمة ما كان وما يكون وقيل الربانيون فوق الأحبار والأحبار فوق العلماء والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصائر بسياسة الناس قال المؤرخ كونوا ربانيين تدينون لربكم من الربوبية كان فى الأصل ربى فأدخلت الألف للتفخيم ثم أدخلت النون لسكون الألف كما قيل صنعانى وبهرانى وقال المبرد هم أرباب العلم سموا به لأنهم يربون العلم ويقومون به ويربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها وكل من قام باصلاح الشىء وإتمامه فقد ربه يربه واحدها ربان كما

الذى يقولونه ويغيرونه وإنما كرر هذا بلفظين مختلفين مع اتحاد المعنى لأجل التأكيد (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) يعنى أنهم كاذبون وقال ابن عباس إن الآية نزلت فى اليهود والنصارى جميعا وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل وألحقوا فى كتاب الله ماليس فيه. قوله عز وجل (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة) قيل إن نصارى نجران قالوا أن عيسى أمرهم أن يتخذوه ربا فقال الله تعالى ردا عليهم ما كان لبشر يعنى عيسى عليه السلام أن يؤتيه الله الكتاب يعنى الإنجيل وقال ابن عباس فى قوله تعالى ما كان لبشر يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم أن يؤتيه الله الكتاب يعنى القرآن وذلك إن أبا رافع من اليهود والسيد من نصارى نجران قالا يامحمد تريد أن نعبدك ونتخذك ربا قال معاذ الله إن آمر بعبادة غير الله وما بذلك أمرنى الله وما بذلك بعثنى فأنزل الله هذه الآية ما كان لبشر أى ماينبغى لبشر وهو جميع بنى آدم لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط ويوضع موضع الواحد والجمع أن يؤتيه الله الكتاب والحكم يعنى الفهم والعلم وقيل هو إمضاء الحكم من الله تعالى والنبوة يعنى المنزلة الرفيعة (ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله) ومعنى الآية أنه لا يجتمع لرجل نبوة مع القول للناس كونوا عبادا لى من دون الله وكيف يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله وقد آتاه الله ما آتاه من الكتاب والحكم والنبوة وذلك أن الأنبياء موصوفون بصفات لا يحصل معها ادعاء الالهية والربوبية منها إن الله تعالى آتاهم الكتب السماوية ومنها إيتاء النبوة ولا يكون إلا بعد كمال العلم وكل هذه تمنع من هذه الدعوى (ولكن كونوا ربانيين) يعنى ولكن يقول لهم كونوا ربانيين فأضمر القول على حسب مذهب العرب فى جواز الاضمار إذا كان فى الكلام مايدل عليه واختلفوا فى معنى الربانى فقال ابن عباس معناه كونوا فقهاء علماء وعنه كونوا فقهاء معلمين وقيل معناه حكماء حلماء وقيل الربانى الذى يربى الناس بصغار العلم وكباره وقيل الربانى العالم الذى يعمل بعلمه وقيل الربانى العالم بالحلال والحرام والأمر والنهى وقيل الربانى الذى جمع بين علم البصيرة والعلم بسياسة الناس ولما مات ابن عباس رضى الله عنهما قال محمد بن الحنيفية اليوم مات ربانى هذه الأمة قال سيبويه الربانى المنسوب إلى الرب بمعنى كونه عالما به ومواظبا على طاعته وزيادة الألف والنون فيه للدلالة على كمال هذه الصفة وقال المبرد الربانيون أرباب العلم واحدهم ربان وهو الذى يربى العلم ويربى الناس أى يعلمهم وينصحهم والألف والنون للمبالغة فعلى قول سيبويه الربانى منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بمعرفة الرب وطاعته وعلى قول المبرد الربانى مأخوذ من التربية

وقيل الربانيون هم ولاة الأمر والعلماء وهما الفريقان اللذان يطاعان ومعنى الآية على هذا التأويل لاأدعوكم إلى أن تكونوا عبادا لى ولكن أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكا وعلماء ومعلمين الناس الخير ومواظبين على طاعة الله وعبادته وقال أبو عبيدة أحسب إن هذه الكلمة ليست عربية إنما هى عبرانية أو سريانية وسواء كانت عربية أو عبرانية فهى تدل على الذى علم وعمل بما علم وعلم الناس طريق الخير. وقوله تعالى (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أى كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين ومعلمين وبسبب دراستكم الكتاب فدلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيا فمن اشتغل بالعلم والتعليم لالهذا المقصود ضاع علمه وخاب سعيه. قوله عز وجل (ولا يأمركم) قرئ بنصب الراء عطفا على قوله ثم يقول فيكون مردودا على البشر وقيل على إضمار أن أى ولا أن يأمركم وقرئ برفع الراء على الاستئناف وهو ظاهر ومعناه ولا يأمركم الله وقيل لايأمركم محمد صلى الله عليه وسلم وقيل ولا يأمركم عيسى وقيل ولا يأمركم الأنبياء (أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) يعنى كفعل قريش والصابئين حيث قالوا الملائكة بنات الله وكفعل اليهود والنصارى حيث قالوا فى المسيح والعزير ماقالوا وإنما خص الملائكة والنبيين بالذكر لأن الذين وصفوا بعبادة غير الله عز وجل من أهل الكتاب لم يحك عنهم إلا عبادة الملائكة وعبادة المسيح وعزير فلهذا المعنى خصهم بالذكر (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) إنما قاله على طريق التعجب والإنكار يعنى لايقول هذا ولا يفعله. قوله عز وجل (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين) قال الزجاج موضع إذ نصب والمعنى واذكر فى أقاصيصك إذ أخذ الله وقال الطبرى معناه واذكروا ياأهل الكتاب إذ أخذ الله يعنى حين أخذ الله ميثاق النبيين وأصل الميثاق فى اللغة عقد يؤكد بيمين ومعنى ميثاق النبيين ماوثقوا به على أنفسهم من طاعة الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه وذكروا فى معنى أخذ الميثاق وجهين: أحدهما أنه مأخوذ من الأنبياء والثانى أنه مأخوذ لهم من غيرهم فلهذا السبب اختلفوا فى المعنى بهذه الآية فذهب قوم إلى أن الله تعالى أخذ الميثاق من النبيين خاصة قبل أن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى عباده أن يصدق بعضهم بعضا وأخذ العهد على كل نبى أن يؤمن بمن يأتى بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه وإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته إن أدركوه فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى ومن عيسى أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين. وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاوس وقيل إنما أخذ الميثاق من النبيين فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم خاصة وهو قول على وابن عباس وقتادة والسدى فعلى هذا القول اختلفوا فقيل إنما أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسل إليهم النبيين ويدل عليه قوله ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه وإنما كان محمد صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى أهل الكتاب دون النبيين وإنما أطلق هذا اللفظ عليهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل كتاب والنبيون منا وقيل أخذ الله الميثاق على النبيين وأممهم جميعا فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم فاكتفى بذكر الأنبياء لأن العهد مع المتبوع عهد مع الأتباع وهو قول ابن عباس قال على بن أبى طالب مابعث الله نبيا آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأخذ هو العهد على قومه ليؤمنن به ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه وقيل إن المراد من الآية أن الأنبياء كانوا يأخذون العهد والميثاق على أممهم

الله عنه أنه قال هو الذى يربى علمه بعمله قال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس اليوم مات ربانى هذه الأمة (بما كنتم) أى بما أنتم كقوله تعالى من كان فى المهد صبيا أى من هو فى المهد (تعلمون الكتاب) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى تعلمون بالتشديد من التعليم وقرأ الآخرون تعلمون بالتخفيف من العلم كقوله (وبما كنتم تدرسون) أى تقرءون قوله (ولا يأمركم) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب بنصب الراء عطفا على قوله ثم يقول فيكون مردودا على البشر أى ولا يأمر ذلك البشر وقيل على إضمار أن أى ولا أن يأمركم ذلك البشر وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف معناه ولا يأمركم الله وقال ابن جريج وجماعة ولا يأمركم محمد (أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) كفعل قريش والصابئين حيث قالوا الملائكة بنات الله واليهود والنصارى حيث قالوا فى المسيح وعزير ماقالوا (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) قاله على طريق التعجب والإنكار يعنى لايقوله هذا قوله عز وجل (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين

لما آتيتكم من كتاب وحكمة) قرأ حمزة لما بكسر اللام وقرأ الآخرون بفتحها فمن كسر اللام فهى لام الإضافة دخلت على ما الموصولة ومعناه الذى يريد للذى آتيتكم أى أخذ ميثاق النبيين لأجل الذى آتاهم من الكتاب والحكمة وأنهم أصحاب الشرائع ومن فتح اللام فمعناه للذى آتيتكم بمعنى الخبر وقيل بمعنى الجزاء أى لئن آتيتكم ومهما آتيتكم وجواب الجزاء قوله لتؤمنن به قوله لما آتيتكم قرأ نافع وأهل المدينة آتيناكم على التعظيم كما قال وآتينا داود زبورا وآتيناه الحكم صبيا وقرأ الآخرون بالتاء لموافقة الخط ولقوله وأنا معكم واختلفوا فى المعنى بهذه الآية فذهب قوم إلى أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيين خاصة أن يبلغوا كتاب الله ورسالته إلى عباده وأن يصدق بعضهم بعضا وأخذ العهود على كل نبى أن يؤمن بمن يأتى بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه فإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته إن أدركه فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى ومن عيسى أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وقال الآخرون بما أخذ الله الميثاق منهم فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم فى هذا اختلفوا فمنهم من قال إنما أخذ الميثاق على أهل الكتاب الذين أرسل منهم النبيين، وهذا قول مجاهد والربيع ألا ترى إلى قوله ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه وإنما كان محمد صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى أهل الكتاب دون النبيين يدل عليه أن فى قراءة عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب وإنما القراءة المعروفة وإذ أخذ الله ميثاق النبيين فأراد إن الله أخذ ميثاق النبيين أن يأخذوا الميثاق إلى أممهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويصدقوه وينصروه إن أدركوه وقال بعضهم أراد أخذ الله الميثاق على النبيين وأممهم جميعا فى أمر محمد ﷺ فاكتفى بذكر الأنبياء لأن العهد على المتبوع عهد على الأتباع وهذا معنى قول ابن عباس وقال على بن أبى طالب لم يبعث الله نبيا آدم ومن بعده إلا أخذ عليه الميثاق والعهد فى أمر محمد وأخذ العهد على قومه ليؤمنن به ولئن بعث وهم أحياء لينصرنه قوله (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (لتؤمنن به ولتنصرنه قال) يقول الله تعالى للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب آدم عليه السلام والأنبياء فيهم كالمصابيح والسرج وأخذ عليهم الميثاق فى أمر محمد ﷺ (أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى) أى قبلتم على ذلكم عهدى والإصر العهد الثقيل

بأنه إذا بعث محمدا ﷺ أن يؤمنوا به وينصروه وهذا قول كثير من المفسرين وقوله (لما أتيتكم من كتاب وحكمة) قرئ بفتح اللام من لما وبكسرها مع التخفيف فى القراءتين فمن قرأ بفتح اللام قال معنى الآية وإذ أخذ الله ميثاق النبيين من أجل الذى آتاهم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول يعنى ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة لتؤمنن به للذى عندكم فى التوراة من ذكره ومن قرأ بكسر اللام جعل قوله لتؤمنن به من أخذ الميثاق كما يقال أخذت ميثاقك لتفعلن لأن أخذ الميثاق بمنزلة الاستحلاف فكان معنى الآية وإذ استحلف الله النبيين للذى أتاهم من كتاب وحكمة متى جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه وقوله (ثم جاءكم رسول) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (مصدق لما معكم) وذلك أن الله وصفه فى كتب الأنبياء المتقدمة وشرح فيها أحواله فاذا جاءت صفاته وأحواله مطابقة فى كتبهم المنزلة فقد صار مصدقا لها فيجب الإيمان به والانقياد لقوله ولام قوله (لتؤمنن به) لام القسم تقديره والله لتؤمنن به (ولتنصرنه) قال البغوى قال الله عز وجل للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب آدم والأنبياء فيهم كالمصابيح أخذ عليهم الميثاق فى أمر محمد ﷺ أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى الآية وقال الإمام فخر الدين الرازى يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما قرر فى عقولهم من الدلائل الدالة على أن الانقياد من الله واجب فاذا جاء رسول وظهرت المعجزات الدالة على صدقه فاذا أخبرهم بعد ذلك أن الله أمر الخلق بالإيمان به عرفوا عند ذلك وجوبه بتقرير هذا الدليل فى عقولهم فهذا هو المراد من الميثاق (قال أأقررتم) يعنى قال الله تعالى أأقررتم فان فسرنا إن أخذ الميثاق كان من النبيين؛ كان معناه قال الله تعالى للنبيين أأقررتم بالإيمان به والنصر له وإن فسرنا بأن أخذ الميثاق كان على الأمم كان معناه قال كل نبى لأمته أأقررتم وذلك لأنه تعالى أضاف أخذ الميثاق إلى نفسه وإن كان النبيون أخذوه على الأمم فلذلك طلب هذا الإقرار وأضافه إلى نفسه وإن وقع من الأنبياء والمقصود أن الأنبياء بالغوا فى إثبات هذا الميثاق وتأكيده على الأمم وطالبوهم بالقبول وأكدوا ذلك بالإشهاد (وأخذتم على ذلكم إصرى) أى عهدى والإصر العهد الثقيل وقيل سمى العهد إصرا لأنه مما يؤصر أى يشد ويعقد (قالوا

(قالوا أقررنا قال) الله تعالى (فاشهدوا) أى فاشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم (وأنا معكم من الشاهدين) عليكم وعليهم وقال ابن عباس فاشهدوا أى فاعلموا وقال سعيد بن المسيب قال الله تعالى للملائكة فاشهدوا عليهم كناية عن غير مذكور (فمن تولى بعد ذلك) الإقرار (فأولئك هم الفاسقون) العاصون الخارجون عن الإيمان قوله عز وجل (أفغير دين الله يبغون) وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فادعى كل واحد أنه على دين إبراهيم عليه السلام واختصموا إلى رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ كلا الفريقين برئ من دين إبراهيم عليه السلام فغضبوا وقالوا لا نرضى بقضائك

ولا نأخذ بدينك فأنزل الله تعالى أفغير دين الله يبغون . قرأ أهل البصرة وحفص عن عاصم يبغون بالياء لقوله تعالى وأولئك هم الفاسقون وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى لما آتيتكم (وله أسلم) خضع وانقاد (من فى السموات والأرض طوعا وكرها) فالطوع الانقياد والاتباع بسهولة والكره ما كان بمشقة وإباء من النفس واختلفوا فى قوله طوعا وكرها . قال الحسن أسلم أهل السموات طوعا وأسلم من فى الأرض بعضهم طوعا وبعضهم كرها خوفا من السيف والسبى . وقال مجاهد طوعا المؤمن وكرها ذلك الكافر بدليل «ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال وقيل هذا يوم الميثاق حين قال لهم ألست بربكم قالوا بلى فقال بعضهم طوعا وبعضهم كرها وقال قتادة المؤمن من أسلم طوعا فنفعه الإيمان والكافر أسلم كرها فى وقت اليأس فلم ينفعه الإسلام قال الله تعالى « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » وقال الشعبى هو استعاذتهم به عند اضطرارهم كما قال الله تعالى فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين وقال الكلبى طوعا الذى ولد فى الإسلام وكرها الذين أجبروا على الإسلام ممن يسبى منهم فيجاء بهم فى السلاسل (وإليه ترجعون) قرأ بالياء حفص عن عاصم ويعقوب كما قرأ يبغون بالياء وقرأ الآخرون بالتاء فيهما إلا أبو عمرو فانه قرأ يبغون بالياء وترجعون بالتاء قال لأن الأول خاص والثانى عام لأن مرجع جميع الخلق إلى الله عز وجل قوله تعالى (قل آمنا بالله

(قالوا أقررنا) أى قال النبيون أقررنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدقين لما معنا من كتبك (قال فاشهدوا) يعنى قال الله عز وجل للنبيين فاشهدوا يعنى أنتم على أنفسكم وقيل على أممكم وأتباعكم الذين أخذتم عليهم الميثاق وقيل قال الله للملائكة فاشهدوا فهو كناية عن غير مذكور وقيل معناه فاعلموا وبينوا لأن أصل الشهادة العلم والبيان (وأنا معكم من الشاهدين) يعنى قال الله يامعشر الأنبياء وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعلى أتباعكم أو قال للملائكة وأنا معكم من الشاهدين عليهم (فمن تولى) أى أعرض عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ونصرته (بعد ذلك) الإقرار (فأولئك هم الفاسقون) أى الخارجون عن الإيمان والطاعة . قوله عز وجل (أفغير دين الله يبغون) وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فادعى كل فريق منهم أنه على دين إبراهيم عليه السلام فاختصموا إلى النبى ﷺ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم فغضبوا وقالوا لا نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فأنزل الله أفغير دين الله الهمزة للاستفهام والمراد منه الانكار والتوبيخ يعنى أفبعد أخذ الميثاق عليهم ووضوح الدلائل لهم أن دين إبراهيم هو دين الله الإسلام تبغون قرئ بالتاء على خطاب الحاضر أى أفغير دين الله تطلبون يامعشر اليهود والنصارى وقرئ بالياء على الغيبة ردا على قوله فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (وله أسلم) أى خضع وانقاد (من فى السموات والأرض طوعا وكرها) الطوع الانقياد والاتباع بسهولة والكره ما كان من ذلك بمشقة وإباء من النفس واختلفوا فى معنى قوله طوعا وكرها فقيل أسلم أهل السموات طوعا وأسلم بعض أهل الأرض طوعا وبعضهم كرها من خوف القتل والسبى وقيل أسلم المؤمن طوعا وانقاد الكافر كرها وقيل هذا فى يوم أخذ الميثاق حين قال ألست بربكم قالوا بلى فمن سبقت له السعادة قال ذلك طوعا ومن سبقت له الشقاوة قال ذلك كرها وقيل أسلم المؤمن طوعا فنفعه إسلامه يوم القيامة والكافر يسلم كرها عند الموت فى وقت اليأس فلم ينفعه ذلك فى القيامة وقيل أنه لا سبيل لأحد من الخلق إلى الامتناع على الله فى مراده فأما المسلم فينقاد لله فيما أمره أو نهاه عنه طوعا . وأما الكافر فينقاد لله كرها فى جميع مايقتضى عليه ولا يمكنه دفع قضائه وقدره عنه (وإليه ترجعون) قرئ بالتاء والياء والمعنى أن مرجع الخلق كلهم إلى الله يوم القيامة ففيه وعيد عظيم لمن خالفه فى الدنيا . قوله عز وجل (قل آمنا بالله) لما ذكر الله عز وجل فى الآية المتقدمة أخذ الميثاق على الأنبياء فى تصديق الرسول الذى يأتى مصدقا لما معهم بين فى هذه

وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) ذكر الملل والأديان واضطراب الناس فيها ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول آمنا بالله الآية قوله (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) نزلت فى اثنى عشر رجلا ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا منهم الحارث بن سويد الأنصارى فنزلت فيهم ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه (وهو فى الآخرة من الخاسرين كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم) لفظه استفهام ومعناه جحد أى لا يهدى الله وقيل معناه كيف يهديهم الله فى الآخرة إلى الجنة والثواب وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين .

الآية أن من صفة محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لما معهم فقال تعالى قل آمنا بالله وإنما وحد الضمير فى قوله قل وجمع فى قوله آمنا بالله لأنه إنما خاطبه بلفظ الواحد ليدل هذا الكلام على أنه لا يبلغ هذا التكليف عن الله تعالى إلى الخلق إلا هو ثم قال آمنا بالله تنبيها على أنه حين قال هذا القول وافقه أصحابه فحسن الجمع فى قوله آمنا ومعنى الآية قل يا محمد صدقنا بالله أنه ربنا وإلهنا لا إله لنا غيره ولا رب سواه وإنما قدم الإيمان بالله على غيره لأنه الأصل (وما أنزل علينا) يعنى وقل يا محمد وصدقنا أيضا بما أنزل علينا من وحيه وتنزيله وإنما قدم ذكر القرآن لأنه أشرف الكتب وأنه لم يحرف ولم يبدل وغيره حرف وبدل (وما أنزل على إبراهيم وإسمعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى) إنما خص هؤلاء الأنبياء بالذكر لأن أهل الكتاب يعترفون بوجودهم ولم يختلفوا فى نبوتهم والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر وكانوا أنبياء ثم جمع جميع الأنبياء فقال (والنبيون) أى وما أوتى النبيون (من ربهم لا نفرق بين أحد منهم) وذلك أن أهل الكتاب يؤمنون ببعض النبيين ويكفرون ببعض فأمر الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يخبر عن نفسه وعن أمته أنه يؤمن بجميع الأنبياء . فان قلت لم عدى أنزل فى هذه الآية بحرف الاستعلاء وفيما تقدم من مثلها فى البقرة بحرف الانتهاء . قلت لوجود المعنيين جميعا لأن الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسل فجاء تارة بأحد المعنيين وتارة بالمعنى الآخر (ونحن له مسلمون) أى موحدون مخلصون أنفسنا له لا نجعل له شريكا فى عبادتنا . قوله عز وجل (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) يعنى أن الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام وإن كل دين سواه غير مقبول عنده لأن الدين الصحيح ما يأمر الله به ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه (وهو فى الآخرة من الخاسرين) يعنى الذين وقعوا فى الخسارة وهو حرمان الثواب وحصول العقاب وروى ابن جرير الطبرى عن عكرمة فى قوله ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه قالت اليهود فنحن مسلمون فقال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل لهم ولله على الناس حج البيت فلم يحجوا . قوله عز وجل (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم) نزلت فى إثنى عشر رجلا ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة وأتوا مكة كفارا منهم الحارث بن سويد الأنصارى وطعمة بن أبيرق وحجوج ابن الأسلت وقال ابن عباس نزلت فى اليهود والنصارى وذلك أن اليهود كانوا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم يستفتحون به على الكفار ويقرون به ويقولون قد أظل زمان نبى مبعوث فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كفروا به بغيا وحسدا ومعنى كيف يهدى الله كيف يرشد الله للصواب ويوفق للإيمان قوما كفروا أى جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم أى تصديقهم إياه وإقرارهم به وبما جاء به من عند ربه (وشهدوا أن الرسول حق) يعنى وبعد أن أقروا وشهدوا أن محمدا رسول الله إلى خلقه وأنه حق وصدق (وجاءهم البينات) يعنى الحجج والبراهين والمعجزات الدالة على صحة نبوته التى بمثلها تثبت النبوة (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى لا يوفقهم إلى الحق والصواب لما سبق فى علمه تعالى أنهم ظالمون وقيل لا يهديهم فى الآخرة إلى الجنة والثواب . فان قلت كيف قال فى أول الآية كيف يهدى الله قوما كفروا وقال فى آخرها والله لا يهدى القوم الظالمين وهذا تكرار . قلت ليس فيه تكرار لأن قوله كيف يهدى الله قوما كفروا إنما هو مختص بأولئك المرتدين عن الإسلام ثم أنه تعالى عمم ذلك الحكم فى آخر

الآية

أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) وذلك أن الحارث بن سويد لما لحق بالكفار ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى : (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) لما كان منه فحملها إليه رجل من قومه وقرأها عليه فقال الحارث إنك والله فيما علمت لصدوق وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصدق منك وإن الله عز وجل لأصدق الثلاثة فرجع الحارث إلى المدينة وأسلم وحسن إسلامه قوله عز وجل (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا) قال قتادة والحسن نزلت في اليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقال أبو العالية نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لما رأوه بعد إيمانهم بنعته وصفته في كتبهم ثم ازدادوا كفرا يعني ذنوبا في حال كفرهم قال مجاهد نزلت في جميع الكفار أشركوا بعد إقرارهم بأن الله خالقهم ثم ازدادوا كفرا أي أقاموا على كفرهم حتى هلكوا عليه قال الحسن ثم ازدادوا كفرا كلما نزلت آية كفروا بها فازدادوا كفرا وقيل ثم ازدادوا كفرا بقولهم نتربص بمحمد ريب المنون قال الكلبي نزلت في أحد عشر من أصحاب الحارث بن سويد لما رجع الحارث إلى الإسلام أقاموا هم على الكفر بمكة وقالوا نقيم على الكفر ما بدا لنا فمتى أردنا الرجعة نزل فينا ما نزل في الحارث فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فمن دخل منهم في الإسلام قبلت توبته ونزل فيمن مات منهم كافرا « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار » الآية فان قيل قد وعد الله قبول توبة من تاب فما معنى قوله (لن تقبل توبتهم

الآية فقال « والله لا يهدي القوم الظالمين » يعني جميع الكفار المرتدين عن الإسلام والكافر الأصلي وإنما سمي الكافر ظالما لأنه وضع العبادة في غير موضعها (أولئك جزاؤهم) يعني الذين كفروا بعد إيمانهم (أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها) أي في عذاب اللعنة وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أي لا يؤخرون عن وقت العذاب لا يؤخر عنهم من وقت إلى وقت ثم استثنى سبحانه وتعالى فقال (إلا الذين تابوا من بعد ذلك) يعني من بعد ارتدادهم وكفرهم وذلك أن الحارث بن سويد الأنصاري لما لحق بالكفار ندم على ذلك فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لي من توبة ففعلوا ذلك فأنزل الله تعالى إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا الآية فبعث بها إليه أخوه الجلاس مع رجل من قومه فأقبل إلى المدينة تائبا وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم توبته وحسن إسلامه (وأصلحوا) أي وضموا إلى التوبة الأعمال الصالحة فبين أن التوبة وحدها لا تكفي حتى يضاف إليها العمل الصالح وقيل معناه وأصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات وظاهرهم مع الخلق بالعبادات والطاعات (فان الله غفور رحيم) أي غفور لقبائحهم في الدنيا بالستر رحيم في الآخرة بالعفو وقيل غفور بإزالة العذاب رحيم بإعطاء الثواب . قوله عز وجل (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) نزلت في اليهود وذلك أنهم كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى وغيره من أنبيائهم ثم ازدادوا كفرا يعني كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقيل نزلت في اليهود والنصارى وذلك أنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لما رأوه بعد إيمانهم به قبل مبعثه لما ثبت عندهم من نعته وصفته في كتبهم ثم ازدادوا كفرا يعني ذنوبا في حال كفرهم وقيل نزلت في جميع الكفار وذلك أنهم أشركوا بالله بعد إقرارهم بأن الله خالقهم ثم ازدادوا كفرا يعني بإقامتهم على كفرهم حتى هلكوا عليه وقيل زيادة كفرهم هو قولهم نتربص بمحمد ريب المنون وقيل نزلت في أحد عشر رجلا من أصحاب الحارث بن سويد الذين ارتدوا عن الإسلام فلما رجع الحارث إلى الإسلام أقاموا على كفرهم بمكة وقالوا نقيم على الكفر ما بدا لنا ومتى أردنا الرجعة ينزل فينا مثل ما نزل في الحارث فلما فتح رسول الله ﷺ مكة فمن دخل منهم في الإسلام قبلت توبته ونزل فيمن مات منهم على كفره « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار » الآية . فان قلت قد وعد الله قبول التوبة ممن تاب فما يعني قوله لن تقبل توبتهم . قلت اختلف المفسرون في معنى قوله لن تقبل توبتهم فقال الحسن وعطاء وقتادة والسدي لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت وهو وقت الحشرجة لأن الله تعالى قال « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن » فان الذي يموت على الكفر لا تقبل توبته كأنه قال أن اليهود أو الكفار أو المرتدين الذين فعلوا

واولئك هم الضالون) قيل لن تقبل توبتهم إذا رجعوا فى حال المعاينة كما قال وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن وقيل هذا فى أصحاب الحارث بن سويد حيث أعرضوا عن الإسلام وقالوا نتربص بمحمد ريب المنون فان ساعده الزمان نرجع إلى دينه لن تقبل توبتهم لن يقبل ذلك لأنهم متربصون غير محققين وأولئك هم الضالون قوله عز وجل (٣٧٨) (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض) أى قدر مايملأ الأرض من شرقها إلى غربها (ذهبا) نصب على التفسير كقولهم عشرون درهما (ولو افتدى به) قيل معناه لو افتدى به والواو زائدة مقحمة (أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد ابن بشار أخبرنا شعبة عن أبى عمران قال سمعت أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال «يقول الله لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة أرأيت لو أن لك مافى الأرض جميعا من شىء أكنت تفدى به فيقول نعم فيقول أردت منك أهون من ذلك وأنت فى صلب آدم أن لاتشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك بى» قوله تعالى (لن تنالوا البر) يعنى الجنة قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وقال مقاتل هو ابن حيان التقوى وقيل الطاعة وقيل الخير وقال الحسن لن تكونوا أبرارا أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا أبو بكر أحمد ابن الحسن الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى أخبرنا محمد بن حماد الصالحى قال أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عليكم بالصدق فان الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ومايزال

مافعلوا ثم ماتوا على ذلك لن تقبل توبتهم وقال ابن عباس أنهم الذين ارتدوا وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم والكفر فى ضمائرهم وقال أبو العالية هم قوم تابوا من ذنوب عملوها فى حال الشرك ولم يتوبوا من الشرك فان توبتهم فى حال الشرك غير مقبولة وقال مجاهد لن تقبل توبتهم إذا ماتوا على الكفر وقال ابن جرير الطبرى معنى لن تقبل توبتهم أى مما ازدادوا من من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم لا من كفرهم لأن الله تعالى لما وعد أن يقبل التوبة عن عباده وأنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب لقوله تعالى «إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم» علم أن المعنى الذى لا تقبل التوبة منه غير المعنى الذى تقبل التوبة منه فعلى هذا فالذى لاتقبل التوبة منه هو الإزدياد على الكفر بعد الكفر لا يقبل الله منه توبة ما أقام على كفره لأن الله تعالى لا يقبل عمل مشرك ما أقام على شركه فاذا تاب من شركه وكفره وأصلح فان الله كما وصف نفسه غفور رحيم . وقوله تعالى (وأولئك هم الضالون) يعنى هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا وهم الذين ضلوا عن سبيل الحق وأخطؤوا منهاجه . قوله عز وجل (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار) قال ابن عباس لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دخل من كان من أصحاب الحارث بن سويد حيا فى الإسلام فنزلت هذه الآية فيمن مات منهم على الكفر وقيل نزلت فيمن مات كافرا من جميع أصناف اليهود والنصارى وعبدة الأصنام فالآية عامة فى جميع من مات على الكفر (فلن يقبل أحدهم ملء الأرض ذهبا) أى قدر ما يملأ الأرض من شرقها إلى غربها (ولو افتدى به) قيل معناه لو افتدى به والواو زائدة مقحمة وقيل الواو على حالها وفائدتها أنها للعطف والتقدير لو تقرب إلى الله بملء الأرض ذهبا وقد مات على كفره لم ينفعه ذلك وكذا لو افتدى من العذاب بملء الأرض ذهبا لن يقبل منه وهذا آكد فى التغليظ لأنه تصريح بنفى القبول من جميع الوجوه . فان قلت الكافر لايملك شيئا فى الآخرة فما وجه قوله فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا قلت الكلام ورد على سبيل الفرض والتقدير والمعنى لو أن للكافر قدر ملء الأرض ذهبا يوم القيامة لبذله فى تخليص نفسه من العذاب ولكن لايقدر على شىء من ذلك وقيل معناه لو أن الكافر أنفق فى الدنيا ملء الأرض ذهبا ثم مات على كفره لم ينفعه ذلك لأن الطاعة مع الكفر غير مقبولة (أولئك) إشارة إلى من مات على الكفر (لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين) يعنى مانعين يمنعونهم من العذاب (ق) عن أنس ابن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله عز وجل لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة لو أن لك مافى الأرض من شىء أكنت تفتدى به فيقول نعم فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت فى صلب آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا الشرك لفظ مسلم . قوله عز وجل (لن تنالوا البر) قال ابن عباس يعنى الجنة وقيل البر هو التقوى وقيل

الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فان الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا» قوله تعالى (حتى تنفقوا مما تحبون) أى من أحب أموالكم إليكم روى الضحاك عن ابن عباس أن المراد منه أداء الزكاة وقال مجاهد والكلبى هذه الآية نسختها آية الزكاة وقال الحسن كل إنفاق يبتغى به المسلم وجه الله حتى التمرة ينال به هذا البر وقال عطاء لن تنالوا البر أى شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن إسحاق بن عبدالله بن أبى طلحة أنه سمع أنس بن مالك « يقول كان أبو طلحة الأنصارى أكثر الأنصار بالمدينة مالا وكان أحب ماله إليه بيرحا وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس فلما نزلت هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إن الله تعالى يقول فى كتابه لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وإن أحب أموالى إلى بيرحا وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يارسول الله حيث شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ماقلت فيها وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين فقال أبو طلحة أفعل يارسول الله فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه » وروى عن مجاهد قال كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت فدعا بها فأعجبته فقال عمر إن الله عز وجل يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فأعتقها عمر وعن حمزة بن عبدالله بن عمر قال

هو الطاعة وقيل معناه لن تنالوا حقيقة البر ولن تكونوا أبرار حتى تنفقوا مما تحبون وقيل معناه لن تنالوا بر الله وهو ثوابه وأصل البر التوسع فى فعل الخير يقال بر العبد ربه أى توسع فى طاعته فالبر من الله الثواب ومن العبد الطاعة وقد يستعمل فى الصدق وحسن الخلق لأنهما من الخير المتوسع فيه (ق) عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الصدق يهدى إلى البر وأن البر يهدى إلى الجنة وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا (م) عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال البر حسن الخلق والإثم ماحاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس منك فعلى هذا يكون المعنى عليكم بالأعمال الصالحة حتى تكونوا أبرارا وتدخلوا فى زمرة الأبرار ومن قال إن لفظ البر هو الجنة فقال معنى الآية لن تنالوا ثواب البر المؤدى إلى الجنة (حتى تنفقوا مما تحبون) يعنى من جيد أموالكم أنفسها عندكم قال الله تعالى ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون وقيل هو أن تنفق من مالك ماأنت محتاج إليه قال الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (ق) عن أبى هريرة قال أتى رسول الله ﷺ رجل فقال يارسول الله أى الصدقة أفضل؟ قال إن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا إلا وقد كان واختلفوا فى هذا الإنفاق قال ابن عباس هو الزكاة المفروضة والمعنى لن تنالوا حتى تخرجوا زكاة أموالكم فعلى هذا القول قيل إن الآية منسوخة بآية الزكاة وفيه بعد لأنه ترغيب فى إخراج الزكاة وقال ابن عمر المراد بها سائر الصدقات وقال الحسن كل شىء أنفقه المسلم من ماله مما يبتغى به وجه الله ويطلب ثوابه حتى التمرة فانه يدخل فى قوله لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (ق) عن أنس بن مالك قال كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا وكان أحب أمواله إليه بيرحا وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس فلما نزلت هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إن الله تعالى يقول فى كتابه لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وإن أحب أموالى إلى بيرحا وأنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يارسول الله حيث شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ بخ ذلك مال رابح أو قال ذلك مال رابح أرى أن تجعلها فى الأقربين فقال أبو طلحة افعل يارسول الله فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه قوله بخ بخ هى كلمة تقال عند المدح والرضا وتكريرها للمبالغة وهى مبنية على السكون فاذا وصلت جرت ونونت فقلت بخ بخ قوله مال رابح أى ذو ربح وفى الرواية الأخرى ذلك مال رايح بالياء معناه يروح عليك نفعه وثوابه وبيرحا اسم موضع

خطرت على قلب عبد الله بن عمر هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون قال ابن عمر فذكرت ماأعطانى الله عز وجل فما كان شىءأعجب إلى من فلانة هى حرة لوجه الله تعالى قال ولولاأنى لاأعود فى شىءجعلته لله لنكحتها (وما تنفقوا من شىء فان الله به عليم) أى يعلمه ويجازى به قوله تعالى (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) سبب نزول هذه

الآية أن اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم وكان إبراهيم لايأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكلها فلست على ملته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذلك حلالا لإبراهيم عليه السلام فقالوا كل ماتحرمه اليوم كان ذلك حراما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فأنزل الله تعالى هذه الآية «كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل» يريد سوى الميتة والدم فانه لم يكن حلالا قط إلا ماحرم إسرائيل على نفسه وهو يعقوب عليه السلام من قبل أن تنزل التوراة يعنى ليس الأمر على ماقالوا من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم، بل كان الكل حلالا له ولبنى إسرائيل وإنما حرمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة يعنى ليست فى التوراة حرمتها واختلفوا فى الطعام الذى حرمه يعقوب على نفسه وفى سببه قال أبو العالية وعطاء ومقاتل والكلبى كان ذلك الطعام لحمان الإبل وألبانها، وروى أن يعقوب مرض مرضا شديدا فطال سقمه فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها فحرمهما وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى والضحاك هى العروق وكان السبب فى ذلك أنه اشتكى عرق النسا وكان أصل وجعه فيما روى جويبر عن الضحاك أن يعقوب كان نذر إن وهبه الله اثنى عشر ولدا وأتى من

بالمدينة وهو حائط كان لأبى طلحة وروى عن مجاهد قال كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء يوم فتحت فلما جاءت أعجبته فقال عمر إن الله عز وجل يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون فأعتقها عمر وعن حمزة بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما خطرت على قلبه هذه الآية «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» قال عبد الله فذكرت ما أعطانى الله تعالى فما كان شىء أحب إلى من فلانة فقلت هى حرة لوجه الله تعالى قال ولولا أنى لا أعود فى شىء جعلته لله لنكحتها وعن عمرو بن دينار قال لما نزلت هذه الآية لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها سبل كان يحبها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق بهذه يارسول الله فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد بن حارثة فقال يارسول الله إنما أردت أن أتصدق بها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبلت صدقتك وفى رواية كأن زيدا أوجد فى نفسه فلما رأى ذلك منه النبى ﷺ قال أما إن الله قد قبلها وروى أن أباذر نزل به ضيف فقال للراعى ائتنى بخير إبلى فجاء بناقة مهزولة فقال للراعى خنتنى فقال الراعى وجدت خير الإبل فحلها فذكرت يوما حاجتكم إليه فقال إن يوم حاجتى إليه ليوم أوضع فى حفرتى وقوله تعالى (وما تنفقوا من شىء) يعنى من أى شىء كان من طيب تحبونه أو من خبيث تكرهونه (فان الله به عليم) أى يعلمه ويجازيكم به. قوله عز وجل (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم وكان إبراهيم لايأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكل ذلك كله فلست على ملته فقال النبى ﷺ كان ذلك حلالا لإبراهيم قالوا كل ماتحرمه اليوم كان ذلك حراما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فأنزل الله عز وجل كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه وهو يعقوب من قبل أن تنزل التوراة يعنى ليس الأمر على ماتدعيه اليهود من تحريم لحوم الإبل على إبراهيم بل كان ذلك حلالا على إبراهيم وإسمعيل وإسحاق ويعقوب وإنما حرمه يعقوب بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة فى أولاده فأنكر اليهود ذلك فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باحضار التوراة وطلب منهم أن يستخرجوا منها أن ذلك كان حراما على إبراهيم فعجزوا عن ذلك وافتضحوا وبأن كذبهم فيما ادعوا من حرمة هذه الأشياء على إبراهيم وقيل إن اليهود أنكروا شرع محمد ﷺ وادعوا أن النسخ غير جائز فأبطل الله ذلك عليهم وأخبر أن كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه فذلك الذى حرمه على نفسه كان حلالا ثم صار حراما عليه وعلى أولاده فقد حصل النسخ وبطل قول اليهود بأن النسخ غير جائز فأنكرت اليهود ذلك وقالوا بل كان ذلك حراما من زمن آدم إلى هذا الوقت فألزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باحضار التوراة وقال إن التوراة ناطقة بأن بعض أنواع الطعام إنما حرم بسبب أن إسرائيل حرمه على

نفسه

بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم فتلقاه ملك من الملائكة فقال يايعقوب إنك رجل قوى فهل لك فى الصراع فصارعه فلم يصرع واحد منهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك ، ثم قال له الملك أما أنى لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت آخر ولدك فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجا فلما قدمها يعقوب أراد ذبح ولده ونسى ماقال له الملك فأتاه الملك وقال إنما غمزتك للمخرج وقد وفى نذرك فلا سبيل لك إلى ولدك وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى أقبل يعقوب من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو وكان رجلا بطشا قويا فلقيه ملك فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه فغمز الملك فخذ يعقوب ثم صعد إلى السماء ويعقوب عليه السلام ينظر إليه فهاج به عرق النسا ولقى من ذلك بلاء وشدة وكان لاينام بالليل من الوجع ويبيت وله زقاء أى صياح فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لايأكل عرقا ولا طعاما فيه عرق فحرمه على نفسه فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق يخرجونها من اللحم وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس لما أصاب يعقوب عرق النسا وصف له الأطباء أن يجتنب لحمان الإبل فحرمها يعقوب على نفسه وقال الحسن حرم إسرائيل على نفسه لحم الجزور تعبدا لله تعالى فسأل ربه أن يجيز له ذلك فحرمها الله على ولده ثم اختلفوا فى هذا الطعام المحرم على بنى إسرائيل بعد نزول التوراة فقال السدى حرم الله عليهم فى التوراة ماكانوا يحرمونه قبل نزولها وقال عطية إنما كان محرما عليهم بتحريم إسرائيل فانه قد قال إن عافانى الله لا آكله ولا يأكله ولد لى ولم يكن محرما عليهم فى التوراة وقال الكلبى لم يحرمه الله عليهم فى التوراة وإنما حرم عليهم بعد التوراة بظلمهم

نفسه فخاف اليهود من الفضيحة وامتنعوا من إحضار التوراة فحصل بذلك كذبهم وأنهم ينسبون إلى التوراة ماليس فيها وبطل قولهم بأن النسخ غير جائز وفى هذا دليل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان رجلا أميا لم يقرأ الكتب ولم يعرف مافى التوراة فلما أخبر أن ذلك ليس فى التوراة علم أن الذى أخبر به صلى الله عليه وسلم وحى من الله تعالى وقوله تعالى كل الطعام يعنى كل أنواع الطعام أو سائر المطعومات كان حلا أى حلالا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السلام واختلفوا فى الذى حرم يعقوب على نفسه قيل حرم لحوم الأبل وألبانها وروى الطبرى بسنده عن ابن عباس «أن عصابة من اليهود حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ياأبا القاسم أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضا شديدا فطال سقمه منه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها فقالوا اللهم» نعم وقال ابن عباس هى العروق وكان سبب ذلك أنه اشتكى عرق النسا وكان أصل وجعه فيما روى عن الضحاك أن يعقوب كان نذر لئن وهب الله له اثنى عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح أحدهم وفى رواية آخرهم فتلقاه ملك من الملائكة وقال يايعقوب إنك رجل قوى فهل لك فى الصراع فعالجه فلم يصرع أحدهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا من ذلك ثم قال أما أنى لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك قد نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت آخر ولدك فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجا فلما قدم يعقوب بيت المقدس أراد ذبح ولده ونسى ماقال له الملك فأتاه الملك وقال له إنما غمزتك للمخرج وقد وفى نذرك فلا سبيل لك إلى ذبح ولدك وقال ابن عباس فى آخرين أقبل يعقوب من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه العيص وكان يعقوب رجلا بطشا قويا فلقيه ملك فى صورة رجل فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه فغمز الملك فخذ يعقوب وصعد إلى السماء ويعقوب ينظر فهاج به عرق النسا ولقى منه شدة فكان لاينام الليل من الوجع ويبيت وله رغاء أى صياح فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لا يأكل عرقا ولا طعاما فيه عرق فحرمه على نفسه فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق ويخرجونها من اللحم ولا يأكلونها وقيل لما أصاب يعقوب ذلك وصف له الأطباء أن يجتنب لحوم الإبل فحرمها يعقوب على نفسه وقيل إنما حرم يعقوب لحوم الجزور تعبدا لله تعالى وسأل ربه أن تنجز ذلك فحرمه الله على ولده وهو ظاهر الآية لأن الله تعالى قال كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل ثم استثنى ماحرم إسرائيل على نفسه فوجب بحكم الاستثناء أن يكون ذلك حراما على بنى إسرائيل أماقوله من قبل أن تنزل التوراة فمعناه أن قبل إنزال التوراة كان كل أنواع الطعام حلالا لبنى إسرائيل سوى ماحرمه إسرائيل على نفسه أمابعد نزول التوراة

فقد حرم الله تعالى عليهم أشياء كثيرة من أنواع الطعام ثم اختلفوا فى حال هذا الطعام المحرم على بنى إسرائيل بعد نزول التوراة فقال السدى حرم الله عليهم فى التوراة ما كانوا حرموه على أنفسهم قبل نزولها وقال عطية إنما كان حراما عليهم بتحريم إسرائيل فانه قال إن عافانى الله تعالى لا يأكله ولد لى ولم يكن ذلك محرما عليهم فى التوراة وقال الكلبى لم يحرمه الله فى التوراة وإنما حرم عليهم بعد نزول التوراة لظلمهم كما قال تعالى « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » وقال تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا إلى أن قال ذلك جزيناهم ببغيهم « وإنا لصادقون » فكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنبا عظيما حرم الله عليهم طعاما طيبا أوصب عليهم رجزا وهو الموت وقال الضحاك لم يكن شىء من ذلك حراما عليهم ولا حرمه الله فى التوراة وإنما حرموه على أنفسهم إتباعا لأبيهم ثم أضافوا تحريمه لله عز وجل فكذبهم الله تعالى فقال الله تعالى (قل فأتوا بالتوراة) يعنى قل لهم يامحمد فأتوا بالتوراة (فاتلوها) أى فاقرءوها ومافيها حتى يتبين أن الأمر كما قلتم (إن كنتم صادقين) يعنى فيما ادعيتم فلم يأتوا بها وخافوا الفضيحة فقال تعالى (فمن افترى على الله الكذب) الافتراء اختلاق الكذب والافتراء الكذب والقذف والافساد وأصله من فرى الأديم إذا قطعه لأن الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له فى الوجود (من بعد ذلك) أى من بعد ظهور الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب ولم يكن محرما قبله (فأولئك هم الظالمون) أى هم المستحقون للعذاب لأن كفرهم ظلم منهم لأنفسهم ولمن أضلوه عن الدين من بعدهم وهذا رد على اليهود وتكذيب لهم حيث أرادوا براءة ساحتهم فيما بقى عليهم مما نطق به القرآن من تعديد مساويهم التى كانوا يرتكبونها (قل صدق الله) يعنى قل صدق الله يامحمد فيما أخبر أن ذلك النوع من الطعام صار حراما على إسرائيل وأولاده بعد أن كان حلالا لهم فصح القول بالنسخ وبطل قول اليهود وقيل معناه صدق الله فى قوله أن لحوم الإبل وألبانها كانت محللة لإبراهيم عليه السلام وإنما حرمت على بنى إسرائيل بسبب تحريمها إسرائيل على نفسه وقيل صدق الله فى أن سائر الأطعمة كانت محللة على بنى إسرائيل وإنما حرمت على اليهود جزاء على قبائح أفعالهم ففيه تعريض بكذب اليهود والمعنى ثبت أن الله تعالى صادق فيما أنزل وأخبر وأنتم كاذبون يامعشر اليهود (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا) أى اتبعوا مايدعوكم إليه محمد صلى الله عليه وسلم من ملة إبراهيم وهى الإسلام وهو الدين الصحيح وهو الذى عليه محمد ومن آمن معه وإنما دعاهم إلى ملة إبراهيم لأنها ملة محمد صلى الله عليه وسلم (وما كان من المشركين) أى لم يدع مع الله إلها آخر ولا عبدا سواه . قوله عز وجل (إن أول بيت وضع للناس ببكة) سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للمسلمين بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مهاجر الأنبياء وقبلتهم وأرض المحشر وقال المسلمون بل الكعبة أفضل فأنزل الله هذه الآية وقيل لما ادعت اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم أكذبهم الله تعالى وأخبر أن إبراهيم كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين وأمرهم باتباعه فقال تعالى فى الآية المتقدمة « فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا » وكان من أعظم شعائر ملة إبراهيم الحج إلى الكعبة ذكر فى هذه الآية فضيلة البيت ليفرع عليها إيجاب الحج وقوله إن أول بيت وضع للناس الأول هو الفرد السابق المتقدم على ماسواه وقيل هو إسم للشىء الذى يوجد ابتداء سواء حصل عقبه شىء آخر أولم يحصل والمعنى إن أول بيت وضع للناس أى وضعه الله موضعا للطاعات والعبادات وقبلة للصلاة وموضعا للحج وللطواف تزداد فيه الخيرات وثواب الطاعات وكونه وضع

كما قال الله تعالى « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » وقال الله تعالى « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر « إلى أن قال » ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنبا عظيما حرم الله عليهم طعاما طيبا أوصب عليهم رجزا وهو الموت وقال الضحاك لم يكن شىء من ذلك حراما عليهم ولا حرمه الله فى التوراة وإنما حرموه على أنفسهم اتباعا لأبيهم ثم أضافوا تحريمه إلى الله فكذبهم الله عز وجل فقال (قل) يامحمد (فأتوا بالتوراة فاتلوها) حتى يتبين لكم أنه كما قلت (إن كنتم صادقين) فلم يأتوا فقال الله عز وجل (فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) وإنما دعاهم إلى اتباع ملة إبراهيم لأن فى اتباع ملة إبراهيم اتباعه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (أن أول بيت وضع للناس للذى ببكة

للناس

للناس يعني يشترك فيه جميع الناس كما قال تعالى «سواء العاكف فيه والباد». فان قلت كيف أضافه إلى نفسه مرة في قوله وطهر بيتي وأضافه للناس أخرى بقوله وضع للناس. قلت أما إضافته إلى نفسه فعلى سبيل التشريف والتعظيم له كقوله ناقة الله وأما إضافته إلى الناس فلأنه يشترك فيه جميع الناس لأنه موضع حجهم وقبلة صلاتهم للذى ببكة قيل هي مكة نفسها والعرب تعاقب بين الباء والميم فيقولون ضربة لازب ولازم وقيل بكة اسم لموضع البيت ومكة اسم للبلد وفي اشتقاق بكة وجهان: أحدهما أنه من البك الذى هو عبارة عن الدفع يقال بكه يبكه إذا دفعه وزاحمه ولهذا قال سعيد بن جبير سميت بكة لأن الناس يتباكون فيها أى يزدحمون في الطواف وهو قول محمد بن على الباقر ومجاهد وقتادة الوجه الثاني سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها ولم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله تعالى وهذا قول عبد الله بن الزبير وأما مكة فسميت بذلك لقلة مائها من قول العرب مك الفصيل ضرع أمه وامتكه إذا مص كل مافيه من اللبن وقيل لأنها تمك الذنوب أى تزيلها وسميت مكة أم رحم لأن الرحمة تنزل بها والحاطمة لأنها تحطم من استخلف بحرمتها أو لأن الناس يحطم بعضهم بعضا من الزحمة وسميت أم القرى لأنها أصل كل بلدة ومن تحتها دحيت الأرض واختلف العلماء في كون البيت أول بيت وضع للناس على قولين. أحدهما أنه أول في الوضع والبناء قال مجاهد خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرضين وفي رواية عنه إن الله خلق موضع البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفي عام وقيل هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السموات والأرض خلقه قبل الأرض بألفي عام وكان زبدة بيضاء على وجه الماء فدحيت الأرض من تحته وهذا قول ابن عمر ومجاهد وقتادة والسدى وقيل هو أول بيت بني على الأرض وروى عن على بن الحسين بن على رضى الله عنهم أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتا وهو البيت المعمور وأمر الملائكة أن يطوفوا به ثم أمر الملائكة الذين في الأرض أن يبنوا بيتا في الأرض على مثاله وقدره فبنوا هذا البيت واسمه الضراح وأمر من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور وروى أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام وكانوا يحجونه فلما حجه آدم قالت له الملائكة بر حجك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام وقال ابن عباس هو أول بيت بناه آدم في الأرض قيل إن آدم لما أهبط إلى الأرض استوحش وشكا الوحشة فأمره الله تعالى ببناء الكعبة فبناها وطاف بها وبقي ذلك البناء إلى زمان نوح عليه السلام فلما كان الطوفان رفع الله البيت إلى السماء وبقي موضع البيت أكمة بيضاء إلى أن بعث الله إبراهيم عليه السلام فأمره ببنائه. القول الثاني أن المراد من الأولية كون هذا أول بيت وضع للناس مباركا ويدل عليه سياق الآية وهو قوله تعالى للذى ببكة مباركا وروى أن رجلا قام إلى على بن أبي طالب فقال ألا تخبرني عن البيت أهو أول بيت وضع في الأرض قال لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركا وهدى وفيه مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا وقال الحسن: وهو أول مسجد عبد الله فيه وقال مطرف هو أول بيت وضع للعبادة وقال الضحاك: هو أول بيت وضع فيه البركة وأول بيت وضع للناس يحج إليه وأول بيت جعل قبلة للناس (ق) عن أبي ذر قال «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع في الأرض قال المسجد الحرام قلت ثم أى قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما قال أربعون عاما ثم الأرض لك مسجدا فحيثما أدركت الصلاة فصل» زاد البخاري فان الفضل فيه وقوله (مباركا)

مباركا) سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للمسلمين: بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم وهو مهاجر الأنبياء وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل فأنزل الله تعالى هذه الآية «إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا»

(وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) وليس شئ من هذه الفضائل لبيت المقدس . واختلف العلماء فى قوله تعالى « إن أول بيت وضع للناس للذى » فقال بعضهم هو أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماء والأرض خلقه قبل الأرض بألفى عام وكان زبدة بيضاء على الماء فدحيت الأرض من تحته هذا قول عبد الله ابن عمر ومجاهد وقتادة والسدى وقال بعضهم هو أول بيت بنى فى الأرض روى عن على بن الحسين أن الله تعالى وضع تحت العرش بيتا وهو البيت المعمور فأمر الملائكة أن يطوفوا به ثم أمر الملائكة الذين هم سكان الأرض أن يبنوا فى الأرض بيتا على مثاله وقدره فبنوه واسمه الضراح ، وأمر من فى الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. وروى أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفى عام فكانوا يحجونه فلما حجه آدم قالت له الملائكة بر حجك يا آدم حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام وروى عن ابن عباس أنه قال أراد

به أنه أول بيت بناه آدم فى الأرض وقيل هو أول بيت مبارك وضع هدى للناس يعبد الله فيه ويحج إليه. وقيل هو أول بيت جعل قبلة للناس وقال الحسن والكلبي معناه أن أول مسجد ومتعبد وضع للناس يروى ذلك عن علي ابن أبي طالب قال الضحاك أول بيت وضع فيه البركة وقيل أول بيت وضع للناس يعبد الله فيه كما قال الله تعالى فى بيوت أذن الله أن ترفع يعنى المساجد أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن إسماعيل أنا موسى بن إسماعيل أخبرنا عبد الواحد أنا الأعمش أخبرنا إبراهيم ابن يزيد التيمي عن أبيه قال سمعت أبا ذر يقول «قلت يارسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أولا قال المسجد الحرام قلت ثم أى قال المسجد الأقصى قلت كم كان بينهما قال أربعون سنة ثم قال أينما أدركتك الصلاة بعد فصل فان الفضل فيه» قوله تعالى للذى ببكة . قال جماعة هى مكة نفسها وهو قول الضحاك والعرب تعاقب بين الباء والميم فتقول سبد رأسه وسمده وضربة لازب ولازم وقال الآخرون بكة موضع البيت فى مكة ومكة اسم البلد كله وقيل بكة موضع البيت والمطاف سميت بكة لأن الناس يتباكون فيها أى يزدحمون يبك بعضهم بعضا ويمر بعضهم بين يدى بعض وقال عبد الله بن الزبير سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله وأما مكة سميت بذلك لقلة مائها من قول العرب مك الفصيل ضرع أمه وامتكه إذا امتص كل ما فيه من اللبن وتدعى أم رحم لأن الرحمة تنزل بها مباركا نصب على الحال أي ذا بركة وهدى للعالمين لأنه قبلة للمؤمنين فيه آيات بينات قرأ ابن عباس آية بينة على الواحد وأراد مقام إبراهيم وحده وقرأ الآخرون آيات بينات بالجمع فذكر منها مقام إبراهيم

يعنى ذا بركة وأصل البركة النمو والزيادة وقيل هو ثبوت الخير الالهى فيه وقيل هو أول بيت خص بالبركة وزيادة الخير وقيل لأن الطاعات وسائر العبادات تتضاعف ويزداد ثوابها عنده (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام» (وهدى للعالمين) يعنى أنه قبلة للمؤمنين يهتدون به إلى جهة صلاتهم وقيل لأن فيه دلالة على وجود الصانع المختار لما فيه من الآيات التى لا يقدر عليها غيره وقيل هو هدى للعالمين إلى الجنة لأن من قصده بأن صلى إليه أو حجه فقد أوجب الله تعالى له الجنة برحمته . قوله تعالى (فيه آيات بينات) أى فيه دلالات واضحات على حرمته ومزيد فضله ثم اختلفوا فى تفسير تلك الآيات فقيل هى قوله مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا وقيل الآيات غير مذكورة وهى ما يدل على فضل هذا البيت منها أن الطير لا يطير فوق الكعبة فى الهواء بل ينحرف عنها إذا وصل إليها يمينا وشمالا ومنها أن الوحوش لا تؤذى بعضها فى الحرم حتى الكلاب لا تهيج الظباء ولا تصطادها ومنها أن الطير إذا مرض منه شيء استشفى بالكعبة ومنها تعجيل العقوبة لمن انتهك حرمة البيت وما قصده جبار بسوء إلا أهلكه الله كما أهلك أصحاب الفيل وغيرهم ومن الآيات التى فيه الحجر الأسود والملتزم والحطيم وزمزم ومشاعر الحج التى فيه كلها من الآيات ومنها أن الآمر ببناء هذا البيت هو الجليل والمهندس له جبريل والبانى هو إبراهيم الخليل والمساعد فى بنيانه هو إسماعيل فهذه فضيلة عظيمة لهذا البيت . قوله تعالى (مقام إبراهيم) يعنى الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت وكان فيه أثر قدمى إبراهيم فاندرس من كثرة المسح بالأيدى (ومن دخله كان آمنا) قيل لما كانت الآيات المذكورة عقيب قوله إن أول بيت وضع للناس موجودة فى جميع الحرم علم أن المراد بقوله ومن دخله كان آمنا جميع الحرم ويدل عليه أيضا دعوة إبراهيم حيث قال رب اجعل هذا البلد آمنا يعنى من أن يهاج فيه وكانت العرب يقتل بعضهم بعضا

ويغير

وهو الحجر الذى قام عليه إبراهيم وكان أثر قدميه فيه فاندرس من كثرة المسح بالأيدى ومن تلك الآيات فى البيت الحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها وقيل مقام إبراهيم جميع الحرم ومن الآيات فى البيت أن الطير تطير فلا تعلو فوقه وأن الجارحة إذا قصدت صيدا فاذا دخل الصيد الحرم كفت عنه وأنه بلد صدر إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار وأن الطاعة والصدقة فيها تضاعف بمائة ألف. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أبو محمد بن الحسن بن أحمد المخلدى أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج أخبرنا أبو مصعب أحمد بن أبى بكر الزهرى أنا مالك بن أنس عن زيد بن رباح أخبرنا عبد الله بن عبد الله الأغر عن أبى عبدالله الأعمش عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاه فيما سواه إلا المسجد الحرام» قوله عز وجل «ومن دخله كان آمنا» من أن يهاج فيه وذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال « رب اجعل هذا بلدا آمنا» وكانت العرب فى الجاهلية يقتل بعضهم بعضا ويغير بعضهم على بعض ومن دخل الحرم أمن من القتل والغارة وهو المراد من الآية على قول الحسن وقتادة وأكثر المفسرين قال الله تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم» وقيل المراد به أن من دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله ﷺ كان آمنا كما قال الله تعالى لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين. وقيل هو خبر بمعنى الأمر تقديره ومن دخله فأمنوه كقوله تعالى « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » أى لا ترفثوا ولا تفسقوا حتى ذهب بعض أهل العلم إلى أن من وجب عليه قتل قصاصا أو حدا فالتجأ إلى الحرم فلا يستوفى منه فيه ولكنه لا يطعم ولا يبايع ولا يشارى حتى يخرج منه فيقتل قاله ابن عباس وبه قال أبو حنيفة وذهب قوم إلى أن القتل الواجب بالشرع يستوفى فيه أما إذا ارتكب الجريمة فى الحرم فيستوفى فيه عقوبته بالاتفاق وقيل معناه ومن دخله معظما له متقربا إلى الله عز وجل كان آمنا يوم القيامة من العذاب. قوله عز وجل (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) أى ولله فرض واجب على الناس حج البيت قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائى وحفص حج البيت بكسر الحاء فى هذا الحرف خاصة وقرأ الآخرون بفتح الحاء وهى لغة أهل الحجاز وهما لغتان فصيحتان ومعناهما واحد والحج أحد أركان الإسلام . أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أنا عبدالله بن موسى أنا حنظلة بن أبى سفيان عن عكرمة بن خالد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج » . قال أهل العلم وجوب الحج خمس شرائط : الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والاستطاعة فلا يجب على الكافر ولا على المجنون ولو حجا

ويغير بعضهم على بعض وكان من دخل الحرم آمن من القتل والغارة وهو المراد من حكم الآية على قول أكثر المفسرين قال الله تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم» وقيل فى معنى الآية ومن دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله ﷺ كان آمنا وقيل هو خبر بمعنى الأمر تقديره ومن دخله فأمنوه وهو قول ابن عباس حتى ذهب أبو حنيفة إلى أن من وجب عليه القتل قصاصا كان أو أحدا فالتجأ إلى الحرم فانه لا يستوفى منه القصاص أو الحد فى الحرم لكنه لا يطعم ولا يبايع ولا يشارى ولا يكلم ويضيق عليه حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد خارج الحرم وقال الشافعى إذا وجب عليه القصاص خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم استوفى منه فى الحرم . وأجمعوا على أنه لو قتل فى الحرم أو سرق أو زنى فانه يستوفى منه الحد فى الحرم عقوبة له وقيل فى معنى الآية ومن دخله معظما له متقربا بذلك إلى الله تعالى كان آمنا من العذاب يوم القيامة وقيل ومن دخله كان آمنا من الذنوب التى اكتسبها قبل ذلك .

قوله عز وجل (ولله على الناس حج البيت) أى ولله على الناس فرض حج البيت والحج أحد أركان الإسلام (ق) عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان » فعد النبي صلي الله عليه وسلم الحج من أركان الإسلام الخمسة «من استطاع إليه سبيلا» يعنى وفرض الحج واجب على ما استطاع من أهل التكليف ووجد السبيل إلى حج البيت الحرام .

(فصل) فى فضل البيت والحج والعمرة (ق) عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول بيت وضع للناس مباركا يصلى فيه الكعبة قلت ثم أى قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما قال أربعون عاما» عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نزل الحجر

بأنفسهما لايصح لأن الكافر ليس من أهل القربة ولا حكم لفعل المجنون ولا يجب على الصبي ولا على العبد ولو حج صبي يعقل أو عبد يصح حجهما تطوعا ولكن لايسقط به فرض الإسلام عنهما فلو بلغ الصبي أو أعتق العبد بعد ماحج واجتمع في حقه شرائط وجوب الحج عليه أن يحج ثانيا ولا يجب على غير المستطيع لقوله تعالى «من استطاع إليه سبيلا» غير أنه لو تكلف فحج يسقط عنه فرض الإسلام. والاستطاعة نوعان: أحدهما أن يكون قادرا مستطيعا بنفسه والآخر أن يكون مستطيعا بغيره أما الاستطاعة بنفسه فأن يكون قادرا بنفسه علي الذهاب ووجد الزاد والراحلة. (٣٨٦) أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الكسائي الخطيب ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال ثنا أبوالعباس الأصم أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سعيد بن سالم عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر قال قعدنا إلى عبدالله بن عمر فسمعته يقول «سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما الحاج؟ قال الشعث التفل فقام رجل آخر فقال يارسول الله أي الحج أفضل؟ قال العج والثج فقام رجل آخر فقال يا رسول الله ما السبيل؟ قال زاد وراحلة» وتفصيله أن يجد راحلة تصلح لمثله ووجد الزاد للذهاب والرجوع فاضلا عن نفقة عياله ومن تلزمه نفقتهم وكسوتهم لذهابه ورجوعه وعن دين يكون عليه ووجد رفقة يخرجون في وقت جرت عادة أهل بلده بالخروج في ذلك الوقت فان خرجوا قبله حجا

أوخروا الخروج إلى وقت لايصلون إلا أن يقطعوا كل يوم أكثر من مرحلة لا يلزمهم الخروج في ذلك الوقت ويشترط أن يكون الطريق آمنا، فان كان فيه خوف من عدو مسلم أو كافر أو رصدي يطلب شيئا لايلزمه، ويشترط أن تكون المنازل المرورة معمورة يجد الزاد والماء فان كان زمان جدوبة تفرق أهلها أو غارت مياهها فلا يلزمه الحج ولو لم يجد الراحلة لكنه قادر علي المشي أو لم يجد الزاد ولكن يمكنه أن يكتسب في الطريق لايلزمه الحج ويستحب لو فعل وعند مالك

الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن وإنما سودته خطايا بني آدم» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحجر «والله ليبعثنه الله يوم القيامه وله عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق» وله عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا مابين المشرق والمغرب» قال الترمذي وهذا يروى عن ابن عمر موقوفا (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى» (ق) عن أبي سعيد الخدري أن النبي عليه السلام قال «لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى» (م) عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله ﷺ فقال «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال له رجل في كل عام يارسول الله فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» عن ابن عمر قال «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله مايوجب الحج قال الزاد والراحلة» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وإبراهيم بن يزيد الجوزي المكي قد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» وفي رواية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من حج لله عز وجل وفي لفظ من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» أخرجه الترمذي وقال «غفر له ماتقدم من ذنبه» وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «تابعوا بين الحج والعمرة فانهما ينفيان الذنوب والفقر كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة وما من مؤمن يظل يومه محرما إلا غابت الشمس بذنوبه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وله عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن مسلم يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا وقال الترمذي هذا حديث غريب وله عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» قال الترمذي هذا حديث غريب.

فصل: في أحكام تتعلق بالحج

قال العلماء: الحج واجب على كل مسلم وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ولوجوب الحج خمس شرائط الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة، ولا يجب على الكافر والمجنون ولو

حجا لم يصح لأن الكافر ليس من أهل القربة ولا حكم لقول المجنون ولا يجب على الصبي والعبد ولو حج صبى يعقل أو حج عبد صح حجهما تطوعا ولا يسقط الفرض فاذا بلغ الصبى وعتق العبد واجتمع فيهما شرائط الحج وجب عليهما أن يحجا ثانيا ولا يجب على غير المستطيع لقوله تعالى «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا» فلو تكلف غير المستطيع الحج وحج صح حجه وسقط عنه فرض حجة الإسلام والاستطاعة نوعان: أحدهما أن يكون مستطيعا بنفسه والآخر أن يكون مستطيعا بغيره فأما المستطيع بنفسه فهو أن يكون قويا قادرا على الذهاب ووجد الزاد والراحلة لما تقدم من حديث ابن عمر فى الزاد والراحلة قال ابن المنذر وحديث الزاد والراحلة لا يثبت لأنه ليس بمتصل وإنما المرفوع مارواه إبراهيم بن يزيد عن محمد ابن عباد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم وإبراهيم متروك الحديث قال يحيى بن معين إبراهيم ليس بثقة قال ابن المنذر واختلف العلماء فى قوله تعالى من استطاع إليه سبيلا فقالت طائفة الآية على العموم إذ لا نعلم خبرا ثابتا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا إجماعا لأهل العلم يوجب أن نستثنى من ظاهر الآية بعضا فعلى كل مستطيع الحج يجد إليه السبيل بأى وجه كانت الاستطاعة الحج على ظاهر الآية قال: وروينا عن عكرمة أنه قال الاستطاعة الصحة، وقال الضحاك إذا كان شابا صحيحا فليؤجر نفسه بأكله وعقبه حتى يقضى نسكه وقال مالك الاستطاعة على إطاقة الناس الرجل يجد الزاد والراحلة ولا يقدر على المشى وآخر يقدر على المشى على رجليه وقالت طائفة الاستطاعة الزاد والراحلة كذلك قال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل واحتجوا بحديث ابن عمر المتقدم وقال الشافعى الاستطاعة وجهان: أحدهما أن يكون الرجل مستطيعا ببدنه واجدا من ماله ما يبلغه الحج فتكون استطاعته تامة فعليه فرض الحج. والثانى لا يقدر أن يثبت على الراحلة وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه أو قادر على مال ويجد من يستأجره فيحج عنه فيكون هذا ممن لزمه فرض الحج. أما حكم الزاد والراحلة فهو أن يجد راحلة تصلح له ووجد من الزاد ما يكفيه لذهابه ورجوعه فاضلا عن نفقته ونفقة من تلزمه نفقتهم وكسوتهم وعن دين إن كان عليه ووجد رفقة يخرجون فى وقت جرت العادة بخروج أهل البلد فى ذلك الوقت فان خرجوا قبله أو أخروا الخروج إلى وقت لا يصلون إلا بقطع أكثر من مرحلة لا يلزمه الخروج معهم. ويشترط أن يكون الطريق آمنا فان كان فيه خوف من عدو مسلم أو كافر أو رصدى يطلب الخفارة لا يلزمه. ويشترط أن تكون منازل الماء مأهولة معمورة يجد فيها ما جرت العادة بوجوده من الماء والزاد فان تفرق أهلها بجدب أو غارت مياهها فلا يلزمه الخروج ولو لم يجد الراحلة وهو قادر على المشى أو لم يجد الزاد وهو قادر على الاكتساب لا يلزمه الحج عند من جعل وجدان الزاد والراحلة شرطا لوجوب الحج ويستحب له أن يفعل ذلك ويلزمه الحج عند مالك وأما المستطيع بغيره فهو أن يكون الرجل عاجزا بنفسه بأن كان

لكن له مال يمكنه أن يستأجر به من يحج عنه يجب عليه أن يستأجر أو لم يكن له مال بل بذل له ولده أو أجنبى الطاعة فى أن يحج عنه يلزمه أن يأمره إذا كان يعتمد صدقه لأن وجوب الحج يتعلق بالاستطاعة ويقال فى العرف فلان مستطيع لبناء دار وإن كان لا يفعله بنفسه وإنما يفعله بماله وبأعوانه وعند أبى حنيفة لا يجب الحج ببذل الطاعة وعند مالك لا يجب على المعضوب فى المال، وحجة من أوجبه ما أخبرنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن سليمان بن يسار عن عبدالله بن عباس أنه قال «كان الفضل بن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر فقالت: يارسول الله إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال نعم»

من كفر بالله واليوم الآخر وقال سعيد بن المسيب نزلت فى اليهود حيث قالوا الحج إلى مكة غير واجب وقال السدي هو من وجد مايحج به ثم لم يحج حتى مات فهو كفر به. أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أخبرنا أبو الحسن الكلمانى أخبرنا أبو بكر محمد بن عمرو أخبرنا سهيل بن عمارة أخبرنا يزيد بن هارون أخبرنا شريك عن ليث عن عبد الرحمن بن سابط عن أبى أمامة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من لم تحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا» قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ماتعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله) أى لم تصرفون عن دين الله (من آمن تبغونها) تطلبونها (عوجا) زيغا وميلا يعنى لم تصدون عن سبيل الله باغين لها عوجا قال أبو عبيدة العوج بالكسر فى الدين والقول والعمل والعوج بالفتح الجدار وكل شخص قائم (وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون) إن فى التوراة مكتوبا نعت محمد صلى الله عليه وسلم وأن دين أنهم

زمنا أو به مرض لا يرجى برؤه وله مال يمكنه أن يستأجر من يحج عنه فيجب عليه أن يستأجر من يحج عنه وإن لم يكن له مال وبذل له ولده أو أجنبى الطاعة فى أن يحج عنه لزمه الحج إن كان يعتمد على صدقه لأن وجوب الحج متعلق بالاستطاعة وعند أبى حنيفة لا يجب الحج ببذل الطاعة وعند مالك لا يجب على من غصب ماله وحجة من أوجب الحج ببذله الطاعة ماروى عن ابن عباس قال «كان الفضل بن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر قالت يارسول الله إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخا كبيرا لايستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه قال نعم وذلك فى حجة الوداع» أخرجاه فى الصحيحين. قوله تعالى (ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) يعنى ومن جحد ماألزمه الله من فرض حج بيته وكفر به فان الله غنى عنه وعن حجه وعمله وعن جميع خلقه وقيل نزلت فيمن وجد مايحج ثم مات ولم يحج فهو كفر به لما روى عن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من ملك زادا أو راحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك أن الله تعالى يقول ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا» أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه وفى إسناده مقال وهلال بن عبد الله مجهول والحارث يضعف فى الحديث وقيل هو الذى إن حج لم يره برا وإن قعد لم يره إثما وقيل نزلت فى اليهود وغيرهم من أصحاب الملل حيث قالوا إذا مسلمون فنزلت ولله على الناس حج البيت فلم يحجوا وقالوا الحج إلى مكة غير واجب وكفروا به فنزلت ومن كفر فان الله غنى عن العالمين فعلى هذه الأقوال تكون هذه الآية متعلقة بما قبلها وقيل إنه كلام مستأنف ومعناه ومن كفر بالله واليوم الآخر فان الله غنى عن العالمين. قوله عز وجل (قل يا أهل الكتاب) قيل الخطاب لعلماء أهل الكتاب الذين علموا صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الخطاب لجميع أهل الكتاب اليهود والنصارى الذين أنكروا نبوته (لم تكفرون بآيات الله) يعنى الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه حق وصدق والمعنى لم تكفرون بآيات الله التى دلتكم على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بآيات الله القرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم (والله شهيد على ماتعملون) أى والله شهيد على أعمالكم فيجازيكم عليها (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن) يعنى لم تصرفون عن دين الله من آمن وكان صدهم عن سبيل الله بالقاء الشبهة والشكوك وذلك بانكارهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتبهم (تبغونها عوجا) يعنى زيغا وميلا عن الحق والعوج بالكسر الزيغ والميل عن الاستواء فى الدين والقول والعمل وكل مالا يري فأما الشيء الذى يرى كالحائط والقناة ونحو ذلك يقال فيه عوج بفتح العين والهاء فى قوله تبغونها عائدة على السبيل والمعنى لم تطلبون الزيغ والميل فى سبيل الله بالقاء الشبه فى قلوب الضعفاء (وأنتم شهداء) قال ابن عباس يعنى وأنتم شهداء أن نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته مكتوب فى التوراة وأن دين الله الذى لا يقبل غيره هو الإسلام وقيل معناه وأنتم تشهدون المعجزات التى تظهر على يد محمد صلى الله عليه وسلم الدالة على نبوته (وما الله بغافل عما تعملون) فيه وعيد وتهديد لهم وذلك

الله الذى لايقبل غيره هو الإسلام . قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) قال زيد بن أسلم مر شاس بن قيس اليهودى وكان شيخا عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين فمر على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم يتحدثون فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم فى الإسلام بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة وقال قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد لا والله مالنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار فأمر شابا من اليهود كان معه فقال اعمد إليهم واجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار وكان بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس مع الخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل وتكلم فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس ابن قيظى أحد بنى حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه إن شئتم والله رددتها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعا وقالا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهر وهى الحرة فخرجوا جميعا إليها وانضمت الأوس والخزرج بعضهم إلي بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال ﷺ يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا الله الله. فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين فأنزل الله تعالى هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب» يعنى شاسا وأصحابه (يردوكم بعد إيمانكم كافرين) قال جابر فما رأيت قط يوما أقبح أولا ولا أحسن آخرا من ذلك اليوم ثم قال الله تعالى على وجه التعجب (وكيف تكفرون) يعنى ولم تكفرون (وأنتم تتلى عليكم آيات الله) القرآن (وفيكم رسوله) محمد صلى الله عليه وسلم : قال قتادة فى هذه الآية علمان بينان كتاب الله ونبي الله أما نبي الله فقد مضى وأما

أنهم كانوا يجتهدون ويحتالون بالقاء الشبهة فى قلوب الناس ليصدوهم عن سبيل الله والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم فلذلك قال الله تعالى «وما الله بغافل عما تعملون» . قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) الآية قال زيد بن أسلم مر شاس ابن قيس اليهودى وكان شيخا عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين فمر بنفر من الأوس والخزرج وهم فى مجلس يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم فى الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية وقال قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد والله مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار فأمر شابا من اليهود كان معه فقال له اعمد إليهم واجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب وهما أوس بن قيظى أحد بنى حارثة من الأوس وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا فقال أحدهما لصاحبه إن شئتم والله رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعا وقالا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهر وهى الحرة فخرجوا إليها وانضمت الأوس والخزرج بعضهم إلى بعض على دعواهم فى الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا الله الله فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا واعتنق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قال جابر فما رأيت يوما أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم فأنزل الله عز وجل « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » يعنى شاسا اليهودى وأصحابه (يردوكم بعد إيمانكم كافرين) والكفر يوجب الهلاك فى الدنيا بوقوع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة والحرب وسفك الدماء وفى الآخرة النار ثم قال تعالى (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) وكلمة كيف كلمة تعجب والتعجب إنما يليق بمن لا يعلم السبب وذلك على الله محال فالمراد منه المنع والتغليظ وذلك لأن تلاوة آيات الله وهى القرآن حالا بعد حال وكون رسول الله ﷺ فيكم يرشدكم إلى مصالحكم وذلك يمنع من وقوع الكفر فكان وقوع الكفر

كتاب الله فقد أبقاه بين أظهركم رحمة من الله ونعمة . أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن العباس الحميدى أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عبد الله الحافظ أنا أبو الفضل الحسن بن يعقوب بن يوسف العدل أخبرنا أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب العبدى أنا أبو جعفر بن عوف أخبرنا أبو حيان يحيى بن سعيد بن حبان عن يزيد بن حيان قال سمعت زيد بن أرقم قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال «أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيبه وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » . قوله تعالى (ومن يعتصم بالله) أى يمتنع بالله ويستمسك بدينه وطاعته (فقد هدى إلى صراط مستقيم) طريق واضح وقال ابن جريج ومن يعتصم بالله أى يؤمن بالله وأصل العصمة المنع فكل مانع شيئا فهو عاصم له . قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) قال مقاتل بن حيان كان بين الأوس والخزرج عداوة فى الجاهلية وقتال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأصلح بينهم فافتخر بعده منهم رجلان ثعلبة ابن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج فقال الأوسى منا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ومنا حنظلة غسيل الملائكة ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حمى الدبر ومنا سعد بن معاذ الذى اهتز عرش الرحمن له ورضى الله بحكمه فى بنى قريظة . وقال الخزرجى منا أربعة أحكموا القرآن أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنا سعد ابن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح فأتاهم النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس هو أن يطاع فلا يعصى وقال مجاهد أن تجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ولا تأخذكم فى الله لومة لائم وتقوموا لله

(٣٩٠)

منهم بعيدا على هذا الوجه قال قتادة فى هذه الآية علمان بينان كتاب الله تعالى ونبى الله صلى الله عليه وسلم أما نبى الله فقد مضى وأما كتاب الله تعالى فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة (م) عن زيد بن أرقم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ الناس وذكر ثم قال « أما بعد ألا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب وإنى تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى وقوله تعالى (ومن يعتصم بالله) أى يمتنع بالله ويستمسك بدينه وطاعته وأصل العصمة الامتناع من الوقوع فى آفة . وفيه حث لهم فى الالتجاء إلى الله تعالى فى دفع شر الكفار عنهم (فقد هدى إلى صراط مستقيم) أى إلى طريق واضح وهو طريق الحق المؤدى إلى الجنة . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته) . قال مقاتل بن حيان كان بين الأوس والخزرج عداوة فى الجاهلية وقتال فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أصلح بينهم فافتخر بعد ذلك منهم رجلان وهما ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج فقال الأوسى منا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ومنا حنظلة غسيل الملائكة ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حمى الدبر ومنا سعد بن معاذ الذى اهتز عرش الرحمن له ورضى الله بحكمه فى بنى قريظة وقال الخزرجى منا أربعة أحكموا القرآن أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم فجرى الحديث بينهما فغضبا وأنشدا الأشعار وتفاخرا فجاء الأوس والخزرج ومعهم السلاح فأتاهم النبى صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم فأنزل الله عز وجل هذه الآية « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » قال ابن عباس هو أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى . وقال مجاهد هو أن تجاهد وافى الله حق جهاده ولا تأخذكم فى الله لومة لائم وتقوموا لله بالقسط ولو على أنفسكم وآبائكم وأبنائكم وعن أنس قال لا يتقى الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه وقيل حق تقاته يعنى واجب تقواه وهو القيام بالواجب واجتناب المحارم . واختلف العلماء فى هذا القدر من هذه الآية هل هو منسوخ أم لا على قولين أحدهما أنه منسوخ وذلك أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا يارسول الله ومن يقوى على هذا فأنزل الله تعالى الناسخ وهو قوله تعالى فى سورة التغابن « فاتقوا الله ما استطعتم »

وهذا

بالقسط ولو علي أنفسكم وآبائكم وأبنائكم وعن أنس أنه قال لايتقى الله عبد حق تقاته حتى يخزن لسانه قال أهل التفسير لما نزلت هذه الآية شق ذلك عليهم فقالوا يارسول الله ومن يقوى على هذا فأنزل الله تعالي فاتقوا الله مااستطعتم فنسخت هذه الآية وقال مقاتل ليس فى آل عمران من المنسوخ إلا هذه الآية (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) أى مؤمنون وقيل مخلصون مفوضون أموركم إلى الله عز وجل وقال الفضيل محسنون الظن . بالله أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أبو بكر العبدوسى أخبرنا أبو بكر بن محمد بن حمدون بن خالد بن يزيد أخبرنا سليمان بن يوسف أخبرنا وهب بن جرير ، أنا شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم «ياأيها الناس اتقوا الله حق تقاته » فلو أن قطرة من الزقوم قطرت علي الأرض لأمرت علي أهل الدنيا معيشتهم فكيف بمن هو طعامه وليس له طعام غيره . قوله عز وجل (واعتصموا بحبل الله جميعا) الحبل السبب الذى يتوصل به إلى البغية وسمى الإيمان حبلا لأنه سبب يتوصل به إلى زوال الخوف. واختلفوا فى معناه هاهنا قال ابن عباس معناه تمسكوا بدين الله ، وقال ابن مسعود هو الجماعة وقال عليكم بالجماعة فانها حبل الله الذى أمر به وإن ماتكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة وقال مجاهد وعطاء بعهد الله وقال قتادة والسدى هو القرآن وروى عن ابن مسعود عن النبى صلي الله عليه وسلم قال « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين والشفاء النافع وعصمة الله لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه » وقال مقاتل بن حيان بحبل الله أى بأمر الله وطاعته (ولا تفرقوا) كما افترقت اليهود والنصارى. أخبرنا أبو الحسن

وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد والسدى . والقول الثانى أنها محكمة غير منسوخة وهو رواية عن ابن عباس أيضا وبه قال طاوس وموجب هذا الاختلاف يرجع إلى معنى الآية فمن قال إنها منسوخة قال حق تقاته هو أن يأتى العبد بكل مايجب لله ويستحقه فهذا يعجز العبد عن الوفاء به فتحصيله ممتنع ومن قال بأنها محكمة قال إن حق تقاته أداء مايلزم العبد على قدر طاقته فكان قوله تعالى اتقوا الله مااستطعتم مفسرا لحق تقاته لاناسخا ولا مخصصا فمن اتقى الله ماستطاع فقد اتقاه حق تقواه وقيل معنى حق تقاته كما يجب أن يتقى وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه وقيل فى معنى قول ابن عباس هو أن يطاع فلا يعصى هذا صحيح والذى يصدر من العبد على سبيل السهو والنسيان غير قادح فيه لأن التكليف فى تلك الحال مرفوع عنه وكذلك قوله وأن يشكر فلا يكفر فواجب على العبد حضور ماأنعم الله به عليه بالبال وأما عند السهو فلا يجب عليه وكذلك قوله وأن يذكر فلا ينسى فان هذا إنما يجب عند الدعاء والعبادة لاعند السهو والنسيان . وقوله تعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) لفظ النهى واقع على الموت والمعنى واقع على الأمر بالإقامة على الإسلام والمعنى كونوا على الإسلام فاذا ورد عليكم الموت صادفكم على ذلك وقيل هذا فى الحقيقة نهي عن ترك الاسلام المعنى لا تتركوا الإسلام فان الموت لابد منه فمتى جاءكم صادفكم وأنتم على الاسلام لأنه لما كان تمكنكم الثبات على الاسلام حتى إذا أتاهم الموت أتاهم وهم على الاسلام صار الموت على الاسلام بمنزلة ماقد دخل فى إمكانهم وقيل معناه ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون مخلصون مفوضون إلى الله أموركم تحسنون الظن به عز وجل . عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون فقال لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم فكيف بمن تكون طعامه » أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . قوله عز وجل (واعتصموا بحبل الله جميعا) أى تمسكوا بحبل الله والحبل هو السبب الذى يتوصل به إلي البغية وسمى الإيمان حبلا لأنه سبب يتوصل به إلي زوال الخوف وقيل حبل الله هو السبب الذى به يتوصل إليه فعلى هذا اختلفوا فى معنى الآية فقال ابن عباس معناه تمسكوا بدين الله لأنه سبب يوصل إليه وقيل حبل الله هو القرآن لأنه أيضا سبب يوصل إليه . وفى أفراد مسلم من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا وإنى تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة» الحديث عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به » وذكره البغوى بغير سند وقال ابن مسعود هو الجماعة وقال عليكم بالجماعة فانها حبل الله الذى أمر به وإن ماتكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة وقيل بحبل الله يعنى بأمر الله وطاعته (ولا تفرقوا) يعنى كما تفرقت اليهود والنصارى وقيل ولا تفرقوا يعنى كما كنتم متفرقين فى الجاهلية متدابرين

السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولى الله أمركم ويسخط لكم ثلاثا قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال » قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم) قال محمد بن إسحاق بن يسار وغيره من أهل الأخبار كانت الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعت بينهما عداوة بسبب قتيل قتل بينهم فتطاولت تلك العداوة والحرب بينهم عشرين ومائة سنة إلى أن أطفأ الله عز وجل ذلك بالإسلام وألف بينهم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكان سبب ألفتهم أن سويد بن الصامت أخا بني عمرو بن عوف وكان شريفا يسميه قومه الكامل لجلده ونسبه قدم مكة حاجا أو معتمرا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث وأمر بالدعوة فتصدى له حين سمع به ودعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام فقال له سويد فلعل الذي معك مثل الذي معي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وما الذي معك فقال مجلة لقمان يعني حكمته فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اعرضها على فعرضها فقال إن هذا كلام حسن ومعي أفضل من هذا قرآن أنزله الله على نورا وهدى فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه ولم ينفر وسر بذلك وقال إن هذا القول حسن ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج قبل يوم بعاث فان قومه ليقولون إنه قد قتل وهو مسلم ثم قدم أبو الجيسر أنس بن رافع ومعه فتية من بني الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قوم من الخزرج فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فجلس إليهم وقال هل لكم إلى خير مما جئتم له ؟ قالوا وما ذلك قال أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن لا يشركوا بالله شيئا وأنزل الله على الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثا أى قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الجيسر حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا فصمت إياس وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وانصرفوا إلى المدينة وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم فلقى عند العقبة رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا وهم ستة نفر أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث وهو بن عفراء ورافع بن مالك العجلانى وقطبة بن عامر بن خريدة وعقبة بن عامر بن نابى وجابر بن عبد الله فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال أمن موالى يهود قالوا نعم قال أفلا تجلسون حتى أكلمكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن قالوا وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام أن يهودا كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وهم كانوا أهل أوثان وشرك وكانوا إذا كان منهم شئ قالوا إن نبيا الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل قال بعضهم لبعض ياقوم تعلمون والله إنه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه ؟ فأجابوه وصدقوه وأسلموا وقالوا إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر مابينهم وعسى الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك فان جمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم قد آمنوا به ﷺ فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها

يعادى بعضكم بعضا ويقتل بعضكم بعضا قيل معناه لاتحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التى أنتم عليها ففيه النهى عن التفرق والاختلاف والأمر بالاتفاق والاجتماع لأن الحق لايكون إلا واحدا وما عداه يكون جهلا وضلالا وإذا كان كذلك وجب النهى عن الاختلاف فى الدين وعن الفرقة لأن كل ذلك كان عادة أهل الجاهلية فنهوا عنه وروى البغوى بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا وأن تناصحوا من ولى الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثا قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال » . قوله تعالى (واذكرو نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم

فأصبحتم

ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان العام المقبل أتى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا، وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا عفراء ورافع بن مالك العجلانى وذكوان بن عبد القيس وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة وعباس بن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر وهؤلاء خزرجيون وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة من الأوس فلقوه بالعقبة وهى بيعة العقبة الأولى فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بيعة النساء علي أن لايشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولايزنوا إلى آخر الآية فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم قال وذلك قبل أن يفرض عليهم الحرب قال فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، وكان مصعب يسمى بالمدينة المقرئ وكان منزله علي أسعد بن زرارة ، ثم إن أسعد بن زرارة خرج بمصعب فدخل به حائطا من حوائط بنى ظفر فجلسا فى الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ؟ فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما فان أسعد بن زرارة ابن خالتى ولولا ذاك لكفيتكه وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدى قومهما من بنى عبد الأشهل وهما مشركان فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إلى مصعب وأسعد وهما جالسان فى الحائط فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب هذا والله سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه قال مصعب إن يجلس أكلمه قال فوقف عليهما متشتما فقال ماجاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا اعتزلا إن كانت لكما فى أنفسكما حاجة فقال له مصعب أو تجلس فتسمع فان رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كف عنك ماتكره قال أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن فقالا والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهله ثم قال ما أحسن هذا وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين قالا له تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ركعتين فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق ثم قام وركع ركعتين (٣٩٣) ثم قال لهما إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن هو سعد بن معاذ

. . . .

ثم أخذ حربته فانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ؟ فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب من عندكم فلما وقف علي النادى قال : قال له سعد مافعلت قال كلمت الرجلين فوالله مارأيت بهما بأسا وقد نهيتهما فقالا فافعل ماأحببت ، وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك فقام سعد مغضبا مبادرا للذى ذكره له من بنى حارثة فأخذ الحربة ثم قال والله ماأراك أغنيت شيئا فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتما ثم قال لأسعد بن زرارة لولا مابينى وبينك من القرابة مارمت هذا منى تغشانا فى دارنا بما نكره فقال أسعد لمصعب جاءك والله سيد قومه وإن اتبعك لم يخالفك منهم أحد فقال له مصعب أو تقعد فتسمع فان رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ماتكره قال سعد أنصفت ثم ركز الحربة فجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن قالا فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهيله ثم قال لهما كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين قالا له تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين فقام واغتسل وطهر ثوبه ثم تشهد شهادة الحق وركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عامدا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير فلما رآه قومه مقبلا قالوا نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال يابنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة قال فان كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله قال فما أمسى في الدار لبنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلم أو مسلمة ورجع أسعد بن زرارة ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر وكانوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي المدينة ومضى بدر وأحد والخندق قال ثم إن مصعب بن عمير رجع إلي مكة وخرج معه من الأنصار من المسلمين سبعون رجلا مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى

قدموا مكة تواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق وهى بيعة العقبة الثانية قال كعب بن مالك وكان قد شهد ذلك فلما فرغنا من الحج وكانت تلك الليلة التى واعدنا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه وكنا نكتم عمن معنا من المشركين من قومنا أمرنا فكلمناه وقلنا له يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ودعوناه إلى الإسلام فأسلم وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد معنا العقبة وكان نقيبا فبتنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل مستخفين تسلل القطا حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلا ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب بن عمارة إحدى نساء بنى النجار وأسماء بنت عمرو بن عدى أم منيع إحدى نساء بنى سلمة فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلسنا كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال يا معشر الخزرج وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار خزرجها وأوسها إن محمدا صلى الله عليه وسلم منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة قال فقلنا قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما شئت قال فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا إلى الله تعالى ورغب فى الإسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم قال فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر ؟ قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان (٣٩٤) فقال يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالا يعنى العهود وإنا قاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا

. . . .

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لابل الأبد الأبد الدم الدم (فأصبحتم) والهدم الهدم أنتم منى وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم فأخرجوا اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس قال عاصم بن عمرو بن قتادة إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلي الله عليه وسلم قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود فان كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى فى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهك الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير فى الدنيا والآخرة قالوا فانا نأخذه علي مصيبة الأموال وقتل الأشراف قالوا فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا قال الجنة قال ابسط يدك فبسط يده فبايعوه وأول من ضرب علي يده البراء بن معرور ثم تتابع القوم فلما بايعنا رسول الله صلي الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة صوتا ما سمعته قط يا أهل الجباجب هل لكم فى مذمم والصباة قد اجتمعوا علي حربكم فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم هذا عدو الله هذا أزب العقبة اسمع أى عدو الله أما والله لأفرغن لك ثم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ارفضوا إلى رحالكم فقال العباس بن عبادة بن نضلة والذى بعثك بالحق لئن شئت لنميلن غدا علي أهل منى بأسيافنا فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم قال فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه علي حربنا فانه والله ما حى من العرب أبغض إلينا أن ينشب بالحرب بيننا وبينهم منكم قال فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شئ وما علمناه وصدقوا لم يعلموا وبعضنا ينظر إلي بعض وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى وعليه نعلان جديدان قال فقلت له كلمة كأنى أريد أن أشرك القوم بها يا

قالوا يا آبا جابر آما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من سادتنا مثل نعلى هذا الفتى من قريش قال فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ثم رمى بهما إلى فقال والله لتنعلتهما قال يقول أبو جابر رضى الله عنه مه والله لقد أحفظت الفتى فاردد إليه نعليه قال لا أردهما قال والله يا أبا صالح والله لئن صدق الفأل لأسلبنه قال ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شددوا العقد فلما قدموها أظهروا الإسلام بها وبلغ ذلك قريشا فآذوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه إن الله تعالى قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون فيها وأمرهم بالهجرة إلى المدينة واللحوق بإخوانهم من الأنصار فأول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة ابن عبد الأسد المخزومى ثم عامر بن ربيعة ثم عبد الله بن جحش ثم تتابع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا إلى المدينة فجمع الله أهل المدينة أوسها وخزرجها بالإسلام وأصلح ذات بينهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى «واذكروا نعمة الله عليكم» يا معشر الأنصار «إذ كنتم أعداء» قبل الإسلام «فألف بين قلوبكم» الإسلام (فأصبحتم) أى فصرتم (بنعمته) برحمته وبدينه الإسلام (إخوانا) فى الدين والولاية بينكم

(فأصبحتم بنعمته إخوانا) قال محمد بن إسحاق وغيره من أهل الأخبار كان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعت بينهما عداوة وقتيل ثم تطاولت تلك العداوة والحروب بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام وألف بينهم بنبيه محمد ﷺ . وسبب ذلك أن سويد بن الصامت أخا بنى عمرو بن عوف وكان شريفا يسميه قومه الكامل لجلده ونسبه قدم مكة حاجا أو معتمرا وكان رسول الله ﷺ قد بعث وأمر بالدعوة فتصدى له النبى حين سمع به ودعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام فقال له سويد فلعل الذى معك مثل الذى معى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وما الذى معك ؟ قال مجلد لقمان يعنى حكمة لقمان فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرضها على فعرضها عليه فقال إن هذا الكلام حسن ومعى أفضل من هذا قرآن أنزل الله عز وجل على نورا وهدى فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه وقال إن هذا القول قول حسن ثم انصرف إلى المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج يوم بعاث وإن قومه يقولون قد قتل وهو مسلم ثم قدم أبو الحيس أنس بن رافع ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم وجلس إليهم وقال لهم هل لكم إلى خير مما جئتم له قالوا وما هو؟ قال أنا رسول الله قد بعثنى الله إلى العباد أدعوهم إلى أن لا يشركوا بالله شيئا وأنزل على الكتاب ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن قال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثا أى قوم هذا والله خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيس حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا فصمت إياس وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج فلم يلبث إياس بن معاذ أن هلك فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه وإعزاز نبيه ﷺ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على القبائل من العرب كما كان يصنع فى كل موسم فلقى عند العقبة رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا وهم ستة نفر أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث وهو ابن عفراء ورافع بن مالك العجلانى وقطبة بن عامر بن خريدة وعقبة ابن عامر بن نابى وجابر بن عبد الله رضى الله عنهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنتم قالوا نفر من الخزرج قال أمن موالى اليهود قالوا نعم قال أفلا تجلسون حتى أكلمكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن قال وكان مما صنع الله لهم به فى الإسلام أن يهود كانوا معهم ببلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وهم أهل أوثان وشرك وكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا إن نبيا الآن مبعوث قد أظل زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله عز وجل قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله أنه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه وصدقوه وأسلموا معه وقالوا إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك وسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم فلما قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان العام المقبل

وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا وهم أسعد بن زرارة وعوف ومعاذ ابنا عفراء ورافع ابن مالك العجلانى وذكوان بن عبد القيس وعبادة بن الصامت وزيد بن ثعلبة وعباس ابن عبادة وعقبة بن عامر وقطبة بن عامر فهؤلاء خزرجيون وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة من الأوس فلقوه بالعقبة وهى العقبة الأولى فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف الآية فان وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم شيئا من ذلك فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم قال وذلك قبل أن يفرض الحرب، قال فلما انصرف القوم بعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين وكان يسمى مصعب بالمدينة المقرئ وكان منزله على أسعد بن زرارة ثم إن أسعد بن زرارة خرج ومصعب فدخل به حائطا من حوائط بنى ظفر فجلسا فى الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما فان أسعد بن خالتى ولولا ذلك لكفيتكه، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدى قومهما من بنى عبد الأشهل وهما بعد مشركان فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إلى مصعب وأسعد وهما جالسان فى الحائط فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه قال مصعب إن يجلس أكلمه فلما وقف عليهما متشتما وقال ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا اعتزلا إن كانت لكما فى أنفسكما حاجة قال له مصعب أو تجلس فتسمع فان رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كف عنك ماتكره؟ قال أنصفت ثم ركز حربته وجلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن قال والله لعرفنا الإسلام فى وجهه قبل أن يتكلم من إشراقه وتسهله ثم قال ما أحسن هذا وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين قالا تغتسل وتطهر ثوبك وتشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق ثم صلى ركعتين ثم قال إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ ثم أخذ حربته، فانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم فلما نظر سعد إلى أسيد مقبلا قال أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم فلما وقف أسيد على النادى قال له سعد ما فعلت قال كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا وقد نهيتهما فقال لا نفعل إلا ما أحببت وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك فقام سعد مغضبا للذى ذكره من بنى حارثة فأخذ الحربة ثم قال والله ما أراك أغنيت شيئا فانصرف إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتما ثم قال لأسعد بن زرارة لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى تغشانا فى دارنا بما نكره وقد كان قال أسعد لمصعب جاءك والله سيد قومه إن يتبعك لم يخالفك أحد منهم فقال له مصعب أو تقعد فتسمع فان رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره فقال سعد أنصفت ثم ركزا الحربة وجلس فعرض عليه مصعب الإسلام وقرأ عليه القرآن قالا فعرفنا والله الإسلام فى وجهه قبل أن يتكلم من إشراق وجهه وتسهله ثم قال

كيف

كيف تصنعون إذا أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالا تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين فقام واغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق وركع ركعتين ثم أخذ حربته وأقبل عامداً إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير فلما رأوه مقبلا قالوا نحلف بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال يابنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة قال فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله قال فما أمسى فى دار بنى الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلم ومسلمة ورجع أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير إلى منزل أسعد فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ومسلمات إلا ما كان من دار أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت الشاعر وكانوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ومضى بدر وأحد والخندق قالوا ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج معه من الأنصار المسلمين سبعون رجلا مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فوعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق وهى بيعة العقبة الثانية قال كعب ابن مالك وكان قد شهد ذلك فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر أخبرناه وكنا نكتم من معنا من المشركين من قومنا أمرنا فكلمناه وقلنا يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ودعوناه إلى الإسلام فأسلم فأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد معنا العقبة وكان نقيبا فبتنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلل مستخفين تسلل القطا حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن سبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا نسيبة بنت كعب أم عمارة إحدى نساء بنى النجار وأسماء بنت عمرو بن عدى أم منيع إحدى نساء بنى سلمة فاجتمعنا بالشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه عمه العباس ابن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما جلسنا كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يامعشر الخزرج وكانت العرب يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها إن محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه عن قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم به من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فانه فى عزو ومنعة قال فقلنا قد سمعنا ما قلت فتكلم يارسول الله وخذ لنفسك ولربك ما شئت فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل ورغب فى الإسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ونساءكم وأبناءكم قال فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان

فقال يارسول الله إن بيننا وبين الناس حبالا يعنى عهودا وإنا قاطعوها فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال بل الدم الدم والهدم والهدم أنتم منى وأنا منكم أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا كفلاء على قومهم بما فيهم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم فأخرجوا اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس قال عاصم بن عمرو بن قتادة إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس ابن عبادة بن نضلة الأنصارى يامعشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود ، فان كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فهو والله خزى فى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة قالوا فانا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا قال الجنة قالوا ابسط يدك فبسط يده فبايعوه وأول من ضرب على يده البراء بن معرور ثم تتابع القوم قال فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت ماسمعته قط ياأهل الجباجب هل لكم فى مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عدو الله هذا أزب العقبة يعنى شيطان العقبة اسمع أى عدو الله أما والله لأفرغن لك ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انفضوا إلى رحالكم فقال العباس ابن عبادة بن نضلة والذى بعثك بالحق لئن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا يامعشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه والله ماحى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينه منكم قال فانبعث من هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء وما علمناه وصدقوا لم يعلموا به وبعضنا ينظر إلى بعض وقام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى وعليه نعلان جديدتان قال فقلت له كلمة كأنى أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوه يأبا جابر أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلى هذا الفتى من قريش قال فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه ورمى بهما إلى وقال والله لتنتعلنهما قال أبو جابر مه والله أحفظت الفتى فاردد إليه نعليه قال فقلت لا أردهما قال والله يا أبا صالح لئن صدق الفأل لأسلبنه قال ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شدوا العقد فلما قدموها أظهروا الاسلام بها وبلغ ذلك قريشا فآذوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون فيها فأمرهم بالهجرة إلى المدينة واللحوق باخوانهم من الأنصار فأول من هاجر إلى المدينة أبوسلمة بن عبدالأسد المخزومى ثم عامر بن ربيعة ثم عبدالله بن جحش ثم تتابعوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا إلى المدينة ثم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فجمع الله عز وجل أهل المدينة أوسها وخزرجها بالإسلام وأصلح ذات بينهم بنبيه عليه الصلاة والسلام وأنزل الله عز وجل «واذكروا» يعنى يامعشر الأنصار «نعمة الله عليكم» يعنى بالإسلام

«إذ

(وكنتم) يامعشر الأوس والخزرج (على شفا حفرة من النار) أى على طرف حفرة مثل شفا البئر، معناه وكنتم على طرف حفرة من النار ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا على كفركم (فأنقذكم) الله (منها) بالإيمان (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم أمة) أى ولتكونوا أمة ومن صلة ليست للتبعيض كقوله تعالى «فاجتنبوا الرجس من الأوثان» لم يرد اجتناب بعض الأوثان بل أراد فاجتنبوا الأوثان واللام فى قوله ولتكن لام الأمر (يدعون إلى الخير) إلى الإسلام (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) أخبرنا إسماعيل (٣٩٩) بن عبد القاهر قال أنا عبد الغافر بن محمد قال أخبرنا محمد ابن عيسى الجلودى أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج حدثنا أبو بكر محمد بن أبى شيبة أخبرنا وكيع عن سفيان عن قيس بن مسلم عن طارق ابن شهاب قال: قال أبو سعيد رضى الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقى قال أخبرنا أبو الحسن الطيسفونى أخبرنا عبدالله ابن عمر والجوهرى أخبرنا أحمد بن على الكشميهنى أخبرنا على بن حجر أخبرنا إسماعيل بن جعفر أنا عمرو بن أبى عمرو عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل عن حذيفة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم» أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا على بن الحسين الدرابجردى أخبرنا أبو النعمان أخبرنا عبدالعزيز ابن مسلم المقسميلى أنا إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم قال سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يقول: ياأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية «ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم» وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذ كنتم أعداء يعنى قبل الإسلام «فألف بين قلوبكم» يعنى بالإسلام وبنبيه عليه الصلاة والسلام «فأصبحتم بنعمته إخوانا» يعنى فصرتم برحمته وبدينه الإسلام إخوانا فى الدين والولاية بعد العداوة (وكنتم) يامعشر الأوس والخزرج (على شفا حفرة من النار) يعنى على طرف حفرة مثل شفا البئر ليس بينكم وبين الوقوع فى النار إلا أن تموتوا على كفركم (فأنقذكم منها) أى فخلصكم بالإيمان من الوقوع فى النار (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) اللام فى قوله ولتكن لام الأمر أى لتكن منكم أمة دعاة إلى الخير وقيل إن كلمة من فى قوله منكم للتبيين لا للتبعيض وذلك لأن الله عز وجل أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل الأمة فى قوله تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» فيجب على كل مكلف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إما بيده أو بلسانه أو بقلبه (م) عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» فعلى هذا يكون معنى الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ومن قال بهذا القول يقول إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية إذا قام به واحد سقط الفرض عن الباقين وقيل إن من هنا للتبعيض وذلك لأن فى الأمة من لا يقدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعجز أو ضعف فحسن إدخال لفظ من فى قوله ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير وقيل إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إنما يختص بالعلماء وولاة الأمر فعلى هذا يكون المعنى ليكن بعضكم آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر (خ) عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذى فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا» والخير المذكور فى الآية هو كل شىء يرغب فيه من الأفعال الحسنة وقيل هو هنا كناية عن الإسلام والمعنى لتكن أمة أى جماعة دعاة إلى الإسلام وإلى كل فعل حسن يستحسن فى الشرع والعقل وقيل الدعوة إلى فعل الخير يندرج تحتها نوعان: أحدهما الترغيب فى فعل ماينبغى وهو الأمر بالمعروف والثانى الترغيب فى ترك مالا ينبغى وهو النهى عن المنكر فذكر الحسن أولا وهو الخير ثم أتبعه بنوعيه مبالغة فى البيان والمعروف اسم لكل فعل يعرف بالعقل والشرع حسنه والمنكر ضد ذلك وهو ما عرف بالعقل والشرع قبحه وقوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) تقدم تفسيره.

يقول «إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه» أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد ابن عبدالله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن حفص بن غياث أخبرنا أبي أنا الأعمش حدثني الشعبي أنه سمع النعمان بن بشير رضي الله عنه يقول قال النبي ﷺ «مثل المداهن في حدود الله تعالى والواقع فيها كمثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم

في أعلاها فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا مالك قال تأذيتم بي ولابد لي من الماء فان أخذوا على يديه أنجوه وأنجوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم» . قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات) قال أكثر المفسرين هم اليهود والنصارى وقال بعضهم المبتدعة من هذه الأمة وقال أبو أمامة رضي الله عنه هم الحرورية بالشام قال عبد الله بن شداد وقف أبو أمامة وأنا معه على رأس الحرورية بالشام فقال هم كلاب النار كانوا مؤمنين فكفروا بعد إيمانهم، ثم قرأ «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات إلى قوله تعالى أكفرتم بعد إيمانكم. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن ابن بشران أخبرنا إسماعيل

قوله عز وجل (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) يعني ولا تكونوا يامعشر المؤمنين كالذين تفرقوا يعني أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى في قول أكثر المفسرين واختلفوا في دين الله وأمره ونهيه وقيل تفرقوا واختلفوا بمعنى واحد وإنما ذكرهما للتأكيد وقيل تفرقوا بسبب العداوة واتباع الهوى واختلفوا في دين الله فصاروا فرقا مختلفين قال الربيع في هذه الآية هم أهل الكتاب نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا أو يختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب وقال ابن عباس أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في الدين وقال بعضهم هم المبتدعة من هذه الأمة وقال أبو أمامة هم الحرورية قال عبد الله بن شداد وقف أبو أمامة وأنا معه على رءوس الحرورية على درج جامع دمشق فذرفت عيناه ثم قال كلاب أهل النار وكانوا مؤمنين فكفروا بعد إيمانهم ، شر قتيل تحت أديم السماء وخير قتيل تحت أديم السماء الذين قتلهم هؤلاء قلت فما شأنك دمعت عيناك قال رحمة لهم كانوا من أهل الإسلام فكفروا بعد إيمانهم ثم أخذ بيدي وقال إن بأرضي منهم كثير وفي رواية ثم قرأ بعد قوله «فكفروا بعد إيمانهم ولا تكونوا كالذي تفرقوا واختلفوا» إلى قوله «أكفرتم بعد إيمانكم» ورواه الترمذي عن أبي غالب قال رأى أبو أمامة رءوسا منصوبة على درج دمشق فقال أبو أمامة كلاب أهل النار شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه ثم قرأ «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» إلى آخر الآية قلت لأبي أمامة أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاث مرات أو أربع مرات حتى عد سبعا ماحدثتكموه وقال فيه هذا حسن وقوله تعالى (من بعد ماجاءهم البينات) يعني الحجج الواضحات فعلموها ثم خالفوها وإنما قال جاءهم ولم يقل جاءتهم لجواز حذف علامة التأنيث من الفعل في التقديم تشبيها بعلامة التثنية والجمع (وأولئك لهم عذاب عظيم) يعني لهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا عذاب عظيم في الآخرة وفيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والخلاف عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه أخرجه أبو داود أراد بربقة الإسلام عقد الاسلام وأصله أن الربق حبل فيه عدة عرا يشد بها الغنم الواحدة من العرى ربقة وروى البغوي بسنده عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من سره أن يسكن بحبوبة الجنة فعليه بالجماعة فان الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد» بحبوحة الجنة وسطها والفذ هو الواحد . قوله عز وجل (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) يعني اذكروا يوم تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين وقيل تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة وقيل تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين وفي بياض الوجوه وسوادها قولان أحدهما إن البياض كناية عن الفرح والسرور والسواد كناية عن الغم والحزن

ابن محمد الصفار حدثنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عبد الله بن عمير وهذا عن عبدالله بن الزبير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من سره أن يسكن بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة فان الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد» قوله تعالى (وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) يوم نصب على الظرف أي في يوم وانتصاب الظرف على التشبيه بالمفعول يريد تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين

ومذا مجاز مستعمل يقال لمن نال بغيته وظفر بمطلوبه ابيض وجهه يعنى من السرور والفرح ولمن ناله مكروه اسود وجهه وأريد لونه يعنى من الحزن والغم قال الله تعالى « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا » يعنى من الحزن فعلى هذا بياض الوجوه إشراقها وسرورها واستبشارها بعملها وذلك أن المؤمن إذا ورد القيامة على ماقدم من خير وعمل صالح استبشر بثواب الله ونعمه عليه فاذا كان كذلك وسم وجهه ببياض اللون وإشراقه واستنارته وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وعن يمينه وشماله . وأما الكافر والظالم إذا ورد القيامة على ماقدم من قبيح عمل وسيئات حزن واغتم لعلمه بعذاب الله فاذا كان كذلك وسم وجهه بسواد اللون وكمودته واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب نعوذ بفضل الله وسعة رحمته من الظلمات يوم القيامة والقول الثانى بياض الوجوه وسوادها حقيقة تحصل فى الوجه فيبيض وجه المؤمن ويكسى نورا ويسود وجه الكافر ويكسى ظلمة لأن لفظ البياض والسواد حقيقة فيهما والحكمة فى بياض الوجوه وسوادها أن أهل الموقف إذا رأوا بياض وجه المؤمن عرفوا أنه من أهل السعادة وإذا رأوا سواد وجه الكافر عرفوا أنه من أهل الشقاوة (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى فيقال لهم أكفرتم والهمزة للتوبيخ والتقريع . فان قلت كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين فمن المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم . قلت اختلف العلماء فى ذلك فروى عن أبى بن كعب أنه قال أراد به الإيمان يوم أخذ الميثاق حين قال لهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى فآمن الكل فكل من كفر فى الدنيا فقد كفر بعد الإيمان وقال الحسن هم المنافقون وذلك أنهم تكلموا بالإيمان بألسنتهم وأنكروه بقلوبهم وقال عكرمة هم أهل الكتاب وذلك أنهم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه فلما بعث أنكروه وكفروا به وقيل هم الذين ارتدوا زمن أبى بكر الصديق رضى الله عنه وهم أهل الردة (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ « أنا فرطكم على الحوض وليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأنا لهم اختلجوا دونى فأقول أى رب أصحابى فيقول إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك » (ق) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليردن على الحوض رجال ممن صاحبنى حتى إذا رفعوا إلي اختلجوا دونى فلأقولن أى رب أصحابى أصحابى فيقال لي لاتدرى ماأحدثوا بعدك » زاد فى رواية فأقول « سحقا لمن بدل بعدى » (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يرد على يوم القيامة رهط من أصحابى أو قال من أمتى فيجلون عن الحوض فأقول يارب أصحابى فيقول إنه لاعلم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى » وقيل هم الخوارج الذين خرجوا على على بن أبى طالب وقتلهم وهم الحرورية (م) عن زيد بن وهب أنه كان فى الجيش الذين كانوا

وقيل تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ هذه الآية قال تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس إذا كان يوم القيامة رفع لكل قوم ماكانوا يعبدونه فيسعى كل قوم إلي ماكانوا يعبدونه وهو قوله تعالى « نوله ماتولى » فاذا انتهوا إليه حزنوا فتسود وجوههم من الحزن وبقى أهل القبلة واليهود والنصارى لم يعرفوا شيئا مما رفع لهم فيأتيهم الله فيسجد له من كان يسجد فى الدنيا مطيعا مؤمنا ويبقى أهل الكتاب والمنافقون لايستطيعون السجود ثم يؤذن لهم فيرفعون رءوسهم ووجوه المؤمنين مثل الثلج بياضا والمنافقون وأهل الكتاب إذا نظروا إلى وجوه المؤمنين حزنوا حزنا شديدا فاسودت وجوههم فيقولون ربنا مالنا مسودة وجوهنا فوالله ماكنا مشركين فيقول الله للملائكة انظروا كيف كذبوا على أنفسهم ، قال أهل المعانى : بياض الوجوه : إشراقها واستبشارها وسرورها بعملها وبثواب الله واسودادها : حزنها وكآبتها وكسوفها بعملها وبعذاب الله يدل عليه قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة » وقال تعالى « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة » وقال « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة » وقال « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة » (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) معناه يقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) فان قيل كيف قال أكفرتم بعد إيمانكم وهم لم يكونوا مؤمنين قيل حكى عن أبى بن كعب أنه قال أراد به الإيمان يوم الميثاق حين قال لهم ربهم ألست بربكم قالوا بلى يقول أكفرتم بعد إيمانكم يوم الميثاق وقال الحسن هم المنافقون تكلموا

بالإيمان بألسنتهم وأنكروا بقلوبهم وقال عكرمة إنهم أهل الكتاب آمنوا بأنبيائهم وبمحمد ﷺ قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به وقال قوم هم من أهل قبلتنا وقال أبو أمامة هم الخوارج وقال قتادة هم أهل البدع أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي

أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعيد بن أبي مريم عن نافع ابن عمر حدثني ابن أبي مليكة عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ «إني على الحوض حتى أنظر من يرد على منكم وسيؤخذ ناس دوني فأقول يارب مني ومن أمتي فيقال هل شعرت بما عملوا بعدك فوالله مابرحوا يرجعون على أعقابهم» وقال الحارث الأعور سمعت عليا رضي الله عنه على المنبر يقول: إن الرجل ليخرج من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملا يستوجب به الجنة، وإن الرجل ليخرج من أهله فما يثوب إليهم حتى يعمل عملا يستوجب به النار ثم قرأ «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» الآية ثم نادى هم الذين كفروا بعد الإيمان ورب الكعبة أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن الفضل الخرقي أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني أنا عبد الله بن عمر الجوهري أخبرنا أحمد ابن علي الكشميهني أنا علي ابن حجر أنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا» قوله تعالى (وأما الذين ابيضت وجوههم) هؤلاء أهل الطاعة (ففي رحمة الله) في جنة الله (هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ولله مافي السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور

مع علي لما ساروا إلى الخوارج فقال علي: أيها الناس إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلي قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لاتجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية» وفي رواية سويد بن غفلة عنه يقرءون القرآن لايجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة (ق) عن بشير بن عمرو قال قلت لسهل بن حنيف هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الخوارج شيئا قال سمعته يقول وأهوى بيده إلى العراق «يخرج منهم قوم يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية» وقيل هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة كالقدرية ونحوهم ومن قال بهذا القول يقول كفرهم بعد إيمانهم هو خروجهم من الجماعة ومفارقتهم في الاعتقاد (م) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا» وقال الحرث الأعور سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول على المنبر إن الرجل ليخرج من أهله فما يثوب إليهم حتى يعمل عملا يستوجب به الجنة وإن الرجل ليخرج من أهله فما يعود إليهم حتى يعمل عملا يستوجب به النار ثم قرأ يوم تبيض وجوه الآية ثم نادى هم الذين كفروا بعد الايمان ورب الكعبة. وقوله تعالى (وأما الذين ابيضت وجوههم) يعني المؤمنين المطيعين لله عز وجل (ففي رحمة الله) يعني ففي جنة الله وإنما سميت الجنة رحمة لأنها دار رحمة وفيه إشارة إلى أن العبد وإن عمل بالطاعات لايدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى (هم فيها خالدون) قيل إنما كرر كلمة في لأن في كل واحدة منهن معنى غير الأخرى المعنى أنهم في رحمة الله وأنهم في الرحمة خالدون (تلك آيات الله) يعني القرآن وقيل هذه الآيات التي تقدمت (نتلوها عليك بالحق) أي بالمعنى الحق لأن المتلو حق (وما الله يريد ظلما للعالمين) يعني لايعاقب أحدا بغير جرم واستحقاق للعقوبة وإنما ذكر الظلم هنا لأنه قد تقدم ذكر العقوبة في قوله فأما الذين اسودت وجوههم إلى قوله فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون أخبر أنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب أفعالهم المنكرة وأنه لايظلم أحدا من خلقه (ولله مافي السموات وما في الأرض) لما ذكر الله أنه لايريد ظلما للعالمين لأنه لاحاجة به إلى الظلم وذلك أن الظالم إنما يظلم غيره ليزداد مالا أو عزا أو سلطانا أو يتم نقصا فيه بما يظلم به غيره ولما كان الله عز وجل مستغنيا عن ذلك وله صفة الكمال أخبر أن له مافي السموات ومافي الأرض وأن جميع مافيهما ملكه وأهلهما عبيده وإذا كان كذلك يستحيل في حقه سبحانه وتعالى أن يظلم أحدا من خلقه لأنهم عبيده وفي قبضته ثم قال (وإلى الله ترجع الأمور) يعني وإليه مصير جميع الخلائق

المؤمن

المؤمن والكافر والطائع والعاصي فيجازي الكل على قدر استحقاقهم ولا يظلم أحدا منهم . قوله عز وجل (كنتم خير أمة) سبب نزول هذه الآية أن مالك بن الصيف ووهب بن يهودا اليهوديين قالا لعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى حذيفة: نحن أفضل منكم وديننا خير من دينكم الذي تدعوننا إليه فأنزل الله هذه الآية واختلف في لفظة كان فقيل هي بمعنى الحدوث والوقوع والمعنى حدثتم ووجدتم وخلقتم خير أمة وقيل كان هنا ناقصة وهي عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض ولا تدل على انقطاع طارىء بدليل قوله «وكان الله غفورا رحيما» فعلى هذا التقدير يكون المعنى :كنتم في علم الله خير أمة وقيل كنتم مذكورين في الأمم الماضية بأنكم خير أمة وقيل كنتم في اللوح المحفوظ موصوفين بأنكم خير أمة وقيل معناه كنتم منذ آمنتم خير أمة وقيل قوله خير أمة تابع لقوله «فأما الذين ابيضت وجوههم» والتقدير أنه يقال لهم عند دخول الجنة كنتم في دنياكم خير أمة فلهذا استحققتم ماأنتم فيه من بياض الوجوه والنعيم المقيم وقيل كنتم بمعنى أنتم وقيل يحتمل أن يكون كان بمعنى صار فمعنى قوله كنتم أي صرتم خير أمة. فأما المخاطبون بهذا من هم ففيه خلاف قال ابن عباس في قوله كنتم خير أمة هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى ابن جرير عن عمر بن الخطاب قال لو شاء الله تعالى لقال أنتم فكنا كلنا ولكن في خاصة من أصحاب رسول الله ﷺ ومن صنع مثل ماصنعتم كانوا خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وقال الضحاك هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني به كانوا هم الرواة الدعاة الذين أمر الله عز وجل المسلمين باتباعهم وطاعتهم (ق) عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ثم إن بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن» زاد في رواية «ويحلفون ولا يستحلفون» (ق) عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» قوله خير الناس قرني يعني أصحابي والقرن أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران فكأنه الزمان الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم وقيل القرن أربعون سنة وقيل ثمانون وقيل مائة (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتسبوا أصحابي فلو أن أحدا أنفق مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه» النصيف النصف وقال ابن عباس في رواية عطاء في قوله كنتم خير أمة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال الزجاج قوله كنتم خير أمة الخطاب فيه مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه عام في كل أمة ونظيره قوله كتب عليكم الصيام ، كتب عليكم القصاص فان كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ ولكنه عام في حق الكل كذا ههنا عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس قال أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن وأصل الأمة الجماعة المجتمعة على الشيء. وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الجماعة الموصوفون بالإيمان بالله عز وجل وبمحمد صلى الله عليه وسلم (خ) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا ومن يأبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى»

(كنتم خير أمة

أخرجت للناس) قال عكرمة ومقاتل نزلت فى ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنهم وذلك أن مالك بن الصيف ووهب بن يهود اليهوديين قالا لهم نحن أفضل منكم وديننا خير مما تدعوننا إليه فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما «كنتم خير أمة أخرجت للناس» هم الذين هاجروا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقال جويبر عن الضحاك هم أصحاب محمد ﷺ خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم وروى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كنتم خير أمة أخرجت للناس تكون لأولنا ولا تكون لآخرنا أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أبو محمد (٤٠٤) عبد الرحمن بن شريح أنا أبو القاسم البغوى أنا على بن الجعد أخبرنا شعبة عن أبي حمزة قال سمعت زهدم بن مضرب بن عمران بن حصين رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران لا أدرى أذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعد قرنه مرتين أو ثلاثا ثم إن بعدهم قوما يخونون ولا يؤتمنون ويشهدون ولا يستشهدون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن» ، وبهذا الإسناد عن على بن الجعد أخبرنا شعبة وأبو معاوية عن الأعمش عن ذكوان عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لاتسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه» وقال الآخرون جميع المؤمنين من هذه الأمة (تأمرون

وقوله كنتم أى أنتم كقوله تعالى « واذكروا إذ كنتم قليلا » وقال فى موضع آخر « واذكروا إذ أنتم قليل » وقيل معناه كنتم خير أمة عند الله فى اللوح المحفوظ وقال قوم قوله للناس صلة قوله خير أمة أى أنتم خير أمة للناس قال أبو هريرة معناه كنتم خير الناس للناس تجيئون بهم فى السلاسل فتدخلونهم فى الإسلام قال قتادة هم أمة محمد صلي الله عليه وسلم لم يؤمر نبى بعده بالقتال فهم يقاتلون الكفار فيدخلونهم فى دينهم فهم خير أمة للناس وقيل قوله للناس صلة قوله أخرجت معناه ما أخرج الله للناس أمة خيرا من أمة محمد ﷺ أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الحافظ أخبرنا أبو على الحسين بن محمد بن حبيش المقرى أنا على بن زنجويه أخبرنا سلمة بن شبيب أنا عبد الرزاق أنا معمر عن بهز بن حكيم

عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله لا يجمع أمتى أو قال أمة محمد صلى الله عليه وسلم على ضلالة ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ فى النار» أخرجه الترمذى عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أمتى أمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة عذابها فى الدنيا الفتن والزلازل والقتل» أخرجه أبو داود عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل أمتى كمثل المطر لا يدرى آخره خير أم أوله» أخرجه الترمذى وله عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم» وله عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «باب أمتى الذى يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب المسرع المجد ثلاثا ثم إنهم يتضاغطون عليه حتى تكاد مناكبهم تزول» قال الترمذى سألت محمدا يعنى البخارى عن هذا الحديث فلم يعرفه وقال لخالد بن أبى بكر مناكير عن سالم بن عبد الله زاد غيره فى الحديث وهم شركاء الناس فى سائر الأبواب عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أمتى من يشفع فى الفئام من الناس ومنهم من يشفع فى القبيلة ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للواحد» أخرجه الترمذى (خ) عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا أو سبعمائة ألف سماطين متماسكين آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر» عن أبى أمامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «وعدنى ربى أن يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب ومع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربى» أخرجه الترمذى وروى البغوى باسناد الثعلبى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى» وقوله تعالى (أخرجت للناس) معناه كنتم خير الأمم المخرجة للناس فى جميع الأعصار ومعنى أخرجت أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وقيل معناه كنتم للناس خير أمة أخرجت (خ) عن أبى هريرة قال كنتم خير أمة أخرجت للناس قال خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام وقيل أخرجت صلة والتقدير كنتم خير أمة للناس وقيل معناه ما أخرج للناس أمة خير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم

عن أبيه عن جده «أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله تعالى «كنتم خير أمة أخرجت للناس» قال إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا معشر بن إبراهيم بن محمد الفيركي أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن زكريا بن يحيي أخبرنا أبو الصلت أخبرنا حماد بن زيد أخبرنا على بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ألا وإن هذه الأمة توفى سبعين أمة هي أخيرها وأكرمها على الله عز وجل» أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنا أبو عبدالله الحسين بن محمد أنا الفضل بن الفضيل أخبرنا خليفة الفضل بن الجباب قال عبد الرحمن يعني ابن المبارك أخبرنا حماد بن يحيي الأشج أنا ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره» أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو محمد المخلدي أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن محمد ابن عدى أخبرنا محمد ابن عيسى التنيسي أخبرنا عمر بن أبي سلمة أخبرنا صدقة بن عبد الله عن زهير بن محمد عن عبدالله ابن عقيل عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم كلهم حتى تدخلها أمتي» أخبرنا أبو سعيد الشريحي قال أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو عبد الله الحسين بن محمد أخبرنا أبو القاسم عمر بن محمد بن عبد الله بن حاتم الترمذي أخبرنا جدي لأبي محمد ابن عبد الله بن مرزوق أنا عفان بن مسلم أنا عبد العزيز بن مسلم أخبرنا أبو سنان يعني ضرار بن مرة عن محارب بن دثار عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون من هذه الأمة» قوله تعالى (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) أي الكافرون قوله تعالى (لن يضروكم إلا أذى) قال مقاتل إن رءوس اليهود عمدوا إلى من آمن منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه فآذوهم فأنزل الله تعالى هذه الآية لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلا أذى باللسان وعيدا وطغيانا وقيل كلمة كفر تتأذون بها (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار) منهزمين (ثم لا ينصرون) بل يكون لكم النصر

(تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) هذا كلام مستأنف والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية وكونهم خير أمة كما تقول زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بمصالحهم والمعروف هو التوحيد والمنكر هو الشرك والمعنى تأمرون الناس بقول لا إله إلا الله وتنهونهم عن الشرك (وتؤمنون بالله) أي وتصدقون بالله وتخلصون له التوحيد والعبادة. فان قلت لم قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان يلزم أن يكون مقدما على كل الطاعات والعبادات؟ قلت الإيمان بالله أمر يشترك فيه جميع الأمم المؤمنة وإنما فضلت هذه الأمة الإسلامية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على سائر الأمم وإذا كان كذلك كان المؤثر في هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأما الإيمان بالله فهو شرط في هذا الحكم لأنه مالم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات مقبولا فثبت أن الموجب لهذه الخيرية لهذه الأمة هو كونهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر فلهذا السبب حسن تقديم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان وقوله تعالى (ولو آمن أهل الكتاب) يعني ولو آمن اليهود والنصارى بمحمد ﷺ وبالدين الذي جاء به (لكان خيرا لهم) يعني مما هم عليه من اليهودية والنصرانية وإنما حملهم على ذلك حب الرياسة واستتباع العوام ولو أنهم آمنوا لحصلت لهم الرياسة في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة وهو دخول الجنة (منهم) يعني من أهل الكتاب (المؤمنون) يعني عبدالله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا من النصارى (وأكثرهم الفاسقون) أي المتمردون في الكفر وقيل إن الكافر قد يكون عدلا في دينه وهؤلاء مع كفرهم فاسقون. قوله عز وجل (لن يضروكم إلا أذى) سبب نزول هذه الآية أن رؤساء اليهود عمدوا إلى من آمن منهم مثل عبد الله بن سلام وأصحابه فآذوهم لإسلامهم فأنزل الله تعالى لن يضروكم إلا أذى يعني لن يضركم أيها المؤمنون هؤلاء اليهود إلا أذى يعني باللسان من طعنهم في دينكم أو تهديد أو إلقاء شبهة وتشكيك في القلوب وكل ذلك يوجب الأذى والغم (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار) يعني منهزمين مخذولين (ثم لا ينصرون) يعني لا يكون لهم النصر عليكم بل تنصرون عليهم وفيه تثبيت لمن أسلم من أهل الكتاب لأنهم كانوا يؤذونهم بالقول ويهددونهم ويوبخونهم فأعلمهم الله تعالى أنهم لا يقدرون أن يجاوزوا

عليهم (ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا) حيث ماوجدوا (إلا بحبل من الله) يعنى أينما وجدوا استضعفوا وقتلوا أو سبوا فلا يؤمنون إلا بحبل عهد من الله تعالى بأن يسلموا (وحبل من الناس) من المؤمنين ببذل جزية أو أمان يعنى إلا أن يعتصموا بحبل الله فيأمنوا قوله تعالى (وباءوا بغضب من الله) رجعوا به (٤٠٦) (وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) قوله تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومقاتل لما آمن عبد الله بن سلام وأصحابه قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا شرارنا ولو لا ذلك لما تركوا دين آبائهم فأنزل الله تعالى هذه الآية واختلفوا فى وجهها فقال قوم فيه اختصار تقديره ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة وأخرى غير قائمة فترك الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين وقال الآخرون تمام الكلام عند قوله ليسوا سواء وهو وقف لأنه قد جرى ذكر الفريقين من أهل الكتاب فى قوله تعالى «منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون» ثم قال ليسوا سواء يعنى المؤمنين والفاسقين» ثم وصف الفاسقين فقال لن يضروكم إلا أذى ووصف المؤمنين بقوله أمة قائمة وقيل قوله من أهل الكتاب

فعل

ابتداء كلام آخر لأن ذكر الفريقين قد جرى ثم قال ليس هذان الفريقان سواء ثم ابتدأ فقال من أهل الكتاب قال ابن مسعود رضى الله عنه لا يستوى اليهود وأمة محمد صلى الله عليه وسلم القائمة بأمر الله الثابتة على الحق المستقيمة وقوله تعالى أمة

الأذى بالقول إلى غيره من الضرر ثم وعدهم الغلبة والانتقام منهم وأن عاقبتهم الخذلان والذل فقال تعالى (ضربت عليهم الذلة) يعنى جعلت الذلة ملصقة بهم كالشئ يضرب على الشئ فيلتصق به والمراد بالذلة قتلهم وسبيهم وغنيمة أموالهم وقيل الذلة ضرب الجزية عليهم لأنها ذلة وصغار وقيل ذلتهم أنك لا ترى فى اليهود ملكا قاهرا ولا رئيسا معتبرا بل هم مستضعفون فى جميع البلاد (أينما ثقفوا) أى حيثما وجدوا وصودفوا (إلا بحبل من الله) يعنى إلا بعهد من الله وهو أن يسلموا فتزول عنهم الذلة (وحبل من الناس) يعنى المؤمنين ببذل الجزية والمعنى ضربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال إلا فى حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس وهو ذمة الله وعهده وذمة المسلمين وعهدهم لا عز لهم إلا هذه الواحدة وهى التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من بذل الجزية. وإنما سمى العهد حبلا لأنه سبب يوصل إلى الأمن وزوال الخوف (وباءوا بغضب من الله) يعنى رجعوا بغضب من الله واستوجبوه وقيل أصله من البواء وهو المكان والمعنى أنهم مكثوا فى غضب من الله وحلوا فيه (وضربت عليهم المسكنة) يعنى كما يضرب البيت على أهله فهم ساكنون فى المسكنة غير خارجين منها قال الحسن المسكنة هى الجزية وذلك لأن الله تعالى أخرج المسكنة عن الاستثناء وذلك يدل على أنها باقية عليهم والباقى عليهم هو الجزية فدل على أن المسكنة هى الجزية وقيل المراد بالمسكنة هو أن اليهودى يظهر من نفسه الفقر وإن كان غنيا موسرا (ذلك) إشارة إلى ماذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب (بأنهم) أى بسبب أنهم (كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) أى ذلك الذى نزل بهم بسبب عصيانهم لله عز وجل وتعديهم لحدوده فنزل بهم مانزل قوله عز وجل (ليسوا سواء) قال ابن عباس لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قالت أحبار اليهود ما آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا شرارنا ولولا ذلك ماتركوا دين آبائهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وفى قوله ليسوا سواء قولان أحدهما أنه كلام تام يوقف عليه والمعنى أهل الكتاب الذى سبق ذكرهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ليسوا سواء وقيل معناه لا يستوى اليهود وأمة محمد صلى الله عليه وسلم القائمة بأمر الله الثابتة على الحق والقول الثانى أن قوله ليسوا سواء متعلق بما بعده ولا يوقف عليه وقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة) فيه اختصار وإضمار والتقدير ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ومنهم أمة مذمومة غير قائمة فترك ذكر الأمة الأخرى اكتفاء بذكر أحد الفريقين وهذا على مذهب العرب أن ذكر أحد الضدين يغنى عن ذكر الآخر قال أبو ذؤيب .

دعانى إليها القلب أنى امرؤ لها ... مطيع فلا أدرى أرشد طلابها

أراد أم غير رشد فاكتفى بذكر أحد الرشدين دون الآخر وقال الزجاج لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة لأنه قد جرى ذكر أهل الكتاب بقوله كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق فأعلم الله أن منهم أمة قائمة فلا حاجة بنا إلى أن نقول وأمة غير قائمة إنما ابتدأ بذكر

فعل الأكثر منهم وهو الكفر والمشاقة ثم ذكر من كان مباينا لهم فى فعلهم فقال «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة» قال ابن عباس قائمة أى مهدية قائمة على أمر الله تعالى لم يضعوه ولم يتركوه وقيل قائمة أى عادلة وقيل قائمة على كتاب الله عز وجل وحدوده وقيل قائمة فى الصلاة (يتلون آيات الله) أى يقرءون كتاب الله عز وجل (آناء الليل) يعنى ساعاته (وهم يسجدون) يعنى يصلون، عبر بالسجود عن الصلاة لأن التلاوة لا تكون فى السجود وقيل: هى صلاة التهجد بالليل وقيل هى صلاة العشاء لأن اليهود لا يصلونها وقيل يحتمل أنه أراد بالسجود الخضوع والخشوع لأن العرب تسمى الخشوع سجودا وقال عطاء فى قوله تعالى «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة» يريد أربعين رجلا من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه الصلاة والسلام وصدقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنوا به وكانوا عدة نفر من الأنصار منهم أسعد بن زرارة والبراء بن معرور ومحمد بن مسلمة وأبو قيس صرمة بن أنس كانوا قبل الإسلام موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله عز وجل بالنبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا به وصدقوه، ثم وصفهم الله تعالى بصفات ما كانت فى اليهود فقال (يؤمنون بالله واليوم الآخر) وذلك لأن إيمان أهل الكتاب فيه شرك ويصفون اليوم الآخر بغير ما يصفه المؤمنون وقيل إن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله واليهود يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من فعل المعاصى واليهود لا يحترزون منها فلم يحصل الإيمان الخالص بالله واليوم الآخر (ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) يعنى غير مداهنين كما يداهن اليهود بعضهم بعضا وقيل يأمرون بالمعروف يعنى بتوحيد الله تعالى والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وينهون عن المنكر يعنى عن الشرك وعن كتم صفة محمد ﷺ (ويسارعون فى الخيرات) أى يبادرون إليها خوف الفوت وذلك أن من رغب فى أمر سارع إليه وقام به غير متوان عنه وقيل يسارعون فى الخيرات غير متثاقلين ولا كسالى (وأولئك) إشارة إلى الموصوفين بما وصفوا به (من الصالحين) أى من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله عز وجل ورضى عنهم واستحقوا ثناءه عليهم، وذلك لأن الصلاح ضد الفساد فاذا حصل الصلاح للإنسان فقد حصل له أعلى الدرجات وأكمل المقامات وقيل يحتمل أن يراد بالصالحين المسلمون والمعنى أولئك الذين تقدم وصفهم من جملة المسلمين. قوله عز وجل (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) قرىء بالياء لأن الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمنى أهل الكتاب وذلك أن اليهود لما قالوا لعبد الله بن سلام وأصحابه إنكم خسر ثم بسبب هذا الدين الذى دخلتم فيه فأخبر الله تعالى أنهم فازوا بالدرجات العلى وما فعلوه من خير يجازيهم به ولا يمنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل فيه كل فاعل للخير وقرىء بالتاء على أنه ابتداء كلام وهو خطاب لجميع المؤمنين ويدخل فيه مؤمنوا أهل الكتاب أيضا ومعنى الآية وما تفعلوا من خير أيها المؤمنون فلن تكفروه أى فلن تعدموا ثوابه ولن تحرموه أو تمنعوه بل يشكره لكم ويجازيكم به (والله عليم بالمتقين) فيه

قائمة قال ابن عباس أى مهتدية قائمة على أمر الله لم يضيعوه ولم يتركوه وقال مجاهد عادلة وقال السدى مطيعة قائمة على كتاب الله وحده وقيل قائمة فى الصلاة وقيل الأمة الطريقة ومعنى الآية أى ذووا أمة أى ذووا طريقة مستقيمة (يتلون آيات الله) يقرءون كتاب الله وقال مجاهد يتبعون (آناء الليل) ساعاته واحدها إنى وآناء مثل نحى وأنحاء وإنى وآناء مثل معي وأمعاء وأنى مثل منا وأمناء (وهم يسجدون) أى يصلون لأن التلاوة لاتكون فى السجود واختلفوا فى معناها، فقال بعضهم هى قيام الليل وقال ابن مسعود صلاة العتمة يصلونها ولا يصليها من سواهم من أهل الكتاب وقال عطاء «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة» الآية يريد أربعين رجلا من أهل نجران من العرب واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا محمدا صلى الله عليه وسلم وكان من الأنصار منهم عدة قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم، منهم أسعد بن زرارة، والبراء بن معرور ومحمد بن سلمة وأبو قيس ابن صرمة بن أنس كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة ويقومون بما عرفوا من شرائع الحنيفية حتى جاءهم الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم فصدقوه ونصروه قوله تعالى (يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) قرأ حمزة والكسائى وحفص بالياء فيهما إخبار عن الأمة القائمة وقرأ الآخرون بالتاء فيهما لقوله «كنتم خير أمة» وأبو عمرو يرى القراءتين جميعا ومعنى الآية وما تفعلوا من خير فلن تعدموا ثوابه بل يشكر لكم وتجازون عليه (والله عليم بالمتقين) بالمؤمنين

بشارة للمتقين بجزيل الثواب ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل الإيمان والتقوى . قوله عز وجل (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) قال ابن عباس : يريد بنى قريظة والنضير وذلك أن رؤساء اليهود مالوا إلى تحصيل الأموال فى معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان مقصودهم بمعاداته تحصيل الرياسة والأموال فقال الله عز وجل ؛ لن تغنى عنهم أموالهم وقيل : نزلت فى مشركى قريش فان أبا جهل كان كثير الافتخار بالأموال وأنفق أبو سفيان مالا كثيرا فى يومى بدر وأحد على المشركين وقيل : أن الآية عامة فى جميع الكفار لأن اللفظ عام ولا دليل يوجب التخصيص فوجب إجراء اللفظ على عمومه ومعنى الآية « إن الذين كفروا لن تغنى » أى تدفع عنهم أموالهم بالفدية لو افتدوا بها من عذاب الله ولا أولادهم بالنصر وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بالفداء بالمال وتارة بالإستعانة بالأولاد فأعلم الله تعالى أن الكافر لا ينفعه شىء من ذلك فى الآخرة ولا يخلص له من عذاب الله وهو قوله (وأولئك أصحاب النار هم خالدون) لا يخرجون منها ولا يفارقونها قوله عز وجل (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا) قيل أراد نفقة أبى سفيان وأصحابه ببدر وأحد فى معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل أراد نفقة اليهود على علمائهم ورءوسائهم وقيل: أراد نفقات جميع الكفار وصدقاتهم فى الدنيا وقيل: أراد نفقة المرائى الذى لا يريد بما ينفق وجه الله تعالى وذلك لأن انفاقهم المال إما أن يكون لمنافع الدنيا أو لمنافع الآخرة فان كان لمنافع الدنيا لم يبق له أثر فى الآخرة فى حق المسلم فضلا عن الكافر وإن كان لمنافع الآخرة كمن يتصدق ويعمل أعمال البر فان كان كافرا فان الكفر محبط لجميع أعمال البر فلا ينتفع بما أنفق فى الدنيا لأجل الآخرة وكذلك المرائى الذى لا يريد بما أنفق وجه الله تعالى فانه لا ينتفع بنفقته فى الآخرة ثم ضرب لذلك الإنفاق مثلا فقال تعالى (كمثل ريح فيها صر) فيه وجهان : أحدهما وهو قول أكثر المفسرين ، وأهل اللغة إن الصر البرد الشديد وبه قال ابن عباس وقتادة والسدى وابن زيد . والوجه الثانى أن الصر هو السموم الحارة التى تقتل وهو رواية عن ابن عباس وبه قال ابن الأنبارى من أهل اللغة وعلى الوجهين فالتشبيه صحيح والمقصود منه حاصل لأنها سواء كان فيها برد فهى مهلكة أو حر فهى مهلكة أيضا (أصابت) يعنى الريح التى فيها صر (حرث قوم) أى زرع قوم (ظلموا أنفسهم) يعنى بالكفر والمعاصى ومنع حق الله فيه (فأهلكته) يعنى فأهلكت الريح الزرع ومعنى الآية مثل نفقات الكفار فى ذهابها وقت الحاجة إليها كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته فلم ينتفع به أصحابه . فان قلت الغرض تشبيه ما أنفقوا وأبطال ثوابه وعدم الانتفاع به الحرث الذى هلك بالريح فكيف شبهه بالريح المهلكة للحرث ؟ قلت هو من التشبيه المركب وهو ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين فعلى هذا زال الإشكال ومن التشبيه ما حصلت فيه المشابهة بين المقصود من الجملتين وبين أجزاء كل واحدة منهما فان جعلنا هذا المثل من هذا القسم ففيه وجهان : أحدهما أن يكون التقدير مثل الكفر فى إهلاك ما ينفقون كمثل الريح المهلكة للحرث. الوجه الثانى مثل ما ينفقون كمثل مهلك الريح وهو الحرث والمقصود من ضرب هذا المثل هو تشبيه ما ينفقون بشىء يذهب بالكلية ولا يبقى منه شىء . وقوله تعالى (وما ظلمهم الله) يعنى بأن لم يقبل نفقاتهم (ولكن أنفسهم يظلمون) يعنى أنهم عصوا الله

(إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) أى لا تدفع أموالهم بالفدية وأولادهم بالنصرة من الله شيئا أى من عذاب الله وخصهما بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالاستعانة بالأولاد (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وإنما جعلهم من أصحابها لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يفارقونها كصاحب الرجل لا يفارقه (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا) قيل: أراد نفقات أبى سفيان وأصحابه ببدر وأحد على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال مقاتل: أراد نفقة اليهود على علمائهم قال مجاهد: يعنى جميع نفقات الكفار فى الدنيا وصدقاتهم وقيل أراد إنفاق المرائى الذى لا يبتغى به وجه الله تعالى (كمثل ريح فيها صر) حكى عن ابن عباس رضى الله عنه أنها السموم الحارة التى تقتل وقيل فيها صر أى صوت وأكثر المفسرين قالوا فيها برد شديد (أصابت حرث قوم) زرع قوم (ظلموا أنفسهم) بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى (فأهلكته) فمعنى الآية مثل نفقات الكفار وذهابها وقت الحاجة إليها ، كمثل زرع أصابته ريح باردة فأهلكته أو نار فأحرقته ، فلم ينتفع أصحابه منه لشىء (وما ظلمهم الله) بذلك (ولكن أنفسهم يظلمون) بالكفر والمعصية

فاستحقوا

قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم) الآية قال ابن عباس رضى الله عنهما كان رجال من المسلمين يواصلون
اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة
عليهم وقال مجاهد نزلت فى قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين فنهاهم الله تعالى عن ذلك فقال يا أيها
الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم أى أولياء وأصفياء من غير أهل ملتكم وبطانة الرجل خاصته تشبيها ببطانة الثوب التى تلى بطنه لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون منه على مالا يطلع عليه غيرهم . ثم بين العلة فى النهى عن مباطنتهم فقال جل ذكره (لا يألونكم خبالا) أى لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد ، والخبال : الشر والفساد ونصب خبالا على المفعول الثانى لأن يألو يتعدى إلى مفعولين ، وقيل بنزع الخافض أى بالخبال كما يقال أوجعته ضربا (ودواماعنتم) أى يودون مايشق عليكم من الضر والشر والهلاك والعنت المشقة (قدبدت البغضاء) أى البغض معناه ظهرت إمارة العداوة (من أفواههم) بالشتيمة والوقيعة فى المسلمين وقيل باطلاع المشركين على أسرار المسلمين
(وما تخفى صدورهم) من العداوة والغيظ (أكبر) أعظم (قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون هاأنتم) هاتنبيه وأنتم كناية للمخاطبين من الذكور (أولاء) اسم للمشار إليه يريد أنتم أيها المؤمنون (تحبونهم) أى تحبون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للأسباب التى بينكم من القرابة والرضاع والمصاهرة (ولايحبونكم)

فاستحقوا عقابه فأبطل نفقاتهم وأهلك حرثهم وقيل ظلموا أنفسهم حيث لم يأتوا بنفقاتهم مستحقة للقبول . قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة) الآية قال ابن عباس كان رجال من المسلمين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع فأنزل الله عز وجل هذه الآية ونهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم ويدل على صحة هذا القول أن الآيات المتقدمة فيها ذكر اليهود فتكون هذه الآية كذلك وقيل كان قوم من المؤمنين يصافون المنافقين ويفشون إليهم الأسرار ويطلعونهم على الأحوال الخفية فنهاهم الله عن ذلك وحجة هذا القول أن الله ذكر فى سياق هذه الآية قوله «وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» وهذه صفة المنافقين لاصفة اليهود وقيل المراد بهذه جميع أصناف الكفار ويدل على صحة هذا القول معنى الآية لأن الله تعالى قال لاتتخذوا بطانة من دونكم فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من دون المؤمنين فيكون ذلك نهيا عن جميع الكفار والبطانة خاصة الرجل المطلع على سره واشتقاقه من بطانة الثوب بدلالة قولهم لبست فلانا إذا اختصصته ويقال فلان شعاري ودثاري والشعار الذى يلى الجسد وكذلك البطانة والحاصل أن الذى يخصه الإنسان بمزيد القرب يسمى بطانة لأنه يستبطن أمره ويطلع منه على مالا يطلع عليه غيره (من دونكم) قيل من صلة زائدة والتقدير لاتتخذوا بطانة دونكم وقيل من للتبيين أى لاتتخذوا بطانة من دون أهل ملتكم والمعنى لاتتخذوا أولياء ولا أصفياء من غير أهل ملتكم ثم بين سبحانه وتعالى علة النهي عن مباطنتهم فقال تعالى (لايألونكم خبالا) يعنى لايقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد وهو الخبال لأن أصل الخبال الفساد والضرر الذى يلحق الإنسان فيورثه نقصان العقل (ودوا ماعنتم) أى يودون عنتكم وهو مايشق عليكم من الضرر والشر والهلاك والعنت المشقة (قد بدت البغضاء من أفواههم) أى ظهرت العداوة من أفواههم بالشتيمة والوقيعة بين المسلمين وقيل هو إطلاع المشركين على أسرار المؤمنين (وما تخفى صدورهم) يعنى من العداوة والغيظ (أكبر) أى أعظم مما يظهرونه (قد بينا لكم الآيات) يعنى الدالة على وجوب الإخلاص فى الدين من موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين (إن كنتم تعقلون) يعنى مابين لكم فتتعظون به . قوله تعالى (هاأنتم) هاللتنبيه وأنتم كناية للمخاطبين من الذكور (أولاء) اسم للمشار إليهم فى قوله (تحبونهم) والمعنى أنتم أيها المؤمنون تحبون هؤلاء اليهود الذين نهيتكم عن مباطنتهم للأسباب التى بينكم وبينهم من القرابة والرضاع والمصاهرة والحلف (ولا يحبونكم) يعنى اليهود لما بينكم وبينهم من المخالفة فى الدين وقيل تحبونهم يعنى تريدون لهم الإسلام وهو خير الأشياء ولا يحبونكم لأنهم يريدون لكم الكفر وهو شر الأشياء لأن فيه هلاك الأبد وقيل هم المنافقون تحبونهم لما أظهروا من الإيمان وأنتم لاتعلمون مافي قلوبهم ولا يحبونكم لأن الكفر ثابت فى قلوبهم وقيل تحبونهم

لما بينكم من مخالفة الدين وقال مقاتل هم المنافقون يحبهم المؤمنون لما أظهروا من الإيمان ولا يعلمون ما فى قلوبهم (وتؤمنون بالكتاب كله) يعنى بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا) وكان بعضهم مع بعض (عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) يعنى أطراف الأصابع واحدتها أنملة بضم الميم وفتحها من الغيظ لما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وعض الأنامل عبارة عن شدة الغيظ وهذا من مجاز الأمثال وإن لم يكن ثم عض (قل موتوا بغيظكم) أى ابقوا إلي الممات بغيظكم (إن الله عليم بذات الصدور) أى بما فى القلوب من خير وشر وقوله تعالى (إن تمسسكم) أى تصبكم أيها المؤمنون (حسنة) بظهوركم على عدوكم وغنيمة تنالونها منهم وتتابع الناس فى الدخول فى دينكم وخصب فى معايشكم (تسؤهم) تحزنهم (وإن تصبكم سيئة) مساءة باخفاق سرية لكم أو إصابة عدو منكم واختلاف يكون بينكم أوجدب أو نكبة (يفرحوا بها وإن تصبروا) على أذاهم (وتتقوا) تخافوا ربكم (لا يضركم) أى لا ينقصكم (كيدهم شيئا) قرأ ابن عامر وابن كثير ونافع وأهل البصرة لا يضركم بكسر الضاد خفيفة يقال ضار يضير ضيرا وهو جزم على جواب الجزاء وقرأ الباقون بضم الضاد وتشديد الراء من ضر يضر ضرا مثل رد يرد ردا وفى رفعه وجهان: أحدهما أنه أراد الجزم وأصله يضرركم فأدغمت الراء فى الراء ونقلت ضمة الراء الأولى إلى الضاد وضمت الثانية إتباعا. والثانى أن يكون لا بمعنى ليس ويضمر فيه الفاء تقديره وإن تصبروا وتتقوا فليس يضركم كيدهم شيئا (إن الله بما يعملون محيط) أى عالم. قوله تعالى (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) قال الحسن هو يوم بدر وقال مقاتل يوم الأحزاب وقال سائر المفسرين هو يوم أحد وقال مجاهد والكلبى والواقدى غدا رسول

وذلك بأن نقشوا إليهم أسراركم ولا يحبونكم أى لا يفعلون مثل ذلك معكم (وتؤمنون بالكتاب كله) يعنى وهم لا يؤمنون وإنما ذكر الكتاب بلفظ الواحد والمراد به الجمع لأنه ذهب به إلى الجنس كقولهم كثر الدرهم فى أيدى الناس والمعنى أنكم تؤمنون بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بشئ من كتابكم (وإذا لقوكم قالوا آمنا) يعنى أن الذين وصفهم فى هذه الآية بهذه الصفات إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا كإيمانكم وصدقنا كتصديقكم وهذه صفة المنافقين وقيل هم اليهود (وإذا خلوا) أى خلا بعضهم إلى بعض (عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) الأنامل جمع أنملة وهى طرف الأصبع والمعنى أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهروا العداوة وشدة الغيظ على المؤمنين لما يرون من ائتلافهم واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم وعض الأنامل عبارة عن شدة الغيظ وهذا من مجاز الأمثال وإن لم يكن هناك عض كما يقال عض يده من الغيظ والغضب (قل موتوا بغيظكم) هذا دعاء عليهم أن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به وذلك لما يرون من قوة الإسلام وعزة أهله وما لهم فى ذلك من الذل والخزى والمعنى ابقوا إلي الممات بغيظكم (إن الله عليم بذات الصدور) يعنى به الخواطر القائمة بالقلب والدواعى والصوارف الموجودة فيه وهى لكونها حالة فى القلب منتسبة إليه كنى عنها بذات الصدور والمعنى أنه تعالى عالم بكل ما يحصل فى قلوبكم من الخواطر فأخبرهم أنه عليم بما يسرونه من عض الأنامل غيظا إذا خلوا وأنه عليم بما هو أخفى منه وهو ما يسرونه فى قلوبهم . قوله عز وجل (إن تمسسكم) أى تصبكم أيها المؤمنون وأصل المس باليد ثم يسمى كل ما يصل إلى شئ ماساله على سبيل التشبيه كما يقال مسه نصب وتعب أى أصابه (حسنة) المراد بالحسنة هنا منافع الدنيا مثل ظهوركم على عدوكم وإصابتكم غنيمة منهم وتتابع الناس فى الدخول فى دينكم وخصب فى معايشكم (تسؤهم) أى تحزنهم وتغمهم والسوء ضد الحسنى (وإن تصبكم سيئة) أى مساءة من إخفاق سرية لكم أو إصابة عدو منكم أو اختلاف يقع بينكم أو غدر ونكبة ومكروه يصيبكم (يفرحوا بها) أى بما أصابكم من ذلك المكروه (وإن تصبروا) يعنى على أذاهم وقيل إن تصبروا على طاعة الله وما ينالكم فيها من شدة (وتتقوا) أى تخافوا ربكم وقيل وتتقوا ما نهاكم عنه وتتوكلوا عليه (لا يضركم) أى لا ينقصكم (كيدهم) أى عداوتهم ومكرهم (شيئا) أى لأنكم فى عناية الله وحفظه (إن الله بما يعملون) قرئ بالياء على الغيبة والمعنى أنه عالم بما يعملون من عداوتكم وأذاكم فيعاقبهم عليه وقرئ بالتاء على خطاب الحاضر والمعنى أنه عالم بما تعملون أيها المؤمنون من الصبر والتقوى فيجازيكم عليه (محيط) أى عالم بجميع ذلك حافظ لا يعزب عنه شئ منه . قوله عز وجل (وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) قال جمهور المفسرين إن هذا كان فى يوم أحد وهو

قول

الله صلى الله عليه وسلم من منزل عائشة رضى الله عنها يمشى على رجليه إلى أحد فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوم القدح» قال محمد بن إسحاق والسدى عن رجالهما إن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولهم استشار أصحابه ودعا عبدالله بن أبى ابن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال عبد الله بن أبى وأكثر الأنصار يارسول الله أقم بالمدينة لاتخرج إليهم فوالله ماخرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا

ولادخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم يارسول الله فان أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرأى وقال بعض أصحابه يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب لا يرون أنا جبنا عنهم وضعفنا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى رأيت فى منامى بقرا مذبوحة فأولتها خيرا ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولتها هزيمة ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وكان يعجبه أن يدخلوا عليهم بالمدينة فيقاتلوا فى الأزقة فقال رجل من المسلمين ممن فاتهم يوم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا إلى أعدائنا فلم يزالوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من حبهم للقاء القوم حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لامته فلما رأوه قد لبس السلاح ندموا وقالوا بئس ما صنعنا نشير على رسول الله ﷺ والوحى يأتيه فقاموا واعتذروا إليه وقالوا اصنع مارأيت فقال صلى الله عليه وسلم لاينبغى لنبى أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل ، وكان قد أقام المشركون بأحد يوم الأربعاء والخميس فراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة بعدماصلى بأصحابه الجمعة وقدمات فى ذلك اليوم رجل من الأنصار فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إليهم فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت

قول عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عباس والزهرى وقتادة والسدى والربيع وابن إسحاق وقال الحسن ومجاهد ومقاتل إنه يوم الأحزاب ونقل عن الحسن أيضا أنه يوم بدر قال ابن جرير الطبرى الأول أصح لقوله تعالى «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا» وقد اتفق العلماء أن ذلك كان يوم أحد قال مجاهد والكلبى والواقدى غدا رسول الله ﷺ من منزل عائشة فمشى على رجليه إلى أحد فجعل يصف أصحابه للقتال كما يقوم القدح قال محمد بن إسحاق والسدى عن رجالهما إن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولهم استشار أصحابه ودعا عبد الله بن أبى بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال عبد الله بن أبى وأكثر الأنصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فو الله ماخرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم يارسول الله فان أقاموا أقاموا بشر مجلس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرأى وقال بعض أصحابه يارسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب لئلا يروا أنا جبنا عنهم وضعفنا وخفناهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى قد رأيت فى منامى بقرا فأولتها خيرا ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولتها هزيمة ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم فان أقاموا أقاموا بشر وإن دخلوا علينا المدينة قاتلناهم فيها وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلهم فى الأزقة فقال رجال من المسلمين ممن فاتهم يوم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد أخرج بنا إلى أعدائنا فلم يزالوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من حبهم للقاء القوم حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزله ولبس لأمته فلما رأوه قد لبس السلاح ندموا وقال بئس ماصنعنا نشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم والوحى يأتيه فقاموا واعتذروا إليه وقالوا يارسول الله اصنع ماشئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل وكان قد قام المشركون بأحد يوم الأربعاء والخميس وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة بعد ماصلى بأصحابه الجمعة وكان قد مات فى ذلك اليوم رجل من الأنصار فصلى عليه ثم خرج عليهم فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة وقيل كان نزوله فى جانب الوادى وجعل ظهره وأصحابه إلى أحد وأمر عبد الله بن جبير على الرماة وقال ادفعوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من ورائنا وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اثبتوا فى هذا المقام فاذا عاينوكم ولوا الأدبار فلاتطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام ولما

خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عبد الله بن أبي بن سلول شق عليه ذلك وقال لأصحابه أطاع الولدان وعصاني ثم قال لأصحابه إن محمدا إنما يظفر بعدوه بكم وقد وعد أصحابه إن أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا فاذا رأيتم أعداءهم فانهزموا أنتم فيتبعونكم فيصير الأمر إلى خلاف ماقاله محمد لأصحابه فلما التقى الجمعان وكان عسكر المسلمين الفا وكان المشركون ثلاثة آلاف انخذل عبد الله بن أبي بن سلول بثلثمائة من أصحابه من المنافقين وبقي مع رسول الله ﷺ نحو سبعمائة من أصحابه فقواهم الله تعالى وثبتهم حتى هزموا المشركين فلما رأى المؤمنون انهزام المشركين طمعوا في أن تكون هذه الواقعة كوقعة بدر فطلبوا المدبرين وخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد الله أن يقطعهم عن هذا الفعل لئلا يقدموا على مثله من مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وليعلموا أن ظفرهم يوم بدر إنما كان ببركة طاعة الله وطاعة رسوله ثم إن الله تعالى نزع الرعب من قلوب المشركين فكروا راجعين على المسلمين فانهزم المسلمون وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من أصحابه منهم أبو بكر وعلي والعباس وطلحة وسعد وكسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم وشج وجهه يومئذ وكان من أمر غزوة أحد ما كان فذلك قوله تعالى «وإذ غدوت من أهلك» أي واذكر إذ غدوت من أهلك يعني منزل عائشة ففيه منقبة عظيمة لعائشة رضي الله عنها لقوله من أهلك فنص الله تعالى على أنها من أهله تبوىء المؤمنين أي تنزل المؤمنين مقاعد للقتال أي مواضع ومواطن للقتال وقيل تتخذ عسكرا للقتال (والله سميع) يعني لأقوالكم (عليم) يعني بنياتكم وضمائركم. قوله عز وجل (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) أي تجبنا وتضعفا عن القتال والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس كان جناحي العسكر وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد مع ألف رجل وقيل في تسعمائة وخمسين رجلا وكان المشركون ثلاثة آلاف رجل فلما بلغوا الشوط انخذل عبد الله بن أبي بثلث الناس ورجع في ثلثمائة وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعه أبو جابر السلمي وقال أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم فقال عبد الله بن أبي لو نعلم قتالا لاتبعناكم وهمت الطائفتان بالانصراف مع عبد الله بن أبي فعصمهم الله فثبتوا ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس أضمروا أن يرجعوا فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا فذكرهم الله عظيم نعمته عليهم فقال إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا (والله وليهما) أي ناصرهما وحافظهما ومتولي أمرهما بالتوفيق والعصمة. فان قلت الهم العزم على فعل الشيء والآية تدل على أن الطائفتان قد عزمتا على الفشل وترك القتال وذلك معصية فكيف مدحهما الله تعالى بقوله والله وليهما. قلت الهم قد يراد به العزم وقد يراد به حديث النفس وإذا كان كذلك فحمل الهم على حديث النفس هنا أولى والله تعالى لا يؤاخذ بحديث النفس ويعضده قول ابن عباس إنهم أضمروا أن يرجعوا فلما عزم الله لهم على الرشد وثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدحهم الله تعالى بقوله والله وليهما (ق) عن جابر قال نزلت فينا «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما» قال نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وما يسرني أنها لم تنزل لقول الله والله وليهما ففيه الاستبشار بما حصل لهم من الشرف العظيم وإنزاله فيهم آياته ناطقة مفصحة بأن الله وليهم وأن تلك الهمة التي هموا بها ما أخرجتهم من ولاية الله تعالى. وقوله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) التوكل تفعل من وكل أمره إلى غيره

للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة فكان من حرب أحد ما كان فذلك قوله تعالى «وإذ غدوت من أهلك» أي واذكر إذ غدوت من أهلك «تبوئ» تنزل المؤمنين مقاعد للقتال أي مواطن ومواضع للقتال يقال بوأت القوم إذا وطنتهم وتبوءوا إذا تواطئوا قال الله تعالى «ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق» وقال «أن تبوا لقومكما بمصر بيوتا» وقيل تتخذ معسكرا (والله سميع عليم إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) أي تجبنا وتضعفا وتتخلفا والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وكانا جناحي العسكر وذلك «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج الى أحد في ألف رجل وقيل في تسعمائة وخمسين رجلا فلما بلغوا الشوط انخذل عبد الله بن أبي بثلث الناس ورجع في ثلاثمائة وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا فتبعهم أبو جابر السلمي فقال أنشدكم بالله في نبيكم وفي أنفسكم فقال عبد الله ابن أبي لو نعلم قتالا لاتبعناكم وهمت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبد الله بن أبي فعصمهم الله فلم ينصرفوا فذكرهم الله عظيم نعمته فقال عز وجل «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا» (والله وليهما) ناصرهما وحافظهما (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد

غيزه إذا اعتمد عليه فى كفايته والقيام به وقيل التوكل هو العجز والاعتماد على الغير وقيل هو تفويض الأمر إلى الله تعالى ثقة بحسن تدبيره فأمر الله عباده المؤمنين أن لا يتوكلوا إلا عليه وأن لا يفوضوا أمرهم إلا إليه . قوله عز وجل (ولقد نصركم الله ببدر) بدر اسم موضع بين مكة والمدينة معروف وقيل هو اسم لبئر هناك وكانت البئر لرجل يقال له بدر فسميت به . ذكر الله المؤمنين منته عليهم بالنصر يوم بدر (وأنتم أذلة) جمع ذليل وهو جمع قلة وأراد به قلة العدد فان المسلمين كانوا ثلثمائة وبضعة عشر وفى رواية وثلاثة عشر رجلا والمراد بذلتهم ضعف الحال وقلة السلاح والمركوب والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو وذلك أنهم خرجوا على نواضح وكان النفر منهم يتعقب على البعير الواحد وكان أكثرهم رجالة ولم يكن معهم إلا فرس واحد وكان عدوهم من كفار قريش فى حال الكثرة زهاء الف مقاتل ومعهم مائة فرس وكان معهم السلاح والشوكة فنصر الله المؤمنين مع قلتهم على عدوهم مع كثرتهم (فاتقوا الله) يعنى فى الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (لعلكم تشكرون) يعنى بتقواكم ماأنعم به عليكم من نصرته . قوله عز وجل (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) اختلف المفسرون فى أن هذا الوعد بانزال الملائكة هل حصل يوم بدر أو يوم أحد على قولين أحدهما أنه كان يوم بدر قال قتادة كان هذا يوم بدر أمدهم الله بألف من الملائكة كما قال إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم «أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين» ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف كما ذكر ههنا (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة) فصبروا يوم بدر و تقوا فأمدهم الله بخمسة آلاف كما وعد قال ابن عباس لم تقاتل الملائكة فى معركة إلا يوم بدر وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون إنما يكونون عددا أومددا وقال الحسن هؤلاء الخمسة آلاف ردء للمؤمنين إلى يوم القيامة وقال الشعبى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى ألن يكفيكم إلى قوله مسومين فبلغ كرزا الهزيمة فرجع ولم يأتهم ولم يمدهم فلم يمدهم الله أيضا بالخمسة آلاف وكانوا قد أمدوا بألف من الملائكة وفى صحيح البخارى من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب» واحتج لصحة هذا القول أيضا بأن الله تعالى قال قبل هذه الآية ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة وظاهر هذا يقتضى أن الله نصرهم حين قال النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين الن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف ولأن العدد والعدد كانت يوم بدر قليلة وكان الاحتياج إلى الإمداد أكثر . القول الثانى أن هذا الوعد بانزال الملائكة كان يوم أحد وهو قول عكرمة والضحاك ومقاتل قال عمير بن إسحق لما كان يوم أحد انجلى القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقى سعد بن مالك يرمى وفتى شاب يتنبل له كلما فنى النبل أتاه به فنثره وقال ارم أبا إسحق ارم أبا إسحق مرتين فلما انجلت المعركة سئل عن ذلك الرجل فلم يعرف (ق) عن سعد بن أبى وقاص قال «رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كاشد القتال مارأيتهما قبل ولا بعد يعنى جبريل وميكائيل» واحتج لصحة هذا القول بأن المدد كان يوم بدر بألف من الملائكة كما نص عليه فى سورة الإنفال ولم يكن بثلاثة آلاف ولا بخمسة آلاف كما هنا

ابن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل انا محمد بن يوسف عن ابن عيينة عن عمرو عن جابر قال : نزلت هذه الآية فينا إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما بنى سلمة وبنى حارثة وما أحب أنها لم تنزل والله يقول «والله وليهما» قوله تعالى (ولقد نصركم الله ببدر) وبدر موضع بين مكة والمدينة وهو اسم لموضع وعليه الأكثرون وقيل اسم لبئر هناك وقيل كانت بدر بئرا لرجل يقال له بدر قاله الشعبى وأنكر الآخرون عليه . يذكر الله تعالى فى هذه الآية منته عليهم بالنصرة يوم بدر (وأنتم أذلة) جمع ذليل وأراد به قلة العدد فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا فنصرهم الله مع قلة عددهم وعددهم (فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم) اختلفوا فى هذه الآية فقال قتادة كان يوم بدر أمدهم الله تعالى بألف من الملائكة كما قال فاستجاب لكم ربكم أنى ممدكم بألف من الملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف كما ذكر هاهنا (بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة

وأيضا أن الكفار كانوا يوم بدر ألفا أوما يقرب منهم وكان المسلمون على الثلث من ذلك فانهم كانوا ثلثمائة وبضعة عشر فأنزل الله يوم بدر الفا من الملائكة فى مقابلة عدد الكفار فوقع النصر يومئذ للمسلمين والهزيمة للكفار وكان عدد المسلمين يوم أحد ألفا وعدد الكفار ثلاثة آلاف فناسب أن يكون المدد يومئذ للمسلمين ثلاثة آلاف من الملائكة ليكون ذلك مقابلا لعدد الكفار كما فى يوم بدر. وأجيب عن الاحتجاج الأول لهذا القول بأن الله تعالى أمدهم يوم بدر بألف كما ذكر فى سورة الأنفال ثم لما سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإمداد كرز لكفار قريش شق عليهم وعدوا بأن يمدوا بثلاثة آلاف وبخمسة آلاف لتقوى قلوبهم بذلك. وأجيب عن الثانى وهو أن الكفار كانوا يوم بدر الفا فأنزل الله الفا وفى يوم أحد كانوا ثلاثة آلاف فأنزل الله ثلاثة آلاف بأن هذا تقريب حسن ولله أن يزيد ما شاء فى أى وقت شاء ولهذا قال عكرمة فى قوله تعالى «بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا» قال يوم بدر قال ولم يصبروا ولم يتقوا يوم أحد فلم يمدوا ولو أمدوا لم يهزموا يومئذ وقيل لم يصبروا ولم يتقوا إلا فى يوم الأحزاب فأمدهم الله بالملائكة حتى حاصروا قريظة (ق) عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت «لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال قد وضعت السلاح والله ما وضعناه اخرج اليهم قال فالى أين قال ههنا وأشار إلى بنى قريظة فخرج النبى صلى الله عليه وسلم اليهم» (ق) عن أنس رضى الله عنه قال «كأنى أنظر إلى الغبار ساطعا فى زقاق بنى غنم موكب جبريل عليه السلام حين سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة وقال عبد الله بن أبى أوفى كنا محاصرين قريظة والنضير ماشاء الله فلم يفتح علينا فرجعنا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل فهو يغسل رأسه إذ جاءه جبريل عليه السلام فقال أوضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها فدعا رسول الله ﷺ بخرقة فلف بها رأسه ولم يغسله ثم نادى فينا فقمنا حتى أتينا قريظة والنضير فيومئذ أمدنا الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة ففتح لنا فتحا يسيرا» وقال ابن جرير الطبرى وأولى الأقوال بالصواب أن الله تعالى أخبر عن نبيه صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين «ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة» فوعدهم بثلاثة آلاف من الملائكة مدد الهم ثم وعدهم بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بهم ولا على أنهم لم يمدوا بهم فقد يجوز أن الله أمدهم وقد يجوز أن لا يكون أمدهم ولا يثبت ذلك إلا بنص تقوم به الحجة فى ذلك وقد ثبت بنص القرآن أنهم أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة كما فى سورة الأنفال وأما يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها بأنهم أمدوا وذلك أنهم لو أمدوا لم ينهزموا ولم ينل منهم ما نيل منهم. فان قلت فما تصنع بحديث سعد بن أبى وقاص المتقدم فى يوم أحد وأنه رأى ملكين عن يمين النبى ﷺ وشماله قلت إنما كان ذلك للنبى ﷺ خاصة لأنه صبر ولم ينهزم كما انهزم أصحابه يوم أحد وأما التفسير فقوله تعالى إذ تقول للمؤمنين فعلى قول من قال إن هذا كان يوم بدر قال نظم الآية ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة إذ تقول للمؤمنين ومن قال هذا يوم أحد يقول نظم الآية إن الله ذكر قصة أحد ثم أتبعه بقوله «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة» فكذلك هو قادر أن ينصركم فى سائر المواطن ثم رجع إلى قصة أحد فقال تعالى «إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم ومعنى الكفاية هو سد الخلة والقيام بالأمر مع بلوغ المراد أن يمدكم ربكم الإمداد إعانة الجيش فما كان على جهة القوة والإعانة يقال أمده إمدادا وما كان على جهة الزيادة يقال

فيه

(مسومين) فصبروا يوم بدر واتقوا فأمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة كما وعد قال الحسن وهؤلاء الخمسة آلاف ردء المؤمنين إلى يوم القيامة قال ابن عباس ومجاهد لم تقاتل الملائكة فى المعركة إلا يوم بدر وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون وإنما يكونون عددا ومددا قال محمد بن إسحاق لما كان يوم أحد انجلى القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقى سعد ابن مالك يرمى وفتى شاب يتنبل له كلما فنى النبل أتاه به فنثره فقال ارم يا أبا إسحاق مرتين فلما انجلت المعركة سئل عن ذلك الرجل فلم يعرفه أحد . أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله أنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده عن سعد بن أبى وقاص قال « رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال

ما رأيتهما قبل ولا بعد » رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة قال أخبرنا محمد بن بشر وأبو أسامة عن مسعر عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن سعد يعنى ابن أبى وقاص قال « رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد يعنى جبريل وميكائيل » وقال الشعبى « بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى « ألن يكفيكم أن يمدكم » إلى قوله « مسومين » فبلغ كرزا الهزيمة فرجع فلم يأتهم ولم يمدهم فلم يمدهم الله أيضا بالخمسة آلاف وكانوا قد مدوا بألف » وقال الآخرون إنما وعد الله تعالى المسلمين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتقوا محارمه أن يمدهم أيضا فى حروبهم كلها فلم يصبروا إلا يوم الأحزاب فأمدهم حين حاصروا قريظة والنضير قال عبد الله بن أبى أوفى « كنا محاصرى قريظة والنضير ماشاء الله فلم يفتح علينا فرجعنا » فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل فهو يغسل رأسه إذ جاءه جبريل عليه السلام فقال وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخرقة فلف بها رأسه ولم يغسله ثم نادى فينا فقمنا حتى أتينا قريظة والنضير فيومئذ أمدنا الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة ففتح لنا فتحا يسيرا » وقال الضحاك وعكرمة كان هذا يوم أحد وعدهم الله المدد إن صبروا فلم يصبروا فلم يمدوا . قوله تعالى « أن يمدكم ربكم » الإمداد إعانة الجيش بالجيش وقيل ما كان على جهة القوة والإعانة يقال فيه أمده إمدادا وما كان على جهة الزيادة يقال فيه مده

فيمده مدا وقيل المد فى الشر والإمداد فى الخير بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين إنما وعدهم الله بنزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويثقوا بنصر الله ويعزموا على الثبات بلى تصديق لوعد الله أى بلى نمدكم وقيل بلى إيجاب لما بعد ألن يعنى يكفيكم الإمداد بهم فأوجب الكفاية أن تصبروا أى على لقاء عدوكم وتتقوا يعنى معصية الله ومخالفة نبيه صلى الله عليه وسلم ويأتوكم يعنى المشركين من فورهم هذا قال ابن عباس ابتداء الأمر يوجد فيه ثم يوصل بآخر فمن قال معنى من فورهم من وجههم أراد ابتداء مخرجهم يوم بدر ومن قال معناه من غضبهم أراد ابتداء غضبهم لقتلاهم يوم بدر لأنهم رجعوا للحرب يوم أحد من غضبهم يوم بدر يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة لم يرد خمسة آلاف سوى الثلاثة المتقدمة بل أراد معهم فمن قال إن هذا الإمداد كان يوم بدر قال إن الله تعالى أمدهم بألف فلما سمعوا أن كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين فشق على المسلمين ذلك قال النبى ﷺ للمسلمين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم الآية على تقدير أن يجىء للمشركين المدد فلما لم يمدوا لم يمد الله المسلمين بغير الألف وروى ابن الجوزى فى تفسيره عن جبير بن مطعم عن على بن أبى طالب قال بينا أمدنا امتح من قليب بدر جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التى قبلها ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التى كانت قبلها فكانت الريح الأولى جبريل نزل فى ألفين من الملائكة وكانوا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل فى ألفين من الملائكة وكانوا عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم والريح الثالثة إسرافيل نزل فى ألف من الملائكة عن يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت عن يساره وهزم الله أعداءه ومن الناس من ضم العدد القليل إلى الكثير فقال لأن الله تعالى ذكر الألف فى سورة الأنفال وذكر هنا ثلاثة آلاف وخمسة آلاف فيكون المجموع تسعة آلاف وإن حملناه على غزوة أحد فيكون المجموع ثمانية آلاف لأنه ليس فيها ذكر الألف المفردة (مسومين) قرىء بفتح الواو وبكسرها فمن فتح الواو أراد أن الله سومهم ومعناه معلمين قد سوموا فهم مسومون والسومة والسيما العلامة وهذه العلامة يعلمها الفارس يوم اللقاء ليعرف بها قال عنترة .

مداومنه قوله تعالى «والبحر يمده» وقيل المد فى الشر والإمداد فى الخير يدل عليه قوله تعالى «ويمدهم فى طغيانهم — ونمد له من العذاب مدا» وقال فى الخير «إنى ممدكم بألف من الملائكة منزلين» وقال «وأمددناكم بأموال وبنين». قوله تعالى «بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين» قرأ ابن عامر بتشديد الزاى على التكثير لقوله تعالى «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة» وقرأ الآخرون بالتخفيف دليله قوله تعالى «لولا أنزل علينا الملائكة» وقوله «وأنزل جنودا لم تروها» ثم قال بلى نمدكم أن تصبروا لعدوكم وتتقوا مخالفة نبيكم ويأتوكم يعنى المشركين من فورهم هذا قال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة والحسن وأكثر المفسرين من وجههم هذا وقال مجاهد والضحاك من غضبهم هذا لأنهم إنما رجعوا للحرب يوم أحد من غضبهم ليوم بدر يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة لم يرد خمسة آلاف سوى ماذكر من ثلاثة آلاف بل أراد معهم ، وقوله مسومين أى معلمين قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بكسر الواو ، وقرأ الآخرون بفتحها فمن كسر الواو فأراد أنهم سوموا خيلهم ومن فتحها أراد به أنفسهم والتسويم الإعلام من السومة وهى العلامة . واختلفوا فى تلك العلامة فقال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم صفر وقال على وابن عباس رضى الله عنهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم ، وقال هشام بن عروة والكلبى عليهم عمائم صفر مرخاة على أكتافهم ، وقال الضحاك وقتادة كانوا قد أعلموا بالعهن فى نواصى الخيل وأذنابها وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم بدر «تسوموا فان الملائكة قد تسومت بالصوف الأبيض فى قلانسهم ومغافرهم» قوله تعالى (وما جعله الله) يعنى هذا الوعد والمدد (إلا بشرى لكم) أى بشارة لتستبشروا به (ولتطمئن) ولتسكن (قلوبكم به) فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) يعنى لاتحيلوا بالنصر على الملائكة والجند فان النصر من الله تعالى فاستعينوا به وتوكلوا عليه لأن العز والحكم له قوله تعالى (ليقطع طرفا من الذين كفروا) يقول لقد نصركم الله ليقطع طرفا أى لكى يهلك طائفة من الذين كفروا وقال السدى معناه ليهدم ركنا من أركان الشرك بالقتل والأسر فقتل من قادتهم وسادتهم يوم بدر سبعون وأسر سبعون ومن حمل الآية على حرب أحد ، فقد قتل منهم يومئذ ستة عشر وكانت النصر للمسلمين حتى خالفوا أمر الرسول ﷺ فانقلب عليهم (أو يكبتهم) قال الكلبى يهزمهم وقال يمان يصرعهم لوجوههم

فتعرفونى أننى أنا ذلكم شاكى سلاح فى الحوادث معلم

ومن كسر الواو نسب الفعل إلى الملائكة والمعنى أنهم أعلموا أنفسهم بعلامات مخصوصة أو أعلموا خيلهم واختلفوا فى تلك العلامة فقال عروة بن الزبير كانت الملائكة على خيل بلق وعليهم عمائم صفر وقال على وابن عباس كان عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم وقال هشام بن عروة والكلبى كانت عليهم عمائم صفر مرخاة على أكتافهم وقال قتادة والضحاك كانوا قد أعلموا بالعهن يعنى بالصوف المصبوغ فى نواصى خيلهم وأذنابها وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم بدر «تسوموا فان الملائكة قد تسومت بالصوف الأبيض فى قلانسهم ومغافرهم» ذكره البغوى بغير سند وقيل كانت عمامة الزبير يوم بدر صفراء فنزلت الملائكة كذلك وقيل كانوا قد سوموا أنفسهم بسيما القتال . قوله تعالى (وما جعله الله) يعنى هذا الوعد والمدد (إلا بشرى لكم) يعنى بشارة بأنكم تنصرون فتستبشرون به (ولتطمئن) أى ولتسكن (قلوبكم به) أى فلا تجزع من كثرة عدوكم وقلة عددكم (وما النصر إلا من عند الله) يعنى لاتحيلوا النصر على الملائكة والجند وكثرة العدد فان النصر من عند الله لامن عند غيره والغرض أن يكون توكلهم على الله لاعلى الملائكة الذين أمدوا بهم وفيه تنبيه على الإعراض عن الأسباب والإقبال على مسبب الأسباب (العزيز الحكيم) يعنى فاستعينوا به وتوكلوا عليه لأن العز وهو كمال القدرة والقوة والحكم وهو كمال العلم فلا تخفى عليه مصالح عباده (ليقطع طرفا من الذين كفروا) هذا متعلق بقوله ولقد نصركم الله ببدر والمعنى أن المقصود من نصركم ببدر ليقطع طرفا أى ليهلك طائفة من الذين كفروا وقيل معناه ليهدم ركنا من أركان الشرك بالقتل والأسر فقتل يوم بدر من قادتهم وساداتهم سبعون وأسر سبعون ومن حمل الآية على غزوة أحد قال قد قتل منهم ستة عشر وكان النصر فيه للمسلمين حتى خالفوا أمر رسول الله ﷺ (أو يكبتهم) أصل الكبت فى اللغة صرع الشئ على وجهه والمعنى أنه يصرعهم على وجوههم والمراد منه القتل والهزيمة أو الاهلاك أو اللعن والخزى

(فينقلبوا

(فينقلبوا خائبين) أى بالخيبة لم ينالوا شيئا من الذى أملوه من الظفر بكم. قوله عز وجل (ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم) اختلف فى سبب نزول هذه الآية فقيل إنها نزلت فى أهل بئر معونة وهم سبعون رجلا من القراء بعثهم رسول الله ﷺ إلى بئر معونة وهى بين مكة وعسفان وأرض هذيل وذلك فى صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد بعثهم ليعلموا الناس القرآن والعلم وأمر عليهم المنذر بن عمرو فقتلهم عامر بن الطفيل فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجدا شديدا وقنت شهرا فى الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن (خ) عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد مايقول سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد فأنزل الله تعالى عليه ليس لك من الأمر شىء إلى قوله فانهم ظالمون (ق) عن أبى هريرة قال «لما رفع رسول الله ﷺ رأسه من الركعة الثانية قال اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة ابن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين بمكة اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» زاد فى رواية «اللهم العن فلانا وفلانا لأحياء من العرب حتى أنزل الله تعالى ليس لك من الأمر شىء الآية سماهم فى رواية يونس اللهم العن رعلا وذكوان وعصية عصت الله ورسوله قال ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون وقيل إنها نزلت يوم أحد ثم اختلفوا فى سببها فقيل إن عتبة بن أبى وقاص شج وجه رسول الله ﷺ وكسر رباعيته (ق) عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته وشج فى رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله فأنزل الله تعالى: ليس لك من الأمر شىء». وقيل أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم بالاستئصال فنزلت هذه الآية وذلك لعلمه أن أكثرهم يسلمون وقيل إن النبى صلى الله عليه وسلم لما وقف على عمه حمزة ورأى ماصنعوا به من المثلة أراد أن يدعو عليهم فنزلت هذه الآية وقال العلماء وهذه الأشياء كلها محتملة فلا يبعد حمل الآية فى النزول على كلها ومعنى الآية ليس لك من أمر مصالح عبادى شىء إلا ماأوحى إليك فان الله تعالى هو مالك أمرهم فاما أن يتوب عليهم ويهديهم فيسلموا أو يهلكهم ويعذبهم إن أصروا على الكفر وقيل ليس لك مسئلة هلاكهم والدعاء عليهم لأنه تعالى أعلم بمصالحهم فربما تاب على من يشاء منهم وقيل معناه ليس لك من أمر خلقى شىء إلا ما وافق أمرى إنما أنت عبد مبعوث لانذارهم ومجاهدتهم وقيل إن قوله أو يتوب عليهم معطوف على قوله ليقطع طرفا وقوله ليس لك من الأمر شىء كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه والتقدير ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون ليس لك من الأمر شىء بل الأمر أمرى فى ذلك كله قال بعض العلماء والحكمة فى منعه صلى الله عليه وسلم من الدعاء عليهم ولعنهم أن الله تعالى علم من حال بعض الكفار أنه سيسلم فيتوب عليهم أو سيولد من بعضهم ولد يكون مسلما برا تقيا فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من الدعاء عليهم لأن دعوته ﷺ مجابة فلو دعا عليهم بالهلاك هلكوا جميعا لكن اقتضت

قال السدى يلعنهم وقال أبو عبيدة يهلكهم وقيل يخزيهم والمكبوت الحزين وقيل يكبدهم أى يصيب الحزن والغيظ أكبادهم والتاء والدال يتعاقبان كما يقال سبت رأسه وسبده إذا حلقه وقيل يكبتهم بالخيبة (فينقلبوا خائبين) لم ينالوا شيئا مما كانوا يرجون من الظفر بكم. قوله تعالى (ليس لك من الأمر شىء) الآية. اختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقال قوم نزلت فى أهل بئر معونة وهم سبعون رجلا من القراء بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل بئر معونة فى صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن والعلم أميرهم المنذر بن عمرو فقتلهم عامر بن الطفيل فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجدا شديدا وقنت شهرا فى الصلوات كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن والسنين فنزلت ليس لك من الأمر شىء. أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا حبان بن موسى أخبرنا عبد الله يعنى ابن المبارك أخبرنا معمر عن الزهرى قال حدثنى سالم عن أبيه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر يقول «اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد مايقول سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد فأنزل الله تعالى ليس لك من الأمر شىء» (أو يتوب عليهم أو يعذبهم

فانهم ظالمون) وقال قوم نزلت يوم أحد . أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبدالغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودى أخبرنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أخبرنا مسلم بن الحجاج أخبرنا عبدالله بن مسلم بن قعنب أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله عز وجل فأنزل الله تعالى ليس لك من الأمر شئ» وعن عبدالله بن عمر (٤١٨) رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم أحد «اللهم العن أبا سفيان اللهم العن الحارث بن هشام اللهم العن صفوان ابن أمية فنزلت ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم» فأسلموا وحسن إسلامهم» وقال سعيد بن المسيب ومحمد ابن إسحاق لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يوم أحد ما بأصحابهم من جدع الآذان والأنوف وقطع المذاكير قالوا لئن أدالنا الله تعالى منهم لنفعلن بهم مثل مافعلوا ولنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقيل أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم بالاستئصال فنزلت هذه الآية وذلك لعلمه فيهم بأن كثيرا منهم يسلمون. قوله تعالى «ليس لك من الأمر شئ» أى ليس إليك فاللام بمعنى إلى كقوله تعالى ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أى إلى الإيمان وقوله تعالى أو يتوب عليهم قال بعضهم معناه حتى يتوب عليهم أو إلا أن يتوب عليهم وقيل هو نسق على قوله « ليقطع طرفا» وقوله «ليس لك من الأمر شئ» اعتراض بين الكلامين ونظم الآية ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون ليس لك من الأمر شئ بل الأمر أمرى فى ذلك كله ثم قال (ولله مافى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) أراد به ماكانوا يفعلونه عند طول أجل الدين من زيادة المال وتأخير الطلب (واتقوا الله) فى أمر الربا فلا تأكلوه (لعلكم تفلحون) ثم خوفهم فقال (واتقوا النار التى أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم

حكمة الله وما سبق فى علمه إبقاءهم ليتوب على بعضهم وسيخرج من بعضهم ذرية صالحة مؤمنة ويهلك بعضهم بالقتل والموت وهو قوله أو يعذبهم فيحتمل أن يكون المراد بعذابهم فى الدنيا وهو القتل والأسر وفى الآخرة وهو عذاب النار (فانهم ظالمون) هو كالتعليل لعذابهم والمعنى إنما يعذبهم لأنهم ظالمون ثم قال تعالى (ولله مافى السموات وما فى الأرض) هذا تأكيد لما قبله من قوله ليس لك من الأمر شيء والمعنى إنما يكون لمن له مافى السموات وما فى الأرض وليس ذلك إلا الله تعالى وليس لأحد معه أمر (يغفر لمن يشاء) بفضله ورحمته (ويعذب من يشاء) بعدله يحكم فيهم بما يشاء لامنازع له فى حكمه ولا معارض له فى فعله (والله غفور رحيم) يعنى أنه تعالى يستر ذنوب عباده ويغفرها لهم ويرحمهم بترك العقوبة عنهم عاجلا وإنما يفعل ذلك على سبيل التفضل والإحسان إلى عباده لا على سبيل الوجوب عليه لأنه تعالى لو أدخل جميع خلقه الجنة لكان ذلك برحمته ولو أدخل جميع خلقه النار كان ذلك بعدله لكن جانب المغفرة والرحمة غالب . قوله عزوجل (يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) أراد به ما كانوا يفعلونه فى الجاهلية عند حلول الدين من زيادة المال وتأخير الأجل كان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان دين فاذا جاء الأجل ولم يكن للمديون مايؤدى قال له صاحب الدين زدنى فى المال حتى أزيدك فى الأجل فربما فعلوا ذلك مرارا فيصير الدين أضعافا مضاعفة فنهى الله عز وجل عن ذلك وحرم أصل الربا ومضاعفته (واتقوا الله) يعنى فى أكل الربا فلا تأكلوه (لعلكم تفلحون) أى لكى تسعدوا بثوابه فى الآخرة لأن الفلاح يتوقف على التقوى فلو أكل ولم يتق لم يحصل الفلاح ، وفيه دليل على أن أكل الربا من الكبائر ولهذا أعقبه بقوله تعالى (واتقوا النار التى أعدت للكافرين) يعنى واتقوا أيها المؤمنون أن تستحلوا شيئا مما حرم الله فان من استحل شيئا مما حرم الله فهو كافر بالإجماع ويستحق النار بذلك قال ابن عباس هذا تهديد للمؤمنين أن يستحلوا ماحرم الله عليهم من الربا وغيره مما أوجب الله فيه النار قال بعضهم إن هذه الآية أخوف آية فى القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه ويجتنبوا محارمه وقال الواحدى فى هذه الآية تقوية لرجاء المؤمنين رحمة من الله تعالى لأنه قال أعدت للكافرين فجعلها معدة للكافرين دون المؤمنين (وأطيعوا الله) يعنى فيما أمركم به أو نهاكم عنه من أكل الربا وغيره (والرسول) أى وأطيعوا الرسول أيضا فان طاعته طاعة الله قال محمد بن إسحاق فى هذه الآية معاتبة للذين عصوا رسول الله ﷺ يوم أحد

لعلكم ترحمون) لكى ترحموا (وسارعوا) قرأ أهل المدينة والشام سارعوا بلا واو (إلى مغفرة من ربكم) بادروا وسابقوا إلى الأعمال التى توجب المغفرة قال ابن عباس رضى الله عنهما إلى الإسلام وروى عنه إلى التوبة وبه قال عكرمة وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه إلى أداء الفرائض وقال أبو العالية إلى الهجرة وقال الضحاك إلى الجهاد وقال مقاتل إلى الأعمال الصالحة ، وروى عن أنس بن مالك أنها التكبيرة الأولى (وجنة) أى وإلى جنة (عرضها السموات والأرض) أى عرضها كعرض السموات والأرض كما قال فى سورة الحديد «وجنة عرضها كعرض السماء والأرض» أى سعتها وإنما ذكر العرض على المبالغة لأن طول كل شئ فى الأكثر والأغلب أكثر من عرضه يقول هذه صفة عرضها فكيف طولها قال الزهرى إنما وصف عرضها فأما طولها فلا يعلمه إلا الله وهذا على التمثيل لا أنها كالسموات والأرض لاغير معناه كعرض السموات السبع والأرضين السبع عند ظنكم كقوله تعالى «خالدين فيها مادامت السموات والأرض » يعنى عند ظنكم وإلا فهما زائلتان وروى عن طارق عن ابن شهاب أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب وعنده أصحابه رضى الله عنهم قالوا أرأيتم قوله وجنة عرضها السموات والأرض فأين النار فقال عمر أرأيتم إذا جاء الليل أين يكون النهار وإذا جاء النهار أين يكون الليل فقالوا إنها لمثلها فى التوراة ومعناه أنه حيث يشاء الله . فان قيل قد قال الله تعالى « وفى السماء رزقكم وما توعدون » وأراد بالذى وعدنا الجنة فاذا كانت الجنة فى السماء فكيف يكون عرضها السموات والأرض ؟ قيل إن باب الجنة فى السماء وعرضها السموات والأرض كما أخبر وسئل أنس بن مالك رضى الله عنه عن الجنة أفى السماء أم فى الأرض فقال أى أرض

(لعلكم ترحمون) أى لكى ترحموا ولا تعذبوا إذا أطعتم الله ورسوله فان طاعة الله مع معصية رسوله ليست بطاعة . قوله عز وجل (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) يعنى وبادروا وسابقوا إلى مايوجب المغفرة من ربكم وهى الأعمال الصالحة المأمور بفعلها قال ابن عباس إلى الإسلام ووجهه أن الله تعالى ذكر المغفرة على سبيل التنكير والمراد منه المغفرة العظيمة وذلك لاتحصل إلا بسبب الإسلام لأنه يجب ماقبله وعن ابن عباس أيضا إلى التوبة لأن التوبة من الذنوب توجب المغفرة وقال على بن أبى طالب إلى أداء الفرائض لأن اللفظ مطلق فيعم الكل وكذا وجه من قال إلى جميع الطاعات وروى عن أنس بن مالك وسعيد بن جبير أنها التكبيرة الأولى يعنى تكبيرة الإحرام وقيل إلى الإخلاص فى الأعمال لأن المقصود من جميع العبادات هو الإخلاص وقيل إلى الهجرة وقيل إلى الجهاد (وجنة) أى وسارعوا إلى جنة وإنما فصل بين المغفرة والجنة لأن المغفرة هى إزالة العقاب والجنة هى حصول الثواب وقيل إشعارا بأنه لابد من المسارعة إلى التوبة الموجبة للمغفرة وذلك بترك المنهيات والمسارعة إلى الأعمال الصالحة المؤدية إلى الجنة (عرضها) أى عرض الجنة (السموات والأرض) يعنى كعرض السموات والأرض لأن نفس السموات والأرض ليس عرضا للجنة والمراد سعتها وإنما خص العرض للمبالغة لأن الطول فى العادة يكون أكثر من العرض يقول هذه صفة عرضها فكيف بطولها والمراد وصف الجنة بالسعة والبسط فشبهت بأوسع شئ علمه الناس وذلك أنه لو جعلت السموات والأرض طبقا طبقا ثم وصل البعض بالبعض حتى يكون طبقا واحدا كان ذلك مثل عرض الجنة فأما طولها فلا يعلمه إلا الله تعالى وقيل المراد بالعرض السعة كما تقول العرب بلاد عريضة أى واسعة عظيمة قال الشاعر :

كأن بلاد الله وهى عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

والأصل فيه أن ماتسع عرضه لم يضق ولم يدق وما ضاق عرضه دق فجعل العرض كناية عن السعة . وروى أن هرقل أرسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم إنك كتبت تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار قيل معناه والله أعلم بذلك أنه إذا دار الفلك حصل النهار فى جانب والليل فى ضد ذلك الجانب فكذلك الجنة فى جهة العلو والنار فى جهة السفل. وروى طارق بن شهاب أن ناسا من اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعنده أصحابه فقالوا أرأيتم قولكم وجنة عرضها السموات والأرض فأين النار فقال عمر بن الخطاب أرأيتم إذا جاء الليل فأين يكون النهار وإذا جاء النهار فأين يكون الليل فقالوا إنها لمثلها فى التوراة ومعناه حيث يشاء الله تعالى . فان قلت قال الله تعالى « وفى السماء رزقكم وما توعدون » وأراد بالذى وعدنا به الجنة ومذهب

وسماء تسع الجنة فقيل فأين هى قال فوق السموات السبع تحت العرش . قال قتادة كانوا يرون الجنة فوق السموات السبع
تحت العرش وأن جهنم تحت الأرضين السبع (أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء) أى فى اليسر والعسر فأول
ما ذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكر السخاوة . أخبرنا أبو سعيد الشريحى أخبرنا أبو إسحاق الثعلبى
أخبرنا أبو عمرو الفراتى
أخبرنا أبو العباس أحمد
ابن إسماعيل العنبرى
أخبرنا أبو عبد الله بن
حازم البغوى بمكة
أخبرنا أبو صالح بن
أيوب الهاشمى أخبرنا
إبراهيم بن سعد أخبرنا
سعيد بن محمد عن يحيى
ابن سعيد عن الأعرج
عن أبى هريرة رضى
الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم
« السخى قريب من الله
قريب من الجنة قريب
من الناس بعيد من النار
والبخيل بعيد من الله
بعيد من الجنة بعيد من
الناس قريب من النار
والجاهل سخى أحب
إلى الله من عابد بخيل »
(والكاظمين الغيظ)
أى الجارعين الغيظ
عند امتلاء نفوسهم منه
والكظم حبس الشئ
عند امتلائه وكظم الغيظ
أن يمتلئ غيظا فيرده
فى جوفه ولا يظهره ومنه
قوله تعالى « إذ القلوب
لدى الحناجر كاظمين »
أخبرنا أبو سعيد الشريحى أخبرنا أبو إسحاق الثعلبى أخبرنا أبو عمرو الفراتى أخبرنا أبو محمد
الحسن بن محمد الاسفراينى أخبرنا أبو عبدالله بن محمد زكريا العلانى أخبرنا روح بن عبد المؤمن أخبرنا أبو عبدالرحمن
المقرى أخبرنا سعيد بن أبى أيوب قال حدثنى أبو مرحوم عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم من كظم غيظا وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور

أهل السنة أنها فى السموات وإذا كانت الجنة فى السموات فكيف يكون عرضها السموات
والأرض قلت المراد من قولنا إنها فى السموات أنها فوق السموات وتحت العرش كما سئل أنس
ابن مالك عن الجنة أفى السماء هى أم فى الأرض فقال أى أرض وسماء تسع الجنة قيل له فأين
هى قال فوق السموات تحت العرش وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الفردوس
فقال وسقفها عرش الرحمن وقال قتادة كانوا يرون أن الجنة فوق السموات السبع وأن جهنم
تحت الأرضين السبع وقيل إن باب الجنة فى السماء وعرضها كعرض السموات والأرض
(أعدت للمتقين) أى هيئت للمتقين وفيه دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن . قوله عز
وجل (الذين ينفقون فى السراء والضراء) يعنى فى العسر واليسر لا يتركون الإنفاق فى كلتا
الحالتين فى الغنى والفقر والرخاء والشدة ولا فى حال فرح وسرور ولا فى حال محنة وبلاء وسواء
كان الواحد منهم فى عرس أو فى حبس فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس فأول ما ذكر الله من
أخلاقهم الموجبة للجنة السخاء لأنه أشق على النفس وكانت الحاجة إلى إخراج المال فى ذلك
الوقت أعظم الأحوال للحاجة إليه فى مجاهدة الأعداء ومواساة الفقراء من المسلمين عن أبى
هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « السخى قريب من الله قريب من الناس قريب
من الجنة بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار والجاهل
سخى أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل » أخرجه الترمذى (ق) عن أبى هريرة أنه سمع رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول « مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من
ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفت على جلده حتى تخفى ثيابه وتعفو
أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع »
الجنة الدرع من الحديد (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم
يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط
ممسكا تلفا » (ق) عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تبارك وتعالى أنفق ينفق
عليك » (ق) عنه قال قال رسول الله ﷺ « من أنفق زوجين فى سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل
خزنة باب أى فل هلم فقال أبو بكر يا رسول الله ذاك الذى لا توى عليه قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم إنى لأرجو أن تكون منهم » قوله أى فل يعنى يا فلان وليس بترخيم والتوى الهلاك
يعنى ذاك الذى لا هلاك عليه . وقوله تعالى (والكاظمين الغيظ) يعنى والجارعين الغيظ عند
امتلاء نفوسهم منه والكظم حبس الشئ عند امتلائه وكظم الغيظ هو أن يمتلئ غيظا فيرده
فى جوفه ولا يظهره بقول ولا فعل ويصبر عليه ويسكت عنه ومعنى الآية أنهم يكفون غيظهم
عن الإمضاء ويردون غيظهم فى أجوافهم وهذا الوصف من أقسام الصبر والحلم عن سهل بن
معاذ عن أنس الجهنى عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كظم غيظا وهو

يستطيع

شاء (والعافين عن الناس) قال الكلبي عن المملوكين سوء الأدب وقال زيد بن أسلم ومقاتل عمن ظلمهم وأساء إليهم (والله يحب المحسنين) عن الثوري الإحسان أن تحسن إلى المسيء فان الإحسان إلى المحسن متاجرة قوله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة) قال ابن مسعود قال المؤمنون يارسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله

منا، كان أحدهم إذا أذنب أصبح وكفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه اجدع أنفك أو أذنك افعل كذا وكذا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال عطاء نزلت في تيهان التمار وكنيته أبومعبد أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمرا فقال لها إن هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم علي ذلك فأتى النبي صلي الله عليه وسلم وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية وقال مقاتل والكلبي آخى رسول الله صلي الله عليه وسلم بين رجلين أحدهما من الأنصار والآخر من ثقيف فخرج الثقفي في غزاة فاستخلف الأنصاري علي أهله فاشترى لهم اللحم ذات يوم فلما أرادت المرأة أن تأخذ منه دخل علي أثرها وقبل يدها ثم ندم وانصرف ووضع التراب علي رأسه وهام علي وجهه فلما رجع الثقفي لم يستقبله الأنصاري فسأل امرأته عن حاله فقالت لاأكثر الله في الاخوان مثله ووصفت له الحال والأنصاري يسيح في الجبال تائبا مستغفرا فطلبه الثقفي حتى وجده فأتى به أبا بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجا فقال الأنصاري هلكت وذكر القصة فقال أبو بكر ويحك أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي مالا يغار للمقيم ثم أتيا عمر رضي الله عنه فقال مثل ذلك فأتيا النبي صلي

يستطيع أن ينفذه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخير في أي الحور شاء» أخرجه الترمذي وأبو داود (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن خادما لها غاظها فقالت لله در التقوى ماتركت لذي غيظ شفاء (والعافين عن الناس) يعني إذا جنى عليهم أحد لم يؤاخذوه فتكون الآية على العموم وقيل أراد بالناس المماليك لسوء أدب يقع منهم فتكون علي الخصوص وقيل يعفون عمن ظلمهم وأساء إليهم وهو قريب من القول الأول (والله يحب المحسنين) يحتمل أن تكون اللام للجنس فيتناول كل محسن ويحتمل أن تكون للعهد فتكون إشارة إلى المذكورين في الآية والإحسان إلى الغير إنما يكون بايصال النفع إليه أو بدفع الضرر عنه وقيل الإحسان أن تحسن لمن أساء إليك فان الإحسان إلى المحسن متاجرة وقيل المحسن هو الذي يعم باحسانه كل أحد كالشمس والمطر والريح وقيل الإحسان وقت الإمكان وليس عليك في كل وقت إحسان وقيل الإحسان هذه الخصال المذكورة في هذه الآية فمن فعلها فهو محسن. ولما كانت هذه الخصال إحسانا إلى الغير ذكر الله ثوابها بقوله والله يحب المحسنين فان محبة الله تعالى للعبد أعظم درجات الثواب. قوله عز وجل (والذين إذا فعلوا فاحشة) قال ابن مسعود رضي الله عنه قال المؤمنون للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا كان أحدهم إذا أذنب ذنبا أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة على عتبة بابه اجدع أنفك أو أذنك افعل كذا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية وروى عطاء عن ابن عباس أنها نزلت في تيهان التمار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمرا فقال لها إن هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له اتق الله فتركها وندم على ذلك فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك فنزلت هذه الآية في رواية أبي صالح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين رجلين أحدهما أنصاري والآخر ثقفي فخرج الثقفي في غزوة واستخلف أخاه الأنصاري على أهله فاشترى لهم ذات يوم لحما فلما أرادت المرأة أن تأخذه منه دخل على أثرها وقبل يدها ثم ندم وانصرف ووضع التراب على رأسه وهام على وجهه فلما رجع الثقفي لم يستقبله الأنصاري فسأل امرأته عن حاله فقالت لا أكثر الله في الإخوان مثله وذكرت له الحال والأنصاري يسيح في الجبال تائبا مستغفرا فطلبه الثقفي حتى وجده فأتى به إلى أبي بكر رجاء أن يجد عنده راحة وفرجا فقال الأنصاري هلكت وذكر القصة فقال أبو بكر ويحك أما علمت أن الله تعالى يغار للغازي مالا يغار للمقيم ثم لقيا عمر فقال لهما مثل ذلك فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهما مثل مقالتهما فأنزل الله عز وجل (والذين إذا فعلوا فاحشة) يعني فعلة فاحشة خارجة عما أذن الله فيه والفاحشة ماعظم قبحه من الأفعال والأقوال وأصل الفحش القبح والخروج

الله عليه وسلم فقال له مثل مقالتهما فأنزل الله تعالى هذه الآية «والذين إذا فعلوا فاحشة» يعنى قبيحة خارجة عما أذن الله تعالى فيه وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد قال جابر الفاحشة الزنا (أو ظلموا أنفسهم) مادون الزنا من القبلة والمعانقة والنظر واللمس وقال مقاتل والكلبى الفاحشة مادون الزنا من قبلة أو لمسة أو نظرة فيما لا يحل أو ظلموا أنفسهم بالمعصية وقيل فعلوا فاحشة الكبائر أو ظلموا أنفسهم بالصغائر وقيل فعلوا فاحشة فعلا أو ظلموا أنفسهم قولا (ذكروا الله) أى ذكروا وعيد الله وإن الله سائلهم وقال مقاتل بن حيان ذكروا الله باللسان عند الذنوب (فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله) أى وهل يغفر الذنوب إلا الله (ولم يصروا على مافعلوا) أى لم يقيموا ولم يثبتوا عليه ولكن تابوا وأنابوا واستغفروا؛ وأصل الاصرار الثبات على الشئ. قال الحسن إتيان العبد ذنبا عمدا إصرار حتى يتوب؛ وقال السدى الإصرار السكوت وترك الاستغفار أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا أبو منصور السمعانى أخبرنا أبو جعفر الزيانى أخبرنا حميد بن زنجويه أنا يحيى بن يحيى أنا عبد الحميد بن عبد الرحمن عن عثمان بن واقد العمرى عن أبى نصرة قال لقيت مولى هم لأبى بكر رضى الله عنه فقلت له أسمعت من أبى بكر شيئا قال نعم سمعته يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة (وهم يعلمون) قال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبى وهم يعلمون أنها معصية وقيل وهم يعلمون أن الإصرار ضار وقال الضحاك وهم يعلمون أن الله يملك مغفرة الذنوب وقال الحسين بن الفضل إن له ربا يغفر الذنوب وقيل وهم يعلمون أن الله لايتعاظمه العفو عن الذنوب وإن كثرت وقيل وهم يعلمون أنهم إن استغفروا غفر

عن الحد، قال جابر الفاحشة الزنا. وقوله تعالى (أو ظلموا أنفسهم) ظلم النفس هو مادون الزنا مثل القبلة والمعانقه واللمس والنظر وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس هى الصغيرة وقيل الفاحشة مايكون فعله كاملا فى القبح وظلم النفس هو أى ذنب كان (ذكروا الله) يعنى ذكروا وعيد الله وعقابه وأن الله يسألهم عن ذلك يوم الفزع الأكبر وقيل ذكروا جلال الله الموجب للحياء منه وقيل ذكروا الله باللسان عند الذنوب وهو قوله تعالى (فاستغفروا لذنوبهم) يعنى لأجل ذنوبهم فتابوا منها وأقلعوا عنها نادمين على فعلها عازمين أن لايعودوا إليها وهذه شروط صحة التوبة المقبولة (ومن يغفر الذنوب إلا الله) وصف نفسه بسعة الرحمة وقرب المغفرة وأن التائب من الذنب عنده كمن لاذنب له وأنه لامفزع للمذنبين إلا إلى فضله وكرمه وإحسانه وعفوه ورحمته وفيه تنبيه على أن العبد لايطلب المغفرة إلا منه وأن القادر على عقاب المذنب وكذلك هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه فثبت أنه لايجوز طلب المغفرة إلا منه (ولم يصروا على مافعلوا) يعنى ولم يقيموا على الذنوب ولم يثبتوا عليها ولكن تابوا منها وأنابوا واستغفروا قيل الأصرار هو ترك الاستغفار عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ماأصر من استغفر ولو عاد فى اليوم سبعين مرة» أخرجه أبو داود وقال حديث حسن غريب وعنده عوض ولو عاد واو فعل (وهم يعلمون) قال ابن عباس وهم يعلمون أنها معصية وأن لهم ربا يغفرها وقيل وهم يعلمون أن الأصرار ضار وقيل معناه وهم يعلمون أن الله يملك مغفرة الذنب وقيل وهم يعلمون أن الله لايتعاظمه العفو عن الذنوب وإن كثرت وقيل معناه وهم يعلمون أنهم إن استغفروه غفر لهم قال ثابت البنانى بلغنى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية والذين إذا فعلوا فاحشة إلى آخرها.

(فصل: فى فضل الاستغفار)

عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال إنى كنت إذا سمعت حديثا من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعنى الله منه ماشاء أن ينفعنى وإذا حدثنى أحد من الصحابة استحلفته فاذا حلف لى صدقته وإنه حدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «مامن عبد مؤمن أو قال مامن رجل يذنب ذنبا فيقوم فيتطهر ثم يصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له ثم قرأ هذه الآية والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله إلى آخر الآية» أخرجه أبو داود والترمذى وقال هذا حديث قد رواه غير واحد عن عثمان بن المغيرة فرفعوه ورواه مسعر وسفيان عن عثمان بن المغيرة فوقفاه ولم يرفعاه ولا يعرف لاسماء إلا هذا الحديث عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لايحتسب» أخرجه أبو داود (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر

لهم (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) ثواب المطيعين أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أبو منصور السمعانى أخبرنا أبو جعفر الزياتى أنا حميد بن زنجويه أنا عفان بن مسلم أنا أبو عوانة أنا عثمان بن المغيرة عن على بن ربيعة الأسدى عن أسماء بن الحكم الفزارى قال سمعت عليا رضى الله عنه يقول إنى كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا ينفعنى الله منه بما شاء أن ينفعنى ، وإذا حدثنى أحد من أصحابه استحلفته فإذا حلف لى صدقته وإنه حدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما من عبد مؤمن يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلى ثم يستغفر الله إلا غفر الله له» رواه أبو عيسى عن قتيبة عن أبى عوانة وزاد ثم قرأ « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم الآية» أخبرنا عبد الواحد

المليحى أنا أبو منصور السمعانى أنا أبو جعفر الزياتى أنا حميد بن زنجويه أنا هشام بن عبد الملك أخبرنا همام عن إسحاق عن عبدالله بن أبى طلحة قال كان قاض بالمدينة يقال له عبد الرحمن بن أبى عمرة وسمعته يقول سمعت أبا هريرة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن عبدا أذنب ذنبا فقال أى رب أذنبت ذنبا فاغفره لى قال فقال له ربه عز وجل علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به غفرت لعبدى ثم مكث ماشاء الله ثم أذنب ذنبا آخر فقال رب أذنبت ذنبا فاغفره لى فقال ربه عز وجل علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدى فليفعل ماشاء» أخبرنا عبدالواحد المليحى أنا أبومنصور السمعانى أنا أبوجعفر الزياتى أنا حميد ابن زنجويه أخبرنا النعمان السدوسى أخبرنا المهدى بن ميمون أخبرنا غيلان بن جرير عن شهر بن حوشب عن معدى كرب عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال « ياابن آدم إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ابن آدم إنك إن لقيتنى بقراب الأرض خطايا لقيتك بقرابها مغفرة بعد أن لاتشرك بى شيئا ابن آدم إنك إن تذنب حتى تبلغ ذنوبك عنان السماء ثم تستغفرنى أغفر لك» أخبرنا عبدالواحد المليحى أخبرنا أبو الحسن محمد بن الحسن الحسينى أنا عبد الله بن محمود بن حسن الشرقى أنا أبو الأزهر أحمد بن الأزهر أخبرنا إبراهيم بن الحكم بن أبان حدثنى أبى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى من «علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى مالم يشرك بى شيئا» قال ثابت البنانى بلغنى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية والذين إذا فعلوا فاحشة إلى

لهم (ق) عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن ربه تبارك وتعالى قال « إذا أذنب عبد ذنبا فقال اللهم اغفر لى ذنبى قال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنبا علم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أى رب اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى إن عبدى أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أى رب اغفر لى ذنبى فقال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب وفى رواية اعمل ماشئت قد غفرت لك» قال عبد الأعلى لاأدرى أقال فى الثالثة أو الرابعة اعمل ماشئت عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله تبارك وتعالى ياابن آدم إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ياابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن عنان السماء بفتح العين قيل هو السحاب وقيل هو ماعن لك منها أى ماظهر لك منها وقراب الأرض بضم القاف وروى بكسرها والضم أشهر وهو مايقارب ملأها عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ «من قال استغفر الله العظيم الذى لاإله إلاهو الحى القيوم وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف» أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم قال حديث حسن صحيح على شرط البخارى ومسلم عن أبى الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «كل ذنب عسى الله أن يغفره أو قال عسى أن يغفره الله إلا من مات مشركا ومن قتل مؤمنا متعمدا » أخرجه أبوداود اه . قوله عز وجل (أولئك) إشارة إلى من تقدم ذكره فى قوله تعالى «والذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم» الآية (جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار) معنى الآية أن المطلوب بالتوبة أمران أحدهما الأمن من العقاب وإليه الإشارة بقوله مغفرة من ربهم والثانى إيصال الثواب وإليه الإشارة بقوله وجنات تجرى من تحتها الأنهار أى ذلك لهم ذخر لايبخس وأجر لايوكس (خالدين فيها) أى فى الجنات (ونعم أجر العاملين)

آخرها قوله تعالى (قد خلت من قبلكم سنن) قال عطاء شرائع. وقال الكلبي مضت لكل أمة سنة ومنهاج إذا اتبعوها رضى الله عنهم وقال مجاهد قد خلت من قبلكم سنن بالهلاك فيمن كذب قبلكم وقيل سنن أي أمم والسنة الأمة قال الشاعر:

ماعاين الناس من فضل كفضلكم
ولا رأوا مثلكم فى سالف السنن

وقيل معناه أهل السنن والسنة الطريقة المتبعة فى الخير والشر يقال سن فلان سنة حسنة وسنة سيئة إذا عمل عملا اقتدى به فيه من خير وشر ومعنى الآية قد مضت وسلفت منى سنن فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بامهالى واستدراجى إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلى الذى أجلته لإهلاكهم وإدالة أنبيائى عليهم (فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى آخر أمر المكذبين وهذا فى حرب أحد يقول الله عز وجل فأنا أمهلهم وأستدرجهم حتى يبلغ أجلى الذى أجلته فى نصرة النبى ﷺ وأوليائه وإهلاك أعدائه (هذا) أى هذا القرآن (بيان للناس) عامة (وهدى) من الضلالة (وموعظة للمتقين) خاصة قوله تعالى (ولا تهنوا ولا تحزنوا) هذا حث لأصحاب النبى ﷺ على الجهاد والصبر على ما أصابهم من القتل والجرح يوم أحد يقول الله تعالى ولا تهنوا أى لا تضعفوا ولا تجبنوا عن جهاد أعدائكم بما نالكم من القتل والجرح وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وقتل من الأنصار سبعون رجلا ولا تحزنوا أى على ما فاتكم (وأنتم الأعلون) الأعلون

أى ونعم ثواب المطيعين يعنى الجنة. قوله عز وجل (قد خلت من قبلكم سنن) يعنى قد انقضت من قبلكم سنة الله فى الأمم الماضية بالهلاك والاستئصال لأنهم خالفوا الأنبياء والرسل للحرص على الدنيا وطلب لذاتها والبقاء فيها فانقرضوا ولم يبق منهم أحد وقيل فى معنى السنة الطريقة المستقيمة والمثال المتبع لكل أمة سنة ومنهاج إذا اتبعوه رضى الله عنهم بذلك وقيل سنن أى شرائع وقيل سنن أى أمم والسنة الأمة ومعنى الآية قد مضت وسلفت منى سنن فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بامهالى واستدراجى إياهم حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم الذى أجلته لإهلاكهم (فسيروا فى الأرض) أمر ندب لا على سبيل الوجوب بل المقصود تعرف أحوال الماضين بقوله (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) فرغب أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى تأمل أحوال الأمم الماضية ليصير ذلك داعيا لهم إلى الإيمان بالله ورسوله والإعراض عن الدنيا ولذاتها وفيه أيضا زجر للكافر عن كفره لأنه إذا تأمل أحوال الكفار وإهلاكهم صار ذلك داعيا له إلى الإيمان لأن النظر إلى آثار المتقدمين له أثر فى النفس كما قيل:

إن آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثار

وفى هذه الآية تسلية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جرى لهم فى غزوة أحد يقول فانى إنما أمهلت الكفار حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم الذى أجلته لهم فى إهلاكهم ونصر محمد ﷺ وأوليائه وهلاك أعدائه. قوله عز وجل (هذا) يعنى القرآن وقيل هو اسم إشارة إلى ما تقدم من أمره ونهيه ووعده ووعيده (بيان الناس) يعنى عامة (وهدى) يعنى من الضلالة (وموعظة للمتقين) يعنى خاصة وقيل فى الفرق بين البيان والهدى والموعظة لأن العطف يقتضى المغايرة والبيان هو الدلالة التى تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة والهدى هو طريق الرشد المأمور بسلوكه دون طريق الغى والموعظة هى الكلام الذى يفيد الزجر عما لا ينبغى فى طريق الدين فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان أحدهما الكلام الهادى إلى ما ينبغى فى الدين وهو الهدى والثانى الكلام الزاجر عما لا ينبغى فى الدين وهو الموعظة وإنما خصه المتقين بالهدى والموعظة لأنهم المنتفعون بهما دون غيرهم. قوله عز وجل (ولا تهنوا ولا تحزنوا) نزلت يوم أحد حين أمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بطلب القوم مع ما أصابهم من الجراح فاشتد ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية وحث فيها أصحاب النبى ﷺ على الجهاد على ما أصابهم من الجراح والقتل وكان قد قتل يوم أحد من الأنصار سبعون رجلا ومن المهاجرين خمسة رجال منهم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومصعب بن عمير ومعنى الآية ولا تهنوا أى ولا تضعفوا عن الجهاد ولا تحزنوا يعنى على من قتل منكم لأنهم فى الجنة (وأنتم الأعلون) يعنى بالنصر والغلبة عليهم وأن العاقبة لكم وقال ابن عباس انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب فأقبل خالد بن الوليد فى خيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهم لا يعلون علينا اللهم لا قوة لنا إلا بك» فثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى انهزموا وعلا المسلمون الجبل فذلك قوله تعالى «وأنتم الأعلون» وقيل وأنتم

بأن يكون لكم العاقبة بالنصر والظفر على أعدائكم (إن كنتم مؤمنين) يعني إذ كنتم أي لأنكم مؤمنون قال ابن عباس رضي الله عنهما: انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب فأقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم لا يعلون علينا» «اللهم لا قوة لنا إلا بك» وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموها فذلك قوله تعالى وأنتم الأعلون وقال الكلبي: نزلت هذه الآية بعد يوم أحد حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بطلب القوم بعد ما أصابهم من الجرح فاشتد ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية دليله قوله تعالى «ولا تهنوا في ابتغاء القوم» (إن يمسسكم قرح) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر قرح بضم القاف حيث جاء وقرأ الآخرون بالفتح وهما لغتان معناهما واحد كالجهد والجهد وقال الفراء بالفتح اسم للجراحة وبالضم اسم لألم الجراحة هذا خطاب مع المسلمين حيث انصرفوا من أحد مع الكآبة والحزن يقول الله تعالى لهم «إن يمسسكم قرح» يوم أحد (فقد مس القوم قرح مثله) يوم بدر (وتلك الأيام نداولها بين الناس) فيوم لهم ويوم عليهم أديل المسلمون من المشركين يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين وأديل المشركون من المسلمين يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسا وسبعين. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا محمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا

الأعلون لأن حالكم خير من حالهم لأن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار وأنتم تقاتلون على الحق وهم يقاتلون على الباطل وقيل وأنتم الأعلون في العاقبة لأنكم تظفرون بهم وتستولون عليهم (إن كنتم مؤمنين) أي إذ كنتم مؤمنين وقيل معناه إن كنتم مصدقين بأن ناصركم هو الله تعالى فصدقوا بذلك فإنه حق وصدق. وقوله تعالى (إن يمسسكم قرح) قرئ بضم القاف وبفتحها وهما لغتان ومعناهما واحد وقيل إنه بالفتح مصدر وبالضم اسم وقيل إنه بالفتح اسم للجراحة وبالضم ألم الجراحة الآية خطاب للمسلمين حين انصرفوا من أحد مع الحزن والكآبة يقول إن يمسسكم أيها المسلمون قرح يوم أحد (فقد مس القوم) يعني في يوم بدر وقيل إن الكفار قد نالهم يوم أحد مثل ما نالكم من الجراح والقتل فقد قتل منهم نيف وعشرون رجلا وكثرت الجراحات فيهم (وتلك الأيام نداولها بين الناس) المداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر يقال تداولته الأيدي إذا انتقل من واحد إلى آخر ويقال الدنيا دول أي تنتقل من قوم إلى آخرين ثم منهم إلى غيرهم والمعنى أن أيام الدنيا هي دول بين الناس فيوم لهؤلاء ويوم لهؤلاء فكانت الدولة للمسلمين على المشركين في يوم بدر حتى قتلوا منهم سبعين رجلا وأسروا سبعين وأديل المشركون من المسلمين يوم أحد حتى جرحوا منهم سبعين وقتلوا خمسا وسبعين (خ) عن البراء بن عازب قال جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلا وهم الرماة عبد الله بن جبير فقال إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطئناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزمهم الله قال فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة أي قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك قوله والرسول يدعوكم في أخراكم فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير اثني عشر رجلا فأصابوا منا سبعين رجلا وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيرا وسبعين قتيلا فقال أبو سفيان أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه ثم قال أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات ثم قال أفي القوم عمر بن الخطاب؟ ثلاث مرات ثم رجع إلى أصحابه فقال أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال كذبت والله يا عدو الله إن الذي عددت لأحياء كلهم وقد بقي لك ما يسوءك قال يوم بيوم بدر والحرب سجال إنكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني ثم أخذ يرتجز أعل هبل أعل هبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا تجيبوه فقالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا الله أعلى وأجل قال أبو سفيان. إن لنا عزى ولا عزى لكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا تجيبوه قالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم. قال البغوي وقد روى هذا المعنى عن ابن عباس وفي حديثه قال أبو سفيان يوم بيوم وإن الأيام دول والحرب سجال فقال عمر لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار قال الزجاج الدولة تكون للمسلمين على الكفار لقوله تعالى وإن جندنا لهم الغالبون فكانت

عمرو بن خالد أنا زهير أخبرنا أبو إسحاق قال سمعت البراء بن عازب يحدث قال: جعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلا عبدالله بن جبير فقال «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزموهم، قال فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة، أى قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير أنسيتم ماقال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك قوله والرسول يدعوكم فى أخراكم فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم غير اثنى عشر رجلا فأصابوا مناسبعين وكان النبي صلى الله عليه وسلم (٤٣٦) وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين سبعين أسيرا وسبعين قتيلا فقال أبو سفيان أفى القوم محمد ثلاث مرات فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبوه ثم قال أفى القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات ثم قال: أفى القوم ابن الخطاب ثلاث مرات ثم رجع إلى أصحابه فقال أما هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر نفسه فقال كذبت والله ياعدو الله إن الذين عددت لأحياء كلهم وقد بقى لك مايسوءك فقال يوم بيوم بدر والحرب سجال أنكم ستجدون فى القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى ثم أخذ يرتجز أعل هبل أعل هبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا تجيبوه قالوا يارسول الله مانقول قال: قولوا الله أعلى وأجل قال إن لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا تجيبوه قالوا يارسول الله مانقول قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم وروى هذا المعنى عن ابن عباس رضى الله عنهما وفى حديثه، قال أبو سفيان يوم بيوم وأن الأيام دول والحرب سجال فقال عمر رضى الله عنه لاسواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار قال الزجاج الدولة تكون للمسلمين على الكفار لقوله تعالى وإن جندنا لهم الغالبون وكانت يوم أحد للكفار على المسلمين لمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ قوله تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا) يعنى إنما كانت هذه المداولة ليعلم أى ليرى الله الذين آمنوا فيميز المؤمن من المنافق (ويتخذ منكم شهداء) يكرم أقواما بالشهادة (والله لايحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا) أى يطهركم من الذنوب (ويمحق الكافرين) يفنيهم ويهلكهم، معناه أنهم إن قتلوكم فهو تطهير لكم وإن قتلتموهم فهو محقهم واستئصالهم (أم حسبتم) أى أحسبتم (أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله) أى ولم يعلم الله (الذين جاهدوا منكم

يوم أحد للكفار على المسلمين لمخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى (وليعلم الله الذين آمنوا) يعنى إنما جعل الدولة للكفار على المسلمين ليميز المؤمن المخلص ممن يرتد عن الدين إذا أصابته نكبة وشدة وقيل معناه وليعلم الله الذين آمنوا مما يظهر من صبرهم على جهاد عدوهم أى ليعرفهم بأعيانهم إلا أن السبب العلم وهو ظهور الصبر حذف هنا وقيل معناه ليعلم الله ذلك واقعا منهم لأن الله تعالى يعلم الشيء قبل وجوده ولا يحتاج إلى سبب حتى يعلم والمعنى ليقع ماعلمه عيانا ومشاهدة للناس والمجازاة إنما تقع على الواقع دون المعلوم الذى لم يوجد وقيل معناه ليعلم أولياء الله فأضاف علمهم إلى نفسه تفخيما وقيل معناه ليحكم الله بالامتياز بين المؤمن والمنافق فوضع العلم موضع الحكم لأن الحكم لايحصل إلا بعد العلم (ويتخذ منكم شهداء) يعنى وليكرم قوما منكم بالشهادة ممن أراد أن يكرمهم بها وذلك لأن قوما من المسلمين فاتهم يوم بدر وكانوا يتمنون لقاء العدو وأن يكون لهم يوم كيوم بدر فيقاتلون فيه العدو ويلتمسون فيه الشهادة والشهداء جمع شهيد وهو من قتل من المسلمين بسيف الكفار فى المعركة واختلفوا فى معنى الشهيد فقيل الشهيد الحى لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون فأرواحهم حية حضرت دار السلام وشهدتها وأرواح غيرهم لاتشهدها وقيل سمى شهيدا لأن الله تعالى شهد له بالجنة وقيل سمى شهداء لأنهم يشهدون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين على الأمم لأن الشهادة تكون للأفضل فالأفضل من الأمة لأن منصب الشهادة منصب عظيم ودرجة عالية (والله لايحب الظالمين) يعنى المشركين وقيل هم الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصى وقيل هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان بألسنتهم ويسرون الكفر والمعنى والله لايحب من لايكون ثابتا على الإيمان صابرا على الجهاد (وليمحص الله الذين آمنوا) أى وليطهرهم من ذنوبهم ويزيلها عنهم وأصل المحص فى اللغة التنقية والإزالة (ويمحق الكافرين) أى يفنيهم ويهلكهم ومعنى الآية إن قتلكم الكافرون فهو شهادة وتطهير لكم وإن قتلتموهم أنتم فهو محقهم واستئصالهم. قوله عز وجل (أم حسبتم) أى بل حسبتم وظننتم والمراد به الإنكار والمعنى لاتحسبوا أيها المؤمنون (أن تدخلوا الجنة) وتنالوا كرامتى وثوابى (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) قال الإمام فخر الدين الرازى

ويعلم الصابرين ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه) وذلك أن قوما من المسلمين تمنوا يوما كيوم بدر ليقاتلوا ويستشهدوا فأراهم الله يوم أحد وقوله تمنون الموت أى سبب الموت وهو الجهاد من قبل أن تلقوه (فقد رأيتموه) يعنى أسبابه (وأنتم تنظرون) فان قيل: مامعنى قوله «وأنتم تنظرون» بعد قوله «فقد رأيتموه» قيل ذكره تأكيدا وقيل الرؤية قد تكون بمعنى العلم فقال وأنتم تنظرون ليعلم أن المراد بالرؤية النظر وقيل: معناه وأنتم تنظرون إلى محمد صلى الله عليه وسلم قوله عز وجل (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) قال أصحاب المغازى: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالشعب من أحد فى سبع مئة رجل وجعل عبد الله بن جبير وهو أخو خوات بن جبير على الرجالة وكانوا خمسين رجلا وقال «أقيموا بأصل الجبل وانضحوا عنا بالنبل لايأتونا من خلفنا فان كانت لنا أو علينا فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم وإنا لن نزال غالبين ماثبتم مكانكم» فجاءت قريش وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ومعهم النساء يضربن بالدفوف ويقلن الأشعار فقاتلوا حتى حميت الحرب فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفا فقال «من يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العدو حتى يثخن» فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصارى فلما أخذه اعتم بعمامة حمراء وجعل يتبختر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا فى هذا الموضع» ففلق به هام المشركين وحمل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المشركين فهزموهم؛ وروينا عن البراء بن عازب قال فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة والله لنأتين الناس ولنصيبن من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوههم قال الزبير بن العوام فرأيت هندا وصواحبها هاربات مصعدات فى الجبل باديات خدامهن مادون أخذهن شئ فلما نظرت الرماة إلى القوم قد انكشفوا ورأوا أصحابهم ينتهبون الغنيمة أقبلوا يريدون النهب فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة ورأى ظهورهم خالية صاح فى خيله من المشركين ثم حمل على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من خلفهم فهزموهم وقتلوهم ورمى عبد الله بن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه فى وجهه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة ليعلوها وكان قد ظاهر بين درعين فلم يستطع فجلس تحته طلحة حتى استوى عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

الرازى ظاهر الآية يدل على وقوع النفى على العلم والمراد وقوعه على نفى المعلوم والتقدير: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يصدر الجهاد عنكم وتقديره إن العلم متعلق بالمعلوم كما هو عليه فلما حصلت هذه المطابقة لاجرم حسن إقامة كل واحد منهما مقام الآخر وقال الواحدى النفى فى الآية واقع على العلم والمعنى على الجهاد دون العلم وذلك لما فيه من الإيجاز فى انتفاء جهاد لو كان لعلمه والتقدير: ولما يكن المعلوم من الجهاد الذى أوجب عليكم فجرى النفى على العلم للايجاز على سبيل التوسع فى الكلام إذ المعنى مفهوم من غير إخلال وقال الزجاج المعنى ولما يقع العلم بالجهاد والعلم بصبر الصابرين أى ولما يعلم الله ذلك واقعا منكم لأنه يعلمه غيبا وإنما يجازيهم على عملهم وقال الطبرى يقول ولما يتبين لعبادى المؤمنين المجاهد منكم على ماأمرته به (ويعلم الصابرين) يعنى فى الحرب وعلى ما نالهم فى ذات الله عز وجل من جراح وألم ومكروه وفى هذه الآية معاتبة لمن انهزم يوم أحد والمعنى أم حسبتم أيها المهزومون أن تدخلوا الجنة كما دخلها الذين قتلوا وبذلوا مهجهم لربهم عز وجل وصبروا على ألم الجراح والضرب وثبتوا لعدوهم من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم. قوله تعالى (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه) قال ابن عباس لما أخبر الله عز وجل المؤمنين على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بما فعل بشهدائهم يوم بدر من الكرامة رغبوا فى ذلك فتمنوا قتالا يستشهدون فيه فيلحقون باخوانهم فأراهم الله يوم أحد فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم فأنزل الله هذه الآية وقيل إن قوما من المسلمين تمنوا يوما كيوم بدر ليقاتلوا فيه ويستشهدوا فأراهم الله يوم أحد ومعنى قوله تمنون الموت أى تطلبون أسباب الموت وهو القتال والجهاد من قبل أن تلقوه أى من قبل أن تلقوا يوم أحد (فقد رأيتموه) يعنى رأيتم ما كنتم تتمنون والهاء فى رأيتموه عائدة على الموت أى رأيتم أسبابه معاينين له شاهدين قتل من قتل من إخوانكم بين أيديكم (وأنتم تنظرون) قيل ذكره تأكيدا وقال الزجاج معناه فقد رأيتموه وأنتم بصراء كما تقول رأيت كذا وكذا وليس فى عينك علة أى رأيته رؤية حقيقية وقيل معناه وأنتم تنظرون ماتمنيتم فلم انهزمتم. قوله عز وجل (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) قال أهل المغازى خرج رسول الله صلى

« أوجب طلحة » ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدعن الآذان والأنوف حتى اتخذت هند من ذلك قلائد وأعطتها وحشيا وبقرت عن كبدة حمزة ولاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها وأقبل عبدالله بن قمئة يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم فذبه مصعب به عمير وهو صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إلى المشركين وقال: إني قتلت محمدا وصاح صارخا ألا إن محمدا قد قتل ويقال إن ذلك الصارخ إبليس لعنة الله عليه فانكفأ الناس وجعل رسول الله ﷺ يدعو الناس « إلي عباد الله إلى عباد الله » فاجتمع إليه ثلاثون رجلا فحموه حتى كشفوا عنه المشركين ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقت سية قوسه ونثل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته وقال له « أرم فداك أبي وأمي » وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا وكان الرجل يمر بجعبة من النبل فيقول « انثرها لأبي طلحة » وكان إذا رمى استشرف النبي صلى الله عليه وسلم لينظر إلى موضع نبله وأصيبت يد طلحة بن عبيد الله؛ فيبست حين وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيبت عين قتادة ابن النعمان يومئذ حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانها فعادت كأحسن ما كانت

فلما انصرف رسول الله ﷺ أدركه أبي بن خلف الجمحي وهو يقول: لانجوت إن نجوت فقال القوم: يارسول الله ألا يعطف عليه رجل منا؟ فقال ﷺ «دعوه» حتى إذا دنى منه وكان أبي قبل ذلك يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: عندي رمكة أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل أنا أقتلك إن شاء الله » فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه فخدشه خدشة فتدهدأ عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ويقول: قتلني محمد. فحمله أصحابه وقالوا ليس عليك بأس قال بلى لو كانت هذه الطعنة

الله عليه وسلم حتى نزل بالشعب من أحد في سبعمائة رجل وجعل عبدالله بن جبير على الرجالة وكانوا خمسين رجلا وقال « أقيموا بأصل الجبل وانضحوا عنا بالنبل حتى لا يأتونا من خلفنا فإن كانت لنا أو علينا لاتبرحوا من مكانكم حتى أرسل إليكم فانا لن نزال غالبين ماثبتم مكانكم » وكانت قريش على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبي جهل ومعهم النساء يضربن بالدفوف وينشدن الأشعار فقاتلوا حتى حميت الحرب وحمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على المشركين فهزموهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ سيفا وقال « من يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العدو حتى يثخن » فأخذه أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري فلما أخذه اعتم بعمامة حمراء وجعل يتبختر في مشيته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنها لمشية يبغضها الله تعالى ورسوله إلا في هذا الموضع » فلما نظرت الرماة إلى المشركين وقد انكشفوا ورأوا أصحابهم ينهبون الغنيمة أقبلوا يريدون النهب، فلما رأى خالد بن الوليد قلة الرماة واشتغال المسلمين بالغنيمة ورأى ظهورهم خالية صاح في خيله وحمل على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزموهم ورمى عبد الله بن قمئة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه فأثقله وتفرق عنه أصحابه ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة ليعلوها فلم يستطع وكان قد ظاهر بين درعين فجلس تحته طلحة فنهض حتى استوى على الصخرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أوجب طلحة » ووقعت هند والنسوة معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدعن الآذان والأنوف حتى اتخذت من ذلك قلائد وأعطتها وحشيا وبقرت عن كبد حمزة رضى الله تعالى عنه وكان قد قتل يومئذ فأخذت منها قطعة فلاكتها فلم تسغها فلفظتها وأقبل عبدالله بن قمئة يريد قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فذب عنه مصعب بن عمير رضى الله عنه وهو يومئذ صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل رسول الله ﷺ فرجع وقال إني قد قتلت محمدا وصاح صارخا ألا إن محمدا قد قتل ويقال إن الصارخ إبليس اللعين فانكفأ الناس وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إلى عباد الله إلى عباد الله » فاجتمع إليه ثلاثون رجلا فحموه حتى كشفوا عنه المشركين ورمى سعد بن أبي وقاص حتى اندقت سية قوسه ونثل له رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته وقال « ارم فداك أبي وأمي » وكان أبو طلحة رجلا راميا شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة وكان الرجل يمر معه جعبة النبل فيقول « انثرها لأبي طلحة » وكان إذا رمى تشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر موضع نبله وأصيبت يد طلحة بن عبيدالله

ربيعة ومضر لقتلتهم ، أليس قال لى أقتلك؟ فلو بزق علي بعد تلك المقالة لقتلني . فلم يلبث إلا يوما حتى مات بموضع يقال له سرف
أخبرنا عبدالواحد المليحى ، أنا أحمد بن عبدالله النعيمى ، أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن علي أنا أبوعاصم عن ابن جريج عن عمرو ابن دينار عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «اشتد غضب الله على من قتله نبى واشتد غضب الله على من دمى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم» قالوا وفشا فى الناس أن محمدا قد قتل فقال بعض المسلمين : ليت لنا رسولا إلى عبدالله ابن أبى فيأخذ لنا أمانا من أبى سفيان ، وبعض الصحابة جلسوا وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وقال أناس من أهل النفاق إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك : يا قوم إن كان قد قتل محمد فان رب محمد لم يقتل ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء – يعنى المسلمين وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء – يعنى المنافقين ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس فأول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك قال : عرفت عينيه تحت المغفر تزهران فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله

عبيد الله فيبست حين وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصيبت عين قتادة بن النعمان يومئذ حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعادت أحسن ما كانت فلما انصرف رسول الله ﷺ أدركه أبى بن خلف الجمحى وهو يقول لانجوت إن نجوت فقال القوم يارسول الله ألا يعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «دعوه» حتى إذا دنى منه وكان أبى قبل ذلك يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول عندى رمكة أعلفها كل يوم فرق ذرة أقتلك عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلما دنى منه تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ثم استقبله وطعنه فى عنقه وخدشه خدشة فسقط عن فرسه وهو يخور كما يخور الثور ويقول قتلنى محمد فاحتمله أصحابه وقالوا ليس عليك بأس فقال بل لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر لقتلتهم أليس قال لى أنا أقتلك ؟ فلو بزق على بعد ذلك المقالة لقتلنى بها فلم يلبث بعد ذلك إلا يوما حتى مات بموضع يقال له سرف (خ) عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اشتد غضب الله على من قتله نبى فى سبيل الله اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه نبى الله» قالوا وفشا فى الناس أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل وقال بعض المسلمين ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبى فيأخذ لنا أمانا من أبى سفيان وجلس بعض الصحابة وألقوا ما بأيديهم وقال أناس من المنافقين إن كان محمد قد قتل فالحقوا بدينكم الأول وقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك ياقوم إن كان محمد قد قتل فان رب محمد لم يقتل وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ فقاتلوا على ماقاتل عليه وموتوا على مامات عليه ثم قال اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء -يعنى المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء يعنى المشركين ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق إلى الصخرة وهو يدعو الناس فأول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك قال قد عرفت عينيه تزهران تحت المغفر فناديت بأعلى صوتى يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار إلي أن أسكت فانحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم النبى صلى الله عليه وسلم على الفرار فقالوا يارسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين فأنزل الله عز وجل « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» ومعنى الآية فسيخلو محمد كما خلت الرسل من قبله فكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلو أنبيائهم فعليكم أنتم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه لأن الغرض من بعث الرسول تبليغ الرسالة وإلزام الحجة لاوجوده بين ظهرانى قومه ومحمد اسم علم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه إشارة إلى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه وهو الذى كثرت خصاله المحمودة والمستحق جميع المحامد لأنه الكامل فى نفسه صلى الله عليه وسلم فأكرم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم فسماه باسمين مشتقين من اسمه المحمود سبحانه وتعالى فسماه محمدا وأحمد وفى ذلك يقول حسان بن ثابت :

ألم تر أن الله أرسل عبده ببرهانه والله أعلى وأمجد
أغر عليه للنبوة خاتم من الله مشهور يلوح ويشهد

صلى الله عليه وسلم فأشار إلى أن اسكت فانحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم النبي صلى الله عليه وسلم على الفرار فقالوا يانبي الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا الخبر بأنك قد قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين . فأنزل الله تعالى «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» (٤٣٠) ومحمد هو المستغرق لجميع المحامد لأن الحمد لا يستوجبه إلا الكامل والتحميد فوق الحمد فلا يستحقه إلا المستولى على الأمر فى الكمال وأكرم الله نبيه وصفيه باسمين مشتقين من اسمه جل جلاله محمد وأحمد ، وفيه يقول حسان ابن ثابت :

ألم تر أن الله أرسل عبده ببرهانه والله أعلى وأمجد

وشق له من إسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

قوله تعالى (أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟) أى رجعتم إلى دينكم الأول (ومن ينقلب على عقبيه) ويرتد عن دينه (فلن يضر الله شيئا) بارتداده وإنما ضر نفسه (وسيجزى الله الشاكرين وما كان لنفس أن تموت) قال الأخفش : اللام فى لنفس منقولة من تموت تقديره : وما كان نفس لتموت (إلا باذن الله) بقضائه وقدره وقيل بعلمه وقيل : بأمره (كتابا مؤجلا) أى كتب لكل نفس أجلا لا يقدر أحد على تغييره وتأخيره ونصب كتابا على المصدر أى كتب كتابا (ومن يرد ثواب الدنيا في الجهد نؤته منها) يعنى من يرد بطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاء لعمله ، يريد نؤته منها ما يشاء مما قدرناه له كما قال «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد» نزلت فى الذين تركوا المركز يوم أحد طلبا للغنيمة (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها)

وشق له من إسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

(ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لى خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب» والعاقب الذى ليس بعده نبى وسماه الله رؤفا رحيما (م) عن أبى موسى الأشعرى قال كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال «أنا محمد وأنا أحمد وأنا المقفى ونبى التوبة ونبى الرحمة» قوله المقفى هو آخر الأنبياء الذى لا نبى بعده والرسول هو المرسل ويكون بمعنى الرسالة والمراد به هنا المرسل بدليل قوله تعالى «وإنك لمن المرسلين» (أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم؟) يعنى أتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد أو قتل وترجعون إلى دينكم الأول يقال لكل من رجع إلى ما كان عليه رجع وراءه ونكص على عقبيه وحاصل الكلام إن الله تعالى بين أن موت محمد صلى الله عليه وسلم أو قتله لا يوجب ضعفا فى دينه ولا الرجوع عنه بدليل موت سائر الأنبياء قبله وأن أتباعهم ثبتوا على دين أنبيائهم بعد موتهم (ومن ينقلب على عقبيه) يعنى فيرتد عن دينه ويرجع إلى الكفر (فلن يضر الله شيئا) يعنى بارتداده لأن الله تعالى لا يضره كفر الكافرين لأنه تعالى غنى عن العالمين وإنما يضر المرتد والكافر نفسه (وسيجزى الله الشاكرين) يعنى الثابتين على دينهم الذين لم ينقلبوا عنه لأنهم شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام وثباتهم عليه فسماهم الله شاكرين لما فعلوا والمعنى وسيثيب الله من شكره على توفيقه وهدايته وروى ابن جبير عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى قوله «وسيجزى الله الشاكرين» قال الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه وكان على يقول أبو بكر أمين الشاكرين وأمين أخبار الله وكان أشكرهم وأحبهم إلى الله تعالى . قوله عز وجل (وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله) أى بأمر الله وقضائه وقدره وعلمه وذلك أن الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح فلا يموت أحد إلا باذن الله تعالى وأمره والمراد من الآية تحريض المؤمنين على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو باعلامهم بأن الجبن لا ينفع وأن الحذر لا يدفع المقدور وأن أحدا لا يموت قبل أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك وإذا جاء الأجل لم يدفع الموت بحيلة فلا فائدة فى الخوف والجبن . وفي الآية أيضا ذكر حفظ الله رسوله صلى الله عليه وسلم عند غلبة العدو وتخليصه منهم عند التفافهم عليه وإسلام أصحابه له فأنجاه الله تعالى من عدوه سالما مسلما لم يضره شىء (كتابا مؤجلا) يعنى مؤقتا له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر . والمعنى أن الله تعالى كتب لكل نفس أجلا لا يقدر أحد على تغييره أو تقديمه أو تأخيره وقيل الكتاب هو اللوح المحفوظ لأن فيه آجال جميع الخلق (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) يعنى من يرد بعمله وطاعته الدنيا ويعمل لها نؤته منها ما يكون جزاء لعمله والمعنى نؤته منها ما نشاء على ما قدرناه له نزلت في الذين تركوا المركز يوم أحد وطلبوا الغنيمة (ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) يعنى من يرد بعمله الآخرة نؤته ثوابه فيها نزلت في الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد . واعلم أن هذه الآية وإن نزلت

أى أراد بعمله الآخرة قيل: أراد الذين ثبتوا مع أميرهم عبدالله بن جبير حتى قتلوا (وسنجزى الشاكرين) أى المؤمنين المطيعين.
أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودى ، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم عبدالصمد الهاشمى ، أنا أبو يحيى محمد بن عبدالله بن يزيدبن عبد الرحمن بن المقرئ أنا أبى أنا الربيع بن صبيح عن يزيدالرقاشى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها إلا ما كتب الله له» أخبرنا أبوطاهر محمد بن على بن أبى توبة الزراد ، أخبرنا أبو بكر محمد

بن إدريس بن محمد الجرجانى وأبو أحمد محمد بن أحمد بن على المعلم الهروى قالا : أخبرنا أبو الحسن على بن عيسى الماليني ، أخبرنا أبو العباس الحسن بن سفيان النسوى أخبرنا حسان بن موسى وعبد الله بن أسماء ابن أخى جويرية بن أسماء قالا أخبرنا عبد الله بن المبارك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمى عن علقمة بن وقاص الليثى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ماهاجر إليه » قوله تعالى (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير) قرأ ابن كثير وكائن بالمد والهمزة على وزن كاعن وبتليين الهمزة أبو جعفر وقرأ الآخرون وكأين بالهمزة والتشديد على وزن كعين ومعناه وكم وهى كاف التشبيه ضمت إلى أى الاستفهامية ولم يقع التنوين صورة فى الخط إلا فى هذا الحرف خاصة ويقف بعض القراء على وكأين بلا نون والأكثرون على الوقف بالنون قوله قاتل قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة بضم القاف وقرأ الآخرون قاتل فمن قرأ قاتل فلقوله فما وهنوا ويستحيل وصفهم بأنهم لم يهنوا بعد ماقتلوا لقول سعيد بن جبير : ماسمعنا أن نبيا قتل فى القتال ، ولأن قاتل أعم. قال أبو عبيدة إن الله تعالى إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه غيرهم فكان قاتل أعم. ومن قرأ قتل فله ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون القتل راجعا إلى النبى وحده فيكون تمام الكلام عند قوله قتل ويكون فى

فى الجهاد خاصة لكنها عامة فى جميع الأعمال وذلك لأن الأصل فى ذلك كله يرجع إلى نية العبد فان كان يريد بعمله الدنيا فليس له جزاء إلا فيها وكذلك من أراد بعمله الدار الآخرة فجزاؤه أيضا فيها (ق) عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما الأعمال بالنيات» وفى رواية «بالنية وإنما لكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها» وفى رواية «ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه» وروى البغوى بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا راغمة ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتت عليه أمره ولا يأتيه منها إلا ما كتب الله له» . وقوله تعالى (وسنجزى الشاكرين) يعنى المؤمنين المطيعين الذين لم يشغلهم شىء عن الجهاد ولم يريدوا بأعمالهم إلا الله تعالى والدار الآخرة . قوله عز وجل (وكأين من نبى) أى وكم من نبى (قتل معه) وقرىء قاتل معه فمن قرأ قتل بضم القاف فله أوجه : أحدها أن يكون القتل راجعا على النبى وحده فعلى هذا يكون الوقف على قتل لأنه كلام تام وفيه إضمار تقديره قتل ومعه ربيون كثير ويكون معناه قتل حال ماكان معه ربيون كثير والمعنى أن كثيرا من الأنبياء قتلوا والذين بقوا بعدهم ماوهنوا فى دينهم وما استكانوا بل استمروا على جهاد عدوهم ونصرة دينهم فكان ينبغى لكم أن تكونوا مثلهم .الوجه الثانى أن القتل نال النبى ومن معه من الربيين ويكون المراد البعض ويكون قوله « فما وهنوا » راجعا إلى الباقين والمعنى وكأين من نبى قتل وبعض من كان معه فما ضعف الباقون لقتل من قتل من إخوانهم بل مضوا على جهاد عدوهم فكان ينبغى لكم أن تكونوا كذلك . الوجه الثالث أن يكون القتل نال الربيين لا النبى والمعنى وكأى من نبى قتل من كان معه وعلى دينه ربيون كثير ومن قرأ قاتل معه ربيون كثير فالمعنى وكأى من نبى قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوهم قروح وجراحات فما وهنوا لما أصابهم بل استمروا على جهاد عدوهم لأن الذى أصابهم إنما هو فى سبيل الله وطاعته وإقامته دينه ونصرة نبيه فكان ينبغى لكم أن تفعلوا مثل ذلك ياأمة محمد وحجة هذه القراءة ماروى عن سعيد بن جبير أنه قال ماسمعنا أن نبيا قتل فى القتال وقوله (ربيون كثير) قال ابن عباس جموع كثيرة وقيل الربيون الألوف وقيل الربية الواحدة عشرة

الآية إضمار معناه ومعه ربيون كثير كما يقال قتل فلان معه جيش كثير أى ومعه . والوجه الثانى أن يكون القتل نال النبى ومن معه من الربيين ويكون المراد بعض من معه تقول العرب قتلنا بنى فلان وإنما قتلوا بعضهم ويكون قوله «فما وهنوا» راجعا إلى الباقين والوجه الثالث أن يكون القتل للربيين لاغير وقوله ربيون كثير قال ابن عباس ومجاهد وقتادة جموع كثيرة وقال ابن مسعود الربيون الألوف وقال الكلبى الربية الواحدة عشرة آلاف وقال الضحاك الربية الواحدة ألف وقال الحسن فقهاء علماء وقيل هم الاتباع والربانيون والربيون الولاة الرعية وقيل منسوب إلى الرب وهم الذين يعبدون الرب (فما وهنوا) أي فما جبنوا (لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا) عن الجهاد بما نالهم من ألم الجراح وقتل الأصحاب (وما استكانوا) قال مقاتل وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم وقال السدى وما ذلوا وقال عطاء: وما تضرعوا وقال أبو العالية وما جبنوا ولكن صبروا على أمر ربهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم (والله يحب الصابرين) قوله تعالى (وما كان قولهم) نصب على خبر كان والاسم فى أن قالوا ومعناه وما كان قولهم عند قتل نبيهم (إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا) أى الصغائر (وإسرافنا فى أمرنا) أى الكبائر (وثبت أقدامنا) يعنى كى لا تزل (وانصرنا على القوم الكافرين) فيقول فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (فآتاهم الله ثواب الدنيا) النصرة والغنيمة (وحسن ثواب الآخرة) أى الأجر والجنة (والله يحب المحسنين) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا) يعنى اليهود والنصارى وقال على رضى الله عنه يعنى المنافقين فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم (يردوكم على أعقابكم) يرجعوكم إلى أول أمركم من الشرك بالله (فتنقلبوا خاسرين) مغبونين

آلاف وقيل ألف وقيل ربيون يعنى فقهاء علماء وقيل الربيون هم الأتباع (فما وهنوا) أى فما جبنوا عن الجهاد فى سبيل الله (لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا) يعنى عن مجاهدة عدوهم بما نالهم من ألم الجراح وقتل الأصحاب (وما استكانوا) يعنى وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم ولكنهم صبروا على أمر ربهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم وهذا تعريض بما أصابهم يوم أحد من الوهن والانكسار عند الارجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعفهم عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبى فى طلب الأمان من أبى سفيان والمقصود من الآية حكاية ما جرى لسائر الأنبياء وأتباعهم لتقتدى هذه الأمة بهم وترغيب الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجهاد (والله يحب الصابرين) يعنى فى الجهاد والمعنى أن من صبر على تحمل الشدائد فى طلب الآخرة ولم يظهر الجزع والعجز فان الله تعالى يحبه ومحبة الله تعالى للعبد عبارة عن إرادة إكرامه وإعزازه وإيصال الثواب له وإدخاله الجنة مع أوليائه وأصفيائه ثم قال تعالى (وما كان قولهم) يعنى قول الربيين (إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا) فيدخل فيه جميع الصغائر والكبائر (وإسرافنا فى أمرنا) يعنى ما أسرفنا فيه فتخطينا إلى العظام من الذنوب لأن الإسراف الافراط فى الشىء ومجاوزة الحد فيه فيكون المعنى اغفر لنا ذنوبنا الصغائر منها والكبائر (وثبت أقدامنا) لكى لا تزل عند لقاء العدو وذلك يكون بازالة الخوف والرعب من قلوبهم (وانصرنا على القوم الكافرين) لأن النصر على الأعداء لا يكون إلا من عند الله بين الله تعالى أنهم كانوا مستعدين عند لقاء العدو بالدعاء والتضرع وطلب الإعانة والنصر من الله تعالى والغرض منه أن يقتدى بهم فى هذه الطريقة الحسنة أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقول هلا فعلتم مثل ما فعلوا وقلتم مثل ما قالوا (فآتاهم الله ثواب الدنيا) يعنى النصر والغنيمة وقهر الأعداء والثناء الجميل وغفران الذنوب والخطايا (وحسن ثواب الآخرة) يعنى الجنة وما فيها من النعيم المقيم وإنما خص ثواب الآخرة بالحسن تنبيها على إجلاله وعظمته لأنه غير زائل ولم يشب بتنغيص ولم يصف ثواب الدنيا بالحسن لقلته ولأنه سريع الزوال مع ما يشوبه من التنغيص (والله يحب المحسنين) يعنى الذين يفعلون مثل ما فعل هؤلاء وهذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقولوا مثل هذا عند لقاء العدو وفيه دقيقة لطيفة وهى أنهم لما اعترفوا بذنوبهم وكونهم مسيئين سماهم الله تعالى محسنين . قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا) يعنى اليهود والنصارى وقيل المنافقين وذلك فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة يوم أحد ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم وقيل معناه أن تطيعوهم فيما يأمرونكم به من ترك الجهاد (يردوكم على أعقابكم) يعنى يرجعوكم إلى أمركم الأول وهو الكفر والشرك بالله بعد الإيمان به لأن قبول قولهم فى الدعوة إلى الكفر كفر (فتنقلبوا خاسرين)

ثم قال (بل الله مولاكم) ناصركم وحافظكم على دينكم الإسلام (وهو خير الناصرين سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) وذلك أن أبا سفيان والمشركين لما ارتحلوا يوم أحد متوجهين نحو مكة انطلقوا حتى إذا بلغوا بعض الطريق ندموا وقالوا بئس ماصنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم فلما عزموا على ذلك قذف الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به فذلك قوله تعالى «سنلقى» أى سنقذف فى قلوب الذين كفروا الرعب الخوف قرأ أبو جعفر وابن عامر والكسائى ويعقوب الرعب بضم العين وقرأ الآخرون بسكونها (بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) حجة وبرهانا (ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) مقام الكافرين قوله تعالى (ولقد صدقكم الله وعده) قال محمد بن كعب القرظى لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة من أحد قد أصابهم ما أصابهم قال ناس من أصحابه من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فأنزل الله تعالى ولقد صدقكم الله وعده بالنصر والظفر وذلك أن الظفر كان للمسلمين فى الابتداء (إذ تحسونهم باذنه) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره واستقبل المدينة وجعل عينين وهو جبل عن يساره وأقام عليه الرماة وأمر عليهم عبد الله ابن جبير وقال لهم «احموا ظهورنا فان رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا» وأقبل المشركون فأخذوا فى القتال فجعل الرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل والمسلمون يضربونهم بالسيوف حتى ولوا هاربين فذلك قوله تعالى «إذ تحسونهم باذنه» أى تقتلونهم قتلا ذريعا بقضاء الله قال أبو عبيدة الحس الاستئصال بالقتل (حتى إذا فشلتم) أى أن جبنتم وقيل معناه فلما فشلتم (وتنازعتم فى الأمر وعصيتم) فالواو زائدة فى وتنازعتم يعنى إذا فشلتم تنازعتم وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره حتى إذا تنازعتم فى الأمر وعصيتم فشلتم ومعنى التنازع الاختلاف وكان اختلافهم أن الرماة اختلفوا حين انهزم المشركون فقال بعضهم انهزم القوم فما مقامنا وأقبلوا على الغنيمة وقال بعضهم لاتجاوزوا أمر

يعنى مغبونين فى الدنيا والآخرة أما خسار الدنيا فهو طاعة الكفار والتذلل للأعداء وأما خسار الآخرة فهو دخول النار وحرمان دار القرار (بل الله مولاكم) أى وليكم وناصركم وحافظكم فاستعينوا به (وهو خير الناصرين) يعنى أنه تعالى قادر على نصركم والمعنى أنكم إنما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم وهم عاجزون عن نصر أنفسهم فضلا عن غيرهم فاطلبوا النصر من الله تعالى فهو خير الناصرين. قوله عز وجل (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) وذلك أن أبا سفيان ومن معه ارتحلوا يوم أحد متوجهين إلى مكة فلما بلغوا بعض الطريق ندموا وقالوا بئس ماصنعنا قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم ارجعوا إليهم فاستأصلوهم فلما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب يعنى الخوف الشديد حتى رجعوا عما هموا به فعلى هذا القول يكون الوعد بالقاء الرعب فى قلوب الكفار مخصوصا بيوم أحد وقيل إنه عام وإن كان السبب خاصا لقوله صلى الله عليه وسلم «نصرت بالرعب مسيرة شهر» فكأنه قال سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب منكم حتى تقهروهم ويظهر دينكم على سائر الأديان وقد فعل الله ذلك بفضله وكرمه حتى صار دين الإسلام ظاهرا على جميع الأديان والملل كما قال الله تعالى ليظهره على الدين كله (بما أشركوا بالله) يعنى إنما كان إلقاء الرعب فى قلوبهم بسبب إشراكهم بالله (مالم ينزل به سلطانا) يعنى حجة وبرهانا وسميت الحجة سلطانا لأن السلطان مشتق من السليط وهو مايستصبح به وقيل السلطان القوة والقدرة وسميت الحجة سلطانا لقوتها على دفع الباطل (ومأواهم النار) لما بين الله تعالى حال الكفار فى الدنيا وهو إلقاء الرعب والخوف فى قلوبهم بين حالهم فى الآخرة فقال تعالى «ومأواهم النار» أى مسكنهم (وبئس مثوى الظالمين) أى المسكن الذى يستقرون به ويقيمون فيه وكلمة بئس تستعمل فى جميع المذام والمعنى وبئس مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم باكتساب ما أوجب لهم عذاب النار والإقامة فيها. قوله عز وجل (ولقد صدقكم الله وعده) قال محمد بن كعب القرظى لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أحد إلى المدينة وقد أصابهم ما أصابهم قال ناس من الصحابة من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فأنزل الله تعالى «ولقد صدقكم الله وعده» يعنى بالنصر والظفر وذلك أن الظفر كان للمسلمين فى الابتداء وقيل إن الله وعد المؤمنين النصر بأحد فنصرهم فلما خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبوا الغنيمة هزموا (إذ تحسونهم) يعنى إذ تقتلون الكفار قتلا ذريعا وقيل معنى تحسونهم تستأصلونهم بالقتل (باذنه) يعنى بعلم الله وأمره وقيل بقضاء الله وقدره (حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم) قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت عبد الله بن جبير فى نفر يسير دون العشرة فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك حملوا على الرماة فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه وأقبلوا على المسلمين وجاءت الريح فصارت دبورا بعد ما كانت صبا وانقضت صفوف المسلمين (٤٣٤) واختلطوا فجعلوا يقتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضا ما يشعرون من الدهش ونادى إبليس أن محمدا قد قتل فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين قوله تعالى «وعصيتم» يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم وخالفتم أمره (من بعد ما أراكم) الله (ما تحبون) يا معشر المسلمين من الظفر والغنيمة (منكم من يريد الدنيا) يعنى الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب (ومنكم من يريد الآخرة) يعنى الذين ثبتوا مع عبد الله بن جبير حتى قتلوا قال عبد الله بن مسعود ما شعرت أن أحدا من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية (ثم صرفكم عنهم) أى ردكم عنهم بالهزيمة (ليبتليكم) ليمتحنكم وقيل لينزل البلاء عليكم (ولقد عفا عنكم) فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة منكم لأمر نبيكم (والله ذو فضل على المؤمنين إذ تصعدون) يعنى ولقد عفا عنكم إذ تصعدون هاربين وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة تصعدون بفتح التاء والعين والقراءة المعروفة بضم التاء وكسر العين والإصعاد السير فى مستوى الأرض والصعود الارتفاع الهزيمة على الجبال والسطوح قال أبو حاتم يقال أصعدت إذا مضيت حيال وجهك وصعدت إذا ارتقيت فى جبل أو غيره، وقال المبرد أصعد إذا أبعد فى الذهاب وكلتا القراءتين صواب فقد كان يومئذ من المنهزمين مصعد وصاعد وقال المفضل صعد

الفراء فيه تقديم وتأخير تقديره حتى إذا تنازعتم فى الأمر وعصيتم فشلتم وقيل معناه ولقد صدقكم الله وعده بالنصر إلى أن كان منكم الفشل والتنازع والمعصية وقيل فيه معنى الشرط وجوابه محذوف تقديره حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم منعكم الله النصر ومعنى فشلتم ضعفتم والفشل الضعف مع جبن ومعنى التنازع الاختلاف وكان اختلافهم وتنازعهم أن الرماة الذين كانوا مع عبد الله بن جبير لما انهزم المشركون قال بعضهم لبعض أى قوم ما نصنع بمقامنا هاهنا وقد انهزم المشركون ثم أقبلوا على الغنيمة وقال بعضهم لبعض لا تجاوزوا أمر رسول الله ﷺ وثبت عبد الله بن جبير أمير القوم فى نفر يسير دون العشرة ممن كان معه فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ذلك حملوا على الرماة الذين ثبتوا مع عبد الله بن جبير وأصحابه وأقبلوا على المسلمين وتحولت الريح دبورا بعد ما كانت صبا وانقضت صفوف المسلمين واختلطوا فجعلوا يقتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضا وما يشعرون بذلك من الدهش ونادى إبليس أن محمدا قد قتل فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين وقوله وعصيتم يعنى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمركم به من لزوم المركز (من بعد ما أراكم ما تحبون) من النصر والظفر والغنيمة يا معشر المسلمين (منكم من يريد الدنيا) يعنى الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب (ومنكم من يريد الآخرة) يعنى الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير حتى قتلوا قاله عبد الله بن مسعود ما شعرت أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى كان يوم أحد نزلت هذه الآية (ثم صرفكم عنهم) يعنى يا معشر المسلمين يعنى عن المشركين بالهزيمة (ليبتليكم) يعنى ليمتحنكم وقيل لينزل عليكم البلاء لتتوبوا إليه وتستغفروه وقيل معناه ليختبركم وهو أعلم ليتميز المؤمن من المنافق ومن يريد الدنيا ممن يريد الآخرة (ولقد عفا عنكم) يعنى ولقد عفا الله عنكم أيها المخالفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يستأصلكم بعد المخالفة والمعصية وقيل عفا عن عقوبتكم أيها المخالفون (والله ذو فضل على المؤمنين) وهذا من تمام نعمه علي عباده المؤمنين لأنه نصرهم أولا ثم عفا عن المذنبين منهم ثانيا لأنه ذو الفضل والطول والإحسان. وفى الآية دليل علي أن صاحب الكبيرة مؤمن وأن الله تعالى يعفو عنه بفضله وكرمه إن شاء لأنه سماهم مؤمنين مع ما ارتكبوه من مخالفة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى كبيرة وعفا عنهم بعد ذلك . قوله عزوجل (إذ تصعدون) قيل هو متعلق بما قبله والتقدير ولقد عفا عنكم إذ تصعدون لأن عفوه عنهم لابد وأن يتعلق بأمر اقترفوه وذلك الأمر هو ما بينه بقوله إذ تصعدون يعنى هاربين فى الجبل وقيل هو ابتداء كلام لا تعلق له بما قبله والمعنى اذكروا إذ تصعدون قراءة الجمهور بضم التاء وكسر العين من الاصعاد وهو الذهاب فى الأرض والإبعاد فيها وقرأ الحسن تصعدون بفتح التاء من الصعود وهو الارتقاء من أسفل إلى أعلى كالصعود على الجبل وعلي السلم ونحوه ، وللمفسرين فى معنى الآية قولان أحدهما أنه صعودهم فى الجبل عند الهزيمة والثانى أنه الإبعاد فى الأرض في حال

وأصعد بمعنى واحد (ولا تلوون على أحد) أى لاتعرجون ولا تقيمون على أحد لايلتفت بعضكم إلى بعض (والرسول يدعوكم فى أخراكم) أى فى آخركم ومن ورائكم «إلى عباد الله أنا رسول الله من يكر فله الجنة» (فأثابكم) فجازاكم جعل الإثابة بمعنى العقاب وأصلها فى الحسنات لأنه وضعها موضع الثواب كقوله تعالى «فبشرهم بعذاب أليم» جعل البشارة فى العذاب ومعناه جعل مكان الثواب الذى كنتم ترجون (غما بغم) وقيل الباء بمعنى على أى غما على غم وقيل غما متصلا بغم فالغم الأول مافاتهم من الظفر والغنيمة والغم الثانى مانالوا من القتل والهزيمة وقيل الغم الأول

ما أصابهم من القتل والجراح . والغم الثانى ما سمعوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل فأنساهم الغم الأول وقيل الغم الأول إشراف خالد بن الوليد عليهم بخيل المشركين والغم الثانى حين أشرف عليهم أبو سفيان وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة فلما رأوه وضع رجل سهما فى قوسه فأراد أن يرميه فقال «أنا رسول الله» صلى الله عليه وسلم ففرحوا حين وجدوا رسول الله ﷺ وفرح النبى صلى الله عليه وسلم حين رأى أن فى أصحابه من يمتنع به فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه ؛ ويذكرون أصحابهم الذين قتلوا فأقبل أبو سفيان وأصحابه حتى وقفوا بباب الشعب فلما نظر المسلمون إليهم همهم ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا مانالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس لهم أن يعلونا اللهم إن تقتل هذه العصابة لاتعبد فى الأرض» ثم ندب أصحابه فرموهم بالحجارة حتى أنزلوهم وقيل إنهم غموا الرسول بمخالفة أمره فجازاهم الله بذلك الغم غم القتل والهزيمة. قوله تعالى (لكيلا تحزنوا على مافاتكم) من الفتح والغنيمة (ولا ما أصابكم) أى ولا على ما أصابكم من القتل والهزيمة (والله خبير بما تعملون ثم أنزل عليكم) يامعشر المسلمين (من بعد الغم أمنة) يعنى أمنا والأمن والأمنة بمعنى واحد وقيل الأمن يكون مع زوال سبب الخوف والأمنة مع بقاء سبب الخوف وكان سبب الخوف هنا قائما (نعاسا) بدل من

الهزيمة ووقت الهرب (ولا تلوون على أحد) أى لاتعرجون ولا تقيمون على أحد ولا يلتفت بعضكم إلى بعض من شدة الهرب (والرسول يدعوكم فى أخراكم) أى فى آخركم ومن ورائكم يقول إلى عباد الله أنا رسول الله من كر أى رجع فله الجنة (فأثابكم غما بغم) يعنى فجزاكم بفراركم عن نبيكم صلى الله عليه وسلم وفشلكم عن عدوكم غما بغم فسمى العقوبة التى عاقبهم بها ثوابا على سبيل المجاز لأن لفظ الثواب لايستعمل فى الأغلب إلا فى الخير وقد يجوز استعماله فى الشر لأنه مأخوذ من ثاب إذا رجع فأصل الثواب كل مايعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيرا أو شرا فمتى حملنا لفظ الثواب على أصل اللغة كان الكلام صحيحا ومتى حملناه على الأغلب كان على سبيل المجاز فهو كقول الشاعر :

أخاف زيادا أن يكون عطاؤه ... أداهم سودا أو محدرجة سمرا

فجعل العطاء مكان العقاب لأن الأداهم السود هى القيود الثقال والمحدرجة هى السياط والباء فى قوله غما بغم بمعنى مع أو بمعنى لأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض وقيل الباء على بابها والمعنى غما متصلا بغم واختلفوا فى معنى الغمين فقيل الغم الأول هو مافاتهم من الظفر والغنيمة والغم الثانى هو مانالهم من القتل والهزيمة وقيل الغم الأول ما أصابهم من القتل والجراح والغم الثانى هو ماسمعوا بأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل فأنساهم غمهم وقيل الغم الأول هو أنهم غموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخالفة أمره فجزاهم الله بذلك الغم القتل والهزيمة وقيل إن غمهم الأول بسبب إشراف خالد بن الوليد مع خيل المشركين عليهم والغم الثانى حين أشرف أبو سفيان عليهم وذلك أن أبا سفيان وأصحابه وقفوا بباب الشعب فلما نظر المسلمون إليهم غمهم ذلك وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأغمهم ذلك . قوله تعالى (لكيلا) فى لفظة لا قولان أحدهما أنها باقية على أصلها ومعناها النفى فعلى هذا يكون الكلام متصلا بقوله ولقد عفا عنكم والمعنى ولقد عفا عنكم لكيلا (تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم) لأن عفوه يذهب كل هم وحزن وقيل معناه فأثابكم غما أنساكم الحزن على مافاتكم ولا ما أصابكم وقد روى أنهم لما سمعوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم قد قتل نسوا ما أصابهم ومافاتهم والقول الثانى أن لفظة لا صلة ومعنى الكلام لكى تحزنوا على ما فاتكم وأصابكم عقوبة لكم على مخالفتكم قال ابن عباس الذى فاتهم الغنيمة والذى أصابهم القتل والهزيمة (والله خبير بما تعملون) أى هو عالم بجميع أعمالكم خيرها وشرها فيجازيكم عليها. قوله عز وجل (ثم أنزل عليكم) يامعشر المسلمين (من بعد الغم) الذى أصابكم (أمنة نعاسا) يعنى أمنا والأمنة والأمن واحد وقيل الأمن يكون مع زوال الخوف والأمنة

الآمنة (يغشى طائفة منكم) قرأحمزة والكسائى تغشى بالتاء ردا إلى الآمنة وقرأ الآخرون بالياء ردا إلى النعاس . قال ابن عباس رضى الله عنهما أمنهم يومئذ بنعاس يغشاهم وإنما ينعس من يأمن والخائف لاينام. أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا إسماعيل أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن أنا حسن بن محمد أخبرنا شيبان عن قتادة أخبرنا أنس أن أبا طلحة قال غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد قال فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه وقال ثابت عن أنس عن أبى طلحة قال رفعت رأسى يوم أحد فجعلت ماأرى أحدا من القوم إلا وهو يميل تحت حجفته من النعاس وقال عبد الله ابن الزبير عن أبيه الزبير ابن العوام لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد علينا الحرب أرسل الله علينا النوم والله إنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ماأسمعه إلا كالحلم يقول لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا فذلك قوله تعالى « يغشى طائفة منكم » يعنى المؤمنين (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) يعنى المنافقين قيل أراد تميز المنافقين من المؤمنين فأوقع النعاس على المؤمنين حتى أمنوا ولم يوقع على المنافقين فبقوا فى الخوف قد أهمتهم أنفسهم أى جملتهم على الهم يقال أمر مهم (يظنون بالله غير الحق) أى لاينصر محمد وقيل ظنوا أن محمدا ﷺ قد قتل (ظن الجاهلية) أى كظن أهل الجاهلية والشرك (يقولون هل لنا) مالنا لفظه استفهام ومعناه جحد (من الأمر من شىء) يعنى النصر (قل إن الأمر كله لله) قرأ أهل البصرة برفع اللام عن الابتداء وخبره فى لله وقرأ الآخرون بالنصب على البدل وقيل على النعت (يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا) وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولم يقتل رؤساؤنا . وقيل لو كنا على الحق ماقتلنا هاهنا قال

مع بقاء سبب الخوف وكان سبب الخوف يعد باقيا والنعاس أخف من النوم والمعنى أعقبكم بما نالكم من الخوف والرعب أن أمنكم أمنا تنامون معه لأن الخائف لايكاد ينام فأمنهم بعد خوفهم (يغشى طائفة منكم) قال ابن عباس أمنهم يومئذ بنعاس تغشاهم وإنما ينعس من يأمن والخائف لاينام (خ) عن أنس عن أبى طلحة قال كنت فيمن تغشاهم النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارا يسقط وآخذه ويسقط فآخذه وأخرجه الترمذى عنه قال غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد وذكر نحو رواية البخارى وزاد والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم أجبن قوم وأرعبه وأخذ له للحق وفى رواية أخرى له قال رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أراهم وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس فذلك قوله تعالى ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا وقال الزبير بن العوام لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد علينا الخوف أرسل الله تعالى علينا النوم والله إنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ماأسمعه إلا كالحلم يقول لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا فقوله تعالى «يغشى طائفة منكم» يعنى المؤمنين (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) يعنى المنافقين أراد الله يميز المؤمنين من المنافقين فأوقع النعاس على المؤمنين حتى أمنوا ولم يوقع النعاس على المنافقين فبقوا فى الخوف وفى إلقاء النعاس علي المؤمنين دون المنافقين آية عظيمة ومعجزة باهرة لأن النعاس كان سبب أمن المؤمنين وعدم النعاس عن المنافقين كان سبب خوفهم وهو قوله تعالى «وطائفة قد أهمتهم أنفسهم» يعنى حملتهم أنفسهم على الهم لأن أسباب الخوف وهى قصد الأعداء كانت حاصلة عندهم (يظنون بالله غير الحق) يعنى يظنون أن الله لاينصر محمدا وأصحابه وقيل إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل وإن أمره يضمحل والمعنى يظنون بالله غير الظن الحق الذى يجب أن يظن به (ظن الجاهلية) أى كظن أهل الجاهلية (يقولون) يعنى المنافقين (هل لنا) أى مالنا (من الأمر شىء) وذلك أنه لما شاور النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين فى هذه الواقعة وأشار عليه أن لايخرج من المدينة فلما خالفه النبى صلى الله عليه وسلم وخرج وقتل من قتل قيل لعبد الله بن أبى قد قتل بنو الخزرج قال هل لنا من الأمر شىء وهو استفهام على سبيل الإنكار أى مالنا أمر يطاع وقيل المراد بالأمر النصر والظفر يعنى مالنا من هذا الذى يعدنا محمد به من النصر والظفر من شىء إنما هو للمشركين (قل) يامحمد لهؤلاء المنافقين (إن الأمر كله لله) يعنى النصر والظفر والقضاء والقدر كله لله وبيده يصرفه كيف يشاء ويدبره كيف أحب (يخفون فى أنفسهم ما لايبدون لك) يعنى من الكفر والشك فى وعد الله عز وجل وقيل يخفون الندم على خروجهم مع المسلمين وقيل الذى أخفوه وهو قوله تعالى حكاية عنهم (يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا) وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى

الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما : يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يعنى التكذيب بالقدر وهو قولهم «لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا» (قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب) قضى (٤٣٧) (عليهم القتل إلى مضاجعهم) مصارعهم (وليبتلى الله) وليمتحن الله (مافى صدوركم وليمحص) يخرج ويظهر (مافى قلوبكم والله عليم بذات الصدور) بما فى القلوب من خير وشر (إن الذين تولوا) انهزموا (منكم) يامعشر المسلمين (يوم التقى الجمعان) جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبى ﷺ إلا ثلاثة عشر رجلا ستة من المهاجرين وهم أبو بكر وعمر وعلى وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم قوله تعالى (إنما استزلهم الشيطان) أى طلب زلتهم كما يقال استعجلت فلانا إذا طلبت عجلته وقيل حملهم على الزلة وهي الخطيئة وقيل أزل واستزل بمعنى واحد (ببعض ما كسبوا) أى بشؤم ذنوبهم قال بعضهم بتركهم المركز وقال الحسن ما كسبوا هو قبولهم من الشيطان ماوسوس إليهم من الهزيمة (ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا) يعنى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه (وقالوا لإخوانهم) فى النفاق والكفر وقيل فى النسب (إذا ضربوا فى الأرض) أى سافروا فيها لتجارة أو غيرها (أو كانوا غزى) أى غزاة جمع غاز فقتلوا

قتال أهل مكة ولم تقتل رؤساؤنا وقيل كانوا يقولون لو كنا على الحق ماقتلنا هاهنا. وعن ابن عباس فى قوله تعالى «يظنون بالله غير الحق» يعنى التكذيب بالقدر وهو قولهم «لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا» قيل إن الذى قال هل لنا من الأمر من شىء هو عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق والذى قال لو كان لنا من الأمر شىء هو معتب بن قشير (قل) أى قل يامحمد لهؤلاء المنافقين (لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل) أى قضى عليهم القتل وقدر عليهم (إلى مضاجعهم) يعنى إلى مصارعهم التى يصرعون بها وقت القتل ومعنى الآية أن الحذر لاينفع مع القدر والتدبير لايقاوم التقدير فالذين قدر عليهم القتل وقضاه وحكم به عليهم لابد وأن يقتلوا والمعنى لو جلستم فى بيوتكم لخرج منها ولظهر الذين قضى الله عليهم بالقتل وقضاه إلى حيث يقتلون فيه (وليبتلى الله مافى صدوركم) أى وليختبر مافى صدوركم ليعلمه مشاهدة كما علمه غيبا لأن المجازاة إنما تقع على ماعلمه مشاهدة وقيل معناه ليعاملكم معاملة المبتلى المختبر لكم وقيل معناه ليبتلى أولياء الله مافى صدوركم فأضاف الابتلاء إليه تعظيما لشأن أوليائه المؤمنين (وليمحص الله مافى قلوبكم) قال قتادة أى يطهرها من الشك والارتياب بما يريكم من عجائب صنعه فى إلقاء الأمنة وصرف العدو وإظهار سرائر المنافقين فعلى هذا يكون الخطاب للمؤمنين خاصة وقيل معناه وليبين ويظهر مافى قلوبكم يعنى من الاعتقاد لله ولرسوله وللمؤمنين من العداوة فعلى هذا يكون الخطاب للمنافقين خاصة (والله عليم بذات الصدور) يعنى بالأشياء الموجودة فى الصدور وهى الأسرار والضمائر لأنه عالم بجميع المعلومات . قوله عز وجل (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) أى انهزموا وهربوا منكم يامعشر المسلمين فهو خطاب لمن كان مع النبى صلى الله عليه وسلم من المؤمنين يوم أحد بأحد وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة عشر رجلا وقيل أربعة عشر من المهاجرين سبعة ومن الأنصار سبعة فمن المهاجرين أبو بكر وعمر وعلى وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم (إنما استزلهم الشيطان) أى طلب زلتهم كما يقال استعجله أى طلب عجلته وقيل حملهم على الزلة وهى الخطيئة وذلك بالقاء الوسوسة فى قلوبهم لأنه أمرهم بها (ببعض ما كسبوا) يعنى بمعصيتهم النبى ﷺ وتركهم المركز وقيل استزلهم الشيطان بتذكير خطايا سبقت لهم فكرهوا أن يقتلوا قبل إخلاص التوبة منها وهذا اختيار الزجاج لأنه قال لم يتولوا على جهة المعاندة ولا على الفرار من الزحف رغبة فى الدنيا وإنما ذكرهم الشيطان خطايا سلفت لهم فكرهوا إلقاء الله إلا على حالة يرضاها (ولقد عفا الله عنهم) يعنى ولقد تجاوز الله عن الذين تولوا يوم التقى الجمعان فلم يعاقبهم بذلك وغفر لهم وقيل إن عثمان عوتب فى هزيمة يوم أحد فقال إن ذلك وإن كان خطأ لكن الله قد عفا عنه وقرأ هذه الآية (إن الله غفور) يعنى لمن تاب وأناب (حليم) لايعجل العقوبة ولا يستأصلهم بالقتل. قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا) يعنى المنافقين عبد الله بن أبى وأصحابه (وقالوا لإخوانهم) يعنى فى النفاق والكفر وقيل لإخوانهم فى النسب وكانوا مسلمين (إذا ضربوا فى الأرض) يعنى إذا سافروا فى الأرض لتجارة وغيرها (أو كانوا غزى) جمع غاز أى

(لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك) يعنى قولهم وظنهم (حسرة فى قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائى يعملون بالياء وقرأ الآخرون بالتاء (ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم) قرأ نافع وحمزة والكسائى متم بكسر الميم وقرأ الآخرون بالضم فمن ضمه فهو من مات يموت كقولك من قال يقول قلت بضم القاف ومن كسره فهو من مات يمات كقولك من خاف يخاف خفت (لمغفرة من الله) فى العاقبة (ورحمة خير مما يجمعون) من الغنائم قراءة العامة تجمعون بالتاء لقوله «ولئن قتلتم» وقرأ حفص عن عاصم يجمعون بالياء يعنى خير مما يجمع الناس (ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) فى العاقبة قوله تعالى (فبما رحمة من الله) أى فبرحمة من الله وما صلة كقوله «فبما نقضهم» (لنت لهم) أى سهلت لهم أخلاقك وكثرة احتمالك ولم تسرع إليهم بالغضب فيما كان منهم يوم أحد (ولو كنت فظا) يعنى جافيا سيء الخلق قليل الاحتمال (غليظ القلب) قال الكلبى فظا فى القول غليظ القلب فى الفعل (لانفضوا من حولك) أى نفروا وتفرقوا عنك يقال فضضتهم فانفضوا أى فرقتهم فتفرقوا (فاعف عنهم) تجاوز عنهم ما أتوا يوم أحد (واستغفر لهم) حتى أشفعك فيهم بمشاورتهم (وشاورهم فى الأمر) أى استخرج آراءهم واعلم ماعندهم من قول العرب شرت الدابة وشورتها إذا استخرجت جريها وشرت

غزاة فى الكلام حذف دل المعنى على ذلك الحذف وهو إذا ضربوا فى الأرض فماتوا أو كانوا غزى فقتلوا (لو كانوا عندنا) يعنى مقيمين (ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك) يعنى قولهم وظنهم (حسرة فى قلوبهم) يعنى غما وتأسفا (والله يحيي ويميت) هذا رد لقول المنافقين لو كانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا والمعنى أن الأمر بيد الله وأن المحيي والمميت هو الله تعالى فقد يحيى المسافر والغازى ويميت المقيم والقاعد عن الغزو كما يشاء فكيف ينفع الجلوس فى البيت وهل يحمى أحد من الموت (والله بما تعملون بصير) يعنى أنه تعالى مطلع على ماتعملون من خير أو شر فيجازيكم به فاتقوه ولا تكونوا مثل المنافقين لأن مقصدهم تنفير المؤمنين عن الجهاد بقولهم لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا فان الله تعالى هو المحيي المميت فمن قدر له البقاء لم يقتل فى الجهاد ومن قدر له الموت لم يبق وإن أقام ببيته عند أهله فلاتقولوا أنتم أيها المؤمنون لمن يريد الخروج إلى الجهاد لاتخرج فتقتل فلأن يموت فى الجهاد فيستوجب الثواب فان ذلك خير له من أن يموت فى بيته بلا فائدة وإليه الإشارة بقوله تعالى (ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة) يعنى فى العاقبة (خير مما تجمعون) يعنى من الغنائم والمعنى ولئن تم عليكم ماتخافونه من القتل فى سبيل الله أو الهلاك بالموت فان ماتنالونه من المغفرة والرحمة بالموت والقتل فى سبيل الله خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا (ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) يعنى لإلى الله الرحيم الواسع الرحمة والمغفرة المثيب العظيم الثواب تحشرون فى الآخرة فيجازيكم بأعمالكم وقد قسم بعض مقامات العبودية ثلاثة أقسام فمن عبد الله خوفا من ناره أمنه الله مما يخاف وإليه الإشارة بقوله تعالى لمغفرة من الله ومن عبد الله تعالى شوقا إلى جنته أناله مايرجو وإليه الإشارة بقوله تعالى ورحمة لأن الرحمة من أسماء الجنة ومن عبد الله شوقا إلى وجهه الكريم لايريد غيره فهذا هو العبد المخلص الذى يتجلى له الحق سبحانه وتعالى فى دار كرامته وإليه الإشارة بقوله لإلى الله تحشرون . قوله عز وجل (فبما رحمة من الله لنت لهم) أى فبرحمة من الله وما صلة لنت لهم أى سهلت لهم أخلاقك وكثرة احتمالك ولم تسرع إليهم بتعنيف على ما كان يوم أحد منهم ومعنى فبما رحمة من الله هو توفيق الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم للرفق والتلطف بهم وإن الله تعالى ألقى فى قلب نبيه صلى الله عليه وسلم داعية الرحمة واللطف حتى فعل ذلك معهم (ولو كنت فظا) يعنى جافيا (غليظ القلب) يعنى قاسى القلب سيء الخلق قليل الاحتمال (لانفضوا من حولك) أى لنفروا عنك وتفرقوا حتى لايبقى منهم أحد عندك (فاعف عنهم) أى تجاوز عن زلاتهم وما أتوا يوم أحد (واستغفر لهم) أى واسأل الله المغفرة لهم حتى يشفعك فيهم وقيل فاعف عنهم فيما يختص بك واستغفر لهم فيما يختص بحقوق الله وذلك من تمام الشفقة عليهم (وشاورهم فى الأمر) أى استخرج آراءهم واعلم ماعندهم.
واختلف العلماء فى المعنى الذى من أجله أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالمشاورة لهم مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحى عليه ووجوب طاعته وعلى كافة الخلق فيما أحبوا أو كرهوا فقيل هو عام مخصوص والمعنى وشاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد وذلك فى أمر الحرب ونحوه من أمور الدنيا لتستظهر برأيهم فيما تشاورهم فيه وقيل أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم

العسل وأشرته إذا أخذته من موضعه واستخرجته . واختلفوا فى المعنى الذى لأجله أمر الله نبيه ﷺ بالمشاورة مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحى عليه ووجوب طاعته على الخلق فيما أحبوا وكرهوا فقال بعضهم هو خاص فى المعنى أى وشاورهم فيما ليس عندك فيه من الله تعالى عهد وقال الكلبى يعنى ناظرهم فى لقاء العدو ومكايد الحرب عند الغزو وقال مقاتل وقتادة أمر الله تعالى بمشاورتهم تطييبا لقلوبهم فان ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم فان سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا فى الأمر شق ذلك عليهم وقال الحسن قد علم الله عز وجل أنه مابه إلى مشاورتهم حاجة ولكنه أراد أن يستن به من بعده . أخبرنا أبو طاهر المطهر بن على ابن عبيد الله الفارسى قال أخبرنا أبوذر محمد ابن إبراهيم بن على الصالحانى أخبرنا عبد الله ابن محمد بن جعفر أخبرنا على بن العباس المقانعى أخبرنا أحمد بن محمد بن ماهان أخبرنى أبى أخبرنا طاهر بن زيد عن عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت « ماراأيت رجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله ﷺ » (فاذا عزمت فتوكل على الله) لاعلى مشاورتهم أى قم بأمر الله وثق به واستعنه (إن الله يحب المتوكلين إن ينصركم الله) يعنكم الله ويمنعكم من عدوكم (فلا غالب لكم) مثل يوم بدر (وإن يخذلكم) يتركـكم فلم ينصركم كما كان بأحد والخذلان القعود عن النصرة والإسلام للهلكة (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) أى من بعد خذلانه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) قيل التوكل أن

بمشاورتهم تطييبا لقلوبهم فان ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم فان سادات العرب كانوا إذا لم يشاوروا فى الأمور شق ذلك عليهم وقال الحسن قد علم الله تعالى أن مابه إلى مشاورتهم حاجة ولكن أراد أن يستن به من بعده من أمته وقيل إنما أمر بمشاورتهم ليعلم مقادير عقولهم وأفهامهم لاليستفيد منهم رأيا وروى البغوى بسنده عن عائشة أنها قالت ماراأيت رجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفق العلماء على أن كل مانزل فيه وحى من الله تعالى لم يجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أن يشاور فيه الأمة وإنما أمر أن يشاور فيما سوى ذلك من أمر الدنيا ومصالح الحرب ونحو ذلك وقيل أن يشاورهم فى أمر الدين والدنيا فيما لم ينزل عليه فيه شىء لأن النبى صلى الله عليه وسلم شاورهم فى أسارى بدر وهو من أمر الدين قال على بن أبى طالب رضى الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه والتدبر قبل العمل يؤمنك من الندم وقال بعض الحكماء مااستنبط الصواب بمثل المشاورة ومن فوائد المشاورة أنه قد يعزم الإنسان على أمر فيشاور فيه فيتبين له الصواب فى قول غيره فيعلم بذلك عجز نفسه عن الاحاطة بفنون المصالح ومنها أنه إذا لم ينجح أمره علم أن امتناع النجاح محض قدر فلم يلم نفسه وقال بعضهم فى مدح المشاورة .

وشاور إذا شاورت كل مهذب ... لبيب أخى حزم لترشد فى الأمر
ولا تك ممن يستبد برأيه ... فتعجز أو لاتسترح من الفكر
ألم تر أن الله قال لعبده ... وشاورهم فى الأمر حتما بلا نكر

قوله تعالى (فاذا عزمت) يعنى على المشاورة (فتوكل على الله) أى فاستعن بالله فى أمورك كلها وثق به ولا تعتمد إلا عليه فانه ولى الإعانة والعصمة والتسديد والمقصود أن لايكون للعبد اعتماد على شىء إلا على الله تعالى فى جميع أموره وأن المشاورة لاتنافى التوكل (إن الله يحب المتوكلين) يعنى المتوكلين عليه فى جميع أمورهم . قوله عز وجل (إن ينصركم الله) يعنى إن يعنكم الله بنصره ويمنعكم من عدوكم كما فعل يوم بدر (فلا غالب لكم) يعنى من الناس لأن الله تعالى هو المتولى نصركم (وإن يخذلكم) كما فعل يوم أحد فلم ينصركم ووكلكم إلى أنفسكم لمخالفتكم أمره وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) أى من بعد خذلانه (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) لاعلى غيره لأن الأمر كله لله ولاراد لقضائه ولادافع لحكمه فيجب أن يتوكل العبد فى كل الأمور على الله تعالى لاعلى غيره وقيل التوكل أن لاتعصى الله من أجل رزقك ولاتطلب لنفسك ناصرا غيره ولالعملك شاهدا سواه (م) عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب قالوا ومن هم يارسول الله قال هم الذين لايكتوون ولايسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال أنت منهم فقام آخر فقال يانبى الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة » عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا

لأتعصى الله من أجل رزقك وقيل أن لا تطلب لنفسك ناصرا غير الله ولا لرزقك خازنا غيره ولا لعملك شاهدا غيره. أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن شجاع البزار ببغداد أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد الهيثم الأنباري أخبرنا محمد بن أبي العوام أخبرنا وهب بن جرير أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يدخل سبعون ألفا من أمتي الجنة بغير حساب قيل يارسول الله من هم قال هم الذين لايكتوون ولايسترقون ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقال عكاشة بن محصن يارسول الله ادع الله لي أن يجعلني منهم قال أنت منهم ثم قام رجل آخر فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة» أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة قال أخبرنا محمد ابن أحمد بن الحارث أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أخبرنا عبد الله ابن محمود أخبرنا إبراهيم ابن محمد الخلال أنا عبد الله ابن المبارك عن حياة بن شريح حدثني بكر بن عمرو عن عبد الله بن هبيرة أنه سمع أبا تميم الجيشاني يقول سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» قوله عز وجل (وما كان لنبي أن يغل) الآية قال عكرمة ومقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما إن هذه الآية نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر ومعناه فقال بعض الناس أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الكلبي ومقاتل نزلت في غنائم أحد ، حين ترك الرماة المركز للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم من أخذ شيئا فهو له وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسمها يوم بدر فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ألم أعهد إليكم أن لا تتركوا المركز حتى يأتيكم أمري؟ قالوا تركنا بقية إخواننا وقوفا فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل ظننتم أنا نغل ولا نقسم فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال قتادة ذكر لنا أنها

وتروح بطانا» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن . قوله عز وجل (وما كان لنبي أن يغل) قال ابن عباس نزلت هذه الآية وما كان لنبي أن يغل في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر فقال بعض القوم لعل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذها فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى آخرها أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن غريب وروى عن الضحاك قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طلائع فغنم النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقسم الطلائع فأنزل الله تعالى وما كان لنبي أن يغل وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى وما كان لنبي أن يغل يقول ما كان لنبي أن يقسم إلى طائفة من المؤمنين ويترك طائفة ويجور في القسم ولكن يقسم بالعدل ويأخذ فيه بأمر الله ويحكم فيه بما أنزل الله يقول ما كان الله ليجعل نبيا يغل من أصحابه فاذا فعل ذلك النبي استنوا به وقال مقاتل والكلبي نزلت في غنائم أحد حين ترك الرماة المركز للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول النبي ﷺ من أخذ شيئا فهو له وأن لاتقسم الغنائم كما لم تقسم يوم بدر فتركوا المركز ووقعوا في الغنائم فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم ألم أعهد إليكم أن لاتتركوا المركز حتى يأتيكم أمري قالوا تركنا بقية إخواننا وقوفا فقال النبي ﷺ بل ظننتم أنا نغل فلا نقسم فأنزل الله هذه الآية وقال قتادة ذكر لنا أنها نزلت في طائفة غلت من أصحابه وقيل إن الأقوياء ألحوا عليه يسألونه من المغنم فأنزل الله تعالى وما كان لنبي أن يغل يعني فيعطي قوما ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بينهم بالسوية وقال محمد بن كعب القرظي ومحمد بن إسحاق بن يسار هذا في شأن الوحي يقول وما كان لنبي أن يكتم شيئا من الوحي رغبة أو رهبة أو مداهنة والغلول هو الخيانة وأصله أخذ الشيء في خفية يقال غل فلان يغل قرئ بفتح الياء وضم الغين أي وما كان لنبي أن يخون لأن النبوة والخيانة لايجتمعان لأن منصب النبوة أعظم المناصب وأشرفها وأعلاها فلا تليق به الخيانة لأنها في نهاية الدناءة والخسة والجمع بين الضدين محال فثبت بذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخن أمته في شيء لامن الغنائم ولامن الوحي وقيل المراد به الأمة لأنه قد ثبت براءة ساحة النبي صلى الله عليه وسلم من الغلول والخيانة فدل ذلك على أن المراد بالغلول غيره وقيل اللام فيه منقولة معناه ما كان النبي ليغل على نفي الغلول عن الأنبياء وقيل معناه ما كان لنبي الغلول أراد ما غل نبي قط فنفى عن الأنبياء الغلول وقيل معناه وما كان يحل لنبي الغلول وإذا لم يحل له لم يفعله وحجة هذه القراءة أنهم نسبوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الغلول في بعض الروايات فبين الله تعالى بهذه الآية أن هذه الخصلة لاتليق به ونفى عنه ذلك بقوله وما كان لنبي أن يغل وقرئ يغل بضم الياء وفتح الغين ولهامعنيان أحدهما أن يكون من الغلول أيضا ومعناه وما كان لنبي أن يخان أي تخونه أمته والثاني أن يكون من الإغلال

نزلت في طائفة غلت من أصحابه وقيل إن الأقوياء ألحوا عليه يسألونه من المغنم فأنزل الله تعالى وماكان لنبي أن يغل فيعطى قوما ويمنع آخرين بل عليه أن يقسم بينهم بالسوية وقال محمد بن إسحاق هذا في الوحي يقول ماكان لنبي أن يكتم شيئا من الوحي رغبة أو رهبة أو مداهنة قوله تعالى وماكان لنبي أن يغل وقرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم يغل بفتح الياء وضم الغين معناه أن يخون والمراد منه الأمة وقيل اللام فيه منقولة معناه ماكان النبي ليغل وقيل معناه ماكان يظن به ذلك ولا يليق به وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الغين وله وجهان: أحدهما أن يكون من الغلول أيضا أي ماكان لنبي أن يخان ، يعني أن تخونه أمته والوجه الآخر أن يكون من الإغلال معناه ماكان لنبي أن يغل أن يخون أي ينسب إلى الخيانة (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) قال الكلبي يمثل له ذلك الشيء في النار ثم يقال له انزل فخذه فينزل فيحمله على ظهره فاذا بلغ موضعه وقع إلى النار ثم يكلف أن ينزل إليه فيخرجه فيفعل ذلك به أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد الفقيه أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ثور بن زيد الديلي عن أبي الغيث مولى بن مطيع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام خيبر فلم نغنم ذهبا ولا فضة إلا الأموال والثياب والمتاع قال فوجه رسول الله ﷺ نحو وادي القرى وكان رفاعة بن زيد وهب لرسول الله ﷺ عبد أسود يقال له مدعم قال فخرجنا حتى إذا كنا بوادي القرى فبينا مدعم يحط رحلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه سهم عائر فجأة فأصابه فقتله فقال الناس هنيئا له الجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا والذي نفسي بيده أن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم تشتعل نارا فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله ﷺ شراك من نار أو شراكان من نار أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا إسحاق الهاشمي أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن يحيى ابن سعيد عن محمد بن يحيى ابن حيان عن أبي عمرة الأنصاري عن زيد بن خالد الجهني قال أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ توفي يوم خيبر فذكر لرسول الله ﷺ قال صلوا على صاحبكم فتغيرت وجوه الناس لذلك فزعم زيد أن رسول الله ﷺ قال إن صاحبكم قد غل في سبيل الله قال ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز اليهود لا يساوي درهمين أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب المروزي أنا عبد العزيز ابن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي أخبرنا سفيان عن الزهري عن عروة بن الزبير عن أبي حميد الساعدي قال استعمل النبي ﷺ رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال هذا لكم وهذا أهدي لي فقام النبي ﷺ على المنبر فقال مابال العامل نبعثه على بعض أعمالنا فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي فهلا جلس في بيت أمه أو في بيت أبيه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منه شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيرا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها تيعر ثم رفع يده حتى رأينا عفرة إبطيه ثم قال اللهم هل بلغت ثلاثا وروى قيس بن أبي حازم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فقال لا تصيبن شيئا إلا بإذني فانه غلول ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا وجدتم الرجل قد غل فاحرقوا متاعه واضربوه وروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر أحرقوا متاع الغال وضربوه قوله تعالى (ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون

ومعناه وماكان لنبي أن يخون أي ينسب إلى الخيانة (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) يعني بالشيء الذي غله بعينه يحمله على ظهره يوم القيامة ليزداد فضيحة بما يحمله يوم القيامة وقيل يمثل ذلك الشيء في النار ثم يقال له أنزل فخذه فينزل فيحمله على ظهره فاذا بلغ موضعه وقع ذلك الشيء في النار فيكلف أن ينزل إليه ليخرجه يفعل به ذلك ما شاء الله وقيل معناه أنه يأتي باثم ماغله فيجازى به يوم القيامة وهو قوله تعالى (ثم توفى كل نفس ماكسبت) يعني من خير أو شر والمعنى أن كل كاسب خيرا كان ذلك الكسب أو شرا فهو مجزى به يوم القيامة وهو في جزاء عمله (وهم لا يظلمون) يعني بل يعدل بينهم يوم القيامة في الجزاء فيجازى كل على عمله .

(فصل في ذكر أحاديث وردت في الغلول ووعيد الغال)

وقد تقدم أن أصل الغلول هو أخذ الشيء في خفية وأنه الخيانة إلا أنه قد صار في العرف مخصوصا بالخيانة في الغنيمة وبهذا وردت الأحاديث (ق) عن أبي هريرة قال قام فينا رسول الله

صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره حتى قال لألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول يارسول الله أغثني فأقول لاأملك لك شيئا قد أبلغتك لاألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول يارسول الله أغثني فأقول لاأملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة علي رقبته شاة لها ثغاء يقول يارسول الله أغثني فأقول لاأملك لك شيئا قد أبلغتك لاألفين أحدكم يجيء يوم القيامة علي رقبته نفس لها صياح فيقول يارسول الله أغثني فأقول لاأملك لك شيئا قد أبلغتك لاألفين أحدكم يجيء يوم القيامة وعلى رقبته رقاع تخفق فيقول يارسول الله أغثني فأقول لاأملك لك شيئا قد أبلغتك لاألفين أحدكم يجيء يوم القيامة علي رقبته صامت فيقول يارسول الله أغثني فأقول لاأملك لك شيئا قد أبلغتك لفظ مسلم الرغاء صوت البعير والثغاء صوت الشاة والرقاع الثياب والصامت الذهب والفضة (ق) عن أبي هريرة قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ففتح الله علينا فلم نغنم ذهبا ولا ورقا غنمنا المتاع والطعام والثياب ثم انطلقنا إلى الوادى يعنى وادى القرى ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد له وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة ابن زيد من بني الضبيب فلما نزلنا الوادى قام عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحل رحله فرمى بسهم فكان فيه حتفه فقلنا هنيئا له الشهادة يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا والذى نفس محمد بيده أن الشملة لتلتهب عليه نارا أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم قال ففزع الناس فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال أصبتها يوم خيبر فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم شراك من نارا أو شراكان من نار وفي رواية نحوه وفيه ومعه عبد يقال له مدعم أهداه له أحد بني الضبيب وفيه إذ جاءه سهم عائر الشراك سير النعل الذى يكون على ظهر القدم ومثله شسع النعل والسهم العائر هو السهم الذى لايدرى من رماه (خ) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال كان على ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يقال له كركرة فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو في النار فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها عن زيد بن خالد الجهني أن رجلا من أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم توفى فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلوا علي صاحبكم فتغيرت وجوه الناس لذلك فقال أن صاحبكم غل في سبيل الله ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز اليهود لايساوى درهمين أخرجه أبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال من غل فاحرقوا متاعه واضربوه أخرجه أبو داود والترمذى عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر أحرقوا متاع الغال وضربوه زاد في رواية ومنعوه سهمه أخرجه أبو داود . قوله تعالى (أفمن اتبع رضوان الله) يعني فترك الغلول فلم يغل (كمن باء) أى رجع (بسخط من الله) يعني بغضب من الله والمعنى فغل والسخط الغضب الشديد المفضى للعقوبة وهو من الله إنزال العقوبة بمن سخط عليه وقيل في معنى الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أمر المسلمين باتباعه والخروج معه يوم أحد اتبعه المؤمنون وتخلف عنه جماعة من جماعة من المنافقين فأخبرنا الله تعالى بحال من اتبعه «بقوله أفمن اتبع رضوان الله» وبحال من تخلف عنه بقوله «كمن باء بسخط من الله» (ومأواه جهنم وبئس المصير) يعني الغال أو المتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) يعني هم ذوو درجات

أفمن اتبع رضوان الله) فترك الغلول (كمن باء بسخط من الله) فغل (ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله) يعنى ذوو درجات عند الله قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله مختلفوا المنازل عند الله فلمن اتبع رضوان الله الثواب العظيم ولمن باء بسخط من الله العذاب الأليم (والله بصير بما يعملون

عند الله قال ابن عباس يعنى من اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله مختلفو المنازل عند الله فلمن اتبع رضوان الله الثواب العظيم ولمن باء بسخط من الله العذاب الأليم والمعنى أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ليسوا سواء بل هم درجات عند الله على حسب أعمالهم وقيل الضمير فى قوله هم درجات عائد على قوله أفمن اتبع رضوان الله فقط لأن الغالب فى العرف استعمال الدرجات لأهل الثواب والدركات لأهل النار ولأن الله وصف من باء بسخط من الله إن مأواه جهنم وبئس المصير فدل على أن الضمير في قوله هم درجات عند الله راجع للأول وفيه تحريض على العمل بطاعته وتحذير عن العمل بمعاصيه . قوله عز وجل (لقد من الله على المؤمنين) يعنى أحسن إليهم وتفضل عليهم والمنة النعمة العظيمة وذلك فى الحقيقة لايكون إلا من الله ومنه قوله تعالى لقد من الله على المؤمنين (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) يعنى من جنسهم عربيا مثلهم ولد ببلدهم ونشأ بينهم يعرفون نسبه وليس حى من أحياء العرب إلا وقد ولده وله فيهم نسب إلا بنى تغلب فانهم كانوا نصارى وقد ثبتوا على النصرانية فطهر الله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يكون له فيهم نسب وقيل أراد بالمؤمنين جميع المؤمنين ومعنى قوله تعالى من أنفسهم أى بالإيمان والشفقة لا بالنسب ومن جنسهم ليس بملك ولا أحد من غير بنى آدم وقيل من أنفسهم يعنى أنه من ولد إسمعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ووجه المنة والإنعام على المؤمنين ببعث الرسول صلى الله عليه وسلم لكونه داعيا لهم إلى مايخلصهم من العذاب الأليم ويوصلهم إلى الثواب فى جنات النعيم وكونه من أنفسهم ومن جنسهم لأنه إذا كان اللسان واحدا سهل الأخذ عنه فيما يجب عليهم وكانوا واقفين على جميع أحواله وأفعاله يعرفون صدقه وأمانته فكان ذلك أقرب إلى تصديقه والوثوق به وفى كونه من أنفسهم شرف لهم وكان فيما خطب به أبوطالب حين زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها وقد حضر ذلك بنو هاشم ورؤساء مضر قوله الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسمعيل وضئضئ معد وعنصر مضر وجعلنا سدنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتا محجوبا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس وإن ابنى هذا محمد بن عبد الله لايوزن به فتى إلا رجح وهو الله بعد هذا له نبأ عظيم وخطب جليل وقيل فى وجه المنة ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الخلق جبلوا على الجهل ونقصان العقل وقلة الفهم وعدم الدراية فمن الله تعالى على خلقه وأنعم عليهم وأحسن إليهم بأن بعث فيهم رسولا من أنفسهم أنقذهم به من الضلالة وبصرهم به من الجهالة وهداهم به إلى صراط مستقيم وإنما خص المؤمنين بالذكر لأنهم هم المنتفعون بما جاء به دون غيرهم (يتلو عليهم آياته) يعنى يقرأ عليهم كتابه الذى أنزل عليه بعد أن كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شىء من الوحى السماوى (ويزكيهم) أى ويطهرهم من دنس الكفر ونجاسة المحرمات والخبائث (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يعنى القرآن والسنة التى سنها لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم (وإن كانوا من قبل) يعنى من قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم (لفى ضلال مبين) يعنى لفى جهالة وحيرة عن الهدى عميا لايعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فهداهم الله بنبيه صلى الله عليه وسلم . قوله تعالى (أو لما أصابتكم مصيبة) يعنى ما أصابهم يوم أحد (قد أصبتم مثليها) يعنى ببدر وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعين وقتل المسلمون من

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) قيل أراد به العرب لأنه ليس حى من أحياء العرب إلا وله فيهم من نسب إلا بنى تغلب دليله قوله تعالى «هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم» وقال الآخرون أراد به جميع المؤمنين ومعنى قوله تعالى من أنفسهم أي بالإيمان والشفقة لا بالنسب دليله قوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا) وقد كانوا (من قبل) أى من قبل مبعثه (لفى ضلال مبين أو لما) أى حين (أصابتكم مصيبة) بأحد (قد أصبتم مثليها) ببدر وذلك أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعين وقتل المسلمون منهم ببدر سبعين

المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين وقيل إن المسلين هزموا المشركين يوم بدر وهزموهم فى أول الأمر يوم أحد ما عصوا الله ورسوله هزمهم المشركون فحصل انهزام المشركين مرتين وانهزام المسلمين مرة واحدة (قلتم أنى هذا) أى من أين لنا هذا القتل والهزيمة ونحن المسلمون ورسول الله صلى الله عليه وسلم فينا وهو استفهام إنكار (قل هو من عند أنفسكم) يعنى إنما وقعتم فيما وقعتم فيه بشؤم ذنوبكم وهو مخالفتكم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه صلى الله عليه وسلم اختار الإقامة فى المدينة على الخروج إلى العدو واختاروا هم الخروج إليه وأيضا أمر الرماة بالإقامة فى الموضع الذى عينه لهم فخالفوا وتركوا المركز لأجل الغنيمة فكان ذلك سبب القتل والهزيمة وروى عبيدة السلمانى عن على بن أبى طالب قال جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن الله قد كره ماصنع قومك فى أخذهم الفداء من الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يضربوا أعناق الأسارى وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فقالوا يارسول الله عشائرنا وإخواننا بل نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى أهل بدر لم يسنده البغوى وأسنده ابن جرير الطبرى فذلك معنى قوله (قل هو من عند أنفسكم) يعنى بأخذكم الفداء واختياركم القتل لأنفسكم (إن الله على كل شىء قدير) يعنى من نصركم مع الطاعة وترك نصركم مع المخالفة . قوله عز وجل (وما أصابكم) يعنى من القتل والجراح والهزيمة (يوم التقى الجمعان) يعنى جمع المؤمنون وجمع المشركين وذلك بأحد يوم أحد (فباذن الله) يعنى فبعلمه وقضائه وقدره وحكمه وفيه تسلية للمؤمنين بما حصل لهم يوم أحد من القتل والهزيمة ولا تقع التسلية إلا إذا علموا أن ذلك كان واقعا بقضاء الله وقدره فحينئذ يرضون بما قضى الله عليهم (وليعلم المؤمنون وليعلم الذين نافقوا) أى ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم على ما لهم ويظهر نفاق المنافقين بقلة صبرهم على مانزل بهم فالمراد من العلم المعلوم والتقدير ليتبين المؤمن من المنافق وليتميز أحدهما من الآخر والمنافق هو الذى أظهر الإيمان بلسانه وأضمر خلافه واشتقاقه من النفق وهو السرب فى الأرض النافذ ومنه نافقا اليربوع لأن له حجرا فى الأرض له بابان إذا طلب من أحدهما خرج من الآخر فكذلك المنافق صنع له طريقين أحدهما إظهار الإيمان بلسانه والآخر إضمار الكفر بقلبه من أيهما طلب خرج من الآخر وقيل لأنه دخل فى الإيمان من باب وخرج من باب آخر والنفاق اسم إسلامى لم تك العرب تعرفه قبل الإسلام (وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا) المقول له عبد الله بن أبى بن سلول المنافق وأصحابه وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى أحد فى ألف رجل حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انخذل عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس وقال ماندرى علام نقتل أنفسنا فرجع بمن معه من المنافقين فتبعهم جابر بن عبد الله بن عمر بن حرام الأنصارى أخو بنى سلمة وهو يقول ياقوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم عند حضور عدوه فذلك قوله تعالى وقيل لهم يعنى المنافقين عبد الله بن أبى ابن سلول وأصحابه تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أى لأجل دين الله وطاعته أو ادفعوا يعنى عن أموالكم وأهليكم وقيل معناه تعالوا كثروا سواد المسلمين إن لم تقاتلوا ليكون ذلك دفعا وقمعا للعدو (قالوا) يعنى المنافقين (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) أى لو نعلم أن اليوم يجرى فيه قتال لاتبعناكم ولم

وأسروا سبعين (قلتم أنى هذا) من أين لنا هذا القتل والهزيمة ونحن مسلمون ورسول الله ﷺ فينا (قل هو من عند أنفسكم) روى عبيدة السلمانى عن على رضى الله عنه قال جاء جبريل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن الله قد كره ماصنع قومك فى أخذهم الفداء من الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يقدموا فتضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فقالوا يا رسول الله عشائرنا وإخواننا لا بل نأخذ منهم فداءهم فنقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى أهل بدر فهذا معنى قوله تعالى «قل هو من عند أنفسكم» أى بأخذكم الفداء واختياركم القتل (إن الله على كل شىء قدير وما أصابكم يوم التقى الجمعان) بأحد من القتل والجرح والهزيمة (فباذن الله) أى بقضاء الله وقدره (وليعلم المؤمنين) أى وليميز وقيل ليرى (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله) أى لأجل دين الله وطاعته (أو ادفعوا) عن أهلكم وحريمكم وقال السدى أى كثروا سواد المسلمين ورابطوا إن لم تقاتلوا يكون ذلك دفعا وقمعا للعدو (قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) وهو عبد الله بن أبى وأصحابه الذين انصرفوا عن أحد

نرجع

وكانوا ثلاثمائة قال الله تعالى (هم للكفر يومئذ أقرب) أى إلى الكفر يومئذ أقرب (منهم للإيمان) أى إلى الإيمان (يقولون بأفواههم) يعنى كلمة الإيمان (ماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم) فى النسب لا فى الدين وهم شهداء أحد (وقعدوا) يعنى قعد هؤلاء القائلون عن الجهاد (لو أطاعونا) وانصرفوا عن محمد ﷺ وقعدوا فى بيوتهم (ماقتلوا قل) لهم يامحمد (فادرأوا) فادفعوا (عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) أن الحذر يغنى عن القدر قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) الآية قيل نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلا ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين وقال الآخرون نزلت فى شهداء أحد وكانوا سبعين رجلا أربعة من المهاجرين: حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعثمان بن شماس وعبد الله بن جحش وسائرهم من الأنصار أخبرنا أحمد ابن عبد الله الصالحى أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا محمد ابن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن عبد الله ابن مرة عن مسروق قال سألنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما عن هذه الآية «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» الآية قال إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال أرواحهم كطير خضر ويروى فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعه فقال هل تشتهون شيئا قالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن

نرجع ولو علموا ماتبعوهم وقيل معناه او نحسن قتالا لاتبعناكم (هم للكفر) يعنى المنافقين إلى الكفر (يومئذ أقرب منهم للايمان) أى الإيمان وإنما قال تعالى يومئذ لأنهم قبل ذلك اليوم يظهروا ماأظهروه من المعاداة والرجوع عن المسلمين وقولهم لو نعلم قتالا لاتبعناكم وإنما كانوا قبل ذلك يظهرون كلمة الإسلام ويخفون الكفر (يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم) يعنى يظهرون بألسنتهم الإيمان وليس هو فى قلوبهم إنما فى قلوبهم الكفر والنفاق وهذه صفة المنافقين لا صفة المؤمنين لأن صفة المؤمن المخلص موطأة القلب للسان على شىء واحد وهو التوحيد (والله أعلم بما يكتمون) يعنى من النفاق (الذين قالوا لإخوانهم) نزلت فى عبد الله بن أبى المنافق وأصحابه وفى المراد باخوانهم قولان: أحدهما أن المراد باخوانهم الذين استشهدوا بأحد فيكون إخوانهم فى النسب لا فى الدين والقول الثانى إن المراد باخوانهم المنافقون فعلى القول الأول يكون معنى الآية الذين قالوا فى إخوانهم أو عن إخوانهم الذين قتلوا بأحد لو أطاعونا ماقتلوا لأنهم بعد أن قتلوا لا يخاطبون وعلى القول الثانى يكون معنى الآية الذين قالوا وهم عبد الله بن أبى وأصحابه لإخوانهم يعنى فى النفاق (وقعدوا) يعنى عن الجهاد (لو أطاعونا) يعنى هؤلاء الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أطاعونا يعنى فى القعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الانصراف عنه (ماقتلوا) يومئذ فرد الله تعالى عليهم بقوله (قل) يعنى قل لهم يامحمد (فادرأوا) أى فادفعوا (عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) يعنى أن الحذر لاينفع من القدر وفى الآية دليل على أن المقتول يموت بأجله خلافا لمن يزعم أن القتل قطع على المقتول أجله (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) قيل نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وقال أكثر المفسرين إنها نزلت فى شهداء أحد ويدل على ذلك ماروى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه إنه لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة لئلا يزهدوا فى الجنة ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» إلى آخر الآية أخرجه أبو داود (م) عن مسروق قال سألنا عبد الله عن هذه الآية «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون» فقال أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فأطلع إليهم ربهم إطلاعه فقال هل تشتهون شيئا قالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا (ذكر مايتعلق بهذا الحديث) قول مسروق سألنا

ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى فلما رأى أنهم لايسألون إلا هذا تركوا أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا
أبو إسحاق الثعلبي أنا عبد الله بن حامد أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان أنا جسعويه أنا صالح بن محمد أنا سليمان ابن عمرو
عن إسماعيل بن أمية عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال لأصحابه أنه لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله عز وجل أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ورأوا ما أعد الله لهم من الكرامة قالوا يا ليت قومنا يعلمون مانحن فيه من النعيم ، وما يصنع الله بنا كى يرغبوا فى الجهاد ولا ينكلوا عنه فقال الله عز وجل أنا مخبر عنكم ومبلغ إخوانكم ففرحوا بذلك واستبشروا فأنزل الله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا إلى قوله لا يضيع أجر المؤمنين » وسمعت عبد الواحد بن أحمد المليحى قال سمعت الحسن ابن أحمد القتيبى قال سمعت محمد بن عبد الله ابن يوسف قال سمعت محمد بن إسماعيل البكرى قال سمعت يحيى بن حبيب بن عربى
قال سمعت موسى بن إبراهيم قال سمعت طلحة بن خراش قال سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنه يقول لقينى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال لى ياجابر مالى أراك منكسرا قلت يارسول الله استشهد أبى وترك عيالا ودينا قال أفلا أبشرك بما لقى

عبد الله كذا جاء عبد الله غير منسوب وقد نسبه بعض الناس فقال عبد الله بن عمر قد ذكره أبو مسعود الدمشقي والحميدى فى مسنده عن عبد الله بن مسعود وهو الصحيح وهذا الحديث مرفوع لقوله أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وفى الحديث دليل عن أن الجنة مخلوقة الآن خلافا للمعتزلة لقوله صلى الله عليه وسلم تسرح من الجنة حيث شاءت وهو مذهب أهل السنة وفيه دليل على أن الأرواح باقية لاتفنى بفناء الجسد لأن المحسن ينعم ويجازى بالثواب وإن المسيء يعذب ويجازى بالعقاب قبل يوم القيامة وهو مذهب أهل السنة أيضا قوله أرواحهم فى جوف طير خضر أي يجعل الله أرواح الشهداء فى جوف طير خضر وهذا ليس ببعيد لاسيما مع القول بأن الأرواح أجسام لطيفة وقيل أن المنعم والمعذب من الأرواح والأجساد جزء من الجسد تبقى فيه الروح وهو الذى يتلذذ بالنعيم ويتألم بالعذاب فغير مستحيل أن يصور الله تعالى ذلك الجزء طائرا ويجعل في جوف طير فتسرح فى الجنة وتأوى إلى تلك القناديل وقد تعلق بهذا الحديث من يقول بالتناسخ من المبتدعة ويقول بانتقال الأرواح وتنعيمها فى الصور الحسان المرفهة وتعذيبها فى الصور القبيحة المسخرة ويزعمون أن هذا هو الثواب والعقاب وهذا ضلال بين وقول سخيف وبدعة باطلة لما فى هذا القول من إبطال ماجاءت به الشرائع من الحشر والنشر والمعاد والجنة والنار وقد جاء فى بعض روايات هذا الحديث مايرد عليهم وهو قوله حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه يعنى يحيي جميع جسده يوم يبعثه وهو يوم القيامة والله أعلم عن جابر قال لقينى رسول الله ﷺ وأنا مهتم فقال مالى أراك منكسرا قلت يارسول الله استشهد أبى يوم أحد وترك عيالا ودينا فقال ألا أبشرك بما لقى الله به أباك قلت بلى قال ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب وإنه أحيا أباك وكلمه كفاحاً وقال ياعبدي تمن على أعطك قال يارب تحيينى فأقتل ثانية قال سبحانه أنه قد سبق منى أنهم لايرجعون فنزلت « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله » الآية أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وقيل أن الآية نزلت فى شهداء بئر معونة وهى بئر بين مكة وعسفان وأرض هذيل قال محمد بن إسحاق عن أشياخه من أهل العلم قالوا قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة وكان سيد بنى عامر بن صعصعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له هدية فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبلها وقال إنى لاأقبل هدية مشرك ثم عرض عليه الإسلام وأخبره بما له فيه وما أعد الله للمؤمنين وقرأ عليه القرآن فلم يسلم ولم يبعد وقال يامحمد إن الذى تدعو إليه حسن جميل فلو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو براء انالهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو أخابنى ساعدة فى سبعين رجلا من خيار المسلمين وكان يقال لهم القراء منهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت ونافع بن يزيد بن ورقاء الخزاعى وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر

وذلك

الله به أباك قلت بلى يارسول الله قال ماكلم الله تعالى أحدا قط إلا من وراء حجاب وأنه أحيا أباك فكلمه كفاحا قال ياعبدى تمن على أعطك قال يارب أحيني فأقتل فيك الثانية قال الرب تبارك وتعالى إنه قد سبق منى أنهم لا يرجعون فأنزلت فيهم «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا» أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقى (٤٤٧) أنا أبو الحسن الطيسفونى، أنا عبد الله بن عمر الجوهرى أنا أحمد بن على الكشمهينى أنا على بن حجر أنا إسماعيل بن جعفر أنا حميد عن أنس رضى الله عنهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن عبد يموت له عند الله خير يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فانه يحب أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى» وقال قوم نزلت هذه الآية فى شهداء بئر معونة وكان سبب ذلك على ماروى محمد بن إسحاق عن أبيه إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام وعبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعن حميد الطويل عن أنس بن مالك وغيرهم من أهل العلم قال قدم أبو براء عامر بن مالك ابن جعفر ملاعب الأسنة وكان سيد بنى عامر بن صعصعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأهدى إليه هدية فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبلها وقال لا أقبل هدية مشرك فاسلم إن أردت أن أقبل هديتك ثم عرض عليه الإسلام وأخبره بما له فيه وما أعد الله للمؤمنين وقرأ عليه القرآن فلم يسلم ولم يبعد وقال يامحمد إن الذى تدعو إليه حسن جميل فلو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى

وذلك فى سفر سنة أربع من الهجرة بعد أحد بأربعة أشهر فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهى أرض بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم فلما نزلوها قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذا الماء فقال حرام بن ملحان أنا فخرج بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عامر بن الطفيل وكان على ذلك الماء فلما أتاهم حرام بن ملحان لم ينظر عامر بن الطفيل فى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حرام بن ملحان ياأهل بئر معونة إنى رسول رسول الله إليكم وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فآمنوا بالله ورسوله فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه به فى جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال الله أكبر فزت ورب الكعبة ثم استصرخ عامر بن الطفيل بنى عامر على المسلمين فأبوا أن يجيبوه إلى مادعاهم إليه وقالوا لا نخفر أبا براء فقد عقد لهم عقدا وجوارا فاستصرخ عليهم قبائل بنى سليم عصية ورعلا وذكوان فأجابوه فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم فلما رأوهم أخذوا السيوف فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد فانهم تركوه وبه رمق فارتث بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى ورجل من الأنصار أحد بنى عمرو بن عوف فلم يعلمها بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر فقالا والله إن لهذا الطير لشأنا فأقبلا لينظرا فاذا القوم فى دمائهم وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة فقال الأنصارى لعمرو بن أمية ماذا ترى قال نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وتخبره فقال الأنصارى لكن لا أرغب عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ثم قاتل القوم حتى قتل وأخذ عمرو بن أمية الضمرى أسيرا فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه فقدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عمل أبى براء وقد كنت لهذا كارها متخوفا فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه أخفار عامر بن الطفيل إياه وما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببه وجواره وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق فروى محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول من الرجل منهم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه قالوا هو عامر بن فهيرة قالوا وبلغ ربيعة بن أبى براء أن عامر ابن الطفيل أخفر ذمة أبيه فحمل على عامر بن الطفيل فطعنه فخر عن فرسه. قلت وذكر ابن الأثير الجزرى فى كتاب جامع الأصول له فى قسم الأسماء فى ترجمة عامر بن الطفيل أن عامر ابن الطفيل قدم على النبى ﷺ وهو ابن بضع وثمانين سنة ولم يسلم وعاد من عنده فخرج له خراج فى أصل أذنه أخذه منه مثل النار فاشتد عليه ومات منه (ق) عن أنس قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أقواما من بنى سليم إلى بنى عامر فى سبعين وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خاله أخا لأم سليم واسمه حرام فى سبعين راكبا فلما قدموا قال لهم خالى

أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر ابن عمرو أخا بني ساعدة في سبعين رجلا من خيار المسلمين منهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن بزيد بن ورقاء الخزاعي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه وذلك في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي أرض بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فلما نزلوها قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذا الماء فقال حرام بن ملحان أنا فخرج بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عامر بن الطفيل وكان على ذلك الماء فلما أتاهم حرام بن ملحان لم ينظر عامر بن الطفيل في كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حرام بن ملحان يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فآمنوا بالله ورسوله فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضرب به في جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال الله أكبر فزت ورب الكعبة (٤٤٨) ثم استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر على المسلمين فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا لن نخفر أبا براء قد عقد لهم عقدا وجوارا ثم استصرخ عليهم قبائل من بني سليم عصية ورعلا وذكوان فأجابوه فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم فلما رأوهم أخذوا السيوف فقاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق فارتث بين القتلى فضلوه فيهم فعاش حتى قتل يوم الخندق وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل من الأنصار أحد بني عمرو ابن عوف فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على المعسكر فقالا والله إن لهذا الطير لشأنا فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة فقال الأنصاري لعمرو بن أمية ماذا ترى قال أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره فقال الأنصاري الله أكبر لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ثم قاتل القوم حتى قتل وأخذوا عمرو بن أمية أسيرا فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه فقدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارها متخوفا فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفار عامر إياه وما أصاب رسول الله ﷺ بسببه وجواره وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة فروى محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول من الرجل منهم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه قالوا هو عامر بن فهيرة ثم بعد ذلك حمل ربيعة بن أبي براء على عامر بن الطفيل فطعنه على فرسه فقتله أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الأعلى بن حماد أنا يزيد بن زريع أنا سعيد عن قتادة عن أنس

أتقدمكم فإن أمنوني حتى أبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلا كنتم مني قريبا فتقدم فأمنوه فبينما هو يحدثهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أمنوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه فقال الله أكبر فزت ورب الكعبة ثم مالوا على بقية أصحابه فقتلوهم إلا رجلا أعرج صعد الجبل قال همام وأراه آخر معه فأخبر جبريل عليه السلام النبي ﷺ إنهم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم قال فكنا نقرأ أن بلغوا قومنا إن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ثم نسخ بعد فدعا عليهم أربعين صباحا على رعل وذكوان وبني عصية الذين عصوا الله ورسوله وفي رواية إن رعلا وذكوان وبني لحيان استمدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمدهم بسبعين رجلا من الأنصار كنا نسميهم القراء في زمانهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل حتى إذا كان ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقنت عليهم شهرا يدعو في الصبح على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان قال أنس فقرأنا فيهم قرآنا ثم إن ذلك رفع بلغوا قومنا إن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا ولمسلم قال جاء ناس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه أن أبعث معنا رجالا يعلمونا القرآن والسنة فبعث إليهم سبعين رجلا من الأنصار وذكر نحو ما تقدم وقيل إن أولياء الشهداء وأهليهم كانوا إذا أصابتهم نعمة وخير تحسروا على الشهداء وقالوا نحن في النعمة والرخاء وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور فأنزل الله تعالى هذه الآية تطييبا لقلوبهم وتنفيسا عنهم وإخبارا عن حال قتلاهم فقال تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله» أي ولا تظنن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل أحد من أمته والمعنى لا يظن ظان إن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا يعني كأموات غيرهم ممن لم يقتل في سبيل الله

(بل

ابن مالك أن رعلا وذكوان وعصية وبنى لحيان استمدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدوهم فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء فى زمانهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقنت شهرا يدعو فى الصبح على أحياء من أحياء العرب على رعل وذكوان وعصية وبنى لحيان قال أنس رضى الله عنه فقرأنا فيهم قرآنا ثم إن ذلك رفع بلغوا عنا قومنا إنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا ثم نسخت فرفع بعد ما قرأناه زمانا وأنزل الله تعالى «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا» الآية وقيل إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة تحسروا على الشهداء وقالوا نحن فى النعمة وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا فى القبور فأنزل الله تعالى تنفيسا عنهم وإخبارا عن حال قتلاهم «ولا تحسبن ولا تظنن الذين قتلوا فى سبيل الله» قرأ ابن عامر قتلوا بالتشديد والآخرون بالتخفيف أمواتا كأموات من لم يقتل فى سبيل الله (بل أحياء عند ربهم) قيل أحياء فى الدين وقيل فى الذكر وقيل لأنهم يرزقون ويأكلون ويتمتعون كالأحياء وقيل لأن أرواحهم تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة وقيل لأن الشهيد لا يبلى فى القبر ولا تأكله الأرض، وقال عبيدة بن عمير مر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» ثم قال رسول الله ﷺ أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة ألا فأتوهم وزوروهم وسلموا عليهم فوالذى نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه (يرزقون) من ثمار الجنة وتحفها (فرحين بما آتاهم الله من فضله) رزقه وثوابه (ويستبشرون) ويفرحون (بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) من إخوانهم الذين تركوهم أحياء فى الدنيا على مناهج الإيمان والجهاد لعلمهم أنهم إذا استشهدوا لحقوا بهم ونالوا من الكرامة ما نالوا فهم

(بل أحياء) أى بل هم أحياء وظاهر الآية يدل على كون من قتل فى سبيل الله حيا فاما أن يكون المراد أنهم سيصيرون أحياء فى الآخرة أو يكون المراد إنهم أحياء فى الحال وعلى تقدير أنهم أحياء فى الحال هل يكون المراد إثبات الحياة الروحانية أو إثبات الحياة الجثمانية فهذه ثلاثة أوجه فى معنى احتمال الحياة فمن قال بالوجه الأول هو أنهم سيصيرون أحياء فى الآخرة قال معنى الآية بل هم أحياء فى الذكر وأنهم يذكرون بخير أعمالهم وأنهم استشهدوا فى سبيل الله وقيل بل هم أحياء فى الدين وهذا القول ليس بصواب لأن الله تعالى أثبت لهم الحياة فى الحال بقوله بل أحياء يعنى فى حال ما يقتلون فانهم يحيون وهو الاحتمال الثانى واختلفوا فى معنى هذه الحياة هل هى للروح أو للجسم والروح معا فمن أثبت الحياة للروح دون الجسم قال يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر فخص الأرواح دون الأجساد وقال بعض المفسرين إن أرواح الشهداء تركع وتسجد كل ليلة تحت العرش إلى يوم القيامة ومن أثبت الحياة الروح والجسم معا قال يدل عليه سياق الآية وهو قوله عند ربهم يرزقون فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون كالأحياء وقيل إن الشهيد لا يبلى فى قبره ولا تأكله الأرض كغيره وروى أنه لما أراد معاوية أن يجرى الماء على قبور الشهداء أمر أن ينادى من كان له قتيل فليخرجه وليحوله من هذا الموضع قال جابر فخرجنا إليهم فأخرجناهم رطاب الأبدان فأصابت المسحاة أصبع رجل منهم فانبعث دما وذكر البغوى بغير سند عن عبيد الله بن عمير قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة فأتوهم وزوروهم وسلموا عليهم فوالذى نفسى بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه» وقوله تعالى (عند ربهم) يعنى فى محل كرامته وفضله (يرزقون) يعنى من ثمار الجنة وتحفها (فرحين بما آتاهم الله من فضله) يعنى بما أعطاهم من الثواب والكرامة والإحسان والإفضال فى دار النعيم (ويستبشرون) أى يفرحون والاستبشار هو الفرح والسرور الذى يحصل للانسان عند البشارة (بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) يعنى من إخوانهم الذين تركوهم أحياء فى الدنيا على منهج الإيمان والجهاد لعلمهم بأنهم إذا استشهدوا لحقوا بهم ونالوا من الكرامة مثل ما نالوا فهم مستبشرون وقيل إن الشهداء سألوا الله عز وجل أن يخبر إخوانهم بما نالوا من الخير والكرامة ليرغبوا فى الجهاد فأخبرهم الله عز وجل إنى قد أنزلت على نبيى محمد صلى الله عليه وسلم وأخبرته بحالكم وما صرتم إليه من الكرامة وأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد

لذلك مستبشرون (أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله) أى وبأن الله ، وقرأ الكسائى بكسر الألف على الاستئناف (٤٥٠) (لايضيع أجر المؤمنين) أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد

أخبر إخوانكم بذلك ففرحوا بذلك واستبشروا (أن لاخوف عليهم) يعنى فى الآخرة (ولاهم يحزنون) يعنى على مافاتهم من نعيم الدنيا (يستبشرون بنعمة من الله وفضل) لما بين الله تعالى أن الشهداء يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ذكر أنهم أيضا يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم والفضل فالاستبشار الأول كان لغيرهم والاستبشار الثانى لأنفسهم خاصة (وأن الله لايضيع أجر المؤمنين) يعنى كما أنه تعالى لايضيع أجر المجاهدين والشهداء كذلك لايضيع أجر المؤمنين .

فصل فى فضل الجهاد فى سبيل الله

(ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا مانال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده مامن كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين يكلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ماقعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولايجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم اغزوا فأقتل لفظ (ق) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها (ق) عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وماعليها عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فى سبيل الله فانه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر أخرجه أبو داود والترمذى عن معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة ومن سأل الله القتل فى سبيل الله صادقا من نفسه ثم مات أو قتل كان له أجر شهيد ومن جرح جرحا فى سبيل الله أو نكب نكبة فانها تجىء يوم القيامة كأغزر ماكانت لونها لون الزعفران وريحها ريح المسك ومن خرج به خراج فى سبيل الله فان عليه طابع الشهداء أخرجه أبو داود والنسائى وأخرجه الترمذى مفرقا فى موضعين (ق) عن أبى سعيد قال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أى الناس أفضل قال مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله قال ثم من قال رجل فى شعب من الشعاب يعبد الله وفى رواية يتقى الله ويدع الناس من شره (خ) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احتبس فرسا فى سبيل الله إيمانا واحتسابا وتصديقا فان شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة يعنى حسنات (ق) عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما أحد يدخل الجنة فيحب أن يرجع إلى الدنيا وله ماعلى الأرض من شىء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة وفى رواية لما يرى من فضل الشهادة (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من القرصة أخرجه الترمذى وللنسائى نحوه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته أخرجه أبو داود : قوله عز وجل (الذين استجابوا لله والرسول) الآية

أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبومصعب عن مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لايخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع مانال من أجر وغنيمة » وقال والذى نفسى بيده لايكلم أحد فى سبيل الله والله أعلم بمن يكلم فى سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دما اللون لون الدم والريح ريح المسك أخبرنا الإمام أبو على الحسن ابن محمد القاضى أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا على ابن الحسن الدارابجردى أنا عبدالله بن يزيد المقرى أنا سعيد حدثنى محمد ابن عجلان عن القعقاع ابن حكيم عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهيد لايجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم القرصة قوله تعالى (الذين استجابوا لله والرسول) الآية وذلك أن أبا سفيان وأصحابه لما

انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم وتلاوموا وقالوا لامحمدا قتلتم ولا الكواعب أردفتم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموه ارجعوا فاستأصلوهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهب العدو ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان فانتدب عصابة منهم مع مابهم من الجرح والقرح الذى أصابهم يوم أحد ونادى منادى رسول الله ﷺ ألا لايخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فكلمه جابر بن عبد الله فقال يارسول الله إن أبى كان قد خلفنى على إخوات لى سبع وقال لى يابنى أنه لاينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ولست بالذى أوثرك على نفسى فى الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتخلف على أخواتك فتخلفت عليهم ، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج معه وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبا للعدو وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم فيظنوا أن بهم قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم فينصرفوا فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وأبو عبيدة بن الجراح فى سبعين رجلا رضى الله عنهم حتى بلغوا حمراء الأسد وهى من المدينة على ثمانية أميال فروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لعبد الله ابن الزبير ياابن أختى أما والله أن أباك وجدك تعنى أبا بكر والزبير لمن الذين قال الله عز وجل الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح فر برسول الله ﷺ

الآية قال أكثر المفسرين أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم وتلاوموا فقالوا لامحمدا قتلتم ولا الكواعب أردفتم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم ارجعوا فاستأصلوهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد أن يرهب العدو ويريهم من نفسه وأصحابه قوة فندب أصحابه للخروج فى طلب أبى سفيان فانتدب عصابة منهم مع مابهم من ألم الجراح والقرح الذى أصابهم يوم أحد وناد مناد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا لايخرجن معنا أحد إلا من حضرنا بالأمس فكلمه جابر بن عبدالله فقال يارسول الله إن أبى كان خلفنى على أخوات لى سبع وقال لى بنى إنه لا ينبغى لى ولالك أن نترك هؤلاء النسوة ولا رجل فيهن ولست بالذى أوثرك على نفسى بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتخلف على أخواتك فتخلفت عليهن فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مرهبا للعدو وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم فيظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم فينصرفوا فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبوبكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وعبدالله بن مسعود وحذيفة ابن اليمان فى سبعين رجلا من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد وهى من المدينة على ثمانية أميال (ق) عن عائشة فى قوله الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح الذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم قالت لعروة يا ابن أختى كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر لما أصاب نبى الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب يوم أحد وانصرف المشركون خاف أن يرجعوا فقال من يذهب فى أثرهم فانتدب منهم سبعون رجلا كان فيهم أبو بكر والزبير قال فمر برسول الله صلى الله عليه وسلم الخزاعى بحمراء الأسد كانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئا كان بها ومعبد يومئذ مشرك فقال يامحمد والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله كان قد أعفاك فيهم ثم خرج معبد من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا على الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا قد أصبنا جل أصحابه وقادتهم لنكرن على بقيتهم ولنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبدا قال له ماوراءك يامعبد قال محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قد يتحرقون عليكم تحرقا وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على صنيعهم وفيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط قال أبو سفيان ويلك ما تقول قال والله ما أراك ترحل حتى ترى نواصى الخيل قال فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم فقال والله إنى أنهاك عن ذلك فوالله لقد حملنى مارأيت على إن قلت أبياتا قال وما قلت قال قلت :

كادت تهدى من الأصوات راحلتى ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل
تردى بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
فقلت ويل ابن حرب من لقائكموا ... إذا تغطغطت البطحاء بالخيل

معبد الخزاعى بحمراء الاسد وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم بتهامة صفقتهم معه لايخفون عنه شيئا وكان معبد يومئذ مشركا فقال يامحمد والله لقد عز علينا ماأصابك فى أصحابك ولوددنا أن الله تعالى كان أعفاك منهم (٤٥٢) ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالروحاء قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا قد أصبنا جلة أصحابه وقادتهم لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبدا قال له ماوراءك يامعبد قال محمد قد خرج مع أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على صنيعهم وفيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط قال ويلك ماتقول قال والله ماأراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل قال فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم قال فانى والله أنهاك عن ذلك فوالله لقد حملنى مارأيت على أن قلت فيه أبياتا :

كادت تهدمن الأصوات راحلتى
إذ سالت الأرض بالجراد الأبابيل

فذكر أبياتا فرد ذلك أبا سفيان ومن معه ومر به ركب من عبد القيس فقال أين تريدون قالوا نريد المدينة قال ولم قالوا نريد الميرة قال فهل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة وأحمل لكم إبلكم هذه زبيبا بعكاظ غدا إذا وافيتمونا قالوا نعم قال فاذا جئتموه فأخبروه إنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم وانصرف أبو سفيان إلى مكة ومر الركب برسول الله

إنى نذير لأهل السبل ضاحية لـكل ذى أربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وحش يقابله وليس يوصف ماأنذرت بالفيل

قالوا فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ومر ركب من عبد القيس فقال أين تريدون قالوا نريد المدينة لأجل الميرة قال فهل أنتم مبلغون عنا محمدا رسالة وأحمل لـكم إبلـكم زبيبا بعكاظ إذا وفيتموها قالوا نعم قال إذا وافيتموه فأخبروه إنا أجمعنا السير اليه و إلى أصحابه لنستأصل بقيتهم وانصرف أبوسفيان إلى مكة ومر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبو سفيان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حسبنا الله ونعم الوكيل ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا إلى المدينة بعد ثالثة وقال مجاهد وعكرمة نزلت هذه الآية فى غزوة بدر الصغرى وذلك أن أبا سفيان يوم أحد حين أراد أن ينصرف قال يا محمد موعد مابيننا وبينك موسم بدر الصغرى لقابل إن شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بيننا وبينك إن شاء الله فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل بمجنة من ناحية مر الظهران ثم ألقى الله الرعب فى قلبه فبدى له الرجوع فلقى نعيم بن مسعود الأشجعي وقد قدم معتمرا فقال له أبوسفيان يانعيم إنى قد واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر الصغرى وهذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب اللبن وقد بدا لى أن لا أخرج اليها وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ولا أن يكون الخلف من قبلهم أحب إلى من أن يكون من قبلى فألحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم أنا فى جمع كثير لاطاقة لهم بنا ولك عندى عشرة من الإبل أضعها لك على يد سهيل بن عمرو ويضمنها لك قال وجاء سهيل فقال له نعيم ياأبا يزيد أتضمن لى هذه القلائص وانطلق إلى محمد فأثبطه قال نعم قال فخرج نعيم حتى أتى المدينة فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبى سفيان فقال نعيم أين تريدون قالوا واعدنا أبا سفيان أن نلتقى بموسم بدر الصغرى فقال نعيم بئس الرأى رأيتم أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت منكم إلا الشريد أفتريدون أن تخرجوا اليهم وقد جمعوا لـكم عند الموسم والله لا يفلت منكم أحد فكره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدي فأما الجبان فانه رجع وأما الشجاع فانه تأهب للقتال وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه حتى وافوا بدر الصغرى وكانوا يلقون المشركين فيسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون بذلك أن يرعبوا المسلمين فيقول المؤمنون حسبنا الله ونعم الوكيل حتى بلغوا بدر الصغرى وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون اليها كل عام ثمانية أيام فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر ينتظر أباسفيان وقد انصرف أبا سفيان من مجنة إلى مكة فلم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحدا من المشركين ووافوا السوق وكان معهم تجارات ونفقات فباعوا فأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين فذلك قوله تعالى الذين استجابوا لله

ﷺ وهم بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قاله أبو سفيان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه « حسبنا الله ونعم الوكيل ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد الثالثة هذا قول أكثر المفسرين وقال مجاهد وعكرمة نزلت هذه الآية فى غزوة بدر الصغرى وذلك أن أبا سفيان يوم أحد حين أراد أن ينصرف قال يامحمد بيننا وبينك موسم بدر الصغرى لقابل إن شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بيننا وبينك إن شاء الله فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية مر الظهران ثم ألقى الله الرعب فى قلبه فبدأ له الرجوع فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى وقد قدم معتمرا فقال له أبو سفيان يانعيم إنى واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر الصغرى وأن هذه عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن وقد بدا لى أن لا أخرج إليها وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جرأة ولأن يكون الخلف من قبلهم أحب إلى من أن يكون من قبلى فألحق بالمدينة فثبطهم وأعلمهم إنى فى جمع كثير لاطاقة لهم بنا ولك عندى عشرة من الإبل أضعها لك على يدى سهيل بن عمرو ويضمنها قال فجاء سهيل فقال له نعيم ياأبا يزيد أتضمن لى هذه القلائص من أبى سفيان وانطلق إلى محمد وأثبطه قال نعم فخرج (٤٥٣) نعيم حتى أتى بالمدينة فوجد الناس

والرسول أى أجابوا الله وأطاعوه فى جميع أوامره وأطاعوا الرسول أيضا (من بعدما أصابهم القرح) يعنى من بعدما نالهم من ألم الجراح (للذين أحسنوا منهم واتقوا) يعنى أحسنوا بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجابوه إلى الغزو واتقوا معصيته والتخلف عنه (أجر عظيم) يعنى لهم ثواب جزيل وهو الجنة . قوله عز وجل (الذين قال لهم الناس) هذه الآية متعلقة بالآية التى قبلها لأن المراد بالذين من تقدم ذكره وهم الذين استجابوا لله والرسول وفى المراد بالناس وجوه أحدها : أنه نعيم بن مسعود الأشجعى فيكون اللفظ عاما أريد به الخاص وإنما جاز إطلاق لفظ الناس على الإنسان الواحد لأن ذلك الواحد إذا فعل فعلا أو قال قولا ورضى به غيره حسن إضافة ذلك الفعل والقول إلى الجماعة وإن كان الفاعل واحدا فهو كقوله تعالى « وإذا قتلتم نفسا » والقاتل واحد. والوجه الثانى أن المراد بالناس الركب من عبد القيس قاله ابن عباس ومحمد بن إسحاق . الوجه الثالث أن المراد بالناس المنافقون وذلك أنهم لما رأوا النبى صلى الله عليه وسلم يتجهز لميعاد أبى سفيان نهوا أصحابه عن الخروج معه وقالوا لهم أن القوم قد أتوكم فى دياركم فقتلوا الأكثر منكم فان خرجتم اليهم لم يبق أحد منكم (إن الناس) يعنى أبا سفيان وأصحابه من رؤساء المشركين (قد جمعوا لكم) يعنى الجموع الكثيرة لأن العرب تسمى الجيش جمعا ويجمعونه جموعا (فاخشوهم) أى فخافوهم

يتجهزون لميعاد أبى سفيان فقال أين تريدون فقالوا واعدنا أبا سفيان أن نلتقى بموسم بدر الصغرى قال بئس الرأى رأيكم أتوكم فى دياركم وقراركم فلم يفلت منكم إلا الشريد أفتريدون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم عند الموسم والله لا يفلت منكم أحد فكره أصحاب رسول الله ﷺ الخروج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفس محمد بيده لأخرجن ولو وحدى فأما الجبان فانه رجع وأما الشجاع فانه تأهب للقتال وقال حسبنا الله ونعم الوكيل فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه حتى وافوا بدرا الصغرى فجعلوا يلقون المشركين ويسألونهم عن قريش فيقولون قد جمعوا لكم يريدون أن يرعبوا المسلمين فيقول المؤمنون حسبنا الله ونعم الوكيل حتى بلغوا بدرا وكانت موضع سوق لهم فى الجاهلية يجتمعون إليها فى كل عام ثمانية أيام فأقام رسول الله ﷺ ببدر ينتظر أبا سفيان وقد انصرف أبو سفيان من مجنة إلى مكة فلم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحدا من المشركين ووافقوا السوق وكانت معهم تجارات ونفقات فباعوا وأصابوا بالدرهم درهمين فانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين فذلك قوله تعالى « الذين استجابوا لله والرسول » أى أجابوا ومحل الذين خفض على صفة المؤمنين تقديره إن الله لا يضيع أجر المؤمنين المستجيبين الذين استجابوا لله والرسول (من بعد ما أصابهم القرح) أى نالهم الجرح وتم الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال (للذين أحسنوا منهم) بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجابته إلى الغزو (واتقوا) معصيته (أجر عظيم الذين قال لهم الناس) ومحل الذين خفض أيضا مردود على الذين الأول وأراد بالناس نعيم بن مسعود فى قول مجاهد وعكرمة فهو من العام الذى أريد به الخاص كقوله تعالى أم يحسدون الناس يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم وحده وقال محمد بن إسحاق وجماعة أراد بالناس الركب من عبد القيس (إن الناس قد جمعوا لكم) يعنى أبا سفيان وأصحابه (فاخشوهم) فخافوهم

واحذروهم فانه لاطاقة لكم بهم (فزادهم إيمانا) تصديقا ويقينا وقوة (وقالوا حسبنا الله) أى كافينا الله (ونعم الوكيل) أى الموكول إليه الأمور فعيل بمعنى مفعول أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا محمد بن يونس أخبرنا أبو بكر عن أبى حصين عن أبى الضحى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال حسبنا الله ونعم الوكيل كلمة قالها إبراهيم حين ألقى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم

حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (فانقلبوا) فانصرفوا (بنعمة من الله) بعافية لم يلقوا عدوا (وفضل) تجارة وربح وهو ما أصابوا فى السوق (لم يمسسهم سوء) لم يصبهم أذى ولا مكروه (واتبعوا رضوان الله) فى طاعة الله وطاعة رسوله وذلك أنهم قالوا هل يكون هذا غزوا فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضى عنهم (والله ذو فضل عظيم) قوله تعالى (إنما ذلكم الشيطان) يعنى ذلك الذى قال لكم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم من فعل الشيطان ألقى فى أفواههم لترهبوهم وتجبنوا عنهم (يخوف أولياءه) أى يخوفكم بأوليائه وكذلك هو فى قراءة أبى بن كعب يعنى يخوف المؤمنين بالكافرين قال السدى يعظم أوليائه

واحذروهم فانه لا طاقة لكم بهم (فزادهم إيمانا) يعنى فزاد المسلمين ذلك التخويف تصديقا ويقينا وقوة فى دينهم وثبوتا على نصر نبيهم صلى الله عليه وسلم وفى هذه الآية دليل لمن يقول بزيادة الإيمان ونقصانه لأن الله تعالى نص على وقوع الزيادة فى الإيمان (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) أى كافينا الله هو الذى يكفينا أمرهم فهو كقول امرئ القيس. وحسبك من غنى شبع ورى أى يكفيك الشبع والرى ونعم الوكيل يعنى ونعم الموكول إليه فى الأمور كلها وقيل الوكيل هو الكافى والمعنى يكفينا الله ونعم الكافى هو وقيل الوكيل هو الكفيل ووكيل الرجل فى ماله هو الذى كفله وقام به والوكيل فى صفة الله تعالى هو الكفيل بأرزاق العباد ومصالحهم وأنه الذى يستقل بأمورهم كلها (خ) عن ابن عباس قال فى قوله تعالى «إن الناس قد جمعوا لكم» إلى قوله «وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى فى النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم. قوله تعالى (فانقلبوا) أى فانصرفوا ورجعوا بعد خروجهم والمعنى وخرجوا فانقلبوا فحذف الخروج لأن الانقلاب يدل عليه (بنعمة من الله) أى بعافية لم يلقوا عدوا (وفضل) أى تجارة وربح وهو ما أصابوا فى سوق بدر من الربح وقيل النعمة منافع الدنيا والفضل ثواب الآخرة (لم يمسسهم سوء) أى لم يصبهم أذى ولا مكروه من قتل وجراح واتبعوا رضوان الله) يعنى فى طاعة الله وطاعة رسوله وقيل إنهم قالوا هل يكون هذا غزوا فأعطاهم الله ثواب الغزو ورضى عنهم بمجرد خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (والله ذو فضل عظيم) يعنى أنه تعالى تفضل عليهم بالتوفيق لما فعلوا وقيل تفضل عليهم بالقاء الرعب فى قلوب المشركين حتى رجعوا قوله عز وجل (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) يعنى إنما ذلكم المخوف والمثبط هو الشيطان يخوف بالوسوسة بأن ألقى ذلك فى أفواههم ليرهبوا المؤمنين ويخوفوهم ويجبنوهم وقوله أولياءه يعنى الشيطان يخوفكم يامعشر المؤمنين بأوليائه وقيل معناه يعظم أولياءه فى صدوركم لتخافوهم وقيل معناه يخوف أولياءه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين وأولياء الشيطان هم الكفار والمنافقون الذين يطيعونه ويؤثرون أمره وأولياء الله هم المؤمنون الذين لا يخافون الشيطان إذا خوفهم ولا يطيعونه إذا أمرهم (فلا تخافوهم) يعنى فلا تخافوا أولياء الشيطان ولا تقعدوا عن قتالهم ولا تجبنوا عنهم (وخافون) أى فجاهدوا فى سبيلى مع رسولى فانى وليكم وناصركم (إن كنتم مؤمنين) أى مصدقين بوعدى إنى متكفل لكم بالنصر والظفر. قوله تعالى (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) قيل هم كفار قريش وقيل هم المنافقون ورؤساء اليهود وقيل هم قوم ارتدوا عن الإسلام والمعنى ولا يحزنك يا محمد من يسارع فى الكفر ويجمع الجموع لمحاربتك فان هذا المقصود لا يحصل لهم وقيل مسارعتهم فى الكفر مظاهرتهم الكفار على النبى صلى الله عليه وسلم والمعنى يسارعون فى نصرة الكفر فلا يحزنك فعلهم فانك منصور

فى صدورهم ليخافوهم يدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود يخوفكم أولياءه (فلا تخافوهم وخافون) فى ترك أمرى (إن كنتم مؤمنين) مصدقين بوعدى لأنى متكفل لكم بالنصر والظفر. قوله عز وجل (ولا يحزنك) قرأ نافع يحزنك بضم الياء وكسر الزاى وكذلك فى جميع القرآن إلا قوله لا يحزنهم الفزع الأكبر ضده أبو جعفر وهما لغتان: حزن يحزن وأحزن يحزن إلا أن اللغة الغالبة حزن يحزن (الذين يسارعون فى الكفر) قال الضحاك هم كفار قريش، وقال غيره

هم المنافقون يسارعون فى الكفر بمظاهرة الكفار (أنهم لن يضروا الله شيئا) بمسارعتهم فى الكفر (يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة) نصيبا فى ثواب الآخرة فلذلك خذلهم حتى سارعوا فى الكفر (ولهم عذاب عظيم إن الذين اشتروا) استبدلوا (الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا) بمسارعتهم فى الكفر . وإنما يضرون أنفسهم (ولهم عذاب أليم ولا يحسبن الذين كفروا) قرأ حمزة هذا والذى بعده بالتاء فيهما وقرأ الآخرون بالياء فمن قرأ بالياء فالذين فى محل الرفع على الفاعل

منصور عليهم (إنهم لن يضروا الله شيئا) يعنى بمسارعتهم فى الكفر إنما يضرون أنفسهم بذلك وقيل معناه لن يضروا أولياء الله شيئا (يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة) يعنى لا يجعل لهم نصيبا فى ثواب الآخرة فلذلك خذلهم حتى سارعوا فى الكفر وفى الآية دليل على أن الخير والشر بارادة الله تعالى وفيه رد على القدرية والمعتزلة (ولهم عذاب عظيم) يعنى فى الآخرة (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان) يعنى المنافقين آمنوا ثم كفروا والمعنى أنهم استبدلوا الكفر بالإيمان فكأنهم أعطوا الإيمان وأخذوا الكفر كما يفعل المشترى من إعطاء شئ وأخذ غيره بدلا عنه (لن يضروا الله شيئا) يعنى باستبدالهم الكفر بالإيمان وإنما ضروا أنفسهم بذلك (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة . قوله عز وجل (ولا تحسبن الذين كفروا) قرئ تحسبن بالتاء والياء فمن قرأ بالتاء فمعناه ولا تحسبن يامحمد إملاءنا للكفار خير لأنفسهم ومن قرأ بالياء قال معناه ولا يحسبن الكفار إملاءنا لهم خيرا نزلت فى مشركى مكة وقيل نزلت فى يهود بنى قريظة والنضير (إنما نملى لهم) الإملاء الإمهال والتأخير وأصله من الملوة وهى المدة من الزمان والمعنى ولا يظنن الذين كفروا إن إمهالنا إياهم بطول العمر والإنساء في الأجل (خير لأنفسهم) ثم قال تعالى (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) يعنى إنما نمهلهم ونؤخر فى آجالهم ليزدادوا إثما (ولهم عذاب مهين) يعنى فى الآخرة روي البغوى بسنده عن عبدالرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قيل فأى الناس شر قال من طال عمره وساء عمله وروى ابن جرير الطبرى بسنده عن الأسود قال : قال عبدالله مامن نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها وقرأ « ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خيرا لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » وقرأ نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار وقال ابن الأنبارى قال جماعة من أهل العلم أنزل الله عزوجل هذه الآية فى قوم يعاندون الحق سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون فقال إنما نملى لهم ليزدادوا إثما بمعاندتهم الحق وخلافهم الرسول وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأيت الله يعطى على المعاصى فان ذلك استدراج من الله لخلقه ثم تلا هذه الآية وقال الزجاج هؤلاء قوم أعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم لا يؤمنون أبدا وأن نفاقهم يزيدهم كفرا وإثما وهذه الآية حجة ظاهرة على القدرية حيث أخبر الله تعالى أنه يطيل أعمار قوم ويمهلهم ليزدادوا كفرا وإثما وغيا. قوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) اختلف العلماء فى سبب نزول هذه الآية فقال الكلبي قالت قريش يامحمد تزعم أن من خالفك فهو فى النار والله عليه غضبان وإن من أطاعك وتبعك على دينك فهو فى الجنة والله عنه راض فأخبرنا بمن يؤمن بك ومن لا يؤمن بك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال السدى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عرضت على أمتى فى الطين فى صورها كما عرضت على آدم وأعلمت من يؤمن بى

تقديره ولا يحسبن الكفار إملاءنا لهم خيرا ومن قرأ بالتاء يعنى ولا تحسبن يامحمد الذين كفروا وإنما نصب على البدل من الذين ٣ (إنما نملي لهم خيرا لأنفسهم) والإملاء الإمهال والتأخير يقال عشت طويلا وتمليت حينا ومنه قوله تعالى واهجرنى مليا أى حينا طويلا ، ثم ابتدأ فقال (إنما نملي لهم) نمهلهم (ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) قال مقاتل نزلت فى مشركى مكة ، وقال عطاء فى قريظة والنضير أخبرنا عبد الرحمن ابن عبد الله القفال أنا أبو منصور أحمد ابن الفضل البروجردى أنا أبو أحمد بكر بن محمد ابن حمدان الصيرفى أنا محمد بن يونس أنا أبو داود الطيالسى أنا شعبة عن علي بن زيد عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قيل فأى الناس شر قال من طال عمره وساء عمله » قوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) اختلفوا فيها فقال الكلبى قالت قريش يامحمد تزعم أن من خالفك فهو فى النار والله عليه غضبان وأن من اتبعك على دينك فهو فى الجنة والله عنه راض فأخبرنا بمن يؤمن بك وبمن لا يؤمن بك فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال السدى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضت على

أمتى فى صورها فى الطين كما عرضت على آدم وأعلمت من يؤمن بى ومن يكفر بى فبلغ ذلك المنافقين فقالوا استهزاء زعم محمد أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد ونحن معه وما يعرفنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال مابال أقوام طعنوا فى علمى لاتسألونى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة إلا أنبأتكم به فقام عبد الله ابن حذافة السهمى فقال من أبى يارسول الله قال حذافة فقام عمر فقال يارسول الله رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبك نبيا فاعف عنا عفا الله عنك (٤٥٦) فقال النبى صلى الله عليه وسلم فهل أنتم منتهون ثم نزل عن المنبر فأنزل الله تعالى هذه الآية واختلفوا فى حكم الآية ونظمها فقال ابن عباس رضى الله عنهما والضحاك ومقاتل والكلبى وأكثر المفسرين الخطاب للكفار والمنافقين يعنى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه يامعشر الكفار والمنافقين من الكفر والنفاق حتى يميز الخبيث من الطيب وقال قوم الخطاب للمؤمنين الذين أخبر عنهم معناه ما كان الله ليذركم يامعشر المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق فرجع من الخبر إلى الخطاب حتى يميز الخبيث وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب بضم الياء وتشديدها وكذلك التى فى الأنفال وقرأ الباقون بالتخفيف يقال ماز الشىء يميزه ميزا وميزه تمييزا إذا فرقه فامتاز وانماز هو بنفسه قال أبو معاذ إذا فرقت بين شيئين قلت مزت ميزا فاذا كانت أشياء قلت ميزتها تمييزا وكذلك إذا جعلت الشىء الواحد شيئين قلت فرقت بالتخفيف ومنه فرقت الشعر فان جعلته أشياء قلت فرقته تفريقا ومعنى الآية حتى يميز المنافق من المخلص فميز الله المؤمنين من المنافقين يوم أحد حيث أظهروا النفاق فتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قتادة حتى يميز الكافر من المؤمن بالهجرة والجهاد وقال الضحاك ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه فى أصلاب الرجال وأرحام النساء يامعشر المنافقين والمشركين حتى يفرق بينكم وبين من فى أصلابكم وأرحام نسائكم من المؤمنين وقيل حتى يميز الخبيث وهو المذنب من الطيب وهو المؤمن يعنى حتى تحط الأوزار عن المؤمن بما يصيبه من نكبة ومحنة ومصيبة (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) لأنه لايعلم

ومن يكفر» بى فبلغ ذلك المنافقين فقالوا استهزاء زعم محمدا أنه يعلم من يؤمن به ومن يكفر ممن لم يخلق بعد ونحن معه وما يعرفنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام على المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال مابال أقوام طعنوا فى علمى لا تسألونى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة إلا نبأتكم به فقام عبد الله بن حذافة السهمى فقال من أبى يارسول الله فقال حذافة فقام عمر فقال يارسول الله رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبك نبيا فاعف عنا عفا الله عنك فقال النبى صلى الله عليه وسلم فهل أنتم منتهون فهل أنتم منتهون ثم نزل عن المنبر فأنزل الله هذه الآية وقيل إن المؤمنين سألوا أن يعطوا آية يفرقون بها بين المؤمن والكافر فنزلت هذه الآية وقيل إن قوما من المنافقين ادعوا أن إيمانهم كإيمان المؤمنين فأظهر الله نفاقهم يوم أحد وأنزل هذه الآية واختلفوا فى معنى الآية وحكمها فقال ابن عباس وأكثر المفسرين الخطاب للكفار والمنافقين والمعنى ما كان ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه يامعشر الكفار والمنافقين من الكفر والنفاق حتى يميز الخبيث من الطيب وقيل الخطاب للمؤمنين والمعنى ما كان الله ليذركم يامعشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق والتباس بعضهم ببعض حتى يميز الخبيث من الطيب يعنى المنافق من المؤمن الخالص فيميز الله المؤمنين من المنافقين يوم أحد فأظهر المنافقون النفاق وتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل إنما حصل التمييز يوم أحد بالقاء الجميع فى الخوف والقتل والهزيمة فمن كان مؤمنا ثبت على إيمانه وتصديقه ولم يتزلزل ومن كان منافقا ظهر نفاقه وكفره وقيل فى معنى الآية حتى يميز المؤمن من المنافق والكافر بالجهاد والهجرة وقيل فى معنى الآية ما كان الله ليذر المؤمنين فى أصلاب الرجال المشركين وأرحام النساء المشركات والمعنى ما كان الله ليدع أولادكم الذين جرى لهم الحكم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك حتى يميز الخبيث من الطيب يعنى يفرق بينكم وبين من فى أصلابكم وأرحام نسائكم من المؤمنين فيحكم لأهل الإيمان بالجنة ولأهل الشرك والكفر والنفاق بالنار (وما كان الله ليطلعكم على الغيب) الخطاب فى قوله ليطلعكم لكفار قريش الذين قالوا يامحمد أخبرنا عمن يؤمن بك ومن لايؤمن والمعنى وما كان الله ليبين لكم أيها الكفار المؤمن من الكافر فيقول فلان مؤمن وفلان كافر أو منافق لأنه لايعلم الغيب أحد غيره وإن سنة الله جارية أنه لايطلع على غيبه أحاد الناس فلا سبيل إلى معرفة المؤمن من الكافر والمنافق إلا بالامتحان بالآفات والمصائب فيتميز المؤمن المخلص بثباته على إيمانه ويتزلزل المنافق عن المحن والبلايا وقيل فى معنى الآية وما كان الله ليطلع

محمدا

الغيب أحد غير الله (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) فيطلعه على بعض علم الغيب نظيره قوله تعالى «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول» وقال السدي معناه وما كان الله ليطلع محمدا صلى الله عليه وسلم على الغيب ولكن الله اجتباه (فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم (٤٥٧) ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) أي ولا يحسبن الباخلون البخل خيرا لهم (بل هو) يعني البخل (شر لهم سيطوقون) أي سوف يطوقون (ما بخلوا به يوم القيامة) يعني يجعل ما منعه من الزكاة حية تطوق في عنقه يوم القيامة تنهشه من فرقه إلى قدمه هذا قول ابن مسعود وابن عباس وأبي وائل والشعبي والسدي أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا علي بن عبد الله المديني أنا هاشم بن قاسم أخبرنا عبد الرحمن بن دينار عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ولا يحسبن الذين يبخلون» الآية أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن حفص بن غياث أنا أبي أنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال انتهيت إليه يعني النبي صلى الله عليه وسلم فقال «والذي نفسي بيده أو والذي لا إله غيره

محمدا على الغيب فيخبركم بالمؤمن من الكافر (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) يعني ولكن الله يصطفي ويختار من رسله من يشاء فيطلعه على ما يشاء من غيبه (فآمنوا بالله ورسله) يعني أنه لما قالت الدلائل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يبق إلا الإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وإنما قال ورسله على الجمع ولم يقل ورسوله على التوحيد لقوله ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ولأنه إذا أقر بجميع الرسل كان مقرا بأحدهم وهذه صفة المؤمنين لأنهم آمنوا بجميع الرسل (وإن تؤمنوا وتتقوا) يعني وأن تصدقوا من أجتبيته برسالتي وأطلعته على ما أشاء من غيبي وأعلمته بالمنافق منكم والمؤمن المخلص وتتقوا ربكم فيما أمركم به ونهاكم عنه (فلكم أجر عظيم) يعني فلكم بإيمانكم واتقائكم ثواب جزيل وهو الجنة. قوله عز وجل (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم) يعني ولا يحسبن الذين يبخلون البخل خيرا لهم (بل هو) يعني البخل (شر لهم) والبخل هو إمساك المقتنيات عما لا يستحق حبسها عنه والبخيل هو الذي يكثر منه البخل والآية دالة على ذم البخل عن عبد الله بن عمر قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا أخرجه أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية فقال عبد الله بن مسعود وأبو هريرة وابن عباس في رواية أبي صالح عنه والشعبي ومجاهد نزلت هذه الآية في الذين يبخلون أن يؤدوا زكاة أموالهم ووجه هذا القول أن أكثر العلماء ذهبوا إلى أن البخل عبارة عن منع الواجب وأن من منع التطوع لا يكون بخيلا ويدل عليه الوعيد الشديد في سياق الآية وهو قوله تعالى سيطوقون ما بخلوا به وهذا لا يكون إلا في ترك الواجب لا في التطوع وقال ابن عباس في رواية عطية عنه وابن جريج عن مجاهد أنها نزلت في أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وهذا القول هو اختيار الزجاج ووجه هذا القول أن البخل عبارة عن منع الخير والنفع ويدخل فيه العلم كما يقال بخل فلان بعلمه وصحح الطبري القول الأول واختاره وقوله (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) أي سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق فإن حملنا معنى الآية على منع الزكاة والبخل بها فقد قال ابن مسعود وابن عباس يجعل ما منعه من الزكاة حية تطوق في عنقه يوم القيامة تنهشه من فرقه إلى قدمه ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله» الآية أخرجه البخاري قوله زبيبتان قيل هما النكتتان السوداوان فوق عيني الحية وقيل هما نقطتان يكتنفان فاها وقيل هما زبيبتان في شدقيها وقد جاء في الحديث تفسير لهزمتيه بأنهما شدقاه وقيل إنهما مضغتان

او كما حلف ما من رجل يكون له إبل أو بقر أو غنم لايؤدى حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم مايكون وأسمنه تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جاوزت أخراها ردت عليها أولاها حتى يقضى بين الناس»قال إبراهيم النخعى معنى الآية يجعل يوم القيامة في أعناقهم طوق من النار (٤٥٨) قال مجاهد يكلفون يوم القيامة أن يأتوا. بما بخلوا به فى الدنيا من أموالهم وروى عطية عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أحبار اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وأراد بالبخل كتمان العلم كما قال في سورة النساء «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ماآتاهم الله من فضله» ومعنى قوله سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة أى يحملون وزره وإثمه كقوله تعالى يحملون أوزارهم على ظهورهم (ولله ميراث السموات والأرض) يعنى أنه الباقى الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون ويرثهم نظيره قوله تعالى «إنا نحن نرث الأرض ومن عليها» (والله بما تعملون خبير) قرأ أهل البصرة ومكة بالياء وقرأ الآخرون بالتاء قوله تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) قال الحسن ومجاهد لما نزلت من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قالت اليهود إن الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء وذكر الحسن أن قائل هذا الكلام حيى بن أخطب وقال عكرمة والسدى ومقاتل ومحمد بن إسحاق كتب النبى صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا وبنا

فى أصل الحنك وقيل هما منحنى اللحيين أسفل من الأذنين وكله متقارب (ق) عن أبى ذر قال انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما رآنى قال هم الأخسرون ورب الكعبة قال فجئت حتى جلست فلم أتقار أن قمت فقلت يارسول الله فداك أبى وأمى من هم؟ قال هم الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ماهم مامن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لايؤدى زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفذت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس لفظ مسلم وفرقه البخارى بمعناه فى موضعين وقيل فى معنى الآية أنه يجعل فى أعناقهم أطواق من النار وقيل يكلفون يوم القيامة أن يأتوا بما بخلوا به من أموالهم فى الدنيا وإن حملنا تفسير البخل على البخل بالعلم وكتمانه فقد قال ابن عباس فى قوله سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة أى يحملون وزره وإثمه فيكون على طريق التمثيل كما يقال قلدتك هذا الأمر وجعلته فى عنقك وقيل يجعل فى رقابهم طوق من نار ويدل عليه ماروى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل علما يعلمه فكتمه ألجم بلجام من نار أخرجه الترمذى وفى رواية أبى داود من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة قيل فى معنى الحديث إنهم لما سألوا عن العلم فكتموه ولم ينطقوا به بألسنتهم ولم يخرجوه من أفواههم عوضوا عن ذلك بلجام من نار فى أفواههم عقوبة لهم والله أعلم. قوله تعالى (ولله ميراث السموات والأرض) يعنى أنه سبحانه وتعالى الباقى الدائم بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم فيموتون وتبقى أملاكهم فيرثها سبحانه والمقصود من الآية أنه يبطل ملك جميع المالكين ويبقى الملك لله تعالي وقيل فى معنى الآية وله مافيهما مما يتوارثه أهلهما من مال وعلم وغير ذلك فما لهؤلاء البخلاء يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه فى سبيله (والله بما يعملون خبير) قرىء يعملون بالياء على الغيبة على طريقة الالتفات وهى أبلغ فى الوعيد والمعنى والله بما يعملون يعنى البخلاء من منعهم الحقوق خبير فيجازيهم عليه وقرىء بالتاء على خطاب الحاضرين قوله عز وجل (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) قال الحسن وقتادة لما نزلت هذه الآية من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قالت اليهود إن الله فقير يستقرض منا ونحن أغنياء وذكر الحسن أن القائل هذه المقالة هو حيى بن أخطب وقال عكرمة والسدى ومقاتل ومحمد بن إسحاق كتب النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإلى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدراسهم فوجد ناسا كثيرا قد اجتمعوا على فنحاص بن عازوراء وكان من علمائهم ومعه حبر آخر يقال له أسيبع فقال أبو بكر لفنحاص اتق الله وأسلم فو الله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة فآمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب فقال فنحاص ياأبا بكر تزعم أن

فدخل أبو بكر رضى الله عنه ذات يوم بيت مدراسهم فوجد ناسا كثيرا من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ابن عازوراء وكان من علمائهم ومعه حبر آخر يقال له أسبيع فقال أبو بكر لفنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة فآمن وصدق وأقرض الله قرضا حسنا يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب فقال فنحاص ياأبا بكر تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغنى فان كان ماتقول حقا فان الله إذ الفقير ونحن أغنياء وأنه ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنيا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر رضى الله عنه وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك ياعدو الله فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يامحمد انظر ماصنع بى صاحبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه ماحملك على ماصنعت فقال يارسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء فغضبت لله فضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله تعالى تكذيبا وردا على فنحاص وتصديقا لأبى بكر رضى الله عنه لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء (سنكتب ماقالوا) من الإفك والفرية على الله فنجازيهم به ، وقال مقاتل سنحفظ عليهم وقال الواقدى سنأمر الحفظة بالكتابة نظيره قوله تعالى وإنا له كاتبون (وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) قرأ حمزة سيكتب بضم الياء وقتلهم برفع اللام ويقول بالياء وذوقوا عذاب الحريق أى النار وهو بمعنى المحرق كما يقال لهم عذاب أليم أى مؤلم (ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) فيعذب بغير ذنب قوله تعالى (الذين قالوا إن الله عهد إلينا) الآية قال الكلبى نزلت فى كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص

ربنا يستقرض أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغنى فان كان ماتقول حقا فان الله إذا فقير ونحن أغنياء فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت عنقك ياعدو الله فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يامحمد انظر ماصنع بى صاحبك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر ماحملك على ماصنعت فقال يارسول الله إن هذا عدو الله قال قولا عظيما زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء فغضبت لله وضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص فأنزل الله تصديقا لأبى بكر وتكذيبا لفنحاص وردا عليهم «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء» وهذه المقالة وإن كانت قد صدرت من واحد من اليهود لكنهم يرضون بمقالته هذه فنسبت إلى جميعهم ولا يخلوا أن يكونوا قالوا هذه المقالة عن اعتقاد لذلك القول أو قالوها استهزاء وأيهما كان فهذه المقالة عظيمة القبح لاتصدر عن عاقل وإنما صدرت عن كافر متمرد فى كفره وضلاله (سنكتب ماقالوا) يعنى قولهم إن الله فقير ونحن أغنياء لأن ذلك كذب وافتراء والمعنى سنحفظ عليهم ماقالوا وقيل سنثبت ذلك القول فى صحائف أعمالهم التى تكتبها الحفظة عليهم حتى يوافوا بها يوم القيامة فهو وعيد وتهديد لهم (وقتلهم الأنبياء بغير حق) قيل معناه سنكتب ماقال هؤلاء اليهود ونكتب مافعله أسلافهم فنجازى كلا الفريقين بما هو أهله وإنما نسب قتل الأنبياء إلى اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وإنما فعله أسلافهم وأوائلهم لأنهم رضوا بفعلهم فنسب إليهم وقيل فى معنى الآية سنكتب على هؤلاء ماقالوا بأنفسهم ونكتب عليهم أيضا رضاهم بقتل آبائهم الأنبياء والفائدة فى ضم قتلهم الأنبياء إلى ماوصفوا الله تعالى بالفقر الإعلام بذلك أنهما أخوان فى العظم وأن هذا القول منهم ليس بأول ماارتكبوه من العظائم وأنهم أصلاء فى الكفر والجهل والضلال ولهم فى ذلك سوابق وأن من قتل الأنبياء لايبعد منه الاجتراء على مثل هذا القول العظيم الفحش والقبح (ونقول) يعنى لهؤلاء الذين قالوا هذه المقالة (ذوقوا عذاب الحريق) أى ننتقم منهم بأن نقول لهم يوم القيامة ذوقوا عذاب الحريق كما أذقتم المسلمين الغصص فى الدنيا (ذلك) أى ذلك العذاب المحرق جزاء فعلكم حيث وصفتم الله بالفقر وأقدمتم على قتل الأنبياء (بما قدمت أيديكم) إنما ذكر الأيدى على سبيل المجاز لأن الفاعل هو الإنسان لااليد إلا أن اليد لما كانت آلة الفعل حسن إسناد الفعل إليها ولأن أكثر الأعمال يكون باليد فجعل كل عمل كالواقع بالأيدى على سبيل التغليب (وأن الله ليس بظلام للعبيد) فيعذب بغير ذنب بل هو سبحانه وتعالى عادل ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثبت المحسن . قوله عز وجل (الذين قالوا إن الله عهد إلينا) قال الكلبى نزلت فى كعب بن الأشرف

ابن عازوراء وحيي بن أخطب أتوا النبي ﷺ فقال يامحمد تزعم أن الله تعالى بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك الكتاب وأن الله تعالى قد عهد إلينا في التوراة (أن لانؤمن لرسول) يزعم أنه من عند الله (حتى يأتينا بقربان تأكله النار) فان جئتنا به صدقناك فأنزل الله تعالى «الذين قالوا» أي سمع الله قول الذين قالوا ومحل الذين خفض ردا على الذين الأول «إن الله عهد إلينا» أي أمرنا وأوصانا في كتبه أن لانؤمن برسول» أي لانصدق رسولا يزعم أنه جاء من عند الله «حتى يأتينا بقربان تأكله النار» فيكون دليلا على صدقه والقربان كل مايتقرب به العبد إلى الله تعالى من نسيكة وصدقة وعمل صالح وهو فعلان من القربة وكانت القرابين والغنائم لاتحل لبني إسرائيل وكانوا إذا قربوا قربانا أو غنموا غنيمة جاءت نار بيضاء من السماء لادخان لها ولها دوي وحفيف فتأكل وتحرق ذلك القربان وتلك الغنيمة فيكون ذلك علامة القبول وإذا لم يقبل بقيت على حالها وقال السدي إن الله تعالى أمر بني إسرائيل من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد فاذا أتياكم فآمنوا بهما فانهما يأتيان بغير قربان قال الله تعالى إقامة للحجة عليهم (قل) يامحمد (قد جاءكم) يامعشر اليهود (رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم) من القربان (فلم قتلتموهم) يعني زكريا ويحيي وسائر من قتلوا من الأنبياء وأراد بذلك زبور
أسلافهم فخاطبهم بذلك لأنهم رضوا بفعل أسلافهم (إن كنتم صادقين) معناه تكذيبهم إياك مع علمهم بصدقك كقتل آبائهم الأنبياء مع الإتيان بالقربان والمعجزات ثم قال معزيا لنبيه ﷺ (فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر) قرأ ابن عامر

ومالك بن صيفي ووهب بن يهوذا وزيد ابن تابوت وفنحاص بن عازوراء وحيي بن أخطب من اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا يامحمد تزعم أن الله بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك كتابا وإن الله عهد إلينا في التوراة أن لانؤمن لرسول يزعم أنه جاء من عندالله حتى يأتينا بقربان تأكله النار فان جئتنا به صدقناك فأنزل الله تعالى الذين قالوا يعني قد سمع الله قول الذين أن الله عهد إلينا يعني أمرنا وأوصانا في كتبه (أن لانؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) يعني فيكون ذلك دليلا على صدقه وذكر الواحدي عن السدي أنه قال إن الله تعالى أمر بني إسرائيل في التوراة من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار حتى يأتيكم المسيح ومحمد فاذا أتياكم فآمنوا بهما فانهما يأتيان بغير قربان زاد غير الواحدي عنه قال وكانت هذه العادة باقية فيهم إلى مبعث المسيح عليه السلام ثم ارتفعت وزالت وقيل إن ادعاء هذا الشرط كذب على التوراة وهو من كذب اليهود وتحريفهم ويدل على ذلك أن المقصود في الدلالة على صدق النبي هو ظهور المعجزة الخارقة للعادة فأي معجزة أتى بها النبي قبلت منه وكانت دليلا على صدقه وقد أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه فوجب على كافة الخلق اتباعه وتصديقه والقربان كل مايتقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البر من نسك وصدقة وذبح وكل عمل صالح ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم الصوم جنة والصلاة قربان يعني أنها مما يتقرب بها إلى الله عز وجل وكانت القرابين والغنائم لاتحل لبني إسرائيل وكانوا إذا قربوا قربانا أو غنموا غنيمة جمعوا ذلك وجاءت نار بيضاء من السماء لادخان لها ولها دوي وحفيف فتأكل ذلك القربان أو الغنيمة وتحرقه فيكون ذلك دليلا وعلامة على القبول وإذا لم يقبل بقي على حاله ولم تنزل نار وقال عطاء كانت بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون الثروب وأطايب اللحم فيضعونها في وسط بيت والسقف مكشوف فيقوم نبيهم عليه السلام في البيت ويناجي ربه عز وجل وبنو إسرائيل خارجون حول البيت فتنزل نار بيضاء لها دوي حفيف ولادخان لها فتأكل ذلك القربان ثم قال الله عز وجل مجيبا عن هذه الشبهة التي ذكرها هؤلاء اليهود وإقامة للحجة عليهم (قل) يعني قل يامحمد لهؤلاء اليهود (قد جاءكم) يامعشر اليهود (رسل من قبلي) يعني مثل زكريا ويحيي وعيسى عليهم السلام (بالبينات) يعني بالدلالات الواضحات الدالة على صدقهم (وبالذي قلتم) يعني ماطلبوا من القربان (فلم قتلتموهم) يعني فلم قتلتم الأنبياء الذين أوتوا بما طلبتم منهم مثل زكريا ويحيي وسائر من قتلوا من الأنبياء وأراد بذلك فعل أسلافهم وإنما خاطب بذلك اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا راضين بفعل أسلافهم (إن كنتم صادقين) يعني في دعواكم ومعناه تكذيبهم إياك يامحمد مع علمهم بصدقك كقتل آبائهم الأنبياء مع إتيانهم بالقربان ثم قال تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم (فان كذبوك) يعني هؤلاء اليهود (فقد كذب رسل من قبلك) يعني مثل نوح وهود وصالح وإبراهيم وغيرهم من الرسل (جاءوا بالبينات) يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات (والزبر) أي الكتب واحدها زبور وكل كتاب فيه حكمة فهو

وبالزبر أى بالكتب المزبورة يعنى المكتوبة واحدها زبور مثل رسول ورسل (والكتاب المنير) الواضح المضيء * قوله عز وجل (كل نفس) منفوسة (ذائقة الموت) وفى الحديث لما خلق الله تعالى آدم اشتكت الأرض إلى ربها لما أخذ منها فوعدها أن يرد فيها ما أخذ منها فما من أحد إلا ويدفن فى التربة التى خلق منها (وإنما توفون أجوركم) توفون جزاء أعمالكم (يوم القيامة) إن خيرا فخير وإن شرا فشر (فمن زحزح) نحى وأزيل (عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ظفر بالنجاة ونجا من الخوف (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) يعنى منفعة ومتعة كالفأس والقدر والقصعة ثم يزول ولا يبقى وقال الحسن كخضرة النبات ولعب البنات لاحاصل له قال قتادة هى متاع متروكة يوشك أن تضمحل بأهلها فخذوا من هذا المتاع بطاعة الله ما استطعتم والغرور الباطل أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيرى أنا حاجب ابن أحمد الطوسى أخبرنا محمد بن إسماعيل بن يحيى أخبرنا يزيد ابن هارون أخبرنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى «أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» واقرءوا إن شئتم «فلاتعلم نفس ماأخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» وأن في الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها، واقرءوا «إن شئتم» وظل ممدود ولموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما عليها «واقرءوا إن شئتم «فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم) الآية قال عكرمة ومقاتل والكلبي وابن جريج

زبور وأصله من الزبر وهو الزجر وسمى الكتاب الذى فيه الحكمة زبورا لأنه يزبر عن الباطل ويدعو إلى الحق (والكتاب المنير) أى الواضح المضيء وإنما عطف الكتاب المنير على الزبر لشرفه وفضله وقيل أراد بالزبر الصحف وبالكتاب المنير التوراة والإنجيل . قوله عز وجل (كل نفس ذائقة الموت) يعنى أن كل نفس مخلوقة ذائقة الموت ولا بد لها منه قيل لما نزل قل يتوفاكم ملك الموت قالوا يارسول الله إنما نزلت فى بنى آدم فأين ذكر الموت للجن والأنعام والوحوش والطير فنزلت هذه الآية وقيل لما خلق الله آدم عليه السلام اشتكت الأرض إلى ربها عز وجل مما أخذ منها فوعدها أن يرد فيها ما أخذ منها فما أحد يموت إلا ويدفن فى التربة التى خلق منها . فان قلت الحور والولدان نفوس مخلوقة فى الجنة لاتذوق الموت فما حكم لفظ كل فى قوله كل نفس ذائقة الموت ؟ قلت لفظة كل لاتقتضى الشمول والإحاطة بدليل قوله تعالى وأوتيت من كل شيء ولم تؤت ملك سليمان فتكون الآية من العام المخصوص ويحتمل أن يكون المراد بهم المكلفين بدليل سياق الآية وهو قوله تعالى (وإنما توفون أجوركم) يعنى توفون جزاء أعمالكم (يوم القيامة) إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) يعنى فمن نجا وأبعد من النار وأدخل الجنة فقد ظفر بالنجاة ونجا من الخوف (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) يعنى أن العيش فى هذه الدار الفانية يغر الإنسان بما يمنيه من طول البقاء وسينقطع عن قريب فوصفت بأنها متاع الغرور لأنها تغر ببذل المحبوب وتخيل للانسان أنه يدوم وليس بدائم والمتاع كل ما استمتع به الإنسان من مال وغيره وقيل المتاع كالفارس والقدر والقصعة ونحوها والغرور مايغر الإنسان مما لايدوم وقيل الغرور الباطل ومعنى الآية أن منفعة الإنسان بالدنيا كمنفعته بهذه الأشياء التى يستمتع بها ثم تزول عن قريب وقيل متاع متروك يوشك أن يضمحل ويزول فخذوا من هذا المتاع واعملوا فيه بطاعة الله ما استطعتم قال سعيد بن جبير هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة فأما من اشتغل بطلب الآخرة فهى له متاع وبلاغ إلى ما هو خير منها (ق) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » واقرؤا إن شئتم فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين زاد الترمذى « وفى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها » واقرؤا إن شئتم «وظل ممدود ولموضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » واقرؤا إن شئتم «فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» . قوله عز وجل (لتبلون) اللام لام القسم تقديره والله لتبلون أى لتختبرن فتوقع عليكم المحن ليعلم المؤمن من غيره والاختبار طلب المعرفة ليعرف الجيد من الردىء وذلك فى وصف الله محال لأن الله تعالى عالم بحقائق الأشياء كلها قبل أن يخلقها فعلى هذا يكون معنى الاختبار فى وصف الله تعالى أنه يعامل العبد معاملة المختبر (فى أموالكم) يعنى بالابتلاء فى الأموال بالنقصان منها وقيل بأداء ما فرض فيها من الحقوق (وأنفسكم) يعنى بالمصائب والأمراض والقتل وفقد الأقارب والعشائر

نزلت في الآية فى أبى بكر وفنحاص ابن عازوراء وذلك أن النبي ﷺ بعث أبا بكر إلى فنحاص بن عازوراء سيد بنى قينقاع ليستمده وكتب إليه كتابا وقال لأبى بكر رضى الله عنه لاتفتاتن على بشىء حتى ترجع فجاء أبوبكر رضى الله عنه وهو متوشح بالسيف فأعطاه الكتاب فلما قرأه قال قد احتاج ربك إلى أن نمده فهم أبو بكر رضى الله عنه أن يضربه بالسيف ثم ذكر قول النبي ﷺ لاتفتاتن علي بشىء حتى ترجع فكف فنزلت هذه الآية وقال الزهرى نزلت فى كعب بن الأشرف فانه كان يهجو رسول الله ﷺ ويسب المسلمين ويحرض المشركين على النبي ﷺ وأصحابه فى شعره ويسب نساء المسلمين فقال النبي ﷺ من لى بابن الأشرف فانه قد آذى الله ورسوله فقال محمد بن مسلمة الأنصارى أنا لك يارسول الله أنا أقتله قال فافعل إن قدرت على ذلك فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لايطعم ولا يشرب إلا ماتعلق به نفسه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه وقال له لم تركت الطعام والشراب قال يارسول الله قلت قولا ولا أدرى هل أفى به أم لا فقال إنما عليك الجهد فقال يارسول الله إنه لابد لنا من أن نقول فيك قال قولوا مابدا لكم وأنتم فى حل من ذلك فاجتمع فى قتله محمد بن سلمة وسلكان بن سلام وأبو نائلة وكان أخا كعب من الرضاعة وعباد بن بشر والحارس بن أوس وأبو عيس بن جبير فمشى معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك فى ليلة مقمرة فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه فقدموا أبا نائلة فجاءه فتحدث معه ساعة وتناشد الشعر وكان أبو نائلة يقول الشعر ثم قال ويحك ياابن الأشرف إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم على قال افعل قال كان قدوم هذا الرجل بلادنا بلاء عادتنا العرب ورمونا عن قوس واحدة وانقطعت عنا السبل حتى ضاعت العيال وجهدت الأنفس فقال كعب أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرتك ياابن سلامة أن الأمر سيصير إلى هذا فقال أبو نائلة أن معى أصحابا أردنا أن تبيعنا طعامك ونرهنك ونوثق لك وتحسن فى ذلك قال أترهنونى أبناءكم قال إنا نستحى أن يعير أبناؤنا فيقال هذا رهينة وسق وهذا رهينة وسقين قال ترهنونى نساءكم قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ولا نأمنك وأية امرأة تمنع منك لجمالك ولكنا نرهنك الحلقة يعنى السلاح وقد علمت حاجتنا إلى السلاح قال نعم وأراد أبو نائلة أن لاينكر السلاح إذا رآه فوعده أن يأتيه فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم خبره فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه ليلا فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب من ملحفته فقالت امرأته أسمع صوتا يقطر منه الدم وأنك رجل محارب وأن صاحب الحرب لاينزل فى مثل هذه الساعة فكلمهم من فوق الحصن فقال إنما هو أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة وأن هؤلاء لو وجدونى نائما ما أيقظونى وأن الكريم إذا دعى إلى طعنة بليل أجاب فنزل إليهم فتحدثوا معه ساعة ثم قالوا ياابن الأشرف هل لك إلى أن تتماشى إلى شعب العجوز نتحدث فيه بقية ليلتنا هذه قال إن شئتم فخرجوا يتماشون وكان أبو نائلة قال لأصحابه إنى نائل شعره فأشمه ، فاذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه ثم إنه شام يده فى فود رأسه ثم شم يده فقال مارأيت كالليلة طيب عروس قط قال إنه طيب أم فلان يعنى امرأته ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم مشى ساعة فعاد لمثلها ثم أخذ بفود رأسه حتى استمكن ثم قال اضربوا عدو الله فاختلف عليه أسيافهم فلم تغن شيئا قال محمد بن مسلمة فذكرت مغولا فى سيفى فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار قال فوضعته فى ثندوته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ووقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح فى رأسه أصابه بعض أسيافنا قال فخرجنا وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس بجرح فى رأسه ونزفه الدم ثم فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه فجئنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلى فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل كعب وجئنا برأسه إليه وتفل على جرح صاحبنا ، فرجعنا إلى أهلنا فأصبحنا وقد خافت اليهود وقعتنا بعدو الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على سفينة رجل من تجار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان حويصة ابن مسعود إذ ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة فلما قتله جعل حويصة يضربه ويقول أى عدو الله قتلته أما والله لرب شحم فى بطنك من ماله قال محيصة والله لو أمرنى بقتلك من أمرنى بقتله لضربت عنقك قال لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى قال نعم قال والله أن دينا بلغ بك هذا العجب

خوطب بهذه الآية المسلمون ليوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى وما سيلقون من الشدائد والمصائب ليصبروا على ذلك حتى إذ لقوها لقوها وهم مستعدون بالصبر لها لا يرهقهم مايرهق غيرهم

غيرهم ممن تصيبه الشدة بغتة فينكرها ويشمئز منها (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) قال عكرمة نزلت فى أبى بكر الصديق وفنحاص بن عازوراء وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر إلى فنحاص سيد بنى قينقاع يستمده وكتب إليه معه كتابا وقال لأبى بكر لاتفتاتن على بشىء حتى ترجع فجاء أبو بكر وهو متوشح بالسيف إلى فنحاص وأعطاه الكتاب فلما قرأه قال فنحاص قد احتاج ربك حتى نمده فهم أبو بكر أن يضربه بالسيف ثم ذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم لاتفتاتن على بشىء حتى ترجع فنزلت الآية وقال الزهرى نزلت هذه الآية في النبي صلى الله عليه وسلم وكعب بن الأشرف اليهودى وذلك أنه كان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ويسب المسلمين ويحرض المشركين على قتالهم فى شعره (ق) عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من لكعب بن الأشرف فانه قد آذى الله ورسوله قال محمد بن مسلمة أتحب أن أقتله قال نعم قال ائذن لى فالأقل قال فأتاه فقال له وذكر مابينهم وقال إن هذا الرجل قد أراد الصدقة وقد عنانا فلماسمعه قال وأيضا والله لتملنه قال إنا قد اتبعناه ونكره الآن أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير أمره قال وقد أردت أن تسلفنى سلفا قال فما ترهننى أترهنني نساءكم؟ قال أنت أجمل العرب أنرهنك نساءنا قال له ترهنون أولادكم قال يسب ابن أحدنا فيقال رهن فى وسقين من تمر ولكن نرهنك اللامة يعنى السلاح قال نعم وواعده أن يأتيه بالحارث وأبى عيسى بن جبر وعباد ابن بشر قال فجاؤا فدعوه ليلا فنزل إليهم قالت امرأته إنى لأسمع صوتا كأنه صوت دم قال إنما هو محمد ورضيعي أبو نائلة أن الكريم لو دعى إلى طعنة ليلا لأجاب قال محمد إنى إذا جاء فسوف أمد يدى إلى رأسه فاذا استمكنت منه فدونكم قال فلما نزل نزل وهو متوشح فقالوا نجد منك ريح الطيب قال نعم تحتى فلانة أعطر نساء العرب قال فتأذن لى أن اشم منه قال نعم فشم فتناول فشم ثم قال أتأذن لى أن أعود فاستمكن من رأسه ثم قال دونكم فقتلوه زاد فى رواية ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه وزاد أصحاب السير والمغازى فاختلف عليهم أسيافهم فلم تغن شيئا قال محمد بن مسلمة فذكرت مغولا فى سيفى فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا وأوقدت عليه نار قال فوضعته فى ثندوته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته ووقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح فى رأسه أصابه بعض أسيافنا فخرجنا وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث ونزفه الدم فوقفنا له ساعة حتى أتانا يتبع آثارنا فحملناه وجئنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلى فسلمنا عليه فخرج علينا فأخبرناه بقتل كعب بن الأشرف وجئنا برأسه إليه وتفل على جرح صاحبنا فرجعنا إلى أهلنا وأصبحنا وقد خافت اليهود وقعتنا بعدو الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه وأنزل الله عز وجل فى شأن كعب بن الأشرف اليهودى لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم يعنى اليهود والنصارى ومن الذين أشركوا يعنى مشركى العرب أذى كثيرا يعنى بالأذى قول اليهود إن الله فقير ونحن أغنياء وما أشبه ذلك من افترائهم وكذبهم على الله ورسوله وما كان كعب بن الأشرف يهجوبه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فهذا هو الأذى الكثير (وإن تصبروا وتتقوا) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين يعنى وإن تصبروا على أذاهم وتتقوا فيما أمركم به ونهاكم عنه لأن الصبر عبارة عن احتمال الأذى والمكروه والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لاينبغى (فان ذلك من عزم الأمور)

فأسلم حويصة فأنزل الله تعالى فى شأن كعب (لتبلون) لتختبرن اللام للتأكيد، وفيه معنى القسم والنون لتأكيد القسم (فى أموالكم) بالجوائح والعاهات والخسران وأنفسكم بالأمراض وقيل بمصائب الأقارب والعشائر قال عطاء هم المهاجرون أخذ المشركون أموالهم ورباعهم وعذبوهم وقال الحسن هو ما فرض عليهم فى أموالهم وأنفسهم من الحقوق كالصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعنى اليهود والنصارى (ومن الذين أشركوا) يعنى مشركى العرب (أذى كثيرا وإن تصبروا) على أذاهم (وتتقوا) الله (فان ذلك من عزم الأمور) من حق الأمور وخيرها وقال عطاء من حقيقة

أي من صواب التدبير الذي لاشك أن الرشد فيه ولا ينبغي لعاقل تركه وأصله من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا أي ألزمتك أن تفعله لامحالة ولاتتركه وقيل معناه فان ذلك مما قدعزم عليكم فعله أي ألزمتم الأخذ به . قوله تعالى (وإذ أخذ الله) أي واذكر يامحمد وقت إذ أخذ الله (ميثاق الذين أوتوا الكتاب) يعني اليهود والنصارى والمراد منهم العلماء خاصة وقيل المراد بالذين أوتوا الكتاب العلماء والأحبار من اليهود خاصة وأخذ الميثاق هو التوكيد والإلزام لبيان ماأوتوه من الكتاب وهوقوله تعالى (لتبيننه للناس) يعني ليبينن مافي الكتاب ولتظهرنه للناس حتى يعلموه وذلك أن الله أوجب على علماء التوراة والإنجيل أن يشرحوا للناس مافي هذين الكتابين من الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (ولا يكتمونه) يعني ولا يخفون ذلك عن الناس (فنبذوه) يعني الكتاب وقيل الميثاق (وراء ظهورهم) أي فطرحوه وضيعوه وتركوا العمل به (واشتروا به ثمنا قليلا) يعني المآكل والرشا التي كانوا يأخذونها من عوامهم وسفلتهم (فبئس مايشترون) ذمهم الله تعالى على فعلهم ذلك . واعلم أن ظاهر هذه الآية وإن كان مخصوصا بعلماء أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى فلا يبعد أن يدخل فيه علماء هذه الأمة الإسلامية لأنهم أهل كتاب وهو القرآن وهو أشرف الكتب قال قتادة هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فانه هلكة وقال أيضا مثل علم لايقال به كمثل كنز لاينفق منه ومثل حكمة لاتخرج كمثل صنم لايأكل ولايشرب وقال أيضا طوبى لعالم ناطق ومستمع واع هذا علم علما فبذله وهذا سمع خيرا فقبله ووعاه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سئل علما يعلمه فكتمه ألجم «بلجام من نار» أخرجه الترمذي ولأبي داود «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة» وقال أبو هريرة لولا ماأخذ الله عز وجل على أهل الكتاب ماحدثتكم بشيء ثم تلا هذه الآية «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب» الآية وقال الحسن بن عمارة أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت أريد أن تحدثني فقال أما علمت أني قد تركت الحديث فقلت إما أن تحدثني وإما أن أحدثك قال حدثني فقلت حدثني الحكم بن عيينة عن يحيى بن الخراز قال سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ماأخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا قال فحدثني أربعين حديثا . قوله عز وجل (لا تحسبن الذين يفرحون) قرئ بالتاء على الخطاب أي لاتحسبن يامحمد الفارحين الذين يفرحون وقرئ بالياء على الغيبة يعني ولا يحسبن الفارحون والمعنى لايحسبن الذين يفرحون فرحهم منجيا لهم من العذاب نزلت هذه الآية في المنافقين (ق) عن أبي سعيد الخدري أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذروا إليه وحلفوا له وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت لايحسبن الذين يفرحون بما أتوا الآية وقيل نزلت في اليهود (ق) عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن مروان قال اذهب يارافع

الإيمان (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر بالياء فيهما لقوله تعالى «فنبذوه وراء ظهورهم» وقرأ الآخرون بالتاء فيهما على إضمار القول (فنبذوه وراء ظهورهم) أي طرحوه وضيعوه وتركوا العمل به (واشتروا به ثمنا قليلا) يعني المأكل والرشا فبئس مايشترون) قال قتادة هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه وإياكم وكتمان العلم فانه هلكة وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه لولا ماأخذ الله على أهل الكتاب ماحدثتكم بشيء ثم تلا هذه الآية وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي أخبرنا أبو معاذ الشاه بن عبد الرحمن أخبرنا أبو بكر عمر بن سهل وإسماعيل الدينوري أخبرنا أحمد بن محمد ابن عيسى البرني أخبرنا أبو حذيفة موسى بن مسعود أخبرنا إبراهيم ابن طهمان عن سماك ابن حرب عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سئل عن علم عامه وكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» وقال الحسن بن عمارة أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت إن رأيت أن تحدثني فقال أماعلمت أني قد تركت الحديث فقلت إما أن تحدثني وإما أن أحدثك فقال حدثني فقلت حدثني الحكم بن عيينة عن يحيى بن الخراز قال سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ماأخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا قال فحدثني أربعين حديثا (لاتحسبن الذين يفرحون

بما أتوا) الآية قرأ عاصم وحمزة والكسائي لاتحسبن بالتاء أى لاتحسبن يامحمد الفارحين وقرأ الآخرون بالياء أى لايحسبن الفارحون فرحهم منجيا لهم من العذاب وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فلايحسبنهم بالياء وضم الباء خبرا عن الفارحين أى فلا يحسبن أنفسهم وقرأ الآخرون بالتاء وفتح الباء أى فلاتحسبنهم يامحمد وأعاد قوله فلاتحسبنهم تأكيدا وفي حرف عبدالله ابن مسعود ولا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب من غير تكرار واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سعيد بن أبي مريم أنا محمد بن جعفر حدثنى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدرى أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا قدم رسول الله صلى الله

عليه وسلم اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزل لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا الآية وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا إبراهيم بن موسى أنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال أخبرني ابن أبي مليكة أن علقمة ابن وقاص أخبره أن مروان قال لبوابه اذهب يارافع إلى ابن عباس رضى الله عنهما فقل له لئن كان كل امرئ فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون فقال ابن عباس مالكم ولهذه إنما دعا النبي صلى الله عليه وسلم يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه فأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ثم قرأ ابن عباس رضى الله عنهما وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب كذلك إلى قوله يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا قال عكرمة نزلت فى فنحاص وأسيبع وغيرهما من الأحبار يفرحون باضلالهم الناس بنسبة الناس إياهم إلى العلم وليسوا بأهل العلم وقال مجاهد هم اليهود فرحوا باعجاب الناس بتبديلهم الكتاب وحمدهم إياهم عليه وقال سعيد ابن جبير هم اليهود فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم وهم براء من ذلك وقال قتادة ومقاتل أتت يهود خيبر نبى الله ﷺ فقالوا نحن نعرفك ونصدقك وإنا على رأيك ونحن لك ردء وليس ذلك فى قلوبهم فلما خرجوا قال لهم المسلمون ماصنعتم قالوا عرفناه وصدقناه فقال لهم المسلمون أحسنتم هكذا فافعلوا فحمدوهم ودعوا لهم فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال يفرحون بما أتوا قال الفراء بما فعلوا كما قال الله تعالى «لقد جئت شيئا فريا» أى فعلت (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة) بمنجاة (من العذاب

لبوابه إلى ابن عباس فقل لئن كان كل امرئ مما فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن أجمعون قال ابن عباس مالكم ولهذه الآية إنما نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب ثم تلا ابن عباس «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس» الآية وتلا ابن عباس «لايحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا» وقال ابن عباس سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا إليه بذلك وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ماسألهم عنه (بما أتوا) يعنى يفرحون بما فعلوا (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) أى ويحبون أن يحمدهم الناس على شيء لم يفعلوه قيل عنى بذلك قوما من أحبار اليهود كانوا يفرحون بأضلالهم الناس ونسبة الناس إياهم إلى العلم قال ابن عباس «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب إلى قوله ولهم عذاب أليم» يعنى فنحاص وأسيبع وأشباههما من الأحبار الذين يفرحون بمايصيبون من الدنيا على مازينوا للناس من الضلالة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا أى بقول الناس لهم علماء وليسوا بأهل علم وقيل هم اليهود فرحوا باجتماع كلمتهم على تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أنهم كتبوا إلى يهود العراق والشام واليمن ومن يبلغهم كتابهم من اليهود فى الأرض كلها أن محمدا ليس بنبى فاثبتوا على دينكم فاجتمعت كلمتهم على الكفر ففرحوا بذلك وقالوا نحن أهل الصوم والصلاة وأحبوا أن يحمدوا على ذلك وقيل فرحوا بما أتوا من تبديلهم التوراة وأحبوا أن يحمدهم الناس على ذلك وقيل أن يهود خيبر أتت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا نحن نعرفك ونصدقك وقالوا لأصحابه نحن على رأيكم ونحن لكم ردء وليس ذلك فى قلوبهم وأحبوا أن يحمدهم النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون على ذلك (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) أى فلا تظننهم بمنجاة من العذاب الذى أعده الله لهم فى الدنيا من القتل والأسر وضرب

ولهم عذاب أليم ولله ملك السموات والأرض) يصرفها كيف يشاء (والله على كل شيء قدير إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبونعيم عبد الملك ابن الحسين الإسفراينى أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ أنا أحمد بن عبد الجبار أنا ابن فضيل عن حصين بن عبد الرحمن عن حبيب بن أبي ثابت عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه رقد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤٦٦) فرآه استيقظ فتسوك ثم توضأ وهو يقول إن في خلق السموات والأرض حتى ختم السورة ثم قام فصلى ركعتين فأطال فيهما القيام والركوع والسجود ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاث مرات ست ركعات كل ذلك يستاك ثم يتوضأ ثم يقرأ هؤلاء الآيات ثم أوتر بثلاث ركعات ثم أتاه المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول اللهم اجعل في بصرى نورا وفى سمعى نورا وفى لسانى نورا واجعل من خلفى نورا ومن أمامى نورا واجعل من فوقى نورا ومن تحتى نورا اللهم أعطنى نورا ورواه كريب عن ابن عباس رضى الله عنهما وزاد اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى بصرى نورا وفى سمعى نورا وعن يمينى نورا وعن يسارى نورا . قوله تعالى لآيات لأولى الألباب ذوى العقول ثم وصفهم فقال (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) قال على بن أبى طالب وابن عباس رضى الله عنهم والنخعى وقتادة هذا فى الصلاة يصلى قائما فان لم يستطع فقاعدا فان لم يستطع فعلى جنب أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبى أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى أخبرنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى أنا هناد أنا وكيع عن إبراهيم بن طهمان عن حسين المعلم عن عبد الله بن بريدة عن عمران بن حصين قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة المريض فقال « صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب » وقال سائر المفسرين أراد به المداومة على الذكر فى

الجزية والذلة والصغار (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة وهذه الآية وإن كانت قد نزلت فى اليهود أو المنافقين خاصة فان حكمها عام فى كل من أحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والصلاح أو ينسب إلى العلم وليس هو كذلك . قوله عز وجل (ولله ملك السموات والأرض) يعنى أنه تعالى مالك لما فيهما جميعا يتصرف فيه كيف يشاء وفيه تكذيب لمن قال إن الله فقير ونحن أغنياء يقول الله عز وجل إن من له جميع ماحوته السموات والأرض من شيء كيف يكون فقيرا (والله على كل شيء قدير) يعنى أنه تعالى قادر على تعجيل العقوبة لهم على ذلك القول لكنه تفضل على خلقه بامهالهم . قوله عز وجل (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) قال ابن عباس إن أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية فنزلت هذه الآية والمعنى تفكروا واعتبروا أيها الناس فيما خلقته وأنشأته من السموات والأرض لمعاشكم وأرزاقكم وفيما عقبت من ذلك بين الليل والنهار واختلافهما فى الطول والقصر فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم لكى تتصرفوا فيهما لمعاشكم تطلبون أرزاقكم فى النهار وتسكنون فى الليل لراحة أجسادكم فاعتبروا وتفكروا ياأولى الألباب يعنى ياذوى العقول الصافية يعنى الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار لاينظرون إليهما نظر البهائم غافلين عما فيهما من عجائب مخلوقاته وغرائب مبتدعاته (ق) عن ابن عباس أنه بات عند ميمونة أم المؤمنين وهى خالته قال : فقلت لأنظرن إلى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فطرحت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فاضطجعت فى عرض الوسادة واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله فى طولها فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ثم استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم قام إلى شن معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلى قال عبد الله بن عباس فقمت فصنعت مثل ماصنع ثم ذهبت فقمت إلى جنبه فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على رأسى وأخذ بأذنى ففتلها فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاء المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح وفى رواية فقمت عن يساره فأخذنى فجعلنى عن يمينه وفى رواية قال بت فى بيت خالتى ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد فلما كان ثلث الليل الأخير قعد فنظر إلى السماء فقال « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » وذكره . قوله تعالى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) قال

على بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس وقتادة هذا فى الصلاة يعنى الذين يصلون قياما فان عجزوا فقعودا فان عجزوا فعلى جنوبهم والمعنى أنهم لايتركون الصلاة فى حال من الأحوال بل يصلون فى كل حال (خ) عن عمران بن حصين قال كانت بى بواسير فسألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال «صل قائما فان لم تستطع فقاعدا فان لم تستطع فعلى جنب» أخرجه الترمذى وقال فيه سألته عن صلاة المريض وذكر نحوه قال الشافعى رضى الله تعالى عنه إذا صلى المريض مضطجعا وجب عليه أن يصلى على جنب ويومئ برأسه إيماء وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى بل يصلى مستلقيا على ظهره فان وجد خفة قعد وحجة الشافعى ظاهر الآية وهو قوله تعالى وعلى جنوبهم وقوله صلى الله عليه وسلم لعمران ابن حصين فان لم تستطع فعلى جنب فنص على الجنب دون غيره وقال أكثر المفسرين المراد به المداومة على الذكر فى غالب الأحوال لأن الإنسان قل أن يخلو من إحدى هذه الثلاث حالات وهى: القيام والقعود وكونه نائما على جنبه (م) عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله عزوجل فى كل أحيانه وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من قعد مقعدا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ومن اضطجع مضطجعا لايذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ومامشى أحد ممشى لايذكر الله فيه إلا كانت عليه من الله ترة» أخرجه أبو داود والترة النقص وقيل هى هنا التبعة. وقوله تعالى (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) أصل الفكر إعمال الخاطر فى الشىء وتردد القلب فى ذلك الشىء وهو قوة متطرقة للعلم إلى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل ولا يمكن التفكر إلا فيما له صورة فى القلب ولهذا قيل تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله إذ الله منزه أن يوصف بصورة فلذلك أخبر عن عباده الصالحين بأنهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ويعلموا أن لهما خالقا قادرا مدبرا حكيما لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها سبحانه وتعالى كما قيل:

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

وقيل إن الفكر مقلوب عن الفرك لأن الفكر مستعمل فى المعانى وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى حقيقتها وقيل الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء وماجليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة (ربنا) أى ويقولون ربنا وقيل معناه ويتفكرون فى خلق السموات والأرض قائلين ربنا (ماخلقت هذا باطلا) يعنى عبثا وهزلا بل خلقته دليلا على وحدانيتك وكمال قدرتك (سبحانك) تنزيها لك عن أن تخلق شيئا عبثا لغير حكمة (فقنا عذاب النار) يعنى إنا قد صدقنا بوحدانيتك وإن لك جنة ونارا فقنا عذاب النار والمقصود من قوله سبحانك فقنا عذاب النار تعليم عباده كيفية الدعاء فمن أراد أن يدعوا فليقدم الثناء على الله أولا ويدل عليه قوله سبحانك وبعد ذلك الثناء يأتى بالدعاء ويدل عليه قوله فقنا عذاب النار (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) أى أهنته وأذللته وقيل أهلكته وقيل فضحته وأبلغت فى إيذائه والخزى ضرب من الاستخفاف أو انكسار يلحق الإنسان وهو الحياء المفرط. فان قلت قد تمسكت المعتزلة بهذه الآية وقالوا قد أخبرنا الله أنه لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه فوجب أن كل من يدخل النار لا يكون مؤمنا لقوله إنك من تدخل النار فقد أخزيته والمؤمن

عموم الأحوال لأن الإنسان قل ما يخلو من إحدى هذه الحالات الثلاث نظيره فى سورة النساء فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) وما أبدع فيهما ليدلهم ذلك على قدرة الله ويعرفوا أن لها صانعا قادرا مدبرا حكيما قال ابن عوان الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء وماجليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة (ربنا) أى ويقولون ربنا (ما خلقت هذا) رده إلى الخلق فلذلك لم يقل هذه (باطلا) أى عبثا وهزلا بل خلقته لأمر عظيم وانتصب باطلا بنزع الخافض أى بالباطل (سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) أى أهنته وقيل أهلكته وقيل فضحته لقوله تعالى «ولا تخزون فى ضيفى» فان قيل قد قال الله تعالى

«يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه» ومن أهل الإيمان من يدخل النار وقد قال إنك من تدخل النار فقد أخزيته فكيف الجمع قيل قال أنس وقتادة معناه إنك من تخلده في النار فقد أخزيته وقال سعيد بن المسيب هذه خاصة لمن لايخرج منها فقد روى أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وأن الله يدخل قوما النار ثم يخرجون منها (وما للظالمين من أنصار ربنا إننا سمعنا مناديا) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم قاله ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما وأكثر الناس وقال القرظى يعنى القرآن فليس كل واحد يلقى النبي صلى الله عليه وسلم (ينادى للإيمان) إلى الإيمان (أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) أى فى جملة الأبرار (ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك) أى على ألسنة رسلك

لا يخزى. قلت قد ذكر العلماء فى الجواب وجوها أحدها ماروى عن أنس فى تفسير قوله تعالى إنك من تدخل النار فقد أخزيته قال من تخلده وروى نحوه عن سعيد بن المسيب قال هى خاصة لمن لا يخرج منها وهذا الجواب إنما يصح على مذهب أهل السنة الذين يرون إخراج الموحدين من النار أما على مذهب المعتزلة فلا يصح هذا الجواب لأن مذهبهم أن الفاسق مخلد فى النار فهو داخل فى قوله تعالى فقد أخزيته، الوجه الثانى فى الجواب أن المدخل فى النار مخزى فى حال دخوله وإن كانت عاقبته أن يخرج منها ومعنى الآية على هذا فقد أخزيته بدخوله فيها وتعذيبه بها ويدل على صحة هذا المعنى ماروى عن عمرو بن دينار قال قدم علينا جابر بن عبد الله فى عمرة فانتهيت اليه أنا وعطاء فسألته عن هذه الآية «ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته» فقال وما أخزاه حين أحرقه بالنار إن دون ذا لخزيا وهذا الوجه هو اختيار ابن جرير الطبرى لأن من أدخل النار فقد أخزى بدخوله إياها وإن أخرج منها وذلك الخزى هو هتك المخزى وفضيحته وقال ابن الانبارى حمل الآية على العموم أولى من نقلها إلى الخصوص إذ لا دليل عليه، الوجه الثالث فى الجواب ما قاله أهل المعانى وهو أن الخزى يحتمل معانى منها الإهانة والإهلاك والإبعاد وهذا للكفار ومنها الإخجال يقال خزى خزاية إذا استحى وإذا عمل عملا يستحى منه ويخجل فيكون خزي المؤمن الذى يدخل النار الحياء من المؤمنين بدخوله النار إلى أن يخرج منها وخزى الكافر الهلاك بالخلود فى النار وحاصل هذا الجواب أن لفظ الإخزاء مشترك بين التخجيل والإهلاك واللفظ المشترك لا يمكن حمله فى طرفى النفى والإثبات على معنييه جميعا وهذا يسقط الاستدلال، الوجه الرابع فى الجواب وهو الذى اختاره الفخر الرازى وصححه أن قوله تعالى «يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه» لا يقتضى نفى الإخزاء مطلقا وإنما يقتضى أن لا يحصل الإخزاء حال ما يكونون مع النبي وهذا النفى لا يناقضه إثبات الإخزاء فى الجملة لاحتمال أن يحصل ذلك الإثبات فى وقت آخر والله أعلم وقوله تعالى (وما للظالمين) يعنى المشركين الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها (من أنصار) يعنى ينصرونهم يوم القيامة ويمنعونهم من العذاب. قوله عز وجل (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان) قال ابن عباس وأكثر المفسرين المنادى هو محمد صلى الله عليه وسلم ويدل على صحة هذا قوله تعالى «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة» وقوله «وداعيا إلى الله باذنه» وقال محمد ابن كعب القرظى المنادى هو القرآن قال إذ ليس كل أحد لقى النبي صلى الله عليه وسلم ووجه هذا القول أن كل أحد يسمع القرآن ويفهمه فاذا وفقه الله تعالى للإيمان به فقد فاز به وذلك لأن القرآن مشتمل على الرشد والهدي وأنواع الدلائل الدالة على الوحدانية فصار كالداعى اليها واللام في للإيمان بمعنى إلى يعنى ينادى إلى الإيمان (أن آمنوا بربكم فآمنا) أي فصدقنا (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) أى كبائر ذنوبنا (وكفر عنا سيئاتنا) أى صغائر ذنوبنا وقيل أن الغفر هو الستر والتغطية وكذلك التكفير فهما بمعنى واحد وإنما ذكرهما للتأكيد لأن الإلحاح فى الدعاء والمبالغة فيه مندوب اليه وقيل معناه اغفر لنا ماتقدم من ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا فى المستقبل وقيل يريد بالغفران مايزول بالتوبة من الذنوب وبالتكفير مايكفر بالطاعات من الذنوب (وتوفنا مع الأبرار) يعنى فى جملتهم وزمرتهم والأبرار هم الأنبياء والصالحون والمعنى توفنا على مثل أعمالهم حتى نكون فى درجتهم يوم القيامة وقيل توفنا فى جملة أتباعهم وأشياعهم (ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك) يعنى على ألسنة رسلك وقيل معناه وآتنا ماوعدتنا على تصديق رسلك. فان قلت كيف سألوا الله إنجاز ماوعد والله

لا يخلف

(ولا تخزنا) ولاتعذبنا ولا تهلكنا ولا تفضحنا ولاتهنا (يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد) فان قيل ماوجه قولهم ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك وقد علموا أن الله لايخلف الميعاد قيل لفظه دعاء ومعناه خبر أى لتؤتينا ماوعدتنا على رسلك تقديره فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ولا تخزنا يوم القيامة لتؤتينا ما وعدتنا على رسلك من الفضل والرحمة وقيل معناه ربنا واجعلنا ممن يستحقون ثوابك وتؤتيهم ماوعدتهم على ألسنة رسلك لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها وقيل إنما سألوه تعجيل ماوعدهم من النصر على الأعداء وقالوا قد علمنا أنك لا تخلف وعدك من النصر ولكن لاصبر لنا على حلمك فعجل خزيهم وانصرنا عليهم قوله تعالى (فاستجاب لهم ربهم أنى) أى بأنى (لا أضيع) لا أحبط (عمل عامل منكم) أيها المؤمنون (من ذكر أو أنثى) قال مجاهد قالت أم سلمة يارسول الله إنى أسمع الله يذكر الرجال فى الهجرة ولا يذكر النساء فأنزل الله تعالى هذه الآية (بعضكم من بعض) قال الكلبى فى الدين والنصرة والموالاة وقيل كلكم من آدم وحواء وقال الضحاك رجالكم شكل نسائكم ونساؤكم شكل رجالكم فى الطاعة كما قال والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى) أى فى طاعتى ودينى وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة (وقاتلوا وقتلوا) قرأ ابن عامر وابن كثير قتلوا بالتشديد وقال الحسن يعنى أنهم قطعوا فى المعركة والآخرون بالتخفيف، وقرأ أكثر القراء وقاتلوا وقتلوا يريد أنهم قاتلوا العدو ثم أنهم قتلوا وقرأ حمزة والكسائى قتلوا وقاتلوا وله وجهان أحدهما معناه وقاتل من بقى منهم ومعنى قوله وقتلوا أى قتل بعضهم تقول العرب قتلنا بنى فلان وإنما قتلوا بعضهم والوجه الآخر وقتلوا وقد قاتلوا (لأكفرن عنهم سيئاتهم

لايخلف الميعاد. قلت معناه أنهم طلبوا من الله تعالى التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب انجاز الميعاد وقيل هو من باب اللجأ إلى الله تعالى والتذلل له وإظهار الخضوع والعبودية كما أن الأنبياء عليهم السلام يستغفرون الله مع علمهم أنهم مغفور لهم يقصدون بذلك التذلل لربهم سبحانه وتعالى والتضرع اليه واللجأ اليه الذى هو سيما العبودية وقيل معناه ربنا واجعلنا ممن يستحق ثوابك وتؤتيهم ماوعدتهم على ألسنة رسلك لأنهم لم يتيقنوا استحقاقهم لتلك الكرامة فسألوه أن يجعلهم مستحقين لها وقيل إنما سألوه تعجيل ماوعدهم من النصر على الأعداء وقالوا قد علمنا أنك لاتخلف الميعاد ولكن لا صبر لنا على حلمك فعجل هلاكهم وانصرنا عليهم (ولا تخزنا يوم القيامة) يعنى ولا تهلكنا ولا تفضحنا ولاتهنا فى ذلك اليوم فان قلت قوله وآتنا ماوعدتنا على رسلك يدل على طلب الثواب ومتى حصل الثواب اندفع العقاب لامحالة فما معنى قوله ولا تخزنا وهو طلب دفع العقاب عنهم قلت المقصود من الآية طلب التوفيق على الطاعة والعصمة عن فعل المعصية كأنهم قالوا وفقنا للطاعات وإذا وفقنا لها فاعصمنا عن فعل مايبطلها ويوقعنا فى الخزى وهو الهلاك ويحتمل أن يكون قوله ولا تخزنا يوم القيامة سببا لقوله تعالى «وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون» فانه ربما يظن الانسان أنه على عمل صالح فاذا كان يوم القيامة ظهر أنه على غير ما يظن فيحصل الخجل والحسرة والندامة فى موقف القيامة فسألوا الله تعالى أن يزيل ذلك عنهم فقالوا (ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد). قوله تعالى (فاستجاب لهم ربهم) يعنى أجاب دعاءهم وأعطاهم ماسألوه (أنى) أى وقال لهم أنى (لا أضيع عمل عامل منكم) يعنى لا أحبط عملكم أيها المؤمنون بل أثيبكم عليه (من ذكر أو أنثى) يعنى لا أضيع عمل عامل منكم ذكرا كان أو أنثى عن أم سلمة قالت قلت يارسول الله ماأسمع الله تعالى ذكر النساء فى الهجرة بشىء فأنزل الله تعالى «أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض إلى والله عنده حسن الثواب» أخرجه الترمذى وغيره. وقوله تعالى (بعضكم من بعض) يعنى فى الدين والنصرة والموالاة وقيل كلكم من آدم وحواء وقيل بمعنى الكاف أى بعضكم كبعض فى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية فهو كما يقال فلان منى يعنى على خلقى وسيرتى وقيل إن الرجال والنساء فى الطاعة على شكل واحد (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى) يعنى المهاجرين الذين هجروا أوطانهم وأهليهم وأذاهم المشركون بسبب إسلامهم ومتابعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجوا مهاجرين إلى الله ورسوله وتركوا أوطانهم وعشائرهم لله ورسوله ومعنى فى سبيلى فى طاعتى ودينى وابتغاء مرضاتى وهم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة فهاجر طائفة إلى الحبشة وطائفة إلى المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد هجرته فلما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة رجع اليه من كان هاجر إلى الحبشة من المسلمين (وقاتلوا وقتلوا) يعنى وقاتلوا العدو واستشهدوا فى جهاد الكفار (لأكفرن عنهم سيئاتهم) يعنى لأمحون

ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله) نصب على القطع قاله الكسائى وقال المبرد مصدر
أى لأثيبنهم ثوابا (والله عنده حسن الثواب) قوله عز وجل (لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد) نزلت فى المشركين وذلك
أنهم كانوا فى رخاء ولين من العيش يتجرون ويتنعمون فقال بعض المؤمنين إن أعداء الله تعالى فيما نرى
من الخير ونحن فى الجهد فأنزل الله تعالى هذه الآية لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد وضربهم فى الأرض وتصرفهم فى البلاد للتجارات وأنواع المكاسب فالخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد منه غيره (متاع قليل) أى هو متاع قليل بلغة فانية ومتعة زائلة (ثم مأواهم) مصيرهم (جهنم وبئس المهاد) الفراش (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا) جزاء وثوابا (من عند الله) نصب على التفسير وقيل جعل ذلك نزلا (وما عند الله خير للأبرار) من متاع الدنيا أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبدالله أنا سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد عن عبيد
ابن جبير أنه سمع ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال عمر بن الخطاب فقال
رضى الله عنه جئت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشربة وإنه لعلى حصير مابينه وبينه شىء وتحت رأسه وسادة من
أدم حشوها ليف وإن عند رجليه قرظا مصبورا وعند رأسه أهب معلقة فرأيت أثر الحصير فى جنبه فبكيت فقال مايبكيك
فقلت يارسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله ﷺ فقال أماترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة قوله عز وجل

عنهم ذنوبهم ولأغفرنها لهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله) يعنى
ذلك الذى أعطاهم من تكفير سيئاتهم وإدخالهم الجنة ثوابا من فضل الله وإحسانه اليهم (والله
عنده حسن الثواب) وهذا تأكيد لكون ذلك الثواب الذى أعطاهم من فضله وكرمه لأنه جواد
كريم روى ابن جرير الطبرى بسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول إن أول ثلة تدخل الجنة فقراء المهاجرين الذين يتقى بهم المكاره إذا أمروا
سمعوا وأطاعوا وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض له حتى يموت وهى فى صدره
فان الله عز وجل يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادى الذين قاتلوا
فى سبيلى وقتلوا وأوذوا فى سبيلى وجاهدوا فى سبيلى، ادخلوا الجنة فيدخلونها بغير عذاب ولا
حساب وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار ونقدس لك من
هؤلاء الذين آثرتهم علينا فيقول الرب عز وجل هؤلاء عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى وأوذوا
فى سبيلى فتدخل الملائكة عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار قال بعضهم
فى هذه الآية تعليم من الله تعالى لعباده كيف يدعى وكيف يبتهل اليه ويتضرع وتكرير ربنا
من باب الابتهال وإعلام بما يوجب حسن الإجابة وقال جعفر الصادق من حزبه أمر فقال
خمس مرات ربنا نجاه الله تعالى مما يخاف وأعطاه ما أرادوا وقرأ هذه الآية، قال الحسن حكى
الله عنهم أنهم قالوا خمس مرات ربنا ثم أخبر أنه استجاب لهم. قوله عز وجل (لايغرنك تقلب
الذين كفروا فى البلاد) نزلت فى المشركين وذلك أنهم كانوا فى رخاء ولين من العيش يتجرون
ويتنعمون فقال بعض المؤمنين أن أعداء الله فيما نرى من الخير ونحن فى الجهد فأنزل الله تعالى
هذه الآية لايغرنك الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره من الأمة لأنه صلى
الله عليه وسلم لم يغتر قط والمعنى لايغرنك أيها السامع تقلب الذين كفروا فى البلاد يعنى ضربهم
فى الأرض وتصرفهم فى البلاد للتجارات وطلب الأرباح والمكاسب (متاع قليل) أى ذلك متاع
قليل وبلغة فانية ونعمة زائلة (ثم مأواهم) يعنى مصيرهم فى الآخرة (جهنم وبئس المهاد) أى
وبئس الفراش هى: قوله تعالى (ولكن الذين اتقوا ربهم) فيما أمرهم به من العمل بطاعته واتباع
مرضاته واجتناب مانهاهم عنه من معاصيه (لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا)
أى جزاء وثوابا والنزل مايهيأ للضيف عند قدومه (من عند الله) يعنى من فضل الله وكرمه
وإحسانه (وما عند الله) يعنى من الخير والكرامة والنعيم الدائم الذى لا ينقطع (خير للأبرار)
يعنى ذلك الفضل والنعمة التى أعدها الله للمطيعين الأبرار خير مما يتقلب فيه هؤلاء الكفار
من نعيم الدنيا ومتاعها فانه قليل زائل (ق) عن عمر بن الخطاب قال جئت رسول الله صلى الله
عليه وسلم فاذا هو فى مشربة وإنه لعلى حصير مابينه وبينه شىء وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها
ليف وعند رجليه قرظ مصبور وعند رأسه أهب معلقة فرأيت أثر الحصير فى جنبه فبكيت

(وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) الآية قال ابن عباس وجابر وأنس وقتادة نزلت فى النجاشى ملك الحبشة واسمه أصحمة وهو بالعربية عطية وذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ فى اليوم الذى مات فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه «أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم النجاشى» فخرج إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال عطاء نزلت فى أهل نجران أربعين رجلا اثنان وثلاثون من أرض الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقال ابن جريج نزلت فى عبدالله بن سلام وأصحابه وقال مجاهد نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب كلهم وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله (وما أنزل إليكم) يعنى القرآن (وما أنزل إليهم) يعنى التوراة والإنجيل (خاشعين لله) خاضعين متواضعين لله (لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا) يعنى لايحرفون كتبهم، ولا يكتمون صفة محمد صلى الله عليه وسلم لأجل الرياسة والمأكلة كفعل غيرهم من رؤساء اليهود (أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) قال الحسن اصبروا على دينكم ولاتدعوه لشدة ولارخاء وقال قتادة اصبروا على طاعة الله وقال الضحاك ومقاتل بن سليمان على أمر الله وقال مقاتل بن حيان على أداء فرائض الله تعالى وقال زيد بن أسلم على الجهاد وقال

فقال مايبكيك قلت يارسول الله إن كسرى وقيصر فيما هم فيه وأنت رسول الله فقال أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة لفظ البخارى المشربة الغرفة والعلية والمشارب العلالى. قوله عز وجل (وإنّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) قال ابن عباس نزلت فى النجاشى ملك الحبشة واسمه أصحمة ومعناه بالعربية عطية وذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم النجاشى فخرج إلى البقيع وكشف له إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى فصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلى على علج حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت فى أربعين رجلا من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام فآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وصدقوه وقيل نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى جميع مؤمنى أهل الكتاب وهذا القول أولى لأنه لما ذكر أحوال الكفار وأحوال أهل الكتاب وأن مصيرهم إلى النار ذكر حال من آمن من أهل الكتاب وأن مصيرهم إلى الجنة فقال تعالى وإن من أهل الكتاب يعنى بعض اليهود والنصارى أهل التوراة والإنجيل لمن يؤمن بالله يعنى من يقر بوحدانية الله وما أنزل اليكم يعنى ويؤمن بما أنزل اليكم أيها المؤمنون يعنى القرآن وما أنزل اليهم يعنى من الكتب المنزلة مثل التوراة والانجيل والزبور (خاشعين لله) يعنى خاضعين لله متواضعين له غير مستكبرين (لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا) يعنى لا يغيرون كتبهم ولا يحرفونها ولا يكتمون صفة محمد صلى الله عليه وسلم لأجل الرياسة والمأكل والرشا كما يفعله غيرهم من رؤساء اليهود (أولئك) إشارة إلى أن من هذه صفته من أهل الكتاب (لهم أجرهم عند ربهم) يعنى لهم ثواب أعمالهم التى عملوها لله ذلك الثواب لهم ذخر عند الله يوفيه اليهم يوم القيامة (إن الله سريع الحساب) يعنى إنه تعالى عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شىء من أعمال عباده فيجازى كل أحد على قدر عمله لأنه سريع الحساب قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اصبروا) يعنى على دينكم الذي أنتم عليه ولا تدعوه لشدة ولا لغيرها وأصل الصبر حبس النفس عما لا يقتضيه شرع ولا عقل والصبر لفظ عام تحته أنواع من المعانى قال بعض الحكماء الصبر على ثلاثة أقسام ترك الشكوى وقبول القضاء وصدق الرضا وقيل فى معنى الآية اصبروا على طاعة الله وقيل على أداء الفرائض وقيل على تلاوة القرآن وقيل اصبروا على أمر الله وقيل اصبروا على البلاء وقيل اصبروا على الجهاد وقيل اصبروا على أحكام الكتاب والسنة (وصابروا) يعنى الكفار والأعداء وجاهدوهم (ورابطوا) يعنى وداوموا على جهاد المشركين واثبتوا عليه وأصل المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون كل من الخصمين مستعدا لقتال الآخر ثم قيل لكل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابط وإن لم يكن له مركب مربوط (ق) عن سهل بن سعد أن

الكلبي على البلاء ، وصابروا يعنى على قتال الكفار ورابطوا يعنى المشركين قال أبو عبيدة أى دافعوا وأثبتوا والربط الشد وأصل الرباط أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم ثم قيل ذلك لكل مقيم فى ثغر يدفع عمن وراءه وإن لم يكن له مركب أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى ، أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد الله بن بشر أنه سمع أبا النصر أنا عبدالرحمن بن عبدالله بن دينار عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ قال «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا (٤٧٢) وما فيها وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ولروحة يروحها العبد فى سبيل الله خير من الدنيا وماعليها» أخبرنا أبو الحسن على بن يوسف الجوينى أخبرنا أبو محمد محمد ابن على بن محمد بن شريك الشافعى أنا يونس ابن عبدالله بن مسلم أبو بكر الجوربدى أنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب أخبرنى عبدالرحمن ابن الحارث أنا أبو عبيدة ابن عقبة أنا شرحبيل ابن السمط أنا سلمان الخير أن رسول الله ﷺ قال «من رابط يوما وليلة فى سبيل الله كان له أجر صيام شهر مقيم ومن مات مرابطا جرى له مثل ذلك الأجر وأجرى عليه من الرزق وآمن من الفتان» وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن لم يكن فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم غزو برابط فيه الصلاة بعد الصلاة ودليل هذا التأويل ما أخبرنا أبو الحسن محمد ابن محمد السرخسى أنا زاهر بن أحمد الفقيه أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى أنا أبو مصعب أنا مالك أخبرنا العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «ألا أخبركم بما يمحوالله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط» (واتقوا الله لعلكم تفلحون) قال بعض أرباب اللسان اصبروا على النعماء وصابروا على البأساء والضراء ورابطوا فى دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون فى دار البقاء . (سورة النساء مدنية وهى مائة وخمس وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم) قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) يعنى آدم عليه السلام

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وماعليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وماعليها والروحة يروحها العبد فى سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وماعليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها» (م) عن سلمان الخير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان» وقيل المراد بالمرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة قال أبو سلمة بن عبدالرحمن لم يكن فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم غزو يرابط فيه ولكنه انتظار الصلاة خلف الصلاة ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا أدلكم على مايمحوا الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يارسول الله قال إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط» أخرجه مسلم (واتقوا الله لعلكم تفلحون) قال محمد بن كعب القرظى يقول الله عز وجل «واتقوا الله فيما بينى وبينكم لعلكم تفلحون» غدا إذا لقيتمونى وقال أهل المعانى فى معنى هذه الآية ياأيها الذين آمنوا اصبروا على بلائى وصابروا على نعمائى ورابطوا على مجاهدة أعدائى واتقوا محبة سوائى لعلكم تفلحون بلقائى وقيل اصبروا على النعماء وصابروا على البأساء والضراء ورابطوا فى دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون فى دار البقاء وقيل اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء السلامة وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة ورابطوا على مجاهدة النفس اللوامة واتقوا مايعقبكم الندامة لعلكم تفلحون غدا فى دار الكرامة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

تفسير سورة النساء مدنية

وهى مائة وخمس وسبعون آية وثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة وستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفا .

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل (يا أيها الناس) خطاب للكافة فهو كقوله يابنى آدم (اتقوا ربكم) أى احذروا أمر ربكم أن تخالفوه فيما أمركم به أونهاكم عنه ثم وصف نفسه بكمال القدرة فقال تعالى (الذى خلقكم من نفس واحدة) يعنى من أصل واحد وهو آدم أبو البشر عليه السلام وإنما أنث

الوصف على لفظ النفس وإن كان المراد به الذكر فهو كما قال بعضهم :

أبوك خليفة ولدته أخرى ... وأنت خليفة ذاك الكمال

فانما قال ولدته أخرى لتأنيث الخليفة (وخلق منها زوجها) يعنى حواء وذلك أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام ألقى عليه النوم ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى وهو قصير فلما استيقظ رآها جالسة عند رأسه فقال لها من أنت؟ قالت امرأة قال لماذا خلقت قالت خلقت لتسكن إلى فمال اليها وألفها لأنها خلقت منه واختلفوا فى أى وقت خلقت حواء فقال كعب الأحبار ووهب وابن إسحاق خلقت قبل دخوله الجنة وقال ابن مسعود وابن عباس إنما خلقت فى الجنة بعد دخوله إياها (وبث منهما) يعنى نشر وأظهر من آدم وحواء (رجالا كثيرا ونساء) إنما وصف الرجال بالكثرة دون النساء لأن حال الرجال أتم وأكمل وهذا كالتنبيه عن أن اللائق بحال الرجال الظهور والاستشهار وبحال النساء الاختفاء والخمول (واتقوا الله الذى تساءلون به) إنما كرر ذكر التقوى للتأكيد وأنه أهل أن يتقى والتساؤل بالله هو كقولك أسألك بالله واحلف عليك بالله واستشفع إليك بالله (والأرحام) قرىء بفتح الميم ومعناه واتقوا الأرحام أن تقطعوها وقرىء بكسر الميم فهو كقولك سألتك بالله وبالرحم وناشدتك بالله وبالرحم لأن العرب كان من عادتهم أن يقولوا ذلك والرحم القرابة وإنما استعير اسم الرحم للقرابة لأنهم خرجوا من رحم واحدة وقيل هو مشتق من الرحمة لأن القرابة يتراحمون ويعطف بعضهم على بعض وفى الآية دليل على تعظيم حق الرحم والنهى عن قطعها ويدل على ذلك أيضا الأحاديث الواردة فى ذلك (ق) عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله (ق) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط عليه من رزقه وينسأ فى أثره فليصل رحمه قوله وينسأ فى أثره أى يؤخر له فى أجله (ق) عن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا يدخل الجنة قاطع» قال سفيان فى روايته يعنى قاطع رحم وعن الحسن قال من سألك بالله فاعطه ومن سألك بالرحم فاعطه وعن ابن عباس قال الرحم معلقة بالعرش فاذا أتاها الواصل بشت به وكلمته وإذا أتاها القاطع احتجبت عنه (إن الله كان عليكم رقيبا) يعنى حافظا والرقيب فى صفة الله تعالى هو الذى لا يغفل عما خلق فليحقه نقص ويدخل عليه خلل وقيل هو الحافظ الذى لا يغيب عنه شىء من أمر خلقه فبين بقوله «إن الله كان عليكم رقيبا أنه لا يعلم السر وأخفى» ، وإذا كان كذلك فهو جدير بأن يخاف ويتقى . قوله عز وجل (وآتوا اليتامى أموالهم) نزلت فى رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم كان فى حجره فلما بلغ اليتيم طلب المال الذى له فمنعه عمه فترافعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال «أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير ودفع إلى اليتيم ماله فقال النبى صلى الله عليه وسلم من يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فانه يحل داره يعنى جنته فلما قبض الصبى ماله أنفقه فى سبيل الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم ثبت الأجر وبقى الوزر فقالوا كيف ثبت الأجر وبقى الوزر ؟ قال ثبت الأجر للغلام وبقى الوزر على أبيه والخطاب فى قوله تعالى وآتوا للأولياء والأوصياء واليتامى جمع يتيم وهو الصبى الذى مات أبوه واليتم فى اللغة الانفراد ومنه الدرة اليتيمة لانفرادها واسم اليتيم يقع على الصغير والكبير لغة لبقاء معنى الانفراد عن الآباء لكن فى العرف اختص

أى تتساءلون به قرأ أهل الكوفة بتخفيف السين على حذف إحدى التاءين كقوله تعالى ولا تعاونوا (والأرحام) قراءة العامة بالنصب أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها وقرأ حمزة بالخفض أى به وبالأرحام كما يقال سألتك بالله والأرحام والقراءة الأولى أفصح لأن العرب لا تكاد تنسق بظاهر على مكنى إلا بعد أن تعيد الخافض فتقول مررت به وبزيد إلا أنه جائز مع قلته (إن الله كان عليكم رقيبا) أى حافظا قوله تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم) قال مقاتل والكلبى نزلت فى رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ يتيم فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه فترافعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فلما سمع العم قال أطعنا الله وأطعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير فدفع إليه ماله فقال النبى صلى الله عليه وسلم من يوق شح نفسه ويطع ربه هكذا فانه يحل داره يعنى جنته فلما قبض الفتى ماله أنفقه فى سبيل الله فقال النبى ﷺ ثبت الأجر وبقى الوزر فقالوا كيف بقى الوزر ؟

فقال ثبت الأجر للغلام وبقى الوزر على والده وقوله وآتوا خطاب للأولياء والأوصياء واليتامى جمع يتيم واليتيم اسم لصغير لاأب له ولا جد وإنما يدفع المال إليهم بعد البلوغ وسماهم يتامى هاهنا على معنى أنهم كانوا يتامى (ولا تتبدلوا) لا تستبدلوا (الخبيث بالطيب) أى مالهم الذى هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم واختلفوا فى هذا التبديل قال سعيد ابن المسيب والنخعى والزهرى والسدى كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الرديء فربما كان أحد يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ويجعل مكانها المهزولة ويأخذ الدرهم الجيد ويجعل مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم فنهوا عن ذلك وقيل كان أهل الجاهلية لايورثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر الميراث فنصيبه من الميراث طيب وهذا الذى يأخذه من نصيب غيره خبيث وقال مجاهد لاتتعجل الرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) أى مع أموالكم كقوله تعالى من أنصارى إلى الله أى مع الله (إنه كان حوبا كبيرا) إثما عظيما وقوله تعالى (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى

اسم اليتيم عمن لم يبلغ مبلغ الرجال فاذا بلغ الصبي وصار يستغنى بنفسه عن غيره زال عنه اسم اليتيم وسئل ابن عباس اليتيم متى ينقطع عنه اسم اليتم ؟ قال إذا أونس منه الرشد وإنما سماهم يتامى بعد البلوغ على مقتضى اللغة أو لقرب عهدهم باليتم وإن كان قد زال عنهم بالبلوغ وقيل المراد باليتامى الصغار الذين لم يبلغوا والمعنى وآتوا اليتامى أموالهم بعد البلوغ وتحقق الرشد وقيل معناه وآتوا اليتامى الصغار ما يحتجون اليه من نفقة وكسوة والقول الأول هو الصحيح إذا المراد باليتامى البالغون لأنه لا يجوز دفع المال إلى اليتيم إلا بعد البلوغ وتحقق الرشد (ولا تتبدلوا) أى ولا تستبدلوا (الخبيث بالطيب) يعنى الخبيث الذى هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم واختلفوا فى هذا التبديل فقال سعيد بن المسيب والنخعى والزهرى والسدى كان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم ويجعلون مكانه الردىء فربما كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة ويجعل مكانها المهزولة ويأخذ الدرهم الجيد ويجعل مكانه الزيف ويقول شاة بشاة ودرهم بدرهم فذلك تبديلهم فنهوا عنه وقال عطاء هو الربح فى مال اليتيم وهو صغير لا علم له بذلك وقيل إنه ليس بابدال حقيقة وإنما هو أخذه مستهلكا وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون النساء والصغار وإنما كان يأخذ الميراث الأكابر من الرجال وقيل هو أكل مال اليتيم عوضا عن أكل أموالهم فنهوا عن ذلك (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) يعنى مع أموالكم وقيل معناه ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم فى الإنفاق واعلم أن الله تعالى نهى عن أكل مال اليتيم وأراد به جميع التصرفات المهلكة للمال وإنما ذكر الأكل لأنه معظم المقصود (إنه كان حوبا كبيرا) يعنى أن أكل مال اليتيم من غير حق إثم عظيم والحوب الإثم . قوله عز وجل (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى) يعنى وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن فانكحوا غيرهن من الغرائب (ق) عن عروة أنه سأل عائشة رضى الله تعالى عنهما عن قوله تعالى « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء إلى قوله أو ماملكت أيمانكم » قالت يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى جمالها ومالها ويريد أن ينتقص صداقها فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن قالت عائشة رضى الله عنها فاستفتى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فأنزل الله عز وجل ويستفتونك فى النساء إلى وترغبون أن تنكحوهن فبين الله لهم هذه الآية أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال رغبوا فى نكاحها ولم يلحقوها بسنتها فى إكمال الصداق وإن كانت مرغوبة عنها فى قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء قال فكلما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الأوفى من الصداق وقال الحسن كان الرجل من أهل المدينة تكون عنده الأيتام وفيهن من يحل له نكاحها فيتزوجها لأجل مالها وهى لا تعجبه كراهية أن يدخل غريب فيشاركه فى مالها ثم يسيء صحبتها ويتربص بها إلى أن تموت فيورثها فعاب الله ذلك عليهم وأنزل هذه الآية وقال عكرمة فى روايته عن ابن عباس كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء أو أكثر فاذا صار معدما من نساء مال إلى مال يتيمته التى فى حجره فأنفقه فقيل لهم لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم إلى أخذ مالى اليتامى وقيل كانوا يتحرجون عن أموال اليتامى ويترخصون فى النساء فيتزوجون ماشاؤا فربما عدلوا وربما لم يعدلوا فلما أنزل الله تعالى فى أموال اليتامى وآتوا اليتامى أموالهم أنزل هذه الآية وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى يقول فكما خفتم ألا

تقسطوا

فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) اختلفوا فى تأويلهم فقال بعضهم معناه إن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن فانكحوا غيرهن من الغرائب مثنى وثلاث ورباع أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهرى قال كان عروة بن الزبير يحدث أنه سأل عائشة رضى الله عنها وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء قالت هى اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى جمالها ومالها ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة نسائها فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن من النساء قالت عائشة رضى الله عنها ثم استفتى الناس رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن إلى قوله تعالى وترغبون أن تنكحوهن فبين الله تعالى فى هذه الآية أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال أو مال رغبوا فى نكاحها ولم يلحقوها بسنتها با كمال الصداق وإذا كانت مرغوبة عنها فى قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء قال فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها ، إلا أن يقسطوا لها الأوفى من الصداق ويعطوها حقها قال الحسن كان الرجل من أهل الجاهلية تكون عنده الأيتام وفيهن من يحل له نكاحها فيتزوجها لأجل مالها وهى لا تعجبه كراهية أن يدخل غريب فيشاركه فى مالها ثم يسيء صحبتها ويتربص بها أن تموت ويرثها فعاب الله تعالى ذلك وأنزل الله هذه الآية وقال عكرمة كان الرجل من قريش يتزوج العشر من النساء والأكثر إذا صار معدما من مؤن نسائه مال إلى مال يتيمته التى فى حجره فأنفقه فقيل لهم لا تزيدوا على أربع حتى لا يحوجكم إلى أخذ أموال اليتامى وهذه رواية طاوس عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال بعضهم كانوا يتحرجون عن أموال اليتامى ويترخصون فى النساء فيتزوجون ماشاءوا وربما عدلوا وربما لم يعدلوا فلما أنزل الله تعالى فى أموال اليتامى «وآتوا اليتامى أموالهم» أنزل هذه الآية «وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى» يقول كما خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فكذلك خافوا فى النساء أن لا تعدلوا فيهن فلا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقوقهن لأن النساء فى الضعف كاليتامى وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدى ثم رخص فى نكاح أربع فقال «فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فيهن فواحدة» وقال مجاهد معناه إن تحرجتم من ولاية اليتامى وأموالهم إيمانا

تقسطوا فى اليتامى فكذلك خافوا فى النساء ألا تعدلوا فيهن فلا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقهن لأن النساء فى الضعف كاليتامى وهذا قول سعيد بن جبير وقتادة والضحاك والسدى ثم رخص الله تعالى فى نكاح أربع فقال تعالى (فانكحوا ماطاب لكم من النساء) يعنى ماحل لكم من النساء واستدلت الظاهرية بهذه الآية على وجوب النكاح قالوا لأن قوله فانكحوا أمر والأمر للوجوب. وأجيب عنه بأن قوله تعالى فانكحوا إنما هو بيان لما يحل من العدد فى النكاح وتمسك الشافعى فى بيان أن النكاح ليس بواجب بقوله ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح إلى قوله ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم الآية فحكم فى هذه السورة بأن ترك النكاح خير من فعله وذلك يدل على أنه ليس بواجب ولا مندوب . وقوله تعالى (مثنى وثلاث ورباع) معناه اثنين اثنين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا وهو غير منصرف لأنه اجتمع فيه أمران : العدل والوصف والواو بمعنى أو فى هذا الفصل لأنه لما كانت أو بمنزلة واو النسق جاز أن تكون الواو بمنزلة أو وقيل إن الواو أفادت أنه يجوز لكل أحد أن يختار لنفسه قسما من هذه الأقسام بحسب حاله فان قدر على نكاح اثنتين فاثنتان وإن قدر على ثلاث فثلاث وإن قدر على أربع فأربع إلا أنه يضم عددا وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة وأن الزيادة على أربع من خصائص رسول الله ﷺ التى لا يشاركه فيها أحد من الأمة ويدل على أن الزيادة على أربع غير جائزة وأنها حرام ماروى عن الحارث بن قيس أو قيس بن الحارث قال أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اختر منهن أربعا أخرجه أبو داود عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وله عشر نسوة فى الجاهلية فأسلمن معه فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعا أخرجه الترمذى قال العلماء فيجوز للحر أن يجمع بين أربع نسوة حرائر ولا يجوز للعبد أن ينكح أكثر من امرأتين وهو قول أكثر العلماء لأنه خطاب لمن ولى وملك وذلك للأحرار دون العبيد وقال مالك فى إحدى الروايتين عنه وربيعة يجوز للعبد أن يتزوج بأربع نسوة واستدل بهذه الآية وأجاب الشافعى بأن هذه الآية مختصة بالأحرار ويدل عليه آخر الآية

فكذلك تحرجوا من الزنا فانكحوا النساء الحلال نكاحا طيبا ثم بين لهم عددا وكانوا يتزوجون ماشاءوا من غير عدد فنزل قوله تعالى «فانكحوا ماطاب لكم من النساء» أى من طاب كقوله تعالى «والسماء وما بناها» وقوله تعالى «قال فرعون وما رب العالمين» والعرب تضع من وما كل واحدة موضع الأخرى كقوله تعالى «فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين» وطاب أى حل لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع معدولات عن اثنين وثلاث وأربع ولذلك لايصرفن الواو بمعنى أو للتخيير كقوله تعالى «أن تقوموا لله مثنى وفرادى» وقوله تعالى «أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع» وهذا إجماع أن أحدا من الأمة لايجوز له أن يزيد على أربع نسوة وكانت الزيادة من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم لامشاركة معه لأحد من الأمة فيها وروى أن قيس ابن الحارث كان تحته ثمان نسوة فلما نزلت هذه الآية قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق أربعا وأمسك أربعا فجعل يقول للمرأة التى لم تلد يافلانة أدبرى والتى قد ولدت يافلانة أقبلى وروى أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وعنده عشر نسوة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أمسك أربعا وفارق سائرهن وإذا جمع الحر بين أربع نسوة حرائر فانه يجوز فأما العبد فلايجوز له أن ينكح أكثر من امرأتين عند أكثر أهل العلم لما أخبرنا عبد الوهاب بن أحمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا سفيان عن محمد بن عبد الرحمن مولى أبى طلحة عن سليمان بن يسار عن عبد الله بن عتبة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال ينكح العبد امرأتين ويطلق تطلقتين وتعتد الأمة بحيضتين فان لم تكن تحيض فبشهرين أو شهر ونصف وقال ربيعة يجوز للعبد أن ينكح أربع نسوة كالحر (فان خفتم) خشيتم وقيل علمتم (ألا تعدلوا) بين الأزواج الأربع (فواحدة) أى فانكحوا واحدة وقرأ أبو جعفر فواحدة بالرفع (أو ماملكت أيمانكم) يعنى السرارى لأنه لا يلزم فيهن من الحقوق ما يلزم فى الحرائر ولاقسم لهن ولاوقف فى عددهن وذكر الأيمان بيان تقديره أو ماملكتم وقال بعض أهل المعانى أو ماملكت أيمانكم أى ماينفذ فيه أقسامكم جعله من يمين الحلف لايمين الجارحة (ذلك أدنى) أقرب (أن لاتعولوا) أى لاتجوروا ولاتميلوا يقال ميزان عائل أى جائر مائل هذا قول أكثر المفسرين وقال مجاهد أن لاتضلوا وقال الفراء أن لاتجاوزوا مافرض الله عليكم وأصل العول المجاوزة ومنه عول الفرائض وقال الشافعى رحمه الله أن لاتكثر عيالكم وما قاله أحد إنما يقال أعال يعيل إعالة إذا كثر عياله وقال أبو حاتم كان الشافعى رضى الله عنه أعلم بلسان

وهو قوله «فان خفتم» إلا تعدلوا فواحدة أوماملكت أيمانكم أو العبد لايملك شيئا فثبت بذلك أن المراد من حكم الآية الأحرار دون العبيد. وقوله تعالى (فان خفتم) يعنى فان خشيتم (وقيل فان علمتم (ألا تعدلوا) يعنى بين الأزواج الأربع (فواحدة) يعنى فانكحوا واحدة (أوماملكت أيمانكم) يعنى وما ملكتم من السرارى لأنه لايلزم فيهن من الحقوق مثل مايلزم فى الحرائر ولاقسم لهن (ذلك أدنى) أى أقرب (أن لاتعولوا) معناه أقرب من أن لاتعولوا فحذف لفظة من لدلالة الكلام عليه ومعنى أن لاتعولوا أى لاتميلوا ولاتجوروا وهو قول أكثر المفسرين لأن أصل العول الميل يقال عال الميزان إذا مال وقيل معناه لاتجاوزوا مافرض الله عليكم ومنه عول الفرائض إذا جاوزت سهامها وقيل معناه ذلك أدنى أن لاتضلوا وقال الشافعى رحمه الله تعالى معناه أن لاتكثر عيالكم وقد أنكر على الشافعى من ليس له إحاطة بلغة العرب فقال إنما يقال من كثرة العيال أعال الرجل يعيل إعالة إذا كثر عياله قال وهذا من خطأ الشافعى لأنه انفرد به ولم يوافقه عليه أحد وإنما قال هذه المقالة من أنكر على الشافعى وخطأه من غير علم له بلغة العرب فقد روى الأزهرى فى كتابه تهذيب اللغة عن عبد الرحمن ابن زيد ابن أسلم فى قوله ألا تعولوا أى لاتكثر عيالكم وروى الأزهرى عن الكسائى قال عال الرجل إذا افتقر وأعال إذا كثر عياله قال ومن العرب الفصحاء من يقول عال يعول إذا كثر عياله قال الأزهرى وهذا يقوى قول الشافعى لأن الكسائى لايحكى عن العرب إلا ماحفظه وضبطه وقول الشافعى نفسه حجة لأنه عربى فصيح والذى اعترض عليه وخطأه عجل ولم يتثبت فيما قال ولا ينبغى للحضرى أن يعجل إلى إنكار ما لايحفظه من لغات العرب هذا آخر كلام الأزهرى وبسط الإمام فخر الدين الرازى فى هذا الموضع من تفسيره ورد على أبى بكر الرازى ثم قال الطعن لايصدر إلا عن كثرة الغباوة وقلة المعرفة وحكى البغوى عن أبى حاتم قال كان الشافعى أعلم بلسان العرب منا ولعله لغة ويقال هى لغة حمير وقرأ طلحة بن مصرف ألا تعيلوا بضم

العرب منا فلعله لغة ويقال هي لغة حمير وقرأ طلحة بن مصرف أن لا تعيلوا وهي حجة لقول الشافعي رضوان الله عليه (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) قال الكلبي ومجاهد هذا الخطاب للأولياء وذلك أن ولي المرأة كان إذا تزوجها فان كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها قليلا ولا كثيرا وإن كان زوجها غريبا حملوها إليه على بعير ولم يعطوها من مهرها غير ذلك فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله قال الحضرمي وكان أولياء النساء يعطي هذا أخته على أن يعطيه الآخر أخته ولا مهر بينهما فنهوا عن ذلك وأمروا بتسمية المهر في العقد أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الشغار والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته وليس بينهما صداق وقال الآخرون الخطاب للأزواج أمروا بإيتاء نسائهم الصداق وهذا أصح لأن الخطاب فيما قبل مع الناكحين والصدقات المهور واحدها صدقة نحلة قال قتادة فريضة وقال ابن جريج فريضة مسماة قال أبو عبيدة ولا تكون النحلة إلا مسماة معلومة وقال الكلبي عطية وهبة وقال أبو عبيدة عن طيب نفس وقال الزجاج تدينا أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد ابن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا عبد الله بن يوسف أخبرنا الليث حدثني يزيد ابن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج (فان طبن لكم عن شيء منه نفسا) يعني فان طابت نفوسهن بشيء من ذلك فوهبن منكم فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها فخرجت النفس مفسرا فلذلك وحد النفس كما قال الله تعالى «وضاق بهم ذرعا وقري عينا» وقيل لفظها واحد ومعناها جمع (فكلوه هنيئا مريئا) سائغا طيبا يقال هنأني الطعام يهنئني بفتح النون في الماضي وكسرها في الغابر وقيل الهنيء الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء والمريء المحمود العاقبة التام الهضم الذي لا يضر قرأ أبو جعفر هنيا مريا بتشديد الياء فيهما من غير همزة وكذلك بري وبريون وبريا وكهية والآخرون يهمزونها قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم

بضم التاء وهو حجة للشافعي (وآتوا النساء صدقاتهن) قال الكلبي وجماعة هذا خطاب للأولياء قال أبو صالح كان الرجل إذا تزوج أيمه أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك وقيل إن ولي المرأة كان إذا زوجها فان كانت معهم في العشيرة لم يعطها من مهرها لا قليلا ولا كثيرا وإن كان زوجها غريبا حملوها إليه على بعير ولا يعطيها من مهرها غير ذلك فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يدفعوا الحق إلى أهله وقال الحضرمي كان أولياء النساء يعطي هذا أخته على أن يعطيه الآخر أخته ولا مهر بينهما وهذا هو الشغار فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بتسمية المهر في العقد (ق) عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الشغار في العقد والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الرجل ابنته وليس بينهما صداق وقيل الخطاب للأزواج وهذا أصح وهو قول الأكثرين لأن الخطاب فيما قبل مع الناكحين وهم الأزواج أمرهم الله تعالى بإتيان نسائهم الصداق والصداق المهور واحدها صدقة بفتح الصاد وضم الدال (نحلة) يعني فريضة مسماة وقيل عطية وهبة وقيل نحلة يعني عن طيب نفس وأصل النحلة العطية على سبيل التبرع وهي أخص من الهبة وسمي الصداق نحلة من حيث إنه لا يجب في مقابلته غير التمتع دون عوض مالي (ق) عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق الشروط أن توفوا بها ما استحللتم به الفروج. وقوله تعالى (فان طبن) يعني النساء المتزوجات (لكم) يعني للأزواج (عن شيء منه) يعني من الصداق ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض لأنها لو وهبت المرأة لزوجها جميع صداقها جاز (نفسا) نصب على التمييز والمعنى فان طابت نفوسهن عن شيء من ذلك الصداق المبين فوهبن ذلك لكم فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها فخرجت النفس مفسرا فلذلك وحد النفس وقيل لفظه واحد ومعناه الجمع (فكلوه) يعني ما وهبنه لكم (هنيئا مريئا) يعني طيبا سائغا وقيل الهنيء الطيب المساغ الذي لا ينغصه شيء والمريء المحمود العاقبة وفي الآية دليل على إباحة هبة المرأة صداقها وأنها تملكه ولا حق للولي فيه. قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) اختلفوا في هؤلاء السفهاء من هم فقيل هم النساء نهى الله الرجال أن يؤتوا النساء أموالهم سواء كن أزواجا أو بنات أو أمهات وقيل هم الأولاد خاصة يقول لا تعط ولدك السفيه مالك الذي هو قيامك فيفسده عليك وقيل امرأتك وابنك السفيه قال ابن عباس لا تعمد إلى مالك الذي خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك وابنك فيكونوا هم الذين يقومون عليك ثم تنظر إلى ما بين أيديهم أمسك مالك وأصلحه وكن أنت

التي جعل الله لكم قياما) اختلفوا فى هؤلاء السفهاء فقال قوم هم النساء وقال الضحاك النساء من اسفه السفهاء وقال مجاهد نهى الرجال أن يؤتوا النساء أموالهم وهن سفهاء سواء كن أزواجا أو بنات أو أمهات وقال الآخرون هم الأولاد قال الزهرى يقول لاتعط ولدك السفيه مالك الذى هو قيامك بعد الله تعالى فيفسده وقال بعضهم هم النساء والصبيان وقال الحسن هى امرأتك السفيهة وابنتك السفيهة وقال ابن عباس لاتعمد إلى مالك الذى خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك وبنيك فيكونوا هم الذين يقومون عليك ثم تنظر إلى مافى أيديهم ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذى تنفق عليهم فى رزقهم ومؤنتهم قال الكلبى إذا علم

الرجل أن امرأته سفيهة مفسدة وأن ولده سفيه مفسد فلا ينبغى له أن يسلط واحدا منهما على ماله فيفسده وقال سعيد بن جبير وعكرمة هو مال اليتيم يكون عندك يقول لاتؤته إياه وأنفقه عليه حتى يبلغ وإنما أضاف إلى الأولياء فقال أموالكم لأنهم قوامها ومدبروها والسفيه الذى لايجوز لوليه أن يؤتيه ماله هو المستحق الحجر عليه وهو أن يكون مبذرا فى ماله أو مفسدا فى دينه فقال جل ذكره ولاتؤتوا السفهاء أى الجهال بموضع الحق أموالكم التى جعل الله لكم قياما قرأ نافع وابن عامر قيما بلا ألف وقرأ الآخرون قياما وأصله قواما فانقلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها وهو ملاك الأمر وما يقوم به الأمر وأراد هاهنا قوام عيشكم الذى تعيشون به . قال الضحاك به يقام الحج والجهاد وأعمال البر وبه فكاك الرقاب من النار (وارزقوهم فيها) أى أطعموهم (واكسوهم) لمن يجب عليكم رزقه ومؤنته وإنما قال فى عقولهم فيها ولم يقل منها لأنه أراد أنهم جعلوا لهم فيها رزقا فان الرزق من الله العطية من غير حد ومن العباد أجر موقت محدود (وقولوا لهم قولا معروفا) عدة جميلة وقال عطاء إذا ربحت أعطيتك وإن غنمت فلك فيه حظ وقيل هو الدعاء وقال ابن زيد إن لم يكن ممن يجب عليك نفقته فقل له عافانا الله وإياك بارك الله فيك وقيل قولا تطيب به أنفسهم قوله تعالى (وابتلوا اليتامى) الآية نزلت فى ثابت بن رفاعة وفى عمه وذلك أن رفاعة توفى وترك ابنه ثابتا وهو صغير فجاء عمه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال إن ابن أخى يتيم فى حجرى فما يحل لى من ماله ومتى أدفع إليه ماله فأنزل الله تعالى هذه الآية وابتلوا اليتامى أى

الذى تنفق عليهم فى رزقهم ومؤنتهم وقال الكلبى إذا علم الرجل إن امرأته سفيهة مفسدة وإن ولده سفيه مفسد لاينبغى له أن يسلط واحدا منهما على ماله فيفسده وقال سعيد بن جبير هو مال اليتيم يكون عندك يقول لاتؤته إياه وأنفق عليه منه حتى يبلغ وإنما أضاف المال إلى الأولياء لأنهم قوامها ومدبروها وأصل السفه الخفة واستعمل فى خفة النفس لنقصان العقل فى الأمور الدنيوية والدينية والسفيه المستحق الحجر هو الذى يكون مبذرا فى ماله ومفسدا فى دينه فلا يجوز لوليه أن يدفع إليه ماله وقيل إن السفه المذكور فى هذه الآية ليس هو صفة ذم لهؤلاء وإنما سموا سفهاء لخفة عقولهم ونقصان تمييزهم وضعفهم عن القيام بحفظ المال فقوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء يعنى الجهال بموضع الحق أموالكم (التى جعل الله لكم قياما) يعنى قوام معايشكم يقول المال هو قوام الناس وقوام معايشهم كن أنت قيم أهلك أنفق عليهم ولا تؤت مالك امرأتك وولدك فيكونوا هم الذين يقومون عليك ولما كان المال سببا للقيام بالمعاش سمى به إطلاقا لإسم المسبب على السبب على سبيل المبالغة لأنه به يقام الحج والجهاد وأعمال البر وفكاك الرقاب من النار (وارزقوهم فيها) أى أطعموهم (واكسوهم) يعنى لمن يجب عليكم رزقه وكسوته لما نهى الله عن إيتاء المال للسفيه أمر أن يجرى رزقه وكسوته وإنما قال وارزقوهم فيها ولم يقل منها لأنه أراد اجعلوا لهم فيها رزقا والرزق من الله تعالى هو العطية من غير حد ولا قطع ومعنى الرزق من العباد هو الأجر الموظف المعلوم لوقت معلوم محدود (وقولوا لهم قولا معروفا) يعنى قولا جميلا لأن القول الجميل يؤثر فى القلب ويزيل السفه وقيل معناه عدوهم عدة جميلة من البر والصلة قال عطاء يقول إذا ربحت أعطيتك وإن غنمت قسمت لك حظا وقيل معناه الدعاء أى ادعوا لهم قال ابن زيد إن لم يكن ممن تجب عليك نفقته فقل له عافانا الله وإياك بارك الله فيك وقيل معناه قولوا لهم قولا تطيب به أنفسهم وهو أن يقول الولى لليتيم السفيه مالك عندى وأنا أمين عليه فاذا بلغت ورشدت أعطيتك مالك وقال الزجاج معناه علموهم مع إطعامكم وكسوتكم إياهم أمر دينهم وما يصلحهم مما يتعلق بالعلم والعمل . قوله عز وجل (وابتلوا اليتامى) الآية نزلت فى ثابت بن رفاعة وفى عمه وذلك أن رفاعة مات وترك ابنه ثابتا وهو صغير فجاء عمه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له إن ابن أخى يتيم فى حجرى فما يحل لى من ماله ومتى أدفع إليه ماله فأنزل الله تعالى هذه الآية وابتلوا اليتامى يعنى اختبروهم

اختبروهم فى عقولهم وأديانهم وحفظهم أموالهم (حتى إذا بلغوا النكاح) أى مبلغ الرجال والنساء (فان آنستم) أبصرتم (منهم رشدا) فقال المفسرون يعنى عقلا وصلاحا فى الدين وحفظا للمال وعلما بما يصلحه، وقال سعيد بن جبير ومجاهد والشعبي لايدفع إليه ماله وإن كان شيخا حتى يؤنس منه رشده والابتلاء يختلف باختلاف أحوالهم فان كان ممن يتصرف فى السوق فيدفع الولى إليه شيئا يسيرا من المال وينظر فى تصرفه وإن كان ممن لايتصرف في السوق فيختبره فى نفقة داره والإنفاق على عبيده واجرائه وتختبر المرأة فى أمر بيتها وحفظ متاعها وغزلها واستغزالها فاذا رأى حسن تدبير وتصرفه فى الأمور مرارا يغلب على القلب رشده دفع المال إليه واعلم أن الله تعالى علق زوال الحجر عن الصغير وجواز دفع المال إليه بشيئين: بالبلوغ والرشد والبلوغ يكون بأحد أشياء أربعة: اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء واثنان مختصان بالنساء أحدهما السن والثانى الاحتلام أما السن فقد استكمل المولود خمس عشرة سنة حكم ببلوغه غلاما كان أو جارية لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز ابن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أخبرنا سفيان عن عيينة عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أحد وأنا ابن أربعة عشرة سنة فردنى ثم عرضت عليه عام الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى قال نافع فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبدالعزيز فقال هذا فرق مابين المقاتلة والذرية وكتب أن يفرض لابن خمس عشرة سنة فى المقاتلة ومن لم يبلغها فى الذرية وهذا قول أكثر أهل العلم وقال أبوحنيفة رحمه الله تعالى بلوغ الجارية باستكمال سبع عشرة سنة وبلوغ الغلام باستكمال ثمان عشرة سنة وأما الاحتلام فنعنى به نزول المنى سواء كان بالاحتلام أو بالجماع أو غيرهما فاذا وجدت ذلك بعد استكمال تسع سنين من أيهما كان حكم ببلوغه لقوله تعالى وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا وقال النبي ﷺ لمعاذ فى الجزية حين بعثه إلى اليمن خذ من كل حالم دينارا وأما الإنبات وهو نبات الشعر الخشن حول الفرج فهو بلوغ فى أولاد المشركين لما روى عن عطية القرظى قال كنت من سبى قريظة فكانوا ينظرون فمن أنبت الشعر قتل ومن لم ينبت لم يقتل فكنت ممن لم ينبت وهل يكون ذلك بلوغا فى أولاد المسلمين فيه قولان: أحدهما يكون بلوغا كما فى أولاد الكفار والثانى لايكون بلوغا لأنه يمكن الوقوف على مواليد المسلمين بالرجوع إلى آبائهم وفى الكفار لايوقف على مواليدهم ولا يقبل قول آبائهم فيه لكفرهم فجعل الإنبات للذى هو إمارة البلوغ بلوغا فى حقهم وأما مايختص بالنساء فالحيض والحبل فاذا حاضت المرأة بعد استكمال تسع سنين يحكم ببلوغها وكذلك إذا ولدت يحكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لأنها أقل مدة الحمل وأما الرشد فهو أن يكون مصلحا فى دينه وماله والصلاح فى الدين هو أن يكون مجتنبا عن الفواحش والمعاصى التى تسقط العدالة، والصلاح فى المال هو أن لايكون مبذرا والتبذير هو أن ينفق ماله فيما لايكون فيه محمدة دنيوية ولا مثوبة أخروية أو لايحسن التصرف فيها فيغبن فى البيوع فاذا بلغ الصبى وهو مفسد فى دينه وغير مصلح لماله دام الحجر عليه ولا يدفع إليه المال ولا ينفذ تصرفه وعند أبى حنيفة رضى الله

فى عقولهم وأديانهم وحقوق أموالهم (حتى إذا بلغوا النكاح) أى مبلغ الرجال والنساء (فان آنستم) أى أبصرتم وعرفتم (منهم رشدا) يعنى عقلا وصلاحا فى الدين وحفظا للمال وعلما بما يصلحه.

(فصل فى أحكام تتعلق بالحجر وفيه مسائل)

(المسئلة الأولى) الابتلاء يختلف باختلاف أحوال اليتامى فان كان ممن يتصرف بالبيع والشراء فى الأسواق يدفع إليه شيئا يسيرا من المال وينظر فى تصرفه وإن كان ممن لايتصرف فى الأسواق فيختبر بنفقته على أهله وعبيده وإجرائه وتصرفه فى أموال داره وتختبر المرأة فى أمر بيتها وحفظ متاعها وغزلها واستغزالها فاذا رأى حسن تدبير اليتيم وحسن تصرفه فى الأمور مرارا وغلب على الظن رشده دفع إليه ماله بعد بلوغه ولايدفع إليه ماله وإن كان شيخا يغلب عليه السفه حتى يؤنس منه الرشد.

(المسئلة الثانية) قال الإمام أبو حنيفة تصرفات الصبى العاقل المميز باذن الولى صحيحة وقال الشافعي هى غير صحيحة واحتج أبوحنيفة على قوله بهذه الآية وذلك لأن قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح يقتضى أن هذا الابتلاء إنما يحصل قبل البلوغ والمراد من هذا الابتلاء اختبار حاله فى جميع تصرفاته فثبت أن قوله وابتلوا اليتامى أمر للأولياء بالإذن لهم فى البيع والشراء قبل البلوغ أجاب الشافعي بأن قال ليس المراد وابتلوا اليتامى الإذن لهم

عنه إذا كان مصلحا لماله زال الحجر عنه وإن كان مفسدا فى دينه وإذا كان مفسدا لماله قال لايدفع إليه المال حتى يبلغ خمسا وعشرين سنة غير أن تصرفه يكون نافذا قبله والقرآن حجة لمن استدام الحجر عليه لأن الله تعالى قال

حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا (فادفعوا إليهم أموالهم) أمر بدفع المال إليهم بعد البلوغ وإيناس الرشد والفاسق لايكون رشيدا وبعد بلوغه خمسا وعشرين سنة وهو مفسد لماله بالاتفاق غير رشيد فوجب أن لايجوز دفع المال إليه كما قبل بلوغ هذا السن وإذا بلغ وأونس منه الرشد زال الحجر عنه ودفع إليه المال رجلا كان أو امرأة تزوج أو لم يتزوج وعند مالك رحمه الله تعالى إن كانت امرأة لايدفع المال إليها مالم تتزوج فاذا تزوجت دفع إليها ولكن لاينفذ تصرفها إلا بإذن الزوج مالم تكبر وتجرب وإذا بلغ الصبى رشيدا وزال الحجر عنه ثم عاد سفيها نظر فان عاد مبذرا لماله حجر عليه وإن عاد مفسدا فى دينه فعلى وجهين: أحدهما يعاد الحجر عليه كما يستدام الحجر عليه إذا بلغ بهذه الصفة والثانى لايعاد لأن حكم الدوام أقوى من حكم الابتداء وعند أبى حنيفة رحمه الله تعالى لاحجر على الحر العاقل البالغ بحال والدليل على إثبات الحجر من اتفاق الصحابة رضى الله عنهم ماروى عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الله بن جعفر ابتاع أرضا سبخة بستين ألف درهم فقال على لآتين عثمان فلأحجرن عليك فأتى ابن جعفر الزبير فأعلمه بذلك فقال الزبير أنا شريكك فقال عثمان كيف أحجر على رجل فى بيع شريكه

فى التصرف حال الصغر بدليل قوله فان آنستم منهم رشدا (فادفعوا إليهم أموالهم) وإنما تدفع إليهم أموالهم بعد البلوغ وإيناس الرشد فثبت بموجب هذه الآية أنه لايدفع إليه ماله حال الصغر فوجب أن لايصح تصرفه حال الصغر وإنما المراد من الابتلاء هو اختبار عقله واستكشاف حاله فى معرفة المصالح والمفاسد .

(المسئلة الثالثة) فى بيان البلوغ وذلك بأربعة أشياء اثنان يشترك فيهما الرجال والنساء واثنان يختصان بالنساء أما اللذان يشترك فيهما الرجال والنساء فأحدهما بالسن فاذا استكمل المولود خمس عشرة سنة حكم ببلوغه غلاما كان أو جارية ويدل عليه ماروى عن ابن عمر قال عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردنى ثم عرضت عليه عام الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى أخرجاه فى الصحيحين وهذا قول أكثر أهل العلم وقال أبو حنيفة بلوغ الجارية باستكمال سبع عشرة سنة وبلوغ الغلام باستكمال ثمانى عشرة سنة والثانى الاحتلام وهو إنزال المنى الدافق سواء أنزل باحتلام أو جماع فاذا وجد ذلك من الصبى أو الجارية حكم ببلوغه لقوله تعالى وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ولقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ خذ من كل حالم دينارا أمانيات الشعر الخشن حول الفرج فهو يدل على البلوغ فى أولاد المشركين لما روى عن عطية القرظى قال كنت من سبى قريظة فكانوا ينظرون فمن أنبت الشعر قتل ومن لم ينبت لم يقتل فكنت ممن لم ينبت وهل يكون ذلك علامة عن البلوغ فى أولاد المسلمين فيه قولان: أحدهما أنه يكون بلوغا كما فى أولاد المشركين والثانى لايكون ذلك بلوغا فى حق أولاد المسلمين لأنه يمكن الوقوف على مواليد أولاد المسلمين والرجوع إلى قول آبائهم بخلاف الكفار فانه لايوقف على مواليدهم ولا يقبل فى ذلك قول آبائهم لكفرهم فجعل الانبات الذى هو أمارة البلوغ بلوغا فى حقهم وأما الذى يختص بالنساء فهو الحيض والحبل فاذا حاضت الجارية بعد استكمال تسع سنين حكم ببلوغها وكذلك إذا ولدت حكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لأنها أقل مدة الحمل .

(المسئلة الرابعة) فى بيان الرشد وهو أن يكون مصلحا فى دينه وماله فالصلاح فى الدين هو اجتناب الفواحش والمعاصى التى تسقط بها العدالة والصلاح فى المال هو أن لايكون مبذرا والتبذير أن ينفق ماله فيما لايكون فيه محمدة دنيوية ولا مثوبة أخروية أو لايحسن التصرف فيغبن فى البيع والشراء فاذا بلغ الصبى وهو مفسد لماله ودينه لم ينفك عنه الحجر ولاينفذ تصرفه فى ماله وبه قال الشافعى وقال أبو حنيفة إذا كان مصلحا لماله زال عنه الحجر وإن كان مفسدا لدينه وإذا كان لماله مفسدا لايدفع إليه المال حتى يبلغ خمسة وعشرين سنة غير أنه ينفذ تصرفه قبله والقرآن حجة الشافعى فى استدامة الحجر عليه لأن الله تعالى قال فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم أمر بدفع المال بعد البلوغ وإيناس الرشد والفاسق لايكون رشيدا وبعد بلوغه خمسا وعشرين سنة وهو مفسد لماله بالإنفاق غير رشيد فوجب أن لايجوز دفع المال إليه كما قبل بلوغ هذا السن.

(المسألة

(المسئلة الخامسة) إذا بلغ الصبى أو الجارية وأونس منه الرشد زال عنه الحجر ودفع إليه ماله سواء تزوج أولم يتزوج وقال مالك إن كانت امرأة لايدفع إليها المال مالم تتزوج فاذا تزوجت دفع إليها مالها ولاينفذ تصرفها إلا باذن الزوج مالم تكبر وتجرب .

(المسئلة السادسة) إذا بلغ الصبى رشيدا زال عنه الحجر فلو عاد سفيها ينظر فان كان مبذرا لماله حجر عليه وإن كان مفسدا فى دينه فعلى وجهين : أحدهما أن يعاد عليه الحجر كما يستدام إذا بلغ وهو بهذه الصفة . والثانى لايحجر عليه لأن حكم الدوام أقوى من حكم الابتداء وعند أبى حنيفة لاحجر على الحر العاقل البالغ بحال والدليل على إثبات الحجر من اتفاق الصحابة ماروى عن هشام بن عروة عن أبيه أن عبد الله بن جعفر ابتاع أرضا سبخة بستين ألف درهم فقال على لآتين عثمان ولأحجرن عليك فأتى ابن جعفر الزبير فأعلمه بذلك فقال الزبير أنا شريكك فى بيعك فأتى على عثمان فقال احجر على هذا فقال الزبير أنا شريكه فقال عثمان كيف أحجر على رجل فى بيع شريكه فيه الزبير فكان اتفاقا منهم على جواز الحجر حتى احتال الزبير لدفعه وقوله تعالى (ولا تأكلوها إسرافا) الخطاب للأولياء يعنى يامعشر الأولياء لاتأكلوا أموال اليتامى بغير حق (وبدارا أن يكبروا) يعنى لاتبادروا كبرهم ورشدهم فتفرطوا فى إنفاقها وتقولون ننفق كما نشتهي قبل أن يكبروا فيلزمكم تسليمها إليهم ثم بين تعالى حال الأولياء وقسمهم قسمين فقال تعالى (ومن كان غنيا فليستعفف) أى فليمتنع من أكل مال اليتيم ولا يرزأه قليلا ولا كثيرا (ومن كان فقيرا) يعنى محتاجا إلى مال اليتيم وهو يحفظه (فليأكل بالمعروف) روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إنى فقير وليس لى شىء ولى يتيم فقال كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل واختلف العلماء فى حكم هذه الآية فروى عن عمر وابن عباس وابن جبير وأبى العالية وعبيدة السلمانى وأبى وائل ومجاهد ومقاتل أنه يأخذ من مال اليتيم على وجه القرض واختلفوا فى أنه هل يلزمه القضاء فذهب قوم إلى أنه يلزمه القضاء إذا أيسر وهو المراد من قوله تعالى فليأكل بالمعروف والمعروف القرض أى يستقرض من مال اليتيم إذا احتاج إليه فاذا أيسر قضاه وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير قال عمر بن الخطاب إنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة مال اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف فاذا أيسرت قضيت وقال قوم لاضمان عليه ولا قضاء بل يكون ما يأكله كالأجرة له على عمله وهو قول الحسن والشعبى والنخعى وقتادة قال الشعبى لايأكله إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة ثم القائلون بجواز الأكل من مال اليتيم اختلفوا فى قوله فليأكل بالمعروف فقال عطاء وعكرمة يأكل بأطراف أصابعه ولا يسرف ولا يكتسى منه ولايلبس الكتان ولا الحلل لكن يأكل مايسد به الجوع ويلبس مايستر به العورة وقال الحسن يأكل من تمر نخله ولبن مواشيه بالمعروف ولاقضاء عليه فأما الذهب والفضة فلا يأخذ منه شيئا فان أخذ وجب عليه رده وقال الكلبى المعروف هو ركوب الدابة وخدمة الخادم وليس له أن يأكل من ماله شيئا وروى أن رجلا قال لابن عباس إن لى يتيما وإن له إبلا أفأشرب من لبن إبله فقال ابن عباس إن كنت تبغى ضالة إبله وتهنأ جرباها وتليط

فيه الزبير فكان ذلك اتفاقا منهم على جواز الحجر حتى احتال الزبير فى دفعه قوله تعالى (ولا تأكلوها) يامعشر الأولياء (إسرافا) بغير حق (وبدارا) أى مبادرة (أن يكبروا) وأن فى محل النصب يعنى لاتبادروا كبرهم ورشدهم حذر أن يبلغوا فيلزمكم تسليمها إليهم ثم بين مايحل لهم من مالهم فقال (ومن كان غنيا فليستعفف) أى ليمتنع من مال اليتيم فلا يرزؤه قليلا ولا كثيرا والعفة الامتناع مما لايحل (ومن كان فقيرا) محتاجا إلى مال اليتيم وهو يحفظه ويتعهده (فليأكل بالمعروف) أخبرنا محمد ابن الحسن المروزى أخبرنا أبو سهل محمد ابن عمر السنجرى أخبرنا الإمام أبو سليمان الخطابى أخبرنا أبو بكر بن داسة التمار أخبرنا أبو داود السجستانى أخبرنا حميد بن مسعدة أن خالد بن الحارث حدثهم أخبرنا حسين يعنى المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إنى فقير وليس لى شىء ولي يتيم فقال «كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبادر ولا متأثل» واختلفوا فى أنه هل يلزمه القضاء فذهب بعضهم إلى أنه يقضى إذا أيسر وهو المراد من قوله فليأكل بالمعروف فالمعروف القرض أى يستقرض من مال اليتيم إذا احتاج إليه فاذا أيسر قضاه ، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه إنى أنزلت نفسى من مال الله تعالى بمنزلة مال اليتيم إن استغنيت

على عامة ماله فنهاهم الله تعالى عن ذلك وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد فى وصيته على الثلث ولا يجحف بورثته كما أنه لو كان هذا القائل هو الموصى لسره أن يحثه من يحضره على حفظ ماله لولده ولا يدعهم عالة مع ضعفهم وعجزهم وقال الكلبى هذا الخطاب لولاة اليتامى يقول من كان فى حجره يتيم فليحسن إليه وليأت فى حقه ما يحب أن يفعل بذريته من بعده قوله تعالى (فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) أى عدلا والسديد العدل والصواب من القول وهو أن يأمره بأن يتصدق بما دون الثلث ويخلف الباقى لورثته قوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) قال مقاتل وابن حيان نزلت فى رجل من بنى غطفان يقال له مرثد بن زيد ولى مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله فأنزل الله تعالى فيه « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما » أى حراما بغير حق (إنما يأكلون فى بطونهم نارا) أخبر عن مآله أى عاقبته تكون كذلك (وسيصلون سعيرا) قراءة العامة بفتح الياء أى يدخلونه

الفقر قيل هذا خطاب للذين يجلسون عند المريض وقد حضره الموت فيقول له انظر لنفسك فان أولادك وورثتك لايغنون عنك شيئا قدم لنفسك أعتق وتصدق واعط فلايزالون به حتى يأتى على عامة ماله فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بأن يأمروه بالنظر لولده ولا يزيد على الثلث فى وصيته ولا يجحف والمعنى كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم فى الضعف والجوع من غير مال فاخشوا الله ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده الصغار من ماله وحاصل هذا الكلام كما أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك فلا ترضه لأخيك المسلم وكما أنه لو كان هذا القائل هو الموصى لسره أن يحثه من يحضره على حفظ ماله لولده ولا يدعهم عالة يتكففون الناس مع ضعفهم وعجزهم وقيل هو الرجل يحضره الموت ويريد أن يوصى بشىء فيقول له من حضره من الرجال اتق الله وامسك أموالك لولدك فيمنعونه من الوصية لأقاربه المحتاجين وقيل الآية يحتمل أن تكون خطابا لمن حضر أجله ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية لئلا تبقى ورثته فقراء ضعافا ضائعين بعد موته ثم إن كانت هذه الآية نزلت قبل تقدير الثلث كان المراد منها أن لا يجعل الوصية مستغرقة للتركة وإن كانت قد نزلت بعد تقدير الثلث كان المراد منها أن يوصى بالثلث أو بأقل منه إذا خاف على ورثته كما روى عن كثير من الصحابة أنهم أوصوا بالقليل لأجل ذلك وكانوا يقولون الخمس فى الوصية أفضل من الربع والربع أفضل من الثلث وقد ورد فى الصحيح الثلث والثلث كثير لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس يعنى يسألونهم بأكفهم وقيل هو خطاب لأولياء اليتامى والمعنى وليخش من خاف على ولده من بعد موته أن يضيع مال اليتيم الضعيف الذى هو ذرية غيره إذا كان فى حجره والمقصود من الآية أن من كان فى حجره يتيم فليحسن اليه وليه أو وصيه وليفعل به ما يحب أن يفعل بأولاده من بعده (فليتقوا الله) يعنى فى الأمر الذى تقدم ذكره (وليقولوا قولا سديدا) يعنى عدلا وصوابا فالقول السديد من الجالسين عند المريض هو أن يأمروه أن يتصدق بدون الثلث ويترك الباقى لولده وورثته وأن لا يحيف فى وصيته والقول السديد من الأوصياء وأولياء اليتامى أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم ولا يؤذوهم بقول ولا فعل قوله عز وجل (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) قال مقاتل وابن حبان نزلت فى رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولى مال يتيم وكان اليتيم ابن أخيه فأكله فأنزل الله هذه الآية إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما يعنى حراما بغير حق (إنما يأكلون فى بطونهم نارا) يعنى سيأكلون يوم القيامة فسمى الذين يأكلون نارا بما يئول إليه أمرهم يوم القيامة قال السدى يبعث آكل مال اليتيم ظلما يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأذنيه وعينيه وأنفه يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم وفى حديث أبى سعيد الخدرى قال حدثنى النبى صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسرى به قال نظرت فاذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل فى أفواههم صخرا من نار يخرج من أسافلهم قلت ياجبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وقيل إنما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع فى الكلام والمراد أن أكل مال اليتيم ظلما يفضى به إلى النار وإنما خص الأكل بالذكر وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات وجميع التصرفات الرديئة المتلفة للمال لأن الضرر يحصل بكل ذلك لليتيم فعبر عن جميع ذلك بالأكل لأنه معظم المقصود وإنما ذكر البطون للتأكيد فهو كقولك رأيت بعينى وسمعت بأذنى (وسيصلون سعيرا) يعنى بأكلهم أموال اليتامى

ظلما والسعير النار الموقدة المسعرة ولما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس واحترزوا من مخالطة اليتامى وأموالهم بالكلية فشق ذلك على اليتامى فنزل قوله تعالى «وإن تخالطوهم فاخوانكم» وقد توهم بعضهم أن قوله وإن تخالطوهم ناسخ لهذه الآية وهذا غلط ممن توهمه لأن هذه الآية واردة فى المنع من أكل أموال اليتامى ظلما وهذا لا يصير منسوخا لأن أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وقوله وإن تخالطوهم فاخوانكم وارد على سبيل الإصلاح فى أموال اليتامى والإحسان اليهم وهو من أعظم القرب. قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) اختلف العلماء فى سبب نزول هذه الآية فروى عن جابر قال مرضت فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى وأبو بكر وهما يمشيان فوجدانى أغمى على فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صب وضوءه على فأفقت فاذا النبى صلى الله عليه وسلم جالس فقلت يارسول الله كيف أصنع فى مالى كيف أقضى فى مالى فلم يجبنى بشىء حتى نزلت آية الميراث وفى رواية فقلت لا يرثنى إلا كلالة فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض وفى رواية أخرى فنزلت «يوصيكم الله فى أولادكم» وفى رواية أخرى فلم يرد على شيئا حتى نزلت آية الميراث يستفتونك قل الله يفتيكم أخرجه البخارى ومسلم وقال مقاتل والكلبى نزلت فى أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته وقال عطاء نزلت فى سعد ابن الربيع النقيب استشهد يوم أحد وترك بنتين وامرأة وأخا (ق) عن جابر رضى الله عنه قال جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيدا وأن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال قال يقضى الله فى ذلك فنزلت آية الميراث فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال اعط ابنتى سعد الثلثين واعط أمهما الثمن وما بقى فهو لك أخرجه الترمذى وقال السدى كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوارى ولا الضعفاء من الغلمان لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة وخمس بنات فجاء الورثة وأخذوا ماله فشكت امرأته إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة وقبل الشروع فى تفسير هذه الآية الكريمة نقدم فصولا تتضمن أحكام الفرائض وأصول قواعدها.

فصل فى الحث على تعليم الفرائض

اعلم أن علم الفرائض من أعظم العلوم قدرا وأشرفها ذخرا وأفضلها ذكرا وهى ركن من أركان الشريعة وفرع من فروعها فى الحقيقة اشتغل الصدر الأول من الصحابة بتحصيلها وتكلموا فى فروعها وأصولها ويكفى فى فضلها أن الله عز وجل تولى قسمتها بنفسه وأنزلها فى كتابه مبينة من محل قدسه وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعليمها فيما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تعلموا الفرائض والقرآن وعلموا الناس فانى مقبوض» أخرجه الترمذى وقال فيه اضطراب وأخرجه أحمد بن حنبل وزاد فيه فانى امرؤ مقبوض والعلم مرفوع ويوشك أن يختلف اثنان فى الفريضة فلا يجدان أحدا يخبرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تعلموا الفرائض وعلموها فانه نصف العلم» وهو أول علم ينسى وهو أول شىء ينزع من أمتى أخرجه ابن ماجه والدار قطنى.

الياء أى يدخلون النار ويحرقون نظيره قوله تعالى «فسوف نصليه نارا سأصليه سقر» وفى الحديث قال النبى ﷺ «رأيت ليلة أسرى بى قوما لهم مشافر كمشافر الإبل إحداهما قالصة على منخريه والأخرى على بطنه وخزنة النار يلقمونهم جمر جهنم وصخرها فقلت: ياجبريل من هؤلاء؟ قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما» قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) الآية اعلم أن الوراثة كانت فى الجاهلية بالذكورة والقوة فكانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان فأبطل الله ذلك بقوله «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون» الآية وكانت أيضا فى الجاهلية وابتداء الإسلام بالمحالفة قال الله تعالى «والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم» ثم صارت الوراثة بالهجرة قال الله تعالى «والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا» فنسخ ذلك كله وصارت الوراثة بأحد الأمور الثلاثة: بالنسب والنكاح أو الولاء والمعنى بالنسب أن القرابة يرث

الفقر قيل هذا خطاب للذين يجالسون عند المريض وقد حضره الموت فيقول له انظر لنفسك فان أولادك وورثتك لايغنون عنك شيئا قدم لنفسك أعتق وتصدق واعط فلايزالون به حتى يأتى على عامة ماله فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بأن يأمروه بالنظر لولده ولا يزيد على الثلث فى وصيته ولا يجحف والمعنى كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم فى الضعف والجوع من غير مال فاخشوا الله ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده الصغار من ماله وحاصل هذا الكلام كما أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك فلا ترضه لأخيك المسلم وكما أنه لو كان هذا القائل هو الموصى لسره أن يحثه من يحضره على حفظ ماله لولده ولا يدعهم عالة يتكففون الناس مع ضعفهم وعجزهم وقيل هو الرجل يحضره الموت ويريد أن يوصى بشىء فيقول له من حضره من الرجال اتق الله وامسك أموالك لولدك فيمنعونه من الوصية لأقاربه المحتاجين وقيل الآية يحتمل أن تكون خطابا لمن حضر أجله ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية لئلا تبقى ورثته فقراء ضعافا ضائعين بعد موته ثم إن كانت هذه الآية نزلت قبل تقدير الثلث كان المراد منها أن لا يجعل الوصية مستغرقة للتركة وإن كانت قد نزلت بعد تقدير الثلث كان المراد منها أن يوصى بالثلث أو بأقل منه إذا خاف على ورثته كما روى عن كثير من الصحابة أنهم أوصوا بالقليل لأجل ذلك وكانوا يقولون الخمس فى الوصية أفضل من الربع والربع أفضل من الثلث وقد ورد في الصحيح الثلث والثلث كثير لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس يعنى يسألونهم بأكفهم وقيل هو خطاب لأولياء اليتامى والمعنى وليخش من خاف على ولده من بعد موته أن يضيع مال اليتيم الضعيف الذى هو ذرية غيره إذا كان فى حجره والمقصود من الآية أن من كان فى حجره يتيم فليحسن اليه وليه أو وصيه وليفعل به ما يحب أن يفعل بأولاده من بعده (فليتقوا الله) يعنى فى الأمر الذي تقدم ذكره (وليقولوا قولا سديدا) يعنى عدلا وصوابا فالقول السديد من الجالسين عند المريض هو أن يأمروه أن يتصدق بدون الثلث ويترك الباقى لولده وورثته وأن لا يحيف فى وصيته والقول السديد من الأوصياء وأولياء اليتامى أن يكلموهم كما يكلمون أولادهم ولا يؤذوهم بقول ولا فعل قوله عز وجل (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) قال مقاتل وابن حبان نزلت فى رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولى مال يتيم وكان اليتيم ابن أخيه فأكله فأنزل الله هذه الآية إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما يعنى حراما بغير حق (إنما يأكلون فى بطونهم نارا) يعنى سيأكلون يوم القيامة فسمى الذين يأكلون نارا بما يئول إليه أمرهم يوم القيامة قال السدى يبعث آكل مال اليتيم ظلما يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأذنيه وعينيه وأنفه يعرفه من رآه بأكل مال اليتيم وفى حديث أبى سعيد الخدرى قال حدثنى النبى صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسرى به قال نظرت فاذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل فى أفواههم صخرا من نار يخرج من أسافلهم قلت ياجبريل من هؤلاء قال هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وقيل إنما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع فى الكلام والمراد أن أكل مال اليتيم ظلما يفضى به إلى النار وإنما خص الأكل بالذكر وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات وجميع التصرفات الرديئة المتلفة للمال لأن الضرر يحصل بكل ذلك لليتيم فعبر عن جميع ذلك بالأكل لأنه معظم المقصود وإنما ذكر البطون للتأكيد فهو كقولك رأيت بعينى وسمعت بأذنى (وسيصلون سعيرا) يعنى بأكلهم أموال اليتامى

فان أولادك وورثتك لايغنون عنك شيئا قدم لنفسك أعتق وتصدق وأعط فلانا كذا وفلانا كذا حتى يأتى على عامة ماله فنهاهم الله تعالى عن ذلك وأمرهم أن يأمروه أن ينظر لولده ولا يزيد فى وصيته على الثلث ولا يجحف بورثته كما أنه لو كان هذا القائل هو الموصى لسره أن يحثه من يحضره على حفظ ماله لولده ولا يدعهم عالة مع ضعفهم وعجزهم وقال الكلبى هذا الخطاب لولاة اليتامى يقول من كان فى حجره يتيم فليحسن إليه وليأت فى حقه ما يحب أن يفعل بذريته من بعده قوله تعالى (فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) أى عدلا والسديد العدل والصواب من القول وهو أن يأمره بأن يتصدق بما دون الثلث ويخلف الباقى لورثته قوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) قال مقاتل وابن حيان نزلت فى رجل من بنى غطفان يقال له مرثد بن زيد ولي مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله فأنزل الله تعالى فيه «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما» أى حراما بغير حق (إنما يأكلون فى بطونهم نارا) أخبر عن ماله أى عاقبته تكون كذلك (وسيصلون سعيرا) قراءة العامة بفتح الياء أى يدخلونه

ظلما

ظلما والسعير النار الموقدة المسعرة ولما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس واحترزوا من مخالطة اليتامى وأموالهم بالكلية فشق ذلك على اليتامى فنزل قوله تعالى «وإن تخالطوهم فاخوانكم» وقد توهم بعضهم أن قوله وإن تخالطوهم ناسخ لهذه الآية وهذا غلط ممن توهمه لأن هذه الآية واردة فى المنع من أكل أموال اليتامى ظلما وهذا لا يصير منسوخا لأن أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وقوله وإن تخالطوهم فاخوانكم وارد على سبيل الإصلاح فى أموال اليتامى والإحسان اليهم وهو من أعظم القرب. قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) اختلف العلماء فى سبب نزول هذه الآية فروى عن جابر قال مرضت فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى وأبو بكر وهما يمشيان فوجدانى أغمى على فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صب وضوءه على فأفقت فاذا النبى صلى الله عليه وسلم جالس فقلت يارسول الله كيف أصنع فى مالى كيف أقضى فى مالى فلم يجبنى بشىء حتى نزلت آية الميراث وفى رواية فقلت لا يرثنى إلا كلالة فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض وفى رواية أخرى فنزلت «يوصيكم الله فى أولادكم» وفى رواية أخرى فلم يرد على شيئا حتى نزلت آية الميراث يستفتونك قل الله يفتيكم أخرجه البخارى ومسلم وقال مقاتل والكلبى نزلت فى أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته وقال عطاء نزلت فى سعد ابن الربيع النقيب استشهد يوم أحد وترك بنتين وامرأة وأخا (ق) عن جابر رضى الله عنه قال جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيدا وأن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال قال يقضى الله فى ذلك فنزلت آية الميراث فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمهما فقال اعط ابنتى سعد الثلثين واعط أمهما الثمن وما بقى فهو لك أخرجه الترمذى وقال السدى كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوارى ولا الضعفاء من الغلمان لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة وخمس بنات فجاء الورثة وأخذوا ماله فشكت امرأته إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة وقبل الشروع فى تفسير هذه الآية الكريمة نقدم فصولا تتضمن أحكام الفرائض وأصول قواعدها.

فصل فى الحث على تعليم الفرائض

اعلم أن علم الفرائض من أعظم العلوم قدرا وأشرفها ذخرا وأفضلها ذكرا وهى ركن من أركان الشريعة وفرع من فروعها فى الحقيقة اشتغل الصدر الأول من الصحابة بتحصيلها وتكلموا فى فروعها وأصولها ويكفى فى فضلها أن الله عز وجل تولى قسمتها بنفسه وأنزلها فى كتابه مبينة من محل قدسه وقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على تعليمها فيما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تعلموا الفرائض والقرآن وعلموا الناس فانى مقبوض» أخرجه الترمذى وقال فيه اضطراب وأخرجه أحمد بن حنبل وزاد فيه فانى امرؤ مقبوض والعلم مرفوع ويوشك أن يختلف اثنان فى الفريضة فلا يجدان أحدا يخبرهما عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تعلموا الفرائض وعلموها فانه نصف العلم» وهو أول علم ينسى وهو أول شىء ينزع من أمتى أخرجه ابن ماجه والدار قطنى.

يقال صلى النهار يصلاها صليا وصلاء قال الله تعالى إلا من هو صال الجحيم وقرأ ابن عامر وأبو بكر بضم الياء أى يدخلون النار ويحرقون نظيره قوله تعالى «فسوف نصليه نارا سأصليه سقر» وفى الحديث قال النبى ﷺ «رأيت ليلة أسرى بى قوما لهم مشافر كمشافر الإبل إحداهما قالصة على منخريه والأخرى على بطنه وخزنة النار يلقمونهم جمر جهنم وصخرها فقلت: ياجبريل من هؤلاء؟ قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما» قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) الآية اعلم أن الوراثة كانت فى الجاهلية بالذكورة والقوة فكانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان فأبطل الله ذلك بقوله «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون» الآية وكانت أيضا فى الجاهلية وابتداء الإسلام بالمحالفة قال الله تعالى «والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم» ثم صارت الوراثة بالهجرة قال الله تعالى «والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا» فنسخ ذلك كله وصارت الوراثة بأحد الأمور الثلاثة: بالنسب والنكاح أو الولاء والمعنى بالنسب أن القرابة يرث

بعضهم من بعض لقوله تعالى «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» والمعنى بالنكاح أن أحد الزوجين يرث صاحبه وبالولاء أن المعتق وعصباته يرثون المعتق فنذكر بعون الله تعالى فصلا وجيزا فى بيان من يرث من الأقارب وكيفية توريث الورثة فنقول إذا مات ميت وله مال فيبدأ بتجهيزه ثم بقضاء ديونه ثم بانفاذ وصاياه فما فضل يقسم بين الورثة على ثلاثة أقسام: منهم من يرث بالفرض ومنهم من يرث بالتعصيب ومنهم من يرث بهما جميعا فمن يرث بالنكاح لا يرث إلا بالفرض ومن يرث بالولاء لا يرث إلا بالتعصيب فأما من يرث بالقرابة فمنهم من يرث بالفرض كالبنات والأخوات والأمهات والجدات وأولاد الأم ومنهم من يرث بالتعصيب كالبنين والأخوة وبنى الأعمام وبنيهم ومن يرث بهما كالأب يرث بالتعصيب إذا لم يكن للميت ولد فان كان للميت ابن فيرث الأب بالفرض السدس وإن كان للميت بنت فيرث الأب السدس بالفرض ويأخذ الباقى بعد نصيب البنت بالتعصيب وكذلك الجد وصاحب التعصيب من يأخذ جميع المال عند الانفراد ويأخذ مافضل عن أصحاب الفرائض وجملة الورثة سبعة عشر: عشرة من الرجال وسبع من النساء فمن الرجال الابن وابن الابن وإن سفل والأب والجد أبو الأب وإن علا والأخ سواء كان لأب وأم أو لأب أو لأم وابن الأخ للأم أو للأب وإن سفل والعم للأب والأم أو للأب وأبناؤهما وإن سفلوا والزوج ومولى العتاق ومن النساء البنت وبنت الابن وإن سفلت والجدة أم الأم وأم الأب والأخت سواء كانت لأب وأم أو لأب أو لأم والزوجة ومولاة العتاق وستة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير: الأبوان والولدان والزوجان لأنه ليس بينهم وبين الميت واسطة والأسباب التى توجب حرمان الميراث أربعة اختلاف الدين والرق والقتل وعمى الموت ونعنى باختلاف الدين أن الكافر لا يرث المسلم والمسلم لا يرث الكافر لما أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الكسائى الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أخبرنا الشافعى، أنا ابن عيينة، عن الزهرى عن على بن حسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» فأما الكفار فيرث بعضهم من بعض مع اختلاف مللهم لأن الكفر كله ملة واحدة لقوله تعالى «والذين كفروا

فصل فى بيان أحكام الفرائض

إذا مات الميت وله مال يبدأ بتجهيزه من ماله ثم تقضى ديونه إن كان عليه دين ثم تنفذ وصاياه ومافضل بعد ذلك من ماله يقسم بين ورثته والوارثون من الرجال عشرة: الابن وابن الابن وإن سفل والأب والجد وإن علا والأخ سواء كان لأب وأم أو لأب أو لأم وابن الأخ للأب والأم أو للأب وإن سفل والعم للأب والأم أو للأب وابناهما وإن سفلوا والزوج والمعتق. والوارثات من النساء سبع: البنت وبنت الإبن وإن سفلت. والأم والجدة وإن علت. والأخت من كل الجهات. والزوجة والمعتقة وستة من هؤلاء لا يلحقهم حجب الحرمان بالغير وهم: الأبوان والوالدان والزوجان لأنه ليس بينهم وبين الميت واسطة ثم الورثة ثلاثة أصناف: صنف يرث بالفرض المجرد وهم الزوجان والبنات والأخوات والأمهات والجدات وأولاد الأم وصنف يرث بالتعصيب وهم: البنون والأخوة وبنوهم والأعمام وبنوهم وصنف يرث بالتعصيب تارة وبالفرض أخرى وهما: الأب والجد فيرث بالتعصيب إذا لم يكن للميت ولد فان كان له ابن ورث الأب بالفرض السدس وإن كانت بنت ورث السدس بالفرض وأخذ الباقى بالتعصيب والعصبة اسم لمن يأخذ جميع المال إذا انفرد ويأخذ ما فضل عن أصحاب الفرائض .

فصل

وأسباب الإرث ثلاثة: نسب ونكاح وولاء فالنسب القرابة يرث بعضهم بعضا والنكاح هو أن يرث أحد الزوجين من صاحبه بسبب النكاح والولاء هو أن المعتق وعصباته يرثون المعتق والأسباب التى تمنع الميراث أربعة: اختلاف الدين فالكافر لا يرث المسلم ولا المسلم يرث الكافر لما روى عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم أخرجاه فى الصحيحين فأما الكفار فيرث بعضهم بعضا مع اختلاف مللهم وأديانهم لأن الكفر كله ملة واحدة وذهب بعضهم إلى أن اختلاف الملل والكفر يمنع التوارث أيضا حتى لا يرث اليهودى من النصرانى ولا النصرانى من المجوسى وإلى هذا ذهب الزهرى والأوزاعى وأحمد وإسحاق لما روى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا توارث بين أهل ملتين أخرجه الترمذى

وقال

بعضهم أولياء بعض»وذهب بعضهم إلى أن اختلاف الملل فى الكفر يمنع التوارث حتى لايرث اليهودى النصرانى ولا النصرانى المجوسى وإليه ذهب الزهرى والأوزاعى وأحمد وإسحاق لقول النبى صلى الله عليه وسلم «لايتوارث أهل ملتين شتى» وتأوله الآخرون على الإسلام مع الكفر. وأما الكفر فكله ملة واحدة فتوريث بعضهم من بعض لايكون فيه إثبات التوارث بين أهل ملتين شتى والرقيق لايرث أحدا ولايرثه أحد لأنه لامالك له لافرق فيه بين القن والمدبر والمكاتب وأم الولد والقتل يمنع الميراث عمدا كان أو خطأ لما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «القاتل لايرث» ونعنى بعمى الموت أن المتوارثين إذا عمى موتهما بأن غرقا فى ماء أوانهدم عليهما بناء فلم يدر أيهما سبق موته فلا يورث أحدهما من الآخر بل ميراث كل واحد منهما لمن كان حياته يقينا بعد موته من ورثته والسهام المحدودة فى الفرائض ستة: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس فالنصف فرض ثلاثة: فرض الزوج عند عدم الولد وفرض البنت الواحدة للصلب أو لبنت الابن عند عدم ولد الصلب وفرض الأخت الواحدة للأب والأم أو للأب إذا لم يكن ولد لأب وأم والربع فرض اثنين فرض الزوج إذا كان للميت ولد وفرض الزوجة إذا لم يكن للميت ولد والثمن فرض الزوجة إذا كان للميت ولد والثلثان فرض البنتين للصلب فصاعدا ولبنتى الابن فصاعدا عند عدم ولد الصلب وفرض الأختين لأب وأم أو للأب فصاعدا والثلث فرض ثلاثة: فرض الأم إذا لم يكن للميت ولد: ولا اثنان من الإخوة والأخوات إلا فى مسئلتين أحدهما زوج وأبوان والثانية زوجة وأبوان فان للأم فيهما ثلث مابقى بعد نصيب الزوج أو الزوجة وفرض لاثنين فصاعدا

وقال حديث غريب . عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لايتوارث أهل ملتين شتى» أخرجه أبو داود وحمله الآخرون على الإسلام والكفر لأن الكفر عندهم ملة واحدة فتوريث بعضهم من بعض لا يكون فيه إثبات التوارث بين ملتين شتى والرق يمنع الإرث لأن الرقيق ملك ولاملك له فلا يرث ولا يورث والقتل يمنع الإرث عمدا كان القتل أو خطأ لما روى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «القاتل لايرث» أخرجه الترمذى وقال هذا حديث لا يصح والذى عليه العمل عند أهل العلم أن القاتل لا يرث سواء كان القتل عمدا أو خطأ وقال بعضهم إذا كان القتل خطأ فانه يرث وهو قول مالك وعمى الموت وهو أن يخفى موت المتوارثين وذلك بأن غرقا أو انهدم عليهما بناء فلم يدر أيهما سبق موته فلا يرث أحدهما الآخر بل يكون إرث كل واحد منهما لما كانت حياته يقينا بعد موته من ورثته .

فصل : والسهام المحدودة

والسهام المحدودة فى الفرائض المذكورة فى كتاب الله عز وجل ستة: النصف والربع والثمن والثلثان والثلث والسدس فالنصف فرض خمسة: فرض الزوج عند عدم الولد وفرض البنت الواحدة للصلب أو بنت الابن عند عدم بنت الصلب وفرض الأخت الواحدة للأب والأم وفرض الأخت الواحدة للأب إذا لم يكن ولد لأب وأم والربع فرض الزوج من الولد وفرض الزوجة مع عدم الولد والثمن فرض الزوجة مع الولد والثلثان فرض البنتين فصاعدا أو بنات الابن عند عدم بنات الصلب وفرض الأختين فصاعدا للأب والأم أو للأب والثلث فرض ثلاثة: فرض الأم إذا لم يكن للميت ولد ولا إثنان من الأخوة والأخوات إلا فى مسئلتين: إحداهما زوج وأبوان والأخرى زوجة وأبوان فان للأم فيهما ثلث الباقى بعد نصيب الزوج أو الزوجة وفرض الإثنين فصاعدا من أولاد الأم ذكرهم وأنثاهم فيه سواء وفرض الجد مع الأخوة إذا لم يكن في المسئلة صاحب فرض وكان الثلث للجد خيرا من المقاسمة مع الأخوة والسدس فرض سبعة: فرض الأب إذا كان للميت ولد وفرض الأم إذا كان للميت ولد أو ولد ابن أو اثنان من الأخوة والأخوات وفرض الجد إذا كان للميت ولد ومع الأخوة إذا كان فى المسئلة صاحب فرض وكان السدس خير للجد من المقاسمة مع الإخوة وفرض الجدة والجدات وفرض الواحد من أولاد الأم ذكرا كان أو أنثى وفرض بنات الابن مع بنت الصلب تكملة الثلثين وفرض الأخوات للأب مع الأخت للأب والأم تكملة الثلثين (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر (خ) عن ابن عباس قال كان المال للولد والوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل

من أولاد الأم ذكرهم وأنثاهم فيه سواء وفرض الجد مع الأخوة إذا لم يكن فى المسئلة صاحب فرض وكان الثلث خيرا للجد من المقاسمة مع الإخوة وأما السدس ففرض سبعة: فرض الأب إذا كان للميت ولد وفرض الأم إذا كان للميت ولد واثنان من الإخوة والأخوات وفرض الجد إذا كان للميت ولد ومع الإخوة والأخوات إذا كان فى المسئلة صاحب فرض وكان السدس خيرا للجد من المقاسمة مع الإخوة وفرض الجدة والجدات وفرض الواحد من أولاد الأم ذكرا كان أو أنثى وفرض بنات الابن إذا كان للميت بنت واحدة للصلب تكملة للثلثين وفرض الأخوات للأب إذا كان للميت أخت واحدة لأب وأم تكملة للثلثين ؛ (٤٨٨) أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا مسلم بن إبراهيم أنا وهيب بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر» وفى الحديث دليل على أن بعض الورثة يحجب البعض والحجب نوعان: حجب نقصان وحجب حرمان فأما حجب النقصان فهو أن الولد أو ولد الابن يحجب الزوج من النصف إلى الربع والزوجة من الربع إلى الثمن ؛ والأم من الثلث إلى السدس وكذلك الاثنان فصاعدا من الإخوة يحجبون الأم من الثلث إلى السدس وحجب الحرمان هو أن الأم تسقط الجدات كلهن وأولاد الأم وهم الإخوة والأخوات للأم يسقطون بأربعة: بالأب والجد وإن علا وبالولد وولد الابن وإن سفل وأولاد الأب والأم يسقطون بثلاثة: بالأب والابن وابن الابن وإن سفلوا ولا يسقطون بالجد على مذهب زيد بن ثابت وهو قول عمر وعثمان وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم وبه قال مالك والشافعى والأوزاعى وأحمد وإسحاق رحمهم الله: وأولاد الأب يسقطون بهؤلاء الثلاثة وبالأخ للأب والأم وذهب قوم إلى أن الأخوة جميعا يسقطون بالجد كما يسقطون بالأب وهو قول أبى بكر الصديق وابن عباس ومعاذ وأبى الدرداء وعائشة رضى الله عنهم وبه قال الحسن وعطاء وطاوس وأبو حنيفة رحمهم الله وأقرب العصبات يسقط الأبعد من العصوبة وأقربهم الابن ثم ابن الابن وإن سفل ثم الأب ثم الجد أبو الأب

للذكر مثل حظ الاثنين وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث وجعل للمرأة الثمن والربع وللزوج الشطر والربع اهـ.

فصل

روى عن زيد بن ثابت قال ولد الأبناء بمنزلة الأبناء إذا لم يكن دونهن ابن ذكرهم كذكرهم وأنثاهم كأنثاهم يرثون كما يرثون ويحجبون كما يحجبون ولا يرث ولد ابن مع ابن ذكر فان ترك ابنة وابن ابن ذكر كان للبنت النصف ولابن الابن ما بقى لقوله صلى الله عليه وسلم «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو الأولى رجل ذكر» فى هذا الحديث دليل على أن بعض الورثة يحجب البعض والحجب حجبان: حجب نقصان وحجب حرمان. أما الأول وهو حجب النقصان فهو أن الولد وولد الابن يحجب الزوج من النصف إلى الربع والزوجة من الربع إلى الثمن والأم من الثلث إلى السدس وكذلك الاثنان من الأخوة والأخوات يحجبون الأم من الثلث إلى السدس. وأما الثانى وهو حجب الحرمان فهو أن الأم تسقط الجدات وأولاد الأم وهم الأخوة للأم يسقطون بأربعة بالأب والجد وإن علا وبالولد وولد الابن وأولاد الأب والأم وهم الأخوة للأب والأم يسقطون بثلاثة بالأب والابن وابن الابن وإن سفلوا ولا يسقطون بالجد على مذهب زيد بن ثابت وهو قول عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وبه قال مالك والأوزاعى والشافعى وأحمد وأولاد الأب يسقطون بهؤلاء الثلاثة وبالأخ للأب والأم وذهب قوم إلى أن الأخوة يسقطون جميعا بالجد كما يسقطون بالأب وهو قول أبى بكر الصديق وابن عباس ومعاذ وأبى الدرداء وعائشة وبه قال الحسن وعطاء وطاوس وأبو حنيفة والأقرب من العصبات يسقط الأبعد منهم فأقربهم الابن ثم ابن الابن وإن سفل ثم الأب ثم الجد وإن علا فان كان مع الجد أحد من الأخوة والأخوات للأب والأم أو للأب يشتركان فى الميراث فان لم يكن جد فللأخ للأب والأم ثم الأخ للأب ثم بنو الأخوة يقدم أقربهم سواء كان لأب وأم أو لأب فان استويا فى الدرجة فالذى هو لأب وأم أولى ثم العم لأب وأم ثم بنوهم على ترتيب بنى الأخوة ثم عم الأب ثم عم الجد على الترتيب فان لم يكن أحد من عصابات النسب وعلى الميت ولاء فالميراث للمعتق فان لم يكن حيا فلعصبات المعتق وأربعة من الذكور يعصبون الإناث: الابن وابن الابن والأخ للأب والأم والأخ للأب فلو مات عن ابن وبنت أو عن أخ وأخت لأب وأم أو لأب يكون المال بينهما

وإن علا فان كان مع الجد أحد من الإخوة والأخوات للأب والأم أو للأب فيشتركان فى الميراث فان لم يكن جد فالأخ للأب والأم ثم الأخ للأب ثم بنو الأخوة يقدم أقربهم سواء كان لأب وأم أو لأب فان استويا فى الدرجة فالذى هو لأب وأم أولى ثم العم للأب والأم ثم العم للأب ثم بنوهم على ترتيب بنى الإخوة ثم عم الأب ثم عم الجد على هذا الترتيب فان لم يكن أحد من عصبات النسب وعلى الميت ولاء فالميراث للمعتق فان لم يكن حيا فلعصبات المعتق وأربعة من الذكور يعصبون الإناث: الابن وابن الابن والأخ للأب والأم والأخ للأب حتى لو ماتت عن ابن وبنت أو عن أخ وأخت لأب وأم أو لأب فانه يكون المال بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين ولا يفرض للبنت والأخت وكذلك ابن الابن يعصب من فى درجته من الإناث ومن فوقه إذا لم تأخذ من الثلثين شيئا حتى لو مات عن بنتين وبنت ابن فللبنتين الثلثان ولا شيء لبنت الابن فان كان فى درجتها ابن ابن أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقى بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين والأخت للأب والأم أو للأب تكون عصبة مع البنت حتى لو مات عن بنت وأخت كان النصف للبنت والباقى للأخت فلو مات عن بنتين وأخت فللبنتين الثلثان والباقى للأخت والدليل عليه ما أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل أنا آدم أنا شعبة أنا أبو قيس قال سمعت هزيل بن شرحبيل قال سئل أبو موسى عن ابنة وبنت ابن وأخت فقال للبنت النصف وللأخت النصف وائت ابن مسعود فسيتا بعنى فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبى موسى فقال لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين أقضى فيها بما قضى به رسول الله ﷺ للبنت النصف ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين ومابقى فللأخت فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود رضى الله عنه فقال لاتسألونى مادام هذا الحبر فيكم رجعنا إلى تفسير الآية واختلفوا فى سبب نزولها أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو الوليد أنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودنى وأنا مريض لا أعقل فتوضأ وصب على من وضوئه فعقلت فقلت يارسول الله لمن الميراث إنما يرثنى كلالة فنزلت آية الفرائض وقال مقاتل والكلبى نزلت فى أم كحة امرأة أوس بن ثابت وبناته وقال عطاء استشهد سعد بن الربيع النقيب يوم أحد وترك امرأة وبنتين وأخا فأخذ الأخ المال فأتت امرأة سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنتى سعد فقالت يارسول الله أن هاتين ابنتا سعد وأن سعدا قتل يوم أحد شهيدا وأن عمهما أخذ مالهما ولا تنكحان إلا ولهما مال فقال رسول الله ﷺ أرجعى فلعل الله سيقضى فى ذلك فنزل يوصيكم الله إلى آخرها فدعا رسول الله ﷺ عمهما فقال أعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقى فهو لك فهو أول ميراث قسم فى الإسلام قوله عز وجل يوصيكم الله فى أولادكم أى يعهد إليكم ويفرض عليكم فى أولادكم أى فى أمر أولادكم إذا

بينهما للذكر مثل حظ الانثيين ولا يفرض للبنت والأخت وكذلك ابن الإبن يعصب من فى درجته من الإناث ومن فوقه إذا لم يأخذ من الثلثين شيئا حتى لو مات عن بنتين وبنت ابن فللبنتين الثلثان ولا شيء لبنت الإبن فان كان فى درجتها ابن ابن أو أسفل منها ابن ابن ابن كان الباقى بينهما للذكر مثل حظ الانثيين والأخت للأب والأم أو للأب تكون مع البنت عصبة حتى لو مات عن بنت وأخت كان للبنت النصف والباقى وهو النصف للأخت ولو مات عن بنتين وأخت كان للبنتين الثلثان والباقى للأخت ويدل على ذلك ماروى عن هزيل بن شرحبيل قال سئل أبو موسى عن ابنة وابنة ابن وأخت فقال: للابنة النصف وللأخت النصف وائت ابن مسعود. فسئل ابن مسعود وأخبر بقول أبى موسى فقال ابن مسعود: لقد ضللت وما أنا من المهتدين ثم قال اقضى فيها بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للإبنة النصف ولابنة الإبن السدس تكملة الثلثين ومابقى فللأخت فأخبر أبو موسى بقول ابن مسعود فقال لا تسألونى مادام هذا الحبر فيكم أخرجه البخارى. وأما التفسير فقوله تعالى يوصيكم الله أى يعهد اليكم ويفرض عليكم فى أولادكم يعنى فى أمر من أولادكم إذا متم والوصية من الله إيجاب وإنما بدأ الله تعالى بذكر ميراث الأولاد لأن تعلق قلب الإنسان بولده أشد من تعلقه بغيره فلهذا قدم الله ذكر ميراثهم للذكر مثل حظ الانثيين يعنى أن الولد الذكر له من الميراث ضعفا سهام الأنثى فللذكر سهمان وللأنثى سهم فلو حصل مع الأولاد غيرهم من الورثة من أهل الفروض كالأبوين

منهم (للذكر مثل حظ الانثيين) (فان كن) يعنى المتروكات من الاولاد (نساء فوق اثنتين) أى اثنتين
فصاعدا فوق صلة
كقوله تعالى فاضربوا
فوق الأعناق (فلهن
ثلثا ماترك وإن كانت)
يعنى البنت (واحدة)
قراءة العامة على خبر كان
رفعها أهل المدينة على
معنى إن وقعت واحدة
(فلها النصف ولأبويه)
يعنى لأبو الميت كناية
عن غير مذكور (لكل
واحد منهما السدس مما
ترك إن كان له ولد)
أراد أن الأب والأم
يكون لكل واحد منهما
سدس الميراث عند
وجود الولد أو ولد الابن
والأب يكون صاحب
فرض (فان لم يكن له
ولد وورثه أبواه فلأمه
الثلث) قرأ حمزة
والكسائى فلإمه بكسر
الهمزة استثقالا للضمة
بعد الكسرة وقرأ
الآخرون بالضم على
الأصل (فان كان له
إخوة) اثنان أو أكثر
ذكورا وإناثا (فلأمه
السدس) والباقى يكون
للأب إن كان معها أب
والإخوة لاميراث لهم
مع الأب ولكنهم
يحجبون الأم من الثلث إلى السدس ، وقال ابن عباس
رضى الله عنهما لايحجب الإخوة الأم من الثلث إلى السدس إلا أن يكونوا ثلاثة لأن الله تعالى قال فان كان له إخوة فلأمه

أخذوا فروضهم وما بقى بعد ذلك كان بين الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين (فان كن) يعنى المتروكات من الأولاد (نساء فوق اثنتين) يعنى بنتين فصاعدا (فلهن ثلثاماترك) وأجمعت الأمة على أن للبنتين الثلثين إلا ماروى عن ابن عباس أنه ذهب إلى ظاهر الآية وقال: الثلثان فرض الثلاث من البنات لأن الله تعالى قال «فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك» فجعل الثلثين للنساء إذا زدن على اثنتين . وعنده أن فرض الثنتين النصف كفرض الواحدة وأجيب عنه بوجوه فيها حجة لمذهب الجمهور أيضا: الوجه الأول أن الله تعالى قال «وإن كانت واحدة فلها النصف فجعل النصف للواحدة» وذلك ينفى حصول النصف نصيبا للبنتين. الوجه الثانى فى الآية تقديما وتأخيرا والتقدير: فان كن نساء اثنتين فما فوقهما فلهن الثلثان. الوجه الثالث أن لفظة فوق هاهنا صلة والتقدير فان كن نساء اثنتين فهو كقوله «فاضربوا فوق الأعناق» يعنى فاضربوا الأعناق وإنما سمى الاثنتين نساء بلفظ الجمع لأن العرب تطلق على الاثنين جماعة بدليل قوله تعالى «فقد صغت قلوبكما». الوجه الرابع قال علماء الجمهور: وإنما أعطينا البنتين الثلثين بتأويل القرآن لأن الله تعالى جعل للبنت الواحدة النصف بقوله تعالى «وإن كانت واحدة فلها النصف» وجعل للأخت الواحدة النصف بقوله «إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك» ثم جعل للأختين الثلثين بقوله «فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان» فلما جعل للأختين الثلثين علمنا أن للبنتين الثلثين قياسا على الأختين. الوجه الخامس أن النبى صلى الله عليه وسلم قضى بالثلثين لابنتى سعد بن الربيع وهذا نص واضح فى المسألة . قوله تعالى (وإن كانت واحدة) يعنى البنت واحدة (فلها النصف) يعنى فرضا لها (ولأبويه) يعنى أبوى الميت كناية عن غير مذكور وهما والداه (لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد) يعنى أن للأب والأم مع وجود الولد أو ولد الابن لكل واحد منهما سدس الميراث واعلم أن اسم الولد يقع على الذكر والأنثى فاذا مات الميت وترك أبوين وولدا ذكرا واحدا كان أو أكثر أو ترك بنات فان للأم السدس بالفرض وللأب السدس مع الولد الذكر بالفرض ومع البنات له السدس بالتعصيب وهو الباقى من التركة وله مع البنت الواحدة السدس بالفرض والباقى بالتعصيب (فان لم يكن له ولد) يعنى للميت (وورثه أبواه فلأمه الثلث) يعنى أن الميت إذا مات عن أبوين وليس له وارث سواهما فان الأم تأخذ الثلث بالفرض ويأخذ الأب باقى المال بالفرض والتعصيب فيكون المال بينهما أثلاثا للذكر مثل حظ الانثيين فان كان مع الأبوين أحد الزوجين فيفرض للأم ثلث الباقى بعد نصيب الزوج أو الزوجة (فان كان له) يعنى للميت (إخوة) يعنى ذكورا أو إناثا (فلأمه السدس) يعنى لأم الميت سدس التركة إذا كان معها أب وأجمع العلماء على أن الثلاثة يحجبون الأم من الثلث إلى السدس وأن الأخ الواحد والأخت الواحدة لا تحجب الأم من الثلث إلى السدس واختلفوا فى الأخوين فالأكثرون من الصحابة يقولون الأخوين يحجبان الأم من الثلث إلى السدس وهذا قول عمر وعثمان وعلى وزيد بن ثابت والجمهور . وقال ابن عباس لاتحجب الأخوة الأم من الثلث إلى السدس إلا أن يكونوا ثلاثة قال ابن عباس لعثمان لم صار الأخوان يردان الأم من الثلث إلى السدس وإنما قال الله تعالى «فان له إخوة» والأخوان فى لسان قومك ليسا باخوة فقال عثمان: يابنى إن قومك حجبوها بأخوين ولا أستطيع نقض أمر قد كان قبلى وإنما نشأ هذا

الاختلاف

السدس ولا يقال للإثنين إخوة فنقول اسم الجمع قد يقع على التثنية لأن الجمع ضم شيء إلى شيء فهو موجود في الاثنين كما قال الله تعالى فقد صغت قلوبكما ذكر القلب بلفظ الجمع وأضافه إلى اثنين قوله تعالى (من بعد وصية يوصى بها أو دين) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر يوصى بفتح الصاد على مالم يسم فاعله وكذلك

الثانية ووافق حفص في الثانية وقرأ الآخرون بكسر الصاد لأنه جرى ذكر الميت من قبل بدليل قوله تعالى يوصين وتوصون قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه إنكم تقرءون الوصية قبل الدين وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدين قبل الوصية وهذا إجماع أن الدين مقدم على الوصية ومعنى الآية الجمع لا الترتيب وبيان أن الميراث مؤخر عن الدين والوصية جميعا من بعد وصية إن كانت أو دين إن كان والإرث مؤخر عن كل واحد منهما (آباؤكم وأبناؤكم) يعني الذين يرثونكم آباؤكم وأبناؤكم (لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) أي لا تعلمون أيهم أنفع لكم في الدين والدنيا فمنكم من يظن أن الأب أنفع له فيكون الإبن أنفع له ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له وأنا العالم بمن هو أنفع لكم وقد دبرت أمركم على ما فيه المصلحة فاتبعوه وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أطوعكم لله عز وجل من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة والله تعالى يشفع المؤمنين بعضهم في بعض فان كان الوالد أرفع درجة يوم القيامة في الجنة رفع إليه ولده وإن كان الولد أرفع درجة رفع إليه والده لتقر بذلك أعينهم (فريضة من الله) أي ما قدر الله من المواريث (إن الله كان عليما) بأمور العباد (حكيما) بنصب الأحكام قوله تعالى

الاختلاف لأنهم اختلفوا في أقل الجمع وفيه قولان: أحدهما أن أقل الجمع اثنان وهو قول أبي بكر الباقلاني. وحجة هذا القول أنك إذا جمعت واحدا إلى واحد فهما جماعة لأن أصل الجمع ضم شيء إلى شيء وقال ابن الأنباري. التثنية عند العرب أول الجمع ومشهور في كلامهم إيقاع الجمع على التثنية فمن ذلك قوله تعالى «وكنا لحكمهم شاهدين» وهما داود وسليمان عليهما السلام ومنه قوله تعالى «فقد صغت قلوبكما» يريد قلبا كما. والقول الثاني أن أقل الجمع ثلاثة وهو قول جمهور العلماء وهو الأصح إنما حجب العلماء الأم بالأخوين لدليل اتفقوا عليه وهو أن لفظ الأخوة يطلق على الأخوين فما زاد وذلك جائز في اللغة كما تقدم ثم إن الأخوة إذا حجبوا الأم من الثلث إلى السدس فانهم لا يرثون شيئا البتة بل يأخذ الأب الباقي كرجل مات عن أبوين وأخوين فان للأم السدس والباقي وهو خمسة أسداس للأب سدس بالفريضة والباقي بالتعصيب قال قتادة: وإنما حجب الأخوة الأم من غير أن يرثوا مع الأب شيئا معونة للأب لأنه يقوم بشأنهم وينفق عليهم دون الأم (من بعد وصية يوصى بها أو دين) يعني أن هذه الأنصباء والسهام إنما تقسم بعد قضاء الدين وإنفاذ وصية الميت في ثلثه وذكر الوصية مقدم على الدين في اللفظ لا في الحكم لأن لفظه أو لا توجب الترتيب وإنما هي لأحد الشيئين كأنه قال من بعد أحد هذين مفردا أو مضموما إلى الآخر قال علي رضي الله عنه إنكم تقرءون الوصية قبل الدين وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدين قبل الوصية وهذا إجماع على أن الدين مقدم على الوصية والإرث مؤخر عنهما لأن الدين حق على الميت والوصية حق له وهما يتقدمان على حق الورثة. قوله تعالى (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) قيل هذا كلام معترض بين ذكر الوارثين وأنصبائهم وبين قوله فريضة من الله ولا تعلق لمعناه بمعنى الآية ومعنى هذا الكلام في قول ابن عباس إن الله عز وجل يشفع المؤمنين بعضهم في بعض فأطوعكم لله من الآباء والأبناء أرفعكم درجة فان كان الوالد أرفع درجة من ولده رفع الله درجة ولده إليه وإن كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله اليه والديه لتقر بذلك أعينهم فقال تعالى «لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا» لأن أحدهما لا يعرف منفعة صاحبه له في الجنة وسبقه إلى منزلة عالية تكون سببا لرفعته إليها وقيل إن هذا الكلام ليس معترضا بينهما ومعناه متعلق بمعنى الآية يقول آباؤكم وأبناؤكم يعني الذين يرثونكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا أي لا تعلمون أيهم أنفع لكم في الدين والدنيا فمنكم من يظن أن الأب أنفع له فيكون الإبن أنفع له ومنكم من يظن أن الابن أنفع له فيكون الأب أنفع له ولكن الله هو الذي دبر أمركم على ما فيه المصلحة لكم فاتبعوه ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم فتعطون من لا يستحق مالا يستحق من الميراث وتمنعون من يستحق الميراث (فريضة من الله) يعني ما قدر من المواريث لأهلها فريضة واجبة (إن الله كان عليما حكيما) يعني كان عليما بالأشياء قبل خلقها حكيما فيما قدر من الفرائض وفرض من الأحكام وقيل معناه عليما بخلقه قبل أن يخلقهم حكيما حيث فرض للصغار مع الكبار ولم يخص

يوصين بها أو دين) هذا فى ميراث الأزواج (ولهن الربع) يعنى للزوجات الربع (مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) هذا فى ميراث الزوجات وإذا كان للرجل أربع نسوة فهن يشتركن فى الربع والثمن قوله تعالى (وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة) تورث كلالة ونظم الآية وإن كان رجل أو امرأة يورث كلالة وهو نصب على المصدر وقيل على خبر مالم يسم فاعله وتقديره وإن كان رجل يورث ماله كلالة واختلفوا فى الكلالة فذهب أكثر الصحابة إلى أن الكلالة من لاولد له ولاوالد له روى عن الشعبى قال سئل أبو بكر رضى الله عنه عن الكلالة فقال إنى سأقول فيها برأيى فان كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان ، أراه ما خلا الوالد والولد ؛ فلما استخلف عمر رضى الله عنهما قال إنى لأستحى من الله إن أرد شيئا قاله أبو بكر رضى الله عنه وذهب طاوس إلى أن الكلالة من لاولد له وهو إحدى الروايتين عن

الكبار بالميراث كما كانت العرب تفعل وفى معنى لفظة كان ثلاثة أقوال: أحدها أن الله تعالى كان عليما بالأشياء قبل خلقها ولم يزل كذلك الثانى حكى الزجاج عن سيبويه أنه قال إن القوم لما شاهدوا علما وحكمة ومغفرة وفضلا قيل لهم إن الله كان كذلك ولم يزل الله على ماشاهدتم. الثالث قال الخليل الخبر عن الله عز وجل بمثل هذه الأشياء كالخبر بالحال والاستقبال لأن صفات الله تعالى لايجوز عليها الزوال والتقلب. قوله عزوجل (ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أودين) هذا ميراث الأزواج من الزوجات وقال تعالى فى ميراث الزوجات من الأزواج (ولهن) يعنى للزوجات (الربع مماتركتم إن لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مماتركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) لما جعل الله فى الموجب النسبى حظ الرجل مثل حظ الأنثيين جعل الله فى الموجب السببى للرجل مثل حظ الانثيين واعلم أن الواحدة من النساء لها الربع أو الثمن وكذلك لو كن أربع زوجات فانهن يشتركن فى الربع أو الثمن واسم الولد يطلق على الذكر والأنثى ولا فرق بين الولد وولد الإبن وولد البنت فى ذلك وسواء كان الولد للرجل من الزوجة أو من غيرها. قوله تعالى (وإن كان رجل يورث كلالة أوامرأة) تقدير الآية وإن كان رجل أو امرأة يورث كلالة واختلفوا فى الكلالة فذهب أكثر الصحابة إلى أن الكلالة من لا ولد له ولا والد روى الشعبى قال سئل أبو بكر الصديق عن الكلالة فقال سأقول فيها قولا برأيى فان كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان أراه ماخلا الوالد والولد فلما استخلف عمر قال إنى لا أستحى من الله أن أرد شيئا قاله أبو بكر وهذا قول على وابن مسعود وزيد بن ثابت وإحدى الروايتين عن عمر وابن عباس وهذا القول هو الصحيح المختار ويدل على صحته أن اشتقاق الكلالة من كلت الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة بينهم فسميت القرابة البعيدة كلالة من هذا الوجه وقيل إن الكلالة فى أصل اللغة عبارة عن الإحاطة ومنه الأكليل لإحاطته بالرأس فمن عد الوالد والولد من القرابة إنما سموا كلالة لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان أما نسبة الولادة فليست كذلك لأن فيها تنوع البعض عن البعض وتولد البعض من البعض فهو كالشىء الواحد الذى يتزايد على نسق واحد فأما القرابة المغايرة لقرابة الولادة وهم الأخوة والأخوات والأعمام والعمات وغيرهم فانما يحصل نسبهم اتصال إحاطة بالمنسوب اليه فثبت بذلك أن الكلالة عبارة عمن عدا الوالد والولد والرواية الأخرى عن عمر وابن عباس أن الكلالة من لاولد له وبه قال طاوس واحتج لهذا القول بقوله تعالى «قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد» وبيانه عند عامة العلماء مأخوذ من حديث جابر بن عبدالله لأن الآية نزلت فيه ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن لأن أباه قتل يوم أحد وآية الكلالة نزلت فى آخر عمر النبى صلى الله عليه وسلم فصار شأن جابر بيانا لمراد الآية التى نزلت فى آخر السورة لنزولها فيه واختلفوا فى أن الكلالة اسم لمن؟ فمنهم من قال هو اسم للميت وهو قول على بن أبى طالب وابن مسعود وابن عباس لأنه مات عن ذهاب طرفيه فكل عمود نسبه وقيل هو اسم للحى من الورثة وهو قول أبى بكر الصديق وعليه جمهور العلماء الذين قالوا إن الكلالة من دون الوالد والولد ويدل عليه حديث لجابر إنما يرثنى كلالة أى يرثنى ورثة ليسوا بولد ولا والد فان كان المراد بالكلالة الميت الموروث فالمراد يرثه غير الوالد والولد وإن

كان

ابن عباس رضى الله عنهما وآخر القولين عن عمر رضى الله عنه واحتج من ذهب إلى هذا بقول الله تعالى قل الله يفتيكم فى الكلالة إن أمرؤ هلك ليس له ولد وبيانه عند العامة مأخوذ من حديث جابر بن عبد الله لأن الآية نزلت فيه ولم يكن له يوم نزولها أب ولا ابن لأن أباه عبد الله بن حزام قتل يوم أحد وآية الكلالة نزلت فى آخر عمر النبى صلى الله عليه وسلم فصار شأن جابر بيانا لمراد الآية لنزولها فيه واختلفوا فى أن الكلالة اسم لمن؟ فمنهم من قال اسم للميت وهو قول على وابن مسعود رضى الله عنهما لأنه مات عن ذهاب طرفيه فكل عمود نسبه ومنهم من قال اسم للورثة ، وهو قول سعيد بن جبير لأنهم يتكللون الميت من جوانبه وليس فى عمود نسبه أحد كالإكليل يحيط بالرأس (٤٩٣) ووسط الرأس منه خال وعليه يدل حديث جابر رضى الله عنه حيث قال إنما يرثنى كلالة أى يرثنى ورثة ليسوا بولد ولا والد وقال النضر بن شميل الكلالة اسم للمال وقال أبو الخير سأل رجل عقبة عن الكلالة فقال ألا تعجبون من هذا يسألنى عن الكلالة وما أعضل بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم شيئا ما أعضلت بهم الكلالة وقال عمر رضى الله عنه ثلاث لأن يكون النبى صلى الله عليه وسلم بينهن لنا أحب إلينا من الدنيا وما فيها: الكلالة والخلافة وأبواب الربا وقال معدان ابن أبى طلحة خطب عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقال إنى لا أدع بعدى شيئا أهم عندى من الكلالة ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء ما راجعته فى الكلالة وما أغلظ فى شىء ما أغلظ لى فى الكلالة حتى طعن بأصبعه فى صدرى فقال ياعمر ألا تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء : وإنى إن أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ وقوله ألا تكفيك آية الصيف أراد أن الله عز وجل أنزل فى الكلالة آيتين : إحداهما فى الشتاء وهى التى فى أول سورة النساء والأخرى فى الصيف وهى التى فى آخرها وفيها من البيان ماليس فى آية الشتاء فلذلك أحاله عليها قوله تعالى (وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس) أراد به الأخ والأخت من الأم بالاتفاق قرأ سعد ابن أبى وقاص وله أخ أو أخت من أم ولم يقل لهما مع ذكر الرجل والمرأة من قبل على عادة العرب إذا ذكرت اسمين ثم أخبرت عنهما وكانا فى الحكم سواء ربما أضافت إلى أحدهما وربما أضافت إليهما كقوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة (فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) فيه إجماع إن أولاد الأم إذا كانوا اثنين فصاعدا يشتركون فى الثلث

كان المراد الوارثين فهم غير الوالد والولد وقال ابن زيد الكلالة الذى لا ولد له ولا والد والحى والميت كلهم كلالة هذا يرث بالكلالة وهذا يورث بالكلالة وقال أبو الخير سأل رجل عقبة عن الكلالة فقال ألا تعجبون من هذا يسألنى عن الكلالة وما أعضل بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم شىء ما أعضلت بهم الكلالة (ق) عن عمر قال ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فيهن عهد انتهى اليه الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا وهذا طرف حديث ذكر فى الخمر (ق) عن معدان بن أبى طلحة قال خطب عمر بن الخطاب فقال إنى لا أدع بعدى شيئا أهم عندى من الكلالة ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء ما راجعته فى الكلالة وما أغلظ لى فى شىء ما أغلظ فى الكلالة حتى طعن بأصبعيه فى صدرى وقال ياعمر ألا يكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء وإنى إن أعش أقض فيها بقضية يقضى بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن لفظ مسلم قوله ألا يكفيك آية الصيف أراد أن الله عز وجل أنزل فى الكلالة آيتين: إحداهما فى الشتاء وهى التى فى أول سورة النساء والآية الأخرى فى الصيف وهى التى فى آخر السورة وفيها من البيان ماليس فى آية الشتاء فلذلك أحاله عليها . وقوله تعالى (وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس) أراد به الأخ والأخت للأم باتفاق العلماء وقرأ سعد بن أبى وقاص وله أخ أو أخت من أم . فان قلت إن الله تعالى قال وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة ثم قال تعالى وله أخ فذكر الرجل ولم يذكر المرأة فما السبب فيه . قلت هذا على عادة العرب فانهم إذا ذكروا اسمين ثم أخبروا عنهما وكان فى الحكم سواء ربما أضافوا أحدهما إلى الآخر وربما أضافوا اليهما فهو كقوله تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة ثم قال تعالى وإنها لكبيرة وقال الفراء إذا جاء حرفان بمعنى واحد جاز إسناد التفسير إلى أيهما أريد ويجوز إسناده اليهما أيضا (فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث) وهذا إجماع العلماء أن أولاد الأم إذا كانوا اثنين فصاعدا يشتركون فى الثلث ذكرهم وأنثاهم فيه سواء قال أبو بكر الصديق فى خطبته إلا أن الآية التى أنزل الله فى أول سورة النساء من شأن الفرائض أنزلها فى الولد والوالد والأم والآية الثانية فى الزوج والزوجة والأخوة من الأم والآية الثالثة التى ختم الله بها سورة النساء فى الأخوة والأخوات من الأب والأم والآية التى ختم بها سورة الأنفال

أنزلها الله فى أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله. وقوله تعالى (من بعد وصية يوصى بها أو دين) تقدم تفسيره وبقى شىء من الأحكام يذكر هنا وذلك أن ظاهر الآية يدل على جواز الوصية بكل المال وببعضه وفى معنى الآية ماروى عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ماحق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه» وفى رواية له شىء يريد أن يوصى به أن يبيت ليلتين وفى رواية ثلاث ليال إلا ووصيته مكتوبة عنده قال نافع سمعت عبدالله بن عمر يقول مامرت على ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلا وعندى وصيتى مكتوبة أخرجاه فى الصحيحين ففى ظاهر الآية والحديث مايدل على إطلاق الوصية لكن ورد فى السنة مايدل على تقييد هذا المطلق وتخصيصه وهو قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد بن أبى وقاص قال الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس أخرجاه في الصحيحين. ففى هذا الحديث دليل على أن الوصية لاتجوز بأكثر من الثلث وأن النقصان عن الثلث جائز ولا تجوز الوصية لوارث ويدل عليه ماروى عن عمرو ابن خارجة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الله عز وجل أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث والولد للفراش وللعاهر الحجر» أخرجه الترمذى والنسائى عن أبى أمامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث أخرجه أبو داود. وقوله تعالى (غير مضار) يعنى غير مدخل الضرر على الورثة بمجاوزة الثلث فى الوصية وهو أن يوصى بأكثر من الثلث وقيل هو أن يوصى بدين ليس عليه أو يقر بماله أو أكثر ماله لأجنبي ويترك ورثته عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار ثم قرأ أبو هريرة من بعد وصية يوصى بها أو دين إلى قوله وذلك هو الفوز العظيم أخرجه أبو داود والترمذى وقال قتادة كره الله تعالى الضرار فى الحياة وعند الموت فنهى عنه وقدم فيه وقيل إن الإضرار فى الوصية من الكبائر لأن مخالفة أمر الله عز وجل كبيرة وقد نهى الله عن الإضرار فى الوصية فدل على أن ذلك من الكبائر، واعلم أن الأولى بالإنسان أن ينظر عند الموت فى قدر مايخلف من المال ومن يخلف من الورثة ثم يجعل وصيته بحسب ذلك فان كان ماله قليلا وفى الورثة كثرة فالأولى به أن لا يوصى بشىء لقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» وإن كان في المال كثرة أوصى بحسب المال وبحسب الورثة وحاجتهم بعده فى القلة والكثرة. وقوله تعالى (وصية من الله) أى فريضة من الله وقيل عهدا من الله اليكم فيما يجب لكم من ميراث من مات منكم (والله عليم) يعنى أنه عالم بمصالح عباده ومضارهم وبما يفرض عليهم من الأحكام وقيل عليم بمن يجور فى وصيته وبمن لا يجور (حليم) يعنى أنه تعالى ذو حلم وذو أناة فى ترك العقوبة عمن جار فى وصيته وقال أبو سليمان الخطابى الحليم ذو الصفح والأناة الذى لايستفزه غضب ولايستخفه جهل جاهل والحليم هو الصفوح مع القدرة المتأنى الذى لا يعجل بالعقوبة. قوله عز وجل (تلك حدود الله) يعنى الأحكام التى تقدم ذكرها فى هذه السورة من مال اليتامى والوصايا والأنكحة والمواريث وإنما سماها حدودا لأن الشرائع كالحدود المضروبة للمكلفين فلا يجوز لهم أن يتجاوزوها وقال ابن عباس يريد ماحد الله من فرائضه (ومن يطع الله ورسوله) يعنى فى شأن المواريث ورضى بما قسم الله له وحكم عليه (يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله) يعنى فى شأن المواريث ولم يرض بقسمة الله ورسوله (ويتعد حدوده) يعنى ويتجاوز ماأمر الله تعالى به (يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين).

ذكرهم وأنثاهم قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته إلا أن الآية التى أنزل الله تعالى فى أول سورة النساء فى بيان الفرائض أنزلها فى الولد والوالد والأم والآية الثانية فى الزوج والزوجة والإخوة والأخوات من الأم والآية التى ختم بها سورة النساء فى الأخوة والأخوات من الأب والأم والآية التى ختم بها سورة الأنفال أنزلها فى أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله (من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار) أى غير مدخل الضرر على الورثة بمجاوزة الثلث فى الوصية فان الحسن هو أن يوصى بدين ليس عليه (وصية من الله والله عليم حليم) قال قتادة كره الله الضرار فى الحياة وعند الموت ونهى عنه وقدم فيه (تلك حدود الله) يعنى ماذكر من الفرائض المحدودة (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) قرأ أهل المدينة وبن عامر ندخله جنات وندخله نارا وفى سورة الفتح ندخله ونعذبه وفى سورة التغابن نكفر وندخله وفى سورة الطلاق ندخله بالنون

عليهن أربعة منكم) يعنى من المسلمين وهذا خطاب للحكام أى فاطلبوا عليهن أربعة من الشهود فيه بيان أن الزنا لايثبت إلا بأربعة من الشهود (فان شهدوا فامسكوهن)فاحبسوهن (فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا) وهذا كان فى أول الإسلام قبل نزول الحدود وكانت المرأة إذا زنت حبست فى البيوت حتى تموت ثم نسخ ذلك فى حق البكر بالجلد والتغريب وفى حق الثيب بالجلد والرجم أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز ابن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أخبرنا الشافعى رضى الله عنه أخبرنا عبدالوهاب عن يونس عن الحسن عن عبادة ابن الصامت رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال «خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» قال الشافعى رضى الله عنه وقد حدثنى الثقة أن الحسن كان يدخل بينه وبين عبادة حطان الرقاشى فلا أدرى أدخله عبد الوهاب فنزل عن كتابى

فان قلت كيف قطع للعاصى بالخلود فى النار فى هذه الآية وهل فيها دليل للمعتزلة على قولهم إن العصاة والفساق من أهل الإيمان يخلدون فى النار . قلت قال الضحاك المعصية هنا الشرك وروى عكرمة عن ابن عباس فى معنى الآية من لم يرض بقسمة الله ويتعد ما قال الله يدخله نارا وقال الكلبى يكفر بقسمة المواريث ويتعد حدود الله استحلالا إذا ثبت ذلك فمن رد حكم الله ولم يرض بقسمته كفر بذلك وإذا كفر كان حكمه حكم الكفار فى الخلود فى النار إذا لم يتب قبل وفاته إذا مات وهو مصر على ذلك كان مخلدا في النار بكفره فلا دليل فى الآية للمعتزلة والله أعلم. قوله تعالى (واللاتى) هو جمع التى وهى كلمة يخبر بها عن المؤنثة خاصة (يأتين الفاحشة) يعنى يفعلن الفاحشة يقال أتيت أمرا قبيحا إذا فعلته والفاحشة فى اللغة الفعلة القبيحة وقيل الفاحشة عبارة عن كل فعل أو قول يعظم قبحه فى النفوس ويقبح ذكره فى الألسنة حتى يبلغ الغاية فى جلسه وذلك مخصوص بشهوة الفرج الحرام ولذلك أجمعوا على أن الفاحشة هاهنا هى الزنا وإنما سمى الزنا فاحشة لزيادة قبحه (من نسائكم) قيل هن الزوجات وقيل المراد بهن جنس النساء (فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) يعنى من المسلمين وهذا خطاب للأزواج أى اطلبوا أربعة من الشهود ليشهدوا عليهن وقيل هو خطاب للحكام أى استمعوا شهادة أربع عليهن . ويشترط فى هذه الشهادة العدالة والذكورة قال عمر بن الخطاب إنما جعل الله الشهود أربعة سترا يستركم به دون فواحشكم (فان شهدوا) يعنى الشهود بالزنا (فأمسكوهن فى البيوت) أى فاحبسوهن فى البيوت والحكمة فى حبسهن أن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز للرجال فاذا حبست فى البيت لم تقدر على الزنا (حتى يتوفاهن الموت) يعنى تتوفاهن ملائكة الموت عند انقضاء آجالهن (أو يجعل الله لهن سبيلا) وهذا الحكم كان فى أول الإسلام قبل نزول الحدود كانت المرأة إذا زنت حبست فى البيت حتى تموت ثم نسخ الحبس بالحدود وجعل الله لهن سبيلا (م) عن عبادة بن الصامت قال «كان نبى الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه حكم كرب لذلك وتربد وجهه فأنزل الله عليه ذات يوم فبقى كذلك فلما سرى عنه قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» .

(فصل) اتفق العلماء على أن هذه الآية منسوخة ثم اختلفوا فى ناسخها فذهب بعضهم إلى أن ناسخها هو حديث عبادة بن الصامت المتقدم وهذا على مذهب من يرى نسخ القرآن بالسنة وذهب بعضهم إلى أن الآية منسوخة بآية الحد التى فى سورة النور وقيل إن هذه الآية منسوخة بالحديث والحديث منسوخ بآية الجلد وقال أبو سليمان الخطابى لم يحصل النسخ فى هذه الآية ولا فى الحديث وذلك لأن قوله تعالى «فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا» يدل على إمساكهن فى البيوت ممدودا إلى غاية أن يجعل الله لهن سبيلا وأن ذلك السبيل كان مجملا فلما قال صلى الله عليه وسلم « خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا» الحديث صار هذا الحديث بيانا لتلك الآية المجملة لاناسخا لها. وأجمع العلماء على جلد البكر الزانى مائة ورجم المحصن وهو الذى اجتمع فيه أربعة أوصاف البلوغ والعقل والحرية والإصابة فى نكاح صحيح وهو الثيب واختلفوا فى جلد الثيب ورجمه فذهب طائفة إلى أنه يجب الجمع بينهما وبه قال على بن أبى طالب رضى الله عنه والحسن وإسحاق بن راهويه وداود وأهل الظاهر وروى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه جلد شراحة الهمدانية يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها

أم لا ؟ قال شيخنا الإمام الحديث صحيح رواه مسلم بن الحجاج عن محمد بن المثنى عن عبد الأعلى عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن حطان بن عبد الله عن عبادة ثم نسخ الجلد فى حق الثيب وبقى الرجم عند أكثر أهل العلم . وذهب طائفة إلى أنه يجمع بينهما روى عن على رضى الله عنه أنه جلد شراحة الهمدانية يوم الخميس مائة ثم رجمها يوم الجمعة وقال ؟ جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ وعامة العلماء على أن الثيب لايجلد مع الرجم لأن النبى ﷺ رجم ماعزا والغامدية ولم يجلدهما وعند أبى حنيفة رضى الله عنه التغريب أيضا منسوخ فى حق البكر وأكثر أهل العلم على أنه ثابت روى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ ضرب وغرب وأن أبا بكر رضى الله عنه ضرب وغرب ؛ وأن عمر رضى الله عنه ضرب وغرب واختلفوا فى أن الإمساك فى البيت كان حدا فنسخ أم كان حبسا ليظهر الحد على قولين : قوله تعالى (واللذان يأتيانها منكم) يعنى الرجل والمرأة والهاء راجعة إلى الفاحشة قرأ ابن كثير اللذان واللذين وهاتان وهذان مشددة النون للتأكيد ووافقه أهل البصرة فى فذانك والآخرون بالتخفيف قال أبو عبيدة خص أبو عمرو فذانك بالتشديد لقلة الحروف فى الاسم (فآذوهما) قال عطاء وقتادة يعنى فعيروهما باللسان . أما خفت الله أما استحييت من الله حيث زنيت قال ابن عباس رضى الله عنهما سبوهما واشتموهما قال ابن عباس هو باللسان واليد يؤذى بالتعيير وضرب النعال فان قيل ذكر الحبس فى الآية الأولى وذكر فى هذه الآية الإيذاء فكيف وجه الجمع قيل الآية الأولى فى النساء وهذه فى الرجال وهو قول مجاهد وقيل الآية الأولى فى الثيب وهذه فى البكر (فان تابا) من الفاحشة (وأصلحا) العمل فيما بعد (فاعرضوا عنهما) فلا تؤذوهما (إن الله كان توابا رحيما) وهذا كله كان قبل نزول الحدود فنسخت بالجلد والرجم والجلد فى القرآن قال الله تعالى الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة والرجم فى السنة أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى أخبرنا أبو على زاهر بن أحمد السرخسى أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى رضى الله عنهما أنهما أخبراه أن رجلين اختصما إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما أقض يارسول الله بيننا بكتاب الله وقال الآخر وكان أفقههما أجل يارسول الله فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى أن أتكلم قال تكلم قال إن ابنى كان عسيفا أى أجيرا على هذا فزنى بامرأته فأخبرونى أن على ابنى الرجم فافتديت منه بمائة شاة وبجارية لى ثم إنى سألت أهل

بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال جماهير العلماء الواجب على المحصن الزانى الرجم وحده لأن النبى صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا والغامدية ولم يجلدهما. وأما تغريب البكر الزانى ونفيه سنة فمذهب الشافعى وجماهير العلماء وجوب ذلك وقال أبو حنيفة وحماد لايقضى بالنفى أحد إلا أن يراه الحاكم تعزيرا وقال مالك والأوزاعى لانفى على النساء ويروى مثله عن على قال لأن المرأة عورة وفى نفيها تضييع لها وتعريض للفتنة وحجة الشافعى وجماهير العلماء ظاهر حديث عبادة بن الصامت وهو قوله صلى الله عليه وسلم «البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة» وروى نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب وغرب وأن أبا بكر ضرب وغرب وأن عمر ضرب وغرب وإن كان الزانى عبدا فعليه جلد خمسين وفى تغريبه قولان . فان قلنا إنه يغرب ففيه قولان أصحهما أنه يغرب نصف سنة قياسا على حده وإن كان الزانى مجنونا أو غير بالغ فلا جلد عليه قوله عز وجل (واللذان) هو تثنية الذى (يأتيانها) يعنى يأتيان الفاحشة (منكم) يعنى من رجالكم ونسائكم وقيل هما البكران اللذان لم يحصنا وهما غير المعنيين بالآية الأولى وقيل المراد بمن ذكر فى الأولى النساء وهذه للرجال لأن الله تعالى حكم فى الآية الأولى بالحبس فى البيت على النساء وهو اللائق بحالهن لأن المرأة إنما تفعل الفاحشة عند الخروج فاذا حبست فى البيت انقطعت مادة المعصية وأما الرجل فلا يمكن حبسه فى البيت لأنه يحتاج إلى الخروج فى إصلاح معاشه واكتساب قوت عياله فجعلت عقوبة الرجل الزانى الأذية بالقول والفعل (فآذوهما) يعنى عيروهما بالقول باللسان وهو أن يقال له أما خفت الله أما استحييت من الله حين زنيت وقال ابن عباس سبوهما واشتموهما وفى رواية عنه قال هو باللسان واليد يؤذى بالتعيير ويضرب بالنعال (فان تابا) يعنى من الفاحشة (وأصلحا) يعنى العمل فيما يأتى (فأعرضوا عنهما) أى اتركوهما ولا تؤذوهما (إن الله كان توابا رحيما) يعنى إنه تعالى يعود على عبده بفضله ومغفرته ورحمته إذا تاب إليه وهذا الحكم كان فى ابتداء الإسلام كان حد الزانى الأذى بالتوبيخ والتعيير

العلم فأخبرونى أن على إبنى جلد مائة وتغريب عام وإنما الرجم على امرأته فقال رسول الله ﷺ أما والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله أما غنمك وجاريتك فرد عليك وأما إبنك فعليه جلد مائة وتغريب عام واغد ياأنيس على امرأة هذا أى أمر أنيسا الأسلمى أن يأتى امرأة الآخر فان اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فرجمها أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنى إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب عن عبيد بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود عن ابن عباس قال: قال عمر رضى الله عنه أن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله تعالى آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده وأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل والله ما نجد آية الرجم فى كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى فى كتابه والرجم فى كتاب الله تعالى حق على (٤٩٧) من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف وجملة حد الزنا أن الزانى إذا كان محصنا وهو الذى اجتمعت فيه أربعة أوصاف: العقل والبلوغ والحرية والإصابة بالنكاح الصحيح فحده الرجم مسلما كان أو ذميا وهو المراد من الثيب المذكور فى الحديث وذهب أصحاب الرأى إلى أن الإسلام من شرائط الإحصان ولا يرجم الذمى وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم يهوديين زنيا وكانا قد أحصنا وإن كان الزانى غير محصن بأن لم تجتمع فيه هذه الأوصاف نظر إن كان غير بالغ أو كان مجنونا فلا حد عليه وإن كان حرا عاقلا بالغا غير أنه لم يحصن بنكاح صحيح فعليه جلد مائة وتغريب عام وإن كان عبد فعليه جلد خمسين وفى تغريبه قولان إن قلنا يغرب فيه قولان أصحهما نصف سنة كما يجلد خمسين على نصف حد الحر قوله تعالى (إنما التوبة على الله) قال الحسن يعنى التوبة التى يقبلها فيكون على بمعنى عند وقيل من الله (للذين يعملون السوء بجهالة) قال قتادة أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصى به الله فهو جهالة عمدا كان أو لم يكن وكل من عصى الله فهو جاهل وقال مجاهد المراد من الآية العمد قال الكلبى لم يجهل أنه ذنب لكنه جهل عقوبته وقيل معنى الجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية (ثم يتوبون من قريب) قيل معناه قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها وقال السدى والكلبى القريب أن يتوب فى صحته قبل مرض موته وقال عكرمة قبل الموت وقال الضحاك قبل معاينة ملك الموت أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا عبد الرحمن بن أبى شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى أنا على بن الجعد أنا

والتعبير بالقول باللسان فلما نزلت الحدود وثبتت الأحكام نسخ ذلك الأذى بالآية التى فى سورة النور وهي قوله تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) الآية فثبت الجلد على البكر بنص الكتاب وثبت الرجم على الثيب المحصن بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم ماعزا وكان قد أحصن وسواء فى هذا الحكم المسلم واليهودى لأنه ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم رجم يهوديين زنيا وكانا قد أحصنا وقال أبو حنيفة لا رجم على اليهودى لأن المشرك ليس بمحصن وأجيب عنه بأن المراد بهذا الإحصان إحصان العفاف لا إحصان الفرج. قوله تعالى (إنما التوبة على الله) يعنى التوبة التى يقبلها الله تعالى فيكون على بمعنى عند وقيل على بمعنى من أى من الله وقال أهل المعانى إن الله تعالى وعد قبول التوبة من المؤمنين فى قوله كتب ربكم على نفسه الرحمة وإذا وعد الله شيئا أنجز ميعاده وصدق فيه فمعنى قوله على الله أوجب على نفسه من إيجاب أحد عليه لأنه تعالى يفعل ما يريد (للذين يعملون السوء) يعنى الذنوب والمعاصى سميت سوءا لسوء عاقبتها إذا لم يتب منها (بجهالة) قال قتادة أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل شىء عصى الله به فهو جهالة عمدا كان أو غيره وكل من عصى الله فهو جاهل وقال ابن عباس من عمل السوء فهو جاهل من جهالته عمل السوء فكل من عصى الله سمى جاهلا وسمى فعله جهالة وإنما سمى من عصى الله جاهلا لأنه لم يستعمل ما معه من العلم بالثواب والعقاب وإذا لم يستعمل ذلك سمى جاهلا بهذا الاعتبار وقيل معنى الجهالة أن يأتى الإنسان بالذنب مع العلم بأنه ذنب لكنه يجهل عقوبته وقيل معنى الجهالة هو اختيار اللذة الفانية على اللذة الباقية (ثم يتوبون من قريب) يعنى يتوبون بعد الإقلاع عن الذنب بزمان قريب لئلا يعد فى زمرة المصرين وقيل القريب أن يتوب فى صحته قبل مرض موته وقيل قبل موته وقيل قبل معاينة ملك الموت ومعاينة أهوال الموت وإنما سميت هذه المدة قريبة لأن كل ما هو آت قريب وفيه تنبيه على أن عمر الإنسان

ابن ثوبان وهو عبد الرحمن ابن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما
عن النبي ﷺ قال إن الله تعالى (٤٩٨) يقبل توبة العبد مالم يغرغر أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنا أبو منصور

محمد بن محمد ابن سمعان
أنا أبو جعفر ابن محمد
ابن أحمد بن عبد الجبار
الزياني أنا حميد بن زنجويه
أنا أبو الأسود أنا ابن
لهيعة عن دراج عن أبي
الهيثم عن أبي سعيد
الخدري رضي الله عنهما
أن رسول الله ﷺ قال
«إن الشيطان قال وعزتك
يارب لا أبرح أغوى
عبادك مادامت أرواحهم
في أجسادهم» فقال الرب
عز وجل وعزتي وجلالي
وارتفاعي في مكاني لا أزال
أغفر لهم ما استغفروني قوله
تعالى (فأولئك يتوب الله
عليهم وكان الله عليما
حكيما وليست التوبة
للذين يعملون السيئات)
يعني المعاصي (حتى إذا
حضر أحدهم الموت)
ووقع في النزع (قال إني
تبت الآن) وهي حالة
السوق حين يساق بروحه
لا يقبل من كافر إيمان
ولا من عاص توبة قال
الله تعالى فلم يك ينفعهم
إيمانهم لما رأوا بأسنا
ولذلك لم ينفع الإيمان
فرعون حين أدركه
الغرق (ولا الذين يموتون
وهم كفار أولئك أعتدنا) أي هيأنا وأعددنا لهم عذابا أليما (ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) نزلت في أهل المدينة
المدينة كانوا في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من ذوي عصبته فألقى ثوبه على تلك
المرأة أو على خبائها فصار أحق بها من نفسها ومن غيره فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الأول الذي أصدقها الميت وإن

وإذا طال فهو قليل وأن الإنسان يتوقع في كل ساعة ولحظة نزول الموت به عن ابن عمر أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال إن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر أخرجه الترمذي الغرغرة أن يجعل
المشروب في فم المريض فيردده في الحلق ولا يصل إليه ولا يقدر على بلعه وذلك عند بلوغ الروح
إلى الحلقوم وروى البغوي بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
«إن الشيطان قال وعزتك يارب لا أبرح أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم» فقال الرب
تبارك وتعالى وعزتي وجلالي وارتفاعي في مكاني لا أزال أغفر لهم ما استغفروني وقيل في معنى الآية
أن القريب هو أن يتوب الإنسان قبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها (فأولئك يتوب الله عليهم
يعني يقبل توبتهم (وكان الله عليما حكيما) قال ابن عباس علم ما في قلوب عباده المؤمنين من التصديق
واليقين فحكم بالتوبة قبل الموت ولو بقدر فواق ناقة وقيل في معنى الآية علم أنه إنما أتى بتلك
المعصية باستيلاء الشهوة والجهالة عليه فحكم بالتوبة لمن تاب عنها وأناب عن قريب . قوله عز
وجل (وليست التوبة للذين يعملون السيئات) قال ابن عباس يريد الشرك وقال أبو العالية وسعيد
ابن جبير هم المنافقون وقال سفيان الثوري هم المسلمون ألا ترى أنه قال ولا الذين يموتون
وهم كفار (حتى إذا حضر أحدهم الموت) يعني وقع في النزاع وعاين ملائكة الموت وهو حالة
السوق حين تساق الروح للخروج من جسده (قال إني تبت الآن) قال المحققون قرب الموت لا يمنع
من قبول التوبة بل المانع من قبولها مشاهدة الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا بحال
ولذلك لم تقبل توبة فرعون ولا إيمانه وهو قوله تعالى حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله
إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ويدل
على ذلك أيضا قوله تعالى «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» فإن قلت قد تعلقت الوعيدية بهذه
الآية وقالوا أخبر الله تعالى إن عصاة المؤمنين إذا أهملوا أمرهم إلى انقضاء آجالهم حصلوا على
عذاب الآخرة مع الكفار لأن الله تعالى جمعهم في قوله أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما وأيضا أنه
تعالى أخبر أنه لا توبة لهم عند معاينة الموت وأسبابه . قلت ليس الأمر على ما زعموا فقد روى عن
ابن عباس في قوله وليست التوبة للذين يعملون السيئات يريد الشرك وقال سعيد بن جبير نزلت
الآية الأولى في المؤمنين يعني قوله إنما التوبة على الله والوسطى في المنافقين يعني قوله وليست التوبة
والأخرى في الكافرين يعني قوله ولا الذين يموتون وهم كفار وإذا كانت الآية نازلة في المنافقين
والكفار فلا وجه لحملها على المؤمنين وعلى تقدير أن تكون الآية نازلة في عصاة المؤمنين فقد روى عن
ابن عباس في قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات الآية ثم أنزل الله تعالى بعد ذلك إن الله لا يغفر أن
يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فحرم الله المغفرة على من مات وهو كافر وأرجأ أهل التوحيد إلى
مشيئته ولم يؤيسهم من المغفرة فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة في حق المؤمنين . وقوله تعالى
(ولا الذين يموتون وهم كفار) معناه لا توبة للكفار إذا ماتوا على كفرهم وإنما لم تقبل توبتهم في الآخرة
لرفع التكليف في الآخرة ومعاينة ما وعدوا به من العذاب (أولئك أعتدنا لهم) أي هيأنا لهم
(عذابا أليما) قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) نزلت في أهل

شاء زوجها غيره وأخذ صداقها وإن شاء عضلها ومنعها من الأزواج يضارها لتفتدى منه بما ورثته من الميت أو تموت هى فيرثها فان ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقى عليها ولى زوجها ثوبه فهى أحق بنفسها فكانوا على هذا حتى توفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية فقام ابن له من غيرها يقال له حصن وقال مقاتل بن حيان اسمه قيس بن أبى قيس فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها يضارها لتفتدى منه فأتت كبيشة رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله إن أبا قيس توفى وورث نكاحى إبنه فلا ينفق

على ولا يدخل بى ولا يخلى سبيلى

المدينة وذلك أنهم كانوا فى الجاهلية وفى أول الإسلام إذا مات الرجل وخلف امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من ذوى عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة أو على خبائها فصار أحق بها من نفسها ومن غيره فان شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الأول الذى أصدقها الميت وإن شاء زوجها غيره وأخذ هو صداقها وإن شاء عضلها ومنعها من الأزواج يضارها بذلك لتفتدى منه بما ورثت من الميت أو تموت هى فيرثها فان ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقى عليها ولى زوجها ثوبه كانت أحق بنفسها وكانوا على ذلك حتى توفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية فقام ابن له من غيرها يقال له حصن وقيل اسمه قيس بن أبى قيس فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم ينفق عليها يضارها بذلك لتفتدى منه فأتت كبيشة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له يارسول الله إن أبا قيس توفى وورث نكاحى ابنه فلا هو ينفق على ولا هو يدخل بى ولا يخلى سبيلى فقال أقعدى فى بيتك حتى يأتى أمر الله فيك فأنزل الله عز وجل «ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها» يعنى ميراث نكاح النساء وقيل فى معناه أن ترثوا أموالهن كرها يعنى وهن كارهات (ولا تعضلوهن) أى ولا تمنعوهن من الأزواج وأصل العضل المنع (لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) يعنى لتضجر فتفتدى ببعض مالها قيل هو خطاب للأزواج قال ابن عباس هذا فى الرجل تكون له امرأة وهو كاره لها ولصحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدى منه وترد إليه ماساق إليها من المهر فنهى الله عن ذلك وقيل كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها ثم يطلقها يضارها بذلك فنهوا عن ذلك وهو خطاب لأولياء الميت فنهاهم الله عن عضل المرأة ثم قال تعالى (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) يعنى فحينئذ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم واختلفوا فى الفاحشة المبينة فقيل هي النشوز وسوء الخلق وإيذاء الزوج وأهله وقيل الفاحشة هى الزنا يعنى أن المرأة إذا نشزت أو زنت حل للزوج أن يسألها الخلع وقيل كانت المرأة إذا أصابت فاحشة أخذ منها زوجها ماساق إليها وأخرجها فنسخ الله ذلك بالحدود (وعاشروهن بالمعروف) قيل هو راجع للكلام الذى قبله والمعنى وآتوا النساء صدقاتهن نحلة وعاشروهن بالمعروف هو الإجمال فى القول والمبيت والنفقة وقيل هو أن تصنع لها كما تحب أن تصنع لك (فان كرهتموهن) يعنى فان كرهتم عشرتهن وصحبتهن وآثرتم فراقهن (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) قال ابن عباس ربما رزق منها ولدا صالحا فجعل الله فى ولدها خيرا كثيرا فتنقلب تلك الكراهة محبة والنفرة رغبة وقيل فى الآية ندب إلى إمساك المرأة مع الكراهية لها لأنه إذا كره صحبتها وتحمل ذلك

فقال اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله فأنزل الله تعالى هذه الآية ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها قرأ حمزة والكسائى كرها بضم الكاف هاهنا وفى التوبة، وقرأ الباقون بالفتح، قال الكسائى هما لغتان قال الفراء الكره بالفتح ما أكره عليه وبالضم ما كان من قبل نفسه من المشقة (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) أى لا تمنعوهن من الأزواج ليضجرن فيفتدين ببعض مالهن قيل هذا خطاب لأولياء الميت والصحيح أنه خطاب للأزواج قال ابن عباس رضى الله عنهما هذا فى الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدى وترد إليه ماساق إليها من المهر فنهى الله تعالى عن ذلك ثم قال (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) فحينئذ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم واختلفوا فى الفاحشة قال ابن مسعود وقتادة هى النشوز وقال بعضهم وهو قول الحسن هى الزنا يعنى المرأة إذا نشزت أو زنت حل للزوج أن يسألها الخلع وقال عطاء كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ماساق إليها وأخرجها فنسخ ذلك بالحدود وقرأ ابن كثير وأبو بكر مبينة ومبينات بفتح الياء ووافق أهل المدينة والبصرة فى مبينات والباقون بكسرها (وعاشروهن بالمعروف) قال الحسن راجع إلى أول الكلام يعنى وآتوا النساء صدقاتهن نحلة وعاشروهن بالمعروف والمعاشرة بالمعروف هى الإجمال فى القول والمبيت والنفقة وقيل هى أن يصنع لها كما تصنع له (فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا) كثيرا

قيل هو ولد صالح أو يعطفه الله عليها (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج) أراد بالزوج الزوجة

إذا لم يكن من قبلها نشوز ولا فاحشة (وآتيتم) أعطيتم (إحداهن قنطارا) وهو المال الكثير صداقا (فلا تأخذوا منه) من القنطار (شيئا أتأخذونه) استفهام بمعنى التوبيخ (بهتانا وإثما مبينا) انتصابهما من وجهين: أحدهما بنزع الخافض والثاني بالإضمار تقديره تصيبون فى أخذه بهتانا وإثما ثم قال (وكيف تأخذونه) على طريق الاستعظام (وقد أفضى بعضكم إلى بعض) أراد به المجامعة ولكن الله حيي يكنى وأصل الإفضاء الوصول إلى الشيء من غير واسطة (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قال الحسن وابن سيرين والضحاك وقتادة وهو قول الولى عند العقد زوجتكها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح باحسان وقال الشعبي وعكرمة هو ماروى عن النبي ﷺ إنه قال اتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله تعالى واستحللتم فروجهن بكلمة الله تعالى قوله عز وجل (ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء) كان أهل الجاهلية ينكحون أزواج آبائهم قال الأشعث ابن سوار توفى أبو قيس وكان من صالحي الأنصار فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت إني اتخذتك ولدا وأنت من صالحي

المكروه طلبا للثواب وأنفق عليها وأحسن هو صحبتها استحق الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى العقبى وقيل فى معنى الآية إنكم إن كرهتموهن ورغبتم فى فراقهن فربما جعل الله فى تلك المفارقة لهن خيرا كثيرا وذلك بأن تخلص من هذا الزوج الكاره لها وتتزوج غيره خيرا منه. قوله عز وجل (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج) الخطاب للرجال وأراد بالزوج الزوجة قال المفسرون لما ذكر الله فى الآية الأولى مضارة الزوجات إذا أتين بفاحشة وهى إما النشوز أو الزنا بين فى هذه الآية تحريم المضارة إن لم يكن من قبلها نشوز ولا زنا ونهى عن بخس الرجل حق المرأة إذا أراد طلاقها واستبدال غيرها (وآتيتم إحداهن قنطارا) يعنى وكان ذلك الصداق مالا كثيرا وفى الآية دليل على جواز المغالاة فى المهور روى أن عمر قال على المنبر ألا لاتغالوا فى مهور نسائكم فقامت امرأة فقالت يا ابن الخطاب الله يعطينا وأنت تمنعنا وتلت الآية فقال كل الناس أفقه منك ياعمر وفى رواية امرأة أصابت وأمير أخطأ ورجع عن كراهة المغالاة وقد تغالى الناس فى صدقات النساء حتى بلغوا الألوف وقيل إن خير المهور أيسرها وأسهلها (فلا تأخذوا منه شيئا) يعنى من القنطار الذى آتيتموهن لو جعلتم ذلك القدر لهن صداقا فلا تأخذوا منه شيئا وذلك أن سوء العشرة إما أن يكون من قبل الزوج أو من قبل الزوجة فان كان من قبل الزوج وأراد طلاق المرأة فلا يحل له أن يأخذ شيئا من صداقها وإن كان النشوز من قبل المرأة جاز له ذلك (أتأخذونه) استفهام بمعنى التوبيخ (بهتانا) يعنى ظلما وقيل باطلا (وإثما مبينا) يعنى أتأخذونه مباهتين آثمين فلا تفعلوا مثل هذا الفعل مع ظهور قبحه فى الشرع والعقل ثم قال تعالى (وكيف تأخذونه) كلمة تعجب والمعنى لأى وجه تفعلون مثل هذا الفعل وكيف يليق بالعاقل أن يسترد شيئا بذله لزوجته عن طيب نفس وقيل هو استفهام معناه التوبيخ والتعظيم لأخذ المهر بغير حقه ثم ذكر السبب فى ذلك فقال تعالى (وقد أفضى بعضكم إلى بعض) أصل الإفضاء فى اللغة الوصول يقال أفضى إليه أى وصل إليه ثم للمفسرين فى معنى الإفضاء فى هذه الآية قولان: أحدهما أنه كناية عن الجماع وهو قول ابن عباس ومجاهد والسدى واختيار الزجاج وابن قتيبة ومذهب الشافعى لأن عنده أن الزوج إذا طلق قبل المسيس فله أن يرجع بنصف المهر وإن خلا بها والقول الثانى فى معنى الإفضاء هو أن يخلو بها وإن لم يجامعها وقال الكلبي الإفضاء أن يكون معها فى لحاف واحد جامعها أو لم يجامعها وهذا القول هو اختيار الفراء ومذهب أبى حنيفة أن الخلوة الصحيحة عنده تقرر المهر (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قيل هو قول العاقد عند العقد زوجتكها على ما أخذ الله للنساء على الرجال من إمساك بمعروف أو تسريح باحسان وقيل هى كلمة النكاح المعقودة على الصداق وهي الكلمة التى تستحل بها فروج النساء ويدل على ذلك ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «اتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» قوله تعالى (ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء) قال المفسرون كان أهل الجاهلية يتزوجون أزواج آبائهم فنهاهم الله عن ذلك بهذه الآية روى أنه لما توفى أبو قيس وكان من صالحي الأنصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت إنى اتخذتك ولدا وأنت من صالحى قومك ولكنى آتى رسول الله صلى الله

قومك ولكني آتي رسول الله ﷺ أستأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله تعالى ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء (إلا ما قد سلف) قيل بعد ما سلف وقيل معناه لكن ما سلف أي ما مضى في الجاهلية فهو معفو عنه (إنه كان فاحشة) أي أنه فاحشة وكان فيه صلة والفاحشة أقبح المعاصي (ومقتا) أي يورث مقت الله والمقت أشد البغض (وساء سبيلا) وبئس ذلك طريقا وكانت العرب تقول لولد الرجل من امرأة أبيه مقيت وكان منهم الأشعث بن قيس وأبو معيط بن أبي عمرو بن أمية أخبرنا

الله عليه وسلم وأستأمره فأتته فأخبرته فأنزل الله عز وجل ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء (إلا ما قد سلف) يعني إلا ما مضى في الجاهلية قبل نزول التحريم فانه معفو عنه (إنه كان فاحشة) إنما سماه فاحشة لأن زوجة الأب في منزلة الأم ونكاح الأمهات حرام فلما كان ذلك كذلك سماه الله فاحشة لأنه من أقبح المعاصي (ومقتا) يعني أنه يورث المقت من الله وهو أشد الغضب وغاية الخزي والخسارة (وساء سبيلا) أي وبئس طريقا لأنه يؤدي إلى مقت الله والعرب تسمى ولد الرجل من امرأة أبيه مقيتا وكان منهم الأشعث بن قيس وأبو معيط بن أبي عمرو بن أمية روى البغوي بسنده عن البراء بن عازب قال مر بي خالي ومعه لواء فقلت أين تذهب قال بعثني النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه. قوله عز وجل (حرمت عليكم أمهاتكم) بين الله عز وجل في هذه الآية المحرمات من النساء بسبب الوصلة إما بسبب أو نسب (خ) عن ابن عباس قال حرم من النساء سبع ومن الصهر سبع ثم قرأ حرمت عليكم أمهاتكم الآية فجملة المحرمات من النساء بنص الكتاب أربعة عشر صنفا فأما المحرمات بالنسب فقوله حرمت عليكم أمهاتكم جمع أم وأصل أمهات أمات وإنما زيدت الهاء للتوكيد والأم هي الوالدة القريبة ويدخل في حكمها كل امرأة رجع النسب إليها من جهة الأب أو من جهة الأم بدرجة أو بدرجات وهي جميع الجدات وإن علون فيحرم نكاح الأم وجميع الجدات (وبناتكم) والبنت عبارة عن كل أنثى رجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو درجات باناث كبنت البنت وإن سفلت وكذا بنت الابن (وأخواتكم) جمع أخت وهي عبارة عن كل امرأة شاركتك في أصلك فتدخل فيه الأخوات من الأب والأم والأخوات من الأب والأخوات من الأم (وعماتكم) جمع عمة وهي كل امرأة شاركت أباك في أصله وهن جميع أخوات الأب وأخوات آبائه وإن علون وقد تكون العمة من جهة الأم أيضا وهي أخت أبي الأم (وخالاتكم) جمع خالة وهي كل امرأة شاركت الأم في أصلها فيدخل فيه جميع أخوات الأم وأخوات أمهاتها وقد تكون الخالة من جهة الأب أيضا وهي أخت أم الأب (وبنات الأخ وبنات الأخت) وهي عبارة عن كل امرأة لأخيك أو لأختك عليها ولادة يرجع نسبها إلى الأخ أو الأخت فيدخل فيهن جميع بنات أولاد الأخ والأخت وإن سفلن فهذه الأصناف السبعة محرمة بسبب النسب بنص الكتاب وجملته أنه يحرم على الرجل أصوله وفصوله وفصول أول أصوله وأول فصل من كل أصل بعده أصل فالأصول هن الأمهات والجدات والفصول هن البنات وبنات الأولاد وفصول أول أصوله هن الأخوات وبنات الإخوة والأخوات وأول فصل من كل أصل بعده أصل هن العمات والخالات وإن علون قال العلماء كل امرأة حرم الله نكاحها بالنسب والرحم فحرمتها مؤبدة لا تحل بوجه من الوجوه. الصنف الثاني المحرمات بالسبب وهن سبع الأول والثاني المحرمات

محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو سهل محمد ابن عمرو السجزي أنا الإمام أبو سليمان الخطابي أنا أحمد بن هشام الحضرمي أنا أحمد ابن عبد الجبار العطاردي عن حفص بن غياث عن أشعث بن سوار عن عدي بن ثابت عن البراء ابن عازب قال مر بي خالي ومعه لواء فقلت أين تذهب قال بعثني النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه آتيه برأسه قوله تعالى (حرمت عليكم أمهاتكم) الآية بين الله تعالى في هذه الآية المحرمات بسبب الوصلة، وجملة المحرمات في كتاب الله تعالى أربع عشرة: سبع بالنسب وسبع بالسبب فأما السبع بالسبب فمنها اثنتان بالرضاع وأربع بالصهرية والسابعة المحصنات وهن ذوات الأزواج، وأما السبع بالنسب فقوله تعالى

حرمت عليكم أمهاتكم وهي جمع أم ويدخل فيه الجدات وإن علون من قبل الأم ومن قبل الأب (وبناتكم) وهي جمع البنت ويدخل فيهن بنات الأولاد وإن سفلن (وأخواتكم) جمع الأخت سواء كانت من قبل الأب والأم أو من قبل أحدهما (وعماتكم) جمع العمة ويدخل فيهن جميع أخوات آبائك وأجدادك وإن علوا (وخالاتكم) جمع خالة ويدخل فيهن جميع أخوات أمهاتك وجداتك (وبنات الأخ وبنات الأخت) ويدخل فيهن بنات أولاد الأخ والأخت

وإن سفلن وجملته انه يحرم على الرجل اصوله وفصوله وفصول أول أصوله وأول فصل من كل أصل بعده والأصول هى الأمهات والجدات والفصول: البنات وبنات الأولاد وفصول أول أصوله هى: الأخوات وبنات الإخوة والأخوات وأول فصل من كل أصل بعده هن العمات والخالات وإن علون. وأما المحرمات بالرضاع فقوله تعالى (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) وجملته أنه يحرم من الرضاعة مايحرم من النسب أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يسار عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبى ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يحرم من الرضاعة مايحرم من الولادة أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر ابن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى قال أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبى بكر عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها أخبرتها (٥٠٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عندها وأنها سمعت صوت رجل يستأذن فى بيت حفصة فقالت عائشة رضى الله عنها قلت يارسول الله هذا رجل يستأذن فى بيتك فقال رسول الله ﷺ أراه فلانا لعم حفصة من الرضاعة فقلت يارسول الله لو كان فلانا حيا لعمها من الرضاعة أيدخل على فقال رسول الله ﷺ نعم «إن الرضاعة تحرم مايحرم من الولادة» وإنما تثبت حرمة الرضاع بشرطين: أحدهما أن يكون قبل استكمال المولود حولين لقوله تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» وروى عن أم سلمة رضى الله عنها قالت قال «كان رسول الله ﷺ لايحرم من الرضاع إلا مافتق الأمعاء» وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «لارضاع إلا ما أنشر العظم وأنبت اللحم» وإنما يكون هذا أن فى حال الصغر وعند أبى حنيفة رضى الله عنه مدة الرضاع ثلاثون شهرا لقوله تعالى «وحمله وفصاله ثلاثون شهرا» وهو عند الأكثرين لأقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع وأقل مدة الحمل ستة أشهر. والشرط الثانى أن يوجد خمس رضعات متفرقات يروى ذلك عن عائشة رضى الله عنها وبه قال عبدالله بن الزبير وإليه ذهب الشافعى رحمه الله تعالى وذهب أكثر أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره محرم وهو قول ابن عباس وابن عمر وبه قال سعيد بن المسيب وإليه ذهب سفيان الثورى ومالك والأوزاعى وعبد الله بن المبارك وأصحاب الرأى واحتج من ذهب إلى أن القليل لايحرم بما أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفى أنا أبو العباس الأصم أنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنا أنس بن عياض عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لاتحرم المصة من الرضاع والمصتان» هكذا روى بعضهم

بالرضاع وذلك فى قوله تعالى (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) كل أنثى انتسبت باللبن إليها فهى أمك وبنتها أختك وإنما نص الله على ذكر الأم والأخت ليدل بذلك على جميع الأصول والفروع فنبه بذلك أنه تعالى أجرى الرضاع مجرى النسب ويدل على ذلك ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يحرم من الرضاع مايحرم من الولادة» أخرجاه فى الصحيحين (ق) عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فى بنت حمزة إنها لاتحل لى يحرم من الرضاع مايحرم من النسب» وإنها ابنة أخى من الرضاعة فكل من حرمت بسبب النسب حرم نظيرها بسبب الرضاعة وإنما سمى الله تعالى المرضعات أمهات لأجل الحرمة فيحرم عليه نكاحها ويحل له النظر إليها والخلوة بها والسفر معها ولايترتب عليه جميع أحكام الأمومة من كل وجه فلا يتوارثان ولا تجب على كل واحد منهما نفقة الآخر وغير ذلك من الأحكام وإنما ثبتت حرمة الرضاع بشرطين: أحدهما أن يكون إرضاع الصبى فى حال الصغر وذلك إلى انتهاء سنتين من ولادته لقوله تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» وقوله تعالى «وفصاله فى عامين» عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لايحرم من الرضاع إلا مافتق الأمعاء فى الثدى وكان قبل الفطام» أخرجه الترمذى عن ابن مسعود قال لارضاعة إلا ما كان فى الحولين أخرجه مالك فى الموطأ بأطول من هذا وأخرجه أبو داود مختصرا قال: قال عبد الله بن مسعود لارضاع إلا ماشد اللحم وقال أبو حنيفة مدة الرضاع ثلاثون شهرا لقوله تعالى «وحمله وفصاله ثلاثون شهرا» وحمله الجمهور على أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع لأن مدة الحمل داخلة فيه وأقله ستة أشهر الشرط الثانى أن يوجد خمس رضعات متفرقات روى ذلك عن عائشة وبه قال عبد الله بن الزبير وإليه ذهب الشافعى ويدل على ذلك ماروى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لاتحرم المصة ولا المصتان» أخرجه مسلم (م) عن أم الفضل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لاتحرم الإملاجة ولا الإملاجتان» وفى رواية

هذا الحديث ورواه عبد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصحيح أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات فتوفى (٥٠٣) رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن ، وأما المحرمات بالصهرية فقوله (وأمهات نسائكم) وجملته أن كل من عقد النكاح على امرأة فتحرم على الناكح أمهات المنكوحة وجداتها وإن علون من الرضاعة والنسب بنفس العقد (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) الربائب جمع ربيبة وهى بنت المرأة سميت ربيبة لتربيته إياها وقوله فى حجوركم أى فى تربيتكم يقال فلان فى حجر فلان إذا كان فى تربيته دخلتم بهن أى جامعتموهن ويحرم عليه أيضا بنات المنكوحة وبنات أولادها وإن سفلن من الرضاع والنسب بعد الدخول بالمنكوحة حتى لو فارق المنكوحة قبل الدخول بها أو ماتت جاز له أن ينكح بنتها ولا يجوز له أن ينكح أمها لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات وقال فى تحريم الربائب (فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) يعنى فى نكاح بناتهن إذا فارقتموهن أو متن وقال على رضى الله عنه أم المرأة لا تحرم إلا بالدخول بالبنت كالربيبة (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) يعنى أزواج أبنائكم واحدتها حليلة والذكر حليل سميا بذلك لأن كل واحد منهما حلال لصاحبه ، وقيل سميا بذلك لأن كل واحد منهما يحل حيث يحل صاحبه من الحلول وهو النزول وقيل إن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه من الحل وهو ضد العقد وجملته أنه يحرم على الرجل حلائل أبنائه وأبناء أولاده وإن سفلوا من الرضاع والنسب بنفس العقد وإنما قال من

« أن رجلا من بنى عامر بن صعصعة قال يانبى الله هل تحرم الرضعة الواحدة قال لا » (م) عن عائشة قالت كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخت بخمس معلومات فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن قولها فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن يحتمل أنه لم يبلغها نسخ ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى فهو مما نسخ تلاوته وبقى حكمه وذهب جمهور العلماء إلى أن قليل الإرضاع وكثيره يحرم وهو قول ابن عباس وابن عمر وبه قال سعيد بن المسيب وإليه ذهب الثورى والأوزاعى ومالك وابن المبارك وأبو حنيفة وأحمد فى أحد الروايتين عنه والرواية الأخرى كمذهب الشافعى واحتج مذهب الجمهور بمطلق الآية لأنه عمل بعموم القرآن وظاهره ولم يذكر عددا وأجاب الشافعى ومن وافقه فى هذه المسئلة بأن السنة مبينة للقرآن مفسرة له . وقوله تعالى (وأمهات نسائكم) يعنى إذا تزوج الرجل بامرأة حرمت عليه أمها الأصلية وجميع جداتها من قبل الأب والأم كما فى النسب والرضاع أيضا ومذهب أكثر الصحابة وجميع التابعين وكل العلماء أن من تزوج امرأة حرمت عليه أمها بنفس العقد سواء دخل بها أو لم يدخل بها وذهب جمع من الصحابة إلى أن أم المرأة إنما تحرم بالدخول بابنتها وهو قول على وزيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وجابر وأظهر الروايات عن ابن عباس والعمل اليوم على القول الأول وهو مذهب الجمهور ويدل على ذلك ماروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أيما رجل نكح امرأة فلا يحل له نكاح ابنتها وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها وأيما رجل نكح امرأة فلا يحل له أن ينكح أمها دخل بها أو لم يدخل أخرجه الترمذى وقوله تعالى (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) الربائب جمع ربيبة وهى بنت المرأة من رجل آخر سميت ربيبة لتربيتها فى حجر الرجل وقوله دخلتم بهن كناية عن الجماع لا نفس العقد فيحرم على الرجل بنات امرأته وبنات أولادها وإن سفلن من النسب والرضاع بعد الدخول بالزوجة فلو فارق زوجته قبل الدخول بها أو ماتت قبل دخوله بها جاز أن يتزوج بنتها ولا يجوز له أن يتزوج أمها لأن الله تعالى أطلق تحريم الأمهات وعلق تحريم البنات بالدخول بالأم وقوله تعالى (وحلائل أبنائكم) يعنى أزواج أبنائكم واحدتها حليلة والرجل حليل سميا بذلك لأن كل واحد منهما يحل لصاحبه وقيل لأن كل واحد منهما يحل حيث يحل صاحبه فى إزار واحد وقيل لأن كل واحد منهما يحل إزار صاحبه من الحل بفتح الحاء وجملته أنه يحرم على الرجل أزواج أبنائه وأبناء أولاده وإن سفلوا من النسب والرضاع وذلك بنفس العقد (الذين من أصلابكم) إنما قال من أصلابكم احترازا من التبنى ليعلم أن زوجة

أصلابكم ليعلم أن حليلة المتبنى لاتحرم على الرجل الذى تبناه فان النبي ﷺ تزوج امرأة زيد بن حارثة ، وكان زيد قد تبناه رسول الله ﷺ والرابع من المحرمات بالصهرية حليلة الأب والجد وإن علا فيحرم على الولد وولد الولد بنفس العقد سواء كان الأب من الرضاع أومن النسب لقوله تعالى «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» وقد سبق ذكره وكل امرأة تحرم عليك بعقد النكاح تحرم بالوطء فى ملك اليمين والوطء بشبهة النكاح حتى لو وطئ امرأة بالشبهة أو جارية بملك اليمين فتحرم على الواطئ أم الموطوءة وابنتها وتحرم الموطوءة على أبى الواطئ وعلى إبنه ولو زنى بامرأة فقد اختلف فيه أهل العلم فذهبت جماعة إلى أنه لاتحرم على الزانى أم المزنى بها (٥٠٤) وابنتها ولاتحرم الزانية على أبى الزانى وإبنه وهو قول على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما وبه قال سعيد بن المسيب وعروة والزهرى وإليه ذهب مالك والشافعى رحمهم الله تعالى وذهب قوم إلى التحريم يروى ذلك عن عمران بن حصين وأبى هريرة رضى الله عنهما وبه قال جابر بن زيد والحسن وهو قول أصحاب الرأى ولو مس امرأة بشهوة أو قبلها فهل يجعل ذلك كالدخول فى إثبات حرمة المصاهرة وكذلك لو مس امرأة بشهوة فهل يجعل كالوطء فى تحريم الربيبة فيه قولان أصحهما ، وهو قول أكثر أهل العلم أنه تثبت به الحرمة والثانى لاتثبت كما لاتثبت بالنظر بالشهوة قوله تعالى (وأن تجمعوا بين الأختين) لايجوز للرجل أن يجمع بين الأختين فى النكاح سواء كانت الإخوة بينهما بالنسب أو بالرضاع فاذا نكح امرأة ثم طلقها بائنا جاز له نكاح أختها وكذلك لو ملك أختين بملك اليمين لم يجز له أن يجمع بينهما فى الوطء فاذا وطئ إحداهما لم يحل له وطء الأخرى حتى يحرم الأولى على نفسه وكذلك لايجوز أن يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها أخبرنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لايجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها» قوله تعالى (إلا ما قد سلف) يعنى لكن ما مضى فهو معفو عنه لأنهم كانوا يفعلونه قبل الإسلام وقال عطاء والسدى إلا ما كان من يعقوب عليه السلام فانه جمع بين ليا أم يهوذا وراحيل أم يوسف وكانتا أختين (إن الله كان غفورا رحيما) ويدل

المتبنى لاتحرم على الرجل الذى تبناه لأنه كان فى صدر الإسلام بمنزلة الابن فنسخ الله ذلك وقال تعالى «ادعوهم لآبائهم» وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجة زيد بن حارثة وكان قد تبناه فقال المشركون تزوج زوجة ابنه فأنزل الله تعالى وما جعل أدعياءكم أبناءكم وقال تعالى لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم وقوله تعالى (وأن تجمعوا بين الأختين) يعنى لايجوز للرجل أن يجمع بين الأختين فى نكاح واحد سواء كانت الإخوة بينهما إخوة نسب أو رضاع والجمع بين الأختين يقع على ثلاثة أوجه: أحدها أن يجمع بينهما بعقد واحد فهذا العقد فاسد لايصح فلو تزوج إحدى الأختين ثم تزوج الأخرى بعدها فهاهنا يحكم ببطلان نكاح الثانية فلو طلق الأولى طلاقا بائنا جاز له نكاح أختها، الوجه الثانى من صور الجمع بين الأختين هو أن يجمع بينهما بملك اليمين فلا يجوز له أن يجمع بينهما فى الوطء فاذا وطئ إحداهما حرمت عليه الثانية حتى يحرم الأولى ببيع أو هبة أو عتق أو كتابة، الوجه الثالث من صور الجمع بين الأختين هو أن يتزوج إحداهما ويشترى الأخرى فيملكها بملك اليمين فذهب بعض العلماء إلى أنه لايجوز الجمع بينهما لأن ظاهر هذه الآية يقتضى تحريم الجمع مطلقا فوجب أن يحرم الجمع بينهما على جميع الوجوه وذهب بعضهم إلى جوازه والقول الأول أصح وأولى لما روى قبيصة بن ذؤيب أن رجلا سأل عثمان عن أختين مملوكتين لرجل هل يجمع بينهما فقال عثمان أحلتهما آية وحرمتهما آية فأما أنا فلا أحب أن أصنع ذلك فخرج من عنده فلقى رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عنه فقال أما أنا فلو كان لى من الأمر شىء لم أجد أحد فعل ذلك إلا جعلته نكالا قال ابن شهاب أراه على ابن أبى طالب قال مالك أنه بلغه عن الزبير بن العوام مثل ذلك أخرجه مالك فى الموطأ وقوله تعالى (إلا ما قد سلف) يعنى لكن ما قد مضى فانه معفو عنه بدليل قوله تعالى (إن الله كان غفورا رحيما) وقيل أن فائدة هذا الاستثناء أن أنكحة الكفار صحيحة فلو أسلم عن أختين قيل له أختر أيتهما شئت ويدل على ذلك ما روى عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال قلت يارسول الله إنى أسلمت وتحتى أختان قال طلق أيتهما شئت أخرجه أبو داود .

(فروع تتعلق بحكم الآية . الأول) لايجوز الجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها

ويدل على ذلك ماروى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لايجمع بين المرأة وعمتها ولابين المرأة وخالتها» أخرجه في الصحيحين قال بعض العلماء في حد مايحرم الجمع كل امرأتين بينهما قرابة أو لبن لو كان ذلك بينك وبين المرأة لم يجز لك نكاحها لم يجز لك الجمع بينهما .

(الفرع الثاني) المحرمات بالنسب سبعة أصناف ذكرت في الآية نسقا والمحرمات بالسبب صنفان : صنف يحرم بالرضاع وهن الأمهات والأخوات على ماتقدم ذكره وصنف يحرم بالمصاهرة وهن أم المرأة وحليلة الابن وزوجة الأب وقد تقدم ذكرها في قوله تعالى ولاتنكحوا مانكح آباؤكم من النساء الآية والربائب على التفصيل المذكور والجمع بين الأختين .

(الفرع الثالث) التحريم الحاصل بسبب المصاهرة إنما يحصل بنكاح صحيح فلو زنى بامرأة لم تحرم عليه أمها ولا بنتها لو أراد أن يتزوج بهن وكذلك لاتحرم المزني بها على آباء الزاني ولا أبنائه إنما تتعلق الحرمة بنكاح صحيح أو بنكاح فاسد يجب لها به الصداق وتجب عليها العدة ويلحق به الولد وهذا قول علي وابن عباس وبه قال سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والزهري وإليه ذهب مالك والشافعي وفقهاء الحجاز وذهب قوم إلى أن الزنا يتعلق به تحريم المصاهرة يروى ذلك عن عمران بن حصين وأبي هريرة وبه قال جابر بن زيد والحسن وأهل العراق ولو لمس امرأة أجنبية بشهوة أو قبلها بشهوة هل يجعل ذلك كالدخول في إثبات تحريم المصاهرة وكذلك لو لمس امرأة بشهوة هل يجعل ذلك كالوطء في تحريم الربيبة؟ فيه قولان: أصحهما أنه تثبت به حرمة المصاهرة وهو قول أكثر أهل العلم والثاني لاتثبت به كما لاتثبت بالنظر بشهوة. قوله تعالى (والمحصنات) يعني وحرمت المحصنات (من النساء) وأصل الإحصان في اللغة المنع والحصان بالفتح المرأة العفيفة ويطلق الإحصان على المرأة ذات الزوج والحرة والعفيفة والمرأة المسلمة والمراد من الإحصان في قوله والمحصنات ذوات الأزواج من النساء فلا يحل لأحد نكاحهن قبل مفارقة أزواجهن وهذه هي السابعة من النساء التي حرمن بالسبب قال أبو سعيد الخدري نزلت هذه الآية في نساء كن هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فتزوجن بعض المسلمين ثم قدم أزواجهن مهاجرين فنهى الله المسلمين عن نكاحهن ثم استثنى فقال تعالى (إلا ماملكت أيمانكم) يعني السبايا اللاتي سبين ولهن أزواج في دار الحرب فيحل لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء لأن السبي يرتفع به النكاح بينها وبين زوجها قال أبو سعيد الخدري بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا إلى أوطاس فأصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين فكرهوا غشيانهن فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال ابن مسعود أراد أنه إذا باع الجارية المزوجة فتقع الفرقة بينها وبين زوجها ويكون بيعها طلاقا فيحل للمشتري وطؤها وقال عطاء أراد بقوله إلا ماملكت أيمانكم أن تكون أمته في نكاح عبده فيجوز له أن ينتزعها منه وقيل أراد بالمحصنات من النساء الحرائر ومعناه أن مافوق الأربع منهن فانه عليكم حرام إلا ماملكت أيمانكم فانه لاعدد عليكم في الجواري ولاحصر (كتاب الله عليكم) يعني حرمت عليكم أمهاتكم وكتب عليكم هذا كتابا وقيل معناه الزموا كتاب الله وقيل معناه كتابا من الله عليكم بمعنى كتب الله تحريم ماحرم عليكم من ذلك وتحليل ماحلل كتابا

لا يحل للغير نكاحهن قبل مفارقة الأزواج وهذه السابعة من النساء اللائي حرمن بالسبب قال أبو سعيد الخدري نزلت في نساء كن هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهن أزواج فتزوجهن بعض المسلمين ثم قدم أزواجهن مهاجرين فنهى الله المسلمين عن نكاحهن ثم استثنى فقال إلا ماملكت أيمانكم يعني السبايا اللواتي سبين ولهن أزواج في دار الحرب فيحل لمالكهن وطؤهن بعد الاستبراء لأن بالسبي يرتفع النكاح بينها وبين زوجها قال أبو سعيد الخدري بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين جيشا إلى أوطاس ، فأصابوا سبايا لهن أزواج من المشركين فكرهوا غشيانهن فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال عطاء أراد بقوله «إلا ماملكت أيمانكم» أن تكون أمة في نكاح عبده فيجوز أن ينزعها منه وقال ابن مسعود أراد أن يبيع الجارية المزوجة فتقع الفرقة بينها وبين زوجها ويكون بيعها طلاقا فيحل للمشتري وطؤها وقيل أراد بالمحصنات الحرائر ومعناه إن ما فوق الأربع حرام منهن إلا ما ملكت أيمانكم فانه لاعدد عليكم في الجواري قوله تعالى (كتاب الله عليكم) نصب على المصدر أي كتب الله عليكم وقيل نصب على الإغراء

(وأحل لكم ما وراء ذلكم) يعنى وأحل الله لكم ماسوى ذلكم الذى ذكر من المحرمات ظاهر هذه الآية يقتضى حل ماسوى المذكورين من الأصناف المحرمات، لكن قد دل الدليل من السنة بتحريم أصناف أخر سوى ما ذكر فمن ذلك أنه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها ومن ذلك المطلقة ثلاثا لا تحل لزوجها الأول حتى تنكح زوجا غيره ومن ذلك نكاح المعتدة فلا تحل للأزواج حتى تنقضى عدتها ومن ذلك أن من كان فى نكاحه حرة لم يجز له أن يتزوج بأمة والقادر على طول الحرة لم يجز له أن يتزوج بالأمة ومن ذلك أن من كان عنده أربع نسوة حرم عليه أن يتزوج بخامسة ومن ذلك الملاعنة فانها محرمة على الملاعن بالتأبيد فهذه أصناف من المحرمات سوى ما ذكر فى الآية فعلى هذا يكون قوله تعالى وأحل لكم ما وراء ذلكم ورد بلفظ العموم لكن العموم دخله التخصيص فيكون عاما مخصوصا. وقوله تعالى (أن تبتغوا بأموالكم) فيه إضمار تقديره وأحل لكم أن تبتغوا أى تطلبوا بأموالكم أن تنكحوا بصداق أو تشتروا بثمن وفى الآية دليل على أن الصداق لا يتقدر بشىء فيجوز على القليل والكثير لإطلاق قوله تعالى أن تبتغوا بأموالكم (محصنين) يعنى متزوجين وقيل متعففين (غير مسافحين) يعنى غير زانين والسفاح الفجور وأصله من السفح وهو الصب وإنما سمى الزنا سفاحا لأن الزانى لاغرض له إلا صب النطفة فقط. قوله تعالى (فما استمتعتم به منهن) اختلفوا فى معناه فقال الحسن ومجاهد أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بنكاح صحيح لأن أصل الاستمتاع فى اللغة الانتفاع وكل ما انتفع به فهو متاع (فآتوهن أجورهن) يعنى مهورهن وإنما سمى المهر أجرا لأنه بدل المنافع ليس بدل الأعيان كما سمى بدل منافع الدار والدابة أجرا وقال قوم المراد من حكم الآية هو نكاح المتعة وهو أن ينكح امرأة إلى مدة معلومة بشىء معلوم فاذا انقضت تلك المدة بانت منه بغير طلاق ويستبرىء رحمها وليس بينهما ميراث وكان هذا فى ابتداء الإسلام ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المتعة فحرمها (م) عن سبرة بن معبد الجهنى أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم «فقال يا أيها الناس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا» وإلى هذا ذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم أى أن نكاح المتعة حرام والآية منسوخة واختلفوا فى ناسخها فقيل نسخت بالسنة وهو ما تقدم من حديث سبرة الجهنى (ق) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية» وهذا على مذهب من يقول إن السنة تنسخ القرآن ومذهب الشافعى أن السنة لا تنسخ القرآن فعلى هذا يقول إن ناسخ هذه الآية قوله تعالى فى سورة المؤمنون «والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين» والمنكوحة فى المتعة ليست بزوجة ولا ملك يمين واختلفت الروايات عن ابن عباس فى المتعة فروى عنه أن الآية محكمة وكان يرخص فى المتعة قال عمارة سألت ابن عباس عن المتعة أسفاح هى أم نكاح؟ فقال لا سفاح ولا نكاح قلت فما هى قال متعة؟ قال الله تعالى فما استمتعتم به منهن قلت هل لها عدة قال نعم؟ حيضة قلت هل يتوارثان قال لا وروى أن الناس لما ذكروا الأشعار فى فتيا ابن عباس بالمتعة قال قاتلهم الله أنا ما أفتيت بإباحتها على الإطلاق

لكن

أى الزموا ما كتب الله عليكم أى فرض الله تعالى (وأحل لكم ما وراء ذلكم) قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائى وحفص أحل بضم الألف وكسر الحاء لقوله حرمت عليكم وقرأ الآخرون بالنصب أى أحل الله لكم ما وراء ذلكم أى ما سوى ذلكم الذى ذكرت من المحرمات (أن تبتغوا) تطلبوا (بأموالكم) أن تنكحوا بصداق أو تشتروا بثمن (محصنين) أى متزوجين أو متعففين (غير مسافحين) أى غير زانين مأخوذ من سفح الماء وصبه وهو المنى (فما استمتعتم به منهن) اختلفوا فى معناه فقال الحسن ومجاهد أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح (فآتوهن أجورهن) أى مهورهن وقال آخرون هو نكاح المتعة وهو أن تنكح امرأة إلى مدة فاذا انقضت تلك المدة بانت منه بلا طلاق ويستبرئ رحمها وليس بينهما ميراث وكان ذلك مباحا فى ابتداء الإسلام ثم نهى عنه رسول الله ﷺ أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر ابن محمد الفارسى أنا محمد ابن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا محمد بن عبد الله بن نمير أنا أبى أنا عبد العزيز بن عمر حدثنى الربيع بن سبرة الجهنى أن أباه حدثه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال «يا أيها الناس إنى كنت

أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء وإن الله تعالى قدحرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيله ، ولاتأخذوا مما آتيتموهن شيئا» أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبد الله والحسن إبنى محمد بن على عن أبيهما عن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم «أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية » وإلى هذا ذهب عامة أهل العلم (٥٠٧) أن نكاح المتعة حرام والآية منسوخة وكان ابن عباس رضى الله عنهما يذهب إلى أن الآية محكمة وترخص فى نكاح المتعة روى عن أبى نضرة قال سألت ابن عباس رضى الله عنهما عن المتعة فقال أما تقرأ فى سورة النساء فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى؟ قلت لاأقرأها هكذا قال ابن عباس هكذا أنزل الله ثلاث مرات وقيل إن ابن عباس رضى الله عنهما رجع عن ذلك وروى سالم عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال ما بال رجال ينكحون هذه المتعة وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها لاأجد رجلا نكحها إلا رجمته بالحجارة وقال هدم المتعة النكاح والطلاق والعدة والميراث قال الربيع بن سليمان سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول لا أعلم فى الإسلام شيئا أحل ثم حرم ثم أحل ثم حرم غير المتعة قوله تعالى فآتوهن أجورهن أى مهورهن (فريضة ولاجناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) فمن حمل ماقبله على نكاح المتعة قال أراد أنهما إذا عقدا إلى أجل بمال فاذا تم الأجل فان شاءت المرأة زادت فى الأجل وزاد الرجل فى المال وإن لم يتراضيا فارقها ومن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح . قال المراد بقوله « ولاجناح عليكم فيما تراضيتم به » من الإبراء عن المهر والافتداء والاعتياض (إن الله كان عليما حكيما) .

لكن قلت إنما تحل للمضطر كما تحل الميتة له وروى أنه رجع عنه وقال بتحريمها وروى عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله فما استمتعتم به منهن إنها صارت منسوخة بقوله «ياأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن» وروى سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال مابال أقوام ينكحون هذه المتعة وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها لاأجد رجلا نكحها إلارجمته بالحجارة وقال هدم المتعة : النكاح والطلاق والعدة والميراث قال الشافعى لاأعلم فى الإسلام شيئا أحل ثم حرم ثم أحل ثم حرم غير المتعة وقال أبو عبيد المسلمون اليوم مجمعون على أن متعة النساء قدنسخت بالتحريم نسخها الكتاب والسنة هذا قول أهل العلم جميعا من أهل : الحجاز والشام والعراق من أصحاب الأثر والرأى وأنه لارخصة فيها لمضطر ولا لغيره قال ابن الجوزى فى تفسيره وقد تكلف قوم من مفسرى القرآن فقالوا المراد بهذه الآية نكاح المتعة ثم نسخت بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن متعة النساء وهذا تكلف لايحتاج إليه لأن النبى صلى الله عليه وسلم أجاز المتعة ثم منع منها فحرمها فكان قوله منسوخا بقوله وأما الآية فانها لم تتضمن جواز المتعة لأنه تعالى قال فيها أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فدل ذلك على النكاح الصحيح قال الزجاج ومعنى قوله فما استمتعتم به منهن فما نكحتموه على الشرائط التى جرت وهو قوله محصنين غير مسافحين أى عاقدين التزويج وقال ابن جرير الطبرى أولى التأويلين فى ذلك بالصواب تأويل من تأوله فما نكحتموه منهن فجامعتموهن فآتوهن أجورهن لقيام الحجة بتحريم الله تعالى متعة النساء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقوله تعالى فآتوهن أجورهن يعنى مهورهن (فريضة) يعنى لازمة وواجبة (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) اختلفوا فيه فمن حمل ماقبله على نكاح المتعة قال أراد إنهما إذا عقد عقدا إلى أجل على مال فاذا تم الأجل فان شاءت المرأة زادت فى الأجل وزاد الرجل فى الأجر وإن لم يتراضيا فارقها وقد تقدم أن ذلك كان جائزا ثم نسخ وحرم ومن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح قال المراد بقوله ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به يعنى من الإبراء من المهر والافتداء والاعتياض وقال الزجاج معناه لاجناح عليكم أن تهب المرأة للزوج مهرها وأن يهب الرجل للمرأة التى لم يدخل بها نصف المهر الذى لايجب عليه (إن الله كان عليما) يعنى بما يصلحكم أيها الناس فى منا كحكم وغيرها من سائر أموركم (حكيما) يعنى فيما دبر لكم من التدبير وفيما يأمركم به وينهاكم عنه ولا يدخل حكمه خلل ولا زلل .

(فصل : فى قدر الصداق وفيما يستحب منه)

اعلم أنه لاتقدير لأكثر الصداق لقوله تعالى وآتيتم إحداهن قنطارا فلاتأخذوا منه شيئا والمستحب أن لايغالى فيه قال عمر بن الخطاب ألا لاتغالوا فى صدقة النساء فانها لو كانت مكرمة فى الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبى الله صلى الله عليه وسلم ماعلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئا من نسائه ولا أنكح شيئا من بناته على أكثر من اثنتى عشرة أوقية (٥٠٨) أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا جعفر بن محمد المفلس أنا هارون بن إسحاق أنا يحيى بن محمد الحارثى أنا عبد العزيز ابن محمد عن يزيد بن عبد الله بن الهادى عن محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة قال سألت عائشة رضى الله عنها كم كان صداق النبى صلى الله عليه وسلم لأزواجه قالت كان صداقه لأزواجه اثنتى عشرة أوقية ونشا قالت أتدرى ما النش؟ قلت لا قالت نصف أوقية فتلك خمسمائة درهم هذا صداق النبى ﷺ لأزواجه أما أقل الصداق فقد اختلفوا فيه فذهب جماعة إلى أنه لاتقدير لأقله بل ما جاز أن يكون مبيعا أو ثمنا جاز أن يكون صداقا وهو قول ربيعة وسفيان الثورى والشافعى وأحمد وإسحاق قال عمر بن الخطاب ثلاث قبضات زبيب مهر وقال سعيد بن المسيب لو أصدقها سوطا جاز ، وقال قوم يتقدر بنصاب السرقة وهو قول مالك وأبى حنيفة ، غير أن نصاب السرقة عند مالك ثلاثة دراهم وعند أبى حنيفة عشرة دراهم والدليل على أنه لايتقدر ماأخبرنا أبو الحسن السرخسى قال أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبومصعب عن مالك عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة ، فقالت

(فصل فى قدر الصداق وما يستحب منه)

اعلم أنه لاتقدير لأكثر الصداق لقوله تعالى (وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) والمستحب أن لايغالى فيه قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ألا لاتغالوا فى صدقة النساء فانها لو كانت مكرمة فى الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبى الله صلى الله عليه وسلم ماعلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئا من نسائه ولاأنكح شيئا من بناته على أكثر من اثنى عشر أوقية أخرجه الترمذى ولأبى داود ونحوه (م) عن أبى سلمة قال سألت عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم كم كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت كان صداقه لأزواجه اثنتى عشر أوقية ونشا قالت أتدرى ماالنش؟ قلت لاقالت نصف أوقية فذلك خمسمائة درهم واختلف العلماء فى أقل الصداق فذهب جماعة إلى أنه لاتقدير لأقله بل كل ماجاز أن يكون مبيعا أو ثمنا جاز أن يكون صداقا وهو قول ربيعة وسفيان الثورى والشافعى وأحمد وإسحاق وقال قوم يتقدر الصداق بنصاب السرقة وهو قول مالك وأبى حنيفة. غير أن نصاب السرقة عند مالك ثلاث دراهم وعند أبى حنيفة عشرة دراهم والدليل على أن الصداق لايتقدر ماروي عن سهل بن سعد الساعدى قال جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت يارسول الله قد وهبت نفسى لك فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعد النظر فيها وصوبه ثم طأطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست فقام رجل من أصحابه فقال يارسول الله إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها فقال فهل عندك من شىء؟ فقال لاوالله يارسول الله فقال اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا فذهب ثم رجع فقال لاوالله ماوجدت شيئا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر ولو خاتما من حديد فذهب ثم رجع فقال لاوالله يارسول الله ولا خاتما من حديد ولكن إزارى هذا قال سهل ماله رداء فلها نصفه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتصنع بازارك إن لبسته لم يكن عليها منه شىء وإن لبسته لم يكن عليك منه شىء فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه النبى صلى الله عليه وسلم موليا فأمر به فدعا له فلما جاء قال ماذا معك من القرآن قال معى سورة كذا وسورة كذا عددها قال تقرأهن عن ظهر قلب قال نعم قال اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن وفى رواية فقد زوجتكها تعلمها من القرآن وفى رواية فقد أنكحتكها بما معك من القرآن أخرجاه فى الصحيحين وهذا لفظ الحميدى . ففى هذا الحديث دليل على أنه لاتقدير لأقل الصداق لأنه هل تجد شيئا فهذا يدل على جواز أى شىء كان من المال ثم قال ولو خاتما من حديد ولا قيمة له إلا القليل التافه وفيه دليل على أنه يجوز أن يجعل تعليم القرآن صداقا وهو

قول

يارسول الله إني وهبت نفسي لك فقامت طويلا فقام رجل فقال يارسول الله زوجنيها إن لم تكن لك فيها حاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل عندك من شيء تصدقها قال ماعندي إلا إزاري هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أعطيتها إياه جلست لا إزار لك فالتمس شيئا فقال ما أجده فقال فالتمس ولو خاتما من حديد فالتمس فلم يجد شيئا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل معك من القرآن شيء قال نعم سورة كذا وسورة كذا لسور سماها فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد زوجتكها بما معك من القرآن وفيه دليل على أن لا تقدير لأقل الصداق لأنه قال التمس شيئا وهذا يدل على جواز أي شيء كان من المال وقال ولو خاتما من حديد ولا قيمة لخاتم الحديد إلا القليل التافه وفي الحديث دليل على أنه يجوز أن يجعل تعليم القرآن صداقا وهو قول الشافعي رحمه الله وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يجوز وهو قول أصحاب الرأي وكل عمل جاز الاستئجار عليه من البناء والخياطة وغير ذلك من الأعمال جاز أن يجعل صداقا ولم يجوز أبو حنيفة رضي الله عنه أن يجعل منفعة الحر صداقا والحديث حجة لمن جوزه بعد ما أخبر الله تعالى عن شعيب عليه السلام حيث زوج ابنته من موسى عليه السلام على العمل فقال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا) أي فضلا وسعة (أن ينكح المحصنات) الحرائر (المؤمنات) قرأ الكسائي المحصنات بكسر الصاد حيث كان إلا قوله في هذه السورة والمحصنات من النساء وقرأ الآخرون بفتح جميعها (فما ملكت أيمانكم من فتياتكم) إمائكم (المؤمنات) أي من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة فليتزوج الأمة المؤمنة وفيه دليل على أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين: أحدهما أن لا يجد مهر حرة والثاني أن يكون خائفا على نفسه من العنت وهو الزنا لقوله تعالى في آخر الآية ذلك لمن خشي العنت منكم وهو قول جابر رضي الله عنه وبه قال طاوس وعمرو ابن دينار وإليه ذهب مالك والشافعي وجوز أصحاب الرأي للحر نكاح الأمة إلا أن تكون في نكاحه حرة. أما العبد فيجوز له نكاح الأمة وإن كان في نكاحه حرة أو أمة وعند أبي حنيفة رضي الله عنه لا يجوز إذا كانت تحته حرة كما يقول في الحر وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لأنه قال فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات جوز نكاح الأمة بشرط أن تكون مؤمنة. وقال في موضع آخر «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب» أي الحرائر جوز نكاح الكتابية بشرط أن تكون حرة وجوز

قول الشافعي ومنعه أصحاب الرأي عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أعطى في صداق امرأة ملء كفيه سويقا أو تمرا فقد استحل أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عامر عن أبيه أن امرأة من بني فزارة تزوجت على نعلين فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أرضيت من نفسك ومالك بنعلين قالت نعم فأجازه أخرجه الترمذي وقال عمر بن الخطاب ثلاث قبضات من زبيب مهر. قوله عز وجل (ومن لم يستطع منكم طولا) يعني فضلا وسعة وإنما سمي الغنى طولا لأنه ينال به من المراد ما لا ينال مع الفقر والطول هنا كناية عما يصرف إلى المهر والنفقة (أن ينكح المحصنات) يعني الحرائر (المؤمنات فما ملكت أيمانكم) يعني جارية أخيك المؤمن فإن الإنسان لا يجوز له أن يتزوج بجارية نفسه (من فتياتكم المؤمنات) المعنى من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة فليتزوج الأمة المؤمنة والفتيات الجواري المملوكات جمع فتاة يقال للأمة فتاة والعبد فتى وفي الآية دليل على أنه لا يجوز للحر نكاح الأمة إلا بشرطين: أحدهما أن لا يجد مهر حرة لأنه جرت العادة في الإماء بتخفيف مهورهن ونفقتهن وسبب ذلك اشتغالهن بخدمة ساداتهن. والشرط الثاني وهو خوف العنت على نفسه وهو قوله تعالى ذلك لمن خشي العنت منكم قال ابن عباس هو الزنا وهذا قول جابر وابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس ومسروق ومكحول وعمرو بن دينار وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وروي عن علي والحسن البصري وابن المسيب ومجاهد والزهري أنه يجوز للحر أن ينكح الأمة وإن كان موسرا وهو مذهب أبي حنيفة إلا أن يكون في نكاحه حرة والسبب في منع الحر من نكاح الأمة إلا عند خوف العنت أن الولد يتبع الأم في الرق والحرية وإذا كانت الأم رقيقة كان الولد رقيقا وذلك نقص في حق الحر وفي حق ولده ولأن حق السيد أعظم من حق الزوج فربما احتاج الزوج إليها فلا يجد إليها سبيلا لأن للسيد حبسها لخدمته ولأن مهرها ملك السيد فلا تقدر على هبته من زوجها ولا أن تبرئه منه بخلاف الحرة فلهذا السبب منع الله من نكاح الأمة إلا على سبيل الرخصة والاضطرار ويجوز للعبد نكاح الأمة وإن كان في نكاحه حرة وعند أبي حنيفة لا يجوز له إذا كانت تحته حرة

اصحاب الرأى للمسلم نكاح الامة الكتابية وبالاتفاق يجوز وطؤها بملك اليمين (والله اعلم بايمانكم) اى لاتتعرضوا للباطن فى الأيمان وخذوا بالظاهر فان الله أعلم بايمانكم (بعضكم من بعض) قيل بعضكم إخوة لبعض وقيل كلكم من نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاح الإماء (فانكحوهن) يعنى الإماء (باذن أهلهن) أى مواليهن (وآتوهن أجورهن) ظهورهن (بالمعروف) من غير مطل وضرار (محصنات) عفائف بالنكاح (غير مسافحات) أى غير زانيات (ولامتخذات أخدان) أى أحباب تزنون بهن فى السر قال الحسن المسافحة هى أن كل من دعاها تبعته وذات خدن أى تختص بواحد لاتزنى إلا معه، والعرب كانت تحرم الأولى وتجوز الثانية (٥١٠) (فاذا أحصن) قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر بفتح الألف والصاد أى حفظن فروجهن وقال ابن مسعود أسلمن وقرأ الآخرون أحصن بضم الألف وكسر الصاد أى تزوجهن (فان أتين بفاحشة) يعنى الزنا (فعليهن نصف ما على المحصنات) أى ماعلى الحرائر الأبكار إذا زنين (من العذاب) يعنى الحد فيجلد الرقيق إذا زنى خمسين جلدة وهل يغرب؟ فيه قولان: فان قلنا يغرب فيغرب نصف سنة على القول الأصح ولا رجم على العبيدى روى عن عبدالله ابن عباس بن أبى ربيعة قال أمرنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى فتية من قريش فجلدنا ولائد من ولائد الإماء خمسين فى الزنا ولا فرق فى حد المملوك بين من تزوج أو لم يتزوج عند أكثر أهل العلم، وذهب بعضهم إلى أنه لاحد على من لم يتزوج من المماليك إذا زنى لأن الله تعالى قال «فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب» يعنى وروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وبه قال طاوس ومعنى الإحصان عند الآخرين الإسلام وإن كان المراد منه التزويج فليس المراد منه أن التزويج شرط لوجوب الحد عليه بل المراد منه التنبيه على أن المملوك وإن كان محصنا بالتزويج فلا رجم عليه إنما حده الجلد بخلاف الحر فحد الأمة ثابت بهذه الآية وبيان أنها تجلد فى الحد هو ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنى الليث عن سعيد يعنى المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة

كما يقول فى الحر وفى الآية دليل على أنه لايجوز للمسلم حرا كان أو عبدا نكاح الأمة الكتابية لقوله تعالى من فتياتكم المؤمنات يفيد جواز نكاح الأمة المؤمنة دون الكتابية لأن فيها نوعين من النقص وهما: الرق والكفر بخلاف الأمة المؤمنة لأن فيها نقصا واحدا وهو الرق وهذا قول مجاهد والحسن وإليه ذهب مالك والشافعى وقال أبوحنيفة يجوز التزويج بالأمة الكتابية وبالاتفاق يجوز وطء الأمة الكتابية بملك اليمين وقوله تعالى (والله أعلم بأيمانكم) قال الزجاج أى اعملوا على الظاهر فى الإيمان فانكم متعبدون بما ظهر والله يتولى السرائر والحقائق وقيل معناه لاتتعرضوا للباطن فى الإيمان وخذوا بالظاهر فان الله أعلم بايمانكم (بعضكم من بعض) يعنى إنكم كلكم من نفس واحدة فلا تستنكفوا من نكاح الإماء عند الضرورة وإنما قيل لهم ذلك لأن العرب كانت تفتخر بالأنساب والأحساب ويسمون ابن الأمة الهجين فأعلم الله تعالى أن ذلك أمر لايلتفت إليه فلا يتداخلنكم شموخ وأنفة من التزويج بالإماء فانكم متساوون فى النسب إلى آدم وقيل إن معناه إن دينكم واحد وهو الإيمان وأنتم مشتركون فيه فمتى وقع لأحدكم الضرورة جاز له أن يتزوج بالأمة عند خوف العنت وقال ابن عباس يريد إن المؤمنين بعضهم أكفاء بعض (فانكحوهن باذن أهلهن) يعنى اخطبوا الإماء إلى ساداتهن واتفق العلماء على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها باطل لأن الله تعالى جعل إذن السيد شرطا فى جواز نكاح الأمة (وآتوهن أجورهن) يعنى مهورهن (بالمعروف) يعنى من غير مطل ولا ضرار وقيل معناه وآتوهن مهور أمثالهن وأجمعوا على أن المهر للسيد لأنه ملكه وإنما أضيف إيتاء المهر إلى الإماء لأنه ثمن بضعهن (محصنات) يعنى عفائف (غير مسافحات) يعنى غير زانيات (ولا متخذات أخدان) جمع خدن وهو الصاحب الذى يكون معك فى كل أمر ظاهر وباطن وأكثر مايستعمل فيمن يصاحب بشهوة يقال خدن المرأة وخدينها يعنى حبها الذى يزنى بها فى السر قال الحسن المسافحة هى التى كل من دعاها تبعته وذات الأخدان هى التى تختص بواحد ولا تزنى مع غيره وكانت العرب فى الجاهلية تحرم الأولى وتجوز الثانية فلما كان الفرق معتبرا عندهم لاجرم أن الله تعالى أفرد كل واحد من هذين القسمين بالذكر ونص على تحريمهما معا (فاذا أحصن) قرئ بفتح الألف والصاد ومعناه حفظن فروجهن وقيل معناه أسلمن وقرأ حفص بضم الألف وكسر الصاد ومعناه زوجن (فان أتين بفاحشة) يعنى بزنا (فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب)

رضى الله عنهم قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فيجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت فيجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر قوله تعالى (ذلك) يعنى نكاح الأمة عند عدم الطول (لمن خشى العنت منكم) يعنى الزنا يريد المشقة بغلبة الشهوة (وأن تصبروا) عن نكاح الإماء متعففين (خير لكم) لئلا يخلق الولد رقيقا (والله غفور رحيم) قوله تعالى (يريد الله ليبين لكم) أى أن يبين لكم كقوله تعالى وأمرت لأعدل بينكم أى أن أعدل وقوله وأمرنا لنسلم لرب العالمين وقال فى موضع آخر وأمرت أن أسلم ومعنى الآية يريد الله أن يبين لكم أى يوضح لكم شرائع دينكم ومصالح أموركم قال عطاء يبين لكم ما يقربكم منه قال الكلبى يبين لكم أن الصبر عن نكاح الإماء خير لكم (ويهديكم) ويرشدكم (سنن) شرائع (الذين من قبلكم) فى تحريم الأمهات والبنات والأخوات فانها كانت محرمة على من قبلكم وقيل ويهديكم الملة الحنيفية وهى ملة إبراهيم عليه السلام (ويتوب عليكم) ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبين لكم وقيل يرجع بكم من المعصية التى كنتم عليها إلى طاعته وقيل يوفقكم للتوبة (والله عليم) بمصالح عباده فى أمر دينهم ودنياهم (حكيم)

يعنى فعلى الإماء اللاتى زنين نصف ما على الحرائر الأبكار إذا زنين من الجلد ويجلد العبد للزنا إذا زنا خمسين جلدة ولا فرق بين المملوك المتزوج وغير المتزوج فانه يجلد خمسين ولا رجم عليه هذا قول أكثر العلماء وروى عن ابن عباس وقال طاوس أنه لا حد على من لم يتزوج من المماليك إذا زنى لأن الله تعالى قال فاذا أحصن والذى لم يتزوج ليس بمحصن وأجيب عنه بأن معنى الإحصان عند الأكثرين الإسلام وإن كان المراد منه التزويج فليس المراد منه أن التزويج شرط لوجوب الحد عليه بل المراد منه التنبيه على أن المملوك وإن كان محصنا فلا رجم عليه إنما حده الجلد بخلاف الحر فحد الأمة ثابت بهذه الآية وبيان أنه بالجلد لا بالرجم ثابت بالحديث وهو ماروى عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر» أخرجاه فى الصحيحين قوله ولا يثرب عليها أى لا يعيرها والتثريب التأنيب والتعيير والاستقصاء فى اللوم قال الشيخ محيي الدين النواوى وهذا البيع المأمور به فى الحديث مستحب وليس بواجب عندنا وعند الجمهور وقال داود وأهل الظاهر هو واجب وفيه جواز بيع الشيء النفيس بالثمن الحقير وهذا البيع المأمور به يلزم صاحبه أن يبين حالها للمشتري لأنه عيب والأخبار بالعيب واجب . فان قيل كيف يكره شيئا ويرتضيه لأخيه المسلم . فالجواب لعلها تستعف عند المشترى بأن يعفها بنفسه أو يصونها بهيبته أو بالإحسان إليها أو يزوجها أو غير ذلك والله أعلم . (ذلك) إشارة إلى نكاح الأمة (لمن خشى العنت منكم) يعنى الزنا والمعنى ذلك لمن خاف أن تحمله شدة الشبق والغلمة وشدة الشهوة على الزنا وإنما سمى الزنا بالعنت لما يعقبه من المشقة وهى شدة العزوبة فأباح الله تعالى نكاح الأمة بثلاثة شروط : عدم القدرة على نكاح الحرة وخوف العنت وكون الأمة مؤمنة (وأن تصبروا) يعنى عن نكاح الإماء متعففين (خير لكم) يعنى كيلا يكون الولد عبدا رقيقا (والله غفور رحيم) وهذا كالتوكيد لما تقدم يعنى أنه تعالى غفر لكم ورحمكم حيث أباح لكم ما أنتم محتاجون إليه قوله تعالى (يريد الله ليبين لكم) اللام فى قوله ليبين معناه أن يبين وقيل معناه يريد إنزال هذه الآيات من أجل أن يبين لكم دينكم ويوضح لكم شرعكم ومصالح أموركم وقيل يبين لكم ما يقربكم منه وقيل يبين أن الصبر على نكاح الإماء خير لكم (ويهديكم) أى ويرشدكم (سنن الذين من قبلكم) أى شرائع من قبلكم في تحريم الأمهات والبنات والأخوات فانها كانت محرمة على من قبلكم وقيل معناه يرشدكم إلى ما لكم فيه مصلحة كما بينه لمن كان قبلكم وقيل معناه ويهديكم إلى الملة الحنيفية وهى ملة إبراهيم عليه السلام (ويتوب عليكم) يعنى ويتجاوز عنكم ما أصبتم قبل أن يبين لكم ويرجع بكم عن المعصية التى كنتم عليها إلى طاعته وقيل لما بين لنا أمر الشرائع والمصالح وأرشدنا إلى طاعته فربما وقع منا تقصير وتفريط فيما أمر به وبينه فلا جرم أنه تعالى قال ويتوب عليكم (والله عليم) يعنى بمصالح عباده فى أمر دينهم ودنياهم (حكيم) يعنى فيما دبر من أمورهم

فيما دبر من أمورهم (والله يريد أن يتوب عليكم) إن وقع منكم تقصير فى أمر دينكم (ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا) عن الحق (ميلا عظيما) باتيانكم ماحرم عليكم واختلفوا فى الموصوفين باتباع الشهوات فقال السدى هم اليهود والنصارى، وقال بعضهم هم المجوس لأنهم يحلون نكاح الأخوات وبنات الأخ والأخت وقال مجاهد هم الزناة يريدون أن تميلوا عن الحق فتزنون كما يزنون وقيل هم كما يزنون وقيل هم جميع أهل الباطل (يريد الله أن يخفف عنكم) يسهل عليكم فى أحكام الشرع وقد سهل كما قال جل ذكره ويضع عنهم إصرهم وقال النبى ﷺ بعثت بالدين الحنيفية السمحة السهلة (وخلق الإنسان ضعيفا) قال طاوس والكلبى وغيرهما فى أمر النساء لا يصبر عنهن وقال ابن كيسان خلق الإنسان ضعيفا يستميله هواه وشهوته وقال الحسن هو أنه خلق من ماء مهين بيانه قوله تعالى الله الذى خلقكم من ضعف قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) بالحرام يعنى بالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة ونحوها وقيل هو العقود الفاسدة (إلا أن تكون تجارة) قرأ أهل الكوفة تجارة نصب على خبر كان أى إلا أن تكون الأموال تجارة وقرأ الآخرون بالرفع أى إلا أن تقع تجارة (عن تراض منكم) أى بطيبة نفس كل واحد منكم وقيل هو أن يخير كل احد من المتبايعين صاحبه بعد البيع، فيلزم وإلا فلهما الخيار مالم يتفرقا لما أخبرنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه مالم يتفرقا إلا بيع الخيار (ولا تقتلوا أنفسكم) قال أبو عبيدة أى لا تهلكوها كما قال ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وقيل لا تقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل وقيل أراد به قتل المسلم نفسه أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا ابن عيينة عن أيوب عن أبى قلابة عن ثابت بن الضحاك أن رسول الله ﷺ قال من قتل نفسه بشىء

(والله يريد أن يتوب عليكم) قال ابن عباس معناه يريد أن يخرجكم من كل مايكره إلى مايحب ويرضى وقيل معناه يدلكم على مايكون سببا لتوبتكم التى يغفر لكم بها ماسلف من ذنوبكم وقيل معناه إن وقع منكم تقصير فى دينه فيتوب عليكم ويغفر لكم (ويريد الذين يتبعون الشهوات) قيل هم اليهود والنصارى وقيل هم اليهود خاصة لأنهم يقولون إن نكاح بنت الأخت من الأب حلال وقيل هم المجوس لأنهم يستحلون نكاح الأخوات وبنات الإخوة فلما حرمهن الله قالوا إنكم تحلون بنت الخالة وبنت العمة والخالة والعمة عليكم فانكحوا بنات الأخ والأخت فنزلت هذه الآية وقيل هم الزناة يريدون أن تكونوا مثلهم (أن تميلوا) يعنى عن الحق وقصد السبيل بالمعصية (ميلا عظيما) يعنى باتيانكم ماحرم الله عليكم (يريد الله أن يخفف عنكم) يعنى ليسهل عليكم أحكام الشرائع فهو عام فى كل أحكام الشرع وجميع مايسره لنا وسهله علينا إحسانا منه إلينا وتفضلا ولطفا علينا ولم يثقل التكاليف علينا كما ثقلها على بنى إسرائيل فهو كقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقوله تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج وكما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت بالحنيفية السهلة السمحة. وقوله تعالى (وخلق الإنسان ضعيفا) يعنى فى قلة الصبر عن النساء فلا صبر له عنهن وقيل إنه لضعفه يستميله هواه فهو ضعيف العزم عن قهر الهوى وقيل هو ضعيف فى أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) يعنى بالحرام الذى لا يحل فى الشرع كالربا والقمار والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور وأخذ المال باليمين الكاذبة ونحو ذلك وإنما خص الأكل بالذكر ونهى عنه تنبيها على غيره من جميع التصرفات الواقعة على وجه الباطل لأن معظم المقصود من المال الأكل وقيل يدخل فيه أكل مال نفسه بالباطل ومال غيره أما أكل ماله بالباطل فهو إنفاقه فى المعاصى وأما أكل مال غيره فقد تقدم معناه وقيل يدخل فى أكل المال الباطل جميع العقود الفاسدة. وقوله تعالى (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) هذا الاستثناء منقطع لأن التجارة عن تراض ليست من جنس أكل المال بالباطل فكان إلا هاهنا بمعنى لكن يحل أكله بالتجارة عن تراض يعنى بطيبة نفس كل واحد منكم وقيل هو أن يخير كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع فيلزم وإلا فلهما الخيار مالم يتفرقا لما روى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار مالم يتفرقا وكانا جميعا أو يخير أحدهما الآخر فان خير أحدهما الآخر فتبايعا على ذلك فقد وجب البيع وإن تفرقا بعد أن تبايعا ولم يترك واحد منهما البيع فقد وجب البيع أخرجاه فى الصحيحين. وقوله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) أى لا يقتل

بعضكم

فى الدنيا عذب به يوم القيامة. حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفى أخبرنا أبو معاذ عبد الرحمن المزنى أنا أبو إسحاق إبراهيم بن حماد القاضى أنا أبو موسى الزمن أنا وهب بن جرير أخبرنا أبى قال سمعت الحسن أخبرنا جندب ابن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «جرح رجل فيمن كان قبلكم فألم ألما شديدا ولم يبرأ فجزع منه فأخذ سكينا فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات فقال الله عز وجل بادرنى عبدى بنفسه حرمت عليه الجنة» . وقال الحسن لاتقتلوا أنفسكم يعنى إخوانكم أى لايقتل بعضكم بعضا (إن الله كان بكم رحيما) أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا سليمان بن حرب أنا شعبة عن على بن مدرك قال سمعت أبا زرعة

ابن عمرو بن جرير عن جده قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع «استنصت الناس ثم قال لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» (ومن يفعل ذلك) يعنى ماسبق ذكره من المحرمات (عدوانا وظلما) فالعدوان مجاوزة الحد والظلم وضع الشىء فى غير موضعه (فسوف نصليه) ندخله فى الآخرة (نارا) يصلى فيها (وكان ذلك على الله يسيرا) هينا قوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) اختلفوا فى الكبائر التى جعل الله اجتنابها تكفيرا للصغائر أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن مقاتل أنا النضر أخبرنا شعبة أنا فراس قال سمعت الشعبى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا بشر بن الفضل أنا الجريرى عن عبد الرحمن ابن أبى بكرة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قالوا بلى يارسول الله قال الإشراك بالله عز وجل وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئا فقال ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفى أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار أنا أحمد بن عيسى البرتى أنا

بعضكم بعضا وإنما قال أنفسكم لأنهم أهل دين واحد فهم كنفس واحدة وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حجة الوداع «ألا لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» وقيل إن هذا نهى للانسان عن قتل نفسه (ق) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا» قوله يتردى التردى هو الوقوع من موضع عال إلى أسفل قوله يتوجأ يقال وجأته بالسكين إذا ضربته بها وهو يتوجأ بها أى يضرب بها نفسه (ق) عن جندب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان برجل جراح فقتل نفسه فقال الله تبارك وتعالى بدرنى عبدى بنفسه حرمت عليه الجنة وفى رواية قال كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات فقال الله تعالى بادرنى عبدى بنفسه حرمت عليه الجنة وقيل فى معنى قتل الإنسان نفسه أن لايفعل شيئا يستحق به القتل مثل أن يقتل فيقتل به فيكون هو الذى تسبب فى قتل نفسه وقيل معناه ولاتقتلوا أنفسكم بأكل المال بالباطل وقيل معناه ولا تهلكوا أنفسكم بأن تعملوا عملا ربما أدى إلى قتلها (إن الله كان بكم رحيما) يعنى أنه تعالى من رحمته بكم نهاكم عن كل شىء تستوجبون به مشقة أو محنة وقيل إنه تعالى أمر بنى إسرائيل بقتل أنفسهم ليكون ذلك توبة لهم وكان بكم ياأمة محمد رحيما حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الشاقة الصعبة (ومن يفعل ذلك) يعنى ماسبق ذكره من قتل النفس المحرمة لأن الضمير يعود إلى أقرب المذكورات وقيل إنه يعود إلى قتل النفس وأكل المال بالباطل لأنهما مذكوران فى آية واحدة وقيل إنه يعود إلى كل مانهى الله عنه من أول السورة إلى هنا (عدوانا وظلما) يعنى يتجاوز الحد فيضع الشىء فى غير موضعه فلذلك قيده بالعدوان والظلم لأنه قد يكون القتل بحق وهو القصاص وكذلك قد يكون أخذ المال بحق فلهذا السبب قيده بالوعيد وما كان على وجه العدوان والظلم وهو قوله تعالى (فسوف نصليه نارا) أى ندخله فى الآخرة نارا يصلى فيها (وكان ذلك على الله يسيرا) أى هينا لأنه تعالى قادر على مايريد. قوله عز وجل (إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) اجتناب الشىء المباعدة عنه وتركه جانبا والكبيرة ما كبر وعظم من الذنوب وعظمت عقوبته وقبل ذكر التفسير نذكر الأحاديث الواردة فى الكبائر فمن ذلك

محمد بن كثير أنا سفيان الثورى عن الأعمش ومنصور وواصل الأحدب ، عن أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله رضى الله عنهما قال «قلت يارسول الله أى الذنب أكبر عند الله قال أن تدعو لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزنى بحليلة جارك فأنزل الله تعالى تصديقها والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون» الآية أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنى سليمان عن ثور بن زيد عن أبى الغيث أنا أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وماهن؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» وقال عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه أكبر الكبائر: الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا عبد الرحمن ابن أبى شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوى أنا على بن الجعد أنا شعبة عن سعيد بن إبراهيم قال سمعت حميد بن عبد الرحمن يحدث عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «من الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه قال نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه ، وعن سعيد بن جبير أن رجلا سأل ابن عباس رضى الله عنهما عن الكبائر أسبع هى قال هى إلى السبعمائة أقرب ، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار وقال كل شىء عصى الله به فهو كبيرة فمن عمل شيئا منها فليستغفر فان الله لايخلد فى النار من هذه الأمة إلا راجعا عن الإسلام أو جاحدا فريضة أو مكذبا بقدر وقال عبدالله بن مسعود مانهى الله تعالى عنه فى هذه السورة إلى قوله «إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه ، فهو كبيرة وقال على بن أبى طالب هى كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب وقال الضحاك ما أوعد الله عليه حدا فى الدنيا أو عذابا فى الآخرة وقال الحسن بن الفضل ماسماه الله فى القرآن كبيرا أو عظيما نحو قوله تعالى إنه

ماروى عن أبى بكرة قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا قلنا بلى يارسول الله قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين ألا وشهادة الزور وقول الزور وكان متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » أخرجاه فى الصحيحين (ق) عن أنس بن مالك قال «ذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبائر فقال: الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قول الزور أو قال شهادة الزور» (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اجتنبوا السبع الموبقات قيل يارسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم والزنا والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» (خ) عن ابن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم عند الله؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت إن ذلك لعظيم ثم أى قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أي قال تزانى بحيلة جارك» (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «الكبائر: الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس» وفى رواية أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله قال ثم ماذا قال اليمين الغموس قلت وما اليمين الغموس قال الذى يقتطع مال امرئ مسلم بيمين هو فيها كاذب» (ق) عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا وهل يشتم الرجل والديه؟ قال نعم: يسب الرجل أبا الرجل أو أمه: فيسب أباه أو أمه» وفى رواية من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه وذكر الحديث وقال عبد الله ابن مسعود أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وعن سعيد بن جبير أن رجلا سأل ابن عباس عن الكبائر أسبع هى قال هى إلى السبعمائة أقرب وفى رواية إلى السبعين أقرب إلا أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار وقال كل شىء عصى الله به فهو كبيرة فمن عمل شيئا منها فليستغفر الله فان الله لا يخلد فى النار من هذه الأمة إلا من كان راجعا عن الإسلام أو جاحدا فريضة أو مكذبا بقدر وقال على بن أبى طالب كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب فهو كبيرة وقال سفيان الثورى الكبائر ما كان فيه المظالم فيما بينك وبين العباد والصغائر ما كان بينك وبين الله تعالى لأن الله تعالى كريم يغفر ويعفو واحتج لذلك بما روى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينادى مناد من

كان حوبا كبيرا . إن قتلهم كان خطأ كبيرا . إن الشرك لظلم عظيم . إن كيدكن عظيم . هبحانك هذا بهتان عظيم . إن ذلكم كان عند الله عظيما ، قال سفيان الثورى الكبائر ما كان فيه المظالم بينك وبين عباد الله تعالى والصغائر ما كان بينك وبين الله تعالى لأن الله كريم يعفو واحتج بما أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله بن على الكرمانى أنا أبو طاهر محمد بن محمش الزيادى أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن سعيد أنا الحسن بن داود البلخى أنا يزيد بن هارون أنا حميد الطويل عن أنس رضى الله عنهما . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادى منادى من بطنان العرش يوم القيامة ، يا أمة محمد إن الله عز وجل قد عفا عنكم جميعا المؤمنين والمؤمنات تواهبوا المظالم وادخلوا الجنة برحمتى » وقال مالك بن مغول الكبائر ذنوب أهل البدع والسيئات ذنوب أهل السنة وقيل الكبائر ذنوب العمد والسيئات الخطأ والنسيان وما أكره عليه وحديث النفس المرفوع عن هذه الأمة وقيل الكبائر ذنوب المستحلين مثل ذنب إبليس والصغائر ذنوب المستغفرين مثل (١٥ ـ) ذنب آدم عليه السلام وقال السدى الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب الكبائر والسيئات مقدماتها وتوابعها مما يجتمع فيه الصالح والفاسق مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها قال النبى صلى الله عليه وسلم « العينان تزنيان واليدان تزنيان والرجلان تزنيان ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » وقيل الكبائر ما يستحتره العباد والصغائر ما يستعظمونه فيخافون مواقعته كما أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو الوليد أنا مهدى بن ميمون بن غيلان عن أنس قال إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر إن كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات وقيل الكبائر الشرك وما يؤدى إليه وما دون الشرك فهو من السيئات قال الله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (نكفر عنكم سيئاتكم) أى من الصلاة إلى الصلاة ومن الجمعة إلى الجمعة ومن رمضان إلى رمضان أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر ابن محمد أنا محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج حدثنى هارون بن سعيد الأيلى أنا ابن وهب عن أبى صخر أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنب الكبائر » ، قوله تعالى (وندخلكم مدخلا كريما) أى حسنا وهو الجنة قرأ أهل المدينة مدخلا بفتح الميم هاهنا وفى الحج وهو موضع الدخول ، وقرأ الباقون بالضم على المصدر بمعنى الإدخال قوله تعالى (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) الآية قال مجاهد قالت

بطنان العرش يوم القيامة يا أمة محمد إن الله قد عفا عنكم جميعا المؤمنين والمؤمنات تواهبوا المظالم وادخلوا الجنة برحمتى » وقال مالك بن مغول الكبائر ذنوب أهل البدع والسيئات ذنوب أهل السنة وقيل الكبائر ذنوب العمد والسيئات الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وحديث النفس المرفوع عن هذه الأمة وقال السدى الكبائر ما نهى الله عنه من الذنوب والسيئات مقدماتها وتوابعها التى يقع فيها الصالح والفاسق مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباه ذلك (ق) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه لفظ مسلم وقيل الكبائر الشرك وما يؤدى إليه وما دونه فهو من السيئات فقد ثبت بما تقدم من الادلة أن من الذنوب كبائر وصغائر وإلى هذا ذهب الجمهور من السلف والخلف وثبت بدلائل الكتاب والسنة وإذا ثبت انقسام المعاصى إلى صغائر وكبائر فقوله تعالى إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه هى كل ذنب عظم قبحه وعظمت عقوبته إما فى الدنيا بالحدود وإما فى الآخرة بالعذاب عليه (تكفر عنكم سيئاتكم) يعنى نستر ها عليكم حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل لأن أصل التكفير الستر والتغطية فصغار الذنوب تكفر بالحسنات ولا تكفر كبارها إلا بالتوبة والإقلاع عنها كما ورد فى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن زاد فى رواية ما لم تغش الكبائر وزاد فى رواية أخرى ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر أخرجه مسلم . وقوله تعالى (وندخلكم مدخلا كريما) يعنى حسنا شريفا وهو الجنة والمعنى إذا اجتنبتم الكبائر وأتيتم الطاعات ندخلكم مدخلا تكرمون فيه . قوله عز وجل (ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) أصل التمنى إرادة الشىء وتشهى حصول ذلك الأمر المرغوب فيه ومنه حديث النفس بما يكون وبما لا يكون وبما لا يكون وقيل التمنى تقدير الشىء فى النفس وتصويره فيها وذلك قد يكون عن تخمين وظن وقد

أم سلمة يارسول الله إن الرجال يغزون ولا نغزوا ولهم ضعف مالنا من الميراث فلوكنا رجالا غزونا كما غزوا وأخذنا من الميراث مثل ماأخذوا فنزلت هذه الآية وقيل لما جعل الله عز وجل للذكر مثل حظ الأنثيين فى الميراث قالت النساء نحن أحق وأحوج إلى الزيادة من الرجال لأنا ضعيفات وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش منا فأنزل الله تعالى ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض وقال قتادة والسدى لما أنزل الله قوله للذكر مثل حظ الأنثيين قال الرجل إنا لنرجوا أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء كما فضلنا عليهن فى الميراث فقال الله تعالى (للرجال نصيب مما اكتسبوا) من الأجر (وللنساء نصيب مما اكتسبن) معناه أن الرجال والنساء فى الأجر فى الآخرة سواء وذلك أن الحسنة تكون بعشرة أمثالها يستوى فيها الرجال والنساء وإن فضل الرجال فى الدنيا على النساء وقيل معناه للرجال نصيب مما اكتسبوا من أمر الجهاد وللنساء نصيب مما اكتسبن من طاعة الأزواج وحفظ الفروج قوله تعالى (واسألوا الله من فضله) قرأ ابن كثير والكسائى وسلو وسل وفسل إذا كان قبل السين واو أو فاء بغير همز ونقل حركة الهمزة إلى السين والباقون بسكون السين مهموزا فنهى الله تعالى عن التمنى لما فيه من دواعى الحسد. والحسد: أن يتمنى الرجل زوال النعمة عن صاحبه سواء تمناها لنفسه أم لا وهو حرام والغبطة على أن يتمنى لنفسه مثل مالصاحبه وهو جائز قال الكلبى لا يتمنى الرجل مال أخيه ولا امرأته ولا خادمه ولكن ليقل اللهم ارزقنى مثله وهو كذلك فى التوراة وذلك فى القرآن قوله واسألوا الله من فضله قال ابن عباس واسألوا الله من فضله أى من رزقه، وقال سعيد بن جبير من عبادته فهو سؤال التوفيق للعبادة. قال سفيان بن عيينة لم يأمر بالمسألة إلا ليعطى (إن الله كان بكل شىء عليما)

يكون عن رؤية وأكثر التمنى تصور مالا حقيقة له وقيل التمنى عبارة عن إرادة مايعلم أو يظن أنه لا يكون، عن مجاهد عن أم سلمة قالت قلت يارسول الله يغزوا الرجال ولا تغزوا النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض قال مجاهد وأنزل إن المسلمين والمسلمات وكانت أم سلمة أول ظعينة قدمت المدينة مهاجرة أخرجه الترمذى وقال هذا حديث مرسل وقيل لما جعل الله للذكر مثل حظ الانثيين من الميراث قالت النساء نحن أحق وأحوج إلى الزيادة من الرجال لأنا ضعيفات وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش منا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل لما نزل قوله للذكر مثل حظ الأنثيين قالت الرجال إنا لنرجو أن نفضل على النساء فى الحسنات فى الآخرة فيكون لنا أجرنا على ضعف أجر النساء كما فضلنا عليهن فى الميراث وقالت النساء إنا لنرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال كما لنا فى الميراث النصف من نصيبهم فنزلت هذه الآية والتمنى على قسمين: أحدهما أن يتمنى الإنسان أن يحصل له مال غيره مع زوال تلك النعمة عن ذلك الغير فهذا القسم هو الحسد وهو مذموم لأن الله تعالى يفيض نعمه على من يشاء من عباده وهذا الحاسد يعترض على الله تعالى فيما فعل وربما اعتقد فى نفسه أنه أحق بتلك النعمة من ذلك الإنسان أيضا فهذا اعتراض على الله أيضا وهو مذموم. القسم الثانى أن يتمنى مثل مال غيره ولا يحب أن يزول ذلك المال عن الغير وهذا هو الغبطة وهذا ليس بمذموم ومن الناس من منع منه أيضا قال لأن تلك النعمة ربما كانت مفسدة فى حقه فى الدين والدنيا قال الحسن لا تتمنى مال فلان ولا تدرى لعل هلاكك فى ذلك المال فيعلم العبد أن الله عز وجل أعلم بمصالح عباده فليرض بقضائه ولتكن أمنيته الزيادة من عمل الآخرة وليقل اللهم اعطنى ما يكون صلاحا فى دينى ودنياى ومعادى. وقوله تعالى (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) قال ابن عباس يعنى مما ترك الوالدان والأقربون من الميراث يقول للذكر مثل حظ الأنثيين وقيل هذا الاكتساب فى الآخرة يعنى أن الرجال والنساء فى الأجر فى الآخرة سواء لأن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها يستوى فى ذلك الرجال والنساء وإن فضل الرجال فى الدنيا على النساء وقيل للرجال نصيب مما اكتسبوا من أمر الجهاد وللنساء نصيب مما اكتسبن يعنى من طاعة الأزواج وحفظ الفروج (واسألوا الله من فضله) قال ابن عباس يعنى من رزقه وقيل من عبادته وهو سؤال التوفيق للعبادة وقيل لم يأمر الله عباده بالمسئلة إلا ليعطيهم وفيه تنبيه على أن العبد لا يعين شيئا فى الدعاء والطلب لكن يطلب من فضل الله مايكون سببا لصلاح دينه ودنياه وآخرته وقيل لما تمنى النساء أن يكن رجالا وأن يكون لهن مثل ما للرجال نهاهن الله عن ذلك وأمرهن أن يسألوه من فضله فانه أعلم بمصالح عباده (إن الله كان بكل شىء عليما) يعنى أنه تعالى عليم بما يكون صلاحا للسائلين فليقتصر السائل

«ولكل جعلنا موالى» أى ولكل واحد من الرجال والنساء جعلنا موالى أى عصبة يعطون (مما ترك الوالدان والأقربون) الوالدان والأقربون هم المورثون وقيل معناه ولكل جعلنا موالى أى ورثة مما ترك أى من الذين تركوهم ويكون مابمعنى من ثم فسر الموالى فقال الوالدان والأقربون أى هم الوالدان والأقربون فعلى هذا القول الوالدان والأقربون هم الوارثون (والذين عقدت أيمانكم) قرأ أهل الكوفة عقدت بلا ألف أى عقدت لهم أيمانكم وقرأ الآخرون عاقدت أيمانكم والعاقدة المحالفة والمعاهدة والأيمان جمع يمين من اليد والقسم وذلك أنهم كانوا عند المحالفة يأخذ بعضهم بيد بعض على الوفاء والتمسك بالعهد ومحالفتهم أن الرجل كان فى الجاهلية يعاقد الرجل فيقول دمى دمك وثأرى ثأرك وحربى حربك وسلمى سلمك وترثنى وأرثك وتطلب بى وأطلب بك وتعقل عنى وأعقل عنك فيكون للحليف السدس من مال الحليف وكان ذلك فى ابتداء الإسلام فذلك قوله تعالى (فآتوهم نصيبهم) أى أعطوهم حظهم من الميراث ثم نسخ ذلك بقوله تعالى «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» وقال إبراهيم ومجاهد أراد فآتوهم نصيبهم من النصر والرفد ولا ميراث لهم وعلى هذا تكون هذه الآية غير منسوخة لقوله تعالى «أوفوا بالعقود» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة يوم فتح مكة «لاتحدثون حلفا فى الإسلام وما كان من حلف فى الجاهلية فتمسكوا فيه فانه لم يزده الإسلام إلاشدة» وقال ابن عباس رضى الله عنهما أنزلت هذه الآية فى الذين آخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار حين قدموا المدينة وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون الرحم فلما نزلت «ولكل جعلنا موالي» نسخت

على المجمل فى الطلب فان الله تعالى عليم بما يصلحه فلا يتمنى غير الذى قدر له . قوله تعالى (ولكل) يعنى من الرجال والنساء (جعلنا موالى) يعنى ورثة من بنى عم وأخوة سائر العصبات (مما ترك) يعنى يرثون مماترك (الوالدان والأقربون) من ميراثهم فعلى هذا الوالدان والأقربون هم المورثون وقيل معناه ولكل جعلنا موالى أى ورثة مماترك وتكون مابمعنى يعنى من من تركهم الميت ثم فسر الموالى فقال الوالدان والأقربون فعلى هذا الوالدان والأقربون هم الوارثون والمعنى ولكل شخص جعلنا ورثة ممن تركهم وهم والداه وأقربوه والقول الأول أصح لأنه مروى عن ابن عباس وغيره (والذين عاقدت أيمانكم) وقرئ عقدت بغير ألف مع التخفيف والمعاقدة المحالفة والمعاهدة والأيمان جمع يمين يحتمل أن يراد بها القسم أواليد أوهما جميعا وذلك أنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كل واحد منهم بيد صاحبه وتحالفوا على الوفاء بالعهد والتمسك بذلك العقد وكان الرجل يحالف الرجل فى الجاهلية ويعاقده فيقول دمى دمك وهدمى هدمك وثأرى ثأرك وحربى حربك وسلمى سلمك ترثنى وأرثك وتطلب بى وأطلب بك وتعقل عنى وأعقل عنك فيكون لكل واحد من الحليفين السدس فى مال الآخر وكان الحكم ثابتا فى الجاهلية وابتداء الإسلام فذلك قوله تعالى (فآتوهم نصيبهم) يعنى أعطوهم حظهم من الميراث ثم نسخ الله هذا الحكم بقوله وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله وقال ابن عباس نزلت هذه الآية فى الذين أخى بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار لما قدموا المدينة وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة دون النسب والرحم فلما نزلت ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان نسختها ثم قال والذين عاقدت أيمانكم من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث ويوصى له وفى رواية أخرى عنه قال والذين عاقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم كان الرجل يحالف الرجل ليس بينهما نسب فيرث أحدهما كالآخر فنسخ ذلك بسورة الأنفال فقال وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله وقال سعيد بن المسيب كانوا يتوارثون بالتبنى بهذه الآية ثم نسخ ذلك وذهب قوم إلى أن الآية ليست بمنسوخة بل حكمها باق والمراد بقوله والذين عاقدت أيمانكم الحلفاء والمراد من قوله فآتوهم نصيبهم يعنى من النصرة والنصيحة والموافاة والمصافاة ونحو ذلك فعلى هذا لاتكون منسوخة وقيل نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق عن داود بن الحصين قال كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع وكانت يتيمة فى حجر أبى بكر الصديق فقرأت والذين عاقدت أيمانكم فقالت لا تقرأ والذين عقدت أيمانكم إنما نزلت فى أبى بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى الإسلام فحلف أبو بكر أن لا يورثه فلما أسلم أمره الله أن يؤتيه نصيبه أخرجه أبو داود على هذا فلا نسخ أيضا فمن قال أن حكم الآية باق قال إنما كانت المعاقدة فى الجاهلية على النصرة لاغير والإسلام لم يغير ذلك ويدل عليه ماروى عن جبير ابن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاحلف فى الإسلام وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده

ثم قال والذين عقدت ايمانكم فآتوهم نصيبهم من النصر والرفادة والنصيحة وقد ذهب الميراث فيوصى له وقال سعيد بن المسيب كانوا يتوارثون التبنى وهذه الآية فيه ثم نسخ (إن الله كان على كل شئ شهيدا الرجال قوامون على النساء) الآية نزلت فى سعد ابن الربيع وكان من النقباء وفى امرأته حبيبة بنت زيد ابن أبى زهير قاله مقاتل وقال الكلبى امرأته حبيبة بنت محمد بن مسلمة وذلك أنها نشزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أفرشته كريمتى فلطمها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لتقتص من زوجها فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فجاء جبريل عليه السلام فقال النبى ﷺ أرجعوا هذا جبريل أتانى بشىء فأنزل الله هذه الآية فقال النبى صلى الله عليه وسلم أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذى أراد الله خير ورفع القصاص قوله تعالى «الرجال قوامون على النساء» أى مسلطون على تأديبهن والقوام والقيم بمعنى واحد والقوام أبلغ وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب (بما فضل الله بعضهم على بعض) يعنى فضل الرجال على النساء بزيادة العقل والدين والولاية وقيل بالشهادة لقوله تعالى «فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان» وقيل بالجهاد وقيل بالعبادات من الجمعة والجماعة وقيل هو أن الرجل ينكح أربعا ولا يحل للمرأة إلا زوج واحد وقيل بأن الطلاق بيده وقيل بالميراث وقيل بالدية وقيل بالنبوة (وبما أنفقوا من أموالهم) يعنى إعطاء المهر والنفقة أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفى قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار أنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتى أنا أبو حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن أبى ظبيان عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» قوله تعالى (فالصالحات قانتات) أى طيعات (حافظات للغيب) أى حافظات للفروج فى غيبة الأزواج وقيل حافظات لسرهم (بما حفظ الله) قرأ أبو جعفر بما حفظ الله بالنصب أى

الإسلام إلا شدة» أخرجه مسلم . وقوله تعالى (إن الله كان على كل شىء شهيدا) قال عطاء يريد أنه لم يغب عنه علم ماخلق وبرأ فعلى هذا الشهيد بمعنى الشاهد والمراد منه علمه بجميع الأشياء وقيل الشهيد هو الشاهد على الخلق يوم القيامة بكل ما عملوه فعلى هذا الشاهد بمعنى المخبر وفيه وعد للطائعين ووعيد للعصاة المخالفين . قوله عز وجل (الرجال قوامون على النساء) نزلت فى سعد بن الربيع وكان من النقباء وفى امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ويقال امرأته بنت محمد بن مسلمة وذلك أنها نشزت عليه فلطمها فانطلق أبوها معها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أفرشته كريمتى فلطمها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لتقتص من زوجها فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبى صلى الله عليه وسلم أرجعوا هذا جبريل أتانى فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال النبى صلى الله عليه وسلم أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذي أراد الله خير ورفع القصاص فقوله تعالى «الرجال قوامون على النساء» أى متسلطون على تأديب النساء والأخذ على أيديهن قال ابن عباس أمروا عليهن فعلى المرأة أن تطيع زوجها فى طاعة الله والقوام هو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب فالرجل يقوم بأمر المرأة ويجتهد فى حفظها ولما أثبت القيام للرجال على النساء بين السبب فى ذلك فقال تعالى (بما فضل الله بعضهم على بعض) يعنى أن الله تعالى فضل الرجال على النساء بأمور منها زيادة العقل والدين والولاية والشهادة والجهاد والجمعة والجماعات وبالأمامة لأن منهم الأنبياء والخلفاء والأئمة ومنها أن الرجل يتزوج بأربع نسوة ولا يجوز لامرأة غير زوج واحد ومنها زيادة النصيب فى الميراث والتعصيب فى الميراث وبيده الطلاق والنكاح والرجعة وإليه الانتساب فكل هذا يدل على فضل الرجل على النساء ثم قال تعالى (وبما أنفقوا من أموالهم) يعنى وبما أعطوا من مهور النساء والنفقة عليهن عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» أخرجه الترمذى (فالصالحات) يعنى المحسنات العاملات بالخير (قانتات) أى مطيعات لأزواجهن وقيل مطيعات لله (حافظات للغيب) لفروجهن فى غيبة أزواجهن لئلا يلحق الزوج العار بسبب زناها ويلحق به الولد الذى هو من غيره وقيل معناه حفظ سر زوجها وحفظ ماله ومايجب على المرأة من حفظ متاع البيت فى غيبة زوجها عن أبى هريرة قال قيل يارسول الله أى النساء خير قال التى تسره إذا نظر اليها وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره أخرجه النسائى ورواه البغوى بسند الثعلبى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها ثم تلا الرجال قوامون على النساء الآية . وقوله تعالى (بما حفظ الله) يعنى بما

يحفظهن الله فى الطاعة وقراءة العامة بالرفع أى بما حفظهن الله بايصاء الأزواج بحقهن وأمرهم بأداء المهر والنفقة ، وقيل حافظات للغيب بحفظ الله أخبرنا أبو سعيد الشريحى أنا أبو إسحاق الثعلبى أنا أبو عبد الله بن فنجويه أخبرنا عمر بن الخطاب أنا محمد بن إسحاق المسوحى أنا الحارث بن عبد الله أنا أبو معشر عن سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها ثم تلا الرجال قوامون على النساء لآية» (واللاتى تخافون نشوزهن) عصيانهن وأصل النشوز التكبر والارتفاع ومنه النشز للموضع المرتفع (فعظوهن) بالتخويف من الله والوعظ بالقول (واهجروهن) يعنى إن لم ينزعن عن ذلك بالقول فاهجروهن (فى المضاجع) قال ابن عباس يوليها ظهره فى الفراش ولا يكلمها وقال غيره يعتزل عنها إلى فراش آخر (واضربوهن) يعنى إن لم ينزعن عن الهجران فاضربوهن ضربا غير مبرح ولا شائن وقال عطاء ضربا بالسواك وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال وحق المرأة أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى لا تتجنوا عليهن الذنوب وقال ابن عيينة لا تكلفوهن محبتكم فان القلب ليس بأيديهن

حفظهن الله حين أوصى بهن الأزواج وأمرهم بأداء المهر والنفقة إليهن (ق) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «استوصوا بالنساء خيرا فان المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء» وقيل فى معنى الآية بما حفظهن الله وعصمهن ووفقهن لحفظ الغيب وقيل بما حفظ الله من حقوقهن على أزواجهن حيث أمرهم بعدل فيهن وإمساكهن بمعروف أو تسريحهن باحسان (واللاتى تخافون) أى تعلمون وقيل تظنون (نشوزهن) أى شرورهن وأصل النشوز الارتفاع ونشوز المرأة هو بغضها لزوجها ورفع نفسها عن طاعته والتكبر عليه وقيل دلالات النشوز قد تكون بالقول والفعل . فالقول مثل إن كانت تلبيه إذا دعاها وتخضع له إذا خاطبها والفعل مثل إن كانت تقوم له إذا دخل عليها وتسرع إلى أمره إذا أمرها فاذا خالفت هذه الأحوال بأن رفعت صوتها عليه أو لم تجبه إذا دعاها ولم تبادر إلى أمره إذا أمرها دل ذلك على نشوزها على زوجها (فعظوهن) يعنى إذا ظهر منهن أمارات النشوز فعظوهن بالتخويف بالقول وهو أن يقول لها اتقى الله وخافيه فان لى عليك حقا وارجعى عما أنت عليه واعلمى أن طاعتى فرض عليك ونحو ذلك فان أصرت على ذلك هجرها فى المضجع وهو قوله تعالى (واهجروهن فى المضاجع) يعنى إن لم ينزعن عن ذلك بالقول فاهجروهن فى المضاجع قال ابن عباس هو أن يوليها ظهره فى الفراش ولا يكلمها وقيل هو أن يعتزل عنها إلى فراش آخر (واضربوهن) يعنى إن لم ينزعن بالهجران فاضربوهن يعنى ضربا غير مبرح ولا شائن قيل هو أن يضربها بالسواك ونحوه وقال الشافعى الضرب مباح وتركه أفضل عن عمرو بن الأحوص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ فذكر فى الحديث قصة فقال ألا فاستوصوا بالنساء خيرا فانما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا أخرجه الترمذى بزيادة فيه قوله عوان جمع عانية أى أسيرة شبه المرأة ودخولها تحت حكم زوجها بالأسير والضرب المبرح الشديد الشاق . وقوله (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى لا تطلبوا عليهن طريقة تحتجون بها عليهن إذا قمن بواجب حقكم عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه قال «أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت» أخرجه أبو داود قوله ولا تقبح أى لا تقل قبحك الله (ق) عن عبد الله بن زمعة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم لعله يجامعها أو قال يضاجعها من آخر اليوم» عن إياس بن عبد الله ابن أبى ذئاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تضربوا النساء» فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال زبرت النساء على أزواجهن فرخص فى ضربهن فأطاف بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء كثيرون يشكون أزواجهن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم أخرجه أبو داود إياس ابن عبد الله هذا قد اختلف فى صحبته وقال البخارى لا يعرف له صحبة قوله زبرت يقال زبرت المرأة

عليها بين الوعظ والهجران والضرب فذهب بعضهم إلى ظاهرها وقال إذا ظهر النشوز جمع بين هذه الأفعال وحمل الخوف فى قوله واللاتى تخافون نشوزهن على العلم كقوله تعالى فمن خاف من موص جنفا أى علم ومنهم من حمل الخوف على الخشية لا على حقيقة العلم كقوله تعالى وإما تخافن من قوم خيانة وقال هذه الأفعال على ترتيب الجرائم فان خاف نشوزها بأن ظهرت أمارته منها من المخاشنة وسوء الخلق وعظها فان أبدت النشوز هجرها فان أصرت على ذلك ضربها قوله تعالى (وإن خفتم شقاق بينهما) يعنى خلافا بين الزوجين والخوف بمعنى اليقين وقيل هو بمعنى الظن يعنى إن ظننتم شقاق بينهما وجملته أنه إذا ظهر بين الزوجين شقاق واشتبه حالهما فلم يفعل الزوج الصفح ولا الفرقة ولا المرأة تأدية الحق ولا الفدية وخرجا إلى مالا يحل قولا وفعلا بعث الإمام حكما من أهله إليه وحكما من أهلها إليها رجلين حرين عدلين ليستطلع كل واحد من الحكمين رأى من بعث إليه إن

على زوجها إذا نشزت واجترأت عليه وأطاف بالشىء أحاط به. ففى هذه الأحاديث دليل على أن الأولى ترك الضرب للنساء فان احتاج إلى ضربها لتأديب فلا يضربها ضربا شديدا وليكن ذلك مفرقا ولا يوالى بالضرب على موضع واحد من بدنها وليتق الوجه لأنه يجمع المحاسن ولا يبلغ بالضرب عشرة أسواط وقيل ينبغى أن يكون الضرب بالمنديل واليد ولا يضرب بالسوط والعصا وبالجملة فالتخفيف بأبلغ شىء أولى فى هذا الباب واختلف العلماء فقال بعضهم حكم الآية مشروع على الترتيب فان ظاهر اللفظ وإن دل على الجمع إلا أن مجرى الآية يدل على الترتيب قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه يعظها بلسانه فان انتهت فلا سبيل له عليها فان أبت هجر مضجعها فان أبت ضربها فان لم تتعظ بالضرب بعث الحكم وقال الآخرون هذا الترتيب مراعى عند خوف النشوز أما عند تحقق النشوز فلا بأس بالجمع بين الكل وقيل له أن يعظها عند خوف النشوز وهل له أن يهجرها فيه احتمال ذلك وله عند ظهور النشوز أن يعظها وأن يهجرها أو يضربها عن عمر رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لا يسأل الرجل فيم ضرب امرأته» أخرجه أبو داود (ق) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجىء فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح» وفى رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «والذى نفسى بيده مامن رجل يدعوا امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها» وفى رواية «إذا باتت مهاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح وفى أخرى» حتى ترجع عن طلق بن على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا دعى الرجل امرأته إلى حاجته فلتأته وإن كانت على التنور أخرجه الترمذى وله عن معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال «لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فانما هو دخيل عندك يوشك أن يفارقك إلينا» وله عن أم سلمة قالت قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم «أيما امرأة ماتت وزوجها راض عنها دخلت الجنة» وقوله تعالى فان أطعنكم يعنى فان رجعن عن النشوز إلى طاعتكم عند هذا التأديب فلا تبغوا عليهن سبيلا يعنى فلا تطلبوا عليهن الضرب والهجران على سبيل التعنت والإيذاء وقيل معناه أزيلوا عنهن التعرض بالأذى والتوبيخ ولا تجنوا عليهن الذنوب وقيل معناه لا تكلفوهن محبتكم فان القلب ليس بأيديهن (إن الله كان عليا كبيرا) العلى الكبير فى صفة الله تعالى معناه الرفيع الذى يعلو عن وصف الواصفين ومعرفة العارفين العلى بالإطلاق الذى يستحق جميع صفات المدح والتكبير هو المستغنى عن غيره وذلك هو الله تعالى الموصوف بالجلال والعظمة والكبرياء وكبر الشأن الذى يصغر كل أحد لكبريائه وعظمته تعالى والمعنى إن الله متعال من أن يكلف عباده مالا يطيقونه وقيل إن النساء وإن ضعفن عن دفع ظلم الرجال عنهن فان الله على كبير قادر على أن ينتصف لهن ممن ظلمهن من الرجال وقيل معناه أن الله مع علوه وكبريائه يقبل توبة العاصى إذا تاب ويغفر له فاذا تابت المرأة من نشوزها فالأولى بكم أن تقبلوا توبتها وتتركوا معاتبتها واعلموا أن قدرته عليكم أعظم من قدرتكم على من تحت أيديكم فأنتم أحق بالعفو عمن جنى عليكم . قوله تعالى (وإن خفتم) يعنى وإن علمتم وتيقنتم وقيل معناه الظن أى ظننتم (شقاق بينهما) يعنى بين الزوجين وأصل الشقاق المخالفة وكون كل واحد من المتخالفين فى شق غير شق صاحبه أو يكون أصله من شق العصا

وهو

كانْ رغبته فى الصلح أو فى الفرقة ثم يجتمع الحكمان فينفذان ما يجتمع عليه رأيهما من الصلاح فذلك

وهو أن يقول كل واحد من الزوجين مايشق على صاحبه سماعه وذلك أنه إذا ظهر بين الزوجين شقاق ومخالفة واشتبه حالهما ولم يفعل الزوج الصلح ولا الصفح ولا الفرقة وكذلك الزوجة لا تؤدى الحق ولا الفدية وخرجا إلى مالا يحل قولا وفعلا . قوله تعالى (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) اختلفوا فى المخاطبين بهذا ومن المأمور ببعثة الحكمين فقيل المخاطب بذلك هو الإمام أو نائبه لأن تنفيذ الأحكام الشرعية اليه وقيل المخاطب بذلك كل أحد من صالحى الأمة لأن قوله تعالى فابعثوا خطاب الجمع وليس حمله على البعض أولى من حمله على البقية فوجب حمله على الكل فعلى هذا يجب أن يكون أمرا لآحاد الأمة سواء وجد الإمام أو لم يوجد فللصالحين أن يبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها وأيضا فهذا يجرى مجرى دفع الضرر فلكل واحد أن يقوم به وقيل وهو خطاب للزوجين فاذا حصل بينهما شقاق بعثا حكمين حكما من أهله وحكما من أهلها (إن يريدا إصلاحا) يعنى الحكمين وقيل الزوجين (يوفق الله بينهما) يعنى بالصلاح والألفة روى الشافعي بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه جاءه رجل وامرأة ومع كل واحد منهما فئام من الناس فقال على ما شأن هذين قالوا وقع بينهما شقاق قال على فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ثم قال للحكمين تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما فقالت المرأة رضيت بكتاب الله بما على فيه ولى وقال الرجل أما الفرقة فلا قال على كذبت والله حتى تقر بمثل ما أقرت به قال الشافعى والمستحب أن يبعث الحاكم عدلين ويجعلهما حكمين والأولى أن يكون واحد من أهله وواحد من أهلها لأن أقاربهما أعرف بحالهما من الأجانب وأشد طلبا للإصلاح فان كانا أجنبيين جاز وفائدة الحكمين أن كل واحد منهما يخلو بصاحبه ويستكشف حقيقة الحال ليعرف أن رغبته فى الإقامة على النكاح أو فى المفارقة ثم يجتمعان فيفعلان ماهو الصواب من اتفاق أو طلاق أو خلع والحكمان وكيلان للزوجين وهل يجوز لهما تنفيذ أمر يلزم الزوجين دون رضاهما وإذنهما فى ذلك مثل أن يطلق حكم الرجل أو يفتدى حكم المرأة بشىء من مالها فللشافعى فى ذلك قولان: أحدهما أنه لايجوز إلا برضاهما وليس لحكم الزوج أن يطلق إلا باذنه ولا لحكم المرأة أن يختلع بشىء من مالها إلا باذنها وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد لأن عليا توقف حين لم يرض الزوج وذلك حين قال أما الفرقة فلا فقال له على كذبت حتى تقر بمثل ما أقرت به فثبت أن تنفيذ الأمر موقوف على إقراره ورضاها ومعنى قول على للزوج كذبت أى لست بمنصف فى دعواك حيث لم تقر بمثل ما أقرت به من الرضا بحكم كتاب الله لها وعليها والقول الثانى أنه يجوز بعث الحكمين دون رضاهما ويجوز لحكم الزوج أن يطلق دون رضاه ولحكم الزوجة أن يختلع دون رضاها إذا رأيا الصلاح فى ذلك كالحاكم يحكم بين الخصمين وإن لم يكن على وفق مرادهما وبه قال مالك ومن قال بهذا القول قال ليس المراد من قول على للزوج حتى تقر أن رضاه شرط بل معناه أن المرأة لما رضيت بما فى كتاب الله تعالى فقال الرجل أما الفرقة فلا يعنى ليست الفرقة فى كتاب الله فقال له على كذبت حتى أنكرت أن تكون الفرقة فى كتاب الله بل هى فى كتاب الله فان قوله تعالى يوفق الله بينهما يشتمل على الفراق وعلى غيره لأن التوفيق أن يخرج كل واحد منهما من الإثم والوزر ويكون تارة ذلك بالفراق وتارة بصلاح حاليهما فى الوصلة . وقوله تعالى (إن الله كان عليما خبيرا) يعنى أن الله تعالى يعلم كيف يوفق بين المختلفين

قوله عز وجل (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا) يعنى الحكمين (يوفق الله بينهما) يعنى بين الزوجين وقيل بين الحكمين (إن الله كان عليما خبيرا) أخبرنا عبد الوهاب محمد الخطيب أنا عبد العزيز ابن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا الثقفى عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة أنه قال فى هذه الآية وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها قال جاء رجل وامرأة إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ومع كل واحد منهما قوم من الناس فأمرهم على رضى الله عنه فبعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ثم قال للحكمين تدريان ما عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما قالت المرأة رضيت بكتاب الله بما على فيه ولى فقال الرجل أما الفرقة فلا فقال على رضى الله عنه كذبت والله حتى تقر بمثل الذى أقرت به واختلف القول فى جواز بعث الحكمين من غير رضا الزوجين وأصح القولين أنه لايجوز إلا برضاهما

وليس لحكم الزوج أن يطلق إلا بإذنه ولا لحكم المرأة أن يختلع على مالها إلا بإذنها وهو قول أصحاب الرأى لأن عليا رضى الله عنه حين قال الرجل أما الفرقة فلا قال كذبت حتى تقر بمثل الذى أقرت به فثبت أن تنفيذ الأمر موقوف على إقراره ورضاه والقول الثانى يجوز بعث الحكمين دون رضاهما فيجوز لحكم الزوج أن يطلق دون رضاه ولحكم المرأة أن يختلع دون رضاها إذا رأيا الصلاح كالحاكم يحكم بين الخصمين وإن لم يكن على وفق مرادهما وبه قال مالك ومن قال بهذا قال ليس المراد من قول على رضى الله عنه للرجل حتى تقر أن رضاه شرط بل معناه أن المرأة لما رضيت بما فى كتاب الله فقال الرجل أما الفرقة فلا يعنى الفرقة ليست فى كتاب الله فقال على كذبت حيث أنكرت أن الفرقة فى كتاب الله بل هى فى كتاب الله فان قوله تعالى يوفق الله بينهما يشتمل على الفراق وغيره لأن التوفيق أن يخرج كل واحد منهما من الوزر وذلك تارة يكون بالفراق وتارة بصلاح حالهما فى الوصلة، قوله تعالى (واعبدوا الله) أى وحدوه وأطيعوه (ولا تشركوا به شيئا) أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله ابن بشران أنا على أبو إسماعيل محمد بن محمد الصفار، أنا أحمد ابن منصور الرمادى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن أبى إسحاق عن عمرو ابن ميمون الأزدى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال كنت رديف النبى صلى الله عليه وسلم فقال «هل تدرى يا معاذ ما حق الله على الناس؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدرى يا معاذ ما حق الناس على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت الله ورسوله أعلم؟ قال فإن حق الناس على الله أن لا يعذبهم قال: قلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال دعهم يعملون» قوله تعالى (وبالوالدين إحسانا) برا بهما وعطفا عليهما (وبذى القربى) أى أحسنوا بذى القربى (واليتامى والمساكين) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد

ويجمع بين المتفرقين وفيه وعيد شديد للزوجين والحكمين إن سلكوا غير طريق الحق. قوله عز وجل (واعبدوا الله) يعنى وحدوه وأطيعوه وعبادة الله تعالى عبارة عن كل فعل يأتى به العبد لمجرد الله تعالى ويدخل فيه جميع أعمال القلوب وأعمال الجوارح (ولا تشركوا به شيئا) يعنى وأخلصوا له فى العبادة ولا تجعلوا له فى الربوبية والعبادة شريكا لأن من عبد مع الله غيره أو أراد بعمله غير الله فقد أشرك به ولا يكون مخلصا (ق) عن معاذ بن جبل «قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير أو اسمه يعفور فقال يا معاذ هل تدرى ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله قلت الله ورسوله أعلم قال فان حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا فقلت يا رسول الله أفلا أبشر الناس قال لا تبشرهم فيتكلوا» قوله هل تدرى ما حق الله على عباده معناه ما يستحقه مما أوجبه وجعله متحتما عليهم ثم فسر ذلك الحق بقوله أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وقوله وما حق العباد على الله إنما قال حقهم على سبيل المقابلة لحقه عليهم لا لأنهم يستحقون عليه شيئا ويجوز أن يكون من قول الرجل لصاحبه حقك على واجب أى متأكد قيامى به، وقوله أفلا أبشر الناس الخ إنما قال لا تبشرهم فيتكلوا. لأنه صلى الله عليه وسلم رأى ذلك أصلح لهم وأحرى أن لا يتكلوا على هذه البشارة ويتركوا العمل الذى ترفع لهم به الدرجات فى الجنة. وقوله تعالى (وبالوالدين إحسانا) تقديره وأحسنوا بالوالدين إحسانا يعنى برا بهما وعطفا عليهما وإنما قرن بر الوالدين بعبادته وتوحيده لتأكد حقهما على الولد واعلم أن الإحسان بالوالدين هو أن يقوم بخدمتهما ولا يرفع صوته عليهما ويسعى فى تحصيل مرادهما والإنفاق عليهما بقدر القدرة (ق) عن أبى هريرة قال «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال أمك قال ثم من؟ قال ثم أمك؟ قال ثم من؟ قال ثم أمك؟ قال ثم من؟ قال ثم أبوك» وفى رواية قال «أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك» قوله ثم أباك فيه حذف تقديره ثم بر أباك» (م) عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه قيل من يا رسول الله؟ قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة». قوله تعالى (وبذى القربى) أى وأحسنوا إلى ذى القرابة وهو ذوو رحمه من قبل أبيه وأمه (ق) عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه» قوله ينسأ له فى أثره يعنى يؤخر له فى أجله وعمره. وقوله تعالى (واليتامى والمساكين) أى وأحسنوا

إلى

ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عمرو بن زرارة أنا عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا» أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن مبارك عن يحيى بن أيوب عن عبد الله ابن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة تمر عليها يده حسنات ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وقرن بين أصبعيه» قوله تعالى (والجار ذى القربى) أى ذى القرابة (والجار الجنب) أى البعيد الذى ليس بينك وبينه قرابة أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن ابن أبي شريح أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى أنا عبد الله بن الجعد أنا شعبة عن أبي عمران الجونى قال سمعت طلحة قال قالت عائشة رضى الله عنها «يا رسول الله إن لى جارين فالى أيهما أهدى؟ قال إلى أقربهما منك بابا» أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق أنا يزيد ابن سنان، أخبرنا عثمان ابن عمر أخبرنا أبو عامر الخراز عن أبي عمران الجونى عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق وإذا طبخت مرقة فأكثر ماءها واغرف لجيرانك منها» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن منهال أنا يزيد بن زريع أنا عمرو بن محمد عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» قوله تعالى (والصاحب بالجنب) يعنى الرفيق فى السفر قاله ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة وقتادة وقال على وعبد الله والنخعى هو المرأة تكون معه إلى جنبه وقال ابن جريج وابن زيد هو الذى يصحبك رجاء نفعك (وابن السبيل)

إلى اليتامى وإنما أمر بالإحسان إليهم لأن اليتيم مخصوص بنوعين من العجز والصغر وعدم المشفق والمسكين هو الذى ركبه ذل الفاقة والفقر فتمسكن لذلك (خ) عن سهل بن سعد قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا» عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم «قال الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله وأحسبه قال وكالقائم الذى لا يفتر وكالصائم الذى لا يفطر» وقوله تعالى (والجار ذى القربى والجار الجنب) أى وأحسنوا إلى الجار ذى القربى وهو الذى قرب جواره منك والجار الجنب هو الذى بعد جواره عنك وقيل الجار ذو القربى هو القريب والجار الجنب هو الأجنبى الذى ليس بينك وبينه قرابة: (ق) عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» وعن عائشة مثله (خ) عن عائشة رضى الله عنها قالت «قلت يارسول الله إن لى جارين فالى أيهما أهدى قال إلى أقربهما بابا منك» (م) عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ياأباذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك» وفى رواية قال أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم «قال إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف» (ق) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل من يارسول الله؟ قال الذى لا يأمن جاره بوائقه» ولمسلم «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» البوائق الغوائل والشرور (ق) عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يانساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة» معناه ولو أن تهدى اليها فرسن شاة وهو الظلف وأراد به الشيء الحقير (ق) عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت». وقوله تعالى (والصاحب بالجنب) قال ابن عباس هو الرفيق فى السفر وقيل هى المرأة تكون معك إلى جنبك وقيل هو الذى يصحبك رجاء نفعك. عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره» أخرجه الترمذى وقال حديث حسن وقوله تعالى (وابن السبيل) يعنى المسافر المجتاز بك الذى قد انقطع به وقال الأكثرون المراد بابن السبيل الضيف يمر بك فتكرمه وتحسن إليه (ق) عن أبي شريح خويلد ابن عمرو العدوى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر

قيل هو المسافر لأنه ملازم السبيل والأكثرون على أنه الضيف. أخبرنا الأستاذ الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفرايني أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق أنا شعيب عن عمرو الدمشقى أخبرنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع نافع بن جبير عن أبى شريح الخزاعى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا مصعب عن مالك عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى شريح الكعبى أن رسول الله ﷺ قال «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام وما كان بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل أن يثوى أى أن يقيم عنده حتى يخرجه» قوله تعالى (وما ملكت أيمانكم) أى المماليك أحسنوا إليهم أخبرنا محمد ابن الحسن المروزى أخبرنا أبو العباس الطحان أنا أبو أحمد بن محمد بن قريش أنا على بن عبد العزيز المكى أنا أبو عبيدة القاسم ابن سلام أنا يزيد عن همام عن قتادة عن صالح أبى الخليل عن سفينة عن أم سلمة رضى الله عنها عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى مرض موته الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم فجعل يتكلم وما يفيض بها لسانه أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أخبرنا محمد بن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا عمرو ابن حفص أنا أبى أنا الأعمش عن المعرور عن أبى ذر رضى الله عنه قال رأيت أبا ذر وعليه برد وعلى غلامه برد فقلت لو أخذت هذا فلبسته كانت حلة وأعطيته ثوبا آخر فقال كان بينى وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنلت منها فذكرنى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال لى «ساببت فلانا قلت نعم قال أفنلت من أمه قلت نعم قال إنك امرؤ فيك جاهلية قلت على ساعتى هذه من كبر السن؟ قال نعم هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه» أخبرنا الإمام أبو على الحسين محمد القاضى أنا أبو طاهر الزيادى أخبرنا أبو بكر محمد بن عمرو بن حفص التاجر أنا سهل بن عمار أنا يزيد بن هارون أخبرنا صدقة بن موسى عن فرقد السنجى عن مرة الطيب عن أبى بكر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لا يدخل الجنة سيئ الملكة» (إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) المختال المتكبر والفخور

(٥٢٤)

فليكرم ضيفه جائزته قالوا وما جائزته يا رسول الله؟ قال «يومه وليلته والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه» وقال «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» زاد فى رواية ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه قال يا رسول الله وكيف يؤثمه قال يقيم عنده ولا شىء عنده يقريه به» قوله جائزته يومه وليلته الجائزة العطية أى يقرى الضيف ثلاثة أيام ثم يعطيه ما يجوز به من منهل إلى منهل وقيل هو أن يكرم الضيف فإذا سافر أعطاه ما يكفيه يوما وليلة حتى يصل إلى موضع آخر وقوله أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه أى يوقعه فى الإثم لأنه إذا أقام عنده ولم يقره أثم بذلك. وقوله تعالى (وما ملكت أيمانكم) يعنى المماليك فأحسنوا إليهم والإحسان إليهم أن لا يكلفهم ما لا يطيقون ولا يؤذيهم بالكلام الخشن وأن يعطيهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون إليه بقدر الكفاية عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا يدخل الجنة سيئ الملكة» أخرجه الترمذى عن رافع بن مكيث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «حسن الملكة نماء وسوء الخلق شؤم» أخرجه أبو داود وله عن على بن أبى طالب قال كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصلاة الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم» (ق) عن المعرور بن سويد قال رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه حلة مثلها فسألته عن ذلك فذكر أنه ساب رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بأمه فأتى الرجل النبى صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال له النبى صلى الله عليه وسلم «إنك امرؤ فيك جاهلية قلت على ساعتى هذه من كبر السن قال نعم هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه». وقوله تعالى (إن الله لا يحب من كان مختالا) المختال المتكبر العظيم فى نفسه الذى لا يقوم بحقوق الناس (فخورا) الفخور هو الذى يفتخر على الناس ويعدد مناقبه تكبرا وتطاولا على من دونه وقيل هو الذى يفتخر على عباد الله بما أعطاه الله من نعمه ولا يشكره عليها وإنما

الذي يفخر على الناس بغير الحق تكبرا ذكر هذا بعد ماذكر من الحقوق لأن المتكبر يمنع الحق تكبرا أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي أنا أبو طاهر الزيادي أنا محمد بن الحسن القطان أنا أحمد بن يوسف السلمي أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام ابن منبة أنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بينما رجل (٥٢٥) يتبختر في بردين وقد أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من جر ثوبه خيلاء لاينظر الله إليه يوم القيامة» (الذين يبخلون) البخل في كلام العرب منع السائل من فضل ماللديه وفي الشرع منع الواجب (ويأمرون الناس بالبخل) قرأ حمزة والكسائي بالبخل بفتح الباء والخاء وكذلك في سورة الحديد، وقرأ الآخرون بضم الباء وسكون الخاء نزلت في اليهود بخلوا ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم وكتموها وقال سعيد ابن جبير هذا في كتمان العلم وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن زيد نزلت في كردم بن زيد وحيي ابن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت وأسامة ابن حبيب ونافع بن أبي نافع وبحر بن عمر وكانوا يأتون رجالا من الأنصار ويخالطونهم فيقولون لاتنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر ولاتدرون مايكون فأنزل الله تعالى هذه الآية (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) يعني المال وقيل يبخلون بالصدقة (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) محل الذين نصب عطف على الذين الأول وقيل خفض

وإنما ختم الله هذه الآية بهذين الوصفين المذمومين لأن المختال الفخور يأنف من أقاربه الفقراء ومن جيرانه الضعفاء فلا يحسن اليهم ولا يلوي بنظره عليهم ولأن المختال هو المتكبر ومن كان متكبرا فلا يقوم بحقوق الناس (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا ينظر الله تعالى يوم القيامة إلى من جر ثوبه خيلاء» (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا» (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل جمته يختال في مشيته إذ خسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة» (خ) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الفخر والخيلاء في الفدادين من أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم الفدادون هم الفلاحون والحراثون وأصحاب الإبل والبقر المتكبرون منهما المتكبرون على الناس بهما» قوله عز وجل (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) نزلت في اليهود الذين بخلوا ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم فكتموها وعلى هذا يكون المراد بالبخل كتمان العلم وقال ابن عباس نزلت في كردم بن زيد وحيي بن أخطب ورفاعة بن زيد بن التابوت وأسامة بن حبيب ونافع ابن أبي نافع ويحيى بن عمر وكانوا يأتون رجالا من الأنصار ويخاطبونهم يقولون لهم لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر ولا تدرون مايكون فأنزل الله عز وجل هذه الآية وقيل يحتمل أن يكون المراد بالبخل كتمان العلم ومنع المال لأن البخل في كلام العرب منع السائل من فضل ماللديه وإمساك المقتنيات وفي الشرع البخل عبارة عن إمساك الواجب ومنعه وإذا كان ذلك أمكن حمله على منع المال ومنع العلم (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) يعني اليهود كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وماعندهم من العلم وقيل هم الأغنياء الذين كتموا الغنى وأظهروا الفقر وبخلوا بالمال (وأعتدنا للكافرين) يعني الجاحدين نعمة الله عليهم (عذابا مهينا) يعني في الآخرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خصلتان لايجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قوله عز وجل (والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس) يعني للفخار والسمعة وليقال ماأسخاهم وماأجودهم لايريدون بما أنفقوا وجه الله تعالى (م) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تبارك وتعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» نزلت هذه الآية في اليهود وقيل في المنافقين لأن الرياء ضرب من النفاق وقيل نزلت في مشركي مكة المنفقين أموالهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر) يعني ولايصدقون بتوحيد الله ولا بالمعاد الذي فيه جزاء الأعمال أنه كائن

عطف على قوله وأعتدنا للكافرين نزلت في اليهود وقال السدى في المنافقين وقيل مشركي مكة المنفقين على عداوة الرسول ﷺ
(ومن يكن الشيطان له قرينا) صاحبا وخليلا (فساء قرينا) أي فبئس الشيطان قرينا وهو نصب على التفسير وقيل على القطع
بالقاء الألف واللام كما تقول نعم رجلا عبد الله وكما قال تعالى بئس للظالمين بدلا وساء مثلا (وماذا عليهم) أي ما الذي عليهم
وأي شيء عليهم (لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما إن الله لا يظلم مثقال ذرة) ونظمه وماذا
عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا فان الله لا يظلم أي لا يبخس ولا ينقص أحدا من ثواب عمله مثقال ذرة وزن والذرة هي
النملة الحمراء الصغيرة وقيل الذر أجزاء الهباء في الكوة وكل جزء منها ذرة ولا يكون لها وزن وهذا مثل يريد أن الله لا يظلم
شيئا كما قال في آية أخرى إن الله لا يظلم الناس شيئا أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو عمر بكر بن محمد المزني أنا أبو
بكر محمد بن عبد الله الحفيد أنا الحسين بن الفضل البجلي أنا عفان أنا همام أنا قتادة عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال «إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة» قال وأما الكافر فيطعم بحسناته في
الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أبو الطيب الربيع بن محمد بن
أحمد بن حاتم البزار الطوسي أنا أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن يحيى حدثهم أخبرنا عبد الرزاق (ح) وأخبرنا أبو
سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أخبرنا جدى أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار، أنا أبو بكر
محمد بن زكريا العذافري
أخبرنا إسحاق بن إبراهيم
الدبري أنا عبد الرزاق
أنا معمر عن زيد بن
أسلم عن عطاء بن يسار عن
أبي سعيد الخدري رضي
الله عنه قال: قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم
«إذا خلص المؤمنون من
النار وأمنوا فما مجادلة
أحدكم لصاحبه في الحق
يكون له في الدنيا بأشد
مجادلة من المؤمنين
لربهم في إخوانهم الذين أدخلوا النار» قال يقولون ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا
ويصومون معنا ويحجون معنا فأدخلتهم النار قال فيقول الله لهم اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم
لا تأكل النار صورهم فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه ومنهم من أخذته إلى كعبيه فيخرجونهم، فيقولون ربنا قد
أخرجنا من أمرتنا قال ثم يقول ثم أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من الإيمان ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار حتى
يقول من كان في قلبه مثقال ذرة من خير قال أبو سعيد رضي الله عنه من لم يصدق هذا فليقرأ هذه الآية «إن الله لا يظلم مثقال
ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما» قال فيقولون ربنا أخرجنا من أمرتنا فلم يبق في النار أحد فيه خير
ثم يقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون وبقي أرحم الراحمين قال فيقبض قبضة من النار أو
قال قبضتين من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا لله خيرا قط قد احترقوا حتى صاروا حمما فيؤتى بهم إلى ماء الحياة فيصب
عليهم فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل قال فتخرج أجسادهم مثل اللؤلؤ في أعناقهم الخاتم مكتوب فيه هؤلاء عتقاء
الله فيقال لهم ادخلوا الجنة فما تمنيتم أو رأيتم من شيء فهو لكم قال فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحدا من العالمين؟ قال
فيقول فان عندي لكم أفضل منه فيقولون ربنا وما أفضل من ذلك فيقول رضاي عنكم فلا أسخط عليكم أبدا أخبرنا أبو بكر
محمد بن عبد الله بن أبي توبة أنا محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائي أنا عبد الله بن محمود أنا إبراهيم

(ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) يعني من يكن الشيطان صاحبه وخليله فبئس الصاحب
وبئس الخليل الشيطان وإنما اتصل الكلام هنا بذكر الشيطان تقريعا لهم على طاعة الشيطان
والمعنى من يكن عمله بما سول له الشيطان فبئس العمل عمله وقيل هذا في الآخرة يجعل الله
الشياطين قرناءهم في النار يقرن مع كل كافر شيطان في سلسلة من النار ثم وبخهم الله تعالى
وعيرهم على ترك الإيمان فقال تعالى (وماذا عليهم) يعني وأي شيء عليهم وأي وبال وتبعة
تلحقهم (لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) أي أي وبال عليهم في الإيمان بالله
والإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته (وكان الله بهم عليما) يعني لا يخفى عليه شيء من أعمال هؤلاء
الذين ينفقون أموالهم لأجل الرياء والسمعة ففيه وعيد وتهديد لهم. قوله عز وجل (إن الله
لا يظلم مثقال ذرة) نظم الكلام وماذا عليهم لو آمنوا وأنفقوا فان الله لا يظلم ولا يبخس ولا
ينقص أحدا من ثواب عمله مثقال ذرة يعني وزن ذرة وقال ابن عباس الذرة رأس نملة حمراء
وقيل الذرة كل جزء من أجزاء الهباء الذي يكون في الكوة إذا كان فيها ضوء الشمس لا وزن
لها وهذا مثل ضربه الله تعالى لأقل الأشياء والمعنى أن الله تعالى لا يظلم أحدا شيئا من قليل ولا كثير

فخرج

ابن عبد الله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن ليث بن سعد حدثنى عامر بن يحيى عن أبى عبد الرحمن المعافرى ثم الحبلى قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول الله أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول لايارب فيقول أفلك عذر أوحسنة؟ فبهت الرجل قال لايارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لاظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول إنك لاتظلم قال فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة قال فلا يثقل مع اسم الله شىء» وقال قوم هذا فى الخصوم وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد ألا من كان يطلب مظلمة فليجىء إلى حقه فليأخذه فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فليأخذ منه وإن كان صغيرا ومصداق ذلك فى كتاب الله تعالى فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ويؤتى بالعبد فينادى مناد على رءوس الأولين والآخرين هذا فلان ابن فلان فمن كان له عليه حق فليأت إلى حقه فيأخذه ويقال آت هؤلاء حقوقهم فيقول يارب من أين وقد ذهبت الدنيا فيقول الله عز وجل لملائكته انظروا فى أعماله الصالحة فأعطوهم منها فان بقى مثقال ذرة من حسنة قالت الملائكة ياربنا بقى له مثقال ذرة من حسنة فيقول ضعفوها لعبدى وأدخلوه بفضل رحمتى الجنة ومصداق ذلك فى كتاب الله تعالى إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها وإن كان عبدا شقيا قالت الملائكة إلهنا فنيت حسناته وبقى طالبون فيقول الله عز وجل خذوا من سيآتهم فأضيفوها إلى سيآته ثم صكوا له صكا إلى النار فمعنى الآية على هذا التأويل إن الله لايظلم مثقال ذرة للخصم على الخصم بل يأخذ له منه ولا يظلم مثقال ذرة تبقى له بل يثيبه عليها ويضعفها له فذلك قوله تعالى (وإن تك حسنة يضاعفها) قرأ أهل الحجاز

فخرج الكلام على أصغر شىء يعرفه الناس (وإن تك حسنة يضاعفها) يعنى الحسنة بعشر أمثالها وقيل هذا عند الحساب فمن بقى له من الحسنات مثقال ذرة ضاعفها الله له إلى سبعمائة وإلى أجر عظيم قال قتادة لأن تفضل حسناتى على سيئاتى بمثقال ذرة أحب إلى من الدنيا وما فيها (م) عن أنس بن مالك فى قوله تعالى إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله لايظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى الآخرة» «وأما الكافر فيعطى بحسنات قد عمل بها فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها» عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله تعالى سيخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول لايارب فيقول أفلك عذر؟ فيقول لايارب فيقول تعالى بلى إن لك عندنا حسنة فانه لاظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال فانك لاتظلم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شىء» أخرجه الترمذى (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم قيل يارسول الله وما الجسر قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوش فى نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذى نفسى بيده مامن أحد منكم بأشد منا شدة لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار» وفى رواية فما أنتم بأشد مناشدة فى الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار إذا رأوا أنهم قد نجوا فى إخوانهم يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا مابقى فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا

لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا وكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما فيقول الله تبارك وتعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر مايكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض فقالوا يارسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحدا من العالمين فيقول لكم عندى أفضل من هذا فيقولون ربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا لفظ مسلم وهو بعض حديث وقال بعضهم هذه الآية واردة فى الخصوم ويدل عليه ماروى عن عبد الله بن مسعود قال إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد من عند الله إلا من كان يطلب مظلمة فليجيء إلى حقه فليأخذه قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه وإن كان صغيرا ومصداق ذلك فى كتاب الله تعالى قوله تعالى « فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » ويؤتى بالعبد وينادى مناد على رءوس الأولين والآخرين هذا فلان ابن فلان من كان له عليه حق فليأت إلى حقه ثم يقال له آت هؤلاء حقوقهم فيقول أى رب من أين وقد ذهبت الدنيا؟ فيقول الله تبارك وتعالى للملائكته انظروا فى أعماله الصالحات فأعطوهم منها فان بقى مثقال ذرة من حسنة قالت الملائكة ياربنا وهو أعلم بذلك أعطينا كل ذى حق حقه وبقى له مثقال ذرة من حسنة فيقول للملائكة ضعفوها لعبدى وأدخلوه بفضل رحمتى الجنة ومصداق ذلك فى كتاب الله « إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما » أى الجنة وإن كان عبدا شقيا قالت الملائكة إلهنا فنيت حسناته وبقى طالبون كثير فيقول الله تبارك وتعالى « خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ثم اكتبوا له كتابا إلى النار » أخرجه البغوى بغير سند عن ابن مسعود موقوفا عليه وأسنده ابن جرير الطبرى عن ابن مسعود فمعنى الآية على هذا التأويل إن الله لايظلم مثقال ذرة للخصم على خصمه بل يأخذها له منه ولا يظلم مثقال ذرة تبقى له بل يثيبه عليها ويضاعفها له فذلك قوله تعالى « وإن تك حسنة يضاعفها » أى يجعلها أضعافا كثيرة (ويؤت من لدنه) يعنى من عنده (أجرا عظيما) يعنى الجنة والمعنى ويعط من عنده أجرا عظيما يعنى عوضا من حسنة وذلك العوض هو الجنة وقال أبو هريرة إذا قال الله عز وجل أجرا عظيما فمن يقدر قدره قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) يعنى فكيف يكون حال هؤلاء المشركين والمنافقين يوم القيامة إذا جئنا من كل أمة بشهيد قال ابن عباس يريد بنبيها والمعنى أنه يؤتى بنبى كل أمة يشهد عليها ولها (وجئنا بك) يامحمد (على هؤلاء شهيدا) يعنى تشهد على هؤلاء الذين سمعوا القرآن وخوطبوا به بما عملوا (ق) عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ على القرآن فقلت

حسنة بالرفع أى وإن توجد حسنة وقرأ الآخرون بالنصب على معنى وإن تك زنة الذرة حسنة يضاعفها أى يجعلها أضعافا كثيرة (ويؤت من لدنه أجرا عظيما) قال أبو هريرة رضى الله عنه إذا قال الله تعالى أجرا عظيما فمن يقدر قدره قوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) أى فكيف الحال وكيف يصنعون إذا جئنا من كل أمة بشهيد يعنى بنبيها يشهد عليهم بما عملوا (وجئنا بك) يامحمد (على هؤلاء شهيدا) شاهدا يشهد على جميع الأمة على من رآه ومن لم يره أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا محمد بن يوسف، أنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ على قلت يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل قال نعم فقرأت سورة النساء حتى إذا أتيت هذه الآية فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد

وجئنا بك على هؤلاء شهيدا قال حسبك الآن فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان قوله عز وجل (يومئذ) يوم القيامة (يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) قرأ أهل المدينة وابن عامر تسوى بفتح التاء وتشديد السين على معنى تتسوى فأدغمت التاء الثانية فى السين وقرأ حمزة والكسائى بفتح التاء وتخفيف السين على حذف تاء التفعل كقوله تعالى لاتكلم نفس إلا باذنه وقرأ الآخرون بضم التاء وتخفيف السين على المجهول أى لو سويت بهم الأرض وصاروا هم والأرض شيئا واحدا قال قتادة وأبو عبيدة يعنى لو تخرقت الأرض فساخوا فيها وعادوا إليها كما خرجوا عنها ثم تسوى بهم أى عليهم الأرض وقيل ودوا لو أنهم لم يبعثوا لأنهم إنما نقلوا من التراب وكانت الأرض مستوية عليهم وقال الكلبى يقول الله عز وجل للبهائم والوحوش والطيور والسباع كونوا ترابا فتسوى بهم الأرض فعند ذلك يتمنى الكافر أن لو كان ترابا كما قال الله تعالى ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا (ولا يكتمون الله حديثا) قال عطاء ودوا لو تسوى بهم الأرض وأنهم لم يكونوا كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ولا نعته وقال الآخرون بل هو كلام مستأنف يعنى ولا يكتمون الله حديثا لأن ماعملوه لايخفى على الله ولا يقدرون على كتمانه وقال الكلبى وجماعة ولا يكتمون الله حديثا لأن جوارحهم تشهد عليهم وقال سعيد ابن جبير قال رجل لابن عباس رضى الله عنهما إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف على قال هات ما اختلف عليك قال فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ولا يكتمون الله حديثا وقال والله ربنا ما كنا مشركين فقد كتموا وقال أم السماء بناها إلى قوله تعالى والأرض بعد ذلك دحاها وذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين إلى قوله طائعين فذكر فى هذه خلق الأرض قبل السماء وقال وكان الله غفورا رحيما وكان الله عزيزا حكيما فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس رضى الله عنهما فلا أنساب فى النفخة الأولى قال الله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون ثم فى النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قوله ما كنا مشركين ولا يكتمون الله حديثا فان الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقل لم نكن مشركين فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم فعند ذلك عرف أن الله لايكتم حديثا وعنده يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض وخلق الأرض فى يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن فى يومين آخرين ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى

يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال إنى أحب أن أسمعه من غيرى قال فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا قال حسبك الآن قال فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان زاد مسلم شهيدا مادمت فيهم أو قال ما كنت فيهم شك أحد رواته . وقوله تعالى (يومئذ) يعنى يوم القيامة (يود) أى يتمنى (الذين كفروا) يعنى جحدوا وحدانية الله تعالى (وعصوا الرسول) يعنى فيما أمرهم به من توحيد الله عز وجل (لو تسوى بهم الأرض) يعنى لو صاروا فيها وسويت عليهم وقيل أنهم ودوا أن لن يبعثوا لأنهم إنما كانوا فى الأرض وهى مستوية عليهم وقال الكلبى يقول الله تعالى للبهائم والوحوش والطيور والسباع كونى ترابا فتسوى بهن الأرض فعندذلك يتمنى الكافر أن لو يكون ترابا (ولا يكتمون الله حديثا) قال ابن عباس فى رواية عطاء ودوا لو تسوى بهم الأرض وأنهم لم يكونوا كتموا أمر محمد صلى الله عليه وسلم ولا كفروا به ولا نافقوه فعلى هذا القول يكون الكتمان ما كتموا فى الدنيا من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وهو كلام متصل بما قبله وقيل هو كلام مستأنف قال سعيد بن جبير سأل رجل ابن عباس فقال إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف على قال هات ما اختلف عليك قال منها قوله تعالى ولا يكتمون الله حديثا ومنها قوله تعالى والله ربنا ما كنا مشركين فقد كتموا فقال يغفر الله تعالى لأهل الإسلام ذنوبهم ويدخلهم الجنة فيقول المشركون تعالوا نقول ما كنا مشركين فيه ولوذ والله ربنا ما كنا مشركين رجاء أن يغفر لهم فيختم على أفواههم وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فعند ذلك عرفوا أن الله لايكتم حديثا وعنده يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض فلا يختلف عليك القرآن فان كلا من عند الله وقال الحسن إنها مواطن. فى موطن لايتكلمون ولا تسمع إلا همسا وفى موطن يتكلمون ويكذبون ويقولون والله ربنا ما كنا مشركين وما كنا نعمل من سوء وفى موطن يعترفون على أنفسهم وهو قوله تعالى فاعترفوا بذنبهم وفى موطن لايتساءلون وفى موطن يسألون الرجعة وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم

وخلق الجبال والأكام وما بينهما في يومين آخرين ثم دحا الأرض في يومين فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلقت السموات في يومين وكان الله غفورا رحيما أي لم يزل كذلك فلا يختلف عليك القرآن فان كلا من عند الله وقال الحسن أنها مواطن. ففي موطن لايتكلمون ولا تسمع إلا همسا وفي موضع يتكلمون ويكذبون ويقولون ماكنا مشركين وما كنا نعمل من سوء وفي موطن يعترفون على أنفسهم وهو قوله فاعترفوا بذنبهم وفي موطن لايتساءلون وفي موطن يتساءلون الرجعة وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم وهو قوله تعالى ولا يكتمون الله حديثا قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) الآية والمراد من السكر السكر من الخمر عند الأكثرين وذلك أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه صنع طعاما ودعا ناسا من أصحاب النبي ﷺ وأتاهم بخمر فشربوها قبل تحريم الخمر وسكروا فحضرت صلاة المغرب فقدموا رجلا ليصلي بهم فقرأ قل ياأيها الكافرون أعبد ماتعبدون بحذف لا هكذا إلى آخر السورة فأنزل الله تعالى هذه الآية وكانوا بعد نزول هذه الآية يجتنبون السكر أوقات الصلاة حتى نزل تحريم الخمر وقال الضحاك ابن مزاحم أراد به سكر النوم نهى عن الصلاة عند غلبة النوم أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو القاسم جعفر بن محمد ابن المغلس أنا هارون بن إسحاق الهمذاني أخبرنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فان أحدكم إذا صلى وهو ينعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه» قوله تعالى (حتى تعلموا ماتقولون ولا جنبا) نصب على الحال يعني ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب يقال رجل جنب وامرأة جنب ورجال جنب ونساء جنب وأصل الجنابة البعد وسمي جنبا لأنه يتجنب موضع الصلاة أو لمجانبته الناس وبعده منهم حتى يغتسل قوله تعالى (إلا عابري سبيل

فهو قوله تعالى ولا يكتمون الله حديثا. قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) جمع سكران (حتى تعلموا ماتقولون) سبب نزول هذه الآية ماروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال صنع لنا ابن عوف طعاما فدعانا فأكلنا وسقانا خمرا قبل تحريم الخمر فأخذت منا وحضرت الصلاة فقدموني فقرأت قل ياأيها الكافرون أعبد ماتعبدون ونحن نعبد ماتعبدون قال فخلطت فنزلت لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وأخرجه أبو داود ولفظه أن رجلا من الأنصار دعاه وعبد الرحمن بن عوف فسقاهما قبل أن تحرم الخمر فحضرت الصلاة فأمهم علي في المغرب فقرأ قل ياأيها الكافرون فخلط فيها فنزلت الآية لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس أن رجالا كانوا يأتون الصلاة وهم سكارى قبل أن تحرم الخمر فقال الله عز وجل ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى الآية فعلى هذا في المراد بالصلاة قولان: أحدهما أنه نفس الصلاة ذات الركوع والسجود وهو قول الأكثرين المعنى لاتصلوا وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون. والقول الثاني أن المراد بالصلاة موضع الصلاة وهو المسجد وإطلاق لفظ الصلاة على المسجد محتمل فيكون من باب حذف المضاف والمعنى لاتقربوا مواضع الصلاة وأنتم سكارى وحذف المضاف جائز سائغ ويدل عليه قوله تعالى لهدمت صوامع وبيع وصلوات والمراد بالصلوات مواضعها فثبت أن إطلاق لفظ الصلاة والمراد موضعها جائز واعلم أن هذا النهي عن قربان الصلاة في حالة السكر إنما كان قبل تحريم الخمر فكانوا يشربونها في غير أوقات الصلاة ثم نزل تحريم الخمر بعد ذلك ونسخت هذه الآية وقال الضحاك المراد بالسكر سكر النوم يعني لاتقربوا الصلاة عند غلبة النوم ويدل عليه ماروى عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد حتى يذهب عنه النوم فان أحدكم إذا صلى وهو ناعس لايدري لعله يذهب يستغفر ربه فيسب نفسه» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى (ولا جنبا) يعني ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب والجنب يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث لأنه اسم جرى مجرى المصدر الذي هو الإجناب وأصل الجنابة البعد سمي الذي أصابته الجنابة جنبا لأنه يتجنب الصلاة والمسجد وقيل لمجانبته الناس حتى يغتسل (إلا عابري سبيل) العابر هاهنا فاعل من العبور وهو قطع الطريق من هذا الجانب إلى الجانب الآخر واختلف العلماء في معنى قوله إلا عابري سبيل على قولين: أحدهما إن المراد بالعبور هو العبور في المسجد وذلك أن قوما من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فتصيبهم

حتى تغتسلوا) اختلفوا فى معناه فقال إلا أن تكونوا مسافرين ولا تجدون الماء فتيمموا منع الجنب من الصلاة حتى يغتسل إلا أن يكون فى سفر ولا يجد ماء فيصلى بالتيمم وهذا قول على وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد رضى الله عنهم وقال الآخرون بل المراد من الصلاة موضع الصلاة كقوله تعالى وبيع وصلوات ومعناه لاتقربوا المسجد وأنتم جنب إلا مجتازين فيه للخروج منه مثل أن ينام فى المسجد فيجنب أو يصيبه جنابة والماء فى المسجد أو يكون طريقه عليه فيمر به ولا يقيم. وهذا قول عبد الله بن مسعود وسعيد بن المسيب والضحاك والحسن وعكرمة والنخعى والزهرى وذلك أن قوما من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد فتصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم ولا ممر لهم إلا فى المسجد فرخص لهم فى العبور واختلف أهل العلم فيه فأباح بعضهم المرور فيه على الإطلاق وهو قول الحسن وبه قال مالك والشافعى رحمهم الله ومنع بعضهم على الإطلاق وهو قول أصحاب الرأى وقال بعضهم يتيمم للمرور فيه. أما المكث فيه فلا يجوز عند أكثر أهل العلم لما روينا عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال وجهوا هذه البيوت عن المسجد فانى لا أحل المسجد لحائض ولا جنب وجوز أحمد المكث فيه وضعف الحديث لأن راويه مجهول وبه قال المزنى ولا يجوز للجنب الطواف كما لا يجوز له الصلاة ولا يجوز له قراءة القرآن أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا عبد الرحمن بن أبى شريح أنا أبو القاسم البغوى أنا على بن الجعد أنا شعبة أخبرنى عمر بن مرة قال سمعت عبد الله بن سلمة يقول دخلت على على رضى الله عنه فقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى الحاجة ويأكل معنا اللحم ويقرأ القرآن وكان لايحجبه أولا يحجزه عن القرآن شىء ليس الجنابة وغسل الجنابة يجب بأحد الأمرين : إما بنزول المنى أو بالتقاء الختانين وهو تغييب الحشفة فى الفرج وإن لم ينزل وكان الحكم فى الابتداء أن من جامع امرأته فأكسل لا يجب عليه الغسل ثم صار منسوخا أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا سفيان عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب أن

الجنابة ولا ماء عندهم ولا ممر لهم إلا فى المسجد فرخص لهم العبور فيه فعلى هذا القول يكون المراد بالصلاة موضع الصلاة والمعنى لاتقربوا المسجد وأنتم جنب إلا مجتازين فيه للخروج منه أو للدخول فيه مثل أن يكون قد نام فى المسجد فأجنب فيجب الخروج منه أو يكون الماء فى المسجد فيدخل إليه أو يكون طريقه عليه فيمر فيه من غير إقامة وهذا قول ابن مسعود وأنس بن مالك والحسن وسعيد بن المسيب وعكرمة والضحاك وعطاء الخرسانى والنخعى والزهرى وإليه ذهب الشافعى وأحمد . القول الثانى أن المراد من قوله إلا عابرى سبيل المسافرون والمعنى لاتقربوا الصلاة وأنتم جنب إلا أن تكونوا مسافرين ولم تجدوا الماء فتيمموا فمنع الجنب من الصلاة حتى يغتسل إلا أن يكون فى سفر ولا ماء معه فيتيمم ويصلي إلى أن يجد الماء فيغتسل وهذا قول على وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة فمن جعل عابرى السبيل المسافرين منع الجنب من العبور فى المسجد وهو مذهب أبى حنيفة وصحح ابن جرير الطبرى الواحدى القول الأول ويدل على صحته وجهان : أحدهما أن المسافر الجنب لاتصح صلاته بدون التيمم ولم يذكر التيمم هاهنا فيحتاج إلى إضمار شيئين : عدم الماء وذكر التيمم وعلى القول الأول لايحتاج إلى إضمار شىء : الوجه الثانى أن الله تعالى ذكر حكم السفر وعدم الماء وجواز التيمم بعد هذا فلا يحل هذا على حكم معاد فى الآية ويدل على أن جميع القراء استحسنوا الوقف على قوله (حتى تغتسلوا) يعنى إلى أن تغتسلوا وفيه دليل على أن حكم الجنابة باق على الجنب إلى غاية هي الاغتسال .

(فصل فى أحكام تتعلق بالآية)

اختلف العلماء فى العبور في المسجد فاباحة قوم على الإطلاق وهو قول الحسن وبه قال مالك والشافعى ومنعه بعضهم على الإطلاق وهو قول أصحاب الرأى وقال قوم يتيمم للعبور فى المسجد واختلف العلماء فى المكث فى المسجد أيضا للجنب فمنعه أكثر أهل العلم وقالوا لايجوز للجنب المكث فى المسجد بحال لما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجوه بيوت أصحابه شارعة فى المسجد فقال وجهوا هذه البيوت عن المسجد ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصنع القوم شيئا رجاء أن تنزل لهم رخصة فخرج إليهم بعد فقال وجهوا هذه البيوت عن المسجد فانى لا أحل المسجد لحائض ولا جنب أخرجه أبو داود وجوز أحمد المكث فى المسجد بشرط الوضوء وبه قال المزنى من أصحاب الشافعي وأجاب أحمد عن حديث

أبو موسى الأشعري سأل عائشة رضى الله عنها عن التقاء الختانين فقالت عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقى الختانان أو مس الختان الختان فقد وجب الغسل قوله تعالى (وإن كنتم مرضى) جمع مريض وأراد به مرضا يضره إمساس الماء مثل الجدرى ونحوه أو كان على موضع الطهارة جراحة يخاف من استعمال الماء فيها التلف أو زيادة الوجع ، فانه يصلى بالتيمم وإن كان الماء موجودا (٥٣٢) وإن كان بعض أعضاء طهارته صحيحا والبعض جريحا غسل الصحيح منها وتيمم للجريح لما أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز الغاشانى أنا أبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمى أنا أبو على محمد ابن أحمد بن عمر اللؤلؤى أنا داود سليمان بن الأشعث السجستانى أنا موسى بن عبد الرحمن الأنطاكى أنا محمد بن سلمة عن الزبير بن حزيق عن عطاء عن جابر ابن عبد الله قال خرجنا فى سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه فى رأسه فاحتلم فسأل أصحابه هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ قالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك قال قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب شك؟ موسى على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده ولم يجوز أصحاب الرأى الجمع بين التيمم والغسل وقالوا إن كان أكثر أعضائه صحيحا غسل الصحيح ولا يتيمم عليه وإن كان الأكثر جريحا اقتصر على التيمم والحديث حجة لمن أوجب الجمع بينهما قوله تعالى (أو على سفر) أراد أنه إذا كان فى سفر طويلا كان أو قصيرا وعدم الماء فانه يصلى بالتيمم ولا إعادة عليه لما روى عن أبى ذر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم «أن الصعيد الطيب وضوء المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين فاذا وجد الماء فليمسه بشره» فان

عائشة بأنه فى رواته مجهول وقال عبد الحق لا يثبت من قبل إسناده واستدل أحمد لمذهبه بما روى عن عطاء بن يسار قال رأيت رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسون فى المسجد وهم مجنبون إذا توضؤا وضوء الصلاة أخرجه سعيد بن منصور فى مسنده واحتج لمذهب الجمهور بعموم الآية وبما روى عن أم سلمة قالت دخل النبى صلى الله عليه وسلم صرحة هذا المسجد فنادى بأعلى صوته أن المسجد لا يحل لجنب ولا حائض أخرجه ابن ماجه ويحرم على الجنب أيضا الطواف وقراءة القرآن كما يحرم عليه فعل الصلاة ويدل على ذلك أيضا ماروى عن على بن أبى طالب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى حاجته ثم يخرج فيقرأ القرآن ويأكل معنا اللحم ولا يحجبه وربما قال ولا يحجزه من القرآن شىء ليس الجنابة أخرجه أبو داود والنسائى والترمذى ولفظه كان يقرأ القرآن على كل حال مالم يكن جنبا وقال حديث حسن صحيح عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يقرأ الجنب ولا الحائض ولا النفساء من القرآن شيئا» أخرجه الدارقطنى ويجب الغسل بأحد شيئين : بانزال المنى وهو الماء الدافق أو بايلاج الحشفة فى الفرج وإن لم ينزل ويدل على ذلك ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاما قال يغتسل وعن الوجه يرى أنه احتلم ولا يجد بللا قال لا غسل عليه قالت أم سلمة والمرأة ترى ذلك أعليها غسل ؟ قال نعم؟ أخرجه أبو داود والترمذى (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل» زاد فى رواية وإن لم ينزل . وقوله تعالى (وإن كنتم مرضى) جمع مريض وأراد به المرض الذى يضر معه أمساس الماء مثل الجدرى وإحراق النار ونحو ذلك وإن كان على بعض أعضائه جراحة أو به قروح يخاف من استعمال الماء التلف أو زيادة الوجع فإنه يتيمم ويصلى مع وجود الماء وإن كان بعض أعضائه صحيحا وبعضها جريحا غسل الصحيح وتيمم للجريح فى الوجه واليدين لما روى عن جابر قال خرجنا فى سفرنا فأصاب رجلا منا حجرا فشجه فى رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر أو قال يعصب شك الراوى على جرحه خرقة ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده أخرجه أبو داود والدارقطنى ولم يجوز أصحاب الرأى الجمع بين الغسل والتيمم قالوا إذا كان أكثر أعضائه أو بدنه صحيحا غسل الصحيح ولا يتيمم عليه وإن كان الأكثر جريحا اقتصر على التيمم والحديث حجة لمن أوجب الجمع بين الغسل والتيمم . قوله تعالى (أو على سفر) يعنى أو كنتم مسافرين وأراد به السفر الطويل والقصير

ذلك خيرا ما إذا لم يكن الرجل مريضا ولا فى سفر لكنه عدم الماء فى موضع لايعدم فيه الماء غالبا بأن كان فى قرية انقطع ماؤها فانه يصلى بالتيمم ثم يعيد إذا قدر على الماء عند الشافعى وعند مالك والأوزاعى لاإعادة عليه وعند أبى حنيفة رضى الله عنهما يؤخر الصلاة حتى يجد الماء قوله تعالى (أو جاء أحد منكم من الغائط) أراد به إذا أحدث والغائط اسم للمطمئن من الأرض وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث فكنى عن الحدث بالغائط (٥٣٣) . (أو لامستم النساء) قرأ حمزة والكسائى لمستم هاهنا وفى المائدة وقرأ الباقون لامستم النساء واختلفوا فى معنى اللمس والملامسة فقال قوم هو المجامعة وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وكنى باللمس عن الجماع لأن الجماع لا يحصل إلا باللمس وقال قوم هما إلتقاء البشرتين سواء كان بجماع أو غير جماع وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبى والنخعى واختلف الفقهاء فى حكم هذه الآية فذهب جماعة إلى أنه إذا أفضى الرجل بشىء من بدنه إلى شىء من بدن المرأة ولا حائل بينهما ينتقض وضوءهما وهو قول ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهما وبه قال الزهرى والأوزاعى والشافعى رضى الله عنهما وقال مالك والليث بن سعد وأحمد وإسحاق إن كان اللمس بشهوة نقض الطهر وإن لم يكن بشهوة فلا ينتقض وقال قوم لا ينتقض الوضوء باللمس بحال وهو قول ابن عباس وبه قال الحسن والثورى وقال أبو حنيفة رضى الله عنه لاينتقض إلا إذا أحدث الانتشار واحتج من لم يوجب الوضوء باللمس بما أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن أبى النضر مولى عمر بن عبد الله عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم « أنها قالت كنت أنام بين يدى رسول الله

وعدم الماء فانه يتيمم ويصلى ولا إعادة عليه لما روى عن أبى ذر قال «اجتمعت غنيمة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبا ذر ابد فيها فبدوت إلى الربذة فكانت تصيبنى الجنابة فأمكث الخمس والست فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو ذر فسكت فقال ثكلتك أمك يا أبا ذر لأمك الويل فدعا بجارية سوداء فجاءت بعس فيه ماء فسترتنى بثوب واستترت بالراحلة فاغتسلت فكأنى ألقيت عنى جبلا فقال الصعيد الطيب وضوء المسلم ولو إلى عشر سنين فاذا وجدت الماء فأمسه جلدك فان ذلك خير أخرجه أبو داود العس قدح من فخار يجعل فيه الماء للوضوء والاغتسال. أما إذا لم يكن الرجل مريضا ولا على سفر وعدم الماء فى موضع لايعدم فيه غالبا فانه يتيمم ويصلى ثم يعيد إذا وجد الماء وقدر عليه وبه قال الشافعى وقال مالك والأوزاعى لاإعادة عليه وقال أبو حنيفة يؤخر الصلاة حتى يجد الماء. وقوله تعالى (أو جاء أحد منكم من الغائط) الغائط المكان المطمئن من الأرض وجمعه الغيطان وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث فكنوا به عن الحدث وذلك أن الرجل منهم كان إذا أراد قضاء الحاجة طلب غائطا من الأرض يعنى مكانا منخفضا من الأرض يحجبه عن أعين الناس فسمى الحدث بهذا الاسم فهو من باب تسمية الشىء باسم مكانه. وقوله تعالى (أو لامستم النساء) قرئ هنا وفى سورة المائدة لامستم النساء ولمستم بغير ألف واختلف العلماء فى معنى الملامسة على قولين أحدهما أنه الجماع وهو قول على وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ووجه هذا القول أن الله تعالى كنى باللمس عن الجماع لأن اللمس يوصل إليه قال ابن عباس إن الله حى كريم يكنى عن الجماع بالملامسة والقول الثانى أن المراد باللمس هنا التقاء البشرتين سواء كان بجماع أو بغير جماع وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبى والنخعى ووجه هذا القول أن اللمس حقيقة فى اللمس باليد فأما حمله على الجماع فمجاز والأصل حمل الكلام على الحقيقة لا على المجاز. وأما قراءة من قرأ أو لامستم فالملامسة مفاعلة من اللمس لاتدل على المجامعة أيضا على الإطلاق لأنه قد ورد فى الحديث النهى عن بيع الملامسة قال أبو عبيدة فى معناها هى أن يقول إذا لمست ثوبى أو لمست ثوبك فقد وجب البيع فالملامسة فى الحديث بمعنى اللمس باليد وإذا كانت مستعملة فى غير المجامعة لم يدل قوله تعالى (أو لامستم النساء) على صريح الجماع بل حمل على الأصل الموضوع له وهو اللمس باليد.

(فصل فى أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل)

(المسئلة الأولى): إذا أفضى الرجل بشىء من بدنه إلى شىء من بدن المرأة ولا حائل بينهما انتقض وضوءهما وهو قول ابن مسعود وابن عمر وبه قال الزهرى والأوزاعى والشافعى لما روى الشافعى بسنده عن ابن عمر أنه قال قبلة الرجل امرأته وجسها بيده من الملامسة فمن قبل امرأته

صلى الله عليه وسلم ورجلاى فى قبلته فاذا سجد غمزنى فقبضت رجلى وإذا قام بسطتهما قالت والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح

أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر ابن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن يحيي بن مسعود عن محمد ابن إبراهيم بن الحارث التيمى أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت كنت نائمة إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففقدته من الليل فلمسته بيدى فوقعت يدى على قدميه وهو ساجد وهو يقول «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» واختلف قول الشافعى رضى الله عنه فيما لو لمس امرأة من محارمه كالأم والبنت والأخت أو لمس أجنبية صغيرة أصح القولين أنه لا ينتقض الوضوء لأنها ليست بمحل الشهوة كما لو لمس رجلا واختلف قوله فى انتقاض وضوء الملموس على قولين: أحدهما ينتقض لاشتراكهما فى الالتذاذ كما يجب الغسل عليهما بالجماع والثانى لا ينتقض لحديث عائشة رضى الله عنها حيث قالت فوقعت يدى على قدميه وهو ساجد ولو لمس شعر امرأة أو سنها أو ظفرها لم ينتقض وضوءه عنده واعلم أن المحدث لا تصح صلاته مالم يتوضأ إذا وجد الماء أو يتيمم إذا لم يجد الماء

(٥٣٤) أخبرنا حسان بن سعيد المنيعى أخبرنا أبو طاهر الزيادى أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد ابن يوسف عن السلمى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه أنا أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ» والحدث هو خروج الخارج من أحد الفرجين عينا كان أو أثرا أو الغلبة على العقل بجنون أو إغماء على أى حال كان وأما النوم فمذهب الشافعى رضى الله عنه أنه يوجب الوضوء إلا أن ينام قاعدا ممكنا فلا وضوء

أوجسها بيده فعليه الوضوء أخرجه مالك فى الموطأ قال الشافعى وبلغنا عن ابن مسعود مثله وقال مالك والليث بن سعد وأحمد وإسحاق إذا كان اللمس بشهوة انتقض الوضوء وإن لم يكن بشهوة فلا ويدل عليه ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل امرأة من نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ» قال عروة ومن هى إلا أنت فضحكت أخرجه أبو داود وأجيب عن هذا الحديث بأنه ليس بثابت قال الترمذى إنه لا يصلح إسناده بحال وسمعت محمد ابن إسماعيل يضعف هذا الحديث وقال حبيب بن ثابت لم يسمع من عروة وضعف يحيى بن سعيد القطان هذا الحديث وقال هو شبه لاشىء وفيه ضعف من وجه آخر وهو أن عروة هذا ليس بعروة بن الزبير ابن أخت عائشة إنما هو شيخ مجهول قال البيهقى يعرف بعروة المزنى وإنما المحفوظ عن عائشة «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقبل وهو صائم» كذا رواه الثقات عن عائشة وقال أبو حنيفة لا ينتقض الوضوء باللمس إلا أن يحدث الانتشار وقال قوم لا ينتقض بحال وهو قول ابن عباس وبه قال الحسن والثورى واحتج من لم يوجب الوضوء باللمس بما روى عن عائشة أنها قالت «كنت أنام بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاى فى قبلته فاذا سجد غمزنى فقبضت رجلي فاذا قام بسطتهما والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح» أخرجاه فى الصحيحين وأجاب من أوجب الوضوء باللمس عن هذا الحديث بأنه يحتمل أن يكون غمزه لها على حائل .

(المسئلة الثانية): اختلف قول الشافعى فى لمس المحرم كالأم والبنت والأخت أو أجنبية صغيرة فأصح القولين عنه أنه لا ينتقض الوضوء به والثانى أنه ينتقض الوضوء به ومأخذ القولين عند أصحاب الشافعى التردد بين التعلق بعموم الآية فى قوله «أو لامستم النساء» أو النظر إلى المعنى فى النقض باللمس وهو تحرك الشهوة فان أخذنا بعموم الآية فينتقض الوضوء بلمس المحارم وإن أخذنا بالمعنى فلا ينتقض وفى الملموس قولان والملموس هو الذى لا فعل منه في المباشرة رجلا كان أو امرأة واللامس هو الفاعل اللمس وإن لم يقصد المباشرة فأحد القولين أنه ينتقض وضوء اللامس والملموس لعموم الآية لأنه لمس وقع بين الرجل والمرأة فينتقض وضوءهما معا والقول الثانى أنه ينتقض وضوء اللامس دون الملموس لما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت «فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوضعت يدى على أخمص قدميه وهو ساجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» أخرجه مسلم فلو انتقض وضوءه صلى الله عليه وسلم لقطع الصلاة ولو لمس شعر امرأة أو سنها أو ظفرها فلا وضوء عليه .

(المسئلة الثالثة فى الحدث) وهو الخارج من السبيلين عينا كالبول والغائط أو أثرا كالريح ونحوها فاذا حصل شىء من ذلك فلا تصح صلاته مالم يتوضأ أو يتيمم عند عدم الماء لماروى

عليه لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبد العزيز الخلال أنا أبو العباس الأصم أخبرنا الربيع أنا الشافعى أنا الثقة عن حميد الطويل عن أنس رضى الله عنهما قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرون العشاء فينامون أحسبه قال قعودا حتى تخفق رءوسهم ثم يصلون ولا يتوضئون وذهب قوم إلى أن النوم يوجب الوضوء بكل حال ، وهو قول أبى هريرة رضى الله عنه وعائشة رضى الله عنها وبه قال الحسن وإسحاق والمزنى وذهب قوم إلى أنه لو نام قائما أو قاعدا أو ساجدا فلا وضوء عليه حتى ينام مضطجعا وبه قال الثورى وابن المبارك وأصحاب الرأى واختلفوا فى مس الفرج من نفسه أو من غيره فذهب جماعة إلى أنه يوجب الوضوء وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس وسعد ابن أبى وقاص وأبى هريرة وعائشة رضى الله عنها وبه قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وعروة ابن الزبير وإليه ذهب الأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحاق وكذلك المرأة تمس فرجها غير أن الشافعى رضى الله عنه يقول لا ينتقض إلا أن تلمس ببطن الكف أو بطون الأصابع واحتجوا بما أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله ابن أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم أنه سمع عروة بن الزبير يقول دخلت على مروان بن الحكم فذكرنا ما يكون منه الوضوء فقال مروان من مس الذكر الوضوء فقال عروة ما علمت ذلك فقال مروان أخبرتنى بسرة بنت صفوان أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا مس أحدكم ذكره فليتوضأ » وذهب جماعة إلى أنه لا يوجب الوضوء روى ذلك عن على وابن مسعود وأبى الدرداء وحذيفة وبه قال الحسن وإليه ذهب الثورى وابن المبارك وأصحاب الرأى واحتجوا بما روى عن طلق بن على رضى الله عنه أن

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » فقال رجل من أهل حضرموت ما الحدث يا أبا هريرة ؟ قال فساء أو ضراط أخرجاه فى الصحيحين أما خروج النجاسة من غير السبيلين كالفصد والحجامة والرعاف والقىء ونحوها فذهب قوم إلى أنه لا وضوء من خروج هذه الأشياء يروى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وبه قال عطاء وطاوس والحسن وابن المسيب وإليه ذهب مالك والشافعى لما روى عن أنس قال « احتجم رسول الله ﷺ فصلى ولم يتوضأ ولم يزد على غسل محاجمه » أخرجه الدارقطنى وذهب قوم إلى إيجاب الوضوء من ذلك منهم سفيان الثورى وابن المبارك وأصحاب الرأى وأحمد وإسحاق واتفق هؤلاء على أن خروج القليل منه لا ينقض الوضوء ويدل على انتقاض الوضوء بخروج هذه الأشياء ما روى عن معدان بن أبى طلحة عن أبى الدرداء « أن النبى صلى الله عليه وسلم قاء فتوضأ قال معدان فلقيت ثوبان فى مسجد دمشق فذكرت له ذلك فقال صدق أنا صببت له وضوءه » أخرجه الترمذى وقال هو أصح شىء فى هذا الباب.

(المسئلة الرابعة) من نواقض الوضوء زوال العقل بجنون أو إغماء أو نوم لما روى عن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « العين وكاء السه فمن نام فليتوضأ » أخرجه أبو داود وابن ماجه ويستثنى من ذلك النوم اليسير قاعدا مفضيا بمحل الحدث إلى الأرض ويدل على ذلك ما روى عن أنس قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرون العشاء الأخيرة حتى تخفق رءوسهم ثم يصلون ولا يتوضئون أخرجه أبو داود وذهب قوم إلى أن النوم لا ينقض الوضوء بكل حال وهو قول أبى هريرة وعائشة وبه قال الحسن وإسحاق والمزنى وذهب قوم إلى أنه لو نام قائما أو قاعدا أو ساجدا وهو فى الصلاة فلا وضوء عليه حتى يضطجع وبه قال سفيان الثورى وابن المبارك وأصحاب الرأى لما روى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ليس على من نام ساجدا وضوء حتى يضطجع فإذا اضطجع استرخت مفاصله » أخرجه أحمد بن حنبل وضعف بعضهم هذا الحديث .

(المسئلة الخامسة) من نواقض الوضوء مس الفرج من نفسه أو غيره فذهب قوم إلى أنه يوجب الوضوء وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس وسعد بن أبى وقاص وأبى هريرة وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وإليه ذهب الأوزاعى والشافعى وأحمد وإسحاق غير أن الشافعى قال ينتقض الوضوء إذا لمس ببطن الكف والرجل والمرأة فى ذلك سواء ويدل على ذلك ما روى عن بسرة بنت صفوان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من مس ذكره فلا يصل حتى يتوضأ » أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح ولأبى داود والنسائى نحوه وعن أم حبيبة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من مس فرجه فليتوضأ » أخرجه ابن

النبي ﷺ سئل عن مس الرجل ذكره فقال هل هو إلا بضعة منك. ويروى هل هو إلا بضعة أو مضغة منه؟ ومن أوجب الوضوء منه قال هذا منسوخ بحديث بسرة لأن أبا هريرة يروى أيضا أن الوضوء من مس الذكر وهو متأخر الإسلام وكان قدوم طلق ابن على على رسول الله ﷺ أول زمن الهجرة حين كان يبنى المسجد واختلفوا فى خروج النجاسة من غير الفرجين بالفصد والحجامة وغيرهما من القىء ونحوه فذهب جماعة إلى أنه لايوجب الوضوء روى ذلك عن عبد الله بن عمر وعبدالله بن عباس وبه قال عطاء وطاوس والحسن وسعيد بن المسيب وإليه ذهب مالك والشافعى رحمهما الله، وذهبت جماعة إلى إيجاب الوضوء بالقىء والرعاف والفصد والحجامة منهم سفيان الثورى وابن المبارك وأصحاب الرأى وأحمد وإسحاق . واتفقوا على أن القليل منه وخروج الريح من غير السبيلين لايوجب الوضوء ولو أوجب الوضوء كثيره لأوجب قليله الوضوء كالفرج (فلم تجدوا ماء فتيمموا) إعلم أن التيمم من خصائص هذه الأمة روى حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء» وكان بدء التيمم ما أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى أخبرنا أبو على زاهر بن أحمد السرخسى أخبرنا أبو إسحاق ابراهيم بن عبدالصمد الهاشمى أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لى فأقام رسول الله ﷺ على إلتماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس أبا بكر رضى الله عنه فقالوا ألا ترى ماصنعت عائشة أقامت برسول الله ﷺ وبالناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر رضى الله عنه ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذى قد نام فقال أحبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت فعاتبنى أبو بكر رضى الله عنه وقال ماشاء الله أن يقول : وجعل يطعن بيده فى خاصرتى فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبح على غير ماء فأنزل الله تعالى آية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء ماهى بأول بركتكم يا آل أبا بكر قالت عائشة رضى الله عنها فبعثنا البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته» وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا عبيد بن إسماعيل أنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا من أصحابه فى طلبها فأدركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء فلما أتوا النبى صلى الله عليه وسلم شكوا ذلك إليه فنزلت آية التيمم فقال أسيد بن حضير جزاك الله خيرا فوالله مانزل بك أمر قط إلا جعل الله لك منه مخرجا وجعل للمسلمين فيه بركة فتيمموا أى أقصدوا (صعيدا طيبا) أى ترابا طيبا طاهرا نظيفا قال ابن عباس رضى الله عنهما الصعيد هو التراب واختلف أهل العلم فيما يجوز به التيمم

ماجه وصححه أحمد وأبوزرعة وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من أفضى بيده إلى ذكره وليس دونه ستر فقد وجب عليه الوضوء» أخرجه أحمد بن حنبل وذهب قوم إلى أن مس الذكر لايوجب الوضوء وهو قول على وابن مسعود وأبى الدرداء وحذيفة وبه قال الحسن وإليه ذهب الثورى وابن المبارك وأصحاب الرأى واحتجوا بما روى عن طلق بن على قال قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل كأنه بدوى فقال «يانبى الله ماترى فى مس الرجل ذكره بعدما توضأ قال هل هو إلا مضغة أوقال بضعة منه؟» أخرجه أبوداود وللترمذى والنسائى نحوه بمعناه وأجاب من أوجب الوضوء على من مس الذكر عن حديث طلق بن على بأن قدومه على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى أول الهجرة وهو يبنى المسجد وأبو هريرة من آخرهم إسلاما وقد روى انتقاض الوضوء بمس الذكر فصار حديث أبى هريرة ناسخا لحديث طلق بن على وأيضا فان حديث طلق يرويه عنه ابنه قيس بن طلق وهو ليس بالقوى عند أهل الحديث . وقوله تعالى (فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا) اعلم أن التيمم من خصائص هذه الأمة خصها الله تعالى به ليسهل عليهم أسباب العبادة ويدل على ذلك ماروى عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء» أخرجه مسلم وكان سبب بدء التيمم ماروى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت «خرجنا مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقد لى فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبى بكر الصديق فقالوا ألا ترى إلى ماصنعت عائشة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذى قد نام فقال حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت عائشة فعاتبنى أبو بكر وقال ماشاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده فى خاصرتى فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح على غير ماء فأنزل الله عز وجل آية التيمم فتيمموا فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء ماهى بأول بركتكم ياآل أبى بكر قالت عائشة فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته » أخرجاه فى الصحيحين قولها بالبيداء البيداء: المفازة والقفر وكل صحراء فهى بيداء وجمعها بيد وذات الجيش اسم لموضع وهو على بريد من المدينة وقولها فبعثنا البعير أى أثرناه قوله تعالى «فلم تجدوا ماء» هومعطوف على ماقبله والمعنى أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فطلبتم الماء لتطهروا به فلم تجدوه يعنى فأعوزكم فلم تجدوه بثمن ولا بغير ثمن لأن المحدث مأمور بالتطهر بالماء فاذا أعوزه الماء عدل عنه إلى التيمم بعد طلب الماء قال الشافعى إذا دخل وقت الصلاة طلب الماء فان لم يجده تيمم وصلى ثم إذا دخل وقت الصلاة الثانية وجب عليه الطلب مرة أخرى. وقال أبوحنيفة لايجب عليه الطلب للصلاة الثانية حجة الشافعى قوله تعالى فلم تجدوا ماء فعدم الوجدان مشعر بسبق الطلب فلا بد فى كل مرة من سبق الطلب وأجمعوا على أنه لو وجد الماء لكنه يحتاج إليه لعطشه أو عطش حيوان محترم فانه يجوز له التيمم مع وجدان ذلك الماء وقوله تعالى فتيمموا صعيدا طيبا أصل التيمم فى اللغة القصد يقال تيممت فلانا إذا قصدته وهو فى الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة عند عدم الماء لتأدية الصلاة واختلفوا فى الصعيد الطيب فقال قتادة الصعيد الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات وقال ابن زيد الصعيد المستوى من الأرض وكذلك قال الليث الصعيد الأرض المستوية التى لاشىء فيها وقال الفراء الصعيد هو التراب وكذلك قال أبو عبيد فى قوله صلى الله عليه وسلم «إياكم والقعود بالصعدات» قال الصعدات الطرق مأخوذ من الصعيد وهو التراب وقيل الصعيد وجه الأرض البارز وهو اختيار الزجاج قال الصعيد وجه الأرض ولاتبال أكان فى الموضع تراب أولا لأن الصعيد ليس هو التراب إنما هو وجه الأرض ونقل الربيع عن الشافعى فى تفسير الصعيد قال لايقع اسم الصعيد إلا على تراب ذى غبار فأما البطحاء الغليظة والرقيقة فلا يقع عليها اسم الصعيد فان خالطه تراب أو مدر يكون له غبار كالذى خالطه هو الصعيد قال ولا يتيمم بنورة ولا كحل ولا زرنيخ كل هذا حجارة هذا كلام الشافعى فى تفسير الصعيد وهو القدوة فى اللغة وقوله فى ذلك حجة وقد وافقه على ذلك الفراء وأبو عبيدة فى أنه التراب وجميع الأقوال فى الصعيد صحيحة فى اللغة لكن المراد به هنا التراب وقد قال ابن عباس فى قوله صعيدا هو التراب. واختلف أهل العلم فيما يجوز به التيمم فذهب الشافعى إلى أنه يختص بما وقع عليه اسم التراب مما له غبار يعلق بالوجه واليدين لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال «جعلت لى الأرض مسجدا وترابها طهورا» فخص التراب

فذهب الشافعى رحمه الله تعالى إلى أنه يختص بما يقع عليه اسم التراب مما يعلق باليد منه غبار لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « وجعلت تربتها لنا طهورا » وجوز أصحاب الرأى التيمم بالزرنيخ والجص والنورة وغيرها من طبقات الأرض حتى قالوا لو ضرب يديه على صخرة لاغبار عليها أو على التراب ثم نفخ فيه حتى زال التراب كله فمسح به وجهه ويديه صح تيممه وقالوا الصعيد وجه الأرض لما روى عن جابر رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا»

بالطهور ولأن الله تعالى وصف الصعيد بالطيب والطيب من الأرض هو الذى ينبت فيها بدليل قوله والبلد الطيب يخرج نباته فعلى هذا مالا ينبت ليس بطيب ولنا أيضا قوله تعالى فى سورة المائدة فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه وكلمة من للتبعيض هنا ولايتأتى ذلك فى الصخر الذي لاتراب عليه وأيضا فانه يقال للغبار صعيد لأنه مأخوذ من الصعود وهو الارتفاع ولا يكون ذلك فى الصخر وما أشبهه وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنه يجوز التيمم بكل ماهو من جنس الأرض كالرمل والجص والنورة والزرنيخ ونحو ذلك حتى لو ضرب يده على صخرة ملساء لاغبار عليها صح تيممه عندهم واحتج أبو حنيفة ومن وافقه بظاهر الآية قالوا لأن التيمم هو القصد والصعيد اسم لما تصاعد من الأرض فقوله تعالى فتيمموا صعيدا طيبا أى اقصدوا أرضا فوجب أن يكون هذا القدر كافيا وأجيب عنه بما تقدم من الدليل فى قوله منه وإن لفظة من تكون للتبعيض قالوا ولما روى عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا» وأجيب عنه بأن هذا مجمل يفسره ماتقدم من حديث حذيفة فى تخصيص التراب والمفسر يقضى على المجمل وجوز بعضهم التيمم بكل ماهو متصل بالأرض من شجر ونبات ومدر ونحو ذلك قالوا لأن اسم الصعيد يقع على ماتصاعد على الأرض وأجيب عنه بما تقدم من الأدلة . وقوله تعالى (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) الوجه الممسوح فى التيمم هو المحدود فى الوضوء واختلف العلماء فيما يجب مسحه من اليد فذهب أكثر أهل العلم منهم ابن عمر وابنه سالم والحسن وهو مذهب أبى حنيفة والشافعى أنه يمسح الوجه واليدين إلى المرافقين بضربتين وصورة ذلك أن يضرب كفيه على التراب ويمسح بهما وجهه ولا يجب إيصال التراب إلى منابت الشعور ثم يضرب ضربة أخرى ويفرق أصابعه فيمسح يديه إلى المرفقين ويدل على ذلك ماروى عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم «التيمم ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين» رواه البيهقى ولم يضعفه وروى الشافعى عن إبراهيم بن محمد عن أبى الحويرث عن الأعرج عن ابن الصمة قال مررت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبول فسلمت عليه فلم يرد على حتى قام إلى الجدار فحته بعصا كانت معه ثم وضع يده على الجدار فمسح وجهه وذراعيه ثم رد على هذا حديث منقطع لأن الأعرج وهو عبد الرحمن بن هرمز لم يسمع هذا من ابن الصمة وإنما سمعه من عمير مولى ابن عباس عن ابن الصمة وكذا هو مخرج فى الصحيحين عن عمير مولى ابن عباس قال دخلنا على أبى جهيم بن الحارث فقال أبو جهيم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من نحو بئر جمل فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم حتى أقبل على الجدار فوضع يده على الحائط فمسح بوجهه ويديه ثم رد عليه السلام ولأبى داود عن نافع قال انطلقت مع ابن عمر فى حاجة إلى ابن عباس فلما أن قضى حاجته فكان من حديثه يومئذ أن قال مر رجل فى سكة من سكك المدينة فلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من غائط أو بول فسلم عليه الرجل فلم يرد عليه حتى إذا كاد الرجل أن يتوارى فى السكة ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على حائط ومسح بها وجهه ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ثم رد عليه السلام وقال لم يمنعنى إن أرد عليك أولا إلا أنى لم أكن على طهر وفى رواية فمسح ذراعيه إلى المرفقين فهذا أجود ما فى هذا الباب فان البيهقى أشار إلى صحة إسناده وفيه دليل على الحكمين يعنى مسح الوجه واليدين بضربتين وإيصال المسح إلى المرفقين وفيه دليل على أن التيمم لايصح مالم يعلق بالوجه واليدين غبار التراب لأن النبي صلى الله عليه وسلم حت الجدار بالعصى ولو كان مجرد الضرب كافيا

وهذا مجمل وحديث حذيفة فى تخصيص التراب مفسر والمفسر من الحديث يقضى على المجمل وجوز بعضهم بكل ماهو متصل بالأرض من شجر ونبات ونحوهما وقال إن الصعيد اسم لما تصاعد على وجه الأرض والقصد إلى التراب شرط لصحة التيمم لأن الله تعالى قال فتيمموا والتيمم القصد حتى لو وقف فى مهب الريح فأصاب الغبار وجهه ونوى لم يصح قوله تعالى (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم

إن الله كان عفوا غفورا) اعلم أن مسح الوجه واليدين واجب في التيمم واختلفو في كيفيته فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يمسح الوجه واليدين مع المرفقين بضربتين يضرب كفيه على التراب فيمسح بهما جميع وجهه ولا يجب إيصال التراب إلى ماتحت الشعور ثم يضرب ضربة أخرى فيمسح يديه إلى المرفقين لما أخبرنا عبد الوهاب ابن محمد بن الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا إبراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عن الأعرج عن أبي الصمة قال مررت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبول فسلمت عليه فلم يرد علي حتى قام إلى جدار فحته بعصا كانت معه ثم وضع يديه على الجدار فمسح وجهه وذراعيه ثم رد علي السلام ففيه دليل على وجوب مسح اليدين إلى المرفقين كما يجب غسلهما في الوضوء إلى المرفقين ودليل على أن التيمم لايصح مالم يعلق باليد غبار التراب لأن النبي ﷺ حت الجدار بالعصا ولو كان مجرد الضرب كافيا لما كان حته وذهب الزهري إلى أنه يمسح اليدين إلى المنكبين لما روى عن عمار

لما كان حته وذهب الزهري إلى أنه يمسح اليد إلى المنكبين ويدل على ذلك ماروى عن عمار بن ياسر قال تمسحوا وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصعيد لصلاة الفجر فضربوا بأكفهم الصعيد ثم مسحوا بوجوههم مسحة واحدة ثم عادوا فضربوا بأكفهم الصعيد مرة أخرى فمسحوا بأيديهم كلها إلى المناكب والإباط ثم بطون أيديهم أخرجه أبو داود وذهب جماعة إلى أن التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين وهو قول علي وابن عباس وبه قال الشعبي وعطاء ومكحول وإليه ذهب الأوزاعي ومالك وأحمد وإسحاق وداود الظاهري واحتجوا بما روى عن عمار بن ياسر قال بعثني النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة فأجنبت فلم أجد الماء فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه وباطنهما ووجهه وفي رواية أن تقول هكذا وضرب بيديه الأرض فنفض يديه فمسح وجهه وكفيه أخرجاه في الصحيحين وجملته إن اليد اسم لهذه الجارحة وحدها عند بعض أهل اللغة من أطراف الأنامل إلى الكوع وهذا هو المقطوع في حد السرقة وقال أبو إسحاق الزجاج حدها من أطراف الأنامل إلى الكتف فمن ذهب إلى أن الممسوح في التيمم هو الكف قال إن حد اليد هو المقطوع في حد السرقة ومن ذهب إلى أن الممسوح في التيمم إلى المناكب والآباط نظر إلى أن مسمى اليد يطلق على جميعها ومن ذهب إلى أن الممسوح في التيمم إلى المرفقين قال إن التيمم بدل عن الوضوء واليد المغسولة في الوضوء هي الممسوحة في التيمم فيحمل المطلق الذي في قوله تعالى فامسحوا بوجوهكم وأيديكم على المقيد الذي في قوله تعالى في آية الوضوء فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأجاب من ذهب إلى هذا عن حديث عمار بأن المراد منه بيان صورة الضرب وليس المراد منه جميع مايحصل به التيمم .

(فصل) وأركان التيمم خمسة : الأول تراب طاهر خالص له غبار يعلق بالوجه واليدين ويجوز بالرمل إذا كان عليه غبار. الثاني قصد الصعيد فلو تعرض لمهب الريح لم يكفه ولو يممه غيره باذنه مع عجزه جاز وإن كان قادرا فوجهان . الثالث نقل التراب إلى الوجه واليدين. الرابع نية استباحة الصلاة فلو نوى رفع الحدث لم يصح وأكمله أن ينوي استباحة الفرض والنفل . الخامس مسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين والترتيب ولا يصح التيمم لصلاة إلا بعد دخول وقتها ولا يجوز الجمع بين صلاتي فرض بتيمم واحد وهو قول علي وابن عباس وابن عمر وبه قال الشعبي والنخعي وقتادة وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وذهب جماعة إلى أن التيمم كالوضوء فيجوز تقديمه على الوقت ويجوز أن يصلي به ماشاء من الفرائض مالم يحدث وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والزهري والثوري وأصحاب الرأي واتفقوا على أنه يجوز أن يصلي بتيمم واحد ماشاء من النوافل قبل الفرض وبعده إلى أن يدخل وقت الصلاة الأخرى وأن يقرأ القرآن إن كان جنبا ويشترط طلب الماء في السفر بأن يطلبه في رحله وعند رفقائه وإن كان في صحراء ولا حائل دون نظره نظر حواليه وإن كان دون نظره حائل قريب من تل أو جدار أو نحوه عدل عنه لأن الله تعالى قال فلم تجدوا ماء فتيمموا ولا يقال لم يجد إلا لمن طلب ولا يشترط طلب عند أبي حنيفة فان رأى الماء ولا يقدر عليه لمانع من عدو أو سبع يمنعه من الذهاب إليه أو كان الماء في بئر وليس معه آلة الاستقاء فهو كالعادم فيتيمم ويصلي ولا إعادة عليه والله أعلم . وقوله تعالى (إن الله كان عفوا) يعني يتجاوز عن ذنوب عباده ويعفو ويصفح عنهم (غفورا) ستورا على عباده يغفر الذنوب ويسترها وفيه تنبيه على

لله قال تيممنا إلى المناكب وذلك حكاية فعله لم ينقله عن النبي صلى الله عليه وسلم كما روى أنه قال أجنبت فتمكعت فى التراب فلما سأل النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالوجه والكفين وذهب جماعة إلى أن التيمم ضربة واحدة للوجه والكفين وهو قول على وابن عباس رضى الله عنهم وبه قال الشعبي وعطاء بن أبى رباح ومكحول ، وإليه ذهب الأوزاعى وأحمد وإسحاق واحتجوا بما أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا آدم أنا شعبة أخبرنا الحكم عن ذر عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه قال جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال إنى أجنبت فلم أصب الماء فقال عمار بن ياسر لعمر بن الخطاب أما تذكر إنا كنا فى سفر أنا وأنت فأما أنت فلم تصل وأما أنا فتمكعت فصليت فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يكفيك هكذا فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه وقال محمد بن إسماعيل أنا محمد بن كثير عن شعبة بإسناده فقال عمار لعمر رضى الله عنه تمكعت فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال يكفيك الوجه والكفان وفى الحديث دليل على أن الجنب إذا لم يجد الماء يصلى بالتيمم وكذلك الحائض والنفساء إذا طهرتا وعدمتا الماء، وذهب عمر وابن مسعود رضى الله عنهما إلى أن الجنب لا يصلى بالتيمم بل يؤخر الصلاة إلى أن يجد الماء فيغتسل وحملا قوله تعالى أو لمستم النساء على اللمس باليد دون الجماع وحديث عمار رضى الله عنه حجة وكان عمر نسى ما ذكر له عمار فلم يقنع بقوله ، وروى أن ابن مسعود رضى الله عنه رجع عن قوله وجوز التيمم للجنب والدليل عليه أيضا ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا إبراهيم بن محمد عن عباد بن منصور عن أبى رجاء العطاردى عن عمران بن حصين رضى الله عنهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر رجلا كان جنبا أن يتيمم ثم يصلى فإذا وجد الماء اغتسل وأخبرنا عمر بن عبد العزيز أنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمى أنا أبو على اللؤلؤى أنا أبو داود السجستانى أنا مسدد أنا خالد الواسطى عن خالد الحذاء عن أبى عمرو ابن بجدان عن أبى ذر رضى الله عنهم قال اجتمعت غنيمة من الصدقة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «يا أبا ذر أبد فيها» فبدوت إلى الربذة وكانت تصيبنى الجنابة فأمكث الخمس والست فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو ذر فسكت فقال «ثكلتك أمك يا أبا ذر لأمك الويل فدعا بجارية سوداء فجاءت بعس فيه ماء فسترتنى بثوب واستترت بالراحلة فاغتسلت فكأنى ألقيت عنى جبلا» فقال الصعيد الطيب وضوء المسلم ولو إلى عشر سنين فإذا وجدت الماء فأمسه جلدك فإن ذلك خير ومسح الوجه واليدين فى التيمم تارة يكون بدلا عن غسل بعض أعضاء الطهارة بأن يكون على بعض أعضاء طهارته جراحة لا يمكنه غسل محلها فعليه أن يتيمم بدلا عن غسله ولا يصح التيمم لصلاة الوقت إلا بعد دخول الوقت ولا يجوز أن يجمع بين فريضتين بتيمم واحد لأن الله تعالى قال «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم إلى أن قال فلم تجدوا ماء فتيمموا» ظاهر الآية يدل على وجوب الوضوء أو التيمم إذا لم يجد الماء عند كل صلاة إلا أن الدليل قد قام فى الوضوء فإن النبي ﷺ صلى يوم فتح مكة الصلوات بوضوء واحد فبقى التيمم على ظاهره وهذا قول على وابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم وبه قال الشعبي والنخعى وقتادة وإليه ذهب مالك والشافعى وأحمد وإسحاق وذهب جماعة إلى أن التيمم كالطهارة بالماء يجوز تقديمه على وقت الصلاة ويجوز أن يصلى به ما شاء من الفرائض ما لم يحدث وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والزهرى والثورى وأصحاب الرأى واتفقوا على أنه يجوز أن يصلى بتيمم واحد مع الفريضة ما شاء من النوافل قبل الفريضة وبعدها وأن يقرأ القرآن إن كان جنبا وإن كان تيممه بعذر السفر وعدم الماء فيشترط طلب الماء وهو أن يطلبه فى رحله ومن رفقائه وإن كان فى صحراء ولا حائل دون نظره ينظر حواليه وإن كان دون نظره حائل قريب من تل أو جدار عدل عنه لأن الله تعالى قال فلم تجدوا ماء فتيمموا ولا يقال لم يجد إلا لمن طلب وعند أبى حنيفة رضى الله عنه طلب الماء ليس بشرط فإن رأى الماء ولكنه بينه وبين الماء حائل من عدو أو سبع يمنعه من الذهاب إليه أو كان الماء فى البئر وليست معه آلة الاستقاء فهو كالمعدوم يصلى بالتيمم ولا إعادة عليه قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) يعنى يهود المدينة

أن الله تعالى رخص لعباده أمر العبادة ويسرها عليهم لأن من كانت عادته أن يغفر الذنوب ويعفو عنها كان أولى بأن يرخص للعاجزين أمر العبادة قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) نزلت فى يهود المدينة وقال ابن عباس نزلت فى رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم اليهوديين

اليهوديين كانا إذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لويا ألسنتهما وعاباه فأنزل الله تعالى ألم تر يعنى ألم ينته علمك يامحمد إلى هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يعنى أعطوا حظا من علم التوراة وذلك أنهم عرفوا نبوة موسى من التوراة وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم منها فلذلك أتى بمن التى هى للتبعيض وقيل إنهم علموا التوراة ولم يؤتوا العمل بها (يشترون الضلالة) يؤثرون تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم ليأخذوا بذلك الرشا وتحصل لهم الرياسة وإنما ذكر بلفظ الشراء لأنه استبدال شىء بشىء وقيل فيه إضمار يعنى يستبدلون الضلالة بالهدى (ويريدون) يعنى اليهود (أن تضلوا السبيل) يعنى عن السبيل والمعنى أنهم يتوصلون إلى إضلال المؤمنين والتلبيس عليهم لكى يجتنبوا الإسلام (والله أعلم بأعدائكم) يعنى أنه سبحانه وتعالى أعلم بكنه مافى قلوب اليهود من العداوة والبغضاء لكم يامعشر المؤمنين فلا تنصحوهم فانهم أعداؤكم (وكفى بالله وليا) يعنى متوليا أمركم والقائم به ومن كان الله تعالى وليه لم يضره أحد (وكفى بالله نصيرا) يعنى فهو ينصركم عليهم فثقوا بولايته ونصره . وقوله تعالى (من الذين هادوا) قيل هو بيان للذين أوتوا نصيبا من الكتاب والتقدير ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من الذين هادوا وقيل هو متعلق بما قبله والتقدير وكفى بالله نصيرا من الذين هادوا وقيل هو ابتداء كلام وفيه حذف تقديره من الذين هادوا قوم (يحرفون الكلم) أى يزيلونه ويغيرونه ويبدلونه (عن مواضعه) يعنى يغيرون صفة محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة وقال ابن عباس كانت اليهود يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألونه عن الأمر فيخبرهم به فيرى أنهم يأخذون بقوله فاذا خرجوا من عنده حرفوا كلامه وقيل المراد بالتحريف إلقاء الشبهة الباطلة والتأويلات الفاسدة وهو تحريف اللفظ عن معناه الحق إلى معنى باطل (ويقولون سمعنا وعصينا) يعنى سمعنا قولك وعصينا أمرك وذلك أنهم كانوا إذا أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بأمر قالوا فى الظاهر سمعنا وقالوا فى الباطن عصينا وقيل إنهم كانوا يظهرون ذلك القول عنادا واستخفافا (واسمع غير مسمع) هذه كلمة تحتمل المدح والذم فأما معناها فى المدح اسمع غير مسمع مكروها وأما معناها فى الذم فانهم كانوا يقولون اسمع منا ولا نسمع منك وقيل إنهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم اسمع ثم يقولون فى أنفسهم لاسمعت وقيل معناه غير مقبول منك ماتدعو إليه وقيل معناه غير مسمع جوابا يوافقك ولا كلاما ترتضيه (وراعنا) أى ويقولون راعنا يريدون بذلك نسبته إلى الرعونة وقيل معناه أرعنا سمعك أى اصرف سمعك إلى كلامنا وأنصت إلى قولنا ومثل هذا لايخاطب به الأنبياء بل إنما يخاطبون بالإجلال والتعظيم والتبجيل والتفخيم (ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين) أصله لويا لأنه من لويت الشىء إذا فتلته والمعنى أنهم يفتلون الحق فيجعلونه باطلا لأن راعنا من المراعاة فيجعلونه من الرعونة وكانوا يقولون لأصحابهم إنما نشتمه ولا يعرف ولو كان نبيا لعرف ذلك فأظهره الله تعالى على خبث ضمائرهم ومافى قلوبهم من العداوة والبغضاء ثم قال تعالى (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا) يعنى ولو أنهم قالوا بدل سمعنا وعصينا سمعنا وأطعنا (واسمع) يعنى بدل قولهم لاسمعت (وانظرنا) يعنى بدل قولهم راعنا أى

قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم كانا إذا تكلم رسول الله ﷺ لويا لسانهما وعاباه فأنزل الله تعالى هذه الآية (يشترون) يستبدلون (الضلالة) يعنى بالهدى (ويريدون أن تضلوا السبيل) أى عن السبيل يامعشر المؤمنين (والله أعلم بأعدائكم) منكم فلا تستنصحوهم فانهم أعداؤكم (وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) قال الزجاج اكتفوا بالله وليا واكتفوا بالله نصيرا (من الذين هادوا) قيل هى متصلة بقوله ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من الذين هادوا وقيل هى مستأنفة معناه من الذين هادوا من يحرفون كقوله تعالى وما منا إلا له مقام معلوم أى من له منزلة معلومة يريد فريق (يحرفون الكلم) يغيرون الكلم (عن مواضعه) يعنى صفة محمد ﷺ قال ابن عباس رضى الله عنهما كانت اليهود يأتون رسول الله ﷺ ويسألونه عن الأمر فيخبرهم فيرى أنهم يأخذون بقوله فاذا انصرفوا من عنده حرفوا كلامه (ويقولون سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (واسمع غير مسمع) أى اسمع منا ولا نسمع منك غير مسمع أى غير مقبول منك وقيل كانوا يقولون للنبى ﷺ اسمع ثم يقولون فى أنفسهم لاسمعت (وراعنا) أى ويقولون راعنا يريدون به النسبة إلى الرعونة (ليا بألسنتهم) تحريفا (وطعنا) قدحا (فى الدين) لأن قولهم راعنا من المراعاة وهم يحرفونه يريدون به الرعونة (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا)

أى انظر إلينا مكان قولهم راعنا (لكان خيرا لهم وأقوم) أى أعدل وأصوب (ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) إلا نفرا قليلا منهم وهو عبد الله بن سلام ومن أسلم معه منهم قوله عز وجل (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) يخاطب اليهود (آمنوا بما نزلنا) يعنى القرآن (مصدقا لما معكم) يعنى التوراة وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كلم أحبار اليهود عبد الله بن صوريا وكعب بن الأشرف فقال يامعشر اليهود «اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به لحق» قالوا ما نعرف ذلك وأصروا على الكفر وأنزلت هذه الآية (من قبل أن نطمس وجوها) قال ابن عباس نجعلها كخف البعير وقال قتادة والضحاك نعميها والمراد بالوجه العين (فنردها على أدبارها) أى نطمس الوجه فنردها على القفا وقيل نجعل الوجوه منابت الشعر كوجوه القردة لأن منابت شعور الآدميين فى أدبارهم دون وجوههم وقيل معناه نمحو آثارها وما فيها من أنف وعين وفم وحاجب ونجعلها كالأقفاء وقيل نجعل عينيه على القفاء فيمشى قهقرى روى أن عبد الله ابن سلام رضى الله عنه لما سمع هذه الآية جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله ويده على وجهه وأسلم وقال يارسول الله ماكنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهى فى قفاى وكذلك كعب الأحبار لما سمع هذه الآية أسلم فى زمن عمر رضى الله عنه فقال يارب آمنت يارب أسلمت مخافة أن يصيبه وعيد هذه الآية فان قيل قد أوعدهم الله بالطمس إن لم يؤمنوا ثم لم يؤمنوا ولم يفعل بهم ذلك قيل هذا الوعيد باق ويكون طمس ومسخ فى اليهود قبل قيام الساعة وقيل هذا كان وعيد بشرط فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه دفع ذلك

أى انظر إلينا (لكان خيرا لهم) يعنى عند الله (وأقوم) يعنى أعدل وأصوب (ولكن لعنهم الله) يعنى طردهم وأبعدهم عن رحمته (بكفرهم) يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم (فلا يؤمنون إلا قليلا) يعنى فلا يؤمن من اليهود إلا نفر قليل مثل عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل أراد بذلك القليل هو اعترافهم بأن الله خلقهم ورزقهم. قوله تعالى (يا أيها الذين أوتوا الكتاب) خطاب لليهود (آمنوا بما نزلنا) يعنى القرآن (مصدقا لما معكم) يعنى التوراة وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كلم أحبار اليهود عبد الله بن صوريا وكعب بن الأشرف فقال يامعشر «اليهود اتقوا الله وأسلموا فوالله أنكم لتعلمون إن الذى جئتكم به لحق» قالوا ما نعرف ذلك وأصروا على الكفر فأنزل الله هذه الآية وأمرهم بالإيمان وقرن بهذا الأمر الوعيد الشديد فقال تعالى (من قبل أن نطمس وجوها) أصل الطمس إزالة الأثر بالمحو وذكروا فى المراد بالطمس هاهنا وجهين: أحدهما أن يحمل على حقيقته والثانى أن يحمل على مجازه أما من حمله على الحقيقة فقال هو محو تخطيط صور الوجوه قال ابن عباس يجعلها كخف البعير وقيل نعميها فيكون المراد بالوجه العين (فنردها على أدبارها) يعنى نجعلها على هيئة أدبارها وهى الاقفاء وقيل نديرها فنجعل الوجوه إلى خلف والاقفاء إلى قدام وإنما جعل الله هذا عقوبة لهم لما فيه من تشويه الخلقة والمثلة والفضيحة وعند هذا يحصل لهم الغم وتكثر الحسرات فعلى هذا يكون هذا الوعيد مختصا بيوم القيامة. وأما من حمل الطمس على المجاز فقال المراد به نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها يعنى على ضلالتها وقيل المراد بالطمس طمس القلب والبصيرة فنردها على أدبارها يعنى بتغيير أحوالهم فنلبسهم الصغار والذلة بعد العز وقيل المراد بالطمس محو آثارهم من المدينة وردهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام من حيث جاءوا وهو إجلاء بنى النضير فان قلت قد أوعدهم وهددهم بطمس الوجوه إن لم يؤمنوا ولم يؤمنوا فلم يفعل بهم ذلك قلت هذا الإشكال إنما يرد على من فسر الطمس بتغيير الوجوه ومحو تخطيطها وحمله على الحقيقة والجواب عنه إن هذا مشروط بعدم الإيمان وقد آمن منهم ناس فرفع عن الباقين وروى أن عبد الله بن سلام لما سمع هذه الآية جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتى أهله فأسلم وقال يارسول الله ماكنت أرى أن أصل إليك حتى يحول وجهى إلى قفاى وكذلك روى عن كعب الأحبار أنه لما سمع هذه الآية فى خلافة عمر بن الخطاب أسلم وقال يارب أسلمت مخافة أن يصيبنى وعيد هذه الآية فكان هذا الوعيد مشروطا بأن لا يؤمن أحد منهم وهذا الشرط لم يوجد لأنه آمن منهم جمع كثير فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه ففات الشرط لفوات المشروط وقيل إن الطمس باق فى اليهود فيكون فيهم طمس ومسخ قبل يوم القيامة وقيل إنه تعالى جعل الوعيد بأحد شيئين

إما

من الباقين وقيل أراد به فى القيامة وقال مجاهد أراد بقوله نطمس وجوها أى نتركهم فى الضلالة فيكون المراد طمس وجه القلب والرد عن بصائر الهدى على أدبارها فى الكفر والضلالة وأصل الطمس المحو والإفساد والتحويل وقال ابن زيد نمحو آثارهم من وجوههم ونواصيهم التى هم بها فنردها على أدبارها حتى يعودوا إلى حيث جاءوا منه وهو الشام وقال قد مضى ذلك وتأوله فى إجلاء بنى النضير إلى أذرعات وأريحاء من الشام) أو نلعنهم (٥٤٣) كما لعنا أصحاب السبت) فنجعلهم قردة وخنازير (وكان أمر الله مفعولا) (إن الله لايغفر أن يشرك به) قال الكلبى نزلت فى وحشى بن حرب وأصحابه وذلك أنه لما قتل حمزة كان قد جعل له على قتله أن يعتق فلم يوف له بذلك فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنا قد ندمنا على الذى صنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة ، والذين لايدعون مع الله إلها آخر الآيات وقد دعونا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله وزنينا فلولا هذه الآيات لاتبعناك فنزلت إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا الآيتين فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم فلما قرءوا كتبوا إليه إن هذا شرط شديد نخاف أن لانعمل صالحا فنزل إن الله لايغفر أن يشرك به (ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) فبعث بها إليهم فبعثوا إليه إنا نخاف أن لانكون من أهل المشيئة فنزلت «قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله» فبعث بها إليهم فدخلوا فى الإسلام ورجعوا إلى النبى ﷺ فتقبل منهم ثم قال لوحشى أخبرنى كيف قتلت حمزة ؟ فلما أخبره قال ويحك غيب وجهك عنى فلحق وحشى بالشام فكان بها إلى أن مات وقال أبو مجاز عن ابن عمر رضى الله عنه لما نزل «قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم» الآية قام رجل فقال والشرك يارسول الله

إما بالطمس أو باللعنة وهو قوله تعالى (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) أى نجعلهم قردة كما فعلنا بأوائلهم وقيل المراد من لعنهم الطرد والإبعاد من الرحمة والكناية فى نلعنهم تعود إلى المخاطبين فى قوله تعالى ياأيها الذين أوتوا الكتاب وهذا على طريقة الالتفات كما فى قوله تعالى حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وقد يحتمل أن يكون معناه من قبل أن نطمس وجوها فنردها ونلعن أصحاب الوجوه فنجعل الكناية فى قوله أو نلعنهم عن ذكر أصحاب الوجوه إذا كان فى الكلام دلالة عليهم . وقوله تعالى (وكان أمر الله مفعولا) يعنى لابد وأن يقع بهم ذلك إن لم يؤمنوا فلا راد لحكمه ولا ناقض لأمره على معنى أنه لا يمتنع عليه شىء يريد أن يفعله وقيل معناه وكان مأمور الله مفعولا والأمر هنا فى موضع المأمور سمى أمرا لأنه عن أمره كان . قوله عز وجل (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) قال ابن جرير الطبرى معناه ياأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا فان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فعلى هذا يكون فى الآية دلالة على أن اليهودى يسمى مشركا فى عرف الشرع وقيل أن الآية نزلت فى وحشى وأصحابه وذلك لما قتل حمزة رضى الله عنه ورجع إلى مكة ندم هو وأصحابه فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا ندمنا على ماصنعنا وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا إنا سمعناك بمكة تقول والذين لا يدعون مع الله إلها آخر إلى آخر الآيات وقد دعونا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله وزنينا فلولا هذه الآيات لاتبعناك فنزلت إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا الآيتين فبعث بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فلما قرءوهما كتبوا إليه إن هذا شرط شديد ونخاف أن لا نعمل عملا صالحا فنزلت إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فبعث إليهم فبعثوا إنا نخاف أن لا نكون من أهل المشيئة فنزلت قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية فبعث بها إليهم فدخلوا فى الإسلام ورجعوا إلى النبى ﷺ فقبل منهم ثم قال لوحشى أخبرنى كيف قتلت حمزة؟ فلما أخبره قال ويحك غيب وجهك عنى فلحق بالشام فكان به إلى أن مات وقيل لما نزلت قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الآية قام رجل فقال يارسول الله والشرك؟ فسكت ثم قام إليه مرتين أو ثلاثا فنزلت هذه الآية ومعنى الآية أن الله لا يغفر لمشرك مات على شركه ويغفر مادون ذلك لمن يشاء يعنى ويغفر مادون الشرك لمن يشاء من أصحاب الذنوب والآثام . فى الآية دليل على أن صاحب الكبيرة إذا مات من غير توبة فانه فى خطر المشيئة إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة بمنه وكرمه وإن شاء عذبه بالنار ثم أدخله الجنة برحمته وإحسانه لأن الله تعالى وعد المغفرة لما دون الشرك فمن مات على الشرك فهو مخلد فى النار لقوله إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وفى الآية رد على المعتزلة والقدرية حيث قالوا لايجوز فى الحكمة أن يغفر

فسكت ثم قام إليه مرتين أو ثلاثا فنزلت «إن الله لايغفر أن يشرك به» وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير . قال ابن عمر رضي الله عنه كنا على عهد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية «إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» فأمسكنا عن الشهادات حكى عن على رضى الله عنه أن أرجى آية فى القرآن قوله ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» (ومن يشرك بالله فقد افترى) اختلق (إثما عظيما) أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أحمد بن الحسن الحيرى أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال أتى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال يارسول الله ماالموجبتان؟ قال «من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار» (٥٤٤) أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو معمر أنا عبد الوارث عن حسين يعنى المعلم عن عبد الله ابن بريدة عن يحيى بن يعمر حدثه أن أبا الأسود الديلى حدثه أن أبا ذر حدثه قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض وهو نائم ثم أتيته وقد استيقظ فقال «مامن عبد قال لاإله إلا الله ثم مات على ذلك إلادخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر» وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال وإن رغم أنف أبي ذر قوله

لصاحب كبيرة وعند أهل السنة أن الله تعالى يفعل ما يشاء لا مكره له ولا حجر عليه ويدل على ذلك أيضا ما روى عن ابن عمر قال كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار حتى نزلت هذه الآية إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فأمسكنا عن الشهادة وقال ابن عباس لعمر بن الخطاب ياأمير المؤمنين الرجل يعمل من الصالحات لم يدع من الخير شيئا إلا عمله غير أنه مشرك قال عمر هو فى النار فقال ابن عباس الرجل لم يدع شيئا من الشر إلا عمله غير أنه لم يشرك بالله شيئا فقال عمر الله أعلم قال ابن عباس إنى لأرجو له كما أنه لاينفع مع الشرك عمل كذلك لا يضر مع التوحيد ذنب فسكت عمر. عن على بن أبى طالب قال مافى القرآن أحب إلى من هذه الآية إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب (م) عن جابر قال جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله ما الموجبتان؟ قال من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات يشرك به دخل النار . وقوله تعالى (ومن يشرك بالله) يعنى يجعل معه شريكا غيره (فقد افترى) أى اختلق (إثما عظيما) يعنى ذنبا عظيما غير مغفور إن مات عليه . قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) نزلت فى رجال من اليهود أتوا بأطفالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يامحمد هل على هؤلاء من ذنب؟ قال لاقالوا مانحن إلا كهيئتهم ما عملناه بالنهار يكفر عنا بالليل وما عملناه بالليل يكفر عنا بالنهار فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل نزلت فى اليهود والنصارى حين قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه وقولهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصاري والتزكية هنا عبارة عن مدح الإنسان نفسه بالصلاح والدين ومنه تزكية الشاهد حتى يصير عدلا قال الله تعالى «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى» وذلك لأن التزكية متعلقة بالتقوى وهى صفة فى الباطن فلا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى فلا تصلح التزكية إلا من عند الله تعالى فلهذا قال الله تعالى «بل الله يزكى من يشاء» ويدخل فى هذا المعنى كل من ذكر نفسه بصلاح أو وصفها بزكاء العمل أو بزيادة الطاعة والتقوى أو بزيادة الزلفى عند الله تعالى فهذه الأشياء لا يعلمها إلا الله تعالى فلهذا قال «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى» ومعنى يزكون أنفسهم يزعمون أنهم أزكياء

تعالى (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) الآية قال الكلبى نزلت فى رجال من اليهود منهم : بحرى بن عمرو النعمان بن أوفى ومرحب بن زيد أتوا بأطفالهم إلى النبى ﷺ فقالوا يامحمد هل على هؤلاء من ذنب؟ فقال لا قالوا وما نحن إلا كهيئتهم ماعملنا بالنهار يكفر عنا بالليل وما عملنا بالليل يكفر عنا بالنهار فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال مجاهد وعكرمة كانوا يقدمون أطفالهم فى الصلاة يزعمون أنهم لاذنوب لهم فتلك التزكية ، وقال الحسن والضحاك وقتادة ومقاتل نزلت فى اليهود والنصارى حين قالوا نحن أنصار الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصاري وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه هو تزكية بعضهم لبعض روى عن طارق بن شهاب عن ابن مسعود قال إن الرجل ليغدو من بيته ومعه دينه فيأتى الرجل لايملك له ولا لنفسه ضرا ولانفعا فيقول والله إنك كيت وذيت ويرجع إلى بيته ومامعه

من دينه شيء ثم قرأ «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم» الآية قوله تعالى (بل الله يزكي) أي يطهر ويبرئ من الذنوب ويصلح (من يشاء ولا يظلمون فتيلا) وهو اسم لما في شق النواة والقطمير اسم للقشرة التي على النواة والنقير اسم للنقرة التي على ظهر النواة وقيل الفتيل من الفتل وهو ما يجعل بين الإصبعين من الوسخ عند الفتل قوله تعالى (انظر) يا محمد (كيف يفترون على الله) يختلقون على الله (الكذب) في تغييرهم كتابه (وكفى به) بالكذب (إثما مبينا) قوله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) اختلفوا فيهما فقال عكرمة هما صنمان كان المشركون يعبدونهما من دون الله وقال أبو عبيدة هما كل معبود يعبد من دون الله قال الله تعالى أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وقال عمر الجبت السحر والطاغوت الشيطان وهو قول الشعبي ومجاهد وقيل الجبت الأوثان والطاغوت شياطين الأوثان ولكل صنم شيطان يعبر عنه فيغتر به الناس وقال محمد بن سيرين الجبت ومكحول الكاهن والطاغوت الساحر وقال سعيد بن جبير وأبو العالية الجبت الساحر بلسان الحبشة والطاغوت الكاهن وروى عن عكرمة الجبت بلسان الحبشة شيطان وقال الضحاك الجبت حيي بن أخطب والطاغوت كعب ابن الأشرف دليله قوله تعالى يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت. أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو الحسن بن بشران

أزكياء لأنهم برءوا أنفسهم من الذنوب قال تعالى ردا عليهم (بل الله يزكي من يشاء) فيجعله زاكيا (ولا يظلمون فتيلا) يعني أن الذين يزكون أنفسهم يعاقبون على تلك التزكية من غير ظلم وقيل معناه إن الذين زكاهم الله لا ينقصون من ثواب طاعتهم شيئا والفتيل المفتول وسمي ما يكون في شق النواة فتيلا لكونه على هيئته وقيل الفتيل هو ما تفتله بين أصابعك من وسخ وغيره ويضرب به المثل في الشيء الحقير الذي لا قيمة له (انظر) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم انظر يا محمد إلى هؤلاء اليهود (كيف يفترون على الله الكذب) يعني قولهم أنهم لا ذنوب لهم وتزكيتهم أنفسهم (وكفى به) أي بذلك الكذب (إثما مبينا) قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) نزلت في كعب بن الأشرف وسبعين راكبا من اليهود قدموا مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على النبي صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل كعب بن الأشرف على أبي سفيان فأحسن مثواه ونزل باقي اليهود على قريش في دورهم أهل مكة أنتم فقال لهم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا إلى هذين الصنمين ففعلوا ذلك فذلك قوله تعالى يؤمنون بالجبت والطاغوت ثم قال كعب بن الأشرف لأهل مكة ليجيء منكم ثلاثون رجلا ومنا ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب هذا البيت لنجهدن على قتال محمد ففعلوا ثم قال أبو سفيان لكعب بن الأشرف إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى سبيلا نحن أم محمد؟ فقال كعب أعرض علي دينكم فقال أبو سفيان نحن ننحر للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ونقري الضيف ونفك العاني ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث فقال كعب أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد فأنزل الله تعالى ألم تر يعني يا محمد إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يعني كعب بن الأشرف وأصحابه اليهود يؤمنون بالجبت والطاغوت يعني سجودهم للصنمين واختلف العلماء فيهما فقيل الجبت والطاغوت كل معبود دون الله تعالى وقيل هما صنمان كانا لقريش وهما اللذان سجد اليهود لهما لمرضاة قريش وقيل الجبت اسم للأصنام والطاغوت شياطين الأصنام ولكل صنم شيطان يعبر فيها ٧ ويكلم الناس فيغترون بذلك وقيل الجبت الكاهن والطاغوت الساحر عن قطن بن قبيصة عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «العيافة والطيرة والطرق من الجبت» أخرجه أبو داود وقال الطرق الزجر والعيافة الخط وقيل العيافة هي زجر الطير وذلك أن أهل الجاهلية كان أحدهم إذا خرج لأمر زجر طيرا فإذا أخذ ذات اليمين مضى في حاجته وإذا أخذ ذات الشمال رجع فنهوا عن ذلك والطرق هو ضرب الحجارة والحصا على طريق الكهانة فنهوا عنه والطيرة هو أن يتطير بالشيء فيرى الشؤم فيه والشر منه وقيل هو من التطير وهو زجر الطائر والخط هو ضرب الرمل لاستخراج الضمير وقيل الجبت كل ما حرم الله تعالى والطاغوت كل ما يطغي الإنسان وقيل الجبت هو حيي بن أخطب والطاغوت كعب بن الأشرف اليهوديان وكانا طاغية اليهود

ألا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد بن منصور الرمادى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن عوف العبدى عن حيان عن قطن بن قبيصة عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «العيافة والطرق والطيرة من الجبت» وقيل الجبت كل ماحرم الله والطاغوت كل مايطغى الإنسان (ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) قال المفسرون خرج كعب بن الأشرف فى سبعين راكبا من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على رسول الله ﷺ وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود فى دور قريش فقال أهل مكة إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم فان أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا ذلك فذلك قوله تعالى يؤمنون بالجبت والطاغوت ثم قال كعب لأهل مكة ليجئ منكم ثلاثون ومنا ثلاثون ، فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب هذا البيت لنجهدن على قتال محمد ففعلوا ثم قال أبو سفيان لكعب إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لانعلم فأينا أهدى طريقا نحن أم محمد؟ قال كعب أعرضوا على دينكم فقال أبو سفيان نحن ننحر للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ونقرى الضيف ونفك العاني ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث فقال كعب أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد وأصحابه فأنزل الله تعالى ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يعنى كعبا وأصحابه يؤمنون بالجبت والطاغوت يعنى الصنمين ويقولون للذين كفروا على أبي سفيان وأصحابه هؤلاء أهدى من الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم سبيلا دينا (أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا أم لهم) يعنى ألهم والميم صلة (نصيب) حظ (من الملك) وهذا على جهة الإنكار يعنى ليس لهم من الملك شىء ولو كان لهم من الملك شىء (فاذا لايؤتون الناس نقيرا) لحسدهم وبخلهم. النقير النقطة التى تكون فى ظهر النواة ومنها تنبت النخلة وقال أبو العالية هو نقر الرجل الشىء بطرف إصبعيه كما ينقر الدرهم (أم يحسدون الناس) يعنى اليهود يحسدون الناس قال قتادة المراد بالناس العرب حسدهم اليهود على النبوة وما أكرمهم الله تعالى بمحمد ﷺ وقيل أراد محمدا ﷺ وأصحابه وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وجماعة المراد بالناس رسول الله ﷺ وحده حسدوه على ما أحل الله له من النساء وقالوا ماله هم إلا النكاح وهو المراد من قوله (على ما آتاهم الله من فضله) وقيل حسدوه على النبوة ، وهو المراد من الفضل المذكور فى الآية (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة) أراد بآل إبراهيم داود وسليمان وبالكتاب ما أنزل الله

(ويقولون) يعنى كعب بن الأشرف وأصحابه (للذين كفروا) يعنى لكفار قريش (هؤلاء) يعنى أنتم ياهؤلاء (أهدى من الذين آمنوا سبيلا) يعنى طريقا (أولئك الذين لعنهم الله) يعنى كعب بن الأشرف وأصحابه (ومن يلعن الله) يعنى يطرده من رحمته (فلن تجد له نصيرا) يعنى ينصره . قوله تعالى (أم لهم نصيب من الملك) هذا استفهام انكار يعنى ليس لهم من الملك شىء البتة وذلك أن اليهود كانوا يقولون نحن أولى بالملك والنبوة فكيف نتبع العرب فأكذبهم الله تعالى وأبطل دعواهم (فاذا لايؤتون الناس نقيرا) هذا جواب وجزاء لمضمر تقديره ولئن كان لهم نصيب وحظ من الملك فلايؤتون الناس منه نقيرا وصفهم بالبخل فى هذه الآية ووصفهم بالجهل فى الآية المتقدمة ووصفهم بالحسد فى الآية الآتية وهذه الخصال كلها مذمومة فكيف يدعون الملك وهى حاصلة فيهم والنقير هو النقطة التى تكون على ظهر النواة ومنها تنبت النخلة ويضرب به المثل فى الشىء الحقير التافه الذى لاقيمة له . قوله عز وجل (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) أصل الحسد تمنى زوال النعمة عمن هو مستحق لها وربما يكون ذلك مع سعى فى زوالها وصف الله اليهود بشر خصلة وهى الحسد والمراد بالناس محمد صلى الله عليه وسلم وحده وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد لأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع فيه من خصال الخير والبركة مالا يجتمع مثله فى جماعة ومن هذا القبيل يقال فلان أمة وحده يعنى أنه يقوم مقام أمة وقيل المراد بالناس النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأن لفظ الناس جمع وحمله على الجمع أولى والمراد بالفضل النبوة لأنها أعظم المناصب وأشرف المراتب وقيل حسدوه على ماأحل الله له من النساء وكان له يومئذ تسع نسوة فقالت اليهود لوكان نبيا لشغله أمر النبوة عن الاهتمام بأمر النساء فأكذبهم الله تعالى ورد عليهم بقوله (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة) يعنى أنه قد حصل فى أولاد إبراهيم صلى الله عليه وسلم جماعة كثيرون جمعوا بين الملك والنبوة مثل داود وسليمان عليهما السلام فلم يشغلهم الملك عن أمر النبوة والمعنى كيف يحسدون محمدا صلى الله عليه وسلم

إليهم وبالحكمة النبوة (وآتيناهم ملكا عظيما) فمن فسر الفضل بكثرة النساء فسر الملك العظيم فى حق داود وسليمان عليهما السلام بكثرة النساء فانه كان لسليمان ألف امرأة ثلاثمائة حرة وسبعمائة سرية وكان لداود مائة امرأة ولم يكن يومئذ لرسول الله ﷺ إلا تسع نسوة فلما قال لهم ذلك سكتوا قال الله تعالى (فمنهم من آمن به) يعنى بمحمد ﷺ وهم عبد الله بن سلام وأصحابه (ومنهم من صد عنه) أعرض عنه ولم يؤمن به (وكفى بجهنم سعيرا) وقودا وقيل الملك العظيم ملك سليمان وقال السدى الهاء فى قوله من آمن به وصد عنه راجعة إلى إبراهيم وذلك أن إبراهيم زرع ذات سنة وزرع الناس فهلك زرع الناس وزكا زرع إبراهيم عليه السلام فاحتاج إليه الناس فكان يقول من آمن بى أعطيته

فمن آمن به أعطاه ومن لم يؤمن به منعه قوله تعالى (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا) ندخلهم نارا (كلما نضجت) أحرقت (جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) غير الجلود المحترقة قال ابن عباس رضى الله عنهما يبدلون جلودا بيضاء كأمثال القراطيس وروى أن هذه الآية قرئت عند عمر رضى الله عنه فقال عمر رضى الله عنه للقارئ أعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندى تفسيرها تبدل فى كل ساعة مائة مرة فقال عمر رضى الله عنه هكذا سمعت رسول الله ﷺ قال الحسن تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معاذ بن أسيد أنا الفضل بن موسى أنا الفضيل عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال مابين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر أنا عبد الغافر بن محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا شريح بن يونس أنا حميد بن عبد الرحمن عن الحسن بن صالح عن هرون بن سعد عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ «ضرس الكافر أوناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام» فان قيل كيف تعذب جلود لم تكن فى الدنيا ولم تعصه قيل يعاد الجلد الأول فى كل مرة وإنما قال جلودا غيرها لتبديل صفتها كما تقول صنعت من خاتمى خاتما غيره فالخاتم الثانى هو الأول إلا أن الصناعة والصفة تبدلت وكمن يترك أخاه

على ما آتاه الله من فضله وقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وأنتم لا تحسدونهم والمراد بالكتاب التوراة وبالحكمة النبوة (وآتيناهم ملكا عظيما) يعنى فلم يشغلهم عن النبوة فمن فسر الفضل بكثرة النساء فسر الملك العظيم فى حق داود وسليمان بكثرة النساء فانه كان لداود مائة امرأة ولسليمان ألف امرأة ثلثمائة حرة وسبعمائة سرية ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ إلا تسع نسوة ولما لم يكن ذلك مستبعدا فى حقهم ولا نقصا فى نبوتهم فلا يكون مستبعدا فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ولا نقصا فى نبوته (فمنهم) يعنى من اليهود (من آمن به) أى بالنبى صلى الله عليه وسلم وما أنزل إليه كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومنهم من صد عنه) أى أعرض عنه ولم يؤمن به (وكفى بجهنم سعيرا) يعنى وكفى فى عذاب من لم يؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم سعيرا. قوله تعالى (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا) هذا وعيد من الله عز وجل للذين أقاموا على كفرهم وتكذيبهم بما أنزل الله عز وجل على محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود وغيرهم من سائر الكفار والمعنى إن الذين جحدوا ما أنزلت على رسولى محمد من آياتى الدالة على توحيدى وصدق رسولى محمد صلى الله عليه وسلم سوف نصليهم نارا أى ندخلهم نارا نشويهم فيها (كلما نضجت جلودهم) يعنى احترقت (بدلناهم جلودا غيرها) يعنى غير الجلود المحترقة قال ابن عباس يبدلون جلودا بيضاء كأمثال القراطيس وروى أن هذه الآية قرئت عند عمر ابن الخطاب فقال عمر للقارئ أعدها فأعادها وكان عنده معاذ بن جبل فقال معاذ عندى تفسيرها تبدل فى كل ساعة مائة مرة فقال عمر هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكره البغوى بغير سند وقال الحسن تأكلهم النار فى كل يوم سبعين ألف مرة (ق) عن أبى هريرة يرفعه مابين منكبى الكافر فى النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع (م) عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ضرس الكافر أوقال ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام». فان قلت كيف تعذب جلود لم تكن فى الدنيا ولم تعص؟ قلت يعاد الجلد الأول فى كل مرة وإنما قال جلودا غيرها لتبديل صفتها كما تقول صغت من خاتمى خاتما غيره، فالثانى هو الأول غير أن الصناعة بدلت الصفة وقيل إن العذاب للجملة الحساسة وهى النفس التى عصت فاذا كان كذلك فغير مستحيل إن الله يخلق للكافر فى كل ساعة من الجلود

صحيحا ثم بعد مدة يراه مريضا دنفا فيقول أنا غيرى الذى عهدت وهو عين الأول إلا أن صفته تغيرت ، وقال السدى يبدل الجلد جلدا غيره من لحم الكافر

ثم يعاد الجلد لحما ثم يخرج من اللحم جلدا آخر وقيل يعذب الشخص فى الجلد لا الجلد بدليل أنه قال ليذوقوا العذاب ولم يقل لتذوق وقال عبد العزيز بن يحيى إن الله عز وجل يلبس أهل النار جلودا لا تألم فيكون زيادة عذاب عليهم كلما احترق جلد بدلهم جلدا غيره كما قال سرابيلهم من قطران فالسرابيل تؤلمهم وهى لا تألم قوله تعالى (ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا) كنينا لا تنسخه الشمس ولا يؤذيهم حر ولا برد قوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) نزلت فى عثمان بن طلحة الحجبى من بنى عبد الدار وكان سادن الكعبة فلما دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح فطلب رسول الله ﷺ المفتاح فقيل إنه مع عثمان فطلبه منه رسول الله فأبى أهل وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنع المفتاح فلوى على رضى الله عنه يده فأخذ منه المفتاح فتح الباب فدخل رسول الله ﷺ البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس المفتاح أن يعطيه ويجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله تعالى

مالا يحصى لتحترق ويصل ألمها إليه وقيل المراد بالجلود السرابيل وهو قوله « سرابيلهم من قطران » والمعنى كلما نضجت سرابيلهم واحترقت بدلناهم سرابيل من قطران غيرها لأن الجلود او احترقت لفنيت وفى فنائها راحتها وقد أخبر الله عنهم أنهم لا يموتون فيها ولا يخفف عنهم من عذابها ولأن الجلد أحد أجزاء الجسم فثبت أن التبديل إنما هو للسرابيل وقيل يبدل الجلد من نفس الكافر فيخرج من لحمه جلدا وقيل إن الله تعالى يلبس أهل النار جلودا لا تألم لتكون زيادة فى عذابهم كلما احترق جلد بدلهم جلدا غيره . وقوله تعالى (ليذوقوا العذاب) أى إنما فعلنا بهم ذلك ليجدوا ألم العذاب وكربه وشدته وإنما أتى بلفظ الذوق مع ماينالهم من عظم العذاب الذى نالوه إخبارا بأن إحساسهم به فى كل حال فاحساس الذائق فى تجديد وجدان الذوق من غير نقصان فى الإحساس (إن الله كان عزيزا) يعنى فى انتقامه ممن ينتقم من خلقه لا يغلبه شىء ولا يمتنع عليه أحد (حكيما) يعنى فى تدبيره وقضائه وأنه لا يفعل إلا ماهو الصواب (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم) يعنى سوف ندخلهم يوم القيامة (جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) يعنى باقين فيها (أبدا) يعنى ذلك الخلود بغير نهاية ولا انقطاع (لهم فيها) يعنى فى الجنات (أزواج مطهرة) يعنى مطهرات من الحيض والنفاس وسائر أقذار الدنيا (وندخلهم ظلا ظليلا) كنينا ذلك الظل لا تنسخه الشمس ولا يؤذيهم فيه حر ولا برد وذلك الظل ظل الجنة . فان قلت إذا لم يكن فى الجنة شمس يؤذى حرها فمافائدة وصفها بالظل الظليل؟ قلت إنما خاطبهم بما يعقلون ويعرفون وذلك لأن بلاد العرب فى غاية الحرارة فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة واللذة فهو كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا . قوله عز وجل (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) قال البغوى نزلت فى عثمان بن طلحة الحجبى من بنى عبد الدار وكان سادن الكعبة فلما دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب البيت وصعد السطح فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح فقيل له إنه مع عثمان فطلب منه رسول الله المفتاح فأبى وقال لو علمت إنه رسول الله لم أمنعه المفتاح فلوى على بن أبى طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وصلى فيه ركعتين فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح وأن يجمع له بين السقاية والسدانة فأنزل الله هذه الآية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه ففعل ذلك فقال له عثمان أكرهت ثم جئت ترفق فقال على لقد أنزل الله عز وجل فى شأنك قرآنا وقرأ عليه الآية فقال عثمان أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فأسلم فكان المفتاح معه إلى أن مات فدفعه إلى أخيه شيبة فالمفتاح والسدانة فى أولادهم إلى يوم القيامة . قلت وفيما ذكره البغوى رحمه الله من إسلام عثمان ابن طلحة يوم الفتح ومنعه المفتاح وقوله لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح نظر والصحيح ماحكاه أبو عمر بن عبد البر وابن منده وابن الأثير أن عثمان بن طلحة هاجر إلى المدينة فى هدنة الحديبية سنة ثمان مع خالد بن الوليد ولقيهما عمرو بن العاص مقبلا من عند النجاشى فرافقهما وهاجر معهما فلما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم قال رمتكم مكة بأفلاذ كبدها يعنى أنهم وجوه

أهل مكة فأسلموا وسلم عثمان بن طلحة المفتاح للنبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فرده النبي صلى الله عليه وسلم إليه وقال خذوها يابنى طلحة خالدة مخلدة لاينزعها منكم إلاظالم ولم يذكروا سؤال العباس السدانة والله أعلم وثبت فى الصحيحين من حديث ابن عمر قال أقبل النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح وهو مردف أسامة على القصواء ومعه بلال وعثمان حتى أناخ عند البيت ثم قال لعثمان ائتنا بالمفتاح فجاءه بالمفتاح ففتح الباب وذكر الحديث وذكر ابن الجوزى فى تفسير هذه الآية من رواية أبى صالح عن ابن عباس قال إن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طلب مفتاح البيت من عثمان بن طلحة فذهب ليعطيه إياه فقال العباس بأبى أنت وأمى أجمعه الى مع السقاية فكف عثمان يده مخافة أن يعطيه العباس فقال النبي صلى الله عليه وسلم هات المفتاح فأعاد العباس قوله وكف عثمان يده فقال النبي صلى الله عليه وسلم هات المفتاح إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فقال هاكه يارسول الله بأمانة الله فأخذ المفتاح ففتح الباب ونزل جبريل بهذه الآية فدعا عثمان ودفعه إليه ففى هذه الرواية أيضا مايدل على تقدم إسلام عثمان بن طلحة على فتح مكة لأن قوله صلى الله عليه وسلم لعثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر يدل على ذلك فعلى هذا القول يكون الخطاب فى قوله إن الله يأمركم للنبي صلى الله عليه وسلم وهو إن الله أمره أن يرد مفتاح البيت إلى عثمان بن طلحة وقيل الخطاب فى قوله إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها لولاة أمور المسلمين من الأمراء والحكام وغيرهم ويدل على ذلك سياق الآية وهو قوله وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ومعنى الآية إن الله يأمركم ياولاة الأمور أن تؤدوا ماائتمنتم عليه من أمور رعيتكم وأن توفوهم حقوقهم وأن تعدلوا بينهم وقيل إن الآية عامة فى جميع الأمانات ولا يمتنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل فى ذلك جميع الأمانات التى يحملها الإنسان وينقسم ذلك إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول رعاية الأمانة فى عبادة الله عز وجل وهو فعل المأمورات وترك المنهيات قال ابن مسعود الأمانة لازمة فى كل شىء حتى فى الوضوء والغسل من الجنابة والصلاة والزكاة والصوم وسائر أنواع العبادات. القسم الثانى هو رعاية الأمانة مع نفسه وهو ماأنعم الله به عليه من سائر أعضائه فأمانة اللسان حفظه من الكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك وأمانة العين غضها عن المحارم وأمانة السمع أن لايشغله بسماع شىء من اللهو والفحش والأكاذيب ونحوه ثم سائر الأعضاء على نحو ذلك. القسم الثالث هو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى فيجب عليه رد الودائع والعوارى إلى أربابها الذين ائتمنوه عليها ولا يخونهم فيها عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن غريب ويدخل فى ذلك وفاء الكيل والميزان فلا يطفف فيهما ويدخل فى ذلك أيضا عدل الأمراء والملوك فى الرعية ونصح العلماء للعامة فكل هذه الأشياء من الأمانة التى أمر الله عز وجل بأدائها إلى أهلها وروى البغوى بسنده عن أنس قال قلما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا قال «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لاعهد له». وقوله تعالى (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) يعنى وإن الله يأمركم أن تحكموا بين الناس بالعدل فيجب على الحاكم أن يأخذ الحق ممن وجب عليه لمن وجب له وأصل العدل هو المساواة فى الأشياء فكل ماخرج عن الظلم والاعتداء سمى عدلا قال بعض العلماء ينبغى للقاضى أن يسوى بين الخصمين فى خمسة

هذه الآية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه ففعل ذلك على رضى الله عنه فقال له عثمان أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق فقال على لقد أنزل الله تعالى فى شأنك قرآنا وقرأ عليه الآية فقال عثمان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله وكان المفتاح معه فلما مات دفعه إلى أخيه شيبة فالمفتاح والسدانة فى أولادهم إلى يوم القيامة وقيل المراد من الآية جميع الأمانات أخبرنا أبو طاهر محمد بن على الزاد أنا أبو بكر محمد ابن إدريس الجرجانى وأبو أحمد بن محمد ابن أحمد المعلم الهروى قال أنا أبو الحسن على ابن عيسى المسالينى أنا الحسن بن سفيان النسوى، أنا شيبان بن أبي شيبة أخبرنا أبو هلال عن قتادة عن أنس رضى الله [illegible] قال قلما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال «ألا لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» قوله تعالى (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) أى بالقسط

(إن الله نعما) أى نعم الشىء الذى (يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أبو منصور
محمد ابن محمد بن سمعان أنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الزيانى أنا حميد بن زنجويه أنا ابن عباد بن عيينة
عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم
قال «المقسطون عند الله على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين هم الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا»
أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا عبد الرحمن بن أبي شريح أنا القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى أنا
على بن الجعد أنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أحب
الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا إمام عادل وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم
عذابا إمام جائر» قوله تعالى (يا أيها الذين آمنو أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) اختلفوا فى أولى الأمر قال ابن عباس وجابر رضى الله عنهم هم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس معالم دينهم وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد ودليله قوله تعالى ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم وقال أبو هريرة هم الأمراء والولاة وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدى الأمانة فاذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا
أخبرنا أبو على حسان بن سعد المنيعى أنا أبو طاهر محمد بن محمد
ابن محمش الزيادى أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان أنا أحمد بن يوسف السلمى أنا عبد الرزاق أنا معمر عن همام بن منبه
أنا أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن
يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أخبرنا
محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله حدثنى نافع عن عبد الله رضى الله عنهم عن النبى
صلى الله عليه وسلم قال «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»
أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن محمد الراودى أنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن الصلت أنا أبو إسحاق إبراهيم بن
عبد الصمد الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد أخبرني عبادة بن الوليد بن عبادة أن أباه أخبره عن

أشياء فى الدخول عليه والجلوس بين يديه والإقبال عليهما والاستماع منهما والحكم بالحق فيما
لهما وعليهما وحاصل الأمر فيه أن يكون مقصود الحاكم بحكمه إيصال الحق إلى مستحقه وأن
لا يمتزج ذلك بغرض آخر (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين
يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم عنده مجلسا إمام عادل وأبغض الناس إلى الله
وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر» أخرجه الترمذى. وقوله تعالى (إن الله نعما يعظكم به) أى نعم
الشىء الذى يعظكم به وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل (إن الله كان سميعا بصيرا) يعنى أنه
تعالى سميع لما تقولون وبصير بما تفعلون فاذا حكمتم فهو يسمع حكمكم وإذا أديتم الأمانة فهو
يبصر فعلكم. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر
منكم) (ق) عن ابن عباس قال لما نزل قوله «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول الله وأولى الأمر منكم»
الآية قال نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى إذ بعثه النبى صلى الله عليه وسلم
فى سرية وقال السدى نزلت فى خالد بن الوليد وذلك أنه بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم على
سرية وفيها عمار بن ياسر فلما قربوا من القوم هربوا منهم وجاء رجل إلى عمار قد أسلم فأمنه عمار
فرجع الرجل فجاء خالد فأخذ مال الرجل فقال عمار إنى قد أمنته وقد أسلم فقال خالد أتجير على
وأنا الأمير فتنازعا وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير الثانية
على أمير فأنزل الله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم وأصل الطاعة الانقياد
وهو امتثال الأمر فطاعة الله عز وجل امتثال أمره فيما أمر والانقياد لذلك الأمر وطاعة الله واجبة على
كافة الخلق وكذا طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم واجبة أيضا لقوله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا
الرسول فأوجب طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم على الخلق واختلف العلماء فى أولى الأمر
الذين أوجب طاعتهم بقوله وأولى الأمر منكم يعنى وأطيعوا أولى الأمر منكم قال ابن عباس
وجابر

عبادة بن الصامت قال بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى أن لاننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لانخاف فى الله لومة لائم أخبرنا أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبيد الله بن أحمد القفال أنا أبو منصور أحمد ابن الفضل البروجردى أنا أبو بكر بن محمد بن حمدان الصيرفى أنا محمد بن يونس الكديمى قال أخبرنا أبو داود الطيالسى عن شعبة عن أبي التياح عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذر اسمع وأطع ولو لعبد حبشى كأن رأسه زبيبة أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبى أنا أبومحمد عبد الجبار بن محمد الجراحى أنا أبو العباس أنا محمد بن أحمد المحبوبي أنا أبوعيسى الترمذى أنا موسى بن عبد الرحمن الكندى أنا زيد بن الحباب أنا معاوية بن صالح حدثنى سليم بن عامر قال سمعت أبو إمامة رضى الله عنه **(٥٥١)** يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فى حجة الوداع فقال « اتقوا الله وصلو خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم» وقيل المراد أمراء السرايا أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبدالله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا صدقة بن الفضل أنا حجاج بن محمد عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم قال نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم فى سرية وقال عكرمة أراد بأولى الأمر أبا بكر وعمر رضى الله عنهما حدثنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمى أنا أبو محمد عبدالرحمن ٣ عثمان ابن القاسم أخبرنا خيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسى أنا عمرو بن أبى غزرة بالكوفة أخبرنا ثابت بن موسى العابد عن سفيان ابن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى لا أدرى مابقائى فيكم فاقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما» وقال عطاء هم المهاجرون والأنصار والتابعون لهم باحسان بدليل قوله تعالى والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الآية أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبى توبة أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث أنا محمد بن يعقوب الكسائى قال أخبرنا عبد الله بن محمود أنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الخلال أنا عبد الله بن المبارك عن إسماعيل المكى عن الحسن عن أنس بن مالك رضى الله عنهم قال : قال رسول الله ﷺ «مثل أصحابى فى أمتى كالملح فى الطعام لايصلح الطعام إلا بالملح» قال الحسن قد ذهب ملحنا فكيف نصلح قوله عز وجل (فان تنازعتم) أى

وجابر هم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس معالم دينهم وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد وقال أبو هريرة الأمراء والولاة وهى رواية عن ابن عباس أيضا قال على بن أبى طالب حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدى الأمانة فاذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا (ق) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى» (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر بمعصية الله فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» (خ) عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة ماأقام فيكم كتاب الله» وقال ميمون بن مهران هم أمراء السرايا والبعوث وهى رواية عن ابن العباس أيضا ووجه هذا القول إن الآية نازلة فيهم وقال عكرمة أراد بأولى الأمر أبا بكر وعمر لما روى عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى لا أدرى مابقائى فيكم فاقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر» أخرجه الترمذى وقيل هم جميع الصحابة لما روى عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أصحابى كالنجوم أيهم اقتديتم اهتديتم» أخرجه رزين فى كتابه وروى البغوى بسنده عن الحسن عن أنس قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مثل أصحابى فى أمتى كالملح فى الطعام لايصلح الطعام إلا بالملح» قال الحسن قد ذهب ملحنا فكيف نصلح قال الطبرى وأولى الأقوال بالصواب قول من قال هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان لله عز وجل طاعة وللمسلمين مصلحة وقال الزجاج وجملة أولى الأمر من يقوم بشأن المسلمين فى أمر دينهم وجميع ماأدى إليه صلاحهم قال العلماء طاعة الإمام واجبة على الرعية مادام على الطاعة فاذا زال عن الكتاب والسنة فلا طاعة له وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق . وقوله تعالى (فان تنازعتم

اختلفتم (فى شىء) من أمر دينكم والتنازع اختلاف الآراء وأصله من النزع فكأن المتنازعين يتجاذبان ويتمانعان (فردوه إلى الله
والرسول) أى إلى كتاب الله وإلى رسوله مادام حيا وبعد وفاته إلى سنته والرد إلى الكتاب والسنة واجب إن وجد فيهما فان لم
يوجد فسبيله الاجتهاد وقيل الرد إلى الله تعالى والرسول أن يقول لما لايعلم الله ورسوله أعلم (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر
ذلك) أى الرد إلى الله والرسول (خير وأحسن تأويلا) أى أحسن مآلا وعاقبة قوله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا
بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) الآية قال الشعبى كان بين رجل من اليهود ورجل من
المنافقين خصومة فقال اليهودى نتحاكم إلى محمد لأنه عرف أنه لايأخذ الرشوة ولايميل فى الحكم وقال المنافق نتحاكم إلى اليهود
لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ويميلون فى الحكم فاتفقا على أن يأتيا كاهنا فى جهينة فيتحاكما إليه فنزلت هذه الآية قال جابر كانت
الطواغيت التى يتحاكمون إليها واحد فى جهينة وواحد فى أسلم وفى كل حى واحد كهان وقال الكلبى عن أبى صالح
وابن عباس نزلت فى رجل من المنافقين يقال له بشر كان بينه وبين يهودى خصومة فقال اليهودى ننطلق إلى محمد
وقال المنافق بل إلى كعب ابن الأشرف وهو الذى سماه الله الطاغوت فأبى اليهودى أن يخاصمه إلا إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فلما رأى المنافق ذلك أتى معه

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم
لليهودى فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا إلى عمر رضى الله عنه فأتيا عمر فقال اليهودى اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لى عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصم إليك فقال عمر رضى الله عنه للمنافق أكذلك؟ قال نعم قال لهما رويدكما حتى أخرج إليكما فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه ثم خرج
فضرب به المنافق حتى برد وقال هكذا أقضى بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزلت هذه الآية وقال ننطلق
جبريل أن عمر رضى الله عنه فرق بين الحق والباطل فسمى الفاروق وقال السدى كان ناس من اليهود أسلموا ونافق بعضهم
وكانت قريظة والنضير فى الجاهلية إذا قتل رجل من بنى قريظة رجلا من بنى النضير قتل به أو أخذ ديته مائة وسق وتمر وإذا قتل
رجل من بنى النضير رجلا من قريظة لم يقتل به وأعطى ديته ستين وسقا وكانت النضير وهم حلفاء الأوس أشرف وأكثر
من قريظة وهم حلفاء الخزرج فلما جاء الله بالإسلام وهاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلا من قريظة
فاختصموا فى ذلك فقالت بنو النضير كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلون منا وديتكم ستون وسقا وديتنا مائة وسق فنحن
نعطيكم ذلك فقالت الخزرج هذا شىء كنتم فعلتموه فى الجاهلية لكثرتكم وقلتنا فقهرتمونا ونحن وأنتم اليوم إخوة وديننا ودينكم واحد
فلا فضل لكم علينا فقال المنافقون منهم انطلقوا إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى وقال المسلمون من الفريقين لا بل إلى النبى ﷺ وأبى
المنافقون وانطلقوا إلى أبى بردة ليحكم بينهم فقال أعظموا اللقمة يعنى الحظ فقالوا لك عشرة أوسق قال لا بل مائة وسق ديتى فأبوا أن
يعطوه إلا عشرة أوسق وأبى أن يحكم بينهم فأنزل الله تعالى آيتى القصاص وهذه آية (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك
وما أنزل من قبلك) يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت يعنى إلى أبى بردة الكاهن أو كعب بن الأشرف (وقد أمروا أن يكفروا به

فى شىء) يعنى اختلفتم فى شىء من أمر دينكم والتنازع اختلاف الآراء وأصله من انتزاع الحجة
وهو أن كل واحد من المتنازعين ينزع الحجة لنفسه (فردوه إلا الله والرسول) أى ردوا ذلك
الأمر الذى تنازعتم فيه إلى كتاب الله عز وجل وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم مادام حيا وبعد
وفاته فردوه إلى سنته والرد إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجب إن وجد
ذلك الحكم فى كتاب الله أخذ به فان لم يوجد فى كتاب الله ففى سنة رسوله صلى الله غليه وسلم فان
لم يوجد فى السنة فسبيله الاجتهاد وقيل الرد إلى الله ورسوله أن يقول لما لايعلم الله ورسوله أعلم
(إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) يعنى افعلوا ذلك الذى أمرتكم به إن كنتم تؤمنون بالله وإن
طاعته واجبة عليكم وتؤمنون بالميعاد الذى فيه جزاء الأعمال قال العلماء فى الآية دليل على أن
من لايعتقد وجوب طاعة الله وطاعة الرسول ومتابعة السنة والحكم بالأحاديث الواردة عن النبى
صلى الله عليه وسلم لايكون مؤمنا بالله واليوم الآخر (ذلك خير) يعنى رد الحكم إلى الله ورسوله
خير (وأحسن تأويلا) يعنى وأحمد عاقبة وقيل معناه ذلك أى ردكم ما اختلفتم فيه إلى الله ورسوله
أحسن تأويلا منكم له وأعظم أجرا . قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل
إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) قال ابن
عباس نزلت فى رجل من المنافقين يقال له بشر كان بينه وبين يهودى خصومة فقال اليهودى

ننطلق إلى محمد وقال المنافق بل ننطلق إلى كعب بن الأشرف وهو الذى سماه الله الطاغوت فأبى اليهودى
أن يخاصمه إلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ
فقضى رسول الله ﷺ لليهودى فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال انطلق بنا إلى عمر فأتيا عمر
فقال اليهودى اختصمت أنا وهذا إلى محمد فقضى لى عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصمى
إليك فقال عمر للمنافق أكذلك قال نعم فقال لهما عمر رويدا حتى أخرج إليكما فدخل عمر البيت
وأخذ السيف واشتمل عليه ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد وقال هكذا أقضى بين من لم
يرض بقضاء الله وقضاء رسوله فنزلت هذه الآية وقال جبريل إن عمر فرق بين الحق والباطل
فسمى الفاروق وقال السدى كان ناس من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم وكانت قريظة
والنضير فى الجاهلية وكانت قريظة حلفاء الخزرج والنضير حلفاء الأوس وكان إذا قتل رجل
من بنى قريظة رجلا من بنى النضير قتل به أو أخذت ديته مائة وسق من تمر وإذا قتل رجل
من بنى النضير رجلا من قريظة لم يقتل به وأعطى ديته ستين وسقا فلما جاء الإسلام وهاجر
النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فاختصموا فى ذلك
فقال بنو النضير كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلوا منا وديتنا مائة وسق وديتكم
ستون وسقا فنحن نعطيكم ذلك فقالت الخزرج هذا شىء كنتم فعلتموه فى الجاهلية لكثرتكم
وقلتنا فقهرتمونا على ذلك فاليوم نحن إخوة فى الدين فلا فضل لكم علينا فقال المنافقون منهم
ننطلق إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى وقال المسلمون من الفريقين بل ننطلق إلى النبى صلى الله
عليه وسلم فأبى المنافقون وانطلقوا إلى أبى بردة الكاهن ليحكم بينهم فقال أطعموا اللقمة يعنى
الخطر فقالوا لك عشرة أوسق فقال لا بل مائة وسق ديتى فأبوا أن يعطوه إلا عشرة أوسق
وأبى أن يحكم بينهم فأنزل الله عز وجل آيتى القصاص وأنزل هذه الآية «ألم تر إلى الذين يزعمون
أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك» الزعم والزعم بضم الزاى وفتحها لغتان وأكثر
مايستعمل الزعم بمعنى القول الذى لايتحقق وقيل هو حكاية قول يكون مظنة للكذب ولذلك
قيل زعم مطية الكذب والمراد به فى هذه الآية الكذب لأن الآية نازلة فى المنافقين وظاهر
الآية يدل على أنها نازلة فى الذين نافقوا من مؤمنى أهل الكتاب ويدل عليه قوله آمنوا بما أنزل
إليك وما أنزل من قبلك يرون أن يتحاكموا إلى الطاغوت يعنى كعب بن الأشرف فى قول
ابن عباس سماه الله طاغوتا لإفراطه فى الطغيان وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل
هو أبو بردة الكاهن فى قول السدى وقد أمروا أن يكفروا به يعنى بالطاغوت لأن الكفر
بالطاغوت إيمانا بالله عز وجل (ويريد الشيطان أن يضلهم) يعنى عن طريق الهدى والحق (ضلالا
بعيدا وإذا قيل لهم) يعنى للمنافقين (تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول) يعنى هلموا إلى حكم
الله الذى أنزله فى كتابه وإلى الرسول ليحكم بينكم به (رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا)
يعنى يعرضون عنك وعن حكمك إعراضا وأى إعراض وإنما أعرض المنافقون عن حكم رسول
الله صلى الله عليه وسلم لأنهم علموا أنه صلى الله عليه وسلم كان يحكم بينهم بالحق الصريح
ولا يقبل الرشا . قوله عز وجل (فكيف إذا أصابتهم مصيبة) يعنى فكيف حال هؤلاء المنافقين
وكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة يعجزون عنها (بما قدمت أيديهم) يعنى تصيبهم عقوبة
بسبب ماقدمت أيديهم وهو التحاكم إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا وعيد لهم

ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) أى يعرضون عنك إعراضا (فكيف إذا أصابتهم مصيبة) هذا وعيد أى فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة (بما قدمت أيديهم) يعنى عقوبة صدودهم وقيل هى كل مصيبة تصيب جمع المنافقين فى الدنيا والآخرة وتم الكلام هاهنا ثم عاد الكلام إلى ماسبق يخبر عن فعلهم فقال

(ثم جاءوك) يعنى يتحاكمون الى الطاغوت ثم جاءوك أى يجيئونك يحلفون وقيل أراد بالمصيبة قتل عمر رضى الله عنه المنافق ثم جاءوا يطلبون ديته (يحلفون بالله إن أردنا) ما أردنا بالعدول عنه فى المحاكمة أو بالترافع إلى عمر (إلا إحسانا وتوفيقا) قال الكلبى إلا إحسانا فى القول وتوفيقا صوابا وقال ابن كيسان حقا وعدلا نظيره ليحلفن إن أردنا إلا الحسنى وقيل هو إحسان بعضهم إلى بعض وقيل هو تقريب الأمر من الحق لا القضاء على مر الحكم والتوفيق هو موافقة الحق وقيل هو التأليف والجمع بين الخصمين (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) من النفاق أى علم أن ما فى قلبهم خلاف ما فى ألسنتهم (فأعرض عنهم) أى عن عقوبتهم وقيل فأعرض عنهم عن قبول عذرهم (وعظهم) باللسان (وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) قيل هو التخويف بالله وقيل أن يوعدهم بالقتل إن لم يتوبوا. قال الحسن القول البليغ أن يقول لهم إن أظهرتم ما فى قلوبكم من النفاق قتلتم لأنه يبلغ من نفوسكم كل مبلغ وقال الضحاك فأعرض عنهم وعظهم فى الملأ وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا فى السر والخلاء وقيل هذا منسوخ بآية القتال قوله عز وجل (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله) أى بأمر الله لأن طاعة الرسول وجبت من بأمر الله قال الزجاج ليطاع باذن الله لأن الله قد أذن فيه وأمر به وقيل إلا ليطاع كلام تام كاف باذن الله تعالى أى بعلم الله وقضائه أى وقوع طاعته يكون باذن الله (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) بتحاكمهم إلى الطاغوت (جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول

على سوء صنيعهم ورضاهم بحكم الطاغوت دون حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل المصيبة هى قتل عمر لذلك المنافق وقيل هى كل مصيبة تصيب المنافقين فى الدنيا والآخرة (ثم جاءوك) يعنى المنافقين حين تصيبهم المصائب يعتذرون إليك (يحلفون بالله إن أردنا) أى ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك (إلا إحسانا) يعنى فى التحاكم إلى غيرك لا إساءة (وتوفيقا) يعنى بين الخصمين لا مخالفة لك فى حكمك وقيل جاء أولياء المنافق الذى قتله عمر يطلبون ديته وقالوا ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا فى حكمه ويوفق بينه وبين خصمه وما خطر ببالنا أنه يحكم بما حكم به من قتل صاحبنا فأهدر الله ذلك المنافق (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) يعنى من النفاق (فأعرض عنهم) يعنى عن عقوبتهم وقيل عن قبول عذرهم (وعظهم) يعنى باللسان والمراد زجرهم بالوعظ عن النفاق والكفر والكذب وتخويفهم بعذاب الآخرة (وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) يعنى بليغا يؤثر فى قلوبهم موقعه وهو التخويف بالله عز وجل وقيل هو أن يوعدهم بالقتل إن لم يتوبوا من النفاق وقيل هو أن يقول إن أظهرتم ما فى قلوبكم من النفاق قتلتم لأن هذا القول يبلغ فى نفوسهم كل مبلغ وقيل معناه فأعرض عنهم فى الملا وقل لهم فى أنفسهم إذا خلوت بهم قولا بليغا أى اغلظ لهم فى القول خاليا بهم ليس معهم غيرهم مسارا لهم بالنصيحة لأنها فى السر أنجع وقيل هذا الإعراض منسوخ بآية القتال وقد تكلم العلماء فى حد البلاغة فقال بعضهم البلاغة إيصال المعنى إلى الفهم فى أحسن صورة من اللفظ وقيل البلاغة حسن العبارة مع صحة المعنى وقيل البلاغة سرعة الإيجاز مع الإفهام وحسن التصرف من غير إدجار وقيل أحسن الكلام ما قلت ألفاظه وكثرت معانيه وقيل خير الكلام ما شوق أوله إلى سماع آخره وقيل لا يستحق الكلام اسم البلاغة إلا إذا طابق لفظه معناه ومعناه لفظه ولم يكن لفظه إلى السمع أسبق من معناه إلى القلب وقيل المراد بالقول البليغ فى الآية أن يكون حسن الألفاظ حسن المعانى مشتملا على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار والوعد والوعيد بالثواب والعقاب فان الكلام إذا كان كذلك عظم وقعه فى القلوب وأثر فى النفوس. قوله تعالى (وما أرسلنا من رسول) قال الزجاج لفظه من هنا صلة مؤكدة والمعنى وما أرسلنا رسولا (إلا ليطاع باذن الله) يعنى بأمر الله والمعنى إنما وجبت طاعة الرسول بأمر الله لأن الله أذن فى ذلك وأمر به وقيل معناه بعلم الله وقضائه أى طاعته تكون باذن الله لأنه أذن فيه فتكون طاعة الرسول طاعة الله ومعصيته معصية الله والمعنى وما أرسلنا من رسول إلا فرضت طاعته على من أرسلته إليهم وأنت يا محمد من الرسل الذين فرضت طاعتهم على من أرسلوا إليهم ففيه توبيخ وتقريع للمنافقين الذين تركوا حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوا بحكم الطاغوت (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) يعنى الذين تحاكموا إلى الطاغوت ظلموا أنفسهم بالتحاكم إليه (جاءوك) يعنى جاءوك تائبين من النفاق والتحاكم إلى الطاغوت متنصلين مما ارتكبوا من المخالفة (فاستغفروا الله) يعنى من ذلك الذنب بالإخلاص وبالغوا فى الاعتذار إليك من إيذائك برد حكمك والتحاكم إلى غيرك (واستغفر لهم الرسول) يعنى

لوجدوا الله توابا رحيما) قوله تعالى (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك) الآية أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمان أنا شعيب عن الزهرى أخبرني عروة بن الزبير أن الزبير رضى الله عنه كان يحدث أنه خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بدرا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة كانا يسقيان به كلاهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير اسق يازبير ثم أرسل إلى جارك فغضب الأنصارى ثم قال يارسول الله إن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال للزبير إسق ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشار على الزبير رأيا أى أراد سعة له

وللأنصار فلما أحفظ الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى للزبير حقه فى صريح الحكم قال عروة قال الزبير والله ما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك «فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم» الآية وروى أن الأنصارى الذى خاصم الزبير كان اسمه (١) حاطب بن أبى بلتعة فلما خرجا مرا على المقداد فقال لمن كان القضاء فقال الأنصارى قضى لابن عمته ولوى شدقيه ففطن له يهودى كان مع المقداد؟ فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه فى قضاء يقضى بينهم وأيم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة فى حياة موسى عليه السلام فدعانى موسى إلى التوبة منه فقال اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا فى طاعة ربنا حتى رضى عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس أما والله إن الله ليعلم منى الصدق ولو أمرنى محمد أن أقتل نفسى لفعلت فأنزل الله فى شأن حاطب بن أبى بلتعة «فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك» وقال مجاهد والشعبى نزلت فى بشر المنافق واليهودى الذين اختصما إلى عمر رضى الله عنه قوله تعالى فلا أى ليس الأمر كما يزعمون أنهم مؤمنون ثم لا يرضون بحكمك ثم استأنف القسم وربك لايؤمنون ويجوز أن يكون لا فى قوله فلا صلة كما فى قوله فلا أقسم حتى يحكموك أى يجعلوك حكما (فيما شجر بينهم) أى اختلف واختلط من أمورهم والتبس عليهم حكمه

من مخالفته والتحاكم إلى غيره وإنما قال واستغفر لهم الرسول ولم يقل واستغفرت لهم إجلالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتفخيما له وتعظيما لاستغفاره وأنهم إذا جاءوه فقد جاءوا من خصه الله برسالته وجعله سفيرا بينه وبين خلقه ومن كان كذلك فان الله تعالى لا يرد شفاعته فلهذا السبب عدل إلى طريقة الالتفات من لفظ الخطاب إلى لفظ الغيبة (لوجدوا الله توابا رحيما) يعنى لو أنهم تابوا من ذنوبهم ونفاقهم واستغفرت لهم لعلموا أن الله يتوب عليهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم. قوله عز وجل (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) نزلت هذه الآية فى الزبير بن العوام ورجل من الأنصار (ق) عن عروة بن الزبير عن أبيه أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير فى شراج الحرة التى يسقون بها النخل فقال الأنصارى سرح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير «اسق يازبير ثم أرسل إلى جارك فغضب الأنصارى ثم قال يارسول الله إن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال للزبير اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر فقال الزبير والله إنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك «فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم» زاد البخارى فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قد أشار على الزبير رأيا أى أراد سعة له وللأنصارى فلما أحفظ الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير حقه فى صريح الحكم قال الزبير والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك قوله فى شراج الحرة الشراج مسايل الماء التى تكون من الجبل وتنزل إلى السهل الواحدة شرجة بسكون الراء والحرة الأرض الحمراء المتلبسة بالحجارة السود وقوله فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى تغير وقوله فلما أحفظ أى أغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله حتى يرجع إلى الجدر هو بفتح الجيم يعنى أصل الجدار وقوله فاستدعى له أى استوفى له حقه فى صريح الحكم وهو أن من كان أرضه أقرب إلى فم الوادى فهو أولى بأول الوادى وحقه تمام السقى فرسول الله صلى الله عليه وسلم أذن للزبير فى السقى على وجه المسامحة فلما أبى خصمه ذلك ولم يعترف بما أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسامحة لأجله أمر الزبير باستيفاء حقه على التمام وحمل خصمه على مر الحق فعلى هذا القول تكون

(١) قوله اسمه حاطب فيه نظر فان حاطبا مهاجرى بدرى لا أنصارى اه مصححه.

ومنه الشجر لالتفاف أغصانه بعضها ببعض (ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا) قال مجاهد شكا وقال غيره ضيقا (مما قضيت) قال الضحاك إثما أى يأثمون بانكارهم

ما قضيت (ويسلموا تسليما) أى ينقادوا لأمرك انقيادا قوله تعالى (ولو أنا كتبنا) أى فرضنا وأوجبنا (عليهم أن اقتلوا أنفسكم) كما أمرنا بنى إسرائيل (أو اخرجوا من دياركم) كما أمرنا بنى إسرائيل بالخروج من مصر (ما فعلوه) معناه ما كتبنا عليهم إلا طاعة الرسول والرضا بحكمه ولو كتبنا عليهم القتل والخروج عن الدور ما كان يفعله (إلا قليل منهم) نزلت فى ثابت بن قيس وهو من القليل الذى استثنى الله قال الحسن ومقاتل لما نزلت هذه الآية . قال عمر وعمار بن ياسر وعبدالله ابن مسعود وناس من أصحاب النبى ﷺ وهم القليل والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذى عافانا فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال « إن من أمتى لرجالا الإيمان فى قلوبهم أثبت من الجبال الرواسى » قرأ ابن عامر وأهل الشام إلا قليلا بالنصب على الاستثناء وكذلك هو فى مصحف أهل الشام وقيل فيه إضمار تقديره إلا أن يكون قليلا منهم وقرأ الآخرون قليل بالرفع على الضمير الفاعل فى قوله فعلوه تقديره إلا نفر قليل فعلوه (ولو أنهم فعلوا مايوعظون به) يؤمرون به من طاعة الرسول والرضا بحكمه (لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا) تحقيقا وتصديقا لإيمانهم (وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما) ثوابا وافرا

الآية مستأنفة لاتعلق لها بما قبلها قال البغوى وروى أنهما لما خرجا مرا على المقداد فقال لمن كان القضاء قال الأنصارى لابن عمته ولوى شدقه ففطن له يهودى كان مع المقداد فقال قاتل الله هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ثم يتهمونه فى قضاء يقضى بينهم وأيم الله لقد أذنبنا ذنبا مرة فى حياة موسى فدعا موسى إلى التوبة منه فقال فاقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفا فى طاعة ربنا حتى رضى عنا فقال ثابت بن قيس بن شماس أما والله إن الله ليعلم منى الصدق ولو أمرنى محمد أن أقتل نفسى لفعلت وقال مجاهد والشعبى نزلت هذه الآية فى بشر المنافق واليهودى اللذين اختصما إلى الطاغوت وعلى هذا القول تكون الآية متصلة بما قبلها فلا وربك معناه فوربك فعلى هذا تكون لا مزيدة لتأكيد معنى القسم وقيل إن لا رد لكلام سبق كأنه قال ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا وهم يخالفون حكمك ثم استأنف القسم فقال تعالى فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم يعنى فيما اختلفوا فيه من الأمور وأشكل عليهم حكمه وقيل فيما التبس عليهم يقال شاجره فى الأمر إذا نازعه فيه وأصله التداخل والإختلاط وشجر الكلام إذا دخل بعضه فى بعض واختلط (ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت) يعنى ضيقا مما قضيت وقيل شكا فيما قضيت بل يرضوا بقضائك (ويسلموا تسليما) يعنى وينقادوا لأمرك انقيادا أولا يعارضونك فى شىء من أمرك وقيل معناه يسلموا ماتنازعوا فيه لحكمك قوله عز وجل (ولو أنا كتبنا عليهم) أى فرضنا وأوجبنا عليهم الضمير فى عليهم يعود على المنافقين وقيل يعود الضمير على الكافة فيدخل فيه المنافق وغيره (أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم) يعنى كما كتبنا على بنى إسرائيل القتل والخروج من مصر (مافعلوه إلا قليل منهم) معناه لم يفعله إلا القليل منهم نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وذلك أن رجلا من اليهود قال والله لقد كتب الله علينا القتل والخروج ففعلنا فقال ثابت والله لو كتب الله علينا ذلك لفعلنا وهو من القليل الذى استثنى الله وقيل لما نزلت هذه الآية قال عمر وعمار بن ياسر وابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم القليل الذين ذكرهم الله والله لو أمرنا لفعلنا والحمد لله الذى عافانا فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال «إن من أمتى لرجالا الإيمان فى قلوبهم أثبت من الجبال الرواسى» ومن قال أن الضمير فى عليهم يعود إلى المنافقين قال معنى ما فعلوه إلا قليل منهم يعنى رياء وسمعة والمعنى إن ما كتبنا عليهم إلا طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والرضا بحكمه ولو أنا كتبنا عليهم القتل والخروج من الدور والوطن ما كان فعله إلا نفر يسير منهم وقرئ (إلا قليلا منهم) بالنصب وتقديره إلا أن يكون قليلا منهم (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) يعنى ولو أنهم فعلوا ما كلفوا به من طاعة الرسول ﷺ والرضا بحكمه (لكان خيرا لهم) يعنى فى الدنيا والآخرة وإنما سمى ذلك التكليف وعظا لأن أوامر الله تعالى وتكاليفه مقرونة بالوعد والوعيد والثواب والعقاب وما كان كذلك يسمى وعظا (وأشد تثبيتا) يعنى تحقيقا وتصديقا لإيمانهم والمعنى أن ذلك أقرب إلى إثبات إيمانهم وتصديقهم (وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما) يعنى ثوابا وافرا جزيلا وإذا جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ماذا يكون من هذا الخير والتثبيت قال هو أن نؤتيهم

(ولهديناهم صراطا مستقيما) أى إلى الصراط المستقيم قوله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين) الآية نزلت فى ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم قد تغير لونه يعرف الحزن فى وجهه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ماغير لونك فقال يارسول الله مابى مرض ولا وجع غير أنى إن لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك لأنك ترفع مع النبيين وإنى إن دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك وإن لم أدخل الجنة لاأراك أبدا (٥٥٧) فنزلت هذه الآية وقال قتادة

من لدنا أجرا عظيما (ولهديناهم صراطا مستقيما) قال ابن عباس معناه ولأرشدناهم إلى دين مستقيم يعنى دين الإسلام وقيل معناه ولهديناهم إلى الأعمال الصالحة التى تؤدى إلا الصراط المستقيم وهو الصراط الذى يمر عليه المؤمنون إلى الجنة لأن الله تعالى ذكر الأجر العظيم أولا ثم ذكر الصراط المستقيم بعده لأنه هو المؤدى إلى الجنة . قوله عز وجل (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم) الآية نزلت فى ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن فى وجهه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ماغير لونك فقال يارسول الله مابى مرض ولاوجع غير أنى إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم أنى إذا ذكرت الآخرة أخاف لاأراك لأنك ترفع إلى عليين مع النبيين وإنى أخاف إن دخلت الجنة كنت فى منزلة هى أدنى من منزلتك وإن لم أدخل الجنة لاأراك أبدا فنزلت هذه الآية وقيل إن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال كيف يكون الحال وأنت يارسول الله فى الدرجات العلى ونحن أسفل منك فكيف نراك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ومن يطع الله يعنى فى أداء الفرائض واجتناب النواهى والرسول أى ويطع الرسول في السنن التى سنها فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم يعنى بالهداية والتوفيق فى الدنيا وبدخول الجنة فى الآخرة (من النبيين) يعنى أن المطيعين مع النبيين فى الجنة لاتفوتهم رؤية الأنبياء فى الجنة ومجالستهم لاأنهم يكونون فى درجتهم فى الجنة لأن ذلك يقتضى التسوية فى الدرجة بين الفاضل والمفضول (والصديقين) الصديق الكثير الصدق فعيل من الصدق والصديقون هم أتباع الرسل الذين اتبعوهم على مناهجهم بعدهم حتى لحقوا بهم وقيل الصديق هو الذى صدق بكل الدين حتى لايخالطه فيه شك والمراد بالصديقين فى هذه الآية أفاضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبى بكر فانه هو الذى سمى بالصديق من هذه الأمة وهو أفضل أتباع الرسل (والشهداء) هم الذين استشهدوا فى سبيل الله وقيل هم الذين استشهدوا يوم أحد (والصالحين) جمع صالح وهو الذى استوت سريرته وعلانيته فى الخير وقيل الصالح من اعتقاده صواب وعمله فى سنة وطاعة وقيل المراد بالنبيين هنا محمد صلى الله عليه وسلم وبالصديقين أبو بكر وبالشهداء عمر وعثمان وعلى وبالصالحين سائر الصحابة (وحسن أولئك) يعنى المشار إليهم وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وفيه معنى التعجب كأنه قال وما أحسن أولئك (رفيقا) يعنى فى الجنة والرفيق الصاحب سمى رفيقا لارتفاقك به وبصحبته وإنما وحد الرفيق

قال بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كيف يكون الحال فى الجنة وأنت فى الدرجات العلا ونحن أسفل منك وكيف نراك فأنزل الله تعالى هذه الآية ومن يطع الله فى أداء الفرائض والرسول فى السنن فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين أى لاتفوتهم رؤية الأنبياء ومجالستهم لأنهم يرفعون إلى درجة الأنبياء (والصديقين) وهم أفاضل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والصديق المبالغ فى الصدق (والشهداء) قيل هم الذين استشهدوا فى يوم أحد وقيل الذين استشهدوا فى سبيل الله وقال عكرمة النبيون هاهنا محمد صلى الله عليه وسلم والصديق أبو بكر والشهداء عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم (والصالحين) سائر الصحابة رضى الله عنهم

(وحسن أولئك رفيقا) يعنى رفقاء فى الجنة والعرب تضع الواحد موضع الجمع كقوله تعالى ثم نخرجكم طفلا أى أطفالا ويولون الدبر أى الأدبار أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدى أنا أبو العباس السراج أنا قتيبة ابن سعيد أنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس أن رجلا قال يارسول الله الرجل يحب قوما ولم يلحق بهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى وأبو عمر ومحمد بن عبد الرحمن النسوى قالا أخبرنا أحمد ابن الحسن الحيرى أنا أبو العباس الأصم أنا أبو يحيى زكريا بن يحيى المروزى أنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رجل يارسول الله متى الساعة قال : وما أعددت لها قال لاشىء إلا أنى أحب الله ورسوله قال فأنت مع

من أحببت» (ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) أى بثواب الآخرة وقيل من أطاع رسول الله وأحبه وفيه بيان أنهم لن ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم وإنما نالوها بفضل الله عز وجل أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى أنا حاجب بن أحمد الطوسى أنا عبد الرحيم بن منيب أنا يعلى بن عبيد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قاربوا وسددوا واعلموا أنه لاينجو أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل منه ورحمة» (٥٥٨) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) من عدوكم أى عدتكم وآلتكم من السلاح والحذر والحذر واحد كالمثل والمثل والشبه والشبه (فانفروا) أخرجوا (ثبات) أى سرايا متفرقين سرية بعد سرية، والثبات جماعات فى تفرقة واحدتها ثبة (أو انفروا جميعا) أى مجتمعين كلكم مع النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وإن منكم لمن ليبطئن) نزلت فى المنافقين وإنما قال منكم لاجتماعهم مع أهل الإيمان فى الجنسية والنسب وإظهار الإسلام لا فى حقيقة الإيمان ليبطئن أى ليتأخرن وليتثاقلن عن الجهاد وهو عبد الله بن أبى المنافق واللام فى ليبطئن لام القسم والتبطئة التأخر عن الأمر يقال ما أبطأ بك أى ما أخرك عنا ويقال أبطأ إبطاء وبطأ يبطئ تبطئة (فان أصابتكم مصيبة) أى قتل وهزيمة (قال قد أنعم الله على) بالقعود (إذ لم أكن معهم شهيدا) أى حاضرا فى تلك الغزاة فيصيبنى ما أصابهم (ولئن أصابكم فضل من الله) فتح وغنيمة (ليقولن) هذا المنافق وفيه تقديم وتأخير وقوم كأن لم يكن بينكم وبينه مودة متصل بقوله فان أصابتكم مصيبة تقديره فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) أى معرفة قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب تكن بالتاء والباقون بالياء أى ولئن أصابكم فضل من الله يقولن (ياليتنى كنت معهم) فى تلك الغزاة (فأفوز فوزا عظيما) أى آخذ نصيبا وافرا من الغنيمة وقوله فأفوز نصب على جواب التمنى بالفاء كما تقول وددت أن أقوم فيتبعنى الناس قوله تعالى (فليقاتل

وهو صفة الجمع لأن العرب تعبر به عن الواحد والجمع وقيل معناه وحسن كل واحد من أولئك رفيقا (ق) عن أنس أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال متى الساعة قال «وما أعددت لها قال لا شىء إلا إنى أحب الله ورسوله فقال أنت مع من أحببت» قال أنس فما فرحنا بشىء أشد فرحا بقول النبى صلى الله عليه وسلم أنت مع من أحببت قال أنس فأنا أحب النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم وإن لم أعمل بأعمالهم. وقوله تعالى (ذلك) إشارة إلى ما تقدم ذكره من وصف الثواب (الفضل من الله) يعنى الذي أعطى الله المطيعين من الأجر العظيم (وكفى بالله عليما) يعنى بجزاء من أطاعه وقيل معناه وكفى بالله عليما بعباده فهو يوفقهم لطاعته وفيه دليل على أنهم لم ينالوا تلك الدرجة بطاعتهم بل إنما نالوها بفضل الله تعالى ورحمته ويدل عليه ما روى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة» لفظ البخارى ولمسلم نحوه. قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) الحذر احتراز من مخوف والمعنى احذروا واحترزوا من عدوكم ولا تمكنوه من أنفسكم وقيل المراد بالحذر هنا السلاح يعنى خذوا سلاحكم وعدتكم لقتال عدوكم وإنما سمى السلاح حذرا لأن به يتقى ويحذر وقيل معناه احذروا عدوكم ولقائل أن يقول إذا كان المقدور كائنا فما يمنع الحذر فالجواب عنه بأنه لما كان الكل بقضاء الله وقدره كان الأمر بأخذ الحذر من قضاء الله وقدره (فانفروا ثبات) أى اخرجوا سرايا متفرقين سرية بعد سرية (أو انفروا جميعا) يعنى أو اخرجوا جميعا كلكم مع نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى جهاد عدوكم (وإن منكم لمن ليبطئن) نزلت فى المنافقين وإنما قال منكم لاجتماعهم مع أهل الإيمان فى الجنسية والنسب وإظهار كلمة الإسلام لا فى حقيقة الإيمان والمعنى وإن منكم لمن ليتأخرن وليتثاقلن عن الجهاد وهو عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق وكان رأس المنافقين (فان أصابتكم مصيبة) أى قتل وهزيمة (قال) يعنى هذا المنافق (قد أنعم الله على) يعنى بالقعود (إذ لم أكن معهم) يعنى مع المؤمنين (شهيدا) يعنى حاضر الوقعة فيصيبنى ما أصابهم (ولئن أصابكم فضل من الله) أى فتح وغنيمة (ليقولن) يعنى هذا المنافق (كأن لم تكن بينكم وبينه مودة) أى معرفة ومودة فى الدين والمعنى كأنه ليس من أهل دينكم وذلك أن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين فى الظاهر (ياليتنى كنت معهم) فى تلك الغزوة التى غنم فيها المؤمنون (فأفوز فوزا عظيما) أى فآخذ نصيبا وافرا من الغنيمة قوله عز وجل

(فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) قيل نزلت فى المنافقين ومعنى يشرون أى يشترون يعنى الذين يختارون الدنيا على الآخرة ومعناه آمنوا ثم قاتلوا وقيل نزلت فى المؤمنين المخلصين معناه فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون أى يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة ويختارون الآخرة (ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل) يعنى يستشهد (أو يغلب) يظفر (فسوف نؤتيه) فى كلا الوجهين (أجرا عظيما) ويدغم أبو عمرو والكسائى الباء فى الفاء حيث كان

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسى أنا زاهر ابن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «تكفل الله لمن جاهد فى سبيل الله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة» أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقى أنا أبو الحسن على بن عبد الله الطيسفونى أنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر الجوهرى أنا أحمد بن على الكشميهنى أنا على بن حجر أنا إسماعيل ابن جعفر أنا محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل القانت الصائم الذى لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجعه الله إلى أهله بما يرجعه من غنيمة وأجر أو يتوفاه فيدخله الجنة» قوله تعالى (ومالكم لا تقاتلون) لا تجاهدون (فى سبيل الله) فى طاعة الله يعاتبهم على ترك الجهاد (والمستضعفين) أى عن المستضعفين وقال ابن شهاب فى سبيل المستضعفين لتخليصهم وقيل فى تخليص المستضعفين من أيدى المشركين وكان بمكة جماعة من الرجال والنساء والولدان يلقون من المشركين أذى كثيرا (الذين) يدعون و (يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) يعنى مكة (الظالم) أى المشرك (أهلها) يعنى القرية التى من صفتها أن أهلها مشركون وإنما خفض الظالم لأنه نعت

(فليقاتل فى سبيل الله) هذا خطاب للمنافق أى فليخلص الإيمان وليقاتل فى سبيل الله وقيل هو خطاب للمؤمنين المخلصين أى فليقاتل المؤمنون فى سبيل الله (الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أى يبيعون يقال شريت بمعنى بعت لأنه استبدال عوض بعوض والمعنى فليقاتل المؤمنون الكافرين الذين يبيعون حياتهم فى الدنيا بثواب الآخرة وما وعد الله فيها لأهل الإيمان والطاعة وقيل معناه فليقاتل فى سبيل الله المؤمنون الذين يبيعون الحياة الدنيا ويختارون الآخرة وثوابها على الدنيا الفانية (ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل) أى فيستشهد (أو يغلب) يعنى يظفر بعدوه من الكفار (فسوف نؤتيه) يعنى فى كلا الحالتين الشهادة أو الظفر نؤتيه فيهما (أجرا عظيما) يعنى ثوابا وافرا (ق) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى وتصديق برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة» لفظ مسلم. قوله عز وجل (وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله) قال المفسرون هذا حض من الله على الجهاد فى سبيله لاستنقاذ المؤمنين المستضعفين من أيدى الكفار وفيه دليل على أن الجهاد واجب والمعنى لا عذر لكم فى ترك الجهاد وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والأذى (والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) قال ابن عباس يريد أن قوما من المؤمنين استضعفوا فحبسوا وعذبوا وقيل كان هؤلاء بمكة يلقون من المشركين أذى شديدا وكان أهل مكة قد اجتهدوا أن يفتنوا قوما من المؤمنين عن دينهم بالأذى لهم وكانوا مستضعفين فى أيديهم ولم يكن لهم بمكة قوة يمتنعون بها من المشركين فعلى هذا يكون معنى الآية وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله وفى خلاص المستضعفين وقال ابن عباس معناه وعن المستضعفين لأن المراد صرف الأذى عنهم (خ) عن ابن عباس فى قوله وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين الآية قال كنت أنا وأمى من المستضعفين وفى رواية ابن أبى مليكة قال تلا ابن عباس إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان قال كنت أنا وأمى ممن عذر الله أنا من الولدان وأمى من النساء فعلى هذه الرواية الثانية من حديث ابن عباس يكون معنى والمستضعفين إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان فإنهم ممن عذر الله فى ترك القتال والولدان جمع وليد وهو الصبى الصغير (الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية) يعنى مكة (الظالم أهلها) يعنى الظالم أهلها أنفسهم بالشرك لقوله تعالى «إن الشرك لظلم عظيم» وذلك أن المستضعفين لما منعهم المشركون من الهجرة من مكة إلى المدينة دعو الله عز وجل فقالوا ربنا أخرجنا من هذه القرية

للأهل فلما عاد الأهل إلى القرية صار الفعل لها كما يقال مررت برجل حسنة عينه (واجعل لنا من لدنك وليا) أى من يلى أمرنا (واجعل لنا من لدنك نصيرا) أى من يمنع العدو عنا فاستجاب الله دعوتهم فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ولى عليهم عتاب بن أسيد وجعله الله لهم نصيرا ينصف المؤمنين المظلومين من الظالمين قوله تعالى (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله) أى فى طاعته (والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) أى فى طاعة الشيطان (فقاتلوا) أيها المؤمنون (أولياء الشيطان) أى حزبه وجنوده وهم الكفار (إن كيد الشيطان) مكره (كان ضعيفا) كما فعل يوم بدر لما رأى الملائكة خاف أن يأخذوه فهرب وخذلهم قوله تعالى (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم) الآية قال الكلبى نزلت فى عبد الرحمن بن عوف الزهرى والمقداد بن الأسود الكندى وقدامة ابن مظعون الجمحى وسعد بن أبى وقاص وجماعة كانوا يلقون من المشركين بمكة أذى كثيرا قبل أن يهاجروا ويقولون يا رسول الله إئذن لنا فى قتالهم فانهم قد آذونا فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «كفوا أيديكم فانى لم أومر بقتالهم (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فلما هاجروا إلى المدينة وأمرهم الله بقتال المشركين شق ذلك على بعضهم قال الله تعالى (فلما كتب) فرض (عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس) يعنى يخشون مشركى مكة (كخشية الله) أى كخشيتهم من الله (أو أشد) أكبر (خشية) وقيل معناه وأشد خشية (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال) الجهاد (لولا) هلا (أخرتنا إلى أجل قريب) يعنى الموت أى هلا تركتنا حتى نموت بآجالنا واختلفوا فى هؤلاء الذين قالوا ذلك فقيل قاله قوم من المنافقين لأن قوله «لم كتبت علينا القتال» لا يليق بالمؤمنين وقيل قاله جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين فى العلم قالوه خوفا وجبنا لا اعتقادا ثم تابوا وأهل الإيمان يتفاضلون فى الإيمان وقيل هم قوم كانوا مؤمنين، فلما فرض عليهم القتال نافقوا من الجبن وتخلفوا عن الجهاد (قل) يا محمد (متاع الدنيا) أى منفعتها والاستمتاع بها (قليل والآخرة) وثواب الآخرة (خير) أفضل (لمن اتقى) (ولا

يعنى مكة الظالم أهلها بالشرك (واجعل لنا من لدنك وليا) يعنى وليا يلى أمرنا (واجعل لنا من لدنك نصيرا) يعنى يبصرنا ويمنعنا من العدو فاستجاب الله دعاءهم وجعل لهم من لدنه خير ولى وخير ناصر وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتولى أمرهم ونصرهم واستنقذهم من أيدى المشركين يوم فتح مكة واستعمل عليهم عتاب بن أسيد وكان ابن ثمان عشرة سنة فكان ينصر المظلومين على الظالمين ويأخذ للضعيف من القوى. قوله عز وجل (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله) يعنى فى طاعة الله وإعلاء كلمته وابتغاء مرضاته (والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) يعنى فى طاعة الشيطان (فقاتلوا أولياء الشيطان) أى فقاتلوا أيها المؤمنون حزب الشيطان وجنوده وهم الكفار (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) الكيد السعى فى الفساد على جهة الاحتيال ويعنى بكيده ما كاد المؤمنين به من تخويفه أولياءه الكفار يوم بدر وكونه ضعيفا لأنه خذل أولياءه الكفار لما رأى الملائكة قد نزلت يوم بدر وكان النصر لأولياء الله وحزبه على أولياء الشيطان وإدخال كان فى قوله ضعيفا لتأكيد ضعف كيد الشيطان. قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) قال الكلبى نزلت فى عبد الرحمن بن عوف الزهرى والمقداد بن الأسود الكندى وقدامة بن مظعون الجمحى وسعد بن أبى وقاص وجماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يلقون من المشركين أذى كثيرا بمكة قبل أن يهاجروا فكانوا يقولون يا رسول الله ائذن لنا فى قتالهم فانهم قد آذونا فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «كفوا أيديكم فانى لم أومر بقتالهم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» يعنى قيل لهم كفوا أيديكم عن قتالهم وأدوا ما افترض عليكم من الصلاة والزكاة وفيه دليل على أن فرض الصلاة والزكاة كان قبل فرض الجهاد (فلما كتب عليهم القتال) أى فرض عليهم جهاد المشركين وأمروا بالخروج إلى بدر (إذا فريق منهم) يعنى إذا جماعة من الذين سألوا أن يفرض عليهم الجهاد (يخشون الناس) يعنى يخافون مشركى مكة (كخشية الله أو أشد خشية) أو بمعنى الواو يعنى وأشد خشية (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال) يعنى لما فرضت علينا الجهاد (لولا أخرتنا إلى أجل قريب) يعنى هلا تركتنا ولم تفرض علينا القتال حتى نموت بآجالنا والقائلون لهذا القول هم المنافقون لأن هذا القول لا يليق بالمؤمنين وقيل قاله بعض المؤمنين وإنما قالوا ذلك خوفا وجبنا لاعتقادا ثم إنهم تابوا من هذا القول (قل) أى قل لهم يا محمد (متاع الدنيا قليل) يعنى أن منفعتها والاستمتاع بالدنيا قليل لأنه فان زائل (والآخرة) يعنى وثواب الآخرة (خير لمن اتقى) يعنى اتقى الشرك ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم

الشرك ومعصية الرسول (ولا تظلمون فتيلا) قرأ ابن كثير وأبو جعفر وحمزة والكسائى بالياء والباقون تظلمون بالتاء أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن معاوية الصيدلانى أخبرنا الأصم أنا عبد الله بن محمد ابن شاكر أنا محمد بن بشر العبدى أنا مسعر بن كدام عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم حدثنى المستورد بن شداد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع» قوله عز وجل (أينما تكونوا يدرككم الموت) أى ينزل بكم الموت نزلت فى المنافقين الذين قالوا فى قتلى أحد لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فرد الله تعالى عليهم بقوله أينما تكونوا يدرككم الموت (ولو كنتم فى بروج مشيدة) والبروج الحصون والقلاع والمشيدة المرفوعة المطولة قال قتادة معناه فى قصور محصنة وقال عكرمة مجصصة والشيد الجص (وإن تصبهم حسنة) نزلت فى اليهود والمنافقين وذلك أنهم قالوا لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ما زلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه قال الله تعالى وإن تصبهم يعنى اليهود حسنة أى خصب ورخص فى السعر (يقولوا هذه من عند الله) لنا (وإن تصبهم سيئة) يعنى الجدب وغلاء الأسعار (يقولوا هذه من عندك) أى من شؤم محمد وأصحابه وقيل المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أحد يقولوا هذه من عندك أى أنت الذى حملتنا عليه يا محمد فعلى هذا يكون هذا من قول المنافقين (قل) لهم يا محمد (كل من عند الله) أى الحسنة والسيئة كلها من عند الله ثم عيرهم بالجهل فقال (فمال هؤلاء القوم) يعنى المنافقين واليهود (لا يكادون يفقهون حديثا) أى لا يفقهون قولا وقيل الحديث هاهنا هو القرآن أى لا يفقهون معانى القرآن قوله فمال هؤلاء قال الفراء كثرت فى الكلام هذه الكلمة حتى توهموا أن اللام متصلة بها وأنهما حرف واحد ففصلوا اللام مما بعدها فى بعضه ووصلوها فى بعضه والاتصال القراءة ولا يجوز الوقف على اللام لأنها لام خافضة قوله عز وجل (ما أصابك من حسنة) خير ونعمة (فمن الله وما أصابك من سيئة) بلية أو أمر تكرهه (فمن نفسك) أى بذنوبك والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره نظيره قوله تعالى «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» وتعلق أهل القدر بظاهر هذه الآية فقالوا

(ولا تظلمون فتيلا) أى ولا تنقصون من أجوركم قدر فتيل (م) عن المستورد بن شداد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه وأشار يعنى بالسبابة فى اليم فلينظر بم ترجع». قوله عز وجل (أينما تكونوا يدرككم الموت) نزلت فى المنافقين الذين قالوا فى قتلى أحد لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا فرد الله عليهم بهذه الآية وقيل نزلت فى الذين قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال فرد الله عليهم بقوله تعالى «أينما تكونوا يدرككم الموت» يعنى ينزل بكم الموت فبين تعالى أنه لا خلاص لهم من الموت وإذا كان لابد لهم من الموت كان القتل فى سبيل الله وجهاد أعدائه أفضل من الموت على الفراش لأن الجهاد موت تحصل به سعادة الآخرة ثم بين تعالى أنه لابد لهم من الموت وأنه لا ينجى منه شىء بقوله (ولو كنتم فى بروج مشيدة) البروج فى كلام العرب الحصون والقلاع والمشيدة المرفوعة المطولة وقيل هى المطلية بالشيد وهو الجص (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله) نزلت فى المنافقين واليهود وذلك أن المدينة كانت ذات خير وأرزاق ونعم عند مقدم النبى صلى الله عليه وسلم فلما ظهر نفاق المنافقين وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض لإمساك فقال المنافقون واليهود ما زلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه فقال الله تعالى وإن تصبهم يعنى المنافقين واليهود حسنة أى خصب فى الثمار ورخص فى السعر يقولوا هذه من عند الله يعنى من قبل الله (وإن تصبهم سيئة) أى جدب فى الثمار وغلاء فى السعر (يقولوا هذه من عندك) يعنى من شؤم محمد وأصحابه وقيل المراد بالحسنة الظفر والغنيمة يوم بدر وبالسيئة القتل والهزيمة يوم أحد ومعنى من عندك أنت الذى حملتنا عليه يا محمد فعلى هذا القول يكون هذا إخبارا عن المنافقين خاصة (قل) أى قل لهم يا محمد (كل من عند الله) يعنى الحسنة والسيئة والخصب والجدب والغنيمة والهزيمة والظفر والقتل فأما الحسنة فإنعام من الله وأما السيئة فابتلاء منه (فمال هؤلاء القوم) أى فما شأن هؤلاء القوم المنافقين واليهود الذين قالوا ما قالوا (لا يكادون يفقهون حديثا) يعنى لا يفقهون معانى القرآن وأن الأشياء كلها من الله عز وجل خيرها وشرها. قوله تعالى (ما أصابك من حسنة) يعنى من خير ونعمة (فمن الله) يعنى من فضل الله عليك يتفضل به إحسانا منه إليك (وما أصابك من سيئة) يعنى من شدة ومكروه ومشقة وأذى (فمن نفسك)

نفى الله تعالى السيئة عن نفسه ونسبها إلى العبد فقال وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولا متعلق لهم فيه لأنه ليس المراد من
الآية حسنات الكسب ولاسيئاته من الطاعات والمعاصى بل المراد منهم مايصيبهم من النعم والمحن وذلك ليس من فعلهم
بدليل أنه نسبها إلى غيرهم ولم ينسبها إليهم فقال ما أصابك ولايقال فى الطاعة والمعصية أصابنى إنما يقال
أصبتها ويقال فى المحن أصابنى بدليل أنه لم يذكر عليه ثوابا ولا عقابا فهو كقوله تعالى «فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه» فلما ذكر حسنات الكسب وسيئاته نسبها إليه ووعد عليها الثواب والعقاب فقال «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها» وقيل معنى الآية ماأصابك من حسنة من النصر والظفر يوم بدر فمن الله أى من فضل الله وماأصابك من سيئة من القتل والهزيمة يوم أحد فمن نفسك أى يعنى فبذنوب أصحابك وهو مخالفتهم لك فان قيل كيف وجه الجمع بين قوله قل كل من عند الله وبين قوله فمن نفسك قيل قوله قل كل من عند الله أى الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله وقوله فمن نفسك أى وما أصابك
من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك كما قال الله تعالى «وما أصابكم من
مصيبة فبما كسبت أيديكم» يدل عليها ماروى مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأنا
كتبتها عليك وقال بعضهم هذه الآية متصلة بما قبلها والقول فيه مضمر تقديره فال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا
يقولون ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك قل كل من عند الله (وأرسلناك) يا محمد (للناس رسولا)

يعنى فمن قبل نفسك وبذنب اكتسبته نفسك استوجبت ذلك به وفى المخاطب بهذا الكلام قولان: أحدهما أنه عام وتقديره ماأصابك أيها الإنسان والثانى أنه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به من غيره من الأمة والنبى صلى الله عليه وسلم برىء لأن الله عز وجل قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر وقد عصمه من حين البعثة فهو معصوم فيما يستقبل حتى يموت، ويدل على أن المراد بهذا الخطاب غيره قوله عزوجل «ياأيها النبى إذا طلقتم النساء» خاطبه وحده ثم جمع الكل بقوله إذا طلقتم النساء فمعنى قوله فمن نفسك أى عقوبة لذنبك ياابن آدم كذا قاله قتادة وقال الكلبى ماأصابك من خير فالله هداك له وأعانك فيه وما أصابك من أمر تكرهه فبذنبك عقوبة لذلك الذنب وقد تعلق بظاهر هذه الآية القدرية وقالوا نفى الله السيئة عن نفسه ونسبها إلى الإنسان بقوله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولامتعلق لهم بها لأنه ليس المراد من الآية حسنة الكسب من الطاعات ولا السيئة المكتسبة من فعل المعاصى بل المراد من الحسنة والسيئة فى هذه الآية مايصيب الإنسان من النعم والمحن وذلك ليس من فعل العبد لأنه لايقال فى الطاعة والمعصية أصابنى وإنما يقال أصبتها ويقال فى النعم والمحن أصابنى بدليل أنه لم يذكر عليه ثوابا ولا عقابا فهو كقوله تعالى فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ولما ذكر الله حسنات الكسب وسيئاته وعد عليها بالثواب والعقاب فقال تعالى «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلايجزى إلامثلها» فبطل بهذا قول القدرية وقال بعضهم لو كانت الآية على مايقول أهل القدر لقال ماأصبت من حسنة وما أصبت من سيئة ولم يقل ماأصابك لأن العادة جرت بقول الإنسان أصابنى خير أومكروه وأصبت حسنة أو سيئة وقيل فى معنى الآية ماأصابك من حسنة أى النصر والظفر يوم بدر فمن الله أى من فضل الله وما أصابك من سيئة أى من قتل وهزيمة يوم أحد فمن نفسك يعنى فبذنوب أصحابك وهو مخالفتهم إياك . فان قلت كيف وجه الجمع بين قوله تعالى قل كل من عند الله وبين قوله وما أصابك من سيئة فمن نفسك فأضاف السيئة إلى فعل العبد فى هذه الآية . قلت أما إضافة الأشياء كلها إلى الله تعالى فى قوله «قل كل من عند الله» فعلى الحقيقة لأن الله تعالى وهو خالقها وموجدها وأما إضافة السيئة إلى فعل العبد فعلى المجاز تقديره وما أصابك من سيئة فمن الله بذنب نفسك عقوبة لك وقيل إضافة السيئة إلى فعل العبد على سبيل الأدب فهو كقوله تعالى وإذا مرضت فهو يشفين فأضاف المرض إلى نفسه على طريق الأدب ولايشك عاقل أن الممرض هو الله تعالى وقيل هذه متصلة بما قبلها وفيه إضمار وتقديم وتأخير تقديره فال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ويقولون ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك قل كل من عند الله وقال ابن الأنبارى فى معنى الآية ما أصابك الله به من حسنة وما أصابك به من سيئة فالفعلان راجعان إلى الله تعالى . قوله تعالى (وأرسلناك للناس رسولا) يعنى وأرسلناك يامحمد إلى كافة الناس رسولا لتبلغهم رسالتى وما أرسلتك به ولست

ولست رسولا إلى العرب خاصة كما قال بعض اليهود بل أنت رسول إلى الخلق كافة العرب وغيرهم (وكفى بالله شهيدا) يعنى على إرسالك للناس كافة فما ينبغى لأحد أن يخرج عن طاعتك واتباعك وقيل معناه وكفى بالله شهيدا على تبليغك ماأرسلت به إلى الناس وقيل معناه وكفى بالله شهيدا على أن الحسنة والسيئة من الله قوله عز وجل (من يطع الرسول فقد أطاع الله) سبب نزول هذه الآية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أحبنى فقد أحب الله» فقال بعض المنافقين ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربا فأنزل الله هذه من يطع الرسول يعنى فيما أمر به ونهى عنه فقد أطاع الله يعنى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة الله تعالى لأنه هو أمر بها وقال الحسن جعل الله طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم طاعته وقامت به الحجة على المسلمين وقال الشافعى إن كل فريضة فرضها الله فى كتابه كالحج والصلاة والزكاة لولا بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ما كنا نعرف كيف نأتيها ولا كان يمكننا أداء شىء من العبادات وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المنزلة الشريفة كانت طاعته على الحقيقة طاعة لله (ومن تولى) أى أعرض عن طاعته (فما أرسلناك عليهم حفيظا) يعنى حافظا تحفظ أعمالهم عليهم بل كل أمرهم إلى الله قال المفسرون وكان هذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسخ ذلك بآية القتال قوله تعالى (ويقولون طاعة) نزلت فى المنافقين وذلك أن المنافقين كانوا يقولون باللسان لرسول الله صلى الله عليه وسلم آمنا بك وصدقناك فمرنا فأمرك طاعة أى أمرنا وشأننا طاعة (فاذا برزوا من عندك) أي خرجوا من عندك (بيت طائفة منهم غير الذى تقول) التبييت كل أمر يفعل بالليل يقال هذا أمر مبيت إذا دبر بليل وقضى بليل فقدبيت والمعنى أنهم قالوا وقدروا أمرا بالليل غير الذى أعطوك بالنهار من الطاعة وقيل معنى بيت غير وبدل طائفة منهم غير الذى تقول يعنى غير الذى عهدت إليهم فعلى هذا يكون التبييت بمعنى التبديل وإنما خص طائفة من المنافقين بالتبييت فى قوله منهم وكلمة من للتبعيض لأنه تعالى علم أن منهم من يبقى على كفره ونفاقه ومنهم من يرجع عنه ويتوب فخص من يصر على النفاق بالذكر وقيل إن طائفة منهم اجتمعوا فى الليل وبيتوا ذلك القول فخصهم بالذكر (والله يكتب) أى يثبت ويحفظ عليهم (مايبيتون) يعنى مايزورون ويغيرون ويقدرون وقال ابن عباس يكتب مايسرون من النفاق (فأعرض عنهم) أى لاتعاقبهم يامحمد ولا تحدث نفسك بالانتقام منهم وخلهم في ضلالتهم فأنا منتقم منهم وقيل لاتغتر باسلامهم (وتوكل على الله) أى فوض أمرك إلى الله فى شأنهم فان الله يكفيك أمرهم وينتقم لك منهم (وكفى بالله وكيلا) يعنى ناصرا لك عليهم قوله عز وجل (أفلا يتدبرون القرآن) أصل التدبر النظر فى عواقب الأمور والتفكر فى إدبارها ثم استعمل فى كل تفكر وتأمل يقال تدبرت الشىء أى نظرت فى عاقبته ومعنى تدبر القرآن تأمل معانيه والتفكر فى حكمه وتبصر مافيه من الآيات قال ابن عباس أفلا يتدبرون القرآن فيتفكرون فيه فيرون تصديق بعضه لبعض وما فيه من المواعظ والذكر والأمر والنهى

وكفى بالله شهيدا) على إرسالك وصدقك وقيل كفى بالله شهيدا على أن الحسنة والسيئة كلها من الله تعالى قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أحبنى فقد أحب الله فقال بعض المنافقين مايريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربا فأنزل الله تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله أى من يطع الرسول فيما أمر به فقد أطاع الله (ومن تولى) عن طاعته (فما أرسلناك) يامحمد (عليهم حفيظا) أى حافظا ورقيبا بل كل أمورهم إلى قيل نسخ الله عز وجل هذا بآية السيف وأمره بقتال من خالف الله ورسوله (ويقولون طاعة) يعنى المنافقين يقولون باللسان للرسول صلى الله عليه وسلم إنا آمنا بك فرنا فأمرك طاعة قال النحويون أى أمرنا وشأننا أن نطيعك (فاذا برزوا) خرجوا (من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول) قال قتادة والكلبى بيت أى غير وبدل الذى عهد إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ويكون التبييت بمعنى التبديل وقال أبو عبيدة والقتيبى معناه قالوا وقدروا ليلا غير ماأعطوك نهارا وكل ماقدر بليل فهو مبيت وقال أبو الحسن الأخفش تقول العرب للشىء إذا قدر بيت يشبهونه بتقدير بيوت الشعر (والله يكتب) أى يثبت ويحفظ (مايبيتون) مايزورون ويغيرون ويقدرون وقال الضحاك عن ابن عباس يعنى مايسرون من النفاق (فأعرض عنهم) يامحمد ولاتعاقبهم وقيل لاتخبر بأسمائهم منع الرسول صلى الله عليه وسلم من الإخبار بأسماء المنافقين (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أى اتخذوه وكيلا وكفى بالله وكيلا وناصرا قوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن) يعني أفلا يتفكرون فى القرآن والتدبر هو النظر فى آخر الأمر ودبر كل

وإن أحدا من الخلق لايقدر عليه قال العلماء إن الله تعالى احتج بالقرآن والتدبر فيه على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والحجة فى ذلك من ثلاثة أوجه أحدها فصاحته التى عجز الخلائق عن الإتيان بمثلها فى أسلوبه. الثانى إخباره عن الغيوب وهو مايطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على أحوال المنافقين وما يخفونه من مكرهم وكيدهم فيفضحهم بذلك وغير ذلك من الأخبار عن أحوال الأولين وأخبارهم وما يأتى فى المستقبل من أمور الغيب التى لايعلمها إلا الله تعالى . الثالث سلامته من الاختلاف والتناقض وهو المراد بقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) قال ابن عباس يعنى تفاوتا وتناقضا وفى رواية عنه لو كان من عند مخلوق لكان فيه كذب واختلاف وقيل معناه لوجدوا فى إخباره عن الغيب بما يكون وبما قد كان اختلافا كثيرا لأن الغيب لايعلمه إلا الله تعالى وإذا كان كذلك ثبت أنه من عند الله وأنه ليس فيه اختلاف ولا تناقض وقيل لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا من حيث البلاغة والفصاحة والمعنى لو كان من عند مخلوق لكان على قياس الكلام المخلوق بعضه فصيح بليغ حسن وبعضه مردود ركيك فاسد فلما كان القرآن جميعه على منهاج واحد فى الفصاحة والبلاغة ثبت أنه من عند الله والمعنى أفلايتفكرون فى القرآن فيعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق مايخبر به عن الغيوب أنه كلام الله عز وجل وأن مايكون من عند غير الله لايخلو عن تناقض واختلاف فلما كان القرآن ليس فيه تناقض واختلاف علم أنه من عند قادر على مالا يقدر عليه غيره عالم بما لايعلمه سواه . قوله تعالى (وإذا[82] جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبعث البعوث والسرايا فاذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم ثم يشيعونه ويتحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضعفون به قلوب المؤمنين فأنزل الله تعالى هذه الآية وإذا جاءهم يعنى المنافقين أمر من الأمن يعنى جاءهم خبر بفتح وغنيمة أو الخوف يعنى القتل والهزيمة أذاعوا به أى أفشوا ذلك الخبر وأشاعوه بين الناس يقال أذاع السر وأذاع به إذا أشاعه وأظهره قال الشاعر :

أذاع به فى الناس حتى كأنه … بعلياء نار أو قدت بثقوب

(ولو ردوه) يعنى الأمر الذى تحدثوا به (إلى الرسول) يعنى أنهم لم يتحدثوا به حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يتحدث به ويظهره (وإلى أولى الأمر منهم) يعنى ذوى العقول والرأى والبصيرة بالأمور منهم وهم كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وقيل هم أمراء السرايا والبعوث وإنما قال منهم على حسب الظاهر ولأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان فلذا قال وإلى أولى الأمر منهم (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى يستخرجون تدبيره بذكائهم وفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب وما ينبغى لها ومكايدها وهم العلماء الذين علموا ماينبغى أن يكتم من الأمور وما ينبغى أن يذاع منها والنبط الماء الذى يخرج من البئر أول ماتحفر واستنباطه استخراجه فاستعير لما يخرجه الرجل بفضل ذكائه وصفاء ذهنه وفطنته من المعانى والتدبير فيما يعضل ويهم ويقال استنبط الفقيه المسألة إذا استخرجها باجتهاده وفهمه

شئ آخره (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) أى تفاوتا وتناقضا كثيرا قاله ابن عباس وقيل لو وجدوا فيه أى فى الإخبار عن الغيب بما كان وبما يكون اختلافا كثيرا أفلا يتفكرون فيه فيعرفوا بعدم التناقض فيه وصدق مايخبر به أنه كلام الله تعالى لأن ما لايكون من عند الله لايخلو عن تناقض واختلاف قوله تعالى (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبعث السرايا فاذا غلبوا أو غلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم فيفشون ويحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضعفون به قلوب المؤمنين فأنزل الله تعالى وإذا جاءهم يعنى المنافقين أمر من الأمن أى الفتح والغنيمة أو الخوف القتل والهزيمة أذاعوا به أشاعوه وأفشوه (ولو ردوه إلى الرسول) إلى رأيه ولم يحدثوا به حتى يكون النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى يحدث به (وإلى أولى الأمر منهم) أى ذوى الرأى من الصحابة مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى يستخرجونه وهم العلماء أى علموا ماينبغى أن يكتم وما ينبغى أن يفشى والاستنباط الاستخراج يقال استنبط الماء إذا استخرجه وقال عكرمة يستنبطونه أى يحرصون عليه ويسألون وقال الضحاك يتبعونه يريد الذين سمعوا تلك الأخبار من المؤمنين والمنافقين لو ردوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى ذوى

وفى

الرأى والعلم لعلمه الذين يستنبطونه منهم أى يحبون أن يعلموه على حقيقته كما هو (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان) كلكم (إلا قليلا) فان قيل كيف استثنى القليل ولولا فضله لاتبع الكل الشيطان قيل هو راجع إلى ماقبله قيل معناه أذاعوا به إلا قليلا لم يفشه وعنى بالقليل المؤمنين وهذا قول الكلبي واختيار الفراء وقال لأن علم السر إذ ظهر علمه المستنبط وغيره والإذاعة قدتكون فى بعض دون بعض وقيل لعلمه الذين يستنبطونه منهم

إلا قليلا ثم قوله «ولولا فضل الله

وفى الآية دليل على جواز القياس وأن من العلم مايدرك بالنص وهو الكتاب والسنة ومنه مايدرك بالاستنباط وهو القياس عليهما ومعنى الآية ولو أن هؤلاء المنافقين والمذيعين ردوا الأمر من الأمن والخوف إلى الرسول وإلى أولى الأمر وطلبوا معرفة الحال فيه من جهتهم لعلموا حقيقة ذلك منهم ولأنهم أولى بالبحث عنه فانهم أعلم بما ينبغى أن يشاع أو يكتم . قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) يعنى ولولا فضل الله عليكم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن ورحمته بالتوفيق والهداية (لاتبعتم الشيطان) يعنى لبقيتم على الكفر والضلالة (إلا قليلا) اختلف العلماء فى هذا الاستثناء وإلى ماذا يرجع فقيل هو راجع إلى الإذاعة وهو قول ابن عباس والتقدير وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به إلا قليلا فأخرج بعض المنافقين والمؤمنين عن هذه الإذاعة لأنهم لم يذيعوا ماعلموا من أمر السرايا وهذا القول اختيار الفراء وابن جرير الطبرى وقيل هو راجع إلى المستنبطين وهو قول الحسن وقتادة واختاره ابن قتيبة وتقديره لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا فعلى هذين القولين فى الآية تقديم وتأخير وقيل إنه راجع إلى اتباع الشيطان وهو قول الضحاك واختاره الزجاج ومعلوم أن صرف الاستثناء إلى مايليه ويتصل به أولى من صرفه إلى الشىء البعيد وتقديره ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا منكم وهم قوم آمنوا واهتدوا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن مثل زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة الأيادى. قوله تعالى (فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك) نزلت فى مواعدة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واعده موسم بدر الصغرى بعد حرب أحد وذلك فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم فأنزل الله هذه الآية فقاتل فى سبيل الله يعنى لاتدع جهاد العدو والانتصار للمستضعفين من المؤمنين لاتكلف إلا نفسك يعنى لاتكلف فرض غيرك بل جاهد فى سبيل الله ولو وحدك فان الله ناصرك لا الجنود وقد وعدك النصر عليهم وهو لايخلف الميعاد فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين راكبا إلى بدر الصغرى فكفاهم الله القتال ورجعوا سالمين وعاتب الله من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية على ترك الجهاد والخروج معه وفى الآية دليل على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أشجع الناس وأعلمهم بأمور القتال ومكايده لأن الله تعالى أمره بالقتال وحده ولولم يكن أشجع الناس لما أمره بذلك ولقد اقتدى به أبو بكر الصديق فى قتال أهل الردة من بنى حنيفة الذين منعوا الزكاة فعزم على الخروج إلى قتالهم ولو وحده (وحرض المؤمنين) يعنى حضهم على الجهاد ورغبهم فى الثواب وليس عليك فى شأنهم إلا التحريض فحسب لا التعنيف بهم (عسى الله) أى لعل الله (أن يكف بأس الذين كفروا) يعنى لعل الله أن يمنع بأس الكفار وشدتهم وقد فعل وذلك أن

عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان» كلام تام وقيل فضل الله الإسلام ورحمته القرآن يقول لولا ذلك لاتبعتم الشيطان إلا قليلا وهم قوم اهتدوا قبل مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن مثل زيد بن عمرو ابن نفيل وورقة بن نوفل وجماعة سواهما وفى الآية دليل على جواز القياس فان من العلم ما يدرك بالتلاوة والرواية وهو النص ومنه ما يدرك بالاستنباط وهو القياس على المعانى المودعة فى النصوص قوله تعالى (فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك) وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم واعد أباسفيان بعد حرب أحد موسم بدر الصغرى فى ذى القعدة فلما بلغ الميعاد دعا الناس إلى الخروج فكرهه بعضهم فأنزل الله عز وجل فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك أى لاتدع جهاد العدو والاستنصار للمستضعفين من المؤمنين ولو وحدك فان الله قد وعدك النصرة وعاتبهم على ترك القتال والفاء فى قوله تعالى فقاتل جواب عن قوله «ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما» فقاتل (وحرض المؤمنين) على القتال أى حضهم على الجهاد ورغبهم فى الثواب فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين راكبا فكفاهم الله القتال فقال جل ذكره (عسى الله) أى لعل الله (أن يكف بأس الذين كفروا) أى قتال المشركين

وعسى من الله واجب (والله أشد بأسا) أى أشد صولة وأعظم سلطانا (وأشد تنكيلا) أى عقوبة قوله عز وجل (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) أى نصيب منها قال ابن عباس رضى الله عنهما الشفاعة الحسنة هى الإصلاح بين الناس والشفاعة السيئة هى المشى بالنميمة بين الناس وقيل الشفاعة الحسنة هى حسن القول فى الناس ينال به الثواب والخير والسيئة هى الغيبة وإساءة القول فى الناس ينال به الشر وقوله (كفل منها) أى من وزرها وقال مجاهد هى شفاعة الناس بعضهم لبعض ويؤجر الشفيع على شفاعته وإن لم يشفع أخبرنا أحمد بن عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا سفيان الثورى عن أبى بردة أخبرنى جدى أبو بردة عن أبيه أبى موسى رضى الله عنه قال كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا جاءه رجل يسأل أو طالب حاجة أقبل علينا بوجهه فقال «أشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان رسوله ماشاء» قوله تعالى (وكان الله على كل شىء مقيتا) قال ابن عباس رضى الله عنهما مقتدرا أو مجازيا قال الشاعر :

وذى ضغن كففت النفس عنه ... وكنت على إساءته مقيتا

وقال مجاهد شاهدا وقال قتادة حافظا وقيل معناه على كل حيوان مقيتا أى يوصل القوت إليه وجاء فى الحديث «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت ويقيت» قوله تعالى (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) التحية دعاء بطول الحياة والمراد بالتحية هنا السلام يقول إذا سلم عليكم مسلم فأجيبوا بأحسن منها أو ردوها كما سلم فاذا قال السلام عليكم فقل وعليكم السلام ورحمة الله وإذا قال السلام عليكم ورحمة الله فقل وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وإذا قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد مثله. روى أن رجلا سلم على ابن عباس رضى الله عنهما قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم زاد شيئا فقال ابن عباس إن السلام ينتهى إلى البركة وروى عن عمران بن حصين أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليكم فرد عليه ثم جلس فقال النبى صلى الله عليه وسلم «عشر» ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله فرد عليه فجلس فقال «عشرون» ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه فجلس فقال «ثلاثون» واعلم أن السلام سنة ورد السلام (إن

أبا سفيان بداله عن القتال فلم يخرج إلى الموعد (والله أشد بأسا) أى أعظم صولة (وأشد تنكيلا) يعنى وأشد عذابا وعقوبة من غيره قوله عز وجل (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) الشفاعة مأخوذة من الشفع وهو أن يصير الإنسان بنفسه شفيعا لصاحب الحاجة حتى يجتمع معه على المسئلة إلى المشفوع إليه فعلى هذا قيل إن المراد بالشفاعة المذكورة فى الآية هى شفاعة الإنسان لغيره ليجلب له بشفاعته نفعا أو يخلصه من بلاء نزل به وقيل هى الإصلاح بين الناس وقيل معنى الآية من يصر شفعا لوتر أصحابك يامحمد فيشفعهم فى جهاد عدوهم يكن له نصيب منها أى حظ وافر من أجر شفاعته وهو ثواب الله وكرامته (ومن يشفع شفاعة سيئة) قيل هى النميمة ونقل الحديث لإيقاع العداوة بين الناس وقيل أراد بالشفاعة السيئة دعاء اليهود على المسلمين وقيل معناه من يشفع كفره بقتال المؤمنين (يكن له كفل) أى ضعف وقيل نصيب (منها) أى من وزرها (وكان الله على كل شىء مقيتا) قال ابن عباس يعنى مقتدرا أو مجازيا وأقات على الشىء قدر عليه قال الشاعر :

وذى ضغن كففت الشر عنه ... وكنت على إساءته مقيتا

يعنى قادرا على الإساءة إليه وقيل معناه شاهدا أو حفيظا على الأشياء (ق) عن أبى موسى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فجاء رجل يسأل فأقبل علينا بوجهه وقال «اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان رسوله ماشاء» وفى رواية كان إذا جاءه طالب حاجة أقبل على جلسائه وقال «اشفعوا تؤجروا» وذكره. قوله عز وجل (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها) التحية تفعلة من حيا وأصلها من الحياة ثم جعل السلام تحية لكونه خارجا عن حصول الحياة وسبب الحياة فى الدنيا أو فى الآخرة والتحية أن يقال حياك الله أى جعل لك حياة وذلك أخبار ثم يجعل دعاء وهذه اللفظة كانت العرب تقولها فلما جاء الإسلام بدل ذلك بالسلام وهو المراد به فى الآية يعنى إذا سلم عليكم المسلم فأجيبوه بأحسن مما سلم عليكم به وإنما اختير لفظ السلام على لفظة حياك الله لأنه أتم وأحسن وأكمل لأن معنى السلام السلامة من الآفات فاذا دعا الإنسان بطول الحياة بغير سلامة كانت حياته مذمومة منغصة وإذا كان فى حياته سليما كان أتم وأكمل فلهذا السبب اختير لفظ السلام (أو ردوها) يعنى أو ردوا عليه كما سلم عليكم

فريضة وهو فرض على الكفاية فاذا سلم واحد من جماعة كان كافيا فى السنة وإذا سلم واحد على جماعة ورد واحد منهم سقط الغرض عن جميعهم أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى أنا أبو بكر محمد بن عمر بن حفص التاجر أنا إبراهيم ابن عبد الله بن عمر بن بكر الكوفى أنا وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم» أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبدالله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا قتيبة أنا الليث عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عبد الله بن عمر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الإسلام خير قال «أن تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» ومعنى قوله أى الإسلام خير يريد أى خصال الإسلام خير وقيل فحيوا بأحسن منها معناه أى إذا كان الذى سلم مسلما أو ردوها مثلها إذا لم يكن مسلما أخبرنا أبو الحسن السرخسى أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن يسار عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا سلم عليكم اليهود فانما يقول أحدهم السام عليك فقل وعليك» قوله تعالى (إن الله كان على كل شىء حسيبا) أى على كل شىء من رد السلام بمثله أو بأحسن

(إن الله كان على كل شىء حسيبا) يعنى محاسبا ومجازيا والمعنى أنه تعالى على كل شىء من رد السلام بمثله أو بأحسن منه مجاز .

فصل فى فضل السلام والحث عليه

(ق) عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم «أى الإسلام خير قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» قوله أى الإسلام خير معناه أى خصال الإسلام خير (م) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم» عن عبدالله بن سلام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام» أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح عن أبى أمامة قال أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم أن نفشى السلام أخرجه ابن ماجه.

فصل فى أحكام تتعلق بالسلام وفيه مسائل

(المسئلة الأولى فى كيفية السلام) (ق) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام قال اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك به فانها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم فقالوا عليك السلام ورحمة الله فزادوه ورحمة الله» قال العلماء يستحب لمن يبتدئ بالسلام أن يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيأتى بضمير الجمع وإن كان المسلم عليه واحد ويقول المجيب وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته فيأتى بواو العطف فى قوله وعليكم عن عمران ابن حصين قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليكم فرد عليه ثم جلس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عشر ثم جاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله فرد عليه فجلس فقال عشرون فجاء آخر فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه فجلس فقال ثلاثون» أخرجه الترمذى وأبو داود وقال الترمذى حديث حسن وقيل إذا قال المسلم السلام عليكم فيقول المجيب وعليكم السلام ورحمة الله فيزيده ورحمة الله وإذا قال السلام عليكم ورحمة الله فيقول وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وإذا قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فيرد عليه السلام بمثله ولا يزيد عليه وروى أن رجلا سلم على ابن عباس فقال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثم زاد شيئا فقال ابن عباس أن السلام انتهى إلى البركة ويستحب للمسلم أن يرفع صوته بالسلام ليسمع المسلم عليه فيجيبه ويشترط أن يكون الرد على الفور فان أخره ثم رد لم يعد جوابا وكان آثما بترك الرد .

(المسئلة الثانية فى حكم السلام) الابتداء بالسلام سنة مستحبة ليس بواجب وهو سنة على الكفاية فان كانوا جماعة فسلم واحد منهم كفى عن جميعهم ولو سلم كلهم كان أفضل وأكمل قال القاضى حسين من أصحاب الشافعى ليس لنا سنة على الكفاية إلا هذا وفيه نظر لأن تشميت العاطس سنة على الكفاية أيضا كالسلام ولو دخل على جماعة فى بيت أو مجلس أو مسجد

وجب عليه أن يسلم على الحاضرين لقوله صلى الله عليه وسلم «أفشوا السلام» والأمر للوجوب أو يكون ذلك سنة متأكدة لأن السلام من شعار أهل الإسلام فيجب إظهاره أو يتأكد استحبابه أما الرد على المسلم فقد أجمع العلماء على وجوبه ويدل عليه قوله تعالى« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها» والأمر للوجوب لأن فى ترك الرد إهانة للمسلم فيجب ترك الإهانة فان كان المسلم عليه واحدا وجب عليه الرد وإذا كانوا جماعة كان رد السلام فى حقهم فرض كفاية فلو رد واحد منهم سقط فرض الرد عن الباقين وإن تركوه كلهم أثموا . عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يجزى عن الجماعة إذا مروا أن يسلم أحدهم ويجزى عن الجلوس أن يرد أحدهم» أخرجه أبو داود .

(المسئلة الثالثة فى آداب السلام) السنة أن يسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير (ق) عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير » وفى رواية للبخارى قال «يسلم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد والقليل على الكثير» وإذا تلاقى رجلان فالمبتدى بالسلام هو الأفضل لما روى عن أبى أمامة الباهلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أولى الناس بالله عز وجل من بدأهم بالسلام» أخرجه أبو داود والترمذى ولفظه قال قيل يارسول الله الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام قال « أولاهما بالله» قال الترمذى حديث حسن ويستحب أن يبدأ بالسلام قبل الكلام والحاجة والسنة إذا مر بجماعة صبيان صغار أن يسلم عليهم لما روى عن أنس أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله أخرجاه فى الصحيحين وفى رواية لأبى داود أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على غلمان يلعبون فسلم عليهم وأما السلام على النساء فان كن جمعا جالسات فى مسجد أو موضع فيستحب أن يسلم عليهن إذا لم يخف على نفسه أو عليهن فتنة لما روى عن أسماء بنت يزيد قالت مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة فسلم علينا أخرجه أبو داود وفى رواية الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر فى المسجد يوما وعصبة من النساء قعود فألوى بيده للتسليم قال الترمذى حديث حسن وإذا مر على امرأة منفردة أجنبية فان كانت جميلة فلا يسلم عليها ولو سلم فلا ترد هى عليه لأنه لم يستحق الرد وإن كانت عجوزا لا يخاف عليه ولا عليها الفتنة سلم عليها وترد هى عليه وحكم النساء مع النساء كحكم الرجال مع الرجال فى السلام فيسلم بعضهن على بعض .

(المسئلة الرابعة فى الأحوال التى يكره السلام فيها) فمن ذلك الذى يبول أو يتغوط أو يجامع ونحو ذلك لا يسلم عليه فلو سلم فلا يستحق المسلم جوابا لما روى عن ابن عمر « أن رجلا مر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبول فسلم عليه فلم يرد عليه» أخرجه مسلم قال الترمذى إنما يكره إذا كان على الغائط أو البول ويكره التسليم على من فى الحمام وقيل إن كانوا متزرين بالمآزر سلم عليهم وإلا فلا ، ويكره التسليم على النائم والناعس والمصلى والمؤذن والتالى فى حال الصلاة والأذان والتلاوة ويكره الابتداء بالسلام فى حال الخطبة لأن الجالسين مأمورون بالإنصات للخطبة ويكره أن يبدأ المبتدع بالتسليم عليه وكذلك المعلن بفسق وكذلك الظلمة ونحوهم فلا يسلم على هؤلاء .

منه حسيبا أى محاسبا مجازيا وقال مجاهد حفيظا وقال أبو عبيدة كافيا يقال حسبى هذا أى كفانى .

قوله تعالى (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم) اللام لام القسم تقديره والله ليجمعنكم فى الموت وفى القبور (إلى يوم القيامة) وسميت القيامة قيامة لأن الناس يقومون من قبورهم قال الله تعالى يوم يخرجون من الأجداث سراعا وقيل لقيامهم إلى الحساب قال الله تعالى يوم يقوم الناس لرب العالمين (لاريب فيه ومن أصدق من الله حديثا) أي قولا ووعدا وقرأ حمزة والكسائى أصدق، وكل صاد ساكنة بعدها دال باشمام الزاى (فمالكم فى المنافقين فئتين) اختلفوا فى سبب نزولها فقال قوم نزلت فى الذين تخلفوا يوم أحد من المنافقين فلما رجعوا قال بعض الصحابة رضى الله عنهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم اقتلهم فإنهم منافقون وقال بعضهم إعف عنهم فإنهم تكلموا بالإسلام أخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو الوليد أنا شعبة عن عدى بن ثابت قال سمعت عبد الله ابن يزيد يحدث عن زيد ابن ثابت قال لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى أحد رجع ناس ممن خرج معه وكان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فرقتين فرقة تقول نقاتلهم وفرقة تقول لانقاتلهم فنزلت فمالكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا وقال إنها طيبة تنفى الذنوب كما تنفى النار خبث الفضة وقال مجاهد قوم خرجوا إلى المدينة وأسلموا ثم ارتدوا واستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة فاختلف المسلمون فيهم فقائل يقول هم منافقون وقائل يقول هم مؤمنون وقال بعضهم نزلت فى ناس من قريش قدموا المدينة وأسلموا ثم ندموا على ذلك فخرجوا كهيئة المتنزهين حتى تباعدوا من المدينة فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا على الذى فارقناك عليه من الإيمان ولكنا اجتوينا المدينة واشتقنا إلى أرضنا ثم إنهم خرجوا فى تجارة لهم نحو الشام فبلغ ذلك المسلمين فقال بعضهم نخرج إليهم فنقتلهم ونأخذ ما معهم لأنهم رغبوا عن ديننا وقالت طائفة كيف تقتلون قوما على دينكم إن لم يذروا ديارهم وكان هذا بعين النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساكت لاينهى واحدا من الفريقين فنزلت هذه الآية وقال بعضهم هم قوم أسلموا بمكة ثم لم يهاجروا وكانوا يظاهرون المشركين فنزلت فمالكم يامعشر المؤمنين فى المنافقين فئتين أى صرتم فيهم فئتين

(المسئلة الخامسة فى حكم السلام على أهل الذمة: اليهود والنصارى) اختلف العلماء فيه فذهب أكثرهم إلى أنه لايجوز ابتداؤهم بالسلام وقال بعضهم إنه ليس بحرام بل هو مكروه كراهة تنزيه ويدل على ذلك ماروى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «لاتبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه» أخرجه مسلم وإذا سلم يهودى أو نصرانى على مسلم فيرد عليه ويقول عليك بغير واو العطف لما روى عن أنس أن يهوديا أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال السام عليكم فرد عليه القول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل تدرون ماقال؟ قالوا الله ورسوله أعلم سلم يانبى الله قال لاولكنه قال كذا وكذا ردوه على فردوه فقال قلت السام عليكم قال نعم يانبى الله فقال صلى الله عليه وسلم عند ذلك إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا عليك أى عليك ماقلت» أخرجه الترمذى فلو أتى بواو العطف وميم الجمع فقال وعليكم جاز لأنا نجاب عليهم فى الدعاء ولايجابون علينا ويدل على ذلك ماروى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر عليه ناس من اليهود فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقال «وعليكم» فقالت عائشة وغضبت ألم تسمع ماقالوا؟ قال بلى قد سمعت فرددت عليهم وانا نجاب عليهم ولايجيبون علينا أخرجه مسلم وإذا مر المسلم على جماعة فيهم مسلمون ويهود ونصارى يسلم عليهم ويقصد بتسليمه المسلمين لما روى عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود فسلم عليهم أخرجه الترمذى. قوله عز وجل (الله لا إله إلا هو ليجمعنكم) هذه لام القسم تقديره والله الذى لا إله إلا هو ليجمعنكم الله فى الموت وفى القبور (إلى يوم القيامة) يعنى إلى يوم الحشر والبعث سميت القيامة قيامة لقيام الناس من قبورهم بعد الموت وقيل لقيامهم للحساب نزلت هذه الآية فى منكرى البعث (لاريب فيه) يعنى لاشك فى ذلك اليوم أنه كائن (ومن أصدق من الله حديثا) يعنى لاأحد أصدق من الله فانه لايخلف الميعاد ولايجوز عليه الكذب والمعنى أن القيامة كائنة لاشك فيها ولا ريب. قوله عز وجل (فمالكم فى المنافقين فئتين) اختلفوا فى سبب نزول هذه الآية فقيل نزلت فى الذين تخلفوا يوم أحد من المنافقين فلما رجعوا قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم اقتلهم يارسول الله فانهم منافقون وقال بعضهم أعف عنهم فانهم قد تكلموا

أى فرقتين (والله أركسهم) أى نكسهم وردهم إلى الكفر (بما كسبوا) بأعمالهم غير الزاكية (أتريدون أن تهدوا) أى أن ترشدوا (من أضل الله) وقيل معناه أتقولون أن هؤلاء مهتدون وقد أضلهم الله (ومن يضلل الله) أى ومن يضلل الله عن الهدى (فلن تجد له سبيلا) أى طريقا إلى الحق قوله تعالى (ودوا) تمنوا يعنى أولئك الذين رجعوا عن الدين تمنوا (لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) فى الكفر وقوله فتكونون لم يرد به جواب التمنى لأن جواب التمنى بالفاء منصوب إنما أراد النسق أى ودوا لو تكفرون وودوا لو تكونون سواء مثل قوله «ودوا لو تدهن فيدهنون» أى ودوا لو تدهن وودوا لو تدهنون (فلا تتخذوا منهم أولياء) منع عن موالاتهم (حتى يهاجروا فى سبيل الله) معكم قال عكرمة هى هجرة أخرى والهجرة على ثلاثة أوجه: هجرة المؤمنين فى أول الإسلام وهى قوله تعالى للفقراء المهاجرين وقوله ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ونحوهما من الآيات وهجرة المؤمنين وهى الخروج فى سبيل الله مع رسول الله ﷺ صابرين محتبسين كما حكى هاهنا وفى هذه الآية منع موالاة المؤمنين من موالاة المنافقين حتى يهاجروا فى سبيل الله وهجرة سائر المؤمنين مانهى الله عنه وهى ما قال النبى ﷺ «المهاجر من هجر مانهى الله عنه» قوله تعالى (فان تولوا) أعرضوا عن التوحيد والهجرة (فخذوهم) أى خذوهم أسارى ومنه يقال للأسير أخيذ (واقتلوهم حيث وجدتموهم) فى الحل والحرم (ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) ثم استثنى طائفة منهم فقال على

بكلمة الإسلام (ق) عن زيد بن ثابت قال لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد رجع ناس ممن خرج معه فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فئتين قالت فرقة نقتلهم وقالت فرقة لا نقتلهم فنزلت فما لكم فى المنافقين فئتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها طيبة تنفى الرجال كما ينفى الكير خبث الحديد. وقيل نزلت فى قوم خرجوا إلى المدينة وأسلموا ثم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها فخرجوا وأقاموا بمكة فاختلف المسلمون فيهم فقائل يقول هم منافقون وقائل يقول هم مؤمنون وقيل نزلت فى ناس من قريش قدموا المدينة وأسلموا ثم ندموا على ذلك فخرجوا كهيئة المتنزهين فلما بعدوا عن المدينة كتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا على الذى فارقناك عليه من الإيمان ولكنا اجتوينا المدينة واشتقنا إلى أرضنا ثم إنهم خرجوا فى تجارة إلى الشأم فبلغ ذلك المسلمين فقال بعضهم نخرج إليهم ونقتلهم ونأخذ مامعهم لأنهم رغبوا عن ديننا وقالت طائفة منهم كيف تقتلون قوما على دينكم وإن لم يذروا ديارهم وكان هذا بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساكت لاينهي أحد الفريقين فنزلت هذه الآية وقيل نزلت فى قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا وكانوا يظاهرون المشركين وقيل نزلت فى عبد الله ابن أبى بن سلول المنافق لما تكلم فى حديث الإفك ومعنى الآية فما لكم يامعشر المؤمنين فى المنافقين فئتين أى صرتم فى أمرهم فرقتين فرقة تذب عنهم وفرقة تباينهم وتعاديهم فنهى الله الفرقة الذين يذبون عنهم وأمر المؤمنين جميعا أن يكونوا على منهاج واحد فى التباين لهم والتبرى منهم ثم أخبر عن كفرهم بقوله (والله أركسهم) يعنى نكسهم فى كفرهم وارتدادهم وردهم إلى أحكام الكفار (بما كسبوا) أى بسبب ما اكتسبوا من أعمالهم الخبيثة وقيل بما أظهروا من الارتداد بعد ما كانوا على النفاق (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) هذا خطاب للفئة التى دافعت عن المنافقين والمعنى أتبتغون أيها المؤمنون هداية هؤلاء المنافقين الذين أضلهم الله عن الهدى (ومن يضلل الله) يعنى عن الهدى (فلن تجد له سبيلا) يعنى فلن تجد له طريقا تهديه فيها إلى الحق والهدى. قوله تعالى (ودوا) يعنى تمنى أولئك الذين رجعوا عن الإيمان إلى الارتداد والكفر (لو تكفرون) يعنى تكفرون أنتم يامعشر المؤمنين (كما كفروا فتكونون سواء) فى الكفر (فلا تتخذوا منهم أولياء) يعنى من الكفار منع المؤمنين من موالاتهم (حتى يهاجروا) يعنى يسلموا أو يهاجروا (فى سبيل الله) معكم وهى هجرة أخرى والهجرة على ثلاثة أوجه: الأولى هجرة المؤمنين فى أول الإسلام من مكة إلى المدينة. الثانية هجرة المؤمنين وهى الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله مخلصين صابرين محتبسين كما حكى الله عنهم وفى هذه الآية منع المؤمنين من موالاة المنافقين حتى يهاجروا والهجرة الثالثة هجرة المؤمنين مانهى الله عنه بقوله (فان تولوا) يعنى فان أعرضوا عن الإسلام والهجرة واختاروا الإقامة على الكفر (فخذوهم) الخطاب للمؤمنين أى خذوهم أيها المؤمنون (واقتلوهم حيث وجدتموهم) يعنى أين وجدتموهم فى الحل والحرم (ولا تتخذوا منهم وليا) يعنى فى هذه الحالة (ولا نصيرا) يعنى ينصركم

على أعدائكم لأنهم أعداء ثم استثنى الله عز وجل طائفة منهم فقال تعالى (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) هذا الاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة لأن موالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال ومعنى يصلون ينتسبون إليهم أو ينتمون إليهم أو يدخلون معهم بالحلف والجوار وقال ابن عباس يريد يلجئون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أى عهد وهم الأسلميون وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وادع هلال بن عويمر الأسلمى عند خروجه إلى مكة على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن وصل إلى هلال من قومه وغيرهم ولجأ إليه فلهم الجوار مثل ما لهلال وفى رواية عن ابن عباس قال أراد بالقوم الذين بينكم وبينهم ميثاق بنى بكر بن زيد مناة كانوا فى الصلح والهدنة وقيل هم خزاعة والمعنى أن من دخل فى عهد من كان داخلا فى عهدكم فهم أيضا داخلون فى عهدكم (أو جاءوكم حصرت صدورهم) يحتمل أن يكون عطفا على الذين وتقديره إلا الذين يتصلون بالمعاهدين أو يتصلون بالذين حصرت صدورهم فلا تقتلوهم وقيل يحتمل أن يكون عطفا على صفة قوم وتقديره إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم عهد أو يصلون إلى قوم حصرت صدورهم فلا تقتلوهم ومعنى حصرت أى ضاقت صدورهم عن المقاتلة فلا يريدون قتالكم لأنكم مسلمون ولا يريدون قتالهم لأنهم أقاربهم وهم بنو مدلج وكانوا عاهدوا أن لا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشا أن لا يقاتلوهم (أن يقاتلوكم) يعنى ضاقت صدورهم عن قتالكم للعهد الذى بينكم وبينهم (أو يقاتلوا قومهم) يعنى من آمن منهم وقيل معناه أنهم لا يقاتلونكم مع قومهم ولا يقاتلون قومهم معكم فقد ضاقت صدورهم لذلك عن قتالكم والقتال معكم وهم قوم هلال الأسلميون وبنو بكر نهى الله عن قتال هؤلاء المرتدين إذا اتصلوا بأهل عهد المسلمين لأن من انضم إلى قوم ذوى عهد فله حكمهم فى حقن الدم وذلك أن الله تعالى أوجب قتال الكفار إلا من كان معاهدا أو لجأ إلى معاهد أو ترك القتال لأنه لا يجوز قتل هؤلاء وعلى هذا القول فالقول بالنسخ لازم لأن الكافر وإن ترك القتال فقتاله جائز وقال جماعة من المفسرين معاهدة المشركين وموادعتهم فى هذه الآية منسوخة بآية السيف وذلك لأن الله تعالى لما أعز الإسلام وأهله أمر أن لا يقبل من مشركى العرب إلا الإسلام أو القتل (ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) يذكر الله تعالى منته على المسلمين بكف بأس المعاهدين وذلك لما ألقى الله الرعب فى قلوبهم وكفهم عن قتالكم ومعنى التسليط هنا تقوية قلوبهم على قتال المسلمين ولكن قذف الله الرعب فى قلوبهم وكفهم عن المسلمين (فان اعتزلوكم) يعنى فان اعتزلوكم عن قتالكم (فلم يقاتلوكم) ويقال فلم يقاتلوكم يوم فتح مكة مع قومهم (وألقوا إليكم السلم) يعنى الانقياد والصلح فانقادوا واستسلموا (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) يعنى بالقتل والقتال قال بعض

(إلا الذين يصلون إلى قوم) وهذا الاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة لأن موالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال ومعنى يصلون أى ينتسبون إليهم ويتصلون بهم ويدخلون فيهم بالحلف والجوار وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريدون يلجئون إلى قوم (بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد وهم الأسلميون وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وادع هلال بن عويمر الأسلمى قبل خروجه إلى مكة على أن لا يعينه ولا يعين عليه ومن وصل إلى هلال من قومه وغيرهم ولجأ إليه فلهم من الجوار مثل ما لهلال وقال الضحاك عن ابن عباس أراد بالقوم الذين بينكم وبينهم ميثاق بنى بكر بن زيد بن مناة كانوا فى الصلح والهدنة وقال مقاتل هم خزاعة وقوله (أو جاءوكم) أى يتصلون بقوم جاءوكم (حصرت صدورهم) أى ضاقت صدورهم قرأ الحسن ويعقوب حصرة منصوبة منونة أى ضيقة صدورهم يعنى القوم الذين جاءوكم وهم بنو مدلج كانوا عاهدوا قريشا أن لا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشا أن لا يقاتلوهم حصرت ضاقت صدورهم (أن يقاتلوكم) أى عن قتالكم للعهد الذى بينكم (أو يقاتلوا قومهم) يعنى من آمن منهم ويجوز أن يكون معناه أنهم لا يقاتلونكم مع قومهم ولا يقاتلون قومهم معكم يعنى قريشا قد ضاقت صدورهم لذلك وقال بعضهم أو بمعنى الواو كأنه يقول إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أى قد حصرت صدورهم عن قتالهم والقتال معكم ، وهم قوم هلال الأسلميون وبنو بكر نهى الله سبحانه عن قتال هؤلاء المرتدين إذا اتصلوا بأهل عهد للمسلمين لأن من انضم إلى قوم ذوى عهد فله حكمهم فى حقن الدماء قوله تعالى (ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) يذكر منته على المسلمين بكف بأس المعاهدين يقول إن ضيق صدورهم عن قتالكم لما ألقى الله فى قلوبهم من الرعب وكفهم عن قتالكم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم مع قومهم (فان اعتزلوكم) أى اعتزلوا قتالكم (فلم يقاتلوكم) ومن اتصل بهم ويقال يوم فتح مكة لم يقاتلوكم مع قومهم (وألقوا إليكم السلم) أى الصلح فانقادوا واستسلموا (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى طريقا

بالقتل والقتال قوله تعالى (ستجدون آخرين) قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما هم أسد وغطفان كانوا حاضري المدينة تكلموا بالإسلام رياء وهم غير مسلمين وكان الرجل منهم يقول له قومه بماذا أسلمت فيقول آمنت بهذا القرد وبهذا العقرب والخنفساء وإذا لقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا إنا على دينكم يريدون بذلك الأمن في الفريقين وقال الضحاك عن ابن عباس : هم بنو عبد الدار كانوا بهذه الصفة (يريدون أن يأمنوكم) فلا تتعرضوا لهم (ويأمنوا قومهم) فلا يتعرضوا لهم (كلما ردوا إلى الفتنة) أي دعوا إلى الشرك (اركسوا فيها) أي رجعوا وعادوا إلى الشرك (فان لم يعتزلوكم) أي فان لم يكفوا عن قتالكم حتى تسيروا إلى مكة (ويلقوا إليكم السلم) أي المفادة والصلح (ويكفوا أيديهم) ولم يقبضوا أيديهم عن قتالكم (فخذوهم) أسراء (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أي وجدتموهم (وأولئكم) أي أهل هذه الصفة (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أي حجة بينة ظاهرة بالقتل والقتال قوله تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا) الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه أتى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بمكة قبل الهجرة فأسلم ثم خاف أن يظهر إسلامه لأهله فخرج هاربا إلى المدينة وتحصن في أطم من أطامها فجزعت أمه لذلك جزعا شديدا وقالت لإبنها الحارث وأبي جهل بن هشام وهما أخواه لأمه والله لا يظلني سقف ولا أذوق طعاما ولا شرابا حتى تأتوني به فخرجا في طلبه وخرج معهما الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة فأتوا عياشا وهو في الأطم قالا له أنزل فان أمك لم يؤوها سقف بيت بعدك وقد حلفت ألا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى ترجع إليها ولك عهد الله علينا أن لانكرهك على شيء ولا نحول بينك وبين دينك فلما ذكروا له جزع أمه وأوثقوا له بالله نزل إليهم فأخرجوه من المدينة ثم أوثقوه بنسعة فجلده كل واحد منهم مائة جلدة ثم قدموا به على أمه فلما آتاها قالت والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به ثم تركوه موثقا مطروحا في الشمس ماشاء الله فأعطاهم الذي أرادوا فأتاهم الحارث بن زيد فقال ياعياش أهذا الذي كنت عليه فوالله لئن كان هدى لقد تركت الهدى ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها فغضب عياش من مقالته وقال والله لا ألقاك خاليا أبدا إلا قتلتك ثم إن عياشا أسلم بعد ذلك وهاجر ثم أسلم الحارث بن زيد بعده وهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عياش حاضرا يومئذ ولم يشعر باسلامه فبينا عياش يسير بظهر قباء إذ لقي الحارث فقتله فقال الناس ويحك أي شيء قد صنعت أنه قد أسلم رجع عياش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله قد كان من أمري وأمر الحارث ماقد علمت وإني لم أشعر باسلامه حتى قتلته فنزل «وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ» وهذا نهي عن قتل المؤمن كقوله تعالى وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله (إلا خطأ) استثناء منقطع معناه لكن إن وقع خطأ

المفسرين هذا منسوخ بآية القتال وهي قوله تعالى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقال بعضهم هي غير منسوخة لأنا إذا حملناها على المعاهدين فكيف يمكن أن يقال إنها منسوخة . قوله عز وجل (ستجدون آخرين) قال ابن عباس هم أسد وغطفان كانوا من حاضري المدينة فتكلموا بكلمة الإسلام رياء وهم غير مسلمين وكان الرجل منهم يقول له قومه بماذا آمنت يقول آمنت بهذا القرد والعقوب والخنفساء وإذا لقوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا لهم إنا على دينكم يريدون بذلك الأمن من الفريقين وفي رواية أخرى عن ابن عباس إنها نزلت في بني عبد الدار وكانوا بهذه الصفة (يريدون أن يأمنوكم) يعني يريدون باظهار الإيمان أن يأمنوكم فلا تتعرضوا لهم (ويأمنوا قومهم) يعني باظهار الكفر لهم فلايتعرضوا لهم (كلما ردوا إلى الفتنة) يعني كلما دعوا إلى الشرك (أركسوا فيها) رجعوا إلى الشرك وقادوا إليه منكوسين على رءوسهم فيه (فان لم يعتزلوكم) يعني فان لم يكفوا عن قتالكم حتى يسيروا إلى مكة (ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم) أي ولم يلقوا الصلح ولم يكفوا عن قتالكم (فخذوهم) يعني أسرى (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) يعني حيث أدركتموهم (وأولئكم) يعني أهل هذه الصفة (جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) يعني حجة ظاهرة بالقتل والقتال وقيل الحجة الواضحة هي ظهور عداوتهم وانكشاف حالهم بالكفر والعداوة . قوله تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ) الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة فأسلم ثم خاف أن يظهر إسلامه لأهله فخرج هاربا إلى المدينة وتحصن في أطم من أطامها والأطم الحصن فجزعت أمه لذلك جزعا شديدا وقالت لابنيها الحارث وأبي جهل ابني هشام وهما أخوا عياش بن أبي ربيعة لأمه والله لا يظلني سقف ولا أذوق طعاما ولا شرابا

حتى

(ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) أى فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفارة (ودية مسلمة) كاملة (إلى أهله) أى إلى أهل القتيل الذين يرثونه (إلا أن يصدقوا) أى يتصدقوا بالدية فيعفوا ويتركوا الدية (فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) أراد به إذا كان الرجل مسلما فى دار الحرب منفردا مع الكفار فقتله من لم يعلم باسلامه فلا دية عليه وعليه الكفارة وقيل المراد منه إذا كان المقتول مسلما فى دار الإسلام وهو من نسب قوم كفار وقرابته فى دار الحرب حرب للمسلمين ففيه الكفارة ولا دية لأهله وكان الحارث بن زيد من قوم كفار حرب للمسلمين

وكان فيه تحرير رقبة ولم يكن فيه دية لأنه لم يكن بين قومه وبين المسلمين عهد قوله تعالى (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) أراد به إذا كان المقتول كافرا ذميا أو معاهدا فيجب فيه الدية والكفارة تكون باعتاق رقبة مؤمنة سواء كان المقتول مسلما أو معاهدا رجلا كان أو امرأة حرا كان أو عبدا وتكون فى مال القاتل (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) والقاتل إن كان واجدا للرقبة أو قادرا على تحصيلها بوجود ثمنها فاضلا عن نفقته ونفقة عياله وحاجته من مسكن ونحوه فعليه الإعتاق ولا يجوز أن ينتقل إلى الصوم فان عجز عن تحصيلها فعليه صوم شهرين متتابعين فان أفطر يوما متعمدا فى خلال الشهرين أو

حتى تأتيانى به فخرجا فى طلبه وخرج معهما الحارث ابن زيد بن أبى أنيسة حتى أتوا المدينة فأتوا عياشا وهو فى الأطم فقالوا أنزل فان أمك لم يؤوها سقف بعدك وقد حلفت لا تأكل ولا تشرب حتى ترجع إليها ولك عهد الله علينا أن لا نكرهك على شىء يحول بينك وبين دينك فلما ذكروا له جزع أمه وأوثقوا له العهد بالله نزل إليهم فأخرجوه من المدينة وأوثقوه بنسعة وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ثم قدموا به على أمه فلما أتاها قالت لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذى آمنت به ثم تركوه موثقا فى الشمس ماشاء الله فأعطاهم الذى أرادوا فأتاه الحارث بن زيد فقال ياعياش أهذا الذى كنت عليه لئن كان هدى لقد تركت الهدى ولئن كان ضلالة لقد كنت عليها فغضب عياش من مقالته وقال والله لا ألقاك خاليا إلا قتلتك ثم إن عياشا أسلم بعد ذلك وهاجر وأسلم الحارث بن زيد من بعده وهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عياش حاضرا يومئذ ولم يشعر باسلامه فبينا عياش يسير بظهر قباء إذ لقى الحارث فقتله فقال لهم ناس ويحك ياعياش أى شىء صنعت إنه قد أسلم فرجع عياش إلى إلى رسول الله ﷺ وقال يارسول الله إنه كان من أمرى وأمر الحارث ماقد علمت وإنى لم أشعر باسلامه حتى قتلته فنزل وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومعنى الآية وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا ألبتة وما كان له سبب جواز قتله وقيل معناه ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه وعهد إليه ففيه تحريم قتل المؤمن من كل وجه وقوله تعالى إلا خطأ استثناء منقطع معناه لكن إن وقع خطأ فتحرير رقبة وقيل معناه ما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا ألبتة إلا أن يخطىء المؤمن فكفارة خطئه ماذكر من بعد والخطأ فعل الشىء من غير قصد وتعمد (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) يعنى فعليه إعتاق رقبة مؤمنة كفارة (ودية مسلمة إلى أهله) أى وعليه دية كاملة مسلمة إلى أهل القتيل الذين يرثونه (إلا أن يصدقوا) يعنى إلا أن يتصدق أهل القتيل على القاتل بالدية ويعفو عنه (فان كان) يعنى المقتول (من عدو قوم لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) أراد أنه إذا كان رجل مسلم فى دار الحرب وهو منفرد مع قوم كفار فقتله من لم يعلم باسلامه فلا دية عليه وعليه الكفارة وقيل المراد منه إنه إذا كان المقتول مسلما فى دار الإسلام وهو من نسب قوم كفار وأهله الذين يرثونه فى دار الحرب وهم حرب للمسلمين ففيه الكفارة ولا دية لأهله وكان الحارث بن زيد من قوم كفار حرب للمسلمين فكان فيه الكفارة تحرير رقبة مؤمنة دون الدية لأنه لم يكن بين قومه وبين المسلمين عهد (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى عهد (فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) يعنى أنه إذا كان المقتول كافرا معاهدا أو ذميا فتجب فيه الدية والكفارة (فمن لم يجد) يعنى الرقبة (فصيام شهرين متتابعين)

نسى النية أو نوى صوما آخر وجب عليه استئناف الشهرين وإن فصل يوما بعذر مرض أو سفر فهل ينقطع التتابع؟ اختلف أهل العلم فيه فمنهم من قال ينقطع وعليه استئناف الشهرين وهو قول النخعى وأظهر قولى الشافعى رضى الله عنه لأنه أفطر مختارا ومنهم من قال لا ينقطع وعليه أن يبنى وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والشعبى، ولو حاضت المرأة فى خلال الشهرين أفطرت أيام الحيض ولا ينقطع التتابع فاذا طهرت بنت على ماأصابت لأنه أمر مكتوب على النساء لا يمكنهن الاحتراز عنه فان عجز عن الصوم فهل يخرج عنه باطعام ستين مسكينا فيه قولان: أحدهما يخرج كما فى كفارة الظهار. والثانى لا يخرج لأن الشرع

لم يذكر له بدلا فقال فصيام شهرين متتابعين (توبة من الله) أى جعل الله ذلك توبة لقاتل الخطأ (وكان الله عليما) بمن قتل خطأ (حكيما) فيما حكم به عليكم، أما الكلام فى بيان الدية فاعلم أن القتل على ثلاثة أنواع: عمد محض وشبه عمد وخطأ محض، أما المحض فهو أن يقصد قتل إنسان بما يقصد به القتل غالبا فقتله ففيه القصاص عند وجود التكافؤ أو دية مغلظة فى مال القاتل حالة وشبه العمد أن يقصد ضربه بما لا يموت مثله من ذلك الضرب غالبا بأن ضربه بعصا خفيفة أو حجر صغير ضربة أو ضربتين فمات فلا قصاص فيه بل يجب فيه دية مغلظة على عاقلته مؤجلة إلى ثلاث سنين والخطأ المحض هو أن لا يقصد قتله بل قصد شيئا آخر فأصابه فمات منه فلا قصاص فيه بل تجب دية مخففة على عاقلته مؤجلة إلى ثلاث سنين وتجب الكفارة فى ماله فى الأنواع كلها وعند أبى حنيفة رضى الله عنه قتل العمد لا يوجب الكفارة لأنه كبيرة كسائر الكبائر ودية الحر المسلم مائة من الإبل فإذا عدمت الإبل وجبت قيمتها من الدراهم أو الدنانير فى قول وفى قول يجب بدل مقدر منها وهو ألف دينار أو إثنى عشر ألف درهم لما روى عن عمر رضى الله عنه فرض الدية على أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق إثنى عشر ألف درهم دية

وذهب قوم إلى أن الواجب فى الدية مائة من الإبل أو ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم وهو قول عروة بن الزبير والحسن البصرى رضى الله عنهما وبه قال مالك وذهب قوم إلى أنها مائة من الإبل أو ألف دينار أو عشرة آلاف درهم وهو

أى فعليه صيام شهرين متتابعين بدلا عن الرقبة (توبة من الله) يعنى جعل الله ذلك توبة لقاتل الخطأ (وكان الله عليما) يعنى بمن قتل خطأ (حكيما) يعنى فيما حكم به عليه من الدية والكفارة.

فصل فى أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل

(المسألة الأولى: فى بيان صفة القتل) قال الشافعى القتل على ثلاثة أقسام: عمد وشبه عمد وخطأ، أما العمد المحض فهو أن يقصد قتل إنسان بما يقتل به غالبا فقتل به ففيه القصاص عند وجود التكافؤ أو دية حالة مغلظة في مال القاتل. وأما شبه العمد فهو أن يقصد ضرب إنسان بما لا يقتل بمثله غالبا مثل أن ضربه بعصا خفيفة أو رماه بحجر صغير فمات فلا قصاص عليه وتجب عليه دية مغلظة على عاقلته مؤجلة إلى ثلاث سنين. وأما الخطأ المحض فهو أن لا يقصد قتله بل قصد شيئا آخر فأصابه فمات منه فلا قصاص عليه وتجب فيه دية مخففة على عاقلته مؤجلا إلى ثلاث سنين ومن صور قتل الخطأ أيضا أن يقصد رمى مشرك أو كافر فيصيب مسلما أو يقصد قتل إنسان يظنه مشركا بأن كان عليه لباس المشركين أو شعارهم فالصورة الأولى خطأ فى الفعل والثانية خطأ فى القصد.

(المسألة الثانية: فى حكم الديات) فدية الحر المسلم مائة من الإبل فاذا عدمت الإبل فتجب قيمتها من الدراهم أو الدنانير فى قول وفى قول بدل مقدر وهو ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم ويدل على ذلك ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال كانت الدية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانمائة دينار أو ثمانية آلاف درهم قال وكانت دية أهل الكتاب يومئذ على النصف من دية المسلم فكانت كذلك حتى استخلف عمر فقام خطيبا فقال إن الإبل قد غلت ففرضها عمر على أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق اثنى عشر ألف درهم وعلى أهل البقر مائتى بقرة وعلى أهل الشاء ألفى شاة وعلى أهل الحلل مائتى حلة قال وترك دية أهل الكتاب فلم يرفعها فيما رفع من الدية أخرجه أبو داود فذهب قوم إلى أن الواجب فى الدية مائة من الإبل أو ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم وهو قول عروة بن الزبير والحسن البصرى وبه قال مالك والشافعى وذهب قوم إلى أنها مائة من الإبل أو ألف دينار أو عشرة آلاف درهم وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى ودية المرأة نصف دية الذكر الحر ودية أهل الذمة والعهد ثلث دية المسلم إن كان كتابيا وإن كان مجوسيا فخمس الثلث ثمانمائة درهم وهو قول سعيد بن المسيب وإليه ذهب الشافعى وذهب قوم إلى أن دية الذمى والمعاهد مثل دية المسلم روى ذلك عن ابن مسعود وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى وقال قوم دية الذمى نصف دية المسلم وهو قول عمر بن عبد العزيز وبه قال مالك وأحمد والأصل فى ذلك ماروى عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دية المعاهد نصف دية الحر أخرجه أبو داود وعنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين وهم اليهود والنصارى أخرجه النسائى فمن ذهب إلى أن دية أهل الذمة ثلث دية المسلم أجاب عن هذا الحديث بأن الأصل فى ذلك كان النصف ثم رفعت زمن عمر

قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى ودية المرأة نصف دية الرجل ودية أهل الذمة والعهد ثلث دية المسلم إن كان كتابيا وإن كان مجوسيا فخمس الدية روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال دية اليهودى والنصرانى أربعة آلاف درهم ودية المجوسى ثمانمائة درهم وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وإليه ذهب الشافعى رضى الله عنه وذهب قوم إلى أن دية الذمى والمعاهد

مثل دية المسلم روى ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه وهو قول سفيان الثورى وأصحاب الرأى وقال قوم دية الذمى نصف دية المسلم ، وهو قول عمر بن عبد العزيز وبه قال مالك وأحمد رحمهما الله والدية فى العمد المحض وشبه العمد مغلظة بالسن فيجب ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة فى بطونها أولادها وهو قول عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت رضى الله عنهما وبه قال عطاء وإليه ذهب الشافعى رضى الله عنه لما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز ابن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى رضى الله عنه أنا ابن عيينة عن على بن زيد بن جدعان عن القاسم بن ربيعة عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال ألا إن فى قتل العمد الخطأ بالسوط والعصا مائة من الإبل مغلظة منها أربعون خلفة

دية المسلم ولم ترفع دية الذمى فبقيت على أصلها وهو قدر الثلث من دية المسلمين والدية فى قتل العمد وشبه العمد مغلظة فتجب ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة فى بطونها أولادها وهذا قول عمر وزيد بن ثابت وبه قال عطاء وإليه ذهب الشافعى لما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قتل متعمدا دفع إلى أولياء المقتول فان شاءوا قتلوا وإن شاءوا أخذوا الدية وهى ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة وما صولحوا عليه فهو لهم وذلك لتشديد العقل أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وعن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال خطب النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال «ألا وإن قتيل العمد بالسوط والعصا والحجر مائة من الإبل أربعون ثنية إلى بازل عامها كلهن خلفة» وفى رواية أخرى ألا إن كل قتيل خطأ العمد أو شبه العمد قتيل السوط والعصا مائة من الإبل فيها أربعون فى بطونها أولادها أخرجه النسائى وذهب قوم إلى أن الدية المغلظة أرباع خمس وعشرون بنت مخاض وخمس وعشرون بنت لبون وخمس وعشرون حقة وخمس وعشرون جذعة وهذا قول الزهرى وربيعة وإليه ذهب مالك وأحمد وأصحاب الرأى. وأما دية الخطأ فمخففة وهى أخماس بالاتفاق غير أنهم اختلفوا فى تقسيمها فذهب قوم إلى أنها عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون ابن لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة وهذا قول عمر بن عبد العزيز وسليمان بن يسار والزهرى وربيعة وبه قال مالك والشافعى وأبدل قوم أبناء اللبون ببنات المخاض يروون ذلك عن ابن مسعود وبه قال أحمد وأصحاب الرأى والدية فى قتل الخطأ وشبه العمد على العاقلة وهم العصبات من الذكور ولا يجب على الجانى منها شىء لأن النبى ﷺ أوجبها على العاقلة ودية الأعضاء والأطراف حكمها مبين فى كتب الفقه ودية أعضاء المرأة على النصف من دية أعضاء الرجل والله أعلم .

(المسألة الثالثة : فى حكم الكفارة) الكفارة إعتاق رقبة مؤمنة وتجب فى مال القاتل سواء كان المقتول مسلما أو معاهدا رجلا كان أو امرأة حرا كان أو عبدا فمن لم يجد الرقبة فعليه صيام شهرين متتابعين فالقاتل إن كان واجدا للرقبة أو قادرا على تحصيلها بوجود الثمن فاضلا عن نفقته ونفقة عياله وحاجته من مسكن ونحوه فعليه الإعتاق ولا يجوز له أن ينتقل إلى الصوم فمن عجز عن الرقبة أو عن تحصيل ثمنها فعليه صوم شهرين متتابعين فان أفطر يوما متعمدا فى خلال الشهرين أو نسى النية أو نوى صوما آخر وجب عليه استئناف الشهرين وإن أفطر يوما بعذر مرض أو سفر هل ينقطع التابع؟ اختلف العلماء فيه فمنهم من قال ينقطع التتابع وعليه استئناف الشهرين وهو قول النخعى وأظهر قولى الشافعى لأنه أفطر مختارا ومنهم من قال لا ينقطع التتابع وعليه أن يبنى وهو قول سعيد بن المسيب والحسن والشعبى ولو حاضت المرأة فى خلال الشهرين فطرت أيام الحيض ولا ينقطع التتابع فاذا طهرت بنت لأنه أمر كتبه الله على النساء

فى بطونها أولادها وذهب قوم إلى أن الدية المغلظة أرباع خمس وعشرون بنت مخاض وخمس وعشرون بنت لبون وخمس وعشرون حقة وخمس وعشرون جذعة وهو قول الزهرى وربيعة وبه قال مالك وأحمد وأصحاب الرأى وأما دية الخطأ فمخففة وهى أخماس بالاتفاق غير أنهم اختلفوا فى تقسيمها فذهب قوم إلى أنها عشرون بنت مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون

ابن لبون وعشرون حقة وعشرون جذعة وهو قول عمر بن عبد العزيز وسليمان بن يسار والزهري وربيعة، وبه قال مالك والشافعي رحمهم الله وأبدل قوم بني اللبون ببنات المخاض يروى ذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه وبه قال أحمد وأصحاب الرأي ودية الأطراف على هذا التقدير (٥٧٦) ودية المرأة فيها على النصف من دية الرجل والدية في قتل الخطأ وشبه العمد على العاقلة وهم عصبات القاتل من الذكور ولا يجب على الجاني منها شيء لأن النبي صلى الله عليه وسلم أوجبها على العاقلة قوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) الآية نزلت في مقيس بن صبابة الكندي وكان قد أسلم هو وأخوه هشام فوجد أخاه هشاما قتيلا في بني النجار فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه رجلا من بني فهر إلى بني النجار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة أن تدفعوه إلى مقيس فيقتص منه وإن لم تعلموا أن تدفعوا إليه ديته فأبلغهم الفهري ذلك فقالوا سمعا وطاعة لله ولرسوله والله ما نعلم له قاتلا ولكنا نؤدي ديته فأعطوه مائة من الإبل ثم انصرفا راجعين نحو المدينة فأتى الشيطان مقيسا فوسوس إليه فقال تقبل دية أخيك فتكون عليك مسبة أقتل الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدية فتغفل الفهري فرماه بصخرة فقتله ثم ركب بعيرا وساق بقيتها راجعا إلى مكة كافرا فنزل فيه ومن يقتل مؤمنا متعمدا (فجزاؤه جهنم خالدا فيها) بكفره وارتداده وهو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة عمن أمنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة قوله تعالى (وغضب الله عليه ولعنه) أي طرده عن الرحمة (وأعد له عذابا عظيما)

ولا يمكن الاحتراز عنه فإن عجز عن الصوم فهل ينتقل عنه إلى الإطعام فيطعم ستين مسكينا فيه قولان: أحدهما إنه ينتقل إلى الإطعام كما في كفارة الظهار. والثاني لا ينتقل لأن الله تعالى لم يذكر له بدلا فقال فصيام شهرين متتابعين توبة من الله فنص على الصوم وجعل ذلك عقوبة لقتل الخطأ والله أعلم. قوله عز وجل (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم) ٩٣ نزلت في مقيس ابن صبابة الكناني وكان قد أسلم هو وأخوه هشام فوجد أخاه هشاما قتيلا في بني النجار فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من بني فهر إلى بني النجار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن صبابة أن تدفعوه إلى أخيه مقيس فيقتص منه وإن لم تعلموه ادفعوا إليه ديته فبلغهم الفهري ذلك فقالوا سمعا وطاعة لله ولرسوله ما نعلم له قاتلا ولكن نؤدي إليه ديته فأعطوه مائة من الإبل فانصرفا راجعين نحو المدينة فأتى الشيطان مقيسا فوسوس إليه فقال له تقبل دية أخيك لتكون عليك سبة أقتل الفهري الذي معك فتكون نفس مكان نفس وفضل الدية فتغفل الفهري فرماه بصخرة فقتله ثم ركب بعيرا من الإبل وساق بقيتها راجعا إلى مكة كافرا وقال في ذلك:

قتلت به فهرا وحملت عقله ... سراة بني النجار أرباب فارع
وأدركت ثاري واضطجعت موسدا ... وكنت إلى الأصنام أول راجع

فنزلت فيه ومن يقتل مؤمنا متعمدا يعني قاصدا لقتله فجزاؤه جهنم (خالدا فيها) يعني بكفره وارتداده وهو الذي استثناه النبي ﷺ يوم فتح مكة عمن أمنه من أهلها فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة (وغضب الله عليه) يعني لأجل كفره وقتله المؤمن متعمدا (ولعنه) يعني وطرده عن رحمته (وأعد له عذابا عظيما) اختلف العلماء في حكم هذه الآية هل هي منسوخة أم لا؟ وهل لمن قتل مؤمنا متعمدا توبة؟ أم لا فروى عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ألمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة قال لا؟ فتلوت عليه الآية التي في الفرقان والذين لا يدعون مع الله إلها آخر «ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق» إلى آخر الآية قال هذه آية مكية نسختها آية مدنية، ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم وفي رواية قال اختلف أهل الكوفة في قتل المؤمن فرحلت إلى ابن عباس فقال نزلت في آخر ما نزل ولم ينسخها شيء وفي رواية أخرى قال ابن عباس نزلت هذه الآية بالمدينة والذين لا يدعون مع الله إلها آخر إلى قوله مهانا فقال المشركون وما يغني عنا الإسلام وقد عدلنا بالله وقد قتلنا النفس التي حرم الله وأتينا الفواحش فأنزل الله تعالى: «إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا» إلى آخر الآية زاد في رواية فأما من دخل في الإسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له أخرجاه في الصحيحين وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه ناظر ابن عباس في هذه الآية فقال من أين لك أنها محكمة؟ فقال ابن عباس تكاثف الوعيد فيها وقال ابن مسعود إنها محكمة وما تزداد إلا شدة وعن خارجة بن زيد قال سمعت زيد بن ثابت يقول أنزلت هذه الآية ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها بعد التي في الفرقان والذين لا يدعون مع

الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق بستة أشهر أخرجه أبو داود والنسائى وزاد النسائى فى رواية بثمانية أشهر وقال زيد بن ثابت لما نزلت هذه الآية التى فى الفرقان والذين لا يدعون مع الله إلها آخر عجبنا من لينها فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة وأراد بالغليظة هذه الآية التى فى سورة النساء وباللينة آية الفرقان وذهب الأكثرون من علماء السلف والخلف إلى أن هذه الآية منسوخة واختلفوا فى ناسخها فقال بعضهم نسختها التى فى الفرقان وليس هذا القول بالقوى لأن آية الفرقان نزلت قبل آية النساء والمتقدم لاينسخ المتأخر وذهب جمهور من قال بالنسخ إلى أن ناسخها الآية التى فى النساء أيضا وهى قوله تعالى «إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» وأجاب من ذهب إلى أنها منسوخة عن حديث ابن عباس المتقدم المخرج فى الصحيحين بأن هذه الآية خبر عن وقوع العذاب بمن فعل ذلك الأمر المذكور فى الآية والنسخ لايدخل الإخبار ولئن سلمنا أنه يدخلها النسخ لكن الجمع بين الآيتين ممكن ، بحيث لايكون بينهما تعارض ؛ وذلك بأن يحمل مطلق آية النساء على تقييد آية الفرقان فيكون المعنى فجزاؤه جهنم إلا من تاب وقال بعضهم ماورد عن ابن عباس إنما هو على سبيل التشديد والمبالغة فى الزجر عن القتل فهو كما روى عن سفيان بن عيينة إنه قال إن لم يقتل يقال له لاتوبة لك وإن قتل ثم ندم وجاء تائبا يقال له لك توبة وقيل أنه قد روى عن ابن عباس مثله وروى عنه أيضا أن توبته تقبل وهو قول أهل السنة ويدل عليه الكتاب والسنة . أما الكتاب فقوله تعالى «وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا» ثم اهتدى وقوله إن الله يغفر الذنوب جميعا وأما السنة فما روى عن جابر بن عبد الله قال جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله ما الموجبتان؟ قال «من مات لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات يشرك به شيئا دخل النار» أخرجه مسلم (ق) عن عبادة بن الصامت قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس فقال تبايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق وفى رواية ولاتقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولاتعصونى فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه فبايعناه على ذلك .

فصل

وقد تعلقت المعتزلة والوعيدية بهذه الآية لصحة مذهبهم على أن الفاسق يخلد فى النار وأجاب علماء السنة بأن الآية نزلت فى كافر قتل مسلما وهو مقيس بن صبابة فتكون الآية على هذا مخصوصة وقيل هذا الوعيد لمن قتل مسلما مستحلا لقتله ومن استحل قتل مسلم كان كافرا وهو مخلد فى النار بسبب كفره وعن أبى مجلز فى قوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم قال هى جزاؤه فان شاء الله أن يتجاوز عن جزائه فعل أخرجه أبو داود وقيل إن الخلود لايقتضى التأبيد بل معناه دوام الحالة التى هو عليها ويدل عليه قول العرب للأيام خوالد وذلك لطول مكثها

اختلفوا فى حكم هذه الآية فحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قاتل المؤمن عمدا لاتوبة له فقيل له أليس قد قال الله فى سورة الفرقان «ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق» إلى أن قال «ومن يفعل ذلك يلق آثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب» فقال كانت هذه فى الجاهلية وذلك أن أناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إن الذى تدعوا إليه لحسن لو تخبرنا إن لما عملنا كفارة فنزلت «والذين لايدعون مع الله إلها آخر. إلى قوله إلا من تاب وآمن» فهذه لأولئك وأما التى فى النساء فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ، ثم قتل مسلما متعمدا فجزاؤه جهنم وقال زيد بن ثابت لما نزلت التى فى الفرقان والذين لايدعون مع الله إلها آخر عجبنا من لينها فلبثنا سبعة أشهر ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة وأراد بالغليظة هذه الآية وباللينة آية الفرقان وقال ابن عباس رضى الله عنهما تلك آية مكية وهذه مدنية نزلت ولم ينسخها شىء والذى عليه الأكثرون وهو مذهب أهل السنة إن قاتل المسلم عمدا توبته مقبولة لقوله تعالى «وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا» وقال «إن الله

لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» وماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فهو تشديد ومبالغة فى الزجر عن القتل كما روى عن سفيان بن عيينة أنه قال إن لم يقتل يقال له لاتوبة لك وإن قتل ثم جاء يقال لك توبة ويروى مثله عن ابن عباس رضى الله عنهما وليس فى الآية متعلق لمن يقول بالتخليد فى النار بارتكاب الكبائر لأن الآية نزلت فى قاتل وهو كافر وهو مقيس بن صبابة وقيل إنه وعيد لمن قتل مؤمنا مستحلا لقتله بسبب إيمانه ومن

ومن استحل قتل أهل الإيمان لإيمانهم كان كافراً مخلداً فى النار وقيل قوله تعالى فجزاؤه جهنم خالداً فيها معناه هى جزاؤه إن جازاه ولكنه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له بكرمه فانه وعد أن يغفر لمن يشاء حكى أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبى عمرو بن العلاء فقال له هل يخلف الله وعده؟ فقال لا فقال أليس قد قال الله تعالى ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها؟ فقال له أبو عمرو ابن العلاء من العجم أتيت يا أبا عثمان أن العرب لا تعد الإخلاف فى الوعيد خلفاً وذماً وإنما تعد إخلاف الوعد خلفاً وذماً وأنشد

وإنى وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

والدليل على أن غير الشرك لا يوجب التخليد فى النار ما روينا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا أبو اليمن أنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله أن عبادة بن الصامت رضى الله عنه وكان شهد بدراً وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله عليه فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا) الآية قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت هذه الآية فى رجل من بنى مرة بن عوف يقال له مرداس بن نهيك وكان من أهل فدك مسلماً لم يسلم من قومه غيره فسمعوا بسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تريدهم وكان على السرية رجل يقال له غالب بن فضالة الليثى فهربوا وأقام الرجل لأنه كان على دين المسلمين فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد هو إلى الجبل فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون فلما سمع التكبير عرف أنهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فكبر ونزل وهو يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم فتغشاه أسامة ابن زيد بسيفه فقتله واستاق غنمه ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً وكان قد سبقهم قبل ذلك الخبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقتلتموه إرادة ما معه؟ ثم قرأ هذه الآية على أسامة

فقال

لا للدوام ببقائها وإذا ذكر الخلود فى حق الكفار قرنه بذكر التأبيد كقوله خالدين فيها أبداً فاذا قرن الخلود بهذه اللفظة علم أن المراد منه الدوام الذى لا ينقطع إذا ثبت هذا كان معنى الخلود المذكور فى الآية أن الله تعالى يعذب قاتل المؤمن عمداً فى النار إلى حيث يشاء الله ثم يخرجه منها بفضل رحمته وكرمه فانه قد ثبت فى أحاديث الشفاعة الصحيحة إخراج جميع الموحدين من النار وقيل إن قاتل المؤمن عمداً عدواناً إذا تاب قبلت توبته بدليل قوله تعالى «ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» ولأن الكفر أعظم من هذا القتل وتوبة الكافر من كفره مقبولة بدليل قوله «قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف» وإذا كانت التوبة من الكفر مقبولة فلأن تقبل من القاتل أولى والله أعلم . قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا) الآية قال ابن عباس نزلت فى رجل من بنى مرة بن عوف يقال له مرداس بن نهيك وكان من أهل فدك لم يسلم من قومه غيره فسمعوا بسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تريدهم وكان على السرية رجل يقال له غالب بن فضالة الليثى فهربوا منه وأقام ذلك الرجل المسلم فلما رأى الخيل خاف أن لا يكونوا مسلمين فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد هو الجبل ، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون فعرف أنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر ونزل وهو يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم فتغشاه أسامة بن زيد بسيفه فقتله واستاق غنمه ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه الخبر فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجداً شديداً وكان قد سبقهم الخبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقتلتموه إرادة ما معه؟ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أسامة بن زيد هذه الآية فقال أسامة استغفر لى يا رسول الله فقال كيف أنت بلا إله إلا الله يقولها ثلاث مرات قال أسامة فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها حتى وددت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ ثم استغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أعتق رقبة وروى أبو ظبيان عن أسامة قال قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح

ابن زيد فقال يارسول الله استغفر لى فقال فكيف بلا إله إلا الله قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات قال أسامة فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيدها حتى وددت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ ثم إن رسول الله ﷺ استغفر لى بعد ثلاث مرات وقال أعتق رقبة وروى أبو ظبيان عن أسامة رضى الله عنه قال قلت يارسول الله إنما قالها خوفا من السلاح قال أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفا أم لا؟ وقال عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال مر رجل من بنى سليم على نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومعه غنم له فسلم عليهم قالوا ماسلم عليكم

الا ليتعوذ منكم فقاموا وقتلوه وأخذوا غنمه فأتوا بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله» يعنى إذا سافرتم فى سبيل الله يعنى الجهاد فتبينوا قرأ حمزة والكسائى هاهنا فى موضعين وفى سورة الحجرات بالتاء والثاء من التثبيت أى قفوا حتى تعرفوا المؤمن من الكافر وقرأ الآخرون بالياء والنون من التبين يقال تبينت الأمر إذا تأملته (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم) هكذا قرأ أهل المدينة وابن عامر وحمزة أى المعادة وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله وقرأ الآخرون السلام وهو السلام الذى هو تحية المسلمين لأنه كان قد سلم عليهم وقيل السلم والسلام واحد أى لا تقولوا لمن سلم عليكم لست مؤمنا فذلك قوله تعالى (لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا) يعنى تطلبون الغنم والغنيمة وعرض الدنيا منافعها ومتاعها (فعند الله مغانم) أى غنائم (كثيرة) وقيل ثواب كثير لمن اتقى قتل المؤمن (كذلك كنتم من قبل) قال سعيد بن جبير كذلك كنتم تكتمون إيمانكم من المشركين (فمن الله عليكم) باظهار الإسلام وقال قتادة كنتم ضلالا من قبل فمن الله عليكم بالهداية وقيل معناه كذلك كنتم من قبل تأمنون فى قومكم بلا إله إلا الله قبل الهجرة فلا تخيفوا من قالها فمن الله عليكم بالهجرة (فتبينوا) أن تقتلوا مؤمنا (إن الله كان بما تعملون خبيرا) قلت إذا رأى الغزاة فى بلد أو قرية شعار الإسلام فعليهم أن يكفوا عنهم فان النبى ﷺ كان إذا غزا

فقال أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفا أم لا؟ وفى رواية عن ابن عباس قال مر رجل من بنى سليم على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غنم فسلم عليهم فقالوا إنما سلم عليكم ليتعوذ منكم فقاموا إليه فقتلوه وأخذوا غنمه فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله» يعنى إذا سافرتم إلى الجهاد فتبينوا من البيان يقال تبينت الأمر إذا تأملته قبل الإقدام عليه وقرئ فتثبتوا من التثبت وهو خلاف العجلة والمعنى فقفوا وتثبتوا حتى تعرفوا المؤمن من الكافر وتعرفوا حقيقة الأمر الذى تقدمون عليه (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام) يعنى التحية يعنى لا تقولوا لمن حياكم بهذه التحية أنه إنما قالها تعوذا فتقدموا عليه بالسيف لتأخذوا ماله ولكن كفوا عنه وأقبلوا منه ما أظهره لكم وقرئ السلم بفتح السين من غير ألف ومعناه الاستسلام والانقياد أى استسلم وانقاد لكم وقال لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل السلام والسلم بمعنى واحد أى لا تقولوا لمن سلم عليكم (لست مؤمنا) يعنى لست من أهل الإيمان فتقتلوه بذلك قال العلماء إذا رأى الغزاة فى بلد أو قرية أو حى من العرب شعار الإسلام يجب أن يكفوا عنهم ولا يغيروا عليهم لما روى عن عصام المزنى قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشا أو سرية يقول لهم إذا رأيتم مسجدا أو سمعتم مؤذنا فلا تقتلوا أحدا أخرجه أبو داود والترمذى وقال أكثر الفقهاء لو قال اليهودى أو النصرانى أنا مؤمن لا يحكم بايمانه لأنه يدعى أن الذى هو عليه إيمان ولو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فعند بعض العلماء لا يحكم باسلامه حتى يتبرأ من دينه الذى كان عليه ويعترف أنه دين باطل وذلك لأن بعض اليهود يزعم أن محمدا رسول إلى العرب خاصة لا أنه رسول إلى كافة الخلق ، فاذا اعترف أنه رسول إلى كافة الخلق وأن الذى كان عليه من التهود أو التنصر باطل صح إسلامه وحكم بصحته وقوله تعالى (تبتغون عرض الحياة الدنيا) يعنى تطلبون الغنيمة التى هى من حطام الدنيا سريعة النفاد والذهاب وعرض الدنيا منافعها ومتاعها (فعند الله مغانم كثيرة) أى غنائم كثيرة من رزقه يغنمكموها يغنيكم بها عن قتل من يظهر الإسلام ويتعوذ به. وقيل معناه فعند الله ثواب كثير لمن اتقى قتل المؤمن (كذلك كنتم من قبل) يعنى كما كان هذا الذى ألقى إليكم السلام فقلتم له لست مؤمنا فقتلتموه كنتم أنتم من قبل يعنى من قبل أن يعز الله دينه كنتم تستخفون أنتم بدينكم كما استخفى هذا الذى قتلتموه بدينه من قومه حذرا على نفسه منهم وقيل معناه كذلك كنتم تأمنون فى قومكم بهذه الكلمة فلا تحقروا من قالها ولا تقتلوه وقيل معناه كذلك كنتم من قبل مشركين (فمن الله عليكم) يعنى بالإسلام والهداية فلا تقتلوا من قال لا إله إلا الله وقيل معناه من عليكم باعلان الإسلام بعد الاختفاء ، وقيل من عليكم بالتوبة (فتبينوا) أى ولا تعجلوا بقتل مؤمن وهو تأكيد للأمر بالتبين (إن الله كان بما تعملون خبيرا) يعنى فلا تتهاونوا فى القتل وكونوا متحرزين من ذلك

قوما فإن سمع أذانا كف عنهم وإن لم يسمع أغار عليهم. أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا سفيان عن عبد الملك بن نوفل ابن مساحق عن ابن عصام عن أبيه «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث سرية قال: إذا رأيتم مسجدا أو سمعتم أذانا فلا تقتلن أحدا» قوله تعالى (لا يستوي القاعدون من المؤمنين) الآية أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا عبد العزيز بن عبد الله ثنا إبراهيم بن سعد الزهري حدثني صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنه قال. رأيت مروان بن الحكم جالسا في المسجد فأقبلت حتى جلست إلى جنبه فأخبرنا أن زيد بن ثابت رضي الله عنه أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم د (٥٨٠) أملى عليه لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله قال فجاء ابن أم مكتوم وهو يملها علي فقال يارسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان رجلا أعمى فأنزل الله تعالى عليه وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ثم سري عنه فأنزل الله (غير أولي الضرر) فهذه الآية في فضل الجهاد والحث عليه فقال لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن الجهاد غير أولي الضرر قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي بنصب الراء أي إلا أولي الضرر وقرأ الآخرون برفع الراء على نعت القاعدين يريد لا يستوي القاعدون الذين هم غير أولي الضرر أي غير أولي الزمانة والضعف في البدن والبصر (والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) أي ليس المؤمنون القاعدون عن الجهاد من غير عذر والمؤمنون والمجاهدون سواء غير أولي الضرر فإنهم يساوون المجاهدين لأن العذر أقعدهم. أخبرنا أحمد ابن عبد الله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا عبد الرحيم بن منيب أنا يزيد بن هارون أخبرنا حميد الطويل عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة قال إن في المدينة لأقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا كانوا معكم فيه قالوا يارسول الله وهم بالمدينة قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر» وروى القاسم عن ابن عباس قال لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر، والخارجون إلى بدر قوله تعالى (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) أي فضيلة وقيل أراد بالقاعد هاهنا أولي الضرر فضل الله المجاهدين عليهم درجة لأن المجاهد

محتاطين فيه. قوله عز وجل (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) الآية (خ) عن زيد بن ثابت قال «أملى علي النبي صلى الله عليه وسلم» «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم» فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي فقال والله يارسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ثم سري عنه فأنزل الله عز وجل غير أولي الضرر (ق) عن البراء بن عازب «لما نزلت لا يستوي القاعدون من المؤمنين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا فجاء بكتف فكتبها وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر» وفي رواية أخرى «لما نزلت لا يستوي القاعدون من المؤمنين قال النبي صلى الله عليه وسلم ادعوا فلانا فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف فقال اكتب لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله وخلف النبي صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم فقال يارسول الله أنا ضرير فنزلت مكانها لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله» هذه الرواية الثانية أخرجها ابن الأثير في كتابه جامع الأصول وأضافها إلى البخاري ومسلم ولم أجدها في كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي وفي هذه الآية فضل الجهاد في سبيل الله والحث عليه فقوله تعالى «لا يستوي القاعدون من المؤمنين» يعني لا يعدل المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من المؤمنين المجاهدين في سبيل الله غير أولي الضرر يعني أولي الزمانة والضعف في البدن والبصر فإنهم يساوون المجاهدين لأن العذر أقعدهم عن الجهاد (م) عن جابر قال «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بالمدينة رجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض» (خ) عن أنس قال «رجعنا من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا حبسهم العذر» (خ) عن ابن عباس قال لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر والخارجون إليها. وقوله تعالى (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) يعني فضيلة في الآخرة قال ابن عباس أراد بالقاعدين هنا أولي الضرر فضل الله المجاهدين على

باشر الجهاد مع النية وأولى الضرر كانت لهم نية ولـكنهم لم يباشروا فنزلوا عنهم بدرجة (وكلا وعد الله الحسنى) يعنى الجنة بايمانهم وقال مقاتل يعنى المجاهد والقاعد المعذور (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) يعنى على القاعدين من غير عذر (درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما) قال ابن محيريز فى الآية هى سبعون درجة مابين كل درجتين عدو الفرس الجواد المضمر سبعين خريفا . وقيل الدرجات هى الإسلام والجهاد والهجرة والشهادة فاز بها المجاهدون أخبرنا أبو الحسن على بن يوسف الجوينى أنا أبو محمد محمد ابن على بن محمد بن شريك

الشافعى أنا عبدالله بن مسلم أبو بكر الجورندى أنا يونس بن عبد الأعلى أنا ابن وهب حدثنى أبو هانئ الخولانى عن أبى عبد الرحمن الجبلى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال يا أبا سعيد من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة قال فعجب لها أبو سعيد فقال أعدها على يارسول الله فأعادها عليه ثم قال وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال وما هى يارسول الله؟ قال الجهاد فى سبيل الله ثلاثا» أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن على التياه أنا أبى أنا أبو الحسن على بن أحمد بن صالح المطرز أنا محمد بن يحيى أنا شريح بن النعمان انا فليح عن هلال بن على عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة جاهد فى سبيل الله أو جاس فى أرضه التى ولد فيها قالوا يارسول الله أفلا ننذر الناس بذلك قال إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» واعلم أن الجهاد فى الجملة فرض غير أنه ينقسم إلى فرض العين وفرض الكفاية ففرض العين أن يدخل الكفار دار قوم من المؤمنين فيجب على كل مكلف من الرجال ممن لاعذر له من أهل تلك البلدة الخروج إلى عدوهم حرا كان أو عبدا غنيا

على أولى الضرر درجة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية وأولوا الضرر كانت لهم نية ولم يباشروا الجهاد فنزلوا عن المجاهدين درجة (وكلا) يعنى كلا من المجاهدين والقاعدين (وعد الله الحسنى) يعنى الجنة بايمانهم (وفضل الله المجاهدين) يعنى فى سبيل الله (على القاعدين) يعنى الذين لاعذر لهم ولا ضرر (أجرا عظيما) يعنى ثوابا جزيلا. ثم فسر ذلك الأجر العظيم فقال تعالى (درجات منه) قال قتادة كان يقال للإسلام درجة والهجرة فى الإسلام درجة والجهاد فى الهجرة درجة والقتل فى الجهاد درجة وقال ابن زيد الدرجات هى سبع وهى التى ذكرها الله فى سورة براءة حين قال «ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله» إلى قوله «ولا يقطعون واديا إلا كتب الله لهم» وقال ابن محيريز الدرجات سبعون درجة مابين كل درجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة (م) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال «من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا وجبت له الجنة فتعجب لها أبو سعيد فقال أعدها على يارسول الله فأعادها عليه ثم قال وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال وماهى يارسول الله؟ قال الجهاد فى سبيل الله» (خ) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان وحج كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها فقالوا أولا نبشر الناس بقولك؟ فقال إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة» فان قلت قد ذكر الله عز وجل فى الآية الأولى درجة واحدة وذكر فى هذه الآية درجات فما وجه الحكمة فى ذلك؟ قلت أما الدرجة الأولى فلتفضيل المجاهدين على القاعدين بوجود الضرر والعذر . وأما الثانية فلتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير ضرر ولا عذر فضلوا عليهم بدرجات كثيرة وقيل يحتمل أن تكون الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم والدرجات درجات الجنة ومنازلها كما فى الحديث والله أعلم . قوله تعالى (ومغفرة) يعنى لذنوبهم يسترها ويصفح عنها (ورحمة) يعنى رأفة بهم (وكان الله غفورا) يعنى لذنوب عباده المؤمنين (رحيما) يعنى بهم يتفضل عليهم برحمته ومغفرته عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن ربه عز وجل قال «قال أيما عبد من عبادى خرج مجاهدا فى سبيل الله ابتغاء مرضاتى ضمنت له إن أرجعته أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة وإن قبضته غفرت له ورحمته» أخرجه النسائى

كان أو فقيرا دفعا عن أنفسهم وعن جيرانهم وهو فى حق من بعد منهم من المسلمين فرض على الكفاية فان لم يقع الكفاية بمن نزل بهم يجب على من بعد منهم من المسلمين عونهم وإن وقعت الكفاية بالنازلين بهم فلا فرض على الأبعدين إلا على طريق الاختيار ولا يدخل فى هذا القسم العبيد والفقراء ومن هذا القبيل أن يكون الكفار قارين فى بلادهم فعلى الإمام أن لايخلى كل سنة عن غزوة يغزوها (٥٨٢) بنفسه أوبسراياه حتى لايكون الجهاد معطلا والاختيار للمطيق الاجتهاد مع وقوع الكفاية بغيره أن لا يقعد عن الجهاد ولكن لا يفترض لأن الله تعالى وعد المجاهدين والقاعدين الثواب فى هذه الآية فقال «وكلا وعد الله الحسنى» فلو كان فرضا على الكافية لاستحق القاعد العقاب لاالثواب قوله تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) الآية نزلت فى ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا منهم: قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس ابن الوليد بن المغيرة وأشباههما فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار فقال الله تعالى «إن الذين توفاهم الملائكة» أراد به ملك الموت وأعوانه أو أراد ملك الموت وحده كما قال تعالى «قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم» والعرب قد تخاطب الواحد بلفظ الجمع «ظالمى أنفسهم» بالشرك وهو نصب على الحال أى فى حال ظلمهم قيل أى بالمقام فى دار الشرك لأن الله تعالى وتخرجوا لم يقبل الإسلام بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلا بالهجرة ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة فقال النبى صلى الله عليه وسلم «لاهجرة بعد الفتح» وهؤلاء قتلوا يوم بدر وضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم وقالوا لهم فيم كنتم فذلك تعالى (قالوا فيم كنتم) أى فى ماذا كنتم أو فى أى الفريقين أكنتم فى المسلمين أم فى المشركين؟ سؤال توبيخ وتعيير فاعتذروا بالضعف عن مقاومة أهل الشرك (قالوا كنا مستضعفين) عاجزين (فى الأرض) يعنى أرض مكة (قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) يعني إلى المدينة

فصل

اعلم أن الجهاد ينقسم إلى: فرض عين وفرض كفاية ففرض العين أن يدخل العدو دار قوم من المؤمنين وبلادهم فيجب على كل مكلف من الرجال ممن لاعذر له ولاضرر به من أهل تلك البلدة الخروج إلى عدوهم دفعا عن أنفسهم وعن أهليهم وجيرانهم وسواء فى ذلك الحر والعبد والغنى والفقير فيجب على الكافة وهو فى حق من بعد عنهم من المسلمين فرض كفاية فان لم تقع الكفاية بمن نزل بهم العدو فتجب مساعدتهم على من قرب منهم من المسلمين أوبعد عنهم، وإن وقعت الكفاية بالمنزول بهم فلا فرض على الأبعدين إلا على طريق الاختيار ولايدخل فى هذا الفرض يعنى فرض الكفاية الفقراء والعبيد وإذا كان الكفار قادرين فى بلادهم فعلى الإمام أن لايخلى كل سنة من غزاة يغزوهم فيها إما بنفسه أو سراياه حتى لايبطل الجهاد والاختيار. والمطيق الجهاد مع وقوع الكفاية بغيره لايقعد عنه ولكن لايفرض عليه لأن الله تعالى وعد المجاهدين والقاعدين الثواب بقوله «وكلا وعد الله الحسنى» ولو كان فرضا على الكافة لاستحق القاعدون عن الجهاد العقاب لاالثواب والله أعلم. قوله تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) الآية نزلت فى أناس تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا منهم قيس بن الفاكه بن المغيرة وقيس بن الوليد ابن المغيرة وأشباههما فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار فأنزل الله تعالى هذه الآية «إن الذين توفاهم الملائكة» يعنى ملك الموت وأعوانه وهم ستة: ثلاثة منهم يلون قبض أرواح المؤمنين وثلاثة يلون قبض أرواح الكفار. وقيل أراد به ملك الموت وحده وإنما ذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كما يخاطب الواحد بلفظ الجمع وفى التوفى هنا قولان: أحدهما أنه قبض أرواحهم. الثانى حشرهم إلى النار فعلى القول الثانى يكون المراد بالملائكة الزبانية الذين يلون تعذيب الكفار «ظالمى أنفسهم» يعنى بالشرك وقيل بالمقام فى دار الشرك وذلك لأن الله تعالى لم يقبل الإسلام من أحد بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم حتى يهاجر إليه ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة بقوله صلى الله عليه وسلم «لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» أخرجاه فى الصحيحين وقيل ظالمى أنفسهم بخروجهم مع المشركين يوم بدر وتكثير سوادهم حتى قتلوا معهم فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم (قالوا فيم كنتم) سؤال توبيخ وتقريع يعنى قالت الملائكة لهؤلاء الذين قتلوا فى أى الفريقين كنتم أفى فريق المسلمين أم فى فريق المشركين فاعتذروا بالضعف عن مقاومة المشركين وهو قوله تعالى إخبارا عنهم (قالوا كنا مستضعفين) يعنى عاجزين (فى الأرض) يعنى فى أرض مكة (قالوا) يعنى قال لهم الملائكة (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) يعنى إلى المدينة

وتخرجوا من مكة من بين أهل الشرك فأكذبهم الله تعالى وأعلمنا بكذبهم وقال (فأولئك مأواهم) منزلهم (جهنم وساءت مصيرا) أى بئس المصير إلى جهنم ثم استثنى أهل العذر منهم فقال (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة) لايقدرون على حيلة ولاعلى نفقة ولاعلى قوة الخروج منها (ولايهتدون سبيلا) أى لايعرفون طريقا إلى الخروج وقال مجاهد لايعرفون طريق المدينة (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) يتجاوز عنهم وعسى من الله واجب لأنه للإطماع والله تعالى إذا أطمع عبدا وصله إليه (وكان الله عفوا غفورا) قال ابن عباس رضى الله عنهما كنت أنا وأمى ممن عذر الله يعنى المستضعفين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوا لهؤلاء المستضعفين فى الصلاة أخبرنا عبد الواحد ابن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا معاذ ابن فضالة أنا هشام عن يحيى هو ابن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع فربما قال سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد فى الركعة الآخرة من صلاة العشاء اللهم انج عياش ابن أبى ربيعة اللهم انج الوليد بن الوليد اللهم انج سلمة ابن هشام اللهم انج المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف يجهر بذلك قوله تعالى (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما مراغما أى متحولا يتحول إليه وقال مجاهد متزحزحا عما يكره وقال أبو عبيدة المراغم المهاجر يقال راغمت قومى وهاجرتهم وهو المضطرب والمذهب قيل سميت المهاجرة مراغمة لأن من يهاجر يراغم قومه وسعة أى فى الرزق وقيل سعة من الضلالة إلى الهدى وروى، أنه لما نزلت هذه الآية سمعها رجل من بنى ليث شيخ كبير مريض يقال له جندع بن ضمرة فقال والله ما أنا ممن

وتخرجوا من بين أظهر المشركين فأكذبهم الله فى قولهم كنا مستضعفين وأعلمنا بكذبهم (فأولئك) يعنى من هذه صفتهم (مأواهم) يعنى منزلهم (جهنم وساءت مصيرا) يعنى بئس المصير مصيرهم إلى جهنم ثم استثنى أهل العذر ومن علم ضعفه منهم فقال تعالى (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة) يعنى لايقدرون على حيلة ولا نفقة ولا قوة لهم على الخروج من مكة (ولا يهتدون سبيلا) يعنى ولا يعرفون طريقا يسلكونه من مكة إلى المدينة (فأولئك) يعنى المستضعفين وأهل الأعذار (عسى الله أن يعفو عنهم) يعنى يتجاوز عنهم بفضله وإحسانه وعسى من الله واجب لأنه إطماع وترج والله تعالى إذا أطمع عبدا وصله (وكان الله عفوا غفورا) قال ابن عباس كنت أنا وأمى ممن عذر الله يعنى من المستضعفين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو لهؤلاء المستضعفين فى الصلاة (ق) عن أبى هريرة قال لما رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الثانية قال اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين بمكة اللهم أشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف . قوله عز وجل (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة) قال الزجاج معنى مراغما مهاجرا يعنى يجد فى الأرض مهاجرا يعنى أن المهاجر لقومه والمراغم لها بمنزلة واحدة وإن اختلف اللفظان وهو مأخوذ من الرغام وهو التراب يقال رغم أنفه إذا التصق بالتراب وذلك لأن الأنف عضو شريف والتراب ذليل حقير فجعلوا قولهم رغم أنفه كناية عن حصول الذل له ويقال راغمت فلانا بمعنى هجرته وعاديته ولم أبال به رغم أنفه ويقوى ذلك قول بعض أهل اللغة هو الخروج من بلاد العدو ورغم أنفه وقيل معناه أن الرجل إذا خرج عن قومه خرج مراغما لهم أى مغاضبا لهم ومقاطعا وقال الفراء المراغم المضطرب والمذهب فى الأرض وأنشد الزجاج فى المعنى:

إلى بلد غير دانى المحل بعيد المراغم والمضطرب

فعلى هذا يكون معنى الآية يجد مذهبا يذهب إليه إذا رأى ما يكرهه هذا قول أهل اللغة فى معنى المراغمة وقال ابن عباس يجد متحولا يتحول إليه من أرض إلى أرض ، وقال مجاهد يجد متزحزحا عما يكره وقيل يجد منقلبا ينقلب إليه وقيل المراغمة والمهاجرة واحدة يقال راغمت قومى أى هاجرتهم وسميت المهاجرة مراغمة لأنه يهاجر قومه برغمهم وقوله وسعة يعنى فى الرزق وقيل يجد سعة من الضلالة إلى الهدى وقيل يجد سعة فى الأرض التى يهاجر إليها قال ابن عباس لما نزلت الآية التى قبل هذه سمعها رجل من بنى ليث شيخ كبير مريض يقال له جندع بن ضمرة فقال والله ما أنا ممن استثنى الله عز وجل وإنى لأجد حيلة ولى من المال ما يبلغنى إلى المدينة وأبعد منها والله لا أبيت الليلة بمكة أخرجونى فخرجوا به يحملونه على سرير حتى

أستلنى الله عز وجل وإنى لأجد حيلة ولى من المال مايبلغنى المدينة وأبعد منها والله لا أبيت الليلة بمكة أخرجونى فخرجوا به يحملونه على سرير حتى أتوا به التنعيم فأدركه الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على مابايعك رسولك فمات فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو وافى المدينة لكان أتم وأوفى أجرا وضحك المشركون وقالوا ماأدرك هذا ما طلب فأنزل الله (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت) أى قبل بلوغه إلى مهاجره (فقد وقع) أى وجب (أجره على الله) بإيجابه على نفسه فضلا منه (وكان الله غفورا رحيما) قوله عز وجل (وإذا ضربتم فى الأرض) أى سافرتم (فليس عليكم جناح) أى حرج وإثم (أن تقصروا من الصلاة) يعنى من أربعة ركعات إلى ركعتين وذلك فى صلاة الظهر والعصر والعشاء (إن خفتم أن يفتنكم) أى يغتالكم ويقتلكم (الذين كفروا) فى الصلاة

أتوا به التنعيم فأدركه الموت فصفق بيمينه على شماله ثم قال اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على مابايعك رسولك ثم مات فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا لو وافى المدينة لكان أتم وأوفى أجرا وضحك المشركون وقالوا ماأدرك ماطلب فأنزل الله عز وجل (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت) يعنى قبل بلوغه إلى مهاجره (فقد وقع أجره على الله) يعنى فقد وجب أجر هجرته على الله بإيجابه على نفسه بحكم الوعد والتفضل والكرم لا وجوب استحقاق وتحتم قال بعض العلماء ويدخل فى حكم الآية من قصد فعل طاعة من الطاعات ثم عجز عن إتمامها كتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملا وقال بعضهم إنما يكتب له أجر ذلك القدر الذى عمل وأتى به، أما تمام الأجر فلا والقول الأول أصح لأن الآية إنما نزلت فى معرض الترغيب فى الهجرة وأن من قصدها ولم يبلغها بل مات دونها فقد حصل له ثواب الهجرة كاملا فكذلك كل من قصد فعل طاعة ولم يقدر على إتمامها كتب الله له ثوابها كاملا (وكان الله غفورا رحيما) يعنى ويغفر الله له ما كان منه من القعود قبل الهجرة إلى أن خرج مهاجرا. قوله عز وجل (وإذا ضربتم فى الأرض) يعنى إذا سافرتم فيها (فليس عليكم جناح) أى حرج وإثم (أن تقصروا من الصلاة) يعنى من أربع ركعات إلى ركعتين وذلك فى صلاة الظهر والعصر والعشاء، وأصل القصر فى اللغة التضييق وقيل هو ضم الشىء إلى أصله وفسر ابن الجوزى القصر بالنقص ولم أره لأحد من أهل التفسير واللغة وقيل معنى قصر الصلاة جعلها قصيرة بترك بعض ركعاتها أو بعض أركانها ترخيصا ولهذا السبب ذكروا فى تفسير قصر الصلاة المذكورة فى الآية قولين: أحدهما أنه فى عدد الركعات وهو رد الصلاة الرباعية إلى ركعتين والقول الثانى أن المراد بالقصر إدخال التخفيف فى أدائها وهو أن يكتفى بالإيماء والإشارة عن الركوع والسجود والقول الأول أصح ويدل عليه لفظة من فى قوله أن تقصروا من الصلاة ولفظة من هنا للتبعيض وذلك يوجب جواز الاقتصار على بعض الصلاة فثبت بهذا أن تفسير القصر بإسقاط بعض ركعات الصلاة أولى (إن خفتم أن يفتنكم) يعنى يغتالكم ويقتلكم فى الصلاة (الذين كفروا) ذهب داود الظاهرى إلى أن جواز القصر مخصوص بحال الخوف واستدل على صحة مذهبه بقوله تعالى إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ولأن عدم الشرط يقتضى عدم المشروط فعلى هذا لا يجوز القصر عند الأمن ولا يجوز رفع هذا الشرط بخبر الآحاد لأنه يقتضى نسخ القرآن بخبر الواحد، وذهب جمهور أهل العلم إلى أن القصر فى حال الأمن فى السفر جائز ويدل عليه ماروى عن يعلى بن أمية قال قلت لعمر بن الخطاب ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فقد أمن الناس فقال عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال «صدقة تصدق الله بها عليكم فأقبلوا صدقته» أخرجه مسلم وعن عبدالله بن خالد بن أسيد أنه قال لابن عمر كيف تقصرون الصلاة وإنما قال الله تعالى ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا فقال ابن عمر يا ابن أخى «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا ونحن فى ضلال فعلمنا فكان فيما علمنا أن أمرنا أن نصلى ركعتين فى السفر» أخرجه النسائى وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة إلى مكة لايخاف إلا رب العالمين فصلى ركعتين أخرجه الترمذى والنسائى وأجاب الجمهور عن قوله تعالى إن خفتم أن كلمة إن تفيد حصول الشرط ولا يلزم عند عدم الشرط عدم المشروط فقوله تعالى إن خفتم يقتضى أن عند عدم الخوف لاتحصل رخصة القصر

وإذا

نظيره قوله تعالى على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم أى يقتلهم (إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) أى ظاهر العداوة

اعلم أن قصر الصلاة فى السفر جائز باجماع الأمة واختلفوا فى جواز الإتمام فذهب أكثرهم إلى أن القصر واجب وهو قول عمر وعلى وابن عمر وجابر وابن عباس رضى الله عنهما وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة وهو قول مالك وأصحاب الرأى لما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين فى الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر وذهب قوم إلى جواز الإتمام روى ذلك عن عثمان وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما وبه قال الشافعى رضى الله عنه إن شاء أتم هو وإن شاء قصر والقصر أفضل أخبرنا الإمام عبد الوهاب ابن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا إبراهيم ابن محمد عن طلحة بن عمرو عن عطاء بن أبى رباح عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت كل ذلك قد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قصر الصلاة وأتم وظاهر القرآن يدل على ذلك لأن الله تعالى قال فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ولفظ لاجناح إنما يستعمل فى الرخص لافيما يكون حتما ظاهر الآية يوجب أن القصر لايجوز إلا عند الخوف وليس الأمر على ذلك إنما نزلت الآية على غالب أسفار النبى ﷺ وأكثرها لم يخل

وإذا كان كذلك كانت الآية ساكتة عن حال الأمن فاثبات الرخصة حال الأمن بخبر الواحد يكون إثباتا لحكم سكت عنه القرآن وذلك غير ممتنع إنما الممتنع إثبات الحكم بخبر الواحد على خلاف مادل عليه القرآن . فان قلت إذا كان هذا الحكم ثابتا فى حال الأمن والخوف، فما فائدة تقييده بحال الخوف؟ قلت إنما نزلت الآية على غالب أسفار النبى صلى الله عليه وسلم وأكثرها لم يخل عن خوف العدو فذكر الله عز وجل هذا الشرط من حيث إنه الأغلب فى الوقوع . وقوله تعالى (إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا) أى ظاهر العداوة فلعلمى بهذا رخصت لكم فى قصر الصلاة لئلا يجدوا إلى قتلكم واغتيالكم سبيلا وإنما قال عدوا ولم يقل أعداء لأنه يستوى فيه الواحد والجمع .

(فصل فى أحكام تتعلق بالآية وفيه مسائل)

(المسئلة الأولى) فى حكم القصر قصر الصلاة فى حالة السفر جائز باجماع الأمة وإنما اختلفوا فى جواز الإتمام فى حال السفر فذهب أكثر العلماء إلى أن القصر واجب فى السفر وهو قول عمر وعلى وابن عمر وجابر وابن عباس وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة وهو قول مالك وأبى حنيفة ويدل عليه ماروى عن عائشة قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ثم أتمها فى الحضر وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى وفى رواية أخرى قالت فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين فى الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر أخرجاه فى الصحيحين وذهب قوم إلى جواز الإتمام فى السفر ولكن القصر أفضل روى ذلك عن عثمان وسعد بن أبى وقاص وإليه ذهب الشافعى وأحمد وهو رواية عن مالك أيضا ويدل على ذلك ماروى البغوى بسند الشافعى عن عائشة قالت كل ذلك قد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قصر وأتم وعن عائشة أنها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى مكة حتى إذا قدمت مكة قالت يارسول الله بأبى أنت وأمى قصرت وأتممت وصمت وأفطرت؟ قال أحسنت ياعائشة وما عاب على أخرجه النسائى وظاهر القرآن يدل على ذلك لأن الله تعالى قال فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ولفظة ولا جناح إنما تستعمل فى الرخصة لا فيما يكون حتما ، وأجيب عن حديث عائشة فرض الله الصلاة ركعتين بأن معناه فرضت ركعتين أولا وزيد فى صلاة الحضر ركعتان على سبيل التحتم وأقرت صلاة السفر على جواز الاقتصار عليها وثبت جواز الإتمام بدليل آخر فوجب المصير إليه ليمكن الجمع بين الأحاديث ودلائل الشرع :

(المسئلة الثانية) اختلف فى صلاة المسافر إذا صلى ركعتين ركعتين هل هى مقصورة أم غير مقصورة فذهب قوم إلى أنها غير مقصورة وإنما فرض صلاة المسافر ركعتان تمام غير قصر يروى ذلك عن ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبدالله وإليه ذهب سعيد بن جبير والسدى وأبو حنيفة فعلى هذا يكون معنى القصر المذكور فى الآية هو تخفيف ركوعها وسجودها وقد تقدم الجواب عنه وذهب قوم إلى أنها مقصورة وليست بأصل ، وهو قول مجاهد وطاوس ، وإليه ذهب الشافعى وأحمد .

(المسئلة الثالثة) ذهب الشافعى ومالك وأحمد والجمهور ، إلى أنه يجوز القصر فى كل سفر

عن خوف العدو والقصر جائز فى السفر فى حال الأمن عند عامة أهل العلم ؛ والدليل عليه ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا مسلم بن خالد وعبد المجيد بن عبدالعزيز بن أبى داود عن ابن جريج أخبرنى عبدالرحمن بن عبدالله بن أبى عمار عن عبدالله بن باباه عن يعلى بن أمية قال قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إنما قال الله تعالى أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا وقد أمن الناس فقال عمر رضى الله عنه عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ فقال صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أنا عبد الوهاب عن أيوب السختيانى عن محمد بن سيرين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال سافر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة آمنا لا يخاف إلا الله فصلى ركعتين وذهب قوم إلى أن ركعتى المسافر ليستا بقصر إنما القصر أن يصلى ركعة واحدة فى الخوف يروى ذلك عن جابر رضى الله عنه وهو قول عطاء وطاوس والحسن ومجاهد وجعلوا شرط الخوف المذكور فى الآية باقيا وذهب أكثر أهل العلم إلى أن الاقتصار على ركعة واحدة لا يجوز خائفا كان أو آمنا واختلف أهل العلم فى مسافة القصر فقالت طائفة يجوز القصر فى السفر الطويل والقصير روى ذلك عن أنس رضى الله عنه وقال عمرو بن دينار قال لى جابر بن زيد اقصر بعرفة . أما عامة الفقهاء فلا يجوزون القصر فى السفر القصير واختلف فى حد ما يجوز به القصر فقال الأوزاعى مسيرة يوم وكان ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم يقصران ويفطران فى أربعة برد وهى ستة عشر فرسخا وإليه ذهب مالك وأحمد وإسحاق وهو قول الحسن والزهرى قريب من ذلك فانهما قالا مسيرة يومين وإليه ذهب الشافعى رضى الله عنه قال مسيرة ليلتين قاصدتين وقال فى موضع ستة وأربعون ميلا بالهاشمى وقال سفيان الثورى وأصحاب الرأى مسيرة ثلاثة أيام وقيل قوله إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا متصل بما بعده من صلاة الخوف منفصل عما قبله روى عن أبى أيوب الأنصارى أنه قال نزل قوله «فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة هذا القدر ثم بعد حول سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الخوف فنزل إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا وإذا كنت فيهم الآية ومثله فى القرآن كثير أن يجىء الخبر بتمامه ثم ينسق عليه خبر آخر وهو فى الظاهر كالمتصل به وهو منفصل عنه كقوله تعالى «الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين» وهذه حكاية عن امرأة العزيز وقوله «ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب» إخبار عن يوسف عليه السلام قوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس وجابر رضى الله عنهم أن المشركين لما رأوا رسول

مباح وشرط بعضهم كونه سفر حج أو عمرة أو جهاد أو سفر طاعة ، ولا يجوز القصر فى سفر المعصية وقال أبو حنيفة والثورى يجوز ذلك ؛

(المسئلة الرابعة) اختلف العلماء فى مسافة القصر فقال داود وأهل الظاهر يجوز القصر فى قصير السفر وطويله وروى ذلك عن أنس أيضا وقال عمرو بن دينار قال لى جابر ابن زيد أقصر بعرفة . وأما عامة أهل العلم فانهم لا يجوزون القصر فى السفر القصير واختلفوا فى حد الطويل الذى يجوز فيه القصر فقال الأوزاعى مسيرة يوم وكان ابن عمر وابن عباس يقصران ويفطران فى مسيرة أربعة برد هى ستة عشر فرسخا وإليه ذهب مالك وأحمد وإسحاق وقول الحسن والزهرى قريب من ذلك فانهما قالا مسيرة يومين ، وإليه ذهب الشافعى فقال مسيرة ليلتين قاصدتين ستة عشر فرسخا كل فرسخ ثلاثة أميال فتكون ثمانية وأربعين ميلا بالهاشمى والميل ستة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعا معترضة معتدلة والأصبع ست شعيرات معترضات معتدلات ، وقال الثورى وأبو حنيفة وأهل الكوفة لا قصر فى أقل من ثلاثة أيام .

فصل

قيل قوله تعالى «إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا» كلام متصل بما بعده منفصل عما قبله وتقديره وإن خفتم روى عن أبى أيوب الأنصارى أنه قال نزل قوله تعالى فليس «عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة هذا القدر» ثم بعد حول سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الخوف فنزل إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا وإذا كنت فيهم الآية ومثل هذا فى القرآن كثير يجىء الخبر بتمامه ثم ينسق عليه خبر آخر هو فى الظاهر كالمتصل به وهو منفصل عنه . قوله عز وجل (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) الآية روى عن ابن عباس وجابر أن

المشركين

الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى الظهر يصلون جميعا ندموا إلا كانوا أكبو عليهم فقال بعضهم لبعض دعوهم فان لهم بعدها صلاة هى أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم يعنى صلاة العصر فاذا قاموا فيها فشدوا عليهم فاقتلوهم فنزل جبريل عليه السلام فقال يامحمد إنها صلاة الخوف وإن الله عز وجل يقول وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فعلمه صلاة الخوف وجملته أن العدو إذا كانوا فى معسكرهم فى غير ناحية القبلة ، فيجعل الإمام القوم فرقتين فتقف طائفة وجاه العدو تحرسهم ويشرع الإمام مع طائفة فى الصلاة فاذا صلى بهم ركعة قام وثبت قائما حتى أتموا صلاتهم وذهبوا إلى وجاه العدو ؛ ثم أتت الطائفة الثانية فصلى بهم الركعة الثانية وثبت جالسا حتى أتموا لأنفسهم الصلاة ثم يسلم بهم وهذه رواية سهل ابن أبى حثمة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى كذلك بذات الرقاع وإليه ذهب مالك والشافعى وأحمد وإسحاق أنا أبو الحسن السرخسى أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمى أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن رومان عن صالح بن خوات عمن صلى مع النبى صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع صلاة الخوف أن طائفة صفت معه وصفت طائفة وجاه العدو فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائما فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته ثم ثبت جالسا وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم قال مالك وذلك أحسن ماسمعت فى صلاة الخوف وأخبرنا عبد الواحد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل أنا مسدد أنا يحيى عن شعبة عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن صالح بن خوات عن سهل بن أبى حثمة رضى الله عنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم بهذا وذهب قوم إلى أن الإمام إذا قام إلى الركعة الثانية تذهب الطائفة الأولى فى خلال الصلاة إلى وجاه العدو وتأتى الطائفة الثانية فيصلى بهم الركعة الثانية ويسلم وهم لايسلمون بل يذهبون إلى وجاه العدو

وتعود الطائفة الأولى فتتم صلاتها ثم تعود الطائفة الثانية فتتم صلاتها وهذه رواية عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كذلك وهو قول أصحاب الرأى أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبى أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى أنا أبو عيسى الترمذى أنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب، أنا يزيد بن زريع أنا معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى صلاة الخوف باحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مواجهة العدو ثم انصرفوا فقاموا فى مقام أولئك وجاء أولئك فصلى بهم ركعة أخرى ثم سلم بهم فقام هؤلاء فصلوا ركعتهم وكلتا الروايتين صحيحة فذهب قوم إلى أن هذا من الاختلاف المباح وذهب الشافعى رضى الله عنه إلى حديث سهل بن أبى حثمة لأنه أشد موافقة لظاهر القرآن وأحوط للصلاه وأبلغ فى حراسة العدو وذلك لأن الله تعالى قال «فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم» أى إذا صلوا ثم قال ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا وهذا يدل على أن الطائفة الأولى قد صلوا وقال «فليصلوا معك» ومقتضاه أن يصلوا تمام الصلاة فظاهره يدل أن كل طائفة تفارق الإمام بعد تمام الصلاة والاحتياط لأمر الصلاة ؛ من حيث أنه لايكثر فيها العمل والذهاب والمجئ والاحتياط لأمر الحرب من حيث إنهم إذ لم يكونوا فى الصلاة كان أمكن للحرب والضرب والهرب إن احتاجوا إليه ولو صلى الإمام أربع ركعات بكل طائفة ركعتين جاز أنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسين الإسفراينى أنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الحافظ قال أنا الصاغانى أنا عفان بن مسلم ثنا أبان العطار عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن جابر بن عبد الله قال أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بذات الرقاع وكنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم معلق بشجرة فأخذ سيف نبى الله صلى الله عليه وسلم فاخترطه فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتخافنى؟ قال لا قال فمن يمنعك منى؟ قال الله يمنعنى منك قال فتهدده أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأغمد السيف وعلقه فنودى بالصلاة قال فصلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا فصلى بالطائفة الأخرى ركعتين قال فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع ركعات وللقوم ركعتان

المشركين لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى الظهر يصلون جميعا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم فقال بعضهم لبعض دعوهم فان لهم بعدها صلاة هى أحب إليهم من آبائهم وأمهاتهم يعنى صلاة العصر فاذا قاموا إليها فشدوا عليهم فاقتلوهم فنزل جبريل عليه السلام فقال يامحمد إنها صلاة الخوف وإن الله عز وجل يقول وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فعلمه صلاة الخوف وروى عن أبى عياش الزرقى فى سبب نزول هذه الآية قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه

أخبرنا عبد الوهاب بن الخطيب أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعى أخبرنى الثقفة بن علية أو غيره عن يونس عن الحسن عن جابر رضى الله عنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى بالناس صلاة الظهر صلاة الخوف ببطن نخل فصلى بطائفة ركعتين ثم سلم ثم جاءت طائفة أخرى فصلى بهم ركعتين ثم سلم وروى عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى صلاة الخوف أنه صلى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا ورواه زيد بن ثابت وقال كانت للقوم ركعة واحدة وللنبى صلى الله عليه وسلم ركعتان وتأوله قوم على صلاة شدة الخوف وقالوا الفرض فى هذه الحالة ركعة واحدة وأكثر أهل العلم على أن الخوف لاينقص عدد الركعات وإن كان العدو فى ناحية القبلة فى مستوى إن حملوا عليهم رأوهم صلى الإمام بهم جميعا وحرسوا فى السجود كما أخبرنا الإمام أبو على الحسين بن محمد القاضى أنا أبو نعيم الإسفراينى أنا أبو عوانة الحافظ أنا عمار أنا يزيد بن هارون أخبرنا عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء عن جابر رضى الله عنهما قال صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصففنا خلفه صفين والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبى صلى الله عليه وسلم وكبرنا جميعا ثم ركع وركعنا جميعا ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعا ثم انحدر بالسجود والصف الذى يليه الذى كان مؤخرا فى الركعة الأولى فقام الصف المؤخر فى نحو

العدو فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم السجود والصف الذى يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود ثم قاموا ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر المقدم ثم ركع النبى صلى الله عليه وسلم وركعنا جميعا ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعا ثم انحدر بالسجود والصف الذى يليه الذى كان مؤخرا فى الركعة الأولى وقام الصف المؤخر فى نحر العدو فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم السجود والصف الذى يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ثم سلم النبى صلى الله عليه وسلم وسلمنا جميعا قال جابر رضى الله عنه كما يصنع حرسكم هؤلاء بأمرائكم واعلم أن صلاة الخوف جائزة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم عند عامة أهل العلم ويحكى عن بعضهم عدم الجواز ولا وجه له وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه كل حديث روى فى أبواب صلاة الخوف فالعمل به جائز روى فيها ستة أوجه أو سبعة أوجه وقال مجاهد فى سبب نزول هذه الآية عن أبى عياش الزرقى قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد فصلينا الظهر فقال المشركون لقد أصبنا غرة لو حملنا عليهم وهم فى الصلاة فنزلت الآية بين الظهر والعصر قوله تعالى وإذا كنت فيهم أى شهيدا معهم فأقمت لهم الصلاة (فلتقم طائفة منهم معك) أى فلتقف كقوله تعالى وإذا أظلم عليهم قاموا أى وقفوا (وليأخذوا أسلحتهم) واختلفوا فى الذين يأخذون أسلحتهم فقال بعضهم أراد هؤلاء الذين وقفوا مع الإمام يصلون ويأخذون الأسلحة فى الصلاة فعلى هذا إنما يأخذه إذا كان لايشغله عن الصلاة فلايؤذى من بجنبه فاذا شغلته حركته وثقلته عن الصلاة كالجعبة والترس الكبير أو كان يؤذى من بجنبه كالرمح فلايأخذه وقيل وليأخذوا أسلحتهم أى الباقون الذين قاموا فى وجه العدو (فاذا سجدوا) أى صلوا (فليكونوا من ورائكم) يريد مكان الذين هم وجاه العدو (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا) وهم

وسلم بعسفان وعلى المشركين خالد بن الوليد فصلينا الظهر فقال المشركون لقد أصبنا غرة وفى رواية غفلة ولو حملنا عليهم وهم فى الصلاة فنزلت الآية بين الظهر والعصر قوله تعالى «وإذا كنت فيهم» هذا الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وإذا كنت يا محمد فى أصحابك وشهدت معهم القتال فأقمت لهم الصلاة (فلتقم طائفة منهم معك) يعنى إذا حان وقت الصلاة وأقمتها لأصحابك فاجعلهم فرقتين فلتقف فرقة منهم معك فتصلى بهم (وليأخذوا أسلحتهم) اختلفوا فى هؤلاء الذين أمرهم الله بأخذ السلاح فقيل أراد بهم الذين قاموا معه إلى الصلاة فانهم يأخذون أسلحتهم فى الصلاة فعلى هذا القول إنما يأخذون من السلاح مالايشغلهم عن الصلاة ولايؤذى به من إلى جنبه كالسيف والخنجر وذلك لأنه أقرب إلى الاحتياط وأمنع للعدو من الإقدام عليهم فان كان السلاح يشغل بحركته وثقله عن الصلاة كالترس الكبير أو يؤذى من إلى جنبه كالرمح فلا يأخذه وقيل أراد بهم الطائفة الذين بقوا فى وجه العدو فانهم يأخذون أسلحتهم للحراسة وقيل يحتمل أن يكون أمرا للفريقين بحمل السلاح لأن ذلك أقرب إلى الاحتياط (فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم) يعنى إذا صلى الذين معك وفرغوا من الصلاة فليكونوا من ورائكم يعنى فلينصرفوا إلى المكان الذى هو فى وجه العدو للحراسة (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا) يعنى ولتأت الطائفة التى كان فى وجه العدو

العدو (فليصلوا معك) الركعة الثانية التى بقيت عليك ويتموا بقية صلاتهم (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) يعنى إن الله تعالى جعل الحذر وهو التحرز والتيقظ آلة يستعملها الغازى فى دفع العدو فلذلك جعله مأخوذا مع السلاح . فان قلت لم ذكر فى أول الآية الأسلحة فقط وذكر هنا الحذر والأسلحة . قلت لأن العدو قلما ينتبه للمسلمين فى أول الصلاة بل يظنون كونهم قائمين فى المحاربة والمقاتلة فاذا قاموا إلى الركعة الثانية ظهر للكفار أن المسلمين فى الصلاة فحينئذ ينتهزون الفرصة فى الإقدام على المسلمين فلا جرم أن الله تعالى أمرهم فى هذا الموضع بزيادة الحذر من الكفار مع أخذ الأسلحة (ود الذين كفروا) يعنى تمنى الكفار (لو تغفلون) يعنى لو وجدوكم غافلين (عن أسلحتكم وأمتعتكم) يعنى حوائجكم التى بها بلاغكم فى أسفاركم فتسهون عنها (فيميلون عليكم ميلة واحدة) يعنى فيقصدونكم ويحملون عليكم حملة واحدة وأنتم مشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم فيصيبون منكم غرة فيقتلونكم .

(فصل فى أحكام تتعلق بالآية وصفة صلاة الخوف وفيه مسائل)

(المسئلة الأولى) قال أبو يوسف والحسن ابن زياد من أصحاب أبى حنيفة صلاة الخوف كانت خاصة بالنبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لغيره بعده فعلها وقال المزنى من أصحاب الشافعى كانت ثابتة ثم نسخت واحتجوا لصحة هذا القول بأن الله تعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى «وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة» وظاهر هذا يدل على أن إقامة الصلاة مشروطة بكون النبى صلى الله عليه وسلم فيهم فدل على تخصيصه بها ولأن كلمة إذا تفيد الشرط وذهب جمهور العلماء والفقهاء إلى أن هذا الحكم لما ثبت فى حق النبى صلى الله عليه وسلم بحكم هذه الآية وجب أن يثبت فى حق غيره من أمته لقوله تعالى «فاتبعوه» ولقوله صلى الله عليه وسلم «صلوا كما رأيتمونى أصلى» ولأن ذلك إجماع الصحابة على فعلها وقد روى عن على بن أبى طالب أنه صلى صلاة الخوف بأصحابه ليلة الهرير وكذلك أبو موسى صلى بأصحابه صلاة الخوف وكذلك حذيفة ابن اليمان صلاها بأصحابه بطبرستان وليس لهؤلاء مخالف من الصحابة وأجيب عن قوله تعالى «وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة» بأن هذا وإن كان قد خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم فان سائر أمته داخلون فى هذا الحكم فهو كقوله «ياأيها النبى إذا طلقتم النساء» إلا أن يرد نص بتخصيصه صلى الله عليه وسلم بحكم دون أمته كقوله تعالى «خالصة لك من دون المؤمنين» ونظير قوله وإذا كنت فيهم قوله «خذ من أموالهم صدقة» وإذا كان هو المخاطب بها وقد ثبت حكم أخذ الزكاة لمن بعده من الأئمة كان كذلك قوله وإذا كنت فيهم وأجيب عن لفظة إذا : بأن مقتضاه الثبوت عند الثبوت وأما العدم عند العدم فغير مسلم .

(المسئلة الثانية) قال الخطابى صلاة الخوف أنواع صلاها النبى صلى الله عليه وسلم فى أيام مختلفة وأشكال متباينة يتحرى فى ذلك كله ما هو الأحوط للصلاة وأبلغ فى الحراسة فهى مع اختلاف صورها متفقة المعنى فمن أنواع صلاة الخوف ما إذا كان العدو فى غير جهة القبلة . فرق الإمام أصحابه فرقتين فتقف طائفة وجاه العدو فتحرس ويصلى بالطائفة الأخرى ركعة فاذا قام إلى الثانية أتموا لأنفسهم وذهبوا إلى وجاه العدو فيحرسون وتأتى الطائفة الثانية التى كانت تحرس فيصلى بهم الركعة الثانية ويثبت جالسا فى التشهد حتى يتموا لأنفسهم الصلاة ثم يسلم بهم ويدل على ذلك ما روى عن يزيد بن رومان عن صالح بن خوات عمن صلى مع النبى صلى الله عليه

الذين كانوا فى وجه العدو (فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) قيل هؤلاء الذين أتوا وقيل هم الذين صلوا (ود الذين كفروا) يتمنى الكفار (لو تغفلون) أى لو وجدوكم غافلين (عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) فيقصدونكم

وسلم يوم ذات الرقاع صلاة الخوف أن طائفة صفت معه وجاه العدو فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائما وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته ثم ثبت جالسا فأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم أخرجاه فى الصحيحين الذى صلى مع النبى صلى الله عليه وسلم هو سهل بن أبى حثمة وقد أخرجاه من رواية أخرى عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه وذكر نحوه وهذا هو مختار الشافعى لأنه أشد موافقة لظاهر القرآن وأحوط للصلاة وأبلغ فى حراسة العدو، وأما كونه أشد موافقة لظاهر القرآن فان قوله ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك يدل على أن الطائفة الأولى قد صلت وقوله فليصلوا معك ظاهره يدل على أن جميع صلاة الطائفة الثانية حصلت مع الإمام وكونها أحوط لأمر الصلاة من حيث إنه لايكثر فيها العمل من المجىء والذهاب وكونها أحوط لأمر الحرب والحراسة من حيث إنه إذا لم يكونوا فى الصلاة كان أمكن للحراسة والكر والفرو والهرب إن احتاجوا إليه وذهب قوم إلى أن الطائفة الأولى تصلى مع الإمام ركعة ثم تذهب إلى وجه العدو فتحرس وهم فى صلاتهم ثم تأتى الطائفة الثانية فتصلى مع الإمام الركعة الثانية ويسلم الإمام ولايسلمون هم بل يذهبون إلى وجه العدو وترجع الطائفة الأولى إلى موضع الإمام فتقضى بقية صلاتها ثم تذهب ثم تأتى الطائفة الثانية إلى موضع الإمام فتقضى بقية صلاتها يروى ذلك عن ابن مسعود وهو مذهب أبى حنيفة ويدل على ذلك ماروى عن ابن عمر قال صلى النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف قال فكبر فصلى خلفه طائفة منا وطائفة مواجهة للعدو فركع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة وسجد سجدتين ثم انصرفوا ولم يسلموا وأقبلوا على العدو فصفوا مكانهم وجاءت الطائفة الأخرى فصفوا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بهم ركعة وسجدتين ثم سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدتم ركعتين وأربع سجدات ثم قامت الطائفتان فصلى كل إنسان منهم لنفسه ركعة وسجدتين أخرجه النسائى قال أبو بكر السنى سمع الزهرى من ابن عمر ولم يسمع هذا منه والذى أخرجاه فى الصحيحين عن ابن عمر قال صلى النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف باحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مواجهة العدو ثم انصرفوا وقاموا فى مقام أصحابهم مقبلين على العدو وجاء أولئك فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة وفى رواية أخرى قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فى بعض أيامه فقامت طائفة معه وطائفة بازاء العدو فصلى بالذين معه ركعة وجاء الآخرون فصلى بهم ركعة وقضت الطائفتان ركعة ركعة وبهذه الرواية المخرجة فى الصحيحين أخذ الأوزاعى وأشهب المالكى وهو جائز عند الشافعى أيضا ثم قيل إن الطائفتين قضوا ركعتهم الباقية معا وقيل متفرقين وهو الصحيح والفرق بين الروايتين أن الطائفة الأولى أدركت أول الصلاة وهى فى حكم من خلف الإمام. ولما الطائفة الثانية فلم تدرك أول الصلاة والمسبوق فيما يقضى كالمنفرد فى حكم صلاته.

ويحملون عليكم حملة واحدة

(المسئلة الثالثة) فيما إذا كان العدو فى ناحية القبلة وصورة هذه الصلاة ماروى عن جابر ابن عبد الله قال شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فصففنا صفين خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبى صلى الله عليه وسلم وكبرنا جميعا ثم ركع وركعنا جميعا ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعا ثم انحدر بالسجود والصف

الذى يليه وقام الصف المؤخر فى نحو العدو فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم السجود وقام الصف الذى يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ثم ركع النبى صلى الله عليه وسلم وركعنا جميعا ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعا ثم انحدر بالسجود والصف الذى يليه الذى كان مؤخرا فى الركعة الأولى فقام الصف المؤخر فى نحر العدو فلما قضى النبى صلى الله عليه وسلم السجود والصف الذى يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ثم سلم النبى صلى الله عليه وسلم وسلمنا جميعا قال جابر كما يصنع حرسكم هؤلاء بأمرائهم أخرجه مسلم بتمامه وأخرج البخارى طرفا منه أنه صلى صلاة الخوف مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الغزوة السابقة غزوة ذات الرقاع وبهذا الحديث أخذ الشافعي ومن وافقه فيما إذا كان العدو فى جهة القبلة .

(المسئلة الرابعة) إذا اشتد الحرب والتحم القتال صلوا رجالا وركبانا يؤمنون بالركوع والسجود إلى أى جهة كانت هذا مذهب الشافعى ومذهب أبى حنيفة أنهم لايصلون فى هذه الحالة فاذا أمنوا اقضوا مافاتهم من الصلاة ولصلاة الخوف صور أخر مذكورة فى كتب الفقه وليس هذا موضعها والله أعلم . وقوله تعالى (ولا جناح عليكم) أى ولا إثم ولا حرج عليكم (إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) قال ابن عباس رخص الله لهم فى وضع السلاح فى حال المطر وحال المرض لأن السلاح يثقل حمله فى هاتين الحالتين (وخذوا حذركم) يعنى راقبوا عدوكم ولا تغفلوا عنه أمرهم الله بالتحفظ والتحرز والاحتياط لئلا يتجرأ العدو عليهم قال ابن عباس نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم وذلك أنه غزا بنى محارب وبنى إنمار فنزلوا ولا يرون من العدو أحدا فوضع الناس السلاح فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة حتى قطع الوادى والسماء ترش بالمطر فسال الوادى فحال السيل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أصحابه فجلس تحت شجرة فبصر به غورث بن الحارث المحاربى فقال قتلنى الله إن لم أقتله ثم انحدر من الجبل ومعه السيف ولم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم على رأسه وقد سل السيف من غمده وقال يامحمد من يمنعك منى الآن؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله عزوجل» ثم قال اللهم اكفنى غورث بن الحارث بما شئت فاهوى غورث بالسيف ليضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم به فأكب لوجهه من زلخة زلخها فندر السيف من يده فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ السيف ثم قال ياغورث من يمنعك منى الآن ؟ فقال لاأحد فقال أتشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك فقال لا ولكن أشهد أن لاأقاتلك أبدا ولا أعين عليك عدوا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث لأنت خير منى فقال النبى صلى الله عليه وسلم أجل أنا أحق بذلك منك فرجع غورث إلى أصحابه فقالوا له ويلك ياغورث مامنعك منه فقال والله لقد أهويت إليه بالسيف لأضربه به فو الله ماأدرى من زلخنى بين كتفى فخررت لوجهى وذكر حاله لهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وسكن الوادى فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الوادى إلى أصحابه وأخبرهم الخبر وقرأ هذه الآية ولاجناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى قال ابن عباس كان عبد الرحمن بن عوف جريحا فنزلت فيه أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم يعنى من

فى حال المطر والمرض لأن السلاح يثقل حمله فى هاتين الحالتين (وخذوا حذركم) أى راقبوا العدو كيلا يتغفلوكم والحذر مايتقى به من العدو وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه غزا محاربا وبنى إنمار فنزلوا ولايرون من العدو أحدا فوضع الناس أسلحتهم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجة له قد وضع سلاحه حتى قطع الوادى والسماء ترش فحال الوادى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أصحابه فجلس رسول الله ﷺ فى ظل شجرة فبصر به غورث بن الحارث المحاربى فقال قتلنى الله إن لم أقتله ثم انحدر من الجبل ومعه السيف فلم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم على رأسه ومعه السيف قدسله من غمده فقال يامحمد من يعصمك منى الآن ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الله) ثم قال اللهم اكفنى غورث بن الحارث بما شئت ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضرب به فانكب لوجهه من زلخة زلخها بين كتفيه ، وندر سيفه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه ثم

قال ياغورث من يمنعك منى الآن ؟ قال لاأحد قال تشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأعطيك سيفك قال لا ولكن أشهد أن لاأقاتلك أبدا ولاأعين عليك عدوا فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه فقال غورث والله لأنت خير منى فقال النبى صلى الله عليه وسلم أجل أنا أحق بذلك منك فرجع غورث إلى أصحابه فقالوا ويلك مامنعك منه قال لقد أهويت إليه بالسيف لأضربه فوالله ماأدرى من زلخنى بين كتفى فخررت لوجهى وذكر حاله قال وسكن الوادى فقطع رسول الله ﷺ الوادى إلى أصحابه فأخبرهم الخبر وقرأ عليهم هذه الآية «ولاجناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر، أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم» أى من عدوكم وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية كان عبد الرحمن بن عوف جريحا (إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا) يهانون فيه والجناح الإثم من جنحت إذا عدلت عن القصد (فاذا قضيتم الصلاة) يعنى صلاة الخوف أى فرغتم منها (فاذكروا الله) أى صلوا لله (قياما) فى حال الصحة (وقعودا) فى حال المرض (وعلى جنوبكم) عند الجرح والزمانة وقيل اذكروا الله بالتسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد على كل حال أخبرنا عمرو بن عبد العزيز الكاشانى أنا القاسم بن جعفر الهاشمى أنا أبو على محمد بن أحمد اللؤلؤى أنا أبو داود السجستانى أنا محمد ابن العلاء أنا ابن أبى زائدة عن أبيه عن خالد بن سلمة عن الزهرى (٥٩٢) عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه» (فاذا اطمأننتم) أى سكنتم وأمنتم (فأقيموا الصلاة) أى أتموها أربعا بأركانها (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) قيل واجبا مفروضا مقدرا فى الحضر أربع ركعات وفى السفر ركعتان. وقال مجاهد أى فرضا موقتا وقته الله تعالى عليهم وقد جاء بيان أوقات الصلاة فى الحديث أخبرنا أحمد ابن عبد الله الصالحى، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيرى أنا حاجب ابن أحمد الطوسى أنا أبو بكر عبد الله بن هاشم حدثنا وكيع أنا سفيان عن عبد الرحمن بن الحارس عن عياش بن أبى ربيعة الزرقى عن حكم بن أبى حكيم عن عباد بن حنيف عن نافع بن جبير بن مطعم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أمنى جبريل عليه السلام عند باب البيت مرتين فصلى بى الظهر حين زالت الشمس وكانت بقدر الشراك وصلى بى العصر حين صار ظل كل شىء مثله وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم وصلى بى العشاء حين غاب الشفق وصلى بى الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم فلما كان الغد صلى بى الظهر حين كان ظل كل شىء مثله وصلى بى العصر حين كان ظل كل شىء مثليه وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم وصلى بى العشاء حين ذهب ثلث الليل الأول وصلى بى الفجر حين أسفر ثم التفت إلى فقال يامحمد هذا وقت الأنبياء من قبلك والوقت مابين هذين الوقتين» أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو بكر بن الحسن الحيرى أنا وكيع أنا حاجب بن أحمد ثنا عبد الله بن هاشم ثنا وكيع ثنا بدر بن عثمان ثنا أبو بكر بن أبى موسى الأشعرى عن أبيه رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم «أن سائلا أتاه فسأله عن مواقيت الصلاة قال فلم يرد عليه شيئا ثم أمر بلالا فأذن ثم أمره فأقام الصلاة حين انشق الفجر فصلى ثم أمره فأقام الظهر والقائل يقول قد زالت الشمس أولم تزل وهو كان أعلم منهم ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية ثم أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس ثم أمره

عدوكم (إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا) يعنى يهانون به. قوله عز وجل (فاذا قضيتم الصلاة) يعنى فاذا فرغتم من صلاة الخوف (فاذكروا الله) يعنى بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وأثنوا على الله فى جميع أحوالكم (قياما وقعودا وعلى جنوبكم) فان ماأنتم عليه من الخوف جدير بالمواظبة على ذكر الله عز وجل والتضرع إليه (ق) عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل أحيانه وقيل المراد بالذكر الصلاة يعنى فصلوا لله قياما يعنى فى حال الصحة وقعودا فى حال المرض وعلى جنوبكم يعنى فى حال الزمانة والجراح (فاذا اطمأننتم) يعنى فاذا أمنتم وسكنت قلوبكم. وأصل الطمأنينة سكون القلب (فأقيموا الصلاة) يعنى فأتموها أربعا فعلى هذا يكون المراد بالطمأنينة ترك السفر والمعنى فاذا صرتم مقيمين فى أوطانكم فأقيموا الصلاة تامة أربعا من غير قصر وقيل معناه فأقيموا الصلاة باتمام ركوعها وسجودها فعلى هذا يكون المراد بالطمأنينة سكون القلب عن الاضطراب والأمن بعد الخوف (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) يعنى فرضا موقتا والكتاب هنا بمعنى المكتوب يعنى مكتوبة موقتة فى أوقات محدودة فلا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أى حال كان من خوف أو أمن وقيل معناه فرضا واجبا مقدرا فى الحضر أربع ركعات وفى السفر ركعتين.

قوله

فأقام العشاء حين سقط الشفق قال وصلى الفجر من الغد والقائل يقول طلعت الشمس أو لم تطلع وصلى الظهر قريبا من وقت العصر بالأمس وصلى العصر والقائل يقول قد احمرت الشمس وصلى المغرب قبل أن يغيب الشفق وصلى العشاء بعدما ذهب ثلث الليل الأول ثم قال أين السائل عن وقت الصلاة فقال الرجل أنا يا رسول الله قال «ما بين هذين الوقتين وقت». قوله تعالى (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) الآية سبب نزولها أن أبا سفيان رضى الله عنه وأصحابه لما رجعوا يوم أحد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفة فى آثارهم فشكوا ألم الجراحات فقال الله تعالى «ولا تهنوا فى ابتغاء القوم» أى لا تضعفوا فى ابتغاء القوم فى طلب القوم أبى سفيان وأصحابه (إن تكونوا تألمون) تتوجعون من الجراح (فإنهم يألمون)

أى يتوجعون يعنى الكفار (كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) أى وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب فى الآخرة والنصر فى الدنيا ما لا يرجون وقال بعض المفسرين المراد بالرجاء الخوف لأن كل راج خائف أن لا يدركه مأموله ومعنى الآية ترجون من الله أى وتخافون من الله أى تخافون من عذاب الله ما لا يخافون قال الفراء رحمه الله ولا يكون الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد كقوله تعالى «قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله» أى لا يخافونه وقال تعالى «ما لكم لا ترجون لله وقارا» أى لا تخافون لله عظمته ولا يجوز رجوتك بمعنى خفتك ولا خفتك وأنت تريد رجوتك (وكان الله عليما حكيما) قوله تعالى (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) الآية روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق من بنى ظفر بن الحارث سرق درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان وكانت الدرع فى جراب له فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى الدار ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين فالتمست الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم فقال أصحاب الدرع لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودى فأخذوه منه فقال اليهودى دفعها إلى طعمة ابن أبيرق فجاء بنو ظفر وهم قوم طعمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا له إنك إن لم تفعل افتضح صاحبنا فهم رسول الله صلى

قوله تعالى (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا يوم أحد بعث النبى صلى الله عليه وسلم فى آثارهم فشكوا من ألم الجراحات فقال الله تعالى ولا تهنوا يعنى ولا تضعفوا ولا تتوانوا فى ابتغاء القوم يعنى فى طلب أبى سفيان وأصحابه ثم أورد عليهم الحجة فى ذلك وألزمهم بها فقال تعالى (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) يعنى أن حصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم وليس ما تكابدون من الوجع وألم الجراح مختصا بكم بل هم كذلك فإذا لم يكن الألم مانعا لهم عن قتالكم فكيف يكون مانعا لكم عن قتالهم وكيف لا تصبرون مثل صبرهم مع أنكم أولى بالصبر منهم لأنكم مقرون بالحشر والنشر والثواب والعقاب والمشركون لا يقرون بذلك كله فأنتم أيها المؤمنون أولى بالجهاد منهم وهو قوله تعالى (وترجون من الله ما لا يرجون) يعنى وتأملون من الله من الثواب فى الآخرة ما لا يرجون وقيل ترجون النصر والظفر فى الدنيا وإظهار دينكم على الأديان كلها (وكان الله عليما حكيما) يعنى أنه تعالى لا يأمركم بشىء إلا وهو يعلم أنه مصلحة لكم. قوله عز وجل (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار يقال له طعمة بن إبيرق من بنى ظفر بن الحارث سرق درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان وكانت الدرع فى جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى داره ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين فالتمست الدرع عند طعمة فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم فقال أصحاب الدرع لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودى فأخذوه فقال اليهودى دفعها إلى طعمة بن أبيرق زاد فى الكشاف وشهد له جماعة من اليهود قال البغوى وجاء بنو ظفر قوم طعمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاقب اليهودى وأن يقطع يده فأنزل الله هذه الآية وقيل إن زيد بن السمين أودع الدرع عند طعمة فجحده طعمة فأنزل الله هذه الآية إنا أنزلنا إليك يعنى يا محمد الكتاب يعنى القرآن بالحق يعنى بالصدق وبالأمر والنهى والفصل (لتحكم بين الناس بما أراك الله) يعنى بما علمك الله وأوحى إليك وإنما سمى العلم اليقينى رؤية لأنه جرى مجرى الرؤية فى قوة الظهور روى عن عمر أنه قال لا يقولن

أحدكم قضيت بما أرانى الله فان الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم ولكن ليجهد رأيه لأن الرأى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيبا، لأن الله تعالى كان يريه إياه وإن رأى أحدنا يكون ظنا ولا يكون علما قال المحققون دلت هذه الآية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يحكم إلا بالوحى الإلهى والنص المنزل عليه (ولا تكن) يعنى يا محمد (للخائنين خصيما) يعنى ولا تكن لأجل الخائنين وهم قوم طعمة تخاصم عنهم وتجادل عن طعمة مدافعا عنه ومعينا له (واستغفر الله) يعنى مما هممت به من معاقبة اليهودى وقيل من جدالك عن طعمة (إن الله كان غفورا) يعنى لذنوب عباده يسترها عليهم ويغفرها لهم (رحيما) يعنى بعباده المؤمنين.

(فصل)

وقد تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الأنبياء وقالوا لو لم يقع من الرسول صلى الله عليه وسلم ذنب لما أمر بالاستغفار والجواب عما تمسكوا به من وجوه: أحدها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل المنهى عنه فى قوله ولا تكن للخائنين خصيما ولم يخاصم عن طعمة لما سأله قومه أن يذب عنه وأن يلحق السرقة باليهودى فتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وانتظر ما يأتيه من الوحى السماوى والأمر الإلهى فنزلت هذه الآية وأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن طعمة كذاب وأن اليهودى برىء من السرقة وإنما مال صلى الله عليه وسلم إلى نصرة طعمة وهم بذلك بسبب أنه فى الظاهر من المسلمين فأمره الله بالاستغفار لهذا القدر. الوجه الثانى أن قوم طعمة لما شهدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة طعمة من السرقة ولم يظهر فى الحال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوجب القدح فى شهادتهم هم بأن يقضى على اليهودى بالسرقة فلما أطلعه الله على كذب قوم طعمة عرف أنه لو وقع ذلك الأمر لكان خطأ فى نفس الأمر فأمره الله بالاستغفار منه وإن كان معذورا. الوجه الثالث يحتمل أن الله تعالى أمره بالاستغفار لقوم طعمة لذبهم عن طعمة فان استغفاره صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون لذنب قد سبق قبل النبوة وأن يكون لذنوب أمته. الوجه الرابع أن درجة النبى صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات ومنصبه أشرف المناصب فلعلو درجته وشرف منصبه وكمال معرفته بالله عز وجل فما يقع منه على وجه التأويل أو السهو أو أمر من أمور الدنيا فانه ذنب بالنسبة إلى منصبه صلى الله عليه وسلم كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين. وذلك بالنسبة إلى منازلهم ودرجاتهم والله أعلم. قوله تعالى (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) يعنى ولا تجادل يا محمد عن الذين يظلمون أنفسهم بالخيانة وهم طعمة ومن عاونه وذب عنه من قومه وإنما سماهم خائنين لأن من أقدم على ذنب فقد خان نفسه لأنه أوقعها فى العذاب وحرمها من الثواب ولهذا قيل لمن ظلم غيره إنما ظلم نفسه وقيل المراد بهذا الجمع كل من خان خيانة أى فلا تخاصم الخائن ولا تجادل عنه (إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما) يعنى خوانا بسرقة الدرع أثيما برميه اليهودى وهو برىء وإنما قال تعالى خوانا أثيما على المبالغة لأنه تعالى علم من طعمة الإفراط فى الخيانة وركوب المآثم ويدل على ذلك أنه لما نزل فيه القرآن لحق بمكة مرتدا عن دينه ثم عدا على الحجاج بن علاط فنقب عليه بيته فسقط عليه حجر من الحائط فلما أصبحوا أخرجوه من مكة فلقى ركبا فعرض لهم وقال ابن السبيل ومنقطع به فحملوه حتى إذا جن عليه الليل عدا عليهم فسرقهم ثم انطلق فركبوا فى طلبه فأدركوه فرموه بالحجارة حتى مات، ومن كانت هذه

حاله

الله عليه وسلم أن يعاقب اليهودى ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية أخرى أن طعمة سرق الدرع فى جراب فيه نخالة فخرق الجراب حتى كان يتناثر منه النخالة طول الطريق فجاء به إلى دار زيد السمين وتركه على بابه وحمل الدرع إلى بيته فلما أصبح صاحب الدرع جاء على أثر النخالة إلى دار زيد السمين فأخذه وحمله إلى النبى صلى الله عليه وسلم فهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يقطع يد زيد اليهودى وقال مقاتل إن زيدا السمين أودع درعا عند طعمة فجحدها طعمة فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق بالأمر والنهى والفصل لتحكم بين الناس بما أراك الله بما علمك الله وأوحى إليك (ولا تكن للخائنين) طعمة (خصيما) معينا مدافعا عنه (واستغفر الله) مما هممت به من معاقبة اليهودى وقال مقاتل واستغفر الله من جدالك عن طعمة (إن الله كان غفورا رحيما ولا تجادل) لا تخاصم (عن الذين يختانون أنفسهم) أى يظلمون أنفسهم بالخيانة والسرقة (إن الله لا يحب من كان خوانا) خائنا (أثيما) بسرقة الدرع أثيما فى رميه اليهودى قيل إنه خطاب مع النبى ﷺ

والمراد به غيره كقوله تعالى «فان كنت فى شك مما أنزلنا إليك» والاستغفار فى حق الأنبياء بعد النبوة على أحد الوجوه الثلاثة : إما لذنب تقدم على النبوة أو لذنوب أمته وقرابته أو لمباح جاء الشرع بتحريمه فيتركه بالاستغفار فالاستغفار يكون معناه السمع والطاعة لحكم الشرع (يستخفون من الناس) أى يستترون ويستحيون من الناس ؛ يريد بنى ظفر ابن الحارث (ولا يستخفون من الله) أى لا يستترون ولا يستحيون من الله (وهو معهم إذ يبيتون) يتقولون ويؤلفون والتبييت تدبير الفعل ليلا (مالا يرضى من القول) وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم نرفع الأمر إلى النبى ﷺ فانه يسمع قوله ويمينه لأنه مسلم ولا يسمع من اليهودى لأنه كافر فلم يرض الله ذلك منهم (وكان الله بما يعملون محيطا) ثم يقول لقوم طعمة (هاأنتم هؤلاء) أى يا هؤلاء (جادلتم) أى خاصمتم (عنهم) يعنى عن طعمة وفى قراءة أبى بن كعب عنه (فى الحياة الدنيا) والجدال شدة المخاصمة من الجدل وهو شدة الفتل فهو يريد فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج وقيل الجدال من الجدالة وهى الأرض فكان كل واحد من الخصمين يروم قهر صاحبه وصرعه على الجدالة (فمن يجادل الله عنهم) يعنى عن طعمة (يوم القيامة) إذا أخذه الله بعذابه (أم من يكون عليهم وكيلا) كفيلا أى من الذى يذب عنهم ويتولى أمرهم يوم القيامة ثم استأنف فقال (ومن يعمل سوءا) يعنى السرقة (أو يظلم نفسه) برميه البرىء وقيل ومن يعمل سوءا أى شركا أو يظلم نفسه يعنى إثما دون الشرك (ثم يستغفر الله) أى يتب إليه ويستغفره (يجد الله غفورا رحيما) يعرض التوبة

حاله كان كثير الخيانة والإثم فلذلك وصفه الله تعالى بالمبالغة فى الخيانة والإثم قال بعضهم إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. ويروى عن عمر أنه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكى وتقول هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه يا أمير المؤمنين فقال كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة . قوله عز وجل (يستخفون من الناس) يعنى يستترون حياء من الناس يريد بذلك بنى ظفر بن الحرث وهم قوم طعمة بن أبيرق (ولا يستخفون من الله) يعنى ولا يستترون من الله ولا يستحيون منه وأصل الاستخفاء الاستتار وإنما فسر الاستخفاء بالاستحياء على المعنى لأن الاستحياء من الناس يوجب الاستتار منهم (وهو معهم) يعنى والله معهم بالعلم والقدرة ولا يخفى عليه شىء من حالهم لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية . وكفى بذلك زجرا للإنسان عن ارتكاب الذنوب (إذ يبيتون مالا يرضى من القول) يعنى يضمرون ويقدرون ويزورون فى أذهانهم وأصل التبييت تدبير الفعل بالليل وذلك أن قوم طعمة قالوا فيما بينهم نرفع الأمر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فانه يسمع قول طعمة ويقبل يمينه لأنه مسلم ولا يسمع قول اليهودى لأنه كافر فلم يرض الله تعالى بذلك منهم فأطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على سرهم وما هموا به (وكان الله بما يعملون محيطا) يعنى أنه تعالى لا يخفى عليه شىء من أسرار عباده وهو مطلع عليهم ومحيط بهم لا تخفى عليه خافية (هاأنتم هؤلاء) ها للتنبيه يعنى يا هؤلاء الذين هو خطاب لقوم من المؤمنين كانوا يذبون عن طعمة وعن قومه (جادلتم عنهم) يعنى خاصمتم عنهم بسبب أنهم كانوا يرونهم فى الظاهر مسلمين وأصل الجدال شدة الفتل لأن كل واحد من الخصمين يريد أن يفتل صاحبه عما هو عليه والمعنى هبوا إنكم خاصمتم وجادلتم عن طعمة وقومه فى الحياة الدنيا وقيل هو خطاب لقوم طعمة وفى قراءة ابن مسعود : جادلتم عنه والمعنى هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة فى الحياة الدنيا (فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة) يعنى إذا أخذه بعذابه فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع (أمن يكون عليهم وكيلا) يعنى محافظا ومحاميا عنهم من بأس الله إذا نزل بهم. قوله تعالى (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) نزلت هذه الآية فى ترغيب طعمة فى التوبة وعرضها عليه وقيل نزلت فى قومه الذين جادلوا عنه وقيل هى عامة فى كل مسىء ومذنب لأن خصوص السبب لا يمنع من إطلاق الحكم ومعنى الآية ومن يعمل سوءا يسىء به غيره كما فعل طعمة بالسرقة من قتادة وإنما خص ما يتعدى إلى الغير باسم السوء لأن ذلك يكون فى الأكثر إيصالا للضرر إلى الغير أو يظلم نفسه يعنى فيما يختص به من الحلف الكاذب ونحو ذلك وقيل معناه ومن يعمل سوءا أى قبيحا أو يظلم نفسه برميه البرىء وقيل السوء كل ما يأثم به الإنسان والظلم هو الشرك فما دونه (ثم يستغفر الله) يعنى من ذنوبه (يجد الله غفورا رحيما) ففى هذه الآية دليل على حكمين : أحدهما أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب الكبائر والصغائر لأن قوله ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه عم الكل . والحكم الثانى إن ظاهر الآية يقتضى أن مجرد الاستغفار كاف وقال بعضهم إنه مقيد بالتوبة لأنه لا ينفع الاستغفار

على طعمة فى هذه الآية (ومن يكسب إثما) يعنى يمين طعمه بالباطل أى ماسرقته أنا إنما سرقه اليهودى (فانما يكسبه على نفسه) فانما يضر به نفسه (وكان الله عليما) سارق الدرع (حكيما) حكم بالقطع على السارق (ومن يكسب خطيئة) أى سرقة الدرع (أو إثما) بيمينه الكاذبة (ثم يرم به) أى يقذف بما جنى (بريئا) منه وهو نسبة السرقة إلى اليهودى (فقد احتمل بهتانا) البهتان هو البهت وهو الكذب الذى يتحير فى عظمه (وإثما مبينا) أى ذنبا بينا وقوله ثم يرم به ولم يقل بهما بعد ذكر الخطيئة والإثم رد الكناية إلى الإثم أوجعل الخطيئة والإثم كالشىء الواحد قوله تعالى (ولولا فضل الله عليك ورحمته) يقول للنبى ﷺ (لهمت) لقد همت أى أضمرت (طائفة منهم) يعنى قوم طعمة (أن يضلوك) يخطئوك فى الحكم ويلبسوا عليك الأمر حتى تدافع عن طعمة (وما يضلون إلا أنفسهم) يعنى يرجع وباله عليهم (وما يضرونك من شىء) يريد أن ضرره يرجع إليهم (وأنزل الله عليك الكتاب) يعنى القرآن (والحكمة) يعنى القضاء بالوحى (وعلمك مالم تكن تعلم) من الأحكام وقيل من علم الغيب (وكان فضل الله عليك عظيما)

مع الاصرار على الذنوب (ومن يكسب إثما) يعنى ومن يعمل ذنبا يأثم به (فانما يكسبه على نفسه) يعنى إنما يعود وبال كسبه عليه والكسب عبارة عما يفيدجر منفعة أودفع مضرة فكأنه تعالى يقول ياأيها الإنسان إن الذنب الذى ارتكبته إنما عادت مضرته عليك فانى منزه عن الضر والنفع فأكثر من الاستغفار ولاتيأس من قبول التوبة فانى لغفار لمن تاب وهذه الآية نزلت فى طعمة أيضا (وكان الله عليما) يعنى بسارق الدرع (حكيما) يعنى إذاحكم عليه بالقطع وقيل معناه عليما بما فى قلب عبده عند إقدامه على التوبة حكيما تقتضى حكمته أن يتجاوز عن التائب ويغفر له ويقبل توبته (ومن يكسب خطيئة أو إثما) قيل إن الخطيئة هى الصغيرة من الذنوب والإثم هو الكبيرة وقيل الخطيئة هى الذنب المختص بفاعله والإثم الذنب المتعدى إلى الغير وقيل إن الخطيئة هى سرقة الدرع والإثم هو يمينه الكاذبة (ثم يرم به بريئا) يعنى ثم يقذف بما جناه بريئا منه وهو نسبة السرقة إلى اليهود ولم يسرق . فان قلت الخطيئة والإثم اثنان فكيف وحد الضمير فى قوله ثم يرم به . قلت معناه ثم يرم بأحد هذين المذكورين بريئا وقيل معناه ثم يرم بهما فاكتفى بأحدهما عن الآخر وقيل أنه يعود الضمير إلى الإثم وحده لأنه أقرب مذكور وقيل أن الضمير يعود إلى الكسب ومعناه ثم يرم بما كسب بريئا (فقد احتمل بهتانا) البهتان من البهت وهو الكذب الذى يتحير فى عظمه (وإثما مبينا) يعنى ذنبا بينا لأنه بكسب الإثم آثم وبرميه البرئ باهت فقد جمع بين الأمرين . قوله عز وجل (ولولا فضل الله عليك ورحمته) هذه الآية متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق وقومه حيث لبسوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر صاحبهم . فقوله تعالى فلولا فضل الله عليك يعنى يامحمد بالنبوة ورحمته يعنى بالعصمة وما أوحى إليك من الإطلاع على أسرارهم فهو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (لهمت طائفة منهم) يعنى من بنى ظفر وهم قوم طعمة (أن يضلوك) يعنى عن القضاء بالحق وتوخى طريق العدل وقيل معناه يخطئوك فى الحكم ويلبسوا عليك الأمر حتى تدفع عن طعمة وذلك لأن قوم طعمة عرفوا أنه سارق ثم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم أن يدفع عنه وينزهه عن السرقة ويرمى بها اليهودى (وما يضلون إلا أنفسهم) يعنى أن وبال ذلك يرجع عليهم بسبب تعاونهم على الإثم وبشهادتهم له أنه برىءفهم لما قدموا على ذلك رجع وباله عليهم (وما يضرونك من شىء) يعنى أنهم وإن سعوا فى القائك فى الباطل فأنت ماوقعت فيه لأنك بنيت الأمر على ظاهر الحال وما خطر ببالك أن الأمر على خلاف ذلك وقيل معناه وما يضرونك من شىء فى المستقبل فوعده الله إدامة العصمة وإنه لايضره أحد (وأنزل الله عليك الكتاب) يعنى القرآن (والحكمة) يعنى القضاء بهما يعنى وأوجب بهما بناء الحكم على الظاهر فكيف يضرونك بالقائك فى الشبهات (وعلمك مالم تكن تعلم) يعنى من أحكام الشرع وأمور الدين وقيل علمك من علم الغيب مالم تكن تعلم وقيل معناه وعلمك من خفيات الأمور وأطلعك على ضمائر القلوب وعلمك من أحوال المنافقين وكيدهم مالم تكن تعلم (وكان فضل الله عليك عظيما) يعنى ولم يزل فضل الله عليك يامحمد عظيما فاشكره على ماأولاك من إحسانه ومن عليك بنبوته وعلمك ماأنزل عليك من كتابه وحكمته وعصمك ممن حاول إضلالك فان الله هو الذى تولاك بفضله وشملك باحسانه وكفاك غائلة من أرادك بسوء ففى هذه الآية تنبيه من الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على ماحباه من ألطافه وما شمله من فضله وإحسانه ليقوم

قوله تعالى (لاخير فى كثير من نجواهم) يعنى قوم طعمة وقال مجاهد الآية عامة فى حق جميع الناس والنجوى هى الإسرار فى التدبير وقيل النجوى ماينفرد بتدبيره قوم سرا كان أوجهرا فمعنى الآية لاخير فى كثير مما يدبرونه بينهم (إلا من أمر بصدقة) أى إلا فى نجوى من أمر بصدقة فالنجوى يكون متصلا وقيل النجوى هاهنا الرجال المتناجون كما قال الله تعالى وإذ هم نجوى إلا من أمر بصدقة وقيل هذا استثناء منقطع يعنى لكن من أمر بصدقة أى حث عليها (أو معروف) أى بطاعة الله وما يعرفه الشرع وأعمال البر كلها معروف لأن العقول تعرفها (أو إصلاح بين الناس) (٥٩٧) أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو بكر بن أحمد الحسن الحيرى أنا حاجب ابن أحمد الطوسى أنا محمد بن حماد أنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو ابن مرة عن سالم هو ابن أبى الجعد عن أم الدرداء رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة قال: قلنا بلى قال إصلاح ذات البين وأن إفساد ذات البين هى الحالقة» أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحى أنا أبو الحسين على بن محمد بن عبد الله بن بشران أنا إسماعيل بن محمد الصفار أنا أحمد ابن منصور الرمادى ثنا عبد الرزاق ثنا معمر عن الزهرى عن حميد ابن عبد الرحمن عن أمه أم مكتوم بنت عقبة وكانت من المهاجرات الأول قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ليس الكذاب من أصلح بين الناس فقال خيرا أو نمى خيرا» قوله تعالى (ومن يفعل ذلك) أى هذه الأشياء التى ذكرها (ابتغاء مرضاة الله) أى طلب رضاه (فسوف نؤتيه) فى الآخرة (أجرا عظيما) قرأ أبو عمرو وحمزة يؤتيه بالياء يعنى يؤتيه الله وقرأ الآخرون بالنون قوله تعالى (ومن يشاقق الرسول) نزلت فى طعمة بن أبيرق وذلك أنه لما ظهرت عليه السرقة خاف على نفسه من قطع اليد والفضيحة فهرب إلى مكة وارتد عن الدين فقال تعالى «ومن يشاقق الرسول» أى يخالفه (من بعدما تبين له الهدى) من التوحيد والحدود

بواجب حقه . قوله تعالى (لاخير فى كثير من نجواهم) يعنى من نجوى قوم طعمة وقيل هى عامة فى جميع مايتناجى الناس به والنجوى هى الإسرار فى التدبير وقيل النجوى ماتفرد بتدبيره قوم سرا كان ذلك أوجهرا وناجيته ساررته وأصله أن يخلو فى نجوة من الأرض وقيل أصله من النجى والمعنى لاخير فى كثير مما يدبرونه ويتناجون فيه (إلا من أمر بصدقة) يعنى إلا فى نجوى من أمر بصدقة وقيل معناه لاخير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث إلا فيما كان من أعمال الخير وقيل هو استثناء منقطع تقديره لكن من أمر بصدقة وحث عليها (أومعروف) يعنى أوأمر بطاعة الله وما يجيزه الشرع وأعمال البر كلها معروف لأن العقول تعرفها (أو إصلاح بين الناس) يعنى الإصلاح بين المتباينين والمتخاصمين ليتراجعا إلى ما كانا فيه من الألفة والاجتماع على ما أذن الله فيه وأمر به . عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى يارسول الله قال إصلاح ذات البين وإن فساد ذات البين هى الحالقة» أخرجه الترمذى وأبو داود وقال الترمذى ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «هى الحالقة لاأقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين» (خ) عن سهل بن سعد أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «اذهبوا بنا نصلح بينهم» (ق) عن أم مكتوم بنت عقبة بن أبى معيط قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ليس الكذاب الذى يصلح بين اثنين أو قال بين الناس فيقول خيرا أو ينمى خيرا» زاد مسلم فى رواية له قالت ولم أسمعه يرخص فى شىء مما يقول الناس إلا فيا فى ثلاث: يعنى الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها (ومن يفعل ذلك) يعنى هذه الأشياء التى ذكرت (ابتغاء مرضاة الله) يعنى طلب رضاه لأن الإنسان إذا فعل ذلك خالصا لوجه الله نفعه وإن فعله رياء وسمعة لم ينفعه ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات» الحديث (فسوف نؤتيه) يعنى فى الآخرة إذا فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله (أجرا عظيما) لاحد له لأن الله سماه عظيما وإذا كان كذلك فلا يعلم قدره إلا الله قوله عز وجل (ومن يشاقق الرسول) نزلت فى طعمة أيضا وذلك إنه لما سرق وظهرت عليه السرقة خاف على نفسه القطع والفضيحة فهرب إلى مكة كافرا مرتدا عن الدين فأنزل الله عز وجل فيه «ومن يشاقق الرسول» يعنى يخالفه فى التوحيد والإيمان وأصله من المشاقة وهى كون كل واحد منهما فى شق غير شق الآخر (من بعد ماتبين له الهدى) أى وضح له التوحيد والحدود وظهر له صحة الإسلام وذلك لأن طعمة كان قد تبين له بما أنزل فيه وأظهر من

(ويتبع غير سبيل المؤمنين) أى غير طريق المؤمنين (نوله ماتولى) أى نكله فى الآخرة إلى ماتولى فى الدنيا (ونصله جهنم وساءت مصيرا) روى أن طعمة بن أبيرق

نزل على رجل من بنى سليم من أهل مكة يقال له الحجاج بن علاط فنقب بيته فسقط عليه حجر فلم يستطع أن يدخل ولا أن يخرج حتى أصبح فأخذ ليقتل فقال بعضهم دعوه فانه قد لجأ إليكم فتركوه فأخرجوه من مكة فخرج مع تجار من قضاعة نحو الشام فنزلوا منزلا فسرق بعض متاعهم وهرب فطلبوه وأخذوه ورموه بالحجارة حتى قتلوه فصار قبره تلك الحجارة وقيل إنه ركب سفينة إلى جدة فسرق فيها كيسا فيه دنانير فأخذ فألقى فى البحر وقيل إنه نزل فى حرة بنى سليم وكان يعبد صنما لهم إلى أن مات فأنزل الله تعالى فيه (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) أى ذهب عن الطريق وحرم الخير كله وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآية نزلت فى شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يانبى الله إنى شيخ منهمك فى الذنوب إلا أنى لم أشرك بالله شيئا منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أواقع المعاصى جرأة على الله وما توهمت طرفة عين إنى أعجز الله هربا وإنى لنادم تائب مستغفر فماذا حالى فأنزل الله تعالى هذه الآية قوله تعالى (إن يدعون من دونه إلا إناثا) نزلت فى أهل مكة أى مايعبدون كقوله تعالى وقال

سرقته مايدل على صحة دين الإسلام فعادى الرسول ﷺ وأظهر الشقاق ورجع عن الإسلام (ويتبع غير سبيل المؤمنين) يعنى ويتبع غير طريق المؤمنين وماهم عليه من الإيمان ويتبع عبادة الأوثان (نوله ماتولى) أى نكله فى الآخرة إلى ماتولى فى الدنيا ونتركه وما اختار لنفسه (ونصله جهنم) يعنى ونلزمه جهنم وأصله من الصلى وهو لزوم النار وقت الاستدفاء (وساءت مصيرا) يعنى وبئس المرجع إلى النار روى أن الشافعى سئل عن آية من كتاب الله تدل على أن الإجماع حجة فقرأ القرآن ثلثمائة مرة حتى استخرج هذه الآية وهى قوله تعالى «ويتبع غير سبيل المؤمنين» وذلك لأن اتباع غير سبيل المؤمنين وهى مفارقة الجماعة حرام فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين ولزوم جماعتهم واجبا وذلك لأن الله تعالى ألحق الوعيد بمن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين فثبت بهذا أن إجماع الأمة حجة . قوله عز وجل (إن الله لايغفر أن يشرك به) نزلت فى طعمة بن أبيرق أيضا لكونه مات مشركا وقال ابن عباس نزلت هذه الآية فى شيخ من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يانبى الله إنى شيخ منهمك فى الذنوب غير أنى لم أشرك بالله منذ عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه وليا ولم أواقع المعاصى جراءة على الله عز وجل وماتوهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا وإنى لنادم تائب مستغفر فما حالى عند الله فأنزل الله هذه الآية «إن الله لايغفر أن يشرك به» فهذا نص صريح بأن الشرك غير مغفور إذا مات صاحبه عليه لأنه قد ثبت أن المشرك إذا تاب من شركه وآمن قبلت توبته وصح إيمانه وغفرت ذنوبه كلها التى عملها فى حال الشرك (ويغفر مادون ذلك) يعنى مادون الشرك (لمن يشاء) يعنى لمن يشاء من أهل التوحيد قال العلماء لما أخبر الله أنه يغفر الشرك بالإيمان والتوبة علمنا أنه يغفر مادون الشرك بالتوبة وهذه المشيئة فيمن لم يتب من ذنوبه من أهل التوحيد فاذا مات صاحب الكبيرة أو الصغيرة من غير توبة فهو على خطر المشيئة إن شاء غفر له وأدخله الجنة بفضله ورحمته وإن شاء عذبه ثم يدخله الجنة بعد ذلك (ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) يعنى فقد ذهب عن طريق الهدى وحرم الخير كله إذا مات على شركه. فان قلت لم كررت هذه الآية بلفظ واحد فى موضعين من هذه السورة وما فائدة ذلك . قلت فائدة ذلك التأكيد أولأن الآية المتقدمة نزلت فى سبب ونزلت هذه الآية فى سبب آخر وهو أن الآية المتقدمة (١) نزلت فى سبب سرقة طعمة بن أبيرق ونزلت هذه الآية فى سبب ارتداده وموته على الشرك. قوله عز وجل (إن يدعون من دونه إلا إناثا) نزلت فى أهل مكة يعنى مايعبدون من دون الله إلا إناثا لأن كل من عبد شيئا فقد دعاه لحاجته وفى قوله إناثا أقوال أحدها إنهم كانوا يسمون أصنامهم بأسماء الإناث فيقولون اللات والعزى ومناة قال الحسن كانوا يقولون لصنم كل قبيلة أنثى بنى فلان

(١) قوله وهو أن الآية المتقدمة الخ الذى ذكره عند الآية المتقدمة أنها نزلت فى أهل الكتاب المتقدم ذكرهم قبل الآية أو فى قاتل حمزة وأصحابه أو فى جواب رجل سأل عن الشرك لما نزل قوله تعالى «قل ياعبادى» الآية ولم يقدم لسرقة طعمة ذكرا على أنه لا يظهر أن تكون سبب نزول الآية كما هو ظاهر اه .

والقول

ربكم ادعونى أى اعبدونى بدليل قوله تعالى «إن الذين يستكبرون عن عبادتى قوله من دونه أى من دون الله إلا إناثا أراد بالإناث
الأوثان لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث فيقولون اللات والعزى ومناة وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة أنثى بنى فلان فكان فى
كل واحدة منهن شيطان يتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم ولذلك قال (وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) هذا قول أكثر المفسرين
يدل على صحة التأويل وإن المراد بالإناث الأوثان قراءة ابن عباس رضى الله عنه أن يدعون من دونه إلا أثنا جمع الوثن فصير
الواو همزة وقال الحسن وقتادة إلا إناثا أى مواتا لاروح فيه لأن أصنامهم كانت من الجمادات سماها إناثا
لأنه يخبر عن الموات كما يخبر عن الإناث ولأن الإناث أدون الجنسين كما أن الموات أرذل من الحيوان وقال الضحاك أراد بالإناث الملائكة وكان بعضهم يعبدون الملائكة ويقولون الملائكة إناث كما قال الله تعالى «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا» قوله «وإن يدعون إلا شيطانا مريدا» أى وما يعبدون إلا شيطانا مريدا لأنهم إذا عبدوا الأصنام فقد أطاعوا الشيطان والمريد المارد وهو المتمرد العاتى الخارج عن الطاعة وأراد إبليس (لعنه الله) أى أبعده الله من رحمته (وقال) يعنى قال إبليس (لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) أى حقا معلوما فما أطيع فيه إبليس فهو مفروضه وفى بعض التفاسير من كل ألف واحد لله تعالى وتسعمائة
وتسعة وتسعون لإبليس وأصل الفرض فى اللغة القطع ومنه الفرضة فى النهر وهى الثلمة تكون فيه وفرض القوس والشراك للشق الذى
يكون فيه الوتر والخيط الذى يشد به الشراك (ولأضلنهم) يعنى عن الحق أى لأغوينهم يقوله إبليس وأراد به التزيين والإفليس
إليه من الإضلال شىء كما قال لأزينن لهم فى الأرض (ولأمنينهم) قيل أمنينهم ركوب الأهواء وقيل أمنينهم أن لاجنة ولا
نار ولابعث وقيل أمنينهم إدراك الآخرة مع ركوب المعاصى (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله)
قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيب والضحاك يعنى دين الله نظيره قوله تعالى لاتبديل
لخلق الله أى لدين الله يريد وضع الله فى الدين بتحليل الحرام وتحريم الحلال وقال عكرمة وجماعة من المفسرين فليغيرن خلق الله

والقول الثانى إناثا يعنى أمواتا قال الحسن كل شىء لاروح فيه كالحجر والخشبة هو
إناث قال الزجاج والموات كلها يخبر عنها كما يخبر عن المؤنث تقول هذه الحجر تعجبنى وهذه
الدراهم تنفعنى ولأن الأنثى أنزل درجة من الذكر والميت أنزل درجة من الحى كما أن الموت
أنزل من الحيوان وقد يطلق اسم الأنثى على الجمادات والقول الثالث إن بعضهم كان يعبد
الملائكة ويقول هن بنات الله (وإن يدعون) أى وما يعبدوا (إلا شيطانا مريدا) قال ابن عباس
لكل صنم شيطان يدخل فى جوفه ويتراءى للسدنة والكهنة ويكلمهم فلذلك قال الله تعالى
«وإن يدعون إلا شيطانا مريدا» وقيل هو إبليس لأنه أغواهم وأغراهم على عبادتها وأطاعوه
فجعلت طاعتهم له عبادة والمريد والمارد هو المتمرد العاتى الخارج عن الطاعة (لعنه الله) أى
أبعده الله وطرده عن رحمته (وقال) يعنى إبليس (لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) يعنى
حظا مقدرا معلوما فكل ما أطيع فيه إبليس فهو نصيبه ومفروضه وأصل الفرض القطع وهذا
النصيب هم الذين يتبعون خطواته ويقبلون وساوسه (ولأضلنهم) عن طريق الحق والمراد به
التزيين والوسوسة والإفليس إليه من الإضلال شىء قال بعضهم لو كانت الضلالة إلى إبليس
لأضل جميع الخلق (ولأمنينهم) قال ابن عباس يريد تسويف التوبة وتأخيرها وقال الكلبى
أمنيهم أنه لاجنة ولانار ولا بعث وقيل أمنيهم إدراك الجنة مع عمل المعاصى وقيل أزين لهم
ركوب الأهواء والأهوال الداعية إلى العصيان وقيل أمنيهم طول البقاء فى الدنيا ونعيمها
ليؤثروها على الآخرة (ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) يعنى يقطعونها ويشقونها وهى البحيرة
وذلك أنهم كانوا يشقون أذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا وحرموا على
أنفسهم الانتفاع بها ولا يردونها عن ماء ولامرعى وسول لهم إبليس إن هذا قربة (ولآمرنهم
فليغيرون خلق الله) قال ابن عباس يعنى دين الله وتغيير دين الله هو تحليل الحرام وتحريم
الحلال وقيل تغيير خلق الله هو تغيير الفطرة التى فطر الخلق عليها ويدل عليه قوله صلى الله
عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وقيل يحتمل أن
يحمل هذا التغيير على تغيير أحوال تتعلق بظاهر الخلق مثل الوشم ووصل الشعر ويدل عليه
قوله صلى الله عليه وسلم «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن
المغيرات خلق الله» أخرجاه من رواية ابن مسعود ولهما عن أسماء قالت «لعن النبى صلى الله عليه
وسلم الواصلة والمستوصلة» وقيل تغيير خلق الله هو الاختصاء وقطع الآذان حتى أن بعض

العلماء حرمه . وكره أنس إخصاء الغنم وجوز بعض العلماء لأن فيه غرضا ظاهرا (ق) عن سعد بن أبي وقاص قال لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد على عثمان بن مظعون التبتل لاختصينا . التبتل: هو ترك النكاح والانقطاع للعبادة عن نافع قال كان ابن عمر يكره الاختصاء ويقول إن فيه نماء الخلق أخرجه مالك فى الموطأ ومعناه فى ترك الاختصاء نماء الخلق يعنى زيادتهم وقال ابن زيد هو التخنث وهو أن يتشبه الرجل بالنساء فى حركاتهن وكلامهن ولباسهن ونحو ذلك وقيل تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق البهائم والأنعام للركوب والأكل فحرموها على أنفسهم وخلق الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار لمنفعة الناس فعبدوها من دون الله (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله) يعنى يتخذه ربا يطيعه فيم يأمره به وقيل الولى من الموالاة وهو الناصر (فقد خسر خسرانا مبينا) لأن طاعة الشيطان توصله إلى نار جهنم وهى غاية الخسران ، بقى فى الآية سؤالان: الأول قال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا والنصيب المفروض هو الشىء المقدر القليل وقال فى موضع آخر لأحتنكن ذريته إلا قليلا وقال لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين وهذا استثناء القليل من الكثير فكيف وجه الجمع فالجواب أن الكفار الذين هم حزب الشيطان وإن كانوا أكثر من المسلمين فى العدد لكنهم أقل من المؤمنين فى الفضل والشرف وعلو الدرجة عند الله والمؤمنون وإن كانوا أقل من الكفار لكنهم أكثر منهم لأن الفضل والشرف والسؤدد والغلبة فى الدنيا وعلو الدرجة فى الآخرة وأنشد بعضهم فى هذا المعنى فقال :

وهم الأقل إذا تعد عشيرة والأكثرون إذا يعد السؤدد

وقيل إن إبليس لما لم ينل من آدم ما أراد ورأى الجنة والنار وعلم أن لهذه أهلا ولهذه أهلا قال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا يعنى الذين هم أهل النار . السؤال الثانى : من أين لإبليس العلم بالعواقب حتى يقول ولا أضلنهم ولأغوينهم ولأمنينهم ولآمرنهم ، وقال فى الأعراف ولا تجد أكثرهم شاكرين وقال فى بنى إسرائيل لأحتنكن ذريته إلا قليلا فالجواب من ثلاثة أوجه : أحدها أن إبليس ظن أن تقع منهم هذه الأمور التى يريدها منهم فحصل له ما ظنه ويدل على ذلك قوله تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه . الوجه الثانى : قال ابن الأنبارى المعنى لأجتهدن ولأحرصن فى ذلك أنه كان يعلم الغيب . الوجه الثالث : قال الماوردى من الجائز أن يكون قد علم ذلك من الملائكة بخبر من الله تعالى أن أكثر الخلائق لا يؤمنون . وقوله تعالى (يعدهم ويمنيهم) يعنى الشيطان يعد حزبه وأولياءه ويمنيهم فوعده وتمنيته إياهم مايوقع فى قلب الإنسان من طول العمر ونيل ما أراد من الدنيا ومن نعيمها ولذاتها وكل ذلك غرور فيجب على العاقل أن لا يلتفت إلى شىء منها فربما لم يطل عمره ولم يحصل له ما أراد منها ولئن طال عمره وحصل مقصوده فالموت وراءه ينغص عليه ماهو فيه وقيل يعدهم ويمنيهم بأن لا جنة ولا نار ولا بعث فاجتهدوا فى تحصيل اللذات الدنيوية (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) يعنى باطلا وضلالا (أولئك) يعنى الذين اتخذوا الشيطان وليا (مأواهم جهنم) يعنى مرجعهم ومستقرهم جهنم (ولا يجدون عنها) يعنى عن جهنم (محيصا) يعنى مفرا ومعدلا يعنى لا يعدلون عنها إلى غيرها ولا بد لهم من ورودها والخلد فيها ولما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد المؤمنين فقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) يعنى من تحت المساكن والغرف (خالدين فيها) يعنى فى الجنات (أبدا)

بالخصاء والوشم وقطع الآذان حتى حرم بعضهم الخصاء وجوزه بعضهم فى البهائم لأن فيه غرضا ظاهرا وقيل تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق الأنعام للركوب والأكل فحرموها وخلق الشمس والقمر والأحجار لمنفعة العباد فعبدوها من دون الله (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله) أى ربا يطيعه (فقد خسر خسرانا مبينا يعدهم ويمنيهم) فوعده وتمنيته ما يوقعه فى قلب الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا وقد يكون بالتخويف بالفقر فيمنعه من الإنفاق وصلة الرحم كما قال الله تعالى «الشيطان يعدكم الفقر» ويمنيهم بأن لا بعث ولا جنة ولا نار (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) أى باطلا (أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا) أى مفرا ومعدلا عنها قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى من تحت الغرف والمساكن (خالدين فيها أبدا)

وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا) قوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب) الآية قال مسروق وقتادة والضحاك أراد ليس بأمانيكم أيها المسلمون ولا أمانى أهل الكتاب يعنى اليهود والنصارى وذلك أنهم افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم وقال المسلمون نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضى على الكتب وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى وقال مجاهد أراد بقوله ليس بأمانيكم يا مشركى أهل الكتاب وذلك أنهم قالوا لابعث ولا حساب وقال أهل الكتاب لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى فأنزل الله تعالى «ليس بأمانيكم» أى ليس الأمر بالأمانى وإنما الأمر بالعمل الصالح (من يعمل سوءا يجز به) قال ابن عباس وسعيد بن جبير وجماعة الآية عامة فى حق كل عامل وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين وقالوا يارسول الله وأينا لم يعمل سوءا غيرك فكيف الجزاء؟ قال «منه مايكون فى الدنيا فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشر وبقيت له تسع حسنات فويل لمن غلبت آحاده أعشاره» وأما من يكون جزاؤه فى الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر فى الفضل فيعطى الجزاء فى الجنة فيؤتى كل ذى فضل فضله. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى ثنا أبو بكر محمد بن أحمد العبدوسى ثنا أبو بكر أحمد بن سليمان الفقيه ببغداد ثنا يحيى بن جعفر بن الزبرقان والحارث بن محمد قالا ثنا روح هو ابن عبادة ثنا موسى ابن عبيدة أخبرنى مولى بن سباع قال سمعت عبدالله بن عمر يحدث عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال «كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه هذه الآية من يعمل سوءا يجز به» (ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) قال رسول الله

بلا انتهاء ولا غاية والأبد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذى لا انقطاع له ولا يتجزأ كما يتجزأ غيره من الأزمنة لأنه لا يقال أبد كذا كما يقال زمن كذا وفى قوله «خالدين فيها أبدا» دليل على أن الخلود لا يفيد التأبيد والدوام لأنه لو أفاد ذلك لزم التكرار وهو خلاف الأصل فعلم من ذلك أن الخلود عبارة عن طول الزمان لا على الدوام فلما أتبع الخلود بالأبد علم أنه يراد به الدوام الذى لا ينقطع . وقوله عز وجل (وعد الله حقا) يعنى وعد الله ذلك الذى ذكر وعدا حقا (ومن أصدق من الله قيلا) يعنى ليس أحد أصدق من الله وهو توكيد بليغ لقوله «وعد الله حقا» قوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب) الأمنية أفعولة من التمنية والتمنى تقدير شىء فى النفس وتصويره فيها والأمنية هى الصورة الحاصلة فى النفس من تمنى الشىء إذا وقع فى نفسه وأراده. فى المخاطب بقوله «ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب» قولان : أحدهما أنه خطاب للمسلمين وأهل الكتاب اليهود والنصارى وذلك أنهم افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم وقال المسلمون نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضى على الكتب وقد آمنا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى بالله منكم. والقول الثانى أنه خطاب لمشركى مكة فى قولهم لا نبعث ولا نحاسب وخطاب لأهل الكتاب فى قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة والمعنى ليس الأمر بالأمانى إنما الأمر بالعمل الصالح (من يعمل سوءا يجز به) قال الضحاك يقول ليس لكم ما تمنيتم وليس لأهل الكتاب ما تمنوا ولكن من عمل سوءا يعنى شركا فمات عليه يجز به النار وقال الحسن هذا فى حق الكفار خاصة لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير ولا يجزى المؤمن بسيئ عمله يوم القيامة ولكن يجزى بأحسن عمله ويتجاوز عن سيئاته ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله (ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) وهذا هو الكافر ، فأما المؤمن فله ولى ونصير . وقال آخرون هذه الآية فى حق كل من عمل سوءا من مسلم ونصرانى وكافر قال ابن عباس هى عامة فى حق كل من عمل سوءا يجز به إلا أن يتوب قبل أن يموت فيتوب الله عليه وقال ابن عباس فى رواية أبى صالح عنه لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين مشقة شديدة وقالوا يارسول الله وأينا من لم يعمل سوءا غيرك فكيف الجزاء؟ قال منه ما يكون فى الدنيا فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته وبقيت له تسع حسنات فويل لمن غلبت آحاده أعشاره. وأما من كان جزاؤه فى الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته فيلقى مكان كل سيئة حسنة وينظر فى الفضل فيعطى الجزاء فى الجنة فيؤتى كل ذى فضل فضله ويدل على صحة هذا القول ما روى عن أبى هريرة قال لما نزلت من يعمل سوءا يجز به بلغت من المسلمين مبلغا شديدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به

ﷺ يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت علي؟ قال قلت بلى قال فأقرئنيها قال ولا أعلم إلا أني وجدت إنفصاما في ظهري حتى تمطيت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك يا أبا بكر فقلت يارسول الله بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءا إنا لمجزيون بكل سوء عملناه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليست لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا يوم القيامة «قوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) أي مقدار النقير وهو النقرة التي تكون في ظهر النواة قرأ ابن كثير وأبو جعفر وأهل البصرة وأبو بكر يدخلون بضم الياء وفتح الخاء هاهنا وفي سورة مريم وحم المؤمن زاد أبو عمرو يدخلونها في سورة فاطر وقرأ الآخرون بفتح الياء وضم الخاء. روى الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال لما نزلت «ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به» قال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء فنزلت هذه الآية «ومن يعمل من الصالحات» الآية ونزلت أيضا (ومن أحسن دينا) أحكم دينا (ممن أسلم وجهه لله) أي أخلص عمله لله وقيل فوض أمره إلى الله (وهو محسن) أي موحد (واتبع ملة إبراهيم) يعني دين إبراهيم عليه السلام (حنيفا) أي مسلما مخلصا قال ابن عباس رضي الله عنهما ومن دين إبراهيم الصلاة إلى

المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها «أخرجه مسلم» وعن أبي بكر الصديق قال: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت علي قلت بلى يارسول الله قال فأقرأنيها فلا أعلم إلا أني وجدت إنقساما في ظهري فتمطيت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شأنك يا أبا بكر؟ قلت يارسول الله بأبي أنت وأمي وأينا لم يعمل سوءا وإنا لمجزيون بأعمالنا فقال رسول الله ﷺ: أما أنت يا أبا بكر والمؤمنون فتجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب. وأما الآخرون فيجتمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وفي إسناده مقال وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي بكر وليس له إسناد صحيح وقوله «ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا» قال ابن عباس يريد وليا يمنعه ولا نصيرا ينصره فان قلنا إن هذه الآية خاصة في حق الكفار فتأويلها ظاهر وإن قلنا إنها في حق كل عامل سوء من مسلم وكافر فانه لا ولي لأحد من دون الله يوم القيامة ولا ناصر. فالمؤمنون لا ولي لهم غير الله وشفاعة الشافعين تكون باذن الله فليس يمنع أحد أحدا عن الله. وقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) قال مسروق لما نزلت من يعمل سوءا يجز به قال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء فنزلت هذه الآية قال المفسرون بين الله تعالى بهذه الآية فضيلة المؤمنين على غيرهم ولفظة من في قوله من الصالحات للتبعيض، لأن أحدا لا يقدر أن يستوعب جميع الصالحات بالعمل فاذا عمل بعضها استحق الثواب (فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) النقير نقرة في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة قال ابن عباس يريد لا ينقصون قدر نقرة النواة وهذا على سبيل المبالغة في نفي الظلم ووعد بتوفية جزاء أعمالهم من غير نقصان قوله عز وجل (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) لما بين الله تعالى أن الجنة لمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن شرح الإيمان وبين فضله فقال تعالى «ومن أحسن دينا» يعني ومن أحكم دينا والدين هو المشتمل على كمال العبودية والخضوع والانقياد لله عز وجل وهو الذي كان عليه إبراهيم صلى الله عليه وسلم. واعلم أن دين الإسلام مبني على أمرين: أحدهما الاعتقاد وإليه الإشارة بقوله «أسلم وجهه لله» يعني انقاد لله وخضع له في سره وعلانيته وقيل معناه أخلص طاعته لله وقيل فوض أمره إلى الله. الأمر الثاني من مباني الإسلام العمل وإليه الإشارة بقوله «وهو محسن» يعني في عمله لله فيدخل فيه فعل الحسنات والمفروضات والطاعات وترك السيئات وقال ابن عباس في تفسير قوله «وهو محسن» يريد وهو موحد لله عز وجل لا يشرك به شيئا قال العلماء وإنما صار دين الإسلام أحسن الأديان لأن فيه طاعة الله ورضاه وهما أحسن الأعمال. وإنما خص الوجه بالذكر في قوله «أسلم وجهه لله» لأنه أشرف الأعضاء فاذا انقاد الوجه لله وخضع له فقد انقاد لله جميع الأعضاء لأنها تابعة له (واتبع ملة إبراهيم) يعني دين إبراهيم عليه السلام (حنيفا) يعني مسلما مخلصا والحنيف المائل ومعناه المائل عن الأديان كلها إلى الإسلام لأن كل ما سواه من الأديان باطل وحنيفا يجوز أن يكون حالا لإبراهيم ويجوز أن يكون حالا للمتبع كما تقول رأيته راكبا. قال

الكعبة والطواف بها ومناسك الحج وإنما خص بها إبراهيم لأنه كان مقبولا عند الأمم أجمع وقيل لأنه بعث على ملة إبراهيم وزيدت له أشياء (واتخذ الله إبراهيم خليلا) صفيا والخلة صفاء المودة وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما كان إبراهيم عليه السلام أبا الضيفان وكان منزله على ظهر الطريق يضيف من مر به من الناس فأصاب الناس سنة فحشروا إلى باب إبراهيم عليه السلام يطلبون الطعام وكانت الميرة له كل سنة من صديق له بمصر فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذى بمصر فقال خليله لغلمانه لو كان إبراهيم عليه السلام إنما يريده لنفسه لاحتملنا ذلك له فقد دخل علينا مادخل على الناس من الشدة فرجع رسل إبراهيم عليه السلام فمروا ببطحاء سهلة فقالوا فيما بينهم لو أنا حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بميرة فانا نستحى أن نمر بهم وإبلنا فارغة فملئوا تلك الغرائر سهلة ثم أتوا إبراهيم فأعلموه وسارة نائمة فاهتم إبراهيم لمكان الناس ببابه فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار فقالت سبحان الله ماجاء الغلمان قالوا بلى قالت فما جاءوا بشىء قالوا بلى فقامت إلى الغرائر ففتحتها فاذا هى ملآى بأجود دقيق حوارى يكون فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس فاستيقظ إبراهيم فوجد ريح الطعام فقال ياسارة من أين هذا ؟ قالت من عند خليلك المصرى فقال هذا من عند خليلى الله قال فيومئذ اتخذ الله إبراهيم خليلا قال الزجاج معنى الخليل الذى ليس فى محبته خلل والخلة الصداقة فسمى خليلا لأن الله أحبه واصطفاه وقيل هو من الخلة وهى الحاجة سمى خليلا أى فقيرا إلى الله لأنه لم يجعل فقره وفاقته إلا إلى الله عز وجل والأول أصح لأن قوله «واتخذ الله إبراهيم خليلا» يقتضى الخلة من الجانبين ولا يتصور الحاجة من الجانبين. حدثنا أبو المظفر محمد بن أحمد

ابن عباس ومن دين إبراهيم عليه السلام الصلاة إلى الكعبة والطواف ومناسك الحج والختان ونحو ذلك. فان قلت ظاهر هذه الآية يقتضى أن شرع محمد صلى الله عليه وسلم هو نفس شرع إبراهيم عليه السلام وعلى هذا لم يكن لمحمد صلى الله عليه وسلم شرع يستقل به وليس الأمر كذلك فما الجواب ؟ قلت إن شرع إبراهيم وملته داخلان فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم وملته مع زيادات كثيرة حسنة خص الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم فمن اتبع ملة محمد صلى الله عليه وسلم فقد اتبع ملة إبراهيم لأنها داخلة فى ملة محمد ﷺ وشرع إبراهيم داخل فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم وإنما قال تعالى «واتبع ملة إبراهيم» لأن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان يدعو إلى توحيد الله وعبادته ولهذا خصه بالذكر لأنه كان مقبولا عند جميع الأمم فان العرب كانوا يفتخرون بالانتساب إليه وكذا اليهود والنصارى فاذا ثبت هذا وأن شرعه كان مقبولا عند الأمم وأن شرع محمد ﷺ وملته هو شرع إبراهيم وملته لزم الخلق الدخول فى دين محمد ﷺ وقبول شرعه وملته. وقوله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) يعنى صفيا والخلة صفاء المودة وقيل الخلة الافتقار والانقطاع فخليل الله المنقطع إليه وسمى إبراهيم خليلا لأنه انقطع إلى الله فى كل حال. وقيل الخلة الاختصاص والاصطفاء وسمى إبراهيم خليلا لأنه والى فى الله وعادى فى الله وقيل لأنه تخلق بأخلاق حسنة وخلال كريمة وقيل الخليل المحب الذى ليس فى محبته خلل وسمى إبراهيم خليل الله لأنه أحبه محبة كاملة ليس فيها نقص ولا خلل وأنشد فى معنى الخلة التى هى بمعنى المحبة :

قد تخللت مسلك الروح منى ... وبه سمى الخليل خليلا

وقيل الخليل من الخلة بفتح الخاء وهى الحاجة سميت خلة للإختلال الذى يلحق الإنسان فيها وسمى إبراهيم خليلا لأنه جعل فقره وفاقته وحاجته إلى الله تعالى. وخلة الله للعبد هى تمكينه من طاعته وعصمته وتوفيقه وستر خلله ونصره والثناء عليه فقد أثنى الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام وجعله إماما للناس يقتدى به. واختلفوا فى السبب الذى من أجله اتخذ الله إبراهيم خليلا فقال ابن عباس كان إبراهيم ﷺ أبا الضيفان وكان منزله على ظهر الطريق يضيف من مر به من الناس فأصاب الناس شدة قحط فقصد الناس باب إبراهيم يطلبون منه الطعام، وكانت الميرة تأتيه من صديق له بمصر فبعث إبراهيم غلمانه إلى خليله الذى بمصر فقال خليله لغلمان إبراهيم لو كان إبراهيم يريد إنماء الطعام لنفسه احتملنا ذلك له وقد دخل علينا مثل مادخل على الناس من الشدة فرجع غلمان إبراهيم بغير طعام فمروا ببطحاء من الرمل سهلة فقالوا لو حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بالميرة فانا نستحى أن نمر بهم وإبلنا فارغة فملئوا من ذلك الرمل الغرائر التى معهم ثم أتوا إلى إبراهيم ﷺ فأعلموه وسارة نائمة فاهتم لذلك ولمكان الناس ببابه فغلبته عيناه فنام واستيقظت سارة وقد ارتفع النهار فقالت سبحان الله ماجاء الغلمان قالوا

بلى قالت فجاءوا بشيء قالوا نعم فقامت إلى الغرائر ففتحتها فإذا هي ملأى بأجود دقيق يكون حوارى فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس فاستيقظ إبراهيم فوجد ريح الطعام فقال ياسارة من أين لكم هذا؟ فقالت من عند خليلك المصري فقال هذا من عند خليل الله قال فيومئذ اتخذه الله خليلا وقيل لما أراه الله ملكوت السموات والأرض وحاج قومه في الله ودعاهم إلى توحيده ومنعهم من عبادة النجوم والشمس والقمر والأوثان وبذل نفسه للإلقاء في النيران وبذل ولده للقربان وماله للضيفان اتخذه الله خليلا وجعله إماما للناس يقتدى به وجعل النبوة فيه وفي ذريته وقيل إن إبراهيم عليه السلام لما كسر الأصنام وعادى قومه في الله عز وجل اتخذه الله خليلا وقيل لما دخل عليه الملائكة فظنهم ضيفا فقرب إليهم عجلا مشويا وقال كلوا على شرط أن تسموا الله في أوله وتحمدوه في آخره فقال جبريل أنت خليل الله فمن يومئذ سمي إبراهيم خليل الله (م) عن أنس قال «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ياخير البرية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك إبراهيم خليل الله».

فصل

وقد اتخذ الله محمدا صلى الله عليه وسلم خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا فقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا» وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم «لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبابكر خليلا ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا» أخرجه مسلم؛ فقد ثبت بهذين الحديثين الخلة للنبي صلى الله عليه وسلم وزاد على إبراهيم عليه السلام بالمحبة فمحمد صلى الله عليه وسلم خليل الله وحبيبه فقد جاء في حديث عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر» أخرجه الترمذي بأطول منه. قوله تعالى (ولله ما في السموات وما في الأرض) قال أهل المعاني لما دعا الله الخلق إلى طاعته وعبادته والانقياد لأمره بين سعة ملكه ليرغب الخلق إليه بالطاعة له وإنما قال ما في السموات وما في الأرض ولم يقل من لأنه ذهب به مذهب الجنس والذي يعقل إذا ذكر وأريد به الجنس ذكر بلفظة ما (وكان الله بكل شيء محيطا) يعني عالما علم إحاطة وهو العلم بالشيء من كل وجه حتى لا يشذ عنه نوع إلا علمه وقيل يجوز أن يكون معناه محيطا بالقدرة عليه. قوله عز وجل (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن) الآية قال ابن عباس نزلت في بنات أم كحة وقد تقدمت قصتهن في أول السورة وقالت عائشة هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وهو وليها فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سنة صداقها وإذا كانت غير مرغوب فيها لقلة الجمال والمال تركها، وفي رواية قالت هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وقد شركته في ماله فيرغب عنها فلا يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه ويشركه في ماله فيحبسها حتى تموت فنهاهم الله عن ذلك وأنزل هذه الآية فقال ويستفتونك يعني ويستخبرونك يا محمد في شأن النساء وحالهن. والاستفتاء طلب الفتوى وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشرعية وكشفه وتبيينه؛ قال المفسرون والذي استفتوه فيه هو ميراث النساء وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الأولاد فلما نزلت آية الميراث قالوا يارسول الله كيف ترث المرأة والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية «قل الله يفتيكم فيهن» يعني قل يا محمد

التيمي ثنا أبو محمد عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم ثنا خيثمة ابن سليمان بن حيضرة الأطرابلسي ثنا أبو قلابة الرقاشي ثنا بشر بن عمر ثنا شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكنه أخي وصاحبي ولقد اتخذ الله صاحبكم خليلا» قوله عز وجل (ولله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا) أي أحاط علمه بجميع الأشياء قوله تعالى (ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن) الآية قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت هذه الآية في بنات أم كحة وميراثهن عن أبيهن وقد مضت القصة في أول السورة وقالت عائشة رضي الله عنها هي اليتيمة تكون في حجر الرجل وهو وليها فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال بأقل من سنة صداقها وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركها وفي رواية هي اليتيمة تكون في حجر الرجل قد شركته في ماله فيرغب عنها أن يتزوجها لدمامتها ويكره أن يزوجها غيره فيدخل عليه في ماله فيحبسها حتى تموت فيرثها فنهاهم الله عن ذلك قوله عز وجل «ويستفتونك» أي يستخبرونك «في النساء قل الله يفتيكم فيهن»

الله

الله يفتيكم فى شأن النساء وحالهن (وما يتلى عليكم فى الكتاب) يعنى يفتيكم فيما يتلى عليكم والمعنى أن الله يفتيكم فى النساء بما أنزل فى كتابه عليكم وقيل المراد بالكتاب اللوح المحفوظ والغرض منه تعظيم حال هذه الآية التى تتلى عليكم وأنها فى اللوح المحفوظ وأن العدل والإنصاف فى حقوق اليتامى من أعظم الأمور عند الله تعالى التى تجب مراعاتها وأن المخل بها ظالم (فى يتامى النساء) قيل معناه فى النساء اليتامى وقيل فى اليتامى أولاد النساء، لأن الآية نزلت فى يتامى أم كحة (اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن) يعنى ما فرض لهن من الميراث وهذا على قول من يقول إن الآية نازلة فى ميراث اليتامى والصغار وعلى القول الآخر معناه ما كتب لهن من الصداق (وترغبون أن تنكحوهن) يعنى وترغبون فى نكاحهن لمالهن وجمالهن بأقل من صداقهن وقيل معناه وترغبون عن نكاحهن لقبحهن ودمامتهن وتمسكوهن رغبة فى أموالهن (ق) عن عائشة قالت هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى جمالها ومالها ويريد أن ينقص صداقها فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن قالت عائشة رضى الله عنها فاستفتى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فأنزل الله عز وجل يستفتونك فى النساء إلى قوله وترغبون أن تنكحوهن. فبين لهم أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال رغبوا فى نكاحها ولم يلحقوها بسنتها فى إكمال الصداق وإذا كانت مرغوبة عنها فى قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها قال فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها ويعطوها حقها الأوفى من الصداق . وقوله تعالى (والمستضعفين من الولدان) يعنى ويفتيكم فى المستضعفين من الولدان وهم الصغار أن تعطوهم حقوقهم لأن العرب فى الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار أيضا فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم حقهم من الميراث (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) يعنى بالعدل فى مهورهن ومواريثهن (وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما) يعنى فيجازيكم عليه .

قوله تعالى (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) (ق) عن عائشة فى قوله تعالى «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا» قالت نزلت فى المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها فيريد طلاقها ويتزوج غيرها فتقول له امسكنى لا تطلقنى ثم تزوج غيرى وأنت فى حل من النفقة على والقسمة لى قالت فذلك قوله تعالى «فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا والصلح خير» وقيل نزلت فى عمرة بنت محمد ابن مسلمة ويقال اسمها خولة وفى زوجها سعد بن الربيع ويقال له رافع بن خديج تزوجها وهى شابة فلما كبرت تزوج عليها امرأة أخرى شابة وآثرها عليها وجفا الأولى فأتت ابنة محمد بن مسلمة تشكو زوجها إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية وقيل كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج غيرها فقالت لا تطلقنى ودعنى أقوم على أولادى واقسم لى كل شهرين إن شئت وإن شئت فلا تقسم لى فقال إن كان يصلح ذلك فهو أحب إلى فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله هذه الآية وإن امرأة خافت» يعنى علمت وقيل ظنت وقيل بل المراد نفس الخوف لأن الخوف لا يحصل إلا عند ظهور الأمارات الدالة على وقوعه من بعلها يعنى من زوجها. والبعل هو السيد وسمى الزوج بعلا لأنه سيد المرأة . نشوزا يعنى بغضا وقيل هو ترك مضاجعتها وأصله من النشز وهو المرتفع من الأرض والنشوز قد يكون من الزوجين وهو أن يكره كل واحد منهما صاحبه فنشوز الزوج هو أن

(وما يتلى عليكم فى الكتاب) قيل معناه ويفتيكم فى مايتلى عليكم وقيل يفتيكم فى مايتلى عليكم يريد الله يفتيكم فيهن وكتابه يفتيكم فيهن وهو قوله عز وجل «وآتوا اليتامى أموالهم» قوله (فى يتامى النساء) هذا إضافة الشئ إلى نفسه لأنه أراد باليتامى النساء (اللاتى لا تؤتونهن) أى لا تعطونهن (ما كتب لهن) من صداقهن (وترغبون أن تنكحوهن) أى فى نكاحهن لمالهن وجمالهن بأقل من صداقهن وقال الحسن وجماعة أراد لا تؤتونهن حقهن من الميراث لأنهم كانوا لا يورثون النساء «وترغبون أن تنكحوهن» أى عن نكاحهن لدمامتهن (والمستضعفين من الولدان) يريد ويفتيكم فى المستضعفين من الولدان وهم الصغار أن تعطوهم حقوقهم لأنهم كانوا لا يورثون الصغار يريد مايتلى عليكم فى باب اليتامى من قوله «وآتوا اليتامى أموالهم» يعنى باعطاء حقوق الصغار (وأن تقوموا لليتامى بالقسط) أى ويفتيكم فى أن تقوموا لليتامى بالقسط بالعدل فى مهورهن ومواريثهن (وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما) يجازيكم عليه. قوله تعالى (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) الآية نزلت فى عمرة ويقال فى خولة بنت محمد بن مسلمة ، وفى زوجها سعد بن الربيع ويقال رافع بن خديج تزوجها وهى شابة فلما علاها الكبر تزوج عليها امرأة شابة وآثرها عليها وجفا ابنة محمد

ابن مسلمة فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت إليه فنزلت فيها هذه الآية وقال سعيد بن جبير كان رجل له امرأة قد كبرت وله منها أولاد فأراد أن يطلقها ويتزوج عليها غيرها فقالت لا تطلقني ودعني أقوم على أولادي واقسم لي من كل شهرين إن شئت وإن شئت فلا تقسم لي فقال إن كان يصلح ذلك فهو أحب إلي فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى «وإن امرأة خافت» أي علمت «من بعلها» أي من زوجها «نشوزا» أي بغضا قال الكلبي يعني ترك مضاجعتها أو إعراضا بوجهه عنها وقلة مجالستها (فلا جناح عليهما) أي على الزوج والمرأة (أن يصالحا) أي يتصالحا وقرأ أهل الكوفة أن يصلحا من الإصلاح (بينهما صلحا) يعني في القسم والنفقة وهو أن يقول الزوج لها إنك قد دخلت في السن ، وإني أريد أن أتزوج امرأة شابة جميلة أوثرها عليك في القسمة ليلا ونهارا فان رضيت بهذا فأقيمي وإن كرهت خليت سبيلك فان رضيت كانت هي المحسنة ولا تجبر على ذلك وإن لم ترض بدون حقها كان على الزوج أن يوفيها حقها من القسم والنفقة أو يسرحها باحسان فان أمسكها ووفاها حقها مع كراهية فهو محسن وقال سليمان بن يسار في هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما فان صالحته عن بعض حقها من القسم والنفقة فذلك جائز ما رضيت فان أنكرته بعد الصلح فذلك لها ولها حقها وقال مقاتل ابن حيان في هذه الآية هو أن الرجل يكون تحته المرأة الكبيرة فيتزوج عليها الشابة فيقول للكبيرة أعطيتك من مالي نصيبا على أن أقسم لهذه الشابة أكثر مما أقسم لك فترضى بما اصطلحا عليه فان أبت أن ترضى فعليه أن يعدل بينهما في القسم وعن علي رضي الله عنه في هذه الآية قال تكون المرأة عند الرجل فتنبو عينه عنها من دمامة أو كبر فتكره فرقته فان أعطته من مالها فهو له حل وإن أعطته من أيامها فهو حل له (والصلح خير) يعني إقامتها بعد تخييره إياها والمصالحة على ترك بعض حقها من القسم والنفقة خير من الفرقة ، كما يروى أن سودة رضي الله عنها كانت امرأة كبيرة وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يفارقها فقالت لا تطلقني وكفاني أن أبعث في نسائك وقد جعلت نوبتي لعائشة رضي الله عنها فأمسكها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة رضي الله عنهما قوله تبارك وتعالى (وأحضرت الأنفس الشح) يريد شح كل واحد من الزوجين بنصيبه من الآخر ، والشح أقبح البخل وحقيقته الحرص على منع الخير (وإن تحسنوا) أي تصلحوا (وتتقوا) الجور وقيل هذا خطاب مع الأزواج أي وإن تحسنوا بالإقامة معها على الكراهية وتتقوا ظلمها

يعرض عن المرأة وهو قوله تعالى «أو إعراضا» يعني بوجهه عنها أو يعبس في وجهها أو يترك مضاجعتها أو يسيء عشرتها أو يشتغل بغيرها وقيل المراد من النشوز إظهار الخشونة في القول والفعل والمراد من الإعراض السكوت عن الخير والشر والإيذاء بل يعرض عنها بوجهه أو يشتغل بغيرها (فلا جناح عليهما) يعني فلا حرج ولا إثم على الزوج والمرأة (أن يصلحا) من المصالحة ، وقرئ أن يصلحا بضم الياء وكسر اللام من الإصلاح (بينهما صلحا) يعني في القسمة والنفقة وهو أن يقول الزوج للمرأة إنك قد كبرت ودخلت في السن ، وأنا أريد أن أتزوج امرأة جميلة شابة أوثرها عليك في القسمة ليلا ونهارا فان رضيت فأقيمي وإن كرهت ذلك فارقتك وخليت سبيلك فان رضيت بذلك كانت هي المحسنة ولا تجبر على ذلك وإن لم ترض بدون حقها كان على الزوج أن يوفيها حقها من القسم والنفقة أو يسرحها باحسان وإن أمسكها ووفاها حقها مع الكراهة لها كان هو المحسن قال ابن عباس فان صالحته على بعض حقها من القسمة والنفقة جاز وإن أنكرت ذلك بعد الصلح كان ذلك لها ولها حقها (والصلح خير) يعني إقامتها بعد تخييره إياها والمصالحة على ترك بعض حقها من القسم والنفقة خير من الفرقة. عن ابن عباس قال «خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت لا تطلقني وامسكني واجعل يومي لعائشة ففعل فنزلت - فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا والصلح خير - فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة (وأحضرت الأنفس الشح) الشح أقبح البخل ، وحقيقته الحرص على منع الخير ، وإنما قال وأحضرت الأنفس الشح لأنه كالأمر اللازم للنفوس لأنها مطبوعة عليه ، ومعنى الآية أن كل واحد من الزوجين يشح بنصيبه من الآخر فالمرأة تشح على مكانها من زوجها والرجل يشح عليها بنفسه إذا كان غيرها أحب إليه منها (وإن تحسنوا وتتقوا) هذا خطاب للأزواج يعني وإن تحسنوا أيها الأزواج الصحبة والعشرة وتتقوا الله في حق المرأة فانها أمانة عندكم وقيل معناه وإن تحسنوا بالإقامة معها على الكراهة وتتقوا ظلمها والجور عليها .

(فان

(فان الله كان بما تعملون خبيرا) فيجزيكم بأعمالكم قوله تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) أى لن تقدروا أن تسووا بين النساء فى الحب وميل القلب (ولو حرصتم) على العدل (فلا تميلوا) أى إلى التى تحبونها (كل الميل) فى القسم والنفقة أى لا تتبعوا أهواءكم أفعالكم (فتذروها كالمعلقة) أى فتدعوا الأخرى كالمعلقة لا أيما ولا ذات بعل. وقال قتادة كالمحبوسة وفى قراءة أبى بن كعب كأنها مسجونة وروى عن أبى قلابة أن النبى ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » ورواه بعضهم عن أبى قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة رضى الله عنها متصلا وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل» (وإن تصلحوا وتتقوا) الجور (فان الله كان غفورا رحيما وإن يتفرقا) يعنى الزوج والمرأة بالطلاق (يغن الله كلا من سعته) من رزقه يعنى المرأة بزوج آخر والزوج بامرأة أخرى (وكان الله واسعا حكيما) واسع الفضل والرحمة حكيما فيما أمر به ونهى عنه وجملة حكم الآية أن الرجل إذا كانت تحته امرأتان أو أكثر فانه يجب عليه التسوية بينهن فى القسم فان ترك التسوية بينهن فى فعل القسم عصى الله تعالى وعليه القضاء للمظلومة والتسوية شرط فى البينونة أما فى الجماع فلا لأنه يدور على النشاط وليس ذلك إليه. ولو كانت فى نكاحه حرة وأمة فانه يبيت عند الحرة ليلتين وعند الأمة ليلة واحدة. وإذا تزوج جديدة على قد يمات عنده يخص الجديدة بأن يبيت عندها سبع ليال على التوالى إن كانت بكرا وإن كانت ثيبا فثلاث ليال ثم يسوى بعد ذلك بين الكل ولا يجب قضاء هذه الليالى القديمات. أخبرنا عبد الواحد المليحى ثنا أحمد بن عبد الله النعيمى ثنا محمد بن يوسف ثنا محمد ابن إسماعيل ثنا يوسف بن راشد ثنا أبو أسامة ثنا سفيان الثورى ثنا أيوب وخالد عن أبى قلابة عن أنس رضى الله عنه قال من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعا ثم قسم وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثا ثم قسم » قال أبو قلابة ولو شئت لقلت إن أنسا رفعه إلى النبى صلى

(فان الله كان بما تعملون خبيرا) يعنى فيجازيكم بأعمالكم . قوله عز وجل (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء) يعنى ولن تقدروا أن تسووا بين النساء فى الحب وميل القلب لأن ذلك مما لا تقدرون عليه وليس من كسبكم (ولو حرصتم) يعنى على العدل والتسوية بينهن وقيل معناه ولو حرصتم على ذلك (فلا تميلوا كل الميل) يعنى إلى التى تحبونها فى القسم والنفقة والمعنى أنكم لستم منهيين عن حصول التفاوت فى الميل القلبى لأن ذلك خارج عن قدرتكم ووسعكم ولكنكم منهيون عن إظهار ذلك الميل فى القول والفعل عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط» أخرجه الترمذى وعند أبى داود «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل» (وعن عائشة قالت «كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل فيقول اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك يعنى القلب» أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وقوله تعالى (فتذروها كالمعلقة) يعنى فتدعوا الأخرى التى لا تميلون إليها كالمعلقة لا أيما ولا ذات بعل كالشىء المعلق لا هو فى السماء ولا على الأرض . وقيل معناه فتذروها كالمسجونة لا هى مخلصة فتتزوج ولا هى ذات بعل فيحسن إليها (وإن تصلحوا) يعنى بالعدل فى القسم (وتتقوا) يعنى الجور فى القسم (فان الله كان غفورا) يعنى لما حصل من الميل إلى بعضهن دون بعض (رحيما) يعنى بكم حيث لم يكلفكم ما لا تقدرون عليه (وإن يتفرقا) يعنى إن لم يصطلحا وأرادا الفرقة (يغن الله كلا من سعته) يعنى من من فضله ورزقه والمعنى يغنى الزوج بامرأة أخرى والمرأة بزوج آخر. وقيل معناه يعوض الزوج بما يحب والمرأة بما تحب ويوسع عليهما وفى هذا تسلية لكل واحد من الزوجين بعد الطلاق (وكان الله واسعا) يعنى واسع الفضل والرحمة وقيل واسع القدرة والعلم والرزق وقيل هو الغنى الذى وسع جميع مخلوقاته غناه (حكيما) يعنى فيما أمر به ونهى عنه .

فصل فيما يتعلق بحكم الآية

وجملته أن الرجل إذا كان تحته امرأتان أو أكثر يجب عليه التسوية بينهن فى القسم فان ترك التسوية بينهن فى فعل القسم عصى الله عز وجل فى ذلك وعليه القضاء للمظلومة والتسوية شرط فى البيتوتة أما فى الجماع فلا لأن ذلك يدور على النشاط وميل القلب وليس ذلك إليه ولو كان فى نكاحه حرة وأمة قسم للحرة ليلتين وللأمة ليلة واحدة. وإذا تزوج جديدة على قد يمات كن عنده فانه يخص الجديدة بأن يبيت عندها سبع ليال إن كانت الجديدة بكرا وإن كانت ثيبا خصها بثلاث ليال ثم إنه يستأنف القسم ويسوى بينهن ولا يجب عليه قضاء عوض هذه الليالى

الله عليه وسلم. وإذا أراد الرجل سفر حاجة فيجوز له ان يحمل بعض نسائه مع نفسه بعد أن يقرع بينهن فيه ثم لايجب عليه
أن يقضى للباقيات مدة سفره وإن طالت إذا لم يزد مقامه في بلده على مدة المسافرين والدليل عليه ماأخبرنا عبد الوهاب بن
محمد الخطيب ثنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال ثنا أبو العباس الأصم ثنا الربيع ثنا الشافعى ثنا عمى محمد بن
على بن شافع عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبدالله عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها قالت «كان رسول الله ﷺ إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها». أما إذا أراد سفر نقلة فليس له تخصيص بعضهن لابالقرعة ولا بغيرها قوله تعالى (ولله مافى السموات ومافى الأرض) عبيدا وملكا (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعنى أهل التوراة والإنجيل وسائر الأمم المتقدمة فى كتبهم (وإياكم) ياأهل القرآن فى القرآن (أن اتقوا الله) أى وحدوا الله وأطيعوه (وإن تكفروا) بما أوصاكم الله به (فان لله مافى السموات ومافى الأرض) قيل فان لله ملائكة فى السموات والأرض هى أطوع له منكم (وكان الله غنيا) عن جميع خلقه غير محتاج إلى
طاعتهم (حميدا) محمودا على نعمه (ولله مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله
وكيلا) قال عكرمة عن ابن عباس يعنى شهيدا، أن فيها عبيدا وقيل دافعا ومجيرا. فان قيل فأى فائدة فى تكرار قوله تعالى ولله
مافى السموات ومافى الأرض قيل لكل واحد منهما وجه. أما الأول فمعناه لله مافى السموات ومافى الأرض وهو يوصيكم بالتقوى
فاقبلوا وصيته. وأما الثانى فيقول فان لله مافى السموات ومافى الأرض وكان الله غنيا أى هو الغنى وله الملك فاطلبوا منه ماتطلبون

كل

للقديمات ويدل على ذلك ماروى أبو قلابة عن أنس قال «من السنة إذا تزوج البكر على الثيب
أقام عندها سبعا وقسم وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثا وقسم» قال أبو قلابة ولو شئت لقلت
إن أنسا رفعه إلى النبى ﷺ أخرجاه فى الصحيحين. وإذا سافر الرجل إلى سفر حاجة جاز له أن
يحمل معه بعض نسائه بشرط أن يقرع بينهن ولا يجب عليه أن يقضى للباقيات عوض مدة سفره
وإن طالت إذا لم يزد مقامه فى البلد على مدة المسافرين ويدل على ذلك ماروى عن عائشة قالت
«كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها
معه» أخرجه البخارى مع زيادة فيه. وإذا أراد الرجل سفر نقلة وجب عليه أخذ نسائه معه. قوله
تعالى (ولله مافى السموات ومافى الأرض) يعنى عبيدا وملكا قال أهل المعانى لما ذكر الله تعالى
أنه يغنى من سعته وفضله أشار إلى مايوجب الرغبة إليه فى طلب الخير منه لأن من ملك السموات
والأرض لاتفنى خزائنه (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) يعنى من اليهود والنصارى
وأصحاب الكتب القديمة (وإياكم) يعنى ووصيناكم ياأهل القرآن فى كتابكم (أن اتقوا الله) أى بأن
تتقوا الله وهو أن توحدوه وتطيعوه وتحذروه ولا تخالفوا أمره والمعنى أن الأمر بتقوى الله شريعة
قديمة أوصى الله بها جميع الأمم السالفة فى كتبهم (وإن تكفروا) يعنى وإن تجحدوا ماأوصاكم به
(فان لله مافى السموات ومافى الأرض) يعنى فان لله ملائكة فى السموات والأرض هم أطوع له
منكم. وقيل معناه إن الله تعالى خالق السموات والأرض وما فيهن ومالكهن، والمنعم عليهم
بأصناف النعم ومن كان كذلك فحق لكل أحد أن يتقيه ويرجوه (وكان الله غنيا) يعنى عن جميع
خلقه غير محتاج إليهم ولا إلى طاعتهم (حميدا) يعنى محمودا على نعمه عليهم (ولله مافى السموات
ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا) قال ابن عباس يعنى شهيدا على أن له فيهن عبيدا وقيل معناه
وكفى بالله دافعا ومجيرا. فان قلت ماالفائدة فى تكرير قوله تعالى «ولله مافى السموات وما في
الأرض» قلت الفائدة فى ذلك أن لكل آية معنى تخص به، أما الآية الأولى فمعناها فان لله مافى
السموات ومافى الأرض وهو يوصيكم بتقوى الله فاقبلوا وصيته وقيل لما قال تعالى «وإن يتفرقا
يغن الله كلا من سعته» بين أن له مافى السموات ومافى الأرض وأنه قادر على إغناء جميع الخلائق
وهو المستغنى عنهم. وأما الآية الثانية فانه تعالى قال «وإن تكفروا فان لله مافى السموات وما
فى الأرض» والمراد أنه تعالى منزه عن طاعات الطائعين وعن ذنوب المذنبين وأنه لايزداد جلاله
بالطاعات ولا ينقص بالمعاصى. وقيل لما بين أن له مافى السموات ومافى الأرض وقال بعد ذلك
«وكان الله غنيا حميدا» فالمراد منه أنه تعالى هو الغنى وله الملك فاطلبوا منه ماتطلبون فهو يعطيكم
لأن له مافى السموات ومافى الأرض. وأما الثالثة فقال تعالى «ولله مافى السموات ومافى الأرض وكفى
بالله وكيلا» أى فتوكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره فانه المالك لما فى السموات والأرض. وقيل
تكريرها تعديدها لما هو موجب تقواه لتتقوه وتطيعوه ولا تعصوه لأن التقوى والخشية أصل

وأما الثالث فيقول «ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا أى له الملك فاتخذوه وكيلا ، ولا تتوكلوا على غيره قوله تعالى (إن يشأ يذهبكم) يهلككم (أيها الناس) يعنى الكفار (ويأت بآخرين) (٦٠٩) يقول بغيركم خير منكم وأطوع (وكان الله على ذلك قديرا) قادرا (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) يريد من كان يريد بعمله عرضا من الدنيا ولا يريد بها الله عز وجل آتاه الله من عرض الدنيا أو دفع عنه فيها ما أراد الله وليس له فى الآخرة من ثواب ومن أراد بعمله ثواب الآخرة آتاه الله من الدنيا ما أحب وجزاه الجنة فى الآخرة قوله تعالى (وكان الله سميعا بصيرا يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله) يعنى كونوا قائمين بالشهادة بالقسط أى بالعدل لله وقال ابن عباس رضى الله عنهما كونوا قوامين بالعدل فى الشهادة على من كانت له (ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) فى الرحم أى قولوا الحق ولو على أنفسكم بالإقرار أو الوالدين والأقربين فأقيموها عليهم ولا تحابوا غنيا لغناه ولا ترحموا فقيرا لفقره فذلك قوله تعالى (إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) منكم أى أقيموا على المشهود عليه وإن كان غنيا وللمشهود له وإن كان فقيرا فالله أولى بهما منكم ، أى كلوا أمرهما إلى الله وقال الحسن معناه الله أعلم بهما (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أى لا تجوروا وتميلوا إلى الباطل من الحق

كل خير . قوله عز وجل (أن يشأ يذهبكم أيها الناس) قال ابن عباس يريد المشركين والمنافقين (ويأت بآخرين) بغيركم هم خير منكم وأطوع له ففيه تهديد للكفار والمعنى أنه يهلككم أيها الكفار كما أهلك من كان قبلكم ، إذ كفروا به وكذبوا رسله (وكان الله على ما ذلك قديرا) يعنى وكان الله على ذلك الإهلاك وإعادة غيركم قادرا بليغا فى القدرة لا يمتنع عليه شىء أراده لم يزل ولا يزال موصوفا بالقدرة على جميع الأشياء . قوله تعالى (من كان يريد ثواب الدنيا) يعنى من كان يريد بعمله عرضا من الدنيا نزلت فى مشركى العرب وذلك أنهم كانوا يقرون بالله تعالى خالقهم ولا يقرون بالبعث يوم القيامة فكانوا يقربون إلى الله ليعطيهم من خير الدنيا ويصرف عنهم شرها وقيل نزلت فى المنافقين لأنهم كانوا لا يصدقون بيوم القيامة ، وإنما كانوا يطلبون بجهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عاجل الدنيا وهو ما ينالونه من الغنيمة (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) يعنى الذين يطلبون بأعمالهم وجهادهم ثواب الدنيا وما ينالونه من الغنيمة مخطئون فى قصدهم لأن الله عنده ثواب الدنيا وثواب الآخرة فلو كانوا عقلاء لطلبوا ثواب الآخرة حتى يحصل لهم ذلك ويحصل لهم ثواب الدنيا على سبيل التبعية والمعنى أن من أراد بعمله الدنيا آتاه الله منها ما أراد وصرف عنه من شرها ما أراد وليس له ثواب فى الآخرة يجزى به ، ومن أراد بعمله وجه الله وثواب الآخرة فعند الله ثواب الدنيا والآخرة يؤتيه من الدنيا ما قدر له ويجزيه فى الآخرة خير الجزاء (وكان الله سميعا) يعنى لأقوالهم وما يسرونه من طلب ثواب الدنيا (بصيرا) يعنى بنياتهم وما فى نفوسهم وقيل بصيرا بمن يطلب الدنيا بعمله وبمن يطلب الآخرة بعمله . قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله) قال السدى إن فقيرا وغنيا اختصما إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكان صغوه مع الفقير يرى أن الفقير لا يظلم الغنى فأنزل الله هذه الآية وأمر بالقيام بالقسط مع الغنى والفقير وقيل إن هذه الآية متعلقة بقصة طعمة بن أبيرق فهى خطاب لقومه الذين جادلوا عنه وشهدوا له بالباطل ، فأمرهم الله تعالى أن يكونوا قائمين بالقسط شاهدين لله على كل حال ولو على أنفسهم وأقاربهم فقال تعالى «كونوا قوامين بالقسط» القوام مبالغة فى القيام بالعدل فى جميع الشهادات واجتناب الجور فيها قال ابن عباس كونوا قوامين بالعدل فى جميع الشهادات على من كانت شهداء لله يعنى أقيموا شهادتكم لوجه الله كما أمركم فيها فيقول الحق فى شهادته (ولو على أنفسكم) يعنى ولو كانت الشهادة على أنفسكم أمر الله العبد أن يشهد على نفسه بالحق وهو أن يقر على نفسه وذلك الإقرار يسمى شهادة فى كونه موجبا للحق عليه (أو الوالدين والأقربين) يعنى ولو كانت الشهادة على الوالدين والأقربين من ذوى رحمه أو أقاربه والمعنى قولوا الحق ولو على أنفسكم أو على الوالدين أو الأقارب فأقيموا الشهادة عليهم لله تعالى ولا تحابوا غنيا لغناه ولا ترحموا فقيرا لفقره فذلك قوله تعالى (إن يكن) يعنى المشهود عليه (غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) يعنى منكم والمعنى كلوا أمرهم إلى الله تعالى فهو أعلم بهم وبحالهم وإنما قال بهما على التثنية لأن رد الضمير إلى المعنى دون اللفظ يعنى فالله أولى بالغنى والفقير (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) يعنى فلا تتبعوا الهوى واتقوا الله أن تعدلوا عن الحق فى أداء الشهادة وقيل معناه اتركوا متابعة الهوى حتى تصيروا موصوفين بصفة العدل ، لأن العدل

وقيل معناه لاتتبعوا الهوى لتعدلوا أى لتكونوا عادلين كما يقال لاتتبع الهوى لترضى ربك (وإن تلووا) أى تحرفوا الشهادة لتبطلوا الحق (أو تعرضوا) عنها فتكتموها ولا تقيموها ويقال تلووا أى تدافعوا فى إقامة الشهادة يقال لويته حقه إذا دفعته وأبطلته وقيل هذا خطاب مع الحكام فى ليهم الإشداق يقول وأن تلووا أى تميلوا إلى أحد الخصمين أو تعرضوا عنه قرأ ابن عامر وحمزة تلوا بضم اللام قيل أصله تلووا فحذفت إحدى الواوين تخفيفا وقيل معناه وإن تلوا القيام بأداء الشهادة أو تعرضوا فتتركوا أداءها (فإن الله كان بما تعملون خبيرا) قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) الآية قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس نزلت هذه الآية فى عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابنى كعب وثعلبة بن قيس وسلام بن أخت عبدالله بن سلام وسلمة بن أخيه ويامين بن يامين (٦١٠) فهؤلاء مؤمنوا أهل الكتاب أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه من الكتب والرسل فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم «بل آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وبكل كتاب كان قبله» فأنزل الله هذه الآية يا أيها الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وبموسى عليه السلام والتوراة آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم (والكتاب الذي نزل على رسوله) يعنى القرآن (والكتاب الذى أنزل من قبل) من التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو نزل وأنزل بضم النون والألف وقرأ الآخرون نزل وأنزل بالفتح أى أنزل الله (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) فلما نزلت هذه الآية قالوا فانا نؤمن بالله ورسوله والقرآن وبكل رسول وكتاب كان قبل القرآن والملائكة واليوم الآخر لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون وقال الضحاك أراد بهم اليهود والنصارى يقول ياأيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد والقرآن وقال مجاهد أراد بهم المنافقين يقول ياأيها الذين آمنوا باللسان آمنوا بالقلب وقال أبو العالية وجماعة هذا خطاب للمؤمنين يقول ياأيها الذين آمنوا آمنوا أى أقيموا ، واثبتوا على الإيمان كما يقال للقائم قم حتى أرجع إليك أى اثبت قائما قيل المراد به أهل الشرك يعنى يا أيها الذين آمنوا باللات والعزى آمنوا بالله ورسوله قوله تعالى (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا) قال قتادة هم اليهود آمنوا بموسى ، ثم كفروا من بعد بعبادتهم العجل

عبارة عن ترك متابعة الهوى (وإن تلووا) قرئ بواوين ومعناه أن يلوى الشاهد لسانه إلى غير الحق قال ابن عباس يلوى لسانه بغير الحق ولا يقيم الشهادة على وجهها (أو تعرضوا) يعنى أو يعرض الشاهد عن الشهادة فيكتمها ولا يقيمها يقال لويته حقه إذا دفعته عنه ومطلته به ، وقيل معناه وإن تلووا عن القيام بأداء الشهادة أو تعرضوا عنها فتتركوها وقيل معناه التحريف والتبديل فى الشهادة من قولهم لويت الشىء إذا قبلته وقيل هو خطاب مع الحكام يقول وإن تلوا يعنى تميلوا مع أحد الخصمين دون الآخر أو تعرضوا عنه بالكلية وقرئ تلوا بواو واحدة من الولاية فهو خطاب للحكام أيضا ومعناه فلاتلوا أمور المسلمين وتضيعوهم أو تعرضوا عنهم (فإن الله كان بما تعملون خبيرا) يعنى أنه تعالى يجازى المحسن باحسانه والمسيء باساءته فيجازيكم بأعمالكم . قوله عز وجل (ياأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) قال ابن عباس نزلت فى عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابنى كعب وثعلبة بن قيس وسلام بن أخت عبد الله بن سلام وسلمة ابن أخيه ويامين بن يامين فهؤلاء مؤمنوا أهل الكتاب أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم «بل آمنوا بالله وبرسوله محمد والقرآن وبكل كتاب كان قبله» فأنزل الله هذه الآية «ياأيها الذين آمنوا» يعنى بمحمد والقرآن وبموسى والتوراة آمنوا بالله ورسوله اسم جنس يعنى آمنوا بجميع رسله وقيل هو خطاب لأهل الكتاب جميعا والمعنى ياأيها الذين آمنوا بموسى والتوراة وبعيسى والإنجيل آمنوا بمحمد والقرآن وقيل هو خطاب للمنافقين والمعنى ياأيها الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم آمنوا بقلوبكم حتى ينفعكم الإيمان لأن الإيمان باللسان لاينفع من غير مواطأة القلب وقيل هو خطاب للمؤمنين والمعنى ياأيها الذين آمنوا فى الماضى والحال آمنوا فى المستقبل ودوموا واثبتوا على الإيمان والكتاب (والكتاب الذى نزل على رسوله) يعنى القرآن (والكتاب الذى أنزل من قبل) يعنى وآمنوا بالقرآن وبجميع الكتب الذى أنزلها على أنبيائه قبل القرآن فيكون الكتاب اسم جنس لجميع الكتب (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) قوله عز وجل (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا) قال ابن عباس

ثم آمنوا بالتوراة ثم كفروا بعيسى عليه السلام ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ وقيل هو فى جميع أهل الكتاب آمنوا بنبيهم، ثم كفروا به وآمنوا بالكتاب الذى نزل عليه ثم كفروا به وكفرهم به تركهم إياه ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل هذا فى قوم مرتدين آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ثم آمنوا ثم ارتدوا ومثل هذا هل تقبل توبته حكى عن على رضى الله عنه أنه لا تقبل توبته بل يقتل لقوله تعالى لم يكن الله ليغفر لهم وأكثر أهل العلم على قبول توبته وقال مجاهد ثم ازدادوا كفرا أى ماتوا عليه (لم يكن الله ليغفر لهم) ما أقاموا على ذلك (ولا ليهديهم سبيلا) أى طريقا إلى الحق فان قيل ما معنى قوله لم يكن الله ليغفر لهم ومعلوم أنه لا يغفر الشرك وإن كان أول مرة قيل معناه أن الكافر إذا أسلم أول مرة ودام عليه يغفر له كفره السابق فان أسلم ثم كفر ثم أسلم ثم كفر لا يغفر له كفره السابق الذى كان يغفر له لو دام على الإسلام (بشر المنافقين) أى أخبرهم يا محمد (بأن لهم عذابا أليما) البشارة كل خبر يتغير به بشرة الوجه سارا كان أو غير سار وقال الزجاج معناه اجعل فى موضع بشارتك لهم العذاب كما تقول العرب تحيتك الضرب وعتابك السيف أى بدلا لك من التحية ثم وصف المنافقين فقال (الذين يتخذون الكافرين أولياء) يعنى يتخذون اليهود أولياء وأنصار أو بطانة (من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة) أى المعونة والظهور على محمد ﷺ وأصحابه وقيل أيطلبون عندهم القوة (فان العزة) أى الغلبة والقوة والقدرة (لله جميعا وقد نزل عليكم فى الكتاب) قرأ عاصم ويعقوب نزل بفتح النون والزاى أى نزل الله وقرأ الآخرون نزل بضم النون وكسر الزاى أى عليكم يا معشر المسلمين (أن إذا سمعتم آيات الله) يعنى القرآن (يكفر بها ويستهزئ بها فلا تقعدوا معهم) يعنى مع الذين

عباس نزلت فى اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادتهم العجل ثم آمنوا بعد ذلك ثم كفروا بعيسى والإنجيل ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ والقرآن وقيل أنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعده ثم آمنوا بداود ثم كفروا بعيسى ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ وقيل نزلت فى المنافقين وذلك أنهم آمنوا ثم كفروا بعد الإيمان ثم آمنوا يعنى بألسنتهم وهو إظهارهم الإيمان لتجرى عليهم أحكام المؤمنين ثم ازدادوا كفرا يعنى بموتهم على الكفر وقيل بذنوب أحدثوها فى الكفر وقيل هم قوم آمنوا ثم ارتدوا إلى الكفر ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا يعنى بموتهم عليه وذلك لأن من تكرر منه الإيمان بعد الكفر والكفر بعد الإيمان مرات كثيرة يدل على أنه لا وقع للإيمان فى قلبه ، ومن كان كذلك لا يكون مؤمنا بالله إيمانا صحيحا وازديادهم الكفر هو استهزاؤهم وتلاعبهم بالإيمان ومثل هذا المتلاعب بالدين هل تقبل توبته أم لا؟ حكى عن على بن أبى طالب أنه قال لا تقبل توبته بل يقتل وذهب أكثر أهل العلم إلى أن توبته مقبولة . وقوله تعالى (لم يكن الله ليغفر لهم) يعنى ما أقاموا على الكفر وماتوا عليه وذلك لأن الله تعالى أخبر أنه يغفر الكفر إذا تاب منه بقوله قل للذين كفروا أن ينتهوا يعنى عن الكفر يغفر لهم ما قد سلف يعنى من كفرهم (ولا ليهديهم سبيلا) يعنى طريق هدى وقيل لا يجعلهم بكفرهم مهتدين . قوله تعالى (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) يعنى أخبرهم يا محمد وإنما وضع بشر مكان أخبر تهكما بهم وقيل البشارة كل خبر تتغير به بشرة الوجه سارا كان ذلك الخبر أو غير سار وقيل معناه اجعل موضع بشارتك لهم العذاب لأن العرب تقول تحيتك الضرب أى هذا بدل من تحيتك قال الشاعر :

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

ثم وصف الله تعالى المنافقين فقال تعالى (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) يعنى يتخذون اليهود أولياء وأنصارا و بطانة من دون المؤمنين وذلك أن المنافقين كانوا يقولون أن محمدا لا يتم أمره فيوالون اليهود فقال الله تعالى ردا على المنافقين (أيبتغون عندهم العزة) يعنى يطلبون من اليهود العزة والمعونة والظهور على محمد ﷺ وأصحابه (فان العزة لله جميعا) يعنى فان القوة والقدرة والغلبة لله جميعا وهو الذى يعز أولياءه وأهل طاعته كما قال تعالى «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» (وقد نزل عليكم) يا معشر المسلمين (فى الكتاب) يعنى القرآن (أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها) قال المفسرون الذى أنزل عليهم فى النهى عن مجالستهم هو قوله تعالى فى سورة الأنعام «وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره» وهذا أنزله بمكة لأن المشركين كانوا يخوضون فى القرآن ويستهزءون به فى مجالسهم ثم أن أحبار اليهود بالمدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين وكان المنافقون يجلسون إليهم ويخوضون معهم فى الاستهزاء بالقرآن فنهى الله المؤمنين عن القعود معهم بقوله (فلا تقعدوا معهم

يستهزءون (حتى يخوضوا فى حديث غيره) أى يأخذوا فى حديث غير الاستهزاء بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن » وهذا إشارة إلى ما أنزل الله فى سورة الأنعام «وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره» وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما دخل فى هذه الآية كل محدث فى الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة (إنكم إذا مثلهم) أى إن قعدتم عندهم وهم يخوضون ويستهزءون ورضيتم به فأنتم كفار مثلهم وإن خاضوا فى حديث غيره فلا بأس بالقعود معهم مع الكراهة وقال الحسن لا يجوز القعود معهم وإن خاضوا فى حديث غيره لقوله تعالى «وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين» والأكثرون على الأول وآية الأنعام مكية وهذه مدنية والمتأخر أولى قوله (إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا الذين يتربصون بكم) ينتظرون بكم الدوائر يعنى المنافقين (فإن كان لكم فتح من الله) يعنى ظفر وغنيمة (قالوا) لكم (ألم نكن معكم) على دينكم فى الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة (وإن كان للكافرين نصيب) يعنى دولة وظهورا على المسلمين (قالوا) يعنى المنافقين للكافرين (ألم نستحوذ عليكم) والاستحواذ هو الاستيلاء والغلبة قال الله تعالى «استحوذ عليهم الشيطان» أى استولى وغلب يقول ألم نخبركم بعورة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونطلعكم على سرهم أن

قال المبرد يقول المنافقون للكفار ألم نغلبكم على رأيكم (ونمنعكم) ونصرفكم (من المؤمنين) أى عن الدخول فى جملتهم وقيل معناه ألم نستول عليكم بالنصرة لكم ونمنعكم من المؤمنين » أى ندفع عنكم صولة المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأمورهم ومراد المنافقين بهذا الكلام إظهار المنة على الكافرين (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) يعنى بين أهل الإيمان وأهل النفاق (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) قال على فى الآخرة وقال عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أى

حتى يخوضوا فى حديث غيره) يعنى يأخذوا فى حديث آخر غير الاستهزاء بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس دخل فى هذه الآية كل محدث فى الدين وكل مبتدع إلى يوم القيامة (إنكم إذا مثلهم) يعنى أنكم يا أيها الجالسون مع المستهزئين بآيات الله إذا رضيتم بذلك فأنتم وهم فى الكفر سواء قال العلماء وهذا يدل على أن من رضى بالكفر فهو كافر ومن رضى بمنكر أو خالط أهله كان فى الإثم بمنزلتهم إذا رضى به وإن لم يباشره فإن جلس إليهم ، ولم يرض بفعلهم بل كان ساخط له وإنما جلس على سبيل التقية والخوف فالأمر فيه أهون من المجالسة مع الرضا وإن جلس مع صاحب بدعة أو منكر ولم يخض فى بدعته أو منكره فيجوز الجلوس معه مع الكراهة وقيل لا يجوز بحال والأول أصح (إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) أى أنهم اجتمعوا فى الدنيا على الاستهزاء بآيات الله وكذلك يجمعهم فى عذاب جهنم يوم القيامة قوله عز وجل (الذين يتربصون بكم) نزلت فى المنافقين والمعنى ينتظرون ما يحدث بكم من خير أو شر (فإن كان لكم فتح من الله) أي ظفر على عدوكم ، وغنيمة تنالونها منهم (قالوا) يعنى المنافقين لكم (ألم نكن معكم) يعنى فى الوقعة والفتح فأعطونا من الغنيمة وقيل معناه ألم نكن على دينكم وفى الجهاد كنا معكم فاجعلوا لنا نصيبا من الغنيمة (وإن كان للكافرين نصيب) أى دولة وظهور على المسلمين (قالوا) يعنى المنافقين للكفار (ألم نستحوذ عليكم) الاستحواذ هو الاستيلاء والغلبة يقال استحوذ فلان على فلان أى غلب عليه والمعنى ألم نغلبكم ونتمكن منكم ومن قتالكم وأسركم ثم لم نفعل ذلك وقيل معناه ألم نغلبكم على رأيكم (ونمنعكم من المؤمنين) يعنى فى صلاتهم والدخول فى دينهم وقيل معناه ألم ندفع المؤمنين بتخذيلهم عنكم ومراسلتنا إياكم بأخبارهم وأسرارهم فهاتوا نصيبا مما أصبتم منهم ومراد المنافقين إظهار المنة على الكفار . فإن قلت لم سمى ظفر المؤمنين فتحا وسمى ظفر الكافرين نصيبا . قلت تعظيما لشأن المؤمنين وتخسيسا لحظ الكافرين لأن ظفر المؤمنين أمر عظيم تفتح له أبواب السماء حتى ينزل النصر على المسلمين وأما ظفر الكفار فما هو إلا حظ دنىء ونصيب خسيس لا يبقى منه إلا ما نالوه فى الدنيا ولهم فى الآخرة العقوبة الشديدة على ذلك النصيب الذى نالوه من المسلمين (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) يعنى الفريقين فريق المؤمنين وفريق المنافقين والمعنى إنما وضع السيف عن المنافقين فى الدنيا لا لأجل كرامتهم بل لتأخر عذابهم إلى يوم القيامة (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) فيه قولان : أحدهما وهو قول على ابن أبى طالب وابن عباس أن المراد به يوم القيامة بدليل أنه عطف على قوله فالله يحكم بينكم يوم القيامة روى أن رجلا سأل على بن أبى طالب عن هذه الآية «وأن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا» وهم يقتلوننا فقال ولن يجعل الله للكافرين يوم القيامة على المؤمنين سبيلا . والقول الثانى

حجة وقيل ظهورا على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) أى يعاملونه معاملة المخادعين
وهو خادعهم أى مجازيهم على خداعهم وذلك أنهم يعطون نورا يوم القيامة كما للمؤمنين فيمضى المؤمنون
بنورهم على الصراط ويطفأ نور المنافقين (وإذا قاموا إلى الصلاة) يعنى المنافقين (قاموا كسالى) أى متثاقلين لا يريدون بها الله فإن رآهم أحد صلوا وإلا انصرفوا فلا يصلون (يراءون الناس) أى يفعلون ذلك مراءاة للناس لا اتباعا لأمر الله (ولا يذكرون الله إلا قليلا) قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن إنما قال ذلك لأنهم يفعلونها رياء وسمعة ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله تعالى لكان كثيرا وقال قتادة إنما قل ذكر المنافقين لأن الله تعالى لم يقبله وكل ما قبل الله فهو كثير (مذبذبين بين ذلك) أى مترددين متحيرين بين الكفر والإيمان (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) أى ليسوا من المؤمنين فيجب لهم ما يجب للمؤمنين وليسوا من الكفار فيؤخذ منهم ما يؤخذ من الكفار (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) أى طريقا إلى الهدى أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر الجرجانى قال
أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسى أنا محمد بن عيسى الجلودى أنا إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا محمد
ابن المثنى أنا عبد الوهاب يعنى الثقفى أنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل المنافق كمثل الشاة العائرة
بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) نهى الله

أن هذا فى الدنيا والمعنى أن حجة المؤمنين غالبة فى الدنيا على الكافرين وليس لأحد أن يغلبهم بالحجة وقيل معناه إن الله لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا بأن يمحو دولة المؤمنين بالكلية حتى يستبيحوا بيضتهم فلا يبقى أحد من المؤمنين وقيل معناه إن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا بالشرع فإن شريعة الإسلام ظاهرة إلى يوم القيامة ويتفرع على ذلك مسائل من أحكام الفقه منها أن الكافر لا يرث المسلم ومنها أن الكافر إذا استولى على مال المسلم لم يملكه بدليل هذه الآية ومنها أن الكافر ليس له أن يشترى عبدا مسلما ومنها أن المسلم لا يقتل بالذمى بدليل هذه الآية. قوله تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) يعنى يعاملون الله وهو يجازيهم على خداعهم وقيل معناه يخادعون رسول الله ﷺ لأنهم يظهرون له الإسلام ويبطنون له الكفر وهو خادعهم يعنى والله مجازيهم بالعقاب وقيل إنهم يعطون نورا يوم القيامة كما يعطى المؤمنون فيمضى المؤمنون بنورهم على الصراط ويطفأ نور المنافقين (وإذا قاموا إلى الصلاة) يعنى المنافقين (قاموا كسالى) يعنى متثاقلين وسبب هذا الكسل أنهم يتعبون بها لأنهم لا يريدون بفعلها ثوابا ولا يريدون بها وجه الله عز وجل ولا يخافون على تركها عقابا لأن الداعى إلى فعلها خوف الناس فلذلك وقع فعلها على وجه الكسل والفتور (يراءون الناس) يعنى أنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا لأجل الرياء والسمعة لا لأجل الدين ولا يرون أنها واجبة عليهم قال قتادة والله لولا الناس ما صلى منافق (ولا يذكرون الله إلا قليلا) قال ابن عباس إنما قل ذلك لأنهم يفعلونه رياء وسمعة ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله لكان كثيرا وقيل لأن الله لم يقبله ولو قبله لكان كثيرا وقيل المراد بذكر الله الصلاة والمعنى أنهم لا يصلون إلا قليلا لأنهم متى لم يكن معهم أحد من المؤمنين فلا يصلون وإذا كانوا مع المؤمنين يتكلفون فعلها (مذبذبين بين ذلك) يعنى متحيرين مترددين بين الكفر والإيمان لأنهم ليسوا مع المؤمنين المخلصين ولا مع المشركين المصرحين بالشرك وهو قوله تعالى (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) يعنى ليسوا من المؤمنين حتى يجب لهم ما يجب للمؤمنين وليسوا من الكفار فيؤخذ منهم ما يؤخذ من الكفار (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) يعنى طريقا إلى الهدى (ق) عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم «قال مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة» قوله كمثل الشاة العائرة بالعين المهملة ومعناه المتحيرة المترددة لا تدرى لأى الغنمين تتبع ومعنى تعير تتردد وتذهب يمينا وشمالا مرة إلى هذه ومرة إلى هذه لا تدرى إلى أين تذهب وهذا مثل المنافق مرة على المؤمنين ومرة مع الكافرين أو ظاهره مع المؤمنين وباطنه مع الكافرين. قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) لما ذم الله عز وجل المنافقين بقوله مذبذبين بين ذلك نهى الله المؤمنين أن يتخلقوا بأخلاق المنافقين يقول لا تتولوا الكفار من دون أهل ملتكم ودينكم فتكونوا كمن أوجبت له النار من المنافقين والسبب فى هذا النهى أن الأنصار بالمدينة كان لهم من يهود بنى النضير

المؤمنين عن موالاة الكفار وقال (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) أى حجة بينة فى عذابكم ثم ذكر منازل المنافقين فقال جل ذكره (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) قرأ أهل الكوفة فى الدرك بسكون الراء والباقون بفتحها وهما لغتان كالظعن والظعن والنهر والنهر قال ابن مسعود رضى الله عنه فى الدرك الأسفل فى توابيت من حديد مقفلة فى النار وقال أبو هريرة بيت مقفل عليهم تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم (ولن تجد لهم نصيرا) مانعا من العذاب (إلا الذين تابوا) من النفاق وآمنوا (وأصلحوا) عملهم (واعتصموا بالله) وثقوا بالله (وأخلصوا دينهم لله) أراد الإخلاص بالقلب لأن النفاق كفر القلب فزواله يكون بإخلاص القلب (فأولئك مع المؤمنين) قال الفراء من المؤمنين (وسوف يؤت الله المؤمنين) فى الآخرة (أجرا عظيما) يعنى الجنة وحذفت الياء من يؤت فى الخط لسقوطها فى اللفظ وسقوطها فى اللفظ لسكون اللام فى الله قوله تعالى (مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم) أى إن شكرتم نعماءه (وآمنتم) به فيه تقديم وتأخير تقديره إن آمنتم وشكرتم لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان وهذا استفهام بمعنى التقرير معناه أنه لا يعذب المؤمن الشاكر فان تعذيبه عباده لا يزيد فى ملكه وتركه عقوبتهم على فعلهم لا ينقص من سلطانه والشكر ضد الكفر والكفر ستر النعمة والشكر إظهارها (وكان الله شاكرا عليما) فالشكر

وقريظة حلف ومودة ورضاع فقالوا يارسول الله من نتولى؟ فقال المهاجرين (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) يعنى أتريدون أيها المتخذون الكفار أولياء أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين فتستوجبوا بذلك النار ثم بين مقر النار من المنافقين فقال تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) يعنى فى الطبق الذى فى قعر جهنم والنار سبع دركات بعضها فوق بعض سميت طبقات جهنم دركات لأنها متداركة متتابعة وقيل الدرك بيت مقفل عليهم تتوقد فيه النار من فوقهم ومن تحتهم وقيل هى توابيت من حديد مقفلة عليهم فى النار. فان قلت لم كان المنافق أشد عذابا من الكافر؟ قلت أن المنافق مثل الكافر فى الكفر وزيادة وهو أنه ضم إلى كفره نوعا آخر من الكفر أخبث منه وهو الاستهزاء بالإسلام والمسلمين وإفشاء أسرار المسلمين ونقلها إلى الكفار فلهذا السبب جعل الله عذاب المنافقين أشد عذابا من الكفار والمنافق من أظهر الإيمان وأبطن الكفر وقيل هو الذى يصف الإسلام بلسانه ولا يعمل بشرائعه ولا يتقيد بقيوده ولا يدخل تحت أحكامه وأما تسمية من ارتكب مايفسق به منافقا فللتغليظ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان» فان هذه الخصال صفات المنافقين فمن فعلها فقد تشبه بالمنافقين. وقوله تعالى (ولن تجد لهم نصيرا) يعنى ولن تجد يامحمد لهؤلاء المنافقين ناصرا ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم ثم استثنى الله عز وجل من تاب من المنافقين فقال تعالى (إلا الذين تابوا) يعنى من النفاق (وأصلحوا) يعنى أصلحوا الأعمال فعملوا بما أمر الله به وأدوا فرائضه وانتهوا عما نهاهم عنه (واعتصموا بالله) يعنى وتمسكوا بعهد الله ووثقوا به (وأخلصوا دينهم لله) يعنى وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التى عملوها لله وأرادوه بها ولم يريدوا رياء ولا سمعة فهذه الأمور الأربعة إذا حصلت فقد كمل الإيمان فلذلك قال تعالى (فأولئك) يعنى التائبين من النفاق (مع المؤمنين) يعنى فى الجنة وقيل مع بمعنى من أى المؤمنين (وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما) يعنى فى الآخرة. قوله تعالى (مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) هذا استفهام تقرير معناه أنه تعالى لا يعذب الشاكر المؤمن فان تعذيبه لا يزيد فى ملكه وتركه عقوبته لا ينقص من سلطانه لأنه الغنى الذى لا يحتاج إلى شىء من ذلك فان عاقب أحدا فانما يعاقبه لأمر أوجبه العدل والحكمة فان قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أنقذتم أنفسكم من عذابه قال أهل المعانى فيه تقديم وتأخير تقديره إن آمنتم وشكرتم لأن الإيمان مقدم على سائر الطاعات ولأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان ولأن الواو لا توجب الترتيب وقيل هو على أصله والمعنى أن العاقل ينظر بعين بصيرته أولا إلى ماعليه من النعمة العظيمة فى إيجاده وخلقه فيشكر على ذلك شكرا عظيما مبهما ثم إذا تمم النظر ثانيا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم عليه فآمن به ثم شكره شكرا مفصلا فكان ذلك الشكر المبهم مقدما على الإيمان فلذلك قدم الشكر على الإيمان فى الذكر (وكان الله شاكرا) يعنى مثيبا عباده المؤمنين موفيا أجورهم والشكر من الله الرضا بالقليل من أعمال عباده وأضعاف الثواب عليه وقيل لما أمر الله عباده بالشكر سمى الجزاء شكرا على سبيل الاستعارة فالمراد من الشاكر فى صفة الله تعالى كونه مثيبا على الشكر (عليما) يعنى بحق شكركم وإيمانكم

من الله تعالى هو الرضى بالقليل من عباده وإضعاف الثواب عليه والشكر من العبد الطاعة ومن الله الثواب قوله (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) يعنى لا يحب الله الجهر بالقبيح من القول إلا من ظلم فيجوز للمظلوم أن يخبر عن ظلم الظالم وأن يدعوا عليه قال الله تعالى «ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل» قال الحسن دعاؤه عليه أن يقول اللهم أعنى عليه اللهم استخرج حقى منه وقيل إن شتم جاز أن يشتم بمثله لا يزيد عليه. أخبرنا أبو عبد الله الخرقى أنا أبو الحسن الطيسفونى أنا عبد الله بن عمر الجوهرى أنا أحمد بن على الكشميهنى أنا على بن حجر أنا العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم» وقال مجاهد هذا فى الضيف إذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يحسنوا ضيافته فله أن يشكو ويذكر ما صنع به. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد ابن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل أنا قتيبة بن سعيد أنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير عن عقبة بن عامر أنه قال «قلنا يا رسول الله إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرونا فما ترى فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف فأقبلوا فان لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذى ينبغى لهم» وقرأ الضحاك بن مزاحم وزيد بن أسلم إلا من ظلم بفتح الظاء واللام معناه لكن الظالم اجهروا له بالسوء من القول وقيل معناه لا يحب الله بالجهر بالسوء من القول لكن يجهره من ظلم والقراءة الأولى هى المعروفة (وكان الله سميعا) لدعاء المظلوم (عليما) بعقاب الظالم قوله تعالى (إن تبدوا خيرا) يعنى حسنة فيعمل بها كتبت له عشرا، وإن هم بها ولم يعملها كتبت له حسنة واحدة وهو قوله (أو تخفوه) وقيل المراد من الخير المال يريد أن تبدوا صدقة تعطونها جهرا أو تخفوها فتعطونها سرا (أو تعفو عن سوء) أى عن مظلمة (فان الله كان عفوا قديرا) فهو أولى بالتجاوز عنكم يوم القيامة قوله عز وجل (إن الذين

وإيمانكم فيجازيكم على ذلك. قوله عز وجل (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) قال أهل المعانى يعنى أنه تعالى لا يحب الجهر بالسوء ولا غير الجهر به أيضا من القول يعنى من القول القبيح إلا من ظلم قيل هو استثناء متصل والمعنى إلا جهر من ظلم وقيل هو استثناء منقطع ومعناه لكن المظلوم يجوز أن يجهر بظلم الظالم قال العلماء لا يجوز إظهار أحوال الناس المستورة المكتومة لأن ذلك يصير سببا لوقوع الناس فى الغيبة ووقوع ذلك الشخص فى الريبة لكن من ظلم فيجوز له إظهار ظلمه فيقول سرق منى أو غصب ونحو ذلك وإن شوتم جاز له أن يشتم بمثله ولا يزيد شيئا على ذلك ويدل على ذلك ما روى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المستبان ما قالا فعلى الأول وفى رواية فعلى البادئ منهما حتى يعتدى المظلوم أخرجه مسلم قال ابن عباس لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوما فانه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله إلا من ظلم وإن صبر فهو خير له وقال الحسن البصرى هو الرجل يظلم الرجل فلا يدع عليه ولكن ليقل اللهم أعنى عليه اللهم استخرج لى حقى اللهم حل بينى وبين ما يريد ونحوه من الدعاء وقيل نزلت الآية فى الضيف إذا نزل بقوم فلم يقروه ولم يحسنوا ضيافته فله أن يشكو ما صنع به قال مجاهد هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج من عنده فيقول أساء ضيافتى وقال مقاتل نزلت فى أبي بكر الصديق وذلك أن رجلا نال منه النبى ﷺ حاضرا فسكت عنه أبو بكر مرارا ثم رد عليه فقام النبى صلى الله عليه وسلم فقال أبو بكر يا رسول الله شتمنى فلم تقل له شيئا حتى إذا رددت عليه قمت قال إن ملكا كان يجيب عنك فلما رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان فقمت ونزلت هذه الآية (وكان الله سميعا) يعنى لدعاء المظلوم (عليما) بما فى قلبه فليتق الله ولا يقل إلا الحق. قوله تعالى (إن تبدوا خيرا) قال ابن عباس يريد من أعمال البر كالصيام والصدقة والضيافة والصلة وقيل معناه إن تبدوا خيرا بدلا من السوء (أو تخفوه) يعنى تخفوا الخير فلم تظهروه وقيل معناه إن تبدوا حسنة فتعملوا بها تكتب لكم عشرا وإن هم بها ولم يعملها كتبت له واحدة وقيل إن جميع مقاصد الخيرات على كثرتها محصورة فى قسمين: أحدهما صدق النية مع الحق. والثانى التخلق مع الخلق فالذى يتعلق بالخلق ينحصر فى قسمين: أيضا وهما إيصال نفع إليهم فى السر والعلانية وإليه الإشارة بقوله تعالى «إن تبدوا خيرا أو تخفوه» أو رفع ضرر عنهم وإليه الإشارة بقوله تعالى (أو تعفوا عن سوء) فيدخل فى هاتين الكلمتين جميع أعمال البر وجميع دفع الضر وقيل المراد بالخير المال والمعنى إن تبدوا الصدقة فتعطوها الفقراء جهرا أو تخفوها فتعطوها سرا أو تعفوا عن مظلمة (فان الله كان عفوا قديرا) يعنى لم يزل ذا عفو مع قدرته على الانتقام فاعفوا أنتم

يكفرون بالله ورسله) الآية نزلت فى اليهود وذلك أنهم آمنوا بموسى عليه السلام والتوراة وعزير وكفروا بعيسى والإنجيل ومحمد
والقرآن (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا
بين ذلك سبيلا) أى دينا بين اليهودية والإسلام، ومذهبا يذهبون إليه (أولئك هم الكافرون حقا) حقق كفرهم ليعلم أن الكفر ببعضهم كالكفر بجميعهم (وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين آمنوا بالله ورسله) كلهم (ولم يفرقوا بين أحد منهم) يعنى بين الرسل وهم المؤمنون يقولون لانفرق بين أحد من رسله (أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) بإيمانهم بالله وكتبه ورسله قرأ حفص عن عاصم يؤتيهم بالياء أى يؤتيهم الله والباقون بالنون (وكان الله غفورا رحيما) قوله تعالى (يسألك أهل الكتاب) الآية وذلك أن كعب بن الأشرف وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا فأتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى به موسى عليه السلام فأنزل الله عليه يسألك أهل الكتاب (أن تنزل عليهم كتابا من السماء) وكان هذا السؤال منهم سؤال تحكم
واقتراح لا سؤال انقياد والله تعالى لاينزل الآيات على اقتراح العباد قوله (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) أى
أعظم من ذلك يعنى السبعين الذى خرج بهم موسى عليه السلام إلى الجبل (فقالوا أرنا الله جهرة) أى عيانا قال أبو عبيدة

عمن ظلمكم واقتدوا بسنة الله عز وجل يعف عنكم يوم القيامة لأنه أهل للتجاوز والعفو عنكم
وقيل معناه إن الله كان عفوا لمن عفا قديرا على إيصال الثواب إليه . قوله عز وجل (إن الذين
يكفرون بالله ورسله) نزلت فى اليهود وذلك أنهم آمنوا بموسى والتوراة وكفروا بعيسى والإنجيل
وبمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وقيل نزلت فى اليهود والنصارى جميعا وذلك أن اليهود آمنوا
بموسى وكفروا بعيسى ومحمد والنصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم
أجمعين (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) يعنى ويريدون
أن يفرقوا بين الإيمان بالله والإيمان برسله ولا يصح الإيمان بالله مع التكذيب ببعض رسله
(ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) يعنى بين الإيمان بالبعض دون البعض يتخذون مذهبا
يذهبون إليه ودينا يدينون به (أولئك) يعنى من هذه صفتهم (هم الكافرون حقا) يعنى يقينا وإنما
قال ذلك توكيدا لكفرهم لئلا يتوهم متوهم أن الإيمان ببعض الرسل يزيل اسم الكفر عنهم وليعلم
أن الكفر ببعض الأنبياء كالكفر بكلهم لأن الدليل الذى يدل على نبوة البعض وهو المعجزة لزم
منه أنه حيث وجدت المعجزة حصلت النبوة وقد وجدت المعجزة لجميع الأنبياء فلزم الإيمان
بجميعهم (واعتدنا) يعنى وهيأنا (للكافرين عذابا مهينا) يعنى يهانون فيه (والذين آمنوا بالله ورسله)
يعنى والذين صدقوا بوحدانية الله ونبوة جميع أنبيائه وأن جميع ماجاءوا به من عند الله حق
وصدق (ولم يفرقوا بين أحد منهم) يعنى من الرسل بل آمنوا بجميعهم وهم المؤمنون (أولئك)
يعنى من هذه صفتهم (سوف نؤتيهم أجورهم) يعنى جزاء إيمانهم بالله وبجميع كتبه ورسله (وكان
الله غفورا رحيما) يعنى أنه تعالى لما وعدهم بالثواب أخبرهم أنه يتجاوز عن سيئاتهم ويغفرها لهم
ويرحمهم فهو كالترغيب لليهود والنصارى فى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنهم إذا آمنوا
غفر لهم ما كان منهم فى حال الكفر . قوله تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من
السماء) يعنى يسألك يا محمد أهل الكتاب وهم اليهود وذلك أن كعب بن الأشرف وفنحاص بن
عازوراء من اليهود قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا فأتنا بكتاب جملة واحدة
من السماء كما أتى موسى بالتوراة وقيل سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم
كتابا مختصا بهم وقيل سألوه أن ينزل عليهم كتابا إلى فلان وكتابا إلى فلان ليشهدا لك بأنك
رسول الله وكان هذا السؤال من اليهود سؤال تعنت واقتراح لا سؤال استرشاد وانقياد والله
تعالى لاينزل الآيات على اقتراح العباد ولأن معجزة النبى ﷺ كانت قد تقدمت وظهرت
فكان طلب الزيادة من باب التعنت . وقوله تعالى (فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) يعنى
أعظم من الذى سألوك يا محمد ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتوبيخ وتقريع لليهود حيث
سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤال تعنت والمعنى لاتعظمن عليك يا محمد مسئلتهم
ذلك فإنهم من فرط جهلهم واجترائهم على الله لو أتيتهم بكتاب من السماء لما آمنوا بك وإنما
أسند السؤال إلى اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وإن وجد هذا السؤال
من آبائهم الذين كانوا فى أيام موسى عليه السلام لأنهم كانوا على مذهبهم وراضين بسؤالهم
ومشاكلين لهم فى التعنت (فقالوا) يعنى إسلاف هؤلاء اليهود (أرنا الله جهرة) يعنى عيانا والمعنى

أرناه

أرناه نره جهرة وذلك أن سبعين من بنى إسرائيل خرجوا مع موسى عليه الصلاة والسلام إلى الجبل فقالوا ذلك وقد تقدمت القصة فى سورة البقرة (فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) يعنى بسبب ظلمهم وسؤالهم الرؤية (ثم اتخذوا العجل) يعنى إلها وهم الذين خلفهم موسى مع أخيه هرون حين خرج إلى ميقات ربه (من بعد ماجاءتهم البينات) يعنى الدلالات الواضحات الدالة على صدق موسى وهى : العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات الباهرة (فعفونا عن ذلك) يعنى عن ذلك الذنب العظيم فلم نستأصل عبدة العجل والمقصود من هذا تسلية النبى صلى الله عليه وسلم والمعنى أن هؤلاء الذين يطلبون منك يامحمد أن تنزل عليهم كتابا من السماء إنما يطلبونه عنادا ولجاجا فانى قد أنزلت التوراة جملة واحدة على موسى وآتيته من المعجزات الباهرات والآيات البينات مافيه كفاية ثم إنهم طلبوا الرؤية على سبيل العناد وعبدوا العجل وكل ذلك يدل على جهلهم وأنهم مجبولون على اللجاج والعناد وفى قوله فعفونا عن ذلك استدعاء إلى التوبة والمعنى أن أولئك الذين أجرموا لما تابوا عفونا عنهم فتوبوا أنتم نعف عنكم (وآتينا موسى سلطانا مبينا) يعنى حجة واضحة تدل على صدقه وهى المعجزات الباهرات التى أعطاها الله عز وجل لموسى عليه السلام قوله عز وجل (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) يعنى ورفعنا فوقهم الجبل المسمى بالطور بسبب أخذ ميثاقهم وذلك أن بنى إسرائيل امتنعوا من قبول التوراة والعمل بما فيها فرفع الله فوقهم الطور حتى أظلهم ليخافوا فلا ينقضوا العهد والميثاق (وقلنا لهم) يعنى والطور يظلهم (ادخلوا الباب سجدا) فخالفوا ودخلوا وهم يزحفون على استاههم (وقلنا لهم لاتعدوا فى السبت) يعنى وقلنا لهم لاتجاوزوا فى يوم السبت إلى مالايحل لكم فيه وذلك أنهم نهوا أن يصطادوا السمك فى يوم السبت فاعتدوا واصطادوا فيه وقيل المراد به النهى عن العمل والكسب فى يوم السبت (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) يعنى وأخذنا منهم عهدا مؤكدا شديدا بأن يعملوا بما أمرهم الله به وأن ينتهوا عما نهاهم الله عنه ثم إنهم نقضوا ذلك الميثاق وهو قوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم) يعنى فبنقضهم وما مزيدة للتوكيد والمعنى فبسبب نقضهم ميثاقهم لعناهم وسخطنا عليهم وفعلنا بهم مافعلنا (وكفرهم بآيات الله) يعنى وبجحودهم بآيات الله الدالة على صدق أنبيائه (وقتلهم الأنبياء) يعنى بعد قيام الحجة والدلالة على صحة نبوتهم (بغير حق) يعنى بغير استحقاق لذلك القتل (وقولهم قلوبنا غلف) يعنى وبقولهم على قلوبنا أغطية وغشاوة فهى لاتفقه ماتقول جمع أغلف وقيل جمع غلاف يعنى قلوبنا أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى ماتدعونا إليه فرد الله عليهم بقوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) يعنى بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم (فلا يؤمنون إلا قليلا) يعنى إيمانهم بموسى والتوراة وكفرهم بما سواه من الأنبياء والكتب وقيل لايؤمنون قليلا ولا كثيرا وقيل المراد بالقليل هو عبد الله بن سلام وأصحابه والذين آمنوا من اليهود . قوله تعالى (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) يعنى حين رموها بالزنا وذلك أنهم أنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب ومنكر قدرة الله كافر فالمراد بقوله وبكفرهم هو إنكارهم قدرة الله تعالى والمراد بقولهم على مريم بهتانا عظيما هو رميهم إياها بالزنا وإنما سماه بهتانا عظيما لأنه قد ظهر عند ولادة مريم من المعجزات مايدل على براءتها من ذلك فلهذا السبب وصف الله قول اليهود على مريم بالبهتان العظيم . قوله

معناه قالوا جهرة أرنا الله (فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل) يعنى إلها (من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك) ولم نستأصلهم قيل هذا استدعاء إلى التوبة معناه أن أولئك الذين أجرموا تابوا فعفونا عنهم فتوبوا أنتم حتى نعفو عنكم (وآتينا موسى سلطانا مبينا) أى حجة بينة من المعجزات وهى الآيات التسع (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم أدخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لاتعدوا فى السبت) قرأ أهل المدينة بتشديد الدال وفتح العين نافع برواية ورش وبجزمها الآخرون ومعناه لاتعتدوا ولا تظلموا باصطياد الحيتان فيه (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) قوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم) أى فبنقضهم وما صلة كقوله تعالى فبما رحمة من الله ونحوها (وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) أى ختم عليها (فلا يؤمنون إلا قليلا) يعنى ممن كذب الرسل لاممن طبع على قلبه لأن من طبع الله على قلبه لا يؤمن أبدا ، وأراد بالقليل عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل معناه لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما) حين رموها

عزوجل (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله) ادعت اليهود أنهم قتلوا عيسى عليه السلام وصدقهم النصارى على ذلك فكذبهم الله عز وجل جميعا ورد عليهم بقوله (وما قتلوه وما صلبوه) وفى قوله رسول الله قولان: أحدهما أنه من قول اليهود فيكون المعنى أنه رسول الله على زعمه. والقول الثانى أن من قول الله لا على وجه الحكاية عنهم وذلك أن الله تعالى أبدل ذكرهم فى عيسى عليه السلام القول القبيح بالقول الحسن رفعا لدرجته عما كانوا يذكرونه من القول القبيح . وقوله تعالى (ولكن شبه لهم) يعنى ألقى شبه عيسى على غيره حتى قتل وصلب واختلف العلماء فى صفة التشبيه الذى شبه على اليهود فى أمر عيسى عليه السلام فروى الطبرى بسنده عن وهب بن منبه أنه قال أتى اليهود عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين فى بيت فأحاطوا بهم فلما دخلوا عليهم صورهم الله تعالى كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم سحرتمونا لتبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعا فقال عيسى لأصحابه من يشترى نفسه منكم اليوم بالجنة فقال رجل منهم أنا فخرج إليهم فقال أنا عيسى وقد صوره الله تعالى على صورة عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى وظنت النصارى مثل ذلك ورفع الله عز وجل عيسى عليه السلام من يومه ذلك وفى رواية أخرى عن وهب أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه ليكفرن بى أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعنى بدراهم يسيرة وليأكلن ثمنى فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا هذا من أصحاب عيسى فجحد وقال ما أنا بصاحبه فتركوه ثم أخذوا آخر فجحد كذلك فلما أصبح أتى بعض الحواريين إلى اليهود وكان منافقا فقال ما تجعلون لى إن أنا دللتكم على المسيح فجعلوا له ثلاثين درهما فدلهم عليه فألقى الله شبه عيسى على ذلك المنافق الذى دل عليه فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسى وقال قتادة إن أعداء الله اليهود زعموا أنهم قتلوا عيسى وصلبوه وذكر لنا أن نبى الله عيسى بن مريم عليه السلام قال لأصحابه أيكم يقذف عليه شبهى وله الجنة فانه مقتول فقال رجل منهم أنا يا نبى الله فأخذ ذلك وقتل وصلب ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء وقيل إن اليهود حبسوا عيسى فى بيت وجعلوا عليه رقيبا يحفظه فألقى الله شبه عيسى على ذلك الرقيب فأخذ فقتل وصلب فرفع الله عز وجل عيسى فى ذلك الوقت قال الطبرى وأولى الأقوال بالصواب ما ذكرنا عن وهب ابن منبه من أن شبه عيسى ألقى على جميع من كان مع عيسى فى البيت حين أحيط به وبهم من غير مسئلة عيسى إياهم ذلك ولكن ليخزى الله بذلك اليهود وينقذ به نبيه عيسى عليه السلام من كل مكروه أرادوه به من قتل وغيره وليبتلى الله من أراد ابتلاءه من عباده ويحتمل أن يكون ألقى شبهه على بعض أصحابه بعد ما تفرق عنه أصحابه ورفع الله عيسى عليه السلام وبقى ذلك فأخذ وقتل وصلب وظن أصحابه واليهود أن الذى قتلوه وصلبوه هو عيسى لما رأوا من شبهه به وخفى أمر عيسى عليهم وكانت حقيقة ذلك الأمر عند الله فلذلك قال تعالى «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم» (وإن الذين اختلفوا فيه) يعنى فى قتل عيسى وهم اليهود (لفى شك منه) يعنى من قتله وذلك أن اليهود قتلوا ذلك الشخص المشبه بعيسى وكان قد ألقى الشبه على وجه ذلك الشخص دون جسده فلما قتلوه نظروا إلى جسده فوجدوه غير جسد عيسى فقالوا الوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره فهذا هو اختلافهم فيه وقيل إن اليهود لما حبسوا عيسى وأصحابه فى البيت دخل عليه رجل منهم ليخرجه

إليهم

بالزنا (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وذلك أن الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على الذى دل اليهود عليه وقيل إنهم حبسوا عيسى عليه السلام فى بيت وجعلوا عليه رقيبا فألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على الرقيب فقتلوه وقيل غير ذلك كما ذكرنا فى سورة آل عمران قوله تبارك وتعالى (وإن الذين اختلفوا فيه) فى قتله (لفى شك منه) أى فى قتله قال الكلبى اختلافهم فيه هو إن اليهود قالت نحن قتلناه وقالت طائفة من النصارى نحن قتلناه وقالت طائفة منهم ما قتله هؤلاء ولا هؤلاء بل رفعه الله إلى السماء ونحن ننظر إليه وقيل كان الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على وجه صطيافوس ولم يلقه على جسده فاختلفوا فيه فقال بعضهم قتلنا عيسى فان الوجه وجه عيسى عليه السلام وقال بعضهم لم نقتله؟ لأن جسده ليس جسد عيسى عليه السلام فاختلفوا قال السدى اختلافهم من حيث إنهم قالوا إن كان هذا

عيسى فأين صاحبنا وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى ؟ قال الله تعالى (مالهم به من علم) من حقيقته أنه قتل أولم يقتل (إلا اتباع الظن) لكنهم يتبعون الظن فى قتله قال الله جل جلاله (وما قتلوه يقينا) أى ماقتلوا عيسى يقينا (بل رفعه الله إليه) وقيل قوله يقينا يرجع إلى مابعده ,قوله وما قتلوه كلام تام تقديره بل رفعه الله إليه يقينا والهاء فيما قتلوه كناية عن عيسى عليه السلام ، وقال الفراء رحمه الله معناه وما قتلوا الذى ظنوا أنه عيسى يقينا وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما معناه وما قتلوا ظنهم يقينا ، (وكان الله عزيزا) منيعا بالنقمة من اليهود (حكيما) حكم باللعنة والغضب عليهم فسلط عليهم ينطيونس بن اسبسيانوس الرومى فقتل منهم مقتلة عظيمة قوله تعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) أى وما من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام هذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم وقوله قبل موته اختلفوا فى هذه الكناية فقال عكرمة ومجاهد والضحاك والسدى أنها كناية عن الكتابى ومعناه وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام قبل موته إذا وقع فى البأس حين لاينفعه إيمانه سواء احترق أو غرق أو تردى فى بئر أوسقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة وهذه رواية على ابن طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال فقيل لابن عباس رضى الله عنهما أرأيت إن من خر من فوق بيت قال يتكلم به فى الهواء قال فقيل أرأيت إن ضرب عنق أحدهم قال يتلجلج به لسانه وذهب قوم إلى إن الهاء فى موته كناية عن عيسى عليه السلام معناه وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى عليه السلام وذلك عند نزوله من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد إلا آمن به حتى تكون الملة واحدة ملة الإسلام وروينا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يوشك أن ينزل

إليهم فألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل فأخذ وقتل ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء وفقدوا صاحبهم فقالوا إن كنا قتلنا المسيح فأين صاحبنا؟ وإن كنا قتلنا صاحبنا فأين المسيح عيسى ؟ فهذا هو اختلافهم فيه وقيل إن الذين اختلفوا فيه هم النصارى فبعضهم يقول إن القتل وقع على ناسوت عيسى دون لاهوته وبعضهم يقول وقع القتل عليهما جميعا وبعضهم يقول رأيناه قتل وبعضهم يقول رأيناه رفع إلى السماء فهذا هو اختلافهم فيه قال الله تعالى (مالهم به من علم) يعنى أنهم قتلوا من قتلوا على شك منهم فيه ولم يعرفوا حقيقة ذلك المقتول هل هو عيسى أو غيره (إلا اتباع الظن) يعنى لكن يتبعون الظن فى قتله ظنا منهم أنه عيسى لاعن علم وحقيقة (وما قتلوه يقينا) قال ابن عباس يعنى لم يقتلوا ظنهم يقينا فعلى هذا القول تكون الهاء فى قتلوه عائدة على الظن والمعنى ماقتلوا ذلك الظن يقينا ولم يزل ظنهم ولم يرتفع ماوقع لهم من الشبه فى قتله فهو كقول العرب قتله علماً وقتله يقينا يعنى علمه علماً تاما وأصل ذلك أن القتل للشىء يكون عن قهر واستيلاء وغلبة ومعنى الآية على هذا لم يكن علمهم بقتل عيسى علماً تاماً كاملا إنما كان ظنا منهم إنهم قتلوه ولم يكن لذلك حقيقة وقيل إن الهاء فى قتلوه عائدة على عيسى والمعنى وما قتلوا المسيح يقينا كما ادعوا أنهم قتلوه وقيل إن قوله يقينا يرجع إلى مابعده تقديره وما قتلوه (بل رفعه الله إليه) يقينا والمعنى أنهم لم يقتلوا عيسى ولم يصلبوه ولكن الله عز وجل رفعه إليه وطهره من الذين كفروا وخلصه ممن أراده بسوء وقد تقدم كيف كان رفعه فى سورة آل عمران بما فيه كفاية . وقوله تعالى (وكان الله عزيزا) يعنى فى اقتداره على من يشاء من عباده (حكيما) يعنى فى إنجاء عيسى عليه السلام وتخليصه من اليهود وقيل عزيزا يعنى منيعا منتقما من اليهود فسلط عليهم ينطيونس بن اسبسيانوس الرومى فقتل منهم مقتلة عظيمة حكيما حكم باللعنة والغضب على اليهود حيث ادعوا هذه الدعوى الكاذبة . قوله تعالى (وإن من أهل الكتاب) يعنى وما من أحد من أهل الكتاب (إلا ليؤمنن به) يعنى بعيسى عليه السلام وأنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين وقال عكرمة فى قوله إلا ليؤمنن به يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا القول لاوجه له لأنه لم يجر للنبى صلى الله عليه وسلم ذكر قبل هذه الآية حتى يرجع الضمير إليه وقول الأكثرين الأولى لأنه تقدم ذكر عيسى عليه السلام فكان عود الضمير إليه أولى (قبل موته) اختلف المفسرون فى هذا الضمير إلى من يرجع فقال ابن عباس وأكثر المفسرين إن الضمير يرجع إلى الكتابى والمعنى وما من أحد من أهل الكتاب إلا آمن بعيسى قبل موت ذلك الكتابى ولكن يكون ذلك الإيمان عند الحشرجة حين لاينفعه إيمانه قال ابن عباس معناه إذا وقع فى اليأس حين لاينفعه إيمانه سواء احترق أو تردى من شاهق أوسقط عليه جدار أو أكله سبع أو مات فجأة فقيل له أرأيت إن خر من فوق بيت قال يتكلم به فى الهواء فقيل له أرأيت إن ضربت عنقه قال يتلجلج

به لسانه وقال شهر بن حوشب إن اليهودى إذا حضره الموت ضربت الملائكة بأجنحتها وجهه ودبره وقالوا ياعدو الله أتاك موسى نبيا فكذبت به فيقول آمنت إنه عبد الله ورسوله وتقول للنصرانى أتاك عيسى نبيا فزعمت إنه الله وابن الله فيقول آمنت أنه عبدالله فأهل الكتابين يؤمنون به ولكن حيث لاينفعهم ذلك الإيمان وذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن الضمير يرجع إلى عيسى عليه السلام وهو رواية عن ابن عباس أيضا والمعنى ومامن أحد من أهل الكتاب إلاليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء فى آخر الزمان فلايبقى أحد من أهل الكتابين إلا آمن بعيسى حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام قال عطاء إذا نزل عيسى إلى الأرض لايبقى يهودى ولانصرانى ولاأحد يعبد غير الله إلا آمن بعيسى وأنه عبد الله وكلمته ويدل على صحة هذا القول ماروى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لايقبله أحد » زاد فى رواية «وحتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا ومافيها» ثم يقول أبو هريرة «اقرءوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلاليؤمنن به قبل موته» الآية وفى رواية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والله لينزلن فيكم ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية وليتركن القلاص فلايسعى عليها وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلايقبله أحد» أخرجاه فى الصحيحين . ففى هذا الحديث دليل على أن عيسى ينزل فى آخر الزمان فى هذه الأمة ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لاينزل نبيا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل يكون حاكما من حكام هذه الأمة وإماما من أئمتهم لقوله صلى الله عليه وسلم فيكسر الصليب يعنى يكسره حقيقة ويبطل مازعمه النصارى من تعظيمه وكذلك قتله الخنزير وقوله ويضع الجزية يعنى لايقبلها من بدلها من اليهود والنصارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام أو القتل وعلى هذا قد يقال هذا خلاف ماهو حكم الشرع اليوم فان الكتابى إذا بذل الجزية وجب قبولها منه ولم يجز قتله ولاإجباره على الإسلام والجواب أن هذا الحكم ليس مستمرا إلى يوم القيامة بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى عليه السلام وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بنسخه وليس الناسخ هو عيسى عليه السلام بل الناسخ لهذا الحكم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه هو المبين للنسخ وأن عيسى عليه السلام يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم فدل على أن الامتناع من قبول الجزية فى ذلك الوقت هو شرع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والله أعلم . قال الزجاج هذا القول بعيد يعنى قول من قال إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله فى آخر الزمان قال لعموم قوله تعالى «وإن من أهل الكتاب إلاليؤمنن به» قال والذين يبقون يومئذ يعنى عند نزوله شرذمة قليلة منهم وأجاب أصحاب هذا القول يعنى الذين يقولون إن إيمان أهل الكتاب بعيسى إنما يكون عند نزوله فى آخر الزمان بأن هذا على العموم ولكن المراد بهذا العموم الذين يشاهدون ذلك الوقت ويدركون نزوله فيؤمنون به ويكون معنى الآية وما من أحد من أهل الكتاب أدرك ذلك الوقت إلا آمن بعيسى عند نزوله من السماء وصحح الطبرى هذا القول وقال عكرمة فى معنى الآية وإن من أهل الكتاب إلاليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل موت الكتابى فلايموت يهودى ولانصرانى حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك عند الحشرجة حتى لاينفعه إيمانه . وقوله تعالى و(يوم القيامة يكون عليهم شهيدا) يعنى

فيكم ابن مريم حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لايقبله أحد ويهلك فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ويقتل الدجال فيمكث فى الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » ، وقال أبو هريرة اقرءوا « إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلاليؤمنن به» قبل موته قبل موت عيسى بن مريم ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات وروى عن عكرمة أن الهاء فى قوله ليؤمنن به كناية عن محمد ﷺ يقول لايموت كتابى حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل هى راجعة إلى الله عز وجل يقول وإن من أهل الكتاب إلاليؤمنن بالله عز وجل قبل موته عند المعاينة حين لاينفعه إيمانه قوله تعالى (ويوم القيامة يكون) يعنى عيسى عليه السلام (عليهم شهيدا) أنه قد بلغهم رسالة ربه وأقر بالعبودية على نفسه كما قال تعالى مخبرا عنه وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم وكل نبى شاهد على أمته قال الله تعالى « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا »

يكون عيسى عليه السلام شاهدا على اليهود أنهم كذبوه وطعنوا فيه، وعلى النصارى أنهم اتخذوه ربا وأشركوا به ويشهد على تصديق من صدقه منهم وآمن به قال قتادة معناه إذ يكون شهيدا يوم القيامة إنه قد بلغ رسالة ربه وأقر على نفسه بالعبودية . قوله عز وجل (فبظلم من الذين هادوا) يعنى فبسبب ظلم منهم (حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) يعنى ماحرمنا عليهم الطيبات التى كانت حلالا لهم إلا بظلم عظيم ارتكبوه وذلك الظلم هو ماذكره من نقضهم الميثاق وما عدد عليهم من أنواع الكفر والكبائر العظيمة مثل قولهم اجعل لنا إلها كما لهم آلهة وكقولهم أرنا الله جهرة وكعبادتهم العجل فبسبب هذه الأمور حرم الله عليهم طيبات كانت حلالا لهم وهى ماذكره فى سورة الأنعام فى قوله «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر» الآية وقال الطبرى فى معنى الآية فحرمنا على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذي واثقوا ربهم به وكفروا بآيات الله وقتلوا أنبيائهم وقالوا البهتان على مريم وفعلوا ماوصفهم الله به فى كتابه طيبات من المآكل وغيرها التى كانت لهم حلالا عقوبة لهم بظلمهم الذى أخبر الله عنهم فى كتابه وروى عن قتادة قال عوقب القوم بظلم ظلموه وبغى بغوه وحرمت عليهم أشياء ببغيهم وظلمهم ونقل الواحدى وابن الجوزى عن مقاتل قال كان الله حرم على أهل التوراة أن يأكلوا الربا ونهاهم أن يأكلوا أموال الناس ظلما فأكلوا الربا وأكلوا أموال الناس ظلما بالباطل وصدوا عن دين الله وعن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فحرم الله عليهم عقوبة لهم ماذكر فى قوله «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر» الآية قال الواحدى فأما وجه تحريم الطيبات عليهم كيف ومتى كان وعلى لسان من حرم عليهم فلم أجد فيه شيئا أنتهى إليه فتركته ولقد أنصف الواحدى فيما قال فان هذه الآية فى غاية الإشكال وبيانه إن الله تعالى لايعاقب على ذنب قبل وقوعه وقد ذكر المفسرون فى معنى الظلم المذكور فى الآية ماتقدم ذكره وكلها ذنوب فى المستقبل . فان قلت علم الله تعالى وقوع هذه الذنوب منهم قبل وقوعها فحرم عليهم ماحرم من الطيبات التى كانت لهم حلالا عقوبة لهم على ماسيقع منهم قلت جوابه ماتقدم وهو أن الله تعالى لايعاقب على ذنب قبل وقوعه ولهذا لم يذكر الإمام فخر الدين فى تفسير هذه الآية ماذكره المفسرون بل ذكر تفسيرا إجماليا فقال اعلم أن أنواع الذنوب محصورة فى نوعين : الظلم للخلق والإعراض عن الدين الحق، أما ظلم الخلق فاليه الإشارة بقوله (وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) ثم إنهم مع ذلك فى غاية الحرص على طلب المال فتارة يحصلونه بطريق الربا مع أنهم قد نهوا عنه وتارة يحصلونه بطريق الرشا وهو المراد بقوله (وأكلهم أموال الناس بالباطل) فهذه الأربعة هى الذنوب التى شدد عليهم بسببها فى الدنيا والآخرة، أما التشديد فى الدنيا فهو ماتقدم من تحريم الطيبات عليهم وأما التشديد فى الآخرة فهو المراد بقوله تعالى (وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما) قال المفسرون إنما قال منهم لأن الله علم إن قوما منهم سيؤمنون فيأمنون من العذاب . قوله تعالى (لكن الراسخون فى العلم منهم) يعنى من اليهود وهذا استثناء استثنى الله عز وجل من آمن من أهل الكتاب ممن تقدم وصفهم وصفتهم فى الآيات التى تقدمت فبين فيما تقدم حال كفار اليهود والجهال منهم وبين فى هذه الآية حال من هداه لدينه منهم وأرشده للعمل بما علم فقال لكن الراسخون فى العلم ولكن هنا بمعنى الاستدراك والاستثناء والراسخون فى العلم الثابتون فى العلم البالغون فيه أولوا البصائر الثاقبة والعقول الصافية وهم عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من أهل الكتاب

قوله عز وجل (فبظلم من الذين هادوا) وهو ماتقدم ذكره من نقضهم الميثاق وكفرهم بآيات الله وبهتانهم على مريم وقولهم إنا قتلنا المسيح (حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وهى ماذكر فى سورة الأنعام فقال «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر» ونظم الآية فبظلم من الذين هادوا وهو ماذكرنا (وبصدهم) وبصرفهم أنفسهم وغيرهم (عن سبيل الله كثيرا) أى عن دين الله صدا كثيرا (وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) فى التوراة (وأكلهم أموال الناس بالباطل) من الرشا فى الحكم والمآكل التى يصيبونها من عوامهم عاقبناهم بأن حرمنا عليهم طيبات وكانوا كلما ارتكبوا كبيرة حرم عليهم شىء من الطيبات التى كانت حلالا لهم قال الله تعالى «ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون» (وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما لكن الراسخون فى العلم منهم) يعنى ليس كل أهل الكتاب بهذه الصفة لكن الراسخون المبالغون فى العلم منهم أولوا البصائر وأراد به الذين أسلموا من علماء

لأنهم رسخوا فى العلم وعرفوا حقيقته، فأوصلهم ذلك إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم (والمؤمنون) يعنى بالله ورسله (يؤمنون بما أنزل إليك) يعنى بالقرآن الذى أنزل إليك (وما أنزل من قبلك) يعنى ويؤمنون بسائر الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه من قبلك يامحمد وفى المراد بالمؤمنين هاهنا قولان: أحدهما إنهم أهل الكتاب فيكون المعنى لكن الراسخون فى العلم منهم وهم المؤمنون. والقول الثانى أنهم المهاجرون والأنصار من هذه الأمة فيكون قوله والمؤمنون ابتداء كلام مستأنف يؤمنون بما أنزل إليك يعنى أنهم يصدقون بالقرآن الذى أنزل إليك يامحمد وما أنزل من قبلك (والمقيمين الصلاة) اختلف العلماء فى وجه نصبه فحكى عن عائشة وأبان ابن عثمان أنه غلط من الكتاب ينبغى أن يكتب والمقيمون الصلاة وقال عثمان ابن عفان إن فى المصحف لحنا ستقيمه العرب بألسنتهم فقيل له أفلا تغيره؟ فقال دعوه فانه لايحل حراما ولايحرم حلالا وذهب عامة الصحابة وسائر العلماء من بعدهم إلى أنه لفظ صحيح ليس فيه من خطأ من كاتب ولاغيره وأجيب عما روى عن عثمان بن عفان وعن عائشة وأبان بن عثمان بأن هذا بعيد جدا لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والفصاحة والقدرة على ذلك فيكف يتركون فى كتاب الله لحنا يصلحه غيرهم فلا ينبغى أن ينسب هذا إليهم قال ابن الأنبارى ماروى عن عثمان لايصلح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيئا فاسدا ليصلحه غيره ولأن القرآن منقول بالتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه؟ وقال الزمخشرى فى الكشاف ولا يلتفت إلى مازعموا من وقوع لحن فى خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب يعنى كتابا سيبويه ولم يعرف مذاهب العرب ومالهم فى النصب على الاختصاص والمدح من الافتنان وهو باب واسع قد ذكره سيبويه على أمثلة وشواهد وربما غبى عليه أن السابقين الأولين كانوا أبعد همة فى الغيرة على الإسلام وذب الطاعن عنه من أن يتركوا فى كتاب الله عز وجل ثلمة يسدها من بعدهم وخرقا يرفؤه من يلحن بهم ثم اختلف العلماء فى المقيمين الصلاة أهم الراسخون فى العلم أم غيرهم؟ على قولين: أحدهما إنهم هم وإنما نصب على المدح والمعنى أذكر المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة قالوا والعرب تفعل ذلك فى صفة الشىء الواحد ونعته وإذا تطاولت بمدح أو ذم فربما خالفوا بين إعراب أوله وأوسطه أحيانا ثم رجعوا بآخره إلى إعراب أوله وربما أجروا إعراب آخره على إعراب أوسطه وربما أجروا ذلك على نوع واحد من الإعراب واستشهدوا على معنى الآية:

لايبعدن قومى الذين هم ... سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك ... والطيبون معاقد الأزر

وهذا على معنى أذكر النازلين وهم الطيبون ومن هذا المعنى تقول جاءنى قومك المطعمين وهم المعينون. والقول الثانى أن المقيمين الصلاة غير الراسخين فى العلم وموضع والمقيمين الصلاة خفض بالعطف على قوله تعالى بما أنزل إليك فعلى هذا القول يكون معنى الآية «والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة» وهم الأنبياء لأنه لم يخل شرع أحد منهم عن إقامة الصلاة وقيل المراد بهم الملائكة لأنهم يسبحون الليل والنهار لايفترون وصحح الزجاج القول الأول واختاره وصحح الطبرى القول الثانى واختاره. وقوله تعالى (والمؤتون الزكاة) عطف على والمؤمنون لأنه من صفتهم (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) يعنى والمصدقون

اليهود مثل عبد الله بن سلام وأصحابه (والمؤمنون) يعنى المهاجرين والأنصار (يؤمنون بما أنزل إليك) يعنى القرآن (وما أنزل من قبلك) يعنى سائر الكتب المنزلة (والمقيمين الصلاة) اختلفوا فى وجه انتصابه فحكى عن عائشة رضى الله عنها وأبان بن عثمان أنه غلط من الكاتب ينبغى أن يكتب والمقيمون الصلاة، وكذلك قوله فى سورة المائدة «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون» وقوله «إن هذان لساحران» قالوا ذلك خطأ من الكاتب وقال عثمان إن فى المصحف لحنا ستقيمه العرب بألسنتها فقيل له ألا تغيره فقال دعوه فانه لايحل حراما ولا يحرم حلالا وعامة الصحابة وأهل العلم على أنه صحيح واختلفوا فيه قيل هو نصب على المدح وقيل نصب على إضمار فعل تقديره أعنى المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة وقيل موضعه خفض واختلفوا فى وجهه فقال بعضهم معناه لكن الراسخون فى العلم منهم ومن المقيمين الصلاة وقيل معناه يؤمنون بما أنزل إليك وإلى المقيمين الصلاة ثم قوله (والمؤتون الزكاة) رجوع إلى النسق الأول (والمؤمنون بالله واليوم الآخر

أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) قرأ حمزة سيؤتيهم بالياء والباقون بالنون قوله تعالى (إنا أوحينا إليك) هذا بناء على ماسبق من قوله «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء» فلما ذكر الله عيوبهم وذنوبهم غضبوا وجحدوا كل ماأنزل الله عز وجل وقالوا «ماأنزل الله على بشر من شيء» فنزل «وما قدروا الله حق قدره» إذ قالوا «ماأنزل الله على بشر من شيء» وأنزل «إنا أوحينا إليك» (كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) فذكر عدة من الرسل الذين أوحى إليهم، وبدأ بذكر نوح عليه السلام لأنه كان أبا البشر مثل آدم عليه السلام قال الله تعالى «وجعلنا ذريته هم الباقين» ولأنه أول نبي من أنبياء الشريعة وأول نذير على الشرك، وأول من عذبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الأرض جميعا بدعائه وكان أطول الأنبياء عمرا وجعلت معجزته في نفسه لأنه عمر ألف سنة فلم تسقط له سن ولم تشب له شعرة ولم ينتقص له قوة ولم يصبر نبي على أذى قومه ماصبر هو على طول عمره قوله تعالى (وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) وهم أولاد يعقوب (وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا) قرأ الأعمش وحمزة زبورا والزبور بضم الزاي حيث كان بمعنى جمع زبور أي آتينا داود كتبا وصحفا مزبورة أي مكتوبة وقرأ الآخرون بفتح الزاي وهو اسم الكتاب الذي أنزل الله تعالى على داود عليه السلام وكان فيه التحميد والتمجيد والثناء على الله عز وجل وكان داود يبرز إلى البرية فيقوم ويقرأ الزبور ويقوم معه علماء بني إسرائيل فيقومون خلفه ويقوم الناس خلف العلماء ويقوم الجن خلف الناس الأعظم. فالأعظم والشياطين خلف الجن، وتجيء الدواب التي في الجبال فيقمن بين يديه تعجبا لما يسمعن منه والطير ترفرف على رءوسهم فلما قارف الذنب لم ير ذلك ونفروا من حوله فقيل له ذاك أنس الطاعة وهذه وحشة

بوحدانية الله تعالى وبالبعث بعد الموت وبالثواب وبالعقاب (أولئك) يعني من هذه الأوصاف صفته (سنؤتيهم أجرا عظيما) يعني سنعطيهم على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره ثوابا عظيما وهو الجنة. قوله عز وجل (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) قال ابن عباس قال سكين وعدي بن زيد يامحمد مانعلم إن الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى فأنزل الله هذه الآيات وقيل هو جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء جملة واحدة فأجاب الله عز وجل عن سؤالهم بهذه الآية فقال «إنا أوحينا إليك يامحمد كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده» والمعنى إنكم يامعشر اليهود تقرون بنبوة نوح وبجميع الأنبياء المذكورين في هذه الآية وهم اثنا عشر نبيا والمعنى أن الله تعالى أوحى إلى هؤلاء الأنبياء وأنتم يامعشر اليهود معترفون بذلك وما أنزل الله على أحد من هؤلاء المذكورين كتابا جملة واحدة مثل ماأنزل على موسى فلما لم يكن عدم إنزال الكتاب جملة واحدة على أحد هؤلاء الأنبياء قادحا في نبوته فكذلك لم يكن إنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم قادحا في نبوته بل قد أنزل عليه كما أنزل عليهم قال المفسرون وإنما بدأ الله عز وجل بذكر نوح عليه السلام لأنه أول نبي بعث بشريعة وأول نذير على الشرك وأنزل الله عز وجل عليه عشر صحائف وكان أول من عذبت أمته لردهم دعوته وأهلك أهل الأرض بدعائه وكان أبا البشر كآدم عليهما السلام وكان أطول الأنبياء عمراً عاش ألف سنة لم تنقص قوته ولم يشب ولم تنقص له سن وصبر على أذى قومه طول عمره ثم ذكر الله الأنبياء من بعده جملة بقوله تعالى «والنبيين من بعده» ثم خص جماعة من الأنبياء بالذكر لشرفهم وفضلهم فقال (وأوحينا إلى إبراهيم وإسمعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) وهم أولاد يعقوب وكانوا اثنى عشر (وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا) يعني وآتينا داود كتابا مزبورا يعني مكتوبا وقيل الزبور بالفتح اسم الكتاب الذي أنزل على داود وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام بل كلها تسبيح وتقديس وتمجيد وثناء على الله عز وجل ومواعظ وكان داود عليه السلام يخرج إلى البرية فيقوم ويقرأ الزبور وتقوم علماء بني إسرائيل خلفه ويقوم الناس خلف العلماء وتقوم الجن خلف الناس والشياطين خلف الجن وتجيء الدواب التي في الجبال فيقمن بين يديه وترفرف الطير على رءوس الناس وهم يستمعون لقراءة داود ويتعجبون منها فلما قارف الذنب زال عنه ذلك وقيل له كان ذلك أنس الطاعة وهذا ذل المعصية (ق) عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود» قال الحميدي زاد البرقاني قلت والله يارسول الله لو علمت إنك تسمع لقراءتي لحبرتها لك تحبيرا ، التحبير تحسين الصوت بالقراءة قال بعض العلماء إنما لم يذكر موسى في هذه

المعصية أخبرنا أبو سعيد الشريحي أنا أبو إسحاق الثعلبي أنا أبو بكر الجوزقي أنا أبو العباس الرعوف أنا يحيى ابن

الآية لأن الله أنزل عليه التوراة جملة واحدة وكان المقصود بذكر من ذكر من الأنبياء في الآية أنه لم ينزل على أحد منهم كتابا جملة واحدة فلهذا لم يذكر موسى عليه السلام . قوله تعالى (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل) لما نزلت هذه الآية المتقدمة قالت اليهود مالموسى لم يذكر؟ فأنزل الله هذه الآية وفيها ذكر موسى عليه السلام والمعنى وأوحينا إلى رسل قد قصصناهم عليك من قبل يعني سميناهم في القرآن وعرفناك أخبارهم وإلى من بعثوا وما ورد عليهم من قومهم (ورسلا لم نقصصهم عليك) أي لم نسمهم لك ولم نعرفك أخبارهم قال أهل المعاني الذين نوه الله بذكرهم من الأنبياء يدل على تفضيلهم على من لم يذكر ولم يسم . وقوله تعالى (وكلم الله موسى تكليما) يعني خاطبه مخاطبة من غير واسطة لأن تأكيد كلم بالمصدر يدل على تحقيق الكلام وأن موسى عليه السلام سمع كلام الله بلا شك لأن أفعال المجاز لا تؤكد بالمصادر فلا يقال أراد الحائط يسقط إرادة وهذا رد على من يقول إن الله خلق كلاما في محل فسمع موسى موسى ذلك الكلام وقال الفراء العرب تسمي كل مايوصل إلى الإنسان كلاما بأي طريق وصل لكن لا تحققه بالمصدر وإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام فدل قوله تعالى تكليما على أن موسى قد سمع كلام الله حقيقة من غير واسطة وروى الطبري بسنده من عدة طرق عن كعب الأحبار قال لما كلم الله موسى عليه السلام كلمه بالألسنة كلها قبل كلامه يعني كلام موسى بلسانه فجعل موسى يقول يارب لا أفهم حتى كلمه بلسانه آخر الألسنة فقال يارب هكذا كلامك قال لو سمعت كلامي يعني على وجهه لم تك شيئا قال موسى يارب هل في خلقك شيء يشبه كلامك قال لا وأقرب خلقي شبها بكلامي أشد ماسمع الناس من الصواعق قال بعض العلماء كما أن الله تعالى خص موسى عليه السلام بالتكليم وشرفه به ولم يكن ذلك قادحا في نبوة غيره من الأنبياء فكذلك إنزال التوراة عليه جملة واحدة لم يكن قادحا في نبوة من أنزل عليه كتابه متفرقا من الأنبياء . قوله عز وجل (رسلا مبشرين ومنذرين) يعني «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده» ومن أولئك النبيين أرسلت رسلا إلى خلقي مبشرين من أطاعني وأتبع أمري وصدق رسلي بالثواب الجزيل في الجنة ومنذرين من عصاني وخالف أمري وكذب رسلي بالعذاب الأليم في النار وقيل هو جواب عن سؤال اليهود إنزال الكتاب جملة واحدة والمعنى أن المقصود من بعثة الرسول هو إرشاد الخلق إلى معرفة الله وتوحيده والإيمان به والاشتغال بعبادته وإنذار من خالف ذلك وهذا المقصود يحصل بإنزال الكتاب جملة واحدة وبإنزاله نجوما متفرقة بل إنزاله متفرقا أولى وذلك أن النفوس قبل بعثة الرسل وإنزال الكتب عليهم لم تكن تعرف شيئا من العبادات ولم تألفها فاذا نزل الكتاب جملة واحدة وفيه جميع التكاليف ربما حصل في بعض نفوس العباد نفور من تلك التكاليف وتثقل عليهم كما أخبر الله عن قوم موسى بقوله تعالى «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه» فلم يقبلوا أحكام التوراة إلا بعد شدة فلهذا السبب كان إنزال القرآن نجوما متفرقة أولى . وقوله تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) يعني بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب والمعنى لئلا يحتج الناس على الله في ترك التوحيد والطاعة بعدم الرسل فيقولوا ما أرسلت إلينا رسولا وما أنزلت علينا كتابا ففيه دليل على أنه لو لم يبعث الرسل لكان للناس عليه حجة

في ترك

زكريا أنا الحسن ابن حماد بن سعيد الأموي عن طلحة ابن يحيى عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال : قال لي رسول الله ﷺ لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك لقد أعطيت مزمارا من مزامير آل داود» فقال أما والله يارسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته تحبيرا وكان عمر رضي الله عنه إذا رآه يقول ذكرنا يا أبا موسى فيقرأ عنده قوله تعالى (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل) أي وكما أوحينا إلى نوح وإلى الرسل رسلا نصب بنزع حرف الصفة وقيل معناه وقصصنا عليك رسلا وفي قراءة أبي ورسل قد قصصناهم عليك من قبل (ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما) قال الفراء العرب تسمي مايوصل إلى الإنسان كلاما بأي طريق وصل ولكن لا تحققه بالمصدر فاذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقه الكلام كالإرادة يقال أراد فلان إرادة يريد حقيقة الإرادة ويقال أراد الجدار ولا يقال أراد الجدار إرادة لأنه مجاز غير حقيقة قوله تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) فيقولوا ماأرسلت إلينا رسولا وما أنزلت إلينا كتابا ، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يعذب

فى ترك التوحيد والطاعة وفيه دليل على أن الله لايعذب الخلق قبل بعثة الرسل كما قال تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» وفيه دليل لمذهب أهل السنة على أن معرفة الله تعالى لاتثبت إلا بالسمع لأن قوله «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» يدل على أن قبل بعثة الرسل تكون لهم الحجة فى ترك الطاعات والعبادات . فان قلت كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل والخلق محجوبون بما نصب من الأدلة التى النظر فيها موصل إلى معرفته ووحدانيته كما قيل :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

قلت الرسل منبهون من رقاد الغفلة والجهالة وباعثون الخلق إلى النظر فى تلك الدلائل التى تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى ومبينون لها وهم وسائط بين الله تعالى وخلقه ومبينون أحكام الله تعالى التى افترضها على عباده ومبلغون رسالته إليهم (ق) عن المغيرة بن شعبة قال قال سعد بن عبادة لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال «أتعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الجنة» لفظ البخارى وفى لفظ مسلم ولا شخص أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين . وقوله تعالى (وكان الله عزيزا) يعنى فى انتقامه ممن خالف أمره وعصى رسله (حكيما) يعنى فى إرساله الرسل قوله تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك) قال ابن عباس دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود فقال لهم «إنى والله أعلم أنكم لتعلمون أنى رسول الله» فقالوا مانعلم ذلك فأنزل الله هذه الآية وفى رواية عن ابن عباس أن رؤساء مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يامحمد إنا سألنا عنك اليهود وعن صفتك فى كتابهم فزعموا أنهم لايعرفونك فأنزل الله عزوجل لكن الله يشهد بما أنزل إليك يعنى إن جحدك هؤلاء اليهود يامحمد وكفروا بما أوحينا إليك وقالوا ماأنزل الله على بشر من شىء فقد كذبوا فيما ادعوا فان الله يشهد لك بالنبوة ويشهد بما أنزل إليك من كتابه ووحيه والمعنى أن اليهود وإن شهدوا أن القرآن لم ينزل عليك يامحمد لكن الله يشهد بأنه أنزل عليك وشهادة الله إنما عرفت بسبب أنه أنزل هذا القرآن البالغ فى الفصاحة والبلاغة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضته والإتيان بمثله فكان ذلك معجزا وإظهار المعجزة شهادة بكون المدعي صادقا لاجرم قال الله تعالى لكن الله يشهد لك يامحمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذي أنزله عليك (أنزله بعلمه) يعنى أنه تعالى لما قال لكن الله يشهد بما أنزل إليك بين صفة ذلك الإنزال وهو أنه تعالى أنزله بعلم تام وحكمة بالغة وقيل معناه أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله عليك وأنك مبلغه إلى عباده وقيل معناه أنزله بما علم من مصالح عباده فى إنزاله عليك (والملائكة يشهدون) يعنى يشهدون بأن الله أنزله عليك ويشهدون بتصديقك وإنما عرفت شهادة الملائكة لأن الله تعالى إذا شهد بشىء شهدت الملائكة بذلك الشىء وقد ثبت أن الله يشهد بأنه أنزله بعلمه فلذلك الملائكة يشهدون بذلك (وكفى بالله شهيدا) يعنى وحسبك يامحمد أن الله يشهد لك وكفى بالله شهيدا وإن لم يشهد معه أحد غيره ففيه تسلية للنبى ﷺ عن شهادة أهل الكتاب له فان الله يشهد له وملائكته كذلك . قوله عز وجل (إن الذين كفروا) يعنى جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهم اليهود (وصدوا عن سبيل الله) يعنى منعوا غيرهم عن الإيمان به بكتمان صفته

الخلق قبل بعثة الرسول قال الله تعالى «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (وكان الله عزيزا حكيما) أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف أنا محمد بن إسماعيل ثنا موسى بن إسماعيل أنا أبو عوانة أنا عبد الملك عن وراد كاتب المغيرة قال قال سعد بن عبادة رضى الله عنه : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال «أتعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ولا أحد أحب إليه العذر من الله ومن أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعد الله الجنة» قوله تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك) قال ابن عباس رضى الله عنهما «أن رؤساء مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يامحمد سألنا عنك اليهود وعن صفتك فى كتابهم فزعموا أنهم لايعرفونك ودخل عليه جماعة من اليهود فقال لهم إنى والله أعلم أنكم لتعلمن أنى رسول الله

فقالوا مانعلم ذلك والله ، فأنزل الله عزوجل «لكن الله يشهد بما أنزل الله إليك» إن جحدوك وكذبوك (أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) بكتمان نعت محمد

وإلقاء الشبهات فى قلوب الناس وهو قولهم لو كان محمد رسولا لأتى بكتاب من السماء جملة واحدة كما أتى موسى بالتوراة (قد ضلوا ضلالا بعيدا) يعنى عن طريق الهدى (إن الذين كفروا وظلموا) يعنى كفروا بالله وظلموا محمدا صلى الله عليه وسلم بكتمان صفته وظلموا غيرهم بالقاء الشبهة فى قلوبهم (لم يكن الله ليغفر لهم) يعنى لمن علم منهم أنهم يموتون على الكفر وقيل معناه لم يكن الله ليستر عليهم قبائح أفعالهم بل يفضحهم فى الدنيا ويعاقبهم عليها بالقتل والسبى والجلاء فى الآخرة بالنار وهو قوله تعالى (ولا ليهديهم طريقا) يعنى ينجون فيه من النار وقيل ولا ليهديهم طريقا إلى الإسلام لأنه قد سبق فى علمه أنهم لا يؤمنون (إلا طريق جهنم) يعنى لكنه تعالى يهديهم إلى طريق يؤدى إلى جهنم وهى اليهودية لما سبق فى علمه أنهم أهل لذلك (خالدين فيها) يعنى فى جهنم (أبدا وكان ذلك على الله يسيرا) يعنى هينا. قوله عز وجل (يا أيها الناس) هذا خطاب عام يدخل فيه جميع الكفار من اليهود والنصارى وعبادة الأصنام وغيرهم وقيل هو خطاب لمشركى العرب (قد جاءكم الرسول) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (بالحق) يعنى بدين الإسلام الذى ارتضاه الله لعباده وقيل جاء بالقرآن الذى هو الحق (من ربكم) يعنى من عند ربكم (فآمنوا خيرا لكم) يعنى فآمنوا بما جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم يكن الإيمان بذلك خيرا لكم يعنى من الكفر الذى أنتم عليه (وإن تكفروا) يعنى وأن تجحدوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتكذبوا بما جاءكم من الحق من ربكم (فان لله مافى السموات والأرض) يعنى فان الله هو الغنى عن إيمانكم لأن له مافى السموات والأرض ملكا وعبيدا ومن كان كذلك لم يكن محتاجا إلى شىء وأنه قادر على من يشاء (وكان الله عليما) يعنى بما يكون منكم. لا يخفى عليه شىء من أعمال عباده فيجزى كل عامل بعمله (حكيما) يعنى فى تكليفكم مع علمه بما يكون منكم. قوله عز وجل (يا أهل الكتاب) نزلت هذه الآية فى النصارى وذلك أن الله تعالى لما أجاب عن شبه اليهود فيما تقدم من الآية اتبع ذلك بابطال ما تعتقده النصارى وأصناف النصارى أربعة: اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقوسية، فأما اليعقوبية والملكانية فقالوا فى عيسى أنه الله وقالت النسطورية إنه ابن الله وقالت المرقوسية ثالث ثلاثة وقيل إنهم يقولون إن عيسى جوهر واحد ثلاثة أقانيم أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس وأنهم يريدون بأقنوم الأب الذات وبأقنوم الابن عيسى وبأقنوم روح القدس الحياة الحالة فيه فتقديره عندهم الإله ثلاثة، وقيل إنهم يقولون فى عيسى ناسوتية وألوهية فناسوتيته من قبل الأم وألوهيته من قبل الأب تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا يقال إن الذى أظهر هذا للنصارى رجل من اليهود يقال له بولص تنصر ودس هذا فى دين النصارى ليضلهم بذلك وستأتى قصته فى سورة التوبة إن شاء الله تعالى وقيل يحتمل أن يكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى جميعا فانهم غلوا فى أمر عيسى عليه السلام. فأما اليهود فانهم بالغوا فى التقصير فى أمره حتى حطوه عن منزلته حيث جعلوه مولودا لغير رشدة وغلت النصارى فى رفع عيسى عن منزلته ومقداره حيث جعلوه إلها فقال الله تعالى ردا عليهم جميعا يا أهل الكتاب (لا تغلوا فى دينكم) وأصل الغلو مجاوزة الحد وهو فى الدين حرام والمعنى لا تفرطوا فى أمر عيسى ولا تحطوه عن منزلته ولا ترفعوه فوق قدره ومنزلته (ولا تقولوا على الله إلا الحق) يعنى لا تقولوا إن له شريكا وولدا وقيل معناه لا تصفوه

صلى الله عليه وسلم (قد ضلوا ضلالا بعيدا إن الذين كفروا وظلموا) قيل إنما قال وظلموا اتبع ظلمهم بكفرهم تأكيدا وقيل معناه كفروا بالله وظلموا محمدا ﷺ بكتمان نعته (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا) يعنى دين الإسلام (إلا طريق جهنم) يعنى اليهودية (خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا) وهذا فى حق من سبق حكمه فيهم أنهم لا يؤمنون (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم) تقديره فآمنوا يكن الإيمان خيرا لكم (وإن تكفروا فان لله مافى السموات والأرض وكان الله عليما حكيما يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم) نزلت فى النصارى وهم أصناف أربعة: اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقسية فقالت اليعقوبية عيسى هو الله وكذلك الملكانية وقالت النسطورية عيسى هو ابن الله وقالت المرقوسية ثالث ثلاثة فأنزل الله تعالى هذه الآية ويقال الملكانية يقولون عيسى هو الله واليعقوبية يقولون ابن الله والنسطورية يقولون ثالث ثلاثة علمهم رجل من اليهود يقال له بولص سيأتى فى سورة التوبة إن شاء الله تعالى وقال الحسن يجوز أن تكون نزلت فى اليهود والنصارى فانهم جميعا غلوا فى أمر عيسى فاليهود بالتقصير والنصارى بمجاوزة الحد وأصل الغلو مجاوزة الحد وهو فى الدين حرام قال الله تعالى (لا تغلوا فى دينكم) لا تشددوا فى دينكم فتفتروا على الله الكذب (ولا تقولوا على الله إلا الحق) (لا تقولوا أن له شريكا وولدا

بالحلول

(إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته) وهى قوله «كن فكان» بشرا من غير أب وقيل غيره (ألقاها إلى مريم) أى أعلمها وأخبرها بها كما يقال ألقيت إليك كلمة حسنة (وروح منه) قيل هو روح كسائر الأرواح ، إلا أن الله تعالى أضافه إلى نفسه تشريفا وقيل الروح هو النفخ الذى نفخه جبريل عليه السلام فى درع مريم فحملته باذن الله تعالى سمى النفخ روحا لأنه ريح يخرج من الروح وأضافه إلى نفسه لأنه كان بأمره وقيل روح منه أى ورحمة فكان عيسى عليه السلام رحمة لمن تبعه وآمن به وقيل الروح الوحى أوحى إلى مريم بالبشارة وإلى جبريل عليه السلام إن كن فكان ، كما قال الله تعالى «ينزل الملائكة بالروح من أمره» يعنى بالوحى وقيل أراد بالروح جبريل عليه السلام معناه كلمته ألقاها إلى مريم وألقاها أيضا «روح منه» بأمره وهو جبريل عليه السلام كما قال تنزل الملائكة والروح يعنى جبريل فيها وقال فأرسلنا إليها روحنا يعنى جبريل أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحى أنا أحمد بن عبد الله النعيمى أنا محمد ابن يوسف أخبرنا محمد ابن إسماعيل أنا صدقة بن الفضل ، أنا الوليد عن الأوزاعى حدثنا عمرو ابن هانى حدثنى جنادة بن أمية عن عبادة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من شهد لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الجنة على ما كان من العمل» (فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة) أى ولا تقولوا هم ثلاثة وكانت النصارى تقول أب وابن وروح القدس (انتهوا خيرا لكم) تقديره انتهوا يكن الانتهاء خيرا لكم (إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد) واعلم أن التبنى لا يجوز لله تعالى لأن التبنى إنما يجوز لمن يتصور له ولد (له ما فى السموات وما فى الأرض

بالحلول والاتحاد فى بدن الإنسان ونزهوا الله تعالى عن ذلك ، ولما منعهم الله من الغلو فى دينهم أرشدهم إلى طريق الحق فى أمر عيسى عليه السلام فقال تعالى (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله) يقول إنما المسيح هو عيسى بن مريم ليس له نسب غير هذا وأنه رسول الله فمن زعم غير هذا فقد كفر وأشرك (وكلمته) هى قوله تعالى كن فكان بشرا من غير أب ولا واسطة (ألقاها إلى مريم) يعنى أوصلها إلى مريم (وروح منه) يعنى أنه كسائر الأرواح التى خلقها الله تعالى وإنما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم كما يقال بيت الله وناقة الله وهذه نعمة من الله يعنى أنه تفضل بها وقيل الروح هو الذى نفخ فيه جبريل فى جيب درع مريم فحملت باذن الله . وإنما أضافه إلى نفسه بقوله منه لأنه وجد بأمر الله قال بعض المفسرين إن الله تعالى لما خلق أرواح البشر جعلها فى صلب آدم عليه السلام وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام فلما أراد الله أن يخلقه أرسل بروحه مع جبريل إلى مريم فنفخ فى جيب درعها فحملت بعيسى عليه السلام وقيل إن الروح والريح متقاربان فى كلام العرب فالروح عبارة عن نفخ جبريل عليه السلام وقوله منه يعنى إن ذلك النفخ كان بأمره وإذنه وقيل أدخل النكرة فى قوله وروح على سبيل التعظيم والمعنى روح وأى روح من الأرواح القدسية العالية المطهرة وقوله منه إضافته تلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتكريم (ق) عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» . وقوله تعالى (فآمنوا بالله ورسله) يعنى فصدقوا يا أهل الكتاب بوحدانية الله وأنه لا ولد له وصدقوا رسله فيما جاءكم به من عند الله وصدقوا بأن عيسى عليه السلام من رسل الله فآمنوا به ولا تجعلوه إله وقوله تعالى (ولا تقولوا ثلاثة) يعنى ولا تقولوا الآلهة ثلاثة وذلك أن النصارى يقولون أب وابن وروح القدس وقيل إنهم يقولون إن الله بالجوهر ثلاثة أقانيم وذلك أنهم أثبتوا ذاتا موصوفة بصفات ثلاثة بدليل أنهم يجوزون على تلك الذات الحلول فى عيسى وفى مريم فأثبتوا ذواتا متعددة ثلاثة وهذا هو محض الكفر . فلهذا قال الله تعالى ولا تقولوا ثلاثة (انتهوا خيرا لكم) يعنى يكون الانتهاء عن هذا القول خيرا لكم من القول بالتثليث ثم نزه الله تعالى نفسه عن قول النصارى بالتثليث فقال تعالى (إنما الله إله واحد) ثم نزه نفسه عن الولد فقال (سبحانه أن يكون له ولد) يعنى لا ينبغى أن يكون له ولد لأن الولد جزء من الأب وتعالى الله عن التجزئة ، وعن صفات الحدوث (له ما فى السموات وما فى الأرض) يعنى أنه تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهما عبيده وملكه وعيسى ومريم من جملة من فيهما فهما عبيده وملكه فاذا كانا عبدين له فكيف يعقل مع هذا أن له ولدا أو زوجة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا؟ وهذا بيان لتنزيهه مما نسب إليه

وكفى بالله وكيلا) قوله تعالى (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله) وذلك أن وفد نجران قالوا يامحمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله ورسوله

فقال النبى صلى الله عليه وسلم أنه ليس بعار لعيسى عليه السلام أن يكون عبدالله فنزل لن يستنكف المسيح لن يأنف ولن يتعظم والاستنكاف التكبر مع الأنفة (ولا الملائكة المقربون) وهم حملة العرش لايأنفون أن يكونوا عبيد الله ويستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة عن البشر لأن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة ولا يرتقى إلا إلى الأعلى لا يقال لايستنكف فلان من كذا ولاعبده إنما يقال فلان لا يستنكف من هذا ولامولاه ولا حجة لهم فيه لأنه لم يقل ذلك رفعا لمقامهم على مقام البشر بل ردا على الذين يقولون الملائكة آلهة كما رد على النصارى قولهم المسيح ابن الله وقال ردا على النصارى بزعمهم فانهم يقولون بتفضيل الملائكة قوله تعالى (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) قيل الاستنكاف هو التكبر مع الأنفة والاستكبار هو العلو والتكبر من غير أنفة (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) من تضعيف مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وأما الذين استنكفوا واستكبروا) عن عبادته (فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) قوله عز وجل

من الولد والمعنى أن جميع مافى السموات والأرض خلقه وملكه فكيف يكون بعض ملكه جزء منه؟ لأن التجزئة إنما تصح فى الأجسام والله تعالى منزه عن صفات الأعراض والأجسام (وكفى بالله وكيلا) يعنى أنه تعالى كاف فى تدبير جميع خلقه فلاحاجة له إلى غيره وكل الخلق محتاجون إليه وفقراء إليه وهو غنى عنهم . وقوله تعالى (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله) وذلك أن وفد نجران قالوا يامحمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبد الله فنزلت لن يستنكف المسيح يعنى لن يأنف ولن يتعظم والاستنكاف الاستكبار مع الأنفة يقال نكفت من كذا واستنكفت منه أى أنفت منه وأصله من نكفت الشىء نحيته ونكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك من خدك والمعنى لن ينقبض ولن يمتنع ولن يأنف المسيح أن يكون عبد الله (ولا الملائكة المقربون) يعنى ولن يستنكف الملائكة المقربون وهم حملة العرش والكروبيون وأفاضل الملائكة مثل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل أن يكونوا عبيد الله لأنهم فى ملكه ومن جملة خلقه وقيل لما ادعت النصارى فى عيسى أنه ابن الله وذلك لما رأوا منه خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من المعجزات أجاب الله تعالى عن هذه الشبهات التى وقعت للنصارى بأن عيسى من شرف قدره وكرامته لن يستنكف أن يكون عبداً لله وكذلك الملائكة المقربون فانهم مع كرامتهم وعلو منزلتهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله وقد يستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة على البشر ووجه الدليل أن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة ولا يرتقى إلا من الأدنى إلى الأعلى ولا حجة لهم فيه والجواب عنه أن الله تعالى لم يقل ذلك رفعا لمقامهم على مقام البشر بل قاله ردا على من يقول إن الملائكة بنات الله أو أنهم آلهة كما رد على النصارى قولهم إن المسيح ابن الله وقاله أيضا ردا على النصارى فانهم يقولون بتفضيل الملائكة يعنى كما أن المسيح عبد الله فكذلك الملائكة عبيد الله . وقوله تعالى (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر) يعنى ومن يتعظم عن عبادة الله ويأنف من التذلل لله والخضوع والطاعات من جميع خلقه (فسيحشرهم إليه جميعا) يعنى فسيبعثهم يوم القيامة لموعدهم الذى وعدهم حيث لايملكون لأنفسهم شيئا (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) يعنى يوفيهم جزاء أعمالهم الصالحة (ويزيدهم من فضله) يعنى ويزيدهم على ماأعطاهم من الثواب على أعمالهم الصالحة من التضعيف على ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وأما الذين استنكفوا واستكبروا) يعنى الذين أنفوا وتكبروا عن عبادة الله تعالى (فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله) يعنى من سوى الله لأنفسهم (وليا) يعنى ينجيهم من عذابه (ولانصيرا) يعنى ولا ناصرا ينصرهم منه ، ويدفع عنهم عقوبته بقى فى الآية سؤال وهو أن التفصيل غير مطابق للمفصل لأن التفصيل اشتمل على ذكر فريقين : وهو قوله «فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فيوفيهم أجورهم وأما الذين استنكفوا واستكبروا» والمفصل اشتمل على ذكر فريق واحد وهو قوله «ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر» والجواب أنه لاإشكال فيه فهو مثل قولك جمع الإمام الخوارج فمن لم يخرج عليه كساه وحمله ومن خرج عليه نكل به ، وصحة ذلك لوجهين : أحدهما أنه حذف ذكر أحد الفريقين لدلالة

التفصيل عليه لأن ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني، والوجه الثاني أن الإحسان إلى غيرهم مما يغمهم فكان داخلا فى جملة التنكيل بهم فكأنه قال ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيعذبهم بالحسرة والغم إذا رأوا أجور المطيعين العاملين لله تعالى. قوله عز وجل (يا أيها الناس) خطاب للكافة (قد جاءكم برهان من ربكم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم وما جاء به من البينات من ربه عز وجل وإنما سماه برهانا لما معه من المعجزات الباهرات التى تشهد بصدقه ولأن للبرهان دليل على إقامة الحق وإبطال الباطل والنبى صلى الله عليه وسلم كان كذلك ولأنه تعالى جعله حجة قاطعة قطع به عذر جميع الخلائق (وأنزلنا إليكم نورا مبينا) يعنى القرآن وإنما سماه نورا لأن به تتبين الأحكام كما تتبين الأشياء بالنور بعد الظلام ولأنه سبب لوقوع نور الإيمان فى القلب فسماه نورا لهذا المعنى (فأما الذين آمنوا بالله) يعنى صدقوا بوحدانية الله وبما أرسل من رسول وأنزل من كتاب (واعتصموا به) يعنى بالله فى أن يثبتهم على الإيمان ويصونهم عن زيغ الشيطان، وقيل فى معنى واعتصموا به أى وتمسكوا بالنور وهو القرآن الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ (فسيدخلهم فى رحمة منه) يعنى فسيدخلهم فى رحمته التى ينجيهم بها من أليم عذابه قال ابن عباس الرحمة الجنة (وفضل) يعنى ما يتفضل به عليهم بعد إدخالهم الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (ويهديهم إليه صراطا مستقيما) يعنى ويوفقهم لإصابة فضله الذى تفضل به عليهم ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته ويرشدهم لدينه الذى ارتضاه لعباده وهو دين الإسلام. قوله تعالى (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) نزلت فى جابر بن عبد الله الأنصارى (ق) عن جابر ابن عبد الله قال مرضت فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يعودانى ماشيين فأغمى على فتوضأ النبى صلى الله عليه وسلم ثم صب على من وضوئه فأفقت فاذا النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله كيف أصنع في مالى؟ كيف أقضى فى مالى؟ فلم يرد على شيئا حتى نزلت آية الميراث «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» وفى رواية فقلت يارسول الله إنما يرثنى كلالة فنزلت آية الميراث قال شعبة فقلت لمحمد بن المنكدر يستفتونك «قل الله يفتيكم فى الكلالة» قال هكذا نزلت وفى رواية للترمذى وكان لى تسع أخوات حتى نزلت آية الميراث «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» ولأبى داود قال اشتكيت وعندى سبع أخوات فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفخ فى وجهى فأفقت فقلت يارسول الله ألا أوصى لأخواتى بالثلثين؟ قال أحسن قلت بالشطر؟ قال أحسن ثم خرج وتركنى فقال ياجابر لا أراك ميتا من وجعك هذا وإن الله قد أنزل فبين الذى لأخواتك فجعل لهن الثلثين قال فكان جابر يقول أنزلت هذه الآية فى «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» وروى الطبرى عن قتادة أن الصحابة أهمهم شأن الكلالة فسألوا عنها نبى الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية وروى عن ابن سيرين قال نزلت «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» والنبى صلى الله عليه وسلم فى مسير له وإلى جنبه حذيفة بن اليمان فبلغها النبى صلى الله عليه وسلم حذيفة وبلغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير خلفه فلما استخلف عمر سأل حذيفة عنها ورجا أن يكون عنده تفسيرها فقال له حذيفة والله لأنك لعاجز إن ظننت إن إمارتك تحملنى أن أحدثك فيها مالم أحدثك يومئذ فقال عمر لم أرد هذا رحمك الله. وأما التفسير فقوله تعالى يستفتونك يعنى يسألونك ويستخبرونك عن معنى الكلالة يامحمد قل الله يفتيكم فى الكلالة يعنى أن الله هو يخبركم عما سألتم عنه من أمر

(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم هذا قول أكثر المفسرين وقيل هو القرآن والبرهان والحجة (وأنزلنا إليكم نورا مبينا) بينا يعنى القرآن (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به) امتنعوا به من زيغ الشيطان (فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل) يعنى الجنة (ويهديهم إليه صراطا مستقيما) قوله تعالى (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) نزلت في جابر ابن عبد الله رضى الله عنه قال عادنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل، وتوضأ وصب على من وضوئه فعقلت فقلت يارسول الله لمن الميراث؟ إنما يرثنى كلالة فنزلت يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة وقد ذكر معنى الكلالة وحكم الآية فى أول السورة وفى هذه الآية بيان حكم ميراث الأخوة للأب والأم وللأب قوله يستفتونك أى يستخبرونك ويسألونك

قل الله يفتيكم فى الكلالة (إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك وهو يرثها) يعنى إذا ماتت الأخت فجميع ميراثها للأخ (إن لم يكن لها ولد) فان كان لها ابن فلا شيء للأخ وإن كان ولدها أنثى فللأخ مافضل عن فرض البنات (فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) (٦٣٠) أراد اثنتين فصاعدا وهو إن من مات وله أخوات فلهن الثلثان (وإن كانوا أخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين (يبين الله لكم أن تضلوا) قال الفراء رحمة الله عليه وأبو عبيدة معناه أن لاتضلوا وقيل معناه يبين الله لكم كراهة أن تضلوا (والله بكل شيء عليم) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد ابن يوسف أنا محمد ابن إسماعيل أنا عبد الله بن رجاء أنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضى الله عنهم قال ، آخر سورة نزلت كاملة براءة وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» وروي عن ابن عباس رضى الله عنهما أن آخر آية نزلت آية الربا وآخر سورة نزلت إذا جاء نصر الله والفتح وروى عنه أن آخر آية نزلت قوله تعالى «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» وروى بعد ما نزلت سورة النصر عاش النبي صلى الله عليه وسلم عاما ، ونزلت بعدها سورة براءة وهى آخر سورة نزلت كاملة فعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ستة أشهر ثم نزلت فى طريق حجة الوداع «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» فسميت آية الصيف ثم نزلت وهو واقف بعرفة «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى» فعاش

الكلالة وقد تقدم في أول السورة الكلام على معنى الكلالة من حيث الاشتقاق وغيره وأن اسم الكلالة يقع على الوارث وعلى الموروث فان وقع على الوارث فهم من سوى الوالد والولد وإن وقع على الموروث فهو من مات ولا يرثه أحد الأبوين ولا أحد الأولاد . قوله تعالى (إن امرؤ هلك) يعنى مات سمي الموت هلاكا لأنه إعدام فى الحقيقة (ليس له ولد) يعنى ولا والد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر ويدل على المحذوف أن السؤال فى الفتيا إنما كان فى الكلالة وقد تقدم أن الكلالة من ليس له ولد ولا والد (وله أخت) يعنى ولذلك الهالك أخت وأراد بالأخت من أبيه وأمه أو من أبيه (فلها نصف ماترك) يعنى فللأخت الميت نصف تركته وهو فرضها إذا انفردت وباقى المال لبيت المال إذا لم يكن للميت عصبة وهذا مذهب زيد بن ثابت وبه قال الشافعي وعند أبي حنيفة وأهل العراق يرد الباقى عليها فاذا كان للميت بنت أخذت النصف بالفرض وتأخذ الأخت النصف الباقي بالتعصيب لا بالفرض لأن الأخوات مع البنات عصبة . وقوله تعالى (وهو يرثها إن لم يكن له ولد) يعنى أن الأخ إذا ماتت وتركت أخا من الأب والأم أو من الأب فانه يستغرق جميع ميراث الأخت إذا انفرد ولم يكن للأخت ولد وهذا أصل فى جميع العصبات واستغراقهم جميع المال ، فأما الأخ من الأم فانه صاحب فرض لايستغرق جميع المال وقد تقدم بيانه (فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) أراد بنتين فصاعدا وهو أن من مات وترك أختين أو أخوات فلهن الثلثان مما ترك الميت (وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) يعنى وإن كان المتروكون من الإخوة رجالا ونساء فللذكر منهم نصيب اثنتين من إخوة الإناث (يبين الله لكم أن تضلوا) يعنى يبين الله لكم هذه الفرائض والأحكام لئلا تضلوا وقيل معناه كراهية أن تضلوا وقيل يبن الله الضلالة لتجتنبوها (والله بكل شيء عليم) يعنى من مصالح عباده التى حكم بها من قسمة المواريث وبيان الأحكام وغير ذلك لأن علمه محيط بكل شيء (ق) عن البراء ابن عازب رضى الله عنه قال إن آخر سورة نزلت تامة سورة التوبة وإن آخر آية نزلت آية الكلالة وفى رواية لمسلم قال آخر آية نزلت يستفتونك وروى عن ابن عباس أن آخر آية نزلت آية الربا وآخر سورة نزلت إذا جاء نصر الله والفتح وروى عنه أن آخر آية نزلت «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزول سورة النصر سنة ونزلت بعدها سورة براءة وهى آخر سورة نزلت كاملة فعاش بعدها ستة أشهر هكذا ذكره البغوى وفيه نظر لأنه قد ثبت فى الصحيحين من حديث أبي بكر الصديق رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه فى الحجة التى أمره عليها قبل حجة الوداع فى رهط يؤذن فى الناس يوم النحر ألا لايحج بعد العام مشرك

مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ثم أردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلى بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فأذن معنا فى أهل منى ببراءة ألا لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان وكانت حجة أبى بكر هذه سنة تسع قبل حجة الوداع بسنة قال البغوى ثم نزلت فى طريق حجة الوداع «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» فسميت آية الصيف ثم نزلت وهو واقف بعرفة «اليوم أكملت لكم دينكم» فعاش بعدها أحدا وثمانين يوما ثم نزلت آية الربا ثم نزلت «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» عاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وعشرين يوما وهذا آخر تفسير سورة النساء والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

بعدها أحدا وثمانين يوما ثم نزلت آيات الربا ثم نزلت «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله» فعاش بعدها أحدا وعشرين يوما .

تم الجزء الأول من تفسير الخازن

ويليه الجزء الثانى

وأوله : تفسير سورة المائدة

فهرست الجزء الأول

من تفسير القرآن العظيم للإمام على بن محمد المعروف بالخازن

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست الجزء الأول

من كتاب معالم التنزيل لمحيي السنة أبي محمد الحسين الفراء البغوى
(الذى بهامش الخازن)

صفحة

(تمت)

